«لقد أعطى فِرْجسن وادي السّليكون درسًا تاريخيًا كان يحتاج إليه»

إريك شميت الرئيس التنفيذي لـ Alphabet/Google




نِيَل فِرْجسن



# السّاحة والبُرْج

الشَّبكات والسُّلْطة من الماسونيين الأحرار إلى فيسبوك




ترجمة: حسام نايل

مكتبة

Telegram Network

«المكتبة النصية»

قام بتحويل كتاب:

(الساحة والبرج)

ل «نِيَل فِرجسن»

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

من مصر:

الاستاذة /«ماجدة»

# الساحة والبرج

## الشبكات والسلطة من الماسونيين الأحرار إلى فيسبوك


## نِيَل فِرجسن

**ترجمة**

**حسام نايل**


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

# إشارات المترجم

## 1

ما الذي يحدث حين تُهاجِمُ شَبَكةٌ نظامًا هَرَميًّا؟

يسعى هذا الكتاب - الصادر في طبعته الإنجليزية الأولى يناير 2018 - إلى إيجاد طريق وسط بين التيار السائد في علم التأريخ المائل إلى التقليل من دور الشبكات، وبين مُنظِّري المؤامرة المعتادين على المبالغة في دور الشبكات.

فيقترح روايةً تاريخية جديدة، يمكن من خلالها فَهْمُ التغيُّرات الرئيسية الكبرى بوصفها تحدياتٍ مُدمِّرة طرحتها الشبكاتُ networks على التسلسلات الهَرَميَّة hierarchies القائمة.

كما يتحدَّى الكتابُ أيضًا الفرضيات الواثقة لدى بعض المُنظِّرين اليوم القائلة بوجود فائدة إيجابية أصيلة في تدمير الشَّبَكة للنظام الهَرَمي.

لذا، ينشغل المؤرِّخُ البريطاني نِيَل فِرْجسن بالسؤال الرئيسي الآتي:

ما حجم التهديد الذي تُلْحِقه شبكةُ التعقيد الاقتصادي والمالي والتكنولوجي، الراهنة، بأنظمة الحُكْم القومية الهَرَميَّة، عند مقارنته بالتهديد الذي ألحقته مؤخرًا شبكاتُ التعقيد السياسي بالأنظمة السياسية القومية الهَرَميَّة عام 2011 في الشرق الأوسط، وعام 2014 في أوكرانيا، وعام 2015 في البرازيل، وعام 2016 في بريطانيا وأمريكا؟ أو بصياغة أخرى: هل يمكن للعالَم الشَّبَكي أن يُقدِّمَ بديلاً عن النظام الهَرَميّ؟

(كما وَرَدَ في نهاية الفصل 57).

وللإجابة عن هذا السؤال، يلجأ نِيَل فِرْجسن إلى تطبيق نظرية الشبكة بتحليلاتها الجديدة، على نطاق تاريخي واسع يمتد من أوائل القرن السادس عشر حتى تدخُّل الاستخبارات الروسية عبر وسائط الشبكة الإلكترونية في الانتخابات الأمريكية عام 2016؛ مُسْتقصيًا العلاقةَ بين البراديم الشَّبَكي والبراديم الهَرَمي، بكل ما يشوبها من لحظاتِ توترٍ صراعي أو تكافلي، فيتنقل بين شبكة التنظيمات السرِّية في زمن الإمبراطورية الألمانية، وشبكات الإصلاح والتنوير والمحافل الماسونية والاستكشاف وصعود شبكات المال في أوربا، حتى يصل إلى الشبكات المالية والاقتصادية الراهنة وشبكات تكنولوجيا المعلومات الجديدة، فيُراوِح بين شبكات الإرهاب والتخابر البشري والإلكتروني، وأخيرًا شبكات الهجوم الإلكتروني التي باتت على أُهْبَة الاستعداد في الصين والولايات المتحدة الأمريكية الآن.

وسيلحظ القارئ أن فكرة نِيَل فِرْجسن اللامعة تكمن في أن التوترَ بين الشبكات المُوزَّعة والنُّظُم الهَرَميَّة المُرَكَّزة قديمٌ قدم البشرية نفسها. فالتوترُ بينهما قائمٌ بغضِّ النظر عن حالة التكنولوجيا، وإن أثَّرت التكنولوجيا في أيِّهما له اليد العليا. لذا، من المحتمل بدرجة كبيرة أن تمتد أهمية عمل فِرْجُسن إلى ثلاثة عقود

قادمة في أقل تقدير، هذا إنْ لم تقع كارثةٌ كبرى تذهب بالجميع.

ولعل أهمية الكتاب لنوعيَّات مختلفة من القرَّاء في مجالات عديدة هي التي فَرَضَتْ عليَّ التوسُّعَ في إضافة هوامش إيضاحية وشارحة أسفل الصفحة حتى تتيسر متابعة القراءة دون استشكال. وأما بخصوص متن الترجمة أو هوامش المؤلف أسفل كل صفحة، فوَضعتُ تدخُّلي فيهما بين معقوفين هكذا [ ]، وكلُّ ما هو بدون اقواس فهو للمؤلف.

واللّٰهُ وَليُّ التوفيق.

**حسام فتحي نايل القاهرة،**

**ديسمبر 2018**

# ١

# القسم الأول

# الشَّبكات والتسلسلات الهَرَميّة

## 1
## سِرّيةُ المُتنوِّرين وغموضُهم

ذاتَ يومٍ، قبل قرنين ونصف تقريبًا، وُجِدَتْ شَبَكَةٌ سِرّيةٌ secret network حاولتْ تغييرَ العالَم. تأسَّسَ هذا التنظيم organization في ألمانيا قبل شهرين فقط من إعلان ثلاث عشرة مستعمرة أمريكية استقلالها عن بريطانيا[1]، وعُرِفَ باسم المُتنوِّرين Illuminatenorden: نظام المُتنوِّرين the order of Illuminati.

أهدافُ التنظيم سامِيةٌ نبيلة. وأطلَق عليه مؤسِّسُه، في البداية، اسمَ Bund der Perfektibilisten، [جَامِعة أو عُصْبَة الواصلين إلى الكمال] (the League of the Perfectibles). وكما يذكر أحدُ أعضاء التنظيم قَوْلَ مُؤسِّسه، الهدفُ منه أن يكون:

جَمْعيَّةً association غايتُها نَصْرُ الفضيلة والحِكْمة على الغَبَاوة والخُبْث بأبرع الأساليب وأحْكَمِها تأمينًا؛ جَمْعيَّة ستقوم بأهم الاكتشافات في كل مجالات العِلْم، وستُعلِّمُ أعضاءَها ليصيروا نُبَلاء وعُظَمَاء، وستضمن لهم يقينَ الفَوْز بكمالهم في هذا العالَم، كما ستحميهم من الاضطهاد والمصائر الكارثية والظُّلْم، وستُكبِّلُ أيدي الاستبداد والطُّغيان [الحُكْم المُطلق] despotism بجميع أشكاله[2].

هدفُ التنظيم النهائي «تنويرُ الفَهْم بوَسَاطة شمس العقل التي ستُبدِّدُ غيومَ الخرافة والتحيُّز». وقد أعلن مؤسِّسُه قائلاً: «غايتي إعطاء العقل اليد العليا»[3].

أساليبُ التنظيم، في وجهٍ من وجوهها، تعليميةٌ. ف«هدفُ العُصْبة league الوحيد هو التعليم، لا بوسائل خطابية انفعالية بل بمساندة الفضيلة ومكافأتها»، كما وَرَدَ في قوانينها العام 1781 (General Statutes)[4]. وفوق ذلك، كان المُتنوِّرون [إلِوميناتي] يعملون بوصفهم أَخَوِيَّة سِرِّية secret fraternity صارمة.

فتَسمَّى الأعضاءُ بأسماء شفرية [كُوْديَّة]، ذات أصل يوناني أو روماني قديم غالبًا: المؤسِّسُ نفسُه تَسَمَّى ب«الأخ سبارتاكوس» Brother Spartacus. وكان يوجد ثلاثُ رُتَبٍ أو درجاتُ عضويةٍ: مُبتدِئ Novice، ومنيرفال[5] Minerval، ومنيرفال مُتنوِّر Illuminated Minerval. ولا تَعرف الرُّتَبُ الأدنى في التنظيم سوى فكرة غامضة عن أساليبه وأهدافه [الكبرى]. ابتكر التنظيمُ طقوسَ تلقينٍ دقيقة للوافدين الجُدُدِ إليه، من بينها حَلْفُ اليمين على السِّرِّية، ومَن يَحْنَثُ بيَمِينه يموت بأبشع طريقة. وكلُّ خليَّةِ مبتدئين معزولةٍ تُقدِّمُ تقريرًا للأعلى رُتَبة، دون أن يعرف أفرادُها هُويَّتَه الحقيقية.

في البداية، كان المُتنوِّرون قليلي العدد. لم يكونوا سوى بضعة أعضاء مُؤسِّسين، معظمُهم طَلَبَةٌ[6]. ثم بعد عامين من تأسيس التنظيم، بلغ إجمالي العضوية خمسة وعشرين عضوًا فقط. ومع أواخر ديسمبر عام 1779، زاد أعضاؤه إلى ستين عضوًا. ثم ارتفعت العضوية في خلال بضع سنين إلى أكثر من 1,300 عضو[7].

اقتصر التنظيم، في أيامه الأولى، على [مُدن] إنجولشتات Ingolstadt وآيشتيت Ei وفرايزنج Freising، بالإضافة إلى بضعة أعضاء في ميونيخ[8] Munich[9]. ثم امتدت شبكة المُتنوِّرين، مع بواكير ثمانينيات القرن الثامن عشر، لتشمل أنحاء كثيرة في ألمانيا. الأكثر من هذا، انضمامُ قائمة مثيرة من الأمراء الألمان إلى التنظيم: فيرديناند Ferdinand أمير برونزويك - لينبُرْج - فولفينبُتِل Brunswick - Lüneburg - Wolfenbüttel؛ تشارلز Charles أمير هيسَّه كاسيل Hesse - Cassel؛ إرنست الثاني Ernest II دوق زاكس - كوبورج - ألتنبرج Saxe - Coburg - Altenburg؛ تشارلز أوجُسْت Charles August دوق زاكس - فايمار - أيْزناخ Saxe - Weimar - Eisenach الأكبر[10]؛ بالإضافة إلى عشرات النبلاء من أمثال: فرانس فريدريك فون ديتفورت Franz Friedrich von Ditfurth؛ رجل الدين في رِينِلاند Rhineland، الصاعد نَجْمُه، كارل تيودور فون دالبيرج Carl Theodor von Dalberg[11].

والمُتنوِّرون الأرفع مكانةً الذين عملوا بوصفهم مُرْشِدين ومستشارين، كانوا أعضاء آخرين في التنظيم[12].

المثقفون أيضًا صاروا مُتنوِّرين، ولا سيما مُتعدِّد المعارف يوهان فولفجانج جوته Johann Wolfgang Goethe، والفيلسوفين: يوهان جوتفريد هيردر Johann Gottfried Herder وفريدريك هاينريك ياكوبي Friedrich Heinrich Jacobi، والمترجم يوهان يوآخيم كريستوف بوده Johann Joachim Christoph Bode، والتربوي السويسري يوهان هاينريك بيستالوتسي[13] Johann Heinrich Pestalozzi.

ورغم عدم انضمام الكاتب المسرحي فريدريك شيلر Friedrich Schiller إلى التنظيم، فقد رَسَمَ شخصية بوزا Posa الثوري الجمهوري في مسرحيته «دون كارلوس»[14] (Don Carlos (1787، مستلهمًا عضوًا قياديًا في تنظيم المتنوِّرين[15]. وأحيانًا، يُلْتَمَسُ تأثير التَّنَوُّرِيَّة [إلِومينيزم][16] illuminism في أوبرا فولفجانج أماديوس موتسارت Wolfgang Amadeus

Mozart «الناي السحري» (1791 The Magic Flute)[17] .

ولكن، في يونيو عام 1784، أصدرت الحكومة البافارية Bavarian government أولَ ثلاثة مراسيم تحظر فيها، بلهجة متشدِّدة، [تنظيم] المُتنوِّرين مُتّهمةً إياهم بأنهم «خائنون ومُعادون للدين»[18]. [وعلى الفور]، بدأت لجنة تحقيق في تطهير الأكاديمية والجهاز الإداري من أعضاء التنظيم. فَرَّ البعضُ من بافاريا[19] Bavaria، وآخرون فقدوا وظائفَهم أو نُفُوا، وسُجِنَ اثنان على الأقل. المؤسِّسُ نفسُه سعى إلى اللجوء إلى جوتا[20] Gotha.

وأما عن مقاصد المُتنوِّرين وأهدافهم، فتوقفوا عن العمل من أجلها بحلول نهاية عام 1787. ورغم ذلك، طاردَهم سوءُ السُمْعة ولحقهم الخزيُ لوقت طويل. فقد حُذِّرَ ملكُ بروسيا[21] Prussia فريدريك ويليام الثاني King Frederick William II من أن المُتنوِّرين لا يزالون قوةً تخريبية خطيرة في جميع أنحاء ألمانيا. وفي عام 1797، نَشَرَ عالِمُ الفيزياء الإسكتلندي المرموق جون روبيسون[22] John Robison كتابَه «أدلةُ وجود مؤامرة ضد كل أديان أوربا وحكوماتها، يتواصل تنفيذُها في اجتماعات الماسونيين الأحرار والمُتنوِّرين وجمعيّات القراءة السرِّية» Proofs of a Conspiracy against All the Religions and Governments of Europe, carried on in the Secret Meetings of the Free Masons, Illuminati, and Reading Societies.

فزَعَمَ في هذا الكتاب أنه «في غضون خمسين عامًا، وتحت ذريعة تنوير العالَم الخادعة بشُعْلَة الفلسفة، وبذريعة تبديد غيوم الخرافات الدينية والمدنيَّة،... تحمَّستْ جَمْعيَّةٌ association بشكل مُمَنْهَج [لتنفيذ هذه المؤامرة]، حتى صار من المُتعذَّر، تقريبًا، مقاومتها لشدة إغوائها»، هدفُها «اقتلاع كل المؤسسات الدينية وإسقاط كل الحكومات القائمة في أوربا». وطبقًا لروبيسون، توَّجَت الجَمْعيَّة مجهوداتها بإشعال الثورة الفرنسية French Revolution.

وقد ادَّعَى الادِّعاءَ نفسَه يسوعيٌّ فرنسيٌّ سابق يُدْعَى أوجُستين دو بارويل Augustin de Barruel في كتابه «مُذكِّرات إيضاحية حول تاريخ اليعقوبية»[23] Memoirs Illustrating the

المنشور أيضًا عام 1797. «ذُرِّية الأشرار عميقي التدبير خطَّطوا سلفًا وبَيَّتوا النِّية، ثم اجتمعوا معًا وتَرَصَّدوا.... كي يقترفوا أفظع الأعمال أثناء الثورة الفرنسية». ويقول باروِيل إن اليعاقبة Jacobins أنفسُهم هم وَرَثة المُتنوِّرين. هذه الادِّعاءات التي امتدحها إدموند بيرك[24] Edmund Burke[25]، سرعان ما شقَّتْ طريقَها إلى الولايات المتحدة، فتبنَّاها من بين آخرين تيموثي دوايت Timothy Dwight رئيس جامعة ييل Yale [الثامن][26]. وعلى امتداد معظم القرنين التاسع عشر والعشرين، لعب المُتنوِّرون دورًا غير مقصود بوصفهم المتآمرين النموذجيين الأصليين Ur - conspirators، فيما أسماه ريتشارد هوفستاتر[27] Richard Hofstadter على نحو لا يُنْسَى «أسلوب البارانويا» في السياسة الأمريكية، حين زَعَم الدُّعاة أنهم سيصمدون في الدِّفاع عن عامّة الناس العُزَّل ضد «شبكة تآمرية دولية هائلة، خبيثة وشريرة، نفوذُها خارقٌ، تُصَمِّم على اقتراف أكبر الآثام الشيطانية»[28].

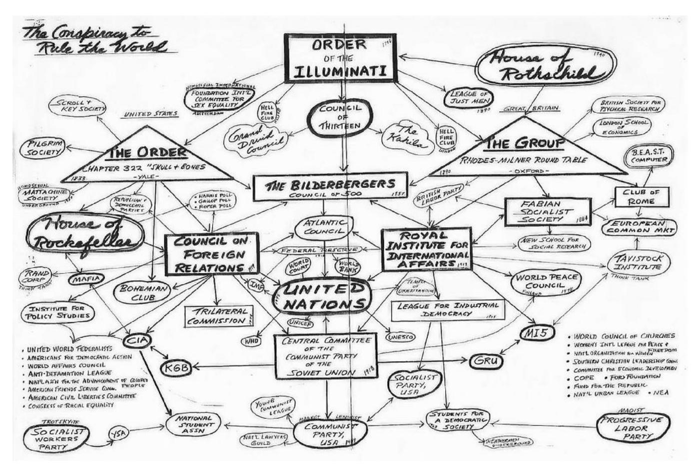
ولْنُعْطِ مثالين فقط على هذا، الملامح التي ظهرت بها شخصية المُتنوِّر في مطبوعات جمعيّة جون بيرش[29] John Birch Society المُناهِضة للشيوعية؛ وفي كتاب المسيحي المُحافِظ بات روبرتسن[30] Pat Robertson «النظام العالمي الجديد» New World Order (1991)[31].

استمرت أسطورة المُتنوِّرين حتى يومنا هذا. صحيحٌ أن بعض الكتابات المستوحاة من التنظيم صُرِّحَ بأنها أدب [خيال]، ولا سيما ثلاثية «المُتنوِّر» [إلِوميناتوس][32] Illuminatus المنشورة في سبعينيات القرن العشرين لمؤلفيْها روبرت شيا Robert Shea وروبرت أنطون ويلسن Robert Anton Wilson، ورواية أومبيرتو إيكو Umberto Eco «بندول فوكو» (Foucault's Pendulum (1988، وفيلم «لارا كروفت: تومب ريدر» Lara Croft: Tomb Raider (2001)، ورواية دان براون Dan Brown المثيرة «ملائكة وشياطين» (Angles and Demons (2000[33].

الأصعب على الشرح والتفسير هو الاعتقاد المنتشر بأن المُتنوّرين موجودون فعلاً اليوم، وبالقوة نفسها التي اعتزم مؤسّسُهم أن يكونوا عليها. فتزعم مواقعُ إلكترونية حاليًا أنها تمثل المُتنوّرين، ولا موقع منها يتسم بالاحترافية[34].

ومع ذلك، يُزْعَمُ أن عددًا من رؤساء الولايات المتحدة كانوا أعضاء في تنظيم المُتنوّرين: جون آدامز John Adams وتوماس جيفرسن Thomas Jefferson[35]، بل باراك أوباما Barack Obama أيضًا[36]. تَصِفُ خطبةٌ طويلة، نموذجية نوعًا ما، (وهذا نوع وفير) المُتنوّرين بأنهم «نُخْبة حاكمة غنية تطمح إلى خَلْق مجتمع من العبيد»:

يمتلك المُتنوّرون كل البنوك الدولية، وشركات النفط ومعظم الشركات الأقوى في الصناعة والتجارة، كما يتسللون إلى السياسة والتعليم، ويَتملَّكون معظمَ الحكومات، أو على الأقل يسيطرون عليها. بل يَمتلِكون هوليوود وصناعة الموسيقى... المُتنوّرون يقودون صناعةَ تجارة المخدرات أيضًا... أفضل مُرشَّحي الرئاسة يُختارون بعناية من أسلاف سِرّيين [غامضين] ينحدرون من ثلاث عشرة عائلة مُتنوّرة... هدفهم الرئيسي إنشاءُ حكومة عالمية واحدة، يكونون على رأسها لحُكْم العالَم بالاستعباد والديكتاتورية... إنهم يريدون خَلْق «تهديد خارجي»، أو غزو أجنبي مُلفَّق، حتى تكون بلاد هذا العالَمِ على استعداد للتوحُّد بوصفها بلدًا واحدًا.




**الشكل رقم1: «مؤامرة حُكْم العالَم».**

تربط الرواية النموذجية لنظرية المؤامرة بين المُتنوِّرين وعائلة روتشيلد Roths، والمائدة المستديرة [37]Round Table، ومجموعة بيلدربيرج [38]Bilderberg Group، واللجنة الثلاثية[39] Trilateral Commission؛ ولا ننسى مدير صندوق الاستثمار [المحفظة] الوقائية hedge fund والمانح السياسي ورجل البرِّ: جورج سورس[40] George Soros.

هذه النظريات محلُّ اعتقاد، أو على الأقل يَتبنَّاها بجديَّة عددٌ كبير من الناس بشكل ملحوظ[41].

ما يزيد قليلاً على النصف (51%)، من ألف أمريكي شملهم استطلاعٌ في عام 20، وافقوا على أن «معظم ما يحدث في العالم اليوم تُقرِّره مجموعةٌ صغيرة سرِّية من الأفراد الكَتومين»[42].

ووافق رُبْع عيِّنة أكبر تشمل 1.935 أمريكيًا على أن «الأزمة المالية الجارية دبَّرتها سرًّا مجموعةٌ صغيرة من المَصْرفيين في وول ستريت Wall Street لبَسْط سُلْطتهم على [البنك] الاحتياطي الفيدرالي Federal Reserve، بل لبَسْط سيطرتهم على اقتصاد العالم أيضًا»[43].

وتقريبًا، وافق واحدٌ من كل خمسة (19%) على أن «الملياردير جورج سورس وراء خطة خفيَّة لزعزعة استقرار الحكومة الأمريكية والسيطرة على وسائل الإعلام [الميديا] ووضْع العالَم تحت سيطرته»[44].

سورس نفسُه على علاقة روتينية بتنظيم المُتنوِّرين، فيما يقول منظِّرو المؤامرة الشَّعْبيون من أمثال أليكس جونز[45] [46] Alex Jones.

قد يكون هذا التفكيرُ نوعًا من الخَبَل، ولكنه خَبَلٌ يجتذب أكثر من مجرد مجموعات هامشية. ويَخْلُصُ مؤلِّفو دراسة أكاديمية حديثة عن انتشار نظريات المؤامرة إلى الآتي:

يتفق نصفُ الأمريكيين مع [نظرية] مؤامرة واحدة على الأقل... وبغضِّ النظر عن أن المنظورَ التآمري تعبيرٌ شاذٌّ لدى بعض غُلاة السياسيين أو نتاجُ تضليل جسيم، فهو يُمثِّل في السياسة اتجاهًا واسع الانتشار عبر الطيف الأيديولوجي بأكمله... فالعديد من أنساق الاعتقاد السائدة في الولايات المتحدة، سواء كانت مَرْوِيَّات مسيحية عن الله God والشيطان Satan... أم مَرْوِيَّات الجناح اليساري عن الليبرالية الجديدة...، تستند إلى فكرة وجود قوى غير مرئية، وعَمْدية، تصوغ الأحداث المعاصرة[47].

وليست هذه الظاهرةُ بشاذَّةٍ في الولايات المتحدة. فأثناء حرب العراق، اعتقدتْ نِسَبٌ كبيرة من الجمهور الألماني أن المسؤولية عن هجمات 11/9 تقع على عاتق «شبكات مصالح راسخة، تتصف بالتداخلية والتواصل الوثيق، بل انتشارية [غير مركزية] وعابرة للحدود أيضًا، وليست هذه المصالحُ نتاجَ قصْدية فردية أو جَمْعيّة بالضرورة...»[48].

في بريطانيا والنمسا أيضًا، تؤمن أعدادٌ كبيرة من الناخبين بنظريات المؤامرة، بما فيها نظرياتٌ اخترعها باحثون[49].

وينجذب الكُتَّاب الرُّوس، بشكل خاص، إلى نظريات مؤامرة بقيادة أمريكية[50]، ولا مكان في العالم يُضارِع العالَم المُسْلِم Muslim world الذي تتفشَّى فيه «نزعة تآمرية» conspiracism منذ هجمات 11/9[51].

ينطوي هذا النوع من الاعتقادات على عواقب مأساوية. فأحد منظِّري المؤامرة الأمريكيين، ميلتون ويليام كوبر[52] Milton William Cooper، أطلقت عليه سلطاتُ الاعتقال النارَ أثناء مقاومته القبض عليه بسبب تهُّربه الضريبي وجرائم حيازة أسلحة نارية. وقد استند كوبر في مقاومته لقوات الشرطة إلى إيمانه الجازم بأن الحكومة الفيدرالية يسيطر عليها المُتنوِّرون[53].

وبالاحتكام إلى إحصائيات عالمية عن الإرهاب ودوافعه، نجد أن المُسْلِمين المؤمنين بوجود مؤامرة صهيوأمريكية ضد دينهم، من المرجَّح لجوئهم إلى العنف أكثر من لجوء الأمريكيين «الذين يَشكُّون في التفسير العام المقبول لحدثٍ ما،

معتقدين جَزْمًا بوجود مؤامرة رسمية لإخفاء التفسير الحقيقي» American Truthers»»[54].

يقدِّم تاريخُ المتنوِّرين مثالاً نموذجيًا للمشكلة الرئيسية في الكتابة عن الشبكات الاجتماعية، وبخاصة الشبكات التي ظلت سِرِّية. ولأن الموضوع يستهوي المهووسين، فمن الصعب على المؤرِّخين المحترفين أن يحملوه على مَحْمل الجدّ. وحتى مَن يفعل ذلك منهم، يضطر إلى مُجَاهَدة مشكلة نُدْرة احتفاظ هذه الشبكات بأرشيفات متاحة. المُؤرْشِفون البافاريون احتفظوا بأوراق الحملة ضد المُتنوِّرين، بما فيها الوثائق الأصلية التي تم الاستيلاء عليها من أعضاء التنظيم. وفي الآونة الأخيرة فحسب، قام الأكاديميون - بشكل منهجي ومَشَقَّة كبيرة - بتحرير ما تبقَّى من مراسلات المُتنوِّرين ومبادئهم التنظيمية، التي تتألَّفُ من جموعة لقطات متنوعة ومختلفة، بما فيها أرشيفات المحافل الماسونية Masonic lodges[55].

ويُفسِّرُ هذا النوعُ من عوائق تناول الموضوع السببَ في إصرار أحد مُؤرِّخي أكسفورد Oxford البارزين على أنه لا يستطيع سوى الكتابة «عن ما يُعتقَد ويُقال بشأن الجَمْعيَّات السرية secret societies، وليس عن الجَمْعيَّات السرِّية نفسها»[56].

ومع ذلك، ما من حالةٍ تُوضِّح الأهميةَ التاريخية للشبكات networks أفضل من حالة المُتنوِّرين. فهذا التنظيم بحد ذاته لم يكن حركةً مهمةً. فالمُتنوِّرون لم يتسبَّبوا، يقينًا، في إشعال الثورة الفرنسية، أو حتى الكثير من المتاعب الحقيقية التي خاضتها بافاريا. ولكنهم صاروا مُهِمِّين لأن صِيتهم انتشر كالفيروس، في الوقت الذي حَدَثَ فيه اضطرابٌ سياسي عَجَّلَ به عصرُ التنوير Enlightenment ووصلت ذروتُه الثورية إلى جانبيْ المحيط الأطلسي؛ والتنويرُ إنجازُ شبكةِ مُفكِّرين network of intellectuals ذوي تأثير هائل.

يسعى هذا الكتاب إلى إيجاد طريق وسط بين التيار السائد في علم التأريخ histo المائل إلى التقليل من دور الشبكات، وبين منظِّري المؤامرة المعتادين على المبالغة في دور الشبكات. ويقترح روايةً تاريخية جديدة، يمكن من خلالها فَهْمُ التغيُّرات الرئيسية [الكبرى] - التي يرجع تاريخها إلى عصر الاستكشاف Age of Discover وعصر الإصلاح Reformation إنْ لم يكن أسبق - بوصفها، أساسًا، تحدياتٍ مُدمِّرة طرحتها الشبكاتُ networks على التسلسلات الهَرَميَّة hierar القائمة. كما يَتحدَّى الكتابُ أيضًا الفرضياتِ الواثقةَ لدى بعض المُعلِّقين اليوم القائلة بوجود فائدة إيجابية أصيلة في تدمير الشَّبَكة للنظام الهَرَميِّ.

ويتأمل تجربةَ القرنين التاسع عشر والعشرين لتحديد الطرق التي تنقل بها الشبكاتُ الطاقاتِ الثوريةَ التي تحتويها.

## 2
## عصرنا الشبكي

الشبكاتُ منتشرةٌ في كل مكان، اليوم. في الأسبوع الأول من عام 2017، نشرت صحيفة نيويورك تايمز New York Times، 136 قصةً ورَدَتْ فيها كلمة «شبكة» network. أكثر من ثلْث القصص عن شبكات التلفزيون، وثمة اثنتا عشرة قصة عن شبكات الكمبيوتر، وعشر قصص عن شبكات سياسية متنوعة ومختلفة، بل هناك قصص أيضًا عن شبكات النقل والشبكات المالية، وشبكات الإرهاب وشبكات الرعاية الصحية، ناهيك عن الشبكات الاجتماعية والتعليمية، وشبكات الجريمة، وشبكات التليفون والراديو والكهرباء، وشبكات التَّخَابُر. وتعني مطالعةُ كل هذا أن «كلَّ شيءٍ في عالَمِنا مُتَّصِلٌ ومترابط». بعض الشبكات تربط بين النُّشَطاء [المناضلين أو المقاتلين]؛ وبعضها الآخر بين المُسْعِفين؛ وثمة شبكات أخرى تربط بين ماكينات الصَّرف الآلي. هناك أيضًا شبكة السرطان، وشبكة الجِهاد، وشبكة الأوركا [حيتان قاتلة تعيش في مجموعات] orca. بعض الشبكات دولية وتوصف غالبًا بأنها «ضخمة هائلة»[57]، وشبكات أخرى إقليمية [أو جَهَوِيَّة أو محليَّة]؛ بعضها أثيري، وبعضها الآخر تحت الأرض[[58]].

ثمة شبكات فساد وشبكات أنفاق وشبكات تجسُّس؛ بل حتى شبكة تَلاعُب بنتائج المباريات. مُهاجِمو الشبكة يتعاركون مع المدافعين عن الشبكة. وكل ذلك تُغَطِّيه، على نحو لاهث، شبكةُ كابلات أرضية وشبكة أقمار صناعية.

في رواية «المنزل الكئيب»[[59]] Bleak House كان الضباب ينتشر في كل مكان. واليوم، توجد الشبكاتُ - ولْنقتبس من د ي ك ن ز Dickens - عند مَنْبع النهر ومَصَبِّه.

وكما نطالع في [دورية] هارفارد بيزنس ريفيو Harvard Business Review[60]: «بديل الشبكات [والتواصل الشَّبكي] هو الفشل». وتؤكد الدوريةُ نفسُها أن «السبب في تخلُّف النساء عن القيادة أنهن أقل تواجدًا في شبكات واسعة تَدعَمهنَّ وتُشجِّعهنَّ بوصفهن قائدات محتملات»[61].

تُبيِّنُ مقالةٌ أخرى في الدورية نفسها أن «مديري الصناديق الاستثمارية يراهنون، بشكل أكبر تركيزًا، على الشُّرَكاء الذين جمعتهم صلاتٌ وروابط عبْر شبكة التعليم»، وأن هذه الاستثمارات تحقق عوائد أفضل[[62]] من المتوسط[63].

ولكن ليس معنى ذلك استنتاجَ أن شبكة «الأولاد القِدامى»[[64]] old boys هي قوة حميدة، تستحق أن تُقلِّدها الفتياتُ القِدامى.

في التعاملات المالية، بعض «شبكات الخُبَراء» تَكشَّفتْ عن كَوْنها قنوات للتداول الداخلي أو المضاربة بسعر الفائدة[65].

اعْتُبِرَت الشبكاتُ أيضًا مسؤولةً عن الأزمة المالية العالمية global financial crisis عامِ 2008؛ وعلى وجه التحديد، الشبكة متزايدة التعقيد التي حوَّلتْ بنوكَ العالَم إلى نظامٍ تداول خسائر القروض العقارية عالية المخاطر في الولايات المتحدة وتضخيمها[66].

العالَم الذي وصفته ساندرا نافيدي[[67]] Sandra Navidi في كتابها «المحاور الفائقة» Superhubs قد يبدو فاتنًا للبعض. وعلى حدِّ تعبيرها: «قِلّة مُختارة» - تُحَدِّدها باثني عشر شخصًا فقط - «تُدير الأصولَ الأقوى حَصْريًا: شبكة علاقات شخصية فريدة تمتد عبر الكرة الأرضية». وتَتركَّزُ هذه العلاقاتُ وتُصَاغُ في أقل عدد من المؤسسات: معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا Massachusetts Institute of Technology، جولدمان ساكس Goldman Sachs، المنتدى الاقتصادي العالمي World Economic Forum؛ وثلاث كيانات خيرية، من بينها مبادرة كلينتون العالمية Clinton Global Initiative، ومطعم فور سيزون Four Seasons في نيويورك[68].

بل إن إحدى الرسائل الجوهرية في حملة دونالد ترامب Donald J. Trump الانتخابية الناجحة في عام 2016 أن «المصالح الخاصة العالمية» تقف خلف «المؤسسة السياسية الفاشلة والفاسدة» التي تُجسِّدها هيلاري كلينتون Hillary Clinton، مُرشَّحة الرئاسة التي هزمها ترامب[69].

ولن يكتمل تفسير انتخابات الرئاسة الأمريكية عام 2016 دون مناقشة الأدوار التي لعبتها شبكات الميديا media networks، بدءًا من فوكس نيوز Fox News، مرورًا ب فيسبوك Facebook، انتهاءً ب تويتر Twitter: شبكة اختيار المرشّح

المنتصِر[70].

إحدى المفارقات العديدة في هذه الانتخابات أن حملة ترامب المَقودَة شَبَكيًّا وَجَّهَت الكثيرَ من نيرانها إلى شبكة نُخْبة هيلاري كلينتون: شبكة انتمى ترامب نفسُه إليها ذات يوم، ويشهد على ذلك وجودُ الكلينتونيين في حفل زفافه الثالث. قبل الانتخابات بسنوات قليلة، وُجِدَ كيانٌ يُسَمَّى «شبكة ترامب» The Trump Network - أُنْشِئ في عام 2009 لبيْع منتجات مثل مُكمِّلات الفيتامين بموافقة من ترامب - قد أشهر إفلاسه.

لو خسر ترامب الانتخابات، كان سيُطْلِقُ شبكةَ تليفزيون «ترامب تي في» Trump TV. وأحد الأسباب العديدة لعدم خسارته [في الانتخابات] أن شبكة الاستخبارات الروسية بذلت قصارى جهدها لتدمير سُمْعة منافسته، باستخدام موقع ويكيليكس WikiLeaks الإلكتروني وشبكة تلفزيون آر تي RT أدواتٍ رئيسيةً لها. ووَفْقَ تقريرٍ غير مُصنَّف، نوعًا ما، في وكالة الاستخبارات الأمريكية، «أمَرَ الرئيسُ الروسي فلاديمير بوتين Vladimir Putin بتوجيه حملة تأثير في عام 2016»، بهدف «تشويه سُمْعة وزيرة الخارجية الأسبق هيلاري كلينتون والإضرار بحملتها الانتخابية ورئاستها المحتملة»، الأمر الذي يعكس تفضيل الكريملين Kremlin الصريح لترامب. طبقًا لهذا التقرير:

في يوليو عام 2015، «اخترقت المخابرات الروسية شبكات اللجنة الوطنية الديمقراطية Democratic National Committee (DNC))، واستمرت في هذا الاختراق حتى يونيو عام 20 على أقل تقدير»، ونشرت بشكل مُمَنْهَج رسائلَ البريد الإلكتروني التي حصلت عليها، عبْر موقع ويكيليكس. وفي الوقت نفسه، أسهمتْ «آلةُ الدعاية [البروباجاندا] التي تُديرها الدولةُ في روسيا - المكوَّنة من جهاز إعلامها الداخلي وقنوات كشبكة آر تي RT وسبوتنيك Sputnik، تستهدف جماهير عالمية، وشبكة متصيِّدين [إلكترونيين] trolls شِبْه حكومية - أسهمت في حملة التأثير، من خلال عملها بوصفها منصةَ الكريملين التي تبثُّ إلى الجماهير الروسية والدولية»[71].

غير أن سببًا آخر لفوز ترامب هو الشبكة الإرهابية الإسلامية المعروفة باسم [تنظيم] الدولة الإسلامية Islamic State التي نفَّذَتْ عِدَّة هجمات على مدى اثني عشر شهرًا قبل الانتخابات، منها هجومان في الولايات المتحدة (في سان برناردينو San Bernardino وأورلاندو Orlando). وقد عزَّزتْ هذه الهجماتُ جاذبيةَ تعهُّدات ترامب ب«فضْح»، و«اجتثاث»، و«استئصال... شبكات دعم الإسلام الراديكالي Radical Islam في هذا البلد... واحدةً تلو الأخرى»، و«تفكيك شبكة الإرهاب العالمي الإيراني تمامًا»[72].

وباختصار، نحن نعيش في «عصر الشبكة»[73]. وهو ما أسماه جوشوا رامو[[74]] Joshua Ramo «عصر سُلْطة الشبكة»[75].

ويُفضِّلُ إدريان لافرانس Adrienne Lafrance تسميته ب«عصر التشابكات المعقدة»[76]. بل يقترح باراج خانا[[77]] Parag Khanna فرعًا معرفيًا جديدًا - علم الكُونِّكتوجرافي Connectography - لرَسْم خريطة «ثورة الشبكة العالمية»[78]. وطبقًا لمانويل كاستِلس[[79]] Manuel Castells: «يمثل مجتمع الشبكة تغيُّرًا نوعيًا في الخبرة الإنسانية»[80].

الشبكات تُحوِّلُ المجالَ العام والديمقراطيةَ نفسَها[81]. لكن هل إلى الأفضل أم إلى الأسوأ؟ كَتَبَ مدير جوجل Google للأفكار جارد كوين[[82]] Jared Cohen ورئيسها إيريك شميت[[83]] Eric Schmidt قائليْن: «تكنولوجيا الشبكة الحالية... تُساندُ المواطنين فعلاً». «لم يحدث من قبل أنْ تَواصلتْ كثرةٌ من الناس عبْر شبكة ذات استجابة فورية»، بما ينطوي عليه ذلك من آثار «تغيير اللعبة» game - changing بالنسبة إلى السياسة في كل مكان[84]. ثمة وجهة نظر مغايرة تقول بأن الشركات العالمية، مثل جوجل، تُحقِّقُ بشكل مُمَنْهَج «هيمنةً هيكليةً»، مُستغِلةً الشبكات في العمل على تآكل السيادة الوطنية والسياسة الجَمْعيَّة، كلما أمكنها ذلك[85].

ويمكن طرح السؤال نفسه بخصوص تأثير الشبكات في النظام الدولي: هل إلى الأفضل أم إلى الأسوأ؟ ترى آن ماري سلوتر[[86]] Anne - Marie Slaughter أنه من المعقول إعادة تشكيل السياسة العالمية بالجَمْع بين ديبلوماسية «رقعة الشطرنج» التقليدية بين الدول، وبين «نظام تواصل معقد... عبْر الشبكات»، باستغلال مزايا الشبكات (كالشفافية، والقدرة على التكيُّف، وقابلية التوسُّع[87]. وتقول إن سَيِّدات الدولة stateswomen في المستقبل ستَكُنَّ «فاعلات في الويب w فيمارسن السلطةَ والقيادةَ مع الحكومات» ب«إستراتيجيات الاتصال»[88]. ويتطلع باراج خانا بنوع من النشوة إلى «عالَم سلسلة الإمداد أو التجهيز» supply - chain world تكون فيه الشركاتُ العَوْلمية والمدنُ الكبرى أو الضخمة

mega و«الإيروتروبوليس» aerotropolises [مدينةُ المطار] و«الكومنولثاتُ الإقليمية» regional commonwe مُشارِكةً في لعبة «شدِّ حَبْلٍ»، لانهائية، ولكنها سِلْمية في جوهرها، تُشْبِه «لعبةً هائلة متعدِّدة اللاعبين»[89] ،. من أجل المنافع الاقتصادية.
ومع ذلك، يبدو محلَّ شك - لدى جوشوا رامو، بل لدى أستاذه هنري كيسنجر Henry Kissinge أيضًا - أنْ تعمل مثل هذه الاتجاهات على تعزيز الاستقرار العالمي. قال كيسنجر إن «انتشار الاتصالات الشَّبَكية في القطاعات الاجتماعية والمالية والصناعية والعسكرية»:

قد أحدث... ثورةً في قابلية الحساسية [التأثير والتأثُّر]. وتتجاوز هذه الثورةُ معظمَ القواعد والنُّظُم (بل الفَهْم التقني لدى العديد من المُنظِّمين)، خالِقةً، من بعض النواحي، حالةَ الطبيعة state of nature التي وفَّر الخلاصُ منها - وفقًا لهوبز[90] Hobbes - قوةً دافعة إلى إنشاء نظام سياسي... [اللا] تماثلُ ونوعٌ من اضطراب عالمي، مُركَّبٌ تلقائيًا داخل العلاقات بين القوى الإلكترونية [السَّايْبرانية] في الدبلوماسية وفي الإستراتيجية على حدٍّ سواء... وسيعمل الالتباسُ في بعض قواعد السلوك الدولي على نشوء أزمة من صميم ديناميات النظام الداخلي[91] .

وكما يَدَّعي البعضُ، إذا بدأت «حرب إلكترونية عالمية أولى» first world cyberwar، فستكون حربًا بين الشَّبَكات[92] .

الاحتمال الأكثر إثارةً للقلق من كل هذا أن وجود شبكة عالمية واحدة سيُؤدِّي، في النهاية، إلى جعْل الإنسان العاقل [الهومو سابينز Homo sapiens] زائدًا عن الحاجة، ومن ثمَّ منقرضًا. في كتابه Homo Deus، يقول يوفال هِراري[93] Yuval Harari
إن عصر «الشبكات التعاونية الضخمة»، واسعة النطاق، المعتمدة على اللغة المكتوبة والنقود والثقافة والأيديولوجيا - [التي هي] مُنْتَجات الشبكات العصبية البشرية المعتمدة على الكربون - سيُخْلي مكانَه لعصر جديد من شبكات الكمبيوتر المعتمدة على السِّليكون المستند إلى الخوارزميات .algorithms

في هذه الشبكة، سرعان ما سنجد أنفسَنا مهمِّين للخوارزميات بقدر أهمية الحيوانات لنا في الوقت الحالي. وسيعني قَطْعُ الاتصال بالشبكة الموتَ بالنسبة إلى الفرد، فالشبكة ستحافظ على صِحَّتنا على مدار الساعة. ولكن الاتصال سيعني في النهاية انقراضَ النوع البشري: «المقاييس التي على أساسها نُقدِّس أنفسَنا ستتَّهِمُنا بأننا التحقنا بالماموث [فيل عملاق منقرض من حقبة

البليستوسين] ودلافين النهر الصينية في بحر النسيان»[94] . وعلى أساس تقييم هِراري الكئيب للماضي البشري، فسيبدو هذا ما نستحقه[95] .

هذا الكتاب [كتابنا الحالي] عن الماضي أكثر منه عن المستقبل، أو على الأدق كتاب يسعى إلى التعرُّف على المستقبل من خلال دراسة الماضي أساسًا، بدلاً من الانخراط في التحليق الخيالي أو الإسقاط العَفْوي لاتجاهات جديدة على المستقبل. ثمة مَن يتشككون (ولا سيما مِن وادي السِّليكون[[96]] Silicon Valley) في أن التاريخ لديه الكثير ليُعلِّمهم إياه، أثناء مثل هذه الاختراعات التكنولوجية المتسارعة[97] .

بل يفترض معظمُ النِّقاش الذي لخَّصتُه للتوِّ أن الشبكات الاجتماعية ظاهرةٌ جديدة، وأن انتشارها الراهن لم يسبق له مثيل. هذا غير صحيح. فحتى ونحن نتحدث باستمرار عن الشبكات، ليس لدى معظمنا سوى فَهْم جِدِّ محدود للطريقة التي تعمل بها، وتقريبًا لا معرفة لدينا بشأن مِن أين جاءت. نحن نتجاهل، إلى حد كبير، مدى انتشار الشبكات في العالَم الطبيعي، والدور الرئيسي الذي لعبته في تقدُّمنا بوصفنا نوعًا، وأنها جزء لا يتجزأ من الماضي البشري. ونتيجةً لذلك، نميل إلى التقليل من أهمية الشبكات في الماضي، ونُخْطِئُ في افتراض أن التاريخ ليس لديه ما يُعلِّمُنا إياه بشأن هذا الموضوع.

لم تكن توجد مثل هذه الشبكات الهائلة التي نراها في عالمنا اليوم. ولم تكن تدفقات المعلومات جدّ متسارعة بهذا الشكل. ولكن الحجم والسرعة ليسا كل شيء.

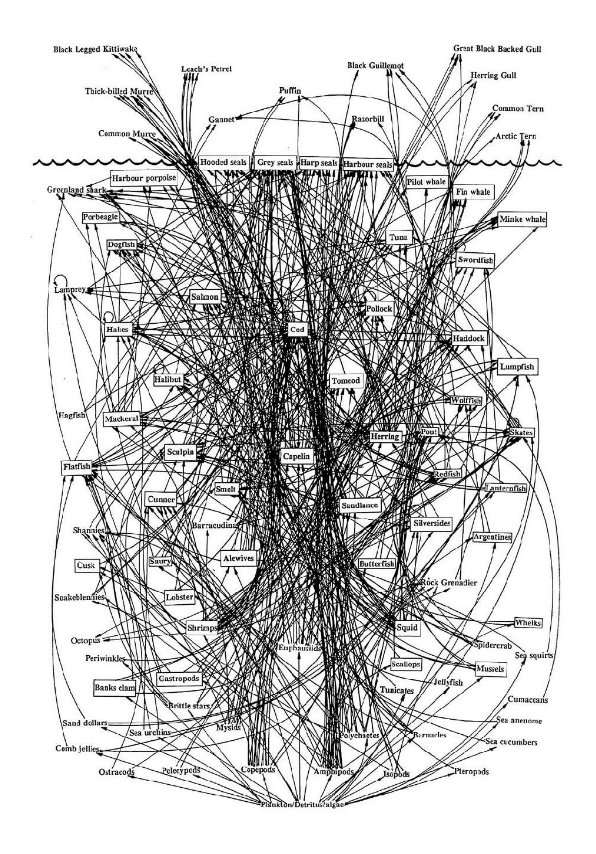
ينبغي ألا نُعوِّلَ على شبكات وقتنا الراهن الرشيقة السريعة - وبخاصة أن معرفتنا محدودة بشأن ما إذا كان عصر الشبكة سيكون تحريريًا مُبْهِجًا أم أناركيًا [فوضويًا] anarchi مُريعًا - إلا بعد دراسة شبكات الماضي الأصغر والأبطأ؛ فمع صِغَرها وبُطْئها انتشرت في كل مكان أيضًا، بل كانت قويةً للغاية أحيانًا.

## 3
## شبكات، شبكات في كل مكان

يَتكوَّنُ العالَمُ الطبيعي - إلى حد محيِّر - من «شبكات متشعِّبة أقرب إلى الكمال في كل مكان»، على حدِّ تعبير الفيزيائي جيفري ويست[98] Geoffrey West، بدءًا من نظام الدورة الدموية البشرية حتى مستعمرة النمل، وكلها تتطور لتوزيع الطاقة والمواد بين خزَّانات تُرَى بالعين المجردة [ماكروسكوبية] macroscopic ومواقع مجهرية [ميكروسكوبية] microscopic فيما يزيد على سبعة وعشرين نظامًا مدهشًا من حيث الحجم. الأنظمة الدموية والتنفسية والكُلَويَّة والعصبية لدى الحيوانات هي كلها شبكات طبيعية. كذلك ظمة الوعائية النباتية والشبكات الميكروتوبية[99] microtubial والميتوكوندرية[100] mitochondrial داخل الخلايا أيضًا[101].

دماغ الدودة الخَيْطية «الرَّبْداء الرشيقة»[102] caenorhabditis elegans هو الشبكة العصبية الوحيدة التي رُسِمَتْ بشكل كامل، وأما الأدمغة الأعقد فستُعطي في الوقت المناسب الاستعراضَ نفسَه[103]. ومن أدمغة الديدان إلى سلاسل الغذاء (أو «شبكات الغذاء»)، تكتشف البيولوجيا الحديثة شبكاتٍ في جميع مستويات الحياة على سطح الأرض[104].

تسلسل الجينوم كَشَفَ عن «شبكة تنظيمية للجينات»، «العُقَدُ [فيها] هي الجينات، والروابط هي سلاسل التفاعلات»[105]. دلتا أيِّ نهرٍ شبكةٌ أيضًا، وأطلسُك المدرسي يرسم خرائط هذه الشبكة. الأورام تُشكِّل شبكاتٍ.




الشكل: 2 - شبكة غذاء جزئية ل«الجرف الإسكتلندي» Scotian Shelf في شمال غرب المحيط الأطلسي. اتجاه الأسهم من الأنواع «الفَريسة» إلى الأنواع «المُفترِسة».

وبعض المشكلات لا يمكن حلها إلا بالتحليل الشَّبكي network analysis. يسعى العلماء إلى شرح تَزَهُّر الطحالب الذي أصاب خليج سان فرانسيسكو San Francisco Bay في عام 1999 لرَسْم شبكة الحياة البحرية قبل تمكُّنهم من تحديد السبب الحقيقي. وكان من الضروري رَسْم خريطة مماثلة لعصبية لتحديد أن الهيبوكامبوس [[106]]hippocampus هو مكان الذاكرة البشرية[107]. السرعة التي ينتشر بها مرضٌ مُعْدٍ تتماشى مع البنية الشبكية للسكان المُعَرَّضين للإصابة، بالقدر نفسه الذي تتماشى به مع حدَّة المرض، كما أظهر ذلك وباءٌ انتشر بين المراهقين في مقاطعة روكديل Rockdale County بولاية جورجيا Georgia منذ عشرين عامًا[108]. إن وجود عدد قليل من محاور متصلة اتصالاً وثيقًا يُسبِّب انتشارَ المرض ليزيد زيادةً أُسِّيَّة بعد مرحلة أولية من النمو البطيء[109].

ولْنَصُغْ ذلك بشكل مختلف: إذا كان «عدد التكاثر الأساسي» (كَمّ الأشخاص

الآخرين المصابين حديثًا بوَسَاطَة شخص مُصاب نموذجي) فوق واحد، فسيصبح المرض متوطِّنًا [وبائيًا]؛ وإذا كان أقل من واحد فسيميل إلى الاختفاء. لكن عدد التكاثر الأساسي تُحدِّده بنيةُ الشبكة التي يصيبها بقدر ما تُحدِّده عَدْوَى المرض الطبيعية[110]. أبنية الشبكة تُحدِّدُ أيضًا السرعةَ والدقةَ التي يُشَخَّصُ بها المرض[111].

في عصور ما قبل التاريخ، تَطَوَّرَ الهومو سابينز [الإنسان العاقل] بوصفه قردًا تعاونيًا، ذا قدرة فريدة على إنشاء شبكة - للتواصل والفعل الجَمْعي - تُميِّزنا عن كل الحيوانات الأخرى. وعلى حدِّ تعبير عالِم الأحياء التطوُّرية جوزيف هنريك[112] Joseph Henrich،
نحن لسنا بكل بساطة شمبانزي أكبر دماغًا وأقل شَعْرًا؛ سِرُّ نجاحنا بوصفنا نوعًا عاقلاً «يكمن... في الأدمغة الجَمْعيَّة لجماعاتنا»[113].
فعلى خلاف الشمبانزي، نحن نتعلم بشكل اجتماعي، عن طريق التعلُّم والمشاركة.

وطبقًا للأنثروبولوجي التطوُّري روبن دُنْبار[114] Robin Dunbar، دماغنا الأكبر، بقشرته المُخيَّة الأكثر تطورًا، قد تطوَّرَ لتمكيننا من العمل في مجموعات اجتماعية كبيرة نسبيًا من حوالي 150 فردًا (مقارنةً بحوالي 50 لدى الشمبانزي)[115].
بل ينبغي أن يُسَمَّى نوعنا العاقل ب هومو ديكتيوس Homo dictyous («الإنسان الشَّبَكي» network man)؛ لأن «أدمغتنا» - ولْنقتبس من السوسيولوجييْن نكولاس كريستاكيس[116] Nicholas Christakis وجيمس فاولر[117] James Fowler - «تبدو مبنيةً بطريقة تناسب الشبكات الاجتماعية»[118].

والمصطلح الذي صاغه الإثنوجرافي إدوين هاتْشينز[119] Edwin Hutchins هو «الإدراك المُوَزَّع»[120] distributed cognition.
أسلافنا الأوائل كانوا «ملتزمين بالتعاون عند شنِّ الغارات»، فاعتمد أحدهم على الآخر للحصول على الطعام والمأوى والتماس الدفء[121].

ومن المرجَّح أن تَطوُّرَ لغة الحديث، وكذلك التطورات المرتبطة بها في قدرة الدماغ وبِنْيته، جزءٌ من هذه العملية نفسها، التي تطورت عن ممارسات [اجتماعية] شبيهة بممارسات القرد كالاستمالة[122] grooming[123]. وهو ما يمكن قوله أيضًا

عن ممارسات كالفنِّ والرقص والطقوس [124].

وعلى حدِّ تعبير مؤرِّخين من أمثال ويليام مَكنيل[[125]] William H. McNeill وجي. آر. مَكنيل[[126]] J. R. McNeill، ظهرت «أول شبكة عالمية» منذ حوالي 12,000 سنة.

لقد وُلِدَ الإنسانُ بشبكته العصبية التي لا مثيل لها ليكون متواصلاً شبكيًا.

وإذن، الشبكات الاجتماعية social networks هي أبنية [أو هياكل] يُشكِّلُها البشرُ تلقائيًا، بدايةً من المعرفة وصور التمثيل المتنوعة التي نستعملها لإيصال هذه المعرفة، وبطبيعة الحال أيضًا الأشجار العائلية family trees التي ننتمي إليها كلنا حتمًا، حتى لو كان البعض مِنَّا، فقط، على معرفة بتفاصيل النَّسَب. تشمل الشبكاتُ أنماطَ الاستيطان والهجرة وتمازج الأجناس [الزواج المختلط] الذي وَزَّعَ نوعَنا عبْر سطح العالم، وكذلك عبادات وطقوسًا لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى نُنْتِجُها دوريًا بحدٍّ أدنى من التعمُّد والريادة. وكما سنرى، تتكون الشبكات الاجتماعية بجميع الأشكال والأحجام، بدءًا من الجَمْعيَّات السرِّية الحَصْريَّة exclusive secret societies إلى الحركات مفتوحة المصدر open - source movements[[127]]. بعض الشبكات لها طابع تلقائي ذاتي التنظيم، وشبكات أخرى أعقدُ منهجيةً وتنظيمًا وهَيْكَلةً. وكل ما حَدَثَ - بدءًا من اختراع اللغة المكتوبة - هو أن التكنولوجيات [التقنيات] الجديدة قد سَهَّلت اندفاعنا الفطري القديم نحو الشبكة [أو العمل من خلال الشبكة].

ومع ذلك، يوجد لغز. في معظم التاريخ المُدوَّن، تَسَيَّدَت التسلسلاتُ الهَرَميَّة hi على الشبكات networks، من حيث نطاقها وحجمها. فنُظِّمَ الرجالُ والنساءُ في أبنية هَرَميَّة [هيراركية أو تراتبية] hierarchical، ذات سلطة مُرَكَّزة عند القمة [أعلى نقطة في التسلسل الهَرَمي] في أيدي زعيم أو لورد أو ملك أو إمبراطور. وفي المقابل، قُزِّمَتْ شبكةُ الأفراد المتوسطة من حيث نطاقها. الفلاح النمطي - وهي كلمة تصف ما كان عليه البشرُ في معظم التاريخ المُدَّون - كان عالقًا في عنقود صغير يُسَمَّى عائلة، داخل عنقود أكبر قليلاً يُسَمَّى قرية، دون أي روابط تقريبًا بالعالم الأوسع. تلك هي الطريقة التي عاش بها معظم البشر في الآونة الأخيرة قبل مئة عام. وحتى اليوم، يتواصل سُكان القرى الهندية، في أفضل الأحوال، عبْر «لحاف اجتماعي. اتحاد من زُمَرِ صغيرة، كلُّ زُمْرة clique منها كبيرةٌ بما يكفي فقط لدعم التعاون بين جميع أعضائها بحيث تتشابك الزُّمَر معًا» [128]. ويلعب الدورَ الرئيسي في مثل هذه الجماعات المعزولة أفرادٌ «ذوو مركز انتشاري central – diffusion[[129]]»، يُعْرَفون عادةً باسم العَرَّاب [130] gossip.

الشبكاتُ التقليدية ذات النطاق الصغير قمْعيّةٌ، إلى درجة أن بعض الأفراد يفضِّلون التراجع إلى عزلة كاملة. وتحتفي غنائيةُ روبرت برنز[131] Robert Burns، «لا أحد» Naebody،
بالاعتماد على الذات بوصفه نوعاً من العُزْلة الجسورة. فهؤلاء الأفرادُ المنفصلون، بدءًا من فيلم «الحارس الوحيد»[132] Lone Ranger حتى فيلم «جَوَّال السهول العالية»[133] High Plains Drifter، أبطالٌ متكرِّرون في سينما الوِسْتِرن. في فيلم الأخوين كوين[134] the Coen brother «الدم البسيط»[135] Blood Simple، يعيش الراوي عالَمًا من الفردية الجامحة الوحشيَّة، وقد جاء على لسانه:

«اذهب واشْتكِ، أَخْبِرْ جارَك بمشاكلك، واطلب المساعدةَ، وستراه يهرب. الناس في روسيا Russia قاموا بتنظيم أنفسهم بحيث يساندون بعضهم البعض: هذه هي الفكرة على أية حال. ولكن ما أنا خبير به هو تكساس Texas. فهنا... أنت بمفردك»[136].

ولكن هذه النزعة الفردية المتفشِّية هي الاستثناء، وليست القاعدة. وكما قال جون دون[137] John Donne في كتابه «صلوات في الظروف الطارئة» Devotions upon Emergent Occasions:

ليس الإنسان جزيرة [معزولة]، كلُّه لنفسه؛ كل إنسان جزء من قارة، جزء من القوة الحية. إذا تآكلت اليابسةُ بفعل البحر فستَقِلُّ أوربا، كذلك أيضًا إذا تآكل نتوءٌ خليجي، وكذلك إذا تآكلت مزرعةُ صديقك أو مزرعتُك. موتُ أي إنسان ينتقص مِنّي لأني أشارك في الجنس البشري؛ ولذا لا تُرْسِلْ في طلب معرفةِ لِمَن يدق الجرس؛ فهو يدق من أجلك.

الإنسانُ، في حقيقة أمره، حيوانٌ اجتماعي، أما المُستوحِش [عدو الإنسان] فيجتنب الناسَ ويجتنبونه أيضًا. اللغز هو لماذا وكيف نكون مُسْتَعْبَدين بتسلسلات هَرَميَّة ذات طابع مؤسَّسي مُهْيَكَلة رأسيًا على نحو صارم، مع أننا شَبَكيون بحُكْم الطبيعة؟

كلمة hierarchy [التسلسل الهَرَمي] مشتقةٌ من كلمة يونانية قديمة تعني حرفيًا «حكْم رئيس الكهنة» rule of a high priest، واسْتُعْمِلَتْ في البداية لوصْف مراتب الملائكة وأوامرهم السماوية، ثم على نحو أعمّ لوَصْف نظام

الحُكْم التراتبي الروحي أو الزمني. وعلى النقيض من ذلك، لم تدلَّ كلمة «شبكة» network - حتى القرن السادس عشر - على أكثر من شبكة منسوجة من خيوط متداخلة. وكان شكسبير يستعمل أحيانًا كلمتيْ net وweb بشكل مجازي: مؤامرةُ إياجو Iago ضد عطيل Othello «شبكةٌ ستصطادهم جميعًا»؛ أما كلمة network بحد ذاتها فلم تظهر في أيٍّ من مسرحياته[138].

وقد فَطِنَ العلماءُ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر، إلى وجود شبكات في الطبيعة، بدءًا من شبكات العناكب حتى نظام الدورة الدموية البشرية بأوردتها وشرايينها. ثم بدأ في القرن التاسع عشر، وليس قبله، استعمالُ الكلمة بمجازية أكبر لدى الجغرافيين والمهندسين لوَصْف الممرات المائية والسكك الحديدية، ولدى الكُتَّاب لوَصْف العلاقات بين الناس. فتحدَّث الشاعر كوليردج[[139]] Coleridge (1817) عن «شبكة مِلْكيات خاصة»، وتحدَّث المؤرِّخ فريمان[[140]] (1876 Freeman) عن «شبكة حيازات إقطاعية»[141].

ومع ذلك، فحتى حوالي عام 1880، نُشِرَتْ كتبٌ بالإنجليزية احتوت على كلمة «hierarchy» [تسلسل هَرَمي] أكثر من كلمة «network» [شبكة] (انظر الشكل 3).

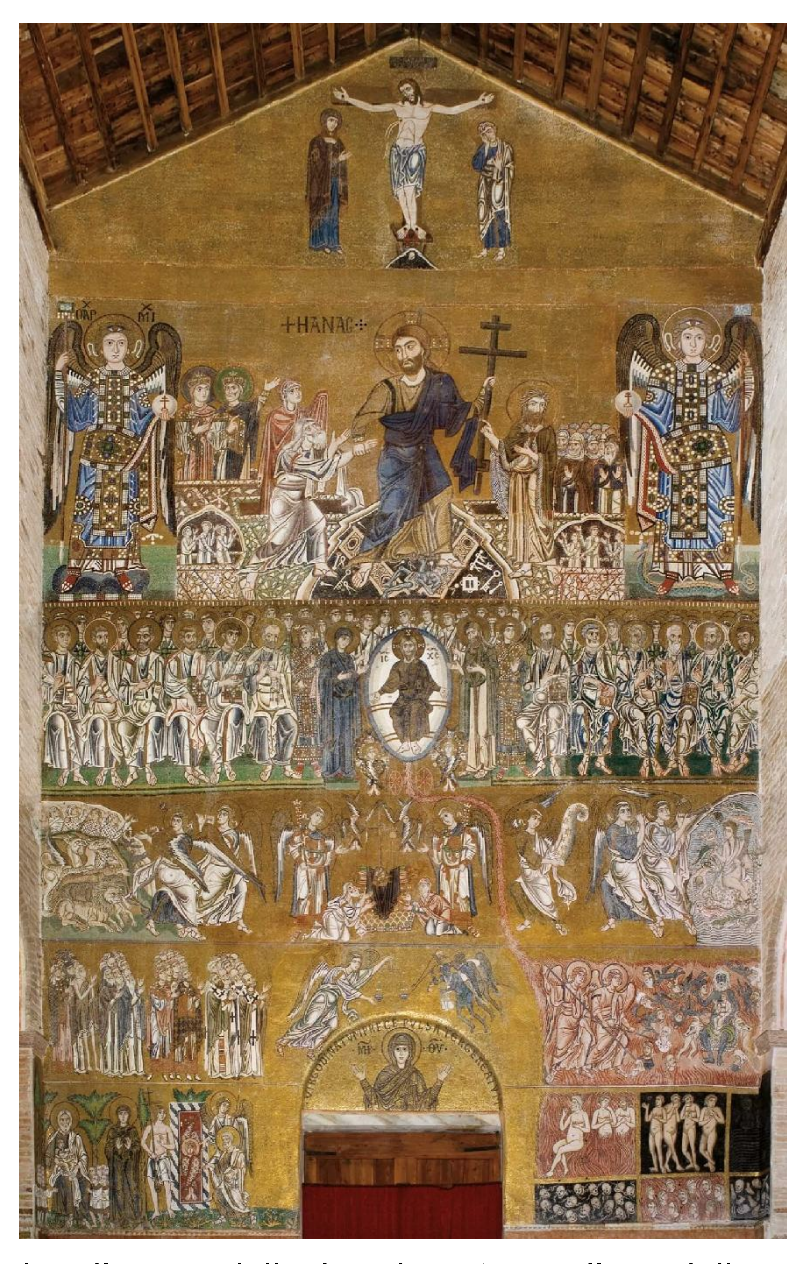



الشكل: 3 - قياس مُحَرِّك بحث جوجل لتردُّد ظهور كلمتيْ «network» و«hierarchy» في مطبوعات باللغة الإنجليزية بين عاميْ 1800 و2000.

ومن الممكن إخضاع العلاقات السياسية والاجتماعية التي تُصوِّرها روايةُ أنتوني ترولب[142] Anthony Trollope «فينياس فين»[143] Phineas Finn، المنشورة عام 1869، للتحليل الشبكي network analysis بأثر رجعي[144]، مع أن كلمة «شبكة» لم تظهر في النص إطلاقًا. بدأت كلمة networks [«شبكات»] في الانتشار أواخر القرن العشرين فقط: أولاً شبكات النقل والشبكات الكهربية، ثم شبكات التليفون والتلفزيون، وأخيرًا شبكات الكمبيوتر وشبكات التواصل الاجتماعي عبر الإنترنت online social networks. ثم اسْتُعْمِلَت كلمة network في عام 1980، وليس قبله، بوصفها فعلاً يُفِيدُ معنى الطابع الاجتماعي الهادف والمُوجَّه.

## 4
## لماذا التسلسلات الهرمية ؟

لا بد أن يُخَصِّصَ السائحُ الذي يزور مدينة فينيسيا Venice إحدى فترات ما بعد الظهر لزيارة جزيرة تورتشيللو Torcello الجميلة الرائعة. فهناك، داخل كاتدرائية سانتا ماريا أسونتا Cattedrale di Santa Maria Assunta يوجد تصويرٌ كامل لما نعنيه بالتسلسل الهَرَمي (انظر اللوحة الاتية): <u>فُسَيْفِساء من القرن الحادي عشر تُصَوِّرُ الحسابَ الأخير Last Judgement في خَمْسة مستويات، المسيح في الأعلى، ونيران الجحيم في الأسفل.</u>




وهذه، تقريبًا، هي الطريقة التي يفكر بها معظم الناس في التسلسلات الهَرَميَّة: تنظيمات مُهَيْكَلة رأسيًا تتميز بقيادة وسيطرة واتصال ذي طبيعة مركزية من أعلى إلى أسفل. من الثابت تاريخيًا أن التسلسلات الهَرَميَّة بدأت مع العشائر والقبائل المستندة إلى العائلة، ومنها (أو مقابلها) تطوَّرتْ مؤسساتٌ أعقد ذات تصنيف طبقي وتقسيم منهجي ورُتَب أو درجات عَمَل[145]. فمن بين تنويعات التسلسل الهَرَمي التي انتشرت في الفترة ما قبل الحديثة، تكويناتٌ سياسية حَضَرية منظَّمة للغاية تعتمد على التجارة، ودول أكبر - مَلَكيَّة في الغالب - تعتمد على الزراعة؛ ونُظُم دينية تُدَارُ مركزيًا تُسَمَّى كنائس؛ وجيوش وأجهزة إدارية [بيروقراطيات] داخل الدول؛ ونقابات تسيطر على عضوية الحِرَف ذات المهارة؛

وشركات مستقلة - منذ بواكير الفترة الحديثة - تستهدف استثمار اقتصادات الحجم والنطاق[[146]] economies of scope and scale عن طريق استيعاب عمليات السوق التجارية؛ ومؤسسات أكاديمية كالجامعات؛ ودول مُتَعَمْلِقة عابرة للحدود تُسَمَّى إمبراطوريات.

كان الدافعُ الحاسم إلى تفضيل نظام التسلسل الهَرَمي أنه يجعل ممارسةَ السلطة أكْفأ: سيطرة مركزية في أيدي «الرجل الكبير» big man الذي يلغي، أو على الأقل يُقلِّلُ الوقت المُستغرَق في مناقشات حول ما يجب فعله، والتي قد تتصاعد في أية لحظة إلى صراع مُهْلِك[147].

وطبقًا للفيلسوف بِنْوَا دوبِروي Benoît Dubreuil، كان تفويضُ السلطة القضائية والجزائية - سلطة عقاب المُنْتهِكين [أو الآثمين] - لفرد أو نُخْبة حلاً أمثل في المجتمعات الزراعية التي تفرض على غالبية الناس أن تصمت وتكدح في الحقول[148]. وأما بيتر تورتشين[[149]] Peter Turchin فيُفَضِّلُ التأكيد على دور الحرب، بحجة أن التغييرات في التقنية [التكنولوجيا] العسكرية شجَّعتْ على انتشار دول وجيوش منظَّمة هَرَميًّا[150].

الأكثر من هذا، القول بأن الحُكْم المطلق[[151]] absolutism هو مصدر التماسك الاجتماعي. يوضِّح الشُّرَطي القيصري نيكيفوريتش Nikiforych للشابّ مكسيم جوركي[[152]] Maxim Gorky حوالي عام 1890 قائلاً: «ثمة خيط غير مرئي، كشبكة العنكبوت، يخرج مباشرةً من قلب جلالة الإمبراطور ألكسندر الثالث[[153]] Alexander III». «وهناك خيط آخر يمر عبر جميع الوزراء، من خلال سعادة الحاكم نزولاً إلى الرُّتَب الأدنى حتى يصل إليَّ ثم إلى أصغر جندي. كل شيء مترابط ومُحْكَمٌ معًا بهذا الخيط... بقوته غير المرئية»[154].

وقد عاش جوركي حتى رأى ستالين Stalin يُحوِّلُ هذا الخيطَ غير المرئي إلى أسلاك فولاذية للسيطرة الاجتماعية فاقت أحلامَ أعنف القياصرة.

ومع ذلك، عيوب الاستبداد autocracy واضحة أيضًا. فلا أحد، بغضِّ النظر عن مدى موهبته، بقادرٍ على التصدِّي لكل تحدِّيات الحُكْم الإمبراطوري، وتقريبًا لا أحد بقادرٍ على مقاومة الطموحات الفاسدة لدى أي سلطة مطلقة. الانتقاداتُ الموجَّهة

للدولة الهَرَميَّة سياسيةٌ واقتصاديةٌ على حدٍّ سواء. ومنذ القرن الثامن عشر، تبنَّى العالَمُ الغربي رؤيةً للديمقراطية أكثر إيجابية من رؤى المنظِّرين السياسيين القِدامى ومنظِّري عصر النهضة، أو على الأقل رؤية أكثر إيجابية للحُكْم المُقيَّد بمحاكم مستقلة وبشكل من أشكال الهيئة التمثيلية [النيابية] representative، وإن اعْتوَرتْها نكساتٌ. وبغضّ النظر عن الجاذبية الكامنة في الحرية السياسية، ارتبطت التكويناتُ السياسيةَ الأشمل [التي تتضمن عددًا من الأفراد أكبر] بتطوير اقتصادي أكثر استدامة[155].

وهي أقدر بشكل أفضل أيضًا على التعامل مع تعقيداتٍ كنموّ السكان والتقدم التكنولوجي. كما أنها أقل تأثرًا بقَطْع الرأس decapitation: عندما يحكم رجل واحد، يُؤدِّي اغتيالُه إلى انهيار مفاجئ للنظام الهَرَمي بأكمله. وفي الوقت نفسه، يقول الاقتصاديون منذ آدم سميث[156] Adam Smith إن نظام السوق الحرة العَفْوي أفضل بطبيعته في تقسيم الموارد من محتكر وحيد خاص أو حكومة قوية جدًا.

ومن الناحية العملية، تركت نسبةٌ كبيرة من الحُكَّام الأوتوقراطيين [الاستبداديين] في التاريخ قدرًا كبيرًا من السلطة للسوق، وإنْ نظَّموا الضرائب، أو تدخلوا أحيانًا في عمليات السوق. ذلك هو السبب في أن مدينةً من طراز نموذجي في العصور الوسطى أو بواكير العصر الحديث - مثل مدينة سيينا Siena في [إقليم] توسكاني Tusca - نجد فيها البُرْج tower، الذي يمثل السلطة العَلْمانية [الدنيوية]، يقف بجوار الساحة square بل يُلقي بظلاله عليها، حيث تجري عمليات السوق التجارية وأشكال أخرى من التبادل العام (انظر اللوحة الاتية).



لذا، من الخطأ متابعة فريدريك هايك[157] Friedrich Hayek في تصوُّره لوجود ثنائية بسيطة بين الدولة والسوق. وذلك لأن نظام الحُكْم يُحدِّد الإطارَ القانوني الذي يعمل من خلاله السوق، بالإضافة إلى أن الأسواق والبيروقراطيات أيضًا - كما قال فيما بعد ماكس بِوايزت[158] Max Boisot - هما بحد ذاتهما نمطان مثاليان من أنماط شبكات تبادل المعلومات، كالعشائر أو الإقطاعيات[159].

لكن الشبكات غير الرسمية مختلفة. ففي شبكات من هذا النوع - طبقًا لعالِم اجتماع السلوك التنظيمي والتر باوِل[160] Walter Powell - «لا تحدث العمليات التجارية عبْر تبادلات منفصلة ولا عبْر أمر إداري، بل من خلال شبكات أفراد يشاركون في أفعال تبادلية وتفضيلية يدعمونها بالتبادل... ولا تنطوي على معيار صريح للسوق، كلا ولا على الأبوية paternalism المألوفة في التسلسل الهَرَمي»[161]. وقد أدرك دارسو حَوْكمة [إدارة] الشركات corporate governance، منذ وقت طويل، دور شبكات مجالس الإدارة المتداخلة في بعض الاقتصادات. مجموعات كيرتسو[162] keiretsu اليابانية هي إحدى مجموعات عديدة من شبكات التجارة والأعمال. وتستدعي

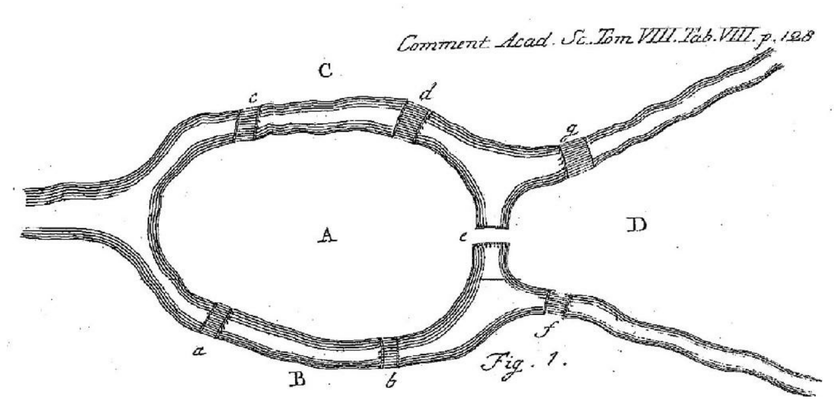
تنظيماتٌ من هذا النوع ملاحظةَ آدم سميث الشهيرة بأن «أهل التجارة الواحدة نادرًا ما يجتمعون معًا للهو والتسلية، بل لمحادثة تنتهي إلى مؤامرة ضد العامة، أو من أجل رفع الأسعار»[[163]].

وبصعوبة، يدرك بعض علماء السياسة أيضًا أن الشبكات تحتل منطقة وسطى[164]. هل المشاركون في شبكة ما، يتاجرون خِلْسةً، حتى لو كان ما يُتَبادَلُ عطايا بدلاً من الأوراق النقدية؟[165] وهل الشبكات هي شركات مُهَيْكَلة بطريقة سائلة؟[166] حاول منظِّرو الشبكة التفتيش عن إجابات هذه الأسئلة على مدى سنوات عديدة، ومع ذلك كان عملهم يُتَجاهَلُ معظم الوقت، ولا سيما من المؤرِّخين حتى وقت جِدِّ قريب.

## 5
## من الجسور السبعة إلى الدرجات الست

يعود تاريخ الدراسة المنهجية للشبكات إلى منتصف القرن الثامن عشر، أيام مجد مدينة كونيجسبرج[167] Königsberg عاصمة بروسيا الشرقية East Prussia، موطن الفيلسوف إيمانويل كانط Immanuel Kant. مِن بين مشاهد مدينة كونيجسبرج سبعةُ جسور عبر نهر بريجيل Pregel River تربط بين ضفتيْ النهر وجزيرتين في وسطه، كما تربط الجزيرتين معًا أيضًا (انظر الشكل 4).

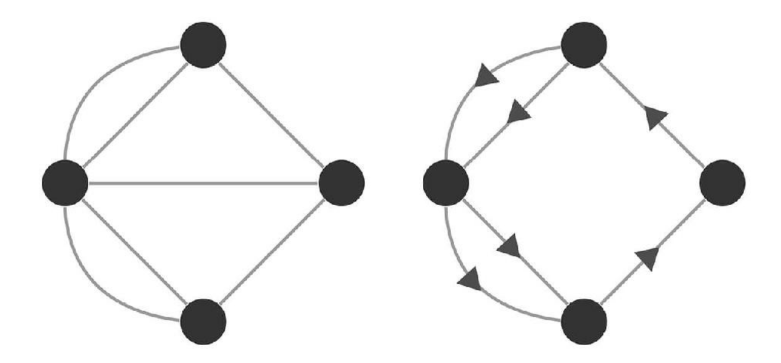
كان لغزًا مألوفًا لدى مواطني المدينة استحالةُ المَشْي عبر الجسور السبعة كلها مرة واحدة، دون العبور مرة أخرى على أيٍّ منها[168]. وهي المشكلة التي جذبت انتباه عالِم الرياضيات السويسري الكبير ليونهارت أويلر[169] Leonhard Euler، الذي ابتكر في عام 1735 نظرية الشبكة network theory ليبرهن منهجيًا على سبب استحالة هذا المَشْي. في الرسم البياني المبسَّط (انظر الشكل 5)، توجد أربع «عُقَد» nodes تمثل ضفتيْ النهر الرئيسيتين والجزيرتين الصغرى والكبرى، وسَبْع «حوافٍّ» edges تمثل الجسورَ التي تربط بينها. برهن أويلر منهجيًا على أن احتمال وجود مسار يَعْبُر كل حافَّة، مرة واحدة فقط، لا بد أن يعتمد على درجة العُقَد (عدد الحوافّ التي تُلامِس كل عُقْدة). والرسم البياني إما أن يحتوي على عُقْدتين بعدد حوافٍ فردي أو لا يحتوي. ولأن الرسم البياني لجسور كونيجسبرج يحتوي على أربع عُقَد من هذا النوع (عُقْدَة بخَمْس حوافٍّ وثلاث عُقَد بثلاث حوافٍّ)، فلا يمكن أن يوجد مسار أويلر. إن المشي عبر كل جسر، مرة واحدة فقط، سيكون ممكنًا فقط، لو أُزيلَتْ حافَّةٌ واحدة: الجسر الذي يربط بين الجزيرتين. وعندئذٍ، سيكون لعُقْدتين فقط درجة ذات رقم فردي. منذ زمن أويلر، الوحدات الأساسية في نظرية الرسم البياني - التي ابْتَكَرَ لها اسمَ «هندسة الموقع» - تحتوي على عُقَدٍ nodes (أو رؤوس vertices) وحوافٍّ edges (أو روابط links).




الشكل: 4 - شكل أويلر رقم 1 من كتابه

.(Solutio problematis ad geometriam situs pertinentis (1741

مَن يريدون اختبار نظرية أويلر لن يمكنهم ذلك حرفيًا؛ لأن جسريْن من الجسور السبعة الأصلية لم يبقيا بعد قَصْف المدينة في الحرب العالمية الثانية، وهُدِمَ جسران آخران بعد أن سُمِّيَت المدينة باسم كالينينجراد Kaliningrad تحت الحُكْم السوفييتي.



الشكل: 5 - رسم بياني مبسَّط لمشكلة جسر كونيجسبرج عند أويلر. فبإزالة الحافَّة الوسطى (الجسر الذي يربط بين الجزيرتين في الشكل 4) تُحَلُّ المشكلةُ.

قام علماء القرن التاسع عشر بتطبيق هذا الإطار على كل شيء، بدءًا من رسم الخرائط مرورًا بالدوائر الكهربية انتهاءً بأيسومرات[170] isomers المركَّبات العضوية[171].

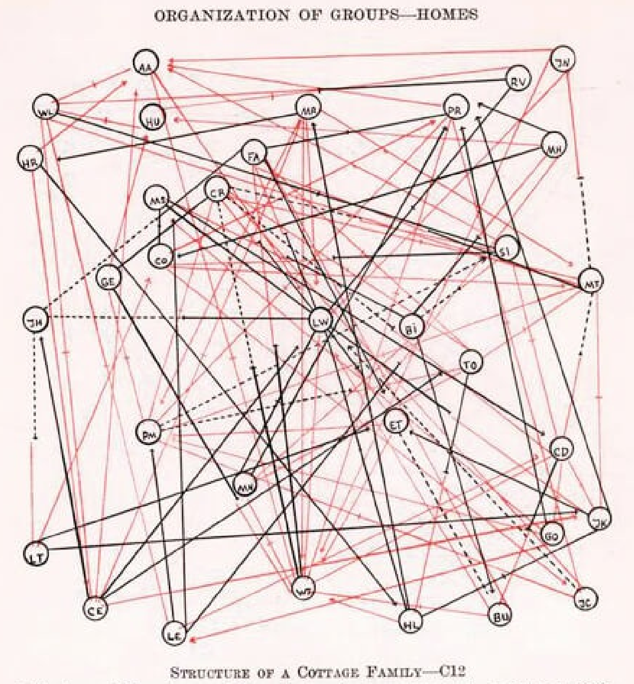
وقد خَطَرَ في بال بعض كبار المفكرين السياسيين في ذلك العصر وجودُ شبكات اجتماعية، ولا سيما جون ستيوارت مِل John Stuart Mill، وأوجست كونت Auguste Comte، وأليكسيس دي توكفيل[172] Alexis de Tocqueville؛

وقد أدرك توكفيل أن الحياة الجماعية الثرية في بواكير الولايات المتحدة كانت حاسمةً في تشغيل الديمقراطية الأمريكية. ومع ذلك، لم يحاول أحدٌ منهم إضفاء طابع منهجي على هذه الرؤية. لذا، ربما يُؤرَّخُ لدراسة الشبكات الاجتماعية بعام 1900، حين نشر العالِم الاجتماعي، الهاوي والمدرِّس بإحدى المدارس، يوهانس ديلتش Johannes Delitsch مصفوفةً تُصوِّر صداقات ثلاثة وخمسين تلميذًا كان يُدَرِّسُ لهم في فصله الدراسي عام 1880 - 1881[173].

لقد حدَّد ديلتش علاقة وثيقة بين تقاربات التلاميذ الاجتماعية وترتيبهم الأكاديمي الذي كان في تلك الأيام أساسَ الجلوس في الفصول. عملٌ مماثلٌ إلى حد ما، تمَّ بعد ثلاثة عقود في نيويورك New York، عندما استعمل الطبيب النفسي جاكوب مورينو[174] Jacob Moreno - نمساوي المَوْلد

ولكنه ضد الفرويدية – السوسيوجرام[175] sociograms لدراسة العلاقات بين الفتيات «الجانحات» في مدرسة إصلاحية في هـ د سـ ـن Hudson بولاية نيويورك.

ويُبيِّن بحثه المنشور في عام 1933 - تحت عنوان «مَن سيبقى؟» Who Shall Survive؟ - أن الزيادة المفاجئة في عدد الفتيات الهاربات [المتشرِّدات] في عام 1932 يمكن تفسيرها من حيث مواقع الهاربات في شبكة «الجَذب والطرد» الاجتماعية للمدرسة، التي كانت عِرْقيةً وجنسيةً معًا (انظر اللوحة الاتية).




STRUCTURE OF A COTTAGE FAMILY—C12

Criterion: Living in proximity, sharing the same house; 5 choices; no limit placed on rejections.

33 girls. *Unchosen* 1; *Unchosen and Rejected* 4; *Mutual Pairs* 31; *Mutual Rejections* 7; *Incompatible Pairs* 21; *Chains* 2; *Triangles* 2; *Stars* (of attraction) 4; *Stars* (of rejection) 1.

*Classification*: Introverted Group Organization; Inward Aggressive. Special Feature—Out of 33 individuals there are 31 who are either rejected or who reject some member of the group; only two are free from this pattern of aggression. It is interesting that this cottage is one of the two colored houses within the community, which is overwhelmingly white. The girls project most of their attractions as well as rejections upon the girls of their own race, producing an excess of love as well as of hate within a small social area.

*Note for the Group Psychotherapist*: Start a sociodrama and break the group into two opposing camps, the one unit consisting of individuals who indicate self preference, the other consisting of individuals who indicate self rejection. The problem to be explored will be whether self preference means here love for one's own race and self rejection hostility against one's own race.

هنا، يزعم مورينو أن «القوى الاجتماعية تهيمن على البشر». واعتقد أن الكِتَابَ «كتابٌ مقدس جديد للسلوك الاجتماعي والمجتمعات البشرية»[176].

ثم بعد ثلاثين عامًا، قام عالِمُ اللغويات والببليوجرافي يوجين جارفيلد[[177]] Eugene Garfield
بابتكار تقنية بيانية مماثلة لتصوير تاريخ الحقول العلمية عن طريق إنشاء «تأريخ» للاقتباسات. لقد وُجِدَتْ فهارسُ الاقتباس و«عوامل التأثير» منذ أن صارت إجراءاتٍ معياريةً للإنجاز الأكاديمي في العِلْم. وهي أيضًا طريقةٌ لرَسْمِ خريطةِ عمليةِ الابتكار العلمي، إذ تكشف مثلاً عن «الحشود غير المرئية» المُضَمَّنة في شبكات الاقتباس، التي تختلف اختلافًا كبيرًا عن الحشود الفعلية التي يستعملها معظم العلماء[178].

وتُبيِّنُ هذه المقاييس مَيْلَ العلماء إلى الاستشهاد بعمل علماء يُماثِلونهم في

التفكير. وكما يقول المثل القديم، الطيور على أشكالها تقع. ما ينطبق على الاقتباسات ينطبق على نحو أعمّ. عندما ترتبط عُقْدتان بعُقْدة ثالثة فثمة احتمال أن ترتبط كل عُقْدة بالأخرى، لأنه (على حدِّ تعبير الاقتصادي جيمس راوتش[179]
(James E. Rauch
«شخصان
على معرفة بي، من الأرجح أن يعرف أحدهما الآخر، بخلاف شخصين يُختاران عشوائيًا»[180].

وأيُّ ثلاثي يتواصل أفرادُه بمشاعر إيجابية، يقال إنه «ثلاثي متوازن» يُجسّدُ فكرة أن «صديق صديقي هو صديقي». أما الثلاثي الذي لا يعرف اثنان منهما أحدهما الآخر، رغم معرفتهما بالشخص الثالث، فيُسمَّى أحيانًا «الثلاثي المقطوع». (والثلاثي المتخالف، الذي فيه شخصان متحابّان والثالث خَصْم لأحدهما، يمثل حالةً غير مريحة عندما «يكون خَصْم صديقي هو أيضًا صديقي»)[181].

الهوموفيلي[182] homophily -
مَيْلنا إلى الانجذاب إلى أشخاص مشابهين لنا (ما يُعْرَفُ أيضًا ب
ا ل ت ج ا ن س assortativity) -
يمكن اعتباره إذن القانون الأول للشبكات الاجتماعية social networks.

إيفرت روجرز[183] Everett Rogers وديليب بوميك[184] Dilip Bhowmik كانا أول سوسيولوجييْن يشيران إلى أن الهوموفيلي لا ميزة له، لأنه يُضيِّق نطاقَ بيئة الفرد؛ ويفترضان أنه كان يوجد «الهيتروفيلي [الاختلاط] الأمثل»
optimal heterophily.

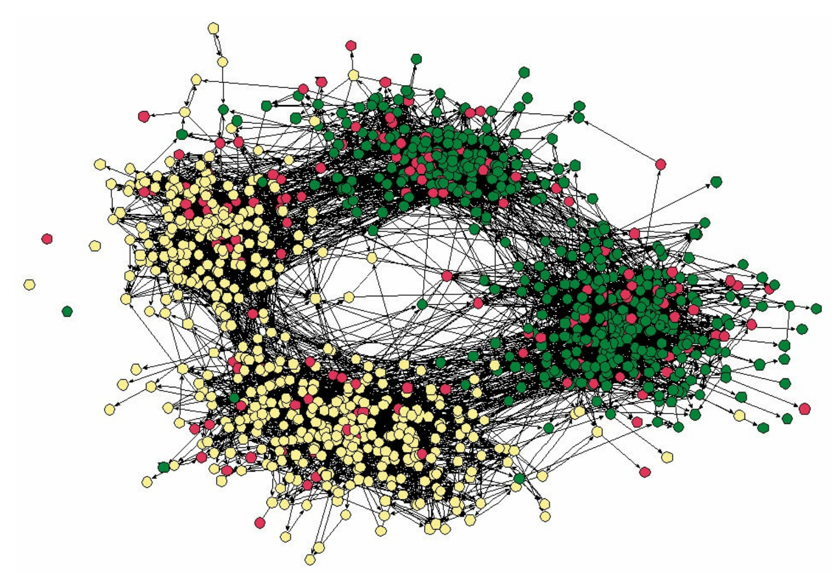
فهل كان الهوموفيلي نوعًا من عَزْل الذات أو تمييزها؟ في سبعينيات القرن العشرين، رسم وَين زاكري Wayne Zachary شبكةَ الصداقة بين أعضاء نادي الكاراتيه الجامعي. فكشف بوضوح عن وجود تجمُّعين [عنقودين] متمايزين داخل النادي. يقوم الهوموفيلي على أساس المكانة المشتركة (صفات موروثة مثل العِرْق أو السلالة أو الجنس أو العمر، وصفات مكتسبة مثل الدين أو التعليم أو المهنة أو أنماط السلوك)، أو قيم مشتركة يمكن تمييزها عن السمات المكتسبة[185].

المثال المألوف هو مَيْل تلاميذ المدارس الأمريكية إلى فَصْل الذات وتمييزها بالسُّلالة والعِرْق (انظر الوحة الاتية)، رغم أن الأبحاث الحديثة تشير إلى تفاوت

هذا المَيْل، بشكل كبير، فيما بين المجموعات العِرْقية[186] .

هل تُبيِّن لنا رسومٌ بيانية من هذا النوع أيَّ الأفراد مُهِمِّين؟ لم يحدث حتى القرن العشرين أنْ عَرَّفَ الباحثون وعلماء الرياضيات الأهميةَ importance منهجيًا بأنها «تَمَرْكُزِيَّة» centrality.

-



مقاييسُ الأهمية الثلاثة الأهمُّ في تحليل الشبكة المنهجي هي درجة التَّمَرْكُزية [187] degree centrality، والتَّمَرْكُزية البَيْنية[188] betweenness centrality، وتَمَرْكزيَّة التجاور أو القُرْب[189] closeness centrality.
تُحَدِّدُ درجةُ التمركزية - أيْ عدد الحوافِّ المنبعثة من عُقْدة معينة - ما يُسَمَّى المخالطة الاجتماعية [المؤانسة أو حبّ الاختلاط بالآخرين]
sociability: عدد علاقات فرد ما، البسيط، بالآخرين.

أما التمركزية البَيْنية التي مَنْهَجَها السوسيولوجي لينتن فريمان[190] Linton Freeman
في أواخر سبعينيات القرن العشرين، فتقيس مدى انتقال المعلومات عبر عُقْدة محددة. تمامًا كالرُّكاب الذين يبحثون - كلٍّ على حِدة - عن أقصر الطرق إلى وِجْهتهم، فيُركِّزون حركةَ المرور في عدد قليل من تقاطعات الطرق المكتظة، كذلك أيضًا حال الناس في شبكةٍ ما، إذ يعتمدون غالبًا على أفراد رئيسيين لرَبْطهم بأفراد أو مجموعات بعيدة. الأفرادُ ذوو التمركزية البَيْنية العالية ليست لديهم معظم الروابط بالضرورة، ولكن لديهم الروابط المُهِمَّة. (وبكلمات أخرى، لا يهمُّ كم عدد مَن تعرفهم، بل المهم مَن تعرف). وأخيرًا، تَقيس تمركزية التجاور أو القُرْب متوسطَ عدد «الخطوات» التي تتطلبها عُقْدةٌ للوصول إلى كل العُقَد الأخرى، وتُسْتَعْمَلُ غالبًا لاكتشاف مَن لديه أفضل وصول إلى المعلومات، على افتراض أنها مُوزَّعة على نطاق واسع[191].

والأفراد في شبكات اجتماعية ذات درجة تَمَرْكُزيَّة عالية أو تمركزية بَيْنية أو

تمركزية التجاور، يعملون - بطرقهم المختلفة - بوصفهم «محاور» hubs.

شَهِدَ منتصف القرن العشرين، أيضًا، تقدُّمًا مهمًا في مدى فَهْمنا لخصائص الشبكة الإجمالية، التي هي غير مرئية غالبًا من منظور أية عُقْدة مفردة. في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا Massachusetts Institute of Technology، اقترحَ آر دنْكان لوس[192] R. Duncan Luce وألبرت بيري Albert Perry استعمال مُعامِلات «التجميع»[193] clustering coefficient لقياس مدى الاتصال بين مجموعة عُقَد، بمجموعة صغيرة تُكَوِّنُ الحالةَ القصوى التي ترتبط فيها كل عُقْدة بجميع العُقَد الأخرى في الشبكة (من الناحية التقنية، مُعامِلُ التجميع هو نسبة الثلاثيات الاجتماعية المتصلة اتصالاً كاملاً، بمعنى أن كل عضو في الثلاثي متصل بالعضوين الآخرين). و«كثافة» الشبكة[194] density of network هي مقياس مماثل للترابط [الاتصال التفاعلي] interconnectedness.

وقد ظهرت أهميةُ مقاييس من هذا النوع في عام 1967، عندما أجرى السيكولوجي الاجتماعي ستانلي ميلجرام[195] Stanley Milgram تجربته المعروفة: أَرْسَلَ خطاباتٍ إلى سكان مُختارين عشوائيًا في ويتشيتا Wichita وكانساس Kansas وأوماها Omaha ونبراسكا Nebraska. وطلب من المُستلِمين إعادة توجيه الرسالة مباشرةً إلى المُستلِم النهائي المقصود - على التوالي: زوجةُ دارسِ لاهوتٍ في هارفارد Harvard وسمسار بورصة في بوسطن Boston - إذا كان هذا الشخص معروفًا بشَخْصه لهم؛ أو إعادة توجيه الرسالة إلى شخص يعتقدون أنه يعرف المُستلِم الأخير، شريطة أن يعرفوا هذا الوسيط باسمه الأول، كما طلب أيضًا أن يرسلوا لميلجرام بطاقة بريدية «للمتابعة» تخبره بما فعلوه. وأخيرًا، طبقًا لميلجرام، 44 رسالة من 160 رسالة من نبراسكا وصلت في نهاية المطاف[196].

(وأشارت دراسةٌ أحدث إلى أنها 21 رسالة فقط)[197]. أتاحت السلاسل المكتملة لدى ميلجرام حساب عدد الوسطاء المطلوبين لوصول الرسالة إلى هدفها: في المتوسط خمسة[198].

وهذه النتيجة تَوقَّعها الكاتب المجري فريجايس كارينثي[199] Frigyes Karinthy

في قصته «سلاسل» Lanczemek (المنشورة عام 1929): شخصية تُراهِنُ رفاقَها على أنه يستطيع رَبْط نفسه بأي شخص يختارونه على سطح الأرض من خلال ما لا يزيد عن خمسة من معارفه، على شرط أن يعرف أحدهم شخصيًا. وهو ما أثبتت صحتَه، أيضًا، تجاربُ منفصلة أجراها علماء آخرون، ولا سيما العالِم السياسي إيثيل دي سولا بوول[200] Ithiel de Sola Pool وعالِم الرياضيات مانفريد كوخن[201] Manfred Kochen.

تحتوي الشبكة التي تربط بين عُقْدتين عبر خمسة وُسطاء على سِتِّ حوافٍّ. وعبارة «سِتّ درجات انفصال» six degrees of separation لم تُصَغْ حتى مسرحية جون جُورَي[202] John Guare التي تحمل هذا العنوان والمنشورة عام 1990، ولكنها ذات تاريخ طويل. فشأنُها شأنُ مفهومِ «عالَم صغير» small world (الذي أكسبته شهرةً نزهةُ ديزني لاند Disneyland المبتكرة في عام 1964)، أو المفهوم الأكثر تقنيةً عن القُرْب. لقد لخَّصت العبارةُ بدقة نموَّ الإحساس بالاتصال والترابط في منتصف القرن العشرين. فثمة منذ ذلك الحين تنويعات عديدة على هذه التيمة: سِتُّ درجات مارلون براندو Marlon Brando، وسِتُّ درجات مونيكا لوينسكي Monica Lewinsky، وسِتُّ درجات كيفين بيكُن Kevin Bacon (التي صارت لعبة طاولة)، وسِتُّ درجات لويس وايسبيرج Lois Weisberg (أمّ أحد أصدقاء مالكوم جلادويل Malcolm Gladwell)؛ ونظيرها الأكاديمي سِتُّ درجات عالِم الرياضيات بول إيردوس[203] Paul Erdös، وهو نفسه رائد نظرية الشبكة، كما رأينا[204]. تشير البحوث الحديثة إلى أن التغير التكنولوجي منذ سبعينيات القرن العشرين أقل تغيُّرًا مما هو شائع[205]. ومع ذلك، درجات الانفصال عند مديري ثروة ألف شركة 4.6[206].

وبالنسبة إلى مُستخدِمي الفيسبوك كانت 3.74 عام 2012[207]، و3.57 فقط عام 2016[208].

## 6
## روابط ضعيفة وأفكار فيروسية

ما يجعل هذا النوعَ من النتائج مثيرًا للاهتمام مَيْلُنا إلى التفكير في شبكات الأصدقاء بوصفها مجموع

ات صغيرة أو زُمَر صغيرة نسبيًا مكوَّنة من أُناس متماثلين ومتشابهين في التفكير، معزولةً عن مجموعات أخرى ينطوي أعضاؤها على تقاربات مختلفة مع بعضهم البعض. وحقيقة أننا رغم كل شيء على بُعْد سِتِّ درجات فقط من مونيكا لوينسكي[209]، أمرٌ يوضحه ما أسماه السوسيولوجي مارك جرانوفيتر[210] Mark Granovetter، على نحو فيه مفارقة، «قوة الروابط الضعيفة»[211] [212] the strength of weak ties.

فإذا كانت كل الروابط كالروابط الهوموفيلية القوية [الروابط المقتصرة على المُماثِل أو المُطابِق] بيننا وبين أصدقائنا الحميمين، فإن العالَم سيكون بالضرورة متشظيًا. لكن الروابط الأضعف - ب«معارف» لا يُشْبهوننا كثيرًا - هي المفتاح الرئيسي لظاهرة «العالَم الصغير» small world. كان تركيز جرانوفيتر الأوَّلي على الطريقة التي يبحث بها الناس عن وظائف يساعدهم في الحصول عليها المعارفُ أكثر من الأصدقاء المُقرَّبين، ثم في وقت لاحق، ركَّزَ على فكرة أنه في مجتمع ذي روابط ضعيفة قليلة العدد نسبيًا «ستنتشر الأفكار الجديدة ببطء، وستُعاق الجهودُ العِلْمية؛ أما المجموعات الفرعية المعزولة بسبب العِرْق أو السُّلالة أو الجغرافيا أو أية خصائص أخرى فستُواجِه صعوبةً في التوصُّل إلى تسوية مؤقتة تضمن تعايشًا سِلْميًا modus vivendi»[213]. وبكلمات أخرى، الروابط الضعيفة هي الجسور الحيوية بين مجموعات مختلفة لا سبيل إلى اتصالها إطلاقًا[214].

كانت فكرة جرانوفيتر عبارة عن ملاحظة سوسيولوجية قائمة على مقابلات وبيانات متماثلة، وتعرَّضت للتنقيح على أساس دراسات ميدانية. فكشفت هذه الدراسات، مثلاً، أن الروابطَ القوية مُهِمَّةٌ للفقراء أكثر من الروابط الضعيفة، الأمر الذي يشير إلى أن الشبكات مُحْكَمَةَ التماسك في العالَم البروليتاري تميل إلى إدامة الفقر[215]. وقد أَظْهَرَ في عام 1998، وليس قبله، عالِما الرياضيات دُنْكِن واتس[216] Duncan Watts وستيفن ستروجاتس[217] Steven Strogatz السببَ في أن عالَمًا يتميز بمجموعات [هوموفيلية] مقتصرة على المُطابِق أو المُماثِل هو عالَم صغير. لقد صنَّفَ واتس وستروجاتس الشبكات من حيث خاصَّتين مستقلتين نسبيًا: متوسط تمركزية التجاور في كل عُقْدة ومُعامِل التجميع العام في الشبكة. بدآ بشبكة دائرية ترتبط فيها كلُّ عُقْدة بجاراتها الأُوَّلِ والثواني الأقرب فقط، فبَيَّنا أن الإضافة العشوائية لعدد قليل من الحوافِّ الزائدة

كَفَتْ لزيادة القُرْب بين كل العُقَد، دون زيادة كبيرة في مُعامِل التجميع الكلي[218].
بدأ واتس عمله بدراسة صوت الصراصير المتزامن، ولكن آثار نتائجه ونتائج ستروجاتس على البشر كانت واضحة. وعلى حدِّ تعبير واتس: «الاختلاف بين رسم بياني لعالَم كبير وعالَم صغير هو مسألة بضع حوافٍّ عشوائية مطلوبة، وهو تغيير لا يمكن اكتشافه عند مستوى الرؤوس [العُقَد] الفردية... ويُؤدِّي الطابعُ التجميعي العالي في الرسومات البيانية لعالَم صغير إلى حَدْس بأن مرضًا معينًا «بعيدٌ»، على حين أنه بالعكس جدّ قريب»[219].

وبالنسبة إلى علماء الاقتصاد، أيضًا، انطوى التقدُّم في علم الشبكة على آثار مهمة. تخيَّلَ الاقتصادُ المعياري[220] standard economics أحيانًا أسواقًا غير متمايزة مأهولة بوكلاء فرديين بأعلى درجة من المنفعة وبمعلومات كاملة. كانت المشكلةُ - التي حَلَّها الاقتصاديُّ الإنجليزي رونالد كوَس[221] Ronald Coase، الذي أوضح أهمية تكاليف المُعامَلات[222] – إيضاحَ السبب في وجود الشركات. (نحن لسنا كل عمَّال الميناء، نُستأجَر ويُدْفَع لنا طول اليوم مثل مارلون براندو في فيلم «على الواجهة البحرية»[223] On the Waterfront، لأن توظيفنا بانتظام داخل شركات يُقلِّلُ التكاليفَ التي تنشأ عند استئجار عُمَّال على أساس يومي).

لكن إذا كانت الأسواق شبكات، يُشكِّل معظمُ الناس فيها مجموعاتٍ مترابطةً تقريبًا، فسيبدو العالَمُ الاقتصادي جِدَّ مختلف، لأن تدفق المعلومات ستُحدِّده هياكلُ الشبكات[224]. العديد من المبادَلات ليست مجرد صفقة لمرة واحدة يكون السِّعرُ فيها مسألة عرض وطلب.

الائتمان هو وظيفة ثقة، ويكون بدوره أعلى داخل مجموعة أُناس متماثلين (مثلاً، جماعة مهاجرين). وينطوي هذا على آثار ليس بالنسبة إلى أسواق العمل [التشغيل] فقط، وهي الحالة التي درسها جرانوفيتر[225].

شبكات التُّجار المغلقة يمكن أن تتواطأ ضد الجمهور وتمنع الابتكار. أما الشبكات الأكثر انفتاحًا فتشجِّع الابتكار بوصفه أفكارًا جديدة تصل إلى المجموعة بفضل قوة الروابط الضعيفة[226]. وقد أثارت هذه الملاحظات - في المقام الأول - السؤالَ عن كيف تتشكل الشبكات على وجه الضبط[227].

من الناحية العملية، يبدو واضحًا كيف تتكوَّن الشبكات. لقد أنتج العلماء والباحثون

- بدءًا من التُّجار المغاربة في البحر المتوسط[228]، القرن الحادي عشر، الذين درسهم أفنر جريف[[229]] Avner Greif،
إلى رُوَّاد الأعمال والمديرين في العصر الحديث الذين درسهم رونالد بيرت[[230]]
Ronald Burt - أدبياتٍ غنية عن دور شبكات الأعمال[[231]] business network في توليد رأس المال
الاجتماعي[[232]]وتشجيع الابتكار أو إحباطه. بمصطلحات بيرت، التنافس بين الأفراد والشركات تُهَيْكِلُه الشبكاتُ، مع وجود «ثغرات هيكلية» [فجوات بنيوية
[[233]] structural holes[234] - بين المجموعات بسبب غياب الروابط الضعيفة - مثل «الفُرَص الرِّيادية من أجل الوصول إلى المعلومات والتوقيت والتشاورات والسيطرة»[235]. والوُسَطاء brokers - وهم أُناس قادرون على «سدِّ الثغرات» - «يُكافَأون (أو ينبغي أن يُكافَأوا) على عملهم التكاملي»، لأن موقعهم يجعلهم يمتلكون أفكارًا إبداعية على الأرجح (أو أقل تعرُّضًا للمعاناة من التفكير الجماعي group - think). ففي المؤسسات الابتكارية، هؤلاء الوُسَطاءُ محلُّ تقدير دائمًا. ومع ذلك، في معظم التنافسات بين وسيط مُبتكِر وشبكة تميل إلى «الانغلاق» (أيْ: الانعزالية والتجانس) تنتصر هذه الشبكة غالبًا[236]. وينطبق ذلك على الفلاسفة الأكاديميين بقدر ما ينطبق على موظفي شركة إلكترونيات أمريكية[237].

«السلوك التنظيمي» organizational behavior، وهو حقل فرعي كامل، يحتل الآن مكانة تأسيسية في معظم برامج الماجستير في إدارة الأعمال. ومن بين نتائجه الحديثة أن المديرين شَبَكِيّون على الأرجح أكثر من غير المديرين[238]؛ وأن «الشبكة الأقل هَرَمِيَّة هي الأفضل للتعاون الإنتاجي والتجانس في ثقافة تنظيمية»[239]؛ وأن الوُسَطاء ينجحون على الأرجح في سدِّ الثغرات الهيكلية إذا «تلاءموا ثقافيًا مع مجموعتهم التنظيمية»، في حين أن أولئك «المُضمَّنين هَيْكليًا» ينجحون أفضل حين «يتمايزون ثقافيًا».

وباختصار، «الوسطاء المتجانسون» و«المُنشقُّون المتكاملون» يميلون إلى الفعل بطريقة أفضل من نظرائهم[240] هنا، أيضًا، تُقدِّمُ نظريةُ الشبكة أفكارًا تنطوي على فائدة أبعد من محلِّ الشركة النمطي الذي يَسْخَرُ منه ريكي جيرفَيس في مسلسله التليفزيوني «المكتب»[[241]] Ricky Gervais's The office.

وفضلاً عن ذلك، نادرًا ما تكون شبكاتُ المكاتب كبيرةً جدًا. ولكن حجمَ الشبكة مهمٌّ بسبب قانون ميتكالف Metcalfe's Law - المُسمَّى باسم مخترع الإيثرنت

[242] Ethernet، روبرت ميتكالف Robert Metcalfe - الذي ينصُّ (في صورته الأصلية) على أن قيمة شبكة اتصالات عن بُعْد تتناسب مع مربع عدد الأجهزة المتوافقة التواصل. وينطبق ذلك على الشبكات بوجه عام، ولنقل ذلك ببساطة: كلما زاد عددُ العُقَد في الشبكة زادت قيمة الشبكة بالنسبة إلى العُقَد في مجموعها. وكما سنرى، ينطوي ذلك على عوائد مذهلة بالنسبة إلى الشبكات الكبيرة المفتوحة، وفي المقابل عوائد محدودة بالنسبة إلى الشبكات السرِّيّة و/أو الحَصْرية. بل وحتى في الشبكات الأكبر ثمة عُقَدٌ تعمل بوصفها وُسَطاء أو محاور.

عبارة «الانتشار الفيروسي»[243] to go viral أصبحت قولاً سائرًا، كأسًا مقدسة لدى المُعْلِنين والمُسوِّقين[244]. ومع ذلك، يُقدِّم علمُ الشبكة network science الطريقةَ المُثْلَى لفَهْم السبب في انتشار بعض الأفكار بسرعة كبيرة. فالأفكار - بل الأحوال والظروف الوجدانية شأنها شأن السِّمْنة - تنتقل من خلال شبكة اجتماعية كالفيروس المُعْدِي contagious virus.

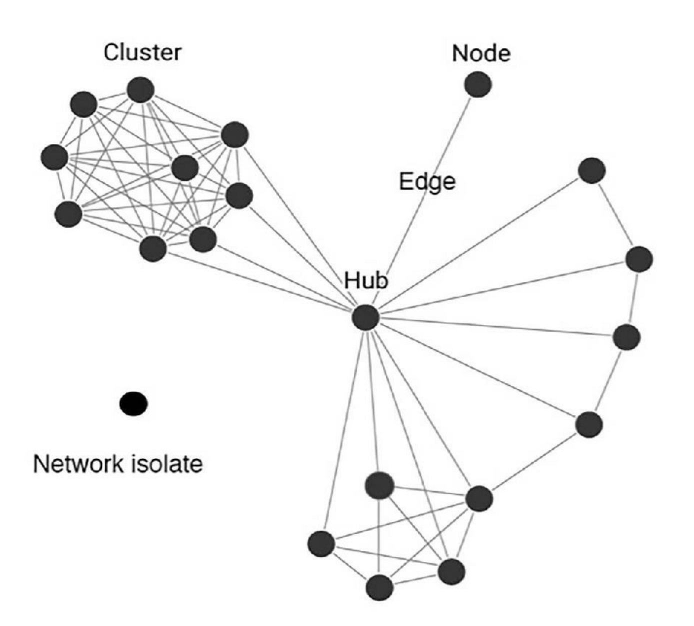
أما الأفكار (أو «الميمات»[245] memes، إذا استعملنا اللفظة الجديدة لدى المؤمنين بالنشوء والارتقاء) فهي، بوجه عام، أقلُّ عَدْوى من الفيروسات. تقوم الفيروسات البيولوجية وفيروسات الكمبيوتر عادةً ب«انتشار واسع تلقائي» عبر شبكة، لأن هدفها هو نشر نفسها بأقصى ما يمكن، مستهدفةً جميعَ ما يُجاوِرُ كلَّ عُقْدة أصابَتْها. أما نحن فنختار أعضاء شبكتنا التي نريد توصيل فكرة لهم أو نتلقَّى منهم فكرةً بوصفها فكرةً موثوقة[246]. سُمِّي الإسهامُ المبكر [في هذا السياق] «تدفق نمط الاتصال عبر خطوتين»[247] two - step flow of communication model، المرتبط بعالميْ الاجتماع بول لازارسفيلد[248] Paul Lazarsfeld وإليهو كاتس[249] Elihu Katz، اللذيْن قالا في خمسينيات القرن العشرين إن الأفكار تتدفق من الميديا إلى الجمهور الأوسع بوَسَاطة «قادة» الرأي[250].

وقد حاول باحثون آخرون، في أواخر القرن العشرين، قياسَ السرعة التي تنتقل بها الأخبار أو الشائعات أو الأفكار الجديدة. وثمة بحث أحدث، أظهر أنه حتى الأحوال الوجدانية تنتقل من خلال الشبكة[251].

ورغم أن التمييز بين تأثيرات الشبكة الداخلية والخارجية أبعد ما يكون عن السهولة[252]، فالدليل على هذا النوع من العَدْوَى واضح: «الطلبة الذين لديهم رفاق مُولَعون بالدراسة يصيرون أكثر وَلَعًا بالدراسة. تناولُ العشاءِ مع أشخاص

أكولين يدفع إلى تناول المزيد من الطعام»[253]. ومع ذلك، لا يمكننا، طبقًا لكريستاكيس Christakis وفاولر Fowler، نقل الأفكار والسلوكيات إلى أبعد من أصدقاء أصدقاء أصدقائنا (وبكلمات أخرى، عبر ثلاث درجات انفصال فقط). وذلك لأن نقل فكرة واستقبالها، أو سلوك، يتطلب اتصالاً أقوى من إعادة إرسال رسالة (كما في حالة تجربة ميلجرام)، أو تواصلاً يُتيح فرصةَ اشتغال محدَّدة.

مجرد معرفة الناس ليست هي المعرفة التي نستطيع بها التأثير فيهم كي يدرسوا أكثر أو يُفْرِطوا في تناول الطعام. المحاكاة، في حقيقتها، هي صورة التملُّق الأصدق، حتى حين تكون بلا وعي.




الشكل: 6 - المفاهيم الأساسية في نظرية الشبكة. كل نقطة في الرسم البياني هي عُقْدة، وكل سطر هو حافَّة. والنقطة التي تمتلك أعلى درجة تمركزية وتمركزية بَيْنية تُسَمَّى محور. والعُقد التي تمتلك كثافة أعلى أو مُعامِل تجميع موضعي أعلى من الأجزاء الأخرى في الرسم البياني تُسَمَّى «تكتل» أو «تجمُّع».

النقطة الرئيسية، كما هو الحال مع الأمراض الوبائية، أن بنية الشبكة تنطوي على أهمية تُعادِلُ أهميةَ الفكرة نفسها في تحديد سرعة الانتشار ومداه[254]. والدور الرئيسي في عملية الانتشار الفيروسي تلعبه العُقَدُ التي ليست مجرد محاور أو وُسَطاء فحسب، بل «حُرَّاس بوابة»: أناس يُقرِّرون ما إذا كانوا سينقلون معلومات إلى طرفهم في الشبكة أم لا[255]. وسيعتمد قرارهم، إلى حد ما، على اعتقادهم بمدى انعكاس المعلومات عليهم. وسيتطلب قبول فكرة، بدوره، أن تُنقلَ بوَسَاطة أكثر من مصدر أو مصدريْن. فعلى عكس مرض وبائي بسيط، تحتاج العَدْوَى الثقافية المعقدة، أولاً إلى تحقيق كتلة حرجة من المُتبنِّين الأوائل ذوي درجة تمركزية عالية (أعداد كبيرة نسبيًا من الأصدقاء المؤثِّرين)[256]. وعلى حدِّ تعبير دُنكان واتس، مفتاحُ تقديرِ احتمالِ وجودِ تتابعٍ شبيه بالعَدْوَى هو «التركيز على بنية الشبكة التي يُصِيبُها الحافزُ، وليس على الحافز نفسه»[257].

وفيما يتعلق بكل فكرة تنتشر فيروسيًا، يساعد هذا على إيضاح السبب في أن هناك أفكارًا أخرى لا تُحْصَى تَتبدَّدُ في الظلام لأنها بدأت من العُقْدة أو التكتل أو الشبكة الخطأ.

## 7
## أصناف الشَّبَكة

لو كانت كلُّ أبنية الشبكة الاجتماعية واحدةً، لَكُنَّا في عالَم مختلف تمامًا. مثلاً، العالَم الذي تتصل فيه العُقَدُ إحداها بالأخرى عشوائيًا - بحيث تكون أعدادُ حوافِّ كل عُقْدة مُوزَّعةً عادةً على شكل مُنْحَنى الجرس - سينطوي على خواصِّ «عالَم صغير»، ولكنه لن يكون مثل عالَمنا[258]. وذلك لأن العديد من شبكات العالَم الحقيقي تَتْبَعُ توزيعاتٍ شبيهة بتوزيع باريتو Pareto: شبكات تنطوي على المزيد من العُقَد بعدد حوافٍّ جِدِّ كبير، والمزيد من العُقَد بعددٍ أقل كثيرًا مما في شبكة عشوائية. وهو ما يُعَدُّ نسخةً مما يُسمِّيه السوسيولوجي روبرت ميرتن[259] Robert K. Merton «تأثير مَتَّى» the Matthew effect، تيمُّنًا بإنجيل القديس مَتَّى: «لأن كل مَن له، يُعْطَى فيزداد؛ ومَن ليس له، فالذي عنده يُؤْخَذُ منه»[260]

في العِلْم، النجاحُ يُولِّدُ النجاحَ: مَن لديه جائزة بالفعل، سيُعْطَى المزيد من الجوائز. ويمكن الوقوف على شيء مماثل في «اقتصاد النجوم والمشاهير»[261]. وبالطريقة نفسها، كلما توسَّعت العديدُ من الشبكات الكبيرة، اكتسبت العُقَدُ حوافًّا جديدة بما يتناسب مع العدد الذي لديها بالفعل (درجتها أو «كفاءتها»). ثمة باختصار «إلحاقٌ تمييزيٌّ»[262] preferential attachment.

ونحن ندين بهذه الفكرة للفيزيائي لازلو باراباسي[263] László Barabási والفيزيائية ريكا ألبرت[264] Réka Albert، فهما أول مَن افترضا أن معظم شبكات العالم الحقيقي تتبع توزيعات قانون الرَّفع[265] power law distribution أو تكون «حُرَّة النطاق»[266] [267]scale – free. الشبكات بحد ذاتها تتطوَّرُ، وعُقَدٌ قليلة فيها تصير محاور hubs ذات حوافٍّ عديدة أكثر من عُقَد أخرى[268]. وأمثلة هذه الشبكات وفيرة، تتراوح من مجالس إدارة ثروة ألف شركة إلى الاستشهادات في مجلات الفيزياء والروابط من صفحات الويب وإليها[269]. وعلى حدِّ تعبير باراباسي:

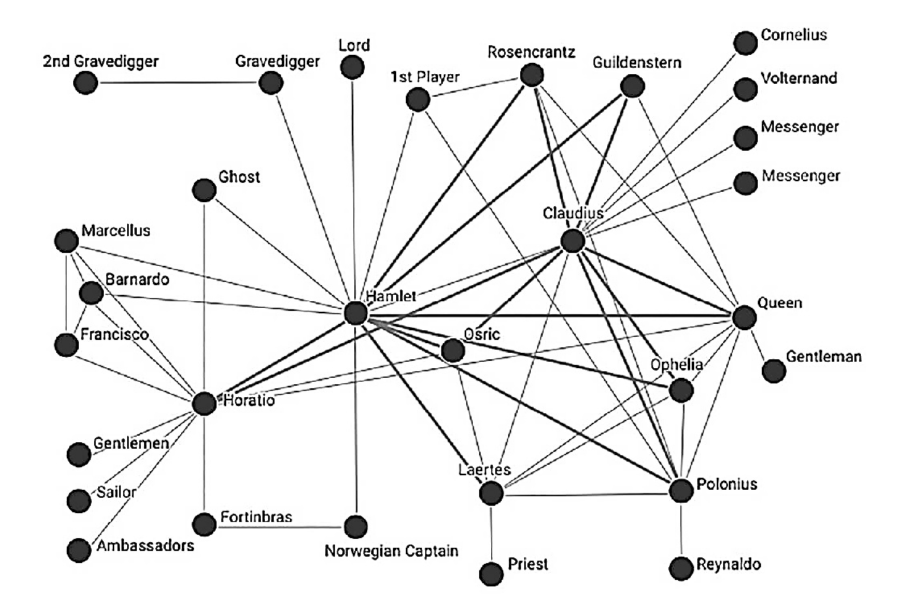
ثمة تسلسل هَرَمي للمحاور يحفظ وجود هذه الشبكات معًا، عُقْدة متصلة اتصالاً عاليًا يليها عن قُرْب عِدَّةُ عُقَدٍ أقل اتصالاً، متبوعة بعشرات العُقَد الأصغر. ولا توجد عُقْدة مركزية في وسط الشبكة العنكبوتية، تتحكم في كل رابط وعُقْدة وتراقبهما. لا توجد عُقْدة مفردة تُؤدِّي إزالتُها إلى هَدْم الشبكة. الشبكةُ حُرَّةُ النطاقِ هي

شبكة دون عنكبوت[270].

في الحالة القصوى (أيْ نموذج «الفائز يأخذ كل شيء» the winner - takes - all model)، تحصل العُقْدَةُ الأنسب على كل الروابط، أو كلها تقريبًا. وفي أكثر الأحيان، يوجد نموذجُ «اللائق يَغتني» fit get rich، إذ توجد «عُقْدةٌ متصلة اتصالاً عاليًا تليها عن قُرْبٍ عِدَّةُ عُقَد أقل اتصالاً، متبوعة بعشرات من العُقَد الأصغر»[271]. توجد أيضًا أبنيةٌ أخرى للشبكة المتوسطة: مثلاً، شبكات صداقة المراهقين الأمريكيين ليست عشوائية ولا حُرَّة النطاق[272].

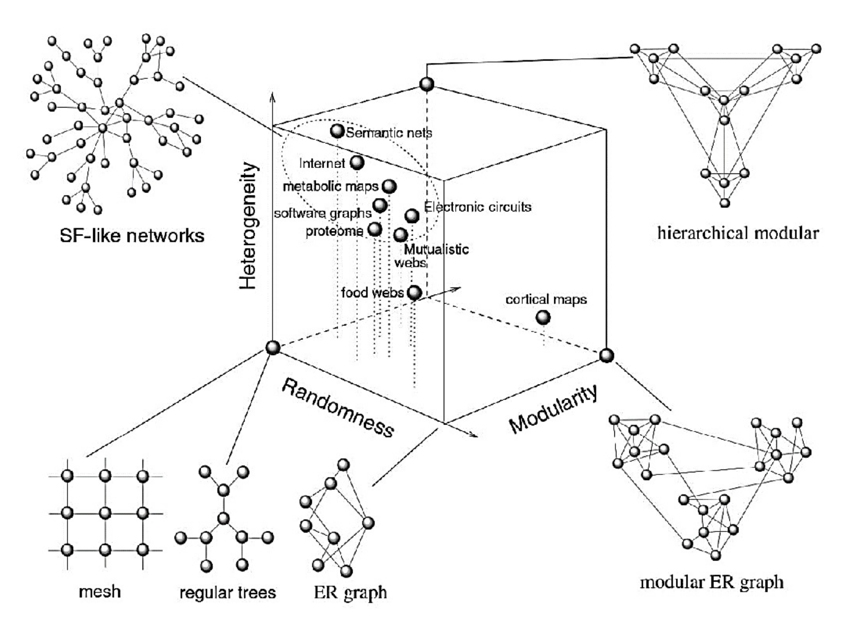
في الشبكة العشوائية، كما بَيَّنَ إردوس ورينياي منذ وقت طويل، تحتوي كل عُقْدة داخل الشبكة على عدد الروابط نفسه بالعُقَد الأخرى. وأفضل مثال على شبكات العالم الحقيقي هو شبكة الطرق السريعة المحلية في الولايات المتحدة، فمن خلالها تحوز كلُّ مدينة رئيسية عددَ الطرق السريعة نفسه الذي يربطها بالمدن الأخرى.

والمثال على الشبكة حُرَّة النطاق هو شبكة النقل الجوي بالولايات المتحدة، التي يرتبط فيها عدد كبير من المطارات الصغيرة بمطارات متوسطة الحجم، ترتبط بدورها بعدد قليل من المحاور الضخمة المكتظة. وثمة شبكات أخرى مركزية للغاية دون أن تكون بالضرورة حُرَّة النطاق. إحدى طرق فَهْم التراجيديا [المأساة] التي تَتكشَّفُ في مسرحية شكسبير «هاملت» Hamlet تتمثل في رَسْم شبكة العلاقات بين الشخصيات، التي فيها يحوز هاملتُ وزوجُ أمِّه كلوديوس Claudius درجةَ التمركزية الأعلى (أيْ عدد الحوافّ: انظر الشكل 7).




الشكل: 7 - شبكة بسيطة ولكنها تراجيدية: «هاملت» شكسبير. هاملت يقود من حيث درجة التمركزية (سِتّ عشرة مقارنةً بثلاث عشرة لدى كلوديوس). وتشمل «منطقةُ الموت» في المسرحية الشخصياتِ المتصلةَ بكلٍّ من هاملت وكلوديوس.

ولْنضَعْ في الحسبان، الآن، كلَّ الطرق التي يمكن بها لشبكة أن تختلف عن النسخة العشوائية (انظر الشكل 8).




الشكل: 8 - أصناف الشبكة (SF: حُرَّة النطاق؛ ER: إيردوس - ريناي، أيْ عشوائية).

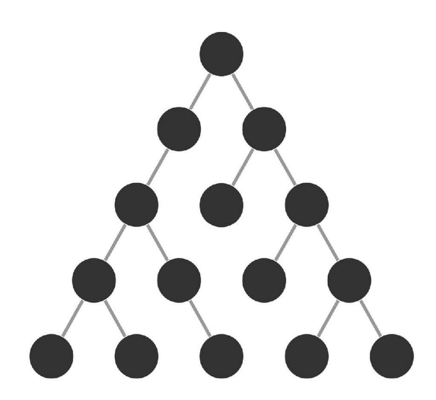
من الممكن أن تكون الشبكةُ عاليةَ التحديد وغير عشوائية، مثل تعشيقة mesh أو شَعيريَّة lattice الكريستال، حيث كل عُقْدة لها عددُ الحوافِّ نفسُه كسائر العُقَد الأخرى (يسارًا من أسفل). ويمكن أن تكون الشبكةُ شبكةَ وحدات modular؛ أيْ يمكن تقسيمها إلى عدد من التجمُّعات المنفصلة رغم ترابطها معًا بعدد قليل من الحوافِّ التجسيرية (يمينًا من أسفل).

ومن الممكن أيضًا أن تكون الشبكةُ غيرَ متجانسة، فتتفاوت كلُّ عُقْدة فيها تفاوتًا كبيرًا من حيث الأهمية التَّمَرْكزيَّة، كالشبكات حُرَّة النطاق التي تُميِّزُ الجماعات على الإنترنت (يسارًا من أعلى). وبعضُ الشبكات هَرَميَّةٌ وذاتُ وحدات، كالنُّظُم الجينية المُعَقَّدة التي تُنظِّمُ عمليات التمثيل الغذائي [الأيْض]، والتي توجد فيها نُظُمٌ فرعية تحت سيطرة نُظُم أخرى (يمينًا من أعلى)[273].

يمكننا الآن بشكل واضح فَهْم أن التسلسل الهَرَمي - وبعيدًا عن كَوْنه نقيضَ الشبكة - هو مجرد نوع خاص من أنواع الشبكة. فكما يُبَيِّنُ الشكلُ 9، الحوافُّ في شبكة هَرَميَّة مثالية تتبع نمطًا منتظمًا، كنمط الشجرة المقلوبة (أو جذور الشجرة). لبناء شبكة هَرَميَّة، ابدأْ بعُقْدة عُلْيا، وأَضِفْ عددًا معيَّنًا من العُقَد التابعة.

وإلى كل عُقْدة تابعة أَضِفْ عدد العُقَد التابعة ثانيةً، وهكذا. المفتاح هو الإضافة الدائمة لعُقَدٍ من الأسفل، ولكن لا تَقُمْ أبدًا بتوصيل العُقَد أفقيًا. الشبكات المَبْنيّة بهذه الطريقة لها خواصٌّ محددة. إذ لا توجد دورات، بمعنى أنه لا مسار يخرج من العُقْدة عائدًا إليها. ثمة مسار واحد فقط يربط بين أي عُقْدتين، الأمر الذي يوضح سلاسل القيادة [السيطرة] والاتصال. الأهمُّ أن العُقْدَة العُلْيا تنطوي على تمركزية بَيْنية وتمركزيةِ تجاورٍ أعلى: أيْ يُصَمَّمُ النظامُ ليزيد من قدرة العُقْدة على الوصول

إلى المعلومات والتحكّم فيها معًا، بأقصى ما يمكن. وكما سنرى، تُحقِّقُ تسلسلاتٌ هَرَميّة قليلةٌ هذه السيطرةَ الكلية على تدفُّق المعلومات، وقد اقترب الاتحاد السوفييتي في عهد ستالين Stalin من ذلك. معظمُ التنظيمات هَرَميَّةٌ في الممارسة العملية، جزئيًا فقط، وتُشْبِه «التسلسلاتِ الهَرَميَّةَ التعاونية» في العالَم الطبيعي[274]. ومع ذلك، من المفيد التفكير في التسلسل الهَرَمي البحت بوصفه «مُناهِضًا للعشوائية» بمعنى ما؛ حيث تُحْظَرُ فيه الاتصاليةُ غير الشرعية [الاختراقية] المرتبطة بالشبكات، كما يُحْظَرُ فيه قبل كل شيء التجمُّعُ أو التكتل.



الشكل رقم: 9 - التسلسل الهَرَمي نوع خاص من الشبكات. في المثال الموضَّح هنا، العُقدة في القمة تمتلك أعلى تمركزية بينية وأعلى تمركزية قُرْب أو تجاور. ويمكن للعُقد الأخرى أن تتواصل مع معظم العُقد الأخرى من خلال هذا المحور الحاكم.

ينبغي ألا يُنْظَرَ إلى أصناف الشبكة تلك، بوصفها تصنيفات جامدة [إستاتيكية]. فالشبكات نادرًا ما تتجمَّد بمرور الوقت. الشبكاتُ الكبيرة أنظمةٌ معقدة، تنطوي على «خواص طارئة»؛ فالأبنيةُ والأشكال والخصائص الجديدة تميل إلى التعبير عن نفسها من خلال «نقلات مرحلية» لا يمكن التنبوء بها. وكما سنرى، يمكن لشبكة عشوائية أن تتطور بسرعة مذهلة إلى شبكة هَرَميَّة. فعدد الخطوات بين الحشد الثوري والدولة التوتاليتارية [الشمولية][275] totalitarian state ثبَتَ، أكثر من مرة، أنه عدد قليل بشكل مذهل. وعلى المنوال نفسه، أبنية النظام الهَرَمي الصلبة [الجامدة] تتفكَّك بسرعة مذهلة[276]. ولا يصدم هذا دارسي الشبكات.

فنحن نعرف الآن أن إضافة عدد جِدِّ صغير من الحوافِّ الجديدة، بشكل عشوائي، يُقلِّلُ بشكل كبير معدَّلَ الانفصال بين العُقَد. ليس مطلوبًا الكثيرُ من الحوافِّ الإضافية في (الشكل رقم9) لتدمير احتكار العُقْدة الحاكمة للتواصل. ويساعد ذلك على تفسير السبب في أن الأباطرة والملوك، خلال التاريخ، يَقْلَقون من المؤامرات.

العُصَب [أو الجَمْعيَّات السريّة][277] cabals، وبطانة المستشارين camarillas و ا ل خ لا ي ا cells والزُّمَر cliques والشِّلل coteries: كل هذه الكلمات لها دلالاتٌ شِرِّيرةٌ في سياق البلاط المَلَكي. لقد أدرك الهَرَميون [الهيراركيون] hierarchs منذ وقت طويل أن التآخي بين الأتباع يمكن أن يكون مقدمةً لانقلاب القصر[278] palace coup.

# 8
# عندما تلتقي الشبكات

التحدِّي المفاهيمي الأخير - والأهمُّ عند المؤرِّخ - هو النظر في كيفية تفاعل شبكات مختلفة إحداها مع الأخرى. افتَرَضَ العالِمُ السياسي جون بادجيت John Padg، ومشاركوه في التأليف، وجودَ تناظر بيوكيميائي، مجادلين بأن التجديدَ التنظيمي والابتكار كليهما نتاجُ التفاعل بين الشبكات، ويتخذ ثلاثة أشكال رئيسية: «التحويل أو التعديل»، «إعادة التوظيف»، «التحفيز»[279]. الشبكة الاجتماعية المرنة ستميل ميلاً تلقائيًا إلى مقاومة تغيير قواعدها الإنتاجية وبروتوكولات الاتصال. أما حين تُنْقلُ شبكةٌ اجتماعية وأنماطها، من سياق كي يُعادَ توظيفها في سياق آخر، فسيحدث التجديد بل الابتكار[280].

وقد استعمل بادجيت هذه الفكرة، كما سنرى، لشرح التغيُّرات في بنية مدينة فلورنسا Florence الاقتصادية والاجتماعية في عهد آل ميديتشي[281] Medici، عندما أُدْمِجَت الشَّرَاكات المَصْرفية في سياسة المدينة. ومن الواضح أن لفكرة بادجيت تطبيقات أعمّ. الشبكات مُهِمَّة لا بوصفها آليات نقل أفكار جديدة فقط، بل بوصفها مصادر الأفكار الجديدة نفسها. ولكن ليست كلُّ الشبكات حاضنةَ تغيير؛ إذ تميل بعض الشبكات ذات الكثافة التجميعية إلى مقاومة التغيير. ولكن نقطة الالتقاء بين شبكات متنوعة هي المحل المناسب للبحث عن الجِدَّة[282]. السؤال هو ما طبيعة نقطة الالتقاء تلك. ربما تتلاقى الشبكات وتنصهر سِلْميًا، ولكنها قد تهاجم إحداها الأخرى أيضًا، كما حدث (في مثال سيُناقَشُ أدناه) حين نجحت المخابرات السوفييتية في اختراق شبكات طلبة جامعة كمبريدج في ثلاثينيات القرن العشرين. في تنافسات من هذا النوع، الذي سيُحدِّدُ النتيجةَ نقاطُ القوة والضعف، النسبية، في الشبكات المتنافسة. ما مدى قابليتها للتكيُّف والمرونة؟ ما مدى قابليتها للتأثُّر بعَدْوَى مدمِّرة؟ ما مدى تعويلها على واحد أو أكثر من «المحاور الفائقة»، وتدمير أو الإمساك بما يقلل من استقرار الشبكة ككل؟ قام باراباسي وزملاؤه بمحاكاة هجمات على شبكات حُرَّة النطاق فوجدوا أنها تستطيع الصمود أمام خسارتها لجزء كبير من العُقَد أو لمحور واحد. أما الهجوم الاستهدافي على محاور متعددة فيَهْدِمُ الشبكةَ تمامًا[283]. بل الأكثر دراميةً من هذا، أن الشبكة حُرَّة النطاق تسقط بسهولة تامة ضحية فيروس مُعْدٍ يفتك بالعُقَد[284].

لكن لماذا تهاجم شبكةٌ شبكةً أخرى، بدلاً من أن تتصل بها اتصالاً سِلْميًا؟ الإجابة هي أن معظم الهجمات على الشبكات الاجتماعية لا تبدأ من قِبل شبكات أخرى، بل تُؤمَرُ [بالهجوم]، أو على الأقل تُشَجَّعُ عليه من قِبل كيانات هَرَميَّة. ويُعَدُّ

التدخُّل الروسي في انتخابات عام 2016 الأمريكية مثالاً نموذجيًا على هذا: طبقًا للمخابرات الأمريكية - كما ذكرنا أعلاه - كان التدخُّل بإذن من الرئيس بوتين Putin، أحد الحكام الأوتوقراطيين الأكثر تبجُّحًا في العالم، ولم يُوَجَّه التدخُّلُ إلى اللجنة الوطنية الديمقراطية Democratic National Committee فحسب، بل إلى مُرَكَّب شبكات الميديا الأمريكية بأكمله. وهذا يوضح الفرق الأساسي بين الشبكات والتسلسلات الهَرَميَّة. فالشبكات بسبب بنيتها اللامركزية نسبيًا، وبسبب طريقتها في المزج بين التجميع والروابط الضعيفة، ولأنها تستطيع التكيُّف والتطوُّر، تميل إلى الإبداعية أكثر من التسلسلات الهَرَميَّة. ومن الثابت تاريخيًا، كما سنرى، أن الابتكارات تَتولَّدُ من الشبكات أكثر مما تتولَّدُ من التسلسلات الهَرَميَّة. المشكلة هي أن الشبكات لا تُوجَّه بسهولة «نحو هدف مشترك... وهو ما يتطلب تركيز الموارد مكانيًا وزمانيًا داخل تنظيمات كبيرة كالجيوش والبيروقراطيات والمصانع الكبيرة والشركات ذات التنظيم الرأسي»[285].

الشبكاتُ إبداعيةٌ بشكل عَفْوي ولكنها ليست إستراتيجية. الحرب العالمية الثانية the Second World War لم تَفُزْ فيها شبكةٌ، حتى وإنْ لعبت شبكاتٌ فائقة (شبكات علماء الذرة أو التشفير) دورًا مهمًا في انتصار الحلفاء Allied. ليس هذا فحسب، بل إن الشبكات قادرة على إبداع الأفكار السيِّئة ونَشْرها كقدرتها على إبداع الأفكار الجيدة ونَشْرها سواء بسواء. في حالات العَدْوَى الاجتماعية أو «اندفاعات» الأفكار، يمكن للشبكات نَشْر الهَلَع والرُّعب بالسهولة التي تستطيع بها توصيل حِكْمة الحشود wisdom of crowds:

<u>تَجْزع من أجل حَرْق الساحرات بالسهولة نفسها التي تَتهوَّس بها من أجل صور القطط.</u>

صحيحٌ أن شبكات اليوم مُصمَّمة بشكل أفضل من شبكة الكهرباء الأمريكية في تسعينيات القرن العشرين التي كانت هشَّةً جدًا إلى درجة أنْ تَسبَّبَ فشلُ خطِّ طاقةٍ واحد، غرب ولاية أوريجون Oregon، في تعثُّر مئات من الخطوط والمُولِّدات. ولكننا نعرف أنه حتى الشبكة القوية يعتريها خللٌ وظيفي كلما نَمَتْ وتطوَّرت:

الازدحام وحالات التأخير المعتاد في المطارات الأمريكية يُعَدُّ مثالاً على ذلك، حيث تتنافس شركات الطيران على محاور الخدمة، ولكنها تنتهي إلى عَرْقلتها[286]. ولو نَحَّيْنا الإنترنت تمامًا، فلا شك في أن هجومًا يستهدف البنيةَ التحتية للنقل والكهرباء في الولايات المتحدة سيكون له عواقب تخريبية مدمِّرة. وكما قالت إيمي زيجارت[287] Amy zegart، الولايات المتحدة هي الفاعل الأقوى والأضعف، في آنٍ معًا، على مسرح حربٍ إلكترونية [سايْبرانية]. وتُحذِّرُ قائلةً إن «تهديدات الغد الإلكترونية ستَشُلُّ

السيارات التي نقودها والطائرات التي نركبها، وستقطع الطاقةَ أو المياه عن المدن في جميع أنحاء البلاد لأيام أو أسابيع أو أكثر، ويمكن أن تُصيب جيْشَنا بالعَجْز أو حتى تُحوِّل أسلحتَنا ضدنا»[288].

ولكن الولايات المتحدة «تبدو غير مستعدة للاعتراف بالحقائق الأساسية في التكنولوجيات الإلكترونية الجديدة أو هشاشتنا الإلكترونية، ناهيك عن اتخاذ التدابير الضرورية لرَدْع هجمات مستقبلية والدفاع»[289]. وباءُ مايو عام 2017، حين أصاب هجوم واناكراي الإلكتروني[290] «WannaCry ransomware» مئات الآلاف من الحواسيب في 150 دولة، إذ شَفَّرَ محركات الأقراص الصلبة hard drives مُطالِبًا بدَفْع فدية بعُمْلة بيتكوين Bitcoin - هذا الهجوم فَضَحَ هشاشةَ البلاد الأوربية، بل، ويا لسخرية القدر، هشاشة روسيا أيضًا، أمام الهجمات الإجرامية.

والحقيقة أنه من الصعب استكناه آثار نمو الشبكات في زمننا الحالي. ففي كل مقالة تُمجِّدُ تأثيراتِها الإيجابيةَ من حيث تمكين الشباب وتنشيط الديمقراطية - مثلاً، الثورات العربية منذ عام 2010 حتى عام 2012 - كان ثمة تحذير آخر من تأثيراتها السلبية المتعلقة بتمكين قوى خَطِرة كالإسلام السياسي مثلاً. وكلُّ كتاب يُبَشِّرُ ب«وحدة فريدة» حيث ينشأ من الإنترنت «دماغ عالمي» أو «كائن خارق كوكبي»[291]، توجد فيه نبوءةٌ أخرى بالانهيار والانقراض[292].

تتوقع آن ماري سلوتر أن «الولايات المتحدة، وقوى أخرى، ستكتشف تدريجيًا المعنى الذهبي لقوة الشبكة: ليست مُركَّزة جدًا وليست مُوزَّعة جدًا»، وتتطلع إلى ظهور «نظام أكثر تسطُّحًا [أفقيةً] وأسرع وأكثر مرونةً، نظام يعمل على مستوى المواطنين وكذلك الدول»[293].

قبل [هجمات] 11/9، كان جراهام أليسن[294] Graham Allison يكتب واثقًا نسبيًا في أن الولايات المتحدة ستحوز أفضلية ذاتية في عالم الشبكات المُعَوْلَمة[295]. أما جوشوا رامو فأقل تفاؤلاً بكثير، إذ يقول: «الفكرة البسيطة التي كانت جذّابةً يومًا، أن الاتصالَ تحريرٌ، هي فكرةٌ خاطئةٌ». «الاتصال الآن معناه غِشاء من التوتر الحاد الدينامي».

عَجْزُ القادة الكبار القدامى عن فَهْم عصر الشبكة Network Age هو «السبب في شرعيتهم... وهو الفشل، هو السبب في أن إستراتيجيتنا الكبرى غير متماسكة، وهو السبب في أن عصرنا ثوريٌّ حقًا». ويرى أن «التهديد الأساسي للمصالح

الأمريكية لا يأتي من الصين أو تنظيم القاعدة أو إيران، بل من تطوُّر الشبكة بحد ذاته»[296].

يبدو أن هناك توافقًا في الآراء من ناحية واحدة فقط: قِلَّةٌ من علماء المستقبليات يتوقعون نجاح التسلسلات الهَرَميَّة المستقرة - ولا سيما النُّخَب السياسية التقليدية، بل الشركات المستقرة منذ فترة أيضًا - بشكل جيد جدًا في المستقبل[297]. ويقول فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama، بشكل غير معتاد، إن التسلسل الهَرَمي لا بد أن يسود في نهاية المطاف، لأن الشبكات بمفردها لن تستطيع توفير إطار مؤسَّسي مستقر للتنمية الاقتصادية أو النظام السياسي. ويقول:

بل «التنظيمُ الهَرَميُّ... هو الطريقة الوحيدة التي يُنَظِّمُ بها مجتمعٌ منخفض الثقة [298] low - trust society»[299].

وفي المقابل، يفترض السياسي البريطاني المتمرِّد دومينيك كامينجز[300] Dominic Cummings أن دولة المستقبل ستضطر إلى الاشتغال بطريقة نظام المناعة البشرية أو مستعمرة النمل أكثر مما ستضطر الدولة التقليدية. أيْ، الاشتغال بطريقةِ شبكةٍ ذات خواصٍّ طارئة، وقدرة على التنظيم الذاتي، دون خطط أو تنسيق مركزي، بالاعتماد على احتمالية التجريب وتعزيز النجاح ونَبْذ الفشل، وتحقيق مرونة نوعًا ما من خلال الوَفْرة[301]. ربما يكون هذا تقليلاً من شأن مرونة التسلسلات الهَرَميَّة القديمة ومواطن ضعف الشبكات الجديدة على السواء، ناهيك عن قدرتها على الانصهار لتشكيل أبنية سُلْطة أجدّ، تتسم بقدرات أكبر حتى من قدرات دول القرن الماضي التوتاليتارية [الشمولية].

## 9
## سَبْعُ بصائر

### «أفكار ثاقبة»

وإذن، بالنسبة إلى المؤرِّخ، تنطوي استبصارات نظرية الشبكة بكل صورها وأشكالها على آثار عميقة. وقد حاولتُ تلخيصها في سبعة عناوين على النحو الآتي:

**1/ ليس الإنسان جزيرةً.**

حين يُنْظَرُ إلى الأفراد بوصفهم عُقَدًا في شبكات، يمكن فَهْمُهم من حيث علاقاتهم بالعُقَد الأخرى: الحوافّ التي تربط بينهم. وليست كلُّ العُقَد متساويةً. فالفرد من حيث موقعه في الشبكة، يمكن تقييمه لا بدرجة تَمَرْكزيَّة العُقْدَة (عدد علاقاتها) فقط، بل بتَمَرْكزيَّتها البَيْنية أيضًا (احتمال كَوْنها جَسْرًا بين عُقَد أخرى). (وتشمل المقاييس الأخرى مقياس التمركزيَّة المُتَّجِهة ذاتيًا[302]، الذي يقيس قُرْبها من عُقَد عالية الاتصال أو ذات اعتبار، ولكن هذا لن يظهر فيما يأتي[303]). وكما سنرى، المقياس المهم الذي يقيس أهمية الفرد التاريخية، ولكنه مقياس مُهْمَلٌ، هو مدى كَوْن هذا الفرد جَسْرًا شبكيًا. ويتضح أحيانًا، كما في حالة الثورة الأمريكية American Revolution، أن الأدوار الحاسمة لا يلعبها القادة بل الروابط connectors.

**2/ الطيور على أشكالها تقع.**

بسبب الهوموفيلي [المَيْل إلى المُماثِل والمُطابِق]، يمكن فَهْم الشبكات الاجتماعية، إلى حد ما، من حيث الانجذاب إلى الشبيه. ومع ذلك، ليس بديهيًا دائمًا أن تُؤدِّي الصفات المشتركة أو التفضيل المشترك إلى تجميع الناس معًا. وعلاوة على ذلك، يجب أن نكون واضحين بشأن طبيعة روابط الشبكة. هل الروابطُ بين العُقَد علاقاتُ معارفٍ أم تَفَاهُم؟ هل ننظر في شجرة عائلة أم دائرة أصدقاء أم تنظيم سِرِّي؟ هل يُتَبَادُلُ شيءٌ آخر سوى المعرفة - مال أو غيره من الموارد مثلاً - داخل الشبكة؟ لا يوجد رسم بياني لشبكةٍ يمكنه تَبْيين حقيقة ثراء تعقيد التفاعلات الإنسانية، لكننا نعرف أحيانًا ما يكفي للتمييز بين اتجاهات الحوافّ (مثلاً، «أ» يعرف «ب»، ولكنه ينام مع «س»)، وأوزانها (مثلاً، «أ» يقابل «ب» أحيانًا، ولكنه يرى «س» كل يوم).

**3/ الروابط الضعيفة قويةٌ.**

من المهم أيضًا مدى كثافة الشبكة، وطريقة اتصالها بتكتلات أو تجمُّعات أخرى، حتى لو بوَسَاطة عدد قليل من الروابط الضعيفة.

وهل هي مُكوِّن في شبكة أكبر؟ وهل توجد «عوازل شبكية»، أيْ عُقَد «تفصل الشبكة» تمامًا مثل [الإنسان] المُسْتوحِش لدى برنز Burns؟ وهل هناك وُسَطاء يسعون إلى استغلال ثغرات بنيوية في الشبكة؟ هل الشبكة تَعرض خصائصَ «عالَم صغير»، وإذا كان كذلك فكيف يكون هذا العالَمُ صغيرًا (أيْ ما عدد درجات الانفصال التي توجد بين العُقَد)؟ وعلى أيِّ نحوٍ تكون الوحدات التي تُكوِّن بنيةَ الشبكة؟

**4/ البنية تحدد سرعة الانتشار [فيروسية الانتشار].**

لا يزال العديد من المؤرِّخين يميلون إلى افتراض أن انتشار فكرة ما، أو أيديولوجيا، هو وظيفة [دالّة] محتواها الأصيل في سياق محدد، غامض نوعًا ما. ومع ذلك، لا بد من الاعتراف بأن بعض الأفكار تنتقل فيروسيًا بسبب خصائص بنيوية في الشبكة التي تنتشر عَبْرها. ومن المحتمل أنها أقل انتشارًا في الشبكة الهَرَميَّة المحكومة من أعلى إلى أسفل، حيث تُحْظَرُ روابط النِّد للنِّد peer - to - peer الأفقية [تُحْظَرُ الروابط الأفقية وليست الرأسية أحادية الاتجاه].

**5/ الشبكات لا تسكن أو تنام.**

الشبكات ليست إستاتيكية بل دينامية. وسواء كانت عشوائيةً أم حُرَّةَ النطاق فهي عُرْضة لانتقالات مرحلية. إذ يمكنها أن تتطوَّرَ إلى أنظمة متكيِّفة معقدة ذات خواصٍّ ناشئة. فحدوث تغييرات جِدِّ صغيرة - كإضافة بضع حوافٍّ فقط - يُغيِّر سلوك الشبكة تغييرًا جذريًا.

**6/ الشبكات تتشابك.**

عندما تتفاعل الشبكات تكون النتيجةُ تجديدًا وابتكارًا. وعندما تُعطِّلُ شبكةٌ تسلسلاً هَرمَيًّا متحجِّرًا، يمكنها الإطاحة به بسرعة التقاط الأنفاس. وحين يُهاجِمُ تسلسلٌ هرميٌّ شبكةً هشَّة تكون النتيجةُ انهيارَ الشبكة.

**7/ الغني يصبح أغنى.**

بسبب الإلحاق التمييزي [أو التفضيلي]، لا تُحقِّق معظمُ الشبكات الاجتماعية المساواةَ على نحو عميق.

حين نفهم هذه الاستبصارات الجوهرية في علم الشبكة، سيبدو تاريخُ البشرية مختلفًا تمامًا: ليس أن «شيئًا سخيفًا وراء شيء سخيف آخر»، بالتعبير المضحك لدى الكاتب المسرحي ألان بينيت[304] [305] Alan Bennet، ولا حتى شيء واحد وراء شيء سخيف، بل إن مليارات الأشياء يرتبط أحدها بالآخر، بطرق لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى (ومنها الاتصال الجنسي، وهو ليس وحده إطلاقًا في ذلك).

وعلاوة على هذا، عندما يوضع الزمن الراهن في سياقه التاريخي الصحيح، سيبدو غيرَ سابق على نحو أقل إثارة للأعصاب وأكثر ألفة. وكما سنرى، في عصر

الويب الثاني، الذي تَتَحدَّى فيه شبكاتٌ جديدةٌ المؤسساتِ الهَرَميَّةَ العتيقة، يَتضخَّمُ تأثيرُها بوَسَاطة التكنولوجيا الجديدة. وعلى أساس القياس التاريخي، كما سيتضح، سنتوقع، ربما، تعطيلاً مستمرًا تقوده الشبكاتُ للتسلسلات الهَرَميَّة التي لا تستطيع إصلاح نفسها، لكن ثمة أيضًا احتمال استعادة النظام الهَرَميِّ حين يتضح أن الشبكات بمفردها لا يمكنها تفادي السقوط في الفوضى [الأناركية anarchy].

## المتنورون ينورون

حين نضع نصب أعيننا استبصارات نظرية الشبكة، نستطيع إعادة النظر في تاريخ المُتنوِّرين [إلِومِيناتي] (ليس على طريقة نظرية المؤامرة). كان مُؤسِّس التنظيم، في حقيقة حاله، أكاديميًا مغمورًا من جنوب ألمانيا يُدْعَى آدم فايسْهُبت Adam Weishaupt. كان عُمْره ثمانية وعشرين عامًا عندما أسَّسَ التنظيم. وُلِدَ فايسْهُبت عام 1748، ابنًا يتيمًا لأستاذ قانون في جامعة إنجولشتات في وسط بافاريا.

وبفضل رعاية البارون جون آدم إيكستات[306] Baron Johann Adam Ickstatt الذي عيَّنه رئيسًا للجامعة الناخبُ ماكسميليان الثالث جوزيف[307] Maximilian III Joseph بأمر رسمي لإصلاح الجامعة التي يهيمن عليها اليسوعيون[308] Jesuit، استطاع فايسهُبت أن يسير على خطى والده. ففي عام 1773، عُيِّن أستاذ قانون كنسي canon law، [كما كان والده]، ثم بعد عام صار عميدًا لكلية القانون[309].

ما الذي دفع البروفيسور الشاب، بعد ثلاث سنوات، إلى تأسيس جمعيَّة سِرِّية، ومن نواحٍ عديدة، ثورية؟ الإجابة هي أنه بتأثير من إيكستات، أصبح فايسْهُبت قارئًا متحمّسًا لأعمال أكثر الفلاسفة راديكاليةً في التنوير الفرنسي French Enlightenment، ولا سيما كلود أدريان هِلفتيوس[310] Claude Adrien Helvétius، وكتابه الأشهر بعنوان «عن الروح» (De l'esprit 1758)، وبول أونري تيري[311] Paul - Henri Thiry مؤلِّف كتاب «نظام الطبيعة» (Le Système de la nature 1770) باسمه المستعار بارون دولباخ Baron d'Holbach.

حين كان فايسْهُبت صبيًا تَعلَّم على يد اليسوعيين، وهي تجربة لم تكن ممتعة له. لقد أثارته، بدرجة كبيرة، الميولُ الإلحادية لدى هلفتيوس ودولباخ. ولكن في بافاريا المُحافِظة، حيث يُحَرِّضُ رجالُ الدين الكاثوليك الرومانيون على «مُناهَضة التنوير» counter - Enlightenment، كانت الآراءُ من هذا النوع الإلحادي خَطِرةً. كان فايسْهُبت الشاب الذي مُنِحَ كرسيًا [في الجامعة] - احتكره فيما مضى اليسوعيون [الجيزويت] - يعيش تحت ضغط. لذا، بَدَتْ فكرةُ تأسيس جمعيَّة سِرِّية، تُخْفي أهدافَها الحقيقية حتى عن أعضائها

الجُدُد، فكرةً منطقيةً. وقد قال فايسْهُبت نفسه إنه تلقّفَ الفكرةَ من طالب بروتستانتي يُسَمَّى إرنست كريستوف هينينجر Ernst Christoph Henninger، تحدَّثَ معه عن الجَمْعيَّات الطلابية في يينا Jena وإرفورت Erfurt وهالي Halle ولايبزيج Leipzig، حيث دَرَسَ سابقًا[312].

وعلى نحو فيه مفارقة، تَشَكَّلَ المُتنوّرون على غرار اليسوعيين، واليسوعيةُ شبكةٌ قوية وبعيدة عن الشفافية فَكَّكَهَا البابا كليمنت الرابع عشر Pope Clement XIV عام 1773. المُخطَّطُ الأوَّلي لدى فايسهُبت كان «مدرسةَ الإنسانية» A School of Humanity، مُتصوّرًا أنْ يحتفظ كل عضو بدفتر يوميات يُدوِّن فيه أفكارَه ومشاعرَه، ثم يرفع لرؤسائه موجزًا عنه؛ كما ستوجد مكتبةٌ ورعاية صحية وتأمين أو حماية، وغيرها من الفوائد للأعضاء[313]. لو وصفنا طريقة تفكير فايسْهُبت بأنها انتقائية فسَنَبْخَسُه حقَّه؛ إذ اشتملت خططه الخاصة بالتنظيم، أيضًا، على عناصر من أسرار إليوسيس اليونانية[314] Greek Eleusinian mysteries القديمة، وعناصر من الزُّرَادشتية[315] Zoroastrianism (منها استعمال التقويم الفارسي القديم). ثمة مصدر إلهام آخر هو الألومبرادوس [المُتنوّرون الإسبان][316] Alumbrados، وهي حركة روحية في إسبانيا القرن السابع عشر.

لو بقي المُتنوِّرون مخلصين لمخطط فايسهُبت الأصلي، لَكُنَّا نسيناهم منذ زمن بعيد، ولم يكن ليسمع بهم أحدٌ إطلاقًا. مفتاح نموُّهِم، وشُهْرَتهم لاحقًا، جاء من تسلُّلهم إلى المحافل الماسونية الألمانية German Masonic lodges. ورغم أن جذور هذه المحافل ترجع إلى أَخويَّات البَنَّائين في القرون الوسطى، فبحلول القرن الثامن عشر كانت الماسونيةُ Freemasonry نفسها شبكةً سريعة النمو، بدأت في إسكتلندا وإنجلترا، وقدَّمت مَأْنَسة[317] ذكورية تمتعت بجو الإثارة والجلال بسبب الميثولوجيا والطقوس التي تُمَارَسُ فيها، حيث تَحرَّرَ الأعضاءُ من فوارق المكانة الاجتماعية بين الأرستوقراطية والبرجوازية[318]. ثم سرعان ما انتشرت الماسونية في جميع أنحاء ألمانيا، بما فيها الولايات الألمانية الجنوبية، رغم جهود الكنيسة الكاثوليكية الرومانية

Roman Catholic Church لمَنْع الكاثوليك من أن يصبحوا ماسونيين Masons.[319]

وكان أن اقترحَ فرانس سافير تسفاك[[320]] Franz Xaver Zwackh، أحدُ تلامذة فايسْهُبت، جَعْلَ المُتنوِّرين أعضاء في المحافل [الماسونية] الألمانية، مستغلاً الاستياء المتزايد لدى العديد من الماسونيين من حركتهم.

أواخر سبعينيات القرن الثامن عشر، انتشر نوع من التذمُّر داخل الماسونية الألمانية German Freemasonry، إذ اعترض بعض الصَّفائيين[[321]] purists على عدم الالتزام بالسرِّية وأزعجهم تراجعُ احترام أسطورة انحدار الماسونية من فرسان الهيكل[[322]] Knights Templar، كما يؤكد «طقس الانضباط الصارم»[[323]] Rite of Strict Observance.[324] أحد أولئك المُستائين من انحطاط التعاليم الماسونية، الظاهر، إلى مجرد حفلات تناول طعام، لاهية بلا معنى - هو أدولف فرانس فريدريك لودفيج[[325]] Adolf Franz Friedrich Ludwig، [المُلَقّب ب] بارون فون كنيجه Baron von Knigge، ابن موظف كبير في هانوفر Hanover، تَلَقَّى تعليمَه في جامعة ج و تِ ن ج ن Göttingen، والتحق بالماسونية منذ 1772.[326] طمح كنيجه إلى شيء أَحْكَم وأسمى مما يُقَدَّمُ في المحافل التي تردَّدَ عليها في كاسيل Cassel وفرانكفورت Frankfurt، وهي رغبة أعرب عنها لماسوني أرستوقراطي آخر هو الماركيز كوستانزو دي كوستانزو Costanzo di Costanzo في عام 1780. وقد أُصيب كنيجه بالذهول حين أخبره الماركيز دي كوستانزو بوجود مثل هذا التنظيم النُّخْبوي بالفعل، وأنه عضو فيه باسم مستعار هو ديوميدس Diomedes. بِعد عام 1777، وفي محفل ميونيخ Munich «كُنْ حذرًا» Zur Behu، بدأ فايسْهُبت يُكَرِّسُ توصيفًا دقيقًا للمُتنوِّرين مُفادُه أنهم «شبكة سرِّية وجزء لا يتجزأ من الماسونية... كالنبات الطفيلي».[327]

وقد نشأ تنظيم طفيلي مماثل، أيضًا، هو «الصليب الوردي»[[328]] Rosicrucianism، وهو حركة أكثر اقتصارًا من تنظيم المُتنوِّرين على فئة معينة من الناس، كُتِبَ عنها الكثيرُ في بواكير القرن السابع عشر، ولكنها اتخذت شكلاً متماسكًا تحت اسم «الصليب الذهبي والوردي» the Golden and Rosy Cross داخل عدد من المحافل الماسونية الألمانية، في التاريخ نفسه تقريبًا [أيْ بعد

عام
.[1777

كان تجنيدُ كنيجه نقطةَ تحوُّل لسببين. الأول أن اتصالاته وارتباطاته أفضل من فايسْهُبت. وثانيًا أن كنيجه يستوعب ما يطمح إليه الماسونيون الأرستوقراط المماثلون له في التفكير[329] . كنيجه الذي تَسمَّى باسم فيلو Philo بعد انضمامه إلى المُتنوِّرين، رَوَّعَه اكتشافُ مدى بدائية خلايا التنظيم (وكذلك مدى تراجع بافاريا حين زارها)[330] . وقد اعترف له فايسْهُبت بصراحة قائلاً: «إن التنظيم لم يُوْجَدْ بعد إلا في ذهني... فهَلّا غفرت لي خُدْعتي الصغيرة تلك؟». لم يغفر كنيجه لفايسهُبت فقط، بل استحوذ على المبادرة بحماسة، متصوِّرًا المُتنوِّرين أداةَ إصلاح جذري للماسونية نفسها[331] . فقام بتنقيح جذري للهيكل التنظيمي الذي تَصَوَّرَه فايسْهُبت، وتوسيعه بتقسيمه إلى ثلاث مراتب أو طبقات من المُتنوِّرين، وإضافة قدر كبير من الطقوس الماسونية. فقسَّم طبقة المينرفال الابتدائية إلى درجتين:

المينرفال Minerval والمينور المُتنوِّر Illuminatus Minor.

وقسَّم الطبقة الماسونية الثانية إلى درجتين أيضًا: ميجور مُتنوِّر Illuminatus major أو «المبتدئ الإسكتلندي» Scottish Novice، وقادة المُتنوِّر Illuminatus drigines أو «الفارس الإسكتلندي» Scottish Knight.

أما الطبقة السرِّية الثالثة فزادت درجاتها إلى «درجة الأسرار الأدنى» Lesser Mysteries (درجة كاهن presbyter أو زعيم princeps) و«درجة الأسرار الأعظم» (وفيها درجات المجوسي[[332]] magus أو «الدوسيتي» [الظاهري][[333]] docetist، والمَلِك rex أو «مُحِبّ الفلسفة» philosophus).

ومنذ أن وضع المُتنوِّرون هذه الدرجةَ الأخيرة لفتوا انتباه أعلى الموظفين مكانةً في النظام [الحاكم وقتئذٍ]: المفتشون الوطنيون، وكبار المسؤولين في المديريات والمقاطعات، وكُبَرَاء الكهنة. حلَّتْ هذه الدرجات الأعلى محلَّ الدرجة الأصلية الأعظم في منظومة درجات فايسهُبت، «الأريوباجوسيين»[[334]] Areopagites[335].

وفي الوقت نفسه، عندما ابْتُكِرَتْ هذه «الدرجات» التفصيلية المعقدة صارت البنيةُ التنظيمية، في التنظيم المتعاظم النمو، أعقدَ، وذات «طوائف منيرفال» محلية متعدِّدة ترفع التقارير إلى «المديريات» و«المقاطعات» و«التفتيشات»[336] .

وإذن، كانت المفارقة الأولى في التَنوُّرية [الإلِومينيزم] Illuminism أنها شبكة طمحت إلى بنية هَرَميَّة معقدة، مع تنديدها بالتسلسلات الهَرَميَّة القائمة. لقد

حدَّدَ فايسْهُبت، في خطبته عام 1782 التي يُحَفِّزُ فيها قادةَ المُتنوِّرين، رؤيتَه للعالم. في حالة الطبيعة، كان الناس أحرارًا ومتساوين وسُعَداء؛ أما التقسيم إلى طبقات وظهور المِلْكية الخاصة والطموح الشخصي وتكوين الدولة، فقد جاءت لاحقًا، بوصفها «العوامل الرئيسية الكبيرة والعِلل غير الشريفة التي تسبَّبتْ في تعاستنا وبؤسنا». كفَّت البشريةُ عن أن تكون «عائلة واحدة كبيرة، وإمبراطورية واحدة» بسبب «رغبة الرجال في تمييز أنفسهم، أحدهم عن الآخر». لكن التنوير Enlig، الذي ينشره نُشَطاء الجمعيَّات السرِّية، بمقدوره التغلُّب على هذا التقسيم الطبقي للمجتمع، ومن ثمَّ «سيختفي الأمراء وستختفي الدول من على سطح الأرض دون أي حاجة إلى العنف، وسيصبح الجنسُ البشري عائلةً واحدة، وسيصبح العالَمُ موطنَ كائناتٍ عقلانية»[337]. ولا تتوافق هذه الرؤية بسهولة مع حملة كنيجه الناجحة لتجنيد ماسونيين من طبقة الأمراء والنبلاء في التنظيم[338].

وأما المفارقة الثانية في الإلِومينيزم [التنوُّرية] فهي علاقتها المزدوجة بالمسيحية. كنيجه نفسه يبدو رُبوبيًا[[339]] Deist (كان كنيجه معجبًا بإسبينوزا Spinoza، مع أنه نشر أيضًا مواعظ كان قد ألقاها). وربما شاركه فايسْهُبت هذا المَيْل، ولكنه تبنَّى وجهة النظر القائلة بأن نُخْبة التنظيم فقط - الذين يحملون رُتْبَة ملك
rex
-
لهم أن يُعلِنوا تعاطفَهم مع دولباخ. وفي بعض كتابات فايسهُبت، يُصَوَّرُ يسوعُ المسيح على أنه «مُحرِّرُ شعبه وكل البشرية»، ونبي «عقيدة العقل»، التي هدفها الأسمى «تقديم الحرية العامة والمساواة فيما بين الناس دون أي ثورة».

حُجَّة كنيجه في «درس القاعة الأولى» First Lesson in the Chamber أن كهنة المُتنوِّرين [الأوائل] حملوا رسالة المسيح الأصلية الداعية إلى المساواة بصورة عامة، ولكنها شُوِّهِتْ على مَرِّ القرون[340]. لم يؤمن أيُّ رجل بذلك إيمانًا حقيقيًا؛ بل كان كل شيء «تظاهرًا بالوَرَع» (كما اعترف كنيجه شخصيًا)، ويتضح ذلك عندما يبلغ المُتنوِّرُ الدرجةَ الأعلى. وهكذا، كان هدفُ المُتنوِّرين النهائي «إصلاحَ العالم» إصلاحًا شِبْه ديني بالاستناد إلى أفكار التنوير Enlightenment.[341]

على هذه الصخور - التنظيمية والدينية معًا - تأسَّسَ المُتنوِّرون، وقد تذمَّر كنيجه من «الطابع اليسوعي لدى فايسْهُبت».

اثنان من مُتنوِّري جوتِنجن البارزين، هما يوهان جورج هاينريك فيدر[[342]] Johann

Georg Heinrich Feder وكريستوف ماينرس[343] Christoph Meiners، اتَّهما فايسهُبت بالميل نحو نظريات جان جاك ر و سُّو Jean - Jacques Rousseau

السياسية الراديكالية. مُتنوِّرٌ آخر هو فرانس كارل فون إيكارتسهاوزن[344] Franz Carl von Eckartshausen، استقال عندما صار واعيًا بإعجاب فايسْهُبت بهلفتيوس ودولباخ. وبوصفه المسؤول عن أرشيف تشارلز تيودور Charles Theodore، أمير بالاتينه الناخب Prince Elector Palatine الذي ورث عضوية المَجْمع الانتخابي البافاري Bavarian Electorate عند وفاة ماكس جوزيف Max Joseph في عام 1777، كان إيكارتسهاوزن في منصبٍ يُمكِّن الضغط لحظْر التنظيم. وفي ع ا م 1784، وبعد مناقشات طويلة في فايمار Weimar (بعضها بحضور جوته Goethe)، أُجْبِرَ كنيجه على الاستقالة[345].

فسَلَّمَ فايسْهُبت القيادةَ إلى الكونت يوهان مارتين تسشولبرج روسلا Count Johann Martin zu Stolberg - Rossla، الذي يُعْتَقَدُ أنه حَلَّ التنظيم في أبريل 1785، بعد شهر واحد فقط من المرسوم البافاري الثاني ضد الجمعيَّات السرِّية[346]، رغم أن هناك بعض الأدلة على استمرار النشاط حتى منتصف عام 1787، كما لم يتخلَّ يوهان يوآخيم كريستوف بوده عن فكرة إحياء التنظيم في فايمار حتى عام 1788[347]. ومن الواضح أنه حتى لو لم يُحْظَرَ المُتنوِّرون، لَكانوا حَلُّوا أنفسهم قبل عامين من بداية الثورة الفرنسية. فايسْهُبت نفسه قضى بقيةَ حياته تحت حماية إرنست الثاني Ernest II، دوق زاكس - جوتا - ألتنبرج Saxe - Gotha - Atenburg، أولاً في ريجِنسبورج R ثم في جوتا نفسها، يُحرِّضُ بمؤلَّفات تبريرية طنَّانة مثل «التاريخ الكامل لاضطهاد المُتنوِّرين في بافاريا» A complete History of the Persecutions of the Illuminati in Bavaria (1785) و«صورة الإلِومينيزم» A Picture of Illuminism (1786) و«اعتذار للمُتنوِّرين» An Apology for the Illuminati (1786).

وعلى الرغم من وجود بعض الاستمرارية، من المُتنوّرِين إلى الاتحاد الألماني عند كارل فريدريك بارت Karl Friedrich Bahrdt’s German Union، فينبغي ألا يُبَالَغَ فيها. وكما أشار كنيجه في عمله الذي دافع فيه عن نفسه «تفسير فيلو النهائي» (Philo’s Endliche Erklärung (1788)، كان المُتنوّرِون منذ البداية متناقضين من حيث إنهم تنظيم يخدم التنويرَ على حين يُكَفِّنُ نفسَه بأحابيل السرّية والغموض.

ومع ذلك، كانت توجد لدى المدافعين عن الماسونية السائدة وخصوم الثورة الفرنسية، حوافز قوية لتضخيم ثقل المُتنوّرِين وضررهم. في كتاباتهما [الدعائية] عام 1797، اضطر كلٌّ من جون روبيسون John Robison ورئيس الدير باروِيل Barru، أن يركنا إلى بعض المصادر الألمانية، واسعة الخيال، لتوجيه اتهاماتهما ضد المُتنوّرِين بحيث تبدو ذات مصداقية، ولا سيما الادعاء بأنهم تسبَّبوا في الثورة الفرنسية. وأقرب شيء إلى وجود رابط جدير بالتصديق بين المُتنوّرِين والثورة هو أن أونوريه جابرييل ريكيتي[348] Honoré Gabriel Riqueti المعروف بالكونت دي ميرابو comte de Mirabeau قابَلَ يعقوب موفيون Jacob Mauvillon - الذي أصبح مُتنوِّرًا بتشجيع من يوهان يوآخيم كريستوف بوده - عندما زار الكونت دي ميرابو برونزويك Brunswick في منتصف ثمانينيات القرن الثامن عشر.

ولكن فكرة أن المحافل الماسونية الفرنسية French Masonic lodges كانت قنوات نقل الأفكار الثورية إلى باريس من إنجولشتات لا يمكنها الصمود أمام أي فحص دقيق. فعلى الرغم من كل شيء، نشأت الأفكار الثورية في باريس. وأما خطوط الاتصال الحقيقية فكانت من صالونات العاصمة الفرنسية إلى بافاريا، عبر مكتبات المسؤولين المستنيرين من أمثال إيكستات، أستاذ فايسْهُبت، وليس العكس. وكما سنرى، كانت توجد شبكة دولية تربط بين الفلاسفة وعلماء آخرين عبر جميع أنحاء أوربا، بل امتدت عبر الأطلنطي إلى أمريكا الشمالية. لكنها شبكة نَشْرٍ وتبادل كتب ومراسلات في المقام الأول. وقد لعبت المحافل الماسونية والجمعيَّات السرِّية دورًا ما؛ لكن الصالونات ودُور النشر والمكتبات لعبت الدور الأهم.

لذا، يجب ألا يُفْهَم تنظيم المُتنوّرِين بوصفه مؤامرة قديرة مدعومة بوسائل شريرة على مدى أكثر من قرنين، بل بوصفه هامشًا أَرْهَصَ بتاريخ التنوير. ويُعْطِي تنظيمُ فايسْهُبت - بوصفه شبكة ضمن شبكات الماسونية والفلسفة الفرنسية الأكبر -

مثالاً على عصرٍ كان من المُخاطَرة فيه التعبيرُ عن أفكار تتحدَّى الوضعَ الديني والسياسي القائم [حينئذٍ].

السرِّية كان لها معنى. ولكن السرِّية، في النهاية، جعلت السلطات الحاكمة تُضَخِّمُ من حجم التهديد الثوري الذي يُشَكِّله المُتنوِّرون.

والحقيقة أن شبكة التنوير network of Enlightenment الأوسع هي التي انطوت على احتمال ثوري، لأن الأفكار المطروحة تَمَّ تداولها بحُرِّية كاملة في كتب ومجلات، وكانت ستنتشر فيروسيًا في أوربا وأمريكا حتى وإن لم يوجد فايسْهُبت.

لقد ناضل المؤرِّخون لكتابة هذا التاريخ، لأن المُتنوِّرين - شأنهم شأن شبكات عديدة - لم يتركوا وراءهم أرشيفًا واحدًا منظَّمًا، بل سجلات متفرِّقة، وظل الأمر هكذا حتى أُتيحت أرشيفاتُ [محفوظات] المحافل الماسونية، إذ كان الباحثون يعتمدون أساسًا على مذكرات ووثائق صُودِرَتْ ونشرها خصوم التنظيم. ومن بين المواد التي قيل إنها كانت في حوزة فرانس سافير تسفاك Franz Xaver Zwackh، أختامٌ حكومية تُسْتعمَل في التزوير وأطروحات للدفاع عن الانتحار وخطوات إرشادية لصناعة غاز سامٍ وحبر سرِّي، وتعليمات لحفظ الأوراق السرّية وحمايتها، ووصفات تُسبِّبُ الإجهاضَ، منها وَصْفة لصُنْع نوع من الشاي يُسَبِّبُ الإجهاض. ونحن نعرف الآن أن كل هذا لم يكن ضمن نشاطات التنظيم[349]. والأهم من كل هذا، المراسلاتُ بين بوده والمُتنوِّرين الذين جنَّدهم في بلدة تُورِنجن، التي تكشف التوترات الأساسية الكامنة في جمعيَّة سرِّية تستهدف إشاعة التنوير: شبكة هَرَميَّة تتوقع بوحًا ذاتيًا حميمًا من المبتدئين، فقدَّمت لهم خُزَعْبلات في المقابل[350].

وحين واجهتهم قوةُ الدولة البافارية الهائلة التي يسيطر عليها الناخب تشارلز تيودور Elector Charles Theodore سُحِقَ المُتنوِّرون سحقًا. مع أن الناخب نفسه كان يعيش في وقت مستعار [الوقت الضائع]. فبعد عشر سنوات فقط من حَظْره الجمعيَّات السرِّية، اجتاحت جيوشُ فرنسا الثورية [إقليم] بالاتينات Palatinate [351]
الذي كان يحكمه تشارلز تيودور أيضًا، وتقدَّمتْ نحو بافاريا. ومنذ عام 1799 حتى عشية معركة لايبزيج[352] Battle of Leipzig
في عام 1813، كانت بافاريا تابعةً لما أصبح يُسَمَّى إمبراطورية نابليون. وفي الأثناء نفسها، في جوتا - حيث وَجَدَتْ بقايا المُتنوِّرين مأوىً لها - كان أوجستس
Augustus ابن الدوق إرنست Ernest
ووريثه، يُبْلي بلاءً حسنًا بتملُّقه الطاغية الفرنسي [نابليون].

لم يتسبَّب المُتنوِّرون في الثورة الفرنسية، ناهيك عن صعود نابليون، مع أنهم استفادوا منه (فجميعهم، باستثناء فايسْهُبت، عُفيَ عنهم، وصار بعضهم أقوياء جدًا، ولا سيما دالبيرج Dalberg). وبغضّ النظر عن استمرار مُخَطَّطهم [الخفي] لحُكْم العالَم إلى الوقت الحاضر، فقد كفُّوا عن العمل في ثمانينيات القرن الثامن عشر، والجهودُ المبذولة لإحياء التنظيم في القرن العشرين زائفةٌ إلى حد كبير[353]. ومع ذلك، فقصتهم جزء لا يتجزأ من العملية التاريخية المعقدة التي قادت أوربا من التنوير Enlightenment إلى الثورة Revolution إلى الإمبراطورية Empire، عملية لعبت فيها الشبكات الفكرية دورًا حاسمًا دون شك.

وبالاعتماد على أفضل المعارف الحديثة، يسعى هذا الكتاب إلى تخليص تاريخ الشبكات من براثن مُنظِّري المؤامرة، وإيضاح أن التغيير التاريخي يمكن فَهْمه، غالبًا، من خلال هجمات من النوع الذي تقوم به الشبكة ضد الأنظمة الهَرَميَّة، وينبغي أن يُفهَم كذلك.

# II القسم الثاني
# أَباطِرةٌ ومُسْتكشِفون

## 11
## تاريخ موجز للتسلسل الهَرَميِّ

في فيلم [المخرج الإيطالي] سرجيو ليون[354] Sergio Leone، «الطيب والشرير والقبيح» The Good, the Bad and the Ugly، وهو من نوعية أفلام سباجيتِّي وِسْترن[355] spaghetti western، يسعى كلينت إيستوود Clint Eastwood وإيلاي ووِلك Eli Wallach وراء ثروة منهوبة من ذهب الحكومة الكونفدرالية.

الكنزُ الذي اكتشفاه، مدفونٌ تحت شاهد قبر في مدافن قتلى الحرب الأهلية Civil War الهائلة. ولسوء الحظ، لا فكرة لديهما عن شاهد القبر. وبعد أن اتَّخذ إيستوود حَيْطَته، في وقت سابق، فأفرغ مسدسَ ووِلك، التفتَ إليه متلفِّظًا بكلمات خالدة: «في هذا العالم يوجد نوعان من الناس، يا صديقي. نوع يحمل المسدسات، ونوع يحفر. احْفُرْ».

يُعَدُّ هذا الموقفُ مثالاً حديثًا لحقيقة قديمة. ففي معظم فترات التاريخ، كانت الحياةُ متسلسلةً هَرَميًّا. قِلَّةٌ من الناس تستمتع بالامتيازات التي تأتي من احتكار العنف، أما كلُّ مَن عداهم فهو يَحْفُر.

لماذا سبقت التسلسلاتُ الهَرَميَّةُ hierarchies الشَّبكاتِ networks في التاريخ؟ الإجابة الواضحة هي أنه حتى مجموعة الهُوْمِينُوْيَدز [أشباه الإنسان] hominoids الأقرب، في عصر ما قبل التاريخ، وُجِدَ لديهم تقسيمٌ للعمل وتسلسلٌ هَرَميٌّ للقوة الجسدية ومقدرة عقلية بحُكْم الطبيعة. ولهذا السبب، كانت القبائلُ البدائية، ولا تزال، أقربَ شبهًا بالتسلسلات الهَرَميَّة التعاونية منها إلى الشَّبكات المُوزَّعة[356] فحتى «الالتزام بجَمْع الطعام التعاوني» يحتاج إلى قيادة[357].

شخصٌ يضطر إلى اتخاذ قرارِ متى يتوقف عن الاستمالة [العناية والرعاية] والبدء في الصيد. وشخصٌ يضطر إلى توزيع غنيمة الصيد وضمان حصول الصبي الضعيف والعجائز على نصيبهم. وشخص آخر يضطر إلى القيام بالحَفْر.

عندما بدأ البَشَرُ في تشكيل مجموعات أكبر والاشتراك في المزيد من أشكال الصَّيْد وجَمْع الطعام المعقدة، طوَّروا في وقت مبكر الأُطُرَ المفاهيمية الأولى - أساطير تفسيرية عن آلهةٍ ذات قوى بشرية فائقة تتحكم في الطبيعة - كما طوَّروا ممارساتٍ وموادًّا لتحسين القدرة العقلية[358]. تعلموا أيضًا أُولَى فنون الحرب البدائية، فانتخبوا نوعياتٍ رائعةً من الأسلحة الأساسية كالبلطات والأقواس والسِّهام[359]. واضطرت الجماعات الزراعية الأولى في العصر الحجري الحديث [العصر النيوليثي] Neolithic Age (بدءًا من حوالي 10,200 ق. م.) إلى تخصيص

موارد كبيرة للدفاع عن نفسها ضد المُغِيرين (أو تنظيم غارات على المُغِيرين عليها). يبدو أن تقسيم المجتمع إلى سادة وعبيد، وإلى محاربين وعُمَّال، وإلى كهنة ومُتَوَسِّلين، قد بدأ في وقت مبكِّر. ومع تطور الكتابة الرمزية من الرسم على جدار الكهوف، وُلِدَ الشكلُ الأول لتخزين بيانات [أو معلومات] خارج الدماغ، ووُلِدَتْ معه طبقةُ مُتعلِّمين جديدة.

وبكلمات أخرى، على الرغم من تنوُّع الهياكل السياسية الباكرة - فبعضُها أكثر أوتوقراطية [استبدادية] autocratic وبعضها أكثر تشاركية [جماعية] corporate - فقد انطوت، بوجه عام، على تقسيم اجتماعي طبقي جوهري. كانت سلطة مُعاقَبة المُنْتهِكين تُفَوَّضُ دائمًا، تقريبًا، لبعض الأفراد أو لمجلس من كبار السِّنِّ.

وصارت القدرةُ على شَنِّ حرب ناجحة صفةَ الحاكم الرئيسية. كانت الدولةُ، فيما يُقَالُ، «نتيجةً مُتوقَّعة لطبيعة الإنسان»[360]. وهكذا أيضًا، مَهَّدَ سباقُ التسلُّح والابتكارات في التكنولوجيا العسكرية - أَسِنَّة الرماح الأقوى والخيول بوصفها مَرْكَبات هجومية - طرقًا مختصرة إلى السلطة والثروة[361]. لذا، ظهر «نوع جديد من التسلسل الهَرَميِّ يُهيمن عليه «رجلٌ كبيرٌ» Big Man لم يكن في حاجة إلى قوة جسدية، بل يكفي أن يكون ثريًّا كي يدفع [المال] لعُصْبة صغيرة من الأتباع المُسلَّحين الموثوق فيهم»[362].

ينطوي التسلسل الهَرَميُّ على فوائد عديدة، في الاقتصاد وكذلك في الحُكْم. وثمة أسباب وجيهة لكَوْن السياسات العملية منذ العالم القديم حتى أوائل الفترة الحديثة هَرَمِيَّةَ البنية، في أغلبيتها الساحقة. وكالشركات corporations في عصر لاحق، سعت الدولُ الباكرة إلى استغلال اقتصادات الحجم[[363]] economies of scale، وخَفْضِ تكاليف المُعامَلات [التجارية]، ولا سيما في مجال العمل العسكري. وُجِدتْ أيضًا أسبابٌ وجيهة لمَسْعَى عدد كبير من الأوتوقراطيين الطموحين إلى تعزيز شرعيَّتِهم بمطابقة أنفسهم مع الآلهة. التسلسل الهَرَميُّ جَعَلَ الأقنانَ [الهيلوت] helots [[364]] يَتكبَّدون المشقَّةَ صابرين حين يُؤمَرون باسم الآلهة. ولكن حُكْم الرجل الكبير انطوى، ولا يزال، على مساوئ مُزْمِنة، ولا سيما إساءة توزيع الموارد لإرضاء شهيَّة الرجل الكبير وذُرِّيته وأتباعه المُقرَّبين. المشكلةُ المتكررة، وشِبْه العالمية، في التاريخ القديم، تَنازُلُ مواطني الدول المُتحارِبة عن صلاحيات مُفْرِطة لنُخَب المحاربين بالوراثة، وللنُّخَب الكهنوتية أيضًا التي وظيفتُها غَرْسُ العقائد الدينية وغيرها من الأفكار التشريعية. وأينما حَدَثَ هذا، كانت الشبكات الاجتماعية

social networks تخضع لصلاحيات التسلسل الهَرَميّ hierarchy وامتيازاته. كانت معرفةُ القراءة والكتابة امتيازًا. أما نصيب الرجل العادي والمرأة العادية فهو الكَدْح. كانوا يعيشون في قراهم، «معزولين حرفيًا» (بتعبير إرنست جيلنر[365] Ernest Gellner) عن الجميع باستثناء جيرانهم الأقرب؛ وهي حالة انعزال عَبَّرتْ عنها بحِدَّة روايةُ كازو إيشيجورو[366] Kazuo Ishiguro «العملاق المدفون» The Buried Giant[367]، بوصفها نوعًا من الضباب العقلي الدائم. النُّخْبة الحاكمة، وحدها، هي القادرة على تعزيز روابط شبكية عبر المسافات: مثلاً، امتدت شبكات الفراعنة المصريين، في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، من الحُكَّام الكنعانيين المحليين إلى نظرائهم في مدن مثل بابل Babylon وميتاني Mitanni [368] [369]. لكن حتى شبكات النُّخْبة تلك، كانت مصدر خطر على النظام الهَرَمي hierarchical order: نقرأ في أقدم المُدوَّنات التاريخية عن مؤامرات conspiracies وخُطط خفيّة plots، كالمؤامرات ضد الإسكندر الأكبر[370] Alexander the Great: تجمُّعات ظلامية حاقدة داخل الشبكة[371].

لم يكن هذا عالَمًا يُشَجَّعُ فيه المُجَدِّدون أو المُبْتَكِرون، بل عالَمًا يُحْكَمُ فيه بالموت على المارقين. لم يكن عالَمًا تتدفق فيه المعلومات من أسفل إلى أعلى أو بشكل أفقي، بل عالَمًا تتدفق فيه المعلومات من أعلى إلى أسفل، هذا لو تدفقت أصلاً. ومن ثمَّ، تَشكَّلَ التاريخُ القديم النموذجي على غرار تاريخ سُلالة أور الثالثة Third Dynasty of Ur (حوالي 2100 - 2000 ق. م.)، في جنوب بلاد النهرين Mesopotamia، التي استطاعت بناء نظام رَيٍّ على نطاق واسع، ثم عجزت عن مواجهة مشكلة تملُّح التربة وانهيار المحاصيل الزراعية[372].

(وفي وقت لاحق، حَلَّ مصيرٌ مماثل بالخلافة العباسية، التي فشلت في الحفاظ على بنية الريِّ التحتية، فيما هو الآن جنوب العراق، بسبب الصراعات المتكرِّرة على الخلافة. وهذه أمراض شائعة في التسلسلات الهَرَميَّة الوراثية)[373].

وبطبيعة الحال، وُجِدَتْ تجارب ذات أبنية سياسية أكثر توزيعًا للسلطة - «العالَم الصغير» في الديمقراطية الأثينية[374] Athenian democracy، والجمهورية الرومانية Roman Republic - ولكن هذه التجارب لم تصمد طويلاً. يقول رونالد سايم[375] Ronald Syme في دراسته الكلاسيكية «الثورة الرومانية» The Roman Revolution إن الجمهورية أدارتها أرستوقراطيةٌ رومانية سمحت خلافاتُها لإيطاليا بالانحدار

إلى حرب أهلية. ففيما يلاحظ سايم الذي أضْفَتْ عليه جامعةُ أكسفورد روحَ سخريةٍ: «السياسة العملية والممارسات لدى الشعب الروماني
Roman People وَجَّهتْهُما الأوليجاركيةُ [القِلَّة
oligarchy [ ا ل ح ا ك م ة]، فكُتِبَتْ سجلاتُ الأحداث بروح أوليجاركية». «نشأ التاريخ من مُدوَّنات القنصليات وانتصارات النُّبَلاء، ومن الذاكرة المتناقَلة لأصول عائلاتهم وتحالفاتها وخلافاتها».

جاء أوغسطس[376] Augustus
إلى السلطة ليس لأنه كان موهوبًا فقط، بل لأنه أدرك أهمية وجود «حلفاء... وأتباع» أيضًا. فمن خلال تعزيز أتباعه في «فريق القيصرية»
Caesarian party، استطاع أوغسطس تركيزَ السلطة في يديه تدريجيًا، رغم أنه استعاد «الجمهورية» اسميًا. يقول سايم: «في جوانب معينة، كانت زعامته نقابية». «الإطار القديم والتصنيفات القديمة» استمرت: كانت مَلَكِيَّةُ أوغسطس
Augustus's monarchy، شأنها شأن الجمهورية قبله، واجهةً تحكم من ورائها الأوليجاركية[377].

وُجِدَتْ في العصور الرومانية أيضًا طُرُق الحرير[378] Silk Roads، وهي على حدِّ تعبير بيتر فرانكوبان[379] Peter Frankopan:

«شبكة تنتشر في كل اتجاه، طرق يتنقل عبْرها الحُجَّاجُ والمحاربون والبدو والتُّجار، حيث تُنْتَجُ البضائعُ وتُبَاع وتُشْتَرى، وتُتَبادَلُ الأفكارُ فيحدث تبنِّيها وتنقيحها»[380]. ولكن هذه الشبكة ساعدت على انتشار الأمراض بقدر ما ساعدت على التبادل التجاري، أما المحاور الحَضَرِيَّة المزدهرة على طول هذا الطريق فكانت عُرْضةً دائمًا لهجمات بدوية من أمثال الشيونجنو[381] Xiongnu (قبائل الهون[382] Huns) والسيثيين[383] Scythians[384].

الدرس الجوهري في النظرية السياسية الكلاسيكية أن السلطة ينبغي بناؤها هَرَميًّا، وأن السلطة كلما تركَّزت في أيدي القِلَّة صارت وحدةً سياسية أكبر. وبدرجة لافتة للنظر، تطوَّرت الإمبراطورية الرومانية وإمبراطورية سلالتيْ تشين - هان[385] Qin - Han

بطرق متماثلة، على الأقل حتى القرن السادس، ذلك أنهما واجهتا تحديات متشابهة[386].

وبمجرد أن بدأت تكاليف التوسُّع الإقليمي تتجاوز الفوائد منه، كانت علةُ وجود raison d’être النظام الإمبراطوري حفظ السلام والنظام الذي يُوفِّره جيشٌ إمبراطوري كبير وجهاز بيروقراطي [متشعِّب]، وقد تمَّت تغطية هذه التكاليف بالجَمْع بين الضرائب وتخفيض قيمة العملة[[387]].

فلماذا، إذن، لم تتمكن الإمبراطورية في جانب أوراسيا Eurasia الغربي من البقاء، على حين بقيت في جانبها الشرقي؟ الإجابة الكلاسيكية هي أن روما لم تستطع الصمود أمام ضغوط هجرات - وسيقول البعضُ غزو - القبائل الجرمانية[[388]] Germanic tribes المتزايدة. والأكثر من هذا، وعلى خلاف الإمبراطورية الصينية، كان على روما أن تتعامل مع تأثير دين جديد أدَّى إلى تمزيق أوصال الإمبراطورية، هو المسيحية، نشرته فرقةٌ يهودية مُهَرْطِقة عَبْر العالَم الروماني بفضل جهود شاول الطرسوسي

Saul of Tarsus (بولس الرسول the apostle Paul)[[389]] بعد هدايته على الطريق إلى دمشق حوالي 36 - 31 ميلادية.

وقد خلقت الأوبئةُ التي انتشرت منذ منتصف القرن الثاني حتى منتصف القرن الثالث الميلادي فتحًا لهذه الشبكة الدينية، لأن المسيحية لم تكتفِ بتقديم تفسير للكوارث، بل حثَّتْ على محاسن السلوك أيضًا (كأعمال البِرِّ ورعاية المَرْضَى)، الأمر الذي أدَّى إلى عَيْش المؤمنين بها في بيئة غير متجانسة[390].

كانت الإمبراطورية الرومانية نظامًا متسلسلاً هَرَميًّا حقيقيًّا، ذا أربع رُتَب اجتماعية رئيسية - مجلس شيوخ، فرسان، إداريين، عامة الرومان - لكن المسيحية تغلغلت في كل فئة من هذه الفئات[391].

كانت المسيحية أنجح أشكال الهَوَس الديني الذي اجتاح الإمبراطورية الرومانية: عبادة إله العاصفة جوبيتر دوليتشينيس Jupiter Dolichenus القادمة من شمال سوريا التي انتشرت أيضًا من شمال سوريا إلى جنوب إسكتلندا منذ أوائل القرن الثاني الميلادي، بسبب تبنِّي ضباط الجيش الروماني لهذه العبادة[392].

الهجرة والدين والعَدْوَى: عملت هذه التهديدات التي ولَّدتها الشبكةُ - والتي لم يُخطِّط لها أحدٌ أو قادَها، ولكنها انتشرت فيروسيًا - على تدهور بنية الحُكْم الإمبراطوري الروماني الهَرَميَّة بحلول القرن الخامس، فما تركت سوى بقايا نظام قديم ظل يُسَاوِرُ خيالَ الأوربيين لقرون قادمة. وبدءًا من القرن السابع، اندلع من

صحاري الجزيرة العربية دينُ تسليمٍ تَوْحيديّ جديد - الإسلام - تَبدَّلَ بين مكة والمدينة، من مجرد عقيدة يقودها نبيٌّ إلى أيديولوجيا سياسية مُحارِبة تفرض نفسَها بالسيف.

ومع أن كلتا الحركتين التوحيديتين الكبيرتين [المسيحية والإسلام] أسَّسهما نبيَّان كاريزميان فقد كانتا تشبهان الشبكةَ من حيث انتشارهما الفيروسي. ولكنهما بسبب تدهور الحُكْم الروماني، على جميع المستويات، آلَتا إلى إنتاج تسلسلات هَرَميّة ثيوقراطية [دينية] theocratic في بيزنطة وبغداد. المسيحية الغربية Western Christianity - التي انقطعت عن الأرثوذكسية بالانشقاق العظيم[393] Great Schism عام 1054 - خضعت لشكلها الخاص في السيطرة الهَرَميَّة بصعود البابوية الرومانية والنظام الكَنَسِي الطبقي. ومع ذلك، ظل الغرب المسيحي Western Christendom، من الناحية السياسية، أكثر شَبَهًا بالشبكة:

انبثقت، من أنقاض الإمبراطورية الرومانية في الغرب، هندسةٌ فراكتيلية للدول، معظمها صغير، وقليل منها كبير؛ أغلبها مَلَكيَّات وراثية، وبعضها أرستوقراطيات من حيث الممارسة، وحفنةٌ منها دولُ مدينة city - states تُديرها أوليجاركيات. من الناحية النظرية، ورث الإمبراطورُ الروماني المقدس السلطةَ على معظم هذه الكيانات. ومن الناحية العملية، بعد انتصار البابا جريجوري السابع Pope Gregory VII على الإمبراطور هنري الرابع Henry IV في نزاع التنصيب[394] Investiture Controversy، امتلك الكرسيُّ الرسولي[395] Holy See السلطةَ المرجعية الأعظم عبر الحدود، فسيطر على تنصيب الأساقفة والكهنة، وأخضع كلَّ مكانٍ لقانونه الكَنَسِي (إحياء قانون جوستنيان[396] Justinian Code من القرن السادس). وتوزَّعتْ السلطة الزمنية، في جوهرها، من خلال نظام سندات مِلْكية الأرض المتوارثة والجيش أو الالتزامات الأميرية المعروفة باسم الإقطاع feudalism.
هنا أيضًا، كانت السلطة يُحدِّدها القانونُ: المدني (المستمد من القوانين الرومانية) في القارة [الأوربية] وإسكتلندا؛ والعُرْفي (على أساس سابِقَةٍ) في إنجلترا.

وعلى النقيض من ذلك، كان الدرس المستفاد في الصين من تجربة الممالك المتحاربة أن الاستقرار لا يمكن تحقيقه إلا في إمبراطورية واحدة متجانسة، ذات

ثقافة (الكونفوشية Confucianism) تقوم على طاعة الوالدين [تقوى الأبناء] (شياو xiao). لم تكن هناك سلطة دينية متفوقة على الإمبراطور[397]. لم يكن يوجد قانون سوى قوانين الإمبراطور[398].

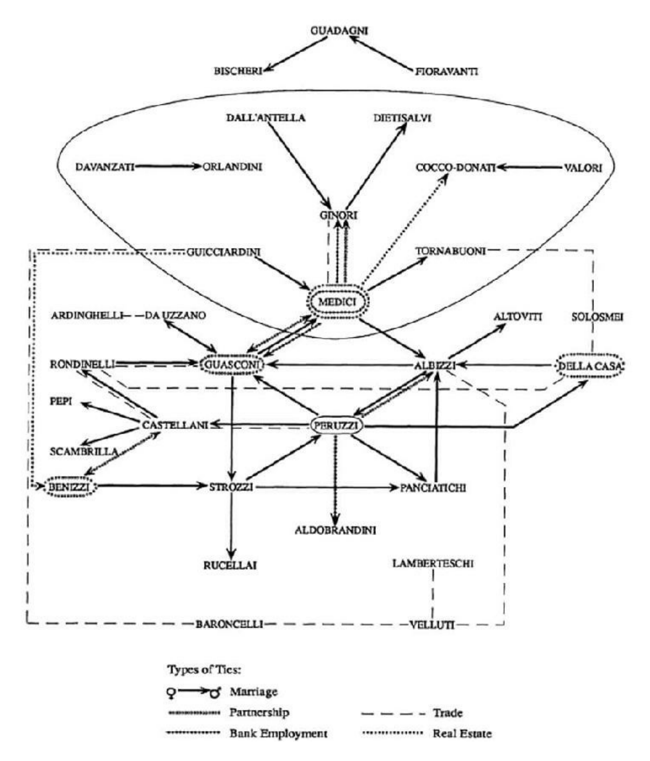
والسلطة الإقليمية والمحلية تُرَاجِعُها بيروقراطيةٌ إمبراطوريةٌ مُعيَّنة ومُرَتَّبة على أساس الجدارة والكفاءة، بنظام اختباراتِ خدمةٍ مدنيَّةٍ تتيح للشباب التَّرقِّي في المناصب على أساس الموهبة وليس المَوْلِد. ومع ذلك، في كلا النظامين الغربي والصيني، كانت العقبةُ الرئيسية أمام تكوين دولة مستقرة استمرارَ الشبكات العائلية أو العشائرية أو القَبَلِيَّة[399].

إذ أدَّت التنافسات بين شبكات من هذا النوع - للسيطرة على الريوع التي يجلبها الحُكْم - إلى حروب أهلية دورية، تميزت بأنها صراعات سُلالية.

وعلى مدى قرون، فَكَّرَ الحكماء وأصحاب العقول الراجحة في استحالة وجود نظام دون سلطة مطلقة تقريبًا. وكتبوا أفكارهم على الرَّق أو الورق، بالأقلام أو الرِّيَش، وهم يعرفون حَقَّ المعرفة أن أقلية ضئيلة من رفاقهم سيقرأونها، وأن أفضل أملهم في الخلود أن تُنْسَخَ كتاباتُهم وتُحْفَظَ في مكتبة أو أكثر من مكتبات ذلك العصر العظيمة. ولكن مصير مكتبة الإسكندرية - التي دُمِّرتْ في سلسلة هجمات بلغت ذروتها في عام 391 ميلادية[400] - بَيَّنَ مدى هشاشة تخزين المعلومات في العالم القديم. كان الافتقار الكامل تقريبًا إلى التبادل الفكري بين أوربا والصين في العصور القديمة والوسطى يَعْني أن العالَم لا يزال جِدًّ بعيد عن كَوْنه شبكةً واحدة؛ إلا في ناحية واحدة مُمِيتة.

الأراضي الأوراسية بأكملها، اجتاح سُكَّانَها، في القرن الرابع عشر، الموتُ الأسود [الطاعون الأسود] Black Death، أو الطاعون الدَّبْليّ bubonic plague الذي تتسبَّبُ فيه جرثومةُ يرسينيا Yersinia Pestis البكتيرية، التي ينقلها البرغوث. انتقل هذا الوباء المُمِيت على طول شبكات التجارة الأوراسية الموصوفة أعلاه. ولأن هذه الشبكات كانت متناثرة - ولأن الروابط بين مجموعات السكان المقيمين قليلة - استغرق هذا المرض شديد العَدْوَى أربع سنوات كي ينتقل عبر آسيا بسرعة أقل من ألف كيلو متر في السنة[401]. لكن الوَقْعَ في أوربا كان جِدَّ مختلف، إذ هَلَكَ نصفُ السكان تقريبًا (بمَن فيهم، ربما، ثلاثة أرباع سكان جنوب أوربا) مقارنةً بآسيا.

مثلاً، بدا أن نقصَ الأيدي العاملة أحدُّ في أقصى الغرب، الأمر الذي أدَّى إلى ارتفاعات كبيرة في الأجور الحقيقية، وبخاصة في إنجلترا. ومع ذلك، تَمثَّلَ الاختلافُ المؤسَّسي الرئيسي بين غرب أوراسيا وشرقها بعد عام 1500، في أن شبكات الغرب تحرَّرتْ نسبيًا من الهَيْمنة الهَرَميَّة أكثر منها في الشرق. لم تتكرَّرْ ثانيةً امبراطوريةٌ متجانسة في الغرب؛ إذ انتشرت إماراتٌ عديدة، ضعيفة غالبًا، في ظل وجود بابوية وإمبراطورية رومانية مقدسة Holy Roman Empire ذات بنية رَخْوة، هي البقية الباقية من السلطة الإمبراطورية الرومانية، وفي الوقت نفسه اعْتَبَرَتْ بيزنطةُ نفسَها وريثَ الأباطرة الحقيقي. في مقاطعة رومانية سابقة - هي إنجلترا - كانت سلطةُ المَلِك محدودةً، إلى درجة أن تُجار العاصمة في القرن الثاني عشر تمتعوا بحرية إدارة شؤونهم الخاصة من خلال نقابة مستقلة. وفي الشرق، كانت الشبكاتُ المهمة عائليةً في معظمها: روابط عشائرية. أما في أوربا الغربية الأكثر شعورًا بالفردية، فثمة أشكال أخرى من الترابط هي الأهمُّ: الأُخوَّة الاسمية بدلاً من الحقيقية[402].




الشكل: 10 - شبكة ميديتشي: إستراتيجية سُلالة القرن الرابع عشر جعلت عائلةً واحدة تُهيمن في فلورنسا.

وينبغي علينا، مع ذلك، أن نكون حريصين على عدم التأريخ ل«تباعد كبير» بين الغرب والشرق، يظل هو السمة الألفت للانتباه في التاريخ الاقتصادي بين أواخر القرن الخامس عشر وأواخر القرن العشرين[403]. لو ظل شعبُ أوربا الغربية محصورًا بشواطئه - أو لو تقدَّمَ الغُزَاةُ المغول Mongol، في القرن الثالث عشر، غربًا إلى ما وراء السهل المجري - لاختلف تاريخ أوربا الغربية تمامًا. تتضح استمرارية الشبكات السُّلالية، في أوربا القرن الرابع عشر، من خلال صعود عائلة ميديتشي Midici في فلورنسا Florence، التي احتل أفرادُها موقعًا فريدًا بوصفهم وُسَطاء brokers داخل شبكة العائلات الفلورنسية Florentine النُّخْبوية، مستغلين الثغرات الهيكلية المتنوعة في النظام (انظر الشكل 10)[404].

كان صعود آل ميديتشي، إلى حد ما، مسألة زواج إستراتيجي (يشمل هذا الزواجُ ا أفرادَ العائلات المتعادية كعائلات ستروزي[405] Strozzi وباتسي[406] Pazzi وبيتي Pitti): وهنا، كما في معظم المجتمعات قبل الحديثة، الشبكة الأهم هي شجرة العائلة[407].

ومع ذلك، في الفترة التالية على ثورة تشيومبي[408] The Revolt of the Ciompi (1378 - 1382)، أدَّى صعود مَصْرفيين من أمثال آل ميديتشي، إلى مصافِّ النُّخْبة

السياسية الفلورنسية، إلى ابتداعٍ اقتصاديّ كبير: نقل أساليب طائفة محلية متخصصة في فن الصِّرافة Arte della cambio (المَصْرفيين bankers) إلى مستوى دولي يهيمن عليه حتى الآن تجار القماش Arte della Calimala، وظهور الشَّرَاكة بوصفها أساسَ نوعٍ جديد من الرأسمالية المالية finanacial capitalism[409].

ثم مع مجيء حُكْم آل ميديتشي عام 1434، وُلِدَ «رجلُ النهضة» Renaissance man، مُتعدِّدُ المعارف الذي يشارك في المال والتجارة والسياسة والفن والفلسفة معًا: «جزء منه رجل أعمال، وجزء منه سياسي، وجزء منه بطريركي[[410]] patriarch، وجزء منه ذوَّاقة فكري»[411].

رغم أن بنيديتو كوتروجلي[412] Benedetto Cotrugli أقلُّ شهرةً من ميديتشي، فهو يعطي مثالاً نموذجيًا للأساليب التي تطوَّرت بها الشبكاتُ الأوربية في عصر النهضة: أساليب خلقت طبقة كوزموبوليتانية جديدة من الأفراد المترابطين فيما بينهم. «كتاب فنّ التجارة»[413] Book of the Art of Trade الذي ألَّفه ونشره كوتروجلي، يُغْرينا بافتراض أنه النظير في القرن الخامس عشر لكتابٍ ألَّفه دونالد ترامب Donald Trump تحت عنوان «فنّ الصَّفقة»[414] The Art of Deal.

لكن كوتروجلي لم يكن ترامب. فمن بين العديد من النصائح الحكيمة التي يُقدِّمُها كوتروجلي، نجده يُحذِّرُ التجارَ من توريط أنفسهم في السياسة، إذ يقول: «لا يُنَاسِبُ التاجرَ أن يكون له علاقة بالمحاكم، وفي المقام الأول ألا يُورِّطَ نفسَه في السياسة أو الإدارة المدنية، لأن هذه الأمور محفوفة بالمخاطر»[415]. كان كوتروجلي - بغضّ النظر عن تفاخره وتباهيه بالثروة بأسلوب مبتذل - نصيرًا للنزعة الإنسانية ومتعلمًا تعليمًا راقيًا، ويُجسِّد التاجرُ المثالي عنده فضائلَ كلاسيكية لدى المواطن العادي، كما تَصوَّرها اليونانيون القدماء والرومان وأعاد اكتشافَها العلماءُ والباحثون الإيطاليون في عصر النهضة.

اعتنى كوتروجلي، في شبابه، بحضور الدروس في جامعة بولونيا Bologna [في إيطاليا]، ولكن (كما يُلاحِظُ بأسفٍ) «اتفق المصيرُ وسوءُ الحظ على أنه من الصواب، في غَمْرة مُتْعة الدراسات الفلسفية، أن أكُفَّ عن الدراسة وأُصْبِحَ تاجرًا، فالتزمتُ بممارسة التجارة، وتخلَّيْتُ عن مسرَّات الدراسة ومباهجها التي كنتُ قد كَرَّستُ نفسي لها تمامًا...»[416].

عاد كوتروجلي إلى مُباشَرة أعمال عائلته التجارية في راجوزا Ragusa (حاليًا دوبروفنيك Dubrovnik)[417]، فهَالَه تردّي المستوى الثقافي في بيئته الجديدة. وفي غياب أيِّ نوع من التعليم التجاري المنهجي، لم يكن يوجد أكثر من نظام معرفة مكتسبة في مهنة التجارة «غير كافٍ، وعشوائي، واعتباطي وعتيق، إلى درجة أثارت شفقتي، وقد آلمني أن هذا النشاط المفيد والضروري وَقَعَ في أيدي أُناس أجلاف غير منضبطين، يمارسونه دون اعتدال أو نظام، ويتجاهلون القانونَ

وينحرفون عنه»[418].

يُعَدُّ «كتاب فنّ التجارة»، من نواحٍ عديدة، محاولةً من كوتروجلي لإثارة قضية معايير التعليم التجاري، ورَفْع مكانة الأعمال التجارية نفسها أيضًا. وعلى الرغم من أن الكتاب معروف للباحثين جيدًا بوصفه العملَ الأبْكر لوَصْف نظام مَسْك الدفاتر مزدوجة القَيْد - double - entry book keeping، إذ نُشِرَ قبل رسالة لوكا باتشولي[419] Luca Pacioli (De computis et scripturis 1494) بأكثر من ثلاثين عامًا - فإن «كتاب فنّ التجارة» هو الأبرز من ناحية اتساع موضوعه وطريقة عَرْضه. قدَّم فيه كوتروجلي أكثرَ من مجرد نصيحة عملية عن المحاسبة. إذ عَرَضَ أسلوبَ حياة كامل. فهو ليس كتابًا دراسيًا جافًا، بل نُصْحًا لزملائه التجار كي يرتقوا إلى مَصافّ رجال أعمال عصر النهضة.

يُعْطي كتابُ كوتروجلي القارئَ الحديثَ، أيضًا، لمحةً رائعة عن عالَمٍ تلاشَى. كوتروجلي وشقيقه ميكيل Michele المولودان في راجوزا، كانا يستوردان الصوف الكاتالوني، وكذلك الأصباغ، ويدفعان بالفِضَّة البلقانية، أو الأكثر شيوعًا صكوك مقايضة. وفي غضون مزاولته لمهنة التجارة، قضى وقتًا في برشلونة Barcelona وفلورنسا Florence والبندقية Venice، وأخيرًا نابولي Naples، حيث عاش من عام 1451 حتى عام 1469. كانت حقًّا حياةً مُتَوسِّطية [نسبةً إلى حَوْض البحر الأبيض المتوسط]؛ فعَرَفَ كوتروجلي البحرَ بما يكفي لكتابة كتاب آخر عن الموضوع تحت عنوان «عن الملاحة» De navigatione، أهداه إلى مجلس شيوخ البندقية Venetian Senate. كما خَدَمَ أيضًا فرديناند Ferdinand ملكَ أراجون Aragon [شمال شرق إسبانيا]، بوصفه سفيرًا إلى راجوزا ومُعلِّمًا ذَرِبًا في نابولي. ولكن الحياةَ في القرن الخامس عشر محفوفةٌ بالمخاطر أيضًا، حتى بالنسبة إلى تاجر ناجح. ففي عام 146، اتُّهِمَ كوتروجلي بمحاولته تصدير سبائك ذهبية بطريقة غير مشروعة، ثم بُرِّئ من التهمة. ألَّفَ كوتروجلي كتابَه «فنّ التجارة» في ريف سوربو سيربيكو[420] Serpico Sorbo، التي لجأ إليها هربًا من تفشّي الطاعون في نابولي. كان في أوائل الخمسين من عمره حين مات عام 1469.

ومع ذلك، عاش كوتروجلي حياةً طيبةً. ربما فاتته مكتبات بولونيا، ولكنه كان فخورًا بمهنته التجارية ودعوته إلى الارتقاء بها. بل إن أجزاء من كتابه «فنّ التجارة» يمكن قراءتها بوصفها دفاعًا عن التُّجار ضد تُهَمٍ - كالرِّبا والجشع والطمع - وجَّهها لهم متعصِّبون دينيون في ذلك الوقت. أعلن كوتروجلي نفسُه «اندهاشَه من أن العديد

من اللاهوتيين يُدِينون الصِّرافةَ، مع كَوْنها جِدَّ مفيدة، ويسيرة وضرورية تمامًا لإدارة الشؤون البشرية»[421]. (في الوقت الذي كان فيه الرِّبا لا يزال غير شرعي، حرص كوتروجلي على تعريف المُرابين بأنهم «أولئك الذين - عند أوان الدَّيْن - لن يَمُدُّوه دون فوائد على المقترضين العاجزين عن الدفع فورًا»)[422]. وبالإضافة إلى ترسيخ [فنّ] المُحاسَبَة الدقيقة، آمَنَ كوتروجلي في وقت مبكر بالتنويع بوصفه أسلوبًا في الإدارة وتقليل المخاطر. فكان يفترض أنَّ على التاجر الفلورنسي الدخولَ في شَرَاكات متنوعة مع تجار في البندقية وروما وأفينيون[Avignon [423، فيستثمر بعضَ رأسماله في الصوف وبعضَه الآخر في الحرير. يقول: «بعد أن وضعتُ يدي على العديد من الصفقات بأسلوب منظَّم وآمِن، لن أكسب شيئًا سوى الاستفادة منها جميعًا، فاليد اليسرى ستساعد اليمنى»[424].
ويضيف قائلاً: «يجب ألا تُخاطِرَ بالكثير مرةً واحدةً، برًّا أو بحرًا: قد تُغْنيك حمولةُ سفينة بخمسمائة قطعة ذهبية على الأكثر، أو ألف قطعة لألواح طباعة كبيرة»[425].

كان كوتروجلي عُقْدَةً في شبكة ائتمان وقروض تجاريةِ مزدهرة؛ ومن هنا إدانته ل«أولئك الذين يُمْسِكون بعمود واحد للحسابات، وكَمْ يُدِينهم هذا ولا يُدِين الآخرين الذين يتوقعون منهم ذلك»، وهُم مَن أسماهم «نموذج التاجر الأسوأ، الأكثر انحطاطًا وجَوْرًا»[426]. يقول كوتروجلي: «ينبغي على التاجر أن يكون الأكثرَ عالميةً بين الرجال، والأقدر - أكثر من زملائه - على التعامل مع مختلف الرجال والطبقات الاجتماعية». ف«كلُّ معرفة قد يعرفها الرجل مفيدةٌ للتاجر»، بما في ذلك الكوزموجرافيا [علم أوصاف الكون] cosmography والجغرافيا والفلسفة وعلم مواقع النجوم واللاهوت والقانون. وباختصار، من الممكن قراءة «كتاب فنِّ التجارة» بوصفه بيانَ [مانيفستو] مجتمعٍ شَبَكيٍّ جديدٍ مُتعدِّدِ المعارفِ أيضًا.

التقدُّم الذي تَحقَّقَ في إيطاليا Italy، وما يحيط بها، يُبَيِّنُ أن أوربا - من حيث التطور الثقافي والاقتصادي - اختلفت عن بقية العالم قبل نهاية القرن الخامس عشر. ولكن التقدُّم [الاختراق] المفاجئ الحاسم، الذي اسْتَبقَ عصرَ الهيمنة الأوربية على العالم، لم يكن النهضةَ الإيطالية بقدر ما كان عصر الاستكشاف الأيبيري[427] Iberian age of exploration.

فابتداءً من عهد هنري [هنريك] الملاح Henrique the Navigator[428] (1415 - 1460)، بدأ البحارةُ البرتغاليون مغامرةَ الإبحار أبعد من أوربا، أولاً جنوبًا بمحاذاة ساحل غرب أفريقيا، وثانيًا على طول الطريق عبر المحيطين الأطلنطي والهندي، ثم أخيرًا المحيط الهادي. خلقت هذه الرحلاتُ الاستثنائية الخَطِرة والطموحة شبكةَ طرقٍ تجارية جديدة عبر المحيطات، عَجَّلَتْ بتحويل الاقتصاد العالمي من أسواق إقليمية إلى سوق عالمي واحد.

ورغم الرعاية المَلَكيَّة للمستكشفين، فقد كانوا بحدِّ أنفسهم شبكةً اجتماعية، تَتشارَكُ معرفةَ بناء السفن والملاحة والجغرافيا والحرب. وكما يحدث غالبًا في التاريخ، استحثَّت التكنولوجياتُ الجديدة ظهورَ هذه الشبكات الجديدة التي عملت، في الوقت نفسه، على تسريع مُعدَّل الابتكارات. أفضلُ السفن، وأفضلُ الأَسْطُرلابات astrolabes، وأفضلُ الخرائط، وأفضلُ البنادق - أسهمت كلُّها في إنجازات عصر الاستكشاف المثيرة. كذلك أيضًا، انتقلت عبر الأطلنطي الأمراضُ الأوراسية إلى الأمريكيين الأصليين Native Americans الذين لم يكن لديهم مقاومةٌ لها. تكفَّلَتْ هذه الأمراض، في العالم الجديد New World أكثر من آسيا، بأن يكون عصرُ الاستكشاف عصرَ غَزْوٍ أيضًا.

بدايةً من عام 1434، عندما نجح جيل إينس[429] Gil Eanes في عبور رأس بوجادور[430] Cape Bajador - «الرأس المنتفخ» لما صار ساحلَ الصحراء الغربية الشمالي - مَدَّ البحارةُ الذين توقفوا عند جرف ساجريس[431] Sagres، تدريجيًا، نطاقَ ملاحتهم البرتغالية، فقاموا بمغامرات أبعد من مرأى الأرض. في ربيع عام 1488، وصل بارتولوميو دياز[432] Bartolomeu Dias إلى ما يُحاذِي كوايهوك[433] Kwaaihoek، وتُسمَّى اليوم الرأس الشرقية Eastern Cape،

فاستكشفَ في طريق عودته إلى البرتغال رأسَ الرجاء الصالح Cape of Good Hope. ثم بعد عقد من الزمان، واصل الرحلةَ فاسكو دا جاما Vasco d Gama إلى موزمبيق Mozambique، ثم عَبَرَ المحيط الهندي - بصحبة مُرْشِد محلي - إلى كاليكوت[434] Calicut (كوزيكود Kozhikode) في ولاية كيرالا[435] Kerala.
وفي فبراير عام 1500، انطلق في أعقابه بيدرو ألفاريس كابرال Pedro Álvares Cabral، ولكنه أبحر إلى الجنوب الغربي، متجنِّبًا حالات الركود الاستوائي[436] في خليج غينيا Gulf of Guinea، حتى وصل في نهاية المطاف إلى ساحل البرازيل. لم يَقْنَعْ كابرال بما استكشفه فتَقدَّمَ إلى كاليكوت، ومن هناك - بعد مماحكة عنيفة مع التجار المسلمين المنافسين - أبحر أبعد جنوبًا إلى كوشين Cochin (كوتشي Kochi)[437].

بين عاميْ 1502 و1511، أنشأَ البرتغاليون، بطريقة نظامية مُمَنْهَجة، شبكةَ مراكز تجارية حصينة، شَمَلَتْ جزيرةَ كيلوا كيسيواني[438] Kilwa Kisiwani (تنزانيا) وممباسا[439] Mombasa (كينيا Kenya)، وكانور[440] Kannur (كيرالا Kerala)، وجوا Goa، ومَلَقّا[441] Malacca (ماليزيا Malaysia)[442]. تلك هي كل الأماكن التي لم تكن تعرفها أجيالُ الأوربيين الأسبق.

في أغسطس عام 1517، رَسَتْ ثماني سفن برتغالية قبالة ساحل جوانجدونج[443] Guangdong.
وتستحق هذه المناسبة أن نستفيض فيها، لأنها أحدُ أول الاتصالات بين الأوربيين والإمبراطورية الصينية منذ زمن ماركو بولو[444] Marco Polo أواخر القرن الثالث عشر[445]. كان قائد الأسطول البرتغالي الصغير فيرناو بيريس دي أندرادي[446] Fernão Peres de Andrade، ومعه ضِمَن الطاقم أيضًا الصيدليُّ تومي بيريس[447] Tomé Pires، الذي كان مبعوثَ التاج البرتغالي إلى بلاط المينج Ming court [أسرة مينج أباطرة الصين].

ولعل السبب في أن البعثة قد لَفَّتْها - إلى حد كبير - غياهبُ النسيان أنها لم

تُسْفِرْ عن شيء. بعد المتاجرة في تونْمِن Tunmen (حاليًا، ناي لينجدينج أيسلاند Nei Lingding Island [448] الواقعة عند مَصَبِّ نهر اللؤلؤ Pearl River، غادر [الأسطول] البرتغالي الصغير مرة أخرى في سبتمبر عام 1518. وبعد أحد عشر شهرًا، عادت ثلاثُ سفنٍ برتغالية، هذه المرة بقيادة سيماو دي أندرادي Simão de Andrade، شقيق فيرناو. وفي يناير عام 1520، أقلع تومي بيريس باتجاه الشمال على أمل النجاح في مقابلة الإمبراطور تشنج دي[449] Zhengde، ولكنه سُوِّفَ كثيرًا، ثمَّ مع وفاة الإمبراطور يوم 19 أبريل عام 1521، وَجَدَ نفسَه واقعًا في الأسْر.

ثم بعد وقت قصير، وَصَلَ أسطولٌ برتغالي آخر بقيادة ديوجو كالفو Diogo Calvo، رَسَا في تونْمِن. طلب المسؤولون الصينيون من كالفو المغادرة، وعندما رَفَضَ نَشَبَ القتالُ. ولم يستطع كالفو، حتى بعد وصول سفينتين إضافيتين من مَلَقّا، أن يتفادى هزيمةً مُهينة على أيدي الأسطول الصيني بقيادة أميرالي المينج [عميد بحري] وانج هونج Wang Hong.

كلُّ الزوارق البرتغالية غرقت، عدا ثلاثة. ثم بعد عام، في أغسطس عام 1522، حاول البرتغاليون مرةً أخرى فوَصَلَتْ ثلاثُ سفن إلى تونْمِن، بقيادة مارتيم كوتينهو Martim Coutinho. ومع أن لجنةً مَلَكِيَّة صاحبت السفنَ البرتغالية بغرض عَقْد السلام، نَشَبَ القتالُ مرة أخرى، وأُغْرِقَتْ سفينتان برتغاليتان. قُيِّدَ البحارةُ البرتغاليون المأسورون بالكانجات[450]. cangues (أطواق خشبية ثقيلة)، ثمَّ أُعْدِموا في سبتمبر عام 1523. وأُجْبِرَ تومي وأعضاء آخرون في البعثة الديبلوماسية الأصلية على كتابة رسائل إلى وطنهم تُفيدُ بطلب السلطات الصينية أن يعيد البرتغاليون مَلَقّا إلى مالكها الشرعي.

وباختصار، لم يكن ما حَدَثَ شيئًا سوى تذكير بأن التوسُّع الأوربي عبر البحار ليس عمليةً سَلِسَةً وهيِّنةً. بل من السهل التغاضي عن المخاطر التي تعرَّضت لها جميع الرحلات البحرية المذكورة أعلاه. ففي رحلة فاسكو دا جاما الأولى إلى كاليكوت، خسر نصف طاقمه، بمَن فيهم شقيقه. لقد رَسَا كابرال باثنتي عشرة سفينة في عام 1500، عادت خَمْسُ سفن منها فقط. فلماذا يتكبَّد البرتغاليون، إذن، مخاطرَ كبيرةً من هذا النوع؟ الإجابةُ أن المكاسب التي ستُجْتَنَى من إنشاء - ومن ثمَّ احتكار - طريق جديد للتجارة مع آسيا تستحق المخاطرة. فمن المعروف جيدًا أن الطلب الأوربي على التوابل الآسيوية مثل الفلفل والزنجبيل وجوزة الطيب والقرنفل وغيرها، تنامى بسرعة في القرن السادس عشر. فروق السعر

بين الأسواق الآسيوية والأوربية كانت هائلةً في البداية. ولكن المعروف بدرجة أقل، مدى ما وصل إليه البرتغاليون من شَقِّ طريقهم بالقوة في التجارة القائمة داخل آسيا. ما كان يتدفق إلى الصين في عهد سُلالة المينج Ming China لم يكن الفلفل من سومطرة فقط، بل الأفيون والمكسَّرات (لاستخلاص حمض الطنطاليك t المستخدم في الطب الصيني بوصفه دواء قابضًا)، والزعفران والمرجان والقماش والصبغة القرمزية والزئبق والخشب الأسود، والبوتشوك putchuck (الباتشاك pachak) من أجل البخور، واللبان والعاج، أيضًا. أما الذي كان يتدفق من الصين فكان النحاس والملح والرصاص وحجر الشبّ وخيوط الكتان، والكابلات [حزم أسلاك معدنية] ومشغولات الحديد والقارّ والحرير ومشغولات حريرية (مثل مواد تزيين المفارش والساتان والتطاريز)، والخزف، والمسك والفضة والذهب وحبَّات اللؤلؤ الصغيرة وقطع زخرفية مطلية بالذهب والخشب المذهَّب وأطباق المائدة ومراوح اليد المزركشة[451]. ولا شك في وجود دوافع أخرى للإبحار على طول نصف الطريق حول العالم.

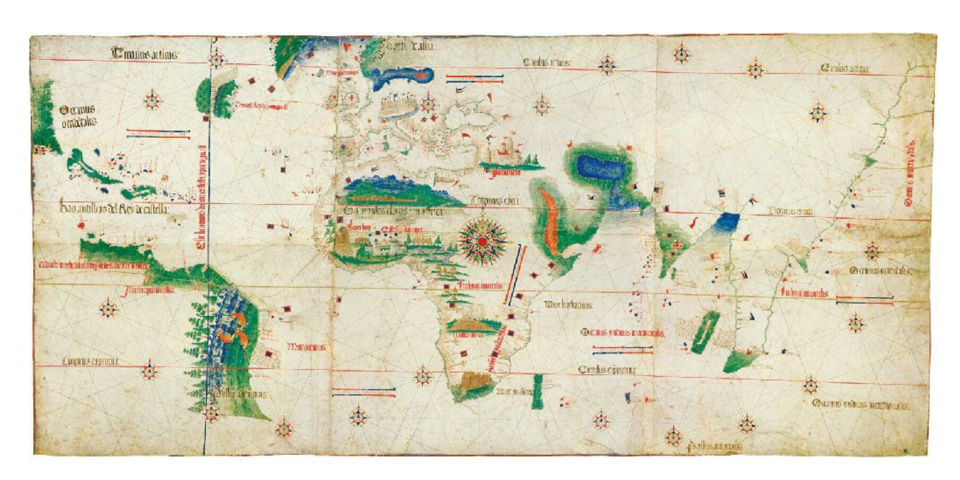
كانت المعرفة الطبية الصينية متفوقة، من بعض النواحي، على المعرفة الأوربية في ذلك الوقت، وكان تومي بيريس [الصيدليُّ في الأساس] يأمل في معرفة المزيد عنها. ثمة أيضًا الدافع الديني لنشر المسيحية، الذي نما بشكل أكبر مع وصول اليسوعيين إلى آسيا، فتأسَّستْ شبكةٌ كاثوليكية رومانية بوَسَاطة الجندي الإسباني إجناسيو دي لويولا[[452]]. Ignacio de Loyola في ثلاثينيات القرن السادس عشر. وأخيرًا، وُجِدَتْ دون ريب فوائد من إقامة علاقات ديبلوماسية مع الإمبراطور الصيني. ومع كل ذلك، لولا الحتمية التجارية، لم تكن الدوافع الأخرى ستكفي لحثِّ الرجال على تحمُّل مشاقِّ تلك المسافات الهائلة وتكبُّد المصاعب والأذى.

لم يصل البرتغاليون بمنتجاتهم العديدة ليعرضوها على المستهلكين الآسيويين (وإنْ جلبوا معهم بعضَ العبيد والذهب من قواعدهم الاستيطانية في غرب أفريقيا). لم يكن ذلك غرضهم. كلا، ولم يأتوا بوصفهم غزاةً عازمين على كسب أراضٍ أو رعايا جُدُدٍ لمَلِكهم. فما كان لدى البرتغاليين هو سلسلةُ مزايا تكنولوجية جعلت محاولتَهم إنشاء شبكة تجارية جديدة ومتفوّقة، قابلةً للتحقيق[453]. لقد تمكَّنوا بعد دراستهم للنصوص العربية والعباسية والهندية من تعلُّم الاستخدام المنهجي الصحيح للرُّبْعيَّات[[454]]. quadrants

والأَسْطُرلابات في نصوص مثل do Regimento (1493 Qoudrante do (Estrolabio وال (1496 Perpetuum Almanach) للفلكي السفاردي أبراو [أبراهام]

زاكوتو[455] Zacuto Abraão، أحد اليهود الذين استقروا في البرتغال بعد طردهم من إسبانيا في عام 1492.

فأتقن الحِرفيّون البرتغاليون المَهَرة - من أمثال أجوستينو دي جوس رابوسو Agostinho de Goes Raposo، وفرانسيسكو جويس Francisco Gois، وجواو دياز João Dias - تشييدَ سفن ومُعِدَّات بَحَرية كبيرة. الكارافيل caraval البرتغالي[456]، وأخلافه الناو الكبير 1480) the great nau) والغليون 1510) galleon) - كانت سفنًا أفضلَ كثيرًا من سفن الإبحار الأخرى في ذلك الوقت. ثم أخيرًا، مع خريطة كانتينو[457] Cantino Map عام 1502، حقَّقَ البرتغاليون تقدُّمًا مفاجئًا في رسم الخرائط [الكارتوجرافيا] Cartography:



أول إسقاط حديث لجغرافية العالَم، برسومات دقيقة - إلى أبعد حد - لقارات العالَم الرئيسية، باستثناء أستراليا والقارة القطبية الجنوبية [أنتاركتيكا] Antarctica.

يتضح مما حَدَثَ - عندما سَعَتْ هذه الشبكة الدينامية والابتكارية الاستثنائية إلى إقامة «عُقْدَة» جديدة في جنوب الصين - مدى الفشل حين تُواجِه شبكةٌ تسلسلاً هَرَميًّا حصينًا ذا طابع مؤسَّسي. كان الإمبراطور الصيني يَحْكُم من الأعلى [رأس الهرم]. كتب الإمبراطور يونجلي[458] Yongle إلى حاكم أَ يُ و دِ ي هِ ا Ayudyha في تايلاندا Thailand
عام 1419 الآتي: «لقد تحمَّلتُ بوقار تفويضَ السماء وأنا أحكم الصينيين وشعب يي
Yi.
ومن خلال حُكْمي، أجسِّدُ المحبةَ بين السماء والأرض والاعتناء برعاية كل الأشياء، وأنظرُ إلى الجميع على قدم المساواة دون تمييز بين شيء وآخر». أما الحُكَّام [عدا الإمبراطور الصيني] الأقل منزلةً فدورُهم السليمُ «احترام السماء وخدمة الأرفع مقامًا» بالالتزام بنظام الوِفادة[459]. الإمبراطور يونجلي يُفضِّل الملاحة في المحيطات. ففي عهده، قاد الأميرالي تشنج هي[460] Zheng He أسطولَه الكنز بمحاذاة ساحل شرق أفريقيا[461].

ولكن خلفاء يونجلي استسلموا لتفضيل البيروقراطية الإمبراطورية الاكتفاءَ الذاتي [الانعزالية]، إلى درجة حَظْر التجارة [الخارجية] عبر البحار رسميًا. في رأي أسرة المينج، المُتطفِّلون البرتغاليون هم «فو لانج تشي» - Fo - Lang Chi (من الكلمةِ الهنديِ جنوب شرق آسيوية «فرنجي» ferengi، المستمدة من الكلمة العربية التي أُطلِقَتْ على «الفرنكيين»[462] Franks في الحملات الصليبية). ولم تُعَبِّر العبارةُ التي أطلقها الصينيون [فو لانج تشي] عن أية مَوَدَّة. لقد اعتبر الصينيون الأجانبَ «أصحابَ قلوب قذرة». وانتشرت

الشائعات بأنهم يَشْوون الأطفال ويأكلونهم.

لم يُخْطِئ البرتغاليون في أن الصين قدَّمتْ فرصةً اقتصاديةً حقيقيةً. ازدهرت التجارة غير المشروعة مع كلٍّ من سَيَام Siam [تايلاند الآن] ومَلَقّا عَبْرَ يو كانج Yueh - Kang (القريبة من مدينة زهانجزهو Zhangzhou في مقاطعة فوجيان Fujian). وإذ بينما أرادَ كبارُ موظفي الإدارة الإمبراطورية - الحُكَّام والقضاةُ العُلماءُ من أمثال كيو داو لونج Qiu Dao - long وهي آو He Ao - تقليلَ الاتصالات الأجنبية، اشْتَهَى الخِصْيانُ - المسيطرون على البلاط الإمبراطوري - الوارداتِ الأجنبيةَ [المجلوبة من الخارج]، وكذلك الفضة الأجنبية من التجارة. وأما البرتغاليون فحاولوا عمل أكثر مما يَقْوون عليه. تجاهل سيماو دي أندرادي الحساسيات المحلية مستهترًا بها. فقام - دون موافقة المسؤولين الإمبراطوريين - ببناء حصن في تونْمِن، وشَنَقَ بحارًا برتغاليًا مُنْتَهِكًا القانونَ الصيني، وأقصى السفنَ غير البرتغالية عن الميناء، وعندما جُوبِه بما فَعل أَسْقَطَ قبعةَ موظف كبير. شراؤه المُتكرِّر للأطفال الصينيين بوصفهم خدمًا، غَذَّى الشكوكَ بأن الفو لانج تشي [الفرنجة] من أَكَلَة لحوم البشر فعلاً. وتعاملت البيروقراطية الصينية من جانبها، مع تومي بيريس، بازدراء وغطرسة. فبعد أن أتمَّ بيريس ورفاقُه رحلتَهم الطويلة الشاقة إلى بكين Beijing، أُمِروا بالذهاب والوقوف خَزَايا أمام سور المدينة المُحرَّمة[463] Forbidden City في الأول والخامس عشر من كل شهر قمري. كان الإمبراطور تشينج دي Zhengde، المجهول لهم، سادرًا في غِيِّه، إلى درجة أنه لم يفكر لحظةً في السماح لهم بالمقابلة التي يريدونها.

وأما غلطة البرتغاليين الكبرى فكانت عدمَ تقديرهم نظام الوِفادة[464]. فجوهرُ البنية الهَرَمِيَّة يعني امتداد تأثير الإمبراطور الصيني إلى أبعد من الحدود الإمبراطورية. وقد اعتبر البرتغاليون محورَ مَلَقّا التجاري الحيوي مِلْكًا لهم. ولم يكن ذلك رأي محمود شاه ملك بينتانج Raja of Bintang (جزيرة بينتن Bentan [في إندونيسيا]، ابن ملك مَلَقّا. فحذَّرَ سفيرُه في بكين السلطاتِ الصينيةَ من تآمر البرتغاليين «ليكون البلد لنا... وأننا عصابة [لصوص]»، على حدِّ تعبيرٍ وَرَدَ في رسالة كَتَبها كريستوفاو فييرا Christovão Vieyra أحدُ البحارة البرتغاليين، وقد اعتقله الصينيون لاحقًا. وَجَدَ هذا التحذيرُ صدىً لدى المسؤولين الإمبراطوريين:

محمود شاه تَابِعٌ جديرٌ بالثقة يدفع الضرائب[465].

فلماذا إذن ساد البرتغاليون في نهاية المطاف، إلى درجة أن جعلوا ماكاو[466]

Macau
جزءًا من شبكتهم في عام 1557، فاستحوذوا عليها واستمرت في أيديهم لأكثر من أربعمئة سنة؟ الإجابة هي أن شيئين قد تغيَّرا. أولاً، الحَظْر الصيني على التجارة ثبَتَ أنه غير قابل النفاذ. فالرجلان الواصلان لتوِّهما من البرتغال - ليونيل دي سوزا[467] Leonel de Sousa وسيماو دي ألميدا Simão d'Almeida - نجحا في تثبيت أقدام البرتغاليين في تجارة جواندونج. ومع التحفيزات الملائمة، استطاع مسؤولون من أمثال وانج بو Wang Po النائب المُفوَّض لدائرة الدفاع البحري في جوانجدونج، أن يتحول من موقف الخَصْم إلى موقف الشريك التجاري.

وثانيًا، رغم انتصارِ الصينيين في المواجهات البحرية الباكرة على البرتغاليين، فإنهم قَدَّروا تفوّق السفن والمَدَافِع البرتغالية. والذي حَسَمَ الأمرَ أن كبار مسؤولي أسرة المينج اعتبروا البرتغاليين أقلَّ شرًّا، بالمقارنة مع قراصنة شرق آسيا من السكان المحليين. في يونيو عام 1568، ساعد تريستام فاز دا فيجا Tristam Vaz da Veiga القواتَ البحريةَ الصينية في الدفاع عن ماكاو ضد أسطول قراصنةٍ عددُه حوالي مئة سفينة[468]. وبعد عام 1601، ستُحَارِبُ القواتُ البرتغالية والصينية معًا لصَدِّ مُتطفِّلين جُدُدٍ من هولندا.

# 15
# بيزارو والإنكا

مع انتشار الشبكة البحرية البرتغالية في الشرق، ذَهَبَ الإسبانُ إلى الغرب والجنوب. ثمَّ بموجب معاهدة توردسيلاس[469] (Treaty of Tordesillas (1494، طالبت إسبانيا بالأمريكيتين إلى جانب البرازيل. وثمة فرق ثانٍ بين البرتغاليين والإسبان. إذ بينما قَنَعَ المُستكشِفون البرتغاليون، في الأغلب الأعمّ، بإنشاء شبكة مراكز تجارية حصينة[470]، طمح نظراؤهم الإسبان إلى التوغُّل في عمق الأراضي المُستكشَفة بحثًا عن الذَّهب والفضة.

الفرق الثالث أن الإمبراطوريات الآسيوية التي واجهها البرتغاليون استطاعت الصمودَ أمام غاراتهم، الأمر الذي لم يَنتج عنه سوى تنازلات إقليمية طفيفة، على حين انهارت الإمبراطوريات الأمريكية التي هاجمها الإسبان بسرعة مذهلة. حَدَثَ هذا الانهيارُ السريع بفضل الآثار التدميرية الناتجة عنِ الأمراض الأوراسية المُعْدِية التي جلبها الإسبان معهم عبر الأطلنطي، أكثر من كَوْنه نِتاجَ أي مزيَّة تكنولوجية.

ولكن من نواحٍ أخرى، ما حَدَثَ حين تَوَاجَه فرانسيسكو بيزارو[471] Francisco Pizarro وأعوانه ال 167 مع أتاوالبا[472] Atahualpa إمبراطور الإنكا[473]، في معركة كاخاماركا[474] Cajamarca نوفمبر عام 1532، يُمَاثِلُ ما حَدَثَ في جواندونج [بين البرتغاليين والصينيين] قبل عقد سابق: شبكةٌ أوربيةٌ هاجمت تسلسلاً هَرَميًّا غير أوربي.

الغُزَاةُ عصابةٌ متنافرة [من أصول مختلفة]. وكانوا قساةً غِلاظًا، لأن مسيرتَهم الطويلة جنوبًا جِدُّ شاقّة، كأيِّ عبور للأطلنطي. كانوا أيضًا، بخيولهم وبنادقهم (الأرْكُويبِسَّه arquebuse)[475] وسيوفهم المصنوعة من الفولاذ، مُسلَّحين أفضل من شعوب بيرو الأصليين بهراواتهم الخشبية. الإسبان شأنهم شأن المستكشفين البرتغاليين، حافزُهم الأوَّلي اقتصاديٌّ:

لم يأتوا بغرض التجارة، بل نَهْب الذهب والفضة الوفيرين في إمبراطورية الإنكا. أسفرت حملة بيزارو الأولى، وحدها، عن 13,420 رطل ذهب من قيراط 22.5، بما يساوي اليوم 265 مليون دولار أمريكي، و26,000 رطل فضة (بما يساوي اليوم سبعة ملايين دولار). وكما فعل البرتغاليون، جلب الإسبان معهم رجالَ الدين المسيحي (ستة رهبان دومينيكان، بقي منهم واحدٌ على قيد الحياة). وكالبرتغاليين أيضًا، استخدم الإسبانُ العنفَ للتغلب على المقاومة، بما في ذلك التعذيب والاغتصاب الجماعي والحَرْق والقتل العشوائي. ولكن أبرزَ سمات الغُزاة اللافتة للنظر نزوعُهم الطبيعي إلى الشجار، الدموي غالبًا، فيما بينهم. العَدَاءُ بين

شقيق بيزارو، هيرناندو Hernando، ودييجو دي ألماجرو Diego de Almagro أحدُ عَداءات كثيرة. لم تكن قوة الغُزاة الإسبان هي التي قضت على إمبراطورية الإنكا، بل ضَعْفُ الإمبراطورية [هو الذي قضى عليها].

وكما تُبَيِّنُ هندسة الباتشاكاماك[476] Pachacamac، وكوزكو[477] Cuzco وماتشو بيتشو[478] Machu Picchu الباقية حتى يومنا هذا، حَكَمَ أباطرةُ الإنكا حضارةً ثريّة ومتطوِّرة، أطلقوا عليها «اتحاد الأربعة» [أربع مقاطعات تحت حُكْم الإنكا] Tahuantinsuyo.

فعلى مدى قرن، سيطروا على أكثر من 14.000 ميل مربع من أراضي الأنديز، بسُكّانها الذين نُقدِّرهم حاليًا بما بين 5 إلى 10 مليون نسمة. اتصلت مملكتهم الجبلية معًا بشبكة طرق ومُدرَّجات وجسور، لا يزال العديد منها يُستخَدم إلى اليوم[479]. زراعتهم، القائمة على صوف اللاما والبطاطس، كانت كافيةً. وكان مجتمعهم غنيًا نسبيًا، رغم أنهم استخدموا الذهب والفضة في الزخرفة وليس بوصفهما مالاً، مفضِّلين استخدام كوِيبِكمايوك quipucamayoc (المصنوعة من حبال بها عُقَد) للمحاسبة والأغراض الإدارية[480].

جوهرُ حُكْم الإنكا هَرَميٌّ صارم. عبدوا الشمسَ بالتوازي مع التضحية البشرية والعقوبات الوحشية. وعاشت الأرستقراطية على الفائض الذي أنتجته طبقة الهيلوت [الأقنان] helot. لم تكن حضارة الإنكا متطوِّرة كتطوّر حضارة الصين: إذ افتقرت إلى لغة مكتوبة، ناهيك عن أدب أو مدوَّنة قوانين[481].

وعلى ما يبدو، لم يكن انتصار بيزارو ورجاله عليهم بسبب التفوق العددي في معركة كاخاماركا، الذي بلغ نسبة 1:240. فثمة نقطتا ضَعْفٍ أثبتتا أنهما قاتلتان.

الأولى والأهم، مرضُ الجُدَري الذي أَهْلَكَ القسمَ الأعظم من السكان الأصليين، إذ انتشر بسرعة جنوبًا، مُتحرِّكًا أسرع من حركة الإسبان الذين جلبوه معهم إلى العالم الجديد New Work. والنقطة الثانية هي الانقسام؛ ففي وقت الغزو الإسباني، كان أتاوالبا يَشُنُّ حربَ استخلافٍ ضد أخيه غير الشقيق، هواسكار ، على أيِّهما الوريث الشرعي لإمبراطور الإنكا واينا كاباك Huayna Cápac. ولم يجد بيزارو صعوبةً في تجنيد مساعدين محليين له.

لكن هل «الغزو» conquest هو الكلمة الصحيحة لوصف ما حَدَثَ؟ لا شك في أن بيزارو أذلَّ وسَلَبَ، وأخيرًا قَتَلَ أتاوالبا، ثم قَمْعَ تمرُّد مانكو إنكا[482] Manco Inca في عام 1536، وهي سلسلة أحداث صَوَّرها بشكل حيوي كتابُ فيليبي جوامان

بوما دي أيالا

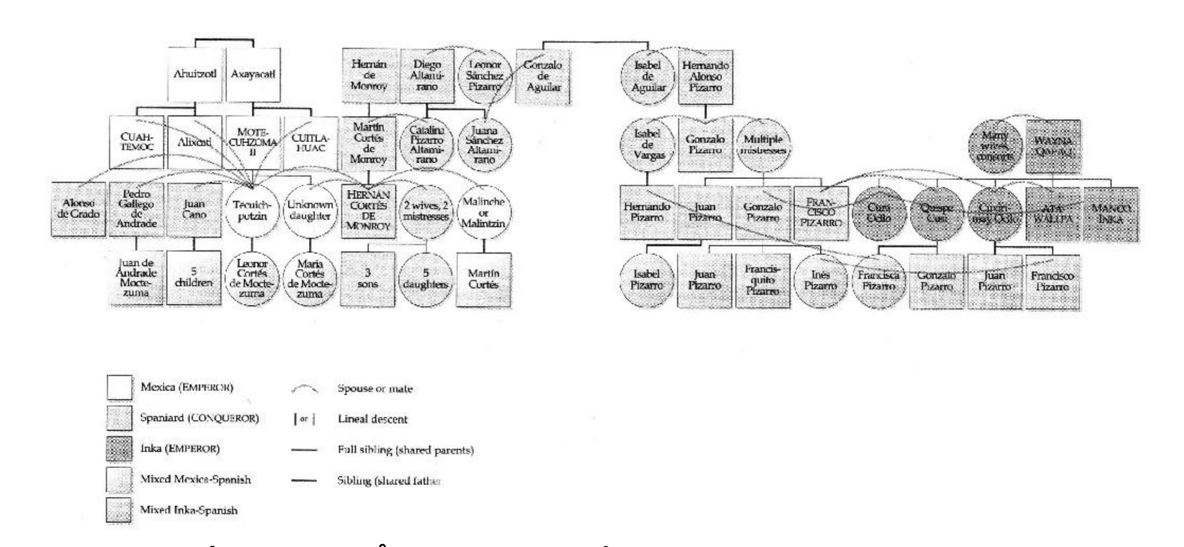
المعنون Ayala [483] Felipe Guaman Poma de ب«البداية الأولى الجديدة والحُكْم الصالح» (Nueva Corónica y Buen Gobierno (1600 - 1615).

واسمُ مؤلِّف الكتاب نفسُه، المزيج من لغة الإنكا والإسبانية، يحكي قصتَه الخاصة. فعلى العكس من الوضع في أمريكا الشمالية، كان الاندماج في أمريكا الجنوبية شأنًا يوميًا، حيث السكان الأصليون أقلُّ عددًا والمستوطنون الأوربيون أكثرُ عددًا. ولْنضرب مثلاً واحدًا، اتَّخذَ فرانسيسكو بيزارو خليلةً أخت أتاوالبا الأثيرة، وأعطاها شقيقُها له بالزواج. وبعد موته، تزوَّجتْ من فارس إسباني يُدْعَى أمْبُيرو Ampuero وغادرت إلى إسبانيا، ومعها ابنتها فرانسيسكا Francisca التي اكتسبت الشرعيةَ بمرسوم إمبراطوري. ثم تزوجت فرانسيسكا بيزارو يوبانكي Francisca Pizarro Yupanqui من ابن عمِّها هيرناندو بيزارو Hernando Pizarro، في إسبانيا في أكتوبر عام 1537.

بيزارو أيضًا كان له ابن غير شرعي هو فرانسيسكو Francisco من زوجة أتاوالبا التي اتخذها خليلةً. ذلك هو نموذج الطريقة التي أقام بها الجيلُ الأول من الغُزاة «شبكةً عائلية متعددة الثقافات» جديدة، بهدف إضفاء الشرعية على موقعهم في أعلى الأنظمة الهَرَميَّة التي استولوا عليها (الشكل 11).

ولعل المصطلح الأنسب من الغزو هو «الاختلاط» co - mingling (المؤرِّخ الأشهر للغزو الإسباني جارسيلاسو دي لافيجا Garcilaso de la Vega، هو نفسه ابن أحد الغُزاة وأميرة الإنكا بالا تشيمبو أوكلو[484] Palla Chimpu Ocllo). استراتيجياتٌ مماثلةٌ اتَّبعها مستوطنون أوربيون آخرون في العالم الجديد؛ كالمزارعين الفرنسيين وتُجَّار الفَرْو الذين استقروا في كاسكاسكيا[485] Kaskaskia، [بالولاية الأمريكية] إلينوي Illinois، في العقد الأول من القرن الثامن عشر[486].

لم يَسْتولِ «الغُزاة» الأوربيون على أنظمة الإدارة [السياسية] القائمة وإدارة الأراضي فقط؛ بل انصهروا وراثيًا في المجتمعات الأصلية[487].




الشكل: 11 - شبكة «الغزو»: تزاوج الغُزَاة وعائلات النُّخْبة من الأزتيك والإنكا.

ومع ذلك، لم يكن الإرثُ المستمر لهذا النَّهْج في أمريكا الجنوبية ثقافةً تعترف بحقيقة الامتزاج الجيني[488]، بل كان ثقافةً تُصَنِّفُ الناسَ طبقًا لـ«نقاء الدم» (limpieza de sangre)، وهو مفهوم جلبه الإسبان معهم إلى العالَم الجديد من إرث طرد المغاربة واليهود.

تصنيفات كاستا[489] casta المُصوَّرة في لوحات القرن الثامن عشر، من إسبانيا الجديدة[490] New Spain، تبدأ بالمألوف تقريبًا - «مِن رجل إسباني وامرأة هندية يُولَدُ م ي س ت ي ز و mestizo»، و«مِن رجل إسباني وامرأة سوداء يُولَدُ مولاتو («mulatto» - لكن هذه التصنيفات سرعان ما تصبح غريبةً. فمثلاً، عند تهجين إسباني مع امرأة مولاتو يُطلَقُ على الناتج موريسكو Morisco (ينطبق مصطلح الموري [المغاربي] Moorish في إسبانيا على المسلمين السابقين الذي تحوَّلوا إلى المسيحية بعد الاسترداد[491] reconquista). أما تهجين مولاتو مع هندية فيُنْتِج كالباماولاتو Calpamulato.

وقد اشتملت المتغيِّرات الأخرى في سلسلة اللوحات السِّتّ عشرة التي قَدَّمها في عام 1770 الفنان المكسيكي خوسيه خواكين ماجون José Joaquín Magón على فئات: لوبو Lobo (التي تعني حرفيًا «الذئب»)،

وكامبوجا Cambuja، وسـامبَهِيجا Sambahiga، وكوارتيرون Cuarteron وكويوتي Coyote، وألْبِرازِدو Albarazado. وُجِدَتْ أيضًا فئةٌ تُسـمَّى Tente en el Aire («المُعَلَّقُ في الهواء» Suspend in Mid - Air)[492]. ويتراوح عدد أنواع التكوين الوراثي الظاهري، المختلفة، في تلك التصنيفات، بين سـتة عشـر وعشـرين نوعًا عادةً، ولكن بعض المصادر في أوائل القرن التاسـع عشـر تضع قائمةً تزيد على مئة فئة. كان نظامُ كاسـتا [في التصنيف العِرْقي] أكثرَ من مجرد اهتمام أنثروبولوجي، وإنْ عَكَسَ محاولةً أصيلة لتطبيق نظريات الوراثة المعاصرة. وعلى الرغم من وجود إمكان «التنقية» [العِرْقية] - فالميسـتيزو يمكنه بالزواج من إسـبانيةٍ نقيةٍ إنتاجَ كاسـتيزا Castiza، الذي بدوره يمكنه إنتاجَ إسـباني بالزواج من إسـبانية - فإن النظام ككل يعني ضمنًا تمييزًا ضد ذوي الأصل الإسـباني الضعيف أو المنعدم تمامًا (لأنه لم يُدْمَجْ رسـميًا في المدوَّنة القانونية الاسـتعمارية). وهكذا، فُرِضَ نوعٌ جديد من التسـلسـل الهَرَمي على مَهْد القط في تزاوجه الذي أوْجدَ أمريكا الإسـبانية.

## 16

## عندما يتلاقى جوتِنبرج مع لوثر

كانت شبكة المُستكشِفين والغُزاة، الأيبيرية، إحدى شبكتين غَيَّرَتا العالَم الحديث الباكر. ففي أوربا الوسطى Central Europe، في الفترة نفسها، ساعدت التكنولوجيا الجديدة على إطلاق العنان لاضطراب ديني وسياسي هائل، نَعْرِفُه بأنه الإصلاح[493] Reformation، وكذلك تمهيد الطريق أمام الثورة العلمية Scientific Revolution وحركة التنوير Enlightenment، وغيرها، مما كان مناقضًا للهدف الأصلي من الإصلاح. لقد وُجِدَت الطباعةُ في الصين قبل القرن الخامس عشر بكثير، ولكن أية طابعة صينية لم تستطع تحقيق ما فعله يوهان جُوتِنبرج[494] Johannes Gutenberg الذي خلق قطاعًا اقتصاديًا جديدًا تمامًا.

تأسَّستْ مطبعةُ جُوتِنبرج الأولى فيماينتس[495] Mainz في الفترة بين عاميْ 1446 و1450. وسرعان ما نَشَرَ الألمانُ المَهَرَةُ هذه التكنولوجيا الجديدةَ المُتحرِّكة [أيْ الطباعة الميكانيكية المتنقلة] في دوائر مُتَّحِدة المركز حول مدينة ماينتس، لأنه من المُفضَّل اقتصاديًا وجود طابعات محلية متعدِّدة بدلاً من الإنتاج المركزي، بسبب ارتفاع تكلفة نقل المواد المطبوعة. وبحلول عام 1467، أسَّسَ أولريك هان Ulrich Hahn المطبعةَ الأولى في روما Rome [إيطاليا]. ثم بعد سِتّ سنوات، افتتح هاينريك بوتيل Botel Heinrich وجورج فون هولس Holz von Georg مطبعةً في برشلونة Barcelona. وفي عام 1475، بدأ هانس وورستر Wurster Hans الطباعةَ في مودينا Modena [مدينة في الشمال الإيطالي]. وبحلول عام 1496، أنشأ هانس بيجنيتزر Hans Pegnitzer وميناردِ أُنْجات Ungat Meinard مطبعةً في غرناطة Granada، بعد أربع سنوات فقط من تنازل محمد الثاني عشر[496] Muhammad XII، آخر ملوك بني نصر [من ملوك الطوائف]، عن قصر الحمراء Alhambra لفرديناند Ferdinand وإيزابيلا Isabella.

ثم بحلول عام 1500 تقريبًا، اعتمدت خَمْس مدن سويسرية ودنماركية وهولندية وألمانية على الطباعة[497].

تَخلَّفَتْ إنجلترا، ولكنها لحقت بالرَّكْب في النهاية. ففي عام 1495، أنتجت إنجلترا ثمانية عشر عنوانًا فقط. ثم بحلول عام 1545، تأسَّسَتْ خَمْسُ عشرة مطبعة، وارتفع عدد العناوين المطبوعة سنويًا إلى 119 كتابًا. ومع عام 1695، أنتجت مؤسَّساتُ الطباعة السبعون، 2092 كتابًا.

دون وجود جُوتِنْبرج، لربما صار لوثر[498] Luther مجردَ مُهَرْطِقٍ آخر ممن أحرقتهم الكنيسةُ على الخازوق، مثل يان هوس[499] Jan Hus[500].

أطروحات لوثر الخَمْسُ والتسعون المُبْتَدَعَة هي، في المقام الأول، انتقادٌ للممارسات الفاسدة كَبَيْع صكوك الغفران، أرسلها أساسًا بوصفها رسالةً إلى مطران ماينتس يوم 31 أكتوبر عام 1517. وليس من الواضح تمامًا إذا كان لوثر قد أرسل، أيضًا، نسخةً منها إلى كنيسة جميع القديسين All Saints' Church [في مدينة] فيتنبرج[501] Wittenberg، ولكن هذا غير مهم.

المهم فعلاً أن هذه الطريقة في النشر قد حلَّتْ محلَّها طريقةٌ أخرى. ففي غضون أشهر، طُبِعَتْ نُسَخٌ من النص اللاتيني الأصلي [لأطروحات لوثر الخمس والتسعين] في بازل[502] Basel ولايبْزيج Leipzig ونورِمبرج Nuremberg. وبحلول الوقت الذي أُدِينَ فيه لوثر رسميًا بالهَرْطَقة بمرسوم وورمز[503] Edict of Worms في عام 1521، كانت كتاباته قد انتشرت كلُّها في جميع أنحاء أوربا الناطقة بالألمانية.

وبعمله مع الفنان لوكاس كراناخ Lucas Cranach وصائغ الذهب المسيحي دورينج D، أحَدَثَ لوثر ثورةً في المسيحية الغربية، بل في الاتصال نفسه أيضًا. ففي القرن السادس عشر، أنتجت الطابعات الألمانية ما يقرب من 5000 طبعة لأعمال لوثر، ويمكن أن نضيف إليها 3000 طبعة إذا أدخلنا مشاريع أخرى شارك فيها لوثر كالكتاب المقدس اللوثري[504] Luther Bible. ومن بين هذه النُّسَخ البالغ عددها 4,790 نسخة [باللغة الألمانية]، كان 80% منها تقريبًا في ألمانيا، بدلاً من اللغة اللاتينية التي كانت اللغة العالمية لدى النُّخْبة الإكليريكية[505].

لقد حسمت الطباعةُ نجاحَ الإصلاح. فالمدن التي وُجِدَتْ فيها مطبعةٌ واحدة على الأقل في عام 1500، كان احتمالُ تَبنّيها للبروتستانتية[506] Protestantism أكبرَ من المدن التي لم يوجد فيها مطبعةٌ، أما المدن التي تعدَّدتْ فيها مطابعُ متنافسةٌ فكان من الأرجح تَحوُّلها إلى البروتستانتية[507].

لقد أُطْلِقَ على المطبعة «نقطة اللاعودة الحاسمة في التاريخ البشري»[508]. فالإصلاحُ أطلق العنانَ لمَوْجَة تمرُّد ديني ضد سلطة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

وانتشرت الموجة من رجال الدين والعلماء ذوي التوجُّه الإصلاحي إلى النُّخَب الحَضَرية وإلى الفلاحين الأميين، فألقت بألمانيا أولاً، ثم بكل شمال أوربا الغربية في أتون الاضطراب والفوضى. ففي عام 1524، اندلع تمرُّدُ الفلاحين جميعهم. وبحلول عام 1531، وُجِدَ من الأمراء البروتستانت ما يكفي لتشكيل تحالف (اتحاد شمالكالدي[509] Schmalkaldic League) ضد الإمبراطور الروماني المقدس تشارلز الخامس[510] Charles V. ورغم هزيمة الأمراء البروتستانت فقد كانوا أقوياء بما يكفي للحفاظ على [مكتسبات] الإصلاح في أقاليم متناثرة. وفي ظل صُلْح أوجسبرج[511] Peace of Augsburg (عام 1555)، وُضِعَ مبدأ حاسم هو:

«لكلِّ حاكمٍ الحقُّ في اختيار دينه»[512] cuius regio, eius religio (صاغه في عام 1582 الفقيه القانوني الألماني يوآخيم ستيفاني Joachim Stephani)، وقد ترك هذا المبدأ للملوك والأمراء تحديدَ ما إذا كان رعاياهم سيكونون لوثريين أم كاثوليك رومان. ومع ذلك، استمر الصراع الديني على نار هادئة، حتى انفجر مرة أخرى في حرب الثلاثين عامًا[513] Thirty Years' War، التي حوَّلتْ أوربا الوسطى إلى ثلاجة لحِفْظ جُثث المَوْتى.

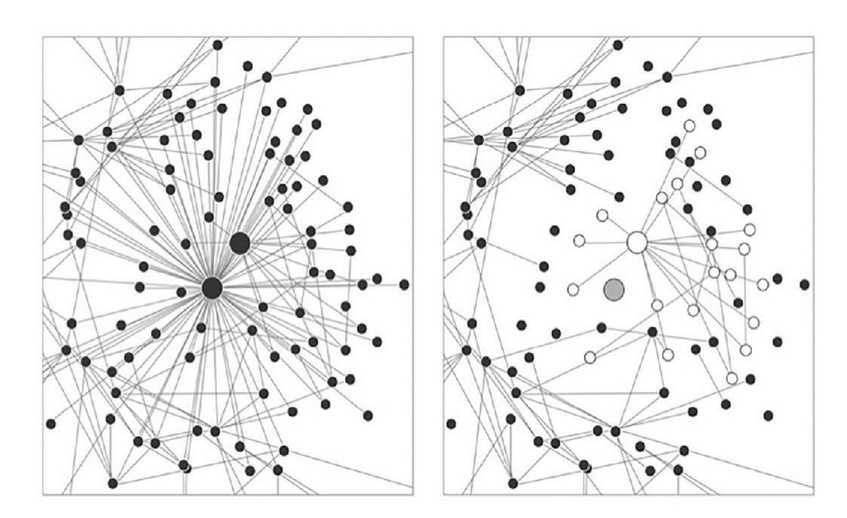
ثم بعد صراع دموي طويل، استطاع ملوك أوربا إعادة فَرْض سيطرتهم على الطوائف البروتستانتية الجديدة، ولكنها سيطرة لم تكن كاملة كسيطرة البابا. ورغم استمرار الرقابة، لم تكن صارمةً، فتَمكَّنَ أكثرُ المؤلِّفين ابتداعًا من إيجاد شخص يطبع أعمالَهم. وقد ثبَتَ استحالةُ توطيد الكاثوليكية الرومانية من جديد، ولا سيما في شمال غرب أوربا - إنجلترا وإسكتلندا والجمهورية الهولندية - حتى عندما قَلَبَتْ روما تكنولوجياتِ الإصلاح وإستراتيجيتَه الشَّبَكية ضد الإصلاح[514]، فضلاً عن اتِّباعها أنظمة تعذيب وعقاب أكثر وحشيةً ظلت لفترة طويلة سببَ قوة

الكنيسة.

لماذا كانت مقاومةُ البروتستانتية شديدةً للقمع؟ ثمة إجابة واحدة عن هذا السؤال هي أن الطوائف البروتستانتية - التي انتشرت في جميع أنحاء شمال أوربا - طوَّرتْ أبنيةً [هياكل] شَبَكيَّة مَرِنة بشكل مذهل. لقد عانى البروتستانتيون من اضطهاد شديد في إنجلترا أثناء عهد ماري الأولى[[515]] Mary I، ومحاكماتٍ ومِحَنٍ خُلِّدَتْ ذكراها في أعمالٍ كَكِتاب جون فوكس[[516]] John Foxe «أفعال وآثار» Acts and Monuments («كتاب الشُّهداء» Book of Martyrs). الأشخاص البالغ عددهم 377 بروتستانتيًا ملتزمًا الذين راسَلوا فوكس أو تلقوا منه رسائل أو ذُكِروا في رسائله وفي مصادر متصلة [بالموضوع]، شكَّلوا شبكةً قويةً تمركزت في عدد من «المحاور» الرئيسية: شهداء من أمثال جون برادفورد
John Bradford، وجون كيرليس John Careless ونيكولاس ريدلي Nicholas Ridley وجون فيلبوت[517] Jhon Philpot.

إن إعدام ما لا يقل عن أربع عشرة عُقْدة من العُقَد العشرين الأعلى (مُرَتَّبةً حسب التَّمَرْكزيَّة البَيْنية)[[518]] قد خَفَّضَ، دون ريب، الاتصالَ بين الآخرين الباقين على قيد الحياة، ولكنه لم يدمِّر الشبكة؛ لأن شخصيات أخرى ذات تمركزية بَيْنية عالية، كناقلي الرسائل والداعمين الماليين من أمثال أوجستين بيرنر Augustine Berner ووليام بونت William Punt، اضطلعوا بالأمر[519].

وثمة أحداثٌ قليلة ترمز إلى أزمة النظام الهَرَميِّ في القرن السادس عشر، لعل أقواها المحاولات العقيمة التي بذلتها ابنة هنري الثامن[[520]] Henry VIII الكبرى [الملكة ماري الأولى] لتفكيك الثورة الدينية، والتي اغتنم والدُها الفرصةَ السانحة كي يُطلِّق أمَّها.



الشكل: 12 - الشبكة البروتستانتية الإنجليزية قبل إعدام جون برادفورد (يسارًا) وبعده (يمينًا) في يوم 1 يوليو 1555. أدَّى موت برادفورد (العُقدة الكبيرة الملوَّنة بالأسود على اليسار، وباللون الرمادي على اليمين) إلى عَزْل شبكة بديلة بكاملها تمركزت حول أُمِّه (العُقد الملونة بالأبيض على اليمين).

لقد مرَّ الآن نصفُ ألفيةٍ منذ وصول السفن البرتغالية إلى ساحل جوانجدونج، ومنذ أن أرسل لوثر أطروحاته إلى باب كنيسة جميع القديسين في مدينة فيتنبرج.

وإذ بينما تجري اضطرابات الاكتشاف والإصلاح الأوربي، كان العالَمُ في عام 1517 عالَمَ أنظمةٍ هَرَميَّة. الإمبراطور [الصيني] تشنج دي وإمبراطور الإنكا هويانا كاباك، كانا مجردَ عضويْن في نُخْبة طُغَاةٍ عالمية. وفي عام 1517، انتصر السلطان العثماني سليم الأول - سليم العابِس[521] - Selim the Grim على السَّلْطنة المملوكية التي امتدت من شِبْه الجزيرة العربية إلى سوريا وفلسطين ومصر نفسها.

وأما في الشرق فقد حَكَمَ الشاهُ إسماعيل الصَّفَوي كلَّ المناطق التي يُطْلَقُ عليها حديثًا إيران وأذربيجان وجنوب داغستان وأرمينيا وخراسان وشرق الأناضول وبلاد ما بين النهرين. وفي الشمال، حَكَمَ تشارلز الأول Charles I - وريثُ عائلات هابْسبورج Houses of Habsburg، وفالوا - بورجندي Valois - Burgundy وتراستامارا Trastámara - الممالكَ الإسبانية في أرَجون Aragon وقشتالة Castile وكذلك هولندا Netherlands؛ وفي غضون عامين، بوصفه تشارلز الخامس Charles V، سيُنتخَبُ أيضًا إمبراطورًا رومانيًا مقدسًا خلفًا لجَدِّه لأبيه ماكسيميليان الأول Maximilian I. وكان البابا في روما، ليو العاشر Leo X، الابنَ الثاني ل لورينزو دي ميديتشي Lorenzo de’ Medici. وإذ بينما كان فرانسيس الأول Francis I يحكم فرنسا، حَكَمَ هنري الثامن Henry VIII إنجلترا حُكْمًا مطلقًا أيضًا؛

وبدافع من نزواته تَبنَّت المملكةُ الإصلاحَ اللوثري (وإن بطريقة مُجَزَّأة وبلا تناسق). وكما رأينا، لم يكن التسلسلُ الهَرَميُّ سوى شبكة من نوع خاص، تتمتع فيها تَمْركزيةُ العُقْدة الحاكمة بأعلى الدرجات. وتُوَضِّحُ الشبكةُ الاجتماعية المستنبطة من «أوراق دولة تيوْدَر»[522] Tudor State Papers التي تحتوي على خطابات أكثر من 20 ألف شخص، تُوَضِّحُ هذه النقطة. ففي عهد هنري الثامن، كان الشخصُ ذو الدرجة الأعلى توماس كرومويل[523] Thomas Cromwell (الأمين العام للمَلِك، وكاتم السرّ وحافظ الخَتْم المَلَكي ووزير الخزانة) بحوالي 2,149 مراسَلة، يليه المَلِكُ نفسُه 1,134 مراسَلة، والكاردينال توماس وولسي Cardinal Thomas Wolsey مستشار المَلِك 682 مراسَلة. أما من حيث التمركزية البَيْنية فالمَلِك يأتي أولاً[524].

السمة اللافتة في هذا العالَم الهَرَميِّ هي تشابه ممارسة السلطة في كل تلك الإمبراطوريات والممالك، رغم هشاشة الاتصالات بين العالَمين الأوربي وغير الأوربي، هذا إنْ وُجِدَتْ أصلاً. (أما خارج أوربا حيث انخرط الملوك في دورة حروب وعلاقات عائلية ديبلوماسية دائمة، فلم تكن توجد شبكةُ طُغَاةٍ). سليم العابِس اشتهر بالقسوة تجاه أعوانه الكبار، فأعدم منهم الكثيرَ، إلى درجة أن صارت عبارةٌ مثل «قد تكون وزيرًا لسليم» لعنةً تركيةً. وتَعَامَلَ هنري الثامن مع وزرائه وزوجاته بقسوة أقل، أما فاسيلي الثالث[525] Vasili III، أمير موسكو المُعَظَّم، فكان على استعداد لإصدار أحكام بالإعدام على أقوى أفراد حاشيته المَلَكيّة؛ ومثل هنري طلَّقَ زوجتَه الأولى حين فشلت في إنجاب وريث. أما في شرق أفريقيا فقد شَنَّ إمبراطور أثيوبيا دُويت الثاني[526] Dawit II حربًا على إمارة العادل المُسْلِمة[527] Muslim Emirate of Adal بطرق لا تختلف كثيرًا عن الصراعات بين الحُكَّام المسيحيين والمسلمين التي احتدمت لفترة طويلة حول المناطق الساحلية على البحر الأبيض المتوسط. ويُسَلِّمُ المؤرِّخون اليوم بوجود أكثر من ثلاثين إمبراطورية ومملكة ودوقيَّة كبيرة، ذات رقعة ممتدة وتَمَاسُكٍ يقترب من فكرة الدولة، في عَالَمِ عام 1517. وفي كل منها - حتى جمهورية البندقية Venice - تَركَّزَت السلطةُ في أيدي فردٍ واحد، رجل عادةً (الأنثى الوحيدة الحاكمة في ذلك العام هي جُوانا [أو خُوانا] ملكة

قشتالة
(Queen Joanna of Castile).

بعض الملوك وَرِثوا عروشَهم بالمَوْلِد. واعتلى آخرون العرشَ بالانتخاب (ولكن لم يُنْتَخَبْ أيٌّ منهم ديمقراطيًا). صَعَدَ البعضُ، من أمثال جُنْغجونغ ملك جوسون[528] Jungjong of Joseon (كوريا)، إلى عروشهم بالعنف. ووُجِدَ ملوكٌ أطفالٌ أيضًا (جيمس James V الخامس ملك إسكتلندا كان في الخامسة من عمره، في عام 1517)، وثمة ملوك عجائز (زيجْمونت الأول Sigismund I ملك بولندا Poland ودوق ليتوانيا Lithuania الكبير، عَمَّرَ حتى واحد وثمانين عامًا).

ووُجِدَتْ قِلَّةٌ من الحُكَّام حاملي اللقب [الاسميين] ضِعافًا، ولا سيما الإمبراطور جو - كاشيوابرا Go - Kashiwabara في اليابان، إذ تركَّزت السلطة الحقيقية في أيدي الشوجون[529] shogun أشيكاجا يوشيكي Ashikaga Yoshiki. وقد تفاوتت سلطةُ مُلاك الأراضي الأقل، من مكان إلى مكان. بعضُ الممالك مَعيشتُها سِلْميةٌ، مثل ريوكيو[530] Ryukyu في عهد الشوشين ShõShin.

وممالك أخرى - وبخاصة إسكتلندا - مَزَّقتها النزاعاتُ. ولكن معظم المَلَكيَّات في الفترة الحديثة الباكرة تمتعت بنوع من السلطة الشخصية غير المُقيَّدة - بما فيها سلطة إحياء الرعايا وإماتتهم - كالتي تُوْجَدُ اليوم في عدد قليل من دول وسط آسيا وشرقها. وعلى الرغم من انفصال حُكَّامٍ أوتوقراطيين آسيويين ناجحين من أمثال كريشنادفاريا Krishnadevaraya إمبراطور فيجاياناجارا Vijayanagara - الحاكم الهندوسي الأقوى في الهند أوائل القرن السادس عشر - بآلاف الأميال عن أوربا، فقد تَصَرَّفَ بأساليب مماثلة لمعاصريه في أوربا زمن عصر النهضة، على نحو لافت للنظر، وتفاخر ببراعته العسكرية والقضائية، وبرعايته للفنون والآداب.

منذ بواكير العقد الأول من القرن السادس عشر، تعرَّضَ عالَمُ التسلسل الهَرَمي هذا، لِهَجمات مزدوجة من الشبكات الثورية. فقد أبْحَرَ «المُسْتكشِفون» و«الغُزاة» من أوربا الغربية إلى قارات أخرى، بأعداد متزايدة، مُسخِّرين تكنولوجيتهم البحرية المتفوقة، سعيًا إلى فُرَصٍ تجارية جديدة، فأطاحوا - بمساعدة مُسبِّبات الأمراض التي حملوها معهم - بكلِّ الحُكَّام الراسخين في الأمريكيتين، وأسَّسوا شبكةَ مراكز تجاريةٍ حصينة، عالمية، عملت ببطء على تآكل سيادة الأنظمة السياسية

الآسيوية والأفريقية. وفي الوقتِ نفسه، بذروا من خلال الطباعة، ومن خلال المُبَشِّرين، فيروسًا دينيًا، عُرِفَ باسم البروتستانتية التي مَزَّقت التسلسلَ الهَرَمي الكَنَسي الذي يرجع نَسَبُه إلى القديس بطرس[531] St Peter.
لقد جُرِّبتْ عواقبُ الإصلاح في أوربا أولاً، وكانت رهيبةً بالفعل[532].

بدءًا من عام 1524 حتى عام 1648، أنزلت الحروبُ الدينية المتكرِّرة الخرابَ بالممالك، وفيما بين مملكة وأخرى. لقد نجح تَحدِّي سلطة روما، وشَهِدَ شمالُ أوربا وباءَ التجديد الديني: فاللوثريون سرعان ما تحدَّاهم الكالفينيون[533] Calvinists والزوينجليون[534] Zwinglians، الرافضين رأي لوثر في طقس القربان المقدس، القائل بأن عناصر الترسيم، الخبز والنبيذ، هي جسد المسيح ودمه الحقيقيان.

وعلى عكس الانشقاقات الأسبق داخل المسيحية (الخلاف حول الآريوسية[535] Arianism في القرن الرابع، والانشقاق الكبير بين مسيحية غربية ومسيحية شرقية في عام 1054، وفترة الباباوات المتنافسين بين عاميْ 1378 و1417)، تكاثرت انقساماتُ عصر الإصلاح على نحو جعل الانقسامَ إحدى سماته المميزة له. المثالُ الأبرز على هذا، القائلون بتجديد العماد [الأنابابتستيون][536] Anabaptists الذين تمسَّكوا بوجوب أن تكون المعمودية baptism طقسًا قصديًا [واعيًا] وطَوْعيًا، وأن الأطفال أصغر من أن يخضعوا له.

في فبراير عام 1534، استولت جماعةٌ من القائلين بتجديد العِماد، بقيادة جان بوكيلسون Jan Bockelson (قائد قُدَّاس العِماد في لايدن[537] Leiden وجان ماتيس Jan Matthys، على السلطة في مدينة مونستر الويستفالية Westphalian town of Münster، وأسَّسا ما يُمكِننا تسميته «دولة مسيحية»:

مساواة كاملة تمامًا، نظام حُكْم تمرُّدي وثيوقراطي يستند إلى حَرْفيَّة الكتاب المقدس. أحرق القائلون بتجديد العِماد جميعَ الكتب باستثناء الكتاب المقدس، وأطلقوا على مونستر «القدس الجديدة»، وشَرَّعوا تعدُّدَ الزوجات، واستعدوا لشَنِّ حربٍ على غير المؤمنين تَحَسُّبًا لمجيء المسيح الثاني[538] Christ's Second Coming. وبحلول

منتصف القرن السابع عشر، في فترة الكومنولث الإنجليزي[539] English Commonwealth،
شَكَّلَ المُنْشَقّون البروتستانت - الذين رفضوا «الطريق الأنجليكاني الوَسَط» بين اللوثرية والكاثوليكية - طوائفَ متنافسةً عديدةً، أبرزها «خامِسُ المَلَكيين»
Fifth Monarchists (وفقًا لنبوءة سفر دانيال Book of Daniel القائلة بأن
أربع مَلَكيّات قديمة ستسبق مملكة المسيح)،
والمَجْلِيتونيون Muggletonians
(سُمُّوا باسم لوودويك مَجْليتون Lodowicke Muggleton، أحد
خَيَاطيْن في لندن زَعَمَا أنهما آخر الأنبياء المُتَنبَّأ بهم في سِفْر الرؤيا Book of Revelation)، والكويكرز Quakers («المرتجفون أمام كلمة الرب»)،
والرانترز Ranters
(سُمُّوا بذلك لتَبَتُّلِهم الصاخب المثير للمتعة فيما يزعمون).



هل كان الإصلاحُ كارثةً؟ بحلول عام 1648، وهو تاريخ صُلْح ويستفاليا Peace of Westphalia[540]، كان الإصلاح مسؤولاً - دون ريب - عن صدمة أعداد الموتى المقتولين بطرق عنيفة قاسية ووحشية غالبًا. أما في الجزر البريطانية، فقد تَسبَّبَ الإصلاحُ - في نهاية المطاف - في ثورة سياسية. بدأتْ - طبقًا لأحد التفاسير المبتكرة - بوصفها نتيجة لدسائس إيرل بيدفورد Bedford والبيوريتاني إيرل وارويك Warwick (أيْ البروتستانتي المُتشدِّد)، إذ سعى كلاهما إلى تقييد الملك تشارلز الأول King Charles I لأسباب سياسية بقدر ما هي دينية. ولم تكن تطمح هذه «الطُّغمة» الأرستقراطية إلى ثورة دينية، بل إلى جَعْل ملك إنجلترا أكثر قليلاً من رئيس قضاة البندقية، خاضعًا لأوليجاركيتهم[541].

ثم تصاعدت الأمور بعد توترات عام 1642 بين «أنصار المَلَكيَّة» و«أنصار البرلمان» - وبين إنجلترا وإسكتلندا وأيرلندا - إلى حرب أهلية، خسرها المَلِك. ثم بعد قطع رأس المَلِك يوم 30 يناير عام 1649، أعلنت إنجلترا أنها «كومنولوث» جمهوري. ووَفْقَ توقُّعات النظرية السياسية الكلاسيكية، لم يدم ذلك طويلاً: ففي عام 1653، حَلَّ الجيشُ النموذجي الجديد New Model Army ما يُسمَّى «برلمان الرامب» Rump Parliament وسَمَّى أوليفر كرومويل Oliver Cromwell «اللورد الحامي» Lord Protector. لم تَدُمْ أيضًا هذه المؤسسةُ طويلاً؛ ففي مايو 1660، بعد موت كرومويل بعامين فقط، أعلن برلمانٌ جديدٌ أن تشارلز الثاني Charles II هو الملك الحقيقي منذ إعدام والده. ما يقرب من مئة ألف شخص، في إنجلترا وويلز Wales، فَقَدوا حياتَهم في الحرب الأهلية[542] Civil War.

كانت معدلات القتلى أعلى في إسكتلندا، ربما، وأعلى بكثير في أيرلندا. بل

عانت أيرلندا من خسائر في الأرواح أكثر من خسائرها في المجاعة الكبرى[543] Great Famine
أربعينيات القرن التاسع عشر، فعانتْ - بكل تأكيد - بقدر ما عانت ألمانيا في حرب الثلاثين
عامًا.

لا ريب في أن الحروبَ والاضطهادات التي أطلق عنانَها عصرُ الإصلاح، أبعدُ ما يكون عمَّا قَصَدَه لوثر. فَضْلُ الكاثوليك الرومان أنهم أبقوا، بإصلاحهم المُضَاد، البروتستانتيةَ خارج جنوب أوربا (وخارج الإمبراطوريتين الإسبانية والبرتغالية)، وكان المَغْزى جِدَّ واضح: التحديات التي تُواجِه الهَرَميَّةَ البابوية والأسقفية، وفَرَضتْها شبكةٌ تُسَمِّي نفسَها «كهنوت كل المؤمنين»[544] priesthood of all believers، أدَّتْ إلى فوضى دموية bloody anarchy في وقت قصير. ولكن الأرستوقراطيين البريطانيين تعلَّموا درسًا مختلفًا. إذ خَلَصُوا، بعد محاولة جيمس الثاني[545] James II استعادة الكاثوليكية الرومانية المحكوم عليها بالفشل، إلى ضرورة تقييد سلطات الملك، دائمًا، بالبرلمانات التي سيطروا عليها بوَسَاطة شبكات الرعاية والكفالة، وإلى ضرورة تقييد «الحماس» الديني بوَسَاطة الكنيسة الأنجليكانية التي ترسم الطريقَ الوَسَطَ بين البيوريتانية Puritanism و«البابوية» Popery.
ثمة قدر كبير من الحقيقة في كلتا الرؤيتين. ولكن أولئك الأرستقراطيين تغافلوا عن الفوائد المساواتية والحيوية، غير المقصودة، في الاضطراب الذي أطلق لوثرُ له
العَنانَ.

# III القسم الثالث
# رسائل ومحافل ماسونية

## 17
## عواقب الإصلاح الاقتصادية

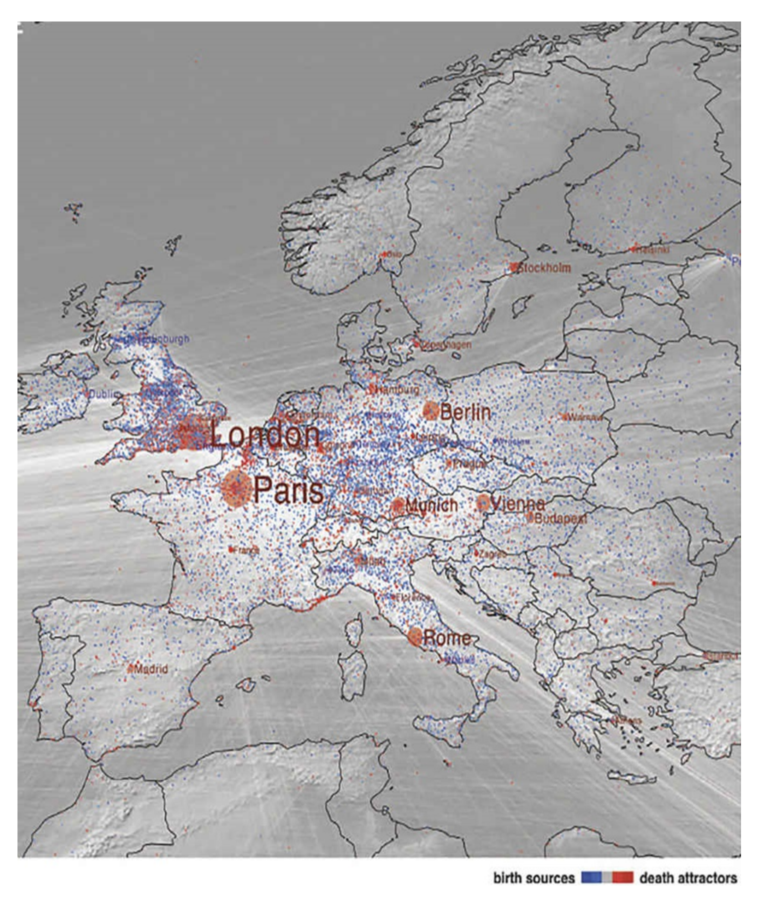
كان لفشل الإصلاح المضاد[546] Counter - Reformation في إحباط «الكالفينية الدولية»[547] Calvinist International[548] نهائيًا، عواقبُ اقتصادية وثقافية بعيدة المدى. قبل الإصلاح، كان ثمة القليل نسبيًا لتمييز أداء شمال غرب أوربا الاقتصادي عن الأداء الاقتصادي - مثلاً - في الإمبراطوريتين الصينية أو العثمانية. ثم بعد ثورة لوثر، بدأت الدول البروتستانتية تُظْهِرُ علامات على دينامية اقتصادية أكبر. لماذا؟ الإجابة هي أن الإصلاح - بغضّ النظَر عن رغبة لوثر في تنقية الكنيسة - أدَّى إلى إعادة توزيع شاملة للموارد، من النشاطات الدينية إلى النشاطات العَلْمانية. أُغْلِقَتْ ثلْثا الأديرة في ألمانيا البروتستانتية، أما الأراضي والأصول الأخرى فقد استولى عليها الحُكَّام العَلْمانيون وباعوها للرعايا الأثرياء، وحَدَثَ هذا في إنجلترا أيضًا. أقلعت أعداد متزايدة من طلبة الجامعة عن أفكار الحياة الرَّهْبانية، وحَوَّلوا اهتمامهم إلى مهن أكثر دنيويةً. قَلَّ بناءُ الكنائس، وزادت الأبنية العَلْمانية. وكما لُوحِظَ حقًا، كان للإصلاح عواقب غير مقصودة بتاتًا، فمِن خلال كَوْنه «حركة دينية، أسهم في عَلْمَنة[549] أوربا Europe's secularization»[550].

وفي الوقت نفسه، انطوت ثورةُ الطباعة، التي جعلت الإصلاحَ ممكنًا، على عواقبها غير المقصودة [أيضًا]. بين عاميْ 1450 و1500، انخفض سِعْرُ الكُتُبِ بمقدار الثلْثين، واستمر انخفاض السعر بعد ذلك.

في عام 1383، كانت التكلفة تعادل أجْرَ كاتبٍ لمدة 208 يومًا، كي يكتب قُدَّاس صلاة واحد (كتاب الخدمة) لأسقف وِسْتمِنسْتَر Westminster [مدينة في إنجلترا]. وبحلول أربعينيات القرن السابع عشر، بِيعَ في إنجلترا، بفضل الطباعة، ما يَرْبُو على 300 ألف روزنامة شعبية سنويًا، كل منها من 45 إلى 50 صفحة طويلة تقريبًا، بتكلفة بِنْسَيْن فقط، في الوقت الذي كان فيه أجْرُ العامل غير الماهر 11.5 بِنْسًا يوميًا. في المتوسط، انخفض سعر الكتب الحقيقي في إنجلترا بنسبة 90% بين أواخر العقد الأول من القرن الخامس عشر وأواخر العقد الأول من القرن السادس عشر[551]. لقد حَدَثتْ أكثر من مجرد طفرة في الكتاب. فبين عاميْ 1500 و1600، نَمَت المدنُ التي أُنْشِئتْ فيها مطابع، أواخر العقد الأول من القرن الخامس عشر، بما لا يقل عن 20% (وربما بما يعادل 80%) أسرع من مثيلاتها التي لم تُنْشَأ فيها مطابع مبكرًا. استأثر انتشارُ الطباعة بما بين 18% و80% من و الحَضَري بين عاميْ 1500 و1600[552]. وقد ذهب ديتمار Dittmar إلى حدِّ القول بأن «تأثير ازدهار الكتاب المطبوع كان يعادل 4% من الدَّخْل بحلول أربعينيات القرن

السادس عشر، و10% من الدَّخْل بحلول منتصف العقد الأول من القرن السابع عشر؛ وهذا أكبر بكثير من تأثير ازدهار الكمبيوتر الشخصي في عصرنا، المُقَدَّر بما لا يزيد عن 3% من الدَّخْل في عام 2004[553]. لقد اتَّبع الانخفاضُ في سعر الكمبيوتر الشخصي بين عاميْ 1977 و2004 مسارًا مماثلاً تمامًا للانخفاض في سعر الكتاب بين تسعينيات القرن الخامس عشر وثلاثينيات القرن السابع عشر. في الماضي، كلما أبطأت ثورةُ تكنولوجيا المعلومات أثَّرتْ تأثيرًا اقتصاديًا أكبر. وأفضل تفسير لهذا الفرق هو دور الطباعة في نشر معرفة أساسية - غير متاحة حينذاك - لتشغيل الاقتصاد الحديث. أول نص مطبوع في الرياضيات كان Treviso Arithmetic (1478).

وفي عام 1494، نُشِرَ في البندقية كتابُ لوكا باتشولي Luca Pacioli’s Summa de arithmetica, geometria, proportioni et Proportionalita، الذي يُعَظِّمُ منافعَ مَسْك الدفاتر مزدوجة القَيْد. سرعان ما تلاه نَشْرُ كُتُبٍ عن تكنولوجيات التصنيع مثل تخمير الجِعَة وتصنيع الزجاج، الأمر الذي كَفَلَ سرعةَ انتشار أفضل الممارسات.




ولم يكن هذا كلَّ شيء. فقبل الإصلاح، تمركزت الحياةُ الثقافية في أوربا تمركزًا قويًا حول روما Rome. ثم بعد ثورة لوثر، تغيَّرَت شبكةُ الثقافة الأوربية تغيُّرًا كاملاً. وبالاستناد إلى بياناتِ أماكنِ ميلاد المفكرين الأوربيين ووفاتهم، نستطيع تتبُّع ظهور شبكتين متداخلتين: نظام حُكْمِ «الفائز يأخذ كل شيء»، المتمركز بشكل هائل حول باريس Paris، ونظام حُكْمِ «القادر يصبح أغنى»، حيث تتنافس مراكز بديلة أحدها مع الآخر في مجموعات عبر جميع أنحاء أوربا الوسطى وشمال إيطاليا[554]. بعد عام 1500، لم تعد كلُّ الطرق تُؤدِّي إلى روما.

بينما كان البعض يَقْتُلُ ويَذْبَح، كان آخرون يدرسون. ورغم الاضطرابات التي أطلق لها العنانَ الإصلاحُ - والتي ظلت تستحِثُّ تمرُّدًا إسكتلنديًا، أواخر عام 1745، لدعم سلالة ستيوارت[555] Stuart dynasty الكاثوليكية المخلوعة - تَميَّزَ التاريخُ الفكري الأوربي في القرنين السابع عشر والثامن عشر بتتابع موجاتِ تجديدٍ تقودها الشبكاتُ، أهمُّها الثورة العلمية Scientific Revolution والتنوير Enlightenment. وفي كل حالة منهما، أنتجَ تَشَارُكُ الأفكارِ الجديدة داخل شبكات العلماء تقدُّمًا كبيرًا في العلوم الطبيعية وفي الفلسفة. وعلى الأصح، كما هو الشأن في انتشار تكنولوجيا الطباعة، ثمّة نمط جغرافي لانتشار العِلْم، يمكن إعادة بنائه على أساس مجرى حياة العلماء الفردية. في القرن السادس عشر، كان محور الشبكة العِلْمية الرئيسي مدينة بادوفا[556] Padua، التي كانت مركز مجموعة مدن إيطالية أخرى بها جامعات. ووُجِدَتْ روابط تمتد من هذه المجموعة إلى تسع مدن رئيسية أخرى في جنوب أوربا، كما امتدت إلى أوكسفورد Oxford وكمبريدج Cambridge ولندن London البعيدة. كانت هناك عُقْدَتان ألمانيتان - فيتنبرج[557] Wittenberg وبينا[558] Jena - تتصلان إحداهما بالأخرى فقط. ثم في غضون القرن السابع عشر، رُبِطَتْ بادوفا بأربعة محاور نشاط عِلْمي أخرى، هي: لندن، لايدن[559] Leiden، باريس، ييناً. ثم صارت كوبنهاجن[560] Copenhagen واحدةً من عِدَّة عُقَد جديدة على المحيط الجغرافي[561].

تتيح لنا شبكات المراسلة رؤيةً أعمق لتطوُّر الثورة العِلْمية. كان إسماعيل بوليوو[562] Ismaël Boulliau فلكيًا وعالِمَ رياضيات فرنسيًا، اهتمَّ بالتاريخ واللاهوت والدراسات الكلاسيكية أيضًا. مراسلاته غزيرة: ، رسالة على مدى السنوات من 1632 حتى 1693، بالإضافة إلى 800 رسالة واردة إليه أو صادرة عنه غير مُدْرَجَة في «مجموعة بوليوو» Collection Boulliau. امتدت مراسلاته على نطاق واسع أيضًا، أبعد من فرنسا، إلى هولندا وإيطاليا وبولندا

والدول الإسكندنافية Scandinavia والشرق الأدنى Near East[563]. ويمكن مقارنتها من حيث الحجم والنطاق بمراسلات هنري أولدنبورج[[564]] Henry Oldenburg، سكرتير أول الجَمْعيّة المَلَكيّة[[565]] Royal Society، الذي كَتَبَ أو تلقَّى 3,100 رسالة بين عاميْ 1641 و1677. فبالإضافة إلى إنجلترا، شملت شبكةُ أولدنبورج فرنسا وهولندا وإيطاليا والشرق الأدنى وعددًا من المستعمرات الإنجليزية[566]. من ناحية الكَمِّ، لم يكن ذلك شيئًا جديدًا. فالشخصيات الرائدة في عصر النهضة والإصلاح أنتجت كَمًّا من الرسائل متقاربًا: أكثر من 3000 رسالة بقيت من إيرازموس[[567]] Erasmus، وأكثر من 4000 رسالة من لوثر Luther وكالفن Calvin، وأكثر من 6000 رسالة من إغناطيوس لويولا Ignatius Loyola مؤسِّس جمعيّة يسوع Society of Jesus. وثمة أعداد كبيرة من الرسائل، بشكل ملحوظ، أنتجها بعضُ التجار والأرستوقراطيين[568]. ولكن الفرق يكمن في أن المراسلات العِلْمية، مع ظهور مؤسَّسات مثل الجمعيّة المَلَكيّة، بَدَتْ كما لو أنها مَسْعَى جَمْعيٌّ.

ولعل المثال الجيد على الطريقة التي انتشر بها العِلْم عبر هذه الشبكات هو بحث أنتوني فان ليفينهوك[[569]] Antonie van Leeuwenhoek في علاج النقرس [داء التهاب المفاصل] الذي كشف عن علاج فعَّال، لُوحِظَ للمرة الأولى في مستعمرة باتافيا Batavia الهولندية (هي الآن جزء من إندونيسيا). تقرير ليفينهوك إلى الجمعيّة المَلَكيّة نَشَرَ المعرفةَ الجديدة بين أعضاء الجمعيّة، بل أبعد منهم أيضًا. المراسلات إلى غير أعضاء الجمعيّة - وهي روابط ضعيفة كلاسيكية - منحتهم فرصةَ الولوج إلى المجموعة الفكرية التي تشكَّلتْ في لندن وما حولها[570].

كان ميثاق الجمعيّة المَلَكيّة صريحًا في مَنْح رئيسها ومجلسها وأعضائها وخلفائهم حريةَ «التمتُّع بتبادل المعلومات والمعرفة مع الغرباء والأجانب على اختلافهم، سواء كانوا أفرادًا أم جامعات، أصحاب أعمال أم سياسيين، دون أي مضايقة أو تدخُّل أو إزعاج من أي نوع»[571]. الشرط الوحيد هو أن يُفيدَ تبادلُ المعلومات الجَمْعيّةَ ومصلحتَها. وبدءًا من أولدنبورج، لعب أمناءُ الجمعيّة [السكرتير الأول] المتعاقبون دورًا حاسمًا (وإنْ بدرجات نجاح متفاوتة) في إدارة مراسلات الجمعيّة على نطاق واسع. في ظل إدارة إدموند هالي Edmond Halley، تراكمت

الرسائل الواردة (ومن بينها رسائل ليفينهوك) دون قراءة، أما حين أصبح خليفتُه الفيزيائي جيمس جورين James Jurin سكرتيرًا أول، بَدَت الجمعيّةُ محورَ شبكة علماء دولية، بمَن فيهم الجراحون والأطباء وأساتذة الجامعات ورجال الدين والصيادلة، رُبْعُهم في أوربا، وحوالي 5% في المستعمرات داخل أمريكا الشمالية. في ديسمبر عام 1723، قرأ جورين «مقترحَه بشأن أرصاد جويّة مشتركة»، دعا فيه إلى تنسيق مراقبة الأرصاد الجويّة عبر شبكة مُتَراسِلين. كانت فرضيته أن «نظرية الطقس الحقيقية لا تتحقق بمعرفة التغيُّرات المتعاقبة في مكان واحد»، بل «تتطلب تعاونًا مشتركًا بين مراقبين عديدين [في أماكن مختلفة]»[572].

وخلال الأشهر التالية، تَلقَّى نتائج مراقبات من برلين ولايدن ونابولي وبوسطن ولونِفيل Lunéville وأوبسالا Uppsala وسان بطرسبرج St Petersburg.

وعلى النقيض من الجمعيّة المَلَكيَّة [في إنجلترا]، كانت أكاديميةُ العلوم الفرنسية[573] Académie des sciences في باريس مِلْكيةً خاصة للتاج المَلَكي أساسًا.

فعندما اجتمعت للمرة الأولى يوم 22 ديسمبر عام 1666، كان الاجتماعُ في مكتبة المَلِك، ووَضَعَ لها سياسةً عامة تتصف بالسرِّية. كل المناقشات والمداولات خاصة، فمُنِعَ غير الأعضاء من حضور الجلسات[574].

وبذلك عُزِلَ أعضاؤها عن شبكة عموم أوربا متسارعة النمو التي عجَّلت بالثورة العلمية. وتَشَابَه الموقفُ في كثير من أنحاء أوربا الكاثوليكية. فلم يكن من قبيل المصادفة أن يُوصَفَ المفكرون البرتغاليون، الذين تمكّنوا من الالتحاق بالشبكة العلمية الأوسع، بأنهم estrangeirados، التي تعني «الأجانب»[575]. لقد تلاءَمَ ظهورُ شبكة عِلْمية كوزموبوليتانية وَلَّدتْ نظريةَ الشبكة نفسها، مع انشغال أويلر Euler بمشكلة جسر كونيجْسبِرج Königsberg [عاصمة بروسيا الشرقية] (انظر المقدمة). وُلِدَ أويلر في بازل Bazel، حيث دَرَسَ تحت إشراف يوهان بيرنولي[576] Johann Bernoulli، ثم تَرقَّى إلى الشُّهْرَة بعد حصوله على المركز الثاني في مسابقة جائزة أكاديمية باريس Paris Academy Prize Problem وهو في العشرين من عمره فقط. كان أويلر يعمل في أكاديمية العلوم الروسية الإمبراطورية[577] Imperial Russian Academy of Sciences في سان بطرسبرج، عندما حَلَّ لغز كونيجْسبِرج، ثم انتقل إلى برلين بدعوة من فريدريك العظيم[578] Frederick the Great

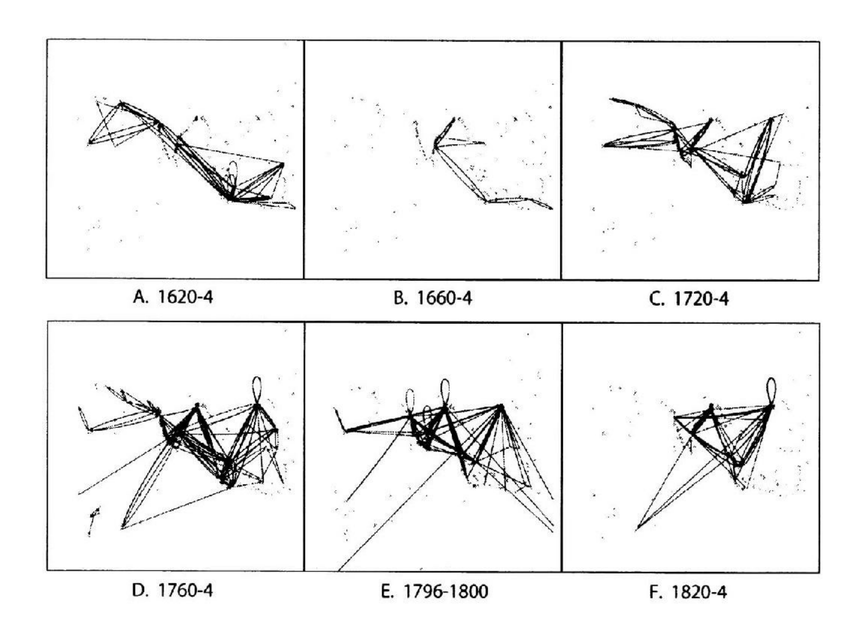
في عام 1741 (لكن الرجلين لم ينسجما، فعاد أويلر لاحقًا إلى روسيا).

لم تكن النَّظَرَات الرياضية mathematical theorems وحدها هي التي تُبُودِلَتْ في القرن الثامن عشر. الشبكات التي خلقتها التجارةُ والهجرة عبر الأطلنطي نَمَتْ باطراد في ذلك الوقت أيضًا، إذ استغل التُّجارُ والمستوطنون الأوربيون الانخفاضَ السريع في تكاليف النقل، ووفرة الأراضي [بلا مقابل] في أمريكا الشمالية، وكذلك عمالة الرقيق الرخيصة في غرب أفريقيا. لقد وُصِفَ الاقتصادُ الأطلنطي في القرن الثامن عشر بأنه «شبكة تجارية ضخمة، يعرف فيها كلُّ شخصٍ الشخصَ الآخر، بل كلَّ أصدقاء هذا الشخص وأصدقاءَهم أيضًا»[579]. ولعله من الأدق التفكير في وجود شبكات متعددة الاتصال والروابط، ذات موانئ رئيسية تعمل بوصفها محاور[580]. المثال الجيد لهذا هو الطريقة التي لعب بها التجار الإسكتلنديون دورًا مهيمنًا في تجارة النبيذ في جُزُر ماديرا[581] Madeira أثناء القرن الثامن عشر. فبحلول عام 1768، كان ثلْثُ الثلاثة والأربعين تاجرًا أجنبيًا المقيمين في ماديرا إسكتلنديين، بمَن فيهم خَمْسٌ من أكبر عشرة مُصدِّري نبيذ. وعلى الرغم من أن بعض تُجَّار النبيذ على صلات ببعضهم البعض، فإن معظم الروابط في الشبكة كانت بين «المُراسِلين» correspondents و«الروابط» connections. صحيح أن السيولة النسبية لهذه الروابط انطوت على عيوب، فأصحاب الأعمال يواجهون صعوبات معتادة في توصيل التوجيهات لوكلائهم. كما أن تدفُّقات المعلومات غزيرةٌ، ولكن معظمها تشوبه الشائعاتُ المُضيِّعة للوقت؛ وتكاليف الصفقات عالية لأن التجار يُفَاوِضُ أحدُهم الآخرَ باستمرار[582]. لكن من ناحية أخرى، كانت هذه الشبكةُ ديناميةً ومتجاوِبةً مع تغيُّرات السوق[583].

أحد الحلول هو الجمع بين فوائد التواصل الشَّبَكي وبعض عناصر الإدارة الهَرَميَّة. من الناحية الرسمية، سيطر مديرو شركة الهند الشرقية[584] (East India Company (EIC في لندن على جزء كبير من التجارة بين الهند وأوربا الغربية. ولكن كما تُبَيِّنُ سجلاتُ ما يزيد على 4,500 رحلة لتُجَّار الشركة، قام قَبَاطِنَةُ السفن برحلات جانبية غير مشروعة، فاشتروا وباعوا لحسابهم الخاص[585]. وبحلول أواخر القرن الثامن عشر، زاد عدد مواني الشبكة التجارية الناتجة إلى أكثر من مئة ميناء، ما بين مركز تجاري مفتوح كمدينة مِدْارس Madras [تشيناي الهندية] إلى أسواق منظَّمة كمدينة كانتون Canton (جوانزو[586] Guangzhou)[587].

بل وفّرت التجارةُ الخاصة روابطَ ضعيفة وَصَلَتْ بين مجموعات محلية لم تكن لتتصل فيما بينها بطريقة أخرى[588]. وقد انطوت هذه الشبكةُ على حياتها الخاصة التي لم يسيطر عليها مديرو شركة الهند الشرقية في لندن. بل كان انفلاتُ السيطرة هذا، أحدَ المفاتيح الرئيسية لنجاح الشركة؛ لأنها كانت شبكةً أكثر منها تسلسلاً هَرَميًّا. أما مُنافِسَتُها الهولندية فقد حَظَرَتْ على موظَّفيها التجارةَ الخاصة. وربما يساعد هذا على تفسير السبب في أنها حلَّتْ محلَّها[589]. فبمجرد أن وَاجَه تجارُ شركة الهند الشرقية موانيَ منظَّمة تنظيمًا هَرَميًّا، كميناء باتيكالَوا[590] Batticaloa - الذي احتكرته العائلةُ المَلَكيّة السينهالية Sinhalese - فَشِلَتْ إستراتيجيتُهم الشبكيّة في التعامل[591].

عندما انسحبت شركة الهند الشرقية من التجارة داخل آسيا لتُركِّزَ على تجارتها بين آسيا وأوربا أثبتت كثافةُ شبكتها البحرية أنها حاسمة[592]. ثم بمجرد تغيُّر أسلوب الشركة في إدارة الأعمال من التجارة إلى فَرْض ضرائب على الهنود صارت بنيتُها أكثر هَرَميَّةً. ثم بحلول زمن إدارة روبرت كلايف[593] Robert Clive، اتخذت شركةُ الهند الشرقية طابعَ حكومة استعمارية ذات قدرة كبيرة على شَنِّ الحرب.




الشكل: 13 - شبكة تجارة شركة الهند الشرقية البريطانية بين عاميْ 1620 و1824. استفاد التجار من البنية التحتية للشركة، أما الشركة فاستفادت من قدرة التجار على بناء شبكة بين موانئ متعددة.

وبالنسبة إلى عائلة طموحة ومُغامِرة، كانت ذات يوم عاميّةً في الأراضي الإسكتلندية المنخفضة[594] Scottish Lowlands، اعْتُبِرَ هذا العالَم عالَمًا من الفُرَص[595]. تدفَّقَ آل جونستون Johnstones من ويسترهول Weste في دَمفيرشير Dumfriesshire، التي وَصَفَها دانييل ديفو[596] Daniel Defoe بأنها «منطقة بِرّية جبلية، لا يُتَوَقَّعُ منها سوى الخراب والكآبة».

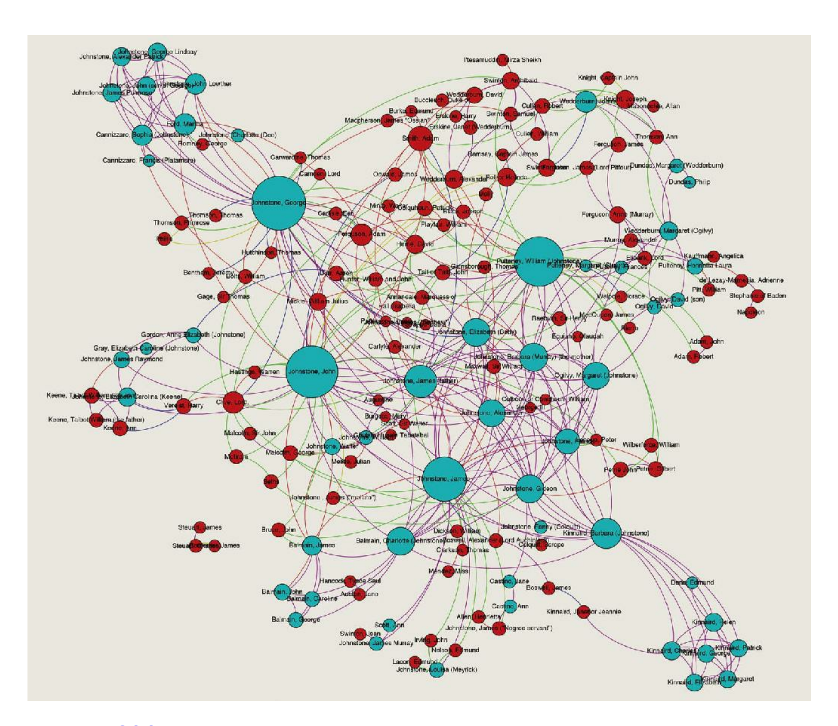
أبناء جيمس وباربارا جونستون James and Barbara Johnstone الأحد عشر، الذين ظلوا على قيد الحياة حتى سِنّ البلوغ، قضى جميعُهم تقريبًا جزءًا كبيرًا من حياتهم خارج إسكتلندا. الأخوة الأربعة، جيمس James وويليام William، وجورج George وجون John، انْتُخِبوا أخيرًا في مجلس العموم[597] House of Commons؛
ومنذ عام 1768 حتى عام 1805، وُجِدَ دائمًا أحدُ أفراد عائلة جونستون على الأقل في البرلمان. اشترى الابن الثاني، ألكسندر، Alexander، مزرعةً كبيرة في جرينادا Grenada أسماها «و ي س ت ر ه و ل» Westerhall. وقاد أخوه الأصغر، السير ويليام جونستون بولتيني Sir

رابطةَ William، Johnstone Pultney
مستثمرين واشتروا في عام 1792 جينسي
ت ر ا ك ت Tract Genesee،
وهي منطقة في غرب ولاية نيويورك تبلغ مساحتها أكثر من مليون فدان. وبحلول وقت وفاته، تَرَاكَمَتْ لديه أيضًا ممتلكات في دومينيكا
Dominica وجرينادا، وتوباجو Tobago وفلوريدا Florida. أما الأخوة الثلاثة الأصغر - جون John وباتريك Patrick وجيديون Gideon -
فقد أمضوا جميعُهم وقتًا في شِبْه القارة الهندية في وظائف بشركة الهند الشرقية. ازدهرت حياة جون، وبَرَعَ في اللغة الفارسية والبنغالية وكَدَّسَ ثروةً كبيرة. أما باتريك فهَلَكَ عن تسعة عشر عامًا في «ثقب كالكوتا الأسود»[598]

Black Hole of Calcutta عام 1756.

خَدَمَ آل جونستون أيضًا في المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية: حَكَمَ جورج فلوريدا الغربية West Florida، وألكسندر ضابطُ جيشٍ في كندا وشمال نيويورك، وجيديون ضابطٌ بحريٌّ على ساحل المحيط الأطلنطي. أصغر عائلة جونستون أمضى وقتًا أيضًا في البَصْرة وموريشيوس Mauritius [جزيرة في وسط المحيط الهندي] ورأس الرجاء الصالح Cape of Good Hope. وعند مرحلة في مسيرة حياته المهنية، أدار شركةً تبيع المياهَ من نهر الجانج Ganges [أحد أكبر أنهار الهند] إلى الحُجَّاج الهنود[599].

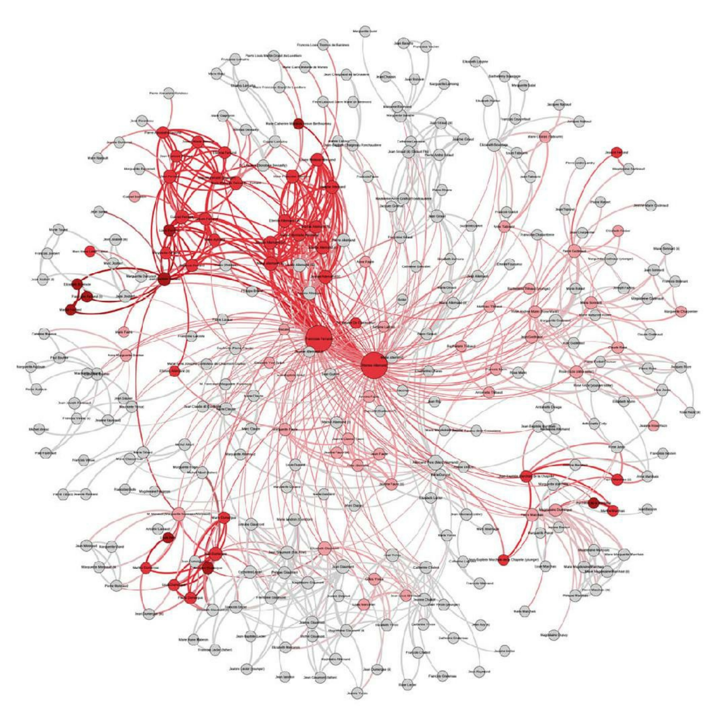
(بخصوص تمثيل بياني لشبكة آل جونستون، انظر اللوحة الاتية).



كانت محاورُ الشبكة الماركنتيلية[600] mercantile العالَمية مدنًا ساحلية ذات موانئ، مثل: إدنبرة[601] Edinburgh، لندن London، ـتون Kingston، نيويورك New york، كيب تاون Cape Town، البصرة Basra، بومباي Bombay، كالكوتا Calcutta.
ولم يكن ما يتدفق على طول الممرات البحرية الرابطة بين هذه العواصم metropoles البضائع والذهب فقط. العبيدُ أيضًا عبروا الأطلنطي بالملايين. مئات منهم كانوا يكدحون في مزرعة جونستونِ في جرينادا؛ خسر جون (جونستون) قضيةَ المحكمة التي أنهت الاعتراف القانوني بالعبودية في إسكتلندا، ولكنه امتلك بليندا Belinda،
آخر مَن اعترفت بهم محاكمُ إسكتلندا بوصفها مُسْتَعْبَدة بشكل قانوني. تدفقت الأفكار أيضًا - بما فيها أفكار تحرير العبيد - عبر الشبكة التجارية في القرن الثامن عشر. مارجريت جونستون Margaret Johnstone اعتنقت اليعقوبيةَ بحماس، ونَجَتْ من السجن في قلعة إدنبرة Castle Edinburgh، ثم ماتت في منفاها في فرنسا. انتسب ويليام جونستون إلى نادي إدنبرة المعروف بجمعية

الصَّفْوة
Select Society، مع آدم سميث Adam Smith وديفيد هيوم David Hume
وآدم فِرْجُسن Adam Ferguson،
الذين كانوا يُقَدِّرون عقلَه تقديرًا كبيرًا. التحق جون ابن ويليام بجمعية إدنبرة لإلغاء تجارة الرقيق
الأفارقة
Edinburgh Society for the Abolition of the African Slave Trade.
عَمَّاه جيمس وجون عَارَضَا العبوديةَ أيضًا؛ أما ويليام فأخذ صَفَّ الجانب الآخر. وجورج راودته فكرةُ دَعْم الثورة الأمريكية[602] American Revolution وأُرْسِلَ إلى المستعمرات في عام 1778 بوصفه عضوًا في لجنة السلام المنحوسة. أفرادُ عائلة جونستون عرفوا ألكسندر هاملتون[603] Alexander Hamilton وخَصْمَه آرون بور[604] Aaron Burr الذي قام بزيارة إلى منزل بيتي[605] Betty مرة واحدة في إدنبرة[606].

ربما كان آلُ جونستون حالةً متطرفة لعائلة عالَمية. لكن حتى في أنجوليم Ango، وهي بلدة فرنسية ريفية في شمال بوردو Bordeaux، ارتحلتْ نسبةٌ عالية مدهشة من القاطنين، في القرن الثامن عشر، أو عاشت خارج فرنسا (اللوحة الاتية).



جعلت الكلمةُ المطبوعة الإصلاحَ ممكنًا، كما استحثَّت الثورةَ العلميةَ. ولعله من المفارقة أن التنويرَ مدينٌ بالقدر نفسه - إنْ لم يكن أكثر - للكلمة المكتوبة بالطريقة القديمة. لقد نشر الفلاسفةُ أعمالَهم فصار العديد منها متاحًا. ولكن التبادل الأهم للأفكار حَدَثَ عن طريق الرسائل الخاصة. بل إن بقاء الكثير من هذه المراسلات - عشرات الآلاف من الرسائل المتبادلة بين أكثر من ستة آلاف مؤلِّف - هو الذي مَكَّنَ الباحثين الحديثين من إعادة بناء شبكة التنوير.

نحن نميل إلى التفكير في عصر التنوير بوصفه ظاهرة كوزموبوليتانية تربط بين الفلاسفة والأدباء في جميع أنحاء أوربا، من جلاسكو Glasgow [في إسكتلندا] إلى سان بطرسبرج [في روسيا]. ولكن يتبيَّنُ عند الفحص الدقيق لمراسلات مُفكِّري القرن الثامن عشر البارزين أنها أكثر تجمُّعًا على المستوى الوطني[607]. شبكة فولتير Voltaire أكثر من ألف وأربعمئة مُراسَل، 70% منهم فرنسيون[608]. ونحن نعرف مصدر ووِجْهة حوالي 12% من رسائل فولتير. أكثر من النصف (57%) أُرْسِلَتْ من باريس وإليها. ومن المؤكد أن فولتير تَبَادَلَ الرسائلَ مع جوناثان سويفت Jonathan Swift وألكسندر بوب Alexander pope، ولكن عددها قليل. مُراسَلوه الإنجليز الأساسيون شخصياتٌ مغمورة:

السير إيفيرارد فاوكينر Sir Everard Fawkener، وتاجر حرير، وشاعر غير ذي ذِكْرٍ قابَلَه فولتير في فيرني Ferney [بلدة فرنسية] هو جورج كيت George Keate.



الشكل: 14 - شبكة مُراسَليْ فولتير. وهي شبكة أكثر تمركزًا حول الفرانكونية مما تجعلنا وجهاتُ النظر التقليدية عن التنوير نتوقع أنه حركة دولية.

فولتير أحدُ ثلاثة «محاور» استنارة، والاثنان الآخران هما: جان جاك روسُّو Jean - Jacques Rousseau، ومُحرّرُ الموسوعة Encyclopédie جون باتيست لوروند دالمبير Jean - Baptiste le Rond d'Alembert. وقد اتَّصفت شبكات فولتير الشخصية بأنها مكوِّنات رئيسية في شبكة أوسع، اعتقد المعاصرون أنها جمعيَّة أدبية أو علمية société littéraire ou savante[609]. تمركزت هذه الشبكة الأوسع جغرافيًا حول باريس. 12% من عينة تبلغ تقريبًا ألفين من أعضائها ماتوا هناك، وكذلك 23% ممن أسهموا في الموسوعة[610]. وُجِدَتْ أيضًا شبكةٌ مُخَلْخَلَةٌ اجتماعيًا، شملت 18 أميرًا وأميرة، و45 دوقًا ودوقةً، و127 ماركيزًا وماركيزة، و113 كونتًا وكونتيسة، و39 بارونًا وبارونة[611].

شكَّل الأرستوقراطيون حوالي 0.5% من السكان الفرنسيين في القرن الثامن عشر، وحوالي خُمْس ما سُمِّي ب«جمهورية الآداب»[[612]] republic of letters. ولأن الشبكة ارتبطت برؤيتها النقدية للنظام القائم فقد شملت هذه الجمهورية عددًا كبيرًا من كبار المسؤولين المَلَكيين بشكل لافت[613]. ومع أننا نميل إلى افتراض وجود استمرارية كبيرة بين الثورة العِلْمية والتنوير، فقد وُجِدَ عددٌ قليل من العلماء الممارسين للتجارب العلمية في هذه الشبكة، وأكثرهم أعضاء في كيانات مثل الأكاديمية الفرنسية Académie française والأكاديمية المَلَكيّة للعلوم Académie royale des sciences. لقد كانت جمهوريةَ آداب أكثر منها جمهورية أعداد، شبكةَ كاتبي مقالات أكثر منها شبكة مُجرِّبين [في المختبرات].

ولا تقول شبكاتُ المراسلة سوى جزء من قصة التنوير، بطبيعة الحال. مَن عرفوا

فولتير أو روسُّو أو دالمبير حَرِصُوا على مقابلتهم حِرْصهم على الكتابة إليهم. كانت «جمهوريةَ صالونات» republic of salons أيضًا، ومن هنا لعبت سيداتُ الصالونات salonnières، دورَ وساطة مُهِمًّا أيضًا، فهُنَّ النساء اللاتي أمست منازلُهن مراكزَ تبادل اجتماعي، ويرغب في تَلقِّي دعواتهن مثقفون طامحون[614].

ومن النادر أن تُدْعَى حُثالة جِرَب ستريت الأدبية بباريس[615] hacks of Paris's Grub Street.

ومع ذلك، وُجِدَتْ «روابط ضعيفة» بين شبكة المستنيرين الرفيعة وشبكة كتَّاب الصحافة الصفراء gutter press المُتدنِّين: ثمانية أعضاء ممن يُطْلَقُ عليهم الحُثالة الأدبية literary underground تراسَلوا مع فولتير أو روسُّو أو دالمبير[616].

كلُّ أمةٍ اكتشفت التنويرَ بطريقتها الخاصة. وقد تطوَّرت شبكاتُ تفكيرٍ حُرٍّ جديدة في فجوات مؤسَّسات التاج المَلَكي والكنيسة في إدنبرة، كما حَدَثَ في باريس.

العاصمة الإسكتلندية كانت مقرًّا للمحكمة المدنية العليا Courts of Session ومحكمة العدل العليا High Court of Justiciary، وخزانة الدولة Exchequer، ومحاكم المُفوَّضية الثانوية the minor Commissar Courts، والمحاكم البحرية Admiralty Courts، وFaculty of Advocates[617]، ومَجْمَع بورز المَلَكي[618] Convention of Royal Burghs، ومجلس كنيسة إسكتلندا Assembly of the Church of Scotland، وجامعة إ د ن ب ر ة University Edinburgh.
منذ عام 1751، أصبح آدم سميث أستاذًا جامعيًا (في جلاسكو وليس في العاصمة). ومنذ عام 1752، أصبح ديفيد هيوم أمينَ مكتبة كلية المحامين Keeper of the Advocates Library.
كانت الرعايةُ والكفالةُ الأرستقراطية مصدرًا آخر حاسمًا لدعم الحياة الفكرية ماديًا في إسكتلندا، كما كان الشأن في فرنسا. فبين عاميْ 1764 و1766، اشتغل سميث معلمًا لدوق بوكليوتش Buccleuch الصغير. نادرًا ما كان كبارُ مفكِّري إدنبرة، كنظرائهم الفرنسيين، ثوريين. ولكنهم لم يكونوا رجعيين.

استنكر معظمُهم اليعقوبيةَ Jacobitism وتبنّوا النظام الهانوفري [نسبةً إلى مملكة هانوفر] Hanoverian order. (أحد التصميمات المُقترَحَة لنيوتاون إدنبرة[619] Edinburgh's New Town، كان على شكل عَلَم الاتحاد Union Flag)[620].

ومع ذلك، لم يحدث النشاط الفكري حينئذٍ في المؤسَّسات القائمة، بل في نوادٍ جديدة وغير رسمية في المدينة القديمة [أولدتاون] Old Town: الجمعيَّة الفلسفية Philosophical Society (تأسَّسَتْ عام 1737 بمُسمَّى أثقل هو جمعية إدنبرة لتحسين الفنون والعلوم وبخاصة المعرفة الطبيعية Edinburgh Society for Improving Arts and Sciences and Particularly Natural Knowledge)، وجمعية الصَّفْوة 1762 - 1754) Select Society).

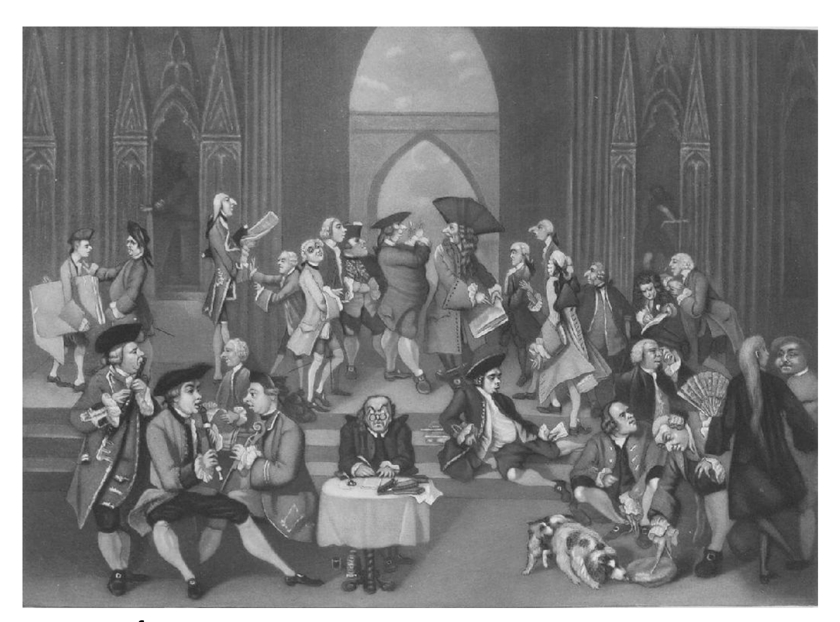
وكما استنكر ديفوتيو فرنسا[621] dévots of France الفلاسفةَ وسعوا إلى محاكمتهم، كذلك اعتبر التقليديون المَشْيخيّون أدباءَ إسكتلندا «شياطين من الجحيم». وفي غضون أجيال قليلة فقط، صار ورثةُ الثورة الكالفينية، في القرن السادس عشر، الحماسيون المُتشدِّدون، حُرَّاسَ مؤسَّسة دينية صارمة، هي «كيرك» [الكنيسة الإسكتلندية] Kirk.

إذ حَاكَمَ المَجْمَعُ الكنسي المَشْيخيُّ لكنيسة إسكتلندا Presbyterian Synod of the Church of Scotland [القس] جون هوم John Home علانيةً، وجَرَّدَه من رُتْبته الدينية، لأنه كتب مسرحية «دوجلاس» Douglas (1757)[622] وهنا، كما في كل مكان في أوربا البروتستانتية، أثبتت المطبعةُ نفسُها أنها صندوق باندورا[623] Pandora.

ومثل المستنيرين الفرنسيين، فَكَّر الأدباء الإسكتلنديون بشكل عالمي، ولكنهم تصرَّفوا على الصعيد الوطني، ويتضح ذلك من مراسلات عشرة إسكتلنديين بارزين، ومنهم هيوم وسميث (انظر الشكل 15)[624] العشرات من الرسائل ذهبت إلى جلاسكو وإدنبرة وجاءت منهما، كما كانت تذهب الرسائل إلى باريس وتأتي منها.

ولكن لندن كانت أهم من جلاسكو: فهذه شبكة بريطانية وليست إسكتلندية. وعلى أية حال، لم يكن التنويرُ مضمارَ مراسلة فقط؛ ولا كانت أضواؤه الرائدة مجرد زملاء قلم [زملاء كتابة]. حين كان يعمل آدم سميث معلمًا لدوق بوكليوتش، زار باريس، حيث قابل (من بين تنويريين آخرين) دالمبير، والفيزيوقراطي فرانسوا

كِينَي François Quesnay، وبنيامين فرانكلين Benjamin Franklin. جمهورية الآداب كانت متنقلةً. وكبار المفكرين، في القرن الثامن عشر، كانوا في طليعة السائحين أيضًا.



الشكل: 15 - محاكاة ساخرة من جيمس سكوت لمدرسة أثينا عند رفاييل، باسم السير جوشوا رينولدز (1751). فشبكة التنوير قامت على السياحة أيضًا، كما على المراسلات.

بالنسبة إلى مفكرين طموحين وُلِدوا وعبروا المحيطَ، لم يكن ثمة بديل حقيقي، فعلاً، سوى قضاء بعض الوقت في بريطانيا العظمى وفرنسا. وقد جسَّدَ بنيامين فرانكلين[625] Benjamin Franklin التنويرَ الاستعماري [الكولونيالي]. فرانكلين المولود الخامس عشر لمهاجر بيوريتاني من نورثامبتونشير Northamptonshire [مقاطعة في وسط إنجلترا]، عَلَّمَ نفسَه بنفسه، وكان مُتعدِّدَ المعارف، فكان يقضي وقتًا في مختبره بالمنزل كالوقت الذي يقضيه في المكتبة.

في عام 1727، أسَّسَ فرانكلين ال«جونتو»[626] Junto، وهو نادٍ للرجال من أمثاله يتقابلون فيه ويتبادلون الآراء. ثم بعد عامين، بدأ في إصدار صحيفة «بنسلفانيا جازيت» Pennsylvania Gazette. وفي عام 1731، أنشأ أولَ مكتبة أمريكية برسوم اشتراك. ثم بعد اثني عشر عامًا، لحقتها مؤسسةٌ جديدة أخرى هي الجمعية الفلسفية

الأمريكية
.American Philosophical Society
وفي عام 1749، أصبح فرانكلين أولَ رئيس لأكاديمية فيلادلفيا ومدرستها الخيرية وكليتها
.Academy, Charity School and College of Philadelphia
ولكن فيلادلفيا بسكانها الخمسة والعشرين ألفًا فقط لم تكن كإدنبرة، ناهيك عن باريس الأكبر عددًا. قبل عام 1763، لم يكن لدى فرانكلين مَن يُراسِلُهم خارج المستعمرات الأمريكية. ثم بعد رحلته إلى لندن في تلك السنة، قفز نصيبه ممن كان يَتراسَلُ معهم من غير الأمريكيين من صفر إلى ما يقرب من الرُّبْع. ورغم أنه لم يَتراسَل أبدًا مع نظيره المعاصر له، زمنًا، فولتير، فإن زيارات فرانكلين إلى أوربا كَفَلَتْ له أن يصير جزءًا لا يتجزَّأ من شبكة التنوير. لقد انتُخِبَ زميلَ الجمعيّة المَلَكيّة
المَلَكيّة الجمعيّة وزميلَ Felow of the Royal Society
،Felow of the Royal Society of Arts للفنون
في عام 1756. وبالإضافة إلى رحلاته المتعددة إلى لندن، زار فرانكلين إدنبرة وباريس، كما سافر إلى أيرلندا وألمانيا[627]. كل ذلك كان قبل ظهوره بوصفه أحد أولئك المُسْتعمِرين المتمرِّدين الراغبين في الاستقلال عن البلد الأم، الذين يقطعون الروابط الهَرَميَّة التي أخضعت المستعمرات الأمريكية لسيادةِ «مَلِكٍ في برلمان» لندن البعيدة. ومن المفارقة لدى جيل فرانكلين من المفكِّرين الكولونياليين أنْ ظلت لندن «عاصمةَ أمريكا»، حتى لو تنامى استياؤهم من القيود السياسية التي فرضتها عليهم[628].

كان دورُ الشبكات حيويًا في الثورات السياسية الكبيرة أواخر القرن الثامن عشر، كما كان في الثورات الدينية والثقافية الأسبق. ومرة أخرى، لعبت الكلمةُ المكتوبة والمطبوعة دورًا حاسمًا. لقد دُوِّنَتْ في الكتب والمنشورات والجرائد، بل فيما لا يُحْصَى من الرسائل المكتوبة بخط اليد أيضًا، المناقشاتُ والحُجَجُ من أجل تغيير سياسي راديكالي، كما ظهرتْ انتقاداتٌ للسلطة المَلَكيَّة بشكل واضح. في رأي «رجال الآداب»، كثيرًا ما يبدو القلمُ أَمْضَى من السيف، ويظهر الكاتبُ - شاعرًا ومسرحيًا وروائيًا ومُجادِلاً - بوصفه أحد أبطال العصر يُؤازِرُه ناشرٌ لا يعرف الخوف. وما من عجب في أن الضرائب على الصحافة [والمطبوعات] أصبحت هدفًا لغضبٍ تمرُّدي[629]. اتَّحدَ المؤلِّفون والناشرون أصحاب المطابع في العالم الغربي معًا في تعشيقةِ شبكاتٍ اجتماعية حقيقية، عازمين على كتابة طريقهم للخروج من الحُكْم الوراثي. فكانت الثورةُ، من بوسطن [في أمريكا] إلى بوردو [في فرنسا]، إنجازَ شبكات البارعين في الكلام إلى حد كبير، وأبْرعُهم الخُطَباءُ الذين بكلماتهم الصارخة حشدوا الحشود في الساحة وحَرَّضوا على مهاجمة أبراج النظام القديم والعَصْف بها.

ولكن الثورات، كي تنجح، تحتاج إلى مقاتلين كما تحتاج إلى كُتَّاب. أَضِفْ إلى هذا أن الشبكات الثورية لا بد أن تكون مَرِنةً؛ حتى لا تنهار بسهولة حين تَحْمِلُ عليها السلطةُ الهَرَميَّةُ. في هذا السياق، عُدَّتْ حالةُ بول ريفير[630] Paul Revere لفترة طويلة مهمةً. لم يعد أطفال المدارس يتذكرون قصيدة هنري وادسورث لونجفيلو
Henry Wadsworth Longfellow،
كلا ولا يذكر أحدٌ الآن فيلمَ الدراما التاريخية «رحلة بول ريفير في منتصف الليل»
Midnight Ride of Paul Revere أحدَ
أوائل الأفلام الأمريكية، ولكن تظل القصة مألوفة[631].

إن عبارة «إذا كان واحد عن طريق البر، وإذا كان اثنان عن طريق البحر»، هي إحدى عبارات عديدة لا تزال تَرِنُّ، في إشارة حيوية إلى ريفير من بُرْج كنيسة الشمال:

حوافرُ مسرعة في شارعِ قريةٍ،

شبحٌ في ضوء القمر، جِسْمٌ في الظلام،

ومن تحت الحصى، تلتمع شرارةٌ بلا توقف

أطلقها فرسٌ يطير بلا خوف وبكل رشاقة:

كان ذلك كل شيء! ولكن عبر الظُّلْمة والضوء،

كان يرتحل مصيرُ أمَّةٍ هذه الليلة؛

والشرارة التي أطلقها ذلك الفرسُ، أثناء طيرانه،

حوَّلت الأرضَ المتأجِّجة إلى شعلةٍ ذات لَهَب.

ونفهم تلقائيًا أن شرارة لونجفيلو الملتهبة هي استعارة تشير إلى عملية نقل الأخبار:

عَبْرَ الليل انطلق بول ريفير؛

وعَبْرَ الليل انسربتْ صرختُه التحذيرية

إلى كل قرية ومزرعة في ميدلسِكْس،

- صرخةُ مواجهةٍ، لا صرخةَ خوفٍ،

صوتٌ في الظلام، وطَرْقٌ على الباب،

وكلمةٌ لا بد أن تتردد إلى الأبد!

ومع ذلك، وكما لاحظ مالكوم جلادويل Malcolm Gladwell، لا يتضح للوهلة الأولى سبب نجاح ريفير، الكبير، في توصيل معلومةِ زَحْفِ القوات النظامية [البريطانية] إلى بَلْدات شمال غرب بوسطن - ليكسينجتن Lexington وكونكورد Concord - للقبض على قادة المستعمرات جون هانكوك John Hancock وصمويل آدامز Samuel Adams أولاً، ثم الاستيلاء على أسلحةِ الميليشيا الاستعمارية ثانيًا. ارتحل ريفير على فَرَسه ثلاثة عشر ميلاً، وطَرَقَ على الأبواب، وحَذَّرَ في كل مدينة من اقتراب الجنود.

لكن أخباره انتشرت إلى أبعد، وبأسرع، مما كان يستطيع، فوصلت إلى لينكولن Lincoln في الواحدة صباحًا، وإلى سُدْبوري Sudbury في الثالثة صباحًا، ثم بحلول الخامسة صباحًا وصلت إلى أندوفر Andover على بُعْدِ أربعين ميلاً من بوسطن. ولم يتحقق ذلك بأية تكنولوجيا أخرى سوى كلمة من الفم. يقول ديفيد هاكيت David Hacket، في كتابه عن رحلة ريفير على فَرَسه، إن ريفير «كان استثنائيًا في عبقريته لكَوْنه في مركز الأحداث...

ولأنه حَرَّكَ أفعالَ آخرين عديدين»[632]. ويقول جلادويل إن ريفير - على عكس ويليام دوز William Dawes (الذي قام برحلة مماثلة) - استطاع أن يجعل «كلمةً من الفم وبائيةً» بسبب «قانون القِلَّة» The Law of the Few[633]. فقد كان ريفير أحد تلك الأنواع النادرة: كان «مُوصِلاً» Connector، «مولعًا بالناس»، و«اجتماعيًا

بشكل تلقائي لا يمكن كَبْحه»[634]. ولكنه كان أيضًا «مخضرمًا» Maven، مُجَمِّعَ معرفةٍ، كان لديه «أكبر رولوديكس[635] Rolodex في بوسطن الاستعمارية»، بل كان «مشارِكًا بنشاط في جَمْع المعلومات عن البريطانيين» أيضًا[636].

قصة ارتحال بول ريفير على فَرَسه ليلاً جذَّابة، ولكنها غير مكتملة. فهي تُغْفِلُ أن إخلاص ريفير وصِدْقَه بوصفه رسول المتمرِّدين كانا حقيقةً راسخةً فعلاً بحلول أبريل عام 1775. لم يكن السبب في ذيوع صيت بول ريفير أنه أحد أفراد الجماعة المهتمة بالأدب ولا أنه نقَّاش ماهر، كلا ولا أنه صائغ فضة، بل اشتهر في نيو إنجلاند New England لتصويره مذبحة بوسطن[637] Boston Massacre المبالغ فيه[638].

وفي يوم 6 أكتوبر عام 1774، ارتحل بول ريفير من بوسطن إلى فيلادلفيا لينقل إلى المؤتمر القارِّي[639] Continental Congress، قرارات سوفولك[640] Suffolk Resolves التحريضية، التي دعت إلى عدم دَفْع الضرائب ومقاطعة البضائع البريطانية ردًا على «القوانين غير المحتملة»[641] Intolerable Acts وقانون الكيبيك[642] Quebec Act[643].

ثمَّ في يوم 13 ديسمبر [1774]، قطع ريفير كلَّ الطريق إلى بورتسموث Ports ونيوهامبشير New Hampshire، لتحذير لجنة مراسلات البلدة من أن القوات النظامية قد تستولي قريبًا على الأسلحة والذخيرة المُخزَّنة في جزيرة نيوكاسل New Castle Island، قِبَالة بورتسموث هاربور Portsmouth Harbor[644].

وكان ريفير بالفعل في طريقه إلى كونكورد يوم 8 أبريل ليُحَذِّرَ - قبل أكثر من أسبوع - من أن «القوات النظامية قادمة إلى كونكورد في اليوم التالي، وإذا جاءوا... فستقع مذبحة»[645].

وفي 16 أبريل (كما ذكر ريفير نفسُه لاحقًا) ارتحل إلى ليكسينجتن ليُحذِّرَ هانكوك وآدمز من أن ضررًا كبيرًا يجري الإعدادُ له، على قدمٍ وساقٍ، وأن نشر القوات الوشيك «يستهدفهما»[646].

وبالإضافة إلى ويليام دوز، وُجِدَتْ مصادرُ أخرى للاستخبارات بشأن التحرُّكات البريطانية، ناهيك عن أن مواطني مدن سومرفيل Somerville وكمبريدج

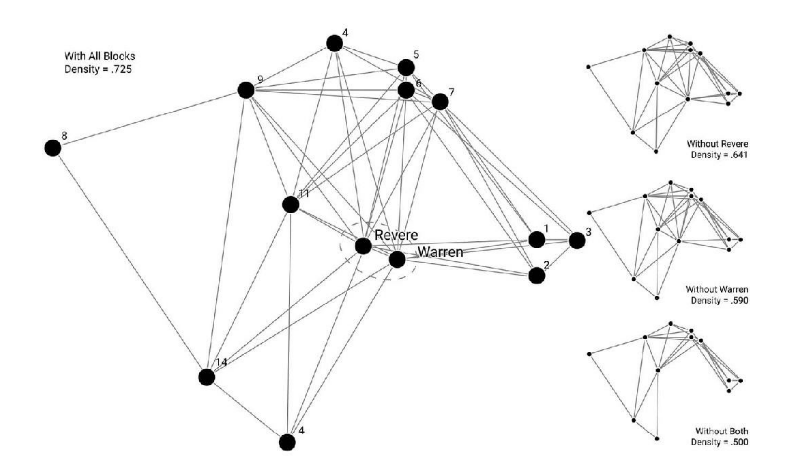
ومينوتومي Menotomy سمعوا بتقدُّم القوات، على الرغم من محاولات الجنرال توماس جيج Thomas Gage [الحاكم العسكري البريطاني لمقاطعة ماساتشوستس في ذلك الوقت] المستميتة للحفاظ على السرِّية[647]. كان ريفير ودوز يعملان معًا، ولا يتنافسان، وكانا أيضًا يرتحلان معًا - إلى جانب رجل ثالث هو الدكتور صمويل بريسكوت Dr Samuel Prescott - من ليكسينجتن إلى كونكورد، طارقين على باب كل بيت ريفي.

قُبِضَ على ريفير في منطقة مجاورة لمقرِّ لينكولن[648]. كان هو الرسول الرابع المطلوب الذي قبضت عليه القوات النظامية [البريطانية]. ولكن ريفير حالفه الحظُّ في النَّجاة بحياته. فعند لحظةٍ [أثناء التحقيق معه] وَثبَ الضابطُ البريطاني بعصبية شديدة و«ألصق مسدسَه برأس ريفير» مُهدِّدًا «بتفتيت جُمْجُمَته» إن لم يُجِبْ عن أسئلته. وبمجرد أن أطلق الرصاصَ حَدَثتْ فوضى كبيرة جعلت الجنودَ المُمْسِكين بريفير يتركونه يذهب، دون فَرَسه[649]. وبعد أن سار على أقدامه، وهو يترقَّبُ، عائدًا إلى ليكسينجتن، هَالَه أن يجد هانكوك وآدمز لا يزالان يحاولان تقريرَ ما يجب عليهم عمله، بعد ثلاث ساعات من إخباره إياهما بأن القوات النظامية على الأبواب[650]. إذا لم يكن ريفير قد نجح في العودة إلى كمبريدج، وإذا لم يكن قد نجا من الحروب الثورية Revolutionary Wars ليروي الحكايةَ (فقد عاش حتى الثالثة والثمانين)، لَكان من المشكوك فيه أنْ تشتهر رحلته وتبقى حتى اليوم.

من الممكن فحص شبكة بول ريفير على نحو أدق أيضًا[651]. ففي الحقيقة، ريفير أحدُ وَسيطيْن رئيسييْن - أو رابطيْن ضعيفيْن - بين مجموعات لم يكن من وسيلة أخرى للاتصال بينها، إلى درجة أنها لم تكن لتلتئم معًا في حركة ثورية دونهما. كانت مستعمرة ماساتشوستس تنمو من الناحية الطبقية بأكثر مما كانت عليه في فترة ما قبل الثورة. وكانت بوسطن مجتمعًا تتزايد هَرَميّتُه، على نحوٍ أَوْجَدَ فجواتٍ كبيرةً بين نُخْبة «بَرَهمية»[[652]] Brahmin نبيلة، وطبقة وسطى من الصُّنَّاع المَهَرة والمزارعين، وعُمَّالٍ فقراء وخَدَمٍ بالسُّخْرة. العلاقة الوثيقة بين ريفير الصانع الماهر، ودكتور جوزيف وارِن Dr Joseph Warren الطبيب، اكتسبت حيويتَها لهذا السبب. وفي بوسطن، وُجِدَتْ خَمْسُ جمعيّات متعاطفة، تقريبًا، مع قضية ال«ويج»[[653]] :Whig

محفل سانت أندرو St Andrew's Lodge، وهو المحفل

الماسوني الذي اجتمع في جرين دراجون تافِرن [نُزُل التنين الأخضر][654] Green Dragon Tavern؛ ثمَّ لويال ناين [المخلصون التسعة][655] Loyal Nine، الذين كانوا نواةَ تنظيم أبناء الحرية[656] Sons of Liberty؛ ثمَّ نورث إند كُوْكَس [تكتل الطرف الشمالي][657] North End Caucus الذي اجتمع في ساليوِشن تافِرن Salutation Tavern؛ ثمَّ لونج رووم كلوب [نادي الغرفة المستطيلة] Long Room Club في داسيت أَلي Dassett Alley؛ ثم لجنة مراسلات بوسطن[658] Boston Committee of Correspondence. ما مجموعه 137 رجلاً كانوا في تنظيم أو أكثر من تلك التنظيمات، ولكن أغلبيتهم العظمى (86%) لم تظهر سوى في قائمة واحدة، على حين لم يظهر أحدهم في القوائم الخَمْس كلها. جوزيف وارِن[659] Joseph Warren، فقط، كان في أربع مجموعات من الخَمْس؛ وبول ريفير في ثلاث منها، مثل صمويل
آدامز Samuel Adams وبنيامين تشورش Benjamin Church.
ولكن، من حيث «التَّمرْكزيَّة البَيْنية»، كان وارِن وريفير الرجلين الرئيسييْن (انظر الشكل
16).




الشكل: 16 - الشبكة الثورية في بوسطن، حوالي عام 1775. لاحِظْ التَمَرْكزيَّة البَيْنية لكل من بول ريفير وجوزيف وارِن. فإزالةُ أيٍّ منهما أو كليهما سيُقَلِّلُ كثافةَ الشبكة. وقد جُمّعَ الأفرادُ معًا في عُقدٍ مفردة طبقًا لعضوية التنظيم المشتركة. ريفير ووارِن فقط ينتميان إلى أكثر من تنظيم.

ومن ثم، يكشف تحليل الشبكة عن أن بول ريفير كان نصفَ ثنائيٍّ عَبَرَ التقسيمَ الطبقي في ماساتشوستس الثورية بين الصُّنَّاع المَهَرة والمهنيين. ولكن هذا التحليل، رغم أنه ثاقب، لا يستطيع إيضاح أيِّ التنظيمات التي انتمى إليها ريفير ووارِن هي الأهم. التخمين المعقول أن الماسونية Freemasonry هي الشبكة الرئيسية في الثورة الأمريكية.

في كتاب «الماسونية في الثورة الأمريكية» Freemasonry in the American Revolution، المنشور في عام 1924، يقول سيدني مورس Sydney Morse (وهو نفسه ماسوني) إن الماسونيين «اجتمعوا في مؤتمر سرِّي للقادة الوطنيين» بغرض «الكفاح من أجل الحرية».

وطبقًا لمورس، الماسونيون هم الذين أغرقوا جاسبي[660] Gaspee عام 1772، وهم الذين نظَّموا حفلة شاي بوسطن[661] Boston Tea Party، وهم الذين هيمنوا على [الجمعيَّات والتنظيمات] والمؤسسات [الوليدة] التي قادت الثورةَ، بما فيها المؤتمر القارِّي[662]. بول ريفير أحدُ الأسماء التي استشهد بها مورس كثيرًا[663].

ورغم تكرار ذِكْرِه في ثلاثينيات القرن العشرين في أعمال المؤرِّخ الفرنسي بيرنارد فاي Bernard Faÿ، فقد تجاهل هذا الزعمَ لفترة طويلة مؤرِّخو الثورة الأمريكية الروَّاد[664]. وعندما بحث رونالد هيتون Ronald E. Heaton في

خلفيات «الآباء المؤسِّسين» البالغ عددهم 241، وَجَدَ أن 68 فقط ماسونيون[665].
و8 فقط من 56 مُوقِّعًا على إعلان الاستقلال[ Declaration of Independence [666]
ينتمون إلى محافل ماسونية [ Masonic lodges[667] وعلى مدى سنوات، سَادَتْ وجهةُ النظر القائلة بأنه «من المشكوك فيه ما إذا كان الماسونيون الأحرار Freem، بوصفهم ماسونيين، قد لعبوا دورًا مهمًا في الثورة الأمريكية»[668]. لكن هذا الاستنتاج نفسه يبدو مشكوكًا فيه. وبغضِّ النظر عن أي شيء آخر، يَفترِضُ [ذلك الاستنتاج] أن كلَّ الآباء المؤسِّسين متساوون في الأهمية، على حين يكشف تحليلُ الشبكة أن بول ريفير وجوزيف وارِن كانا الثوريْين الأهمّ في بوسطن، وهي المدينة الأهمّ في الثورة. كما يُقلِّل [ذلك الاستنتاج] أيضًا من أهمية الماسونية بوصفها أيديولوجية ثورية. تشير الأدلة إلى أن الماسونية، في أقل تقدير، على الدرجة نفسها من أهمية النظريات السياسية العَلْمانية، أو أهمية المذاهب الدينية، في تحريك الرجال الذين صنعوا الثورة[669].

لقد زوَّدت الماسونيةُ عصرَ العقل Age of Reason [عصر التنوير Age of Enlighten] بأسطورة قوية، وبنية تنظيمية دولية وطقوس دقيقة استهدفت رَبْطَ المُبادِرين معًا بوصفهم أخوةً مجازًا. الماسونيةُ أصولُها إسكتلنديةٌ كالكثير من الأشياء الأخرى التي حوَّلت عالَم القرن الثامن عشر. نظَّمَ البنَّاؤون stonemasons الأوربيون أنفسَهم في محافل في العصور الوسطى، ومَيَّزوا (كغيرهم من أهل الحِرَف في العصور الوسطى) بين المبتدئين apprentices، والمَهَرَة journeymen، والخُبَرَاء masters، ولكن هذه التصنيفات التنظيمية لم تأخذ طابعًا مُمَنْهَجًا، إلى حد كبير، قبل أواخر القرن الرابع عشر. في عام 1598، وُضِعَتْ للمحافل الإسكتلندية Scottish lodges مجموعةُ قواعد جديدة، عُرِفَتْ باسم قوانين شو Schaw Statues، على اسم ويليام شو William Schaw سيِّدَ أعمال البناء الرئيسي Principal Master of Work لدى التاج. ومع ذلك، فحتى منتصف القرن السابع عشر، لم تتطوَّر الماسونية إلى شيء أكثر من شبكة فضفاضة تضمُّ نقاباتِ حرفيين مَهَرة، لها محافل في كِلْوِيننج Kilwinning وإدنبرة تتسع لبنَّائين أحرار Masons «فضوليين» أو «مقبولين» (أيْ غير مُمَارِسين لمهنة البناء). ثم جاء جيمس أندِرسون James Anderson الأبرديني [نسبةً إلى مدينة أبردين في إسكتلندا]، بكتابه «دساتير البنَّائين الأحرار» The Constitutions of the Free - Masons (1723))، فقدَّم تأريخًا جديدًا للبنَّائين الأحرار
يعود بهم إلى جلال ما قبل التاريخ. في مَرْوِيَّة أندِرسون[670]، وَهَبَ مهندسُ الكون ا لأ ع ظ م Supreme Architect of the Universe آدمَ مهارات البنَّائين الأحرار - الهندسة و«الفنون الآلية» - التي نقلها إلى ذرِّيته،

وهُم نقلوها بدورهم إلى أنبياء العهد القديم Old Testament.

كان شعبُ الله المختار «بنَّائين خيِّرين قبل تملُّكهم أرض الميعاد»، وكان موسى «أستاذَهم العظيمَ» Grand Master. وكان إنجاز البنَّائين الأحرار الأوائل الأعظم هو هيكل سليمان Solomon العظيم في القدس، الذي بناه حيرام أبي[671] Hiram Abif، «أعظم إنجازات الماسون على سطح الأرض»[672].

ومثل العديد من الشبكات الناجحة، انطوت الماسونية على مبادئ هَرَميَّة. إذ انتمى كل البنَّائين الأحرار إلى محافل محلية local lodges، ارتبط معظمُها معًا في ظل مَحْفل أو آخر من المحافل الكبيرة grand lodges التي تشكَّلت في القرن الثامن عشر في لندن، وإدنبرة، ويورك York، ودبلن Dublin، ولاحقًا على مستوى القارة والمستعمرات الأمريكية. كلُّ مَحْفل له أستاذ master وقيِّمون wardens ومسؤولون آخرون. كان الماسونيون المُحتمَلون يُرشَّحون للعضوية ويُوافَقُ عليهم بالإجماع، ولكن قبل تلقينهم، بوصفهم «مبتدئين» apprentices، الطقوسَ والأسرارَ الماسونية، يجب أن يَقْبلوا الالتزام ب«المسؤوليات» الواردة في «دساتير» أندِرسون.

طقوسُ التلقين نفسها معقدةٌ، وتتضمن إشاراتٍ وقَسَمًا وملابس احتفالية خاصة، وهي أعقد عند الترقِّي إلى درجات أعلى كمَرْتَبة بَنَّاء من أهل الصَّنْعة fellow ومرتبة بَنَّاء أستاذ master. وما يُمَيِّزُ «المسؤوليات» أنها لم تكن محلَّ استشكال. فكل بَنَّاء حُرٍّ [ماسوني] يجب أن يكون «رجلاً خيِّرًا، صادقًا، حُرًّا، بالغًا، كتومًا عاقلاً، وليس عبدًا، ولا امرأة، ولا رجلاً عديم الأخلاق سَيِّئ السُّمْعة بل حَسَن السلوك». ولا يمكن للماسوني أن يكون «مُلْحِدًا غبيًا ولا متحرِّرًا غير متديِّن». الماسونيون كلهم متساوون كالأخوة داخل المَحْفل، ومع أن الماسونية لا تعتدُّ «بشرفٍ حَصَلَ عليه رجلٌ من قبل»، فكل أصحاب المكانة الاجتماعية الأعلى حصلوا، غالبًا، على المواقع المرموقة[673].

وكانت تلك صفقةً جيدةً، لأن جزءًا من جاذبية المحافل أنها سمحت للنُّبَلاء والبرجوازيين بالاختلاط معًا. ومن ناحية أخرى، لم يُحْظَرْ على البَنَّائين الأحرار المشارَكة في التمرد السياسي. صحيحٌ أن «دساتير» أندِرسون تنصُّ على أن «البَنَّاء الحُرَّ مُسالِمٌ خَاضِعٌ للسلطة المدنية، أينما يُقِيمُ أو يَعْمَلُ، وألا يتورط في خطط خفيّة أو مؤامرات ضد سلام الأمة ورفاهيتها». لكن المشاركة في تمرُّدٍ لم تكن سببًا صريحًا للطرد من المَحْفل[674].

وعلى الرغم من أن أندِرسون نفسه كاهنٌ مَشْيَخيٌّ، فالذي يمكن استخلاصه من معاييره الدينية الفضفاضة أن الماسونيةَ متوافقةٌ مع الربوبية[675] Deism.

بل اعترفت بعضُ المحافل الماسونية الاستيطانية [في المستعمرات] باليهود[676].

ولكن الماسونيين لم يكونوا مُستعدِّين للمُضيّ بشكوكهم الدينية إلى أبعد من ذلك في اتجاه التنوير Enlightenment. ومن هنا، وَقَعَ انقسامٌ في عام 1751 بين «قدماء» Ancients و«مُحْدَثين» Moderns [داخل الماسونية نفسها]. فَضَّلَ القدماءُ طبعةَ عام 1738 من «دساتير» أندِرسون، التي ألزمت الماسونيين بالانصياع للتعاليم المسيحية بغضِّ النظر عن المكان الذي يعيشون فيه. أما المُحْدَثون ففَضَّلوا، على نحو مُشوَّش، طبعةَ عام 1723 من «الدساتير»، الأولى، التي تحضُّ الماسونيين على اتِّباع ديانة موطنهم. هذا الانشقاقُ بَلَغَ ماساتشوستس [في الولايات المتحدة] في عام 1761، بعد حوالي ثمانية وعشرين عامًا من انعقاد أول مَحْفل ماسوني كبير، مَحْفل القديس جون St John، في بوسطن [في الولايات المتحدة].

وبينما أُقِيم هذا المحفل برعاية لندن [إنجلترا]، استمدَّ مَحْفل «القدماء» الكبير، الجديد، وهو محفل القديس أندرو St Andrew، سُلْطتَه المرجعية من إدنبرة [إسكتلندا].

ورغم الحِدَّة التي اتَّسَمَ بها الانقسامُ في البداية، فلم يستمر؛ إذ اندمج المَحْفلان في عام 1792. ولكنهما عَكَسَا في وقت الثورة انقسامًا اجتماعيًا وسياسيًا حقيقيًا، حيث أصبح مَحْفل القديس أندرو - الذي أسَّسه مَن استبعدهم مَحْفلُ القديس جون لأنهم أدنى اجتماعيًا - مَرْتعًا خصبًا للتحريض والفتنة، وبخاصة بعد أن صار جوزيف وارِن Joseph warren أستاذَه (ثم لاحقًا الأستاذ الأعظم لمحفل كبير جديد يضمُّ قدماء بوسطن)[677].

وأصبح نُزُل التنين الأخضر [جرين دراجون تافِرن]، الذي اشتراه مَحْفل القديس أندروِ في عام 1764، مقرًا للحركة الثورية في بوسطن[678]. فثمة إشارة في دفتر مَحْضَر جلسات المَحْفِل لشَهْرَيْ نوفمبر وديسمبر عام 1773 إلى وجوب تأجيل الاجتماعات بسبب قِلَّة عدد الحاضرين نتيجة مشاركة العديد من الأعضاء في حفلة شاي بوسطن[679]. وعندما أُعِيدَ دَفْنُ وارِن - الذي قُتِلَ في معركةٍ عام 1775 - رَثاه صديقُه وزميلُه الماسوني بيريز مورتون Perez Morton واصفًا إياه بأنه «وطني لا مثيل له» ذو أخلاق عالية في حياته العامة، وبأنه «نموذج للإنسانية» في حياته الخاصة. لقد سقط وارِن صريعَ «قضية الفضيلة والإنسانية»، وإنْ كان ينبغي إحياء ذكراه بوصفه ماسونيًا. ويُؤكِّد مورتون أن «النموذج المشرق الذي أعطاه [وارِن بوصفه أستاذًا عظيمًا grand master] هو «العَيْش بحسب البوصلة Con والاستجابة للسَّاحة Square». ويقول مورتون، رغم انتماء وارِن إلى العديد من الجمعيَّات [التنظيمات]، «فلم يُقَدِّره أيٌّ منها حقَّ قدره» كما قَدَّرته الماسونية. والحقيقة أن مورتون يُشَبِّه صراحةً موتَ وارِن «بأيدي الأشرار» بموت حيرام أبيف،

باني هيكل سليمان (الذي قُتِلَ - طبقًا للتقاليد الماسونية - عندما رفض إفشاء سِرِّ أساتذة البَنَّائين الأحرار[680] [681] (Master Masons).

ريفير أيضًا لم يكن مُصَنَّفًا بوصفه بَنَّاءً حُرًّا؛ ولكنه صار في عام 1788 نائبَ الأستاذ العظيم لمَحْفل ماساتشوستس الكبير[682].

لقد انجذب مُنظِّرو المؤامرة وكتَّابُ الخيال، منذ فترة طويلة، إلى فكرة أن الماسونيةَ شبكةٌ خفيَّة دفعت إلى الثورة الأمريكية. وربما يساعد ذلك على تفسير شكوك المؤرِّخين المحترمين. ينبغي ألا نبالغ في تجانس الماسونية الاستعمارية. ثمة هناك موالون في محافل بوسطن أيضًا، مثل بنيامين هالويل Benjamin Hallowell، المفوَّض الجمركي، وشقيقه روبرت Robert، وكلاهما ينتميان إلى مَحْفل القديس جون، بالإضافة إلى ستة أعضاء على الأقل من مَحْفل القديس أندرو. ولا يمكن تجاهل تَرَكُّزُ القادةِ الثوريين في محفل القديس أندرو. فأعضاؤه يشملون وارِن وريفير، بالإضافة إلى إشَعْياء توماس Isaiah Thomas ناشر جريدة «جاسوس ماساتشوستس» Massachusetts Spy وتقويم نيو إنجلاند New England Alamanac، ووليام بالفري William Palfrey سكرتير [تنظيم] «أبناء الحرية»، وتوماس كرافتس Thomas Crafts من تنظيم «المُخْلِصين التسعة»[683].

تشكَّلَ مَحْفلُ القدماء الكبير من تسعة عشر مَحْفلاً جديدًا أثناء الحرب الثورية؛ مَحْفل القديس أندرو، وحده، قَبِلَ ثلاثين عضوًا جديدًا في عام 1777، وخمسة وعشرين في عام 1778، وواحدًا وأربعين عضوًا على مدى العامين التاليين. في عَشَاء يونيو عام 1782 استقبل المَحْفلُ أعضاء من مجلس حكومة بوسطن المحلية، والقنصل الفرنسي في قاعة فانويل[684] [685] Faneuil Hall.

ثمّ بعد ثلاثين عامًا، في يوم 4 يوليو عام 1795، وَضَعَ بول ريفير، وهو يرتدي ملابسَه الماسونية كاملةً، حجرَ أساسِ مبنى مجلس ولاية ماساتشوستس Massachusetts State House. حثَّ ريفير مستمعيه على «العَيْش حسب بوصلة المواطنين الخَيِّرين» من أجل إظهار «عالَمِ الإنسانية... الذي نرغب في الترقِّي إلى مستواه معهم، والذي حين نشارك فيه نُقْبَلُ في الهيكل Temple حيث يسود الصمت والسلام». قبل أيام فقط، قال كاهنٌ لريفير وصُبَّاطه إن الماسونيين هم «أبناء العقل وتلاميذ الحكمة، وأخوة في الإنسانية»[686]. وهذا يُوضِّح الانسجامَ في ذلك الوقت بين الماسونية وبعض رجال الدين في الجمهورية الباكرة. ولعل نموذج الكاهن الماسوني الجيد، هو الإكليركي الموقَّر ويليام بِنْتلي William Bentley، أسقف الأبرشية الذي عاش في سِلَمْ Salem [إحدى مدن ماساتشوستس التاريخية]. في عام 1800، زار بِنْتلي بوسطن لحضور إحياء ذكرى

وفاة جورج واشنطن[687] George Washington، وتَناوَلَ العشاءَ مع رفيقيْه الماسونييْن ريفير وإِشَعْيَاء توماس[688].

بعد ثلاثين عامًا فقط، سيختلف الجوُّ العام تمامًا. فمِن عواقب «صحوة الدين الكبرى» Great Awakening of religion في نيو إنجلاند New England اندلاعُ مناهَضة عنيفة للماسونية، الأمر الذي أدَّى إلى انخفاض حادٍّ في مبادرات جديدة من قِبَل مَحْفل سانت أندرو وأشباهه[689]. هاهنا، نجد تفسيرًا آخر للتقليلِ لاحقًا من الدور الماسوني في الثورة الأمريكية: فالماسونية لم تكن سمةً من سمات تأسيس الجمهورية التي رغب أمريكيو القرن التاسع عشر في تذكُّرها. ومع ذلك، فالدليل الظرفي [غير المباشر] مُلْزِم. فبالإضافة إلى كَوْن بنيامين فرانكلين أستاذًا عظيمًا لمَحْفله في فيلادلفيا؛ كان أيضًا ناشر الطبعة الأمريكية الأولى من «دساتير» أندِرسون (في عام 1734).

وفضلاً عن انضمام جورج واشنطن إلى المَحْفل رقم 4 في فريدريكسبُرْج Frec بِولاية فيرجينيا Virginia وهو في سنِّ العشرين من عمره، صار في عام 1783 أستاذًا أيضًا لمَحْفل أليكساندريا Alexandria Lodge No. 22، الذي تَشكَّل حديثًا [بالولايات المتحدة].

في التنصيب الرئاسي الأول لواشنطن، يوم 30 أبريل عام 1789، أقسم يمينَ المنصب على الكتاب المقدس بنسخة مَحْفل سانت جون الماسوني رقم 1 في نيويورك St John’s Masonic Lodge No. 1 of New York.

أدار عمليةَ القَسَمَ روبرت ليفينجستن[690] Robert Livingston مستشار نيويورك (أعلى منصب قضائي في الولاية) وماسوني آخر هو أول أستاذ عظيم لمَحْفل نيويورك الكبير. وفي عام 1794، جلس واشنطن أمام الفنان جوزيف ويليامز Joseph Williams، الذي رَسَمَ الرئيسَ مرتديًا الشعارات المَلَكيَّة الماسونية الكاملة وهو يُسَوِّي حجرَ أساس كابيتول الولايات المتحدة [مقرّ الكونجرس] قبل عام[691]. وقد حَظِي مئزرُ جورج واشنطن بالشُّهْرة في فولكلور الثورة الأمريكية كما حظيت بها رِحلةُ بول ريفير من قبل. ومن المشكوك فيه أن أيًّا من الرجلين كان سيتمتع بالتأثير الذي تمتَّع به إن لم يكن بسبب عضويته في الإخوان الماسون Masonic brotherhood. ألقى المؤرِّخون اللاحقون ظلالاً من الشك على الأصول الماسونية لأيقونية خَتْم الولايات المتحدة العظيم[692] the Great Seal of the United States، الذي بات معروفًا عالَميًا منذ دَمْجه في مشروع قانون الدولار عام

1935 . الأكثر
من هذا أن عَيْنَ العناية الإلهية الرائية كلَّ شـيء، التي تُتوِّجُ الهرمَ غير المكتمل على الوجه الآخر من الخَتْم تُشْبِه شَبَهًا قويًا العَيْنَ التي تُحدِّق فينا من مئزر واشـنطن في تمثال القرن التاسع عشر، لأول رئيس بملابسـه الماسـونية (انظر اللوحة الاتية).




لقد تَشابَكَتْ الثورات العلمية والفلسفية والسياسية في القرن الثامن عشر؛ لأن الشبكات التي نقلتها كانت متشابكةً. صُنَّاع الثورة الأمريكية كانوا رجالاً مُتعدِّدي المواهب. ورغم وجود الآباء المؤسِّسين على المحيط الخارجي للشبكات الأوربية التي أنتجت ثوراتِ العصر العلمية والفلسفية - ورغم محاكاتهم الحياة الجَمْعيَّاتية في بريطانيا العظمى بمحافلها الماسونية عن قَصْدٍ - أثبت الآباءُ المؤسِّسون أنهم الرجال الأكثر ابتكارًا في عصرهم على المستوى السياسي. فمن نواحٍ عديدة، استهدف الدستورُ، الذي انبثق عن مداولاتهم في ثمانينيات القرن الثامن عشر، تأسيسَ نظام سياسي مضاد للهَرَميَّة. لقد ابتكر المؤسِّسون، وهم على وعي كامل بالمصائر التي حلَّتْ بالتجارب الجمهورية في العالَم القديم وفي بواكير أوربا الحديثة، نظامًا يفصل السلطات عن بعضها ويضمن تداولَها، ويُقَيِّدُ السلطةَ التنفيذية لدى رئيسهم المنتخَب إلى حدٍّ كبير. في بداية «الأوراق الفيدرالية»[694] The Federalist Papers، يُحدِّد ألكسندر

هـ ا م ـلـ ـتـ و ن Hamilton Alexander،
بوضوح، الخطرَ الرئيسي الذي ستُواجِهُه الولايات المتحدة الوليدة:

في كثير من الأحيان، يَسْتتِرُ طموحٌ خطير وراء قِناع الحماسة الخادع لنُصْرة حقوق الشعب أكثر مما يستتر تحت مظهر مَنْع الحماسة لاستقرار الحُكْم وكفاءته.

وسيُعلِّمنا التاريخُ أن النوع الأول شَقَّ طريقًا واضحًا يُمَهّدُ للاستبداد أكثر بكثير مما فعل النوع الثاني، وأنه طريق الرجال الذين أطاحوا بحُرِيَّات الجمهوريات، وأن العدد الأكبر بدأ مسيرته بدَفْعِ محكمة باسم الشعب؛ فبدأوا ديماجوجيين demagogues وانتهوا طُغاةً مستبدِّين tyrants[695].

وهي الفكرة الرئيسية التي عاد إليها في عام 1795. يقول هاملتون: «تُخْبِرنا مُراجَعةُ تاريخ الأمم بأن كل بلد، في كل العصور، أشقاه وجودُ رجال يدفعهم طموحٌ شاذّ يُوَسْوِسُ لهم بأنهم سيُسْهِمون بتفوُّقهم الخاص وأهميتهم الخاصة... في الجمهوريات رجالٌ ديماجوجيون متملِّقون أو هائجون، يعبدون الصَّنَم - السُّلْطة - أينما وُجِدَ... يتاجرون بضَعْفِ الشعب أو نقائصه أو تعصُّباته»[696].

النظام الأمريكي الذي اشتغل بهذه الطريقة أدهش الزوَّارَ الأوربيين، ولا سيما القادمين من فرنسا التي أنشأت جمهوريةً في عام 1792، دامَتْ على وجه التحديد اثني عشر عامًا. رأى المُنظِّر السياسي والاجتماعي الفرنسي أليكسيس دي توكفيل Alexis de Tocqueville حيويةَ الحياة الجَمْعيَّة الأمريكية بموازاة نظام فيدرالي ذي طابع لامركزي، بوصفهما مفتاحيْ نجاح الديمقراطية الجديدة. وكان ما يَلْفِتُ النظر حقًا أن نظامًا كهذا نَشَأَ في المستعمرات التي يسكنها لاجئون متديِّنون من بلدٍ تخلَّى عن تجربته الجمهورية في عام 1660. وكما يذكر توكفيل: «بينما صَنَّفَ تسلسلُ المكانة الهَرَميُّ سكانَ البلد الأمّ طبقيًا على نحو ديكتاتوري»، قدَّمَ المستعمرون الأمريكيون «مشهدًا جديدًا لمجتمع متجانس في جميع أجزائه».

هذا الطابع المساواتي المُميِّز لمجتمع استيطاني مَكَّنَ من وجود شبكةِ جمعيّاتٍ مدنيّة كثيفة على نحو فريد، وهذه الشبكةُ - كما يقول توكفيل - مفتاحُ نجاح التجربة الأمريكية. البلدُ الذي وَصَفَه توكفيل في الجزء الثاني من كتابه «الديمقراطية في أمريكا» Democracy in America، في الفصلين الخامس والسادس، هو أول نظام سياسي شَبَكيٍّ. ويؤكِّدُ توكفيل قائلاً إنه «لا يوجد بلدٌ في العالَم لديه مبدأ الجَمْعيّة principle of association، ونجح في استعماله وتطبيقه في كل الموضوعات تقريبًا، أكثر من أمريكا»:

فإلى جانب الجَمْعيّات الدائمة التي يُحدِّدها القانونُ تحت أسماء البلديّات والمدن والمقاطعات، يتشكَّلُ عددٌ كبير من الكيانات الأخرى تنفق عليه وتصونه وكالاتٌ

من الأفراد [المستقلين عن الحكومة]. يُعَلّمُ المواطنُ في الولايات المتحدة، منذ مرحلة الطفولة، الاعتمادَ على مجهوداته الخاصة كي يقاوم شرورَ الحياة ومصاعبها؛ فهو ينظر إلى السُّلْطة الاجتماعية بعدم ثقة وقلق، ويدعو إلى مساعدتها حين يكون غير قادر على الاستغناء عنها... في الولايات المتحدة، تُؤسَّسُ الجَمْعيّاتُ لتعزيز السلامة العامة والتجارة والصناعة والأخلاق والدين. وما من غايةٍ تَقْنَطُ الإرادةُ البشرية من تحقيقها عَبْرَ تجميع سلطة الأفراد المُتَّحدين في المجتمع[697].

لقد رأى توكفيل الجَمْعيّات السياسية في أمريكا ميزانًا لا غنى عنه لمجابهة خطر الاستبداد [الطغيان] الذي كان أصيلاً في الديمقراطية الحديثة، حتى ولو كان استبداد الأغلبية. ومع ذلك، تكمن قوةُ النظام الأمريكي العُظْمَى في جَمْعيّاته غير السياسية:

الأمريكيون من كل الأعمار وكل الظروف وكل العقول مُتَّحِدون باستمرار. وبالإضافة إلى وجود جَمْعيّاتهم التجارية والصناعية التي يشارك فيها الكلُّ، يوجد لديهم أيضًا آلاف الجَمْعيّات الأخرى: دينية وأخلاقية، منها المنشغلة بقضايا كبيرة، ومنها المنشغلة بتوافه الأمور، منها العامة جدًا والخاصة جدًا، ومنها الكبيرة والصغيرة جدًا؛ يستعمل الأمريكيون الجَمْعيّات في إقامة الحفلات والمهرجانات وإحياء الذكرى، وفي إقامة المعاهد التعليمية وفي بناء النُّزُل وجَمْع تبرعات للكنائس، وتوزيع الكتب، وإرسال البعثات التبشيرية إلى خارج البلاد؛ وبهذه الطريقة يُنْشِئون المستشفيات والسجون والمدارس. وأخيرًا، متى وُجِدَتْ قضيةٌ تحتاج إلى إلقاء الضوء على حقيقتها أو تنمية مشاعر دَعْمٍ لنموذج عظيم يُحْتَذى فإنهم يجتمعون[698].

لقد فَتَنَ توكفيل ما رآه [في الولايات المتحدة] من أبنية سياسية واجتماعية مغايرة لما في مسقط رأسه فرنسا. فلماذا انتهت الثورة هناك - في أحد محاور التنوير الحاسمة - إلى نتائج مختلفة مُخيِّبة للآمال؟

١٧

# القسم الرابع

# استعادة التسلسل الهَرَميِّ

في رواية ستندال[699] Stendhal «الأحمر والأسود» (Le Rouge et le Noir (1830، يُخطِّطُ جوليان سوريل Julien Sorel لنفسه أن يكون رجل دين، حتى يُحقِّقَ أقصى آماله وأفضلها في الترقِّي في فرنسا بعد استعادة مَلَكيّة بوربون[700] Bourbon.
لقد آثرَ سوريل - ابن النَّجار - نظامَ الجدارة المُتَّصِف ب«حياة مهنية منفتحة على الموهبة»، الذي مَيَّزَ فترةَ حُكْم نابليون بونابرت[701] Napoleon Bonaparte.
ثم انتهى إلى نهاية سيئة، ضحيةَ تسلسل هَرَمي اجتماعي صارم في عصر الاستعادة
era Restoration [استعادة مَلَكيّة بوربون] أكثر من كَوْنه ضحيةَ مغازلته[702]. لقد أظهر ستندال أنه أكثر تسامحًا مع طبيعة سوريل المتهوِّرة من تسامحه مع خُيَلاء آل بوربون. وثمة عبارات دالة في الرواية، تبدو كالمقتبسة (لكن ستندال هو صاحب العديد منها في الحقيقة): «لا يوجد سوى نُبْل حقيقي واحد؛ لقب دوق. الماركيز لقب سخيف، [لكن] عند كلمة دوق يلتفت المرء برأسه فورًا». كذلك عبارة: «الخدمة! الموهبة! الجدارة والاستحقاق!». وأيضًا عبارة:

«الانتماء إلى حاشية». ثم وهو «يركب بزيِّه الكامل على حصانه قال لنفسه، «لماذا لا أكون وزيرًا، أو رئيس مجلس استشاري، أو دوقًا؟... كَمْ وَدَدَتُ أن أقيِّد المُجَدِّدين بالسلاسل»»[703].

لقد ثبَتَ أن محاولة سُلالة آل بوربون المَلَكيّة من أجل استعادة التسلسلات الهَرَميَّة في النظام القديم ancien régime لا يمكن أن تدوم. ففي عام 1830، أطاحت ثورةٌ فرنسيةٌ أخرى بتشارلز العاشر Charles x. ثم بعد ثمانية عشر عامًا، أسقطت ثورةٌ ثالثةٌ خليفتَه حفيد فرع أورليان [من آل بوربون]، لويس فيليب Louis Philippe. وأخيرًا، في عام 1870، أطاح الغزو الألماني وثورةٌ أخرى بالإمبراطور نابليون الثالث[704] Napoleon III،
الأمر الذي مهَّدَ الطريقَ إلى ثالث دساتير الجمهورية الخمسة في فرنسا وأطولها (حتى ذلك الوقت). ويرجع قدرٌ كبير من سحر هذا العصرِ في التاريخ الأوربي إلى هَشَاشة كل محاولة جديدة لإعادة تأسيس النظام المَلَكي. ولكن القرن التاسع عشر كان هو الوقت الذي وُجِدَتْ فيه طاقاتٌ ثورية أطْلَقَتْ لها العنانَ - ببطء وإنْ بثبات - المطابعُ التي احتوتها أبنيةُ السُّلْطة الجديدة. فإْن لم يكن بعودة آل بوربون، فكيف حَدَثَ هذا؟

لقد حوَّلَت الثوراتُ القائمة على الشبكة - الإصلاح والثورة العلمية والتنوير - الحضارةَ الغربية تحويلاً عميقًا. وَعَدَت الثوراتُ السياسية - في الولايات المتحدة وفرنسا، بل في جميع أنحاء الأمريكيتين وأوربا أيضًا - بعصر ديمقراطي جديد قائم على مفهوم الأخوة العالمية الذي دَعَتْ إليه الماسونية أولاً، وابتهج باستحضاره شيللر[705] Schiller في قصيدته «نشيد الفرح» Ode to Joy.

هذا الوعد لم يتحقق. ولفَهْم السبب في تغيُّر الأفضلية من الشبكات إلى التسلسلات الهَرَميَّة، علينا تجنُّبُ تخيُّلِ وجودِ انقسام زائف بينهما. فقد انطوى التصنيف الطبقي الخانق في فرنسا، عشرينيات القرن التاسع عشر، على هندسته الشبكية المتميزة. وكما رأينا، معظمُ الشبكات هَرَميَّةٌ من بعض النواحي، بسبب أن بعضَ العُقَد أكثرُ مركزيةً من غيرها، أما التسلسلات الهَرَميَّة فهي ليست سوى أنواع شبكية خاصة يقتصر فيها تدفُّقُ المعلومات أو الموارد على حوافٍّ معينة من أجل تعظيم تَمَرْكزيّة العُقْدَة الحاكمة. ذلك على وجه التحديد ما أحبط جوليان سوريل في فرنسا البوربونية:

قِلَّةُ طُرُقِ صعود السُّلَم الاجتماعي، الأمر الذي اضطره إلى الاعتماد، بدرجة كبيرة، على بعض الرُّعَاة. أضِفْ إلى هذا أن الفكرة المركزية المهيمنة في رواية ستندال هي ما تُسَمِّيه نظريةُ الشبكة الثلاثي المستحيل impossible triad. لكي يفوز سوريل بقلب ابنة راعيه الماركيز الأرستوقراطي، ماتيلدا دي مول Mathilde de Mole، تظاهر بتفضيل الأرملة مدام ديفيرفاك Madame de Fervaques. ومع أن سوريل يخطب ودَّ كلتا المرأتين فهما عاجزتان عن التواطؤ ضده. ثم حين وَشَتْ به عشيقةٌ سابقة هي مدام دي رينال Madame de Rênal، لوالد ماتيلدا، حاول سوريل قتلها. ثم وهو في السجن، زارته ماتيلدا ومدام دي رينال كلتاهما على حدة. في عام 1961، صاغ الناقد الأدبي رينيه جيرار René Girard، تعبيرَ «الرغبة المُقلِّدة» mimetic desire: لم ترغب ماتيلدا في سوريل إلا حين أدركت أنه مرغوب من امرأة أخرى.

الشبكات أبسط في أنظمتها الهَرَميَّة، أحيانًا لأن الذين في الأعلى يُطبِّقون عن عَمْدٍ مبدأ فَرِّقْ واحْكُم، وأحيانًا لأن النظام الهَرَمي لا يكون مهمًا فيه حقًا سوى عدد صغير من المحاور. لقد سعى رجال الدولة إلى إعادة تركيب النظام السياسي في أوربا بعد ارتفاع مدِّ الحروب الثورية والنابليونية الفرنسية، فاجتمعوا في مؤتمر فيينا[706] Congress of Vienna وابتكروا شبكةً أخرى بسيطة: «اتحادًا خماسيًا» pentarchy من خَمْس قوى عظمى لديها - بحكم طبيعتها - عدد محدود من الطرق التي تُحَقِّقُ بها التوازنَ. وقد اعتمد نجاح الاتحاد على هذه البساطة نوعًا ما. توازن

القوى هذا، كما سنرى، اعْتَبَرَ معظمَ الدول الأوربية غير مهمة؛ فاعتمدت حالة التوازن على العلاقات بين النمسا وبريطانيا وفرنسا وبروسيا وروسيا، هؤلاء الخَمْس فقط (انظر اللوحة الاتية).



LE GÂTEAU DES ROIS,
Tiré au Congrès de Vienne en 1815.

ولكن إعادة تأكيد النظام الهَرَمي في القرن التاسع عشر لم تُحْبِط الشبكاتِ الفكريةَ والتجارية والسياسية التي نشأتْ في القرون الثلاثة السابقة. لقد تعايشا معًا.

بل نَمَت الحياةُ الدينية في العالَم البروتستانتي بطريقة أكثر حيويةً وتجزّؤًا، بفضل تعاقب «الصَّحوات» و«الإحياءات». يمكن تشبيه الثورة الصناعية - وهي الأكثر تحويلاً من كل الثورات على مستويات عديدة - بثورات أخرى في القرن الثامن عشر، كما أنها أيضًا نتاج شبكة المبتكرين، بعضُهم مُدَرَّب عِلْميًا والبعض الآخر عَلَّمَ نفسَه بنفسه أثناء استغراقه في مسألة ما. وحتى حين فقدت الماسونيةُ أهميتَها بعد عام 1800، شاركَتْها في أهداف التوسُّع وتأسيس فكرة الأخوّة (بالمعنى الأوسع من معنى الأشقاء الضيق) كثرةٌ من الحركات الجديدة، كالاتحادات التجارية، والمنظمات القومية أيضًا، ولا سيما أخويّات الطلبة الألمانية. تَمثَّلَ الفرقُ في نُموِّ الهَرَميَّات المَلَكيَّة الأرستوقراطية والكَنَسيّة باطراد أفضل باستمالة كل هذه الشبكات، فسخَّرتَ طاقاتها الإبداعية، وطَوَّعتها لإراداتها.

لم يدرك أحدٌ بالسرعة نفسها ما أدركه إدموند بيرك Edmund Burke من أن الثورة الفرنسية ستكون أكثر دمويةً من الثورة الأمريكية. وبحلول عهد الإرهاب[707] Terror، كان الفرق بين الثورتين غير منكور. فمحاولة استبدال لويس السادس عشر[708] Louis XVI وإحلال «إرادة الشعب» محلّه، أطلقت العنانَ لعُنْفٍ مُهْلِك لم يماثله أيُّ شيء شُوهِدَ في فرنسا منذ يوم مذبحة بارثولوميو[709] Bartholomew's Day Massacre عام 1572 (اللوحة الاتية).



بدأ العنف الثوري يوم 21 أبريل عام 1789، مع أعمال شغب في ضاحية فوبور سانت انطوان Faubourg Saint - Antoine، حيث تظاهر حوالي 300 شخص لدَعْم الجمعية الوطنية National Assembly التي نَصَّبَتْ نفسَها بنفسها، فقتلتهم القواتُ المَلَكيّة. ثم بعد ثلاثة أشهر، في اشتباك أكثر شهرةً، فَقَدَ حوالي 100 شخص أرواحهم عندما أطلق جنودُ حراسة الباستيل [باستيه][710] Bastille النيرانَ عليهم. ولكن الموائد انقلبت هذه المرة، حين انضمَّ بعض الحُرَّاس المُدافِعين إلى الحشد الثوري.

ويُعَدُّ قطع رأس قائد الحامية دو فليسيل de Flesselles علامةَ تصعيد مهم، كما شَنَقَ العامةُ أيضًا الضابطَ فولون دو دويه Foulon de Doué وزوجَ ابنته بيرتيه دي سوفينيه Bertier de Sauvigny وقطَّعوا أوصالهما في مكان الإضراب يوم 2 يوليو (عُلِّقَ رأسُ الأول وقَلْبُ الثاني على خازوقين يحملهما موكبٌ جَالَ بهما في الشوارع).

ولم يكد الحشد الباريسي يحمل السلاح إلا واجتاحت موجةٌ من الاضطرابات الريفَ الفرنسي أيضًا. فخوفًا من مؤامرة يدبرها النُّبَلاء لاستعادة سلطتهم بمعاونة «قُطَّاع طرق» غامضين، لجأ الفلاحون في جميع أنحاء فرنسا إلى العنف ذلك الصيف الذي أصبح يُعْرَفُ باسم «لا جروند بُير» la grande peur (الخوف الكبير). في البداية، أُحْرِقَت السِّجلات الإقطاعية ونُهِبَتْ أقبيةُ النبيذ. لقد كانت هذه الاضطراباتُ، من حيث نطاقها ومدتها، أكثرَ من مجرد ثورة أو انتفاضة فلاحين. [أَضِفْ إلى هذا أن] سُرْعة العَدْوَى التي انتشر بها «الخوف الكبير» اللافتة للنظر - والتي يصعب تفسيرها بالنظر إلى فقر الاتصالات نسبيًا بين أجزاء فرنسا في ذلك الوقت - ما هي إلا إيضاح آخر لفكرة انتشار الشائعات فيروسيًا دون تكنولوجيا معلومات متطورة[711]. وبالمقارنة مع ما كان سيحدث، يُعَدُّ «الخوف

الكبير» حدثًا معتدلاً.

فعلى الرغم من أن أصحاب الأراضي هُدِّدوا وأُهينوا، لم يُقْتَلْ منهم سوى ثلاثة: نبيلٌ يعمل نائبًا ل الجمعية العامة Estates General [في ظل النظام القديم]، وموظفٌ اشْتُبِهَ في كَوْنه محتكر الغذاء (في بالون Ballon، شمال لومون Le Mans)، وضابطٌ في القوات البحرية (في لو بوزان Le Pouzin، شمال أفينيون Avignon). ولكن وباء حَرْق القصور المَلَكيّة والإقطاعية كان لافتًا للنظر. ففي أقل من أسبوعين بين يومي 27 يوليو و9 أغسطس هُدِّمَتْ تسعةُ قصور وسُوِّتْ بالأرض، وتَضرَّرَ ثمانون قصرًا فقط في مقاطعة دوفينيه Dauphiné جنوب شرق فرنسا[712].

ولا يحتاج الأمر هنا سوى تعداد المذابح الكبرى التي سبقت إرهاب عاميْ 1793 - 1: مسيرة النساء والهجوم على القصر المَلَكي في فيرساي Versailles في أكتوبر عام 1789؛ إطلاق الحرس الوطني National Guard نيرانه على الحشد عند شامب دو مارس[713] Champ de Mars في يوليو عام 1791؛ مجازر سبتمبر September Massacres عام 1792 (عندما اقتحم اللامُتَسَرْوِلون [سان كيلوت][714] Sans - Culottes سجونَ باريس وقتلوا المئات من النُّزَلاء)؛ الحرب ضد مكافحي الثوَّار في فونديه[715] Vendée (1793 - 1796).

ولا ننسى تمرُّد العبيد الدامي في سان دومانج[716] Saint - Domingue (هاييتي Haiti).

الفكرة هي أنه على عكس المستعمرات الأمريكية البريطانية - كما هو الحال في معظم الثورات منذ ذلك الحين - أدَّى التمرد، لا محالة، إلى فوضى anarchy ومن ثمَّ إلى استبداد، وهو ما كانت تتوقعه النظرية السياسية الكلاسيكية. إذ بينما طَوَّرَ المستعمِرون الأمريكيون شبكاتِ جمعيَّاتهم المدنيّة، التي خرجت من رحمها الثورةُ الأمريكية والولاياتُ المتحدة، بُنِي الحشدُ الفرنسي بطريقة مختلفة تمامًا. لجنةُ السلامة العامة[717] Committee of Public Safety في حد ذاتها ما هي إلا محاولةٌ لتنظيم سفك الدماء غير المنظَّم الذي يقوم به الغَوْغَاء الأراذل [كِناي] Canaille: العامَّة[718] mob.

نطع أيٌّ من اليعاقبة Jacobins أو خلفاؤهم في المجلس الخماسي [719] Directory تحقيقَ الاستقرار، سواء في العاصمة أو البلاد ككل. وتشهد عمليات القتل الجماعي المُروِّعة، كالإغراق المتعمَّد لآلاف من الناس في نُانت Nantes، على انهيار النظام الاجتماعي والسياسي شِبْه الكامل، وهو ما يمكن مقارنته من حيث الأسلوب بأفظع الأعمال الوحشية في الثورات العربية Arab revolutions في عصرنا الراهن [ديسمبر 2010 - 2012]. فباسم يوتوبيا كاذبة false utopia أطلق الساديون sadists العنانَ لسُعار القتل.

الرجل الذي أعاد النظامَ إلى فرنسا (وإن فعل عكس ذلك بالنسبة إلى بقية أوربا) امتلك طاقةً غير طبيعية. كان صعودُ نابليون بونابرت من الغموض[720] الكورسيكي[721] Corsican
إلى قيادة سلاح مدفعية الجيش الثوري في إيطاليا - وهي الترقية التي تلقاها في ذروة عهد الإرهاب - أمرًا ممكنًا بطبيعة الحال، بسبب انهيار النظام الأرستقراطي الذي كان سيغلق عليه الطريق قبل عام 1789.

وشأنه شأن جوليان سوريل، بطل رواية ستندال، كان بونابرت مُتسلِّقًا وزيرَ نساء؛ ولكنه على خلاف سوريل اجتمع له قليلٌ من الحظِّ وتوقيتٌ مناسب في آنٍ معًا. وما فعله الرجل بمرور الوقت - ومع كل دقيقة استيقاظ - خَرَقَ المألوفَ حقًا. ففي وقت الفوضى، كان مَن صعد قائدٌ صغير: رجل يتولَّى كلَّ مهمة بنفسه. قال العميد [نابليون قائد اللواء]، الذي تَرقَّى مؤخرًا، في إحدى رسائله ال 800 التي كتبها في غضون تسعة أشهر فقط خلال عام 1796: «إني حزين للغاية من الطريقة التي تُحْمَلُ بها سِتّ عشرة قطعة [من المدفع]». وفي إحداها تذمَّر من قائد كتيبة chef de bataillon: «أنا مندهش من أنك غير مبالٍ بتنفيذ الأوامر». «من الضروري دائمًا أن أقول لك نفس الشيء ثلاث مرات». لقد تراوحتْ رؤيةُ نابليون من إستراتيجية كبيرة - إذ رَسَمَ خطته لغزو إيطاليا في ذلك الوقت - إلى تفاصيل دقيقة (سجن العريف الذي يتغيَّب دون أجازة في الأُنْتيب Antibes أو في موقع قارعي الطبول في ساحة العرض)[722].

من الممكن وصف نابليون بما نُسمِّيه الآن المتفاني في العمل [مُدْمِن عمل wor. كان يعمل سِتّ عشرة ساعة كل يوم. في أبريل عام 1807 - شَهْر الهدوء غير العادي في فترة حُكْمه - أرسل 443 رسالة. كان يُمْلِي جميعَ مراسلاته عدا رسائل الحب. قال ذات مرة: «الأفكار تتواتر أسرع، وتتبخر إن لم تُقيِّدْها الحروفُ والسطورُ!». في إحدى المناسبات، ودون الرجوع إلى دفتر ملاحظاته، أمْلَى على وزير داخليته ما لا يقل عن 517 مادة تُحدِّدُ لوائحَ الأكاديمية العسكرية الجديدة في فونتينبلو[723] Fontainebleau.

ومن عادات نابليون العامة قضاءُ عشر دقائق فقط على مائدة العشاء، إلا حين يتناول الطعام مع عائلته في ليالي الأحد؛ وفي هذه الحالة ربما يبقى لمدة نصف ساعة. ثم حين يغادر المائدةَ يقفز «كالذي مسَّه تيارٌ كهربي»[724]. وكما يذكر أحدُ موظَّفيه في طاقم سكرتاريته ممن أثقل العملُ كواهلَهم طول الوقت: «لم يكن ينام سوى غَفَوات قصيرة، الأمر الذي يُرْهِقنا ليلاً ونهارًا»[725]. كان يتنقل مسافرًا بالحيوية نفسها دون هوادة. في يوليو عام 1807، استقلَّ مَرْكَبتَه من تيليست Tilist في بروسيا Prussia إلى سان كلو Saint - Cloud [ضاحية غرب باريس]، في رحلة استغرقت مئة ساعة دون أن ينفد صبره، ورَفَضَ الاستراحة. وصل في الساعات الأولى من الصباح، وعلى الفور استدعى مجلسَ وزرائه[726]. بعد عامين، ارتحل من بلد الوليد Valladolid في إسبانيا إلى باريس، «فكان يَسُوطُ حصانَ مُعَاوِنه الشخصي وينغز بالمهماز حصانه في آنٍ معًا».

استغرقت الرحلة منه ستة أيام فقط ليقطع أكثر من 600 ميل[727]. بل وهو يسير على قدميه كان دائمًا في عجلة من أمره، تاركًا الآخرين يلهثون في أعقابه. وحتى عندما يستحمُّ أو يحلق لا يُضيّع أيَّ وقت: فثمة شخص بالقرب منه دائمًا يقرأ له آخر الصُّحَف الصادرة، ومنها الترجمات عن الصحافة البريطانية المُعادِية دائمًا[728].

طاقته التي لا تعرف الكَلَلَ وانتباهُه إلى التفاصيل - على حد سواء - هما اللذان وَضَعَا حدًّا لفوضى الثورة الفرنسية. فجُمِعَت القوانينُ ونُسِّقَتْ، وأُصْلِحَ النظامُ النقدي، واسْتُعِيدَت الثقةُ العامة. وإلى جانب تلك الإنجازات المستمرة، وُجِدَتْ ملايين التفاصيل الصغيرة: عددُ مَن سيأخذهم الضباطُ لغزو إنجلترا؛ الزِّيُّ الذي قد يرتديه المتمرِّدون الأيرلنديون إذا انضموا إلى القضية الفرنسية؛ الحد الأدنى من مياه الشُّرْب الذي يحتاجه العريف بيرنودا Corporal Bernaudat في الخط الثالث ثر؛ هُويَّة عامل المسرح الذي كسر ذراع المُغنِّية مادموازيل أوبري Mademoiselle Aubry في أوبرا باريس Paris Opéra[729].

لقد شرع نابليون، بإيمانه المَزْهوِّ بنفسه في قيادة فرنسا، بل قيادة كل أوربا كما لو أنها جيش ضخم يقوده، بإرادة قوية هائلة. في الكثير من النواحي، نابليون هو آخر الحُكَّام المطلقين المستنيرين enlightened absolutists: فريدريك فرنسي ا ل ك ب ي ر Great the Frederich French. ولكنه أيضًا أوَّلُ الديكتاتوريين الحديثين modern dictators. فمن الناحية التقنية [التكنولوجية]، لم يكن هناك فرق حقيقي بين قيادة فريدريك لجيشه وقيادة نابليون لجيشه، سوى أن جيش نابليون تحرَّكَ على نطاق أوسع[[730]] وبسرعة أكبر. مُنظِّرا العصر العسكريان الكبيران، كارل فون كلاوزِفيتز Carl von Clausewitz وأنطوان

أنْري دو جوميني Antoine - Henri de Jomini، استخلصا دروسًا مختلفة من نجاح نابليون. ففيما يرى كلاوزِفيتز، تكمن عبقرية نابليون في مقدرته على تركيز قواته بسرعة في مركز ثقل (Schwerpunkt) الخَصْم، وإلحاق الهزيمة به في معركة حاسمة، هي المعركة الرئيسية Hauptschlacht. وفيما يرى جوميني، يكمن المفتاح الرئيسي في قدرة نابليون على استغلال مزايا الخطوط الداخلية المتفوِّقة في العملية (خطوط العمليات lignes d'opérations).

لقد اعتقد جوميني أن نابليون يُطبِّق مبادئ عالمية في الحرب[731]. على حين رأى كلاوزِفيتر أن أسلوبَ نابليون في الحرب مخصوصٌ تاريخيًا بسبب الطريقة التي استغل بها النزعة القومية الشعبية popular nationalism التي أَطْلَقت لها العنانَ الثورةُ الفرنسية[732]. في رواية «الحرب والسلام» War and Peace، المنشورة بعد ثمانية وأربعين عامًا من وفاة نابليون في المنفى على أرض جزيرة سانت هيلينا St Helena البائسة جنوب الأطلنطي، سَخَرَ ليو تولستوي Leo Tolstoy من مطالب نابليون الإمبراطورية. كيف أمكن لرجل واحد أن يرسل مئات الآلاف من الرجال من فرنسا إلى روسيا، وأن يقذف بحيوات ملايين آخرين في الفوضى والاضطراب؟ لقد فعل نابليون ذلك بالضبط. كانت المشكلة أن نابليون - لو استثنينا زخارف الحُكْم الشرعي التي تَسَتَّرَ بها حين استولى على شعارات الممالك المصرية والرومانية والهابْسبورجية ورموزها - لم يُحقِّق الشيءَ الوحيد الذي تعتمد عليه أنظمة الحُكْم الهَرَميَّة (وتتمسك به)، ألا وهو: الشرعية.

يُعْتَقَدُ بوجه عام أن عصرنا لديه مَيْلٌ نحو الإلغاء وإلحاحٌ عليه. وتتمحور دلالة هذا الإلغاء حول إنهاء ترابط المؤسسات ووحدتها التي استمرت منذ العصور الوسطى... ومن هذا المنبع نفسه تَتولَّدُ رغبةٌ لا تُقاوَم في تطوير أفكار ومؤسسات ديمقراطية كبيرة، تتسبَّبُ بالضرورة في التغييرات الكبيرة التي نشهدها.

يُعَدُّ مقالُ ليوبولد فون رانكه[733] Leopold von Ranke المنشور عام 1833 عن «القوى العظمى» في أوربا عملاً مؤثِّرًا بقوةٍ في تأريخ القرن التاسع عشر. فإذ بينما ظل العديد من معاصريه مقتنعين بأن الطاقاتِ الثوريةَ التي اجتاحت أوربا من الإصلاح الألماني إلى الثورة الفرنسية عَصيّةٌ على التأطير، رأى رانكه أن نظامًا دوليًا جديدًا يتشكل، سيكبح هذا المَيْلَ الذي يبدو شاملاً نحو الإلغاء. يستند هذا النظام إلى ما أسماه اتحادًا خماسيًا بين خَمْس قوى عظمى هي: النمسا، بريطانيا، فرنسا، بروسيا، روسيا.

وقد بدأ هذا النظام في الظهور أثناء القرن الثامن عشر، ولكنه اصطدم بمحاولة نابليون السيطرة على أوربا. ثم مع هزيمته أمكن استكمال هذا الاتحاد الخماسي:

قدَّم قرنُنا نتائج أكثر إيجابيةً، بعيدًا عن مجرد إرضاء نفسه بالتصفية والإلغاء. فقد اكتمل فيه التحرُّر العظيم، لا بمعنى التصفية بل بمعنى البناء المُوحِّد. فلم يَكْتَفِ بأن أنشأ القوى العظمى في المقام الأول، بل تجدَّدتْ فيه مبادئُ جميع الدول، والدين والقانون؛ كما نَشَّطَ مبدأ الدولة المستقلة... بهذا الصنيع وحده تكمن سمةُ عصرنا المميزة له... [مع الدول والقوميات] يعتمد اتحادُ الكلِّ على استقلال كل دولة أو قومية... وأيةُ هيمنة نَشِطة حاسمة لدولة على أخرى ستؤدِّي إلى انهيار الدول الأخرى. ودَمْجُ الدول معًا سيؤدِّي إلى تدمير جوهر كل دولة. أما من خلال التطوير المنفصل والمستقل فسينبثق الانسجام[734].

توازن القوى الجديد والمستقر هذا، الذي ابتكره رجالُ الدولة باجتماعهم في مؤتمر فيينا، كان حقيقةً معترفًا بها عالميًا تقريبًا منذ زمن رانكه. يقول هنري كيسنجر Henry Kissinger في كتابه الأول، «عالَمٌ مُسْتعاد» A World Restored إن مرحلة السلام النسبي التي تمتعت بها أوربا بين عاميْ 1815 و1914 كانت بفضل إجراء كبير هو «الشرعية المقبولة عمومًا» لنظام القوى العظمى الخَمْس[735].

وطبقًا للإيضاح الذي يقدِّمه كيسنجر، تَحَقَّقَ هذا الإنجازُ بفضل ديبلوماسييْن موهوبيْن: الأمير مترنيتش Prince Metternich وزير الخارجية النمساوي، واللورد كاسِلْريه Lord Castlereagh نظيره البريطاني. هدف مترنيتش - وهو إعادة بناء نظام شرعي تكون فيه الليبراليةُ Liberalism نفسُها غيرَ شرعية - اختلف جوهريًا عن هدف كاسِلْريه، الذي استهدف في الأساس وَضْعَ مخطط لتوازن القوى تلعب فيه بريطانيا دور «رُمَّانة الميزان» balancer[736].

السببُ الحاسم لنجاحهما وفشل نابليون هو عَجْزُ نابليون عن إدراك حدوده وتثبيت موقفه عقب زواجه من ابنة إمبراطور النمسا[737]. وتمثَّلَ التحدِّي الكبير الذي واجه مترنيتش وكاسِلْريه في ظهور القيصر ألكسندر الأول[[738]] Tsar Alexander I
بوصفه ثوريًا محتملاً، يتطلع إلى أن يكون «حاكم أوربا» عقب هزيمة نابليون في روسيا. كانت النتيجة النهائية نوعًا من النجاح التراجيدي. ففي نهاية المطاف، لا يمكن لبريطانيا أن تلتزم بتأييد نظام مُناهِض لأوربا الثورية من النوع الذي تطلع مترنيتش إلى إيجاده، والذي شَجَّعَ القيصرَ على الاعتقاد بأنه من بنات أفكاره. الأزمات السياسية في إسبانيا ونابولي، ولاحقًا في بيدمونت
Piedmont
[أحد
أقاليم إيطاليا]، رآها مترنيتش مخاطر تُهدِّدُ النظامَ الجديد؛ أما البريطانيون فرأوها مجردَ مصاعب محلية صغيرة، ربما يكون التدخل فيها مساويًا لعدم توازن ذلك النظام نفسه تمامًا[739].

في مؤتمر آخر انعقد في تروباو Troppau [حاليًا أوبافا في النمسا]، استطاع مترنيتش أن يشرح «معركته ضد القومية والليبرالية» - المحكوم عليها بالفشل - بوصفها مشروعًا أوربيًا بدلاً من أن يكون نمساويًا[740]. وقد رأى كاسِلْريه بوضوح شديد أن روسيا على استعداد للتدخُّل - بالقدر نفسه - إلى جانب القومية إذا وُجِّهَتْ ضد الإمبراطورية العثمانية، كما هو حاصل في البلقان Balkans. في يوم 12 أغسطس عام 1822، كاسِلْريه، المتضجِّرُ من النقد اللاذع المُوجَّه له من الويجيين والراديكاليين Radicals، واليائسُ من ثقله الذي لا يطاق على كاهليه، انتحر بقطع شريانه بسكين جيب صغير. كلُّ ما تبقَّى بعد مؤتمر فيينا «شرعيةُ المبدأ» - المناهِض للثورة ولفرنسا معًا - بوصفه قاعدة «التحالف المقدس» بين النمسا، وبروسيا، وروسيا[741].

ولكن فكرة توازن القوى لم تمت بانتحار كاسِلْريه. وعلى الرغم من وجود «التزام

قاريٍّ» من جانب بريطانيا على فترات متقطِّعة في القرن التالي، فقد كان كافيًا - حتى عام 1914 - لمَنْع أية قوة عظمى في القارة من تحدِّي شرعية الاتحاد الخماسي الأساسية، كما فعلت فرنسا في ظل حُكْم نابليون. لقد اعتمد الاستقرار الأوربي في جوهره على التوازن بين أربع قوى عظمى قارِّية، حفظته بريطانيا بتدخُّلات ديبلوماسية أو عسكرية من حين إلى آخر. وبعبارات كيسنجر، بريطانيا هي رُمَّانة الميزان. والنتيجةُ نظامٌ أوربيٌّ دام حتى نهاية القرن. سقوط أوتو فون بيسمارك[742] Otto von Bismarck وعدم تجديد معاهدة إعادة التأمين السرِّي[743] Secret Reinsurance Treaty بين ألمانيا وروسيا - «الخيط الأهم المُنْسَلّ من قماشة نظام التحالفات التداخلية لدى بيسمارك»[744] - هما اللذان جعلا النظامَ جامدًا إلى درجة الهشاشة، بل قابلية الاحتراق[745].

وبطبيعة الحال، قامت البحوث اللاحقة بتعديل هذه الصورة بطرق عديدة. جادل البعض بوجود «تحوُّل» جوهري في السياسة الدولية، إذ افترضت القواعدُ القديمة أن الصراع والتنافس أخليا السبيل أمام قواعد جديدة تطمح إلى التناغم وحالة التوازن[746]. وأصرَّ آخرون على أن العلاقات القديمة الموسومة بالحقد قد استمرَّت؛ و«المصلحة الذاتية الضيقة» فقط هي التي عملت على تفادي نشوب حرب واسعة النطاق[747]. ولكن تبقى النقطة الحاسمة، ألا وهي أن هَرَمِيَّةً جديدة أُنشِئتْ في فيينا رتَّبَت «القوى العظمى» - أولاً الأربعة المنتصرون في واترلو Wa، ثم (بعد عام 1818) المنتصرون ومعهم فرنسا المهزومة - بغضِّ النظر عن الدول الأقل قوةً[748]. ومن ثمَّ، ألزمت المادةُ السادسة من التحالف الرُّباعي[749] Quadruple Alliance (نوفمبر عام 1815) الموقِّعين بعقد اجتماعات دورية «بغرض التشاور في مصالحهم، أو النظر في التدابير والإجراءات... التي يُرَاعَى فيها أكبرُ إفادة لأغراض الدول وازدهارها، والحفاظ على السلام في أوربا»[750].

ربما تَشكَّتْ إسبانيا وتذمَّرتْ بافاريا، ولكنهما لم تمتلكا ما يفعلانه. وقد حذَّرَ كاسِلْريه من أن تصبح القوى العظمى «مجلسًا أوربيًا لإدارة شؤون العالم». وقد يقلق فريدريك جنتس Friedrich Gentz، سكرتير مترنيتش، من أن هذه «الديكتاتورية» الجديدة ربما تصبح «مصدرًا للتعسُّف والظلم وإزعاج الدويلات الأقل

مكانة»؛ وهو التخوُّف الذي شاركه فيه أيضًا اللورد الشاب جون رَسِل[751] Lord John Russell.

ولكن قادة القوى العظمى اعتادوا تدريجيًا على ممارسة انسجام جماعي[752]. وكما يقول جنتس، بالنظر إلى عام 1815، وَحَّدَ نظامُ المؤتمرِ [الكونجرس]:

كلَّ الدول في اتحاد تحت إشراف القوى العظمى... وتخضع الدول من الفئة الثانية والثالثة والرابعة في صَمْتٍ، ودون أي شرط سابق، للقرارات التي تتخذها بشكل مشترك القوى الغالبة؛ لقد بدا أن أوربا تُشكِّلُ في النهاية عائلةً سياسيةً كبيرةً، مُتَّحِدةً برعاية مَجْمَع حكماء من إنشائها[753].

وحتى إذا لم يوجد إجماعٌ على بعض القضايا - فكاسِلْريه لا يُؤيِّد إستراتيجية مترنيتش المُناهِضة للثورة - فثمة توافق ضمني على مقاومة أي محاولة مستقبلية للهيمنة من جانب طرف واحد والحيلولة دون نشوب حرب شاملة[754]. وبطبيعة الحال، يَتبيَّنُ عند الفحص الأدق أن النظامَ أعقدُ وأكثر تطوُّرًا مما كان يعنيه رانكه بالاتحاد الخماسي. فالإمبراطورية العثمانية أكبر من مجرد موضوع سلبي في سياسة قوة عظمى؛ وهذا على وجه الدقة ما جعل «المسألةَ الشرقية» Eastern Question عسيرةً (وبخاصة مستقبلها)[755].

كما نشأت دولٌ جديدة في القرن التاسع عشر، فبالإضافة إلى الرايخ الألماني German Reich (أحد الخمسة الكبارِ الذي تضخَّمَ) ومملكة إيطاليا، هناك بلجيكا وبلغاريا واليونان ورومانيا وصربيا أيضًا، الأمر الذي غَيَّرَ طبيعةَ الشبكة بأساليب مهمة. لا يمكن لأحد إنكار وجود شيء جديد تأسَّسَ، ولا إنكار أنه بدأ يعمل. فخلال قَرْنٍ انْصَرَمَ منذ مستوطنات أوتريخت Utrecht [في هولندا] (1713 - 1715) حتى انعقاد مؤتمر فيينا [1814 - 1815]، نَشَبَتْ ثلاثة وثلاثون حربًا أوربية شملت بعض القوى الإحدى عشرة المعترف بها في تلك الفترة أو شملتها كلها (بما فيها إسبانيا والسويد والدنمارك وهولندا وساكسونيا Saxony).

أما على مدى الفترة منذ عام 1815 حتى عام 1914، فنَشَبتْ سبعُ عشرة حربًا من النوع نفسه، ذلك إذا عددنا إسبانيا والسويد قوى عظمى. لقد انخفض احتمال مشاركة أي قوة عظمى في حرب إلى الثلْث تقريبًا[756]. بل نشبت حروبٌ عالمية في القرن الثامن عشر كما نشبت في القرن العشرين، فحرب السنوات السبع[757] Seven Years' War هي صراع عالمي حقيقي، ولم تنشب حربٌ عالمية في القرن التاسع عشر.

وبعبارة أخرى، أصبح النظامُ العالميُّ نظامًا هَرَميًّا بشكل واضح، بخمسة محاور

تلعب دورًا مهيمنًا. وتترابط هذه العُقَدُ الخَمْسُ معًا بتنويعةِ مُرَكّباتٍ مختلفة، بل من الممكن أن تتقاتل فيما بينها، ولكنها لم تدخل كلها في حرب في الفترة بين عاميْ 1815 و1914. وعلى الرغم من عدم استقرار النظام بحيث يتجنَّبُ الحربَ تمامًا، فإن الصراعات في الفترة بين واترلو[758] Waterloo والمارن [759] Marne كانت أقل تدميرًا بكثير من الصراعات التي سبقت هذه الفترة والتي تلتها. وحتى أكبر حرب أوربية في القرن التاسع عشر - وهي حرب القرم[760] Crimean War (1853 - 1856))، التي تبارت فيها بريطانيا وفرنسا ضد روسيا - كانت أصغر نطاقًا من الحروب النابليونية. أَضِفْ إلى هذا أن القوى العظمى تداولت إحداها مع الأخرى أكثر مما تصادمت. فبين عاميْ 1814 و1907، انعقدت سبعةُ مؤتمرات وتسعةُ عشر اجتماعًا بين القوى العظمى[761].

صارت الديبلوماسيةُ، التي تخلَّلتها حروبٌ صغيرة، حالةَ الأمور الطبيعية، في تباين ملحوظ مع العقدين السابقين على عام 1815، حين كان العكسُ تمامًا هو القاعدة. وكما سنرى، لن يكتمل تفسيرٌ لأصول الحرب العالمية الأولى إذا فَشِلَ في إيضاح أسباب توقُّف هذه الحالة في عام 1914.

بعد نابليون، تطلَّبَ إعادةُ النظام لأوربا أكثرَ من مجرد هَرَميَّة ديبلوماسية جديدة تضع خَمْسَ دول فوق بقية الدول. إذ تحظى بالأهمية نفسها الطريقةُ التي أُعيد بها إضفاءُ الشرعية على مؤسَّسة المَلَكيَّة نفسها. في هذه العملية [السيرورة]، غالبًا ما تُجوهِلَ الدورُ الذي لعبته شبكاتٌ من نوع قديم، وعلى الأخص أنساب العائلات المَلَكيّة الأوربية المتشابكة. إذ لعبت إحدى العائلات دورًا حاسمًا في التوفيق بين مبدأ الوراثة والأفكار الجديدة الخاصة بالحُكْم الدستوري التي اعتنقها العديد من ليبراليي القرن التاسع عشر. كوبورج Coburg هي إحدى تلك الدول الألمانية الصغيرة التي تَهَدَّدَها الانقراضُ عندما اجتاح نابليون الإمبراطوريةَ الرومانية المقدسة Holy Roman Empire وأنشأ كونفدراليةَ الراين[762] Rhine of Confederation. ومع ذلك، تَمكَّنَ أبناءُ الأرملة الدوقة أوجَسْتا Duchess Augusta من النجاح في توجيه مسار دقيق بين فرنسا وروسيا، وكُوفِئوا على النحو الواجب عندما أُعِيدت الدوقيةُ إلى ابنها الأكبر، إرنست Ernest، بضغط روسي، في عام 1807. وفيما عدا ابنة واحدة (صوفي Sophie، التي تزوجت الكونت مينسدورف Count Mensdorff)، تزوَّجَ جميعُ أولاد أوجَسْتا ملوكًا أو حققوا مكانةً مَلَكيَّة لأنفسهم أو ضمنوها لأولادهم.

إحدى بناتها تزوَّجتْ شقيق ألكسندر الأول إمبراطور روسيا؛ والأخرى دوق فورتِمبيرج Württemberg [جنوب غرب ألمانيا]؛ والثالثة تزوَّجتْ دوق كِنْت Kent، أحد أشقاء جورج الرابع George IV ملك بريطانيا العظمى. أما أصغر أبناء أوجَسْتا، ليوبولد[763] Leopold، فهو المؤسِّس الحقيقي لآل زاكس - كوبورج. عانى ليوبولد من نكسة شديدة حين ماتت زوجته الأولى الأميرة شارلوت Charlotte Princess، ابنة جورج الرابع، وهي تضع وليدَها في نوفمبر عام 1817، بعد ثمانية عشر شهرًا فقط من زواجهما. لكن أحواله تبدَّلَتْ بعد قبوله لقب «ملك البلجيكيين»

King of the Belgians
عام 1831، عقب استخفافه من قبل بفكرة قبول عرش اليونان. ثم توالى عَرْضُ العروشِ على أفراد عائلته، إلى درجة أن «نوبةَ ضحك» أصابت ليوبولد في عام 184 حين «أكَّدَ لي أمريكي ثري جدًا وصاحب نفوذ، من نيويورك، أنهم يستشعرون حاجة كبيرة إلى حكومةٍ [كذا في الأصل] تستطيع حمايةَ الممتلكات، وأن أنظار الكثيرين تتجه نحو المَلَكيَّة بدلاً من حُكْم الغوغاء السيِّئ الذي رأيناه، وأنه يرغب شخصيًا في أن يشغل فرعٌ من عائلة كوبورج مثل هذا الموقع.

وقد سأل [ليوبولد] ابنةَ أخته، أليس هذا تملُّقًا؟»[764]. كانت ابنةُ أخت ليوبولد الملكةَ فيكتوريا Queen Victoria[[765]].

وكما ذكرتْ جريدةُ التايمز في عام 1863، يُبَيِّنُ تاريخُ عائلة زاكس - كوبورج «أن نجاحًا واحدًا في حياة الأمراء يُؤدِّي إلى آخر»[766]. أحفاد أوجَسْتا أميرة زاكس - كوبورج لم يشملوا المَلِكةَ فيكتوريا وزوجَها ألبرت Albert فقط، بل فردِيناند الذي تزوَّج ملكةَ البرتغال، وابنَ ليوبولد، سَميَّه ووريثه في عرش بلجيكا، أيضًا. كما ارتبط أمراء زاكس - كوبورج بمزيد من الروابط بزواجهم من عائلة أورليانز وآل هابْسبورج[[767]].

وعلاوة على ذلك، لم يكن ابنُ فيكتوريا وألبرت، البِكْرُ، الابنَ الوحيد الذي تزوَّج زواجًا مَلَكيًّا: فكل أبنائهما التسعة، عدا واحد، تزوجوا زواجًا مَلَكيًّا. فإلى جانب فريدريك وليام ملك بروسيا، يشمل أصهارُ الملكة فيكتوريا: الأمير كريستيان Prince Christian من شليسفيج - هولشتاينSchleswig - Holstein، والأمير هنري من باتِنبرج Henry of Battenberg، الذي أصبح شقيقُه ألكسندر Alexander أميرَ بلغاريا Bulgaria. ويشمل زوجاتُ أبنائها: الأميرةَ ألكساندرا Alexandra من الدنمارك، والأميرةَ ماري Marie ابنة القيصر ألكسندر الثاني Alexander II، وأختَ القيصر ألكسندر الثالث Alexander III. وبحلول الوقت الذي وصل فيه نيكولاس الثاني Nicholas II إلى لندن في زيارته الأولى لإنجلترا عام 1893، التأمَ شملُ العائلة فيما يشبه قِمَّةً دوليةً:

لقد وصلنا إلى تشارِنج كروس Charing Cross [في لندن] وهناك التقينا ب: العمّ بيرتي Bertie [مستقبَلاً إدوارد السابع Edward VII]، والعمّة أليكس Alix [ألكساندرا من الدنمارك]، وجورجي Georgie [مستقبَلاً جورج الخامس George V]، ولويزا Louise وفيكتوريا Victoria ومود Maud [شقيقاته، والأخيرة منهن ستتزوج الأمير كارل Prince Carl من الدنمارك، ولاحقًا هاكون السابع Haakon VII ملك النرويج]...

وبعد ساعتين، وصل آبابا Apapa [كريستيان التاسع Christian IX ملك الدنمارك] وآماما Amama والعمُّ فالديمار Valdemar [من الدنمارك]. إنها لفرصةٌ رائعة اجتماعُ العديد من أفراد عائلتنا معًا...

وفي الساعة الرابعة والنصف ذهبتُ لرؤية العمّة ماري Marie [زوجة ألفريد Alfred دوق زاكس - كوبورج] في كلارنس هاوس [مقر إقامة مَلَكي Clarence House، وتناولتُ الشاي في الحديقة معهما، ومع دوكي Ducky [ابنتهما: فيكتوريا ميليتا Victoria Melita][768].

عندما تزوَّجت دوكي [فيكتوريا ميليتا] من إرنست لويس Ernest Louis، وريثِ الدوقية الكبرى هيسّه - دارمشتات Hesse - Darmstadt في السنة التالية (انظر الشكل 17)، كان الضيوفُ إمبراطورًا وإمبراطورة، وإمبراطورًا وإمبراطورة مستقبَلييْن، وملكةً، وملكًا وملكة مستقبَلييْن، وسبعة أمراء، وعشر أميرات، ودوقيْن، ودوقتيْن، وماركيزًا. كلُّهم كانوا أقاربَ.

وبحلول ثمانينيات القرن التاسع عشر، صار للكوبورجيين أعداءهم. ففي أعقاب تنازل ألكسندر الباتنبرجي [نسبةً إلى باتِنبرج] بوصفه أمير بلغاريا[769]، أمكن لهيربرت فون بيسمارك Herbert von Bismarck أن يسخر من «عشيرة» كوبورج. فقال للقيصر: «في العائلة المَلَكيّة الإنجليزية وفروعها الأقرب، يوجد تقديسٌ لأصل العائلة المُرَكَّز، فالملكة فيكتوريا هي الرئيس المطلق لكل فروع عشيرة كوبورج. إنه ارتباط بالأذناب الذين يُظْهِرون علاقةَ الطاعة من على بُعْد. (وهنا يضحك القيصر من سويداء قلبه)»[770].

ولكن العشيرة صمدت وقتًا أطول أمام سلطة البيسماركيين. ففي عام 1894، كان من دواعي سرور الملكة فيكتوريا أن يلقبها القيصرُ المستقبَلي نيكولاس الثاني «الجدَّة»، بعد أن خَطَبَ آخر حفيداتها أليكس أميرة هيسّه Hesse[771]. ومع «ويلي» Willy (حفيدها ويليام الثاني William II إمبراطور ألمانيا)، بدا لبعض الوقت كما لو أن أحلام ليوبولد الأول تحققت: حَكَمَتْ عائلة زاكس – كوبورج[772]، من أثينا إلى برلين، ومن بوخارست إلى كوبنهاجن، ومن دارمشتات إلى لندن، ومن مدريد إلى أوسلو، ومن ستوكهلم إلى صوفيا Sofia [عاصمة بلغاريا]، بل في سان بطرسبرج. ثم عندما وُلِدَ في عام 1894 مَن سيكون مستقبَلاً إدوارد الثامن Edward VIII، أصرَّتْ فيكتوريا على أن يُسمَّى ابنُ حفيدِها عند التعميد ألبرت Albert - كما لو كان ختمًا على المآثر العائلية:

هذا سيكون سِلْسال كوبورج، كما كان في السابق سِلْسَال بلانتاجِنِت[773] Plantagenet، وسِلْسال تيوْدَر Tudor (العائد إلى أوين تيودر[774] Owen

Tudor)، وسِلّسال ستيوارت وبرونزويك العائد إلى جورج الأول[775] George I - هو ابن جيمس الأول وهكذا تكون سلالةُ الكوبورج - للإبقاء على البرونزويك وكلّ ما سبقها وارتبط بها[776].



هنا موضع الشكل رقم: 17 - بيت زاكس - كوبورج - جوتا. الملكة فيكتوريا وأفراد عائلتها في كوبورج يوم 21 أبريل عام 1894، تجمَّعوا لحضور حفل زفاف الأميرة فيكتوريا ميليتا وإرنست لويس دوق هيسّه الكبير، اثنين من أحفادها الأربعين. الجالسةُ إلى يسار الملكة ابنتُها البِكْرية فيكتوريا الأرملة إمبراطورة ألمانيا؛ وعلى يمينها يجلس حفيدُها القيصر ويليام الثاني. والواقف خلف القيصر، بلحية وقبَّعة الرامي، قيصرُ روسيا نيقولاس الثاني الذي خَطَبَ لتوّه حفيدةً أخرى من أحفاد فيكتوريا هي أميرة هيسّه أليكساندرا (أليكس) الواقفةَ إلى جواره. وخلف القيصر إلى اليسار ابنُ الملكة فيكتوريا البِكْري أمير ويلز ولاحقًا الملك إدوارد السابع. وبين الشخصيات الموجودة في الصف الخلفي حفيدةٌ أخرى من أحفاد الملكة فيكتوريا هي الأميرة ماريا التي ستصبح ملكةَ رومانيا في عام 1914. وأما الأحفاد الذين لم تشملهم الصورةُ فهنَّ ملكاتٌ في المستقبل لليونان والنرويج وإسبانيا. التقط الصورةَ إدوارد أولينهوث Edward Uhlenhuth.

# 25
# عائلة روتشيلد

المُجادِلُ الفرنسي الذي شَبَّه آل زاكس - كوبورج بآل روتشيلد Rothschilds، في أربعينيات القرن التاسع عشر[777]، اقترب من الصواب دون أن يعرف. إذ ارتبطت هاتان السلالتان، من جنوب ألمانيا، بعلاقة تكافلية تقريبًا، يعود تاريخها إلى اقتران ليوبولد [ابن دوق] زاكس كوبورج، بالأميرة شارلوت في عام[778] 1816.لقد ارتفع آل زاكس كوبورج، بالمهارة والحظ، إلى القمة أثناء الاضطرابات النابليونية وما بعدها.

أما آل روتشيلد فانحدروا من أصول أكثر تواضعًا، ثم ارتفعوا إلى القمة أيضًا. بين عاميْ 1810 و1836 تقريبًا، تجاوز أبناءُ ماير أمشيل روتشيلد[779] Mayer Amschel Rothschild الخمسةُ حدودَ جيتو فرانكفورت Frankfurt لإحراز موقع قوة جديد منقطع النظير في المال العالمي. ورغم وجود أزمات اقتصادية وسياسية عديدة ومحاولات منافسيهم اللحاق بهم، فقد ظلوا يحتلون هذا الموقع عندما مات أصغرهم في عام 1868؛ وحتى بعد ذلك، لم تتقلص هيمنتهم إلا ببطء. بدا إنجازُهم هذا غيرَ عادي في عيون معاصريهم، إلى درجة أنهم سعوا إلى تفسيره بعبارات غامضة غالبًا. طبقًا لإحدى الروايات التي يرجع تاريخها إلى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، تدين عائلةُ روتشيلد بثروتها لامتلاكهم «تعويذة عِبْريّة». وقد مَكَّنت هذه التعويذةُ ناثان روتشيلدNathan Rothschild[780]، مؤسِّسَ فرع العائلة في لندن، من أن يصبح «حُوتَ الأسواق المالية في أوربا»[781].

بدأت تُرْوَى قصصٌ مماثلة في «مستوطنة اليهود في بالي الروسية»[782]. Russian Pale of Jewish Settlement، قُرْب أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر[783].

لقد صنعت عائلة روتشيلد عهدًا جديدًا. فبحلول أواسط القرن التاسع عشر لم يكن يوجد تركيزٌ للرأسمال المالي أكبر من الذي رَاكَمَتْه عائلةُ روتشيلد. فمع أوائل عام 1828، تجاوز رأسُ مالهم مُجتمِعًا رأسمالَ أقرب منافسيهم آل بارينج Barings، بترتيب الحجم. التفسير الاقتصادي الضيق لنجاحهم سيؤكد على الابتكارات التي قدموها لسوق الدَّيْن الحكومي العالمي، والوسائل التي رَاكَموا بها سريعًا رأسمالَهم على نحو سمح لهم بالتوسُّع في أسواق المال التجاري والسلع والسبائك الذهبية وصناعة التأمين. ومع ذلك، من المهم أيضًا فَهْمُ الهيكل المميز الذي أعطوه لأعمالهم، والذي حَكَمَتْه في الوقت نفسه شراكةٌ عائلية صارمة متعدِّدة الجنسية: «اهتمام مشترك عام» ب«بيوت» تَتْبَعُ أصلاً عائليًا واحدًا في

فرانكفورت ولندن وفيينا وباريس ونابولي. لقد قاوم آلُ روتشيلد، إلى حد ما، قوى الطرد المركزي بالتزاوج فيما بينهم. إذ بعد عام 1824، مَالَ آلُ روتشيلد إلى الزواج من آل روتشيلد. فمن بين إحدى وعشرين زيجة لأحفاد ماير أمشيل بين عاميْ 18 و1877، حَدَثَ ما لا يقل عن خمس عشرة زيجة بين أحفاده المباشرين. ومع أن الزواج بين أبناء العمومة منتشر في القرن التاسع عشر - وبخاصة بين عائلات أصحاب الأعمال الألمانية اليهودية - فقد كانت زيجاتهم غير عادية. ذَكَرَ الشاعر هاينريك هاينه[784] Heinrich Heine أن «آل روتشيلد تناغموا مع بعضهم البعض بطريقة ألفت للنظر». «الغريب أنهم يختارون شركاء الزواج من بينهم، وتُشكِّلُ خيوطُ العلاقات بينهم عُقَدًا مُركَّبة سيصعب على مؤرِّخي المستقبل حلُّها»[785]

وتدل إشارات الثقة بالنفس من قبيل «عائلتنا المَلَكيَّة» على أن آل روتشيلد أنفسهم كانوا واعين بتناظرهم مع آل زاكس كوبورج[786].

ومن المهم بالقدر نفسه، السرعةُ التي بَنَى بها آلُ روتشيلد شبكتَهم؛ فبالإضافة إلى وكلائهم، والمُموِّلين الأقل ارتباطًا بهم في جميع أنحاء أوربا، وُجِدَ «الأصدقاءُ في أعلى المناصب» السياسية. يكتب سالومون Salomon في أكتوبر عام 1815 قائلاً: «لعلك تعرف جيدًا، يا عزيزي ناثان، ما تَعَوَّدَ الوالدُ على قوله عن الالتصاق برجل في الحُكْم»[787]. ومرةً أخرى: «ولعلك تذكر مبدأ الوالد القائل بضرورة الاستعداد لعمل أي شيء يجعلك على علاقة بشخصية حكومية كبيرة»[788]. ولم يتركهم ماير أمشيل في حَيْرةٍ من أمرهم بشأن أفضل طريقة للتودُّد إلى مثل هؤلاء السياسيين: «علَّمنا المرحومُ والدُنا أنه إذا دخل شخص رفيع المنصب في شراكة مالية مع يهودي فسينتمي إلى اليهود»[789]. فكان من بين أهم عُمَلاء روتشيلد في تلك الفترة:

كارل بودِروس Karl Buderus المسؤول المالي الأكبر لناخب هيسّه - كاسيل Elector of Hesse - Cassel؛ كارل تيودور فون دالبِرج المُتنوِّر Carl Theodor von Dalberg السابق أمير كونفدرالية الراين الكبير من عام 1806 حتى عام 1814؛ ليوبولد [ابن دوق] زاكس كوبورج قرينُ الأميرة شارلوت ولاحقًا ملك بلجيكا؛ جون تشارلز هيريز John Charles Herries المفوض البريطاني الكبير في أكتوبر عام 1811 ولاحقًا وزير الخزانة ورئيس مجلس التجارة Board of Trade (لفترة وجيزة)؛ تشارلز ويليام ستيوارت Charles William Stewart ماركيز لَنْدندِري Londor الثالث وشقيق اللورد كاسِلْريه؛ دوق أورليانز Orléans ولاحقًا لويس فيليب Louis Phili ملك فرنسا؛ المستشار النمساوي الأمير مترنيتش؛ الأمير إسترهازي

Esterházy سفير النمسا في لندن.

إحدى الطرق الحاسمة التي تَودَّدَ بها آلُ روتشيلد للنُّخْبة السياسية (وتفوَّقوا بها على منافسيهم في الأعمال والبيزنس) هي امتلاكُهم شبكة معلومات واتصالات استثنائية. في تلك الفترة، كانت الخدمات البريدية بطيئة وغير آمنة: الخطابات المُرْسَلة من باريس إلى فرانكفورت تستغرق ثمانية وأربعين ساعة في عام 1؛ أما البريد من لندن فيستغرق أسبوعًا ليصل إلى فرانكفورت؛ وتستغرق الخدمة من باريس إلى برلين ثمانية أيام في عام 1817[790]. سرعان ما استغنى الأخوة المُتراسِلون عن البريد، واعتمدوا على سُعاتهم الخصوصيين، بمَن فيهم وكلاؤهم في دوفر Dover [بلدة ساحلية جنوب شرق إنجلترا] الذين سُمِحَ لهم باستئجار مراكب خاصة بأعمال روتشيلد التجارية[791].

واعتُقِدَ لوقتٍ طويل أن ناثان روتشيلد هو أول رجل في لندن عرف أخبار هزيمة نابليون في معركة واترلو، بفضل سرعة تَمَكُّن ساعي روتشيلد من نقل البيان الاستثنائي الخامس والنهائي (الصادر في بروكسل Brussels [عاصمة بلجيكا] أثناء ليلة 18/19 يونيو) عبر دُنْكيرك Dunkirk [ميناء شمال فرنسا] وديل Deal لإيصاله إلى نيوكورت New Court بعد أربع وعشرين ساعة تقريبًا، وقبل أن ينقله الميجور هنري بيرسي Major Henry Percy إلى الإيفاد الرسمي في وِلينجتن Wellington إلى الكابينت Cabinet[792]. بستٍّ وثلاثين ساعة على الأ

هذه القصة أحاطتها ظلال الشك، ولكن تبقى حقيقة أن روتشيلد تلقَّى الأخبار مبكرًا بما يكفي - حتى لو كان يوم 21 يونيو - «ليستفيد جيدًا بالمعلومات الباكرة... عن النصر». أَرْسَلَ تقريرَ نتائج المعركة في وقت لاحق على ذلك اليوم مُراسِلُ لندن إلى جريدة كالِدونيان ميركوري Caledonian Mercury [الإسكتلندية]، وذَكَرَ أن مصدره «الموثوق شخصٌ لديه رسالة من جِنْت Ghent [مدينة بلجيكية شمال غرب بروكسل]، تَسلَّمها روتشيلد [كذا]، سمسار بورصة كبير معلوماتُه هي الأفضل دائمًا»[793].

وبحلول أواسط عشرينيات القرن التاسع عشر، استخدم آلُ روتشيلد سُعاتَهم الخصوصيين بشكل منتظم: في شهر ديسمبر وحده من عام 1820، أرسل بيت روتشيلد بباريس ثمانية عشر ساعيًا إلى كِليه Calais [بلدة شمال فرنسا] (ومنها إلى لندن)؛ وثلاثة إلى ساربروكن Saarbrücken [أقصى غرب ألمانيا مع الحدود الفرنسية]؛ وواحد إلى بروكسل؛ وواحد إلى نابولي[794]. ومنذ عام 1824، استخدم الأخوةُ الحمامَ الزاجل أيضًا، ولم يعتمدوا عليه إلا في بعض الأوقات.

كان لتطوير شبكةِ اتصالٍ سريعة وآمنة عددٌ من الفوائد. أولاً، أتاحت لآل روتشيلد تقديم خدمة بريدية ممتازة للنُّخْبة الأوربية. ففي لندن عام 1822، تلقَّى النبيل دو

شاتوبريون de Chateaubriand «بَرْقيّة مهمة» من دوقة ديوراس Duras، عبْر «مستشاره من آل روتشيلد»[795].

وبحلول عام 1823، صار «تلقِّي الأخبار من روتشيلد» جزءًا لا يتجزأ من روتين الكونتيسة نَسِلْرود[796] Nesselrode.

ومن أبرز المتحمسين لخدمة روتشيلد البريدية بعد عام 1840 الشابةُ الملكة فيكتوريا وقرينُها الأمير ألبرت[797]. ثانيًا، عَنَتْ خدمتُهم البريدية السريعة أيضًا أن آل روتشيلد يحتلون موقعًا يُمكِّنهم من تقديم خدمة أخبار فريدة من نوعها. لقد تمكّنوا من نقل الأحداث السياسية الرئيسية، وكذلك المعلومات السرِّية والخصوصية، من مدينة إلى أخرى، قبل القنوات الرسمية. وفي عام 1817، سعى جيمس James إلى نقل تفاصيل الأنباء الدبلوماسية الفرنسية من باريس إلى لندن، بحيث تصل إلى شقيقه ناثان قبل وصولها إلى المفوض الفرنسي[798].

وفي عام 1818، «أصاب» الدبلوماسي البريطاني المُوْفَدُ إلى مؤتمر إيكس[[799]]
Congress Aix
«كثيرًا»
حين استخدم «معلومات ناثان الصحيحة بشأن تفاصيل جانبنا ومعرفته بالأشخاص الذين سيُشَكِّلوه، وأعتقد أن بعض أسمائهم لم تُرشَّح في وزارة الخارجية

Foreign Office»[800] وعندما أُغْتيل الدوق دو بيري duc de Berry (ثالث أبناء الملك الفرنسي، تشارلز العاشر Charles X) في فبراير عام 1820، كان آل روتشيلد هم الذين أذاعوا القصةَ في فرانكفورت وفيينا[801]. وعندما ماتت الأميرة شارلوت في عام 1821، كان آل روتشيلد أيضًا هم الذين نشروا الأخبار ونقلوها إلى باريس[802].

رئيس الوزراء جورج كانينج George Canning لم يُعجِبه انفرادُ آل روتشيلد دائمًا بنشر أخبار تقارير السفارة البريطانية، لكنه لم يستطع تجاهل موضوعات مهمة توفَّرت لشبكة معلومات روتشيلد مثل الاستسلام التركي في أكِرْمِن[803] ckerman

نقلَ آلُ روتشيلد أيضًا أخبارَ ثورة يوليو عام 1830 الفرنسية إلى اللورد أبردين

Lord Aberdeen في لندن، وإلى مترنيتش في بوهيميا Bohemia [شمال النمسا]

ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يبدأ رجال الدولة والدبلوماسيون أنفسُهم في استخدام شبكة اتصالات روتشيلد، لأنها أسرع من أنظمة الإرسال الرسمية المستخدمة في نقل المراسلات الدبلوماسية، ولأن الرسائل ذات الطبيعة غير

السرّية يمكن إرسالها من حكومة إلى حكومة بطريقة غير مباشرة عبر المراسلات الخاصة لدى الأخوة روتشيلد.

وبطبيعة الحال، إذا اعتمد آل روتشيلد في تبادل المعلومات على بيوتهم الخمسة فقط، لَكان النظامُ جِدَّ محدود. إذ سرعان ما طَوَّروا مجالاً امتدَّ إلى أبعد من قواعدهم الأوربية الأصلية. ولأنه لا أحد من أحفاد ماير أمشيل رغب في (أو سُمِحَ له) بإقامة «فرع عائلي» جديد، فقد تمَّ التطوير ببناء مجموعة وكلاء مُختارين، وُظِّفوا بالأجر، للاعتناء بمصالح البنك في أسواق أخرى: مدريد وسان بطرسبرج وبروكسل بشكل أساسي، ثم نيويورك ونيو أورليانز وهافانا Havana والمكسيك وسان فرانسيسكو لاحقًا. وقد شكَّلت خطوطُ الاتصال مع هؤلاء الوكلاء شبكةً معلوماتية وتجارية جديدة[805].

رجال من أمثال أوجست بِلْمونت August Belmont في نيويورك أو دانيل فايسفايلر Daniel Weiswe في مدريد، تَمتَّعا حتمًا باستقلالية كبيرة بسبب بُعْدهم ومعرفتهم المحلية الأكبر؛ ولكنهم ظلوا دائمًا وكلاء روتشيلد أولاً وقبل كل شيء، ولم تُتَحْ لهم فرصة نسيان ذلك. لم تكن هذه الشبكةُ شبكةَ نفوذ رسمي فقط؛ بل كانت بالقدر نفسه من الأهمية شبكة روابط، أكبر وأكثر مرونةً، بالبنوك الأخرى وسماسرة البورصة والبنوك المركزية وصحف الشؤون المالية.

لم يتباطأ المعاصرون عن إدراك انبثاق نوع جديد من السَّطْوة المالية. ففي عام 1826، زَعَمَ الليبرالي الفرنسي فنسنت فورنييه فيرنِيّ - Vincent Fournier Verneuil، ضمن مزاعم عديدة، بأن الحكومة الفرنسية صارت دُمْيةً فاسدةً في أيدي «أرستقراطية مالية أكثر إجدابًا وأقل نُبْلاً من كل الأرستقراطيات»[806]. ثم بعد عامين، قدَّمَ النائب توماس دُنْكمب Thomas Duncombe في مجلس العموم البريطاني شكوى بخصوص:

سَطْوة جديدة وهائلة، لم تُعْرَفْ حتى هذه الأيام في أوربا: سيِّد ذو ثروة غير محدودة، يتباهى بأنه حَكَمُ السلامِ والحربِ، وأن رصيد الدول يعتمد على إيماءة منه؛ وأن مراسليه في كل مكان بلا عدد؛ وأن رُسَله يسبقون رُسَلَ الأمراء السادة، ورُسَلَ السيادات المطلقة؛ وأن وزراء الدولة هو الذي يدفع لهم. وبتوغُّله في مجالس وزراء أوربا القارية، يطمح إلى السيطرة علينا...[807].

في أواسط ثلاثينيات القرن التاسع عشر، نشرت مجلةٌ أمريكية تقييمًا مماثلاً، وإن بعبارات أقل ازدراء: «آل روتشيلد معجبون بصِرَافتهم الحديثة... يُمْسِكون بتلابيب قارة بأكملها بين أيديهم... ولا يتحرك مجلس الوزراء دون استشارتهم»[808].

وذَكَرَ كاتبُ اليوميات الإنجليزي توماس رَايكس Thomas Raikes، في الوقت نفسه تقريبًا، أن: «آل روتشيلد أصبحوا سادةَ أوربا الأقوياء. فمِن مؤسَّساتهم المختلفة

في باريس ولندن وفيينا وفرانكفورت ونابولي، حققوا سيطرةً على الصِّرافة الأوربية التي لم يتمكن أي فريق من تحقيقها سابقًا، فصاروا يُمْسِكون بخيوط الموارد [المالية] العامة. فلا دولة ذات سيادة يمكنها اقتراض المال دون مساعدتهم»[809].

وقد أثار رسَّامُ كاريكاتير ألماني مجهولٌ القضيةَ نفسها (وإنْ بوضوح أكبر) عندما رسم كاريكاتيرًا ليهودي غريب الشكل - من الواضح أنه يُصَوِّرُ روتشيلد - بوصفه مضخَّة رئيسية Die Generalpumpe (لاعبًا على معنيَيْ الكلمة الألمانية pumpen التي تعني ضَخَّ وأقْرَضَ). روتشيلد، فيما يشير الرسم الكاريكاتوري، آلةٌ عملاقة تضخُّ المالَ حول العالم[810].

التُّهْمة التي تكرَّرتْ في عشرينيات القرن التاسع عشر أن آل روتشيلد متحالفون سياسيًا مع قوى الرَّجْعية والاستعادة [إحياء المَلَكيَّة]. وطبقًا لأحد المصادر، أصبحوا «الخزانة الكبيرة للتحالف المقدَّس[811] Holy Alliance»[812].

وعندما تحدَّث الجوَّال الألماني الأمير بوكلر موسكاو Pückler - Muskau عن ناثان، لأول مرة، في رسالة إلى زوجته، ذَكَرَ أنه «نصير رئيسي للتحالف المقدس»[813]. لقد رُسِمَ ناثان كاريكاتوريًا بوصفه سمسارًا يحمي «تحالفًا أجوف»، يريد مَنْعَ اشتعال أوربا سياسيًا[814].

وفي عام 1821، تلقَّى تهديدًا بالقتل بسبب «ارتباطه بقوى أجنبية، وبخاصة مساعدته للنمسا، على خلفية خطط تلك الحكومة ضد الحريات في أوربا»[815].

وفي وقت مبكر من أغسطس عام 1820، ذَكَرَ مندوب [مدينة] بريمن Bremen [شمال ألمانيا] في مجلس الكونفدرالية الألمانية[816] German Confederation's Diet المنعقد في فرانكفورت، أن «النمسا تحتاج إلى مساعدة آل روتشيلد» في مسيرتها الحالية ضد نابولي، وكانت بروسيا ستنتهي منذ وقت طويل من دستورها إذا لم يُتِحْ لها بيتُ روتشيلد تأجيلَ اليوم الشرير»[817].

وعند الكاتب الليبرالي لودفيج بورنه Ludwig Börne، آل روتشيلد هم «أسوأ خصوم الأمة. فعلوا كل شيء لتقويض أسس الحرية، ولا ريب في أن معظم شعوب أوربا في هذا الوقت كانت ستتمتع بامتلاك الحرية لو أن رجالاً من أمثال روتشيلد... لم يُقْرِضوا الأوتوقراطيين [المستبدين] لدعم رأسمالهم»[818].

ولكن مثل هذه الأحكام تُبالِغُ في مدى ولاء آل روتشيلد السياسي لرؤية

مترنيتش المتعلقة بالاستعادة المُحافِظة. وكما لاحظ مندوب بريمن إلى فرانكفورت عن حقٍّ:

حققَ هذا البيتُ فعلاً - بمُعامَلاته المالية وعلاقاته المَصْرِفية والائتمانية الضخمة - موقعَ سلطة حقيقية؛ فاكتسب إلى حد ما سيطرةً على سوق المال العام، الأمر الذي مَكَّنه من إعاقة أو تعزيز حركات الملوك وعملياتهم بل أعظم القوى الأوربية[819].

يمكن لآل روتشيلد التعهُّد بإقراض النمسا إذا كان الثمن مناسبًا. وفي الوقت نفسه يُقْرِضون أكثر الدول ليبراليةً أيضًا. وعندما ذَكَرَ الإمبراطور النمساوي أن أمشيل روتشيلد «أغنى مني أنا»، لم يكن يتفكَّه أو يتظارف تمامًا[820]. يتساءل لورد بايرون[[821]] Lord Byron في النشيد الثاني عشر من عمله «دون جوان» Don Juan:

«مَن يُمْسِكُ بميزان العالَم؟ مَن يحكم/يدير الكونجرس، سواء مَلَكيًّا أو ليبراليًّا؟» ويجيب (بعلامات ترقيم ساخرة): «روتشيلد اليهودي، ورفيقه - المسيحي بارينج Ba». المَصْرِفيون هم «لوردات أوربا الحقيقيون»[822]. النقطة الحاسمة أن بايرون رأى روتشيلد مؤثرًا في أنظمة الحُكْم المَلَكيّة والليبرالية على حد سواء. وينجح ألكسندر فايل Alexandre Weill في صياغة القضية في مقاله «روتشيلد والدول الأوربية» Rothschild and the European (عام 1841) States: «كان روتشيلد في حاجة إلى الدولة ليكون روتشيلد»، ولكنه الآن «لم يعد في حاجة إلى الدولة، أما الدولة فلا تزال محتاجةً إليه»[823].

بعد عام، ذَكَرَ المؤرّخ الليبرالي جول ميشيليه Jules Michelet في جريدته: «يعرف روتشيلد أوربا أميرًا أميرًا، والبورصة سمسارًا سمسارًا. وكلُّ حساباته موجودة في رأسه، حسابات سماسرة البورصة وحسابات الملوك؛ فيتحدث إليهم دون مراجعة دفاتره. يقول لأحدهم: «سيتحول حسابك إلى الأحمر إذا قمت بتعيين وزير كهذا»[824].

وهنا، ثمة مظهر آخر في النظام الهَرَمي لم «يُسْتَرْجَعْ» كما أُعِيدَ ترتيبه بعد عام 18. لعل مجموعةُ القرابة الممتدة التي كوَّنت بيت زاكس - كوبورج - جوتا قد منحت النظامَ الجديد شرعيةَ النَّسَب الملكي. أما بيت روتشيلد مُحْدَث النِّعْمة - بشبكاته الجديدة في الائتمان [المالي] والمعلومات - فتعهَّدَ بتمويل المَلَكيّة الأوربية.

قبل بلوغ تلك الأعالي، بدأ ناثان روتشيلد حياته المهنية في بريطانيا بشكل متواضع، فاشترى القماشَ المُصنَّع بغرض التصدير إلى القارة. وتُوفِّرُ السِّجلاتُ الباقية من تلك السنوات الباكرة صورةً حيَّة للاقتصاد في مراحل الثورة الصناعية الأولى. بين عام 1799 عندما وصل ناثان إلى إنجلترا لأول مرة، وعام 1811 عندما أنشأ رسميًا شركة إن إم روتشيلد N. M. Rothschild في لندن، لم يتنقل روتشيلد حول لانكشاير Lancashire فقط، بل تنقل بين نوتِنجهام Nottingham وليدز Leeds وستوكبورت Stockport، وحتى جلاسكو Glasgow أيضًا، بحثًا عن المنسوجات لشَحْنها إلى العملاء في ألمانيا. ولم يَكْتفِ بشراء القماش الجاهز. إذ قال لاحقًا للنائب توماس فويل بوكستن Thomas Fowell Buxton:

«بمجرد أن وصلتُ إلى مانشستر Manchester أنفقتُ كلَّ أموالي، الأشياء كانت جِدَّ رخيصة؛ وحققتُ أرباحًا جيدة. وسرعان ما جنيتُ ثلاث فوائد: المواد الخام، الصباغة، والتصنيع. قلت للمُصنِّع: «سأزوِّدُك بالمواد والصَّبْغة، وأنت تُزوِّدني بالبضائع المُصنَّعة». وهكذا جنيتُ ثلاث فوائد بدلاً من واحدة، ويمكنني بَيْعَ البضائع بأرخص من أي أحد»[825].

ومع تكنولوجيا الغزل والنَّسْج الجديدة التي سرعان ما انتشرت في جميع أنحاء شمال إنجلترا ووسط إسكتلندا، ومع العدد الصغير من المُصنِّعين المتنافسين، كانت الفرص لوسيط مُكافِح هائلة. وكما أوضح في ديسمبر عام 1802:

في أيام الثلاثاء وأيام الخميس، يجلب النسَّاجون الذين يعيشون في البلد على مسافة عشرين ميلاً حول مانشستر بضائعهم إلى هنا، عشرين قطعة أو ثلاثين، وآخرون أكثر وآخرون أقل، ثم يبيعونها للتجار بائتمان مدته شهران وثلاثة أشهر وستة أشهر. ولأن بعضهم في حاجة عاجلة إلى المال، وعلى استعداد للتضحية ببعض الربح، فالذي معه المال يشتري أحيانًا ب 15% أو 20% أقل من السعر المعروض[826].

ثم في أثناء توسُّع أعمال روتشيلد التجارية حين بدأ في التصدير إلى شركات أخرى سوى شركات والده، بدأ في عَرْض أسعار منخفضة بل شروط ائتمانية معقولة أيضًا، مُخْبِرًا المشتري نفسه بأنه يَعتبر أمواله «في أمان بين يديك كما لو أنها في جيبي»[827]. وإذا كانت المكافآت كبيرة فكذلك كانت المخاطر. الأسعار ومعدَّلات الفائدة تقلَّبت بشكل سريع. وفَشِلَ الموزِّدون في النقل كما فَشِلَ المشترون في الدفع غالبًا. ومع انفجار الحرب الاقتصادية بين بريطانيا وفرنسا بعد حَظْر نابليون في جميع أنحاء أوربا للتجارة مع بريطانيا في عاميْ 1806 و1807،

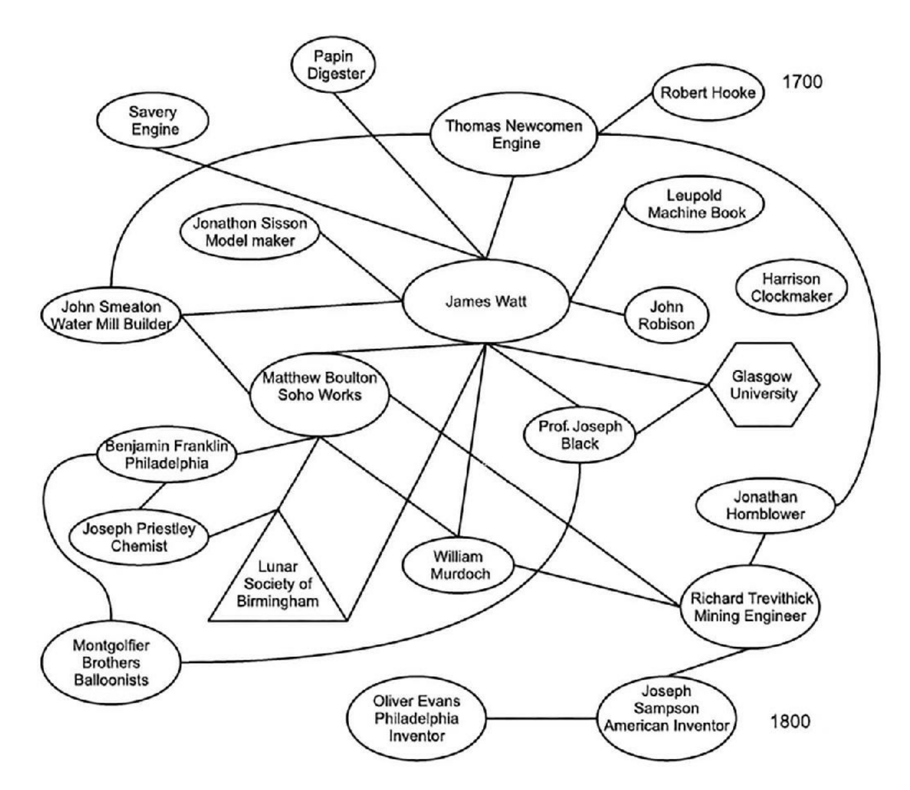
كان على روتشيلد اللجوء إلى التهريب.

وكالثورات الفكرية والسياسية في القرن التاسع عشر، كانت الثورةُ الصناعية نتاجَ الشبكات. فلا حاكم أَمَرَ بها، مع أن بعض الإجراءات الحكومية (ولا سيما قوانين التضييق على استيراد القماش من الهند) قد عجَّلت بها دون شك. وبالإضافة إلى شبكات الائتمان كالشبكة التي انتمى إليها ناثان روتشيلد، وُجِدَتْ أيضًا شبكاتٌ رأسمالية، سمحت لأصحاب الأعمال والمستثمرين بتجميع المعلومات والموارد، وشبكاتٌ تكنولوجية مَكَّنت من تبادل الإنتاج المُشَجِّع على الابتكارات. لم يستطع جيمس وات[828] James Watt تحقيق تحسيناته على المحرِّك البخاري دون الانتماء إلى شبكة شملت البروفيسور جوزيف بلاك Joseph Black من جامعة جلاسكو وأعضاء من جمعية لونار[829] Lunar Society في بِرْمِنجهام أيضًا[830].

كانت معظم شركات تصنيع النسيج صغيرة ويسيرة التمويل نسبيًا، أما المشروعات الرأسمالية الكبيرة كالشركات المساهمة أو شركات التأمين فاعتمدت اعتمادًا كبيرًا على شركات توظيف الأموال[831]. وأُديرَتْ الصادراتُ والواردات الدولية عن طريق شبكات تجارية، كما كان الحال في العصر ما قبل الصناعي. وقد لعبت القرابة والصداقة والدين المشترك دورًا في كل هذه الشبكات. وينطبق الأمر نفسه على تكنولوجيات التصنيع الجديدة التي عبرت الأطلنطي إلى الولايات المتحدة[832]. وكما يبين الشكل 18، لم يكن يوجد رابطٌ مباشر بين جيمس وات وأوليفر إيفانس[833] Oliver Evans، من فيلادلفيا، الذي اخترع محرِّك الضغط العالي البخاري. كان يوجد في الواقع أربع درجات انفصال بينهما[834]. لكن إلحاح الابتكار - «العقلية التحسينية» - انتشر (طبقًا لأحد العلماء) كما ينتشر المعتقد الديني تقريبًا[835]. ففي كل مرحلة من مراحل الثورة الصناعية، لعبت الشبكات الدور الحاسم في نشر العمليات الجديدة، بل الأهمّ في تجميع القوة العقلية ورأس المال. وكما كان تطويرُ محرِّكات بخارية ذات كفاءة متزايدة جهدَ شبكةٍ جماعيًا، لا جهد مخترعين فرديين أبطال، تدين التقدُّماتُ المفاجئة [الاختراقات] اللاحقة في علم الطيران بالقدر نفسه للأعضاء الرئيسيين في جمعية المهندسين المدنيين الأمريكية American Society of Civil Engineers، وجمعية المهندسين الميكانيكيين الأمريكية American society of Mechanical Engineers ورابطة تقدُّم العلوم الأمريكية

American Association for the Advancement of Science، وكذلك للأخوين رايت Wright.

في هذا «العالَم الصغير»، لعب أوكتاف شانوت Octave Chanute، مؤلِّفُ كتاب «التقدُّم في ماكينات الطيران» Progress in Flying Machines (1894)، دورَ المُوصِّل [الرابط] الأهم: بول ريفير الطائرة الأولى[836].




الشكل: 18 - «شبكة البخار»: جيمس وات، ماثيو بولتون، الشبكة الاجتماعية لتكنولوجيا المُحَرِّك البخاري، 1700 - 1800.

اللغز المركزي في التاريخ البريطاني أثناء عصر التصنيع هو: لماذا لم ترتبط الثورة الاقتصادية بالثورة السياسية؟ ومن الممكن صياغة السؤال بشكل مختلف: لماذا كانت الشبكات الناشئة أواخر القرن الثامن عشر في إنجلترا وإسكتلندا قوية بما يكفي لاستيلاد التصنيع الحديث، ولم تكن قوية بما يكفي للإطاحة بالتسلسلات الهَرَمِيَّة المَلَكِيَّة والأرستوقراطية والكَنَسِيَّة في المملكة المتحدة؟ في جميع أنحاء القارة الأوربية، في عام 1848، انفجر الناس الذين يُوقِّعون على عرائض بشأن مظلمة أو شكوى في موجة ثورية أخرى؛ امتدت هذه المرة إلى برلين وفيينا وأدَّت إلى سقوط مترنيتش[837].

ولم يحدث في بريطانيا ما يشبه ذلك. الخطيب الويجي Whig الشهير هنري بروجهام Henry Brougham أسَّس جمعية نشر المعرفة النافعة Society for the Diffusion of Useful Knowledge وليس جمعية لنشر الأفكار الجمهورية. وحتى الميثاقيين[838] Chartists، نظَّموا تجمُّعاتهم واستضافوا بعض العناصر الثورية، بالطريقة التي نظَّموا بها حملتهم لتوسيع نطاق الانتخاب.

يكمن جانب من التفسير في أن سياسات القرن الثامن عشر بذلت قصارى جهدها أن تغرس في «طبقات المجتمع الدنيا» أن أمثال البريطونيين[[839]] Britons لديهم حصة وطنية في النظام الاجتماعي القائم[840].

أكبر أعمال الشَّغَب في العهد الهانوفري كانت أعمال شغب جوردون المناهِضة للكاثوليكية anti - Catholic Gordon Riots التي صَوَّرها ديكنز Dickens بشكل جِدِّ واضح في روايته «بارنابي رودج»[[841]] Barnaby Rudge.

الجانب الآخر من التفسير أن النُّخْبة البريطانية كيَّفتْ نفسَها بمهارة كبيرة مع ظروف العصر الصناعي المتغيِّرة بسرعة. فيكتوريا وألبرت كانا - على وجه العموم - ليبراليين في ميولهما السياسية بطريقة لم يكن عليها أقاربهما في هانوفر Ha. أَضِفْ إلى هذا أن النُّخْبَةَ المالية الجديدة التي جسَّدها آل روتشيلد أكثرُ مرونةً على المستوى السياسي مما كان يُقّدِره العديدون من نقادها.

من الأمثلة الجيدة التي تُوضِّح أسبابَ تفادي بريطانيا للثورة حملاتُ إلغاء تجارة الرقيق والعبودية. بدأت حركة الإلغاء خارج البرلمان فيما بين الأقليات الدينية (ولا سيما الكويكرز Quakers) والمنظمات الجديدة مثل جمعيّة العمل على إلغاء تجارة العبيد Society for Effecting the Abolition of the Slave Trade، ولاحقًا جمعية التخفيف من العبودية وإلغائها تدريجيًا Society for the Mitigation and Gradual Abolition of Slavery. وقد وصلت الحملة إلى مجلس العموم House of Commons في الوقت الذي بدأت فيه الثورة في فرنسا. فألقى ويليام ويلبرفورس William Wilberforce كلمته ذات التأثير القوي «عن أهوال تجارة الرقيق» في مجلس العموم يوم 12 مايو عام 1789، بعد أسبوع واحد فقط من بداية نشاط الجمعية العامة Estates General في باريس. وقد وَقَّعَ ما لا يقل عن 400 ألف شخص على عرائض تطالب بالإلغاء في عام 1792، وهو ما يقارب حوالي 12% من السكان الذكور البالغين، وفي مانشستر اقتربت النسبة من نصف عدد السكان[842].

ثم في عام 1816، بَلَغَ عددُ مُوقِّعي عرائض الاعتراض على استئناف تجارة الرقيق الفرنسية 1,375,000[843].

كان التحريض [والهياج] أكبر في عام 1833، عندما تلقَّى البرلمان عرائض وَقَّعَ عليها ما يقرب من مليون ونصف شخص، منها عريضةٌ بَلَغَ طولُها نصفَ ميل وقَّعَ عليها 350,000 امرأة وخيَّاط معًا، تبنَّتها بريسيلا Priscilla ابنة توماس فويل

بوكستن[844] Thomas Fowell Buxton.

لقد كانت حركةُ الإلغاء ظاهرةً قائمة على شبكة جديرة بالتصديق. ولكن هذه الشبكة في المستعمرات الأمريكية لم تُهدِّد بإدخال البلد في ثورة، على عكس فرنسا. السبب الواضح أن القضية اهتمت بمصالح الناس في الجزر البريطانية British Isles، بل أبعد أيضًا: بالعبيد الأفارقة والمزارعين في الهند الغربية. والسبب الثاني أن النُّخْبَة السياسية - رغم سَحْب البساط من تحت قدميها في تسعينيات القرن الثامن عشر - استجابت بسرعة نسبيًا للضغط البرلماني غير المعتاد، فألغت تجارةَ الرقيق في عام 1807، وحرَّرَتْ ما يقرب من 800 ألف عبد في الممتلكات البريطانية في عام 1833. أما السبب الثالث والأخير فهو أن المزارعين في الهند الغربية مَثَّلوا مجموعة مصالح أصغر من أن تمارس سلطة الفيتو.

لقد احتدم النقاش طويلاً حول ما إذا كان مُنْتِجو السكر البريطانيون في الكاريبي يعانون بالفعل من أزمة عشية الإلغاء أم حُرِموا من تفوُّقهم الاقتصادي، كذلك اختلف المؤرِّخون حول مغزى السرعة التي تحوَّلت بها بريطانيا من كَوْنها اللاعب المسيطر في تجارة الرقيق عبر الأطلنطي إلى كَوْنها خصمها العلني النَّشِط[845]. ومن الواضح أنه رغم ارتفاع استهلاك السكر في إنجلترا فقد تَوَاصَلَ انخفاضُ أسعاره خلال القرن الثامن عشر. كانت أسعار السكر ثابتة بشكل ملحوظ أثناء الحروب الثورية الفرنسية والنابليونية، أثناء تعطُّل الإنتاج بسبب تمرد العبيد في سان دومانج Saint - Domingue، وقد عُوِّضَ، جزئيًا فقط، بزيادة محصول المزارع في كوبا Cuba، وموريشيوس [في المحيط الهندي] والهند؛ ولكنه هبط مرة أخرى قبل عام 1807، وازداد هبوطه بحلول السلام [بعد هزيمة نابليون النهائية في معركة واترلو].

وبالمقارنة، لم يكن هناك اتجاه نحو الهبوط في متوسط سعر العَبْد. ومع ذلك، فالحجة القائلة بأن هذه الميول [نحو الإلغاء] تحكَّمتْ في مصير مزارع السكر في الهند الغربية - أن «الإلغاء أدَّى إلى كارثة في الهند الغربية»[846] - ليست مقنعة. فمع ارتفاع الطلب على السكر في جميع أنحاء أوربا، الفُرَصُ الموجودة لاستمرار العبودية في كوبا، ناهيك عن البرازيل، ستوجد أيضًا بالنسبة إلى المزارع البريطانية التي ارتفعت فيها بالضرورة تكاليفُ العمالة، لكن بسبب الإلغاء دون غيره.

تمثلت المشكلةُ الحقيقية لدى المزارعين البريطانيين في سرعة تنويع اقتصاد المملكة المتحدة، إذ فاقَ مستوردو القطن، بغرض التصنيع ثم إعادة تصديره، مستوردي السكر من حيث الأهمية بسرعة كبيرة. فبحلول أواخر عشرينيات القرن التاسع عشر، مثَّلت البضائعُ القطنية نصفَ الصادرات البريطانية. وحازت مانشستر، بوصفها عاصمةَ صناعة النسيج البريطاني، نفوذًا سياسيًا في لندن

أكثر مما حازته جامايكا Jamaica، فأمكنها أن تغضَّ الطرفَ عن استمرار تجارة العبيد والعبودية في جنوب الولايات المتحدة، التي تأتي منها حصة لانكشاير المرتفعة من القطن الخام. ناثان روتشيلد - تاجر القطن السابق الذي تحوَّلَ إلى مَصْرفي - هو الذي أقرضَ الحكومةَ 15 مليون جنيه إسترليني لتعويض مُلاك العبيد بعد قانون عام 1833 [847].

وبعد أن شُرِّعَ قانونُ تحرير العبيد، تناول ناثان العشاء مع توماس فَويل بوكستن [848]. ثم في وقت لاحق، لعب أبناء ناثان دورًا رائدًا في حملة تحرير اليهود في بريطانيا؛ وستُرقِّي الملكةُ فيكتوريا حفيدَه ناثانيل Nathaniel إلى مجلس اللوردات House of Lords.

في عام 1815، كانت بريطانيا مجتمعًا غير مساواتي بشكل زائد. كانت ثروةُ الأراضي مركَّزةً تركيزًا كبيرًا في أيدي أرستقراطية الوراثة، أكثر مما في معظم البلاد الأوربية، بما فيها فرنسا النظام القديم ancien régime. نظام ضريبي مُتَرَدٍّ بشكل غير عادي؛ معظم الدخل الحكومي [الإيرادات] من الضرائب على الاستهلاك؛ معظم الإنفاق يذهب إلى الجيش والبحرية والأثرياء القابضين على المناصب والسَّندات الحكومية. ومع ذلك، فلا حركة من الحركات البرلمانية الممتازة أوائل القرن التاسع عشر - لا الإلغاء [إلغاء الرقيق]، ولا حركة الإصلاح الانتخابي التي أعقبته - هدَّدت النظامَ القائم تهديدًا حقيقيًا. ذلك أن التسلسل الهَرَمي البريطاني - على خلاف نظيره الفرنسي - عرف متى ينحني مع الريح. الإلغائيون رأوا ارتقاءَ الملكة فيكتوريا الشابة على العرش في عام 1837 فرصةً للإصلاح وليس عائقًا أمامه، وكان العاهل الصغير يقترب من تأييد حملتهم تحت الضغط.

تركت المَلِكةُ المهمةَ لزوجها الأمير، الذي ألقى أول خطاب علني بعد ثلاثة أشهر فقط من زواجهما، في اجتماع جمعية القضاء على تجارة العبيد. قال الأمير ألبرت: «أشعر بأسف عميق لأن جهود إنجلترا الخَيِّرة والمثابرة من أجل إلغاء هذه التجارة الوحشية في الكائنات البشرية (تدمير أفريقيا ووصمة عار على جبين أوربا المتحضِّرة في آنٍ معًا) لم تُؤدِّ بعد إلى أي نتيجة مُرْضية. ولكني واثق من أن هذا البلد العظيم لن يتراخى مخلصًا في مساعيه حتى يضع نهايةً أبدية لهذه الأمور البغيضة لدى روح المسيحية وأرقى الأحاسيس في طبيعتنا» [849].

في السنوات التالية لعام 1815، تمَّت السيطرةُ على الفوضى التي أُطْلِقَ لها العنان في تسعينيات القرن الثامن عشر. ورُوِّضت الفوضى الشَّبَكيَّة في فرنسا بفرض نظام هَرَمي جديد في عهد نابليون. أما التحدِّي الثوري الفرنسي للدول الأوربية الأخرى فتُغُلِّبَ عليه بفرض «توافق» جديد تحت إشراف جَمْعي للقوى العظمى الخَمْس، ومن بينها المَلَكيّة الفرنسية المستعادة. وأثناء القرن التاسع عشر، ظلت المَلَكيَّةُ الشكلَ السياسي المهيمن في العالم. وداخل كل دولة أوربية، لم تُسْتَعَدْ شرعيةُ المبدأ الوراثي فقط، بل وُجِدَ أيضًا نموذجٌ جديد للترتيب الطبقي الاجتماعي دخلت به النُّخْبة المَلَكيّة الكوزموبوليتانية في علاقة تكافلية مع نُخْبة بلوتوقراطية[850] plutocratic جديدة (وسَخِرَت الأرستوقراطياتُ الوطنية الأرفع مقامًا بطريقة ناكرة للجميل من كليهما). «الاستعادة» [استعادة المَلَكيّة]، بهذا المعنى، كانت وَصْفًا ناقصًا، ومَن حاولوا (لا سيما آل بوربون في فرنسا) العودةَ غير المشروطة إلى النظام القديم لم يستمروا وقتًا طويلاً.

عقارب الساعة لا يمكنها العودة إلى الوراء. ولا يمكن إيقافها عن التقدم إلى الأمام. زادت الثورة الصناعية من الدخول والسكان معًا. ولأول مرة في التاريخ، نَمَتْ مدنُ شمال أوربا الغربية بمعدلات أكبر من مدن آسيا الشرقية. وأثبتت تكنولوجيات التصنيع الجديدة فوائدها العديدة، مع كفاءة إنتاج الملابس. الحرب أيضًا بدأت تكون تصنيعية: سفن مُدَرَّعة، وأسلحة أكثر فتكًا. ووقعت الاقتصادات الوطنية تحت سطوة الشركات الصناعية الكبيرة بشكل متزايد، فبدأ أصحابها ومديروها، إلى جانب المَصْرفيين الذين يُموِّلونها، في تشكيل نُخْبة اجتماعية وسياسية جديدة، وإن ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالنظام القديم. صارت خريطةُ العالم بحلول عام 1900 بانوراما إمبراطورية مُلْغِزة: إحدى عشرة إمبراطورية غربية تسيطر على أنصبة غير متجانسة (58%، بشكل عام) من أراضي الكوكب، ناهيك عن سكانها (57%) والناتج الاقتصادي (74%)[851]؛ بل استحوذت الولايات المتحدة على مستعمرات فيما وراء البحار.

لم يكن هذا بكل تأكيد المستقبلَ الذي ارتحل من أجله بول ريفير إلى ليكسينجتن. فاز البريطانيون ذوو السُّتْرات الحمراء[852] redcoats. وبحلول عشية الحرب العالمية الأولى، بريطانيا العظمى - المملكة البالغ عدد سكانها 45.6 مليونًا وتزيد مساحتها قليلاً عن 120 ألف ميل مربع - حَكَمَتْ ما يزيد على أكثر من 375 مليون شخص و11 مليون ميل

مربع.

ولعل الشيء الأبرز بشأن هذه الإمبراطورية الشاسعة هو توزيعها لثكناتها العسكرية. في عام 1898، كان يوجد 99 ألف جندي نظامي متمركزين في بريطانيا، و75 ألف في الهند، و41 ألف في أماكن أخرى من الإمبراطورية. احتاجت البحريةُ 100 ألف جندي آخر، والجيش الهندي المحلي 48 ألفًا.

وهذا كله يمثل الأجزاء الصغيرة من إجمالي سكان الإمبراطورية. وقد حُكِموا بسهولة أيضًا. بين عاميْ 1858 و1947، وُجِدَ أكثرُ قليلاً من ألف عضو من «متعهِّدي» الخدمة المدنية الهندية[853] Indian Civil Service مقارنةً بإجمالي السكان الذي تجاوز 400 مليون مع نهاية الحُكْم البريطاني. ولم يكن هذا التوظيفُ الهيكلي الأساسي فريدًا من نوعه في الهند. فالنُّخْبةُ الإدارية بأكملها في الخدمة الاستعمارية الأفريقية، المُوزَّعة على عشرات المستعمرات البالغ عدد سكانها حوالي 43 مليونًا، عددُها أكثر قليلاً من 1,200[854].

فكيف أمكن ذلك؟ وكيف كانت الإمبراطوريةَ الأكبر في التاريخ العالمي، وفي الوقت نفسه دولةَ حارسٍ ليليٍّ، على حدِّ التعبير الازدرائي الذي صاغه الاشتراكيُّ الألماني فرديناند لاسال[855] Ferdinand Lassalle في عام 1862؟

٧

# القسم الخامس

# فرسان المائدة المستديرة

في رواية جون بوشان John Buchan «تسع وثلاثون خطوة»[856] The Thirty - Nine Steps، توجد منظمةٌ شريرة، عُرِفَتْ باسم الحجر الأسود Black Stone، تتآمر من أجل سرقة خطط بريطانيا الخاصة ب«استعداد الأسطول العسكري البريطاني للتحرُّك» [عام 1914]. ثم بعد سلسلة جرائم قتل، وبعد مطاردة من أكثر المطاردات تفصيلاً في الأدب الرائج، يُحْبِطُ المؤامرةَ بطلُ بوشان المُحبُّ لوطنه، الذي لا يعرف الكَلَلَ، ريتشارد هاناي

Richard Hannay. يُعَدُّ بوشان، بعد روديارد كبلينج[857] Rudyard Kipling، أفضلَ كاتب يُمْسِكُ بروح الإمبراطورية البريطانية في بواكير القرن العشرين[858].

تُنَظِّمُ روايتُه «تسع وثلاثون خطوة» - كمعظم كتاباته - العالَمَ في تسلسل هَرَمي عِرْقي:

الإسكتلنديون الأذكياء مفتولو العضلات في الأعلى أولاً، يليهم الجنوب أفريقيون الغلاظ، يليهم الأمريكيون العسكريون نوعًا ما، أما الألمان المشتبه فيهم جنسيًا ففي الوسط، واليهود تحت الألمان، ويرقد كلُّ ما عداهم في القاع تقريبًا[859]. ومع ذلك، وكما هو الحال في أدب بوشان دائمًا تقريبًا، ليس الأبطالُ الحقيقيون في رواية «تسع وثلاثون خطوة» أفرادًا بل شبكات: جمعيّات سرِّية كجمعيَّة «الحجر الأسود»، وشرائح نبيلة من السادة الإمبراطوريين تُشارِكُ في مكافحة التجسُّس: في هذه الرواية، إسكتلندي عائد من روديسيا Rhodesia [في جنوب أفريقيا]، وهو أمريكي مستقل وسياسي صاحب أراضٍ.

وُلِدَ بوشان في بيرث Perth عام 1875، ابنًا لكاهن كنيسة إسكتلندا المشيخية الحُرَّة Free Church of Scotland Presbyterian، ونشأ في مقاطعة كيركالدي Kirkcaldy، ثم صعد السُّلَمَ المهني الذي قدَّمته المملكةُ المتحدة وإمبراطوريتُها للإسكتلنديين الطموحين منذ زمن جيمس بوزويل[860] James Boswell. وبعد دوامه في مدرسة هوتشيسن للقواعد Hutcheson's Grammar School في جلاسكو، قرأ ليترا هيومانيورس Literae Humaniores (دورة

تعليمية في الآداب اليونانية والرومانية القديمة، وتُسَمَّى أيضًا باسم «جريتس» [العظماء]
(Greats في كلية بريزنوس Brasenose،
جامعة أكسفورد، حيث كان طالبًا، فحصل على المركز الأول وفاز برئاسة اتحاد
أكسفورد[861] Oxford Union،
وهو جمعية نِقاش مرموقة تُواصِلُ تحضيرَ رؤساء وزراء المستقبل من أجل الصراع البرلماني.

وبين عاميْ 1901 و1903 - أثناء حرب البوير[862] Boer War
وما بعدها - شغل منصبَ سكرتير سياسي خاص للورد
م ي ل ن ر Milner Lord،
المندوب السامي في جنوب أفريقيا. ثم تزوج في عام 1907 زواجًا ملائمًا: سوزان جروسفينور
Susan Grosvenor، ابنة عم دوق وِسْتمِنسْتر Westminster.
لم يَكْتفِ بوشان بكَوْنه مؤلفًا غزير الإنتاج، فقرأ القانون ودُعِيَ إلى المنصة. ثم صار شريكًا في دار نشر توماس نيلسن وأولاده
Thomas Nelson & Sons، كما عمل -
لبعض الوقت - مُحرِّرًا ل الإسبيكتاتور The Spectator.
وأثناء الحرب العالمية الأولى First World War،
وبعد نجاته أو إبعاده عن الخط الأمامي لاعتلال صحته، أدار قسم
ا ل م ع ل و م ا ت Department of Information
الجديد، ثم احتل بعد الحرب مقعدًا في مجلس العموم لمدة ثماني سنوات بوصفه عضوًا اتحاديًا للجامعات الإسكتلندية. وأثناء كل ذلك، كان يكتب دون كَلَلٍ: قصة مثيرة كل عام، بالإضافة إلى تاريخ الحرب الكبرى
Great War
متعدِّد المجلدات. وجاء تمجيده في عام 1935، عندما رُفِعَ إلى طبقة النبلاء (بوصفه اللورد تويد سميور من إلسفيلد
Lord Tweedsmuir of Elsfield)، وعُيِّن حاكمًا عامًا لكندا[863].

وباختصار، ترقَّى بوشان عبر التسلسل الهَرَمي الإمبراطوري، فصعد أكاديميًا واجتماعيًا ومهنيًا وسياسيًا ثم رسميًا؛ وإن لم يكن صعوده عاليًا كما كان يرجو (نائب الملك في الهند، أو على الأقل منصب في الكابينت Cabinet). ولكن حياته

المهنية لا يمكن فَهْمُها بمعزل عن الشبكة التي انتمى إليها: «الرَّوْضَة» Kindergarten أو «المائدة المستديرة» Round Table.[864] المرتبطة بميلنر. وهي شبكة أخرى من تلك الشبكات التاريخية التي أصبحت سيئة السُّمْعة، بفضل كتابات مؤرِّخ [جامعة] جورجتاون المؤثِّر كارول كويجلي[865] Carroll Quigley، الذي وصفها بأنها «جمعيّة سرِّية ظلت لأكثر من خمسين عامًا،... إحدى أهم القوى في صياغة السياسة البريطانية الخارجية الإمبريالية، وتنفيذها»[866].

تستهدف هذه الجمعيَّة، طبقًا لكويجلي، «توحيد العالَم، وفي المقام الأول العالَم الناطق بالإنجليزية، في هيكل فيدرالي [اتحادي] مَرْكزُه بريطانيا»، وتمثلَتْ أساليبها في «التأثير الاقتصادي والسياسي السرّي من وراء الكواليس و... السيطرة على الوكالات الصحفية والتعليم والدعاية»[867].

كتب كويجلي في أواخر أربعينيات القرن العشرين قائلاً إن المائدة المستديرة «استطاعت أن تُخْفي وجودَها بنجاح كامل، فالعديدُ من أعضائها الأكثر تأثيرًا، الذين اكتفوا بامتلاك الواقع بدلاً من إظهار السلطة، غيرُ معروفين حتى لطلبة التاريخ البريطاني المتعمِّقين». فهي:

خَطَّطت لغارة جيمسون[868] Jameson Raid عام 1895؛ وتسبَّبَتْ في حرب البوير Boer War عام 1899 - 1902؛ وأنشأت [منحة] رودس ترست Rhodes Trust وسيطرت عليها؛ وأسَّستْ اتحاد جنوب أفريقيا Union of South Africa بين عاميْ 1906 - 1910؛ وأنشأت الدورية الجنوب أفريقية «الدولة» The State في عام 1908؛ وأصدرت مجلة الإمبراطورية البريطانية «المائدة المستديرة» The Round Table عام 1910، التي لا تزال لسان حال المجموعة؛ وظل لها التأثير الوحيد الأقوى في كليات أول سولس All Souls وباليول Balliol ونيو كوليج New Colleges في جامعة أكسفورد لأكثر من جيل؛ وسيطرت على التايمز The Times

لأكثر من خمسين عامًا، باستثناء ثلاث سنوات من عام 1919 حتى عام 1922؛ ورَوَّجَتْ فكرةَ واسمَ «كومنولث الأمم البريطاني» British Commonwealth of Nations في الفترة من عام 1908 حتى عام 1918؛ وكان لها التأثير الرئيسي في إدارة لويد جورج[869] Lloyd George للحرب منذ عام 1917 حتى عام 1919؛ وهيمنت على الوفد البريطاني في مؤتمر السلام Peace Conference عام 1919؛ وكانت على علاقة بتشكيل عصبة الأمم League of Nations وإدارتها وتشكيل نظام الانتدابات وإدارته؛ وأسَّسَتْ المعهد المَلَكي للشؤون الدولية[870] Royal Institute of International Affairs في عام 1919 ولا تزال تسيطر عليه؛ وكان لها أحد أقوى التأثيرات الرئيسية في السياسة البريطانية تجاه أيرلندا وفلسطين والهند في الفترة من عام 1917 حتى عام 1945؛ وكان لها تأثير جِدُّ مهم في سياسة استرضاء ألمانيا خلال السنوات من عام 1920 حتى عام 1940؛ وتحكَّمت - ولا تزال تتحكم إلى حد كبير - في مصادر تاريخ الإمبريالية البريطانية والسياسة الخارجية منذ حرب البوير، وفي كتابته[871].

ومهما كانت حقيقة هذه الادعاءات اللافتة للنظر، فلم يعد آخرها بكل تأكيد قابلاً للتطبيق. فالعلماء صاروا يكتبون علانيةً وبنزاهة عن المائدة المستديرة، على حين يواصل مُنظِّرو المؤامرة تكرار مزاعم كويجلي.

وحتى لو لم تكن المائدة المستديرة تُدِيرُ العالَمَ، فالذي لا يمكن إنكاره أن عددًا جِدًّ قليل من البريطانيين يديرون مناطق كبيرة من العالم. ولنكرِّرْ: كيف أمكن ذلك؟

يكمن جزءٌ من الإجابة عن هذا السؤال في الطريقة التي استوعبت بها بريطانيا داخل وجودها الإمبراطوري هياكلَ السلطة المحلية القائمة. في طنجانيقا Tanganyika [حاليًا دولة في أفريقيا]، مثلاً، حاول السير دونالد كاميرون Sir Donald Cameron تعزيز الروابط بدءًا من «الفلاح... حتى رئيس العُمَّال، ومن رئيس العُمَّال حتى نائب القائد، ومن نائب القائد حتى القائد، ومن القائد إلى مدير المقاطعة». وفي غرب أفريقيا، اعتقد اللورد كيمبرلي Lord Kimberley أنه من الأفضل «ألا يكون له علاقة مع «أهل البلد المتعلِّمين» بوصفهم كيانًا. سأتعامل مع الزعماء بالوراثة فقط». ويُصِرُّ جورج لويد قبل ترقيته الجديدة إلى منصب المندوب السامي high commissioner في مصر على أن «كل الشرقيين يُقدِّرون تقديرًا كبيرًا وجود أمير». وفيما يقول فريدريك لوجارد[872] Frederick Lugard،

مهندس الإمبراطورية البريطانية في غرب أفريقيا، هدفُ الإمبراطورية النهائي «الحفاظُ على الحكومات التقليدية بوصفها حصن أمان اجتماعي في عالم متغير... والتصنيف المهم حقًا يكون وَفْقَ المكانة الاجتماعية»[873].

لقد اخترع لوجارد نظريةً كاملة لـ«الحُكْم غير المباشر»، بحيث يتم الحفاظ على الهيمنة البريطانية بأقل تكلفة ممكنة عن طريق تفويض النُّخَب القائمة بكل السلطة المحلية، مع جَعْلِ العناصر الأساسية في السلطة المركزية (ولا سيما السلاسل المالية) في أيدٍ بريطانية. ويُعَرِّفُ لوجارد الحُكْمَ غير المباشر، في كتابه «التفويض الثنائي في أفريقيا الاستوائية البريطانية» The Dual Mandate in British Tropical Africa (1922))، بأنه «الاستخدام المنهجي لمؤسَّسات الشعب العُرْفية بوصفها وكلاء الحُكْم المحلي»[874].

وعلى قمة كل هذه التسلسلات الهَرَميَّة التي أساسها المكانة الاجتماعية، يضيف البريطانيون هَرَميَّتَهم الإمبريالية المُقَوِّمةَ لكل شيء. كان بروتوكولُهم في الهند محكومًا حُكْمًا صارمًا بـ«جدارة حق الأولوية»، الذي تألَّف في عام 1881 من ما لا يقل عن سبع وسبعين رُتْبة منفصلة. وعلى امتداد الإمبراطورية، لَهَثَ المسؤولون وراء عضوية «وسام القديس ميخائيل والقديس جورج الأكثر تميزًا»[875] Most Distinguished Order of St Michael and St George،

سواء من رُتْبة سي إم جي God Me Call) CMG)،
أو رُتْبة كي سي إم جي God Me Call Kindly) KCMG)
أو الرُتْبة المُدَّخرة لطبقة الحُكَّام العليا جي سي إم جي God Me Calls God) GCMG).

وفيما يُصرِّح اللورد كورزون[876] Lord Curzon، وُجِدَتْ «شهيةٌ نَهِمَة [فيما بين] جماعة الناطقين بالإنجليزية في جميع أنحاء العالم إلى الألقاب وحقّ الصدارة». ويضيف إلى الأوسمة، الأوشحةَ والميداليات المرغوبة بالقدر نفسه. ورغم كل نجاح جون بوشان الدنيوي، فقد عَذَّبته غنيمتُه الضئيلة من تلك «الصُّنوج» الرنَّانة على الصدر».

لم تكن الإمبراطورية البريطانية لتصل إلى مثل هذا الامتداد الواسع، ولا أن تستمر فيه طويلاً كما حدث، بالاعتماد على التسلسل الهَرَمي وحده، ناهيك عن الخُيَلاء. ولم تتلاشَ الشبكات الثورية في القرن التاسع عشر. بل وُلِدَتْ مع انتشار عقيدة كارل ماركس Karl Marx فيما بين المثقفين والعمال، أكبرُ شبكات العصر الحديث:

الشبكة الاشتراكية socialist network. وازدهرت حركات ثورية أخرى أيضًا، تراوحت ما بين الأناركية anarchism إلى النِّسْوية feminism إلى القومية الراديكالية radical nationalism، في أواخر القرن التاسع عشر. ولكن أبنية العصر الهَرَميَّة - الإمبراطوريات والدول القومية - استطاعت السيطرة على هذه الشبكات بسهولة تامة، حتى عندما لجأت إلى الإرهاب terrorism. وذلك لأن تكنولوجيات الاتصال الجديدة التي أوجدتها الثورةُ الصناعية - السكك الحديدية، البواخر، التلغراف، ولاحقًا الهاتف، فضلاً عن الخدمات البريدية الوطنية والجرائد - خلقت شبكاتٍ أكبر بكثير من شبكات الاشتراكيين التي نجحت في الرَبْط بين أشكال تنظيم العمال العديدة المنتشرة في الاقتصادات الصناعية[877]، بل تركت نفسَها للسيطرة المركزية أيضًا.

لقد سَرَّعتْ طاقةُ البخار والكابلات الكهربية الاتصالاتِ بشكل واضح. في أيام المراكب الشراعية، كان الأمر يستغرق ما بين أربعة وستة أسابيع لعبور المحيط الأطلنطي؛ ثم قَلَّ الوقتُ بعد بناء البواخر إلى أسبوعين في أواسط ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وإلى عشرة أيام فقط في ثمانينيات القرن التاسع عشر. ثم بين خمسينيات القرن التاسع عشر وتسعينياته، تقلَّصَ وقت الرحلة من إنجلترا إلى كيب تاون Cape Town من اثنين وأربعين يومًا إلى ثمانية عشر يومًا. وعلاوة على ذلك، صارت البواخر أكبر وأسرع؛ ففي الفترة نفسها تضاعف متوسط الحمولة الإجمالية تقريبًا. وبالإضافة إلى قِصَر الوقت اللازم لعبور المحيطات من العاصمة إلى أرجاء الإمبراطورية، قلَّت التكلفةُ كثيرًا. تقلَّصَتْ تكلفةُ الشحن

البحري لمكيال القمح من نيويورك إلى ليفربول Liverpool، إلى النصف بين عاميْ 1830 و1880، ثم تقلَّص هذا النصفُ مرة أخرى إلى نصفه بين عاميْ 1880 و1914.

العجائب الأكبر أثارها التلغرافُ. فبعد عام 1866، كان من الممكن نقل معلومات عبر الأطلنطي بمعدل ثماني كلمات في الدقيقة.

تَناقَصَ الاتجاهُ نحو جَعْل السيطرة مركزيةً بشكل فوري واضح. فأُقِيمتْ شبكةُ السكك الحديدية البريطانية بعد عام 1826 بحدٍّ أدنى من تدخُّل الدولة: السكك الحديدية التي أقامها البريطانيون في جميع أنحاء إمبراطوريتهم، أنشأتها شركاتُ القطاع الخاص بدَعْمٍ حكومي سخيّ، الأمر الذي ضمن توزيع الأرباح على المساهمين. الخط الأول في الهند، الذي يربط مدينة بومباي Bombay بمدينة ثين Thane، بمسافة واحد وعشرين ميلاً، افْتُتِحَ رسميًا في عام 1853؛ وفي أقل من خمسين عامًا، غَطَّى مسارُ القطارِ 25 ألف ميل تقريبًا. وهذه الشبكةُ منذ بدايتها ذات أهداف إستراتيجية واقتصادية. وينطبق الأمر نفسه على التلغراف، الذي طُوِّرَ بكفاءة في الهند بحلول عام 1857 ليلعب دورًا حاسمًا في قَمْع عصيان ذلك العام الذي نظَّمه جنود محليون متمرِّدون. (قال أحد المتمردين - وهو في طريقه إلى الإعدام - إن التلغراف هو «السلسلة الملعونة التي شنقتني»). وأما الاختراق [التقدُّم المفاجئ] الحاسم في مركزية الاتصالات فكان إنشاءَ كابلات متينة تحت البحر.

والكابلاتُ منتجٌ إمبريالي: نوع من المطاط من مالايا Malaya [البريطانية][878]

يُسمَّى كوتابيركا [أو الطبرخي][879] gutta - percha

جَعَلَ صناعةَ الكابلات العازلة ممكنةً؛ فأمكَنَ وَضْعُ أول كابل يعبر القنال في عام 185، ولحقه أولُ كابل يعبر الأطلنطي بعد خمسة عشر عامًا. وعندما وُضِعَ أولُ خط تلغراف ناجح عَبْرَ الأطلنطي، بَزَغَ فجرُ عصر جديد. فالكابل الذي عَبَرَ من أيرلندا

إلى نيوفندلاند[880] Newfoundland،

أَوْعَزَ بأن القوة التي ستُهيمن هي عصر التلغراف. وبحلول عام 1880، كان يوجد ما مجموعه 97.568 ميلاً من الكابلات عبر محيطات العالم، تربط بريطانيا بالهند وكندا وأستراليا، وأفريقيا

وأستراليا.

صار من الممكن نقلُ رسالة من بومباي إلى لندن بتكلفة أربعة شلنات للكلمة بقدر مماثل من الدقائق. وعلى حدِّ تعبير تشارلز برايت Charles Bright، رائد التكنولوجيا الجديدة، التلغرافُ هو «منظومة أعصاب العالَم الكهربية». وكما قال أحد المعلِّقين الإمبرياليين البارزين، حققت الثورةُ الفيكتورية في الاتصالات الكوكبية «إعدامًا للمسافة».

وهو ما جعل ممكنًا أيضًا إعدام المسافات الطويلة. وقد أعلنت الديلي تليجراف

Daily Telegraph أن «الزمن نفسه صار تلغرافيًا»[881].

المتمرّدون هم الذين تجرأوا على تحدِّي النظام العالمي الإمبريالي.

رغم المزايا الإستراتيجية التي حققتها شبكة الكابلات العالمية، التي تَسَارَعَ نموُّها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فقد ظلت مِلْكيتها في أيدي القطاع الخاص إلى حد كبير. فلم تكن الملكة فيكتوريا هي التي حققت الحلم ببَرْقيات تَعْبُرُ الأطلنطي، بل إسكتلندي شغوفٌ بالمغامرة اسمه جون بليندر John Plender.

وُلِدَ بليندر في وادي ليفين Vale of Leven [بإسكتلندا]، وجمع ثروته الأولى من تجارة القطن في جلاسكو ومانشستر، ثم حثَّته تجربتُه بوصفه تاجرًا ينتظر باستمرار الأخبار من وراء البحار، على الاستثمار أولاً في شركة التلغراف المغناطيسي الإنجليزية والأيرلندية English and Irish Magnetic Telegraph Company، ثم في شركة التلغراف الأطلنطية Atlantic Telegraph Company. وتدهور استثمارُه الثاني عندما تَمزَّقَ الكابلُ الموضوع [تحت المياه] بشقِّ الأنفس عام 1858؛ بسبب خطإِ «كهربائيٍّ كبير» غير مؤهَّل، أرادَ تحسينَ وضوح الإرسال عن طريق زيادة الجهد الكهربي بعاملٍ أكثر من ثلاثة. حاول بليندر مرة ثانية في عام 1865، فأدمج شركة التلغراف الأطلنطي في شركة جديدة هي شركة تركيب التلغراف وصيانته Telegraph Construction and Maintenance Company. فوقعت كارثةٌ للمرة الثانية عندما انقطع كابل معزول بشكل أفضل، ولكنه أثقل بكثير، وغرق في قاع المحيط، في منتصف المسافة عبْر الأطلنطي.

وبأعصاب هادئةٍ وشَجَاعةٍ كبيرة، أصرَّ بليندر وشريكُه دانيال جوش Daniel Gooch - مهندس السكك الحديدية الإنجليزي الذي أنشأ شركة جديدة هي شركة التلغراف الأنجلوأمريكية المحدودة - Anglo - American Telegraph Company Ltd على استكمال المشروع، فنجحت المحاولةُ الثالثة. ووَصَفَ جوش - الذي أشرف بنفسه على وَضْعِ الكابل الناجح من الباخرة الشرقية الكبيرة Great Eastern، أكبر باخرة يومها - وَصَفَ البهجةَ التي اسْتُقْبِلَ بها هو وطاقمه عندما وصلوا إلى مدينة هيرتس كونتنت Heart's Content، في نيوفندلاند:

هناك... كانت الإثارةُ الأكثر جموحًا بطريقة لم أرها من قبل. بدا الجميعُ فرحين بجنون، يقفزون إلى الماء ويصرخون وكأنهم يريدون إسماع صوتهم في واشنطن.

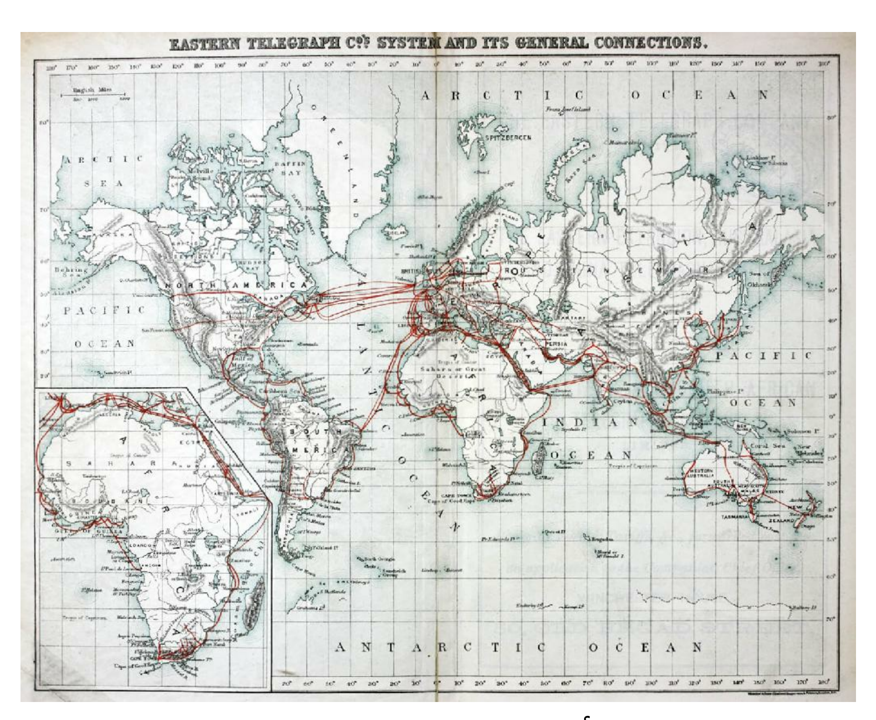
وبمجرد أن لمس الكابلُ الأرضَ أُجْرِيتْ إشارةٌ من الشاطئ، فأطلقت جميعُ السفن في الميناء نيرانَ مدافعها على سبيل التحية. لا أعرف كم عدد المدافع

التي أطلقت التحيةَ، لكن الصخب كان هائلاً، وسرعان ما أخفى الدخانُ السفنَ عن أعيننا. أصداءُ صوت المدافع بين التلال حول الخليج مَهُولةٌ... وبمجرد وصول [الكابل]...

اسْتُخدِمَ المنزلُ الخشبي بوصفه مكتب تلغراف... فحَدَثَ مشهدُ إثارة جامح آخر. جوانب الكابل القديم بَدَتْ وكأنها مأكولة الطرف؛ وضعها رجل بالفعل في فمه وبدأ يرتشفها[882].

بعد يومين، رأى جوش بعض أفراد طاقمه يقرأون مقال جريدة التايمز Times الرئيسي الذي يحتفي بإنجازهم. «ثم قال أحدهم لآخر: «لقد أحْسَنَّا يا بيل لِعِرْقنا»، فرَدَّ بيل: «نعم لقد أحْسَنَّا»، وهو يختال رافعًا رأسه إلى أعلى، بوصتين على الأقل»[883].

في عام 1868 حين قامت الحكومة البريطانية بتأميم شبكة التلغراف المحلية، لم تحاول تأميم الكابلات العابرة للأطلنطي. ولم يُضِعْ بليندر وقتًا؛ ففي عام 1869 أسَّسَ شركة تلغراف فالموث وجبل طارق ومالطة Falmouth, Gibraltar and Malta Telegraph Company، وشركة التلغراف البحري البريطانية الهندية British - Indian Submarine Telegraph Company، والتلغراف البحري الصيني China Submarine Telegraph. وفي غضون بضع سنوات فقط، اتصلت لندن تلغرافيًا بمالطة والإسكندرية وبومباي وسينغافورة وهونج كونج. وبحلول عام 187، ربطت شركتان أخريان أسَّسهما بليندر بومباي بمدينة أديلايد Adelaide [في أستراليا] عن طريق سنغافورة. وبعد أن أدمج بليندر العناصر الجوهرية في إمبراطورية كابلاته المتنامية ليُشكِّل منها شركة التلغراف الشرقي Eastern Telegraph Company، وَاصَلَ التوسُّعَ بلا توقف، فرَبَطَ لشبونة بمدينة بيرنامبوكو Pernambuco في البرازيل عام 1874، وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر وصل إلى أفريقيا. لقد أسَّس بليندر اثنتين وثلاثين شركة تلغراف، انتهى الحال بمعظمها إلى كَوْنها شركات تابعة لشركة التلغراف الشرقية. وعند وفاته في عام 1896، كان بليندر يسيطر بشركاته التي يمتلكها على ثلث نظام التلغراف العالمي (الشكل التالي).




المخترعون يُجَرِّبون. ورجال الأعمال يستثمرون ويتنافسون. والحكومات تجني مصالح إستراتيجية. وقد نُظِّمتْ الكياناتُ الدولية - كاتحاد التلغراف الدولي الذي أُنْشِئ عام 1865 - أو على الأقل تناغمت فيما بينها[884] .

لكن ما ظهر، في نهاية المطاف، احتكارٌ ثنائيٌّ من القطاع الخاص للإبْراق الدولي: عندما أحرز الأنجلو أمريكان مكانةً بعد عام 1910، سيطرت الشركة الأمريكية ويسترن يونيون Western Union على حركة المرور عبر الأطلنطي، أما شركة التلغراف الشرقي Eastern Telegraph فأدارت بقيةَ العالم.

لندن هي محور النظام بأكمله، ولم تكن الحكومة في حاجة إلى امتلاك الشبكة امتلاكًا مباشرًا، كما لم تكن في حاجة إلى حُكْم ولايات الهند الأميرية حُكْمًا مباشرًا. ذلك أن بليندر الليبرالي، ولاحقًا العضو الاتحادي الليبرالي Liberal Unionis في البرلمان منذ ستينيات القرن التاسع عشر، والحاصل على وسام كي سي إم جي KCMG في عام 1888 وجي سي إم جي GCMG في عام 1892، يمكن الاعتماد عليه بوصفه عضوًا كاملاً تمامًا في تلك النُّخْبة السياسية البريطانية المهووسة بالمكانة الاجتماعية، التي صَوَّرها أنتوني ترولب[885] Trollope بشكل هجائي في روايته «الطريقة التي نعيش بها الآن» (The Way We Live Now (1875.

كان تسلسل الأحداث الذي بدأ من مشروعات بليندر الجريئة، وصولاً إلى إنشاء شبكة تلغراف عالمية، هو السمة المميزة للإمبريالية في القرن التاسع عشر.

وقد أدَّت عمليةٌ مماثلةٌ - بعض الشيء - إلى تطوير مزارع المطاط في مالايا، مصدر الكوتابيركا، التي بدونها تستحيل تقنيًا شبكةُ الكابلات عبر المحيطات. المغامر المشاكس عبر البحار، هنري ويكهام Henry Wickham، بعد فشله في التجارة والزراعة، حصل على بذور شجرة المطاط هيفيا برازيلية Hevea brasiliensis من البرازيل وأرسلها إلى لندن. ودَعَّمَ جهودَه السير كليمنتس ماركهام Clements Markham، سكرتير الجمعية الجغرافية المَلَكيّة Royal Geographical Society، وتمت عمليات البحث والتطوير الحقيقية في الحدائق النباتية المَلَكيّة Royal Botanical Gardens في كيو Ke [جنوب غرب لندن] (ومديرها جوزيف هوكر Joseph Hooker صديق تشارلز داروِن Charles Darwin) ومثيلاتها في سيلان [سيريلانكا] Ceylon وسنغافورة. وتُرِكَ الاستثمارُ في مزارع كبيرة جنوب شرق آسيا، ولا سيما ولايات المالايو Malay States، لرأس المال الخاص. ولم تُشارِكْ سلطات المالايو الاستعمارية إلا حين انهارت الأسعار بعد الحرب العالمية الأولى[886].

لقد كان السببُ الرئيسي في صمود الإمبراطورية البريطانية، مع اتساع رقعتها، ما أسبغته من رُتُوشِ سلطةٍ مركزية خفيفة. فرغم أن نظريتَها هَرَمِيَّة - بل صَنَّفَ المنظِّرون الفيكتوريون العنصريون، من أمثال جون بوشان، الجنسَ البشري طبقًا لمستويات ذكاء وراثية - فقد ارتكزت ممارستُها العملية على تفويض الحُكَّام المحليين والشبكات الخاصة بسلطة كبيرة. وعلى عكس إمبراطورية نابليون الأوربية قصيرة العمر، لم تكن الإمبراطورية البريطانية تُدَارُ بعبقرية إدارية صُغْرَى، بل أدارها نادٍ من الهُواة المهذبين اللائقين، اعتمد تفوُّقُهم - الذي يبدو أنه دون مشقة - على مساعٍ مجهولة بَذَلَها وكلاء محليون ومتعاونون من أهل البلد. أُدِيرَ كلُّ جانب من جوانب التوسُّع البريطاني بهذه الطريقة تقريبًا، بدءًا من المال [الموارد المالية][887] إلى العمل التبشيري[888].

«المكتب الرئيسي» كان في لندن، ولكن «الرجل في الموقع» تمتع باستقلالية كبيرة، ما دام لم يُظْهِرْ أيَّ علامات على «التأقلم مع الأصل». وفي بعض الحالات، انتشر النفوذ البريطاني بلا توجيه مركزي تقريبًا.

ومثال ذلك انتشارُ نظام الرقابة على التعليم الابتدائي في أمريكا اللاتينية، وهي منطقة حَكَمَتْها الإمبرياليةُ غير الرسمية. هذا النظام التعليمي الذي طوَّره جوزيف لانكاستر Joseph Lancaster وأندرو بيل Andrew Bell كي يُطَبَّقَ في إنجلترا والهند البريطانية، جَلَبَه إلى أمريكا الجنوبية في القرن التاسع عشر مجموعةُ سياسيين أمريكيين ذوي أصل أسباني عرفوه في لندن، وجيمس طومسون James Thomson الممثل المتنقل لجمعية المدارس الأجنبية والبريطانية British and Foreign School Society وجمعية الكتاب المقدس البريطانية والأجنبية British and Foreign Bible

Society، والجمعية الاقتصادية المَلَكيَّة لأصدقاء البلد
[889] Spanish Real Sociedad Económica de Amigos del País.

سار الاتجاه الاقتصادي في أواخر القرن التاسع عشر، بشكل واضح، نحو زيادة العوائد بالإنتاج واسع النطاق[[890]].

ففي كل قطاع صناعي تقريبًا، وُجِدَ اتجاهٌ واضح نحو التركيز. نمت الشركات بقدر أقل، وقِلَّةٌ منها نمت نموًا هائلاً. وباستثناءات قليلة بارزة مثل شراكة روتشيلد المَصْرفية، كَفَّت الشركات الكبرى عن أن تملكها وتديرها عائلاتُ مؤسِّسيها. فعلى ضفاف نهر كلايد River Clyde [في إسكتلندا]، كالحال في جميع أنحاء العالم الصناعي، صارت شركاتُ المساهمة[[891]] joint - stock companies. الشكلَ المهيمن على المشروعات الكبيرة[892].

أندرو كارْنِجي[[893]] Andrew Carnegie
المهاجر الإسكتلندي إلى الولايات المتحدة، كان بونابرت الصناعة، وشركة الفولاذ المُسَمَّاة باسمه هي إحدى الشركات العملاقة في العصر الذهبي الأمريكي.
يشرح كارْنِجي في مقال له نُشِرَ عام 1889 قائلاً:

«الثمنَ الذي يدفعه المجتمع من أجل قانون المنافسة»، كالثمن الذي يدفعه في وسائل الراحة الرخيصة والكماليات، ثمنٌ... كبير؛ لكن مزايا هذا القانون تظلِ أكبر أيضًا، فنحن مدينون لهذا القانون بتطوُّرنا المادي الرائع، الذي حَسَّنَ الظروف في تسلسلها. ويجب علينا، سواء كان القانون نافعًا أم لا، أن نتحدث عنه كما نتحدث عن التغيُّر في ظروف الرجال... فهو موجود؛ ولا يمكننا تجنُّبه؛ ولا بدائل له نعثر عليها؛ ومع أن القانون ربما يكون قاسيًا أحيانًا بالنسبة إلى الفرد، فهو أفضل بالنسبة إلى العِرْق، لأنه يضمن البقاء للأصلح في كل فرع.

لذا، نتقبل التفاوت الكبير في البيئة، وتركيز الأعمال الصناعية والتجارية في أيدي القِلَّة، ونحتفي بذلك، بوصفها الظروف التي علينا التأقلم معها، وقانون المنافسة بين هذه القِلَّة مفيدٌ بل ضروريٌّ لتقدُّم العِرْق مستقبلاً... هذه الحالة التي تَتَعزَّزُ في ظلها أفضلُ مصالح العِرْق... تُعْطِي الثروةَ للقِلَّة حتمًا[894].

لكن كارْنِجي لم يَسْعَ إلى تأسيس سُلالة عائلية؛ بل احتقرَ الثروةَ الموروثة، وتبرَّع بكل ثروته تقريبًا. شركة كارْنِجي للصلب Carnegie Steel Company، وهي نفسها نتاجُ اندماج حَدَثَ في عام 1892، دخلت - بعد تسع سنوات - في بطن شركة الولايات المتحدة للصلب United States Steel Corporation الهائلة (مع أنها غير احتكارية). ولم يقتصر تركيز

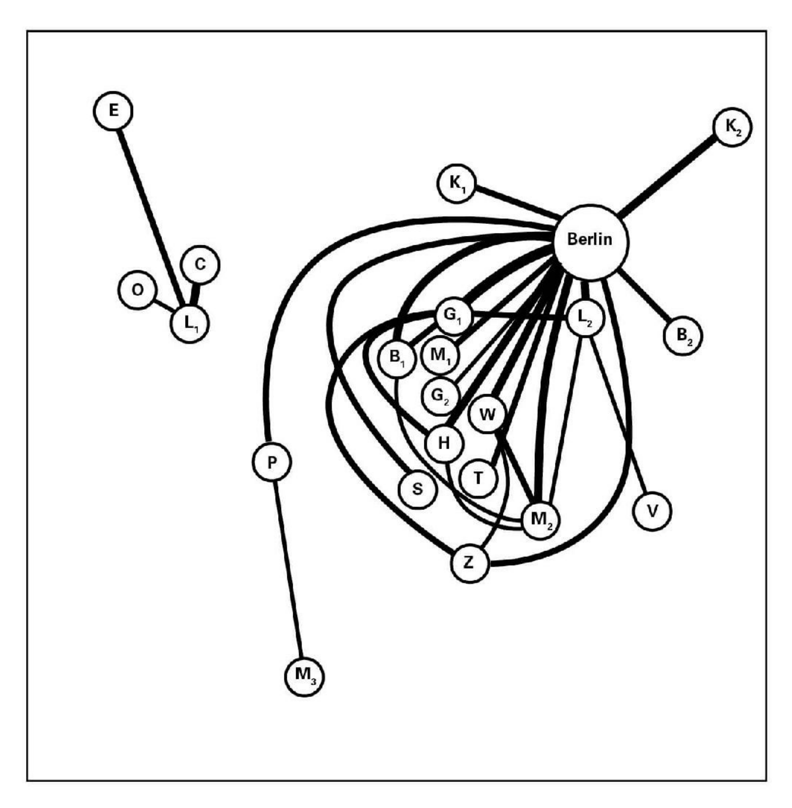
رأس المال على مجاليْ التلغراف والصلب. فقد نما النظام المالي الدولي كما تنمو شبكةٌ حرةَ النطاق ذات كمٍّ هائل من الثروة المالية المتركِّزة في عدد قليل من المراكز المالية، ومنها لندن التي هي أقدم المجموعة primus inter pares.[895]

وانطبق الحالُ نفسُه على الأخبار. لقد بدا العالَم للوهلة الأولى مغمورًا بصُحف محلية لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى؛ وأما عند الفحص الدقيق فسنكتشف أن التزويد بالأخبار الوطنية والدولية هَيْمَنَ عليه كارتلٌ[[896]] cartel يتكون من ثلاث وكالات أخبار أوربية – رويترز[[897]] Reuters وهافاس[[898]] Havas ومكتب تلغرافات وولف[[899]] Wolff's Telegraphischs Bureau - تُعَادُ طباعةُ تقاريرها في الغالبية العظمى من الصحف.[900]

وبحلول أواخر القرن التاسع عشر، كَشَفَ العالَمُ الأكاديمي عن علاماتِ مركزيةٍ أيضًا. فشبكة الثورة العلمية، الدولية الواسعة، صارت مع نموها الهائل في أهمية الجامعات الألمانية.[901]

والتعليم الألماني كان يُقلِّدُ نظامَ الجيش البُروسِّي Prussian army في صرامة بنيته الهَرَمِيَّة. ففي المدارس الثانوية Gymnasien - مدارس النُّخْبة العليا - يجلس الأولاد في الفصل وَفْقًا لموقعهم في الترتيب الأكاديمي.[902]

وفي الجامعات الكبرى - جوتِنجن Göttingen وهايْدلبرج Heidelberg وييِنا Jena وماربورج Marburg وتوبِنجن Tübingen - كان الأساتذةُ كالضبَّاط الصارمين يَستبدُّون بطلبتهم في الدراسات العليا. ومن حيث زيادة جودة البحوث المنشورة وكمِّها في الحقول التي تراوحت من الأدب الكلاسيكي إلى الكيمياء العضوية، كان النظامُ يعمل [بالصرامة نفسها]. ورغم تخلُّف الإمبراطورية الألمانية عن نظيرتها البريطانية في الاستحواذ على الأراضي عبر البحار، فقد تقدَّمت في العلوم ومن ثمَّ الصناعة.




الشكل رقم: 19 - شبكات الممارسة العلمية في القرن التاسع عشر: هيمنة الجامعات الألمانية. ويقوم الرسم البياني على أساس الأماكن التي عمل فيها علماء القرن الروَّاد.

B1 Bonn, B2 Breslau, C Cambridge, E Edinburgh, G1 Göttingen, G2 Giessen, H Hiedelberg, K1 Kiel, K2 Königsberg, L1 London, L2 Leipzig, M1 Marburg, M2 Munich, M3 Montpellier, O Oxford, P Paris, S Strasbourg, T Tübingen, V Vienna, W Würzburg, Z Zurich.

كانت النُّخْبةُ البريطانية منفتحةً نسبيًا. فالأرستقراطيون استثمروا في السكك الحديدية، وانضموا إلى مجالس إدارة البنوك، وزوَّجوا أولادَهم من «المال الجديد» اليهودي أو الأمريكي. أما الحياة في ظل الرايخ الألماني German Reich فتميزت بتطعيم الحداثة الاقتصادية ببنية اجتماعية ما قبل صناعية، تحتفظ فيها طبقةُ الأرستوقراطية البروسيَّة النبيلة Prussian Junker باليد العليا. وتُذكِّرنا دراساتُ المجتمعات الريفية في وسط أوربا وشرقها في القرن التاسع عشر بذلك، فلدى النسبة الكبيرة من السكان الأوربيين كانت الحداثةُ احتمالاً بعيدًا، حتى في عام 1850، وكلما انتقل المرء إلى الشرق أبعد، عاد إلى الوراء في الزمن أيضًا. فعاشت الجماعات الألمانية خارج الرايخ عالَمًا لا يصادفه سكانُ لندن إلا في حكايات الأخوين جريم [903] Brothers Grimm في وادي جَيل النمساوي Austrian Gail، هيمنت أنماطُ «زواج الأقارب البنيوي أو الهَيْكلي» على قرارات الزواج والنَّسَب كما

كان الحال منذ القرن السادس عشر[904]. وعلى أراضي بينكِنهوف Pinkenhof الزراعية، في مقاطعة ليفونيا البلطيقية الروسية[905] Russian Baltic province of Livonia،
وُجِدَتْ عائلاتٌ كثيرة تعيش معًا في أكواخ خشبية تحت إشراف رئيس عُمَّال يُوجِّه عملَهم في الحقول الزراعية[906].

ولكن واقع الحال أن التصنيع وإرساء معالِم الديمقراطية - الجاري تحقيقهما لمعظم الألمان مع تأسيس الرايخ في عام 1871 - طرحا تحديات جوهرية على النظام القديم. في رواية تيودو فونتانه[907] Theodor Fontane «ستيتشلين» Der Stechlin المنشورة عام 1899، يرمز مصنعُ الزجاج المحلي في جلوبسو Globsow إلى قُرْب انهيار النظام الريفي القديم في إمارة براندِنبورج[908] Mark of Brandenburg. ويَرْثو الأرستوقراطي القديم دوبسلاف فون ستيتشلين Dubslav von Stechlin قائلاً:

إنهم... يرسلون [المُقَطَّرات التي يصنعونها] إلى مصانع أخرى، وعلى الفور تبدأ في تقطير كل أنواع الأشياء البغيضة داخل هذه البالونات الخضراء: حامض الهيدروكلوريك، حامض الكبريتيك، بخار حامض النيتريك... وكل قطرة تترك ثقبًا محترقًا، سواء في الكتان أو القماش أو الجلد؛ وفي كل شيء؛ كلٌّ شيء محترقٌ وشائِطٌ. وحين أفكر في أن أهل جلوبسو يلعبون دورًا في هذا، بل يُوفِّرون بسعادة تامة أدوات إحراق العالم الكبير، يُصيبني الألمُ[909].

وقد تعرَّضت شبكات الوُجَهاء Honoratioren [من الأرستوقراطية النبيلة]، التي سيطرت عائلاتُهم على هياكل السلطة المحلية لأجيال[910]، لهجمات متواصلة من الأحزاب السياسية القومية الجديدة، بل من البيروقراطيات النامية على المستوى القومي والإقليمي والمحلي أيضًا. فَهِمَ السوسيولوجي العظيم ماكس فيبر[911] Max Weber (الذي أدَّى به كفاحه، كي يتفوق بوصفه مثالاً نموذجيًا للأستاذ التيوتوني[912] Teutonic، إلى انهيار عصبي) هذا التقدمَ بوصفه عَقْلنة للعملية السياسية و«نزع الغموض» عن العالم. ولكنه فَطِنَ أيضًا إلى أن سلطة الديماجوجيين ستتمكَّنُ من الاشتغال في مشهد سياسي يتزايد خُلُوُّه من الشبكات التقليدية.

بينما وَسَّعَت الإمبراطورياتُ الأوربية شبكاتِها الحديديةَ والفولاذية المُغلَّفة بالمطاط فوق الأرض وتحت البحر، واجهت السلالاتُ الإمبريالية الباقية على قَيْد الحياة في العالَم الشرقي - وبخاصة آل عثمان ومملكة تشينج[913] Qing - معضلةَ إلى أيِّ مدى يمكنها محاكاة أساليب الأوربيين. لقد اختلف هيكل السلطة في إمبراطورية تشينج اختلافًا كبيرًا عن هياكل السلطة في الإمبراطوريات الغربية. إذ استمرت شبكاتُ القرابة العائلية في الهيمنة على السلطة المحلية لقرون عديدة[914]. ومع ذلك، وكما رأينا في الفصل 11، أُخْتير المسؤولون الإمبرياليون على أساس اختبارات كفاءة تنافسية، وهو ما كان من شأنه تَنْحية أية ولاءات سوى الولاء الأهم والأكبر للإمبراطور[915].

وللحقيقة، أُطْلِقَ على الصين في عهد سلالة تشينج الحاكمة «مَلَكيَّة بيروقراطية»، يحكمها «رجالٌ تُقَدَّرُ وظائفهم بالنفوذ والسلطة، والحركية والحماية داخل نظام هَرَمي»[916].

كان كابوسُ كلِّ سلالة تالية تمرُّدًا تقوده شبكةٌ تنشأ من آنٍ لآخر في المقاطعات. بل وُجِدَ تقليدٌ بين المسؤولين الكونفوشيين، ألا وهو تخيُّل وجودِ تهديد متكرِّر من جمعيَّة غامضة هي «جمعيَّة اللوتس البيضاء» White Lotus Society، التي ضمَّتْ مجموعةً من البوذيين العَلْمانيين ترجع أصولهم إلى الناسك الشهير هُويّوان[917] Huiyuan في عام 402 ميلاديًا.

وعلى مدار عهود يوان[918] Yuan ومينج[919] Ming وتشينج، وُجِدَ ميلٌ إلى تعريف أي فكر تحرُّري بأنه تعاليم اللوتس البيضاء White Lotus Teachings، أو «تعاليم هَرْطقية» أو «مسيحية»[920].

وكما اجتاح فرنسا الثورية «خوفٌ كبيرٌ» في عام 1789، اجتاح الإمبراطوريةَ الصينيةَ - قبل عقدين من الزمان فقط - حالةُ ذعر من «سرقة الروح»، فالقرويون يَتَّهمون النُّسَّاك الجوَّالة المُعْدمين، بل المسؤولين الرسميين، والإمبراطور أيضًا، بالاستيلاء سحريًا على الأرواح البشرية[921].

وقد نجح الإمبراطور تشيان لونج[922] Qianlong في استغلال حالة الذعر لصالحه، فأعاد تأكيدَ سلطته على البيروقراطية

الإمبراطورية. ولكن
هَوَسَ
mania
سرقة الروح كَشَفَ عن ضعف خطير في النظام، ألا وهو أن المعايير الأوربية اخترقت كفاءةَ النظام البيروقراطية إلى حدٍّ ما، وأن شرعيته صارت محلَّ تساؤل.

كان النظامُ، في القرن التاسع عشر، قويًا بما يكفي لتوسيع حُكْم تشينج شمالاً وغربًا، إلى أبعد من الأراضي التاريخية الأساسية التي حكمتها سلالةُ مينج وأسلافها[923]، ولكنه أضعف من أن يقاوم الانتهاكات الأوربية، ولا سيما البريطانية، التي بدأت في أربعينيات القرن التاسع عشر؛ كان النظام قويًا بما يكفي، فقط، للنجاة من أزمة داخلية أقوى من أزمتيْ اللوتس البيضاء وسرقة الأرواح، ألا وهي تمرُّد التايبينج[[924]] Taiping Rebellion.

لقد تمتعت أوربا في القرن التاسع عشر بسلام نسبي، كما رأينا. أما الصين فلم تنعم بالسلام. ووفق أي مقياس، تُعَدُّ الحربُ الأهلية التي اجتاحت إمبراطوريةَ تشينج بين عاميْ 1850 و1865 أكبرَ صراع في القرن التاسع عشر، إذ تسبَّبتْ - بشكل مباشر أو غير مباشر - في موت ما بين 20 و70 مليون شخص، فأهلكت القسمَ الأعظم من السكان الصينيين تقريبًا. كانت أكثر تدميرًا من حرب الحِلْف الثلاثي (1864 - 1870)[[925]] War of the Triple Alliance بين باراجواي والأرجنتين والبرازيل وأوروجواي، أو الحرب الأهلية الأمريكية (1861 - 1865)
War Civil American، وهما أكبر ثاني وثالث صراع في القرن على التوالي.

لقد دُمِّرت مئاتُ المدن الصينية. وصارت مذابح المدنيين وعمليات الإعدام الجماعي للأسْرى والسجناء هي القاعدة. انتشرت الأوبئة (وبخاصة الكوليرا)، وانتشرت المجاعة في أعقاب المعارك. تتضاعف أهمية التايبينج في تاريخ الشبكات ثلاث مرات. الأهمية الأولى أن التمرد نشأ من دعوة دينية جذبت أتباعَها من المجموعات الهامشية في البداية فقط، ثم سرعان ما انتشرت فيروسيًا عبْر أجزاء كبيرة في قلب مملكة هان الصينية Han China. الأهمية الثانية ترجع إلى أن التأثيرات الخارجية (ومعظمها بريطاني مرةً ثانية) قد عجَّلت بالصراع، ومن ثمَّ تسبَّبتْ في هزيمة المتمردين. والأهمية الثالثة تتمثل في أن تأثير الحرب الأهلية المدمِّر أدَّى إلى نزوح حقيقي للصينيين: هجرة بلغت من العِظَم تقريبًا ما بلغه نزوحُ الناس المعاصرين [حينئذٍ] من أجزاء أوربا الأفقر[[926]]

فاستثارت الهجرة، بدورها، تمردًا أقل عنفًا، وإن كان من بعض النواحي شَعْبويًا،

داخل الولايات المتحدة وأماكن أخرى. وهو ما يُعَدُّ عواقب غير مقصودة لأشكال الرَّبْط والاتصال الكبرى [حينذاك].

بدأت الثورة [تمرد التايبينج] في مقاطعة جوانجشي Guangxi، في أقصى جنوب عاصمة إمبراطورية تشينج، في أوائل عام 1851، حين توجَّه جيشُ المتمردين المكوَّن من عشرة آلاف شخص إلى القوات الحكومية في بلدة جينشن Jintian (حاليًا جويبينج Guiping).

لعب الدورَ الرئيسيَّ، في البداية، أقليةٌ عِرْقية هي تشوانج Zhuang، شَكَّلَتْ ما يقرب من رُبْع جيش التايبينج. ومن جوانجشي اجتاح المتمرِّدون نانجينج Nanjing التي اتخذها عاصمةً له هونج شيوكوان Hong Xiuquan الذي نَصَّبَ نفسَه «ملكًا سماويًا». وبحلول عام 1853، سيطر المتمرِّدون على وادي يانجزي Yangzi بأكمله. كان قادةُ الحركة من خارج النظام outsiders. هونج شيوكوان أحدُ أفراد شعب الهاكا Hakka («الناس الضيوف»)[927]، وهي مجموعة فرعية من الهان[928] Han تسكن جنوب الصين، وتعمل في زراعة أراضٍ صغيرة المساحة. فشل هونج في امتحان الخدمة المدنية أربع مرات على المستوى الإقليمي. وأما يانج شيوكنج[929] Yang Xiuqing [شريكه في قيادة التمرد] فهو تاجرُ حطب من جوانجشي.

من الممكن حكاية قصة تايبينج بوصفها ثورة شعبية ضد سلالة دخيلة يُجسِّدها الإمبراطور شيان فنج[930] (Xian Feng (1850 - 1861 والإمبراطورة الأرملة سيشي[931] (Dowagar Empress Cixi (1835 - 1908.

ولأن متمرِّدي التايبينج رفضوا ضفيرة المانشو Manchu queue (حَلْق الشعر من الأمام وتضفيره من الخلف)، لُقِّبوا ب«طوال الشعر». وقد اختاروا مقرًا لهم [وعاصمة] نانجينج، لأنها كانت ذات يوم عاصمة المينج. أهدافُهم من بعض النواحي ثوريةٌ، تدعو إلى «المِلْكية المشتركة» ومساواة المرأة (بما في ذلك إلغاء رَبْط القدم). ولكن من الصعب الاعتقاد بنجاح حركة التايبينج إن لم توجد مؤثرات خارجية أضْعَفَتْ، في الوقت نفسه، حُكْمَ تشينج. المؤثِّرُ الأول تصديرُ شركة الهند الشرقية العدائي للأفيون إلى الصين. والمؤثِّرُ الثاني الأسلحةُ التي كان الأوربيون على استعداد لبيعها بالتساوي [بين الطرفين المتحاربين].

ولا يمكن تبرير ضراوة السياسة البريطانية إلا بصعوبة شديدة. وقد اعترف اللورد إلجن[932] Lord Elgin قائلاً: «من غير دعوة، وبأساليب غير مهذبة دائمًا، كَسَرْنا الحواجزَ التي سعت من خلفها الشعوب القديمة إلى الاحتجاب عن العالم دون أسرار، وربما أيضًا بقايا حضاراتهم العَفِنة الآخِذة في الزوال، في حالة الصين على

الأقل»[933].

الذين كانوا أكثر احترامًا للتراث الصيني، بعض الشيء، المُبشِّرون البروتستانت: رجال من أمثال روبرت موريسن Robert Morrison من جمعية لندن التبشيرية London Missionary Society الذي وصل إلى كانتون Canton (جوانزو Guang) في عام 1807، وويليام ميلن William Milne، المترجم المشارك لأول كتاب مقدس باللغة الصينية نُشِرَ عام 1833. ولكن تأثير المُبشِّرين كان تدميريًا كتأثير بائعي المخدِّرات والأسلحة.

فبعد دخول هونج شيوكوان إلى المسيحية على يد ميلن، استسلم لأوهام دينية بعد إصابته بانهيار عصبي ناجم عن فشله المتكرِّر في امتحان [الخدمة المدنية الإمبراطورية]. اعتقد هونج أنه الأخ الأصغر ليسوع المسيح، وتَصوَّرَ أن حركته هي «مجتمع عُبَّاد الله» Society of God Worshippers، فنَصَّبَ نفسَه حاكم «مملكة السلام العظيم السماوية» Heavenly Kingdom of Great Peace. أما شريكه، يانج شيوكنج، فزعم أنه صوت الله.

وثمة قائد تايبينجي آخر هو هونج رينجان Hong Rengan، عَمَّدَه لوثريًا المبشِّرُ السويدي تيودور هامبرج Theodore Hamberg، أحد المُبشِّرين الذين نشروا وَصْفًا للتمرد. وأما المبشِّرُ البابتيستي [المعمداني] Baptist الأمريكي إيسكار جاكوكس روبرتس Issachar Jacox Roberts فصَارَ مستشارًا لكل من هونج شيوكوان وهونج رينجان. ثمة مُبشِّر متعاطف آخر هو تشارلز تايلور Charles Taylor من البعثة الأسقفية الميثودية الجنوب أمريكية[[934]] American Southern Methodist Episcopal Mission[935].

وباختصار، كانت حركة التايبينج شكلاً مُحوَّرًا من المسيحية، فبالإضافة إلى تبنِّيها بعضَ لغة المسيحية تبنَّتْ بعضَ الممارسات المسيحية، ولا سيما المعمودية وتحطيم الأيقونات[[936]] iconoclasm.

ما لم يكن يتوقَّعُه المُبشِّرون مدى السهولة التي اعتنق بها القطيعُ الشرقي العناصرَ الأكثر نضاليةً في دينهم، كما لو كان المستهدفُ عن عَمْدٍ إعادةَ تمثيل حرب الثلاثين عامًا في الصين. في قاعة عرش التايبينج عُلِّقت عبارةٌ لا لَبْسَ فيها أو غموض:

«لقد جاء الأمر من الله بقتال العدو وتوحيد جميع الجبال والأنهار في مملكة واحدة». ولا شيء أوضح من هذا يُبرِّرُ قرار الإمبراطور يونجشينج[[937]] Yongzheng في عام 1724 بطرد موجة المسيحيين السابقة، وأغلبهم من
ا ل ج ي ز و ي ت Jesuits

الذين وفدوا [إلى الصين] في القرن السابع عشر. حين ننظر إلى تمرد التايبينج من على مسافة، نجد أنه من الخطأ اعتباره ثورةً مماثلة لتلك الثورات التي شهدتها أوربا في عام 1848.

فعند الفحص الدقيق نجده أشبه بحروب دينية سابقة. فليس هونج شيوكوان، من بعض النواحي، سوى نسخة صينية أنجح من جان لايدن Jan of Leiden الأنابابتيستي [القائل بتجديد العماد] Anabaptist.

من السهل نسيان مدى اقتراب التايبينج من جَعْل مملكتهم حقيقةً واقعةً. في عام 1860، استولت قوات التايبينج على هانجتشو Hangzhou وسوتشو Suzhou. أما فشلُهم في الاستيلاء على شَنْغهاي Shanghai وتراجعُهم اللاحق إلى نانجينج، فيرجع - في جانب ليس بالقليل - إلى التدخل الأجنبي الزائد. ففي أغسطس عام 1860، دافعت عن شَنْغهاي قوةٌ من قوات تشينج الإمبراطورية وضباطٌ غربيون بقيادة الأمريكي فريدريك تاونسند وُرد[938] Frederick Townsend Ward.

وبعد موت وُرد، حقق «الجيش المنتصر دائمًا»[939] Ever Victorious Army سلسلةَ انتصارات بقيادة الضابط البريطاني تشارلز جوردن المُلقَّب ب«جوردن الصيني»[940] Charles «Chinese» Gordon.

وحتى أغسطس عام 1871، لم تكن فلول جيش التايبينج بقيادة لي فوشونج Li Fuzho قد سُحِقَتْ تمامًا. تُشْبِه هذه النتيجةُ، من بعض النواحي، انتصارَ الولايات المتحدة United States على الولايات الكونفدرالية[941] Confederacy في الحرب الأهلية الأمريكية American Civil War. في الحالتين، اعتزم رجالُ الدولة البريطانية التدخل بجدية إلى جانب التمرد، وإن اتخذ مجرد الاعتراف بالثوار بوصفهم محاربين[942]

وفي كلتا الحالتين، اختار البريطانيون دَعْمَ الوضع الراهن. في الحالة الأمريكية، اعتمد قرارهم نوعًا ما على تفوق ولايات الشمال الاقتصادي الواضح. وأما في الحالة الصينية، فعَكَسَ قرارُهم الرأيَ القائل بأن بريطانيا - بعد الفوز في حرب الأفيون الثانية[943] Second Opium War (1860 - 1856) وإذلال الحكومة الإمبراطورية في بكين Beijing - لها مصلحة في مساندة إمبراطورية تشينج بوصفها بنيةً ضعيفة يمكن الاعتماد عليها في تقبُّل تبعية اقتصادية غير رسمية. إن استنكار اللورد بالمرستن[944]

Lord Palmerston

للتايبينج بوصفهم «متمردين ضد الإمبراطور، بل ضد كل القوانين البشرية والإلهية» لم يكن قائمًا على أي احترام كبير لأسرة تشينج، بل على وعي بأن التسلسلات الهَرَميَّة الآخِذة في الأفول لها فوائدُها، وأنها تُمثل أفضلَ توازن ممكن مع الشبكات الثورية.

اتسمت شبكات السفر والاتصال الإمبريالية، في أواخر القرن التاسع عشر، بانفتاح نسبي، لكَوْنها بقيت في أيدي القطاع الخاص إلى حد كبير. وقد حدَّدَت التكلفةُ وحدها، ولا شيء غيرها - في ستينيات القرن التاسع عشر وسبعينياته - التمكُّنَ من عبور المحيط وإرسال برقية؛ ثم اطَّرَدَ انخفاضُ أسعار السفر والاتصالات معًا بفضل التقدم التكنولوجي. في هذه الأثناء، أُتِيحَ لأي شخص يستطيع قراءة جريدة، أو يسمع أحدًا يقرأ بصوت مرتفع، معرفةَ أخبار الخارج. وكان لهذا فوائده الكبيرة؛ فمَن يعيشون في بؤس، في أي مكان من العالم، أُتيحت لهم خياراتٌ لم تكن متاحة لأسلافهم: يسمعون عن أماكن أفضل، ويستطيعون الذهاب إليها.

من النادر أن يدفع الفقرُ وحده إلى هجرات جماعية. الذي يدفع إلى الهجرات اضطرابٌ سياسيٌّ في الوطن واحتمالُ وجود مَوْطِن أكثر استقرارًا يمكن الوصول إليه.

وقد هيَّأت الفترة بين حوالي عام 1840 وعام 1940 الدافعيْن معًا لما يقرب من 150 مليون شخص يعيشون على طرفيْ الحدود الأوراسية: أوربا والصين. لقد اندلعت الثورات والحروب، وما صحبهما من أشكال بؤس، بالتزامن مع انخفاض حاد في تكاليف السفر. فكانت النتيجةُ نُزوحًا، أو على وجه الدقة ثلاثة نُزُحٍ، كلٌّ منها بأعداد متقاربة.

الهجرة الجماعية المشهورة (ما بين 55 و58 مليون شخص) كانت من أوربا إلى الأمريكيتين، وأساسًا إلى الولايات المتحدة.

والأقل شهرة كانت التدفقات الكبيرة من الصينيين والهنود إلى جنوب شرق آسيا وحافة المحيط الهندي وأستراليا (48 إلى 52 مليون شخص)، وتدفُّقات الروس وآخرين إلى منشوريا[945] Manchuria وسيبيريا وآسيا الوسطى (46 إلى 51 مليون شخص)[946].

اللغز التاريخي هو لماذا لم يتدفق الصينيون بأعداد أكبر إلى الولايات المتحدة.

ورغم أن المحيط الباسيفيكي [الهادي] أوسع بكثير من الأطلنطي فلم يكن العبور من شَنْغهاي إلى سان فرانسيسكو San Francisco مكلِّفًا بالدرجة التي تجعله مستحيلاً؛ والفُرَصُ الاقتصادية في كاليفورنيا المزدهرة عديدةٌ ومُغْريةٌ ماليًا. لم يقف شيء أمام مجموعات المهاجرين الصينيين، شأنهم شأن المجموعات الأيرلندية والإيطالية التي وفدت إلى الساحل الشرقي [للولايات المتحدة] East

Coast، الذي جذب المزيد والمزيد من الناس كي يعبروا المحيط إلى الأرض الموعودة. تكمن الإجابة عن اللغز في السياسة. فلولا وجود ردٍّ فعل شَعْبوي عنيف ضد الهجرة الصينية إلى الولايات المتحدة، لَكان التدفق عبر المحيط الهادي أكبر دون شك، ولَكانت أعدادُ السكان الصينيين الأمريكيين اليوم أكبرَ أيضًا.

قليلون اليوم يتذكرون اسم دينيس كيرني[947] Denis Kearney، زعيم حزب عُمَّال كاليفورنيا Workingmen's Party of California، وصاحب شعار «يجب أن يرحل الصينيون!». كيرني نفسه مهاجر أيرلندي إلى الولايات المتحدة، وجزءٌ من حركة الأحزاب المُعادية للمهاجرين

nativist parties وأندية «مكافحة الكوولي»[948] Anti - Coolie clubs

الساعية إلى إنهاء الهجرة الصينية إلى الولايات المتحدة. يعكس تقريرُ اللجنة الخاصة المشتركة للتحقيق في الهجرة الصينية

Joint Special Committee to Investigate Chinese Immigration، في عام 1877، روحَ العصر. تلخَّصتْ وجهةُ نظر اللجنة في الآتي: «إما أن يكون ساحلُ المحيط الباسيفيكي [الهادي] منغوليًا أو أمريكيًا». لقد جلب الصينيون معهم عادات الحُكْم الاستبدادي: المَيْل إلى الكذب في ساحة المحكمة، إظهار الضَّعْف للتهرُّب من الضرائب، و«حَجْم دماغٍ لا يكفي... لتوفير قوة دافعة إلى الاستقلال أو الاعتماد على النفس». الأكثر من هذا أن النساء الصينيات يتم «شراؤهن وبَيْعهنَّ من أجل الدعارة، ويُعامَلْنَ أسوأ من معاملة الكلاب»، وأما الرجال الصينيون فهم «مُتوحِّشون لا يهتمون بمرضاهم». وسيُعَدُّ مَنْحُ المُواطَنة لمثل هذه الكائنات السُّفلى [الدونية] - فيما يُصرِّحُ تقريرُ اللجنة - «تدميرًا عمليًا للمؤسَّسات الجمهورية على ساحل المحيط الهادي»[949].

كانت الحقائق على أرض الواقع مختلفة تمامًا، ومن النادر أن يُقَالَ هذا. طبقًا ل«الجمعيَّة التكافلية الخيرية الصينية»[950] في سان فرانسيسكو - وهي هيئة اعتبارية مثَّلَتْ السكانَ الصينيين في المدينة - توجد أدلةٌ مقنعة على أن الهجرة الصينية كانت نعمةً لكاليفورنيا. فبالإضافة إلى أن الصينيين وَفَّروا العمالةَ من أجل السكك الحديدية والمزارع المتنامية بسرعة في الولاية، حَسَّنوا الأحياء التي سَكَنوها. وعلاوة على ذلك، لا يوجد دليلٌ على دور صيني غير متجانسٍ في لعب القمار والدعارة، في حين أظهرت الإحصائيات أن الأيرلنديين شكَّلوا عِبْئًا أكبر من الصينيين على الملجأ الخيري وبيت الفقراء في المدينة[951].

ومع ذلك، تَجمَّعَ حول قضية كيرني ائتلافٌ قوي من «العُمَّال والحِرَفيين» ورجالُ أعمال صغار و«جمعياتٌ تعاونية زراعية» Grangers (استهدفوا جميعهم إلقاء عبء الضرائب على المشروعات الكبيرة والأثرياء). وكما ذَكَرَ أحدُ المراقبين المعاصرين الفَطِنين، استهدفت دعوةُ كيرني، في جانب منها، مهاجمةَ البواخر الكبيرة وشركات السكك الحديدية التي تتربَّح من تشغيل الصينيين، ناهيك عن مؤسسةٍ ذات حزبين، فاسدةٍ، أدارتْ سياسةَ سان فرانسيسكو، ولم تستهدف الصينيين فقط:

لا الديمقراطيون ولا الجمهوريون فعلوا أيَّ شيء للتخلص من هذه الشرور أو تحسين [حياة] الكثير من الناس، ولا يُتَوقَّع أن يفعلوا شيئًا. إنهم لا يبحثون إلا عن أماكن أو فُرَص عمل لأنفسهم (فيما يعتقد الناس)، استطاعوا شراءَها دائمًا من خلال شركة قوية. أما العُمَّال فيجب أن يساعدوا أنفسهم؛ لا بد أن توجد أساليب جديدة وانطلاقة جديدة... ورغم أن الأحزاب القديمة شجبت الهجرةَ الصينية في كل مؤتمر عقدته، وصرَّحتْ بضرورة وجود تشريع ضدها، فقد أخفقت مساعيها... وباختصار، كلُّ شيء مُهَيَّأٌ لظهور ديماجوجيّ[952] demagogue. وقد تلطَّفَ القدرُ مع أهل كاليفورنيا بأن أرسل لهم ديماجوجيًا معتدلاً، صاخبًا وواثقًا، ولكنه بلا بصيرة سياسية ولا موهبة في البناء[953].

ربما افتقر كيرني إلى البصيرة و«موهبة البناء»، ومع ذلك لا أحد ينكر ما استطاع هو وأمثالُه تحقيقَه. فبدءًا من عام 1875، ومع صدور قانون الصفحة[954] Page Law الذي يحظر هجرةَ النساء الآسيويات ل«أغراض فاسقة وغير أخلاقية»، لم يهدأ المُشرِّعون الأمريكيون حتى أوقفوا الهجرةَ الصينية إلى الولايات المتحدة تمامًا.

قانون استبعاد الصين The Chinese Exclusion Act الصادر عام 1882، علَّقَ هجرةَ الصينيين لمدة عشر سنوات، ووَضَعَ قَيْدَ الاستعمال «شهادات تسجيل» لترحيل العُمَّال (تصاريح إعادة الدخول)، الأمر الذي ألزم المسؤولين الصينيين بفحص المسافرين من آسيا؛ وللمرة الأولى في تاريخ الولايات المتحدة وُجِدَتْ جريمةُ الهجرة غير الشرعية، مع احتمال الترحيل بوصفه جزءًا من العقوبة. يحظر قانونُ فُوران[955] The Foran Act (1885) «العملَ بعقود أجنبية»، وقد استهدف الشركاتِ الأمريكيةَ التي تستوظف «كووليين» صينيين ودفعت مقابل دخولهم إلى الولايات المتحدة. أما التشريع الصادر عام 1888 فقد منع كلَّ الصينيين من السفر إلى الولايات المتحدة باستثناء «المُعلِّمين والطلبة والتجار والمسافرين للسياحة». وبوجه عام، صدر بين عاميْ 1875

و1924، أكثرُ من اثنيْ عشر تشريعًا يعمل على تقييد الهجرة الصينية، حتى إلغائها تمامًا[956].

الدرسُ المستفاد من هذه الوقائع جِدُّ واضح. ففي الوقت الذي أتاحت فيه شبكاتُ الاتصال والنقل العالَمية الهجراتِ الجماعيةَ أواخر القرن التاسع عشر وجعلتها ممكنةً[957]، شَكَّلَت الشَّعْبويةُ populism ومُعاداة الأجانب navitism شبكاتٍ سياسيةً لمقاومة الهجرات الجماعية. ونتيجة فظاظة دينيس كيرني وأحاديثه الرَّنانة، أغلق هو وحلفاؤه الحدودَ الأمريكية على طول ساحل الولايات المتحدة الباسيفيكي [المحيط الهادي]؛ وقد صوَّرهم رسامٌ كاريكاتوري في هذا الوقت يبنون جدارًا بطول ميناء سان فرانسيسكو (اللوحة التالية).



THE ANTI-CHINESE WALL.
The American Wall Goes Up as the Chinese Original Goes Down.

في خمسينيات القرن التاسع عشر وستينياته، سافر حوالي 40% من إجمالي المهاجرين الصينيين إلى ما وراء آسيا، ولكن الأعداد التي وصلت إلى الولايات المتحدة قليلة نسبيًا. (بين عاميْ 1870 و1880 وَفَدَ 138.941 مهاجرًا صينيًا، بنسبة 4.3% من إجمالي المهاجرين، وهي حصة ضئيلة بالنسبة إلى النُّزوح الأوربي الهائل عبر الأطلنطي في الفترة نفسها)[958].

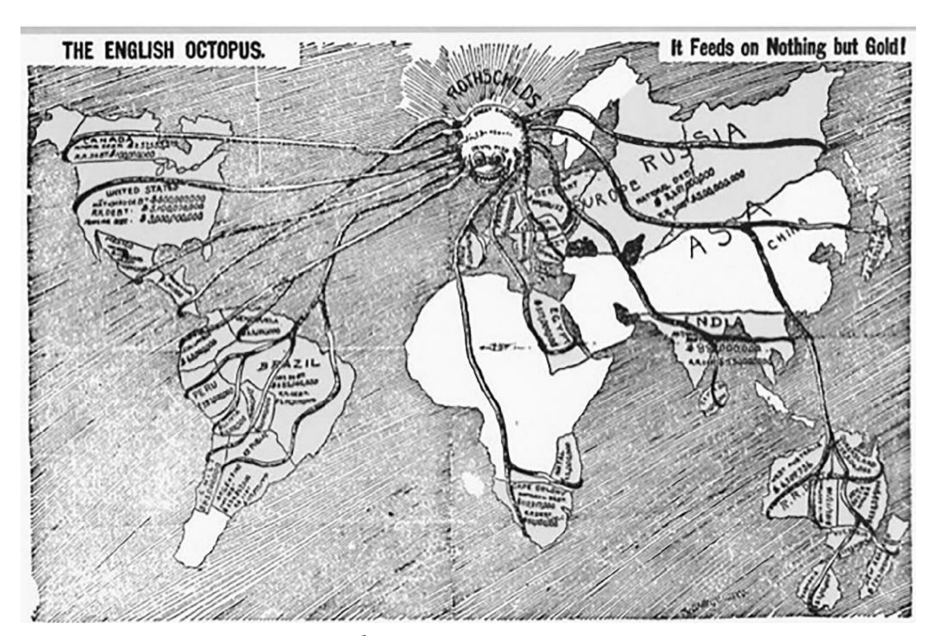
لقد ضمنت قوانينُ الاستبعاد عدمَ زيادة الهجرة الصينية، وهو ما حدث بكل تأكيد، بل تضاءلت الهجرة حتى توقفت.

الإمبراطوريات الأوربية، بقيادة بريطانيا، جعلت العَوْلمةَ globalization حقيقةً واقعة في أواخر القرن التاسع عشر. ومع «انعدام» المسافة بسبب تكنولوجيات النقل البحري والتلغراف الجديدة، وصلت تحرُّكاتُ البضائع والناس ورأس المال والمعلومات، العالمية، إلى معدَّلات غير مسبوقة. ومع ذلك، أثَّرتْ الشبكاتُ التي ظهرت في عصر الإمبراطورية - وبخاصة شبكات الهجرة التي خلقت بالسرعة نفسها «إيطاليا الصغيرةَ» Little Italy و«الحيَّ الصيني»[959] Chinatown في مدن عديدة حول العالم - تأثيراتٍ غير متوقعة في سياسة أهل البلد الأصليين. ونحن نطلق التسمية العامة «الشَّعْبوية» على ردِّ الفعل العنيف ضد حرية التجارة وحرية الهجرة وحرية رأس المال العالمي الذي كان ملمحًا لافتًا في السياسة الأمريكية والأوربية. ولكن اتَّسَمَ كلُّ بلد، بل كل منطقة، بنكهته الشَّعْبوية المميزة له.

وإذا كان الصينيون قد قُوبِلوا بالاستياء على الساحل الغربيِ West Coast في سبعينيات القرن التاسع عشر، فقد كان الأيرلنديون هدفًا للاحتقار [على الساحل] الشرقي أيضًا، على حين وَجَّه الشَّعْبويون الألمانُ والفرنسيون نيرانَهم

- بالطريقة نفسها - ضد اليهود المهاجرين من أوربا الشرقية إلى غربها. وبحلول تسعينيات القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين، ومع اندفاع الهجرة اليهودية من بالي الروسية Russian Pale إلى الولايات المتحدة، انتشرت معاداةُ السامية anti - Semitism عبر الأطلنطي. وللمفارقة، استخَفَّ خصومُ الهجرة بفقر الوافدين الجُدُد وبالغوا في قوة زعمائهم المفترضين في آنٍ معًا. كان الصينيون في سان فرانسيسكو شديدي الفقر، وفي الوقت نفسه احتكروا أعمال غسيلِ الملابس وصَبْغها. وكان اليهودُ في نيويورك سادةَ النظام المالي العالمي، الديدانَ التي تجذب سِلْسلتَه.

وما من صور بلاغية تُصَوِّرُ تنامي الاعتقاد في وجود شبكة مال يهودي قوية أفضل من الرسم الكاريكاتوري «الأخطبوط الإنجليزي» The English Octopus المنشور في كُتيب شَعْبوي عام 1894 بعنوان «مدرسة كوين المالية» Coin's Financial School، كَتَبَه ويليام هارفي William H. Harvey، ناقد قاعدة الذهب[960] gold standard ومستشار المرشَّح الرئاسي الديمقراطي الشَّعْبوي اللاذع الذي لم ينجح ثلاث مرات ويليام جيننجز براين[961] William Jennings Bryan. هنا وُجِدَت الشبكةُ الإمبريالية، التي أُعيد تخيُّلها بطريقةٍ ستُطْلِقُ، في النهاية، أكثرَ من مجرد خيالات مُعاداة السامية (انظر الشكل 20).




الشكل رقم: 20 - «الأخطبوط الإنجليزي: لا يتغذَّى على شيء سوى الذهب!».

كاريكاتير ضد روتشيلد، 1894.

من المغالطات الشائعة الاعتقاد بأن ردّة الفعل الشَّعْبوية العنيفة، أواخر القرن التاسع عشر، تنطوي على شيء له علاقة بجذور [أصول] الحرب العالمية الأولى First World War. كلا، فلا رابط بينهما إطلاقًا. كان حافزُ الحركات الشَّعْبوية على جانبيْ المحيط الأطلنطي الأزمةَ المالية عام 1873. لقد وصلت الفترةُ الشَّعْبوية إلى هدفها على مستوى النجاح الانتخابي بحلول منتصف تسعينيات القرن التاسع عشر. في ذلك الوقت، استوعبت الأحزابُ السياسية القائمة (وأبرزها الديمقراطيون Democrats في الولايات المتحدة، والمحافظون Conserva في ألمانيا)، بشكل كلي أو جزئي، كلَّ السياسات والشواغل الشَّعْبوية بتنويعاتها:

سياسة الحماية protectionism، تقييد الهجرة، نظام المَعْدنَيْن[962] bimetallism، مُعاداة السامية. لم يكن الشَّعْبويون في تكوينهم الأصلي إمبرياليين؛ بل على العكس اعتبروا الإمبراطوريةَ مشروعَ نُخَبٍ كوزموبوليتانية يأنفون منها، ويُعِّرفونها تعريفًا صائبًا بأنها الروابط الحميمة بين الإمبريالية imperialism وحرية التجارة وحرية الهجرة وحرية حركة رأس المال، وقاعدة الذهب. لم تكن مشكلةُ الشَّعْبويين تشخيصَهم الدَّاء: ففي عالم شَبَكيٍّ مُعَوْلَم، تزايَدَ عدمُ المساواة دون شك، لأن العمالة المهاجرة سبَّبَتْ تآكلَ أجور العُمَّال من أهل البلد، على حين ذهبت أرباح تركيزات رأس المال الصناعي ورأس المال المالي financial capital، الكبيرة، إلى نُخْبة صغيرة. كانت المشكلة أن العلاجات [الإصلاحات] الشَّعْبوية بَدَتْ غيرَ كافية: وكالرسوم الجمركية المفروضة على الواردات، لم يكن لاستبعاد المهاجرين الصينيين تأثيرٌ ملموس في حياة العُمَّال الأمريكيين. وفي الوقت نفسه، فَقَدَت انتقاداتُ قاعدة الذهب الكثيرَ من بريقها، لأن اكتشافات الذهب الجديدة الضخمة - ولا سيما في جنوب أفريقيا - خفَّفَت الضغوطَ الانكماشية التي استحثَّت الشَّعْبوية، عن طريق خَفْض أسعار متطلبات الزراعة وغيرها من أنشطة العمل الأخرى. وبحلول منعطف القرن، انتقلت المبادرة من الشَّعْبويين إلى التقدُّميين progressives أو الديمقراطيين الاشتراكيين Social Democrats كما عُرِفوا في أوربا، إذ تأثَّرَ تنظيمُ العمل سريعًا بنظريات كارل ماركس وأتباعه.

فجاءت حلول [علاجات] التقدُّميين - التي اشتملت على ضرائب مباشرة أعلى، ومعاشات تقاعدية من الدولة، وزيادة تنظيم سوق العمل، وإضعاف الاحتكارات الخاصة، ومِلْكية المرافق العامة - أكثر إقناعًا وقابليةً للتسويق من حلول الشَّعْبويين.

كان التقدُّمُ المتواصل لليسار السياسي أكثرَ إثارةً للقلق من المَوْجة الشَّعْبوية، لدى جميع نُخَب العالم. المُرْعِبُ بخاصَّةٍ الفِرَقُ اليوتوبية المتطرفة التي ازدهرت عند نهاية القرن: فبالإضافة إلى الماركسيين Marxists، هدَّدَ الأناركيون anarchists والقوميون nationalists أيضًا سلامةَ الإمبراطوريات نفسها، من كورك Cork [في أيرلندا] إلى كالكوتا Calcutta [في الهند]، ومن سراييفو[963] Sarajevo [في البوسنة والهرسك] إلى سايجون[964] Saigon [في فيتنام الجنوبية]. ولكن مفكِّري عصر الإمبراطورية الميتروبوليتانيين اعتقدوا أن لديهم الحلَّ. تحدَّث البعضُ منهم عن «الإمبريالية الليبرالية» liberal imperialism، وآخرون عن «الإمبريالية الاشتراكية» social imperialism، لكن الفكرة الأوسع انتشارًا عند منعطف القرن أن الإمبراطوريات تطمح إلى شيء أسمى من استغلال الأطراف الفقيرة. فإذا تمكَّنت من تلبية احتياجات الطبقات العاملة في المركز الإمبريالي، فعندئذٍ ستتلاشى الأخطارُ الهدَّامة على اختلافها.

ألفريد ميلنر Alfred Milner مُنْقِذٌ إمبريالي غير متوقَّع. ميلنر ابن الأكاديمية الأنجلوجيرمانية Anglo - German الذي دَرَّسَ الإنجليزيةَ في جامعة توبِنجن T، شكَّلَته من قبل كليةُ باليول Balliol College بجامعة أكسفورد، حيث قرأ العظماء Greats بإشراف بنيامين جويت Benjamin Jowett، وصَادَقَ المؤرِّخَ الاقتصادي أرنولد توينبي Arnold Toynbee. آفاقُ مستقبله الأكاديمي كانت واعدةً، ولكنه اختار لندن في محاولة منه أن يلمع في القانون والصحافة والسياسة، إلى أن وَجَدَ ضالَّتَه بوصفه موظفًا كبيرًا، أولاً بوصفه السكرتير الخاص للاتِّحادي الليبرالي جورج جوشين[965] George Goschen، ثم وكيل وزارة المالية في مصر، ثم رئيس مجلس الإيرادات الداخلية[966] Board of Inland Revenue، وهو المنصب الذي ظل فيه لمدة خمس سنوات. لخَّص هيربرت إسكويث[967] Herbert Asquith شخصيةَ ميلنر، فيما بعد، قائلاً إنه «توسُّعي، ومؤمن بسياسة الحماية، مع مَيْله

إلى الأمور الاجتماعية والاقتصادية بحسٍّ شِبْه اشتراكي»[968].

وكان هذا نوعًا من الدَّهاء. ثم أصبح ميلنر بمفارقة كبيرة، بعد عام 1897، وكيلاً لأشرس الرأسماليين في تاريخ الإمبريالية البريطانية، سيسيل رودس[969] Cecil Rhodes،
الرجل الذي لم يُميِّز بشكل واضح بين تقدُّم إمبراطوريته التجارية والإمبراطورية البريطانية في أفريقيا، والذي حرَّكته أهواء جامحة فيما يتعلق بأفضل تعزيزٍ لمصالح كليهما. طبقًا لكويجلي، أسَّسَ رودس في عام 1891 «مجلس الثلاثة»
Junta of Three مع الصحفي ويليام ستيد William T. Stead وأحد رجال الحاشية المَلَكيّة ريجنالد بريت Reginald Brett
الذي أصبح لاحقًا الفيسكونت إيشر Viscount Esher.
أدار هذا الثلاثيُّ «جمعيةَ المنتخب» The Society of the Elect، التي ستساعدها «رابطةُ المعاونين»[970] Association of Helpers.

هذه الخُطط بالإضافة إلى مسوَّدة رودس الأوليَّة، أوعزت لناثانيل روتشيلد - أول فرد في عائلة روتشيلد يَرْقَى إلى طبقة النبلاء - بأن يُرَسِّخَ في ذاكرة رودس نسخةً إمبريالية لنظام الجيزويت[971] [972] Jesuit Order.

عُيِّن ميلنر مندوبًا ساميًا لجنوب أفريقيا عام 1897، في أعقاب الأزمة التي تلت «غارة جيمسون» الفاشلة ضد جمهورية الأفريكان Afrikaner republic في ترانسفال[973] Transvaal.

وفيما يقول كويجلي، صار الطاقمُ المكوَّن من 18 رجلاً الذين جنَّدهم ميلنر، وأطلق عليهم «الروضة» Kindergarten، نواةَ إحدى أقوى شبكات القرن العشرين[974].

كان الواقعُ أقلَّ إثارةً. الأعضاء الأوائل في طاقم ميلنر هم:

روبرت براند Robert Brand، ليونيل كورتيس Lionel Curtis، جون دوف John Dove، باتريك دُنْكِن Patrick Duncan، ريتشارد فيثام Richard Feetham، ليونيل هيتشنز Lionel Hichens، جي إف (المُلَقَّب ب بيتر) بيري J. F. (Peter) Perry، جيفري روبِنسن Geoffrey Robinson (لاحقًا) دوسن Dawson). ثم انضمَّ إليهم بعد عام 1905:

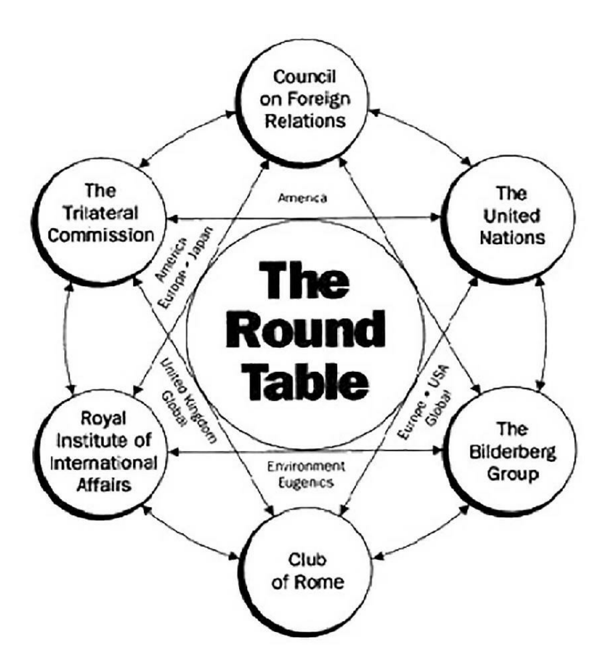
فيليب كير Philip Kerr، الذي أصبح لاحقًا ماركيز لوثيان Marquess of Lothian، ودوجال مالكوم Dougal Malcolm. وثمة أعضاء آخرون شملوا: ليو

إمري Leo Amery، هيربرت بيكر Herbert Baker، جون بوشان John Buchan، جورج كريك George Craik، ويليام ماريس William Marris، جيمس ميستن James Meston، بازِل ويليامز Basil Williams، هيو ويندهام Hugh Wyndham الذي أصبح لاحقًا البارون ليكونفيلد الرابع Baron Leconfield[975].

قام ميلنر بتجنيد بيري وروبِنسن من المكتب الاستعماري[[976]] Colonial Office، حيث كانا يعملان سابقًا معه؛ وبيري جنَّدَ براند؛ ودُنْكِن كان سكرتير ميلنر الخاص في مجلس الإيرادات الداخلية. أما معظم البقية فجاءوا نتيجةَ علاقات بجامعة أكسفورد. بل إن براند وكورتيس ودوف وفيثام وهيتشنز وكير ومالكوم وويليامز وويندهام، درسوا جميعُهم في الكلية الجديدة New College، التي دَرَسَ فيها ميلنر من قبل. العمل والمعاشرة والعَيْش المشترك - بعد عام 1906 في مووت هاوس Moot House باركتاون Parktown جوهانسبرج Johannesburg، المبنى الذي صمَّمه هيربرت بيكر - عزَّزَت الأواصرَ بينهم؛ فالمجموعة متشابهة من حيث هم زملاء حديثو السن في كليةٍ بجامعة أكسفورد، يجتمعون للقراءة يوم العطلة[977].

نُقَّاد ميلنر في برلمان كيب Cape هم الذين اتهموه ب«إنشاء رَوْضةٍ kindergarten... لحُكْم البلاد»[978].

ومع أن هذا الاسم التصق بالمجموعة، فقد آثرَ أعضاؤها اسمًا أكثر رومانسيةً هو «المائدة المستديرة» round table، الذي أصبح عنوانَ مجلتهم [الفصلية] بعد عودة معظمهم إلى لندن.




الشكل: 21 - أسطورة شبكة اللورد ميلنر. وقد روَّجَ هذه الرؤيةَ المبالَغ فيها لنفوذ ميلنر المؤرِّخُ كارول كويجلي من جامعة جورجتاون. واختيار النجمة ذات المحاور السِّتة ليس مصادفةً، فالتداعيات الدينية السُداسية (مثل نجمة داوود أو خاتم سليمان) تُضيف عاملَ غموض حيوي إلى نظرية المؤامرة.

وبالنسبة إلى مجموعة موظفيين حكوميين لديهم ميول أكاديمية، كانت دائرة ميلنر مستعدة، على نحو لافت، للجوء إلى القوة لتحقيق أهدافها. والدليل المقنع على هذا أن ميلنر هو الذي دَفَعَ بوتيرة الأحداث نحو الحرب بعد وصوله إلى جنوب أفريقيا.

ففي وقت مبكر من شهر فبراير عام 1898، خَلَصَ إلى أنه «ما من طريق للخروج من المشكلات السياسية... سوى الإصلاح في ترانسفال أو الحرب»[979]. وفي رسالة عام 1899، حدَّدَ أهدافه على النحو الآتي: «الغاية النهائية هي مجتمع من البِيض يتمتع بالحكم الذاتي، تدعمه عمالةٌ سوداء تُعَامَلُ معاملةً حسنة وتُحْكَمُ بالعدالة من كيب تاون Cape Town إلى زَمبيزي Zambezi.

ويجب أن يوجد عَلَمٌ واحد، عَلَمُ الاتحاد [جاك الاتحاد][980] Union Jack، في ظِلِّه تتساوَى الأعراقُ واللغات»[981].

وعند الفحص الدقيق، ما طمح إليه ميلنر هو ابتلاع الأفريكان [الجنوب أفريقيين البِيض] بالهجرة من المملكة المتحدة ودولها المستقلة البيضاء المرتبطة بالتاج البريطاني [982]Dominions (في عام 1900، كَتَبَ ميلنر قائلاً:

«إذا وُجِدَ بعد عشر سنوات من الآن ثلاثةُ بريطانيين مقابل اثنين هولنديين

فسيتمتع البلد بالأمن والازدهار. أما إذا وُجِدَ ثلاثةُ هولنديين مقابل اثنين بريطانيين، فسيكون لدينا صعوبة دائمة»)[983].

وما عَنَتْ وعودُ ميلنر بالمعاملة الحسنة والحُكْم العادل للسكان السود سوى القهر والإخضاع. ذَكَرَ كورتيس في يومياته عام 1901 الآتي: «من نِعَم الله وبركاته أن ينقرض الزنجي، كالهندي الأحمر، قبلنا». ورأى دوف أن «الازدراءَ الوحشي تقريبًا والكراهية لدى معظم الرجال البِيض نحو السُّود علامةُ صِحَّةٍ. فهو يشير إلى عَزْم البِيض في جنوب أفريقيا على ألا يسمحوا بتهجين عِرْقهم»[984].

وقد حدَّدَ ميلنر نفسُه، في إحدى المناسبات، هدفَه بجَعْل جنوب أفريقيا «بلدًا للرجل الأبيض... وليس بلدًا مليئًا بالفقراء البِيض، بل بلدًا يعيش فيه عددٌ كبير من السكان البِيض حياةً لائقة ومريحة»[985].

يمكننا الآن رؤية إلى أي مدى وَضَعَ نظامُ حُكْم ميلنر أسسَ ما سيصبح، في النهاية، نظامَ تمييز عنصري بغيض. ولم يكن ميلنر يفكر بهذه الطريقة. فمن وجهة نظره، كان إخضاعُ الأفارقة السود أقلَّ أهدافه إثارةً للجدل.

كانت الجائزةُ الكبرى تخفيفَ سلطة الأفريكان[[986]] Afrikaner و«التأسيس في جنوب أفريقيا [كما طرح في عام 1904] لمجتمع متحضِّر وتقدُّمي وعظيم، من كيب تاون إلى زَمبيزي، مجتمع مستقل في إدارة شؤونه، ولكنه يظل، بملء رغبته، عضوًا في مجتمع كبير يضمُّ الأمم الحُرَّة المجتمعة معًا تحت راية العَلَم البريطاني. ذلك هو الهدف من كل جهودي». وستُسْهِمُ جنوبُ أفريقيا المتحدة، بدورها - التي تهيمن عليها بريطانيا - في «الفكرة الكبرى التي مؤدَّاها اتحاد إمبريالي Imperial Unity... أيْ مجموعة دول، جميعُها مستقلةٌ في شؤونها المحلية، ولكنها متحدة معًا للدفاع عن مصالحها المشتركة وتطوير حضارتها المشتركة»[987].

بعد هزيمة البوير Boers في حرب وحشية، سيق فيها نساؤهم وأطفالُهم إلى معسكرات اعتقال مميتة، عمل ميلنر ورجالُه الشباب، بلا كَلَل، على تحقيق رؤيته. فأنشأوا مجلسًا استعماريًا بَيْنيًا Intercolonial Council، يربط بين ترانسفال ومستعمرة نهر الأورانج[[988]] Orange River Colony؛ وأدمجوا السككَ الحديدية؛ وأنشأوا اتحادًا جمركيًا؛ ونظَّموا جمعيات الاتحاد الأوثق

Union Closer في كل مستعمَرة،
وأشادوا بفوائد اتحاد جنوب أفريقيا South
Union African في منشورات مثل دورية
«ا ل د و ل ة The »
State؛

وكتبوا أولى مسوَّدات ما صار، في النهاية، دستورَ اتحاد جنوب أفريقيا في عام[989]

ومع ذلك، وكما لاحظ أحدُ المؤرّخين البارزين للإمبراطورية البريطانية بحقٍّ، لم تكن رؤية ميلنر لجنوب أفريقيا التي تديرها بريطانيا سوى «خيال إمبريالي جامح»[990].

أسلوب ميلنر الديكتاتوري لم يمنع إحياء السياسة الأفريكانية في ظل قيادة لويس بوثا[991] Louis Botha وجان سموتس[992] Jan Smuts[993].

ولم توجد طريقةٌ لجَعْل المستوطنة الإنجليزية الكبيرة تعمل؛ فبسبب وفرة العمالة الأفريقية الرخيصة، وُجِدَتْ بالفعل مشكلة «فقراء من البِيض» حتى قبل حرب البوير[994] Boer War.

وظهرت التناقضات الداخلية في «مشروع الإمبراطورية» عندما جلب ميلنر - بطَلَبٍ من راندلوردز Randlords - خمسين ألف «كوولي» صيني للعمل في مناجم الذهب؛ الأمر الذي أطلق العنانَ لعاصفة احتجاج ضد «العبودية الصينية» في جنوب أفريقيا وبريطانيا معًا. بل أصبحت هذه القضيةُ العصا التي يقرع الليبراليون بها الاتحاديين في انتخابات عام 1906، وتكفَّلتْ برحيل ميلنر[995].

خَلَفَه اللورد سيلبورن[996] Lord Selborne، الذي قَبِلَ فكرة أن الاتحاد في ظل قيادة سموتس هو الطريق الوحيد القابل للتنفيذ، فضلاً عن كَوْنه طريقًا لتقليل التدخُّل الليبرالي المُشَوِّش من لندن. لقد تشكَّلتْ جنوب أفريقيا الحديثة، ولكن ليس بوصفها كندا الجديدة أو أستراليا الجديدة وفق تصورات ميلنر.

في معظم التاريخ، يُبَالَغُ في تمثيل النجاح، لأن المنتصرين هم الذين يكتبون عن المهزومين. أما في تاريخ الشبكات فيحدث العكس غالبًا. فالشبكات الناجحة تتجنَّبُ لَفْتَ الانتباه العام؛ والشبكات غير الناجحة تجذب الانتباه، إذ تُؤدِّي سُمْعَتُها السيئة، بدلاً من إنجازاتها العظيمة، إلى المبالغة في تمثيلها. وينطبق ذلك على الإلِوميناتي [المُتَنَوِّرين] في ألمانيا أواخر القرن الثامن عشر. وينطبق أيضًا على رَوْضة ميلنر ومائدته المستديرة. اتَّهَمَ السياسيُّ الفرنسي الراديكالي جوزيف كايو Joseph Caillaux دائرةَ ميلنر بالتآمر من أجل «إعادة سلطة متداعية

للطبقة التي ينتمون إليها وتعزيز سيادة بريطانيا العظمى في العالم».

واشتكى ويلفريد لورييه Wilfrid Laurier، رئيس الوزراء الكندي، من أن كندا «يحكمها مجلسٌ تَشكَّلَ في لندن، عُرِفَ باسم المائدة المستديرة». وحتى رئيس الوزراء [حينئذ] لويد جورج Lloyd George، تحدَّث عن اتحادٍ جِدِّ قوي؛ لعله الأقوى في البلاد بطريقته الخاصة»[997].

لكن، لا دليل في هذا على سلطة الرَّوْضة؛ فالعكس هو الصحيح. بل حتى الإمبرياليين المشاركين في الرَّوْضة لديهم شكوك في ميلنر. استنكرت ناشيونال ريفيو National Review المُحافِظة «الزُّمْرةَ التي تُشجِّع كل قوة طرد مركزي في الإمبراطورية البريطانية». وبالقدر نفسه، لم تكن جريدة مورنينج بوست Morning Post اليمينية ألطف تجاه ما يُطْلَقُ عليه «كتيبة القصر المثالية، التي يُمَارِسُ الوصايةَ عليها انحرافٌ روحيٌّ يَتبنَّى مسارًا يضرُّ بالمصالح البريطانية في كل قضية». وقد اقترب رئيس الوزراء الليبرالي، السير هنري كامبل بانرمن Sir Henry Campbell - Bannerman من الهدف حين أشار، نصف ساخرٍ، إلى دينٍ مِيلْنري. أما كويجلي وورثتُه الأمريكيون فقد أخطأوا حين فَهِموا بشكلٍ حرفي طموحات ميلنر ودائرته، وحين أخذوا بجدية إدانة نقادها لها، غافلين عن ملاحظة أن أحد انتقادات هؤلاء النقاد الرئيسية هي فشل ميلنر الكامل تقريبًا.

جامعتا أكسفورد Oxford وكمبريدج Cambridge متشابهتان إلى حد كبير، ولا يمكن للسائح تمييز إحداهما عن الأخرى. ويبدو تنافسُهما القديم، في نظر الغُرَباء، مستندًا إلى نرجسية الاختلافات البسيطة.

أكسفورد تُسَمِّي فصلَها الدراسي الثاني «هيلاري» Hilary، أما كمبريدج فتُسمِّيه «لينت» Lent. طلبة أكسفورد لديهم دروس تعليمية؛ أما نظراؤهم في كمبريدج فلديهم توجيه وإشراف.

ومثل هذه الاختلافات التافهة لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى. ومع ذلك، توجد غالبًا اختلافات فلسفية عميقة بين الجامعتين. وبكل تأكيد، ليست المسافة الفكرية بينهما أكبر مما كانت قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها. فبينما تَصوَّرتْ شبكةُ رجال أكسفورد التي كوَّنها ميلنر مستقبلاً نامي العضلات وعسكريًا وإمبرياليًا متباين الجنس، تطلَّع نظراؤهم في كمبريدج إلى العكس تمامًا.

الشبكةُ التي نشأت هناك في كمبريدج وحولها، وهي «رُسُل» كمبريدج[[998]] Cambridge Apostles، شبكةٌ رقيقة ومُسالِمة وليبرالية ومِثلية الجنس.

تأسَّست «جمعية النِّقاش» Conversazione Society [وهي نفسُها رُسُل كمبريدج] في عام 1820، أسَّسها طلبةُ كلية القديس جون St John's College؛ رغم أنه سرعان ما أصبح مقرُّها التأسيسي كليةَ الثالوث Trinity، أكبر كليات الجامعتين وأغناها. آباء الجمعيَّة المؤسِّسون هم:

الشاعر ألفريد تينيسن Alfred Tennyson، وأوسكار براوننج Oscar Browning[999]، وكذلك «الفيلسوف الأخلاقي» هنري سيدجويك Henry Sidgwick، وفريدريك دينيسن موريس Frederick Denison Maurice اللاهوتي مؤسِّس حركة الاشتراكية المسيحية[1000] Christian Socialism.

والجمعية - من بعض النواحي - لها جذورها في «الأرستقراطية الفكرية» (بتعبير نويل أنان[[1001]] Noel Annan الحديث) في جامعة كمبريدج: أسماء مثل كينز Keynes وستريتشي Strachey وتريفليان Trevelyan مُنِحَتْ عضوية تلقائية[1002].

ومن نواحٍ أخرى، كانت الجمعيةُ بنظامها الانتخابي الدقيق وطقوسها السخيفة نوعًا ما، مجردَ أخويَّة ذكورية من النوع الذي وُجِدَ في جامعات هارفارد Harvard وبرينستن Princeton وييل Yale في الفترة نفسها أيضًا. ولكن شيئين ميَّزا جمعية

النِّقاش. لم توجد جمعية مشابهة في هذه الفترة اقتصرت على الأمور الفكرية. إذ أُخْتير «الرُّسُل» على أساس جدارتهم الفلسفية في المقام الأول. كما لم توجد جمعية أخرى أدَّى فيها الشعورُ بالتفوق إلى إحساسٍ قوي بالاغتراب alienation عن النظام القائم في جميع مستوياته تقريبًا. في أوائل العقد الأول من القرن العشرين، سأل أحدُ الرُّسُل رفيقَه الرَّسول:

هل هذا التفوقُ المعنوي الهائل الذي نشعر به نوعٌ من التوحُّد [مونومِنيا mc؟»[1003] . الجمعيةُ «حقيقةٌ واقعةٌ»، والرُّسُل أحبوا السخرية، وأما بقية العالَم فهو «استثنائي» [شاذٌّ] في نظرهم.

حين تزوج الفيلسوف جي. إليس مِكْتاجَرْت J. Ellis McTaggart متأخرًا، سخر قائلاً إنه لم يَعْدُ أن اتخذ «زوجةً استثنائية». لقد كانوا، بكلمة واحدة، لا يُطاقون.

إجماليًا، وُجِدَ حوالي 255 رسولاً بين عاميْ 1820 و1914. وبسبب معايير العضوية الرفيعة [المتشدِّدة] لم يوجد، في بعض السنوات، أيُّ ترشيحات إطلاقًا. فمثلاً، لم يوجد بين عاميْ 1909 و1912 سوى عضو واحد جديد فقط[1004] .

يُسَمَّى المُجنَّدون المُرشَّحون «الأجنَّة» embryos، ويُقيَّمون في سلسلة جلسات يُتناوَلُ فيها الشاي بعد الظهر اشتهرت بصعوبتها. وفي مناسبات نادرة، حين يُعتقَدُ أن طالبًا جامعيًا مؤهَّلٌ، «يُضَمُّ» إلى الجمعية، وعندئذٍ يَتوجَّبُ عليه حلف يمين السرِّية بالدم. بعد ذلك، يُتَوقَّع منه حضور اجتماعات الجمعية الأسبوعية مساء كل سبت أثناء الفصل الدراسي، وفي هذه الاجتماعات يقرأ الأعضاءُ أوراقًا بحثية بعناوين من قبيل «الجمال» Beauty أو «الأخلاق في علاقتها بالسلوك» Ethics in Relation to Conduct، ثم يطرحون أسئلةً (غير مرتبطة بالموضوع تقليديًا) للتصويت عليها [لمناقشتها].

«الأخ» brother هي صيغة المخاطبة السليمة عندما يتحدث رسول إلى رسول. وأثناء اجتماعهم يتقاسمون وجبة الأنشوجة على رقائق الخبز المحمَّص (ويُسَمُّونها «حيتان»)، ويُطْلَقُ على الأعضاء السابقين الذين استقالوا عند التخرُّج «ملائكة» Angels لأنهم يرفرفون بأجنحتهم على مَن لم يتخرَّج بعد. وأما وجود علاقات صداقة هيلنستية قوية بين أعضاء من أجيال مختلفة فهو أحد الأشياء التي يعتزُّ بها الرُّسُل ويفتخرون[1005] .

وقد واظب الملائكةُ الذين ظلوا في كمبريدج بوصفهم أكاديميين - فلاسفة من أمثال بِرْتراند رسل Bertrand Russell ووايتهِد A. N. Whitehead – على حضور الاجتماعات.

لم تختلف سياسة الرُّسُل، في القرن التاسع عشر، عن سياسة معاصريهم في

أكسفورد. في عام 1864، قيل إنهم «تُوريون Tory سياسةً، وإنجيليون Evangelical دِينًا»[1006]. بل صار عددٌ منهم أعضاءَ مُحافِظين في البرلمان. 14% من الرُّسُل، تقريبًا، أصبحوا أعضاء في البرلمان أو موظفين حكوميين؛ وانخرط ما بين رُبْعهم وثلْثهم في مجال القانون[1007].

ولمِ يوجد أي دليل على مناهَضة الجمعية لاحقًا للإمبريالية قبل عام 1900. بل تَنَافسَ نجومُها البارزون، أحدهم مع الآخر، على مناصب عليا في الخدمة المدنية الهندية[[1008]] Indian Civil Service، تُمْنَحُ بعد اجتياز امتحان متشدِّد[1009].

انقسم الرُّسُل بشأن قضية الحكم الذاتي الأيرلندي[[1010]] Irish Home Rule، شأنهم في هذا شأن معظم النُّخْبة البريطانية ككل[1011].

ولكن الجمعية، منذ سنواتها الأولى، حازت مكانةً مرموقة فعلاً بسبب راديكاليتها، وإلى حد ما بسبب سرِّيتها. وفي أوائل عام 1830، أخذ ريتشارد شيفينكس ترينش Richard Chevenix Trench يُفَنِّدُ الزَّعْمَ بأن الرُّسُلَ «جمعيةٌ سرِّية نشأت بهدف الإطاحة بكل الحكومات القائمة»[1012]. ومع ذلك، نَمَتْ هذه الروح التخريبية بوضوح أكبر بعد عام 1900، بمجيء جيل جديد تمحور حول الفيلسوف جي. إي. مور[[1013]] G. E. Moore، سقراط القرن الجديد.

لم يكن مور سياسيًا؛ بل شجَّعَ تلامذتَه على النظر إلى السياسة بعين الاحتقار[1014]. انصبَّ شغف مور على الفضائل الشخصية. فالكلمات البارزة في كتابه «مبادئ علم الأخلاق» Principia Ethica، المنشور عام 1903، هي:

الحساسية، العلاقات الشخصية، تحرير العواطف، الغرائز الخلاقة، الصدق مع النفس[1015]. فَتَنَتْ هذه الأفكارُ - التي وَجَدَتْ تعبيرَها الأدبي في روايات رسول آخر هو فورستر E. M. Forster - ثلاثةَ شُبَّان متألقين هم: ليتون ستريتشي[[1016]] Lytton Strachey، ليونارد وولف[[1017]] Leonard Woolf، جون مينارد كينز[[1018]] John Maynard Keynes الذي أصبح يوم 28 فبراير عام 1903 الرسول رقم[1019] 243.

ستريتشي هو ثامن الأبناء العشرة للجنرال سير ريتشارد ستريتشي General Sir Richard Strachey، الذي خَدَمَ في الهند، وزوجته الثانية إسكتلندية تُسمَّى جين ماريا جرانت Jane Maria Grant. كان ليتون بجسده الضئيل وصوته الرَّخيِّ، ابنًا غير عسكري على نحو لا يليق بذُرِّية جنرال.

أما وولف الأقل توهُّجًا، والمكتئب عادةً، فهو ثالث الأبناء العشرة لسيدني وولف Sidney Woolf، المحامي اليهودي في المحاكم العليا. وأما كينز فهو أرستقراطي حقيقي بالمعنى الكمبريدجي: والده، الدون، لا رجاء له سوى فَوْزِ ابنه البِكْري بكل جائزة تمنحها الجامعة في الرياضيات. ولكن الرياضيات لم تكن العِلْمَ الذي يكترث له الشاب مينارد. كان يكترث بالرجال.

لم يكن ستريتشي وكينز مجرد شاذَّيْن gay؛ بل كانا مثليي الجنس homosexual بطريقة نضالية، إذ اعتبرا تفضيلَهما الجنسي sexual preference أسمى من الغَيْرِيَّة الجنسية heterosexuality المألوفة، وأسمى من إشباع الرغبات بالقنْصِ المُعادِي للمرأة حين تدخل أيُّ امرأة دائرةَ الرجال الاجتماعية الجليلة.

إنه تقليد رسولي يرجع إلى براونج Browning وكتابه قاموس السِّير الوطنية Dictionary of National Biography، الذي تجرَّأ على كتابة أنه عندما «كان في روما، سَاعَدَ الشبان الإيطاليين، وكذلك الشبان الإنجليز، على الاتجاه نحو الفتحات المرغوبة». وبحلول عام 1903، أصبحت هذه الثقافةُ أبعدَ من أن تكون دُعَابة. تَنَافَسَ ستريتشي وكينز على شاب مليح فارغ العقل يُسَمَّى أرثر هوبهاوس Arthur Hobhouse، فتكفَّلا ب«مولده» بوصفه رسولاً لأسباب جمالية في المقام الأول. وتفاخرا بتفانيهما في «السَّدوميَّة الرفيعة» the Higher Sodomy[1020]، الأمر الذي لم يُسْتَبْعَدْ معه ممارستهما الشذوذ مع أفراد من طبقات أدنى كلما سنحت الفرصة.

وبحلول عام 1909، جاءت استعراضاتهما العامة المبتذلة للفت الانتباه بنتائج عكسية[1021]. فاستنادًا إلى المراسلات الباكرة بين روبرت بروك Rupert Brooke وجيمس ستريتشي، صارت جمعية النِّقاش تهتم - في المقام الأول - بالوِصَال الجنسي بدلاً من الاتصالات الفكرية[1022].

وعلى حدِّ تعبير سيدجويك، آمَنَ رُسُلُ الجيل السابق ب«السعي وراء الحقيقة بتفانٍ مطلق وبلا تحفظ وسط مجموعة أصدقاء حميمين»[1023]. أما كينز وستريتشي فكانا - بكل بساطة - يسعيان وراء أصدقائهما الحميمين.

لم يكن الرُّسُل كلهم شواذًّا. ولكن نسبة مرتفعة منهم كانوا شواذًّا؛ بمَن فيهم مَن لم يُرَجِّحوا - مع ذلك - أفكار «الإخوان» الشواذّ الأناوية solipsistic نوعًا ما (من أمثال وولف).

كان الجيلُ الأقدم - فيما يقول ديزموند ماكارثي Desmond MacCarthy في ورقة قرأها على الجمعية في ديسمبر عام 1900 - عَبْدًا للمؤسسات القديمة: «الأسرة، والدولة، وقوانين الشرف، إلخ». لكن هذه المؤسسات «فشلت في إنتاج أدلة مقنعة على سلطتها المرجعية» لدى الجيل الأصغر.

لقد استولت على «كل شيء يتميز بالخصوصية الشخصية»[1024].

«اتَّصِلْ فقط»: هذه هي عبارة الإلزام الحتمي الجديد، وستكون العبارةَ الرئيسيةَ في تُحْفَة فورستر «نهاية هاوارد»[[1025]] (Howard's End (1921).
لقد تَسمَّمتْ شبكةُ جمعية النِّقاش المُرَوْحَنة كتَسمُّم تسلسلات الوايتهول[[1026]] Whitehall الهَرَميَّة الجوفاء.

فبعد أن فاز كينز بموقعه في الخدمة المدنية الهندية ICS سرعان ما ازداد ضجره من المنصب، وأخذ يتشكَّى قائلاً:

الحِدَّة بَلِيَتْ الآن. أشعر بالملل تسعة أعشار الوقت، وبالغيظ إلى حد غير معقول في العُشْر الآخر حين لا أستطيع ممارسة أسلوبي الخاص في الحياة. ومن المثير للجنون أن يكون لديك ثلاثون شخصًا ينزلون بك إلى مستوى العَجْز الجنسي وأنت متأكد تمامًا من أنك سليم. فكنتُ أُبْدي انشغالاً كاملاً واستغراقًا، كشأن المسؤولين، كي أتجنَّب أذاهم، وكان هذا مُهْلِكًا قاتلاً[1027].

كانت مُراءاةً من كينز أن يدين زملاءه في الخدمة المدنية الهندية ICS «خوفًا من تحمُّل المسؤولية». ويعود كينز ناظرًا في «معتقداته الباكرة» في عام 1938 فيقطع شوطًا أبعد قائلاً:

لقد تنصَّلنا تمامًا من المسؤولية القانونية المُلْقاة علينا لإطاعة القواعد العامة. وزَعَمْنا الحقَّ في الحُكْم على كل حالة فردية وفقًا لمزاياها، والحكمة في استجابة ناجحة. وكان ذلك جزءًا مهمًا جدًا من إيماننا، الذي استمسكنا به بقوة وضراوة، وهو ما مَثَّلَ في العالم الخارجي صفتَنا المميزة على نحو جلي وخطير. لقد رفضنا الأخلاق المعتادة والأعراف والحِكْمة التقليدية [المتوارثة] رفضًا قاطعًا. لِنقلْ إننا كُنَّا لا أخلاقيين بالمعنى الدقيق للكلمة. وبطبيعة الحال، ما وجدناه ترتيبًا على هذا، نظرنا فيه من حيث القيمة. ولكننا لم نعترف بأي التزام أخلاقي ولا بوازع داخلي نعمل وفقًا له أو نطيعه[1028].

ثم كَتَبَ فورستر، بعد عام، مُمْسِكًا بالآثار الخطيرة لفلسفة مور عند مَدِّها إلى حدودها القصوى: «إذا كان لي أن أختار بين خيانة بلدي وخيانة صديقي، فآمل أن يكون لدي الشجاعة لخيانة بلدي... من الممكن أن يتعارض حبُّ شخص والإخلاص له مع متطلبات الدولة. وحين يحدث هذا التعارض، أقول فلْتسقط الدولة»[1029].

وحتى أمام لحظة الحقيقة، في عام 1914، سَئِمَ بعضُ أعضاء الجمعيَّة من كل ذلك. ربما يكون روبرت بروك مثيلَ أدونيس Adonis، لكنه لم يكن شاذًّا، وسرعان ما شُوهِدَ بصحبة نساء فابيات[[1030]] female Fabians[1031].

بعد انضمام الفيلسوف النمساوي الأصل لودفيج فتجنشتاين Ludwig Wittgenstein إلى جمعيَّة الرُّسُل، ألقى نظرةً على الرُّسُل وتجنَّبَهم تمامًا، فاستقال بعد حضوره اجتماعًا واحدًا. ومع أن ستريتشي أقنعه بسَحْب الاستقالة، فلم يحضر أيَّ اجتماعات بعدئذٍ[1032]. ومع اندلاع الحرب [العالمية الأولى]، تبخَّرت هالةُ السِّحر. فأغلبُ الرُّسُل لم يتطوعوا أو يُجنَّدوا في الحرب، باستثناء بروك الذي انضمَّ بحماس [إلى الحرب]، على متن سفينة إسعافات طبية فرنسية رَسَتْ في جزيرة سكايروس Skyros [اليونانية] في عيد القديس جورج[[1033]] St George's Day، عام 1915؛ ومات مع أشهر الموتى[[1034]] في التاريخ الإنجليزي[1035].

وتوالت الأحداث مع إدخال التجنيد الإلزامي. كينز الذي يعمل في وزارة المالية، لم يكن يسري عليه الإعفاء من المشاركة، ولكنه سعى بشكل مُمَنْهَج إلى الإعفاء على أساس الاستنكاف بوازع الضمير. اشتكى إلى دُنْكِن جرانت قائلاً: «أعمل من أجل الحكومة وأحتقر الأهداف التي أعتقد أنها إجرامية»[1036].

وقد استعمل كينز، بصورة شخصية [وسرِّية]، نفوذَه وموارده لدعم الرُّسُل الآخرين الذين أعلنوا استنكافهم عن المشاركة في الحرب بوازع من الضمير، ولا سيما جيمس ستريتشي James Stratchy وجيرالد شوف[1037] Gerald Shove، ولكن مساعيه لم تكن كافية بخصوص ليتون ستريتشي Lytton Strachey الذي ترك قصاصةَ جريدةٍ قومية متطرِّفة على طبق عشاء كينز ملفوفة برسالة موجزة بسيطة، في ليلة من ليالي فبراير عام 1916، وَرَدَ فيها: «عزيزي مينارد، لماذا تَبْقَى في وزارة المالية؟»[1038].

لم تكن شبكةُ الرُّسُل الشبكةَ الوحيدة التي فرَّقتها الحربُ. فقد اشتركت معها في العديد من النقاط شبكةٌ فكرية أخرى تفرَّعتْ عنها، هي مجموعة بلومزبري[[1039]] Bloomsbury Group، ولْنذكر من أعضائها أربعةً فقط من العشرة: فورستر، كينز، ستريتشي، وولف[1040].

وعلى عكس جمعية النِّقاش، اعترفت بلومزبري بعضوية النساء - ولا سيما الأختين ستيفن Stephen، فينِسَّا Vanessa وفرجينيا Virginia - بل تمحورت حول الزوجين فينِسَّا وكلايف بيل Clive Bell (المقيمين في 46 جوردون سكوير 46 Gordon Square)، والزوجين فيرجينيا وليونارد وولف Leonard Woolf (الذين انتقلا في عام 1915 إلى الإقامة في مدينة ريتشمند Richmond).

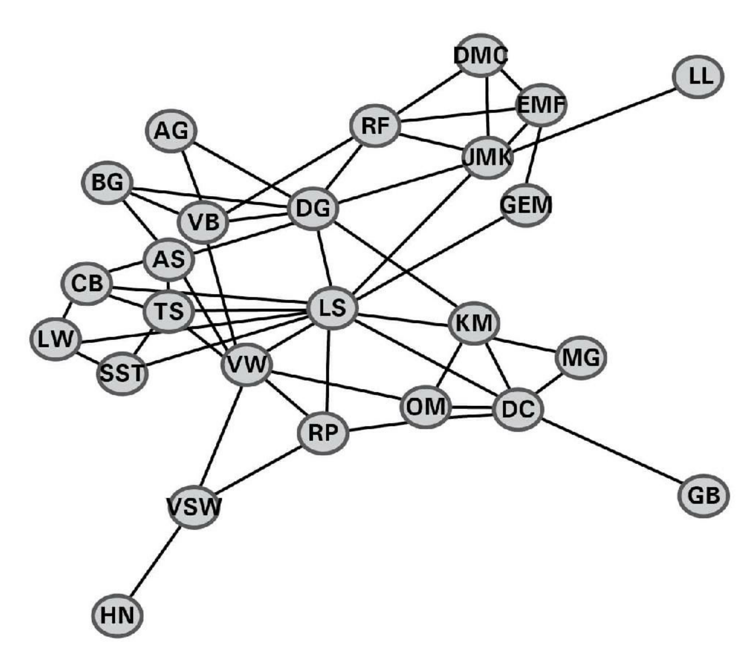
لقد دَفَعَ تأثيرُ الحرب العناصرَ الرئيسية في [شبكة] بلومزبري - وأغلبهم كتَّاب

وفنانون - إلى الخروج من لندن، إلى بيت ريفي كبير في تشارلستن Charleston في مقاطعة سَاسِكْس Sussex [جنوب شرق إنجلترا] التي انتقل للإقامة فيها فينِسَّا بيل ودُنْكِن جرانت في عام 1916. قدَّمَ بيتر دولتن Peter Dolton تحليلاً جديدًا لشبكة بلومزبري أوضح فيه أن ليتون ستريتشي تَمتَّع في عاميْ 1905 و1925 بدرجة تَمَرْكزيَّة وكذلك تَمَرْكزيّة بَيْنية هي الأعلى. وفي فترة لاحقة، جاء ترتيب دُنْكِن جرانت ومينارد كينز وفرجينيا وولف في المنزلة الثانية والثالثة والرابعة بعد ستريتشي[1041].

ومع ذلك، السمة التي ميَّزت مجموعة بلومزبري بشكل لافت لم تكن تفضيل أعضائها المشي في [حدائق] ساوث دوانز South Downs. بل كانت العلاقات الجنسية، شأنهم في هذا شأن شبكة الرُّسُل، هي التي حدَّدَت الشبكة. فبالإضافة إلى نَوْمِ دُنْكِن جرانت مع كينز وليتون ستريتشي وأدريان ستيفن Adrian Stephen وفينِسَّا بيل، ينام جرانت مع ديفيد جارنيت David Garnett أيضًا. وبالإضافة إلى نَوْمِ فينِسَّا بيل مع جرانت، تنام مع روجر فراي Roger Fry أيضًا، وأحيانًا مع زوجها كلايف. أما كينز فينام مع جرانت وجارنيت وستريتشي، وأخيرًا مع راقصة الباليه الروسية ليديا لوبوكوفا Lydia Lopokova.

تعقيدات علاقات الحب داخل مجموعة بلومزبري كانت بلا نهاية. جارنيت سقط في حبٍّ من طرف واحد مع فينِسَّا بيل. مدام أوتولين موريل Lady Ottoline Morrell [المؤلِّفة] وقعت في المشكلة نفسها مع فيرجينيا وولف؛ و[الرَّسامة] دورا كارينجتن Dora Carrington مع ليتون ستريتشي؛ وليتون ستريتشي مع [الرَّسام] مارك جيرتلر Mark Gertler؛ ومارك جيرتلر مع دورا كارينجتن.

وكما قال دولتن: «فينِسَّا بيل كانت متزوِّجة من كلايف بيل، ولكنها عاشت مع دُنْكِن جرانت. أما ليونارد وولف فكان متزوِّجًا من فيرجينيا وولف، وكان [الديبلوماسي] هارولد نيكولسن Harold Nicolson متزوِّجًا من فيتا ساكفيل و يـ سـ ت Vita Sackville - West، ولكن فيتا وفرجينيا سقطتا في حب إحداهما الأخرى»[1042].




الشكل رقم:22 - مجموعة بلومزبري حوالي عام 1925. في قلب الشبكة:

Clive Bell (CB), Vanessa Bell (VB), E. M. Forster (EMF), Roger Fry (RF), David «Bunny» Garnett (BG), Duncan Grant (DG), John Maynard Keynes (JMK), Desmond McCarthy (DMC), Lytton Strachey (LS), Leonard Woolf (LW), .(Virginia Woolf (VW

و«المجموعة الخارجية»:

Thoby Stephen (TS), Saxon Sydney - Turner (SST), Adrian Stephen (AS), Gerald Brenan (GB), Dora Carrington (DC), Angelica Garnett (AG), Ottoline Morrell (OM), Ralph Partridge (RP), Harold Nicolson (HN), Vita Sackville - West (VSW), Mark Gertler (MG), Katherine Mansfield (KM), Lydia Lopokova .((LL) and G. E. Moore (GEM

في رواية «نهاية هاوارد»، تُحاولُ المُتألِّقة مارجريت Margaret إيضاحَ مبادئ مجموعة بلومزبري لزوجها العاميِّ هنري Henry.

«اتَّصِلْ فقط! هذا هو كلُّ إرشادها السلوكي. صِلْ العاديَّ بالشَّغَف، وسيكون كلاهما سامِيًا رفيعًا، وعند الذروة سيتجلَّى الحبُّ البشري. لم يعد العَيْشُ شذراتٍ ومِزَقًا. اتَّصِلْ فقط، فالبوهيمي والناسك سيموتان مسروقين من العُزْلة التي هي الحياة».

لكن مارجريت، كما يقول فورستر، «فَشِلَتْ». وأما هنري فلم يكن شعاره «اتَّصِلْ فقط» Only connect، بل كان «رَكِّزْ» Concentrate. وقال لها بلهجة قاطعة: «ليس عندي نِيَّة لتبديد قوتي في هذا النوع من الحياة»[1043] . وسيَفهم المرءُ وجهةَ نظره

حين يتأمل الوِصَالاتِ الجنسيةَ بين أعضاء مجموعة بلومزبري.

كَشَفَ فشلُ رَوْضة ميلنر Milner’s Kindergarten في جنوب أفريقيا حدودَ التوسُّع الإمبريالي البريطاني. كذلك بَيَّنَ تمزُّقُ أوصال [جمعيَّة] الرُّسُل و[مجموعة] بلومزبري أن كمبريدج - وليست أكسفورد - قد فَقَدَتْ أيَّ تعاطف مع مشروع الإمبراطورية بحد ذاته. فالبريطونيون Britons، في عام 1914، ذهبوا - دون أن يقولوا شيئًا لرعايا إمبراطوريتهم - إلى الحرب، ردًّا على التحدِّي الذي فرضه تنامي القوة الاقتصادية وطموح الرايخ الألماني الجيوسياسي. ويدين انتصارُ بريطانيا النهائي، في هذه الحرب، بالكثير للاتحاد بين الشعوب الناطقة بالإنجليزية، الذي حَثَّ عليه ميلنر ومعاونوه. أستراليا وكندا ونيوزيلندة، بل وجنوب أفريقيا، قدَّمتْ كلُّها إسهامات اقتصادية وعسكرية كبيرة للمجهود الحربي البريطاني بين عاميْ 1914 و1918، بقدر ما قدَّمتْ الإمبراطوريةُ ككل والهندُ على وجه الخصوص[1044].

ولم تُسْمَعْ مناحات بلومزبري إلا بعد نهاية الحرب، حين نُشِرَتْ مجادلتان مدمِّرتان: «الفيكتوريون المرموقون» من تأليف ستريتشي Strachey’s Eminent Victorians، و«عواقب السلام الاقتصادية» من تأليف كينز Keynes’s Economic Consequences of the Peace.

ولا داعي للدخول من جديد، هنا، إلى قاعة المحكمة المكتظة الخاصة بتأريخ الحرب العالمية الأولى[1045]. فالمؤرِّخون، شأنهم شأن المحامين في رواية ديكنز «المنزل الكئيب» Dickens’s Bleak House، يواصلون نَفْضَ الغبار عن الوثائق (في قضيةٍ استحقَّتْ عن جدارة أحيانًا ما أسماه ديكنز ألمانيا ضد ألمانيا Germany v Germany). ومع ذلك، لن يوجد حُكْمٌ نهائي في هذه القضية، لأن البحثَ الطويل الذي دامَ قرنًا من الزمان عن «وِزْر الحرب» بحثٌ عديم الجدوى.

لقد اندلعت حربٌ أوربية شاملة عام 1914 لسبب بسيط هو أن النظام الذي أُنْشِيء في فيينا عام 1815 [الاتحاد الخُمَاسي] قد انهار. والسؤال التاريخي الصحيح الذي يطرح نفسَه لماذا اندلعت الحرب وليس مَن يتحمَّلُ وِزْرَها.

مع أوائل العقد الأول في القرن العشرين، كان الحُكْم الخماسي المكوَّن من القوى العظمى الخَمْس قد تطوَّرَ إلى خَمْس إمبراطوريات كبرى، كلٌّ منها خرجت بصدوع بسيطة من شبكات التجارة والهجرة والاستثمار والمعلومات، الدولية، التي وصفناها أعلاه. ولفترة من الزمن بعد حرب القرم Crimean War، بدا أن تسويةً مؤقتة[1046] modus vivendi

قد نشأت بين التسلسلات الهَرَميَّة القديمة الوراثية وشبكات العَوْلمة
ا ل ج د ي د ة new
.networks of globalization

ولعبت الحكوماتُ التي تدير الإمبراطورياتِ الأوربيةَ الكبرى دورَ دولِ حراسةٍ ليلية ذات امتداد [جغرافي] كبير، فألقتْ بالحد الأدنى من المطالب على عاتق اقتصادات السوق التي تتعايش معها: تُصِرُّ على السيطرة على بعض الخدمات البريدية والتلغرافية والسكك الحديدية، بالإضافة إلى الجيوش والقوات البحرية، ولكنها تترك كل شيء آخر في أيدي القطاع الخاص. عاشت الهَرَميَّات المَلَكيَّة والإمبريالية في المدن الأوربية الكبرى، على صِلَةٍ اجتماعية حميمة بنُخَب الائتمان والتجارة والفكر الجديدة؛ بل تزوَّجَ حاملو ألقاب الإيرل[1047] earl من بنات المَصْرفيين اليهود. وشعر المتفائلون، من أندرو كارْنِجي إلى نورمان إنجِل[1048] Norman Angell، بالثقة في أن الأباطرة لن يكونوا من الحُمْق بحيث يخاطرون بكل ذلك[1049].

وقد ثبَتَ أن هذا وَهْمٌ وغرور. فطبقًا لتفسيرٍ كلاسيكيٍّ قدَّمه هنري كيسنجر Henry Kissinger، كَفَّ الحُكْم الخماسي عن أن يكون مستقرًا، لأنه «مع ألمانيا الموحَّدة وغريمتها الدائمة فرنسا، فَقَدَ النظامُ مرونتَه»[1050].

بعد عام 1871، اعتمد النظامُ على موهبة بيسمارك Bismarck الدبلوماسية للحفاظ عليه في حالة توازن. وتمثلت براعة بيسمارك الرئيسية في معاهدة إعادة التأمين السرِّية Secret Reinsurance Treaty التي وَقَّعَها مع وزير الخارجية الروسي نيكولاي جيرس Nikolay Girs في يونيو عام 1، وبمقتضاها تُوافِقُ ألمانيا وروسيا على الالتزام بالحياد في حالة دخول أيٍّ منهما في حرب مع دولة ثالثة، ما لم تُهاجِمْ ألمانيا فرنسا أو تهاجم روسيا الإمبراطورية النمساوية المجرية. وهو ما يُلْزِمُ ألمانيا بالحياد إذا سعت روسيا إلى تأكيد سيطرتها على مضيق البحر الأسود Black Sea Straits، ولكن الهدف الحقيقي كان تثبيطَ الرُّوس عن السعي إلى معاهدة دفاع مشترك مع فرنسا، وهو ما حَدَثَ بالضبط عقب إجبار بيسمارك على الاستقالة، الأمر الذي أدَّى إلى عدم تجديد معاهدة إعادة التأمين السرِّية. وعلى حدِّ تعبير كيسنجر: «من عجيب المفارقات أن هذا الالتباس، على وجه التحديد، هو الذي حافظ على مرونة حالة التوازن الأوربية. وبالتخلِّي عنه... بدأت سلسلةُ المواجهات المتزايدة التي بلغت ذروتها في الحرب العالمية الأولى»[1051].

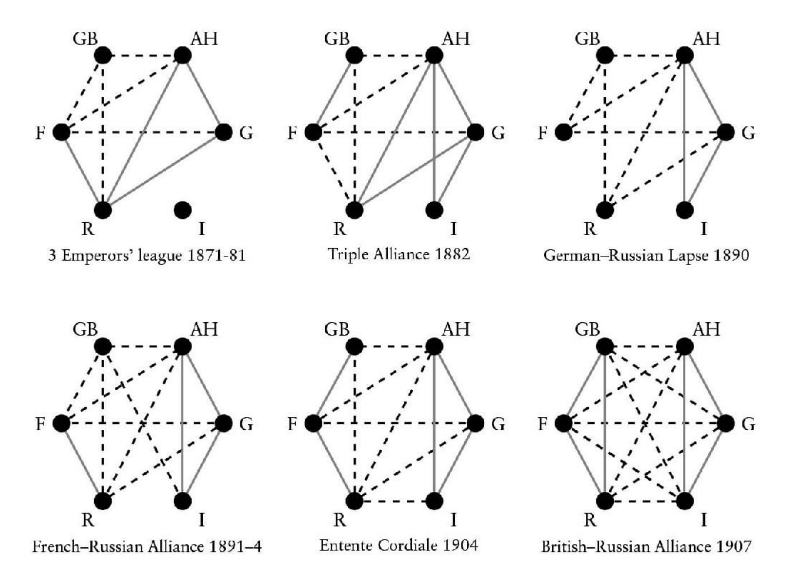
يقول كيسنجر إنه بعد ذهاب بيسمارك «فَاقَمَ» نظامُ القوى العظمى من نزاعاته بدلاً من «تخفيفها». وبمرور الوقت، «فَقَدَ القادةُ السياسيون السيطرةَ على

تكتيكاتهم»، و«في النهاية، بدأ التخطيط العسكري يعمل بمعزل عن الدبلوماسية»[1052].

وبكلمات أخرى، نشأ منذ عام 1890، فصاعدًا، احتمال كبير لنشوب صراعٍ تتبارى فيه ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية ضد فرنسا وروسيا. المدهش ليس اندلاع هذه الحرب عام 1914، بل عدم اندلاعها قبل ذلك التاريخ.

ورغم عدم ألفة منهج كيسنجر بين المؤرِّخين، فهو يجد تأييدًا كبيرًا فيما بين علماء السياسة ومُنظِّري الشبكة. وتدعم الزيادةُ الحادةُ في عدد الصراعات العسكرية بعد عام 1890 حُجَّتَه القائلة بوجود نوع من التغيير في ذلك الوقت تقريبًا[1053].

كذلك أيضًا دعمتها ورقةٌ ممتازة قدَّمها عالِمُ الرياضيات تيبور أنتال[[1054]] Tibor Antal والفيزيائيان بول كرابيفسكي Paul Krapivsky وسيدني ريدنر[[1055]] Sidney Redner،
فأوضحوا أن تطوَّرَ نظام القوى العظمى بعد عام 1890 كان يمضي - من حيث نظرية الشبكة - بمفارقة عجيبة في اتجاه «التوازن الاجتماعي»؛ حيث ظهر تحالفان متساويان تقريبًا. التوازن في هذه الحالة كان «نتيجةً طبيعيةً»، ولكنها ليست جيدة إذا لم يُرْدَعْ طرفٌ من قبل الطرف الآخر (انظر الشكل 23)[1056].




الشكل:23 - تطور العلاقة الرئيسية يتغير بين مُحَرِّكي الحرب العالمية الأولى، 1892 - 1907.

GB= Great Britain, AH= Austria - Hungary, G= Germany, I - Italy, R= Russia, F= France.

توجد، بطبيعة الحال، تفسيراتٌ بديلة. إحدى الفرضيات أن النظام فَشِلَ لأن القوى العظمى سمحت بأن تجرَّها قوى أقلُّ في البلقان إلى الصراع[1057]. تعقيد التحالفات الأقل هو الذي زَعْزَعَ استقرارَ النظام[1058].

ومع ذلك، لا يُعْقَلُ بكل بساطة أن روابط هذه القوى الأقل مع رومانيا أو اليابان، ناهيك عن إسبانيا أو البرتغال، هي التي قادت القوى العظمى إلى أرْمجِدُّون ملحمة كبرى] في عام[1059] 1914. لم تكن البلادُ الأقلُّ، مُهِمَّةً إلا لأنها أثارت احتمال صراع القوى العظمى.

ضَمُّ الإمبراطورية النمساوية المجرية Austro - Hungarian للبوسنة Bosnia عام 1908، ثم اغتيال وريث العرش النمساوي المجري بعد سِتِّ سنوات - برعاية صِرْبية [[1060]] - أوجدا معًا ظرفًا فريدًا، لأن ثلاث قوى عظمى رأت الحربَ بديلاً وحيدًا لهَجْمةٍ ديبلوماسية ساحقة، على عكس ما كان يجري في الأزمات الحرجة السابقة بشأن المغرب أو حروب البلقان السابقة[1061].

وجهة نظر فيينا وبرلين كانت معقولةً: بَدَتْ روسيا عازمةً على استغلال الأزمة البوسنية بهدف الإنهاك المتواصل للإمبراطورية النمساوية المجرية Austria - Hungary، إن لم يكن تقطيع أوصالها[1062].

وبالنظر إلى أن التالي في سلالة عرش آل هابْسبورج سَقَطَ ضحيةَ ما بدا، بشكل مريب، عملاً من أعمال الإرهاب ترعاه دولةٌ، كان النمساويون في موقف جيد ضمن نطاق حقوقهم «وَفْقَ مترنيتش» للمطالبة بتَرْضية من صربيا Serbia. ولم يختلف الإنذار النمساوي الشهير لبلجراد Belgrade [العاصمة الصِّرْبية] اختلافًا كبيرًا عن نوع المطالبة المفروضة على دول الدرجة الثانية في عشرينيات القرن التاسع عشر[1063].

وفي الوقت نفسه، لم تعتقد أيٌّ من القوتين الأخريين، فرنسا وبريطانيا، في وجود حجج قوية تكفي لإثناء القوى الأخرى عن الذهاب إلى حرب على البلقان: الفرنسيون لأنهم صاروا مرتبطين دون تمحيص بتحالفهم مع روسيا، والبريطانيون لأنهم لم يتمكنوا من إيجاد وسيلة لرَدْع ألمانيا لا تُحرِّضها على روسيا وفرنسا[1064].

وإذا كان أي شخص يستحق اللومَ بصفته الشخصية على فشل النظام فهو وزير الخارجية البريطاني السير إدوارد جراي Sir Edward Grey. فقد كان من المفترض أن تكون بريطانيا قوةَ التوازن في أزمة من هذا النوع. في يوم 29 يوليو عام 1914، حذَّرَ جراي السفيرَ الألماني من أن بريطانيا ستتدخل إذا اندلعت حربٌ قارِّية، وإذا قُبِلَت الوَسَاطَةُ «فسيكون قادرًا على ضمان كل تَرْضية ممكنة للنمسا؛ إذ لم يعد من الوارد أيُّ تراجع مهين للنمسا، وسيُعاقَبُ الصربيون على أية حال، ويُجْبَرون - بموافقة من روسيا - على إخضاع أنفسهم لرغبات النمسا»[1065].

ثم بعد يومين، أخبر الألمانَ بأنه سيُؤيِّدُ أيَّ اقتراح معقول يتوصلون إليه، وسيخبر فرنسا وروسيا بأن بريطانيا - إذا لم يقبلا هذا الاقتراح - فلن يكون لديها «أكثر من التعامل مع العواقب»[1066].

ولكن في هذه المرة، كان الأوان قد فات، لأن الألمان تلقوا أخبارَ التعبئة الروسية العامة، التي انتهى الوقت معها لأي ديبلوماسية. ونستطيع تخيُّل وزير خارجية أكثر تأثيرًا - كاسِلْريه Castlereagh ربما - يرسل هذه الرسائل قبل أسبوع، فيمنع اشتعالَ الحريق. الحقيقة أن جراي كان ملتزمًا، بشكل شخصي، مع فرنسا وروسيا إلى درجة لا تُمَكِّنه من لعب هذا الدور.

بحلول عام 1914، كان نظام القيادة والسيطرة والاتصال الإمبريالي هو المؤثِّر الحقيقي، الفاعل في الأحداث، عندما اعتزم الأباطرةُ (أو على الأصح وزراؤهم) الدخولَ في حرب على قضيتين غامضتين - سيادة البوسنة والهرسك، وحياد بلجيكا - أدَّتا، على مدى أكثر من أربع سنوات، إلى تعبئة ما يزيد على سبعين مليون رجل، سواء كانوا جنودًا أم بحَّارة. وفي فرنسا وألمانيا، انتهى الحال بما يقرب من خُمْس السكان قبل الحرب - 80% تقريبًا من الذكور البالغين - إلى ارتداء

الزيِّ العسكري.

وقد رَمَزَ إلى انتصار التسلسل الهَرَمي على الشبكات فَشَلُ أحزاب الدولية الثانية الاشتراكية Second International of socialist parties فشلاً ذريعًا في مَنْع اندلاع الحرب العالمية الأولى. إذ لم يتمكَّن زعماءُ الاشتراكية الأوربية، حين اجتمعوا في بروكسل نهاية يوليو عام 1914، من فعل شيء أكثر من الاعتراف بعَجْزِهم. وملاحظةُ الكاتب النمساوي الساخر كارل كراوس Karl Kraus التي مفادها أن عام 1914 أصبح ممكنًا بفضل تعايش العروش والتليفونات، هي ملاحظةٌ ثاقبة[1067].

لقد استطاع ملوكُ أوربا، المُمَكَّنون بالتكنولوجيا، تسييرَ رعاياهم من الذكور اليافعين إلى أرْمِجِدُّون بمجرد إرسال التلغرافات. والعديد من المُعلِّقين الذين اعتقدوا أن هذه الحرب لن تستمر طويلاً - ومن بينهم كينز - استهانوا بقدرة الدولة الإمبراطورية على دَعْم مجزرة صناعية استهانةً بالغةً.

في حرب عالمية ضد الإمبراطورية البريطانية، عانى الرايخ الألماني من خسارة شديدة، حين قامت سفينة بريطانية في الساعات الأولى من صباح يوم 5 أغسطس عام 1914، بقطع خمسة كابلات تحت الماء تمتد من مدينة إمدن E [في ألمانيا] إلى مدينة فيجو Vigo [في إسبانيا] وجزيرة تنريفي Tenerife [كبرى جزر الكناري في المحيط الأطلنطي] وجزر الأزور Azores [أرخبيل جزر بركانية بالقرب من البرتغال] والولايات المتحدة. منذ ذلك اليوم فصاعدًا، اضطر الألمان إلى إرسال تلغرافاتهم إلى سفارتهم في العاصمة واشنطن على الكابلات الأمريكية من السويد أو الدنمارك، وكلاهما يمر عبر محطة ترحيل شركة التلغراف الشرقية Eastern Telegraph Company في قرية بُرْثكورنو Porthcurno في كورنوول Cor [في المملكة المتحدة]، حيث يتم اعتراضها وإرسالها إلى غرفة الأميرالية رقم 49، Admiralty's Room 49، لفَكِّ شفرتها. وكما رأينا، سَيطرتْ بريطانيا على شبكات الاتصالات الدولية: فبالإضافة إلى سيطرتها على التلغراف، سيطرت على الأنظمة النقدية والمالية التي كانت لندن محورَها بلا منازع، وعلى شبكات التجارة البحرية (وإنْ بدرجة أقل). وفشلت ألمانيا في سدِّ الفجوة من حيث القوة البحرية أيضًا. لذا، لم يوجد سوى عدة مخارج قليلة يأمل عبرها الألمان في تحقيق النصر في الحرب العالمية الأولى: إما بهزيمة حاسمة للجيوش البريطانية والفرنسية والروسية على الأرض، أو بتعطيل وارداتهم عبر هجوم بالغواصات في البحر، أو بإيقاع الفوضى والاضطراب في إمبراطورياتهم بإشعال ثورات داخلها عبْر تنشيط الشبكات المناهضة للإمبريالية بهدف تمزيق هياكل الإمبراطورية الهَرَميَّة. لقد أوشك الألمان، كما سنرى، على النجاح في النواحي الثلاث جميعها. ولكن أجْرَأ حيلِهم مكرًا كانت المؤامرة الرومانسية التي صَوَّرتها ثانيةُ رواياتِ جون بوشان[[1068]] «الرداء الأخضر» Greenmantle[1069] بعد روايته

«تسع وثلاثون خطوة».

في الصفحات الأولى من رواية «الرِّداء الأخضر»، يقول رئيس المخابرات البريطانية السير وولتر بوليفِنت Sir Walter Bullivant لريتشارد هاناي: «ثمة جِهَادٌ jehad [كذا] يجري الإعداد له». ف«الشرق ينتظر إلهامًا. وقد وُعِدَ به. نَجْمٌ آتٍ من الغرب: رجل أو نبوءة أو مؤامرة. والألمان يعرفون، وتلك هي ورقة اللعب التي سيُذْهِلون بها العالَمَ».

تبدو فكرةُ تدبير دعوة ألمانية لاستنهاض المسلمين في حرب مقدسة holy war ضد الإمبراطورية البريطانية فكرةً بعيدة الاحتمال لدى القارئ الحديث. ولكن المُدْهِشَ والمثيرَ اكتشافُ أن بوشان استلهم روايتَه «الرِّداء الأخضر» من أحداث حقيقية.

# VI
# القسم السادس
# أوْبِئةٌ وزمّارون

## 35
## الرداء الأخضر

في قصة «زمَّار هاملِن ذو الرِّداء المُبَهْرَج» Pied Piper of Hamelin، تَستأجِرُ بلدةٌ صائدَ فئران يرتدي ملابس مُلوَّنة غريبة، لجَذْب الفئران التي غزت البلدةَ بعيدًا عنها، بالنَّفْخ في مزماره السحري. تَبِعَت الفئرانُ موسيقى الزمَّار حتى قادها إلى ريفر فيزر River Weser [نهر في شمال غرب ألمانيا] القريب من البلدة، وهناك ماتت غرقًا. ثم حين رفض سكانُ البلدة دَفْعَ الأجر المتفق عليه كاملاً للزمَّار، استخدم الحيلةَ نفسَها مع أطفالهم، حتى قادهم إلى كهف. ولم يَرَ أحدٌ من أهل البلدة الأطفالَ مرة أخرى باستثناء ثلاثة. يرجع تاريخ القصة إلى القرن الثالث عشر، وربما استندت إلى أحداث حقيقية لا يتضح منها ما السبب الحقيقي في فقدان أولئك الأطفال. تذهب إحدى الفرضيات المعقولة إلى أن القصة عن تَفشِّي الطاعون الدَّبْليِّ[1070] bubonic plague، الذي ينتشر عن طريق الفئران، رغم أنه لا ذِكْر للفئران في الرواية الأصلية للقصة؛ إذ أُضِيفت الفئران إلى القصة أواخر القرن السادس عشر.

كان القرنُ العشرون أيضًا زمنَ أوبئة، وزمنَ زمَّارين. وكما هو معروف، تزامنتْ المرحلةُ الأخيرة من الحرب العالمية الأولى مع جائحة عالمية: شكلٌ مُمِيت من فيروس الإنفلونزا اجتاح العالَمَ، وقَتَلَ عشرات الملايين من الناس، ولا سيما الشباب[1071] ولكن هذا الوباء لم يكن الوحيد في السنوات بين عاميْ 1917 و1923.

إذ وُجِدَتْ سُلالةٌ متحوِّلة من الماركسية Marxism طَوَّرها البلاشفةُ الرُّوسُ[1072] Russian Bolshevikes، اجتاحت الأراضيَ الأوراسية أيضًا. كما أنتجتْ أشكالٌ من القومية nationalism جديدةٌ ومتطرِّفةٌ حركاتٍ فاشيةً[1073] fascist خبيثةً في كل بلد أوربي تقريبًا. كانت هذه الأيديولوجياتُ شديدةَ العَدْوى، إلى درجة أنه حتى الإنجليز المحظوظين في أَفْنية جامعة كمبريدج المعزولة قد أُصِيبوا بها. وُجِدَ وباءٌ اقتصاديٌّ أيضًا: وباء التضخُّم المفرط، الذي لم يُخَرِّبْ ألمانيا فقط، بل النمسا وبولندا وروسيا أيضًا. وفي مواجهة هذه الأوبئة تحوَّلَ الناسُ إلى زمَّارين بملابس مُبَهْرَجة:

رجال قدَّموا قيادةً كاريزمية[1074] charismatic

وحلولاً متطرِّفة [وعنيفة]. وكالناس في بلدة هامْلِن [الألمانية] زمن العصور الوسطى، كان الثمنُ الذي دفعه مَن مَكَّنوا هؤلاء الزمَّارين هو حياةُ أطفالهم.

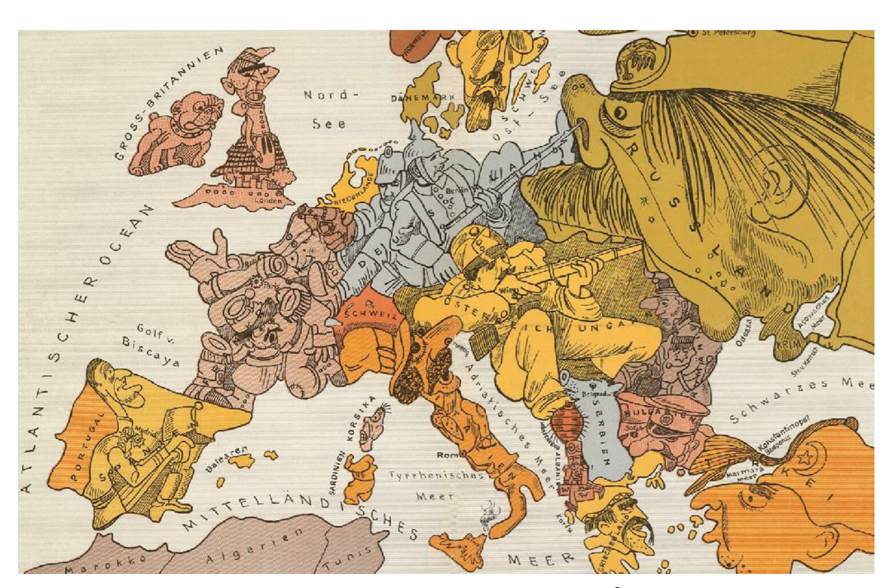
قبل حدوث كل هذا، كان العالَمُ عالَمَ إمبراطوريات. وقد نتجَ الصراعُ الذي اندلع بين الإمبراطوريات الأوربية في صيف عام 1914 - كما رأينا - عن انهيار النظام الدولي الذي ظهر بعد الحروب النابليونية Napoleonic Wars، والذي رَفَّعَ شبكةً من القوى العظمى ذات خَمْس عُقَدٍ فوق كل الدول الأخرى. وفي محاولة من بريطانيا لتقليص أسباب الحرب إلى عناصرها الأساسية الأولى، أخفقتْ في لعب دور رُمَّانة الميزان، لأن الجَمْعيْن المتنافسيْن - روسيا وفرنسا في مقابل ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية - ذهبا إلى الحرب بسبب اغتيال نفَّذَه إرهابيون صربيون في أراضٍ عديمة الأهمية، البوسنة والهَرْسك Bosnia - Herzegonina، استولى عليها مؤخرًا الهابْسبورجيون.

وحين أصبح واضحًا أن الهجوم المُزْمَع من ألمانيا ضد فرنسا استلزم انتهاكَ الحياد البلجيكي، تدخَّلتْ بريطانيا إلى جانب فرنسا وروسيا، للحيلولة دون انتصار ألمانيا عليهما، ولم تتدخل بالقدر الذي يحفظ معاهدة [1075] 1839 المُلْزِمَة بحياد بلجيكا. من الناحية العسكرية، ربما يتمكَّن الألمان من الفوز في حرب قارِّية، رغم ضَعْف حلفائهم، وقد نجحوا فعلاً في إلحاق خسائر مذهلة بالجيش الفرنسي في الشهور الستة الأولى من الحرب، وكانت الخسائر أكثر مما كان يكفي لإحداث انهيار فرنسي في عاميْ 1870 و1940.

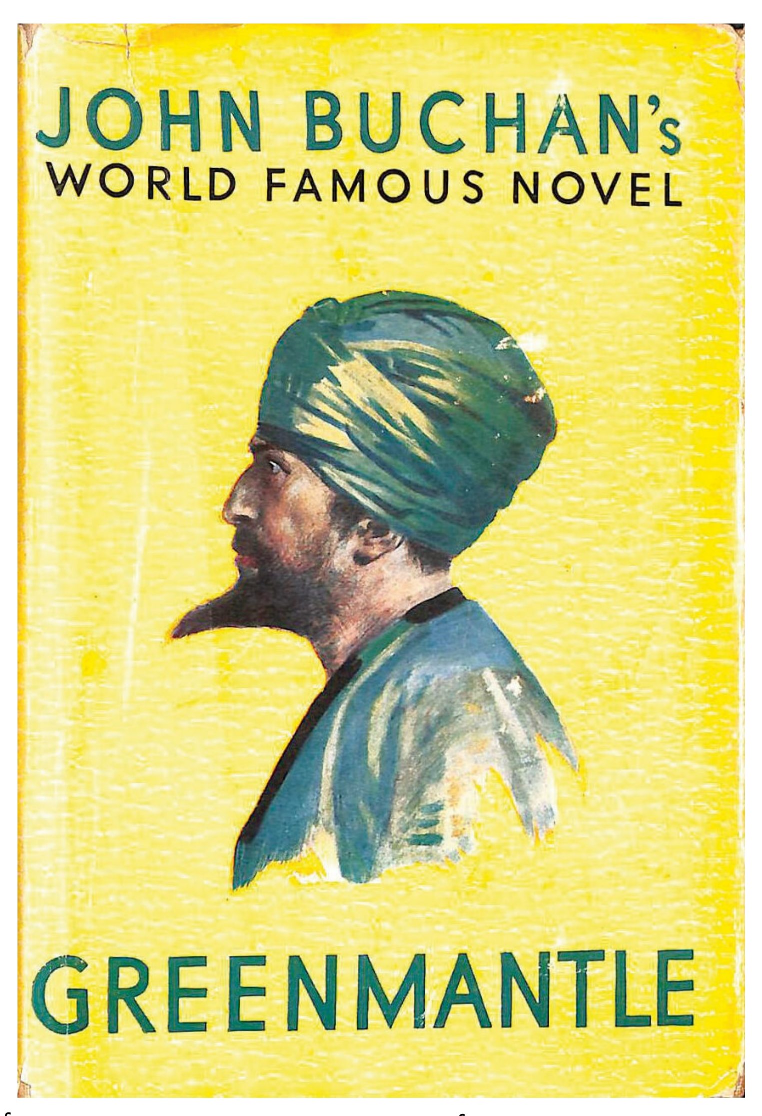
أما موارد بريطانيا التي لا مثيل لها، من حيث المال والتصنيع والشَّحْن والقوة البشرية، فكانت كافيةً للحفاظ على استمرار الحرب في أوربا الغربية رغم الاستنزاف المتواصل للقدرة القتالية الفرنسية: الحفاظ على استمرار الحرب وليس إنهائها. الحربُ نفسُها كانت عَدْوَى. وقد ضمنت ممتلكاتُ الإمبراطوريات المتقاتلة، الهائلة عبر البحار، سُرْعَةَ عَوْلَمة الحرب. فانضمَّتْ دولٌ أخرى أيضًا: قبل انتهاء عام 1914، دخلت دولةُ مونتنيجرو [الجبل الأسود] Montenegro واليابان والإمبراطورية العثمانية الحربَ. وفي مايو عام 1915، اختارت إيطاليا متأخرًا جانبَ حلفاء [1076] Entente؛ وأما بلغاريا فانضمَّت إلى دول المحور Central Powers (ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية). وفي غضون عام 1916، رفعت البرتغالُ ورومانيا السلاحَ إلى جانب قوات الحلفاء.

وفي عام 1917، صارت الولاياتُ المتحدة واحدةً من اثنتي عشرة دولة مُحارِبة، والدول الأخرى هي: بوليفيا والبرازيل والصين وكوبا وإكوادور واليونان وليبيريا وبنما وبيرو وسيام Siam (الآن تايلاند) وأوروجواي. وقد اصطفَّتْ جميعُها ضد دول المحور [1077].

في السنة الأخيرة من الحرب، حذت حذوها كوستاريكا Costa Rica وجواتيمالا G وهاييتي Haiti وهندوراس Honduras ونيكاراجوا Nicaragua. وأما في أوربا فظلت إسبانيا وسويسرا والدول الإسكندنافية محايدةً (انظر اللوحة الاتية).




وحتى قبل أن يصبح المأزقُ العسكري على الجبهة الغربية Western Front ظاهرًا، بدأت الحكومة الألمانية في تجريب ما سيَثبُتُ أنه السلاح الحاسم في الفوز بالحرب. تَلخَّصَ التصوُّر [الألماني] في زَعْزَعة استقرار إمبراطوريات الطرف الآخر بإطلاق العنان لـ«فيروس» إيديولوجي «ideological virus». فسَعَى الألمان، بمساعدة من حلفائهم العثمانيين، إلى إشعال فتيل الجهاد في جميع أنحاء الإمبراطورية البريطانية، وكذلك الفرنسية[1078].




حَبْكة رواية جون بوشان «الرِّداء الأخضر» - التي من المحتمل أن تصدم القارئَ الحديث بوصفها إحدى حَبْكَاته الأكثر إغرابًا وبُعْدًا - استندت إلى أحداث حقيقية[1079].

كان الألمان مُحِقِّين في أن شيئًا من هذا القبيل سيحدث. ولكن محاولتهم الأولى في إشعال ثورةٍ فشلت. النقطة الحاسمة أن بعض الأفكار الثورية انتشرت انتشارًا فيروسيًّا بين عاميْ 1914 و1918، بمعنى أنها انتشرت بسرعة كافية وأبعد بما يكفي لزَعْزعة استقرار الهَرَميَّة الإمبريالية وإسقاطها. ولكن الدعوةَ إلى الجهاد لم تُقوِّض الحُكْمَ البريطاني أو الفرنسي في تلك الأجزاء من العالَم المُسْلِم الخاضعة لسيطرتهما، بل الذي حَدَثَ أن الهجوم البريطاني المضاد المتمثل في رعاية القومية العربية عمل، في حقيقة الأمر، على تقويض الإمبراطورية العثمانية، بالضبط كما دَمَّرت الحملةُ الألمانية لنشر البُلْشفية Bolsh الإمبراطوريةَ الروسية قبل أن تتمدَّدَ غربًا لهَدْم الإمبراطورية الألمانية نفسها.

ولفَهْم السبب في فشل أولى هذه المبادرات، على حين نجحت الثانية والثالثة فاشتعل الوقود قبل الأوان [وأعطى نتائجَ عكسية]، نحتاج إلى تذكُّر أن الهياكل الشبكية مهمة بقدر أهمية الفيروسات في تحديد سرعة الإصابة بالعَدْوَى ومداها[1080].

تنال الأفكارُ الغربية فرصةً أفضل في النجاح إذا لاقت استحسانًا مَلَكيًا. وقد اتَّسمَ القيصر الألماني، ويليام الثاني[1081] William II، بمَسْحة شرقية جعلته يميل بقوة إلى إضفاء صبغة رومانسية على الإسلام. زيارته إلى الشرق الأدنى Near East في عام 1898 أثَّرتْ فيه إلى درجة أنْ تَخيَّلَ نفسَه «الحاجّ ف ي ل ه ل م» Hajji Wilhelm، ووثق في ابن عمِّه القيصر نيكولاس الثاني Tsar Nicolas II [قيصر روسيا] الذي شعر «بالخجل العميق أمام المسلمين، وأني لو ذهبتُ هناك بلا أيِّ دين على الإطلاق فسأتحوَّلُ بكل تأكيد إلى مُحمَّديٍّ!»[1082].

كان هذا النوعُ من الوَلَع بالإسلام [الإسلاموفيليا] Islamophilia موضةً بين العلماء الألمان أيضًا، ولا سيما كارل هاينريك بيكر[1083] Carl Heinrich Becker[1084]. الأكثر من هذا، وُجِدَتْ أسبابٌ إستراتيجية لجذب الإمبراطورية العثمانية إلى مجال النفوذ الألماني.

غم أن الباب العالي[1085] Sublime Porte ليس عضوًا في الحُكْم الخماسي وفقًا ل رانكه Ranke، فهو من الناحية العملية جزء لا يتجزأ من شبكة القوى العظمى الأوربية. بل إن مستقبلَه قضيةٌ رئيسية في ديبلوماسية القرن التاسع عشر:

ما يُسَمَّى ب«المسألة الشرقية»[1086] Eastern Question. لقد أعلن ويليام في عام 1913 قائلاً: «إما أن يرفرف العَلَمُ الألماني فوق حصون البوسفور[1087] Bosphorus، أو سأعاني من المصير المُؤسِف نفسه الذي لاقاه المَنْفيُّ العظيم على جزيرة سانت هيلينا

St Helena (تلميحًا إلى بطله، نابليون)[1088].

ويبدو أن هناك فرصًا اقتصادية في تركيا أيضًا، كالمُخطَّط الألماني لإنشاء سكك حديدية تربط برلين ببغداد، وهي أعمال البناء والتركيب التي بدأت بحلول صيف عام 1914 (رغم المصاعب المالية والفنية)[1089].

لقد فتنتْ ويليامَ فكرةُ الإسلام بوصفه حليفًا، وأغرته بشكل خاص. فبتشجيع من ماكس فون أوبنهايم[[1090]] Max von Oppenheim - مندوب القنصلية الألمانية السامي في القاهرة - فُتِنَ ويليام بفكرة انقلاب الرَّعَايَا المسلمين في الإمبراطورية البريطانية عليها بالدعوة إلى الجهاد[1091].

وكانت هذه أول مرة يفكر فيها القيصر الألماني بأن بريطانيا لن تظل محايدةً في الحرب التي اندلعت في القارة. لقد استثار ويليام وأغضبه احتمالُ «تطويق ألمانيا»، فدَوَّنَ على عجل ما يَرْقَى إلى حَبْكة رواية «الرِّداء الأخضر». «قناصلنا في تركيا والهند وعملاؤنا، إلخ.، يجب أن يُشْعِلوا العالَم المُحمَّدي كلَّه بتمرُّد عنيف ضد أمَّة أصحاب المتاجر معدومي الضمير المكروهين [يقصد إنجلترا]؛ لأنه إذا كُنَّا سنجود بدمائنا حتى الموت، فستخسر إنجلترا الهندَ على الأقل»[1092].

تَبنَّى الفكرةَ في شهر أغسطس هيلموت فون مُولتْكَه[[1093]] Helmuth von Moltke، رئيس هيئة الأركان العامة، الذي أصدر مذكرةً بشأن ضرورة «إيقاظ التعصُّب الديني fanaticism في الإسلام» لدى السكان المسلمين في الإمبراطوريات التي تحارب مع الطرف الآخر. وفي أكتوبر عام 1914، ردَّ أوبنهايم ب«مذكرة حول تثوير أقاليم أعدائنا الإسلامية» مكوَّنة من 136 صفحة على أعلى درجة من السرِّية، وَصَفَ فيها الإسلامَ بأنه «أحدُ أهمِّ أسلحتنا»؛ فتَصوَّرَ إمكانَ إشعال تمرُّدات دينية في الهند ومصر، وكذلك في القوقاز الروسي Russian Caucasus[1094].

وأعلن بيكر تهليلَه للفكرة بإصدار كُتيِّب يحمل عنوان «ألمانيا والإسلام» Deutschland und der Islam.

حين نُفِّذَتْ هذه الفكرةُ بَدَتْ أقلَّ روعةً بكثير مما بَدَتْ عليه أولاً. فلم يكن يوجد مجالٌ لاستنتاج متوقَّع سلفًا باحتمال انضمام الإمبراطورية العثمانية إلى دول المحور[1095]. بل إن هانس فرايهر فون فانجنهايم[[1096]] Hans Freiherr von

Wangenheim، السفير الألماني، والجنرال ليمان فون زاندرس[1097] General Liman von Sanders، رئيس البعثة العسكرية هناك، كانا يتشككان في فوائد التحالف مع العثمانيين. لكن «الأتراك الشبان»[1098] Young Turks - الذين سيطروا على الإمبراطورية منذ إجبار السلطان عبد الحميد الثاني على إعادة الحُكْم الدستوري عام 1908 - كانت لديهم أسباب وجيهة للتحالف مع برلين.

قادة الأتراك الشبان، إسماعيل أنور [أنور باشا][1099] Ismail Enver ومحمد طلعت [طلعت باشا][1100] Mehmed Taalat، قالا بأن قوى التحالف - بريطانيا وفرنسا وروسيا - لديها نوايا قاتلة بشأن الأراضي العثمانية، أما الألمان والنمساويون فَهُم وُسَطاء نزيهون يُؤيِّدون استعادةَ بعض ممتلكات العثمانيين التي خسروها منذ سبعينيات القرن التاسع عشر[1101].

وبتشجيع من القيصر، تمَّ التوصُّل على عَجَلٍ إلى تحالفٍ يوم 2 أغسطس[1102]. وعلاوة على ذلك، اقتنع أنور ورفاقه تمامًا بإمكان استغلال المشاعر الدينية بوصفها مصدرًا للقوة العثمانية. كما رأوها رابطةً حاسمة بين الأتراك والعرب[1103]. كما رأوا أيضًا أنها تُضْفِي الشرعيةَ على حملة إبادتهم الجماعية للمسيحيين داخل الإمبراطورية، ولا سيما الأرمن. وذلك في الوقت الذي صَرَّحَ فيه فانجنهايم - في منتصف أغسطس - قائلاً: «يجري الإعداد لتثوير العالم الإسلامي الذي أراده جلالتُه. وتُتَّخذُ هذه الإجراءات في سرّيِة تامة»[1104]. كان قلقه الوحيد أن يُلام الألمانُ على أية مذابح تحدث للأرمن[1105].

في يوم 14 نوفمبر عام 1914، في مسجد الفاتح بإسطنبول، قدَّم شيخُ الإسلام في الإمبراطورية العثمانية، مصطفى خيري بك Urgüblü Hayri Bey، السلطانَ محمد رشاد الخامس[1106] Mehmed Reshad V مع سيف النَّبي، في احتفالٍ أَعْلَنَ فيه رسميًا الجهادَ ضد دول الوفاق [الثلاثي][1107].

وفي وجود «حشد هائل» خارج المسجد، قُرِئتْ فتوى بصوت عالٍ على هيئة الأسئلة الآتية:

- الرعايا المسلمون في روسيا وفرنسا وإنجلترا، وفي كل البلاد التي وقفت إلى

جانب هذه الدول في هجماتها البرية والبحرية يُحطِّمون الخلافةَ بهدف القضاء على الإسلام، هل يجب على هؤلاء الرعايا أيضًا أن يشاركوا في الحرب المقدسة the Holy War ضد تلك الحكومات التي تعتمد عليهم؟

- نعم.

- المسلمون الذين تحت سيطرة إنجلترا وفرنسا وروسيا وسيبيريا والجبل الأسود في الحرب الجارية، ومَن يُقدِّمون المساعدةَ لهذه الدول التي تَشنُّ حربًا ضد ألمانيا والنمسا، حلفاء تركيا، هل يستحقون غضب الله عقابًا لكَوْنهم يَتسبَّبون في الإضرار بالخلافة والإسلام ودمارهما؟

- نعم[1108].

ولا شك في أن هذه الفتوى تُمثِّل نوعًا من الجهاد غير مألوف، ما دامت لا تنطبق إلا على كُفَّارٍ يعيشون في إمبراطوريات أوربية بعينها، ولا تنطبق على مَن يعيشون في ألمانيا والنمسا. كما أنها تتضمن أيضًا مهاجمة المسلمين الذين يقاتلون إلى جانب دول الوفاق [الثلاثي][1109].

فصار المواطنون البلجيكيون أهدافًا شرعية، أما الأمريكيون الذين يعيشون في تركيا فلم يكونوا كذلك[1110].

ومن ناحية أخرى، لا يوجد أيُّ إنكار للجهود التي بذلتها السلطاتُ العثمانية لنشر الدعوة إلى القتال[1111]. الأكثر من هذا أن مكتب استخبارات الشرق Intelligence Office for the Orient في وزارة الخارجية الألمانية استطاع تجنيد عدد مثير للإعجاب من المتعاونين المسلمين، بمَن فيهم رجل الدين التونسي صالح الشريف التونسي[[1112]] والعالِم المصري عبد العزيز جاويش[[1113]][1114].

رأى ماكس فون أوبنهايم، من زاويته الأفضل في الاطلاع على الأمور، أن احتمالاتِ الجهاد العالمي ساطعةٌ بشكل مذهل. أوبنهايم، شِرِّيرُ رواية بوشان في الحياة الحقيقية، هو حفيدُ مَصْرفيٍّ يهودي اسمه زيمون أوبنهايم Simon Oppenheim.

وبعد أن رَسَّخَ اسمَه بوصفه رحَّالةً وعالِمَ آثارٍ هاويًا[[1115]]، نجح في استغلال معرفته بالعالَم المُسْلِم فعاشَ حياةً مزدوجةً باهرة: في برلين هو المثقف المُفضَّل لدى القيصر، وفي القاهرة تلذَّذَ بمُتَع الشرق الغريبة، بما فيها حريمُه. رثا أوبنهايم «مرحلةَ التدهور التي وصل إليها العالَم الإسلامي» مُندِّدًا بإمبراطوريات الوفاق [الثلاثي] في كتيب صَدَرَ عام 1915 استهدف توزيعَه على نطاق واسع. في الهند ومصر والسودان، سقط «مئات الملايين من المسلمين» في «قبضة

أعداء الله، الإنجليز الكُفّار».

سكان المغرب أخضعهم الفرنسيون «أعداءُ الله ورُسُله». المسلمون في شِبْه جزيرة القرم Crimea والقوقاز وآسيا الوسطى يَكِدُّون تحت نَيْر السِّياط القيصرية. والإيطاليون يضطهدون السنوسي، الطريقة الصوفية والقبيلة في طرابلس [ليبيا][1116].

وقد حان الوقت لكل هؤلاء المسلمين كي يقاتلوهم. نَشَرَ أوبنهايم ومعاونوه العديدَ من الكتيبات، على هذه النَّغَمَة، بعِدَّة لغات[1117].

لم يَكْتفِ الألمان بالدعاية المكتوبة. ففي عام 1915، ارتدى أوبنهايم زيًّا بدويًا وبدأ رحلةً من دمشق لنشر رسالته في ريف سوريا، وذهب أبعد إلى شِبْه جزيرة سيناء وضواحي المدينة [في بلاد الحجاز][1118].

وسعى حارسُه كارل بروفر Carl Prüfer إلى إلهاب المشاعر ضد البريطانيين في مصر. وأما الميجور [الرائد] فريدريك كلاين Major Friedrich Klein فأُوفِدَ إلى جنوب العراق لمقابلة مجتهدي الشيعة Shi'a mujta في كربلاء والنجف. وبذل القنصل فيلهيلم فاسموس[1119] Consul Wilhelm Wassmmuss جهودًا مماثلة في إيران[1120].

إدجار بروبستر[1121] Edgar Pröbster، القنصل الألماني في مدينة فاس المغربية، أُرْسِلَ بغواصَّة لإقناع الشيخ السنوسي بالاشتراك في القتال ضد دول الوفاق؛ كما أُرْسِلَ في بعثة ثانية لتحريض قبائل الهيبة Hiba والسوس Suss المغربية.

بل أُرْسِلَتْ بعثاتٌ ألمانية إلى السودان والقرن الأفريقي[1122] Horn of Africa.

الأكثر طموحًا من كل هذا، البعثةُ المُرْسَلة إلى أفغانستان بقيادة أوسكار ريتر فون نيدرماير[1123] Oskaar Ritter von Niedermayer ضابط المدفعية البافاري الذي تَنقَّلَ على نطاق واسع في الشرق، ومعه فيرنر أوتو فون هينتيج[1124] Werner Otto von Hentig الدبلوماسي الذي خَدَمَ في بكين والقسطنطينية وطهران. استهدفت البعثةُ إقناعَ الملك الأفغاني الأمير حبيب الله، بإعلان استقلاله الكامل عن النفوذ البريطاني ودخول الحرب إلى جانب دول المحور[1125].

صَاحَبَ نيدرماير وهينتيج مجموعةُ أتراك بقيادة الكابتن قاسم أورباي Captain Kazim Orbay، وثلاثةٌ من الثوَّار الهنود وعددٌ من رجال قبائل البَشتون [الأفغان] Pashtun حتى وصلا إلى كابول يوم 7 سبتمبر عام 1915. العنصر النهائي في الإستراتيجية الألمانية هو الجهد المتواصل لإقناع أسرى الحرب المسلمين من جيوش الوفاق [الثلاثي]، الذين جُمِعوا معًا في معسكر خاص يُسمَّى هالبموندلاجر Halbmondlager (معسكر الهلال [كريسنت Camp Crescent) في وَنْسدورف Wünsdorf - موقع أول مسجد في ألمانيا شُيِّدَ بالخشب، على غرار قبة الصخرة في القدس[1126].

أُلْقيتْ منشوراتٌ كالتي كَتَبَها مُنْشَقٌّ يُسمَّى الليفتنانت [الملازم] بوكعبويا Lieutenant Boukabouya على خنادق القوات الاستعمارية الفرنسية. ودُرِّبَ الجنودُ الألمان على الصياح عبر الأراضي الحرام بالعربية: «لماذا تحاربوننا؟ نحن إخوانكم، نحن مسلمون مثلكم»[1127].

لم تكن هذه الجهودُ فاشلةً. صحيحٌ أن فانجنهايم Wangenheim تشكَّكَ في أن دعوة السلطان الخليفة «لن تنتزع من أمام المواقد الدافئة سوى عدد قليل من المسلمين»[1128]. لكن خُطط أوبنهايم Oppenheim لا يمكن استبعادها لمجرد أنها «خيال جامح»[1129].

لقد نجحت الدعوة إلى الجهاد - بوصفها أداةً لتحريك مجموعات متنوعة داخل الإمبراطورية العثمانية - على عِدَّة مستويات. كتب أنور باشا إلى نقيبزاده طالب بك Nakibzade Talib Bey حاكم البصرة يوم 10 أغسطس عام 1914 قائلاً: «إذا كان خصومنا يريدون تدنيس أرضنا بأقدامهم القذرة فإني واثق من أن الشرف والسؤدد الإسلامي والعثماني سيُبِيدهم»[1130].

وقد ثبَتَ أن هذا صحيح. فالغزو البريطاني المنحوس لجاليبولي[1131] Gallipoli كان من المفترض أن ينجح لو أن الإمبراطورية العثمانية لا تزال «رجل أوربا المريض»[1132]
ولا شك في أن الدين كان أحدَ مصادر الروح المعنوية التركية في تلك الحملة الدموية. استثارت الدعوةُ إلى الجهاد أيضًا استجابةً إيجابية قوية لدى القبائل الشيعية في وسط الفرات - قبائل الفتلة، بني حسن، بني حُشيم، الخزاعل - ولدى القبائل في أدنى الفرات التي سيطر عليها اتحاد المنتفق[1133] Muntafiq confederation.
ففي يوم 19 نوفمبر عام 1914، كَتَبَ المجتهدُ الأعظم محمد كاظين يزدي Grand

Mujtahid Muhammad Kadhin Yazdi
إلى الشيخ خزعل حاكم المُحمَّرة، حاثًّا إياه بصراحة على «بذل كل جهد ممكن لصدِّ
الكفار»[1134].

ومع ذلك، تظل الحقيقة الماثلة أن الرؤية الألمانية لثورة إسلامية مُعمَّمة ضد الوفاق [الثلاثي] قد فشل تحقيقها. لماذا؟ يكمن جزء من الإجابة في عدم الكفاءة الألمانية من ناحية، وكفاءة مكافحة التجسُّس counter - espionage لدى البريطانيين والفرنسيين من ناحية أخرى. المُستكشِف ليو فروبينيوس[1135] Leo Frobenius نجح بالكاد في الإفلات من القبض عليه أثناء طريقه إلى إريتريا Eritrea، ورَحَّلته إلى أوربا السلطاتُ الإيطالية[1136]. ألويس موزيل[1137] Alois Musil، مستشرق نمساوي، أُرْسِلَ للتودُّد إلى زعماء العرب المتناحرين ابن سعود وابن رشيد، ففشل في مهمته، بل فَهِمَ مقاصدهما بشكل مغلوط تمامًا[1138].

وفي إيران، سقط كتابُ شفرة فاسموس في أيدي البريطانيين، بالإضافة إلى صندوق يحتوي على «آلاف المنشورات التحريضية العنيفة مطبوعة بالإنجليزية والأوردية والهندوسية والبنجابية ولغة السِّيخ، موجَّهة إلى الجيش الهندي»، وتحمل «نداءً خاصًا إلى المُحَمَّديين في هذا الجيش، يَحثُّهم على الانضمام إلى حرب مقدسة ضد الإنجليز الكَفَرَة»[1139].

ومع كل هذا، وُجِدَتْ مشكلةٌ أعمق. ففي واقع الحال، لم تَلْقَ الدعوة إلى الجهاد صدى أبعد من قلب الولايات العثمانية[1140].

فعلى سبيل المثال، بعد تأجير عبادان[1141] Abadan لشركة النفط الأنجلوفارسية Anglo - Persian Oil Company، تَجَاهَلَ الشيخُ خزعل دعوةَ المجتهد الأكبر إلى وحدة المسلمين وارتمى في أحضان البريطانيين. ورغم قلق بعض المسؤولين الفرنسيين، في البداية، من احتمال تأثُّر رعاياهم في شمال أفريقيا بالدعاية الألمانية، فسرعان ما اتضح أنهم كانوا على استعداد للاعتقاد بأنه «عند رَفْع السلاح من أجل بلدنا» فَهُم «يدافعون عن مصالح معتقدهم وشرف أوطانهم وسلامة أراضي الإسلام»، على حدِّ تعبير الليفتنانت [الملازم] سي براهيم Lieutenant Si Brahim موجِّهًا خطابه إلى جنود

شمال أفريقيا في آرل[1142] [1143] Arles.

وفي ليبيا، غُلِبَ السنوسيون على أمرهم فرفعوا السلاح، مقابل المال فقط، وسرعان ما تفرَّقوا حين واجهوا مقاومةً بريطانية قوية. وفي أفغانستان، انتظرت البعثةُ الألمانية لمدة أسابيع، حتى دعا الأمير إلى عَقْد لويه جيرجه Loya Jirga [مجلسٍ كبيرٍ] لزعماء القبائل، صَوَّتَوا فيه للبقاء على الحياد في الحرب[1144].

أما في الهند، فلم يجد البريطانيون صعوبةً في إقناع كبار المسلمين - ولا سيما الأغا خان Aga Khan ونواب بهادور دكا [صاحب إمارة دكا] Nawab Bahadur of Dacca ومجلس تحالف الهنود المسلمين Council of the All - india Muslim League - كي يُنَدِّدوا بالدعوة إلى الجهاد بوصفها مؤامرة ألمانية لا تثير سوى السخرية[1145].

وباختصار، ثبَتَ أن «الوحدة الإسلامية» التي دعا إليها رجالٌ من أمثال أوبنهايم، قبل الحرب، هي محض سراب. فالكُتيبات والمنشورات لم تستطع تنشيط شبكةٍ لم توجد خارج خيالات المستشرقين Orientalists. الرحَّالة البريطانية جيرترود بِلْ[1146] Gertrude Bell، شأنها شأن أوبنهايم، وقد تشابهتْ معه في بعض النواحي، وَصَفَت الإسلامَ بأنه «تيار كهربي ينقل المشاعر المؤثِّرة»، وقالت إن «قوته الفائقة تزداد لكَوْنه لا يحتوي على حِسٍّ بقومية إقليمية تَعْدِلُ هذه القوةَ». لكن رجال الإدارة الاستعمارية الأكثر خبرةً انتابتهم الشكوكُ. يقول رونالد ستورز[1147] Ronald Storrs السكرتير الشرقي للقنصل العام البريطاني في مصر:

«مكتبُ الهند[1148] India Office هو الذي جَعَلَ عقيدةَ الخلافة - عقيدة الحُكْم الديني المُوَحِّد للإسلام - عاملاً مهمًا في السياسة البريطانية»[1149].

وحتى هذا يُعَدُّ إجحافًا ل«أيادي» الهند. يقول هولدرنس[1150] T. W. Holderness وكيل وزارة مكتب الهند، في مذكرة كُتِبَتْ في شهر يونيو عام 1916: «بالاستناد إلى تاريخ المُحَمَّدية Mohammedanism وأحداث الحرب الحالية على حدٍّ سواء... يُبالَغُ في تقدير أهمية الوحدة الإسلامية بوصفها قوةً دافعة». لقد وَضَعَ هولدرنس يدَه بذكاء على «افتقار العالم الإسلامي

إلى التماسك، وانقسامه الطائفي وعداواته»، قائلاً إن المسلمين على وجه الإجمال «قادَتْهم القوميةُ بدلاً من العقيدة»[1151].

وقد تبيَّن صحةُ هذا في منطقة جِدِّ مهمةٍ كالحجاز، موقع الأماكن الإسلامية المقدسة مكة والمدينة.

سَعَى الألمانُ إلى تحميس الرعايا المسلمين في إمبراطوريات خصومهم الثلاثة وحاولوا جَرَّهم إلى تمرُّد ديني. وقد فشلوا، ولا مكان يدل على فشلهم أكثر من مكة نفسها. أما البريطانيون فاكتفوا بتحقيق هدف أكثر محدودية، ألا وهو إقناع رعايا الإمبراطورية العثمانية من العرب بالتخلِّي عن العثمانيين. وقد نجحوا[[1152]].

فحتى قبل أن تبدأ الحرب [العالمية الأولى]، أَرْسَلَ حسينُ بن على، شريفُ مكةٍ ذو الستين عامًا، ابنَه الثاني عبد الله ليخبر البريطانيين بِنيَّته في التمرُّد على أسياده العثمانيين. والشريف حسين ذو النزعة الاجتماعية المُحافِظة، لا يثق كثيرًا في [حركة] الأتراك الشبان Young Turks في إسطنبول، ولا في خططهم التحديثية، بل تُسَاوِرُه الشكوكُ في تآمرهم لخَلْعه وإنهاء سيادة عائلته الهاشمية على الحجاز[1153].

في يوم 24 سبتمبر عام 1914، بَعَثَ اللوردُ كيتشنر Lord Kitchener، وزير الحربية Secretary of State for War، رسالةً سرِّية عن طريق ستورز في القاهرة إلى عبد الله ليسأل الشريف حسين إذا كان «هو وأبوه وعرب الحجاز سيكونون معنا أم ضدنا»، إذا انضمت تركيا إلى دول المحور. واختتمِ الرسالةَ بتلميح جريء: «لعل العِرْق العربي الحقيقي هو الذي سيتولَّى الخلافةَ في مكة أو المدينة، وقد يأتي الخيرُ بعَوْن الله للخروج من كل هذا الشرِّ الذي يجري الآن»[1154].

الذي دار في ذهن كيتشنر، على الأرجح، وَضْعُ الشريف حسين في علاقة خضوعٍ للإمبراطورية البريطانية صارتْ آليةً في جنوب آسيا وجنوب الصحراء الكبرى بأفريقيا في القرن التاسع عشر. وهو ما لم يكن يَتصوَّرُه الشريف حسين. كانت السلطةُ العثمانية على العرب أبعدَ ما تكون عن كَوْنها ميتة [بلا وظيفة][1155]، ولكن بديلها ليس السلطة البريطانية بل استقلال العرب. ذلكم هو الخيار الذي جرت مناقشته عندما التقى فيصل، ابن الشريف حسين، البِكْري، سِرًّا بمُمَثلي جمعية عربية قومية عسكرية سِرِّية هي جمعية «العهد»[[1156]] وحركة الفتاة المدنية[[1157]] civilian al - Fatat movement.

تمحور العرضُ العثماني بشكل أساسي حول إما الطاعة أو العَزْل. أما العُروبيون

Ar فقدَّموا المزيدَ: إذا استطاع الشريفُ حسين إقناعَ البريطانيين بقبول إنشاء دولة عربية كبيرة مستقلة، بالحدود المنصوص عليها في بروتوكول دمشق[[1158]] Damascus Protocol (وحدود الدولة العربية وَفْقَ البروتوكول هي شِبْه الجزيرة العربية كلها وبلاد النهرين والكثير من سوريا)، فعندئذٍ سينضمون إلى ثورته ضد السلطان ويجعلونه «ملكًا على العرب» عندما تضع الحربُ أوزارَها[1159].

القرار الخطير الذي اتخذه السير هنري مكماهون Sir Henry McMahon، المندوب السامي في مصر، بعد جدل طويل منه على الحدود الدقيقة ل«الخلافة العربية»، تَمثَّلَ في جَعْل الصفقة مع حسين بمثابة ردٍّ على الدعوة الألمانية العثمانية إلى الجهاد، وعلى الهلع الناجم عن الهزائم البريطانية المتوالية في معركتيْ جاليبولي[[1160]] وكوت العمارة[1161].

وعلى حدِّ تعبير جيلبرت كليتن[[1162]] Gilbert Clayton مدير المخابرات في دار المندوب السامي بالقاهرة: «إذا نجحنا في هذا، فسنحرم الألمانَ والأتراكَ من الدَّعْم العربي، وسنَحول دون أي احتمالٍ يُمكِّنهم من الوقوف ضدنا، وضد الفرنسيين والإيطاليين، عَبْرَ جهاد حقيقي يُهَنْدَسُ في الأماكن المقدسة... وأعتقد أن الأهميةَ الكبرى معقودةٌ الآن على ما أسميه مزايا التحالف «الإيجابية» مع العرب، بعد تجاوز مزايا تنصُّلهم «السلبية» الكبيرة من الألمان والأتراك»[1163].

الاتفاق البريطاني مع الهاشميين، بالإضافة إلى اتفاقات منفصلة مع فرنسا على بلاد ما بين النهرين وسوريا[[1164]]، ومع الحركة الصهيونية Zionist movement لإنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين، زَرَعَتْ كلُّها أساسًا سياسيًا جديدًا للمنطقة التي نعرفها الآن باسم «الشرق الأوسط» Middle East[1165]. وسيستمر هذا لمدة قرن.

الثورة العربية التي بدأت يوم 5 يونيو عام 1916 أفسدت لعبةَ الألمان، وقلبت موجةَ الحرب ضد العثمانيين[1166].

لكن لفَهْم السبب في نجاح بريطانيا (مع الدَّعْم الفرنسي) حيث فشل الألمان والعثمانيون، نحتاج إلى إدراكِ أكثر من مجرد النجاحات العسكرية الشهيرة التي حققها لُورَنس[[1167]] T. E. Lawrence، النصير البريطاني الأكبر لاستقلال العرب[1168]. نحتاج أيضًا إلى إدراك أن لُورَنس كان يعمل مع شبكة

ناشطة - شبكة القوميين العرب - في حين أن أوبنهايم وحلفاءه حاولوا تنشيطَ شبكة مفكَّكة الأوصال تَهْجَعُ في سُبَاتٍ عميق، ألا وهي أمة المسلمين. الخطأ القاتل أن الألمان استخفُّوا بمدى ما وصل إليه الوعي العربي من تقويض هياكل الحُكْم العثماني الرسمية حتى قبل اندلاع الحرب[1169].

لقد أطرى أوبنهايمُ نفسَه بأنه عَرَفَ العالَمَ المُسْلِم، ولكنه أخطأ تمامًا في قراءة نوايا الهاشميين. إن إعلان حرب مقدسة عالمية دون كفالة الأماكن المقدسة لها أولاً لَهو الخطأ الجوهري الفادح الذي يضارع خطأ التيوتونيين [الجرمان] Teutons الكاريكاتوري في رواية بوشان؛ فكما استغرق بطل بوشان في «العَيْش مرتديًا ثياب العرب ومحاكيًا أساسَهم الذهني»، استطاع لُورَنس فِعْل ذلك.

لقد فشلت كل مؤامرات ألمانيا للفوز بالحرب العالمية الأولى، حيلةً ومكرًا، باستثناء مؤامرة واحدة. ف«المؤامرة الألمانية الهندوسية» لإرسال أسلحة إلى القوميين الهنود كان نصيبها الفشل، كذلك غزو الهند من سيام Siam [تايلاند] الذي مَوَّلَته ألمانيا. الشحنة الألمانية المكوَّنة من 25 ألف بندقية روسية، التي استولت عليها ألمانيا وأرسلتها إلى أيرلندا، لم تصنع ثورةً من انتفاضة عيد الفصح الفاشلة Easter Rising [1170].

والأكثر مدعاةً لليأس من كل هذا، المحاولةُ الألمانية الخَرْقاء لإدخال المكسيك في الحرب باقتراح استعادة نيومكسيكو New Mexico وتكساس Texas وأريزونا Arizona، وهي التفاصيل التي اعترضتها المخابراتُ البريطانية ونقلتها إلى الولايات المتحدة، لأن التلغرافات الألمانية المارَّة عبر الأطلنطي - كما رأينا - لا بد أن تمرَّ بمحطة ترحيل بريطانية. أما المؤامرة الألمانية الوحيدة التي نُفِّذَتْ بشكل مكتمل، فقد ثبَتَ نجاحُها إلى درجة أنها ثوَّرَت العالَمَ كلَّه تقريبًا. هذه المؤامرة هي التخطيط السرّي لإعادة الزعيم البُلْشفي فلاديمير إيليتش لينين Vladimir Ilyich Lenin، الذي كان يقيم في منفاه بسويسرا، إلى روسيا في أعقاب ثورة فبراير عام 1917 التي أطاحت بالقيصر نيقولاس الثاني.

بعد أن حذَّر ثوريان محترفان يُدعيان ألكسندر هيلبهاند (الملقَّب ب بارفوس Parvus) Alexander Helphand وألكسندر كيسكولا Alexander Kesküla من احتمال إصابة عقيدة لينين ب«هزيمة ثورية»، زوَّدَت الحكومةُ الألمانية لينين بتذكرة قطار من زيوريخ Zurich إلى بتروجراد Petrograd - عن طريق فرانكفورت وبرلين وزاسنيتس Sassnitz [في ألمانيا] وستوكهولم - بالإضافة إلى أموال وفيرة، لزَعْزعة الحكومة الجديدة المؤقتة والإطاحة بها[1171].

وبدلاً من اعتقال لينين ومساعديه التسعة عشر بمجرد وصولهم إلى روسيا، كما يستحقون فعلاً، تردَّدت الحكومةُ الروسية الجديدة المؤقتة. وتأهَّبَ البلاشفة للعمل، فاشتروا مقرًا مركزيًا جديدًا (محل إقامة سابق لراقصة الباليه ماتيلده كِشيسينسكايا Mathilde Kshesinskaya، المَحْظية المَلَكيّة ذائعة الصيت)، واشتروا مطبعة خاصة، ثم قاموا بتوزيع الأموال على الناس لحَثِّهم على الانضمام إلى مظاهراتهم. كانت الثورةُ البُلْشفية عمليةً مُموَّلة من ألمانيا، وتستخفُّ معظمُ الروايات بهذا، وقد ساعد على نجاحها بدرجة كبيرة عدمُ كفاءة الليبراليين الروس[1172].

أَوْزةُ لينين ينبغي أن تُطْبَخَ بعد فشل محاولة الانقلاب البُلْشفي الأولى في أوائل

يوليو وفَضْحِ لينين بوصفه عميلاً ألمانيًا في صحيفة جيفوي سلوفو Zhivoe Slovo، وهو ما أدَّى إلى اتِّهامه رسميًا بالخيانة مع عشرة آخرين من القادة البلاشفة. لكن ألكسندر كيرينسكي Alexander Kerensky، وزير العدل الثوري الاشتراكي Socialist Revolutionar الذي سيطر على الحكومة المؤقتة في يوم 7 يوليو، أَعْوَزَته غريزةُ القاتل. وبعد أن وَثِقَ في شخصية غير جديرة بالثقة نهائيًا، رئيس الأركان الجديد، الجنرال لافار كورنيلوف General Lavr Kornilov، الذي خَطَّطَ لانقلاب عسكري فاشل، أعفاه كيرينسكي من منصبه وسمح للجنة التنفيذية المؤقتة (إسبولكوم Ispolkom لسوفييت بتروجراد (مجلس العُمَّال) أن تمنح البلاشفةَ ما يصل إلى حدِّ العفو. ليون تروتسكي Leon Trotsky، الصحفي المَنْشَفي Menshevik الموهوب[1173] الذي لاقى مصيره مع لينين، أُطْلِقَ سراحَه من السجن. وفي الأسبوع الثاني من شهر أكتوبر، وبمجرد تأكُّد لينين من إسقاط تهمة الخيانة عنه، عاد من فنلندا Finland التي كان قد فرَّ إليها بعد أيام يوليو[1174] July Days.

بدأ لينين وتروتسكي وحلفاؤهما المتآمرون على الإطاحة بالحكومة المؤقتة وتسليم «السلطة إلى السوفييت» يتحركون عَلَنًا، ونادرًا ما كانوا يَتخفّون. في الساعات الأولى من يوم 25 أكتوبر عام 1917، وعقب محاولة غير مدروسة من كيرينسكي لقَمْعِ البلاشفة مرة أخرى، بدأ البلاشفة في تنفيذ انقلابهم coup d'état. حاول كلُّ طرف قَطْعَ خطوط الهاتف عن الطرف الآخر، ولكن عدد المؤيّدين المُسلَّحين حَسَمَ الموقفَ. كان في صفِّ الحكومة المؤقتة كتيبةُ الموت النسائية[1175] Women's Death Battalion، أما البلاشفة فلديهم الكثير من الرجال ببنادق من نوع بيتر Peter وبول فورترِس Paul Fortress، كانوا قد تدرَّبوا على استعمالها في قصر الشتاء[1176] [1177] Winter Palace.

من المعروف الآن أن عددَ القتلى في ثورة أكتوبر October Revolution أقلُّ من قتلى إطلاق الرصاص في فيلم سيرجي آيزنشتاين[1178] Sergei Eisenstein الذي عُرِضَ في احتفالية الذكرى العاشرة بالثورة[1179].

ولكن من الخطأ التهوين من أهمية الحدث الأصلي. أولُ شيء مذهل في الثورة البُلْشفية Bolshevik Revolution السرعةُ التي انتشرت بها. بدأت الشعارات واللافتات البُلْشفية تظهر في جيش الشمال الروسي يوم 18 أبريل. وبينما استعدَّت الحكومةُ المؤقتة لشَنِّ هجوم على جاليسيا[1180] Galicia، أبلغ الضبّاط عن أول تَفَشٍّ لظاهرة بُلْشفيةِ النجاةِ من ويلات

ا ل ح ر Shkurnyi ب bol’shevizm (التي تبنَّاها مَن أرادوا النجاةَ بأنفسهم). واشتكى قائد الجيش الثاني عشر من «هيجان البلاشفة القوي الذين نسجوا أنفسَهم في عُشٍّ متين» - والصورة موحية[1181]. وصلت التعزيزات العسكرية من بتروجراد إلى خط الجَبْهة ومعها لافتات بُلْشفية تحمل الشعار «تسقط الحرب والحكومة المؤقتة!»[1182]. مُنْشَقٌّ واحد، يُدْعَى سِماشكو A. Y. Semashko، استطاع تجنيد 500 رجل من أول فوج بندقية آلية First Machine Gun Regiment لصالح القضية البُلْشفية[1183].

ومع أن هذا الوباء قَيَّدَه مؤقتًا فَشَلُ أيام يوليو، فإن اعتقال كيرينسكي لكورنيلوف أعاد ترسيخَ مصداقية البلاشفة لدى الرُّتَبِ العسكرية الدنيا. الجيشُ الخامس ضربته موجةُ انشقاقات. وسيطر «مناديب» البلاشفة على مُعِدَّاته التلغرافية. وبَدَا لضبَّاط المخابرات العسكرية كما لو أن «موجةً بُلْشفية» عَصَفَت بكل قواعد الانضباط[1184].

وبنهاية شهر سبتمبر، اشتدَّ دَعْمُ حزب لينين في المدن الروسية الرئيسية بما يكفي لمَنْحه السيطرة على سوفييتات [مجالس][1185] soviets موسكو وبتروجراد. وكان الدعم قويًا أيضًا في القاعدة البحرية كرونشتات[1186] Kronstadt وأسطول بحر البلطيق Baltic Fleet. أما فيما بين الفلاحين والقوقاز كثيري العدد فقد افتقر البلاشفة إلى مؤيِّدين، الأمر الذي يساعد على تفسير سرعة انحدار روسيا إلى حرب أهلية حَضَرِيَّة ريفية خلال عام [1187]1918.

انتقل الفيروس البُلْشفي أساسًا بالقطار والتلغراف، وكان الجنودُ والبحارة والعُمَّال العارفون بالقراءة والكتابة أكثرَ تأثرًا به. الشَّرَكُ بالنسبة إلى الألمان أن الوباء البُلْشفي - شأنه شأن غاز الخردل[1188] mustard gas الذي يُغيِّر اتجاهَه بسبب الرياح - أصاب جنودَهم وبحارتهم وعُمَّالهم أيضًا. وعندما ر واضحًا - كما حدث في صيف عام [1189]1918 - أنه حتى الانهيار الروسي الشامل لم يمنع هزيمة دول المحور، أُعْلِنَتْ حكوماتٌ على النمط السوفييتي في بودابست [المجر] وميونيخ وهامبورج [ألمانيا] أيضًا. ورُفِعَ العلمُ الأحمر أيضًا فوق مباني بلدية جلاسكو [في إسكتلندا] Glasgow City Chambers.

كان لينين يحلم مبتهجًا ب«اتحاد جمهوريات أوربا وآسيا السوفييتية» Union of Soviet Republics of Europe and Asia. وقد صرَّح تروتسكي غير مرة بأن «الطريق إلى باريس ولندن يكمن عبْر مدن أفغانستان والبنجاب Punjab والبنغال Bengal»[1190].

بل هزَّت الإضرابات [والضربات] سياتل Seattle [في ولاية واشنطن العاصمة] وبوينس آيرس Buenos Aires [عاصمة الأرجنتين] البعيدتين. كان ذلك تَفَشيًّا وبائيًا بروليتاريًّا.

الشيءُ المذهل الثاني الطريقةُ التي حَوَّلَ بها البلاشفةُ، دون تباطؤ، شبكتَهم الثورية إلى نظام هَرَمَيٍّ جديد، أقسى من نظام القيصر القديم على مستويات عديدة.

نما الحزب البُلْشفي Bolshevik Party نموًّا أُسّيًّا بعد عام 1917، ولكنه بينما كان ينمو متوسِّعًا صار أكثرَ مركزيةً؛ وهي نتيجة توقَّعَها لينين في ورقته الدعائية قبل الحرب بعنوان «ما الذي ينبغي عمله؟» What is to be Done؟. لقد أضْفَتْ انتكاساتُ عام 1918 شرعيةً على اندفاع لينين في لعب دور روبسبيير[1191] Robespierre، فادَّعَى لنفسه سلطات ديكتاتورية استلهمها من روح «الثورة المُعرَّضة للخطر». في يوم 17 يوليو عام 1918، أُطْلِقَ الرصاصُ على القيصر المخلوع وعائلته في الطابق السفلي من المنزل، حيث كانوا محتجزين في يَكْترينبورج Yekaterinburg. ثم بعد أربعة أيام، حَدَثَ إعدامٌ جماعي ل 428 اشتراكي ثوري في ياروسلافل Yaroslavl[1192].

وقد أصرَّ لينين على أن الطريقة الوحيدة التي تضمن تسليم الفلاحين حبوبهم لتموين الجيش الأحمر Red Army، هي إصدار الأمر بعمليات إعدام تحذيري[1193] لما يُسَمَّى «الكولاك»[1194] Kulaks، وقد افترض البلاشفةُ أنهم الفلاحون الرأسماليون الجَشِعون الذين يمكن شَيْطَنَتُهم. تساءل لينين: «كيف يمكنك إحداث ثورة دون إطلاق رصاص على مجموعات من الناس؟»[1195].

«إذا لم نستطع إطلاق الرصاص على مُخرِّب من الحرس الأبيض White Guard، فما الذي تكونه ثورةٌ كبيرةٌ؟ لا شيء سوى كلام وسلطانية هريسة». لقد اقتنع

لينين تمامًا بأن البلاشفة لن «يخرجوا منتصرين» إذا لم يُوظِّفوا «أعنف أنواع الإرهاب الثوري»، فدعا صراحةً إلى «إرهاب جماعي ضد الكولاك ورجال الدين والحرس الأبيض». ينبغي «إطلاق الرصاص فورًا» على «تُجَّار السوق السوداء».

في يوم 10 أغسطس عام 1918، أرسل لينين تلغرافًا إلى الزعماء البلاشفة في بينزا Penza [على نهر سورا في روسيا] يتحدث فيه بصوت جهير:

يجب أن تسحقوا انتفاضة الكولاك في مقاطعاتكم الخَمْس بلا رحمة... يجب عليكم ضَرْب المَثل والعِبْرة. اشْنُقوا (وأنا أعني الشَّنْق على رؤوس الأشهاد) ما لا يقل عن مئة من الكولاك المعروفين، الأثرياء مَصَّاصي الدماء. ثم انشروا أسماءهم. وخذوا كل محاصيلهم فلا تتركوا شيئًا. حَدِّدوا الرَّهائن... افعلوا هذا بحيث يراه الناس مِن على بُعْد مئات الأميال فيرتجفون خوفًا وهم يصرخون قائلين: إنهم يقتلون الكولاك مصَّاصِي الدماء وسيستمرون في قتلهم... جِدُوا للقيام بهذه المهمة أقسى المُنفِّذين وأغلظهم[1196].

لقد أكَّدَ لينين أن الكولاك «مصَّاصو دماء، وعناكب، يقتاتون على حساب غيرهم كالخفافيش مصَّاصة الدماء». ثم مضت الأمور إلى الأسوأ بعد محاولة اغتيال فاشلة تعرَّضَ لها لينين يوم 30 أغسطس قامت بها اشتراكية ثورية تُدْعَى فاني كابْلِن[[1197]] Fanny Kaplan.

في قلب الاستبداد الجديد، تأسَّستْ «لجنة عموم روسيا الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب»
All - Russian Extraordinary Commission for Combating Counter - Revolution and Sabotage
المعروفة اختصارًا باسم شيكا[[1198]] Cheka.

لقد أنشأ البلاشفةُ نوعًا جديدًا من البوليس السياسي، بقيادة فيليكس دَزرجينسكي[[1199]] Felix Dzerzhinsky، يُمارِسُ القتلَ لمجرد الاشتباه بكل بساطة، دون أي شعور بالذنب أو وَخْزَة ضمير. «الشيكا»، كما أوضح أحدُ مؤسِّسيها، «ليست لجنةَ تحقيق أو محكمة أو قضاء، بل هي جهاز قتالي على الجبهة الداخلية للحرب الأهلية... الشيكا لا تُحاكِم، بل تَضْرِب. ولا تصفح أو تلتمس أعذارًا، بل تُدمِّرُ كلَّ مَن تُمْسِكُ به منتميًا إلى طرف المتراس الآخر»[1200].

وتُعْلِنُ الجريدةُ البُلْشفية كِرَاسْنايا جازيتا Krasnaya Gazeta صراحةً: «بلا رحمة، ودون تباطؤ، سنقتل خصومنا بعشرات المئات، بل بالآلاف، ونتركهم غارقين في

دمائهم. ومن أجل دم لينين... ستجري دماء البرجوازية فيضانات، المزيد من الدماء قدر الاستطاعة»[1201].

ويا لها من سعادةٍ انتابت دَزِرجينسكي أن يلتزم بهذا. وَلْنأخذ مثلاً واحدًا فقط: في يوم 23 سبتمبر عام 1919، أُطْلِقَ الرصاصُ على سبعة وستين زُعِمَ أنهم من الثوَّار المضادين، دون مراعاة أي شكليات من أي نوع. وجاء على رأس القائمة نيقولاي شيبْكين Nikolai Shchepkin، العضو الليبرالي في الدوما[1202] Duma (البرلمان) الذي أُنْشِئ بعد عام 1905.

وقد صيغ إعلانُ إعدامهم بأعنف لغة، فاتَّهَمَ شيبْكين وأعوانَه المزعومين ب«الاختباء مثل عناكب متعطشة للدماء، تغزل شِباكَها في كل مكان، بدءًا من الجيش الأحمر إلى المدارس والجامعات»[1203].

وبين عاميْ 1918 و1920، بَلَغَ عددُ الإعدامات السياسية التي نُفِّذَتْ 300 ألف حالة إعدام[1204]. وقد شملت هذه الإعدامات أعضاء في أحزاب منافسة، بالإضافة إلى بلاشفة زملاء ممن بلغ بهم التهوُّرُ حدَّ الاعتراض على الديكتاتورية الجديدة في قيادة الحزب. وبحلول عام 1920، كان يوجد بالفعل أكثرُ من مئة معسكر اعتقال kontsentratsionnye lageri من أجل «إعادة تأهيل... العناصر غير الموثوق فيها». وقد اُخْتيرت مواقِعُها بعناية، بهدف تعريض السجناء لأقسى ظروف ممكنة؛ أماكن مثل: دير سابق في خولموجوري Kholmogory، في القِفَار الجليدية بمحاذاة البحر الأبيض White Sea. هكذا وُلِدَ الجولاج [1205]Gulag.

لم يكن جوزيف فيسياريونوفيتش جوجاشفيلي Iosif Vissarionovich Dzhugasshvili - ستالين («الرجل الحديدي»)، بالنسبة إلى زملائه الثوَّار - الوريثَ المقصود ل لينين بوصفه قائد (زعيم [فوزد] vozhd) النظامِ السوفييتي. لقد افتقر ستالين إلى الكاريزما والموهبة التي ميَّزت البلاشفةَ الروَّادَ الآخرين. وحين جعل لينين منه «سكرتيراً عامًا» للجنة المركزية Central Committee في أبريل عام 1922، كان يستخفُّ بمهارته البيروقراطية فلم يُقدِّره في هذه الناحية حقَّ قدره.

ولأن ستالين هو الشخص الوحيد السيِّد على أقوى ثلاث مؤسَّسات في الحزب: المكتب السياسي politburo والمكتب التنظيمي orgburo والأمانة secretariat.

فه أباراتشيك [1206]apparatchik من نوعية أكبر الموظفين حينئذٍ، بدأ في تأسيس سيطرته بمزيج من الصرامة الإدارية والمَكْر الشخصي. فسرعان ما ثبَّتَ الموالين له في المحليات، وفي مواقع مهمة في البوليس السرِّي.

ثم جَهَّزَ مجموعةً من كبار الموظفين عُرفوا باسم نومِنكلاتورا[1207]

nomenklatura،
بحيث (كما قال ستالين في مؤتمر الحزب الثاني عشر في أبريل عام 1923) «يستطيع مَن يشغلون هذه المناصب تنفيذ التعليمات، وفَهْم تلك التعليمات، وقبول تلك التعليمات والدَّفْع بها إلى حيِّز التنفيذ»[1208].

وقد منحته هذه الشؤونُ الإدارية سلطةً أكبر بكثير من مجرد الإشراف على نفقات المسؤولين؛ فصار «قِسْمُه السرّي»، المتواري خلف أبواب مُصفَّحة، وكالةً للاستدعاءات والتحقيقات الرسمية داخل الحزب. كما مَنَحَه نظامُ الهاتف الحكومي - vertutshka - ووحدةُ فكِّ شفرة التلغراف سيطرةً على الاتصالات، بما فيها سلطة التنصُّت [التجسُّس] على الآخرين.

ستالين - حاله من حال لينين - نتاجُ شبكةٍ ثورية سرِّية. وقد نال نصيبَه من الضوائق والعُسْر حين كان شابًا يتآمر ضد نظام الحُكْم القيصري. إحدى سمات ديكتاتوريي القرن العشرين المميزة لهم أنهم - بسبب جذورهم السرِّية - رأوا المؤامرات تُحَاك ضدهم في كل مكان. الجواسيس والمُخرِّبون المزعومون الذين أُدِينوا في محاكمات علنية - مثل محاكمة شاختي[[1209]] (Shakhty Trial (1928 ومحاكمة الحزب الصناعي[[1210]] (Industrial Party Trial (1930 ومحاكمة مِترو فيكرز[[1211]] (Metro - Vickers Trial (1933 - كانوا ضحايا إجراءات قانونية زائفة لا حصر لها، وخارج نطاق القانون، بطريقة أكثر إثارةً ومَشْهديَّة. لقد وَصَفَ نظامُ ستالين أقلَّ تذمُّرٍ بأنه خيانةٌ أو ثورةٌ مضادة، فأرسل جيوشًا كاملة من المواطنين السوفييت إلى الجولاج. وتُبَيِّنُ الملفاتُ المتاحة الآن في أرشيفات الدولة الروسية Russian State Archives كيف كان يعمل النظام. السيدة بيرنا كلاودا Berna Klauda سيدة صغيرة السِّن من لينينجراد Leningrad، وهي أقل من أن توصف بأنها عنصر هدَّام. ومع ذلك، حُكِمَ عليها في عام 1937 بعشر سنوات في بيرم جولاج Perm Gulag بسبب تعبيرها عن مشاعر مناهضة للحكومة[1212].

«التحريض ضد السوفييت» Anti - Soviet Agitation هو أقل الجرائم السياسية التي يُتَّهَمُ بها أيُّ شخص. أما أخطر الجرائم فهي تهمة «النشاط المضاد للثورة» Counter - revolutionary

Activity؛ وأسوأها تهمة «النشاط الإرهابي المضاد للثورة» Counter - revolutionary Terrorist Activity؛ وأما الأسوأ من كل ذلك فهي تهمة «النشاط الإرهابي التروتسكي» Trotskyist Terrorist Activity. بل إن الأغلبية الساحقة ممن حُكِمَ عليهم بارتكاب هذه الجرائم أذنبوا - إنْ عَدَدْناهم مذنبين - بارتكاب جُنَحٍ تافهة [وبسيطة]: التفوُّه بكلمة عن ستالين تحوَّلت إلى نكتة سُمِعَتْ بالمصادفة؛ التشكِّي من أحد مظاهر النظام الشمولي، أما الأسوأ فهو اقتراف مخالفة اقتصادية تافهة ك«المضاربة» (شراء بضائع وإعادة بيعها). وبين كل أولئك المعتقلين لم يكن يوجد سوى قِلَّة ضئيلة من السجناء السياسيين المعارضين بحقّ لنظام الحُكْم؛ والأمر الذي له دلالة في هذا السياق أن المتعلمين تعليمًا عاليًا أكثرُ قليلاً من 1% من سجناء المعسكرات في عام 1938؛ وثلْثهم أُمِّيون. وبحلول عام 1937، وُجِدَتْ حصصٌ [كوتة] للاعتقالات، بالضبط كما وُجِدَتْ حصصٌ لإنتاج الفولاذ. كانت الجرائم تُؤلَّفُ بكل بساطة لتناسب العقوبات. صار السُّجناء مجرد مُخْرجات outputs، تتحدَّثُ عنها ال«إن كيه في دي»[1213] [1214]NKVD بوصفها «أرصدة» Accounts (السجناء الذكور) و«كتب» Books (السجينات الحوامل). في ذروة نظام الجولاج، وُجِدَتْ 476 منظومة لمعسكرات الاعتقال تَوَزَّعَتْ في جميع أنحاء الاتحاد السوفييتي، يتكون كل منها من مئات المعسكرات المُفْرَدة. حوالي 18 مليون رجل وامرأة وطفل مَرُّوا عبر الجولاج، في ظل حُكْم ستالين. مع الوضع في الحسبان أن ال 6 أو 7 ملايين مواطن سوفييتي الذين أُرْسِلوا إلى المنفى، وعدد السكان الذين جَرَّبوا نوعًا من الأشغال الشاقة في ظل حُكْم ستالين، قد اقترب من %[1215] 15.

لم يكن أحدٌ آمنًا. لقد استعمل لينين لأول مرة أسلوب «تطهير» الحزب بشكل دوري، للتخلص من «المتكاسلين ومثيري الشغب والمغامرين ومُدْمِني الخمر واللصوص»[1216].

أما ستالين، الذي لا يثق في زملائه الشيوعيين، فقطع - بشكل قهري - أشواطًا أبعد من ذلك بكثير. فلم تتعرض مجموعاتٌ للاضطهاد بلا رحمة - في ثلاثينيات القرن العشرين - أكثر مما تعرَّضت له مجموعات البلاشفة القدماء[1217] Old Bolsheviks
الذين كانوا رفاقَ ستالين في أيام الثورة والحرب الأهلية، الحاسمة. عاش كبار موظَّفي الحزب في حالة عدم أمان دائم، لا يعرفون متى يسقطون ضحايا لبارانويا ستالين.

اعْتُقِلَ أكثرُهم ولاءً للحزب وسُجِنوا بوصفهم أسوأ المجرمين. واتُّهِمَ المؤمنون المخلصون لعقيدة لينين بأنهم «هَدَّامون» موالون للقوى الإمبريالية، أو بأنهم «تروتسكيون» يتحالفون مع أعداء ستالين اللدودين الخَزَايا المَنْفيين (وأولئك هم

الذين نجح في قتلهم عام 1940).

ما بدأ بوصفه حملةً على مسؤولين فاسدين أو بلا كفاءة في عام 1933، تَصَاعَدَ بعد مقتل زعيم حزب لينينجراد Leningrad Party، سيرجي كيروف[1218] Sergei Kirov،
في ديسمبر عام 1934، إلى تطهير دموي دائم وتلقائي. قُبِضَ على الرجال والنساء الذين كانوا في طليعة الثورة، واحدًا تلو الآخر، وواحدةً تلو الأخرى، فعُذِّبوا واستُجْوِبوا حتى دُفِعُوا إلى الاعتراف بإحدى «الجرائم»، ثم اتَّهَموا أقربَ رفاقهم، وفي النهاية قُتِلوا رَمْيًا بالرصاص. بين يناير عام 1935 ويونيو عام 1941، كان يوجد حوالي 20 مليون معتقل في الاتحاد السوفييتي، نُفِّذَ الإعدامُ في سبعة ملايين منهم على الأقل. وفي عام 1937 - 1938 وحده، بلغت حصة [كُوتة] «أعداء الشعب» الذين أُعْدِموا 356,105 شخصًا، رغم أن العددَ الفعلي لمَن فقدوا حياتَهم أكثرُ من ضعف هذا العدد[1219].

ومِن أعضاء اللجنة التنفيذية للأممية [الدولية] الشيوعية Executive Committee of the Communist International البالغ عددهم 394 عضوًا في يناير عام 1936، سقط 223 ضحية الإرهاب [إرهاب النظام] بحلول أبريل عام 1938، كما سقط 41 من إجمالي 68 زعيمًا شيوعيًا ألمانيًا ممن فرُّوا إلى الاتحاد السوفييتي بعد عام 1933[1220].

وما عَنَت «الرعايةُ العامة»، في ذروة إرهاب ستالين، سوى انعدام أمان الحياة الشخصية انعدامًا كاملاً. فلم يكن أحدٌ بقادر على الشعور بالأمان؛ بمَن فيهم كلُّ الرجال الذين يديرون ال«إن كيه ڤي دي» [مفوضية الشعب للشؤون الداخلية] NKVD. جِنريخ ياجودا[1221] Genrikh Yagoda
أُعْدِمَ رَمْيًا بالرصاص لأنه تروتسكي في عام 1938؛ نيكولاي يزهوف[1222] Nikolai Yezhov،
خليفته في المنصب، أُعْدِمَ رَمْيًا بالرصاص لأنه جاسوس بريطاني في عام 1940؛ لافرينتي بيريا[1223] Lavrenti Beria
أُعْدِمَ رَمْيًا بالرصاص بعد فترة وجيزة من وفاة ستالين. أما الذين نجوا من هذه الحياة «تحت تهديد السلاح» فلم يكونوا بالضرورة مُمْتَثِلين. لقد حالفهم الحظُّ ليس إلا. كان مِن بين أولئك المعتقلين 53 عضوًا من جمعية لينينجراد للصُّمِّ والبُكْم
Leningrad Society for the Deaf and Dumb.
اتُّهِموا بُهْتانًا وزُورًا بأنهم شكَّلوا «تنظيمًا فاشيًا» وتآمروا مع الاستخبارات [الخدمة

السرّية]
الألمانية
German secret service
لتفجير ستالين وآخرين من أعضاء المكتب السياسي بقنبلة يدوية محلية الصُّنْع أثناء استعراض عسكري للاحتفال بيوم الثورة
Revolution Day في السَّاحة الحمراء Red Square.
أُعْدِمَ أربعةٌ وثلاثون من أعضاء هذا التنظيم المزعوم رَمْيًا بالرصاص؛ أما بقيَّتُهم فأُرْسِلوا إلى معسكرات الاعتقال لمدة عشر سنوات أو أكثر. والقصة الحقيقية أن مدير جمعيَّة الصُّم والبُكْم أبلغ عن أن بعض أفرادها يبيعون أدوات الزِّينة في القطارات المحلية لتحسين دُخولهم المتواضعة. أدَّى هذا البلاغ الرسمي إلى تدخُّل «مفوضية الشعب للشؤون الداخلية». والمدير الذي أبلغ عنهم وَجَدَ نفسَه متورطًا بالتبعية في مؤامرة مزعومة، وأُعْدِمَ رَمْيًا بالرصاص. في السنة التالية، توصَّلت «مفوضية الشعب للشؤون الداخلية» إلى أن التحقيق الأوَّلي [الذي جرى بمعرفة البوليس المحلي] قد اعْتَوَرَتْه الشُّبهات. على إثر هذا، اعْتُقِلَ أفرادُ البوليس المحلي[1224].

بحلول أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، حَوَّلَ ستالين الاتحادَ السوفييتي إلى معسكر عبيد هائل، وهو نفسُه قائده. فقد أمكنه وهو جالس في شرفة بيته الريفي في سوتشي Sochi إملاء أمر يُرسَلُ تلغرافيًا على الفور إلى موسكو، فيَتحوَّلُ إلى مرسوم رسمي، ثم يُوزَّعُ على كل التسلسل الهَرَمي في الحزب الشيوعي السوفييتي Soviet Communist Party، وإذا اقتضى الأمرُ يُوَزَّعُ على الأحزاب الشيوعية في الخارج. ولم يكن يجرؤ المسؤولون المحليون على تجاهل أمْرِه خوفًا من اكتشاف فشلهم في تنفيذه لاحقًا، وهو ما سيُؤدِّي حتمًا إلى تعرُّضهم للتحقيق والملاحقة القضائية والإدانة، وربما الإعدام[1225].

لقد تألَّفتْ سلطةُ ستالين من ثلاثة عناصر متميزة: سيطرة كاملة على بيروقراطية الحزب، وسيطرة كاملة على الاتصالات - بشبكة تليفون الكريملين بوصفها محورًا مركزيًا - وسيطرة كاملة على البوليس السرِّي الذي يديره رجالٌ يعيشون هم أنفسُهم في خوف. ولم يتمكَّن طاغيةٌ [مستبد] شرقي من ممارسة مثل هذه السلطة الشخصية الكاملة على إمبراطوريةٍ من قبل، حيث لم يستطع أيُّ تسلسل هَرَميٍّ سابق جَعْلَ المشاركة في الشبكات غير الرسمية - بل الاشتباه في المشاركة - أمرًا خطيرًا على هذا النحو المُرْعِب.

بدأت الفاشية Fascism أيضًا بوصفها شبكةً، ولا سيما في ألمانيا التي نما فيها الدَّعْم الشعبي لهتلر Hitler نموًّا كبيرًا أثناء الكساد[1226] Depression.

معظم أنظمة الحُكْم الفاشية - استهلالاً ب بنيتو موسوليني Benito Mussolini في إيطاليا - بدأت بأن يُقلِّدَ الملكُ أو الأرستقراطيةُ شخصًا منصبًا ثم سرعان ما تتمركز السلطةُ حوله[1227].

أما الاشتراكية القومية National Socialism فتُمثِّلُ حالةً مختلفة. إذ لم تقترب أيةُ أحزاب فاشية من تحقيق النجاح الانتخابي الذي حققه الاشتراكيون القوميون. الفاشيةُ من حيث التصويت الانتخابي ظاهرةٌ ألمانية غير متجانسة؛ عَزَّزتْها كلُّ الأصوات الفردية التي أُدْلِيَ بها في أوربا لصالح أحزاب فاشية أو أحزاب قومية متطرفة أخرى بين عاميْ 1930 و1935، والمذهل أن 96% منها للناطقين بالألمانية[1228].

في أعقاب التضخُّم المفرط عام 1923، انجرف العديدُ من الناخبين بعيدًا عن أحزاب الطبقة الوسطى يمين الوسط ويسار الوسط، مُتحرِّرين من وَهْم المساومات بين أصحاب المشروعات والعُمَّال التي هيمنت على سياسة فايمار Weimar. تكاثرت الأحزاب المُنْشَقَّة splinter parties وجماعات المصالح الخاصة، وهي عملية انشطار بطيئة أرهصتْ بانفجار سياسي عام 1930، عندما قفز سهمُ التصويت للنازي Nazi إلى سبعة أضعاف ما كان عليه عام 1928. كما زادت عضوية الحزب بقدر أُسِّيّ مماثل. في عام 1928، بلغت عضويةُ الحزب النازي [حزب العُمَّال القومي الاشتراكي الألماني] NSDAP، 96,918 عضوًا. وبحلول يناير عام 1933، زادت العضويةُ ثمانيةَ أضعاف إلى 849,009 عضوًا، ونَمَتْ بمُعَامِلٍ يقترب من الثلاثة في العامين التاليين، لأن الانتهازيين هرعوا إلى الانضمام إلى الحزب الفائز. استمرت عضوية الحزب في النمو حتى نهاية الرايخ الثالث Third Reich، من 2.5 مليون في عام 1935 إلى 5.3 مليون في عام 1939، و7.1 مليون في عام 1941 و7.3 مليون في عام 1943، وأكثر من 8 مليون في مايو عام 1945.

وحذا نموُّ جمهور قُرَّاء جريدة الحزب، «الرقيب الوطني» Völkische Beobachter، حَذْوًا مماثلاً. فبعد أن وصل عددُ القُرَّاء إلى 330 ألف بحلول عام 1933، تَجَاوَزَ مليون قارئ بحلول عام 1940، وبِيعَتْ ما يقرب من 1.7 مليون نسخة يوميًا في عام 44[1229]

على عكس الادعاءات القديمة بأن الحزب النازي هو حزب الريف، أو حزب الشمال، أو حزب الطبقة الوسطى، اجتذب الحزبُ تأييدًا حقيقيًا عبر ألمانيا وعبر

الطيف الاجتماعي[1230] social spectrum.
ويفشل التحليلُ على مستوى الدوائر الانتخابية الرئيسية في الإمساك بهذه النقطة، ويُبالِغُ في إيضاح الفروق بين المناطق.

تكشف أكثر البحوث حداثةً، القائمة على أصغر وحدة انتخابية (القضاء[1231] Kreis)، عن الاتساع الاستثنائي للتصويت للنازي[1232].

ثمة خاصَّة فركتيلية fractal quality تقريبًا في الصورة التي تظهر، فكل دائرة انتخابية تُشبه الخريطةَ القومية نوعًا ما، إذ تَتوزَّعُ نقاط التأييد الساخنة في جميع أنحاء البلاد (أولدنبرج في سكسونيا السفلى Lower Saxony، وفرانكونيا العليا والوسطى Upper and Middle Franconia في بافاريا، والأجزاء الشمالية في بادن Baden، والمنطقة الشرقية من بروسيا الشرقية East Prussia).

صحيحٌ أن الأماكن ذات التصويت النازي المرتفع نسبيًا تقع في الأجزاء الوسطى والشمالية والشرقية، والأماكن ذات التصويت النازي المنخفض نسبيًا تقع في الجنوب والغرب[1233]؛ ولكن النقطة الأهم أن النازيين استطاعوا تحقيق نجاح انتخابي في بيئة سياسية محلية تقريبًا، وتغطية الطيف الانتخابي الألماني بطريقة لم تحدث من قبل، أو لم تحدث منذ ذلك الحين. لم يختلف التصويت النازي بشكل يتناسب مع معدل البطالة أو حصة العُمَّال في السكان. فما يصل إلى الخُمْسَيْن من عدد الناخبين النازيين في بعض الدوائر كانوا طبقةً عاملة، الأمر الذي أدَّى إلى ذُعْر القيادة الشيوعية. وكان العائق المهم الوحيد أمام زيادة التصويت النازي هو المرونة الأكبر نسبيًا لدى حزب الوسط الكاثوليكي Catholic Centre، مقارنةً بالأحزاب التي يؤيدها البروتستانتيون الألمان German Protestants حينئذٍ[1234].

وباختصار، كانت الاشتراكية القومية National Socialism حركةً، وقد استطاع هتلر بزعامته الكاريزمية أن ينشرها فيروسيًا بين عاميْ 1930 و1933. فبدا الأمر، بالنسبة إلى العديد من المُعلِّقين، شبيهًا بصحوة دينية. وكما أوضح ضابطٌ برتبة رقيب من كتيبة العاصفة[1235] Sturmabteilung:

«يرتكب خصومنا... خطأ جوهريًا عندما يُساووننا بوصفنا حزبًا بالحزب الاقتصادي Economic Party أو بأحزاب الديمقراطيين أو الأحزاب الماركسية. فكل هذه الأحزاب ليست سوى مجموعات مصالح، تفتقر إلى الروح والروابط الروحية. لقد

ظهر أدولف هتلر بوصفه حاملَ دينٍ سياسيٍّ جديد»[1236].

لقد طوَّرَ النازيون نوعًا طقسيًا من الوعي بالذات، من ملامحه مثلاً يوم 9 نوفمبر (تاريخ ثورة 1918، وانقلاب بيير هول Beer Hall الفاشل عام 1923) بوصفه يوم الحداد Day of Mourning، الذي اكتمل بالحرائق وسُحُبِ الدخان والمذابح وبقايا ملطخة بالدماء وحتى كتاب شهداء النازي. أما المنضمُّون إلى نُخْبة شوتزشتافل [وحدات إس إس][1237] (SS (Schutzstaffel فيجب عليهم تلاوة التعاليم الشفوية الآتية:

«نحن نؤمن بالله، نحن نؤمن بألمانيا التي خلقها الله... وبالفوهرر Führer... الذي أرسله الله لنا»[1238]..

لم يكن الأمر مجرد حلول هتلر محلّ المسيح، صراحةً تقريبًا في أيقونية «العبادة البُنّيّة»[1239] وطقسها الديني. وكما قالت مجلة «الفيلق الأسود» Das Schwarze Korps، الناطقة باسم شوتزشتافل [وحدات إس إس]، يجب أن يذهب أساسُ المسيحية الأخلاقي أيضًا:

«عقيدة الخطيئة الأصلية Original Sin الغامضة... بل تصوُّرُ الخطيئة بأكمله كما تقدِّمه الكنيسة... شيءٌ لا يُطاق بالنسبة إلى رجل من العِرْق التُّورْدي[1240]، لأنه لا يتوافق مع أيديولوجية سُلالتنا البطولية»[1241].

وقد أدرك خصوم النازية أيضًا طابع الحركة شِبْه الديني. وكما قال الكاثوليكي الفارّ إيريك فوجلين[1242] Eric Voegelin، كانت النازيةُ «أيديولوجيا أقرب إلى بِدْعة فداء مسيحية هنا والآن... مخلوطة بمذاهب ما بعد التنوير المتعلقة بالتغيير الاجتماعي». ووَصَفَ الصحفيُّ كونراد هايدن Konrad Heiden هتلرَ بأنه «جزء نقي من الروح الجماهيرية الحديثة»، تنتهي أحاديثه دائمًا ب«بهجة فداء غامرة». كما وَصَفَ أحدُ الديمقراطيين الاشتراكيين نظامَ الحُكْم النازي بأنه «مناهِضٌ للكنيسة»[1243].

ولكن النازية لم تكن دينًا بالمعنى الحرفي؛ لأن بذورها المؤسَّسية التي نبتت منها هي شبكة الحياة العَلْمانية الجماعية [الترابطية] الموجودة في ألمانيا. كلما كانت الحياةُ الجماعية أكثفَ في بلدة، نما الحزبُ النازي أسرع[1244].

صار الحزب النازي، كالكنيسة والحزب البُلْشفي قبله، أكثر هَرَميّةً كلما نما. فمنذ

كتاب «كفاحي» Mein Kampf، آمَنَ هتلر إيمانًا قويًا ثابتًا بمبدأ الزعيم F، وتَعلَّم أتباعُه «العملَ من أجل الفوهرر [الزعيم] Führer». على قمة الرايخ الثالث Third Reich وَقَفَ هتلر نفسُه؛ تليه نُخْبةُ ضبَّاط برتبة ملازم [ليفتنانت] محلّ ثقة:

رجال من أمثال مارتن بورمان Martin Bormann، وجوزيف جوبلز Joseph Goebbels، وهاينريك هيملر Heinrich Himmler.

ثم يأتي الجولايْتر [زعيم الحزب النازي في الفرع الإقليمي] Gauleiter، وهم الزعماء الإقليميون الخاضعون للقادة الوطنيين، المسؤولون عن الأقاليم التي تحتل نفس مكانة الولايات الألمانية؛ ثم الكرايْسلايْتر [زعيم المقاطعة] Kreisleiter المسؤول عن مدن كاملة أو مناطق حواضرية [ميتروبوليتانية]؛ ثم أورتسجروبنلايْتر Ortsgruppenleiter وشتوتزبونكتلايْتر Stützpunktleiter وهما زعماء مجموعات محـ

ويأتي في أسفل التسلسل الهَرَمي زيلينلايْتر Zellenleiter (قادة الخلايا) وبلوكلايْتر Blockleiter (قادة الأحياء). واعتبارًا من عام 1936، كان يوجد 33 جولايتر، و772 كرايسلايتر، و21,041 أورتسجروبنلايتر وشتوتزبونكتلايتر.

وبحلول عام 1943، ازدادت الأعدادُ نوعًا ما، نتيجة توسُّع الرايخ، إلى 43 جولايتر، و869 كريسلايتر، و26,103 أورتسجروبنلايتر، و106,168 زيلينلايتر، وما يقرب من 600 ألف قائد مجموعات أحياء[1245].

ولكن من الخطأ التفكير في ألمانيا زمن هتلر بوصفها مجرد هَرَمَ حزبي بالطريقة التي كان عليها الاتحاد السوفييتي زمن ستالين. فحيث كان ستالين يُفضِّلُ أسلوبَ السيطرة الوسواسي القهري، فَضَّلَ هتلر أسلوبًا في الحُكْم أكثر فوضويةً chaoti، تَنافَسَ من خلاله التسلسلُ الهَرَميُّ القديم لحكومة الرايخ مع التسلسل الهَرَمي الجديد للحزب، ثم لاحقًا مع التسلسل الهَرَمي الأحدث في خدمة الأمن (Sicherheitsdienst) Security Service.

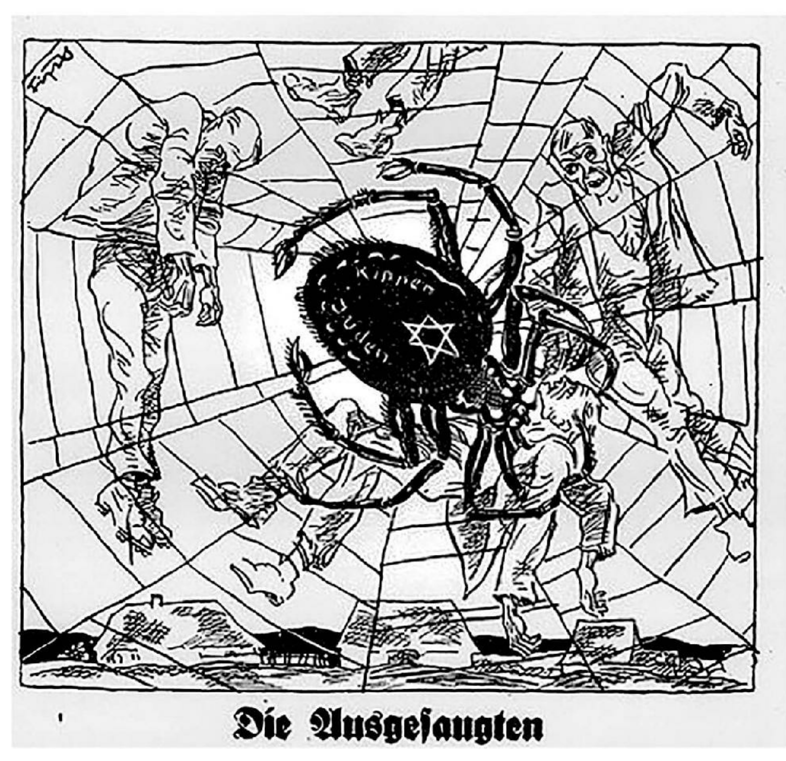
وقد وَصَفَ المؤرِّخون النظامَ بأنه «فوضى بوليكراتية» [فوضى كثرة المسؤولين] polycratic chaos، فأدَّت الأوامرُ المبهمة وتداخُلُ الاختصاصات إلى «راديكالية متصاعدة»، أثناء تنافس الأفراد والهيئات على تنفيذ ما اعتبروه رغبات الفوهرر. كانت النتيجةُ خليطًا من عدم الكفاءة والفساد الفاضح وتصاعُدِ العنف ضد كل المجموعات التي اعْتُبِرَتْ خارج «الجماعة العِرْقية» - فوكسجُماينشافت [جماعة الشعب الألماني أو المجتمع الوطني الألماني] Volksgemeinschaft - ولا سيما اليهود.

لم تكن معاداة هتلر للسامية شيئًا مبتكرًا. فقد ازدهرت النازية بسهولة في بلدات صغيرة متشبِّعة بتراث عنيف في معاداة السامية يرجع إلى القرن الرابع عشر[1246].

وفي الآونة الأخيرة، كما رأينا، وَجَّه الشَّعْبويون من اليسار واليمين نيرانَهم بانتظام إلى ما يُسَمَّى قوة المال اليهودي المفرطة طوال القرن التاسع عشر، ليس في ألمانيا فقط. فعلى كلا جانبيْ الأطلنطي، قبل فترة طويلة من عام 1933، سادت نظرياتٌ عنصرية بشأن دُونيَّة اليهود أو شَنَاعَتِهم. لكن الجديد الذي جاء به هتلر هو القسوة التي مُورِسَتْ بها كراهيةُ اليهود حتى النهاية المريرة المُتمثِّلة في الإبادة الجماعية[1247].

ومع ذلك، وقبل فترة طويلة من مناقشة القتل الجماعي بوصفه احتمالاً داخل القيادة النازية، كَشَفَ النظامُ الحاكم عن مفارقة. فعلى الرغم من المزاعم المتكررة في الدعاية النازية القائلة بأن ألمانيا عانت من نَهْب «دوليٍّ للذهب» قام به المَصْرفيون اليهود المتحالفون، بطريقة غامضة ما، مع «البُلْشَفية» الدولية الشيوعية «اليهودية» Jewish Bolshevism» of the Communist Internationa[1248]، استطاع نظامُ الحُكْم النازي سَلْبَ النُّخْبة اليهودية الألمانية ومصادرتها بسهولة كبرى. العنكبوت العملاق الذي استولى عليه النازيون من الشَّعْبويين الأمريكيين في تسعينيات القرن التاسع عشر، ظهر تهديدًا واضحًا على الصفحة الأولى في جريدة «دير شتورمر» Der Stürmer [المهاجم]، يرتشف دماءَ الحياة من شرايين العُمَّال الألمان البائسين الواقعين في أحابيل شبكة اليهود (انظر الشكل 24).

لكن هتلر تمكَّنَ من سَحْقه بكَعْبِ حذائه. أحد انتصارات الدعاية النازية أنها حافظت على إيمان الألمان العاديين بوجود مؤامرة يهودية قوية، تستطيع إشعالَ الحرب[1249]، في الوقت نفسه الذي تتحدث فيه باستمرار عن واقع الضَّعْف اليهودي.




الشكل رقم: 24 - المَصَّاص die Augesaugten. كاريكاتير قومي اشتراكي يُصَوِّرُ عنكبوتًا يهوديًا عملاقًا، يَمُصُّ دماءَ الشعب الألماني حتى يتركه ذاويًا.

نُشِرَ في الصفحة الأولى من جريدة «دير شتورمر»، العدد 8، فبراير 1930.

لم تقل نظرية المؤامرة إن اليهود لعبوا دورًا رائدًا في الاقتصاد الألماني منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر حتى ثلاثينيات القرن العشرين. ولكنهم لعبوا هذا الدور. في عالَم مقتصر على خدمات مَصْرفية خاصة، لمعت أسماء من أمثال فاربورج Warburg، وآرنهولد Arnhold، وفريدلِندر فولِدز Friedländer - Fulds، وزيمون Simon، وفاينبرج Weinberg، فكانت الأكثر تميزًا. ومن البنوك المساهمة دويتش بنك [البنك الألماني] Deutsche Bank الذي أداره أوسكار فاسرمان Oskar Wasserman، وبنك دِرِسدنر Dresdner Bank الذي أداره هربرت جوتمان Herbert Gutman، بينما سيطر على بنك شركة برلين التجارية Berliner Handles - Gesellschaft كارل فورستنبورج Carl Fürstenburg حتى وفاته عام 1933. أما بنك دارمشتات والبنك الوطني Darmstädter und Nationalbank (المعروف اختصارًا ب«دانات بنك» Danat - Bank)، الذي أشهر إفلاسه عام 1931، فكان يُديره طوال عشرينيات القرن العشرين يعقوب جولدشمِت Jakob Goldschmidt. ولم يقتصر النفوذ اليهودي على المال. فقد حملت المحلات التجارية الرائدة في ألمانيا أسماء يهودية مثل فيرتهايم Wertheim وتيتس Tietz[1250]. شركة الهندسة الكهربية - Allgemeine Elektricitäts

Gesellschaft الرائدة أسَّسها إميل راتناو Emil Rathenau.

كما وُجِدَ العديدُ من أثرياء اليهود الألمان الأقل شهرةً. قبل الحرب العالمية الأولى، بينما كانت نسبة اليهود في السكان الألمان أقل من 1%، بلغ اليهودُ أكثرَ من خُمْس المليونيرات البروسّيين[1251].

الأكثر من هذا، تَواجَدَ اليهودُ بكثرة في مجالس إدارة الشركات الألمانية. ففي عام 191، كان حوالي 16% من أعضاء مجالس إدارة الشركات العامة الألمانية من أصول يهودية، وارتفعت النسبة إلى الرُّبْع في مركز شبكة الشركات، حيث حاز الأفراد ثلاثة مناصب أو أكثر في مجالس الإدارة. وأكثر من ثلْثي الشركات الألمانية الكبيرة كان لديها مدير يهودي واحد على الأقل[1252].

ويمكن التدليل بالطريقة نفسها بخصوص القمم العقلية في الحياة الأكاديمية والفكرية الألمانية، حيث برز اليهود واشتهروا. الاستثناء الواضح كان في الحياة السياسية، إذ استمر اليهود في القيام بدور الحد الأدنى. وكما أشار هوجو فالنتين Hugo Valentin في عام 1936:

في المجالس الوزارية العشرين التي تشكَّلت منذ عام 1818 حتى عام 1933، كان يوجد وزيران يهوديان... وأربعة من أصل يهودي... من حوالي 250 وزيرًا... ومن أصل حوالي 250 من أكبر المسؤولين في وزارات الرايخ، بما فيها وزارات الخارجية وأعضاء المجالس الحكومية، كان يوجد قبل انتصار هتلر خمسة عشر يهوديًا أو رجلاً من أصول يهودية على الأكثر. عدد وزراء الخارجية اليهود في الإدارة بين عاميْ 1918 و1933 كان اثنين فقط. ومن أصل حوالي 300 من أكبر المسؤولين في الوزارات البروسّية وُجِدَ عشرةٌ يهود أو من أصول يهودية. ومن اثني عشر رئيس مقاطعة Oberpräsidente في بروسيا، وخمسة وثلاثين حاكمًا Re، وأكثر من 400 مجلس محلي Landräte... لم يوجد يهوديٌّ واحد... ومن بين كل المسؤولين الحكوميين في ألمانيا [عام 1925] وُجِدَ 0.16% يهودًا؛ ومن بين كبار المسؤولين 0.29% يهودًا؛ ومن بين المسؤولين في الدرجات الوسطى والدنيا 0.17% يهودًا[1253].

لماذا برز اليهود إذن في الحياة الاقتصادية الألمانية؟ ألمجرد أنهم أفضلُ تعليمًا في المتوسط؟ أكانت تَمَرْكزيَّتُهم الملموسة في شبكة الشركات الألمانية الكثيفة ذات مجالس الإدارة المتشابكة انعكاسًا، بكل بساطة، لفَرْط تواجدهم في الصِّرافة، التي أدَّت بدورها إلى مناصبهم المتعددة في مجالس الإدارة؟ أم وُجِدَتْ ميزةٌ خاصة للانتماء إلى جماعة راسخة في الدين والتراث، الأمر الذي أدَّى إلى مستويات ثقة و«اندماج اجتماعي» أعلى؟ يقول باول فيندولف Paul Windolf في تحليله الرائع لشبكة الشركات الألمانية أوائل القرن العشرين:

لقد اندمج المديرون اليهود وغير اليهود على حد سواء في تلك المؤسسة الرأسمالية التعاونية («Germany Inc.»). فلم يُنْشِئ الأفرادُ اليهودُ شبكةً خاصة بهم منفصلة عن شبكة الشركات الإجمالية. وارتبط اليهود وغير اليهود مع بعضهم البعض من خلال مقاعدهم في مجالس إدارة الشركات الكبيرة. فاندمجا كلاهما في هذه الشبكة... ورغم وجود اتجاه واضح إلى الاقتصار على المُمَاثِل homophily، ارتبط اليهودُ بغير اليهود أكثر من ارتباطهم بأفراد جماعتهم في المتوس

تُجْبِرُنا البياناتُ على التراجع عن التفسيرات الأغمض، مثل علم الوراثة أو فوائد التعليم في حياة العائلة اليهودية أو وجود نوع من «الأخلاق اليهودية» - وفقًا لماكس فيبر Max Weber - أكثر انسجامًا مع روح الرأسمالية من الأخلاق البروتستانتية. فهذه الحجج تبدو إشكالية أيضًا، ولا سيما أن تزاوج اليهود في ألمانيا فايمار Weimar Germany من يهود آخرين كان يقلُّ تدريجيًا. ففي ألمانيا بصفة عامة، ارتفعت نسبة زواج اليهود من خارج دينهم من 7% عام 1902 إلى 2 بحلول عام 1933. ووصلت إلى أكثر من الثلْث في عام 1915[1255]. (النِّسَبُ المئوية المماثلة في الولايات المتحدة بلغت حوالي 20% في خمسينيات القرن العشرين و52% عام 1990)[1256].

ومع أن هامبورج وميونيخ شهدتا أعلى معدلات تزاوج [من خارج الدين]، كانت الأرقام أعلى من المتوسط أيضًا في برلين وكولونيا Cologne ومدن سكسونية مثل دِرِسْدن Dresden ولايبزيج Leipzig، بالإضافة إلى بريسلاو Breslau في سيليزيا Silesia[1257].

وعندما جمع آرثر روبين[[1258]] Arthur Ruppin بيانات عن مدن أوربية أخرى، لم يجد سوى تِ رْ يَ سـ تـ ه Trieste [شمال شرق إيطاليا] التي حققتْ أعلى معدل تزاوج [خارجي]. ورغم الارتفاع النسبي، تخلَّفت المعدلاتُ في لينينجراد وبودابست وأمستردام وفيينا عن المعدلات في المدن الألمانية الرئيسية[1259].

فمن بين 164 ألف يهودي ظلوا في ألمانيا عام 1939، كان يوجد 15 ألف شركاء في زيجات مختلطة[1260]. وعندما عَرَّفَ النازيون الأطفالَ الناتجين عن الزواج المختلط بأنه هجين Mischlinge، قدَّروا أعدادَهم بما يقرب من 300 ألف طفل، مع أن الرقم الحقيقي يقع بين 60 ألف و125 ألف[1261]. الأقليات التي عانت من الاضطهاد لم تُسْتَوْعَبْ اجتماعيًا وجنسيًا من قَبل كما حَدَثَ لليهود الألمان عام 1933.

عقب وصول هتلر إلى السلطة، شعر بعض اليهود الألمان بأنهم عالقون في شبكة اضطهاد، أحيانًا، بل كانوا - في حقيقة الأمر - ضحايا عدة قوى بيروقراطية مُهَيْكلة هَرَميًّا، ومتنافسة أحيانًا[1262].

بدأ [ذلك] بمقاطعة المشاريع التجارية اليهودية، التي حَرَّضتْ عليها منظمةُ خلايا المشروع النازي
Nazi Enterprise Cells organization (Nationalsozialistische Betriebszellenorganisation)، وتحالُف موظفي الطبقة الوسطى والحِرَفيين
League of Middle - Class Employees and Artisans (Kampfbund für den gewerblichen Mittlestand)،
وقطاعات من قسم الهجوم [الجناح العسكري في الحزب النازي] SA[1263].

في هذه المرحلة الباكرة، اسْتُثنيت من حملة الهجوم المشروعات التجارية الكبرى مثل متاجر تيتس Tietz لتجنُّب حدوث اضطراب اقتصادي[1264].

وتقدَّمت ببطء أيضًا عمليةُ آرْيَنَة Aryanization الشركات اليهودية [جَعْلها ألمانية][1265].

تُبَيِّنُ تجربةُ المَصْرفي الهامبورجي ماكس فاربورج Max Warburg مأزقَ النُّخْبة التي انتمى إليها. لقد اعتقد اليهود أنهم جزءٌ لا يتجزأ أبدًا من نُخْبة الأعمال والمشروعات الألمانية. وعندما أذعن الأفراد غير اليهود في تلك النُّخْبة لاستبعاد اليهود، لم يكن يوجد ما يمكن أن يفعلوه. الاجتماع الأخير الذي حضره فاربورج بوصفه مدير خط الشحن البحري هامبورج - أمريكا، المشروع الذي أسَّسه يهودي آخر هو ألبرت بالين Albert Ballin، اكتنفه صمتٌ مُحْرِج، عندئذٍ تحدَّث فاربورج نيابةً عن أعضاء مجلس الإدارة شاكرًا نفسَه على سنوات خدمته ومتمنيًا لنفسه «شيخوخة هادئة، وحظًّا سعيدًا، ونِعمًا وبركاتٍ» مع عائلته[1266].

وحتى بعد المذابح المنظمة يوم 11 نوفمبر عام 1938، لم تبدأ عملية المصادرة بجدية إلا مع حظر هيرمان جورينج[[1267]] Hermann Göring الرسمي على كل النشاط التجاري اليهودي في الرايخ[1268]. فاليهود الألمان، المسموح لهم بالهجرة، وجدوا أنفسَهم مجزوزين بشكل مُمَنْهَج من قبل السلطات فصُودِرَتْ كلُّ ممتلكاتِهم تقريبًا قبل استلام تأشيرات الخروج[1269]. ومنذ الأول من يناير عام 1939، طُولِبَ اليهودُ بإضافة اسم «إسرائيل» (للذكور) أو «سارة» (للإناث) إلى أسمائهم الأولى، إذا لم تظهر أسماؤهم في القائمة

الرسمية التي تتضمن الأسماء «اليهودية المعتادة» والتي أصدرتها وزارة الداخلية. وتَزايدَ وَضْعُ اليهود تحت رحمة الجستابو[1270] Gestapo، الذي بدأ عملية جَمْعهم معًا فيما يُسَمَّى يُودِنهاوزر [منازل يهودية] Judenhaüser[1271].

وقبل سبعة أشهر من اندلاع الحرب، في يوم 30 يناير عام 1939، أوضح هتلر بطريقة مثيرة للرعب ما سيكون عليه مصيرُ اليهود، في خطاب ألقاه أمام الرايخستاج [البرلمان الألماني] Reichstag، حدَّدَ فيه معالِمَ النظرية التي أقام عليها مُعاداته للسامية:

لمئات من السنين كانت ألمانيا كريمة بما يكفي لاستقبال هذه العناصر [اليهود]، رغم عدم امتلاكهم شيئًا سوى أمراض سياسية وجسدية مُعْدِية. وما يملكونه اليوم امتلكوه بالتربُّح على حساب الأمة الألمانية الطيبة بتلاعبات مقيتة في السوق.

واليوم، نحن لا نسترد سوى حق هذا الشعب... فالأمة الألمانية حُرِمَتْ من جميع مُدَّخراتها المتراكمة على مدى سنوات من العمل الصادق الدؤوب، بسبب التضخُّم الذي دَفَعَ إليه اليهودُ ونفَّذوه... وقد انتهينا إلى تقرير مَنْعِ توطين شعب غريب في بلدنا، انتزع لنفسه جميعَ المواقع القيادية في البلاد، وطَرْدِه... الثقافة الألمانية، كما يُبيِّنُ اسمُها وحده، هي ألمانية وليست يهودية، ولهذا سيُعْهَدُ بإدارتها والعناية بها إلى أفراد من أمتنا...

في العالَم مساحةٌ كافيةٌ للمستوطنات، ولكن يجب علينا في الوقت نفسه، ورغم كل شيء، التخلُّص من الرأي القائل بأن العِرْق اليهودي لم يخلقه الله إلا بغرض الحياة الطفيلية، بنسبة معينة، في جسد الأمم الأخرى وعملهم الإنتاجي. سيتوجَّب على العِرْق اليهودي أن يُكيِّفَ نفسَه وفق النشاط الإنتاجي السليم كما تفعل الأمم الأخرى، أو سيخضع عاجلاً أم آجلاً لأزمة مَهُولَة لا تُتَصوَّر.

شيء واحد أودُّ قولَه في هذا اليوم الذي قد لا ينساه آخرون، ولن ننساه نحن الألمان: في مسيرة حياتي كنتُ مُلْهَمًا، وعادةً ما كان يُسْخَرُ من ذلك. وأثناء فترة كفاحي من أجل السلطة كان العِرْق اليهودي فقط هو الذي يستقبل نبوءاتي بالتهكُّم عندما كنتُ أقول إني سأتولَّى، ذات يوم، قيادةَ الدولة وقيادةَ الأمة كلها، وعندئذٍ سأُصَفِّي المشكلةَ اليهودية ومشكلات أخرى عديدة. وكان تهكُّمهم صاخبًا، ولكنني اعتقدتُ لبعض الوقت أنهم كانوا يتهكمون على الجانب الآخر من وجوههم. واليوم، سأكون مُلْهَمًا مرةً أخرى: إذا نجح المُمَوِّلون اليهود الدوليون في أوربا وخارجها في إدخال الدول مرةً أخرى في حرب عالَمية، فلن تكون النتيجةُ عندئذٍ بَلْشفةَ الأرض وانتصارًا يهوديًا، بل إبادة العِرْق اليهودي في أوربا![1272].

لم يكن آل روتشيلد - قبل فترة طويلة - العائلةَ الأغنى في العالم، ولكنهم ظلوا أشهرَ السلالات اليهودية، أشهرَ بما يكفي لأن يُخصِّص لهم جوزيف جوبلز Joseph Goebbel، وزير الدعاية الألماني، فيلمًا كاملاً عنهم. لكن القوة التي نَسَبَها النازيون إليهم ثبَتَ أنها هَشَّةٌ حقًا. في ألمانيا (حيث توقف البنك منذ فترة طويلة عن أن يكون له فرع)، تمت آرْيَنة أصول آل روتشيلد[1273].

وصُودِرَتْ ممتلكاتُ القِلَّة من أفراد العائلة الذين لا يزالون مقيمين في ألمانيا، بما فيها منزل العائلة التاريخي في شارع بوكينهايمر لاندشتراس [الطريق السريع] Bockenheimer Landstrasse الذي كان أول العقارات التي اشتراها روتشيلد، عقب تحرير اليهود منذ أكثر من قرن. وبعد ضَمِّ ألمانيا للنمسا مباشرةً في عام 1938، اعْتُقِلَ لويس فون روتشيلد Louis von Rothschild - كبير عائلة فيينا - واقْتيد إلى مقر الجستابو في فندق متروبول [[1274]] Hotel Metropol.

ثم شُوهِدَ رجالُ وحدات إس إس SS وهم ينهبون الأعمال الفنية من محل إقامته الفخم بعد اعتقاله مباشرة تقريبًا[1275]. ووُضِعَتْ شركة إس. إم. فون روتشيلد S. M. von Rothschild تحت إدارة الدولة، ثم بِيعتْ لاحقًا إلى بنك ميرك وفينك وشركاه Merck, Finck & CO. وكان من الأصعب بالنسبة إلى الألمان الاستيلاءُ على مصنع الحديد الضخم فيتكوفيتس Witkowitz الذي أسَّسه روتشيلد، لأنه كان على الأراضي التشيكية ونُقِلَتْ مِلْكيته إلى شركة British Alliance Assurance، لكن هذا العائق زالَ بعد تقسيم تشيكوسلوفاكيا عام 1939، وهو ما جعل الأعمال والمشروعات تحت رحمة الحُكْم الألماني المباشر[1276].

وفي كل مرة غزت فيها فيالق هتلر إحدى دول أوربا، أفسحت شرعيةُ المصادَرة الزائفة، في زمن السِّلْم، المجالَ أمام نهب بلا كابح. فتمَّ الاستيلاء على مجموعة روتشيلد الفنية الواحدة تلو الأخرى، وعلى قَصْرٍ بعد الآخر. وكان المُنظِّر العِرْقي النازي البارز ألفريد روزنبرج Alfred Rosenberg هو مَن بادر إلى تتبُّع هذه المجموعات وسَلْبِها، بحجة أن «آل روتشيلد عائلة يهودية مُعادِية، وجميع مكائدهم لإنقاذ ممتلكاتهم تجعلنا قساةً معهم»[1277].

صحيحٌ أن فرديْن فقط من العائلة هَلَكا كنتيجة مباشرة لسياسة الإبادة الجماعية النازية، وذلك لأن معظم أفراد العائلة تمكَّنوا من الفرار بعيدًا عن أيادي الإمبراطورية النازية: إلى إنجلترا وكندا والولايات المتحدة.

وبعد كل ما كُتِبَ عن شبكة السلطة اليهودية، كانت الشبكات الوحيدة المهمة فعليًا هي الشبكات التي تمكَّنت من الهجرة، وقد تشكَّلت من روابط عائلية بسيطة غالبًا. وتمتع آل روتشيلد بوجود الكثير من تلك الروابط العائلية. فأكثر

أسَرِهم تواضعًا، كان يكفيها وجودُ أحد الأقارب في موقع جيد. لويس كيسنجر Louis Kissinge المُعلِّم [متواضع الحال] في مدرسة فورت Fürth، كانت عمّة زوجته التي تعيش في مقاطعة وِستْشِستر Westchester County بنيويورك، هي التي منحت أولادَه - هاينز Heinz (الذي سيتسمَّى لاحقًا باسم هنري Henry) وفالترِ W - فرصةَ الحياة في الولايات المتحدة؛ كان البديل هو الموت في ألمانيا، كما حَدَثَ لأكثر من اثني عشر من أقاربهم لم يتمكنوا من الخروج من ألمانيا، أو لن يستطيعوا. ولكن الهجرة إلى الولايات المتحدة حُدِّدَتْ بنظام حصة نسبية [كوتة] صارم: فاليهود الألمان الذين لديهم أقارب في الولايات المتحدة مستعدون للتكفل بهم ماليًا، هم فقط مَن لهم حق الدخول إلى الولايات المتحدة[1278].

أما العائلات الأقل حظًا، فكان أملهم الوحيد للبقاء على قيد الحياة يتوقف على إعانة الغُرَبَاء لهم، بالإضافة إلى أصدقاء الأصدقاء. إرنا زيجيل Erna Segel وأطفالها تواصلوا مع عشرين من الغُرَباء طلبًا لعَوْنِهم، طبقًا لما وَرَدَ في مذكراتها التفصيلية عن الحياة زمن الحرب في برلين. وفي ثلاث مناسبات، بادر غُرَبَاء إلى تقديم المساعدة. وفي المقابل، من بين سبعة عشر من معارف إرنا زيجيل القدامى طلبت منهم المساعدة، وُجِدَ ثلاثةٌ فقط على استعداد لتوفير مأوى لأكثر من ليلة واحدة. ولكن المعارف القدامى سَلَكوا مَسْلَك الوسطاء، فقدَّموا أسرةَ زيجيل إلى أُنَاسٍ مستعدين لتوفير إقامة طويلة الأجل. فمن بين اثني عشر اتصال بآخرين انتهت إلى مساعدة طويلة الأمد، لعب المعارفُ القدامى دورَ الوسيط في ستة منها[1279].

وللأسف، كانت أُسْرة زيجيل استثناءً. فالذين بقوا على قيد الحياة، أقلُّ من واحد من كلِّ عشرة من ال 214 ألف يهودي ألماني الموجودين في الرايخ عند اندلاع الحرب. الأغرب من هذا، الحالةُ التي وصفها هانس فالادا Hans Fallada عام 1947 في روايته «كل شخص يموت بمفرده» Jeder stribt für sich allein، وهي عن أرملة يهودية يحميها أحد الجيران في المبنى السكني، قاضٍ مُناهِض للنازية، لكن اضطهدتها أسرةٌ نازية متحمسة، فدفعتْها وحشيتُهم إلى الانتحار في النهاية.

تستحق رواية فالادا (عمله الأخير) إعادة القراءة بسبب البصائر العميقة التي تقدِّمها عن الحياة في ظل التوتاليتارية [الشمولية] totalitarianism. تستند الرواية إلى حياة أوتو هامبل Otto Hampel الحقيقية، وهو عامل متواضع الحال وغير مُسَيَّس، سعى إلى مقاومة نظام الحُكْم النازي عقب موت ابنه أثناء اجتياح فرنسا. تلخّصت فكرة هامبل في أنه إذا ترك بطاقات بريدية، بخطِّ اليد، تشجب نظامَ الحُكْم أمام مبانٍ مختارة بعناية وصناديق البريد حول برلين، فسيكون تأثيرُها تحفيزَ الاستياء الشعبي. وعلى مدى أكثر من عام، كتب هامبل وزوجته إليز Elise مئات البطاقات البريدية التي تحتوي على رسائل بسيطة مثل: «أماه! قتل

الفوهرر ابني. أماه! الفوهرر سيقتل أبناءك أيضًا، ولن يتوقف حتى يجلب الحزنَ إلى كل بيت في العالم». ولكن من شدة الخوف كان كلُّ مَن يجد البطاقات البريدية يُسلِّمها فورًا إلى السلطات، فتَمكَّن الجستابو في النهاية من تتبُّع كاتبيْها والقبض عليهما. حُوكِمَ هامبل وزوجته في محكمة الشعب People's Court، وحَكَمَ عليهما بالموت القاضي النازي البغيضُ رولاند فرايسلر Roland Freisler.[1280]

ومع أن فالادا كاتبٌ يرتاب فيه نظامُ الحُكْم، فقد ظل في ألمانيا طوال الفترة النازية، ونقل على نحو لا يمكن نسيانه الطريقةَ التي عَزَلَ بها الحُكْمُ النازي الأفرادَ حتى جعل مجرد الثقة بين الجيران أمرًا في غاية الخطورة والمجازفة، وهو ما جعل محاولةَ هامبل وزوجته لنشر مُعارَضة فيروسية أمرًا مستحيلاً. وبكلمات أخرى، كان سِرُّ نجاح التوتاليتارية يكمن في نزع الشرعية عن كل الشبكات الاجتماعية خارج المؤسسات الهَرَمية للحزب والدولة، وبخاصة الشبكات الطامحة إلى فِعْل سياسي مستقل، أو شَلِّها ووَأْدها في مَنْبتها. «وحيدًا في برلين» Alone in Berlin هو عنوان أحدث ترجمة إنجليزية للرواية، ويلخص العنوانُ بدقةٍ التَّذْرية [بمعنى العَزْل إلى وحدات صغيرة] التي جعلت الرايخ الثالث Third Reich مَرِنًا على هذا النحو [بمعنى عدم قابليته للكسر أو الإطاحة]، حتى بعد أن أصبح واضحًا أن هتلر كان يقود ألمانيا إلى هزيمة كارثية.





Freie Presse!
Postkarte
Fort mit dem Hitler Verrerkungs
system!
Der gemeine Soldat Hitler
und seine Bande stürzen uns in den
Abgrund!
Diese Hitler Göring Himmler Goebbels Bande
ist in unsen Deutschland nur Todes Raum
zu gewähren!

الشكل رقم: 25 - وحيدًا في برلين: أُعْدِمَ أوتو هامبل وزوجته إليز يوم 8 أبريل عام 1943، بتهمة «تقويض الروح المعنوية العسكرية والتجهيز لخيانة كبيرة». جريمتهم كتابة بطاقات بريدية كالواردة أعلاه: «صحافة حُرَّة! بعيدًا عن نظام هتلر التخريبي! العسكري المبتذل هتلر وعصابته يقذفون بنا إلى الهاوية.

الشيء الوحيد الذي تسمح به هذه العصابة هتلر جورينج هيملر جوبلز في ألمانيا بلدنا هو الموت في العَرَاء» (توريةً لموطن النازيين).

ما دامت الأنظمةُ التوتاليتارية [الشمولية] مقيتةً إلى هذا الحد - نظام هتلر ونظام ستالين - فسيظل من الصعب فَهْم أسباب انجذاب أي شخص يعيش في مجتمع حُرّ إلى أيّ منهما. لكن الناس انجذبوا. بل الأكثر لَفْتًا للانتباه أن بعض الشبكات الأكثر انغلاقًا في إنجلترا سمحت بأن يخترقها عملاء الفاشية fascism والشيوعية comm. وكما هو معروف جيدًا، انجذبت بعض قطاعات الأرستقراطية البريطانية إلى هتلر، وفضَّلتْ سياسةَ استرضائه بدلاً من مواجهته. وطبقًا ل دوف كوبر[1281] Duff Cooper،
ندَّدَ دوقُ وِسْتمنستر ب«اليهود... وقال إن هتلر، رغم كل شيء، يعرف أننا أفضل أصدقائه»[1282].

والماركيز لوثيان[1283] marquess of Lothian،
الذي ترعْرَعَ في «رَوْضة» اللورد ميلنر الجنوب أفريقية، أرستقراطيٌّ آخر تَعَاطَفَ مع نظام الحُكْم النازي، كذلك إيرل آثلون
Earl of Athlone الأنجلوجيرماني (الذي تنازل عن اللقب الألماني أمير تيك Prince of Teck
أثناء الحرب)، لم يتفوَّه بكلمة عن وريثة سُفُن الشَّحْن نانسي ك ي و ن ا ر د Nancy Cunard
واتحاد الأختين ميتفورد وديانا[1284] Mitford sisters Unity and Diana
الذي وصفه هتلر سابقًا بأنه [أيْ ميتفورد] «أعظم رجل في كل العصور»، وديانا هذه تزوجت الزعيمَ الفاشي البريطاني سير أوزوالد مَوزلي
Sir Oswald Mosley في حفل خاص في قاعة استقبال جوبلز[1285].

وفي فبراير عام 1935، قال لوثيان لقرَّاء التايمز إن هتلر أكَّد له شخصيًا «أن ما تريده ألمانيا هو المساواة، وليس الحرب؛ وأن ألمانيا تستعد للتخلِّي عن الحرب». فليس الذي يَهُمُّ هتلر أوربا الغربية، بل الاتحاد السوفييتي. ويوضِّح لوثيان أن هتلر «يَعتبر الشيوعيةَ دينًا قتاليًا في الأساس». وإذا حدثت ذات يوم «محاولةُ تكرار انتصارات الإسلام العسكرية» فس«تُعْتَبَرُ ألمانيا العدوَّ المحتمل أو حصن أوربا؟»[1286].

جامعة أكسفورد - وبخاصة كلية أُول سولس [كلية كل النفوس] All

Souls College - وُجِدَ فيها العددُ الأكبر من أولئك الساعين إلى الاسترضاء [سياسة التهدئة مع هتلر]. ولكن لا شيء من كل هذا يضارِعُ المصيرَ القاتم الذي لاقته أكثر شبكات كمبريدج انغلاقًا وتمرُّدًا، التي اخترقها جهاز ال كي جي بي[[1287]] [المخابرات السوفييتية] [[1288]]KGB.

في تاريخ الشبكات، لا يوجد ما هو أكثر توجيهًا من جواسيس كمبريدج Cambridge Spies: «الخمسة الرائعون» Magnificent Five، كما عُرِفُوا لدى مُشَغِّليهم في مركز موسكو[[1289]] Moscow Centre، أو ال«هومينترن» [[1290]]Homintern، اللقب الذي أطلقه عليهم ببراعة موريس بورا Maurice Bowra عميد كلية وادام جامعة أكسفورد. انتمى كل خمسة منهم إلى شبكة تُباهي بتفرُّدها. ولكن هذه الشبكة النُّخْبوية سمحت لنفسها بأن تخترقها المخابرات الروسية اختراقًا كاملاً، فكان أعضاؤها - لأكثر من خمسة عقود - الذخيرةَ الأثمن في خدمة الاستخبارات الأجنبية السوفييتية، فأفشوا ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى من الأسرار وأسماء عملاء غربيين لستالين.

لقد رأينا، في الفصل السابق، كيف أصبح أعضاء «جمعية النِّقاش» Conversazione Society [جمعيَّة الرُّسُل]، بعد عام 1900 تقريبًا، منفصلين عن القيم الفيكتورية جنسيًا وسياسيًا في آنٍ معًا. وبحلول وقت الحرب العالمية الأولى، اتفقت نسبةٌ كبيرة من «الرُّسُل» مع موقف فورستر القائل بأن الصداقة تأتي في المنزلة الأولى قبل الولاء للمَلِك والبلد. جيلٌ جديدٌ خطا بهذا الانفصال خطوةً أبعد:

من استنكاف الضمير إلى الخيانة. أنتوني بلونت[[1291]] Anthony Blunt «ضُمَّ» إلى الجمعيَّة عام

1928. وكان، بدوره، راعي جاي بورجيس[[1292]] Guy Burgess بعد أربع سنوات. كلاهما من خريجي كلية ترينيتي Trinity، وكلاهما بارع أكاديميًا، وكلاهما شاذٌّ.

(ورغم أن بورجيس كان متوهِّجَ الرغبة مثل بلونت، فقد كان رزينًا، وقيل إنهما كانا عاشقيْن لفترة من الزمن)[1293].

ولكن الحقيقة المهمة تاريخيًا بخصوص بلونت وبورجيس هي أنهما كانا شيوعيين قدَّما خدماتهما لستالين عن طيب خاطر.

وبكل تأكيد، لم يكن الرُّسلُ في حد ذاتهم تنظيمًا شيوعيًا أو حتى اشتراكيًا. فالماركسية انتشرت في كمبريدج ثلاثينيات القرن العشرين، عبر مجموعة متنوعة من الكيانات الطلابية السياسية العَلَنية - أبرزها جمعية جامعة كمبريدج الاشتراكية Cambridge University Socialist

Society، التي اخترقها الحزب الشيوعي في بريطانيا Communist Party of Great Britain ا ل ع ظ م ى،

وبتشجيع من نبلاء ماركسيين من أمثال الاقتصادي موريس دوب[1294] Maurice Dobb من مقاطعة بِمبروك Pembroke [في ويلز].

ولكن الرُّسُل كانوا أكثر من مجرد مُمَثلين لروح العصر. فمِن بين الواحد والثلاثين رسولاً «المُنْضمِّين» بين عاميْ 1927 و1939، وُجِدَ ما لا يقل عن خمسة عشر شيوعيًا، منهم جون كورنفورد[1295] John Cornford وجيمس كلوجمان[1296] James Klugmann وليو لونج Leo long ومايكل ستريت[1297] Michael Straight وأليستر واتسن[1298] [1299] Alister Watson.

وعكست الموضوعات التي كانت تُناقَشُ، مساء كل سبت، اتجاه الجمعية إلى التسييس: جاء موضوع بورجيس الذي عرضه للنقاش، في يوم 28 يناير عام 1933، بعنوان «هل الماضي علامةُ إرشادٍ؟» Is the Past a Signpost؟[1300].

وبورجيس هذا ناشطٌ بأكثر من طريقة. حين كان طالبًا جامعيًا، ساعد في تنظيم إضراب موظَّفي التغذية في كلية ترينيتي، كما ساعد في تنظيم إضراب آخر لسائقي أتوبيسات جامعة كمبريدج. لم يكن «الملائكة» من الجيل السابق مدركين لما يحدث لجمعيَّتهم التي كانت، في يوم من الأيام، غير مُسَيَّسة. ولكنهم حين احتجُّوا لم يُدَوَّنْ صوتُهم في أي محضر جلسة.

ليس كل جواسيس كمبريدج رُسُلاً بالطبع. بورجيس هو الذي كان يحلم بتنظيم «حلقة من خمسة»، محاكيًا الخلايا الشيوعية المُناهِضة للنازية التي نشطت في ألمانيا النازية[1301].

كان السوفييت يعرفون أفضل من تجنيد خمسة عملاء في تنظيم واحد. ومع ذلك، كانوا على استعداد للتجنيد من شبكة أوسع من التي ينتمي إليها بلونت وبورجيس. فالعميلان السوفييتيان ويلي مونزنبرج Willi Münzenberg وإرنست هنري Ernest Henri بدآ بالفعل «اكتشاف الموهبة» في كمبريدج أوائل ثلاثينيات القرن العشرين، ولكن عميلاً يُسمَّى أرنولد الألماني[1302] Arnold Deutsch هو الذي حقَّقَ أحلام بورجيس[1303].

لم يبدأ الألماني (واسمه الكودي لدى ال كي جي بي هو أوتو OTTO) مع رسول، بل مع كيم فيلبي Kim Philby، رجل ترينيتي الذي لم يكن أكاديميًا من الدرجة الأولى. وُلِدَ فيلبي في الهند، وسُمِّي باسم بطل كتاب كيبلنج Kipling الأشهر، «كيم» Kim، وكان ابن عضو سابق في الخدمة المدنية الهندية Indian Civil

Service صار مستشارًا لابن سعود في المملكة العربية السعودية، التي «تَوطَّنَ» فيها بعد تحوُّله إلى الإسلام. ولعل السوفييت رأوا إمكان تحوُّل آخر. بعد كمبريدج، نزولاً على اقتراح موريس دوب، ذَهَبَ فيلبي إلى فيينا للعمل من أجل منظمة إغاثة العمال الدولية بدعم شيوعي Communist - backed International Workers Relief Organization.

وهناك قابل ليتزي فريدمان Litzi Friedmann وتزوجها، وهي أولى زوجاته الأربع. وقدمته فريدمان إلى الألماني، الذي جنَّده وأعطاه الاسم الكودي SÖHNCHEN (الولد الصغير Sonny)[1304].

ثم رشَّحَ له فيلبي صديقَه في كمبريدج دونالد ماكلين Donald Maclean، واسمه الكودي WAISE (اليتيم Orphan). وضِمْن شبكة التجسُّس التي كوَّنها الألماني وتنامت بسرعة، صديقُ ماكلين أيضًا، وهو جيمس كلوجمان (واسمه الكودي ME)، وبسبب اشتهاره بأنه شيوعي لم يكن باستطاعته أكثر من التجسُّس على الجواسيس الآخرين. وبطريقة ما، خَمَّنَ بورجيس أن ماكلين كان يعمل لصالح السوفييت؛ ووفقًا لأحد التقارير، كان يجب على الألماني تجنيد بورجيس حتى لا يتكلم. مُنِحَ بورجيس الذي لا يَشْبَعُ نَهَمُه الاسمَ الكودي MÄDCHEN (فتاة Girl)[1305].

ثم قام بورجيس بتجنيد زميله الرسول بلونت (وسُمِّي اسمًا كوديًا لا خيال فيه هو توني TONY)، وكان يُدَرِّسُ حينئذٍ في كلية ترينيتي[1306].

وجَنَّدَ بلونت، بدوره، مايكل ستريت (واسمه الكودي نايجل NIGEL)، وهو أمريكي ورسول أيضًا والرئيس المنتخب للاتحاد[1307]. ثم رشَّحَ بلونت تلميذَه جون كيرنكروس John Cairncross، طالب كلية ترينيتي الجامعي من أصل إسكتلندي، واسمه الكودي موليير MOLIÈRE (وهو اختيار غريب، لأن كيرنكروس نشر مقالات أكاديمية عن الكاتب المسرحي الفرنسي موليير)[1308]. وثمة مُجنَّدٌ آخر - جُنِّدَ في جمعية الرُّسُل وفي ال كي جي بي، بالتزامن تقريبًا - هو ليو لونج الذي شَغَّلَه بلونت بوصفه عميلاً بديلاً[1309].

وأخيرًا، أُضِيفَ أليستر واتسن إلى كشف رواتب ال كي جي بي. سيلاحظ القارئُ المنتبه أنهم أكثر من جواسيس كمبريدج الخمسة. لقد كانوا على الأقل تسعة.

تلخَّصت إستراتيجية الألماني في وجوب تنصُّل جميع أعضاء «حلقة الخمسة» من الماركسية، مع ضرورة سعيهم إلى مواقع في المؤسسات الحكومية أو الاقتراب منها.

السمة الملحوظة في حالة جواسيس كمبريدج هي سهولة تنصُّلهم مما كانوا يؤمنون به. في عام 1937، تظاهر فيلبي بأنه فاشيٌّ متعاطف يُغَطِّي أخبار القوميين Nationalists في الحرب الأهلية الإسبانية Spanish Civil War، أولاً بوصفه صحفيًا مستقلاً، ثم بعدئذٍ بوصفه مراسلاً لجريدة التايمز[1310].

ونحن نعرف الآن أنه أُرْسِلَ إلى إسبانيا جزءًا من مؤامرة سوفييتية لاغتيال فرانكو Franco[1311]. أما ماكلين فطُلِبَ منه التخلِّي عن كتابة أطروحته الماركسية [الأكاديمية] كي يتقدم بطلب للحصول على وظيفة في وزارة الخارجية. قُبِلَ ماكلين في الخارجية عام 1935، رغم تقرير يفيد بأنه «لم يتخلص تمامًا» من آرائه الشيوعية[1312].

أما كيرنكروس فكان شيوعيًا منذ دراسته في السوربون Sorbonne، قبل التحاقه بكمبريدج. وقد قبلته وزارة الخارجية، هو أيضًا، دون اعتراض أو تشكيك. في عام 1934، سافر بورجيس إلى برلين وموسكو، والتقى ب أوسيب بياتنيتسكي Osip Pyatnitsky رئيس إدارة الاتصال الدولي في الأممية الشيوعية Communist International’s International Liaison Department[1313].

ولكن بورجيس، بعد تلقيه أوامر من الألماني، تظاهر بأنه تخلَّى عن الشيوعية واعتنق النزعة المُحافِظة conservatism، سعيًا للحصول على وظيفة في المكتب المركزي لحزب المحافظين Conservative Central Office، وانتهى به الأمر إلى عمله مساعدًا شخصيًا لعضو البرلمان التُّوري جون مَكْنَمارا الملقَّب ب «جا ك» John «Jack» Macnamara الذي شاركه ميولَه الجنسية. وبهذه الكفاءة ساعد بورجيس على تجنيد توم ويلي Tom Wylie، السكرتير الخاص لوكيل وزارة الحرب الدائم، السير هربرت كريدي Sir Herbert Cready[1314].

ومنذ أواخر عام 1936، استوظفت هيئة الإذاعة البريطانية [بي بي سي] بورجيس منتجًا لبثِّ الأحداث الجارية؛ فكانت أعظمُ أعمال بورجيس الفذّة [في هذه الفترة] تمكينَ عميل ال كي جي بي السرِّي إرنست هنري Ernest Henry من نقل محادثة لصالح[1315] جبهة الحلفاء الثانية[[1316]].

وفي يوم 11 يناير عام 1939، انضمَّ بورجيس إلى القسم دي Section D (اختصارًا ل Destruction [«الهدم»]، أو على نحو أدق Dirty Tricks [«الخدع القذرة»] في خدمة المخابرات السرية Secret Intelligence Service (SIS)، والمعروف أيضًا بالمكتب السادس MI6، مع أنه كان رسميًا في إدارة القسم الأجنبي بوزارة الإعلام

[1317] Ministry of Information’s Foreign Division Directorate.

وأما مايكل ستريت فطُلِبَ منه مغادرة كمبريدج والعودة إلى الولايات المتحدة، متظاهرًا بالحزن لوفاة صديقه وزميله الرسول جون كورنفورد في الحرب الأهلية الإسبانية. وتم التعاقد معه ليتولّى كتابة خطابات الرئيس فرانكلين روزفلت Franklin D. Roosevelt، وحصل على مناصب في وزارة الداخلية Department of the Interior ووزارة الخارجية the State Department [بالولايات المتحدة الأمريكية].

لماذا فعلوا ذلك؟ الإجابة البسيطة هي أنهم جميعًا رجالُ مبدأٍ، أَفْزَعَهم صعودُ الفاشية، وخاب أملُهم في سياسة الاسترضاء، ورأوا ستالين بوصفه المُعادِلَ المعقول الوحيد لهتلر. ومع ذلك، لم يكن لدى أحدهم أية شكوك بشأن يوم 23 أغسطس عام 1939، عندما أُعْلِنَ ميثاقُ ريبنتروب - مولوتوف Ribbentrop - Molotov Pact.[1318] (ويلشمان جرونوي ريس Welshman Goronwy Rees خرّيج أوكسفورد الذي أضافه بورجيس إلى قائمة الألماني، هو فقط الذي استنتج الاستنتاج الصحيح). أما بقية جواسيس كمبريدج فكانوا نشطين، ولا سيما في الفترة التي كان فيها هتلر وستالين في جانب معًا، وعلى الجانب الآخر تقف بريطانيا العظمى.

وبعد عمل فيلبي مراسلاً للتايمز في فرنسا عام 1940، رَفَضَه مكتب الاتصالات في بلتشلي بارك Code and Cypher School at Bletchley Park، لكن بفضل بورجيس عُرِضَتْ عليه وظيفة في قسم العمليات القذرة بخدمة المخابرات السرية Section D, SIS. وعندما ضُمَّ القسم دي إلى إدارة تنفيذ العمليات الخاصة[1319] (Special Operations Executive (SOE الجديدة، اسْتُبْعِدَ بورجيس لكن بقي فيلبي بوصفه مُدرِّبًا، ومن موقعه هذا استمر في تزويد موسكو بتقييمات السياسة في المملكة المتحدة.

ثم نُقِلَ في وقت لاحق إلى القسم 7 في خدمة المخابرات السرية SIS. كان كلوجمان أيضًا في إدارة تنفيذ العمليات الخاصة (القسم اليوغسلافي). وأما جون كيرنكروس ففي بلتشلي بارك. وأما بلونت فبعد أن رفضه، في البداية، سلاحُ المخابرات العسكرية Intelligence Corps بسبب ميوله الشيوعية قبل الحرب، تَحسَّسَ طريقَه إلى المكتب الخامس MI5[1320] (الخدمة السرّية البريطانية Britain’s Security Service)، بفضل دَعْم صديقه فيكتور روتشيلد Victor Rothschild - وهو أيضًا رسول وكذلك رجل كلية ترينيتي ونظير العالَم - الذي تقبَّل زَعْم بلونت

الواهن بأنه اهتمَّ بالماركسية من حيث تعلُّقها بتاريخ الفن فقط[1321].

وبمجرد أن سَلَّمَ وثائقَ المكتب الخامس MI5 وكذلك المعلومات السرِّية عن الترتيب الألماني للمعركة، الذي تلقاه من ليو لونج، بدأ العمل في المكتب 14 بوزارة الحرب[[1322]] War Office’s MI14 section.
وفي أواخر عام 1940، جنَّدَ بلونتُ بورجيسَ في خدمة المخابرات السرية SIS، رغم اتخاذ قرار بعدم جَعْلِه ضابطًا فيها[1323].

حجمُ إسهام جواسيس كمبريدج في المجهود الحربي السوفييتي مذهلٌ. وقد أَمْسَتْ لندن، في عام 1941، محلَّ إقامة ال كي جي بي الوثير، فحَصَلَ على ما يقرب من 9 آلاف وثيقة مُصَنَّفة [سرِّية]. وبين عاميْ 1941 و1945، زَوَّدَ بلونتُ بمفرده مركزَ موسكو ب 1,771 وثيقة[1324].

وفي يوم 26 مايو، قبل أحد عشر يومًا من غزو الحلفاء لنورماندي Normandy، زوَّدَ بلونتُ السوفييتَ بخطة الخداع الكاملة الموضوعة بوصفها جزءًا من ال أوفرلورد[[1325]] (OVERLORD (D - Day، (وعلى ما يبدو) بالمراجعات الشهرية لعمليات المخابرات البريطانية ضد دول المحور التي كانت تذهب إلى تشرشل[1326]. فيلبي (وقد صار اسمه الكودي ستانلي STANLEY) نَقلَ أيضًا إلى مُشَغِّليه «المُكَاتبات الأصلية» التي تضم كل عملاء خدمة المخابرات السرية SIS، وتُرْضِي تلهُّفَ موسكو إلى دليل على أن لندن كانت تُخَطِّطُ سرًّا لسلام منفصل مع الألمان[1327].

وقد أخبر بورجيس الروسَ بتفاصيل محادثات روزفلت وتشرشل في كازابلانكا [الدار البيضاء] في يناير عام 1943، بما فيها قرارهما بتأجيل غزو فرنسا حتى عام 1944، كما نَقلَ معلومات استخباراتية عن خطط الحلفاء تجاه بولندا بعد الحرب. في الأشهر الستة الأولى من عام 1945، قدَّمَ بورجيس ما لا يقل عن 289 وثيقة «سرِّية للغاية» من وزارة الخارجية[1328].

ثم عُيِّنَ بورجيس، بعد نهاية الحرب والانتخابات العامة البريطانية، مساعدًا شخصيًا للسياسي الشاب من حزب العمل هيكتور مَكنيل Hector McNeil وزير الدولة في وزارة الخارجية، وهو منصب أتاح له الوصول إلى مادة على أعلى مستوى، ولا سيما الأوراق السياسية المُعَدَّة لمؤتمر موسكو الذي يضم دول التحالف الأربعة. وقد سُلِّمَ كلُّ هذا إلى مُشَغِّليه السوفييت. وهكذا كان جواسيسُ كمبريدج ناجحين طول الوقت، إلى درجة - وهنا المفارقة الصارخة - أنْ

كَفَّ سادتُهم السوفييت عن الثقة فيهم، مُقْنعين أنفسَهم ببارانويا ستالينية معتادة أن عملية كمبريدج بأكملها ما هي إلا خدعة بارعة [من البريطانيين][1329].

لماذا كان من اليسير على السوفييت اختراق الاستخبارات البريطانية؟ الإجابة البسيطة هي وجود نقص مزمن في مكافحة التجسُّس. وكما يعرف خبراء التجسُّس السوفييتي جيدًا، لم تكن عملياتُ التحقُّق الدقيق قبل الحرب في بريطانيا للقبول في الخدمة المدنية كافيةً للكشف عن الأشخاص الذين تظاهروا بالابتعاد عن الشيوعية، كما فعلت حلقة الخمسة Ring of Five.

كان يوجد قسمُ مكافحة تجسُّس، هو القسم ٥ في بخدمة الاستخبارات السرِّية SIS's Section V، لكن عندما ضغط فيكتور روتشيلد لإلحاق أنتوني بلونت به، كانت النتيجةُ سيئةً في ظل عدم وجود مكافحة تجسُّس[1330]. مدير المكتب الخامس MI5، السير فيرنون كيل Sir Vernon Kell الهَرِمُ، قال في أواخر عام 1939 إن النشاط السوفييتي في المملكة المتحدة «غير موجود، من حيث التآمر والاختراق الاستخباراتي والسياسي على السواء»[1331].

أما روجر هولِس Roger Hollis - الذي شغل لاحقًا منصب المدير العام للمكتب الخامس (1956 - 1965) - فقد انتقد فشل خدمة المخابرات السرِّية في مراقبة التهديد السوفييتي والشيوعي، لسبب وجيه: في عام 1944، نجح فيلبي (على نحو لا يُصَدَّق) في أن يكون مديرًا لقسم جديد هو Section IX مُخَصَّص لمكافحة التجسُّس السوفييتي والشيوعي[1332]. لكن هولِس تَعَامَى عن خطايا خدمته من إغفال وعمولة إلى درجة الاشتباه طول الوقت في كَوْنه هو نفسه «الرجل الخامس» Fifth Man (كما كان روتشيلد).

وحتى في ديسمبر عام 1946، كان ال إيه فور A4 - القسم المُكَلَّف بمراقبة الموظفين الديبلوماسيين السوفييت - يضم خمسة عشر فردًا فقط، وبدون سيارة[1333]. وكما ذكر فيلبي نفسه لاحقًا، ما كان يحميه هو ورفاقه الخونة [العملاء] «عَجْزٌ عقلي حقيقي أصَرَّ على اعتقادٍ مُفادُه أن أعضاء محترمين في المؤسسة لا يمكنهم اقتراف مثل هذه الأفعال»[1334]. وبهذا المعنى، اخْتُرِقَت الشبكةُ الأوسع: شبكة نُخْبة المدارس وأوكسفورد وكمبريدج، شبكة «الوَلد القديم» old boy.

ابتداءً من عام 1945، بدأت الأدلة تتجمَّع، مؤدِّيةً - في النهاية - إلى كشف جواسيس كمبريدج. انشقاق إيجور جوزينكو[[1335]] Igor Gouzenko، موظف التشفير الخاص بالمخابرات العسكرية السوفييتية، في أ و ت ا و ا Ottawa

سبتمبر عام 1945، هو الذي افتتح عملية الكشف. فقال إن السوفييت اخترقوا مؤسَّسات كندية عديدة، بل حصلوا على عيِّنات من اليورانيوم المستخدم في القنابل الذرية الأمريكية، بفضل آلان نون ماي[1336] Alan Nunn May الفيزيائي الذي كان معاصرًا لماكلين في قاعة ترينيتي Trinity Hall [قاعة لقاء الطلبة في كلية ترينيتي][1337].

وفي قسم مكافحة التجسُّس السوفييتي والشيوعي SIS's Section IX، كان فيلبي في موقع يسمح له بتخفيض صلاحيات الملقاط spycatcher جين آرشر[1338] Jane Archer بعد نقلها من المكتب الخامس MI5 [إلى] المكتب السادس [MI6]. وعندما حاول عميلٌ سرِّي سوفييتي آخر، هو كونستانتين فولكوف Konstantin Volkov، ضابط ال كي جي بي في إسطنبول، الانشقاقَ، بقصد واضح منه لكَشْفِ بورجيس وماكلين - تدخَّلَ فيلبي وأمَّنَ عملية توقيف فولكوف وترحيله إلى موسكو. وألمح فيلبي لماي بأنه منزعج من تقصيرها[1339].

وبغَفْلَةٍ واضحة عن هذا التخريب المُمَنْهَج، رَقَّى جهازُ خدمة المخابرات السرية SIS فيلبي مرةً أخرى، ليصبح - هذه المرة - مُمَثلَ الوكالة في العاصمة الأهم في العالم: واشنطن. بل الأغربُ تعيينُ ماكلين مديرًا للمكتب الأمريكي في وزارة الخارجية البريطانية. وجاءت ترقية ماكلين بعد تعرُّضه لانهيار عصبي كامل أثناء عمله مستشارًا ومديرًا لقسم المحفوظات في السفارة البريطانية بالقاهرة، حين قام هو ونديمه في السُّكْر فيليب توينبي Philip Toynbee، بتحطيم محتويات شقة فتاتين تعملان في السفارة الأمريكية وتمزيق ملابسهما الداخلية إربًا في نوبة سُكْرٍ. ولا أحد في لندن تَشكَّكَ في أن سلوك ماكلين، متزايد الشذوذ، كان نتيجةَ ضغط حادٍّ، بعد محاولتين غير ناجحتين لقطع ارتباطاته بموسكو. ولم ينتبه أحدٌ عندما وَصَفَ نفسَه - وهو في حالة سُكْرٍ شديد - بأنه «النسخة الإنجليزية من ألجير هيس[1340] Alger Hiss»:

الشَّامة الشيوعية الأشهر على خَدِّ وزارة الخارجية الأمريكية[1341].

وأما بورجيس فيظل الحالةَ الأكثر إثارةً للحيرة. فحتى لو لم يكن جاسوسًا سوفييتيًا، فإن معاقرته للخمر وتعاطيه المخدِّرات واضطرابه - ناهيك عن سلوكه الجنسي الجانح الشاذِّ - تستوجب إطلاقَ النار عليه. ولكنه بدلاً من ذلك، ظل يحظى بوظائف جديدة: قسم بحوث الإعلام بوزارة الخارجية

عام Foreign Office Information Research Department 1947، وقسم الشرق الأقصى Far Eastern Department، ثم في أغسطس عام 1950 سفارة واشنطن Washington Embassy بوصفه سكرتيرًا ثانيًا. وطوال هذا الوقت تقريبًا، حافظ صديقُ بورجيس، جاي ليدل Guy Liddell نائب المدير العام للمكتب الخامس MI5، بكل ثقة على أنه «لم يكن من الأشخاص الذين يَتعمَّدون تمريرَ معلومات سرّية إلى أطراف غير مصرَّح لهم بالحصول عليها». بل يمكن القول بأن الخمسة كانوا في أوج أهميتهم للسوفييت عند اندلاع الحرب الكورية Korean War. كان بورجيس يقيم مع فيلبي في واشنطن، ويعمل بمثابة ساعٍ لفاليري ماكاييف Valeri Makayev في نيويورك. وأما كيرنكروس فمِن موقعه في أقسام الدفاع في وزارة المالية Defence Divisions of the Treasury، زَوَّدَ موسكو - في هذه الأثناء - بتفاصيل عن برنامج القنبلة الذرية البريطانية[1342].

ووصل التَّبَجُّح بفيلبي أن اقترح على ليدل أنه يستطيع الجَمْعَ بين تمثيل خدمة المخابرات السرية SIS وSS (المكتب الخامس MI5) في واشنطن[1343]. وكان هذا منه شكلاً من أشكال حيله الدفاعية. فهو يعرف أن الشبكة تتعرَّضُ لضغوط قوية بالتدريج. فبالإضافة إلى حصول الأمريكان على معلومات استخباراتية جديدة من المُنْشقِّين، كانوا يحصلون على معلومات وفيرة من اعتراض رسائل الاستخبارات سوفييتية وفكِّ شفرتها ببرنامجهم فينونا [Venona[1344]]. وحين تحقَّقَ فيلبي من أن ماكلين هو الجاسوس الذي تم كشفه وتسميته ب هومر HOMER أثناء الاعتراض وفكِّ الشفرة، أبلغه فيلبي بوَسَاطة بورجيس، فأُعيد إلى لندن بعد نوبة أخرى من السلوك الفاضح. بورجيس أبلغ بلونت أيضًا[1345].

وفي منتصف ليل الجمعة، 25 مايو عام 1951، وَفْقَ عملية إخلاء دَبَّرها باحترافية يوري مودِن Yuri Modin، الضابط المسؤول عنهما في لندن، تمكَّن ماكلين وبورجيس من الهرب من منزل ماكلين في تاتسفيلد Tatsfield إلى سَوثامبتن Sou، حيث أبحرا على متن قارب المتعة فاليز Falaise إلى سانت مالو Saint - Malo - وهي خدمة لم تكن تتطلب جوازات سفر - ثم انطلقا بالقطار من رين Rennes إلى باريس Paris إلى بيرن Berne، وهناك زَوَّدتهما السفارةُ الروسية بجوازات سفر مزيَّفة. ومن زيوريخ Zurich استقلَّ الرجلان الطائرةَ المتجهة إلى ستوكهولم S عبْر براغ Prague، ولكنهما في العاصمة التشيكية [براغ] استقلا الطائرةَ المتجهة إلى موسكو. لقد طار اثنان من الطيور الخمسة، بسبب افتقار قسم مكافحة التجسُّس بالمكتب الخامس MIS إلى الموارد التي تُمكِّنه من مواصلة المراقبة في أجازة نهاية الأسبوع[1346].

وأما فيلبي فقد وَضَعَه المكتبُ الخامس MI5 (ناهيك عن ال إف بي آي[1347] FBI وال سي آي إيه[1348] CIA) تحت أنظاره. اسْتُدْعِي من واشنطن (بإلحاح أمريكي) وأُحِيل إلى التقاعد رسميًا. وأُجْرِيَتْ معه مقابلةٌ واسْتُجْوِبَ، ولكنه استمر في العمل بتشجيع من المدافعين عنه في خدمة المخابرات السرية SIS. وفي عام 1955، وعلى أساس الاستخبارات الأمريكية، اتُّهِمَ بأنه الرجل الثالث Third Man في جريدة صانداي نيوز Sunday News بنيويورك وفي مجلس العموم House of Commons. ولكنه تَلقَّى حمايةً من حكومة أنتوني إيدن Anthony Eden، وكذلك من نيكولاس إليوت Nicholas Elliott داخل المكتب السادس MI6 ومن جيمس أَنْجِلْتن James Angleton في ال سي آي إيه CIA.

وبكل وقاحة وتبجُّح، عقد فيلبي مؤتمرًا صحفيًا في غرفة معيشة أمه قائلاً للصحافة: «آخر مرة تحدثتُ فيها إلى شيوعي، وأنا أعرفُ أنه شيوعي، كانت في عام 1934»[1349]. وما لا يُصَدَّقُ أن معظم زملائه السابقين يعتقدون ذلك، رغم ورود أدلة تفصيلية جديدة من برنامج فينونا تُفيد بأنه العميل السوفييتي واسمه الكودي ستانلي STANLEY، فضلاً عن شهادة أدلى بها المُنْشق عن ال كي جي بي أناتولى جوليتسِن Anatoli Golitsyn وفلورا سولومن Flora Solomon، التي حاول فيلبي تجنيدها لصالح الجانب السوفييتي قبل الحرب. وحتى زوجة فيلبي الثانية، إيلين Aileen، صارت تشتبه فيه. (ووفقًا لأحد أصدقائهما، قالت له على العشاء ذات ليلة: «أعرف أنك الرجل الثالث!»). القسوة التي مارسها عليها بشكل مُمَنْهَج، بالإضافة إلى إدمانها الكحول، أدَّيَا بها إلى الموت في ديسمبر عام 1957[1350].

ومع كل هذا، سُمِحَ له بالانتقال إلى بيروت، حيث عمل صحفيًا ومَصْدرًا غير رسمي للمكتب السادس MI6. وبكل تبجُّح، اغتنم أولَ فرصة لاستئناف العمل لصالح السوفييت. وعندما كَشَفَ المكتبُ السادس MI6 فيلبي استنادًا إلى معلومات جديدة تم الحصول عليها في عام 1961 - 1962، «اعترف» لإليوت، مُدَّعيًا أنه قطع الاتصالَ مع الروس في عام 1946. ثم أتيح له الهرب إلى موسكو في يناير عام 1963[1351].

لعل أعظمَ الألغاز بشأن جواسيس كمبريدج - بل الأعظم من استمرارهم وقتًا

طويلاً دون انكشاف - قِلّةُ أوهامهم عن النظام الذي يخدمونه. في موسكو، واصل بورجيس سلوكَه المعتادَ، الشُّرْب وتعاطي المخدرات وإحداث الفوضى، صارخًا من آنٍ لآخر «أكره روسيا» أمام الميكروفونات المزروعة في شقته. ورأيه عن موسكو أنها «مثل جلاسكو في ليلة سَبْتٍ أيام العصر الفيكتوري»[1352].

كَتَبَ فيلبي مذكرات مؤيِّدة للسوفييت تحت إشراف ال كي جي بي، ودخل في علاقة غرامية مع مِليندا ماكلين Melinda Maclean، وحاول الانتحارَ في عام 1970، وتزوج زوجته الرابعة، امرأة روسية. وحين تَسلَّمَ وسامَ لينين Order of Lenin، شبَّهه بوسام الفروسية: «أحد أفضل الأوسمة»[1353].

لكن ما أثار غضبه هو أنه لم يكن أكثر من مجرد «عميل» داخل ال كي جي بي. مات بورجيس في أغسطس عام 1963 بفشل كبدي. ماكلين أيضًا أدمن الشرابَ حتى الموت. وأما كبد فيلبي فاستمر بطريقة ما حتى عام 1988.

الآخرون انحدروا إلى خيار الهروب إلى جنة العُمَّال. قال بلونت ل مُودِن بعد هروب بورجيس وماكلين: «أعرف تمامًا كيف يعيش رجالك، وأؤكد لك أنه من الصعب بالنسبة لي، بل مما لا يُطَاقُ تقريبًا، أن أعيش هذه المعيشة»[1354].

وبعد اعتراف مايكل ستريت بأن بلونت جنَّدَه حين كان طالبًا في كلية ترينيتي، اعترف بلونت للمكتب الخامس MI5 في عام 1964؛ رغم أنه لم يكن مكشوفًا صراحةً حتى نوفمبر عام 1979.

(في مذكراته، التي لم تُنْشَرْ حتى عام 2009، قال بلونت إنه ندم - كما لم يندم من قبل - على عمله لصالح المخابرات السوفييتية، واصفًا إياه بأنه «أكبر غلطة في حياتي»). وأخيرًا، كيرنكروس كَشَفَتْه وثائقُ تحت يده وَرَدَ فيها أن بلونت فشل في الانتقال من شقة بورجيس، ولكن الأدلة ضده لم تكن تكفي لاعتقاله، فأُحيل إلى التقاعد، بطريقة مُتكتِّمة، وسُمِحَ له بالبحث عن عمل أكاديمي في الولايات المتحدة. ثم اعترف في عام 1964 للمكتب الخامس MI5 بأنه تَجسَّسَ لصالح السوفييت، ولكنه رفض العودة إلى المملكة المتحدة، متقبلاً وظيفة في منظمة الأغذية والزراعة العالمية التابعة للأمم المتحدة في روما. وفي عام 1970، حصل على حصانة من الملاحقة القضائية. ولكنه حتى عام 1982 لم يؤكد أنه «الرجل الخامس» Fifth Man. ولم يُعْلَنْ عن ذلك حتى عام 1990، بعد سنوات من التكهُّنات الجامحة التي اتَّهمت خطأً ما لا يقل عن عشرة آخرين من خريجي كمبريدج باتصالاتٍ استخباراتية، بمَن فيهم هولِس وروتشيلد[1355].

هكذا، لم يُحاكَمْ أو يُدَان أيٌّ من جواسيس كمبريدج، ناهيك عن أن يُسْجَنَ أحدُهم؛ على عكس ما حَدَثَ لجورج بليك George Blake، الجاسوس السوفييتي الذي لم تكن له أي اتصالات بالمؤسسة الحكومية، والذي صَدَرَ عليه حُكْمٌ باثنين

وأربعين عامًا لما اقترفه من جرائم.

## 40
## مقابلة قصيرة

كانت عبارةُ «اتَّصِلْ فقط» - بدلاً من عبارة «انْشَقّ فقط» - شعارَ الرُّسُل في يوم من الأيام. أما داخل الاتحاد السوفييتي زمن ستالين، الذي خَدَمَه بإخلاصٍ جواسيسُ كمبريدج، فقد كان أقلُّ تواصلٍ [أو اتصالٍ] مُمِيتًا، أو يقترب من كَوْنه مُمِيتًا. في ليلة من ليالي شهر نوفمبر في مدينة لينينجراد Leningrad، بعد أشهر من نهاية الحرب، قابل فيلسوفٌ من جامعة أكسفورد هو إشَعْياء برلين[1356] Isaiah Berlin الشاعرةَ الروسية آنّا أخماتوفا[1357] Anna Akhmatova.



إشَعْياء برلين والشاعرةَ الروسية آنّا أخماتوفا.

كان اللقاءُ، لكليهما، لقاءً لا يُنْسَى: نوعًا من التواصل الفكري والروحي العفيف، الخالي من المحتوى السياسي. ولكن المقابلة دَمَّرتْ حياةَ أخماتوفا تقريبًا. من الصعب العثور على مثالٍ للتوتاليتارية [الشمولية]، النظام الهَرَمي المطلق، أوضح من هذا. مثقفان لم يستطيعا مناقشة الأدب في شقة خاصة دون أن يهتم ستالين نفسه اهتمامًا شخصيًا وخبيثًا بالحدث فيستخدمه بوصفه دليلاً على تبرير المزيد من ممارسته الاضطهاد.

عاشت أخماتوفا لفترة طويلة تطاردها سحابةُ الشك. عُرِفَتْ آنا أندرييفنا جورينكو [آنا أخماتوفا] Anna Andreevna Gorenko، بوصفها شاعرةً مشهورةً قبل الثورة. وأُعْدِم زوجُها الأول الكاتب القومي الرومانسي نيكولاي جوميليف[1358] Nikolay Gumilev، لنشاطه المُعادِي للسوفييت عام[1359] 1921.

أظلمت السَّحابةُ بعد تَلقِّي ديوانها الشعري الرابع Anno Domino MCMXXI؛ حين أشار أحدُ النقاد إلى صورة بطلتها «المزدوجة» أو

«المتناقضة»: «نصف «عاهرة» يُلْهِبُها الشَّغفُ، ونصف «راهبة» تتضرع إلى الله لنَيْل غفرانه». وكَتَبَ ناقدٌ آخر قائلاً إن كل روسيا انقسمت بين أتباع مایاكوفسكي[1360] Mayakovsky
وأتباع أخماتوفا، وهو ما يعني ضمنًا، وعلى نحو فيه إدانة، أن أخماتوفا مُحافِظةٌ في مقابل ثورية فلاديمير مایاكوفسكي[1361]. انقطعت أعمالها عن النشر بعد عام 1925[1362]. ثم بعد عشر سنوات، قُبِضَ على ابنها ليف جوميليف[1363] Lev Gumilev وزوجها الثالث نيكولاي بونين[1364] Nikolai Punin.
وبناءً على نصيحة صديق، هو الكاتب بوريس باسترناك[1365] Boris Pasternak، كَتَبَتَ التماسًا يائسًا ومباشرًا إلى ستالين، تتوسَّلُ إليه كي يُطْلِقَ سراحَ «الشخصين الوحيدين القريبين لي».

وبأعجوبة، وافق ستالين على تلبية استرحامها، فأشَّرَ على رسالتها بأمر بإطلاق سراح الرجلين[1366]. ثم اعْتُقِلَ جوميليف ثانيةً في مارس عام 1938، وحُكِمَ عليه بعشر سنوات في معسكر العمل في القطب الشمالي في نوريلسك Norilsk، مستعمرة في أقصى شمال العالم [أقصى شمال سيبيريا][1367]. ورغم أن أخماتوفا قد رُدَّ إليها اعتبارها لفترة وجيزة عام 1939، فقد فوجِئت بردِّ فعل عنيف خاطفٍ على نَشْرةٍ لمختارات من قصائدها (بعنوان «من ستة كتب» From Six Books عام 1940):

أمر مدير الحزب في لينينجراد أندريه جدانوف[1368] Andrei Zhdanov، بمصادرة الكتاب، مُتَّهِمًا «قصائد أخماتوفا بالانغماس في الفسق والرذيلة»[1369].

كَتَبَت الشاعرةُ معظمَ قصائد هذه المجموعة، خلال الفترة بين عاميْ 1935 و1940، عن الإرهاب Terror و«قدَّاس الموتى» Requiem، رَوَتْ فيها بِلَوْعَةٍ وأسى آلامَ وعذاب الملايين الذين فقدوا أحِبَّاءهم بسبب طغيان ستالين واستبداده عديم الرحمة[1370].

ليس غريبًا أن تنشأ علاقةٌ وجدانية قوية بين أخماتوفا والفيلسوف الإنجليزي الشاب اللامع. وُلِدَ برلين في ريجا Riga [عاصمة لاتفيا إحدى دول بحر البلطيق] لعائلة يهودية ثرية عام 1909، وبوصفه طفلاً نابهًا قبل الأوان شَاهَدَ الثورةَ الروسية Russian Revolution، ولكن آل برلين اختاروا مغادرةَ الاتحاد السوفييتي عام 1920، وبعد عام استقروا في لندن. ثم تلقَّى برلين تعليمَه في كليتيْ سانت بول St Paul

وكوربوس كريستي Corpus Christi، بجامعة أكسفورد. ورغم انغماسه في الفلسفة بوصفه أكاديميًا شابًا، لم يفقد اتصاله بجذوره الروسية. فقادته مهاراته اللغوية إلى وظيفة مؤقتة هي سكرتير أول السفارة البريطانية في موسكو صيف عام 1945. وفي زيارة برلين إلى لينينجراد، بصحبة بريندا تريب Brenda Tripp مديرة المجلس الثقافي البريطاني British Council تَعرَّف إلى أخماتوفا في متجرٍ لبيع الكتب المستعملة يمتلكه جينادي راكلين[1371] Gennady Rakhlin.

ثم دَعَتْه أخماتوفا يوم 14 نوفمبر عام 1945 إلى شقتها في فونتَني دوم Fontanny Dom، قصر آل شِرميتيف Sheremetevs الرائع فيما مضى، على قناة فونتانكا Fonta. انتهى هذا اللقاء الأول بسرعة نوعًا ما، وبشكل مضحك. ثم قام برلين بزيارة ليلية ثانية لأخماتوفا قبل عودته إلى موسكو في العشرين من نوفمبر. كانت الزيارة بعد منتصف الليل، وكانا بمفردهما، فأخذا بأطراف الحديث. أخبرها عن أصدقائها المُشَرَّدين في الأرض الذين فَرُّوا كعائلته منذ الثورة:

الملحن آرتور لوريه Artur Lurié، الشاعر جورجي أداموفيتش Georgy Adamovich، فنان الفُسَيْفساء بوريس أنريب Boris Anrep، سيدة المجتمع البارزة سالومي أندرونيكوفا Salome Andronikova. أما هي فحَكَتْ له عن طفولتها في البحر الأسود Black Sea وزيجاتها، وحُبِّها للشاعر أوسيب ماندلستام[[1372] Osip Mandelstam
(الذي
مات في الجولاج عام 1938)، ثم ألقت بصوتها بعضَ المقاطع من قصيدة بايرون
Byron الطويلة «دون جوان» Don Juan
(بإنجليزية
[مكسَّرة]، أتْبَعَتْها بمختارات من قصائدها، بما فيها قصيدة لم تنتهِ منها بعنوان «قصيدة بلا
بطل»
Poem without a Hero و«قدَّاس الموتى» Requiem، اللتين قرأتهما من مخطوطة.

استمرت مناقشاتهما الأدبية - عن تشيخوف Chekhov وتولستوي Tolstoy ودوستوفسكي Dostoevsky وكافكا Kafka وبوشكين Pushkin وألكسندر بلوك Alexander Blok ومارينا سفيتيفا Marina Tsvetaeva وباسترناك Pasternak، وحشد من الشعراء الآخرين الأقل منزلةً - استمرت حتى وقت متأخر من صباح اليوم التالي، وتَرَكَتْ في كليهما أثرًا لا يُمْحَى.

تجاذبا أطراف الحديث في الموسيقى أيضًا. ولا شيء يمكنه إيضاح مدى تدمير

نظام الحُكْم السوفييتي للشبكات الأدبية والفنية في أوربا قبل عشرينيات القرن العشرين أفضل من أن أخماتونا - شأنها شأن باسترناك الذي قابله برلين أيضًا - لم تكن تعرف أيَّ شيء تقريبًا عن أحدث أعمال الكُتَّاب والفنانين الذين عرفتهم من قبل، ناهيك عن أعمال الفنانين والأدباء الجُدُد. أَنْ تكون شاعرًا في روسيا زمن ستالين معناه أن تكون شبكةً معزولةً [مفردة]. لقد اندهش برلين من أن أخماتوفا لا تزال متواجدةً، فقد كتب لاحقًا يقول: «كان الأمر كما لو كنتُ دُعِيتُ فجأةً لمقابلة الآنسة كريستينا روزيتي[1373] Miss Christina Rossetti»[1374].

كان برلين زائرَها الأجنبيَّ الثاني، فقط، منذ الحرب العالمية الأولى. لو أنها غادرت روسيا قبل صعود ستالين لانضمت إلى [مجموعة] بلومزبري Bloomsbury. وكما اعَتَرَفَتْ أخماتوفا لبرلين، كانت «عُرْضَةً للوقوع في الحب بسهولة». لقد شاركت بلومزبري اهتمامًا مفرطًا ب«شخصيات الآخرين وأفعالهم...

الأمر الذي ضَاعَفَ من بصيرتها الحادّة بالمركز الأخلاقي لكل من الشخصيات والمواقف... بالإضافة إلى عنادٍ دوجماطيقي في نَعْتِ الدوافع والنوايا». كانت حياتُها بأسرها، فيما يتأملها برلين، «إدانةً متواصلة للواقع الروسي». لكنها «لم تكن لترحل: كانت مستعدةً للموت في بلدها، ولا تُبالي بالأهوال المدَّخَرة؛ فهي لن تتخلى عن بلدها أبدًا»، رغم أن «لينينجراد لم تكن بعد الحرب سوى مقبرة ضخمة، مدفن لأصدقائها؛ بَدَتْ لينينجراد كالغابة المحترقة، أشجارُها القليلة المُتفحِّمة جعلت الخرابَ أكثرَ خرابًا».

التقيا مرةً أخرى [أخماتوفا وبرلين] لقاءً قصيرًا يوم 5 يناير عام 1946، قبل رحيل برلين عن روسيا. ولم يندهش حين أعطته مخطوطًا في حجم عملها السابق، «القصيدة التي شَكَّلتْ فيما بعد ثانيةَ قصائدِها في المجموعة التي حملت عنوان «سينك» Cinque... و[التي] كانت في صورتها الأولى، إلهامًا مباشرًا من لقائنا السابق». لم يكن اللقاءُ أقلَّ تأثيرًا بالنسبة له. فقد كَتَبَ لاحقًا يقول إنه «أثَّرَ فيَّ بشكل عميق وغَيَّرَ نظرتي للأمور تغييرًا كبيرًا». لقد اعتقد أن جلالَ رَوْنَقِها وشِعْرَها «عملٌ من أعمال العبقرية والتفرُّد». قال فيما بعد إن لقاءهما منحه الإحساسَ بالرجوع إلى «وطنه». ولعله كان الحافزَ الذي حوَّلَه بعيدًا عن الفلسفة إلى تاريخ الفكر السياسي، فاستكمل أفضل أعماله في الدفاع عن الحرية الفردية، ومُناهَضة الحتمية التاريخية. «لم تكن علاقة حبٍّ عادية»، كما كَتَبَ أحدُ المُعلِّقين. «لم يكن بينهما علاقة جنسية. فلا بد أنه أحدُ أنقى اللقاءات بين شخصيتين إنسانيتين فيما يُعْرَفُ. عقلان فائقان، بدا للوهلة الأولى أنهما يتشاركان معًا في دَفْعِ أحدهما الآخر إلى أعلى ذروة الحُبِّ والفَهْم المتبادل بطريقة لم تحدث لأيِّهما من قبل. بل لعل لقاءَهما مثالٌ فريدٌ من نوعه ne plus ultra، مثالٌ أفلاطونيٌّ للتواصل الإنساني»[1375].

وقد أظهرت أخماتوفا، كما كَتَبَ باسترناك إلى برلين في العام التالي، افتتانًا ببرلين: «كل كلمة ثالثة تتفوَّه بها هي أنْتَ. هكذا بشكل درامي وغامض! مثلاً، ذات ليلة، ونحن في التاكسي أثناء العودة من لقاء مسائي أو حفل استقبال، كانت مُسْتثارة ومُتْعَبة، وإلى حد ما غارقةً في سحابةِ حزنٍ (أو سَكْرانة) فقالت بالفرنسية: قال صديقنا notre ami (أنْتَ)، أو وَعَدَ، إلخ، إلخ.»[1376]. «سينك» [في مجموعتها الشعرية] هو دون شك البطل الذي أوحى به برلين[1377]. وقد خَمَّنَ البعضُ أنها رأت في برلين - أيضًا - البطلَ الحاضر عبر غيابه في «قدَّاس الموتى»[1378]، رغم أن التضمين «الثالث والأخير» في تحفة أخماتوفا الإبداعية - «قصيدة بلا بطل» Poem without A Hero - لم يُقْصَدْ به برلين وحده:

كفى، لقد تجمَّدتُ في خوف جِدِّ طويل،

لذا سأستدعي الآن موسيقى الشاكون لباخ،

وعلى أنغامها سيأتي لي رجل.

ليس زوجي،

ولكن ما سنحققه معًا

سيقضُّ مَضْجَعَ القرن العشرين.

تلقيتُه خطأً كمصير خفيّ

لامَسَني ودَنَا معه الأسوأُ من كل شيء.

على طول قناة فونتانكا سيمشي،

آتيًا في وقت متأخر عبر الليل والضباب،

سيشرب نبيذي مُستقبِلاً العامَ الجديد.

وسيتذكر ليلةَ عيد الغطاس،

وشجرة القَيْقَب، وومضات شموع الزفاف،

والقصيدة في تحليقها المميت.

لن تأتي به، يَحْمِلُني، زهرةُ الربيع الأولى،

ولا صلواتُ الحبِّ الحلوة، ولا حتى خاتم - بل الموتُ سيأتي به يَحْمِلُني هذه الليلة[1379].

وكما يشير السطر الأخير، كانت عواقبُ لقاءات أخماتوفا مع هذا «الضيف من

المستقبل» (عبارة من قصيدتها «عام1913» The Year 1913) كارثيةً. وبالنظر إلى سِجلِّ أخماتوفا الحافل ومكانة برلين الرسمية، لم يكن مستغربًا أن يظهر - بشكل غير متوقع وغير لائق - الفاسقُ المستهترُ ابنُ رئيس الوزراء راندولف تشرشل Randolph Churchill خارج مسكن أخماتوفا بمناسبة زيارة برلين الأولى[1380].

ربما لم يتفوَّه ستالين بكلمات من قبيل «هكذا تستقبل راهبتُنا الجواسيسَ البريطانيين»، ولكنه افتراض معقول في أجواء ما بعد الحرب المشحونة[1381]. في غضون أيام، قامت الشرطة السرِّية بتركيب ميكروفونات بطريقة غير احترافية في سقف منزل أخماتوفا. وأجبروا امرأةً بولندية كانت تُتَرْجِمُ أعمالَها على إعطائهم تفاصيل عن زيارات برلين[1382]. لم يَزْدَدْ تَعرُّضُ أخماتوفا للخطر إلا في إبريل التالي، عندما قبلت دعوةً لقراءة شعرها في مجلس النقابات House of Unions في موسكو. الاستقبال الحافل من الجمهور، الذي تكرَّرَ في لينينجراد بعد أربعة أشهر، أفزعها، ولسبب وجيه[1383].

تم تكثيف المراقبة عليها وعلى أصدقائها. وتَدخَّلَ ستالين مرة أخرى، لكن هذه المرة ليس لإنقاذها بل للمشاركة في النقد الأدبي، فذَكَرَ أن المرء بإمكانه أن يَعُدَّ قصائد أخماتوفا ما بعد الثورية الجيدة «على أصابع اليد الواحدة»[1384].

وفي يوم 14 أغسطس، أصدرت اللجنةُ المركزية Central Committee قرارًا «على صفحات مجلتيْ زفيزدا [النجمة الحمراء] Zvezda ولينينجراد Leningrad يهاجم مُحرِّريهما لنشرهم أعمالاً «ضارّة أيديولوجيًا» لإخماتوفا والكاتب الساخر ميخائيل زوتشينكو Mikhail Zoshchenko. ثم نُدِّدَ بكلا المؤلِّفيْن تنديدًا شديدَ اللهجة في اجتماع اتحاد كتَّاب لينينجراد، من قِبَلِ عدوِّ أخماتوفا القديم جدانوف، الذي دَفَعَه ولقَّنه جورجي ألكسندروف Georgi Alexandrov رئيسُ قسم الدعاية في اللجنة المركزية، وقد أغراه بالتصرُّف على هذا النحو استنكارٌ أبداه موظفٌ في قسمه[1385]. كانت كلماتُ هجوم جدانوف كاشفةً:

ما أعمال أخماتوفا إلا شِعْر امرأة أرستقراطية مُدلَّلة، تتأرجح بشكل مسعور بين المَخْدَع والكنيسة... ومن الصعب القول ما إذا كانت راهبةً أم امرأةً ساقطةً؛ لعل الأفضلَ القولُ بأنها مزيجٌ منهما، فرغباتُها وصلواتُها متشابكةٌ مُتداخلةٌ... مِزاجُ العزلة واليأس هذا، الغريبُ على روح الأدب السوفييتي، يتخلل أعمالَ أخماتوفا كلها... أعمالُ أخماتوفا شأنٌ من شؤون ماضٍ بعيد؛ غريبةٌ على الحياة السوفييتية ولا يمكن احتمالها على صفحات مجلاتنا... ولا تزرع شيئًا سوى الكآبة والمعنويات المنخفضة [المزاج العَكِر المنقبض] والتشاؤم والرغبة في الهروب من مشكلات الحياة الاجتماعية والنشاط، إلى عالم التجارب الشخصية الصغير الضيِّق[1386].

كان كلُّ شيء في الدولة الشمولية [التوتاليتارية] محظورًا، حتى التجارب الشخصية.

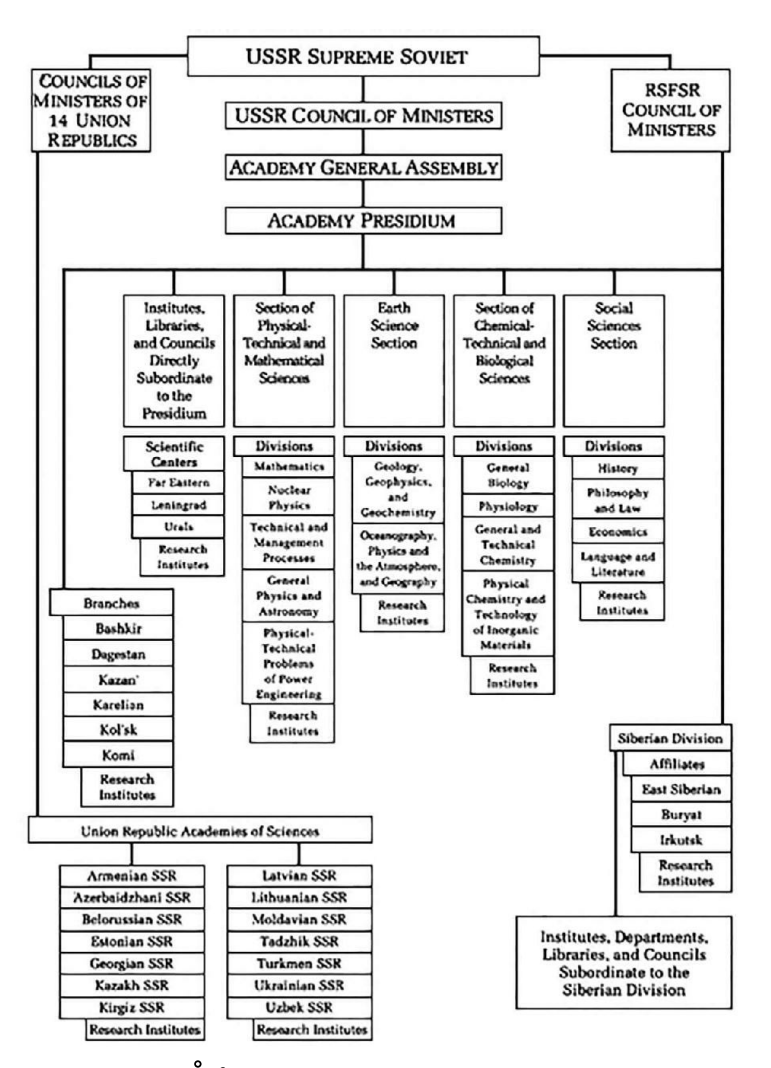
أُهِينَتْ أخماتوفا وتَعرَّضت للإذلال علانيةً، ولكنها لم تُعْتَقَلْ بسبب تدخُّل برلين، وعُلِّقَ مؤقتًا معاشُها المتواضع وحصَّتُها التموينية[1387].

ولم يعد من الممكن وجود أي اتصالات بينها وبين برلين. فلم يعلم برلين أن ابنها ليف - الذي أُطْلِقَ سراحُه من الجولاج كي يحارب بوصفه مدفعجيًا مضادًا للطائرات في «الحرب الوطنية العظمى» [[1388]] Great Patriotic War - قد اعْتُقِلَ مرة أخرى في عام 1949، وحُكِمَ عليه بعشر سنوات أخرى في معسكرٍ في كازاخستان. كلا، ولا سمع عن إعادة اعتقال زوجها الثالث بونين وموته في الجولاج[[1389]] في عام 1954، مع الانفراجة الطفيفة التي أعقبت وفاة ستالين، رآها مجموعةُ طلبة بريطانيين، منهم الشاب هاري شُكْمان Harry Shukman، في دار كُتَّاب لينينجراد Leningrad House of Writers. اعْتَقَدَتْ أخماتوفا أن برلين قد أرسلهم، ولكنه في الواقع لم يكن يعرف شيئًا عن هذه الزيارة[1390]. وعندما نشرت جريدة نيو ريبابليك New Republic تقريرًا مثيرًا عن مقابلة برلين بأخماتوفا، اعتمل في داخله غضبٌ شديد[1391].

وكان سيغضب برلينُ أكثر إذا عرف أن الكاتب، مايكل ستريت، هو أحدُ طلبة كمبريدج، الذين أقنعهم أنتوني بلونت بالتجسُّس لصالح السوفييت. بعد ثلاثة أعوام، في أغسطس عام 1956، عندما عاد برلين إلى روسيا أبلغته أخماتوفا، عبْر باسترناك، بأنها لا تريد مقابلته لأن ابنها - الذي أُطْلِقَ سراحُه مؤخرًا - سيعاني، ولو أنهما (بشكل غير منطقي نوعًا ما) تحدَّثا مرة واحدة بالتليفون. لم تكن الظروفُ مواتيةً، لأن برلين قد تزوَّج مؤخرًا، ومن الواضح أن هذا الخبر جاء بمثابة الصدمة لشاعرة رومانسية عريقة[1392].

بعد تسع سنوات، زارتْ أخماتوفا جامعةَ أكسفورد للاحتفال بمَنْحها شهادة فخرية، وكانت زيارتُها مفعمةً بمشاعرِ الأسى. وقالت أخماتوفا بكل جدية لبرلين إن لقاءهما - الذي أغضب ستالين جدًّا - قد «افتتح الحرب الباردة Cold War، فغَيَّرَ تاريخَ البشرية». لم يتجادل برلين - وهو ليس بعاشقٍ مواجهةٍ - مع امرأة نصف محطَّمة ومتقدِّمة في العمر[1393].

لقد أخْلَصَ برلينُ طول الوقت للروح الأصلية في جمعيَّتيْ نِقَاش وبلومزبري، التي خانتها شِلَّةُ مُعاصريه البذيئة في كمبريدج، رغم عدم انتمائه إلى هاتين الشبكتين.



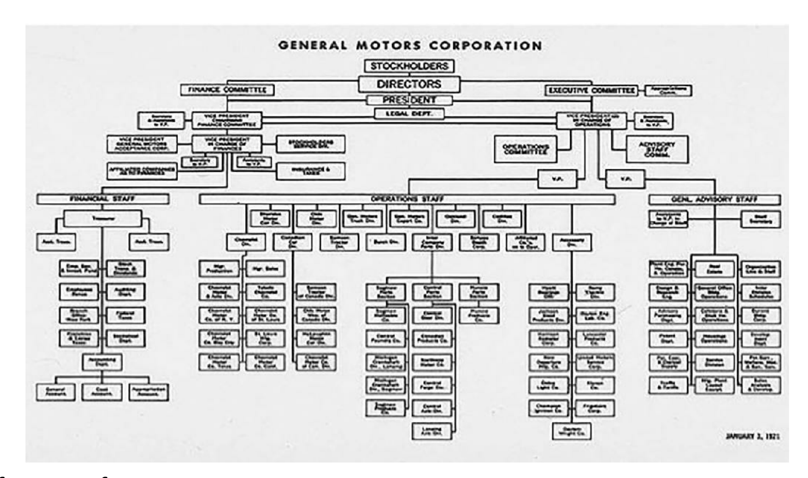

الشكل: 26 - التنظيم السوفييتي للعلوم في ظل حُكْم ستالين («منظومة البحث في أكاديمية العلوم باتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية»).

كان منتصفُ القرن العشرين ذروةَ التسلسل الهَرَمي. ورغم انتهاء الحرب العالمية الأولى بانهيار ما لا يقل عن أربع سُلالات إمبراطورية عظمى - آل رومانوف Ro، آل هابْسبورج Habsburg وآل هُوهِنْزولرن Hohenzollern، آل عثمان Ottoman - فقد حلَّتْ محلَّها على الفور «دولٌ إمبراطوريةٌ» empire states جديدة وأقوى جَمَعَتْ بين اتساع الإمبراطورية والإصرار على التجانس العِرْقي اللغوي والأوتوقراطية [حُكْم الفرد المطلق] autocracy. لقد شهدت ثلاثينياتُ القرن العشرين وأربعينياتُه صعودَ أشد الدول مركزيةً وسيطرةً (الاتحاد السوفييتي في عهد ستالين، وهتلر الرايخ الثالث، وجمهورية ماوتسي تونج Mao Zedong الشعبية)؛ بل نمت الدول الديمقراطية العظمى أيضًا بطريقة أكثر مركزيةً من حيث هياكلها الإدارية، استجابةً للكساد وبداية صراع عالمي آخر.

وأدَّت الصراعاتُ المُرَكَّبة بين عاميْ 1939 و1945، التي أسميناها الحرب العالمية الثانية، إلى تعبئة غير مسبوقة للشباب. ففي جميع أنحاء اليابسة الأوراسية وأمريكا الشمالية وأستراليا، تَلقَّى الذكورُ من سن المراهقة إلى سن الثلاثين أوامرَ استدعاء للتجنيد في القوات المسلحة. أكثر من 110 مليون شخص خدموا في القوات العسكرية للدول المُتحارِبة، كل الذكور تقريبًا. ومع انتهاء الحرب، كان رُبْع القوى العاملة البريطانية يرتدي الزيَّ الرسمي، و18% من القوى العاملة الأمريكية و16% من القوى العاملة السوفييتية. نِسَبٌ كبيرة من هذه الجيوش الهائلة لم تعد إلى البيت [الوطن]. كان إجمالي القتلى من العسكريين في الحرب العالمية الثانية حوالي 30 مليون (وعدد القتلى من المدنيين كان أعلى). جندي من كل أربعة جنود ألمان فَقَدَ حياتَه؛ وكان معدَّلُ القتلى في الجيش الأحمر Red Army مرتفعًا. هكذا، قاد زمَّارو أوربا المُبَهْرَجون جيلاً من الشباب اليافع إلى حَتْفِه.

ولكن الجيوش لم تكن وحدها أكبر التنظيمات الهَرَميَّة في أواسط القرن العشرين، بل هيمنت التسلسلاتُ الهَرَميَّة أيضًا في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. المُخطِّطون المركزيون حَكَموا، سواء عملوا في الحكومات أو الشركات الكبرى، وسواء كانت مهمتهم التدمير [والهدم] أم الإنتاج [والبناء]. في الولايات المتحدة، حدَّدَ ألفريد سلونsloan Alfred[1394] رئيسُ مجلس إدارة شركة جنرال موتورز General Motors نموذجَ الشركة متعددة الأقسام[1395] M - form corporation، الذي صار بسرعة كبيرة قالبًا لتنظيم الشركات في جميع أنحاء العالم المتقدِّم

(انظر الشكل 27).




الشكل رقم: 27 - «دراسة تنظيمية» لشركة جنرال موتورز، أعدَّها ألفريد سلون.

وقد أُعِيدَ تشكيلُ النظام الدولي بشكل هَرَمي أيضًا في أعقاب الحرب العالمية الثانية. فمن الناحية النظرية، تمتعت كل الدول القومية بتمثيل متساوٍ في الأمم المتحدة United Nations. ومن الناحية العملية، بَرَزَ نظامان للتحالف العسكري، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، بوصفهما عضويْن مُهَيْمِنَيْن. وجلس معهما في مجلس الأمن UN Security Council ثلاثةٌ منتصرون آخرون في الحرب: بريطانيا، والصين، و(بشكل لا يُصدَّقُ) فرنسا التي كانت أولى الأراضي التي احتلتها دولُ المحور Axis powers. ورغم أن الحرب الباردة جعلت مجلسَ الأمن طريقًا مسدودًا - أو «غرفةً مظلمة بلا رؤية»، كما أطلق عليه ديبلوماسيٌّ فنزويليٌّ بشكل لا يُنْسَى - فقد طُبِّقَ قالبُ فيينا[1396] من حيث المبدأ، ونشأ اتحادٌ خُمَاسي جديد يتكون من خَمْس قوى عظمى.

وبدا طبيعيًا أن ينقل الرجالُ الذين قاتلوا في الحربين العالميتين بعضَ أساليب العمليات التي تعلموها، وهم بالزيِّ العسكري، إلى الحياة المدنية. ولكن خبرة الحرب التقليدية واسعة النطاق لا تُقدِّم تفسيرًا كافيًا للأبنية التي تبدأ من الأعلى إلى الأسفلِ في العديد من تنظيمات أواسط القرن العشرين. فثمة أيضًا ظرفٌ تكنولوجي فضَّلَ السيطرةَ من أعلى. كان الكاتب الفييني الساخر كارل كراوس Karl Kraus على حقٍّ في إشارته إلى أن تكنولوجيا الاتصالات في منتصف القرن العشرين أفادت التسلسلاتِ الهَرَميَّةَ إفادةً كبيرة. فرغم أن الهاتف والإذاعة خلقا دون ريب شبكات جديدة هائلة، فقد كانت شبكاتٍ مُهَيْكَلةً بنظام البنية ذات المحور والفروع hub - spoke structure التي يَسْهُلُ نسبيًا قطعها أو اختراقها أو السيطرة عليها. فكالجرائد والسينما والتلفزيون، لم يكن الراديو تكنولوجيا شبكية حقيقية، لأنه ينطوي بوجه عام على اتصال أحادي الاتجاه:

مِن مُزوِّدٍ بالمحتوى إلى المستمع. أما مَن استخدموا تكنولوجيا لاسلكية للتحدُّث

فقد اعْتُبِروا بوجه عام كَرَنْكات cranks (هُواة الأثير radio hams)[[1397]]؛ إذ لم تكن التكنولوجيا ناجحةً تجاريًا. ولسبب وجيه، وَصَفَ جوزيف جُوبِلز الراديو بأنه «سلاح الدولة التوتاليتارية الروحي». وأضاف ستالين قائلاً إن التليفونَ هديةُ الله للمتنصِّتين.

من المهم ملاحظة أن هذه التكنولوجيات أعارت نفسَها أيضًا للسيطرة الاجتماعية في المجتمعات الأكثر حريةً. ففي الولايات المتحدة - التي أُطلِقَتْ فيها الاتصالاتُ فية العابرة للقارات يوم 25 يناير عام 1915[1398] - سرعان ما أصبح نظامُ الهاتف تحتَ سيطرة الاحتكار الوطني عبر شركة ثيودور فايل «التليفون والتلغراف الأمريكي» Theodore Vail's AT & T[1399]. ورغم بقاء شبكة الولايات المتحدة الأمريكية (المعروفة باسم «نظام بيل» Bell System، على اسم المخترع ألكسندر جراهام بـ يـ ل Alexander Graham Bell المولود في إدنبرة) غير مركزية بدرجة كبيرة من حيث الاستخدام (في عام 1935، أقل من 1.5% من المكالمات الهاتفية عبرت خطَّ دولة واحدة)، فقد كانت من حيث المِلْكية والتوحيد القياسي التكنولوجي [المعايرة التكنولوجية] نظامًا واحدًا وحيدًا[1400].

أعلن فايل قائلاً إن «التنافس يعني صراعًا وحربًا صناعية؛ يعني خلافًا ونزاعًا»[1401]. وتمثلت رؤيتُه في الآتي: «نظام سِلْكي عالمي لنقل المعلومات كهربيًا (اتصالات مكتوبة أو شخصية)، من كل شخص في كل مكان إلى كل شخص في كل مكان آخر، نظام عالمي واسع النطاق كنظام الطرق السريعة الذي يمتد من باب كل شخص إلى باب كل شخص آخر»[1402]. وقد تعرَّضَ فايل بكل سهولة لإشراف حكومي على الشبكة - لأنه كان مُعاديًا لأي ابتكار [وتجديد] يأتي من خارج احتكاره المطلق[1403]. بدأ التنصُّت على الهاتف - وهو أمر يتيحه بكل بساطة أيُّ نظامٍ يعمل وَفْقَ نظام تبديل الدائرة الكهربية - في تسعينيات القرن التاسع عشر، وحَكَمَتْ بدستوريته المحكمةُ العليا Supreme Court في قضية مُهرِّب مدينة سياتل روي أولمستيد[[1404]] Roy Olmstead، الذي أُدِين بأدلة أفاد بها التنصُّتُ على خطِّ التليفون. ولهذا سوابقه. ففي عام 1865، رُخِّصَ لخدمة البريد في الولايات المتحدة الأمريكية مصادرة مواد فاحشة [داعرة]، وبطبيعة الحال لا يمكن اكتشافها إلا بفتح البريد الخاص. وتَوصَّلت المخابرات العسكرية الأمريكية إلى اتفاق مع ويسترن يونيون Western Union لاعتراض البرقيات المشتبه فيها في عشرينيات القرن العشرين، رغم رفْضِ وزير الخارجية هنري

ستيمسن
Stimson L. Henry،
في عام 1929، قراءة ما تم اعتراضه من الكابلات العسكرية اليابانية، استنادًا إلى أسسِ نزاهةٍ عتيقة، صاغها على النحو الآتي:

«لا يقرأ السادةُ الأفاضل [الرجالُ المحترمون] بريدَ بعضهم البعض». بيرل هاربور[1405] Pearl Harbor وكل ما تلاه جَرَفَ مثل هذه الوساوس في غياهب النسيان.

وأَجْرَتْ وكالةُ الأمن القومي National Security Agency، التي أُنْشِئتْ في عام 1952، تمشيطات واسعة النطاق لحركة تلغراف الولايات المتحدة الأمريكية، في محاولة منها للقبض على جواسيس سوفييت. وفي الوقت نفسه، كان لمكتب التحقيقات الفيدرالي Federal Bureau of Investigation، بقيادة إدجار هوفر J.

Hoover Edgar، مطلق الحريةِ في التنصُّت على خطوط التليفون. مثلاً، في يوم 19 أكتوبر عام 1963، أَذِنَ المحامي العام [النائب العام] روبرت كينيدي
Robert F.

Kennedy
لمكتب التحقيقات الفيدرالي [إف بي آي] ببدء التنصُّت على خطوط تليفون القس مارتن لوثر كينج، الابن[1406]، Rev. Martin Luther King, Jr.، في منزله ومكتبه، وهو برنامج مراقبة استمر حتى يونيو عام 1966[1407].

لم تكن الإذاعة مركزية تمامًا على هذا النحو، ويرجع الفضل في ذلك جزئيًا إلى مقاومة هربرت هوفر Herbert Hoover للسيطرة الفيدرالية على موجات الأثير أثناء عهده بوصفه وزيرًا للتجارة. مَنَحَ قانونُ البثِّ الإذاعي Radio Act لعام 1927 مفوضيةَ الإذاعة الفيدرالية Federal Radio Commission (FRC) السلطةَ لتقسيم الأثير وتحديد الأطوال الموجية ومستويات طاقة البثِّ ومواقعه وعدد ساعاته لمَن يريدون الحصول على تراخيص تشغيل محطات إذاعية[1408].

وبعد سبع سنوات، تولَّى كيانٌ جديد، هو مفوضية الاتصالات الفيدرالية Federal Communications Commission، هذا الدورَ. منذ تلك اللحظة

فصاعدًا، مُنِحَت التراخيصُ لمدة ثلاث سنوات، وتمكّن المذيعون من إقناع المفوضية الجديدة بأن محطتهم ستقوم بدور «الملاءمة العامة أو المصلحة العامة أو الضرورة العامة»، وهي المعايير التي لم تكن تنطبق على الجرائد. ونتيجة لذلك، قُيِّدَتْ حريةُ الكلام على الهواء تقييدًا كبيرًا بوَسَاطة المُنظِّمين والمصالح التجارية (لأهمية الإعلانات بوصفها مصدرًا للإيرادات)[1409].

ورغم تخوُّف مفكرين عديدين من أنْ تُطوِّرَ الولاياتُ المتحدةِ ميولاً شمولية [توتاليتارية] في أوائل حقبة الحرب الباردة، فقد وُجِدَ بالطبع فرقٌ كبير بين الحياة الأمريكية والحياة السوفييتية. إذ تمتع المواطنون الأمريكيون البيض بكل الحقوق المدنية والسياسية التي كفلها الدستور، فأمكنهم تحدِّي تدخُّلات الحكومة في المحاكم إذا أرادوا ذلك. وأما بالنسبة إلى العديد من الأمريكيين السود، فكانت مزايا الحياة في الولايات المتحدة الأمريكية USA، مقارنةً بالحياة في الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية USSR، أقلَّ وضوحًا، وهي نقطة لعبت عليها الدعايةُ السوفييتية بأسلوب نفاقي. فكانت النتيجةُ المباشرة [الطبيعية] للانسياق الاجتماعي، في أواخر أربعينيات القرن العشرين وخمسينياته وبواكير ستينياته، تمييزًا عنصريًا ذا طابع مؤسَّسي. لذلك، كان الأمريكيون من أصل أفريقي أكثرَ عُرْضَةً [من غيرهم] للوقوع في مخالفة نظام العقوبات، كما هو الحال الآن.

وربما يكفي مثال واحد لإيضاح هذه النقطة. في يوم 10 أبريل عام 1933، أصدر جورج دبليو سميث George W. Smyth، قاضي مقاطعة ويستشستر Westches، حُكْمًا على فتاة «ملوَّنة» تبلغ من العمر 15 عامًا تُسمَّى إيلَا فيتزجيرالد Ella Fitzgerald بالإيداع في مدرسة تأهيل الفتيات بولاية نيويورك New York State Training School for Girls الواقعة في هُدْسن Hudson، بولاية نيويورك، لأن إيلا «عنيدة ولا تطيع أوامرَ أمِّها العادلة والقانونية». ولم تكن المؤسَّسةُ مريحةً. وعندما ابتكر يعقوب مورينو Jacob Moreno أول «سوسيوجرام» عام 1933، ساعد على تفسير كثرة الهاربات من المدرسة (انظر المقدمة). فحتى نظرية الشبكة، في ثلاثينيات القرن العشرين، البانوبتيكون [panopticon[1410 ولحُسْن الحظِّ، هربت إيلا إلى مانهاتن Manhattan وصارت نجمةً في مجال الغناء. أما نظراؤها الروسيات فكُنَّ يُعامَلْنَ بوحشية أكبر.

لقد اشتهر المجتمع الأمريكي في القرن التاسع عشر بثراء حياته الجَمْعيَّاتية حقًا. بل فَهِمَ أليكسيس دي توكفيل ذلك بوصفه أحد أسس نجاح البلد ونجاح الديمقراطية، كما ذكرنا آنفًا. ولكن السهولة التي تشكَّلَتْ بها الشبكاتُ الاجتماعية في الولايات المتحدة خلقت ثغراتٍ استغلَّتها - بلا تباطؤ - شبكةٌ أجنبية وَفَدَتْ إلى البلاد أثناء تدفُّق المهاجرين الكبير من جنوب إيطاليا في أواخر القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين: شبكة المافيا Mafia. وقد صُوِّرتْ هذه

العمليةُ بشكل ساحر في رواية ماريو بوزو[1411] Mario Puzo «العَرَّاب» [الأب الروحي] The Godfather،

والأفلام المستندة إليها. لم يكن الفيلم خياليًا تمامًا، بكل تأكيد[1412].

فقد وُجِدَتْ بالفعل «خَمْسُ عائلات» سيطرت على الكثير من لَعِب القمار والقروض بفوائد فاحشة، وحماية التهريب، والتهريب في النطاق الحَضَري لولاية نيويورك (أثناء الحَظْر Prohibition). ترجع أصولُ هذه العائلات إلى جماعات المهاجرين من جنوب إيطاليا الذين استقروا في ليتل إيطالي Little Italy عند الطرف الشرقي الأدنى وشرق هارلم Harlem في ولاية مانهاتن Manhattan. استندت شخصية فيتو كورليوني Vito Corleone الأدبية، بقدرٍ، إلى فرانك كوستيلو Frank Costello (المولود في فرانسيسكو كاستيجليا Francesco Castiglia) كبير عائلة لوتشيانو/جينوفيز Luciano/Genovese، وبقدرٍ آخر إلى كارلو جامبينو Carlo Gambino كبير عائلة جامبينو Gambino.

ومن الواضح أن المطرب جوني فونتاني Johnny Fontane كان هو فرانك سيناترا Frank Sinatra. استندت العصاباتُ اليهودية أيضًا إلى شخصيات حقيقية: فاستندت شخصية مُشغِّل كازينو لاس فيجاس Las Vegas الشرس مو جريني Moe Greene إلى بنيامين سيجال الملقَّب ب«باجسي» «Bugsy» Benjamin Siegal، واستند العقل المدبِّر هايمان روث Hyman Roth إلى ماير لانسكي Meyer Lansky. لم يُبالِغْ بوزو [مؤلِّف الرواية] كثيرًا في اتساع نفوذ المافيا في الولايات المتحدة. فقبل الحرب العالمية الثانية، كَوَّنَ لانسكي وسيجال «اللجنةَ» The Commission مع سالفاتور لوتشيانو الملقَّب ب«لاكي» Salvatore «lucky» Luciano في محاولة لفرض نوع من الحُكْم المركزي على العائلات الخَمْس في نيويورك، بل وعلى الجريمة المنظَّمة في جميع أنحاء أمريكا أيضًا. انتهى عهد لوتشيانو بشكل مؤثِّر عام 1936، عندما قُبِضَ عليه ونَجَحَ النائبُ العام (ولاحقًا الحاكم) توماس ديوي Thomas E. Dewey في مقاضاته بتهمة تشغيل أعمال الدعارة. ولكن سرعان ما احتلَّ مكانَه كوستيلو. وبحلول خمسينيات القرن العشرين، شاركت عائلاتُ مافيا عديدة أيضًا في أعمال مشروعة بدءًا من الترفيه إلى الكازينوهات في كوبا ما قبل الثورة، كما شاركت في العمل المنظَّم والسياسة.

فعلى سبيل المثال، لجأت حملةُ جون كينيدي John F. Kennedy إلى طلب مساعدة المافيا لهزيمة ريتشارد نيكسون في عام 1960، بل تَشَارَكَ كينيدي مع رجل عصابة شيكاغو سام جيانكانا Sam Giancana في عشيقة واحدة هي جوديث كامبل إكسنر Judith Campbell Exner. وبين أغسطس عام 1960 وأبريل عام 1961، سعت وكالةُ المخابرات المركزية CIA إلى اغتيال فيدل كاسترو Fidel Castro باستخدام رجال مافيا ماهرين في القنص.

(وليس من الراجح مسؤولية المافيا عن اغتيال كينيدي، وهي نظرية مؤامرة أثبتت مقاومةً كبيرة لكل من التحقيق الرسمي والفحص العلمي الدقيق. ولحُسْن الحظِّ، قَاوَمَ بوزو غوايةَ إدراجها في روايته).

ومع ذلك، وُجِدَ ميلٌ إلى المبالغة في رُقِيِّ المافيا تنظيميًا، وعلى وجه التحديد لقِلَّة وجود مستندات موثوقة حول عملياتها، ناهيك عن قِلَّة أعضاء المافيا الذين انتهكوا قانون الصمت omertà (الذي يُعَادِلُ «الرجولة» بمعناها التقليدي)، والذي يحظر على الأعضاء خيانةَ زملائهم وإفشاء الأسرار للسلطات حتى عند تعرُّضِهم لآلام الموت. في عام 1963، كشف جوزيف فالاتشي Joseph Valachi عن أن الأعضاء لا يُفَضِّلون الحديثَ عن المافيا بل عن كوزا نوسترا Cosa Nostra - «شيئنا» [أمْرنا] our thing - عندما أدْلَى بشهادته أمام لجنة التحقيقات الفرعية الدائمة المنبثقة عن لجنة تحقيقات مجلس الشيوخ الخاصة بالشؤون الحكومية Permanent Subcommittee on Investigations of the Senate Committee on Government
.Operations
ثم بعد واحد وعشرين عامًا، وَصَفَ المخبرُ الإيطالي البرازيلي توماسو بوشيتا Tommaso Buscetta للنيابة العامة الأمريكية البنيةَ الهَرَمِيَّة في عائلة مافيا نموذجية: الرئيس في القمة (رب البيت [كبير العائلة] capofamiglia أو مُمَثِّلها ووكيلها rappresentante)، ويأتي تحته مباشرة الذراعُ الأيمن [كابو باستوني] capo basto أو [سوتو كابو] sotto capo، يليه مَن يُقدِّمون المشورةَ للزعيم، واحد أو أكثر من المستشارين (المستشار consigliere).

أما الدرجات الأدنى فنُظِّمَتْ في صورة مجموعات، تتألف كل مجموعة من عشرة جنود (soldati, operai or picciotti) [ديسينا] (decina)، يقود كلاً منها رئيسُ العَشرة [كابوديسينا] capodecina. أما جيوفاني بروسكا Giovanni Brusca عضو المافيا الصقلية الملقَّب ب«إيل بوركو» Il Porco، الذي قَتَلَ النائبَ العام المناهض للمافيا جيوفاني فالكوني Giovanni Falcone في عام 1992، فقد أدْلَى بشهادته بعد القبض عليه في عام 1996، فوَصَفَ طقوسَ انضمامه إلى المافيا في عام 1976. دُعِي بروسكا إلى «وليمة» في منزل ريفي، وفي مواجهته جلس سبعةُ أعضاء من المافيا حول مائدة عليها طبنجة وخنجر وصورة قديس. وبعد أن أكَّدَ بروسكا التزامَه بحياة الجريمة، وَخَزَ أكبرُ الأعضاء السبعة إصبعَه بإبرة وطلب منه أن يُلَطِّخَ صورةَ القديس بدمه، ثم أشعل فيها النار قائلاً: «إذا خُنْتَ كوزا نوسترا [أمْرَنا]، فسيحترق لحمُك مثل هذا القديس». أمثالُ هذه القصص رائعةٌ بلا شك، ولكن ما مدى مصداقيتها؟ أحد الاحتمالات أن هذه الأبنيةَ والطقوس حديثةٌ نسبيًا، هذا إنْ وُجِدَتْ أصلاً.

المافيا في الأصل ثقافةٌ أو طريقةُ حياةٍ، نشأت من خصوصيات التاريخ الصَّقلي. والكلمة مشتقة من الصفة مافيوزو mafiusu (التي تعني التفاخر العدواني أو

التبجُّح)، ويدور حول أصل الكلمة نقاشٌ غير محسوم منذ فترة طويلة (ولعل أصلها عربي، من بقايا الحُكْم الإسلامي). اسْتُعْمِلَت الكلمةُ في عام 1865 عنوانًا في مسرحية مغمورة هي I mafiusi dila Vicaria (The Mafiosi of the Vicaria)، ثم استعملها بشكل رسمي للمرة الأولى الأرستقراطيُّ التوسكاني الكونت فيليبو جوالتيريو Count Filippo Gualterio بعد عامين.

لكن التعبير الذي يُفَضِّلُ الصقليون استعمالَه هو «الجمعيّة الفَخْرية» (Onorata Società the Honoured Society). وقد وَصَفَ المؤرِّخ دييجو جامبيتا Diego Gambetta هذه الجمعية بأنها، في جوهرها، «تكتل احتكاري [كارتل] cartel يتكوَّن من شركات الحماية الخاصة»[1413].

نشأ أواخر القرن التاسع عشر عقب اندماج صقلية في مملكة إيطاليا - في الواقع إمبراطورية بيمونتي [أو بيمونتيسي] Piedmontese empire - في وقتٍ لم تكن توجد فيه قواتُ شرطة، فاعتمد مُلاك الأراضي على جيوش خاصة لحماية ممتلكاتهم ومحاصيلهم. ثم تطوَّرت [هذه الجيوش الصغيرة] إلى نظام عام لتنفيذ العقود المُبْرَمة، مع إقرار القتل بوصفه عقوبة لأي انتهاك للعقود المتفق عليها. ثم نشأت «جمعياتٌ» [تنظيمات] مماثلة في جميع أنحاء جنوب إيطاليا: تنظيم كامورا[1414] Camorra، الذي يعمل في إقليم كامبانيا Campania، تنظيم نِدْرانجيتا[1415] Ndrangheta في كالابريا Calabria، وساكرا كورونا يونيتا[1416] Sacra Corona Unita في إقليم بوليا Apulia.
ويكشف الفقر المستقرُّ في هذه المناطق عن أن هذه التنظيمات ليست القواعد الأمثل للنظام الاجتماعي.

ولكن إطلاق صفة «تنظيمات» عليها قد يكون مضلِّلاً. يؤكِّدُ المؤرِّخ والسياسي باسكوالي فيلاري Pasquale Villari، من نابولي، في كتابه «رسائل جنوبية» Lettere Meridi المنشور في منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر، قائلاً: «ليس لدى المافيا مبادئ مكتوبة، فهي ليست جمعية سرِّية، بل تَآلُفًا تَشَكَّلَ بتَوَلُّدٍ عَفْوي»[1417]. وبهذه العَفْوية التي كانت عليها المافيا في صقلية ثَبَتَ أنه من السهل نسبيًا التخلص منها أثناء فترة الحُكْم الفاشي عندما كان سيزار موري Cesare Mori هو «الحاكم الحديدي» Iron Perfect لباليرمو Palermo (1925 - 1929)[1418].

وبعد سقوط صقلية في يد الحلفاء صيف عام 1943، قيل إن حكومة الحلفاء

العسكرية Allied Military Government تآمرت - بطريقة ما - مع المافيا لاستعادة سلطتها القديمة على الجزيرة، ولعب «لاكي» لوتشيانو دورَ الوسيط في هذه العملية. أقوال من هذا القبيل لا أساس لها من الصحة.

الحقيقة أن ضبَّاط الحلفاء قدَّموا تقييمات عالية ثاقبة النظر لثقافة الإجرام حين واجهوها، حيث عاودت الظهور من مكان اختبائها نفسه أثناء حُكْم موسوليني. وعلى سبيل المثال، في أكتوبر عام 1943 قال نائب القنصل الأمريكي في باليرمو الكابتن سكوتن Capt. W. E. Scotten: ليست المافيا كيانًا مركزي التنظيم، بل هي أقرب إلى شبكة، يرتبط أفرادُها معًا بميثاق الشرف والسرّية. كَتَبَ سكوتن يقول: «نادرًا ما توصف المافيا بأنها تنظيم هيكلي يتسلسل فيه القادةُ هَرَميًّا»:

[المافيا] تنظيم أفقي أكثر منه رأسيٌّ. المافيا تَحالُفُ مجرمين، والرابطُ المشترك بينهم مصلحتُهم المتبادلة في إحباط أي تدخُّل من السلطات. [المافيا] مؤامرة ضد قوات القانون تتخذ شكلها الأساسي من خلال مؤامرة الصمت المعروفة باسم أوميرتا [قانون الصمت] omertà، قانون مفروض على ضحاياه، وعلى عامة الناس الذين أُجْبِروا من ثمَّ على أن يكونوا متواطئين بالإكراه. المافيا هي - بمعنى ما - أكثر من تحالف، فهي نظام اجتماعي وطريقة حياة ومهنة أيضًا. ولذا، تكمن الصعوبة، من وجهة نظر الشرطة، في طبيعة المافيا الخاصة نفسها. فإذا كانت تنظيمًا هيكليًا، فسيؤدي التخلص التدريجي من قادتها، من الأعلى إلى أسفل، إلى انهيارها»[1419].

وبينما كافحت قوات الاحتلال للتعامل مع المشكلات الإدارية الهائلة في مرحلة ما بعد الفاشية، وصقلية ما بعد الصراع، واجه مسؤولون من أمثال سكوتن واقعًا مريرًا: فقد افتقروا إلى الموارد اللازمة للتخلص من هذه الثقافة الغريبة والعنيفة. بل تَطلَّبَ الأمرُ منهم التعايشَ معها نسبيًا من أجل استعادة نظامٍ في الجزيرة من أيِّ نوع كان. ولدى الكاتب البريطاني نورمان لِويس Norman Lewis انطباعات مماثلة[1420].

ظهر نشاط المافيا في المدن الأمريكية، من عشرينيات القرن العشرين حتى ستينياته. ورغم تغطية الصحف الملتهبة ل«تنظيم القتل»، كانت العائلاتُ التي صُوِّرتْ في رواية «الأب الروحي» [العَرَّاب] أقربَ إلى أصولها الصقلية من حيث الممارسة، بمعنى أن أنشطتها لامركزية نسبيًا. فلم يوجد قائدٌ لجميع القادة capo de tutti capi. وبمجرد أن حاولت عائلات المافيا إضفاء طابع هيكلي على نظامها، فقد فعلت ذلك بالطريقة التي فهمها سكوتن بالضبط.

كانت الفترةُ الزمنية التي صَوَّرَتْها رواية «الأب الروحي»، بهذا المعنى، فترةَ الغطرسة، عندما حاولت الجريمة المنظمة أن تكون أكثرَ تنظيمًا وأقلَّ إجرامًا في

آنٍ معًا. ثم حين أصبح قانونُ المنظمات الفاسدة التي تمارس الابتزاز Racketeer Influenced and Corrupt Organizations Act (المعروف اختصارًا بقانون ريكو RICO Act)[1421] قانونًا ساريًا في عام 1970، انهارت المافيا الأمريكية بسهولة لافتة. ففي غضون ثمانينيات القرن العشرين، أُدين ثلاثةٌ وعشرون زعيمًا من جميع أنحاء البلاد، ومعهم ثلاثة عشر من مساعديهم وثلاثةٌ وأربعون قائد مجموعة. لقد وقعت الشبكة في خطأ قاتل حين صُوِّرَ تسلسلُها الهَرَمي في الأفلام.

وفي الوقت الذي ازدهرت فيه شبكاتٌ غير قانونية واخترقت النُّخْبةَ السياسية الأمريكية، تعرَّضت الشبكاتُ القانونية تمامًا للمضايقة من السلطات. حين بدأ الأمريكيون السود حملتَهم من أجل الحصول على حقوق مدنية متساوية، واجهوا مستويات قمع قانوني مروِّعة، بل وخارج القانون. لقد نبعت حركة الحقوق المدنية من قلب الكنائس السوداء والمجامع السوداء والفروع الجنوبية ل الجمعية الوطنية للنهوض بالمُلوَّنين National Association for the Advancement of Colored People التي تأسَّست عام 1909[1422].

هذه الجذور المؤسَّسية العميقة، على وجه التحديد، هي التي جعلت من الصعب إيقاف الحركة. إذ تتم صيانة هذه الشبكات وتجديدها كل يوم أحد. قال مارتن لوثر كينج: «الفترات التي كُنَّا ندعو فيها إلى اجتماعات جماهيرية، حين كُنَّا نطلب متطوعين، تشبه شبهًا كبيرًا تلك الفترات التي كان يدعو فيها راعي الكنيسة [القس] الحاضرين كي ينضموا إلى الكنيسة صباح كل أحد في كنائس الزنوج. فكان يَفِدُ الناسُ للانضمام إلى جيشنا بالعشرين والثلاثين والأربعين شخصًا»[1423].

وأما التنصُّتُ على هاتف مارتن لوثر كينج المنزلي فكان مجردَ جزء بسيط من حملة مستمرة لعَرْقلة حركة الحقوق المدنية ودَحْرِها. ولكن هذه الحملة فشلت في النهاية. وفي المقابل، ناضل الأمريكيون البِيض في هذه الفترة [نفسها] لتنظيم الاحتجاجات، كما يتضح ذلك من مظاهرات ضريبة الممتلكات عام 1957 في ولاية لوس أنجلوس Los Angeles.

فرغم انتشار استياء عام من الضرائب الأعلى المفروضة هذا العام، تلاشت حملة المُعارَضة، بسبب افتقار ضواحي لوس أنجلوس إلى نوعية الشبكات الاجتماعية والقيادة التي انبثقت من كنائس السود في الجنوب[1424].

ولم يفقد الأمريكيون رغبتَهم في التواصل الشبكي. فقد شهد منتصف القرن صعود إحدى أنجح الشبكات الاجتماعية في التاريخ الأمريكي: شبكةُ مساعدةٍ ذاتيةٍ للسَّكَارى، هي «مُدْمِنو الخمر المجهولون» Alcoholics Anonymous (AA)). أسَّسها في أكرون Akron بولاية أوهايو Ohio عام 1935 سمسارُ بورصة نيويوركي يُدْعَى ويليام ويلسن William Wilson (الشهير ب«بِلْ دبليو» Bill W.)، وطبيب أكرون روبرت سميث Robert Smith («الدكتور بوب» Dr Bob)، قدَّمَتْ شبكةُ مُدْمِني الخمر مسارًا من اثنتي عشرة خطوة للعودة إلى الاعتدال، ولكن قوتها الحقيقية تكمن في نتائج الشبكة العلاجية عبر اجتماعات منتظمة يعترف فيها المُجتمِعون بتجاربهم في الإدمان ويتشاركون الخبرات[1425].

ومع أن اللقاء الأول بين ويلسن Wilson وإبِّي ثاكر Ebby Thacher، وهو مُدْمِن خمر آخر، لم يكن على درجة الأهمية الثقافية للقاء إشَعْيَاء برلين وآنا أخماتوفا، فقد كان الحافَّةَ الأولى فيما سيصبح بعد ذلك شبكةً عالمية[[1426]].

يقول ويلسن: «بدأت أفكاري تتسابق، كلما تخيَّلتُ سلسلةَ ردود الفعل بين مدمني الخمر، أحدهم ينقل هذه الرسالة وهذه المبادئ إلى الذي يليه»[1427].

الميزة اللافتة في شبكة مدمني الخمر المجهولين AA كانت، ولا تزال، طابعَها شِبْه الديني وغير السياسي تمامًا. (الشبكةُ في الواقع ثمرةُ مجموعة أكسفورد Oxford Group المسيحية الإنجيلية). ولو أن أي شخص أبلغ إدجار هوفر[[1428]] J. Edgar Hoover بأن إدمانَ الكحول مرتبطٌ بطريقة ما بالشيوعية، لَكانت وُضِعَتْ اجتماعاتُ مُدْمِني الخمر المجهولين تحت المراقبة على الفور. وفي الواقع، مالت مجموعاتُ [شبكة] مُدْمِني الخمر المجهولين الأقدم إلى استبعاد الأشخاص غير المحترمين اجتماعيًا بغضِّ النظر عن إدمانهم، بمَن فيهم (كما ذَكَرَ ويلسن ساخرًا) «المتسوِّلون والمتشرِّدون ونزلاء الملاجئ والمسجونون والشواذّ وغريبو الأطوار، والنساء الساقطات». وحتى عام 1949 لم تحسم المنظمةُ مسألةَ قبول أي شخص يُعْرِبُ عن «رغبته في التوقُّف عن الشُّرْب»، بغضِّ النظر عن العوامل الأخرى[1429].

لقد كانت أمراضُ الدول التوتاليتارية، شأنها شأن السمات الاستبدادية الأكثر اعتدالاً الناشئة في [دول] ديمقراطيات العصر نفسه، حافزًا على إساءة استخدام الكحول. لم يكن جواسيس كمبريدج هم فقط الذين يشربون الخَمْر كالسمك. فإنسانُ أواسط القرن العشرين، الساقطُ في فِخاخ سلاسل سيطرة هَرَمِيَّة غير متسامحة، والخائفُ من الانضمام إلى شبكات اجتماعية قد تُفَسَّرُ بأنها تخريبية - هذا الإنسانُ لم يجد عزاءً ولا سلوى إلا في زجاجات الخمر. في روسيا

السوفييتية كان الدواءُ المُفَضَّلُ هو الفودكا. وفي ألمانيا النازية، حيث ضُحِّي بإنتاج الكحوليات من أجل إعادة التسلُّح، فُضِّلَتْ عقاراتٌ أغرب، مثل البيرفيتين Pervitin يتامين [1430]methamphetamineوالإيودوكال[1431] Eudokal (مشتق من المورفين (morphine[1432].

وفي الولايات المتحدة بعد الحظر، اسْتُهلِكَت المشروباتُ الروحية بكمّيات تبدو اليوم مذهلةً. أجيال ما بعد الحربين العالميتين دخَّنوا أيضًا التوباكو tobacco [التَّبْغ] بمعدلات انتحارية. ولكن العزاء الذي قدَّمته مثل هذه المُنبِّهات كان عابرًا.

في رواية ألدوس هكسلي «عالم جديد شجاع»[1433] Aldous Huxley's Brave (1932 World (New، حتى المخدِّرات تحكَّمتْ فيها الدولةُ الفوردية العالمية Fordist State World، بجانب كل شيء آخر، بدءًا من تحسين النسل وانتهاءً بالقتل الرحيم؛ فكان مصيرُ المُنْشَق برنارد ماركس Marx Bernard [في رواية هكسلي] الإبعادَ والنفي. وفي رواية أورويل «1984»[1434] Orwell's Nineteen Four - Eighty المنشورة عام 1949، لم تُتَحْ أدنى فرصة لنجاح وينستن سـ مـ يـ ث Smith Winston في تحدِّي حُكْم الأخ الكبير Brother Big الصارم لإيرستريب وان[1435] One Airstrip؛ فكان مصيرُه التعذيبَ وتعرُّضه لغسيل مخ.

على هذا النحو، سُحِقَ عددٌ كبيرٌ من أبطال الروايات في أواسط القرن العشرين، بدءًا من جون يوساريان في رواية جوزيف هيلر[1436] Joseph Heller's John Yossarian مرورًا بـ إيفان دينيسوفيتش في رواية ألكسندر سولجنيتسين[1437] Alexander Solzhenytsin's Denisovich Ivan، وانتهاءً بـ أليك ليماس في رواية جون لو كاريه[1438] John le Carré's Alec Leamas؛ وهي حالة الإدمان التي جَسَّدها على نحو لا يُنْسَى الممثلُ السينمائي، مدمن

الخمر، ريتشارِد بُرْتن[1439] Burton Richard.
إن ما بدأ بوصفه موجةَ أوبئةٍ أيديولوجية من صُنْع الإنسان انتهى إلى انتشار لأمراض قصور الكبد وأعطال رئوية [مُمِيتة].

# VII

# القسم السابع

# تملُّك الأحراش

تركت الإمبراطورياتُ الكبرى المنظَّمة هَرَميًّا، التي خاضت الحرب الباردة Cold War ضد بعضها البعض، مساحةً صغيرة لتكوين شبكات فيما بين مواطنيها، ما دامت شخصيتهم غير سياسية بالمرة. ولكن حربًا أخرى كانت تدور بعيدًا عن العاصمة الإمبريالية الأمِّ، حيث تَقِلُّ سيطرةُ المُخطِّط المركزي. ولم تكن هذه الحربُ العالمية الثالثة Third World War قتالاً برؤوس نووية تخترق طبقات الجو، بل بأسلحة شِبْه آلية في أحراشِ ما صار يُعْرَفُ بالعالم الثالث Third World. في تلك الأحراش البعيدة عن شبكات السكك الحديدية والطرق والتلغراف، حُرِمَتْ القوى العظمى من التحكم والسيطرة والاتصالات التي كانت تعتمد عليها.

وقد أدَّى انكشافُ محدودية قدرات الدول العظمى في بلاد نائية وفقيرة - أدَّى جدليًا إلى إبراز أزمةٍ في أبنيتها السياسية المحلية. فشهدت سبعينياتُ القرن العشرين وثمانينياته عودةَ الشبكات من جديد وانهيارًا في التسلسلات الهَرَميَّة، بَلَغَ ذروتَه في التفكُّك السريع للاتحاد السوفييتي وإمبراطوريته في أوربا الشرقية Eastern Europe. والحقيقة أن هذه الفترة نفسها التي شهدت مَوْلد الإنترنت Ir تثير احتمالاً مُغْريًا بأن التكنولوجيا أمالَتْ مرةً أخرى توازنَ القوى، هذه المرة على حساب الدولة التوتاليتارية وأذْرُعِها التسلُّطية. ولكن العملية التاريخية لم تكن، كما سنرى، خالصةً تمامًا هكذا. فبدلاً من كَوْن الإنترنت سببًا في أزمة أواخر القرن العشرين، يبدو أنه كان نتيجةَ انهيار السلطة الهَرَميَّة.

لقد ناقش مؤرِّخو الحرب الباردة منذ فترة طويلة سببَ بقائها باردةً؛ وبكلمات أخرى: لماذا لم تدخل الولايات المتحدة حربًا مع الاتحاد السوفييتي، كما دخلت المملكة المتحدة مع الرايخ الألماني حربًا مرتين؟ الإجابة الشائعة أن ظهور الأسلحة النووية أثار مخاطر عالية، فكان رجالُ الدولة في واشنطن وموسكو أكثرَ تجنُّبًا للمخاطر من نظرائهم في لندن وبرلين عاميْ 1914 و1939.

ثمة مدخل آخرِ يتمثل في استقرار شبكات الحلفاء بعد عام 1945 أكثرِ من أي وقت قبله. إذ كَوَّنَت القوتان العُظْميان كلتاهما شبكاتٍ من الحلفاء كبيرةً وكثيفةً ومستقرةً نسبيًا، جَمَعَتْ بين التزامات الدفاع المشترك والتكامل التجاري. فبين عاميْ 1816 و1950، وَصَلَ عددُ حلفاء كل دولة منهما أكثر قليلاً من 2.5 في المتوسط. أما في الفترة من عام 1951 حتى عام 2003 فكان المتوسط أكثر من أربعة أضعاف (10.5)[1440].

وتشير تفاصيل أخرى إلى أن التجارة تنمو عند تقليل الصراع[1441]. فمن المثير للاهتمام أنَّ تزايُدَ التحالفات الأمنية لأغراض إستراتيجية قد سَبَقَ نُموَّ التجارة في

هذه الدول[1442]. ولا شك في أن تأثيرات شبكة من هذا النوع [الاتفاقيات] قد لعبت دورًا ما. ولكن الصفة المائزة لكل الاتفاقيات تقريبًا - العسكرية والاقتصادية - في فترة الحرب الباردة كانت بنيتَها الهَرَميَّة. فحتى إذا لم تتوصل القوى العظمى في مجلس الأمن UN Security Council إلى تسوية، فقد تمكَّنت مجموعاتُ قوى أخرى من التوصُّل إلى توافق: مثلاً، الدول السِّتُّ الأصلية الموقِّعة على اتفاقية روما[[1443]] Treaty of Rome عام 1957م، أو الأعضاء الأصليون في «مجموعة السبعة» group of seven، التي بدأت في عام 1974 بوصفها اجتماعًا غير رسمي للمسؤولين الماليين في أكبر خمسة اقتصادات في العالم: الولايات المتحدة، المملكة المتحدة، ألمانيا الغربية، اليابان، فرنسا.

ومع ذلك، لا معنى لفكرة الحرب الباردة بوصفها «سلامًا طويلاً» إلا إذا حصرنا انتباهنا في هذه البلاد المتقدِّمة. أما إذا نظرنا إلى العالم ككل، فستكون الفترةُ من خمسينيات القرن العشرين حتى ثمانينياته أيَّ شيء سوى السلام في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. كانت الحروبُ الأهلية داءً مُزْمِنًا في تلك المناطق من العالم، وكثيرًا ما اشتعلت وزادت حِدَّتُها، بسبب تَلقِّي المجموعات المتحاربة مساعدات عسكرية من القوى العظمى، فتصرَّفَتْ بوصفها وكلاء عنها[1444].

كانت الحرب الباردة أيضًا فترة ثورات وانقلابات بسبب تفكُّكِ الإمبراطوريات الأوربية العابرة للبحار. ونشأ تصوُّرٌ مُفاده أن هذه الأزمات السياسية مُعْدِية، الأمر الذي وَلَّدَ فكرةَ «تأثير الدومينو»[[1445]] domino effect[1446].

فكما قال الرئيس دوايت أيزنهاور Dwight Eisenhower عقب الهزيمة الفرنسية في معركة دين بيان فو Dien Bien Phu على أيدي تحالف فيت مينهVietminh[[1447]] في الهند الصينية:

«لديك صفٌّ من قطع الدومينو. وأنت تنقرُ أولَ قطعة فيه... ما سيحدث للقطعة الأخيرة يقينًا أنها ستسقطُ سريعًا».

إذا كانت تحالفات الحرب الباردة قد أَوْجَدَتْ شبكاتٍ محورية ذات فروع hub - and - spoke، فإن تأثير الدومينو قد هَدَّدَ العُقَدَ الخارجية في هذه الشبكات بالعَدْوَى. ويتطلب حفظُ قطع الدومينو من السقوط مجموعةَ مهارات عسكرية خاصَّة، ستُعْرَفُ باسم «مكافحة التمرُّد» counter - insurgency، ولعل التسمية الأوضح هي ما أطلقه أحدُ رُوَّادها: «حرب الأحراش» jungle warfare.

يرسم سي. إس. فورستر C. S. Forester في روايته «الجنرال»[1448] (1936) The General،
بورتريهًا صارخًا لشخصية جنرال بريطاني نموذجية من جيل الحرب العالمية الأولى، يُجَسِّدُ التسلسلَ الهَرَميَّ الصارم في فترة أواسط القرن العشرين. فشخصيتُه:

لافتةٌ للنظر [حتى] في اختياره لمرؤوسيه، نزولاً إلى القيادات الأصغر. فالرجال المطلوبون لا يهابون المسؤولية، طاقتُهم دائمة وإرادتُهم حديدية، ويمكن الاعتماد عليهم لأداء دورهم في خطة المعركة بلحمهم ودمائهم؛ تلك كانت صفات رجاله ورجال رجاله. هؤلاء الرجالُ، فقيرو الخيال، ضروريون لتنفيذ سياسة عسكرية بلا خيال، ابتكرها رجلٌ بلا خيال. وعلى ضوء خطة الحملة المرسومة، كان أيُّ شيء غريب أو إبداعي محلَّ ارتياب. فكل جنرال أراد أتباعًا من الضبَّاط يطيعون الأوامر بدقة لا تُرْعِبُهم المصاعبُ أو الخسائر أو المخاوف أبدًا؛ وكل جنرال عَرَفَ ما سيُتَوَقَّعُ منه (ووافق عليه)، وحَرِصَ على أن يكون تحت قيادته عسكريون يُتَوَقَّعُ منهم الشيءُ نفسُه. فعند الاضطرار إلى استعمال القوة الغاشمة لن يُنفِّذَها منهجيًا إلا رجال على هذه الشاكلة، يندرجون في النظام دون أيِّ تهاون[1449].

من الصعب العثور على وَصَفٍ لنظام هَرَمي أفضل من هذا. ولكن بحلول أربعينيات القرن العشرين، تعلَّمَ الجيشُ البريطاني British Army، عبْر تجربة مريرة، ضرورةَ وجود نوعية قيادة مختلفة، أكثر دينامية. لقد رأى البريطانيون، خلال حربين عالميتين، أن فعَّالية الجيش الألماني الاستثنائية لم تعتمد على التنفيذ الصارم لخطط المعركة، بل على لامركزية صُنْع القرار، وعلى المرونة وسط ضباب الحرب[1450].

في عام 1940، مثلاً، استغلَّت الدبَّاباتُ [المَرْكبات الهجومية المصفَّحة] الألمانية German Panzers الهائمةُ الاتصالاتِ اللاسِلْكيةَ وشبكةَ الطرق الفرنسية للتوغُّل بِحُرِّية خلف خطِّ العدو الأمامي، الذي انهار بعدئذٍ في فوضى. كلما تعذَّرَ الوصول إلى ساحة المعركة، من المهم أن يتحرَّرَ الضبَّاطُ (وجنودهم) من قيود السيطرة والقيادة المركزية. ولا توجد حملاتٌ عسكرية فعلت ذلك بشكل أوضح من الحملات التي شُنَّتْ في آسيا ضد اليابانيين. وفي حملة بورما[1451] Burma، ظهر نوع جديد من الجنرالات البريطانيين يُناقِضُ تمامًا الجنرال بليمب[1452] Blimp ذي الإرادة الحديدية والخيال الفقير. كانت «الغرابةُ والإبداعية» في الأحراش محلَّ تقدير

ومكافأة.

والتر كولبير ووكرWalker Colyear Walter[1453]، ابن مُزارِع شاي في ولاية آسام Assam
[شمال شرق
الهند]، وُلِدَ عام 1912، وكان صغيرًا فلم يشهد مذبحتيْ سوم[1454] Somme
وإبرسYpres[1455].
كان ووكر مشاكسًا طوال حياته إلى درجةٍ أَوْقعته في الخطأ. فحين كان تلميذًا في المدرسة في إنجلترا، تبنَّى رؤيةً تقول بأن أفضلَ طريقة لمواجهة البَلْطجة والتسلُّط توجيهُ «لَكْمة إلى يسار الأنف ثم الفكِّ على التوالي».

وفي أكاديمية ساندهيرست العسكرية المَلَكيَّة[1456] Sandhurst
انتابته مشاعرُ غيظ أثناء التدريب العسكري، فتعطَّشَ إلى إطلاق النار من بندقيته
.لاً من الاكتفاء بمجرد تنظيفها. وبوصفه ضابطًا في فرق الجوركا [1457]Gurkhas 1/8
1\8، خَدَمَ بامتياز في العمليات ضد فقير إيبي[1458]
Faqir of Ipi في وزيرستان Waziristan،
حيث صار خبيرًا في تكتيكات الكمائن. تولَّى ووكر في عام 1944 قيادةَ الجوركا
4/8، التي حوَّلها بعد شهرين من إعادة التدريب إلى قوة قتالية هائلة، فحصل على
وسام الخدمة المتميزة[1459] DSO.

كان البريطانيون يتعلمون نوعًا جديدًا من الحروب. اقرأ ما يُسمَّى «كتاب الأحراش» Jungle Book الدليل المنشور عام 1943: «تُبَيِّنُ التجربةُ ضرورةَ أن تكون القيادةُ غيرَ مركزية حتى يتمكَّنَ القادةُ الأحدث سنًّا من مواجهة المواقف التي يجب عليهم فيها اتخاذ القرار والتصرُّف بوحي من مسؤوليتهم الشخصية بلا تباطؤ...»[1460].

كانت هذه عقيدةَ ووكر. وبعد الحرب، وبوصفه ضابط الأركان العامة في كوالالمبور Kuala Lump، أُسْنِدَتْ إليه مهمةُ تدريبِ ما يُعْرَفُ ب«فيريت فورس» [وحدة مكافحة
التمرد][1461] Ferret Force، وهي
مزيج من البريطانيين والجوركا والصينيين وقوات داياك[1462] Dyak المحلية.

وفي عام 1948 - 1949، بينما أغرق الإرهابيون الشيوعيون مالايا[1463] Malaya
في حالة طوارئ، قادَ ووكرُ مركزَ تدريب القوات البَرِّية في الشرق
ا لأ ق ص ى Far East Land

صار ما مؤسّسًا Forces Training Centre يُعْرَفُ لاحقًا ب مدرسة حرب الأحراش Jungle Warfare School في كوتا تينجي Kota Tinggi [في ماليزيا][1464]. وحُفِظَت التعاليمُ المنبثقة عن المدرسة في كتاب بعنوان «إدارة مكافحة العمليات الإرهابية في مالايا» The Conduct of Anti - Terrorist Operations in Malaya، فصار دليلاً عمليًا لمكافحة التمرد لدى الجيش البريطاني[1465].

تكمن فكرة الدليل الرئيسية في أن الهدفَ النهائي من الإجراء العسكري ضمانُ «ألا تُعَرْقِلَ هجماتُ حربِ العصابات عمليةَ الحُكْم السياسي الشرعي»[1466]. وهو ما يعني - عمليًا - استئصالَ الشيوعيين بلا رحمة، على أساس تنسيقِ عمليةِ جَمْع المعلومات (بين كل من البوليس والقوات العسكرية)، ونَشْرِ دوريات مكافحة صغيرة وكمائن مُحْكَمَة التخطيط[1467]. في عام 1958، كان ووكر مسؤولاً عن العملية نمر Operation Tiger، التي فيها قضت الفرقةُ 99 جوركا على بقايا الشيوعيين الناشطين في ولاية جوهر Johore [في ماليزيا].

وقد أعلن ووكر لاحقًا: «رجل من رجال فرعي الخاص Special Branch أكَّدَ أن الإرهابيين الشيوعيين CTs سيأتون، وبعد 28 يومًا جاءوا وقُتِلوا في الأرض السَّبِخة». الرجال الذين يَكْمُنون صابرين في الحَرِّ القائظ لمدةٍ أربعة أسابيع لا يُقدَّرون بثمن، من وجهة نظر ووكر. وقد اشتعل غضبه حين أُخْبِرَ بخطة يجري الإعداد لها في لندن لتخفيض أعداد فرق الجوركا الرسمية، التي تزيد عن عشرة آلاف، إلى أربعة آلاف[1468].

قال ووكر مستعملاً استعارةَ الدومينو: «مالايا هي الحصن الأخير ضد الشيوعية في هذا الجزء من العالم. وإذا سقطت مالايا فلن يمكن إصلاحُ الموقف في جنوب شرق آسيا»[1469].

في أحراش بورنيو[[1470]] Borneo الكثيفة - ثالث أكبر جزيرة في العالم - أثبتَ ووكر وجهةَ نظره تلك. ففي بورنيو التي لا توجد فيها سكك حديدية، وتقريبًا لا توجد طرقٌ، وممراتُ الهبوط فيها قليلةٌ ولذا فهي ثمينةٌ، كانت عملية صُنْع القرار بشكل غير مركزي هي الفِعْل الوحيد الممكن. بعد تقسيم الجزيرة بشكل تعسُّفي بين الإمبراطوريتين البريطانية والهولندية، لم يعد للجزيرة من حدود داخلية كبيرة سوى بين الأراضي البريطانية في ساراواك [سراوق] Sarawak وبروناي Brunei

وشمال بورنيو، وبورنيو الإندونيسية (الهولندية سابقًا) المعروفة باسم كاليمنتان
Kalimantan.
وتمثلت الخطةُ البريطانية، التي تستهدف مَخْرَجًا رشيقًا، في دمج ساراواك وبروناي وشمال بورنيو مع مالايا وسنغافورة
Singapore لتكوين اتحاد ماليزيا Federation of Malaysia.
ولكن قبل تنفيذ ذلك، نَشَبَ تمرُّدٌ مدعوم من إندونيسيا ضد الاندماج المُخطَّط له في بروناي، فبدأ في أبريل عام 1963 ما يُعْرَفُ ب الكونفرونتازي [المواجهة]
Konfrontasi،
في الوقت الذي عَبَرَتْ فيه القواتُ الإندونيسية الحدودَ إلى شرق ساراواك، ودمَّرتْ مركزَ الشرطة في تيبيدو
Tebedu بالقرب من كوتشينج Kuching.



الشكل رقم: 28 - الجنرال سير والتر ووكر، بطل تمرد المواجهة في بورنيو، رائدُ مكافحة التمرد. كانت قاعدته المبدئية «تَمَلُّك الأحراش».

كان سوكارنو[1471] Sukarno، رئيس إندونيسيا، يحلم ببناء إندونيسيا العظمى، التي تشمل بورنيو كُلَّها على الأقل. ومهمة والتر ووكر، قائد القوات البريطانية وبورنيو (ثم لاحقًا مدير العمليات)، هي تبديد هذا الحلم بأقل تكلفة. وعن أسلوبه في قيادته الجديدة، كَتَبَ ووكر توجيهات استنادًا إلى خبرته في طوارئ مالايا[1472] Malayan Emergency، واضعًا ما أسماه «مُقوِّمات النجاح الستة»:

عملياتٌ موحَّدةٌ؛ معلوماتٌ دقيقةٌ في الوقت المناسب وهو ما يعني جهازًا استخباراتيًا من الدرجة الأولى؛ سرعةٌ وحركةٌ ومرونةٌ؛ تأمينُ قواعدنا أينما كانت ومهما تكون (مطار، قاعدة متحرِّكة، إلخ)؛.... السيطرةُ على الأحراش [و] الفوزُ بقلوب الناس وعقولهم، وبخاصة السكان الأصليين[1473].

كان هذا بيانًا [مانيفستو] للحرب الشَّبَكيَّة، المناقِضة للأسلوب الهَرَمي الصارم في عمليات الجيش البريطاني القديم. و«المهارة المشترَكة» هي كلمةُ ووكر المُفَضَّلة.

فالدرس الرئيسي الذي تعلَّمه في مالايا هو: أهمية «وحدة القوات المسلحة نفسها، والوحدة بين القوات المسلحة والبوليس، وبين قوات الأمن ككل والإدارة المدنية»، و«التخطيط المشترك والعمليات المشتركة في كل الأوقات وعلى جميع المستويات»[1474]. نُظِّمَتْ مقرّاتُ الجيش والقوات الجوية والبحرية معًا،

وأُلْزِمَتْ جميعُها بالعمل الوثيق مع السلطات المدنية والبوليس[1475]. وشَبَّهَ ووكر هيكلَ القيادة الجديد بـ«سلطة ثلاثية - مدنية وبوليسية وعسكرية - تخضع جميعها لتوجيه واحد من مدير العمليات العسكرية»، ووظيفتُه «التأكُّدُ من أن النظام يعمل كذراعيْ المقصّ، لا يخضع أحدهما للآخر بل يُهَيِّئُ كلٌّ منهما نجاحَ الآخر»[1476]. تكاملت الاتصالات أيضًا تكامل تكنولوجيا الراديو في ذلك الوقت[1477].

وعلى الأرض، جاء تركيز ووكر على «الحركة والمرونة المتكاملتين»[1478]. وفي المناطق الأمامية، كان ثلْثا أية حامية عسكرية على الأقل «يخرج في دور هجومي دائمًا، ويسيطر على الأحراش ومسارات الكمائن نهارًا وليلاً، بحيث لا يعرف العدو أين نوجد، فيكون عُرْضَةً دائمًا لاحتكاكنا به والهجوم عليه». المفتاح الرئيسي الذي صاغه بطريقة جِدِّ لافتة هو امتلاك الأحراش:

لا يمكن تحقيق نتائج بمجرد الهجوم وإطلاق النيران على العدو ثم العودة إلى القاعدة. لقد تَوجَّبَ عليه أن يلعب لعبته الخاصة، بالعَيْش في الأحراش لأسابيع طويلة، وكَسْب قلوب الناس وعقولهم، وزَرْع عملائنا في القرى المعروفة بعدائها لنا. في هذه الظروف، لا بد أن تحمل قاعدتَك على ظهرك، وتتألف هذه القاعدةُ من لوح بلاستيكي في وزن الرِّيشة، وجورب ممتلِئ بالأرز وجيب ممتلئ بالذخيرة. الأحراش يجب أن تنتمي إليك؛ ولا بد أن تتملَّكها؛ لا بد أن تتحكم فيها وتسيطر عليها[1479].

التجديدات الثلاثة الفعَّالة التي وَظَّفَها ووكر هي: استطلاع الحدود والقوات الخاصة والهليكوبتر. أما الأعوان من المناطق الحدودية فمُهِمُّون. وعلى حدِّ تعبير جي.

بي. كروس J. P. Cross، الضابط الذي تولَّى تدريبَهم، «إذا أمكن لأناس الحدود أن يبقوا في وَضْعٍ يشعرون معه بأنهم يقومون بدور نشيط وإيجابي في دفاعهم وأن الحكومة تُعَضِّدُ مساعيهم، فستفشل حركة الكونفرونتازي [المواجهة Confrontation]. لذا، كان مستطلعو الحدود ضروريين لتحقيق النصر»[1480].

تمثلت رؤيةُ ووكر في أن «الكشَّافة المتجولة في المقدمة مثل الشاشة، فهي عيون وآذان القوات التقليدية، كالعقرب. وهذا يستلزم الإتيان بهم من المؤخرة، ثم يخلعون أحذية الأحراش الدالة عليهم، ويذهبون دون بنادقهم، كي يَظهروا بمظهر فلاح أو صياد سمك أو تاجر أو حَطَّاب، إلخ». وهو يُدَرِّبُ رجالَه على الاختلاط، وعلى تذكُّر أي أثر يَدُلُّ على نشاط عدائي، وتعقُّب العدو «باستخدام تكتيكات حركية متقطِّعة بالتراجع إلى الخلف ثم التتبُّع، والتقاط الشاردين منهم، مع تَرْك علامات يَفْهَمُ منها بقيَّتُهم ما يمكن أن يجري لهم»[1481].

كان مَن يعملون مع مستطلعي الحدود بانتباه ويقظة حوالي سبعين رجلاً من قوة الخدمات الجوية الخاصة SAS Regiment 22؛ ودورُ المستطلعين «العَيْشُ بين الناس وكَسْبُ ثقتهم ومساعدتهم في الأمور الطبّية وغيرها»، على حين يقومون ب«استطلاع الغارات»[1482].

وأخيرًا، قام ووكر بالاستفادة الكاملة من طائرات الهليكوبتر الموضوعة تحت تصرُّفه (ليس أكثر من ثمانين طائرة) لنَقْلِ الأسلحة الأثقل على وجه السرعة، من نقطة ساخنة إلى أخرى، كي يعطي انطباعًا لدى الخَصْم بوجود مدفعية ثقيلة في كل قاعدة أمامية[1483].

قِلَّةٌ تتذكَّرُ، اليوم، هزيمةَ الكونفرونتازي [المواجهة] Konfrontasi في [أحراش] بورنيو الأكثر ظلامًا. كانت هزيمةً كاملةً. وكما قال ووكر: «امتلاكُ أحراشٍ تَرْبو على الألف ميل والسيطرة عليها، حتى عمق مئة ميل، أمام هذا العدو، وسَحْقه في كل مرة حاول فيها الإغارةَ، لم يكن إنجازًا قليلاً حققته 13 كتيبة»[1484].

وكانت الخسائرُ محدودةً: فَقَدَت القواتُ البريطانية والكومنولث 114 قتيلاً و181 مصابًا فقط، مقارنةً بخسائر إندونيسية يقينية تصل إلى 590 قتيلاً و222 جريحًا و771 أسيرًا. وتكمن أهمية انخفاض الخسائر عند المقارنة بين ما حدث في بورنيو وما كان يحدث في الوقت نفسه على بعد 700 ميل شمالاً، في فيتنام Vietnam، حيث كانت القوات الأمريكية في المراحل الأولى مما سيَثبتُ أنه المجهود المكلِّف بشكل كارثي، وغير الناجح في النهاية، للحفاظ على استقلال فيتنام الجنوبية. وكما ذَكَرَ ووكر في مقالة منشورة عام 1969، كان هدفُه في بورنيو «مَنْعَ تصعيد الصراع إلى حرب مفتوحة open war، مماثلة لتلك الحرب في فيتنام الجنوبية اليومِ». وقد حقق هدفَه بكَسْب «الجولات الافتتاحية في معركة الأحراش»، وبكَسْب «المعركة النفسية في النجوع والقرى ذات الشعوب القبليَّة في أعالي البلاد»[1485]. ولم يكن ووكر يستطيع تحقيق ذلك إلا بامتلاك الأحراش أولاً، لأن:

جيشًا يَتنقَّلُ سرًا، في مجموعات صغيرة غالبًا، قادمًا في موعد المعركة الدقيق، لا يمكن أن يقع في كمين. وتلك هي الطريقة التي كان يتنقل بها الفيت كونج Viet Cong [[1486]] عادةً. وهي الطريقة التي تَعلَّمَ جنودُنا التنقلَ بها، فطبَّقوها بأفضل مما يفعل الخَصْم. لقد تفوقوا في حرب العصابات في كل مرحلة من مراحل اللعبة بالتدريب الجيد القائم على خبرة عمليَّاتية[1487].

وكما سنرى (في الفصل 50)، استغرق الأمرُ من الجيش الأمريكي جيلاً كي يتعلم فنَّ الحرب الشَّبكيَّة هذا؛ لكن الجيش الأمريكي سوف يَشنُّها في أحراش

خرسانية [العراق بعد هجمات 11/9]، وليس في غابات استوائية مطيرة تَملّكَها، ذات يومٍ، والتر ووكر.

### 44
### أزمة التعقيد

«مَن لا يعرفون سوى إنجلترا، ماذا يعرفون عن إنجلترا؟». هكذا تساءل كيبلنج Kipling بشكل لافت في [مقاله] «العَلَمُ الإنجليزيُّ» The English Flag.

بالنسبة إلى المحاربين الإمبرياليين من أمثال والتر ووكر، الذين لم يعرفوا إنجلترا بالمرة، كانت المشكلةُ مختلفةً. لقد عرف ووكر الأحراش. أما البلد الذي عاد إليه في عام 1965، عندما عُيِّن نائب رئيس الأركان Deputy Chief of Staff لقوات الحلفاء في وسط أوربا Allied Forces Central Europe، فكان مجهولاً له terra incognita. مناصِبُه في باريس، وبرونسوم Brunssum في هولندا، وأخيرًا كُولسوس Kolsås في النرويج، كانت وظائف بيروقراطية بلا أي مَجْدٍ. ثم بوصفه رئيسَ أركان [قائدًا أعلى] لقوات الحلفاء في شمال أوربا Allied Forces Northern Europe (من عام 1969 حتى تقاعده عام 1972)، رأى أن مهمته هي التحذير من مواجهةٍ [كونفرونتازي] سوفييتية وشيكة في الدول الإسكندنافية (فنَشَرَ لاحقًا كتابين عن الموضوع، تحت عنوانيْن لا لَبْس فيهما: «الدُّبُّ عند الباب الخلفي» The Bear at the Back Door، و«الدومينو القادم» The Next Domino).

وهو ما لم يجعله مُحَبَّبًا لدى السياسيين في لندن، الذين اكتشفوا في ذلك الوقت فوائدَ تخفيف العداوة مع السوفييت، وبخاصة أنه سيمنحهم المُبرِّرَ للمزيد من تقليل نفقات الدفاع.

قضى الجنرالُ في رواية فورستر فترةَ تقاعده على كرسي متحرك، بطريقة مثيرة للشفقة، يلعب البريدج. أما والتر ووكر فلم يكن من نوع الجنود القدامى الذين يختفون من المشهد. ففي يوليو عام 1974، كَتَبَ رسالةً إلى صحيفة ديلي تليجراف Daily Telegraph يُحذِّرُ فيها من «حصان طروادة الشيوعي بيننا، برفاقه المسافرين الذين يَشقّون طريقَهم كالديدان حاملةً اليرقات في أمعائها»، ودعا إلى «قيادة دينامية نشطة استنهاضية... أعلى من السياسة الحزبية»، لـ«إنقاذ» البلاد.

رأى ووكر الجيشَ الجمهوري الأيرلندي[1488] Irish Republican Army - الذي كان يُعِيثُ فسادًا وقتئذٍ بسيارات مُفَخَّخة واغتيالات في البَرِّ الرئيسي البريطاني - بوصفه تنظيمًا شيوعيًا أماميًا. يقول ووكر: «ينبغي إعلانُ أن أيرلندا الشمالية منطقةُ عمليات حقيقية، أو حتى منطقة حرب، يخضع فيها القتلة

المحتملون الذين يحملون السلاح أو يستخدمونه لمحاكمة عاجلة وللإعدام».
وحين سألته جريدة إيفيننج نيوز Evening News عمَّا إذا كان سيستولي الجيشُ على الحُكْم في البلاد، أجاب قائلاً: «قد تختار البلادُ الحُكْمَ بالبندقية بدلاً من الفوضى». وبحجة دَعْم أميرالي [عميد] الأسطول البحري السير فاريل بيج Sir Varyl Begg، ومارشال [مشير] سلاح الجو المَلَكي البريطاني السير جون سلِيسَر Sir John Slessor، أنشأ ووكر تنظيمَ «مكافحة الفوضى» anti - chaos الذي عُرِف في البداية باسم «يونيسَن» [التزامن][1489] Unison، ثم لاحقًا باسم «الإغاثة المدنية» Civil Assistance.
هدفُ هذا التنظيم المُعلَن خلقُ قوة «من الرجال الموثوق في إخلاصهم ورجاحة عقلهم» للحفاظ على الخدمات العامة الأساسية في حالة حدوث إضراب عام.

ارتاب ووكر في أن رئيس الوزراء هارولد ويلسن[1490] Harold Wilson هو نفسه شيوعي - فالرجل الرابع Fourth Man والخامس Fifth Man لم يُتَوَصَّلْ إلى تحديدهما بعد [في هذا الوقت][1491] - فاجتذبه إينوك باوِل[1492] Enoch Powell، من بين مُحافِظين عديدين، إلى مجموعته المُعارِضة للهجرة والاندماج مع أوربا.

وبلا تردُّدٍ، اتخذ ووكر جانبَ الزعيم الروديسي إيان سميث[1493] Ian Smith، فقام بسِتِّ زيارات إلى نظام الحُكْم العنصري في جنوب أفريقيا، واتَّهم المِثليين [جنسيًا] ب«استخدامهم فتحة المجاري الرئيسية في الجسم البشري بوصفها مَلْعبًا». (في كتابه Who's Who يُعَدِّدُ وسائله الترفيهية التي يصفها بأنها «عادية»)[1494].

ولكن السخرية من كل شيء كانت يسيرةً للغاية. فوُصِفَ منزلُ ووكر في سومرست Somerset بأنه «Lambrook - les - Deux - Eglises» (تلميحًا إلى المنتجع الريفي للرئيس الفرنسي

السابق شارل دي جول Charles de Gaulle: (Colombey - les - Deux - Ȅglises). ولم ينفع ووكر أن يكون أحدُ أنصاره العَلَنيين الممثلَ الكوميدي مايكل بِنتين Micheal Bentine في برنامج «ذا جون شو»[1495] The Goon Show سابقًا، الذي صار لاحقًا مُقدِّمًا في عرض للأطفال بعنوان «بوتي تايم » Potty Time على شبكة تلفزيون تيمز Thames Television.

في المسلسل التلفزيوني «سقوط وصعود رِجينالد بيرين»[1496] The Fall and (Rise of Reginald Perrin (1976 - 1979، كانت شخصيةُ جيمي، شقيق ريجي، محاكاةً ساخرةً مضحكةً لنموذج ووكر:

ريجي: مَن ستحاربه حين تنفخ بالونتك؟

جيمي: [سأحارب] قوى الفوضى. [سأحارب] هادمي القانون والنظام. [سأحارب] الشيوعيين، الماديين، التروتسكيين، التروتسكيين الجُدُدِ، التروتسكيين المُستخفِين، قادة النقابات، قادة النقابات الشيوعية، الملاحدة، اللاأدريين، الشواذّ طويلي الشعر، الشواذّ قصيري الشعر، مُخرِّبي الممتلكات، مثيري الشَّغَب، مشجعي كرة القدم، ضبَّاط التدريب المخنثين، المغتصبين، الكاثوليك، الكاثوليك المخرِّبين، الجرَّاحين الأجانب - قاطعي الرؤوس المحتفظين بها، الذين ينبغي إيداعهم مستشفى الأمراض العقلية - ويدجوود بين Wedgwood Benn [سياسي بريطاني من حزب العمال]، بانك روك[1497] punk rock، شَمَّامي الروائح الطيَّارة، «برنامج بلاي فور توداي » Play For Today، مالكي الأراضي بوضع اليد، كلايف جنكينز Clive Jenkins [رئيس اتحاد العمال البريطاني]، روي جنكينز Roy Jenkins [سياسي ومؤرِّخ وعضو في حزب العمال البريطاني]، [لعبة] آب جنكينز Up Jenkins، المطاعم الصينية - لماذا تُحَاطُ قلعة وندسور Windsor Castle [في مقاطعة بيركشاير الإنجليزية] بالمطاعم الصينية؟

ريجي: هل هذا كل شيء؟

جيمي: نعم.

ريجي: فهمت. أتعرف أي نوع من الأشخاص ستجتذبه إليك؟ [ستجتذب البَلْطجية، الصبية المتشردين، المرضى النفسيين، رجال البوليس المفصولين، حُرَّاس الأمن، حُرَّاس الأمن المفصولين، العنصريين، المهاجمين العنصريين، مُهاجِمي الشذوذ، مُهاجِمي الصينيين، مُهاجِمي المُهاجِمين، مُهاجِمي أي شخص، أميرالايات المؤخِّرة [في سلاح البحرية]، أميرالايات الكوير queer، نائب الأميرالاي، الفاشيين، الفاشيين الجُدُدِ، الفاشيين المُستخفِين، المخلصين، المخلصين الجُدُدِ، المخلصين المُستخفِين.

جيمي: حقًا؟ أعتقد أن التأييد قد يكون صعبًا.

هكذا انتهى سيد حرب الأحراش عَلَقًا لكُتَّاب المسلسلات الكوميدية. أما ووكر الحقيقي فقد اختفى من المشهد بشكل أكثر مأساوية، ضحية عمليتين غير ناجحتين في الفخذ تركتاه مُعاقًا.

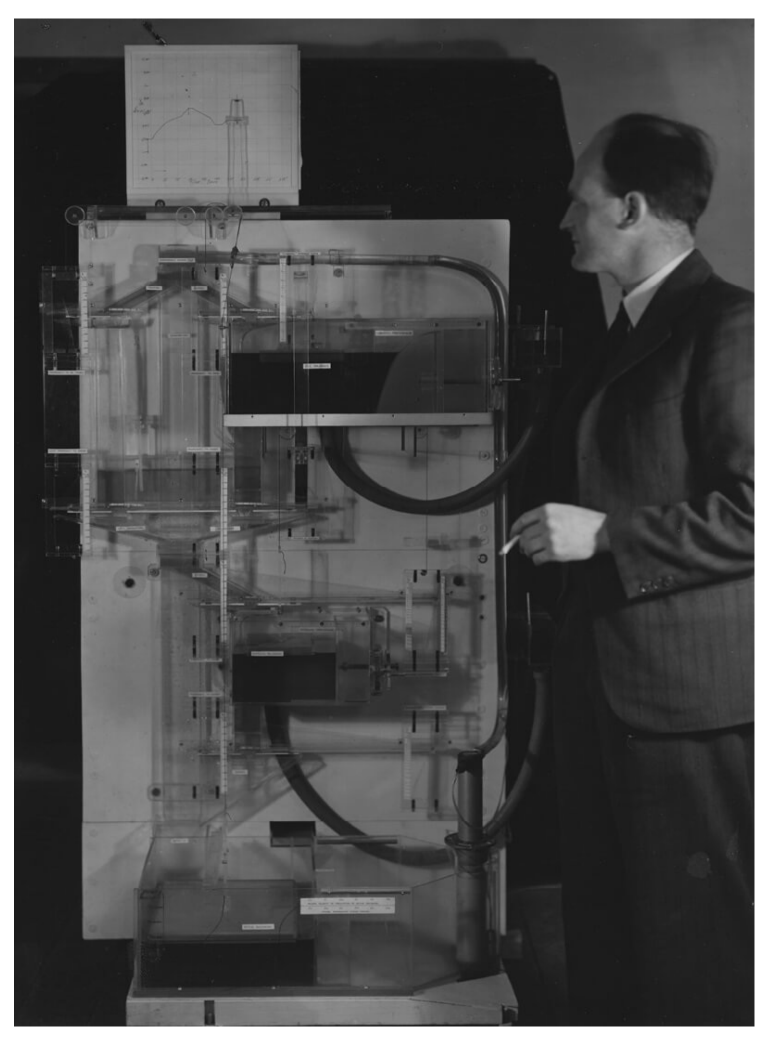
ورغم كل تلك السَّخَافات، كان رجال من أمثال والتر ووكر على صواب في أن شيئًا ما فاسِدٌ وعَفِنٌ في دولة إنجلترا، فإن لم يكن مؤامرةً شيوعيةً وَفْق تصوراتهم المحمومة، فعلى الأقل التحرُّر الاجتماعي والجنسي الذي أدانوه. لقد عانت بريطانيا في أواسط سبعينيات القرن العشرين من حالة فوضى حقًّا: معدل تضخُّم من أعلى المعدلات في العالم المتقدِّم، واضطراب صناعي منتشر.

الكلبية[1498] cynicism
التافهة التي جعلت الكوميديا التلفزيونيةَ جيدةً في ذلك الوقت، جعلت الحياةَ اليومية أيضًا في المملكة المتحدة سيئةً. لم تكن المشكلةُ «قوى الفوضى»، بل كانت انهيارَ الدولة البريطانية المركزية التي شُيِّدتْ في فترة الحروب العالمية.

وبالنسبة إلى معظم النُّخْبة المدنية في بريطانيا - الموظفين المدنيين في الوايتهول[1499] Whitehall،
وكذلك السادة في أكسفورد وكمبريدج، وحامليْ ألقاب «العظيم والخَيِّر» - بدا درسُ الانتصاريْن في عاميْ 1918 و1945 واضحًا:

ما كان يشتغل هو التخطيط المركزي. في فترة ما بعد الحرب، بدا كلُّ بيروقراطي صاحبَ خطة مرسومة، وتُفَعَّلُ من المركز السياسي، وليس على المحليَّات سوى تنفيذها[1500]. فكل شيء تطلَّبَ تخطيطًا، بدءًا من السكن إلى الرعاية الصحية، ومن حليب المدرسة إلى الكهرباء المائية الإسكتلندية. وكان يُضْرَبُ المثل على الثقة بالنفس لدى التكنوقراط في ذلك الوقت بال مونياك MONIAC (كمبيوتر الدخل النقدي الوطني التناظري

the Monetary National Income Analogue Computer)، وهو جهاز هيدروليكي صمَّمَه النيوزيلندي بِلْ فيليبس Bill Phillips بغرض محاكاة تأثيرات السياسة الاقتصادية الكينزية في اقتصاد المملكة المتحدة. وحتى سبعينيات القرن العشرين، لم يكن قد بدأ يتضح أن أفضلَ الخطط، في وقت السِّلْم، عُرْضَةٌ للسقوط في مستنقع الركود والفساد. فالتخطيط بأسلوب الحداثة العليا - high modernist planning عاشَ فسادًا كبيرًا من كل الأنواع، بدءًا من الزراعة الجماعية السوفييتية[1501] collectivization of Soviet agriculture حتى بناء برازيليا[1502] Brasilia وقرى العائلة الممتدة [يوجاما][1503] ujamaa الإلزامية في تنزانيا. ومع ذلك، يمكن الإبقاء دائمًا على مثل هذه الكوارث، ولو لوَأْدِ أي نوع من المعارضة. لكن بسبب ضَعْفها وتداعيها، يمكن تحدِّي النظام المُخطِّط والطَّعْن فيه[1504].



الشكل رقم: 29 - ويليام فيليبس مع جهاز المونياك (كومبيوتر الدخل النقدي الوطني التناظري)، نموذج هيدروليكي لاقتصاد المملكة المتحدة صُمِّمَ في إنجلترا عام 1949.

كانت مشكلة المُخطِّطين أن النظام الهَرَمي الذي كان مناسبًا تمامًا لنشاط الحرب الشاملة - وهو نشاط اتصف باحتكار الشراء monopsony حيث الدولة هي المشتري الوحيد، وبالتوحيد القياسي حيث الهدم أبسط كثيرًا من البناء - لم يكن مناسبًا بالمرة للمجتمع الاستهلاكي consumer society. لقد وُعِدَ مَن شاركوا في الحربين العالميتين بالنصر والازدهار. ومن الناحية العملية، لا يمكن تحقيق ذلك إلا إذا تُرِكَتْ ملايين الأُسَر حُرَّةً في الاختيار من مليارات الخيارات، التي تُلبِّيها مئات الآلاف من الشركات. والنتيجةُ تزايدُ التعقيد، حيث «تصبح التفاعلاتُ الجانبية أهمَّ بكثير، والحدودُ بين النُّظُم الفرعية داخل أي تنظيم... أكثرَ سيولةً»[1505].

وكما يقول الفيزيائي يانير باريام[1506] Yaneer Bar - Yam:

«مجموعة الأفراد الذين يسيطر على سلوكهم الجَمْعي فردٌ واحد لا يمكن أن يسلكوا بطريقة أعقد من الفرد الذي يمارس السيطرة عليهم». طُبِّقتْ خطةٌ خَمْسية في الاتحاد السوفييتي زمن ستالين، حين كان الفرد أكثر قليلاً من الترس في نظام زراعة جماعي، وإنتاج صناعي ثقيل، وحرب شاملة، واستعباد عقابي. وكان من الطبيعي أن تنهار في بريطانيا زمن هارولد ويلسن. وكمبدأ عام: حين يصبح تعقيدُ المطالب المُلْقاة على عاتق الأنظمة البشرية الجَمْعية... أكبرَ من إنسان فرد... لا يعود التسلسل الهَرَمي بقادر على فرض علاقات متبادلة/ تناسق ضروري على الأفراد. فبدلاً من ذلك، تكون التفاعلات والآليات [الميكانيزمات] المميزة للشبكات بأنظمتها المعقدة تعقيد المخ البشري هي الضرورية»[1507].

يتجلى الانتقالُ إلى عالَم أكثر شبكيةً بطرق وفيرة في سبعينيات القرن العشرين. ولم يكن الحافزُ تكنولوجيًا بقدر ما كان تنظيميًا. فريدريك هايك[[1508]] Friedrich Hayek أولُ مَن أعاد اكتشاف فكرة آدم سميث القديمة القائلة بضرورة تفوُّق النظام التلقائي للسوق على «أي نظام يتحقق بتنظيم عَمْدي». وكما يذكر هايك:

«الإبقاء على ضرورة التخطيط العَمْدي للمجتمع الحديث لأنه صار معقدًا جدًا، ينطوي لهذا السبب عينه على مفارقة، ويُعَدُّ نتاجًا لفَهْم مغلوط تمامًا... الحقيقة بالأحرى أنه بإمكاننا الحفاظ على نظام التعقيد هذا... من خلال دَعْم القواعد المؤدِّية إلى تشكيل نظام تلقائي وتحسينها بطريقة غير مباشرة»[1509].

ثمة آخرون تَبيَّنوا لأنفسهم هذا الطريق الشاق. في شركة فورد موتور Ford Motor Company، بدأ كبار المسؤولين التنفيذيين يلاحظون أن حجمَ المعلومات التي يجب عليهم التعامل معها جِدُّ هائل، في لحظةٍ صارت فيها خطوطُ التجميع مُحْكَمةً للغاية بحيث تقتضي التغييراتُ البسيطة في تصميم سيارةٍ انقطاعاتٍ طويلةً في الإنتاج. لقد «صارت جيدة جدًا»[1510].

فوَجَدَت التكتلاتُ المتكاملة رأسيًا نفسَها تحت ضغط الانفراط فيما أطلق عليه المؤرِّخون الاقتصاديون «ثورة السوق الثانية»[1511]، لأنها ليست بقادرة على التنافس مع مزيد من المنافسين الأمهر والأكثر رشاقة الذين يستعينون بمصادر خارجية في سلاسل إمدادهم supply chains[1512]. وقد عمل على تسريع التحول عن التسلسل الهَرَمي وعيٌ مُتنامٍ لدى النُّخَب السياسية الغربية بأن الرخاء سيزيد أيضًا بزيادة التجارة الدولية.

أحلام أواسط القرن بالاكتفاء الذاتي استسلمت لعصر سعيد مفعم بالثقة، يمكن

فيه استثمار ميزة النسبية مرة أخرى. ظهر مصطلح «العَوْلمة» globalization - الذي يُعَرَّفُ بأنه «عالمية النطاق والتطبيق» - لأول مرة في قاموس ميريام وِبستر Merriam - Webster في عام 1951[1513]. وفي عام 1983، نشر ثيودور ليفيت[1514] Theodore Levitt مقالته المؤثِّرة عن «عَوْلمة الأسواق» The Globalization of Markets في دورية هارفارد بيزنس ريفيو Harvard Business Review[1515].

ومع ذلك، ليس من الصحيح تمامًا أن الخطة القومية تراجعت أمام السوق العَوْلمي. فكما أشار والتر باوِل[1516] Walter Powell في مقاله المُنَوِّر عام 1990، يمثل ازدهارُ شبكات الأعمال على المستويين القومي والدولي معًا شيئًا أكثر من مجرد انتصار الأسواق على المؤسسة الهَرَميَّة. يقول باوِل: «في الأسواق تكون الإستراتيجية المعيارية هي الدفع نحو أصعب صفقة رابحة ممكنة في تبادل فوري. وفي الشبكات، الخيار المُفضَّل غالبًا هو خلق مديونية واعتماد [ثقة] على المدى الطويل»[1517]:

في أساليب الشبكة لتخصيص الموارد، لا تحدث الصفقات عبر تبادلات منفصلة ولا بأمر إداري، بل من خلال شبكات الأفراد المشاركين في أفعال تبادلية وتفضيلية يدعم بعضها بعضًا. الشبكاتُ معقدةٌ: فهي لا تنطوي على معايير سوق واضحة، ولا على أبويَّة التسلسل الهَرَمي المألوفة. الفرضيةُ الأساسية في العلاقات الشبكية هي اعتماد طرف على موارد يسيطر عليها طرفٌ آخر، وتحقيق المكاسب عن طريق تجميع الموارد. ومن حيث المبدأ، يوافق أطراف الشبكة على التخلِّي عن الحق في متابعة مصالحهم الخاصة على حساب الآخرين[1518].

وهذا له مزاياه الواضحة، فهو دون شك ترتيبٌ أكثر مرونةً من التسلسل الهَرَمي. ولكنه ينطوي أيضًا على قدر من التواطؤ بين أفراد الشبكة ضد الوافدين الجُدُد[1519].

كان لهذه الفكرة آثارها المهمة على محاولات تكييف القطاع العام مع بيئة سبعينيات القرن العشرين الجديدة. لقد اتضح بما يكفي أن التسلسل الهَرَمي المركزي - الذي يُجسِّده «رجلٌ من الوايتهول» عارِفٌ بكل شيء ولكنه عاجز - لم يعد يعمل. وكان الأقلُّ وضوحًا اندراجَ قوى السوق في احتكارات طبيعية أو مفروضة أُنْشِئتْ أيام «التأميم» nationalization الذهبية. صار مصطلح الفن هو «الخَصْخَصَة» privatization بدءًا من أوجُستو بينوشيه[1520] Augusto Pinochet في شيلي Chile، إلى مارجرِت تاتشر Margaret Thatcher في بريطانيا. وأما من حيث الممارسة العملية، فمالت التسلسلاتُ الهَرَميَّة إلى

تَرْك مكانها لشبكات قوية الترابط بدلاً من الأسواق التنافسية[1521].

كان من الأوهام الدائمة أن «قوى السوق» تضع في حسبانها مؤسسات مستعصية مثل هيئة الخدمات الصحية الوطنية National Health Service أو السكك الحديدية البريطانية British Rail. لكن الحاصل أن الخطط العظيمة أخْلَتْ مكانَها لشبكاتٍ وَحَّدَتْها روابطُ الثقة وإعطاء الهدايا[1522]. وكانت النتائجُ بوجه عامٍ أفضلَ، بمعنى أن الخدمات [المرافق] العديدة التي خُصْخِصَتْ صارت أكفأ، أما «الكوانجو» [هيئات إدارية شِبْه حكومية] quangos و«الدوائر السحرية» المسؤولة عنها فلم يكن لها من أملٍ في التمتع بشرعية شعبية.

لا شيء يوضح فعَّالية النظام الشَّبَكي الناشئ، وفي الوقت نفسه غير الرسمي [بمعنى عدم اندراجه في قنوات النظام الرسمية]، أفضل من مجرى حياة هنري كيسنجر Henry Kissinger. شَقَّ كيسنجر - اللاجئ من ألمانيا النازية - طريقَه بوصفه طالبًا في التاريخ والفلسفة والجغرافيا السياسية geopolitics أثناء خدمته في الجيش الأمريكي، حتى صار أحدَ أساتذة هارفارد Harvard العديدين الذين استقطبتهم الحكومة [الأمريكية] خلال الحرب الباردة. فجاء تعيينُه مستشارًا للأمن القومي أثناء رئاسة ريتشارد نيكسون Richard Nixon في ديسمبر عام مفاجأةً للعديد من الناس (ولكيسنجر نفسه)، لأنه حُسِبَ - طوال العقد السابق - على نيلسون روكفلر Nelson Rockefeller، المنافس الأرستقراطي لنيكسون داخل الحزب الجمهوري Republican Party. وقد أعرب الرئيس السابق أيزنهاور Eis، وهو على فراش المرض، عن ارتيابه في التعيين. إذ هَتَفَ عندما سمع باختيارِ نيكسون له: «ولكن كيسنجر أستاذ [جامعي]. أنت تطلب من الأساتذة دراسةَ المشكلات، ولكنك لا تضعهم في موقع المسؤولية عن أي شيء»[1523]. ولم يكن هذا الرأي سوى عدم تقدير للأستاذ الذي نحن بصدده.

وصل كيسنجر إلى البيت الأبيض White House بحساسية زائدة تجاه البيروقراطية، شاركه فيها الرئيسُ الجديد. (بدأت هذه الحساسية في الجيش، الذي حصل فيه على أقل رُتْبَة رغم قيامه بدور قوي بوصفه عميل مكافحة تجسُّس[1524] counter - intelligence،
واستمرت هذه الحساسية طوال فترة وجوده في هارفارد، لأن موهبتَه الحقيقية تكمن في إنشاء مؤسسات جديدة بدلاً من الانحناء لكبار أعضاء هيئة التدريس والعُمَدَاء). كَتَبَ في أطروحته للدكتوراه قائلاً: «روح السياسة وروح البيروقراطية على طرفيْ نقيض». «جوهر السياسة هو عَرَضِيَّتُها [احتماليتُها]؛ ويعتمد نجاحها على صحة التقدير الذي هو في جانب منه حدسيٌّ. أما جوهر البيروقراطية فهو إيثار السلامة؛ ويكمن نجاحها في تكييف الأمور وفق هدف محدَّد... وتُؤدّي محاولةُ تدبير السياسة بطريقة البيروقراطية إلى التكييف الذي يسقط في أحبولة الأحداث
الراهنة»[1525].

كان كيسنجر يشكو، على مدى خمسينيات القرن العشرين وستينياته، من مَيْل كل رئيس إلى «مواجهة الأمر الواقع[1526] faits accomplis بالبيروقراطية فيُصَادِق عليه أو يُلَطِّفه، الأمر الذي يعوق التفكيرَ الحقيقي في

البدائل»[1527].

ويذكر كيسنجر، في مقالة منشورة عام 1966 بعنوان «الهيكل الداخلي والسياسة الخارجية» Domestic Structure and Foreign Policy، أن البيروقراطية الحكومية «بذلت جهدًا مُتعمَّدًا لاختزال العناصر وثيقة الصلة بالمشكلة إلى مستوى الأداء المتوسط». وهذا بِحد ذاته مشكلةٌ، ذلك أن «ما تُعرِّفه البيروقراطيةُ بوصفه روتينيًا لا يُعالِجُ النطاقَ الأهم في القضايا؛ أو يَثبت أن أسلوبها المعتاد في اتخاذ إجراء، لا علاقة له بالمشكلة». وفي الوقت نفسه، وُجِدَ مَيْلٌ إلى «تنافسات بيروقراطية» بين الأقسام [الإدارية]، بوصفها الوسيلة الوحيدة لتوليد القرارات؛ أو مَيْلٌ لدى عناصر البيروقراطية المختلفة إلى وَضْع «سلسلةِ قواعدِ عدمِ تَعدّي أحدها على الآخر، ومن ثمَّ تقليص دور صانع القرار إلى دور مَلِك دستوري يسعى بين الناس بالخير». ما لم يفهمه معظمُ الناس عن الخطابات الرئاسية التي تتناول السياسة الخارجية، فيما يقول كيسنجر، هو أنها تستهدف عادةً «تسويةَ نقاشٍ داخلي في واشنطن»[1528].

في ربيع عام 1968، وقبل أشهر فقط من عَرْض وظيفة مستشار الأمن القومي على كيسنجر، ذهب إلى حدِّ القول بأنه «لا توجد سياسة خارجية أمريكية»، وإنما «سلسلة تحرُّكات تسعى إلى نتيجة محدَّدة»، وهي تحرُّكات «لم تكن تُخَطِّط للوصول إلى هذه النتيجة»، «وتحاول الهيئاتُ البحثية والاستخباراتية، سواء الخارجية أو الداخلية، إضفاءَ عقلانية واتساق عليها... تفتقر إليهما بكل بساطة».

ويقول كيسنجر إن «أعلى مستوى تفكير يحدث» في الإدارة الحكومية، يأتي من «مستوى البيروقراطية المتوسط - مستوى الأمين المساعد ومستشاريه المباشرين...

وعدا ذلك، يَمتصُّ التشغيلُ اليومي للآلة معظمَ الطاقة». في ظل هذه الظروف، «لا تُتَّخذ القراراتُ حتى تظهر بوصفها مسألةً إدارية»[1529].

أفضلُ مثال على حجة كيسنجر فشلُ إستراتيجية الولايات المتحدة الذريع في فيتنام. فهو يكتب بعد عدة زيارات إلى فيتنام الجنوبية قائلاً: لا يوجد «شيء يُسَمَّى...

سياسة فيتنام؛ لا يوجد سوى مجموعة من برامج الوكالات الفردية المهتمة بفيتنام. وهذه البرامج قد تنسجم فيما بينها أو تتعارض إذا وُجِدَ صراعٌ بين الوكالات العاملة ميدانيًا، حسب الأحوال». وبذلك وُجِدَتْ ثلاثُ مشكلات. المشكلة الأولى: كان النظام يعمل حين توجد وكالتان متعارضتان، كلُّ وكالة منهما تقف على جانب

من جوانب القضية؛ ويفشل الأمر عندما تُخَصَّصُ مجموعةٌ صغيرة لا تَلْقَى معارَضةً كي تتولَّى العمل. المشكلة الثانية: لا يوجد تخطيطٌ لأنه لا أحد لديه الوقت للتخطيط («فالتخطيط يعني حَدْسًا وتخميناتٍ بشأن المستقبل وحالاتٍ افتراضيةً. وهم مشغولون بالحالات الواقعية التي يُحْجِمون عن معالجتها وَفْقَ حالات نظرية»). المشكلة الثالثة: صُنَّاع السياسة مُبْتَلون بـ«عدم شعور فطري بالأمان» لأنهم يفتقرون إلى خبرة مستشاريهم؛ ولذا يلجأون إلى «البحث عن توافق [إجماع] إداري». وقد أدَّى كلُّ هذا إلى نتائج كارثية عندما سعت الولايات المتحدة إلى التفاوض من أجل إنهاء الصراع مع الفيتناميين الشماليين المُتَعنِّتين بدرجة كبيرة. كان هناك إغراء دائم في واشنطن بعدم اتخاذ قرار بالمرة، وانتظار «ما يعرضه الطرف الآخر» بعد بداية التفاوض.

لهذا، في فترات الديبلوماسية التمهيدية، موقفنا صارمٌ ومتشدِّدٌ، لكن هذا الموقف يتغير بسرعة عندما يُعيَّنُ مُفاوِضٌ، يتصرف بوصفه ناطقًا بلسان الطرف الآخر.

ولا تتمثل مشكلته في الاهتمام بالصورة الشاملة، وإنما يهتم بنجاح المفاوضات. ويمكنك القيام بمفاوضات ناجحة عندما تضع في حسبانك ما يقوله الطرف الآخر بجدية[1530].

وكما يقول كيسنجر: «البرَجْماتية pragmatism والبيروقراطية امتزجتا لإنتاج أسلوب ديبلوماسي يتصف بالصلابة أثناء التمهيد للمفاوضات الرسمية، ثم حين تبدأ المفاوضات نرى اتكالاً زائدًا على الاعتبارات التكتيكية»[1531].

ذلكم هو نقد البيروقراطية الذي أدَّى بكيسنجر ومجموعة من أقرانه في هارفارد إلى تقديم مشورة للرئيس المُنْتَخب الجديد بعدم تعيين رئيس موظفين [في البيت الأبيض][[1532]] chief of staff قوي، مُخوَّل بالتحكم فيما يصل إلى الرئيس. كانوا يقولون إن الرئيس التنفيذي [رئيس البلاد] الناجح يحتاج إلى المَزْج بين «عناصر التسلسل الهَرَمي وتوزيع قنوات الوصول إليه». ومن الأفضل كثيرًا [في هذه الحالة] تعيين مستشار إستراتيجي رئيسي بأوسع نطاق مسؤوليات ممكن[1533].

فهل وَضَعَ كيسنجرُ نفسَه في الحسبان عند تقديمه هذه النصيحة؟ على الأغلب لا؛ إذ حين كَتَبَ ذلك، كان أقصى ما يمكنه الأمل فيه نائب أمين عام إذا عَرَضَ نيكسون على روكفلر وزارة الدفاع Department of Defence. ومع ذلك، كان دورُ كبير الإستراتيجيين هو الدورُ الذي سرعان ما وَجَدَ نفسَه يلعبه في كل شيء بالاسم، وإنْ يكن بتفويض رسمي في السياسة الخارجية فقط.

مَالَ معظمُ الكُتَّاب الذين درسوا مجرى حياة كيسنجر اللاحقة في واشنطن إلى

تفسير تنامي نفوذه السريع، سواء للأفضل أو للأسوأ، بعلاقته الوثيقة بنيكسون أو بموهبته في الاحتراب الداخلي البيروقراطي الذي أدانه بوصفه أكاديميًا. ولكن هذا التفسيرَ يتغافل عن السمة الأمْيَز في طريقة عمل كيسنجر. فبينما استمر مَن حول كيسنجر في الالتزام بقواعد البيروقراطية الهَرَميَّة التي استوظفتهم، كرَّسَ كيسنجر منذ البداية جزءًا كبيرًا من طاقته لبناء شبكة تمتد أفقيًا في جميع الاتجاهات إلى أبعد من اهتمامات مسؤولي الحكومة الفيدرالية Washington Beltway:[1534]

إلى الصحافة، بل وصناعة الترفيه داخل الولايات المتحدة، ولعل الأهم إلى حكومات أجنبية رئيسية عبر مجموعة «قنوات خلفية» متنوعة. وقد تَوفَّرَ كيسنجر على هذه المهمة بمقدرته الفطرية على الدخول في علاقات وجدانية، وكذلك فكرية، مع أشدِّ محاوريه تحفُّظًا، وهي مهارة شحذها قبل فترة طويلة من تعيين نيكسون له.

وكما رأينا (في الفصل 40)، تَميَّزَ النظامُ السوفييتي بتدميره المنهجي للشبكات الخاصة وعَزْل الأفراد، وقد استمر ذلك لفترة طويلة بعد وفاة ستالين. لقاءان بين آنّا أخماتوفا وإشَعْياء برلين كلَّفاها أغلى ما عندها. بل في أواخر ستينيات القرن العشرين، عندما قابل المواطنون السوفييتُ الأمريكيين - ونادرًا ما كان يحدث هذا بطبيعة الحال - كان عليهم أن يأخذوا حذرهم.

وكانت مؤتمرات باجواش[1535] Pugwash للعلماء استثناءً نادرًا. واليوم، بعد حصول منظمة باجواش على جائزة نوبل للسلام في عام 1995، تُعَدُّ باجواش مرادفًا لنزع السلاح وتسوية الصراع عبر ما يُسَمَّى «اتِّباع مساريْ الدبلوماسية»[1536].

ولكن مؤتمرات باجواش أثناء الحرب الباردة اتَّسَمَتْ بطابع أكثر التباسًا، لأن الأكاديميين السوفييت الذين حضروها كان يجب أن توافق عليهم أولاً اللجنةُ المركزية في الحزب الشيوعي Central Committee of Communist Party، بل وأحيانًا البوليتبورو [المكتب السياسي] Politburo.[1537]

وبهذا المعنى، «كان لدينا، نحن [العلماء الأمريكيين] خطٌّ اتصال مباشر مع الحكومة السوفييتية من خلال باجواش»[1538]، على حدِّ تعبير الفيزيائي فيكتور فايسكوبف Weisskopf Victor[1539].
أما الرأي الأقل إيجابية فهو أن المؤتمرات «لعبت دور مَنَصَّات صوتية مُعادِية للدعاية الأمريكية ومؤيِّدة للدعاية

السوفييتية»[1540].

حين حضر كيسنجر، لأول مرة له، مؤتمر باجواش المنعقد في ستو Stowe، بولاية فيرمونت Vermont [أصغر الولايات الأمريكية]، في عام 1961، اختبر بنفسه الدعايةَ والتبادل الهادف معًا. في البداية، تمسَّك المندوبون السوفييت بخطِّ الحزب، ولكن كيسنجر تَمكَّنَ من تجريد البعض منهم بروح دعابته المشهور بها.

فمثلاً، اقترب من كيسنجر المؤرِّخُ الروسي فلاديمير كفوستوف[1541] Vladimir Khvostov والفيزيائي إيجور تام[1542] Igor Tamm، قبل مغادرتهما إلى المطار، وسألاه مجموعةَ أسئلة مهمة رسميًا عن سياسة الولايات المتحدة نحو برلين. هل ضمان الأمم المتحدة للحقوق الأمريكية في برلين الغربية مقبول؟ فرَدَّ كيسنجر بأن الولايات المتحدة «لن توافق على وَضْعٍ يمكن أن تُغيِّره الأغلبيةُ كل عام في الجمعيةً العامة General Assembly. أما تام فتساءل عن ضمان لمدة خمس سنوات.

قلتُ إنها مدة قصيرة جدًا. ثم تساءل عمَّا إذا كانت المدة عشر سنوات. فأجبتُ بأنه إذا استمر ذلك فسأقترحُ مئةً وخمسين عامًا، وربما أمكننا التقابل في المنتصف.

فضحك وقال إننا نفهم أحدنا الآخر». أحبَّ الهومو سوفييتيكس[1543] Homo Sovieticus هذا النوعَ من حضور البديهة[1544]. في لحظاتٍ على هذه الشاكلة، كانت باجواش شبكةً فريدة تعمل عبْر الستار الحديدي[1545] Iron Curtain.

بعد خمس سنوات، في مؤتمر باجواش في منتجع سوبوت Sopot البولندي، اندهش كيسنجر من عنف القدْح السوفييتي في الصين. قال له عالِمُ الرياضيات السوفييتي ستانيسلاف إيميليانوف Stanislav Emelyanov أثناء رحلة بالقارب إلى ميناء جِدَانِسك Gdansk: «لم تعد الصين شيوعيةً، لقد صارت فاشيةً». «لم يُذَكِّره الحرسُ الأحمر[1546] Red Guards بشيء قدر تذكيره بالشباب أيام هتلر[1547].

الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي لهما مصلحة مشتركة في مَنْع التوسُّع الصيني». اعترف إيميليانوف صراحةً بأنه لم يرَ الحكومةَ السوفييتية مرتبكةً منذ أعقاب حديث خروتشوفKhrushchev[1548] عن محو الستالينية – de

[1549] Stalinization.

ومن خلال باجواش، تسلَّمَ كيسنجر دعوةً للذهاب من بولندا إلى براغ Prague [عاصمة تشيكوسلوفاكيا][1550]، وهناك قَابَلَ أنتونيون شْنيدارِك Antonín Šnejdárek، المدير السابق لعمليات الاستخبارات التشيكية في ألمانيا، الذي صار مدير معهد السياسة الدولية والاقتصاد Institute of International Politics and Economics في البلاد. التقى الرجلان مرةً أخرى في فيينا في الاجتماع السنوي لمعهد الدراسات الإستراتيجية Institute for Strategic Studies الذي تأسَّس في لندن. حذَّرَ التشيكيُّ صراحةً كيسنجر من أن السوفييت ليس لديهم نيَّة صادقة لمساعدة الأمريكان في تخليص أنفسهم من فيتنام. بل قال إن الأزمة في جنوب شرق آسيا قد تنتهي إلى كَوْنها «ذريعةً مريحة [بالنسبة إلى موسكو] لتشديد سيطرتها على أوربا الشرقية». (لم يدرك كيسنجر ذلك، ولكن مناقشاته الصريحة مع شْنيدارِك كانت بحد ذاتها إيحاءً [إنذارًا] ب ربيع براغ[1551] Prague Spring القادم، ذوبانًا سياسيًا اعْتَقَدَ التشيكيُّ أنه لن يكون مقبولاً في الكريملين[1552] Kremlin).

اللقاء الأكثر إيحاءً وكشفًا من بين كل تلك اللقاءات حَدَثَ في يناير عام 1967، عندما عاد كيسنجر إلى براغ. فمرةً أخرى، حذَّره شْنيدارِك، من أن موسكو «صارت أكثر حساسيةً بشأن تنامي حرية الحركة في بلدان أوربا الشرقية، ولا سيما الجهود التشيكية لتقليل اعتمادهم على موسكو». لكنه أدهشَ كيسنجر الآن بمسألة أن كيسنجر عليه أن يعترف «لم يخطر على بالي»: إذ اعتقد أن «صفقة أمريكية صينية قَيْد التجهيز». وعندما استشعر شنيدارِك اندهاشَ الأمريكي، أخذ يوضح:

<u>لقد حمل السوفييتُ الهجومَ الصيني عليهم [وهو ملمح أساسي في ثورة ماو الثقافية] على محمل الجد. لم يتمكَّنوا من ترويض أنفسهم على تقبُّل نهاية الوحدة الاشتراكية، ناهيك عن تحدِّي مكانتهم بوصفهم المفسِّرين الرئيسيين ل اللينينية Leninism. لذا، لم يكن حجم محاولتهم للتأثير في التطورات الصينية الداخلية مفهومًا دائمًا. لقد أيَّدوا جهاز الحزب ضد ماو Mao...</u>

وتَهوَّرَ الماويون Maoists، بدورهم، ف«طردوا السوفييت من الصين. وما سيجعلهم يشعرون بالأمان ليس أقل من قطع العلاقات مع الاتحاد السوفييتي تمامًا».

لقد بَدَت الثورة الثقافية Cultural Revolution وكأنها صدع أيديولوجي، فبدا الصينيون ماركسيين أكثر راديكاليةً. لكن:

مهما كانت حماسة ماو الأيديولوجية، فستُجْبِره المادةُ البشرية المتاحة أمامه على التوجُّه القومي؛ على افتراض أنه لا يزال مسؤولاً عن حركته. ورغم حديث الماويين الجامح، فمن الواضح أنهم أكثر مرونة نحو الولايات المتحدة من خصومهم. سيتوجَّبُ عليهم إغلاق الصين، على أية حال، لإعادة تشكيل السلطة الحكومية، ولعل التوصل إلى معاهدة عدم اعتداء مع الولايات المتحدة ربما يناسب هذا التخطيط تمامًا. هم يكرهون الولايات المتحدة أيضًا؛ لكن... لا يمكن لأي شيوعي أن ينسى تحالف هتلر - ستالين.

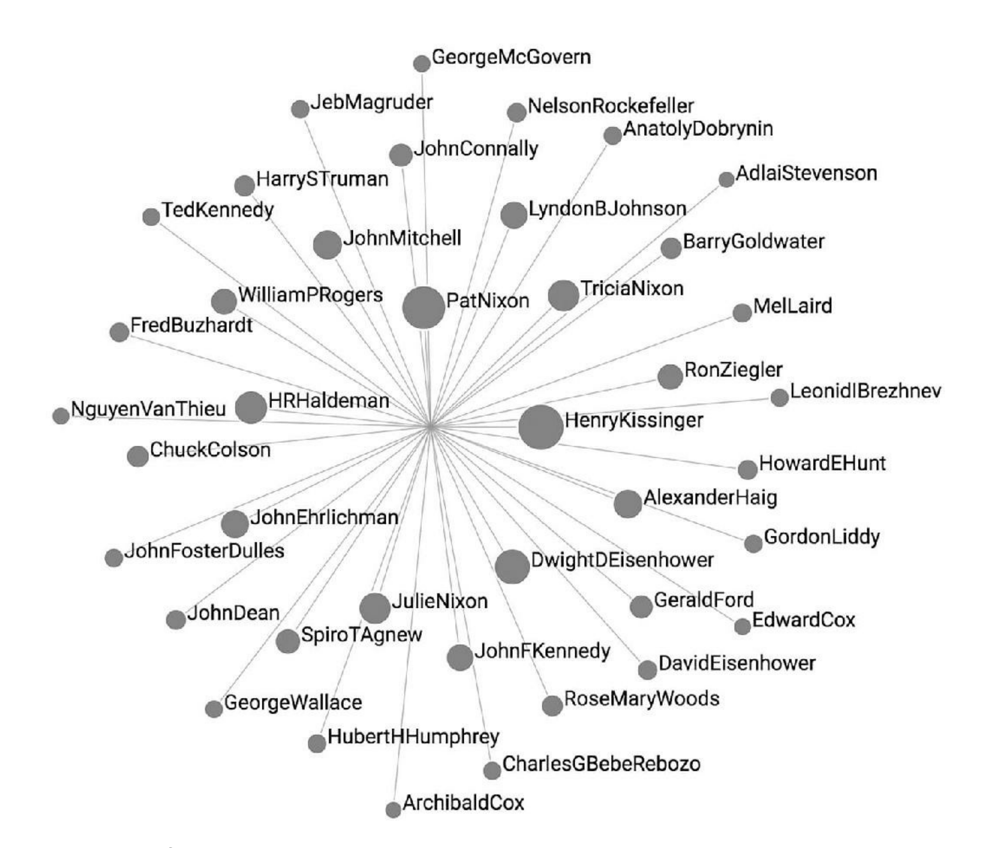
«تحالف جونسون - ماو» Johnson - Mao pact هذا، سيناريو ينذر بالخطر من وجهة نظر تشيكية، لأنه «إذا توصلت الولايات المتحدة إلى تسوية مع الصين فسيشتد الضغط [السوفييتي] في أوربا». وخوفًا من العزلة، سيقوم السوفييت بتضييق الخناق على ما أسماه شْنيدارِك، بأسلوب غير مباشِر، «آفاق النمو القومي في أوربا الشرقية». كان كيسنجر مندهشًا؛ ولكن تخوُّفَ مُضيفِه التشيكي من «صفقة الولايات المتحدة مع ماو» بدا «حقيقيًا وعميقًا»[1553].

وقد تكهَّنَ باحثون لوقت طويل بأن الفَهْم الإستراتيجي الأمريكي للانفتاح على الصين من شأنه تحويل المشهد الجيوسياسي في عام 1972. لم يكن الأمريكيون هم الذين فكروا في ذلك أولاً، بل مفكرون إستراتيجيون من الكتلة السوفييتية هم الذين تنبأوا بعالم جديد يَنتج عن الانشقاق الصيني السوفييتي، قبل أكثر من أربع سنوات من زيارة نيكسون التاريخية للصين.

ابتداءً من يناير عام 1969، شرع كيسنجر في تطبيق بعض الدروس التي تعلمها بوصفه أكاديميًا ومثقفًا عامًا، وبخاصة درس أن الشبكات غير الرسمية يمكنها توفير قنوات ديبلوماسية تتفوق على وزارات الخارجية والسفارات. وعلى سبيل التمهيد لكتابة المجلد الثاني من حياة كيسنجر، حاولتُ رَسْمَ شبكة كيسنجر استنادًا إلى جميع المذكرات المنشورة المتعلقة بفترة عمله في الحكومة. وهذا يُوفِّرُ خريطةً أولية لشبكاته وشبكات الآخرين كما يتذكرها كيسنجر نفسه ومعاصروه في الحكومة. تُصَوِّرُ الرسومُ البيانية أدناه الشبكات الذاتية لدى ريتشارد نيكسون وهنري كيسنجر استنادًا إلى مذكراتهما؛ أما شبكة إدارات نيكسون وفورد Ford الذاتية فتستند إلى كل مذكرات أفراد الشبكة؛ وتُبَيِّنُ شبكةُ إدارات نيكسون وفورد المُوجَّهةُ عددَ مرات ذِكْر الأفراد البارزين لبعضهم البعض في مذكراتهم[1554].

في الرسوم البيانية الثلاثة الأولى (الأشكال: 30, 31, 32)، تُمَثِّلُ الأهميةُ النسبية بالقُرْب من عُقْدَة «الأنا» المركزية (في الرسم البياني الثالث [32] هُويَّات كل الأفراد الذين كتبوا مُذكرات) وبنطاق العُقْدَة، في آنٍ معًا. أما في الرسم البياني الرابع (الشكل 33)، فنستطيع أن نرى مَن ذَكَروا وكَمْ مرة فعلوا ذلك تقريبًا من

خلال القُرْب المتبادل وعَرْض الحافّة واتجاه السهم.



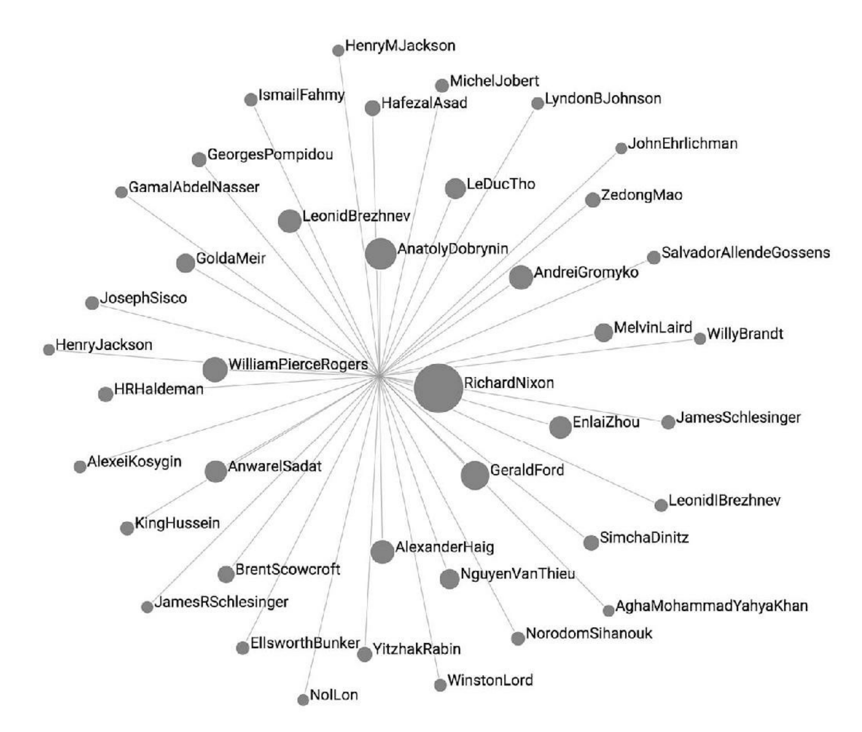

الشكل رقم: 30 - شبكة الأنا عند ريتشارد نيكسون، على أساس مذكراته.

تُمَثِّلُ هذه الطريقةُ نقطةَ بدايةٍ لمزيد من الاستكشاف الشامل. وهي في الأصل دراسة من خلال الاستعادة والتمثيل: من حيث المبدأ، نرى هنا أهمية الأفراد النسبية في سنوات نيكسون وفورد بوصفهم أعضاء في الإدارتين يتذكرون علاقاتهم ويريدونها أن تُتَذَكَّرَ، وبخاصة في فترة تمزُّقها بسبب فضيحة ووترجيت Watergate Scandal.[1555]

ولا شك في أن صورةً مختلفةً، نوعًا ما، ستنبثق من رسوم بيانية تعتمد على مصادر مختلفة[1556]. وتُفيد هذه الرسومُ البيانية في إيضاح بعض الفوائد المنهجية بالنسبة إلى مؤرِّخ تحليل الشبكة الاجتماعية.

أولاً، لدينا هنا تصحيحٌ قيِّمٌ لأي افتراضات، ربما تكون مُغْرية، بشأن «المُهِمِّين» في فترة نيكسون - فورد. كيسنجر غزير العلاقات، وهو مُهِمٌّ لنيكسون بقدر أهميته لزوجته، وثاني أهم عضو في الإدارتين، ويتفوق على فورد الذي أصبح الرئيس [بعد نيكسون من عام 1974 حتى عام 1977]. وأما التالي من حيث التَّمَرْكزية البَيْنية (انظر الشكل 33) فيأتي مساعدُ نيكسون [رئيس موظفي البيت الأبيض] هالدمان H. R. Haldeman، يليه فورد ومستشارُ البيت الأبيض جون دين John Dean.

كما احتلَّ مرتبةً أعلى، على هذا الأساس، جون إيرليتشمان John Ehrlichman (مساعد الرئيس للشؤون الداخلية)، ووزير الخزانة جون كونالي John Connally، والرئيس المستقبلي جورج دبليو بوش George H. W. Bush، وألكسندر هيج Alexander Haig (مساعد كيسنجر ثم نائب هالدمان وخليفته بعد ووترجيت).




الشكل رقم: 31 - شبكة الأنا عند هنري كيسنجر، على أساس مذكراته.

من اللافت للنظر، أيضًا، أن عددًا كبيرًا من المَوْتَى يلوح في أفق كُتَّاب المُذكرات. ليندُن جونسُن Lyndon Johnson (الذي تُوفِّي في يناير عام 1973) هو الشخصيةُ الثالثة - بعد نيكسون وكيسنجر - الأكثرُ ذِكْرًا في كل المُذكرات مجتمعةً، ويأتي جون كينيدي John F. Kennedy في الترتيب السابع (الشكل 32).

ثم يأتي الرؤساء الأسبق دوايت أيزنهاور (المُتَوفَّى في مارس عام 1969) وفرانكلين روزفلت Franklin D. Roosevelt وهاري ترومان Harry S. Truman (المُتَوفَّى في ديسمبر عام 1972) بوصفهم الأفرادَ الأكثرَ ذِكْرًا في الترتيب العاشر والسادس عشر والحادي والعشرين. ويأتي تشرشل في الترتيب الثالث والخمسين، وستالين في الرابع والخمسين. ولعل المُطَمْئِنَ بالنسبة إلى المؤرِّخ أن يجد كُتَّابَ السير الذاتية يعودون غالبًا إلى الفترات التي تسبق خدمتهم في الحكومة، ولو على سبيل الإشارة إلى الشخصيات المؤثِّرة في شبابهم الأول.

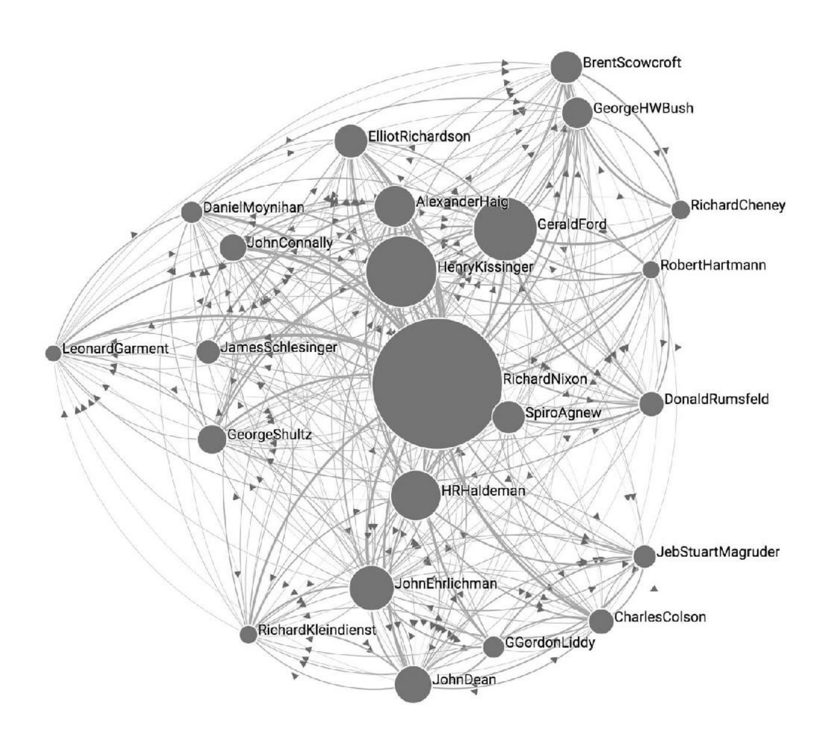
هنا موضع الشكل رقم: 32 - شبكة الأنا في إدارتي نيكسون وفورد، على أساس مذكرات كل أعضاء الإدارتين.

ثالثًا، نحن نرى الاختلاف بين «العالَم طبقًا لنيكسون» و«العالَم طبقًا لكيسنجر». كانت دائرةُ نيكسون الداخلية (الشكل 30) دائرةَ رجلٍ خبرتُه في الرئاسة محصورةٌ داخل جدران البيت الأبيض، إلى حد كبير. وبالإضافة إلى زوجته وبناته، يشير نيكسون في مذكراته إلى كيسنجر وأيزنهاور (الذي كان نيكسون نائبًا له)

وهالدمان وإيرليتشمان وهيج، إشاراتٍ كثيرةً. أما كيسنجر فيذكر الزعماءَ الأجانب الرئيسيين بالقدر نفسه الذي يذكر به الرؤساءَ الذين خَدَمَ معهم، أكثر مما فَعَلَ وزيرُ الخارجية الذي سبقه في هذا المنصب ويليام روجرز William Rogers (الشكل 31). الشيء الألفت للانتباه هو القادة الأجانب الواردون كثيرًا في مذكرات كيسنجر:

جاء في المرتبة الأولى السوفييت (سفيرهم في واشنطون أناتولي دوبرِنين Anatoly Dobrynin، وزير خارجيتهم إندري جروميكه Andrei Gromyko، رئيسهم ليونيد بريجْنيف Leonid Brezhnev)، ثم يليهم رئيسُ الوزراء الصيني تشو إنلاي[1557] Zhou Enlai، والرئيس المصري أنور السادات. وبغضّ النظر عن بريجْنيف ودوبرِنين، يأتي أجنبيٌّ آخرُ فقط من بين الأربعين شخصًا الأكثر ذِكْرًا عند نيكسون هو: نجوين فان ثيو Nguyen Van Thieu رئيس فيتنام الجنوبية.

ومن بين الأربعين المُتَربِّعين على القمة عند كيسنجر كان ستةُ عشر فقط أمريكيين. وبطبيعة الحال، سنتوقع من مستشار الأمن القومي ووزير الخارجية أن يقضي وقتًا أطول مما يقضيه الرئيس مع الأجانب؛ هذه طبيعة الوظيفة. ولكن من الصعب تصديق أن أي حائز لهذين المنصبين لا يتعب ولا يَكَلُّ من السفر والتفاوض.




الشكل رقم: 33 - الشبكة الموجَّهة في إدارتي نيكسون وفورد، تُصَوِّرُ اتجاه وتردُّد ذِكْر أعضاء الإدارتين أحدهما للآخر في مذكراتهم.

أثناء وجود كيسنجر في منصبه، ظهر على غلاف مجلة التايم Time ما لا يقل عن خمس عشرة مرة. وطبقًا لما نُشِرَ عنه في المجلة عام 1974، يَرِدُ عنه: «رجلٌ لا يستغني عنه العالَم... الرجل المناسب في المكان المناسب في الوقت المناسب»؛ رغم اتهامه بأنه يُولِي «اهتمامًا بمبادئ أكثر من مبادئ أخرى»[1558].

ولا بد من افتراض أن نفوذ كيسنجر وسُمْعته كانا نتاجًا لنباهته الفكرية واجتهاده، بالإضافة إلى علاقاته الكثيرة غير العادية. وكانت الديبلوماسية المكوكية جزءًا من ذلك.

ومع براعة كيسنجر في رَفْع الكُلْفة بينه وبين الصحفيين، فنادرًا ما ذَكَرَهم في مذكراته، رغم وثاقة صداقاته بالأخوين أَلْسوب Alsop brothers، ستيوارت Stewart وجوزيف Joseph، وكاتب العمود الصحفي توم بريدن Tom Braden. وكما قالت التايم Time، «حافظ كيسنجر بدقة على الطقوس المطلوبة من المرؤوس الذي يتلقى الأوامر من القائد الأعلى» في اللحظة التي كانت تنهار فيها رئاسةُ نيكسون. فظلت العلاقةُ «الرسمية والمستقيمة، بدلاً من الشخصية»، مع نيكسون حيويةً بشكل مؤسَّسي حتى استقالته النهائية[1559].

وكما ذكرت التايم، يمتلك كيسنجر «إحساسًا منضبطًا بالتسلسل الهَرَمي»[1560]. ولكن الأهمَّ من كل ذلك علاقاتُه الأخرى في شبكةٍ شملت الكرةَ الأرضية، بما

فيها «شبكة الولد القديم» التي ضمَّتْ مشاركين سابقين في سيمنارات كيسنجر الصيفية في جامعة هارفارد. قال أحد مساعديه، لم تذكر التايمُ اسمَه: «كان كيسنجر يبحث دائمًا عن الشاب الذي يمكنه تقديم خدمة». وقال «صديقٌ ومُعْجَبٌ من واشنطن» إن «الكثير من الأبواب فُتِحَتْ له». كانت الشبكةُ شرطًا سابقًا لديبلوماسية «التفاعل المتسلسل»[1561] chain reaction، وهو تعبير استعمله نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي يجال ألون Yigal Allon. ذلك ما يُبرِّرُ الادعاء بأن «تأثير كيسنجر في العالم أكبر من تأثير أي شخص آخر»[1562].

ضَعْضَعةُ التسلسلِ الهَرَمي [بمعنى إضعافه التدريجي] وتقوية الشبكات، التي مَيَّزَت سبعينيات القرن العشرين، كانت لها فوائد عديدة. فمن وجهة نظر كيسنجر، قلَّلَتْ هذه الاتجاهات بشكل كبير من مخاطر نشوب حرب عالمية ثالثة Third World War: فكانت رغم كل شيء الأساسَ المنطقي الرئيسي لتكرار الحوار كثيرًا مع الاتحاد السوفييتي (وكذلك بدء الاتصال مع جمهورية الصين الشعبية People's Republic of China). وقد لخَّصَ معاصرو كيسنجر سياستَه الخارجية في كَوْنها «انفراجًا»[1563] détente.

كان كيسنجر يُفَضِّلُ الحديثَ عن «الترابط» [التضامن بين الدول] in. في ديسمبر عام 1973، قال كيسنجر في لندن: إن «نظامًا دوليًا جديدًا» قد حَلَّ محلَّ «هَيْكل السنوات التالية على الحرب مباشرةً»: نظام يقوم على «مفارقة زيادة الاعتماد المتبادل mutual dependence وازدهار الهُوِيَّات القومية والإقليمية»[1564].

ثم أشار بعد ثلاثة أشهر إلى أن «أزمة الطاقة»[1565] energy crisis هي أحد «آلام ولادة الترابط العالمي»[1566].

وفي أبريل عام 1974 كان «تحدِّي الترابط» The Challenge of Interdependence عنوانَ خطابه؛ وبحلول عام 1975 صار الترابطُ «حقيقةً مركزية في ديبلوماسيتنا». ففي أكتوبر عام 1974، كان كيسنجر قد حَذَّر قائلاً: «إذا لم نعترف بأهمية ترابطنا، فستَتفكَّكُ حضارتُنا الغربية بلا شك»[1567].

وأيَّده أكاديميون ممن كانوا زملاءه في الجامعة، من أمثال ريتشارد كوبر Richard Cooper وجوزيف ناي Joseph Nye، فألَّفوا كتبًا في الموضوع[1568]. وقد وَجَدَ الاعتمادُ المتبادل تعبيرَه المؤسَّسي مع الاجتماع الأول للجنة الثلاثية[1569]

Rockefeller estate [1570] روكفلر بيت في Trilateral Commission في بوكانتيكو هيلز Pocantico Hills
ع ا م 1973، والاجتماع الأول لـ«مجموعة السِّتة» Group of Six (بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، اليابان، الولايات المتحدة، وألمانيا الغربية) في رُمْبوييه Rambouillet [في فرنسا] عام 1975.

وقد اختارت صحيفة نيويورك تايمز New York Times أن تحتفل بمرور مئتيْ عام على إعلان الاستقلال Bicentennial of the Declaration of Independence بافتتاحية عنوانها «يوم الترابط» Interdependence Day[1571]. وهو التصور الذي تبنَّاه بحماس الرئيس جيمي كارتر Jimmy Carter[1572] ومستشاره للأمن القومي زبِجْنيو برِجينسكي Zbigniew Brzezinski[1573].

ومع وجود فوائد للعَيْش في عالَم أكثر ترابطًا، كانت هناك تكاليف. يقول برِجينسكي في كتابه «بين عصرين» Between Two Ages: «المدينة العَوْلمية» الجديدة التي خلقها «عصرٌ تكنيتروني» technetronic age هي «شبكةُ علاقات مترابطة، متوترة وموَّارة ومُتشنِّجة ومُتجزِّئة»[1574]. وكل هذا صحيح بأكثر من معنى.

أثناء النصف الأول من الحرب الباردة، استطاعت القوى العظمى السيطرةَ على تدفُّقات المعلومات بتصنيع الدعاية أو رعاية الدعاية، وفَرْز أو مراقبة أيِّ شيء يُعْتَبَرُ ضارًا. واكتنفت حساسيةٌ قوية كلَّ فضيحةِ تجسُّسٍ وانحراف؛ وكلُّ ما كان يحدث في معظم الحالات هو تمرير معلومات مُصَنَّفة [سريةً] من دولة إلى أخرى. ثم تَغيَّرَ هذا أيضًا في سبعينيات القرن العشرين. إذ بدأ تسريب الوثائق الرسمية، فوصلت إلى أيدي الجمهور في الغرب عبْر الصحافة الحُرَّة، ابتداءً من عام 1971 مع ما يُسَمَّى «أوراق البنتاجون» Pentagon Papers التي سَرَّبها دانيل إلزبيرج[1575] Daniel Ellsberg لـ نيويورك تايمز؛ وحدث ذلك أيضًا (وإن بدرجة أقل بكثير) في الكتلة ا ل س و ف ي ي ت ي ة Soviet bloc من خلال أدب الساميزدات[1576] samizdat، وأشهره رواية ألكسندر سولجينتسين «أرخبيل الجولاج»[1577] Alexander Solzhenitsyn's

Archipelago Gulag.
وقد غذَّت التسريبات إلى وسائل الإعلام، بدورها، تصعيدًا كبيرًا للاحتجاج الاجتماعي في حرم الجامعات والمدن الداخلية، الأمر الذي جعل أوائل سبعينيات القرن العشرين محمومةً تغلي، مقارنةً برُبْع القرن الهادئ بعد عام 1945. وعلى وجه الإجمال، شارك ما يقرب من 400 مجموعة مختلفة بصورة من صور الاحتجاج في الولايات المتحدة بين ستينيات القرن العشرين وثمانينياته:

فما بدأ بحملة من أجل الحقوق المدنية للأمريكيين من أصل أفريقي، سرعان ما شمل حملات من أجل حقوق المرأة وحقوق الأمريكيين الأصليين وحقوق الشواذِّ والسُّحاقيات، بالإضافة إلى حملات ضد الحرب الفيتنامية والأسلحة النووية والفقر والتلوث الصناعي[1578].

ولم يكن نيكسون وكيسنجر - شأنهما شأن معظم أفراد الجيل الذي شارك في الحرب العالمية الثانية - صَبوريْن مع هذه المجموعات، بل شبَّه كيسنجر الطلبةَ الراديكاليين الذين قابلهم في هارفارد، أواخر ستينيات القرن العشرين، بالطلبة الألمان الذي حضروا تجمُّعات نورمبيرج[[1579]] Nuremberg Rallies في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين[1580].

ومع ذلك، غامر نيكسون في الصباح الباكر يوم 9 مايو عام 1970، بالخروج من البيت الأبيض لمواجهة مجموعة من الطلبة المُحتجِّين الذين عسكروا حول نصب لنكولن التذكاري Lincoln Memorial، في محاولةِ تواصلٍ غير معهودة من رجل اشتهر بانطوائيته وتفضيله عدم الاختلاط بالناس. قال لهم:

آسف أنهم قد فاتهم ذلك [مؤتمره الصحفي في اليوم السابق] لأني حاولتُ شرح... أن أهدافي في فيتنام كانت كأهدافهم: إيقاف القتل، إنهاء الحرب، إحلال السلام.

لم يكن هدفُنا الوصولَ إلى كمبوديا بما كنا نفعله، بل الخروج من فيتنام.

لم يَبْدُ أن ثمة شيئًا، فَهُم لم يستجيبوا. كان رجائي ألا تتحول كراهيتهم للحرب، التي أستطيع فهمها جيدًا، إلى كراهية مريرة لنظامنا كله وبلدنا، ولكل شيء ترمز إليه بلدنا.

قلتُ، وأنا أعرفكم، إن معظمكم يعتقد أنني رجل عسكري نُخْبوي. ولكنني أريدكم أن تعرفوا أني أتفهَّمُ ما تشعرون به[1581].

لعل نيكسون قد فهم ما يشعر به المُحتجُّون. أما هم فلم يفهموا من على البُعْد ما كان يشعر به أو يهتم به، على حدِّ إيضاحاتهم اللاحقة للصحفيين الذين

سارعوا بالتوافد إليهم.

وقبل فترة طويلة من سقوط نيكسون ضحية سلوكه الخفي الذي أزاحت عنه الستارَ جريدةُ واشنطن بوست Washington Post - وكذلك ضحية ضَعْفه بوصفه شبكةً معزولةً، ذات عدد جِدّ قليل من الأصدقاء في المؤسسات التي يُفْتَرَضُ أن تنقذه - كان كيسنجر يفهم أن الشبكات أقوى من هَرَميَّات الحُكْم الفيدرالي. كان كيسنجر يعرف الطلبة المُحتجّين جيدًا، بما يكفي لعدم إضاعة وقته معهم. فخلال سنوات فورد، قام بجولة في البلاد، وألقى خُطبَه على جماهير الغرب الأوسط Mid في محاولة لشرح تصوره الإستراتيجي لجمهور أوسع، رغم أن جولته لم تنجح سوى نجاح محدود فقط. وكانت أبرزُ إنجازات كيسنجر عَزْلَ نفسه عن العنصر المُهْلِك في شبكة نيكسون: المجموعة التي دبَّرت مَهْلَكة ووترجيت. ويحتاج هذا، بحد ذاته، إلى عبقري في الشبكات يعرف، على وجه التحديد، العُقَدَ التي عليه تجنُّب الاتصال بها. قامت سلطة كيسنجر على شبكة عَبَرَتْ حدودَ البلاد، بل حدود المهنة أيضًا، ودامت لفترة طويلة بعد تَرْكه العمل الحكومي في عام 1977، وقد أضفى عليها طابعًا مؤسَّسيًا من خلال شركة استشارات هي كيسنجر أسوشِتس[1582] Kissinger Associates، كما حافظ عليها بالسفر المستمر تقريبًا، والاجتماعات والتقاربات ودعوات العشاء.

وعلى النقيض من ذلك نيكسون، فبعد أن ترك السلطةَ التنفيذية تقلَّصَتْ سلطتُه إلى حد كبير، فتعرَّضَ لجلسات تحقيق في الكونجرس واجترأت الصحف عليه اجتراءً كبيرًا. ولم يوجد مستشارُ أمن قومي أو وزير خارجية بعد كيسنجر، مهما كانت موهبته، يمكن مقارنة إنجازه بما حَقَّقه كيسنجر.

لماذا انزلقت هياكلُ السلطة الهَرَميَّة إلى أزمة في سبعينيات القرن العشرين؟ قد يُفترَضُ أن الإجابة عن السؤال - كما اعتقد بِرجينسكي Brzezinski - لها علاقة بالتكنولوجيا. من الصحيح، يقينًا، أن السبعينيات كانت عقدَ ميلاد الكمبيوتر الشخصي والإنترنت. ولكن أزمة السلطة الهَرَميَّة سبقت انتشارَ الشبكات الإلكترونية في الولايات المتحدة. بل علاقة السببية هنا معكوسة؛ ذلك أن تراخي السيطرة المركزية، على وجه التحديد، هو الذي جعل ثورةَ تكنولوجيا المعلومات الأمريكية ممكنةً.

لقد بات واضحًا، بالنسبة إلى كل دول العالم، أن شبكات عصر الإنترنت Internet Age المعلوماتية والتجارية والاجتماعية، الجديدة، تفرض تحديًّا عويصًا، ولكن حجم هذا التحدِّي لم يظهر إلا تدريجيًا. وبادئ ذي بدء، استهدف إنشاءُ التكنولوجيات الشبكية تعزيزَ حالة الأمن القومي. كانت المُهِمَّةُ المُكلَّفُ بها بول بِران[1583] Paul Baran، الباحث في مؤسسة راند[1584] RAND، عام 1964، تطويرَ نظام اتصالي ينجو من هجوم نووي سوفييتي. اقترح بِران ثلاثةَ هياكل ممكنة لهذا النظام. فهو إما أن يكون «مركزيًا»، ذا محور رئيسي واحد وفروع متعددة؛ أو «غيرَ مركزي» ذا مكونات عديدة ترتبط معًا بعدد من الروابط الضعيفة الحُرَّة؛ أو «انتشاريًا» مثل الشَّعِيريَّة lattice أو التَّعْشيقة mesh[1585].

والخيار الأخير هو الأكثر مرونةً من الناحية النظرية، لأنه ينطوي على مقاومة تدمير عُقَدٍ كثيرة، وهو نموذج بِران المُفَضَّلُ لما صار «شبكة وكالة المشاريع البحثية المتقدِّمة» (أربانِت)[1586] (Advanced Research Projects Agency Network (ARPANET[1587].

من الناحية العملية، لا يستمر هذا الهيكل [البنية] structure - وهنا تكمن المفارقة - إلا من خلال تخطيط مركزي. وكما أشار مِلْفين كُنْواي[1588] Melvin Conway في عام 1968 - في ورقة بحثية، لها أثرها، بعنوان «كيف تخترع اللجان؟» How Do Committees Invent؟ - يوجد قانونٌ يُصمِّمُ أنظمةَ الاتصال:

«الهياكلُ التنظيمية organizations التي تُصمِّم النُّظُمَ systems (بمعناها الواسع المستعمل هنا) مُقَيَّدَةٌ بإنتاج تصاميم هي عبارة عن نُسَخ لأبنية الاتصال في هذه الهياكل التنظيمية»[1589]. فمثلما رأى كيسنجر خَلَلَ البيروقراطية الحكومية الوظيفي عندما تُواجِه تحدياتٍ إستراتيجيةً كبرى، لاحظ كُنْواي - مُحلِّلُ النُّظُم بخبرته في تقلُّص الدفاع الحكومي - الآتي:

تميل هياكلُ النُّظُم الكبيرة إلى التفكُّك أثناء النمو والتطوُّر النوعي، أكثر مما تميل النُّظُم الصغيرة. وتنطبق هذه الملاحظة بشكل لافت للنظر على نُظُم المعلومات العسكرية الكبيرة في الأعوام العشرة الماضية... [وعلى] بعض الموضوعات الأعقد التي ابتكرها عقل الإنسان...

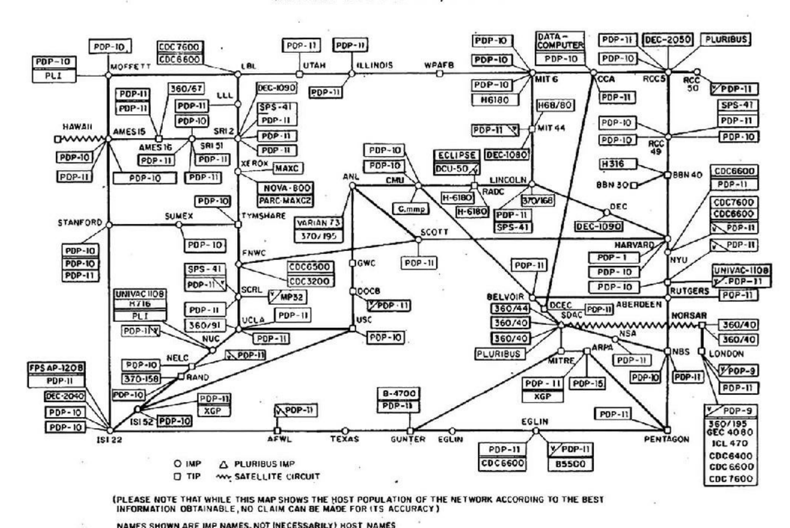
لماذا تتفكُّك النُّظُم الكبيرة؟ تحدث هذه العملية في ثلاث خطوات...

أولاً، أدرك المُصمِّمون الأوائل أن النظام سيكون كبيرًا، مع وجود ضغوط معينة في هيكله التنظيمي، تجعل من المتعذَّرِ مقاومة إغراء تعيين العديد من الناس لجهد التصميم.

ثانيًا، تطبيق الحكمة التقليدية في الإدارة على هيكل تنظيمي ذي تصميم كبير يؤدِّي إلى تفكُّك بنيته التواصلية.

ثالثًا، يضمن مفهوم التشاكل homomorphism أن هيكل النظام سيعكس التفكُّكَ الحاصل في تصميم التنظيم[1590].

لذا، من المهم للغاية [معرفة] أن ما صار يُسَمَّى «الإنترنت» لم يُصَمَّمْ بهذه الطريقة، بل نشأ بصورة عَفْوية وعضوية تقريبًا، من خلال أكاديميين ومهندسيْ كمبيوتر من القطاع الخاص بدلاً من المُخطِّطين العسكريين.




الشكل رقم: 34 - تصميم شبكة أربانِت، 1969.

في يوم 29 أكتوبر عام 1969، حَدَثَ أولُ اتصال بين كمبيوتر وكمبيوتر آخر، حين أرسل أربانِت Arpanet رسالةً غير مكتملة بين معهد ستانفورد للأبحاث Stanford Research Institute وجامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس University of California Los Angeles.[1591]

ثم بعد عامين، تجاوزَ عددُ العُقَد في الشبكة أربعين عُقْدةً، تربط بين الجامعات والشركات الخاصة. وانتشرت شبكاتٌ مماثلةٌ في كل مكان آخر (هِبنت Hepnet، سبان Span، تِلِنت Telent، وغيرها)، بحيث صار التحدِّي، بحلول عام 1974، رَبْطَ هذه الشبكات معًا من خلال «شبكة» واحدة. كانت سبعينياتُ القرن العشرين وقتَ الابتكار اللامركزي المحموم، وأسهم كلُّ تقدُّم جديد في عملية الدَّمْج: نظام تشغيل يونكس Unix أدَّى لاحقًا إلى نظاميْ لينكس Linux وفري بي إس دي Free؛ فكرة البريد الإلكتروني بأسماء وعناوين يفصل بينها الرمز @؛ أول برنامج بريد إلكتروني (MSG) مزوَّد بخيارات «replay» و«forward»؛ أول مُوْدَم modem. وقد تزامنت هذه التطورات مع تنامٍ أُسِّيٍّ - لا يمكن إيقافه - لقوة المعالجة في الكمبيوتر طبقًا لـ«قانون مور»[1592] Moore's Law.

ولكن التطور الأهم هو ما نَصَّ عليه فينتُن سِرف الملقَّب بـ«فِنْت» Vinton Cerf (Vint) وروبرت كان Robert Kahn من أن شبكة الشبكات the network of networks ينبغي ألا تنطوي على سيطرة مركزية، وينبغي ألا تُحْكَمَ بأي تطبيق معين أو رُزْمة بيانات[1593] data packet محدَّدة[1594].

خَّى بروتوكولهما لبَرْمجية آي بي[1595] TCP/IP أن تتواصل جميع شبكات الكمبيوتر

إحداها مع الأخرى، بغضِّ النظر عن الاختلافات في بنيتها الداخلية. وهو ما صار حقيقةً واقعةً يوم 1 يناير عام 1983، عندما تحوَّلَت الأربانِت إلى [برمجية آي بي] IP/TCP [1596].

ثم بعد عامٍ جاءت خوادم أسماء النطاقات Domain Name Servers (DNS))، التي أتاحت لعناوين «آي بي» IP الرقمية أن تكون لها أسماء يسهل استدعاؤها [[1597] URL وبحلول عام 1987، وُجِدَ ما يقرب من 30 ألف شخص على ما يُشَارُ إليه الآن باسم «الإنترنت» the Internet.

لم يكن الإنترنت مُخَطَّطًا له؛ لقد نما. إن الأبنية التحتية العالمية الهائلة التي نستخدمها اليوم، بأليافها البصرية الخَطِّية حول العالَم، والتي تُزَوِّدُ عمودَها الفِقَري الشَّبَكي الوطني شركاتُ الاتصال عن بُعْد مثل شركة إيه تي آند تي AT & T، وعددٌ لا يُحْصَى من مزوّدي خدمة الإنترنت، والتي تنتهي عند ملايين المُستخدِمين - هذه الأبنية بدأت متواضعةً. ولم تُصَمِّمْها سلطةٌ مركزية، الأمر الذي يُفَسِّرُ عدمَ وقوعها في مزالق قانون كُنْواي[[1598] Conway’s Law.

ولا يوجد ترخيصٌ، أو إذنٌ، لإضافة شيء جديد أو حذف شيء قديم، بل لا ضرورة لوجوده أصلاً[1599]. فلا يوجد مستودع مركزي تُسَجَّلُ فيه بنيةُ الإنترنت الشاملة [هيكله العام]. بل لا يمكن في حقيقة الأمر رَسْمُ خريطة هذه البنية. يُحَدِّدُ برينتن Br وتشيانج Chiang المفاهيم الأساسية الثلاثة الكامنة خلف الإنترنت على النحو الآتي:

أ - تبديل الرُّزَم [[1600] packet switching، حيث تُتَشَارَكُ الموارد بدلاً من تخصيصها.

ب - هَرَمِيَّة مُوزَّعة، تنتشر عبرها السيطرةُ في شرائح الشبكة المختلفة جغرافيًا، و ج - التَّجْزِيء إلى وحدات، تنقسم فيها المهامُّ إلى طبقات وظيفية مختلفة، تُدَارُ بشكل منفصل[1601].

ونحن المُستخدِمين نَعتبر أمرًا مفروغًا منه المدى الذي يُزَوِّدُنا به الإنترنت من سلطات واسعة، فنُوَجِّه بكل سلاسةٍ رُزَمَ المعلومات التي نريد إرسالها أو استقبالها عبر أقصر المسارات، باستخدام رسائل ارتجاعية وفق ظروف الشبكة وتفادي التكدُّس[1602]. ولم يكن بمقدور إدارة [جِهَة] واحدة تصميم مثل هذا النظام المعقد.

تعمل «شبكة الويب العالمية»[[1603] World Wide Web، التي تطوَّرَتْ في ثمانينيات القرن العشرين بوصفها شكل المرور الرئيسي في

الإنترنت، بطريقة مماثلة[1604].

بدأت هذه الرؤية مع الأكاديمي تيم بِرْنرز لي[[1605]] Tim Berners - Lee، الذي يعمل في المنظمة الأوروبية للبحوث ا ل ن و و ي ة European Organization for Nuclear Research)، والذي ابتكر برنامجًا يُسَمَّى (CERN إ نْ كـ وَ يَ ر ENQUIRE لمساعدة علماء فيزياء الجُسَيْمات على الاستمرار في بحوثهم. وفي مارس عام 1989، نشر بِرْنرز لي مقترحًا بإصدار عالمي للبرنامج، أسماه في البداية «ماش» [تعشيقة أو شبكة] Mesh، قبل أن تطرأ له تسميتُه «وورلد وايد و يـ ب » World Wide Web. فكان بِرْنرز لي مُبْتَكِرَ أدوات اتصالات الويب العالمية الحالية:

HyperText Markup Language (HTML), Hypertext Transfer Protocol (HTTP) and Uniform Resource Locator (URL).

وفي غضون بضع سنوات، سمحت شفرة الكمبيوتر مفتوحة المصدر بانتشار سريع لمتصفحات الويب سهلة الاستخدام مثل موزيك Mosaic، ونتسكيب نافيجاتر Netscape Navigator. وشأن الإنترنت في تناميه وتَطوّره، كان الويبُ نتاجَ تطوُّرٍ عضوي، وليس سيطرة مركزية. إنها شبكة تكون العُقَدُ فيها صفحاتِ ويب أنشأها المُستخدِمُ، والحوافُّ روابطَ تَشَعُّبية hyperlinks تسمح لنا بالتنقل من صفحة إلى أخرى، في اتجاه واحد عادةً فقط (بمعنى أن الصفحة المُتَّجَه إليها لا تحتوي بالضرورة على رابط تَشَعُّبي يُعِيدُك إلى الصفحة التي بدأت منها)[1606].

وكالإنترنت، كان ذلك نتاجَ عمل العديد من الأيدي: [ملفات تعريف الارتباط] cook، و[مكوِّنات إضافية] plug - ins، وسلاسل ونصوص مُلْصَقة، ابْتُكِرَتْ كلُّها لإدارة التعقيد المتنامي في النظام. ومثل الإنترنت، كان الويبُ ضخمًا على نحو لا يمكن الإحاطة به، إذ لا يوجد مُحَرِّكُ بحثٍ يُمَكِّنُنا من استكشاف الويب حتى نُؤرْشِفَ كلَّ صفحاته، رغم معرفتنا بأن نواته البنيوية هي مُكوِّنٌ عملاق مترابط بشكل كثيف لعُقَدٍ يمكن الوصول إليها على نحو تبادلي[1607].

حذَّرَ أيزنهاور Eisenhower الأمةَ في خطابه الأخير عام 1960، من القوة المفرطة ل«التعقيد الصناعي العسكري». ولم يكن يوجد ما يدعو إلى القلق. فلو كان قويًا فعلاً، لمَنَعَ بكل تأكيد النموَّ الأُسّيَّ للإنترنت وشبكة الويب العالمية أو أَضْعَفَه

على الأقل. لعل ميزةَ الولايات المتحدة الأكثر لفتًا للانتباه، في سبعينيات القرن العشرين، إمكانُ حدوث مثل هذا الابتكار اللامركزي، رغم كل المتاعب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي نربطها عادةً بتلك الفترة. الشباب المشدود إلى «وادي السِّليكون»[1608] Silicon Valley - التسمية التي أُطْلِقَتْ على وادي سانتا كلارا Santa Clara Valley في عام 1971 - حملوا معهم مواقف جيلهم المُناهِضة للاستبداد. فعندما أصدر الكونجرسُ قانونَ آداب الاتصالات[1609] Communications Decency Act عام 1996 - محاولته الأولى لتنظيم اتصالات الإنترنت بفرض غرامة على نشر مواد إباحية أونلاين - كان من المناسب أن يكتب ردَّ وادي السِّليكون (في صورة رسالة إلكترونية) شاعرُ فرقةِ جريتفول ديد[1610] Grateful Dead الغنائيُّ السابق جون بيري بارلو[1611] [1612] John Perry Barlo.

كان إعلانُه «إعلانَ استقلال الفضاء الإلكتروني» Declaration of the Independence of Cyberspace، موجَّهًا إلى «حكومات العالم الصناعي، أنتم تُضْجِرون عمالقةَ اللحم والصلب»:

لقد جئتُ من الفضاء الإلكتروني، موطن العقل الجديد. وبالنيابة عن المستقبل، أطلبُ منكم يا مَن أنتم من الماضي أن تتركونا وشأننا. فأنتم غيرُ مُرحَّبٍ بكم بيننا.

ولا سيادة لكم حيث نلتقي ونجتمع.

ليس لدينا حكومةٌ مُنْتَخَبَة، ومن غير المحتمل أن يكون لدينا هذه الحكومة، لذا أخاطبكم بسلطة ليست أكبر من السلطة التي تتحدث بها الحريةُ دائمًا. أُعْلِنُ أن الفضاءَ الاجتماعي العالمي الذي نبنيه فضاءٌ مستقل عن الاستبداد الذي تسعون إلى فَرْضه علينا. ليس لكم الحق الأخلاقي في حُكْمنا، كلا ولا تحوزون أية أساليب في التطبيق، تجعل لدينا سببًا حقيقيًا للخوف [منكم]...

الفضاء الإلكتروني لا يقع داخل حدودكم. ولا تعتقدوا أنكم يمكنكم بناؤه، وكأنه مشروع بناء عام. أنتم لا تستطيعون. إنه عمل من أعمال الطبيعة، ويُنَمِّي نفسَه بأفعالنا الجَمْعيّة...

الفضاء الإلكتروني يتكون من مُعامَلات وعلاقات، ومن التفكير نفسه، تحتشد كلها مثل موجة دائمة في شبكة اتصالاتنا... نحن خلقنا عالَمًا يمكن للجميع الدخول إليه دون امتيازات أو تحيُّزات يمنحها العِرْقُ أو القوة الاقتصادية أو القوة العسكرية أو محل الميلاد.

نحن خلقنا عالَمًا يمكن فيه لأي شخص، في أي مكان، أن يُعبِّرَ عن معتقداته، مهما كانت فرديتها [وغرابتها]، دون خوف من الإكراه على الصمت أو الامتثال.

مفاهيمُكم القانونية عن المِلْكية والتعبير والهُويَّة والحركة والسياق لا تنطبق علينا... وإجراءاتُكم العدائية والاستعمارية المتزايدة تُنْزِلُنا منزلةَ عاشقي الحرية وحق تقرير المصير، السابقين، الذين رفضوا سُلْطَات حُكْم القوى البعيدة الجهولة[1613].

رغم رؤى مُتطرّفي الطلبة الأكثر حماسةً في سبعينيات القرن العشرين، لم توجد ثورةٌ في الولايات المتحدة. ولكن كما أوضحت رسالةُ بارلو الإلكترونية الشهيرة، كان الإنترنت هو الثورة. أو هكذا بدا. حققت مؤسَّسةُ الحدود الإلكترونية Electronic Frontier Foundation، التي أنشأها بارلو وغيره من الأحرار الإلكترونيين، انتصارَها الأول الكبير في عام 1997 حين ألغت المحكمةُ العليا Supreme Court قانونَ آداب الاتصالات لأنه ينتهك التعديلَ الأول First Amendment [لدستور الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1791][1614].

كانت حكومة الولايات المتحدة قد شاركت، على نحو مصغَّر، في أعمال مجموعة مهندسيْ شبكة الإنترنتInternet Engineering Task Force (IETF[[1615]])، التي اعتبرها مبدعوها حكومةَ الإنترنت الوحيدة الضرورية. وعلى حدِّ تعبير ديفيد كلارك
David D. Clark،
مهندس بروتوكول الإنترنت: «نحن نرفض الملوك والرؤساء والانتخابات. ونؤمن ب: توافق تقريبي وشفرة تشغيل»[1616]
في ذلك الصباح المشرق والمتفائل، توقَّفَ بعضُ علماء الكمبيوتر أو مهندسي البرمجيات ليتساءلوا عمَّا سيفعلونه، على وجه الضبط، إذا صار الإنترنتُ مسرحَ جريمة.

ثم اتضح بالفعل أن يوتوبيا الفضاء الإلكتروني - كيوتوبيا جنة عدن - فيها حَيَّتُها وخُطَاتُها: لاعبو اللعبة الشريرة غزوا «الأبراجَ الحصينة متعدِّدَةَ المُستخدِمين» للسطو على الصور التشخيصية أو الرمزية avatars [الدالة على هُويَّة] لاعبين آخرين، وتَبِعَهم على الفور مجرمون في العالم الحقيقي انتهزوا بكل سهولة الفرص المتاحة للتزوير [أو الاحتيال]، تقريبًا بمجرد أن بدأ المال في تغيير الأيدي أونلاين[1617].

ولم يبقَ الفضاءُ الإلكتروني بعيدًا عن الحكومة لفترة طويلة. ففي يناير عام 1998، أرسلَ جون بوستل Jon Postel المدير الأول ل إيانا أو هيئة تعيين أرقام الإنترنت Internet Assigned Numbers Authority (IANA[[1618]])، رسالةً إلكترونية إلى ثمانية من المُشَغِّلين الاثني عشر لخوادم أسماء منطقة

الجذر servers - name root regional[1619] في الإنترنت، موجِّهًا إليهم تعليمات بتغيير مُشَغِّل [خ ا د م ] server منطقة الجذر إلى خادم إيانا، بدلاً من خادم نِتورك س و ل يُ ش ن ز Inc ,Solutions Network، وهو سجل نظام أسماء النطاقات[1620] DNS الأصلي الذي أنشأته وكالةُ أنظمة معلومات الدفاع Defense Information[1621] (Systems Agency (DISA في سبتمبر عام 1991.

وفي غضون بضعة أيام، أصدرت إدارة المعلومات والاتصالات عن بُعْد في وزارة التجارة [الأمريكية] «اقتراحًا لتحسين الإدارة التقنية لأسماء وعناوين الإنترنت» [1622]. وأنشأتْ مؤسسةٌ جديدة غير هادفة للربح تُسَمَّى مؤسسة الإنترنت لتعيين الأسماء والأرقام Internet Corporation for Assigned Names and Numbers ((ICANN مجلسًا تمثيليًا على مستوى عالمي وإداري من المديرين لإدارة إيانا، بموجب عقد مع وزارة التجارة وتحت إشرافها. ما قد بدأ بوصفه أربانِت [شبكة نقل بيانات]، لم يستطع الانحراف عن سلطان أبيه: العمّ سام[1623] Uncle Sam.

وبهذا المعنى، كان إعلانُ الاستقلال Declaration of Independence، الذي أعلنه بارلو، حِبْرًا على ورق في غضون عامين من ظهوره.

يقع معهد علوم التحكُّم الآلي Institute of Cybernetics في ضواحي مدينة كييف Kiev [عاصمة أوكرانيا]. فهناك، بدءًا من عام 1972، حاول فيكتور جلوشكوف[1624] Viktor Glushkov تصميمَ شبكةِ الإنترنت السوفييتي، واسم مشروعه بالكامل هو: «نظام جميع الدول الآلي لجَمْع المعلومات ومعالجتها من أجل المحاسبة والتخطيط وإدارة الاقتصاد الوطني باتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية»
The All - State Automated System for the Gathering and Processing of Information for the Accounting, Planning and Governance of the National Economy, USSR.

ففي أوكرانيا التي تسيطر عليها الشيوعية، تَوَفَّرَ قدرٌ من الروح التي حَرَّكَتْ وادي السِّليكون. تخيَّلَ جلوشكوف وزملاؤه أرضًا تُسَمَّى «سايْبَرتونيا» Cybertonia، سيَحكمها مجلسٌ من الروبوتات، وقائدهم الأعلى روبوت يعمل بالساكسفون. كان جلوشكوف يعرف أن نظامه الآلي [الأوتوماتي] - كي يقبله الكريملين - يجب أن يتشكل وَفْق بنية الاقتصاد السوفييتي المُوجَّه، الهَرَمِيَّة، ثلُاثية المستويات. وحتمًا، سيَتعيَّنُ وجودُ محور كمبيوتر مركزي في موسكو، سيرتبط بمئتيْ عُقْدَة وسطى في المدن السوفييتية الكبرى، التي سترتبط بدورها ب 20 ألف كمبيوتر مُوزَّع على الأطراف عبر مواقع إنتاج رئيسية. ولكن، بينما ستُسيطر موسكو على مَن يُمْنَحُ له حق الوصول إلى الشبكة، تَصوَّرَ جلوشكوف أن أي مُستخدِم، مُصرَّح له، سيكون قادرًا على الاتصال بأي مُستخدِم آخر عبر الشبكة دون إذن مباشر من العُقْدَة الأم.

هل يمكن أن تعمل شبكة إنترنت سوفييتية من هذا النوع؟ يبدو هذا محلَّ شكٍّ. وعلى أية حال، لم تتم محاولة التجربة، ليس لأن أعضاء المكتب السياسي [البوليتبورو] في موسكو اكتشفوا التهديد المحتمل لسُلْطتهم الذي يمثله مُقترَح جلوشكوف، بل لأن وزير المالية فاسيلي جَربوزوف Vasily Garbuzov وَأَدَ المشروعَ في مَهْده بسبب التكلفة[1625].

ونحن نعرف الآن كلَّ ما نعرفه عن أمراض نقص القيمة value - subtracting في الاقتصاد السوفييتي سبعينيات القرن العشرين، نتذكر جاهدين إجماعًا حَدَثَ في واشنطن على احتمال سيادة الشيوعية على الرأسمالية في النهاية. في طبعة عام 1961 من كتاب الاقتصادي بول ساميولْسُن[1626] Paul Samuelson الأكثر مبيعًا، تَوَقَّعَ أن الاقتصاد السوفييتي سيتجاوز الاقتصادَ الأمريكي في الفترة

بين عاميْ 1984 و1997.

ولا يزال يؤكِّدُ في طبعة كتابه عام 1989 أن «الاقتصاد السوفييتي هو دليل على أن الاقتصاد الاشتراكي الموجَّه - خلافًا لما كان يعتقده العديدُ من المُتشكِّكين سابقًا - يقوم بدوره بل يزدهر». وكما قال تقريرُ وكالة الأمن القومي NSA فيما بعد: «لا توجد تقديرات رسمية ذكرت احتمال انهيار الشيوعية حتى انقلاب عام 1989»[1627]. ومع ذلك، كان من الواضح لأي زائر نبيهٍ للاتحاد السوفييتي أن شيئًا ما خاطئٌ في الاقتصاد المُوجَّه. السلعُ الاستهلاكية جودتُها رديئةٌ وناقصةٌ في السوق. وفي المصانع العتيقة، انتشر الاختلاسُ وإدمان الكحول والتغيُّب عن العمل. ومن الصعب تصديق أن أي تحكُّم إلكتروني سيمكنه إنقاذ مثل هذا النظام المختل اختلالاً جوهريًا.

لم يُتَرْجِمْ معظمُ المواطنين السوفييت حالةَ الفوضى الناتجة إلى نشاط سياسي، بل ترجموها إلى قَدَرِيَّة ومزيد من الفكاهة السوداء. وأما في أجزاء أوربا الشرقية التي خضعت للحُكْم السوفييتي المباشر أو غير المباشر، نتيجةً للحرب العالمية الثانية، فكان الأمر مختلفًا. إذ بدأ المُنشقُّون يُجَرِّبون تنظيمَ أنفسهم، وشجَّعَتْهم على هذا التزاماتٌ تَعهَّدَ بها القادةُ السوفييت (ولم يَفوا بها) لدَعْم حقوق الإنسان في اتفاقيات هَلْسنكي Helsinki [عاصمة فنلندا]، الأخيرة.

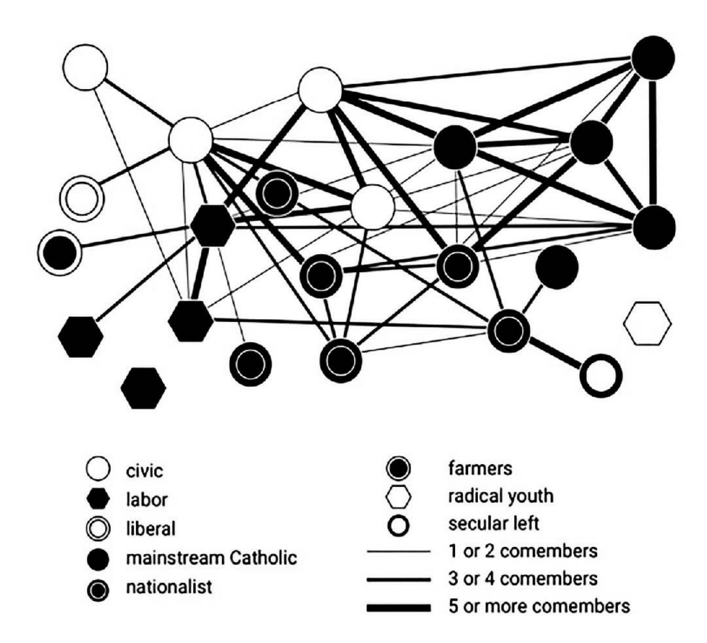
واكتشف مَن يعيشون تحت الحُكْم الشيوعي - لأول مرة منذ ثلاثينيات القرن العشرين - أنهم يستطيعون تشكيلَ شبكات دون المخاطرة بحياتهم وحياة عائلاتهم. ولم تزدهر الجمعيات الطَوْعيَّة المستقلة في أي مكان أسرع من ازدهارها في بولندا. كان التحدِّي بناءَ شبكة الشبكات - نوع من الإنترنت السياسي political Internet - يسمح لليبراليين العَلْمانيين في الجامعات بالتحالف مع الرومان الكاثوليك Roman Catholic ومُعارِضي النظام من الطبقة العاملة[1628].

نما حجم شبكة المُعارَضة إلى حوالي40% بين عاميْ 1969 و1977، بالإضافة إلى سِتِّ مجموعات جديدة بما فيها مجموعة النقابات الحُرَّة Free Trade Unions (WZZ)؛ كما نمت بالكثافة نفسها مجموعاتٌ مدنية وليبرالية وكاثوليكية وقومية وراديكالية، ترابطت فيما بينها أوثق الترابط. وبحلول عام 1980، ومع التحفيز الذي أثارته زيارةُ البابا يوحنا بولس الثاني Pope John Paul II في العام السابق، نمت الشبكةُ مرةً أخرى، باتحاد جديد هو «تضامن» Solidarity الذي صار المحورَ المسيطرَ[1629].

ولا شك في أن فرض الأحكام العُرْفية [القانون العسكري] martial law في ديسمبر عام 1981 قد مزَّق الشبكةَ، إذ اعْتُقِلَ العديدُ من العُقَد الرئيسية أو فرُّوا

إلى خارج البلاد.

ولكن الجنرال فويتشخ ياروزلسكي[1630] General Wojciech Jaruzelski لم يكن ستالين. فعندما وافقت الحكومة على إجراء محادثات مع «تضامن» في فبراير عام 1989، أعادت الشبكةُ بناءَ نفسها فنَمَتْ بسُرْعَةِ التقاطِ الأنفاس.




الشكل رقم: 35 - شبكات المعارضة البولندية، 1980 - 1981. اعتمد نجاحُ نقابة التجارة الحُرَّة «تضامن» (العُقد السداسية السوداء في الوسط يسارًا)، جزئيًا، على الاتصال بالعديد من الجمعيات السياسية الأخرى.

الثوراتُ، كما رأينا، ظاهرةٌ شبكيةٌ. ومع كل يوم يمرُّ في عام 1989 دون حملة قَمْع، يضعف عَزْمُ أنظمة الحُكْم في أوربا الشرقية، فتتصاعد أعدادُ مواطنيها المُستعدِّين للمخاطرة باحتجاج عَلني. في بودابست [عاصمة المجر]، في شهر مايو، قرَّرَ الشيوعيون المجريون Hungarian Communists فتحَ حدودهم مع النمسا. وانتهز اتحادُ «تضامن» الفرصةَ حين انطلق حوالي 15 ألف مواطن من ألمانيا الشرقية عبر تشيكوسلوفاكيا Czechoslovakia إلى المجر لقضاء «العطلة»، فيما كان في الحقيقة رحلةً في اتجاه واحد [بلا عودة] إلى الغرب. وفي يونيو، فاز «تضامن» في الانتخابات البولندية وشرع في تشكيل حكومة ديمقراطية. وفي سبتمبر، حذا الشيوعيون المجريون حَذْوَ المثال البولندي فوافقوا على إجراء انتخابات حُرَّة. ثم في الشهر التالي، بينما تأهَّبَ إيريك هونيكر[1631] Erich Honecker
للاحتفال بالذكرى السنوية الأربعين لجمهورية ألمانيا الديمقراطية، تَدفَّقَ مئاتٌ ثم آلافٌ ثم عشراتُ الآلاف ثم مئاتُ الآلاف من الناس إلى الشوارع في لايبزيج
Leipzig، وهم يهتفون في البداية «نحن الشعب» Wir sind das Volk،
ثم عَدَّلوا هتافَهم إلى «نحن شعب واحد» Wir sind ein Volk.
وهنا، أيضًا، ترابطت شبكاتٌ محلية من المعارضة مع بعضها البعض بسرعة،

وبعضها يستند إلى الكنيسة، رغم أن عناصر الثورة من الجناح اليساري واليميني كانت أقل اتصالاً ببعضها مما كان عليه الحال في بولندا[1632].

ثم في يوم 9 نوفمبر عام 1989، أُخْبِرَ الصحفيون المرتبكون في برلين الشرقية East Berlir بأن «قرارًا اتُّخِذَ يُمكّنُ جميعَ المواطنين من مغادرة البلاد من خلال نقاط عبور حدودية رسمية... وسيُنَفَّذُ على الفور»، فدفعت هذه الأخبارُ طوفانًا من البرلينيين الشرقيين إلى نقاط التفتيش الحدودية. ولأن الحُرَّاس ليست لديهم أوامر واضحة فقد اختاروا ألا يقاوموا. واضطرت كلُّ نقاط التفتيش إلى فتح العبور بحلول منتصف الليل. كلُّ الدومينو سَقَطَ، ولكنه سَقَطَ هذه المرة في الاتجاه المعاكس لما تَخوَّفَ منه أيزنهاور، واستمرت قِطَعُ الدومينو في السقوط بشكل أفضل على امتداد عامَيْن. فبعد انقلابِ موسكو الفاشل في أغسطس عام 1991، انهار الاتحادُ السوفييتي نفسُه، تاركًا خلفه اتحادًا روسيًا Russian Federation ممزقًا من دول البلطيق وأوكرانيا وروسيا البيضاء [بيلاروس] Belarus وثلاث جمهوريات قوقازية كبيرة وخَمْس «ممرات» في آسيا الوسطى. وفي الإطار الزمني نفسه، تفكَّكتْ يوغسلافيا Yugoslavia، ومعها البوسنة والهرسك Bosnia - Herzegovina مُتعدِّدة الأعراق، فتمزَّقت كلُّها. أما في بكين Beijing فالتزم الحُكَّامُ الشيوعيون بسيناريو عاميْ 1956 و1968، فأرسلوا دباباتهم لسَحْق احتجاجات يونيو 1989 الشعبية في بكين[[1633]].

ولم يكن هذا التفاعلُ الأوراسي المتسلسلُ عملاً من أعمال شبكات المعارضة السياسية فقط؛ بل دَفَعَتْ إليه شبكاتُ التلفزيون أيضًا. في المرحلة الأولى من ثورة ألمانيا الشرقية، تأجَّجَت المُشارَكة في الاحتجاجات بالتغطية التلفزيونية التي تولَّتها ألمانيا الغربية، إذ تَمكَّنَ معظمُ مواطني ألمانيا الشرقية GDR من مشاهدة ما يحدث على شاشات تلفزيوناتهم. وذلك باستثناء دَغْل واحد فقط من أدغال «وادي الظلمات» - المنطقة الجنوبية الشرقية حول درسدن Dresden والجزء الشمالي الشرقي من البلاد القريب من جرايفسفالد Greifswald - حيث لم يستطع الناسُ استقبالَ قنوات إرسال ألمانيا الغربية التلفزيونية[1634].

وبالقدر نفسه من الخطورة على النظام السوفييتي كانت شبكاتُ التمويل الغربية، التي نَمَتْ باطرادٍ طوال ثمانينيات القرن العشرين نتيجة تحرير سوق رأس المال وإدخال تكنولوجيا الكمبيوتر. ولم يكن من قبيل المصادفة أنْ عانت أنظمةُ الحُكْم في أوربا الشرقية (باستثناء رومانيا) سكراتِ موتها، بعد سنوات قليلة فقط من بداية اقتراضها أموالاً طائلة من البنوك الغربية. فقد كانت هذه البنوك من بين المؤسسات الأولى التي بدأت - بشكل مُمَنْهَج وعلى نطاق واسع - في استغلال تكنولوجيات المعلومات الجديدة التي طَوَّرها وادي السِّليكون. ويُنْتَسَى هذا التطورُ أحيانًا، عند التأريخ لثمانينيات القرن العشرين المائل، بشكل غير ملائم،

إلى التعويل على بعض القادة الأبطال في انهيار الشيوعية: جورباتشوف Gorbachev، ريجان Reagan، تاتشر Thatcher، البابا the Pope.

هؤلاء الأفراد مُهِمُّون بلا شك، ولكنهم حققوا أهدافهم عندما تجاوبوا مع التنامي المتسارع لشبكة المال الدولي. ولم تكن واشنطن أو لندن المحورَ الأهم في هذه الشبكة، ناهيك عن أن تكون روما. لقد كان المحورُ الأهمُّ منتجعَ تزلُّجٍ صغير في كانتون جراوبُنْدن canton of Graubünden السويسري: دافوس Davos.

## انتصار رَجُل دافوس

عندما أرسل جون بيري بارلو رسالتَه الإلكترونية - التي تَحدَّثَ فيها عن «إعلان استقلال الفضاء الإلكتروني» إلى الشبكة في دليل عناوينه على الإنترنت - تصادف أن محلَّه المكاني المناسب هو دافوس. وبوصفه مُشارِكًا في المنتدى الاقتصادي العالمي World Economic Forum، كان بارلو شَبَكيًّا على المستوى الإلكتروني والاجتماعي في آنٍ معًا. تأسَّسَ المنتدى الاقتصادي العالمي عام 1971 بتوصية من أكاديمي ألماني، تَلَقَّى تدريبًا في هارفارد، يُدْعَى كلاوس شُواب[1635] Klaus Schwab، صَاحِبُ فكرة أن وجود مؤتمر منتظم لقادة التجارة الدولية يمكنه تحقيق رؤيته ل«الشركات بوصفها صاحبة مصلحة في مجتمع عَوْلمي، بالتعاون مع الحكومة والمجتمع المدني»[1636].

وقد وُصِفَت الثمرةُ بأنها «جنَّة الأسماء المُنْتقاة» المأهولة بالرؤساء التنفيذيين لشركات متعدِّدة الجنسيات وسياسيين مختارين، بل أيضًا ب«محافظي البنوك المركزية، ومديري الصناعة، وعمالقة صناديق الاستثمار، ومُتكهِّنين متشائمين، وعلماء فيزياء فلكية، ورهبان وحاخامات، ومُعالِجي التكنولوجيا وأمناء متاحف، ورؤساء جامعات، ومُدوِّنين استثماريين، وسَلِيلي عائلاتٍ نُبَلاء»: «دافوس يُشْبِه الكونجرسَ، المصنعَ، قُبَّةَ المورمن المُعلَّقة [أو خيمة المورمن][1637] Mormon Tabernacle، البستانَ البوهيمي[1638] Bohemian Grove، «أرقى حفلة عشاء في العالم»، النظامَ المالي، فيسبوك، مهرجانَ الرجل المحترق[1639] Burning Man، معسكرَ تدريب، مدرسةً عليا، لوس أنجلوس[1640] Loes Angeles، كوجو[1641] Quogue.

دافوس بَصَلَةٌ، شريحةُ كيك، دُمْيةٌ روسيةٌ». بفضل شُواب، يستحق دافوس عن جدارةٍ الاسمَ الذي سَمَّى به توماس مان[1642] Thomas Mann ذات مرة الجبل الذي تعلوه الأبراج: الجبل السحري der Zauberberg, the Magic Mountain. وبفضل دافوس، يستطيع شُواب الزَّعْمَ (بتسلسلٍ يلي كيسنجر مباشرةً) بأنه «الرجل الأفضل اتصالاً على الكوكب [أو ربما الأفضل]»[1643].

أولئك الذين يسخرون من المنتدى الاقتصادي العالمي - [كما في الاقتباس السابق مباشرةً] - يُقلّلون من سُلْطة الشبكات ويَستخِفُّون بها. فعلى مدى تاريخ المنتدى، لم تَحْظَ خطبةٌ بأهمية تاريخية أعمق من خطبة ألقاها في يناير عام 1992 سجينٌ سياسيٌّ أُطلِقَ سراحُه مؤخرًا في الطرف الآخرِ من الأرض. يقول هذا السجين السياسي للحاضرين في المؤتمر، وقد أنْصَتَ إليه شُوَاب بانتباه واستحسان: «إن ترابطنا يفرض علينا جميعًا الاجتماع لتدشين انطلاق [هجوم] كوكبي global offensive من أجل التنمية والازدهار وبقاء الإنسان». وكما يقول المُتحدِّثُ: «من الضروري أن يحدث تحريكٌ كبير للموارد من الشمال إلى الجنوب»؛ لكن ليس «بوصفه عملاً من أعمال الخير، أو محاولة لتحسين حياة مَن لا يملكون بإفقار مَن يملكون». ثم بدأ المُتحدِّثُ في تعداد أربع خطوات ينبغي على بلده القيام بها:

معالجة... مشكلة الديون، وقضية الانخفاض المستمر في سعر السلع التي تُصَدِّرُها البلادُ الأفقر، وفَتْح الأسواق أمام بضائعها المُصنَّعة.

ضمان نموِّ بلدنا... وهو ما سيقتضي تنميةً سريعةً ومستدامةً بجَلْب رأس المال أو الاستثمار الثابت، اعتمادًا على مصادر داخلية وخارجية معًا لتمويل هذا الاستثمار.

[إنشاء] قطاع عام لا يختلف عن مثيله في بلاد كألمانيا وفرنسا وإيطاليا.

إتاحة آفاق صالحة للمستثمرين الموجودين في هذه القاعة، سواء الجنوب أفريقيين أو الدوليين[1644].

كان المُتحدِّثُ هو نِلسُن مانديلا[1645] Nelson Mandela، وجوهرُ ما قاله واضحٌ بقدر ما هو مذهل: فمِن أجل اجتذاب رأس المال الأجنبي إلى البلد الذي أُعِدَّ لتولِّي المسؤولية فيه، ستتخلّى الشخصيةُ الرائدة عن أحد الالتزامات الرئيسية التي أقرَّها المؤتمرُ الوطني الأفريقي African National Congress في ميثاق الحرية[1646] Freedom Charter عام 1955: تأميم الصناعات الرئيسية في جنوب أفريقيا[1647].

ورغم عضوية مانديلا في الحزب الشيوعي الجنوب أفريقي South African Communist Party وقت سجنه عام 1962، فلم يكن شيوعيًا عاديًا. كَتَبَ في يومياته ذات مرةً، مشيرًا إلى تَلقيه مراسلات من القائد الإسرائيلي مناحيم بِجين Menachem Begin، ومقاتل حرب العصابات في البوير Boer دَيانيس رَيتس Deneys Reitz، وكذلك من تشي جيفارا Che Guevara وماو تسي تونج Mao Zedong، قائلاً: «يجب علينا القيام بدراسة شاملة لكل

الثورات، بما فيها الثورات التي فشلت».

نظرية الجناح العسكري الثورية التي تبنَّاها «رمح الأمة»[1648] ANC (Umkontho we Sizwe) الذي تأسَّسَ في عام 1961، كانت أمْيلَ إلى نظرية فيدل كاسترو Fidel Castro منها إلى نظرية لينين[1649] Lenin.

وأثناء سنواتِ سَجْنِ مانديلا الطويلة فيِ جزيرة روبن[1650] Robben Island غَيَّرَّ فلسفتَه في نواحٍ عديدة، ولكنه تشبَّثَ بفكرة التأميم والسيطرة على قمم الاقتصاد. وعندما حاول السفير البريطاني روبن رنَيك Robin Renwick، في عام 1990، التحدُّثَ معه عن التأميم، ردَّ مانديلا: «إنه فكرتكم» - في إشارة منه إلى البند الرابع في دستور حزب العمال البريطاني British Labour Party، الذي يُلْزِمُ الحزبَ ب«المِلْكية العامة لوسائل الإنتاج والتوزيع والتبادل، و[ب] أفضل نظام يمكن تحقيقه في الإدارة الشعبية والسيطرة على كل صناعة أو خدمة»[1651].

لماذا تخلَّى مانديلا عن آخر بقايا اشتراكيته بعد عامين فقط؟ هو نفسُه اعترف بتأثير رحلته إلى دافوس. وكما قال لاحقًا: «جئتُ إلى الوطن لأقول: أيها الشباب، يجب أن نختار. إما استمرارنا في التأميم ولن نحصل على أي استثمار، أو تعديل موقفنا ونحصل على الاستثمار»[1652].

ثم ذَكَرَ لاحقًا في عام 2000، كيف أنه أثناء «تنقُّله في جميع أنحاء العالم وسماعه آراء رجال أعمال بارزين واقتصاديين بارزين بشأن كيفية تنمية الاقتصاد»، «اقتنع بحُرّية السوق وآمَنَ بها»[1653] ومع ذلك، قُدّمَتْ تفسيراتٌ أخرى. فبالنسبة إلى مَن على يساره في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي ANC، من أمثال روني كاسرِلْز Ronnie Kasrils، كان «القرارُ ضد التأميم صفقةً فاوستية»[1654] مع العالَم الأبيض الذي يبيع فقراءَ جنوب أفريقيا»[1655].

وزَعَمَ الصحفيُّ أنتوني مونترِو Anthony Monteiro أن مانديلا «أجرى محادثات سرِّية مع نظام الحُكْم الأبيض قبل إطلاق سراحه»، فوافق في ذلك الوقت المبكر

على التخلِّي عن التأميم[1656].

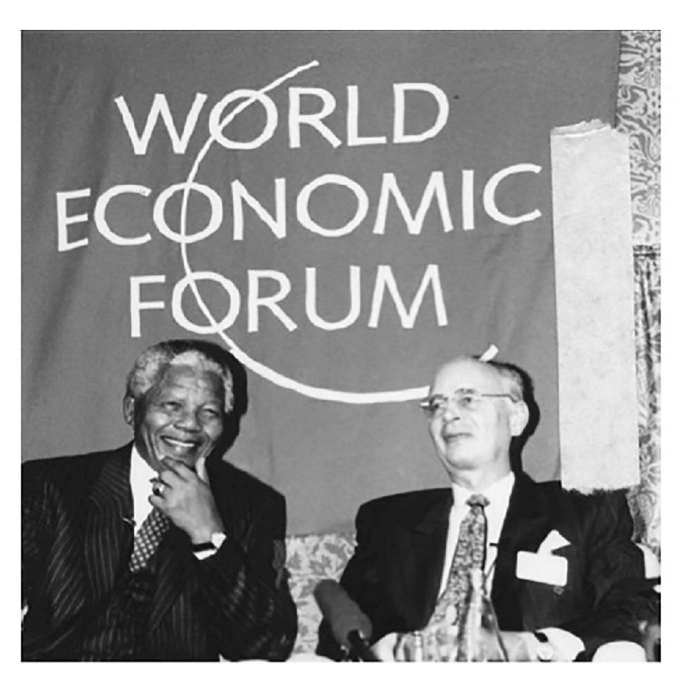
أما الطريقة الألطف لعرض وجهة النظر نفسها فهي القول بأن مانديلا (وتابو مبِكي[1657] Thabo Mbeki، الذي سيخلفه لاحقًا في رئاسة البلاد) اعتنى عنايةً بالغة برجال الأعمال في جنوب أفريقيا - وأبرزهم هاري أوبنهايمر Harry Oppenheimer - الذين قدَّمتهم له الزعيمةُ هيلين سُزمان[1658] Helen Suzman البيضاء المُناهِضة للفصل العنصري[1659].

ثمة نظرية بديلة تقول بأن تخلِّي مانديلا جاء نتيجة ضغط صندوق النقد الدولي International Monetary Fund الذي أدَّى إلى تغيير السياسة العامة: «للحصول على قرض قيمته 850 مليون دولار... ألْزَمَتْ جنوبُ أفريقيا نفسَها بالتقشُّف واللَّبْرَنة [التحوُّل إلى الليبرالية] liberalization والخَصْخَصَة»[1660].

وطبقًا ل نَيومي كلاين[1661] Naomi Klein، «غُذِّي حزبُ المؤتمر الوطني الأفريقي بجرعات ثابتة من الأفكار النيوليبرالية» عبْر صندوق النقد الدولي IMF، ومن خلال «مدارس التجارة وإدارة الأعمال الأجنبية، والبنوك الاستثمارية، ومراكز بحوث السياسات الاقتصادية، والبنك الدولي World Bank»، ناهيك عن «محامين واقتصاديين وأخصائيين اجتماعيين شَكَّلوا الانتشارَ السريع ل«التحوُّل» الصناعي»[1662].

وفي روايات أخرى [لتفسير تخلِّي مانديلا]، يُقَالُ إن مارجرِت تاتشر Margaret Thatcher ووزير الخارجية الأمريكية جيمس بيكر James Baker، هما اللذان حوَّلا مانديلا عن مبادئه الاشتراكية.

(بخصوص التأميم، يُقَالُ إن بيكر أبدى التعليق الآتي لمانديلا: «كل ما في الأمر أن التأميم صار قبعةً قديمة الآن»)[1663].




الشكل رقم: 36 - نيلسون مانديلا مع كلاوس شُواب في دافوس، في يناير عام 1992، عندما أسقط مانديلا التأميم من برنامج [حزب] المؤتمر الوطني الأفريقي.

جاءت رحلة مانديلا إلى دافوس في لحظة حاسمة من لحظات تاريخ جنوب أفريقيا. أُفْرِجَ عن مانديلا في فبراير عام 1990. وفي غضون ستة أشهر، صار الحزبُ الشيوعي الجنوب أفريقي SACP شرعيًا، وعُلِّقَ الجناحُ العسكري لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي. ولكن الطريق، مع نهاية عام 1991، كان لا يزال طويلاً أمام جنوب أفريقيا لإيجاد حكومة مُنْتَخَبَة ديمقراطيًا. فحتى عام 1993 لم تكن جَرَتْ عمليةُ التفاوض متعدِّدة الأحزاب التي أنتجت، في النهاية، دستورًا ديمقراطيًا؛ ولم تحدث أولُ انتخابات حُرَّة حتى أبريل عام 1994. وقد اعتقد العديد من المُلاحِظين أن الحرب الأهلية هي النتيجة الأرجح احتمالاً من الانتخابات الحُرَّة لإنهاء الفصل العنصري. ومع ذلك، لم يكن الساسةُ الغربيون أو البلوتوقراط [المُتنفِّذون بسبب ثرواتهم][1664] plutocrats هم الذين أقنعوا مانديلا بتغيير موقفه من التأميم.

فعلى حدِّ تعبير الوزير المستقبلي تيتو مبويني[1665] Tito Mboweni (الذي رافَقَ مانديلا إلى دافوس)، كان الذين أقنعوه هم مندوبو الصين وفيتنام في المنتدى الاقتصادي العالمي. لقد قالوا لمانديلا: «نحن نسعى حاليًا إلى خَصْخَصَة مشروعات الدولة ودعوة المؤسسات الخاصة إلى اقتصاداتنا». «نحن حكومات الحزب الشيوعي وأنتَ زعيمُ حركة تحرير وطني. لماذا تتحدث عن

التأميم؟»[1666].

وكان لهذا أثره. لماذا اهتم مانديلا بنصيحة وزير الصناعة الهولندي، وهو مندوب آخر في دافوس نَصَحَه بعدم زيادة مِلْكية الدولة؟ كان مانديلا قد قضى لتوِّه ما يقرب من الثلاثين عامًا حبيسًا في سجون الأفريكان الناطقين بالهولَندية Dutch - speaking Africaners[1667]. وكانت الشبكة التي انتمى إليها، طوال هذه الفترة، إحدى أنجح شبكات القرن العشرين: شبكة الشيوعيين الدولية.

ما جعل دافوس حاسمةً اندماجُ هذه الشبكة الأقدم في دولية رأسمالية جديدة ابتكرها كلاوس شُواب، وهو الاندماج الذي جعل ممكنًا للحكومات الصينية والفيتنامية أن تتبنَّى إصلاحات اقتصادية قائمة على السوق.

## إفلاس بنك إنجلترا

ثمة خللٌ خطير في الروايات التي تشرح انهيارَ الشيوعية وهبوط الاشتراكية، وصعود العَوْلمة globalization بوصفها مؤامرة شِرِّيرة دبَّرتها قوى رأسماليةٌ متعدِّدةُ الجنسية ومتعدِّدةُ الأطراف، ضد حركات التحرير في العالم الثالث Third World.

الخلل هو أن شبكة المال العَوْلَمي لم يكن لديها أيُّ شيء متماسك سياسيًا يُسَمَّى «مذهب الصَّدْمة»[1668] shock doctrine. فإذا كان هناك مالٌ يمكنه عمل ذلك، فقد أصاب حكومةَ المحافظين البريطانية بقدر ما أصاب الثوريين الاشتراكيين الجنوب أفريقيين. ولا شيء يوضح هذه النقطة أفضل من الأحداث التي وقعت في لندن بعد ثمانية أشهر فقط من تَخلِّي مانديلا عن التأميم في دافوس [يناير 1992]. الشخص الذي غاب عن حضور المنتدى الاقتصادي العالمي في ذلك العام هو مدير صندوق الاستثمار [المحفظة الوقائية] hedge fund جورج سُورَس George Soros، والذي لم يبدأ في الحضور بانتظام حتى عام 1995. ورغم أن سُورَس وَضَعَ نفسَه على الطريق ليصبح أغنى رجال العالَم، فبوصفه لنفسه بأنه «وسيطٌ استثماريٌّ» صار شخصيةً غامضةً نسبيًا. لقد اشتهر سُورَس، في سبتمبر عام 1992، بأنه الرجل الذي «أفلس بنكَ إنجلترا»، و[أخلَّ ب] آلية سِعْر الصَّرْف الأوربي[1669] (European Exchange Rate Mechanism (ERM[1670].

لم تكن الاشتراكيةُ وحدها عُرْضَةً للخطر أثناء نموِّ الأسواق المالية العالمية بمعدَّلات أكبر وأكثر تكاملاً [واندماجًا] خلال عقديْ ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياته. إن الجَمْع بين رَفْع القيود (وبخاصةٍ إلغاء سعر الصَّرْف وضوابط رأس المال) والحَوْسبة (ولا سيما خلق تدفُّقات أسرع للمعلومات والصفقات عبر الحدود)، يعني أن أي مشروع سياسي يقوم على سيطرة هَرَميَّة هو مشروع هَشٌّ.

فكرة الوحدة الأوربية الجامعة - شأنها شأن فكرة أخويَّة الطبقة العاملة العالمية - كانت لها جذورها في القرن التاسع عشر. ولكن تطوَّرَت الفكرةُ - بعد تجارب أواسط القرن العشرين المُحْبِطة - من حلم طوباوي إلى برنامج تكامل [اندماج] اقتصادي عملي[1671].

بدأ تطبيق الفكرة بإنشاء «مجموعة» لتنظيم إنتاج وتسعير الفحم والصُّلْب في سِتِّ دول أوربية هي: ألمانيا الغربية، فرنسا، إيطاليا، بلجيكا، هولندا، لوكسمبورج. ثم نشأ عن معاهدة روما Treaty of Rome عام 1957

المجموعةُ الاقتصادية الأوربية European Economic Community وتخفيضُ الرسوم الجمركية وتأسيسُ اتحاد جمركي بين هذه البلاد. فازدهرت التجارةُ بينها بسرعة قبل تشكيل المجموعة الاقتصادية الأوربية واستمر ازدهارها بعد تشكيلها، كما نَمَت التجارة العالمية بوجه عام. ولكن التكامل الاقتصادي نما ببطء في نواحٍ أخرى. ففي مجال الزراعة، أعاق نموَّ السوق المتكامل - بشكل إيجابي - استمرارُ أشكال الدعم الوطني حتى حلَّتْ محلَّها السياسةُ الزراعية المشتركة[1672] Common Agricultural Policy. وفي مجال التصنيع، استمرت الحكومات الوطنية أيضًا في مقاومة المنافسة الأوربية الجامعة بدَعْم القطاعات الحسَّاسة سياسيًا أو بفرض حواجز غير جمركية. ولم يتعرَّضْ مجال الخدمات لمثل هذه الممارسات، وذلك لأن الخدمات أقل تداولاً عبر الحدود الوطنية من السلع [والبضائع]. كان الاستثناءُ من هذه القاعدة الخدماتِ الماليةَ، التي تكاملت واندمجت بطريقة جديدة تمامًا خلال ستينيات القرن العشرين، ببَيْعِ سندات الشركات طويلة الأجل[1673] وسندات القطاع العام لمستثمرين أثرياء نسبيًا[1674].

وكان صعودُ ما يُسَمَّى بسوق ال«يوروبوند» [سندات اليورو][1675] Eurobond خطوةً مبكِّرة في اتجاه العَوْلمة المالية financial globalization[1676]. بل كان ميلاد اليوروبوند تقدُّمًا مفاجئًا كبيرًا في تاريخ التكامل [والاندماج] الأوربي أيضًا، وهو ما لم يتوقعه - إلى حد كبير - رجالُ الدولة والتكنوقراطُ الذين صُوِّروا بوصفهم «قِدِّيسي» سنوات تكوين الاتحاد الأوربي European Union أو «آبائه المؤسِّسين»[1677].

لقد كان نتيجةً تلقائيةً لإبداع فواعل القطاع الخاص ومُمَثِّليه، بقدرٍ من مساعدة السلطات النقدية البريطانية المُتساهِلة. وفي غضون سنوات قليلة، تَحوَّلَ تكوينُ هذا السوق وازدهارُه إلى سوق رأسمالي أوربي، صَاغَ روابطَ مؤسَّسية جديدة تمامًا وشبكاتٍ جديدةً تمامًا عبر الحدود الوطنية، والمَصْرفيون هم الذين حققوا هذا وليس السياسيين. ولا شك في أن دافعهم الرئيسي هو الربح.

ومع ذلك، لم يَعتبره مهندسو سوق اليوروبوند مجرد وسيلة لكسب المال فقط، بل أداةً فعَّالة لتعزيز التكامل السياسي في أوربا. وعلى وجه الخصوص، قَدَّروا أن تكامل السوق الرأسمالي الأوربي سيُمَهِّدُ الأرضَ لعضوية بريطانيا في المجموعة الاقتصادية الأوربية. أما الفرنسيون فتخوَّفَوا من أن ينتهي بهم المطاف إلى دَعْم الجنيه الإسترليني إذا انضمت بريطانيا إلى المجموعة الاقتصادية الأوربية EEC، إذ كان يُتَوَقَّعُ أن تزيد العضويةُ ميزانَ مدفوعات المملكة المتحدة الضعيف سوءًا؛ وهو ما كان سببًا رئيسيًا لاعتراض الرئيس شارل ديجول Charles de Gaulle

على عضوية بريطانيا في عاميْ 1963 و1967.

الحجة المضادة التي أوضحها بالتفصيل روّادُ سوق اليوروبوند أن الفرنسيين لا يمكنهم استبعاد بريطانيا إلى أجلٍ غير مُسمًّى إذا أعادت لندن تأسيسَ نفسِها بوصفها مركزًا ماليًا للمُعامَلات في أوربا بعُمْلات غير الجنيه الإسترليني[1678].

ما إن نجحت بريطانيا في الانضمام إلى المجموعة الاقتصادية حتى بدأ مَصْرفيون من أمثال زيجموند فاربورج[1679] Siegmund Warburg - أحد مهندسي سوق اليوروبوند الرئيسيين - في مناقشة إمكان التكامل النقدي، بدءًا بإنشاء وحدة حساب (واقترح أن تُسَمَّى «عُمْلة اليورو» (Euro moneta تقوم على أساس سلَّة عُمْلات وطنية مختلفة[1680].

أداء بريطانيا الاقتصادي تخلَّلته، فيما بعد الحرب، أزماتُ الجنيه الإسترليني المتكرِّرة. ومَن فَضَّلوا تكاملَ أوربا لأغراض الاستثمار والخدمات المالية اعتبروا الحاجةَ المتكرِّرة إلى إعادة تنظيم العُمْلة أكثرَ من مجرد عائق مزعج. لقد بَدَتْ تقلُّباتُ أسعار الصَّرْف عائقًا آخر على الطريق السريع نحو الوحدة الأوربية.

كانت فكرةُ اتحاد نقدي أوربي، بحد ذاتها، نتاجَ شبكة مفكرين معظمُهم هولنديون وفرنسيون وألمان[1681]. ولكن ثمة مفارقة معينة، ألا وهي أن شبكة المفكرين - وبعضُهم اقتصاديون أكاديميون وبعضُهم بيروقراطيون - صَمَّمَتْ هذا المشروعَ الهَرَميَّ للغاية، بإنشاء بنك مركزي واحد للدول القومية غير المتجانسة التي شكَّلَت المجموعةَ الاقتصادية الأوربية. ويكمن التفسيرُ المهم لذلك المشروع في تركيبة النُّخْبة الفرنسية الحاكمة، المترابطة معًا بعلاقات قوية: فكلُّهم تقريبًا تدرَّبوا في مدارس عُلْيا grandes écoles (وبخاصة مدرسة التكنولوجيا المتعدِّدة [الإيكول بوليتكنيك][1682] École Polytechnique والمدرسة الوطنية للإدارة[1683] École Nationale d'Administration) التي تُدِيرُها هيئاتٌ كبيرةٌ [في] الدولة] grands corps (التفتيش المالي Inspection des Finances، مجلس الدولة Conseil d'État، ديوان المحاسبة Cour des Comptes، كور دي مين[1684] Corps des Mines).

أما مَن اختاروا العملَ في القطاع الخاص فظلوا مترابطين ترابطًا وثيقًا عبر شبكة الصداقة والتزاوج وعضوية النوادي مثل لوسييكل[1685] Le Siècle والمحافل الماسونية، التي يرجع العديد منها إلى ما قبل الثورة الفرنسية French

.Revolution
ومنذ سبعينيات القرن العشرين، صار ما بين ثلْث ونصف وزراء الحكومة الفرنسية أعضاءَ في لوسييكل بغضِّ النظر عن الانتماء الحزبي، بذروة بلغت 72% في حكومة إدوار بالادور
.(Édouard Balladur (1993 - 1995

ويضمن النظامُ المعروف باسم بونتوفلاج[1686] pantouflage دورانَ «الباب الدوَّار» للموظفين المدنيين داخل المجال المَصْرفي والصناعي وخارجه. ومن ثمَّ، رُبِطَتْ شركاتُ القمة الأربعين معًا بنظام مجالس إدارة متشابك، يعمل معظمُ مديريه في أكثر من مجلس إدارة آخر[1687].

وبالنسبة إلى ما يُسَمَّى إينارك [خريجو المدرسة الوطنية للإدارة] énarques، كانت فكرةُ عُمْلة أوربية موحَّدة جذَّابةً بشكل لا يُقاوَمُ؛ ذلك أنهم رأوا في إنشاء بنك مركزي أوربي طريقةً مؤسَّسية لاحتواء تنامي هيمنة ألمانيا الاقتصادية.

ذلكم هو السبب الجوهري وراء معاهدة ماستريخت[1688] Treaty of Maastricht.

ومن وجهة النظر الألمانية المتطلِّعة، الاتحاد النقدي هو الثمن الذي يَتعيَّن دَفْعُه مقابل الموافقة الفرنسية على توحيد ألمانيا: فهو الدليل، كما قال المستشار الألماني هيلموت كول Helmut Kohl أكثر من مرة، على أن قادة ألمانيا يضعون أوربا أولاً، ثم ألمانيا ثانيًا.

ولدى بريطانيا نُخْبتُها الحاكمة أيضًا. في ستينيات القرن العشرين، أشاع الصحفيان هنري فيرلي Henry Fairlie وأنتوني سامبسُن Anthony Sampson الاسمَ المُزْدَرَى الذي أطلقه تايلور[1689] A. J. P Taylor: «المؤسَّسة»[1690] The Establishment.
ولكن الطبقة الحاكمة البريطانية، رغم ارتباط أفرادها معًا بروابط مدرسية قديمة وأوشحة من أوكسبريدج[1691] Oxbridge، كان مقدارُ عدم تجانسها أكبرَ من نظيرتها الفرنسية.

ولا شيء يوضح ذلك أفضل إيضاح من حكومات تاتشر Thatcher في ثمانينيات القرن العشرين: فبالإضافة إلى أن رئيسَ الوزراء امرأةٌ من مقاطعة لينكولنشاير[1692] Lincolnshire (وإنْ حَمَلَتْ درجةً من أوكسفورد)، وُجِدَ في مجلس وزرائها [ا ل ك ا بِ ـنِ ـتْ cabinet [

ما يكفي من الوزراء ذوي خلفيات يهودية لإلهام النِّكَات عن «الإستونيين القدماء»[1693]
.Old Estonians

كان زيجموند فاربورج ومَصْرفه الاستثماري S. G. Warburg & Co. (إلى جانب الفرع الأقدم لبنك ناثان ماير روتشيلد N. M. Rothschild)، حاضنًا لبعض ألمع التاتشريين، وكما قال هو في عام 1972، من الواضح أنه «لا يمكن تصور وجود اتحاد اقتصادي ونقدي دون اتحاد سياسي. وأعتقد أن بيسمارك Bismarck كان يتحدث دائمًا عن «أوَّلِيَّة السياسة على الاقتصاد» das primat der politik ueber die wirtschaft، وهذا صحيح اليوم بقدر صِحَّته في عصره»[1694].

ففي ثمانينيات القرن العشرين، كان المحافظون هم الذين لَبْرَنوا liberalized مدينةَ لندن وبَشَّروا بإحياء الرأسمالية البريطانية. أيَّدَ المحافظون التكاملَ التجاري الأوربي، بل هَنْدَسوا القانونَ الأوربي الموحَّد Single European Act لتحرير التجارة عام 1986. ولكنهم اختلفوا في دعمهم للاتحاد النقدي.

وحتى آلية سعر الصَّرْف الأوربي ERM اشتغلت، في المرحلة الانتقالية، ضد رؤية تاتشر القائلة بأن الحكومات لا تستطيع «تحجيم السوق»[1695]. وإلى جانب مثل هذه الاعتراضات الاقتصادية، وُجِدَ اعتراضٌ سياسي. فلا سياسيو حزب العُمَّال أو حزب المحافظين أرادوا الانضمام إلى نظام يفرض عليهم إخضاع سياستهم في الاقتصاد الكلي[1696] macroeconomic policy للبنك الاتحادي الألماني. ورغم أن الحرب العالمية الثانية قد انتهت قبل أربعة وثلاثين عامًا من انتقال تاتشر إلى [رقم] 10 داونِنْج ستريت [مقر إقامة رئيس الوزراء الرسمية في لندن] 10 Downing Street، فإن ذكرى «الحرب» ماثلةٌ في الأذهان. فأُجْبِرَ الوزيرُ نيكولاس ريدلي Nicholas Ridley، من حزب المحافظين، على الاستقالة في يوليو عام 1990 لقَوْله بصوتٍ عالٍ ما يعتقده الكثيرون في سريرة أنفسهم: مشروع الاتحاد النقدي «ابتزازٌ [واحتيال] ألماني، صُمِّمَ للسيطرة على أوربا بأسرها». وتُزَوِّدُ مجلةُ سبِكْتيتَر Spectator[1697] المحاورةَ التي ظهر فيها هذا السطرُ برسم كاريكاتوري لريدلي وهو ينتزع شارب هتلر ويضعه على وَجْه كول [هيلموت كول المستشار الألماني

حينئذٍ].

ثم بحلول أواسط ثمانينيات القرن العشرين، ضَغَطَ محافظُ بنك إنجلترا Bank of England واتحادُ الصناعة البريطانية Confederation of British Industry CBI))، كلاهما، على بريطانيا للانضمام إلى آلية سعر الصَّرْف الأوربي ERM. بل اعتقد وزيرُ المالية نايجل لوسن Nigel Lawson اعتقادًا جازمًا بأن «السعي وراء» المارك الألماني يعني سعيًا ضمنيًا وراء رَفْع سعر الصَّرْف. وفي يوليو عام 1989، عندما هَدَّدَ لوسن ووزير خارجية تاتشر جيفري هاو Geoffrey Howe، كلاهما، بالاستقالة إذا لم تنضم بريطانيا إلى آلية سعر الصَّرْف الأوربي، وافقت تاتشر فى النهاية من حيث المبدأ، وأرجأت الانضمامَ الفعلي حتى أكتوبر عام 1990. عند هذه المرحلة، تحمَّسَ مؤيِّدو آلية سعر الصَّرْف الأوربي غاية الحماس للمُضيِّ قُدُمًا، خشيةَ أن تُغيِّرَ تاتشر رأيَها، ذلك أنه لم توجد دراسةٌ جادة لسعر الصَّرْف المركزي في الوقت الذي كانت ستندرج فيه بريطانيا ضمن نظام آلية سعر الصَّرْف الأوربي، وهو سعر رأى بعضُ «المتشكِّكين في اليورو» أنه أعلى في القيمة (2.95 مارك ألماني مقابل الجنيه). ولم يكن تنازل تاتشر هذا، كافيًا لإنقاذها.

ففي يوم 28 نوفمبر عام 1990، حلَّ محلَّها وزيرُ خارجيتها جون ميجور John Major، عقب انقلاب داخل حزب المحافظين قادَه المؤيِّدون لأوربا.

استخفَّ ميجور وأنصارُه بِعَزْم نظرائهم الأوربيين على الإسراع باتحاد نقدي بل وسياسي. فاقترحوا إعادةَ تسمية الكيان نفسه ب«الاتحاد الأوربي» European Union وصياغة معاهدة تأسيس جديدة والتوقيع عليها. وذَكَرَ لاحقًا وزيرُ الخارجية البريطاني نورمان لَمونت Norman Lamont قائلاً بِهَلَعٍ واضح: «أثناء مفاوضات معاهدة ماستريخت، سمعتُ للمرة الأولى السياسيين الأوربيين يتناقشون بصراحة وحماسة من أجل إنشاء دولة أوربية»[1698].

ولم يكن ميجور متحمسًا. كَتَبَ في وقت لاحق قائلاً: «لم أكن أرغب في رؤية عُمْلة موحَّدة». «كما لم أكن أودُّ الآثارَ السياسية الناتجة عن اتحاد نقدي»[1699]. اتخذ ميجور قرارًا بأن بريطانيا ينبغي أن تُوَقِّعَ على معاهدة ماستريخت، وإلا سيَسْتَعْدِي أوربا القارية بل وعُصْبة المؤيِّدين لها داخل حزبه المحافظين، ولكنه استرضاءً للمُتشككِّين في اليورو سيُصِرُّ على انسحاب بريطانيا من العملة الموحَّدة والفصل الاجتماعي[[1700]][1701] Social Chapter.

كانت المخاطرُ السياسية عاليةً. واضطر ميجور إلى مواجهة انتخابات عامة في أبريل عام 1992. لقد فَهِمَ مفاوضو ماستريخت الآخرون هذا، ولكنهم شعروا بالاستياء عندما عَرَضَ ميجور ولَمونت - كما قال لَمونت - «وثيقةً طويلة تفصيلية ودقيقة، بصورة قانونية كاملة، تُحدِّدُ كلَّ بنود المعاهدة التي لن تُطَبَّقَ على

المملكة المتحدة، فأغلقا البابَ أمام أي تفسيرات بديلة»[1702].

لقد رفض لَمونت وميجور بكل بساطة التفاوض: إما أن تقبل الدول الأخرى إعفاء بريطانيا أو لن تُوَقِّعَ بريطانيا. وقد آتَتْ هذه الصرامةُ ثمارَها في الوطن. مانشيت جريدة ديلي تليجراف Daily Telegraph يعلن: «نُوَّاب الحزب التُّوري [حزب المحافظين] في المجلس يهتفون لنجاح ميجور في ماستريخت»[1703].

ووُقِّعَت المعاهدةُ الجديدة يوم 7 فبراير عام 1992. أنجز الفرنسيون وَعْدَهم بعُمْلة واحدة؛ ويستطيعون العَيْش بدون عضوية بريطانيا، ودون الدنماركيين الذين تَحَقَّقَ لهم أيضًا خيارُ عدم المشاركة، وتأهَّبوا لألمانيا الجديدة المتضخِّمة التي أُغْلِقَ في وجهها الباب. وبعد شهرين فقط، حققَ ميجور بصعوبة نصرًا محدودًا (وغير متوقَّع إلى حد كبير) في الانتخابات البريطانية.

بذلك صار نظامُ آلية سعر الصَّرْف الأوربي ERM منزلاً في منتصف الطريق بين التعويم الحُرِّ لأسعار الصَّرْف والعُمْلة الموحَّدة التي لم تنضم إليها كلُّ البلاد المُشارِكة عندما بدأ العمل بها بعد سبع سنوات منذ ذلك التاريخ. وكان الأمر كذلك بالنسبة إلى البنوك المركزية الوطنية الاثني عشر للحفاظ على عُمْلاتها الخاصة ضمن نطاقات أو قيود تجارية متفق عليها. ثم بحلول أغسطس عام 1992، أيقظ مأزقُ العديدِ من أعضاء آلية سعر الصَّرْف الأوربي الشكوكَ فيما إذا كان يمكنهم فعل بذلك. ففي هذا الوقت، بدأت العواقب الاقتصادية لتوحيد ألمانيا تجعلهم يُجَرِّبون بأنفسهم. فإعطاء الألمان الشرقيين هديةَ لمِّ الشَّمْل مرة واحدة، سيُحَوِّلُ «ماركاتهم الشرقية» إلى ماركات ألمانية غربية أقوى بكثير بنسبة واحد لواحدٍ. وكانت النتيجةُ زيادةَ القوة الشرائية لألمانيا الشرقية وإفاقة النقود الألمانية من سَكْتتها الدماغية، في الوقت الذي كانت فيه معظمُ الصناعة الألمانية الشرقية غيرَ تنافسية بطريقة تدعو إلى اليأس[1704]. فكان لا بد من استثمارات ضخمة في ألمانيا الشرقية لجَعْل بنيتها التحتية الصناعية مطابقةً للمعايير الغربية، وكذلك مدفوعات البطالة الكبيرة وغيرها من أشكال النقل من الغرب إلى الشرق. فكانت النتيجةُ اندفاعًا قويًا نحو الاستثمار والإنفاق الحكومي، مُوِّلَ الكثيرُ منه بالاقتراض. وهو ما أدَّى بدوره إلى ارتفاع الأسعار والأجور الألمانية.

وقد خَفَّفَ خطرُ التضخم الألماني من الصراع بين أدوار البنك الاتحادي الألماني Bund المحلية وأدواره الأوربية. يتمثل دوره المحلي في مسؤوليته القانونية بوصفه الحامي لقوة المارك الألماني الشرائية؛ وأما دوره الأوربي فهو كَوْنه المرتكز الواقعي لآلية سعر الصَّرْف الأوربي. استجاب البنك الاتحادي الألماني، وهو يواجه التضخُّمَ الألماني، لطفرة الوحدة [الألمانية] برَفْع أسعار الفائدة الأساسية التي يُقْرِضُ بها البنوكَ الألمانية. فمن حضيض ما قبل الوحدة البالغ 2.5%، ارتفع معدَّلُ الخصم [1705] discount rate

بخطوات مدروسة إلى ذروته البالغة 8.75% في أغسطس عام 1992.

وبات من الواضح قِلَّةُ اهتمام البنك الاتحادي الألماني بدوره الأوربي بوصفه مرتكز آلية سعر الصَّرْف الأوربي. وهي أنباء سيئة للأعضاء الآخرين في نظام آلية سعر الصَّرْف الأوربي. فألغت معظمُ الدول الأعضاء، بما فيها المملكة المتحدة وفرنسا وإيطاليا، جميعَ القيود على التدفُّقات المالية عبر حدودها بحلول عام 1990. إذا لم ترفع [هذه الدول] أسعار الفائدة أيضًا، فسينتقل رأسُ المال المتحرِّك إلى ألمانيا بحثًا عن عوائد أعلى. والمشكلة أن المملكة المتحدة وفرنسا وإيطاليا لم تتمتع بزيادة، مقارنةً بألمانيا. فكانت اقتصاداتهم تهبط والبطالة ترتفع.

بل عانت بريطانيا من ركود في عام 1991.

تَوفَّرَ مُحفِّزُ أزمةٍ في يوم 2 يونيو عام 1992، عندما رفض الناخبون الدنماركيون - في استفتاءٍ - معاهدةَ ماستريخت بشكل غير متوقع[1706]. وفي الأول من يوليو، أعلن الرئيس فرانسوا ميتِران François Mitterrand أن استفتاءً فرنسيًا سيجري يوم 20 سبتمبر[1707]. وإذا رفض الفرنسيون، أيضًا، ماستريخت فستكون المعاهدةُ الجديدة في حُكْم الميتة[1708]. سرعان ما أشارت استطلاعات الرأي إلى احتمال حدوث ذلك فعلاً[1709].

وكان هذا اللايقين السياسي بمثابة أنباء سيئة بالنسبة إلى بريطانيا. لقد اختار جون ميجور الخروج من العُمْلة الموحَّدة، ولكنه استثمر قدرًا كبيرًا من الرأسمال السياسي في ماستريخت. وعلاوة على ذلك، كان ميجور وزيرًا للمالية حين اختارت بريطانيا الدخولَ في نظام آلية سِعْر الصَّرْف الأوربي. وآخِرُ شيء يريده، بلا شك، تعليقَ التزامه على تثبيت العُمْلة. ألقى ميجور ولَمونت، كلاهما، خُطَبًا يستنكران فيها أيَّ احتمال لتخفيض قيمة العُمْلة[1710]. فلم يتلقيا دعمًا لموقفهما في فرانكفورت يُخَفِّفُ قلقَهما. وفي أربع مناسبات في صيف عام 1992، أبدى موظفو البنك الاتحادي الألماني تعليقات انتقاصية بشأن العُمْلات الأخرى، في نظام آلية سِعْر الصَّرْف الأوربي، تناقلتها الصحافةُ[1711].

وفي يوم 10 يونيو، أجرى رئيسُ البنك الاتحادي الألماني، هيلموت شليزنجر Helmut Schlesinge، مقابلةً تحدَّثَ فيها صراحةً عن إعادة تنظيم [تخطيط] محتملة لعُمْلات نظام آلية سعر الصَّرْف الأوربي قبل الانتقال النهائي إلى اتحاد نقدي[1712].

واحتجَّ ميجور ولَمونت على المستشار [الألماني] كول، ولكن دون جدوى[1713]. وفي يوم 16 يوليو، في حفل استقبال صيفي في 10 داونِنْج ستريت [مقر رئاسة الوزراء البريطانية]، وفيما بعد على عشاء استضافته جريدة صنداي تايمز Sunday

Times، أكّدَ ميجور بمزيج من «التمنّي والتبجُّح» أنه في غضون خَمْس أو عشر سنوات، «سيصبح الجنيه الإسترليني من بين أقوى العُمْلات في العالم، وربما أقوى من المارك الألماني»[1714].

وفي اليوم التالي، رفع البنك الاتحادي الألماني معدَّلَه في الخَصْم، وهي خطوة مشروعة للحدِّ من التضخُّم الألماني؛ وفي الوقت نفسه صَرَّحَ المتحدثُ باسم البنك الاتحادي الألماني («بشكل لا يُصَدَّقُ» كما قال لَمونت) بأن «قوى السوق ربما تُجْبِرُ العُمْلات الأضعف على تخفيض قيمتها في النهاية»[1715].

وفي يوم 26 أغسطس، سعى لَمونت، وهو على بُعْد خطوات من مبنى وزارة المالية في الوايتهول، إلى إزالة أي «ذَرَّة شكٍّ في الجنيه» فتعهَّدَ ب«فعل كل ما هو ضروري» للحفاظ على موقف الجنيه الإسترليني أو تعلو قيمته بما يعادل 2.778 مارك ألماني وفق نظام آلية سعر الصَّرْف الأوربي[1716].

بعد ظهر ذلك اليوم، دعا إيان بلندرليث Ian Plenderleith، مدير بنك إنجلترا Bank of England المسؤول عن الأسواق النقدية، كبارَ المسؤولين في البنوك الأربعة الكبيرة إلى شارع ثرِدنيدل[[1717]] Threadneedle Street لكشف النقاب عن خطة دَعْم الجنيه الإسترليني بإقراض أكثر من 7.25 مليار جنيه بعُمْلات أجنبية، وبخاصة المارك الألماني (خطة أُعْلِنَ عنها على الملأ بعد ثمانية أيام)[1718].

وفي وقت لاحق من اليوم نفسه، أعرب لَمونت عن قلقه من أن عضوًا في مجلس إدارة البنك الاتحادي الألماني اعتقد أن هناك «احتمالاً لإعادة التنظيم ضمن نظام آلية سعر الصَّرْف الأوربي»[1719]. وبعد أربعة أيام، حصلت رويترز Reuters على نسخة سابقة من خطاب مسؤول البنك الاتحادي الألماني نُصَّ فيه على أن إعادة تنظيم آلية سعر الصَّرْف الأوربي قد أُجِّلَتْ لأربع سنوات ل«أسباب اللياقة»، مما يعني أنها لا يمكن أن تُؤجَّل لفترة أطول[1720].

كان واضحًا لدى السياسيين البريطانيين، المُفْعمين بذكريات شَعْبوية من أربعينيات القرن العشرين، مَن الخَصْمُ: الألمان[1721]. في الأسبوع الأول من سبتمبر، لعب لَمونت دورَ المُضيف في اجتماع وزراء المالية الأوربيين في باث[[1722]] Bath.

وقرَّرَ لَمونت - وقد امتلأ بعبق أصالة المكان الإنجليزية - أن يضع شليزنجر [رئيس البنك الاتحادي الألماني] تحت أقصى ضغط. وغضب شليزنجر مهتاجًا من «سَرْسَعة» لَمونت فهدَّدَ بالخروج، واضطر وزير المالية الألماني تيو

فايجل Theo Waigel أن يُثْنيَه عن عَزْمه[1723].

وعند مرحلة ما، تذمَّرَ شليزنجر قائلاً: «لم يحدث أبدًا في تاريخ البنك الاتحادي الألماني أنْ تَعرَّضنا لضغط كبير كالذي تُمَارِسُه علينا الآن»[1724]. (فعَلَّقَ لَمونت ساخرًا: «ربما لم يَعِش الحياةَ كلَّها»)[1725].

في نهايةِ الاجتماع، وبينما كان يَهِمُّ الوزراءُ بالمغادرة، ثأرَ شليزنجر [من سخرية لَمونت] بأَنْ قدَّمَ لزوجته عُلْبَةَ تقديمٍ تحتوي على ثلاثين ماركًا ألمانيًا من الفضة. (ذكر لَمونت فيما بعد قائلاً: «عليَّ أن أعترف بأن عباراتٍ غير لطيفة عن الماركات الثلاثين الفضية تردَّدَتْ أصداؤها في ذهني»)[1726].

استمرت الحربُ الكلامية لمدة أسبوع تالٍ، فعارَضَ شليزنجر، بشكل قاطع، تلميحَ لَمونت بأن خَفْضَ سعر الفائدة الألمانية بات وشيكًا[1727]. وفي يوم 15 سبتمبر، أجرى رئيسُ البنك الاتحادي الألماني مقابلةً مع جريدة مالٍ ألمانية هي هانْدِلْسبلات Handelsblatt، قال فيها إنه «لا يَستبعد احتمالَ تعرُّض عُمْلة أو عُمْلتين للضغط قبل الاستفتاء في فرنسا، حتى بعد إعادة التنظيم وخَفْضِ أسعار الفائدة الألمانية»[1728].

التعليق المنشور بوصفه حديثًا غير مباشر سرعان ما نُشِرَ على الإنترنت، لأن شليزنجر أصَرَّ على تفضيل الاقتباسات المباشرة. وأصرَّ ميجور على استدعاء شليزنجر من على مائدة العشاء كي يَتنصَّلَ من التقرير [الصحفي]، فكانت النتيجةُ الوحيدة تصريحًا رسميًا من البنك الاتحادي الألماني بأن النص لم يكن «مُرخَّصًا»[1729].

ولكن لَمونت بتوبيخه الألمان اكتسب العدوَّ الخطأ. فبحلول يوم 10 سبتمبر، تَوصَّلَ الألمانُ إلى شروط ضرورة إعادة تنظيم عامة داخل آلية سعر الصَّرْف الأوربي، مع خَفْضِ سعر الفائدة الألماني. لكن هذه الرسالة لم تصل إلى الحكومة البريطانية، وذلك لأن وزير المالية الفرنسي جون كلود تريشيه Jean - Claude Trichet حُدِّدَ له (على ما يبدو) تجنُّب إعادة التنظيم هذه أساسًا، قبل وقت قصير من الاستفتاء الفرنسي على ماستريخت.

الأغلب أن ما بدا عَرْضًا متاحًا، كان بالنسبة إلى بريطانيا، وكذلك إيطاليا، تخفيضًا لقيمة العُمْلة، وهو خيار رَفَضَه ميجور، رغم أنه عندما تقدَّمَ الإيطاليون، وحدهم، زادَ الضغطُ على الجنيه الإسترليني فقط[1730]. ولم تكن عُمْلات آلية سعر الصَّرْف الأوربي، فقط، تحت الضغط ذلك الصيف. ففي يوم 8 سبتمبر عَوَّمَتْ فنلندا عُمْلَتَها التي انخفضت على الفور 14%. وفي اليوم التالي، رفع البنكُ المركزي السويدي

سعرَه بين عشية وضحاها إلى 75% لدَرْءِ خَفْضِ قيمة العُمْلة. ثم ارتفع السعر لاحقًا إلى 500% قبل استسلامه في النهاية[1731].

أما الدولار الذي تَميَّزَ بأسعار فائدة أمريكية قصيرة الأجل في أدنى مستوياتها لمدة ثلاثين عامًا، فكان يقترب أيضًا من المارك الألماني ذي العائد المرتفع. وعندما عَلَّقَ كبيرُ موظَّفي البيت الأبيض على الموقف قائلاً «نحن في وضع يائس، تحت رحمة الأسواق»، كان أقربَ إلى الحقيقة من نظرائه في داونِنْج ستريت[1732].

لم يكن المؤشِّرُ الحقيقي ما قاله شليزنجر بحد ذاته، بل كيف رَدَّتْ الأسواقُ على كلماته. وقد أبدى أحد موظفي بنك إنجلترا الملاحظة الآتية: «لم يرَ الجيل الحالي في البنك شيئًا كهذا من قبل». «إنه كما لو كان انهيارًا ثلجيًا في الطريق إلينا»[1733].

عَقِبَ الأزمة، سَلَّطتْ وسائلُ الإعلام البريطانية الضوءَ على فكرة أن رجلاً واحدًا هو الذي أَفْلَسَ بنكَ إنجلترا: جورج سُورَس George Soros. وهو ما يُعَدُّ تفويتًا لما أراده تقريبًا ميجور ولَمونت عندما ألقيا باللائمة على رجل آخر هو هيلموت شليزنجر[1734].

الأفراد لا يَتسبَّبون في الأزمات المالية، بل يُسَبِّبُها القطيعُ، كما فَهِمَ سُورَس. وُلِدَ سُورَس في المجر، وفَرَّ لاجئًا من النازية، وتخَرَّجَ في مدرسة لندن للاقتصاد London School of Economics، ثم أسَّسَ صندوقَ الكوانتم[1735] Quantum Fund

وصناديق استثمار أخرى، تشاركية، بدأت بحوالي 5 مليون دولار في عام 1969، وبلغت حوالي 5 مليار دولار في عام 1992، من خلال مراهنات مالية[1736] كبيرة ذات عوامل رِبْح متكافئة.

لقد عرف سُورَس جيدًا أن نظام أسعار الصَّرْف الثابتة سيقع تحت ضغط إذا وُجِدَتْ فروقٌ كبيرة وثابتة في أداء الدول الأعضاء الاقتصادي. ولكنه كان يعرف أيضًا أن مجموعته الاستثمارية وصناديق الاستثمار الأخرى، المرتبطة بها، إذا راهنت بما يكفي من القوة ضد عُمْلة ما، فستهبط قيمتُها بغضِّ النظر عن «الأصول» الاقتصادية. لقد اعتقد سُورَس، بفخرٍ غير تقليدي في مقاربته للاقتصاد، أن «الانعكاسية» reflexivity تلعب دورًا رئيسيًا في الأسواق المالية. وكما قال في كلمة ألقاها في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا عام 1994:

«الانعكاسيةُ في حقيقة أمرها آليةٌ لردود الفعل ذاتُ اتجاهين، حيث يساعد الواقعُ على تشكيل تفكير المُشارِكين، ويساعد تفكيرُ المُشارِكين على تشكيل الواقع»[1737].

النقطة الحاسمة أن سُورَس بمفرده لم يكن ليستطيع عمل ذلك. نَوَّه ذات مرة قائلاً: «في معظم الأحيان، أَتْبَعُ التيارَ، بل أُدْرِكُ طول الوقت أني عضو في مجموع، وكُلِّي انتباهٌ ويقظةٌ لنقاط الانقلاب... وفي معظم الوقت يتغلب التيارُ؛ وأحيانًا فقط تُصحَّحُ الأخطاءُ. وفي بعض اللحظات فقط ينبغي للمرء أن يمضي عكس التيار... [ليكون] على رأس المنحنى»[1738].

وكما رأينا، بلغت أصولُ مجموعة الكوانتم التي يُديرها خمسةَ مليارات دولار عام 199. أما الاحتياطي الدولي لبنك إنجلترا الذي يبلغ 44 مليار دولار - وهو أكبر ثمانية أضعاف تقريبًا - فيَنْضاف إليه احتياطي أي بنوك مركزية أخرى عُضْوة في نظام آلية سعر الصَّرْف الأوربي اختارت التدخُّلَ إلى جانب بريطانيا. لو لعب سُورَس ضد بنك إنجلترا بمفرده لكان خسر. ومن ناحية أخرى، قَدَّرَ الاحتياطيُّ الفيدرالي Federal Reserve أن قيمة التداول اليومي في أسواق الصَّرْف الأجنبي العالمية قد زاد من 58 مليار دولار عام 1986 إلى 167 مليار دولار عام 1992[1739] وعلى حدِّ تعبير الإيكونومِست Economist:

«احتياطي الخزانة البريطانية المُطَمْئِنُ، على ما يبدو، لم يكن شيئًا مقارنةً بقوة لهب السماسرة»[1740]. ومن ثمَّ، مفتاح أعمال سُورَس الرئيسي هو الحصول على كتلة مستثمرين حَرِجَة ليزيد بها سعرَ التجارة نفسها التي ينتويها. ولم يكن ذلك بالعمل الصعب، لأن سُورَس جزء من شبكة مستثمرين مماثلين له في التفكير.



ستان درُكينمِلر وجورج سُورَس

وفي حقيقة الأمر، مَن ساعد سُورَس وشريكَه ستان درُكينمِلر Stan Druckenm على تدبير التجارة هو روبرت جونسن Robert Johnson مدير بنك بانكِرز ترَست[1741] Bankers Trust.

فكما أوضح جونسن، النقطةُ الحَرِجَة هي أن عُمْلات آلية سعر الصَّرْف الأوربي تبقى داخل نطاقات ضيقة نسبيًا: لم يكن من الممكن رَفْع قيم العُمْلات على المارك مهما حدث، فإذا باع السماسرةُ الجنيهَ قصير الأجل[[1742]] وخسروه فلن يخسروا الكثير. وإذا راهنوا وربحوا فسيتأهَّبون للفوز بصفقة كبيرة: خَمَّنَ جونسن أن نقص القيمة يمكن أن يبلغ %[1743] 20.

كانت هذه المناقشة لتحقيق أقصى قدر من الالتزام. ومن المؤكد أن درُكينمِلر اقتنع بأن الجنيه ستنخفض قيمته، ولكنه تردَّدَ في المقدار الذي يُراهِنُ به. فردَّ سُورَس بهدوء: «لو أنك أردت هذا... فَلْتذهبْ إلى أقصى مدى [اقطع عِرْق وسَيَّح دمه]»: اقتراض أكبر قدر ممكن بالجنيه قصير الأجل[1744].

ورغم كل شيء - كما قال سُورَس - «كانت العلاقة بين المخاطرة والمكافأة مُبشِّرة للغاية»، فلماذا يتراجعون عن ذلك؟[1745] بروح الإثارة العالية هذه، بدأ سُورَس ودرُكينمِلر يقترضان أقصى ما يمكنهما الحصول عليه من الجنيهات ليقوما بأكبر مراهنة في حياتهما المهنية.

ولكن النقطة الرئيسية - كما أشار جونسن - أنهما لم يُراهِنا بمفردهما: «خرجتُ

من هناك ولا شك عندي إطلاقًا في أننا كنا نمضي إلى ما هو أبعد، فأنا أعرف أن آخرين في البنوك، ومِن أمثالنا، سيُقلِّدوننا»[1746].

وكما صارت كلماتُ شليزنجر «غير المأذون بتداولها» منذ ظهر الثلاثاء السابق علنيةً يوم الأربعاء، 16 سبتمبر، تَصَاعَدَ البَيْعُ المكشوف[[1747]] Short Selling للجنيه.

وقد عبَّرَ لَمونت، وهو ينتظر بقلق للتحدُّث مع رئيس الوزراء، عن أسفه لكَوْننا «نخسر مئات الملايين من الدولارات كل بضع دقائق». وحاول بنك إنجلترا عَبثًا إيقاف التدفُّق[1748].

في الساعة الحادية عشر صباحًا، أعلن البنك أن الحد الأدنى لسعر الإقراض سيرتفع إلى 12%. وبعد ما يزيد قليلاً عن ثلاث ساعات رُفِعَ السعرُ إلى 15%، ولكن اعتبارًا من اليوم التالي. ولم يكن من شأن مثل هذه الإجراءات المُتهوِّرة سوى تحريض سُورَس[1749].

وحين أعلن لَمونت أنه سيقترض 15 مليار دولار إضافية للدفاع عن الجنيه الإسترليني، كان سُورَس «يضحك لأن هذا المقدار هو ما كُنَّا نريد بَيْعَه»[1750]. ولكن سُورَس لم يصل إلى هذا الحدِّ؛ إذ وصل إلى ما يقرب من 10 مليار دولار عند وقت الإغلاق. في ذلك المساء، وبينما كان رُوَّادُ المسرح (وكنتُ مِن بينهم) يستمتعون بمشاهدة أوبرا فيردي «قوة القدر» Verdi's The Force of Destiny في دار الأوبرا الوطنية الإنجليزية English National Opera، دعا لَمونت إلى مؤتمرٍ مُرْتَجَل في فناء وزارة المالية الرئيسي ليعلن أن المملكة المتحدة «عَلَّقَتْ» مشاركتَها في نظام آلية سعر الصَّرْف الأوربي[1751]. وعلى الرغم من تخفيض قيمة الليرة [الإيطالية] الرسمية في وقت سابق داخل آلية سعر الصَّرْف الأوربي، استُبْعِدَت الليرةُ أيضًا في اليوم نفسه[1752].

لقد ادَّعَى مُنَظِّرو المؤامرة أن جورج سُورَس محورٌ في شبكة قوية وكبيرة. فطبقًا لتفسير يحبس الأنفاس، سُورَس «هو الوجه المرئي لشبكة مصالح مالية خاصة سِرِّية، هائلة وشريرة، تسيطر عليها عائلاتُ أوربا االمَلَكية الأرستقراطية الرائدة، مركزها بريطانيا.

بيت وِنْدسور[[1753]] House of Windsor... شُيِّدَتْ على حُطَام الإمبراطورية البريطانية بعد الحرب العالمية الثانية». ويُزْعَمُ أن هذه الشبكة تمتد من الملكة Queen

وآل روتشيلد، وصولاً إلى «سمسار المعادن والسلع الأساسية المُتَّهم الهارب مارك
ريتش
Rich Marc من بلدة زُوجْ Zug بسويسرا، ومُوَزِّع الأسلحة والسلع السرِّي الإسرائيلي شول
أ ي ز ن ب ر ج Eisenberg Shaul،
وضابط الموساد القذر رافي إيتَن Dirty Rafi Eytan.[1754]

وهذا كله هُرَاء. الشبكةُ الحقيقية التي ينتمي إليها سُورَس - «الشبكة الاقتصادية الأكبر والأعقد» التي أشار إليها في مقابلة صحفية - هي شبكة صناديق الاستثمار التي تسعى إلى كسب المال بطرق متماثلة[1755].

وكما ذكر درُكينمِلر: «لقد سعينا فعلاً إلى ذلك، ونواصل السعي والسعي مثل أرنب إنرجايزر Energizer bunny... لذا، أيُّ شخص لديه عقل سيسأل سمسارَه: ما الذي يحدث بحق الجحيم؟ وأنا أعرف أن الناس يتكلمون. إنها مجموعة الكوانتم». في بعض الحالات - ولا سيما [صندوق استثمار] لويس بيكُن Louis Bacon - تَبَادَلَ سورس ودرُكينمِلر معلومات عبر الهاتف.

وشارك مديرو صندوق استثمارات آخرون في أعمالٍ شملت بروس كوفنر Bruce Kovner مؤسِّس ورئيس كاكستن Caxton، وبول تيودر جونز Paul Tudor Jones. لم يكن تواردُ الخواطر telepathy ضروريًا.

نَتَجَ اتساعُ نطاق البَيْع المكشوف عن جهود البنوك التي كانت تُقْرِضُ صناديقَ الاستثمار الأموالَ[1756] أدار دُنكان بالسبَو Duncan Balsbaugh مكتبَ تداول الدخل الثابت لصالح مورجان ستانلي Morgan Stanley في لندن. وكما ذكر لاحقًا، يعني طلبُ سُورَس للاستثمار أنه «جُنِّدَ للمساعدة في مؤامرة الانقضاض على امرأة مُسِنَّة - سيدة شارع ثردنيدل العجوز Old Lady of Threadneedle Street، المعروفة باسم «بنك إنجلترا».

«خَزَّنَ» سُورَس كلَّ مقتنياته تقريبًا من السندات الأوربية بوصفها ضمانًا للحصول على النقد الذي كان يقترضه للبَيْع المكشوف في السوق الفوري spot market[[1757]] وبالإضافة إلى تمويله، «نحن وراء سُورَس كظِلّه» على حدِّ تعبير بالسبَو. وذَكَرَ أيضًا أنه وُجِدَ «سلاحُ فرسان خلف مبيعات الجنيه (وغالبًا تشغيل أمامي[[1758]]) في مجموعة الكوانتم: صناديق استثمار مثل تيودر Tudor، وبيكُن Bacon، وكوفنر Kovner، ناهيك عن حشد من بنوك مُقْرِضة... هَرَسَتْ كلُّها الجنيهَ»
واتَّبَعَتْ بنوكٌ أخرى مبادرةَ صناديق الاستثمار، مثل: سيتيكورب Citicorp، مورجان

J. P. Morgan، كيميكال بانكِنج Chemical Banking، بانكِرز ترَست Bankers Trust، تشيس مانهاتن Chase Manhattan، فِرست شيكاغو First Chicago، بنك أمريكا Bank America[1760]. فلم يكن لدى السيدة العجوز [بنك إنجلترا] أيُّ فرصة.

لقد كان اغتصابًا ماليًا جماعيًا.

الانخفاضُ الحادُّ في قيمة الجنيه البالغ 15% الذي أعقب الاستسلامِ البريطاني في يوم «الأربعاء الأسود» Black Wednesday حَوَّلَ سُورَس إلى كمٍّ هائل من الأموال[[1761]]. وقد اعترف سُورَس، في مقابلة مع صحفي جريدة التايمز أناتولي كالِتسكي Anatole Kaletsky - «بِجفول إحراجي لم يستطع أن يُخْفِي تمامًا نوعًا من الارتياح النفسي المزعج» - بأن صناديقه الأربعة حققت حوالي مليار دولار من البَيْع المكشوف؛ وأن أرباحه من مجموعة توابع [مالية] أخرى، مثل سعر الفائدة الآجل[[1762]]. interest rate futures والبَيْع المكشوف لليرة الإيطالية، كان مليار دولار آخر[1763].

فيما بعد، زعم سُورَس أن نهاية الجنيه الإسترليني كانت «ستحدث بالطريقة نفسها تقريبًا حتى إذا لم أُولد أنا»[1764]. والحق إن سُورَس يتحمل نظريًا المسؤولية عن 10 مليار دولار من إجمالي خسارة الاحتياطيات البريطانية البالغة 27 مليار دولار[1765].

ولكن الحقيقة أن المجهود الجماعي الذي بذلته شبكة سُورَس هو الذي أدَّى إلى انهيار ثبات السعر. وكما قال سُورَس لكالِتسكي، كان ذلك «أحدَ أكبر العوامل في السوق»، ولكن ليس السوق كله. لقد اتَّبَعَ سُورَس التيارَ[1766]. وهو ما يمكن أن يحدث بالسهولة نفسها التي حَدَثَ بها، بدونه: «لأنني إنْ لم أقم بهذا الدور، فشخصٌ آخر كان سيقوم به»[1767].

فازتْ شبكةُ سُورَس. فمَن خَسِرَ؟ قَدَّرت وزارةُ مالية المملكة المتحدة تكلفةَ «الأربعاء الأسود» عام 1997 ب3.4 مليار جنيه إسترليني، ثم بعد ثماني سنوات صُحِّحَ الرقمُ لينخفض إلى 3.3 مليار جنيه إسترليني. وقُدِّرَتْ خسائرُ بنك إنجلترا التجارية في أغسطس وسبتمبر ب 800 مليون جنيه إسترليني، ولكن ارتفعت الخسارة الرئيسية لدافعي الضرائب لأن انخفاض قيمة العُمْلة جعلهم يُحقِّقون ربحًا بطريقة ما[1768].

الإضرار بسُمْعة البنك هو الذي استمر وقتًا أطول، رغم كَوْنه آخر تنظيم هَرَمي يمكن أن يجعله ينهار ما أطلق عليه الصحفيُّ الأمريكي توم فريدمان Tom Friedman اسم «القطيع الإلكتروني». ومن ناحية أخرى، عَمِلَ انهيارُ ثبات سعر المارك

الألماني على إنقاذ اقتصاد المملكة المتحدة. خُفِّضَتْ بسرعة أسعارُ الفائدة قصيرة الأجل، بحيث كانت بحلول يناير عام 1993 أقلَّ من 6%، هُدْنة مريحة لدولةٍ تعرَّضتْ بقوة لتعديل سعر القروض العقارية. تَعَافَى الاقتصادُ[1769].

لم تكن الكارثةُ اقتصاديةً بل سياسية: زادت فجيعةَ الحكومة، سواء انضمت إلى نظام آلية سعر الصَّرْف الأوربي أم لا، في المقام الأول، تصريحاتُها المتصلِّبةُ خلال صيف عام 1992 بأنها ستدافع عن الجنيه حتى النهاية، ثم استسلامُها الأخير المُهِين يوم 16 سبتمبر - كلُّ ذلك دَمَّرَ بصورة دائمة سُمْعةَ حزب المحافظين من حيث الكفاءة الاقتصادية[1770].

لم يتعافَ موقفُ حكومة ميجور في استطلاعات الرأي، وفي الأول من مايو عام - ورغم أربع سنوات من النمو المزدهر - انهزم التُّوريون المنهارون على أيدي حزب العمل الذي جُدِّدَ بقيادة توني بلير Tony Blair باتِّباع نموذج نِلْسُن مانديلا، فتخلَّى عن «المِلْكية العامة لوسائل الإنتاج» بوصفها هدفًا جوهريًا في سياسته العامة.

وأما بالنسبة إلى مشروع التكامل الأوربي، فقد حَدَثَ شيءٌ مثير للدهشة. استخلص بعضُ الاقتصاديين الأمريكيين من هزيمة آلية سعر الصَّرْف الأوربي أن المُضيَّ قدمًا - نحو اتحاد نقدي كامل - سيكون وَصْفةً لكارثة اقتصادية، وربما لصراع أوربي أيضًا. لم تكن هذه وجهة نظر جورج سُورَس. قال سُورَس إن «النجاة الوحيدة»:

هي عدم وجود نظام سعر صرف إطلاقًا، بل عُمْلة واحدة في أوربا، كما في الولايات المتحدة. فهذا من شأنه أن يضع السماسرة من أمثالي خارج البيزنس، ولكني سأكون مسرورًا لقيامي بهذه التضحية... أتوقع فترةً من الاضطراب الهائل في أوربا الشرقية، وهذه الفوضى خارج البوابات ستدفع بقوةٍ نحو الاتحاد الأوربي.

القومية في الشرق قوية جدًا الآن، إلى درجة أنها الشيء الوحيد الذي تواجهه أوربا الموحَّدة [وتتغلب عليه]. وإذا لم تتعايش أوربا معًا فسوف تستنسخ الحربُ معظمَ الاتحاد السوفييتي السابق.

وعندما سُئِلَ عن إخلاص الألمان للمارك الألماني، أجاب: «إذا تمَّ التصديق على ماستريخت، فسأُضارِبُ ضد البنك الاتحادي الألماني»[1771].

استنتجت جريدةُ الإيكونومِست أيضًا أن أزمة آلية سعر الصَّرْف الأوربي كانت حجةً للاتحاد النقدي بدلاً من أن تكون ضده[1772]. وهكذا، استنتج المُنتصِرُ في أزمة عام 1992 الاستنتاجَ الخاطئ منها. قادةُ أوربا القارية سيحرثون فعلاً، وبلا هوادة، أرضَ الاتحاد النقدي، بحيث صار اليورو مع بداية عام 1999 حقيقةً واقعةً، عُمْلةً أوربيةً واحدة يديرها البنك المركزي الأوربي European Central Bank الفيدرالي. وبفعلهم هذا، كشفوا عن إيمانهم الراسخ بقوة الأبنية الهَرَمِيَّة حتى

في عصر تكاثرِ الشبكات المتسارع. في عام 1992، امتلك جورج سُورَس الأحراش، ولكن الأحراشَ امتلكت السياسيين. وفي السنوات التي تلت عام 1999، الشيءُ الوحيد الذي تَغَيَّرَ أن الأحراش نَمَتْ بسرعة أكبر وأكثف، وبلا تسامح أكبر مع بُناة الهرم المُتحجِّرين.

# VIII

# القسم الثامن

# مكتبة بابل

9/11/2001

يبدو القرنُ الحادي والعشرون، على نحو متزايد، وكأنه تنفيذٌ لقصة خورخي لويس بورخيس القصيرة «مكتبة بابل» Jorge Luis Borges’s The Library of Babel.

يتخيَّلُ بورخيس في قصته وجود مكتبة تحوي كلَّ الكتب المكتوبة من قبل وكلَّ الكتب التي من الممكن كتابتها. ومع وجود معلومات لا نهائية تحت تصرُّف الرجال، نجدهم يتأرجحون بسرعة من النشوة [الشعور بالخِفَّة والنشاط] إلى الجنون. فبعضهم يقع أسيرَ «إعجاب تنسُّكي صحي» لـ«التخلص من الأعمال غير المُجْدية»، الأمر الذي يؤدِّي إلى «إهلاك ملايين الكتب بلا معنى». وآخرون يبحثون عن الكتاب الواحد الذي يحتوي على «الصيغة والخلاصة الوافية الكاملة لكل الكتب الأخرى»، أو يبحثون عن أمين المكتبة الذي قرأ ذلك الكتاب، فصار «مثيل الإله». في بعض أجزاء المكتبة الواسعة، «ينبطح الرجالُ أمام الكتب ويُقبِّلون صفحاتها بطريقة همجية، ولكنهم لا يعرفون كيف يفكُّون شفرةَ حرف واحد». وفي أجزاء أخرى، «أوبئة ونزاعات هرطقية وارتحالات تنحطُّ حتمًا إلى قطع الطرق، أهْلَكتْ معظمَ السكان»[1773]. يبدو عالَمُ القرن الحادي والعشرين وكأنه تحقُّقٌ هائل لرؤية بورخيس.

الحدث الذي عَرَّفَ سنوات هذا القرن الأولى كان هجومًا على شبكات المال والنقل في الولايات المتحدة بوَسَاطة مجموعة شباب مسلمين من الأفضل فَهْمها بوصفها شبكةً مُعادية للمجتمع. ورغم تسمية مُخطِّطي 11 سبتمبر باسم «القاعدة»، فقد كانوا ضعيفي الصلة بشبكة الإسلام السياسي الأوسع، الأمر الذي يساعد على إيضاح السبب في أنهم استطاعوا الإفلاتَ من كَشْف أمرهم.

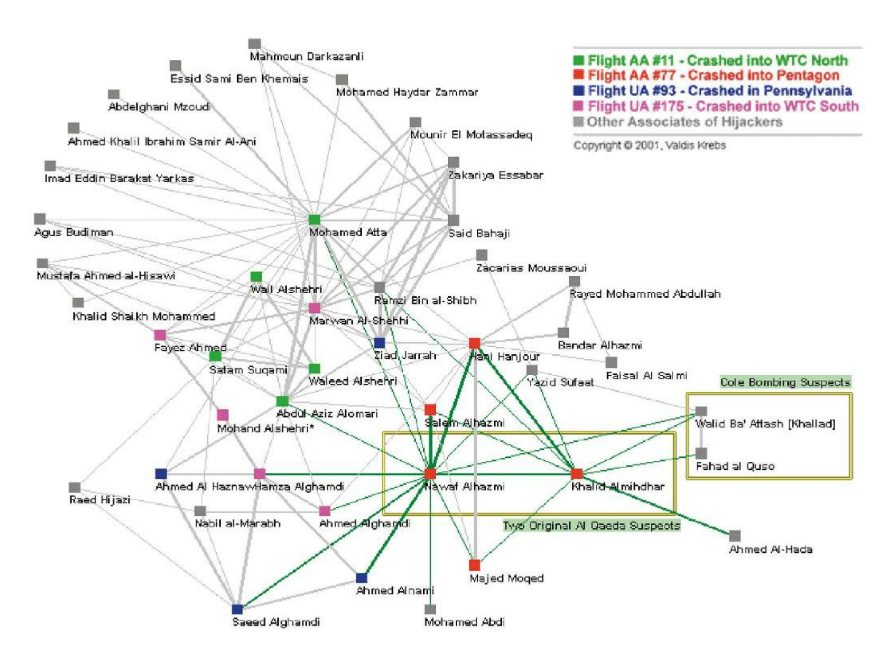
لقد وُجِدَتْ عبقريةٌ شريرةٌ وراء ما فعله المُهاجِمون في 11 سبتمبر عام 2001. فقد استهدفوا، أساسًا، محاورَ المجتمع الشَّبَكي الرئيسية، المتزايدة في أمريكا، مستغلين نقاطَ الضعف الأمنية التي أتاحت لهم تهريبَ أسلحة بدائية (قواطع حادة) على أربع طائرات رُكَّاب متجهة إلى نيويورك وواشنطن، العُقَدُتين الرئيسيتين - على التوالي - للأنظمة المالية والسياسية في الولايات المتحدة. وباختطاف الطائرات، والاستيلاء على مراكز التحكُّم، ثم التحليق بها مباشرةً إلى مركزِ التجارة العالمي World Trade Center والبنتاجون Pentagon، حقَّقَ نشطاءُ القاعدة أكبرَ انقلاب في تاريخ الإرهاب. فهم لم يكتفوا بتوليد جَوٍّ من الخوف في الولايات المتحدة استمر لعدَّة أشهر؛ بل الأهم أنهم عجَّلوا باستجابة غير تماثلية من إدارة الرئيس جورج بوش George W. Bush التي فعلت الكثير بكل تأكيد - تقريبًا - على مدى السنوات التالية لتقوية قضية الإسلام

السلفي Salafist Islam، وليس إضعافها.

بَدَا نظامُ النقل الجوي والنظامُ المالي هدفين مثاليين لهجمات من هذا النوع. إذ نما كلاهما بشكل أعقد مما كانا عليه في الماضي القريب. ولعب كلاهما دورًا حاسمًا في عملية العَوْلمة التي نُظِرَ إليها على نطاق واسع، بحلول عام 2000، من جانب اليساريين وكذلك الإسلاميين، بوصفها تجسيدًا جديدًا للإمبريالية الأمريكية[1774].

كان لدى المُهاجِمين أيضًا سببٌ وجيه للأمل في أنه بتدمير مثل هذه العُقَد المهمة، وفي الوقت نفسه توليد ذُعْرٍ عام، ربما يخلقون اضطرابًا متتاليًا [تسلسليًا] يمتد إلى شبكات أخرى[1775].

المُهاجِمون أنفسُهم شكَّلوا شبكةً. وقد بَيَّنَ فالديس كريبس Valdis Krebs مستشار كليفلاند Cleveland [مدينة في ولاية أوهايو] الذي عمل على نفقته وبمفرده في أعقاب الهجمات مباشرةً، واستخدم بَرْمجيةً تُسمَّى إنفلو InFlow مُصَمَّمة لتحليل شبكات الشركات - بَيَّنَ أن محمد عطا[[1776]] هو العُقْدَة الحاسمة في شبكة 11/9 (انظر اللوحة الاتية).




عطا هو الذي كان على اتصال بستة عشر من الخاطفين التسعة عشر، وكذلك بخمسة عشر شخصًا آخرين متصلين بهم. ومن بين كل أعضاء الشبكة، حاز عطا أعلى تَمَرْكُزِيَّة بَيْنية، وكذلك النشاط الأعلى (عدد المرات التي اتصل فيها بآخرين) والقُرْب (قدرته على الاتصال المباشر بآخرين دون وسيط).

أما نواف الحازمي[1777] Nawaf Alhazmi، أحد مختطفي طائرة الرحلة 77 الأمريكية، فجاء في المرتبة الثانية بعد عطا من حيث التَمَرْكُزِيَّة البَيْنية، وهو ما يشير إلى أنه ربما كان أحدَ مُخطِّطي العملية. ولو اعتُقِلَ عطا بطريقة ما، قبل 11/9، فقد كان من السهل على مروان الشحي[1778] Marwan Al - Shehhi أن يتولَّى دورَه القيادي[1779].

وما لاحظه كريبس أن السمةَ المميزة لشبكة 11/9 افتقارُها إلى روابط اجتماعية بالعالم الأوسع. فأفراد المجموعة متلاحمون، وتَدرَّبَ الكثيرُ منهم معًا في أفغانستان، فكان المتآمرون بلا روابط ضعيفة كالتي تُمَيِّزُ الشبكات الاجتماعية العادية. وعلاوةً على ذلك، لم يتواصل المُخطِّطون فيما بينهم بعد وصولهم إلى الولايات المتحدة: كانوا شبكةً متناثرة، باتصالاتٍ حافظوا على أن تكون في حدِّها الأدنى. وبهذا المعنى، شبكتهم هي فعلاً شبكة مُعادية للمجتمع: غير مرئية، كما ينبغي للشبكات السرِّية حين تريد تجنُّب اكتشاف أمرها[1780].

بالنسبة إلى كريبس، اتضح بإدراك متأخِّر ما الذي كان يحدث. لكن هل رُصِدَتْ الشبكةُ سابقًا؟ يقول كريبس: «للفوز في هذه المعركة ضد الإرهاب، يجب على الأخيار بناء شبكةِ تبادُلِ معلومات وتكوين معرفة أفضل من الأشرار»[1781]. وقد وُجِدَتْ بالفعل شبكةٌ من هذا النوع في عام 2001، على هيئةِ مشروعِ تابع

للجيش يُسَمَّى إيبول دِنْجَر[1782] Able Danger، سعى إلى رسم خريطة ل«القاعدة» ب«تحديد الروابط والأساليب من خلال كمٍّ بيانات ضخم». تتمثل الإشكالية في أنه بسبب مشكلة «كيفن بيكُن»[1783]
- Kevin Bacon
التي تشير إلى وجود أقل من سِتِّ درجات انفصال بين كل شخص في الولايات المتحدة - ارتفعت أعدادُ الأشخاص الذين حُدِّدوا بوصفهم إرهابيين محتملين إلى مئات الآلاف إنْ لم يكن ملايين[1784]. لقد بلغ طول بعض الرسومات البيانية للشبكة التي صَمَّمتها هيئةُ إيبول دِنْجَر عشرين قدمًا، فضلاً عن عدم وضوحها بسبب صِغَر الحجم عند الطباعة[1785]. وخلص كريبس نفسه إلى أنه لا بديل عن العنصر البشري الاستخباراتي في الحرب على الإرهاب؛ عدا ذلك لن يكون هناك سوى غَرَقٍ في بيانات ضخمة[1786].

في أعقاب هجمات 11/9، وبينما كان يَخِفُّ الرعبُ تدريجيًا، بدأ بعض متخصِّصي علوم الشبكة في القول بأن القاعدة شبكة ضعيفة للغاية. فبسبب طابعها السرِّي ومُعاداتها للمجتمع لا يمكنها تجنيد أشخاص جُدُدٍ وتدريبهم بسهولة[1787].

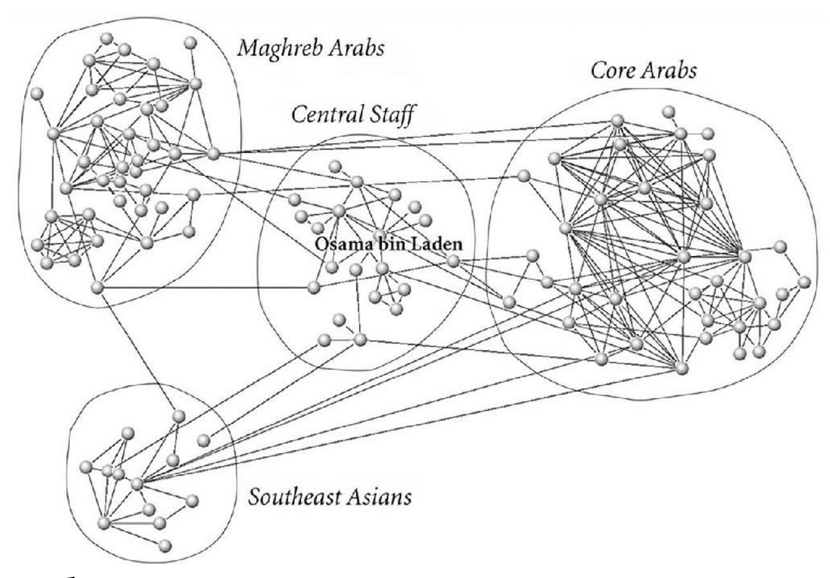
كان كلُّ شيء يتيح القول بأن قوة القاعدة تكمن - نوعًا ما - في لامركزيتها[1788]، لكن إذا لم يستطع أسامة بن لادن Osama bin Laden إصدارَ أمْرٍ بهجومٍ كبيرٍ ثانٍ على الولايات المتحدة، فما الفائدة من وجود هيكل شَبَكي من هذا النوع؟[1789].

وما دامت قد عُزِلَتْ قيادةُ القاعدة في مكان ما داخل باكستان - بعد الغزو الأمريكي لأفغانستان والإطاحة بنظام طالبان - فكل المطلوب هو تعقُّبه وقَطْع رأس التنظيم[1790].

عَقَدَ بعضُ العلماء مقارناتٍ بشبكات إجرامية سرِّية، مثل شبكة كافيار Caviar network وعصابة تهريب الحشيش والكوكايين في مونتريال تسعينيات القرن العشرين، رغم ملاحظتهم وجود مركزية أكبر في الشبكات الإجرامية مقارنةً بالشبكة الإرهابية[1791]. يكمن الفرق الأهم بينهما في أن العصابات الإجرامية لم تُوحِّدْها أيديولوجيةُ مشتركة بالطريقة التي وَحَّدَتْ أعضاءَ «القاعدة». ورغم عدم اتصال مُهاجِمي 11/9 بالشبكة السلفية الأوسع، فقد انتموا إليها فكريًا، وكانوا مستعدين للموت في سبيل إيمانهم الديني. وبكلمات أخرى، كانت توجد شبكةٌ جهادية أكبر بكثير، وكان تنظيمُ القاعدة داخلها مُكوِّنًا ضعيف الاتصال للغاية. تألَّفتْ

تلك الشبكة الأوسع من رجال التقوا بوصفهم مجاهدين وترابطوا معًا أثناء الحرب السوفييتية الأفغانية: أعضاء الجماعة الإسلامية جنوب شرق آسيا؛ والأنصار في التجمُّعات العربية في أوربا والشرق الأوسط[1792].

ما وجده القادةُ الغربيون مُحيِّرًا أن «حربهم على الإرهاب»، الانتقامية، اقتضت تركيزًا محدودًا على أولئك الإسلاميين الذين شاركوا بأنفسهم في العنف، فقط. وهو ما يعني التغافلَ عن أن شبكاتِ الإرهابيين النُّشَطاء الصغيرة مُضَمَّنةٌ في شبكات أشخاص أكبر بكثير تعاطفوا مع الإرهابيين دون الانخراط في العنف بأنفسهم[1793]. الشباب لا يصبحون إرهابيين لمجرد نزوة. فهم يحتاجون إلى تعَرُّضٍ مستمر لوَعْظٍ متطرف وإلى التورُّط في شَرَكِ شبكةِ نشاطٍ سلفيٍّ[1794].




الشكل رقم: 37 - الشبكة السلفية العالمية، 2004: مُخطَّط تقريبي.

عندما تُهاجِمُ شبكةٌ مُوزَّعةٌ تسلسلاً هَرَميًا، يَرُدُّ التسلسلُ الهَرَمي بطرق تتناسب معه بطبيعة الحال. في أعقاب هجمات 11/9 مباشرةً، اتخذ الرئيسُ جورج دبليو بوش George W. Bush وأعضاء رئيسيون في إدارته، مسؤولون عن الأمن القومي، سلسلةَ قراراتٍ غير محسوبة، جعلت الشبكةَ الإسلامية تنمو. لقد حَثَّ الرئيسُ - وهذا صحيح - على ارتجال خطة سريعة للإطاحة بنظام الحُكْم في أفغانستان لإيوائه القاعدة. ثم أقنعه نائبُه ديك تشيني Dick Cheney ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد Donald Rumsfeld - وهذا خاطئ - بأن الهجمات أوجدت ذريعةً لتدخُّل عسكري ثانٍ، للإطاحة بصدام حسين في العراق[[1795]]، رغم غياب الدليل على وجود علاقة سببية بين العراق وهجمات 11/9.

وفي الوقت نفسه، أنشأ بوش وزارةً جديدة للأمن الداخلي Department of Homeland Security لمكافحة أي هجمات مستقبلية على الولايات المتحدة. وكَتَبَ جون أركويلا John Arquilla في جريدة لوس أنجلوس تايمز Los Angeles Times أوائل أغسطس 2002، قبل اتضاح أن العراق سيتم غزوه، مشيرًا بصراحة إلى مساوئ هذا النهج:

في حربٍ شبكيةٍ، كالتي نجد أنفسَنا فيها الآن، لا يعني القصفُ الإستراتيجي شيئًا، فمعظم الشبكات لا تعتمد على قائد عظيم أو حتى عدة قادة كبار لدَعْمها وتوجيهها... و[إنشاء] وزارة أمن داخلي على مستوى الكابِنِتْ... هي زلَّةٌ كبيرة ثانية. التسلسلُ الهَرَمي أداةٌ خرقاء عند مواجهة شبكة رشيقة: الشبكات تحارب الشبكات، والدبابات تحارب الدبابات كما كان يحدث في الحروب السابقة... الشبكة التي نحتاجها لا يمكن تشكيلها أو دَعْمها بتعليقات قَسْرية مُفادها أنك

«معنا» أو «ضدنا»[1796].

وهو ما يعني درجةَ تشاؤم عالية بخصوص ما سيتحقق من الأمن القومي. من بين 109 مؤامرة معروفة بروابطها الجهادية لاستخدام العنف ضد الوطن الأمريكي بين يناير عام 1993 وفبراير عام 2016، نُفِّذَتْ ثلاثُ عشرة فقط، وذلك بفضل الدمج بين المراقبة والمعلومات الواردة من المخبرين[1797]. ومع ذلك، كان أركويلا على حق في ناحية واحدة. في أواخر عام 2001، بدا تنظيمُ القاعدة يشبه جمعيةً سرِّية من طراز قديم، اضطرت إلى العمل بوصفها شبكة مُعادية للمجتمع، وتستطيع القيام بأعمال عنف مذهلة ولو عَرَضيًا فقط. ولكن بعد غزو العراق بقيادة أمريكية، تطوَّرت توابعُ التنظيم في العراق فصارت شبكةً أكبر وأكثر تأثيرًا، لأنها استغلت الفوضى التي أعقبت الإطاحةَ بنظام صدام الهَرَمي الوحشي فهَيَّجَتْ صراعًا طائفيًا. وكانت النتيجةُ تمردًا دمويًا يستطيع أيُّ شخص على معرفة بتاريخ العراق التنبُّؤَ به بسهولة. (وقد حَلَّ بالمحتلين البريطانيين في عام 1920 شيءٌ مماثل تمامًا). لقد تطلَّبَ الأمرُ من العسكرية الأمريكية عِدَّةَ سنوات مُحْبِطة كي تتعلَّم متأخرًا جدًا الدروسَ التي تعلَّمها والتر ووكر ومعاصروه في أحراش جنوب شرق آسيا، قبل فترة طويلة.

كان جون نيجل John Nagl ضابطًا في الجيش الأمريكي، وبوصفه حاصلاً على منحة رودس Rhodes Scholar، كتب أطروحةَ دكتوراه يقارن فيها بين الصراعات في مالايا وفيتنام، وقال فيها إن البريطانيين تكيَّفوا مع ضرورات حرب الأحراش، أما الأمريكيون فلم يتأقلموا[1798].

نيجل هو أحد مؤلِّفي ما صار لدى الجيش الدليل الميداني لمكافحة التمرُّد- Counterinsurgency Field Manual (FM 3 24)، بإشراف جنرالين حالِمَيْن أدركا الضرورةَ المُلِحَّة إلى دليل من هذا النوع:

الجنرال ديفيد بِترَيوس David Petraeus والجنرال جيمز ماتِس James Mattis. بدأ العملُ على الدليل الميداني في أكتوبر عام 2005 بعد عودة بِترَيوس من جولة خدمته الثانية في العراق. ثم صَدَرَ في ديسمبر من العالم التالي[1799]. السمةُ الألفت للانتباه في الدليل نقاشُه المتكرِّر لما يتصف به التمرد من طابع شَبَكيٍّ.

فمثلاً، كَدَّ المؤلفون للتمييز بين التمردات ذات «البنية الهَرَميَّة المنهجية» والتمردات ذات «البنية الشبكية». كل نموذج منهما ينطوي على نقاط قوته ونقاط ضَعْفه، لكن التمرد الشَبَكيَّ يميل إلى «التعافي والتأقلم والتعلُّم بسرعة»، كما أنه عصيٌّ على إقناعه بقبول تسوية تفاوضية «لأنه لا يوجد شخص واحد أو مجموعة صغيرة في موقع المسؤولية»[1800]. بدأ الدليل الميداني في تثقيف

الجيش الأمريكي بشأن نظرية الشبكة، إلى حدٍّ لافت للنظر، فشَرَحَ مفاهيمَ مثل كثافة الشبكة[1801] network density، ودرجة التَمَرْكُزيَّة والتَمَرْكُزيَّة البَيْنية[1802]. وفي الطبعة الأولى من الدليل، كان يوجد ملحقٌ بعنوان «تحليل الشبكة الاجتماعية»[1803] Social Network Analysis.

يدين الدليلُ الميداني بأكثر من مجرد دَيْنٍ صغير لعمل كولونيل [عقيد] في الجيش الأسترالي اسمه ديفيد كيلكولن David Kilcullen، كان مُعَارًا إلى البنتاجون في عام 2004. كَتَبَ كيلكولن ورقةً بعنوان «الأدوات الثماني والعشرون: أساسيات مكافحة التمرد» Twenty - Eight Articles: Fundamentals of Company - Level Counterinsurgency، يقول فيها إن «بناءَ شبكاتٍ محلّ ثقة trusted networks» هو المعني الحقيقي لعبارة «قلوب وعقول»:

إذا نجحتَ بمرور الوقت في بناء شبكات ثقة، فستنمو هذه الشبكات كالجذور في السكان، مُزيحةً شبكات الخصم، الأمر الذي يُخْرِجُه إلى العَرَاء لمحاربتك، واختطاف المبادرة. هذه الشبكات تشمل الحلفاء المحليين وزعماء المجتمع وقوات الأمن المحلية، والمنظمات غير الحكومية، وغيرها من الفواعل غير الحكوميين المتعاطفين أو المحايدين في منطقتك، ووسائل الإعلام... فالإجراءات التي تساعد على بناء شبكات الثقة تخدم قضيتك. أما الإجراءات التي تُقوِّضُ الثقةَ أو تُعطِّلُ - مثل قتل أهداف رفيعة المستوى - فتساعد الخصمَ[1804].

الفكرة الرئيسية أن الجهاد العالمي الذي كانت تحاربه الولايات المتحدة وحلفاؤها استند إلى شبكة اجتماعية موجودة سلفًا تتكون من «علاقات زواج، وتدفقات أموال، وعلاقات خريجين وروابط رعاية». والإرهاب هو مجرد أحد الأنشطة المشتركة التي تُشارِكُ فيها الشبكة، أما الجوهر فهو «شبكة الرعاية»[1805]. ولكن في الوقت نفسه، اكتسب الجهادُ العالمي خصائصَ شبيهة بالدولة بسبب تزايد أهمية تنظيم العنف:

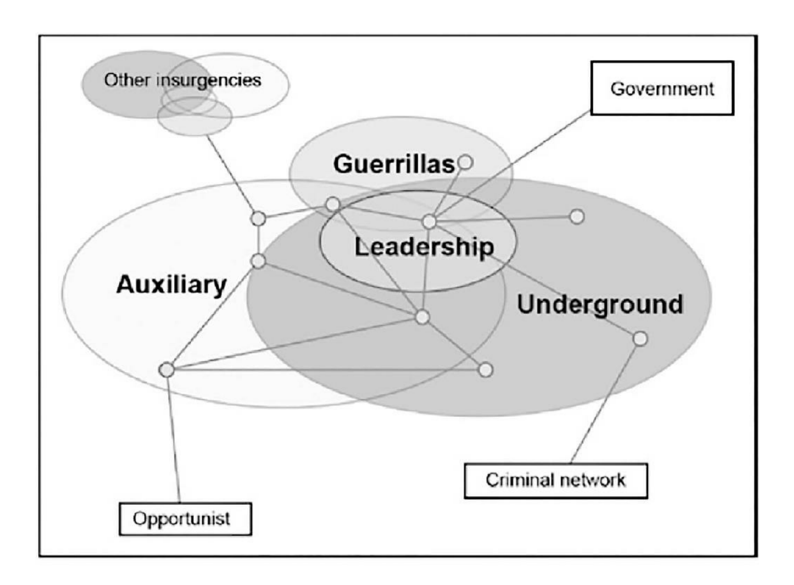
في التمرُّد المُعَوْلم، تسلسلُ المتمرِّدين الهَرَمي يُوازي دولةً افتراضية؛ ولكنه لا يسيطر على أراضٍ أو سكان، بل يمارس سيطرةً على أنظمة مُوَزَّعة السلطة تُمثِّلُ مُجتمِعةً معًا العديدَ من عناصر سلطة الدولة التقليدية. إنه أيضًا دولة زائفة: دولة كاذبة، كيان حاكم يعمل كالدولة، لكنه ليس دولةً من حيث الشرعية القانونية أو السياسية. وعلاوة على ذلك، فهو ليس تسلسلاً هَرَميًّا واحدًا بل شبكة فيدرالية تتكون من أنظمة مترابطة تعمل بوصفها «دولة متمرِّدة»، وتتنافس مع حكومات العالم[1806].

ومن بين التكتيكات التي أوصى بها كيلكولن لهزيمة هذه الدولة الوليدة «إشراكُ النساء المحايدات أو المتعاطفات» بسبب أهميتهن في دعم شبكات المتمردين؛ وإطلاق «شبكة مضادة» فائقة بعمليات استخباراتية، «يمكن أن تُولِّدَ زخمًا مُمِيتًا يَتسبَّبُ في انهيار شبكات التمرد بطريقة كارثية»؛ و«خَنْق الشبكة بعَزْل المتمردين عن الناس»؛ واعتراض الروابط الضعيفة في شبكة التمرد[1807].

لقد أصبح هذا قاعدةً لـ«إستراتيجية أناكوندا»[[1808]] Anaconda Strategy لدى بِترَيوس، لمحاصرة وخَنْق «القاعدة» في شبكة العراق[1809].

لقد تعلَّم الجيشُ الأمريكي درسَه جيدًا، وإن يكن متأخرًا. أثناء مرحلة «الاندفاع» الأمريكي الحاسمة في العراق عام 2007، لخَّصَ الجنرال ستانلي مَكْريستَل[[1810]] Stanley McChrystal ما تعلَّمه في العراق. «لمواجهة انتشار شبكة أبي مصعب الزرقاوي [زعيم تنظيم القاعدة في العراق]، كان علينا محاكاةُ توزُّعِها ومرونتها وسرعتها. وبمرور الوقت، «بدأت شبكةٌ في هزيمة شبكةٍ»، وهو ما أصبح تعويذةَ القيادة وملخصًا من ثماني كلمات لجوهر تصورنا العمليَّاتي»[1811].

هكذا، توصَّلَ الجنود الأمريكيون إلى كيفية تملُّك أحراش العراق الخرسانية في مرحلة ما بعد صَدَّام. وفي أفغانستان أيضًا، حدثت عمليةُ تَعَلُّمٍ مؤلمة على نحو مماثل. تجربة إميل سيمبسن Emile Simpson بوصفه ضابطًا في الجوركا Gurkha أقنعته بأن الاتجاه العام - بينما لا تزال تحدث حروب تقليدية ثنائية الاتجاه - يمضي نحو صراعات متعددة اللاعبين، تكون فيها مثاليةُ كلاوزفيتز Clausewitz عن النصر الحاسم في ساحة المعركة أمرًا بعيد المنال. النصر في صراعات من هذا النوع يُساوي تحقيقَ الاستقرار السياسي[1812]. كانت مكافحة التمرد بوصفها نشاطًا سياسيًا تُتِيحُ أحيانًا وجودَ حالات يُعَدُّ فيها ضمانُ مستوى هدوء من شبكة متمردة مُفضَّلاً على تدميرها.




الشكل رقم: 38 - التمردات الشبكية: رسم تخطيطي من «دليل الجيش لمكافحة التمرد» (طبعة عام 2014).

2008 / 9 / 15

كانت آثارُ 11/9، من نواحٍ عديدة، أقلَّ تدميرًا للنظام المالي والسياسي الأمريكي مما كان يأمل فيه تنظيم القاعدة بكثير. صحيح أنه حَدَثَ تعطيلٌ لنظام الدَّفْع[[1813]] payment system، وإغلاق لمدة أسبوع واحد لتداول الأسهم [بورصة نيويورك New York Stock Exchange]، وانخفاض حاد في أسعار الأسهم [والأوراق المالية]، وقفزة في التقلُّبات المالية. كما أبطأ تعليقُ النقل الجوي أيضًا عمليةَ دورة المقاصَّة [فحص الشّيكات] وغيرها من أشكال المُعامَلات غير الإلكترونية. أما أثر الهجمات الاقتصادي فكان محدودًا، لأن المؤسسات الكبرى مؤهلةٌ بشكل جيد جدًا لمثل هذا الاحتمال، وبَادَرَ الاحتياطي الفيدرالي Federal Reserve دون تردد للحفاظ على سيولة السوق. وفي غضون أسابيع، تم تجاوز الأزمة المالية[1814]. حُصِرَت التكلفةُ الإجمالية للهجمات من حيث الأضرار في الممتلكات، وقُدِّرَت الخسائرُ في الأرباح بما بين 33 و36 مليار دولار[1815].

وكان قرار إدارة بوش بغزو العراق - وهو ما لم تكن تتوقعه قيادة القاعدة - هو الذي زاد هذه التكاليف لتصل إلى الضِّعْفين، لو تقبَّل المرء أعلى تقديرات تكاليف «الحرب على الإرهاب»[1816]. لقد كان ما يستهدفه بن لادن أكثرَ من تفاعل تسلسلي، حيث تُؤثِّر الصدمةُ الأولية للهجمات تأثيرًا متتاليًا عبر النظام الاقتصادي الأمريكي. ويشير عدم حدوث هذا إلى أن الشبكةَ الرأسمالية الأمريكية أكثرُ مرونةً مما توقَّعَه الجهاديون.

كانت انقطاعاتُ الشبكة تصورًا مألوفًا بحلول عام 2001. في عام 1996، حَدَثَ انقطاعٌ رئيسي في التيار الكهربي غرب الولايات المتحدة، فعندما فشل خط كهرباء واحد في ولاية أوريجن Oregon تَعثّرت مئات الخطوط ومولِّدات الكهرباء، مما أدَّى إلى انقطاع الخدمة عن 7.5 مليون شخص. وفي العام التالي، انخفضت عملية التصنيع بكاملها في شركة تويوتا Toyota إلى النصف، بعد حريق دَمَّرَ مصنع المُوَرِّد الوحيد لمكبح الفرامل، الأمر الذي هدَّدَ عمليات حوالي 200 مُوَرِّد آخر[1817]. وقبل أشهر فقط من 11/9، وعلى وجه التحديد يوم 18 يوليو عام 2001، شبَّ حريقٌ في نفق سكك حديدية في بُلْتِمور Baltimore تسبَّبَ في تباطؤ واسع في سرعات الإنترنت، لأنه أحرق كابلات الألياف البصرية التي تنتمي إلى عدد من

مُزوِّدي خدمة الإنترنت Internet Service Providers الرئيسيين. وقد حَدَثَ شيءٌ مشابه في سبتمبر عام 2003، عندما تحطَّمت شبكةُ الطاقة الإيطالية بأكملها (باستثناء جزيرة سردينيا Sardinia) بعد سقوط شجرة على خط الجهد العالي بين إيطاليا وسويسرا. متتالية كبرى حدثت في نوفمبر عام 2006، حين فشل كابل كهربائي واحد في شمال غرب ألمانيا فتَسبَّبَ في انقطاعات امتدت إلى البرتغال[1818]. كان النظامُ المالي، فيما يبدو، شبكةً أكثر مرونةً من شبكة الكهرباء الأوربية، إن لم يكن من الإنترنت نفسه.

وقد ثبَتَ أن هذا وهمٌ. إفلاس بنك ليمان براذرس Lehman Brothers في يوم 15 سبتمبر عام 2008 أطلق العنانَ لأزمة من أكبر الأزمات المالية في التاريخ، وأوشك - أكثر من أي حدث آخر منذ انهيار بورصة وول ستريت Wall Street عام 1929 - على التسبُّب في انقطاع عالمي في نظام الائتمان الدولي. وعلاوة على ذلك، التكاليفُ الاقتصادية الكلية للأزمات المالية العالمية أكبرُ - دون شك - من تكاليف الحرب على الإرهاب، وبخاصة لو تخيَّل المرء المُخْرَجات التي كانت ستوجد إذا استمر الاقتصاد العالمي دون انقطاعات على طول مساره. (تتراوح التقديرات المعقولة للولايات المتحدة وحدها من 5.7 تريليون دولار إلى 13 تريليون دولار، مقارنةً بأعلى تقدير لتكلفة الحرب على الإرهاب تريليون دولار)[1819]. وباختصار، تَجَاوَزَ 15/9، إلى حد كبير، الاضطرابَ الناجم في السنوات السبع السابقة على 11/9.

ويمكن تلخيص أسباب الأزمة المالية في ستة عناوين. صارت البنوك الرئيسية تعاني نقصًا خطيرًا في رأس المال، فاستغلت الثغرات المنتظمة لزيادة نِسَب الرَّفْع المالي leverage ratios. أُغْرِقَت الأسواقُ بأوراق مالية مدعومة بالأصول مثل التزامات الديون ذات الضمانات التي أساء وسطاء التسعير تقدير سعرها بشكل فادح.

وسمح الاحتياطي الفيدرالي للسياسة النقدية بأن تكون فضفاضة جدًا بين عاميْ 2002 و2004. وخلق السياسيون حوافز اقتصادية حمقاء للأمريكيين الفقراء ليصبحوا مالكي منازل. وبِيعت المشتقات المالية[[1820]] derivatives مثل مقايضة التخلُّف عن سداد الائتمان على نطاق واسع، على أساس نماذج مخاطر غير واقعية. وفي النهاية، ساعدت تدفقات رأس المال من الأسواق الناشئة، ولا سيما من الصين، إلى الولايات المتحدة، على تضخيم فقاعة العقارات الأمريكية الحقيقية[1821]. ويُقال إن الأزمة بدأت عندما انفجرت هذه الفقاعة: انخفاض أسعار المساكن والتخلُّف المتصاعد عن سداد قروض العقارات أظهرا علاماتٍ على ضائقة مالية في أواخر عام 2006. ولكن إفلاس [بنك] ليمان براذرس - في الساعة 1.45 من صباح يوم الاثنين 15 سبتمبر - هو الذي حوَّلَ

الضائقةَ إلى ذُعْرٍ عالمي. مسار الشركة الأم أعقبته إجراءاتُ إفلاس ما يقرب من ثمانين شركة تابعة في ثماني عشرة دولة أجنبية. في إجراءات الإفلاس الرئيسي، رُفِعَتْ حوالي 66 ألف دعوى - تتجاوز 873 مليار دولار - ضد ليمان. كانت تلك هي «حالة الإفلاس الأكبر والأعقد، والمتعدِّدة الوجوه، والبعيدة المدى، على نحو لم تمرّ به الولايات المتحدة من قبل»[1822]. ومع ذلك، رأى خبراءُ الاقتصاد في الاحتياطي الفيدرالي Federal Reserve، على نحو لا يُصدَّقُ، أنه لا يوجد سبب لتوقع الركود. «لا أعتقد أننا نشهد تغيرًا كبيرًا في الأفق الأساسي»، هذا ما قاله الاقتصادي ديفيد ستوكتن David J. Stockton، رئيس الاحتياطي الفيدرالي، للجنة الأسواق المفتوحة الفيدرالية Federal Open Markets Committee (FOMC) في يوم 16 سبتمبر، «وبكل تأكيد القصة الأبعد من تخميننا هي... أننا لا نزال نتوقع انتعاشًا تدريجيًا في نمو الناتج المحلي الإجمالي على مدى العام القادم». وستسخر الأحداثُ من هذا الكلام، ومن تصريحات مشابهة[1823].

عدد قليل من الحاضرين فقط، في القاعة، قدَّرَ - في هذه المرحلة الباكرة - الطبيعة الحقيقية لموقف الاحتياطي الفيدرالي. وبكلمات موحية لإريك روزِنجرن Eric S. Rosengren مدير الاحتياطي الفيدرالي في بوسطن:

أعتقد أنه من السابق لأوانه معرفة إذا كان ما فعلناه مع ليمان صوابًا. فبالنظر إلى أن وزارة المالية لم تكن ترغب في وضع أموال فيه، ما حَدَثَ هو أننا لم يكن لدينا خيار. ولكننا قمنا بمراهنة محسوبة. إذا كان لدينا تشغيل لصناديق سوق المال[1824] money market funds أو إذا... أُغلِقَ سوقُ الريبو repo market، فإن المراهنة قد لا تبدو جيدة تمامًا. أعتقد أننا فعلنا الصواب بالنظر إلى القيود التي كانت علينا. وآمل أن نتجاوز هذا الأسبوعَ... ينبغي ألا نكون في موقف نراهن فيه على الاقتصاد في مؤسسة أو مؤسستين[1825].

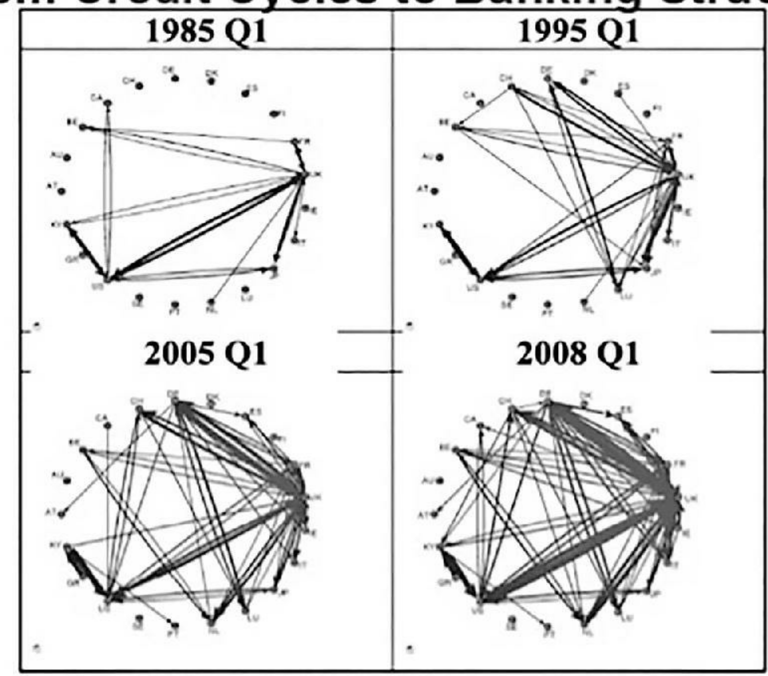
وحتى يوم 29 أكتوبر، لم يكن بن بِرنانكي Ben Bernanke، رئيس الاحتياطي الفيدرالي، قد أعطى أول تلميحاته إلى احتمال أنهم كانوا في أزمة مماثلة لأزمة ثلاثينيات القرن العشرين[1826]. وفي منتصف ديسمبر، فقط، ذهب عضو آخر من «لجنة الأسواق المفتوحة الفيدرالية» إلى حدِّ القول صراحةً «إننا لدينا معدلات تخلُّف [عن السداد] أكبر بكثير من معدلات الكساد العظيم The Great Depression»[1827].

ما فشل في فَهْمه الاحتياطي الفيدرالي أن بنك ليمان براذرس نفسه كان محورًا حاسمًا في شبكة مالية دولية نَمَتْ على نحو أكبر وأكثف من أي وقت مضى في

فضاء العشرين عامًا الماضية، بفضل الجمع بين العَوْلمة والإنترنت، رغم أن المدير التنفيذي لبنك ليمان، ديك فولد Dick Fuld، كان جزءًا من شبكة معزولة في وول ستريت، وغير محبوب من أقرانه (بمَن فيهم وزير المالية هنري بولسن Henry Paulson الرئيس التنفيذي السابق ل جولدمان ساكس Goldman Sachs). كان أحدُ القِلَّة من محافظي البنوك المركزية الذين يقدِّرون أهمية هذا التغيير الهيكلي هو أندرو هَلدين Andrew Haldane محافظ بنك إنجلترا، الذي قال بأن نظام تكييف معقد قد تمَّ إنشاؤه، مَالَ إلى تضخيم التقلبات الدورية[1828].

استندت فكرة هَلدين إلى عمل جون هولِند John Holland وآخرين عن الأنظمة المعقدة التي لديها - بخلاف كَوْنها مجرد أنظمة معقدة - مَيْلٌ إلى التغيُّر بطرق غير متوقعة. وهذه «الخصائص الناشئة» هي الشيء الغائب عن نموذج الاقتصاديين في الاحتياطي الفيدرالي[1829].

وببساطة كاملة، تُهْمِلُ معاييرُ الاقتصاد الكلي بنيةَ الشبكة. فلا أحد لاحظ أن الشبكة المالية العالمية قد أصبحت متصلة بما يكفي لأن تنتقل ضائقةٌ بطريقة متتالية سريعة من مؤسسة إلى مؤسسات عديدة، بل الشبكةُ متناثرةٌ بما يكفي لأن تكون مؤسساتٌ متنوعةً تنوعًا ضعيفًا ومُؤمَّنةً بشكل غير كافٍ ضد فشل نظيرتها[1830].




الشكل رقم: 39 - بالونات الرَّبْط الشبكي في النظام المالي الدولي، من عرض أندرو هَلدين عام 2011.

الاحتياطي الفيدرالي هو نفسه أحد مهندسي الأزمة المالية العالمية بتباهيه وتفاخره الوهمي بما حققه من «اعتدال كبير» قبل بضع سنوات من وقوع الكارثة. ولكن بسبب ثقة رئيس الاحتياطي الفيدرالي بِرنانكي، ضمنت السرعةُ التي طَبَّقَ بها دروسَ الكساد العظيم أن تكون العواقب الاقتصادية أقل حدة بكثير مما كان في ثلاثينيات القرن العشرين. فبشراء كل أنواع الأصول في المرحلة الأولى من «التيسير الكمي»، ثم كميات كبيرة من السندات الحكومية في المرحلتين الثانية والثالثة، ساعد الاحتياطي الفيدرالي على احتواء الأزمة. وهو ما حقق نصرًا لنظام الإدارة النقدية الهَرَمي، واعترافًا بأن الشبكة المالية العالمية لو تُرِكَتْ لنفسها فلن تُصْلِحَ نفسَها، ولكن السبب الرئيسي في عدم وجود كساد عظيم ثانٍ هو تدخُّل وزارة المالية الأمريكية - بعد إخفاق ليمان - في مَنْع المزيد من حالات إفلاس مالي كبرى.

عمليات إنقاذ الشركات مثل شركة التأمين العملاقة AIG والبنوك الأخرى الكبيرة، التي تلقت أكثر من 400 مليار دولار في إطار برنامج إنقاذ الأصول المتعثرة Troubled Asset Relief Program، كانت حاسمةً في وقف تفاعل تسلسلي للإفلاس الذي بدأ في 15/9. وهذه الشركات نفسها التي استمرت

في أن تدفع لكبار موظفيها مكافآت من سبعة أرقام، استثارت النقدَ على نطاق واسع[1831].

ولا يندهشنَّ الجمهور. فالنظام المالي كان شبكةً بأكثر من طريقة.

لطالما كانت نُخْبةُ رجال الأعمال الأمريكيين مجموعةً مترابطة مع البنوك بوصفِها المصدر الرئيسي للروابط بين قطاعات الاقتصاد المختلفة، بما فيها عالَمُ السياسة[1832]. ولعل الإيضاح الجيد لكيفية اشتغال النظام الأمريكي هو سيرة حياة فيرنون جوردن[1833] Vernon Jordan، الابن، فهو محامٍ أمريكي من أصل أفريقي مُتمدِّن حَقَّقَ سُمْعَتَه بوصفه محامي حقوق مدنيَّة في ولاية جورجيا Georgia في السنوات الأخيرة من التمييز العنصري. في عام 1972، دُعِيَ جوردن إلى الانضمام إلى مجلس سَلانيز Celanese [شركة تكنولوجية]، وهي مشروع صناعي متنوع، رئيس مجلسها جون ب ر و ك س .John W Brooks، الذي رشَّحه بعدها للانضمام إلى مجلس إدارة بانكرز ترَست أوف ن ي و ي و ر ك Bankers Trust of New York. ومن خلال مدير آخر لبانكرز ترَست، هو ويليام إلينجهاوس William M. Ellinghaus، أُلْحِقَ بمجلس إدارة متجر جي. سي. بِني J. C. Penney. في عام 1973. وفي السنة التالية، التحق بمجلس إدارة ز ي ر و ك س Xerox، حيث خدم مع أرشي مكاردِل Archie R. McCardell، رئيس زيروكس، وهوارد كلارك Howard L. Clark المدير التنفيذي لشركة أمريكان إكسبرِس American Express، وكان مكاردِل رئيس مجلس إدارتها أيضًا.

وبتأييد من مكاردل وكلارك كليهما، انضم جوردن إلى مجلس إدارة أمريكان إكسبرِس في عام 1977. وفي عام 1980، انضمَّ إلى مجلس إدارة شركة التبغ آر. جي. رينولدس R. J. Reynolds، ثم في العام التالي ترك منصبه في الرابطة الحضرية الوطنية National Urban League للانضمام إلى شركة المحاماة الدولية الأمريكية Akin Gump Strauss Hauer & Feld، مكتب واشنطن في دالِس Dallas.[1834]

صداقة جوردن الحميمة ب بِلْ كلينتون Bill Clinton، الذي التقى به لأول مرة من خلال NUL [الرابطة الحضرية الوطنية] في عام 1973، أصبحت ذات أهمية سياسية كبيرة لكلينتون الذي انْتُخِبَ رئيسًا عام 1992، حيث أصبح جوردن حَلَّال المشاكل السريع له، في سلسلة فضائح [جنسية] أشهرها قضية مونيكا لوينْسكي Monika Lewinsky. وفي عام 1999، ترك جوردن [شركة المحاماة الدولية] أكين جامب ستراوس لينضم إلى فرع نيويورك في لِزارد Lazard، مديرًا لبنك الاستثمار والأصول.[1835]

وعلى سبيل المقارنة، اتَّبَعَتْ مسيرةُ حياة تيموثي جايتنر[1836] Timothy Geithner مسارًا مختلفًا. والدته دِبورا م و و ر Deborah Moore منحدرة من ميفلاور[1837] Mayflower. درس في كلية دارتموث College Dartmouth. وقبل التحاقه بالخدمة الحكومية، عمل في مؤسسة كيسنجر أ س و شِ ت س Kissinger Associates.

ولكنه بوصفه رئيسًا [للبنك] الاحتياطي الفيدرالي في نيويورك أصبح جايتنر مرتبطًا اجتماعيًا ومهنيًا بأفراد النُّخْبة المالية. فعلى سبيل المثال، من خلال عضويات جايتنر المشتركة في مؤسسات غير ربحية مثل نادي نيويورك الاقتصادي[1838] Economic Club of New York أو مجلس العلاقات الخارجية[1839] Council on Foreign Relations، كانت لديه صلات شخصية بكبار المديرين أو التنفيذيين لحوالي 21 شركة مالية.

وطبقًا لإحدى الدراسات في الاقتصاد القياسي، كانت هذه الصلاتُ قيّمةً، ففي الشركات التي ارتبط بها جايتنر رأى أسعار أسهمها تقفز عندما أُعْلِنَ يوم 21 نوفمبر عام 2008 أن جايتنر سيكون وزيرَ المالية في إدارة باراك أوباما[1840]. لم يكن يعني ذلك أيَّ مخالفة أو عدم لياقة، بل اعتبار الاقتراب من السلطة مُهمًا، وبخاصة في وقت الأزمة. بعد أن لعب جايتنر دورًا رئيسيًا في بنك الاحتياطي

الفيدرالي في المرحلة الأولى من الأزمة، تولّى دَفّةَ وزارة المالية في وقتٍ لم يصل فيه الاقتصاد بعد إلى الحضيض. سيكون المستثمرون سُذَّجًا إذا لم يُعَلِّقوا أهميةً أيًا كان وعيهم بالفروق في الترابط السياسي بين الشركات المالية. لقد سقط ديك فولد [المدير التنفيذي لبنك ليمان براذرس] لأنه كان عُقْدَةً معزولة نسبيًا في الشبكة.

كشفت الأزمة المالية عن خصيصة أخرى في النظام المالي. فعلى الورق، البنوك هي الكيانات الأعلى تنظيمًا في النظام المالي. ومع ذلك، فشلت الهيئاتُ العديدة المسؤولة عن تنظيمها وأنشطتها في توقُّع احتمال سقوطها كالدومينو في أزمة السيولة. ولعل تفسير ذلك يكمن في انحطاط الحكومة الفيدرالية إلى ما يُسَمَّى دولة «إدارية»[1841] state administrative or managerial، هَرَميَّة وبيروقراطية في طريقة عملها، وتتفانى في توليد ضوابط، أعقد من ذي قبل، أنتجت عَكْسَ ما كان يُقصَدُ منها.

يمكن تتبع ولادة الدولة الإدارية بالرجوع إلى أوائل سبعينيات القرن العشرين، حين بدأ الكونجرس في التخطيط لوكالات تنظيمية جديدة مثل وكالة حماية البيئة Environmental Protection Agency ولجنة حماية المستهلك Consumer Product Safety Commission.

كان القانون الأمريكي للوائح الفيدرالية The US Code of Federal Regulations (CFR) يتكون من حوالي 23 ألف صفحة في عام 1950. ثم زاد حوالي 21 ألف صفحة بين عاميْ 1950 و1970، ثم زاد 62 ألف صفحة بين عاميْ 1971 و1990، ثم 40 ألف صفحة أخرى بين عاميْ 1991 و2010[1842]. في ظل إدارة جورج دبليو بوش، وسَّعَ الكونجرس اللائحة الفيدرالية الخاصة بالتعليم الابتدائي والثانوي (قانون عدم تَرْك أي طفل No Child Left Behind Act عام 2001)، وتمويل الانتخابات (قانون إصلاح الحملات الانتخابية عام 2002 the McCain - Feingold Campaign Reform Act)، وحَوْكمة الشركات (the Sarbanes - Oxley Act of 2002)، والحفاظ على الطاقة (the Energy Independence and Security Act of 2007). ومع ذلك، لم توجد إدارةٌ استحدثت تشريعات ولوائح أكثر عددًا من إدارة أوباما Obama في فترة رئاسته الأولى[1843].

ومن الممكن رواية تاريخ رئاسة أوباما، بإيجاز، بوصفه سلسلة من التعهُّدات بزيادة التوظيف («الحافز»)، وتقليل مخاطر الأزمة المالية، وتوفير تأمين صحي شامل؛ وقد أنتج كلُّ تعهُّدٍ منها توسُّعًا كبيرًا في الدولة الإدارية. إصلاح وول ستريت The Wall Street Reform وقانون حماية

Consumer Protection Act (Dodd ا ل م س ت ه ل ك - Frank) وصلا إلى 848 صفحة، وتَرتَّبَ عليهما إنشاءُ هيئتين جديدتين هما مجلس مراقبة الاستقرار المالي Financial Stability Oversight Council ومكتب الحماية المالية للمستهلكConsumer Financial Protection Bureau[1844].

قانون حماية المريض وتيسير الرعاية الصحية (المعروف اختصارًا ب أ ك ا ACA)the Patient Protection and Affordable Care Act بلغ مجموعُ صفحاته 961 صفحة (مع قانون الرعاية الصحية والإصلاح التعليمي)، ونتج عنه إنشاءُ المجلس الاستشاري المستقل للتسديد Independent Payment Advisory Board.

بل الأكثر إرهاقًا والأعقد، التشريعُ الذي صيغ لسَنِّ الشراكة عبر المحيط ا ل ه ا د ي Trans Pacific Partnership، وهو اتفاق تجاري بين اثنتي عشرة دولة تُطِلُّ على المحيط الهادي. كان هذا التشريعُ أكثرَ من 5,554 صفحةً، واحتوى على أكثر من مليوني كلمة، وعندما طُبِعَ بَلَغَ طولُه ما يقرب من ثلاثة أقدام.

والأكثر من هذا أن قانون الرعاية الصحية الأمريكي [أوباما كير] Obamacare ودود - فرانك Dodd - Frank أنتجا أفواجًا كبيرة من اللوائح. بعد تمرير قانون الأكا [حماية المريض وتيسير الرعاية الصحية] ACA أنتجت الهيئاتُ الحكومية أكثرَ من مئة لائحة نهائية تُوضِّح كيف سيتم تطبيق القوانين الجديدة. دود - فرانك وَجَّه المُنظِّمين [واضعي اللوائح] إلى وَضْعِ أكثر من 400 قاعدة جديدة. وطبقًا لأحد التقديرات، يمكن للقانون أن يزيد القيودَ التنظيمية للصناعة المالية بما يقرب من الثلْث حين تكتمل هذه العملية[1845].

ولإعطاء فكرة عن حجم وباء اللوائح التنظيمية، افترضْ أن كل صفحة من الصفحات ال 10,535 للوائح الرعاية الصحية في السجل الاتحادي Federal Register تحتوي على 1,100 كلمة. فبجمعها تصل إلى أكثر من 11 مليون كلمة. وعلى سبيل المقارنة، تكوَّنَت الوثيقة العظمى [مَجْنا كارتا][[1846]] Magna Carta من ورقة واحدة مخطوطة [من الرّق] بأقل من 4 آلاف كلمة. والمُسوَّدة الأصلية للدستور الأمريكي US Constitution كانت أكثر قليلاً

(4,543 كلمة). وتألّفَ إعلان الاستقلال Declaration of Independence من 1,458 كلمة فقط.

فما القوى المسؤولة عن صعود الدولة الإدارية؟ ولماذا انحطَّتْ واشنطن إلى صورة الدولة البيروقراطية المتضخِّمة التي تخيَّلها، ذات مرة، فرانس كافكا Franz Kafka؟ ربما تتمثل الإجابة البسيطة في خطأ رجال القانون والبيروقراطيين، ولكن هؤلاء الأشخاص وُجِدوا طول الوقت، كما يعرف قرَّاءُ ديكنز Dickens جيدًا.

الإجابة الأكثر معقولية بالأحرى أن ذلك هو الثمن الذي ندفعه اليوم لإخفاقات الماضي. ولعل ما قتل الحكومةَ التمثيلية وسيادةَ القانون في العديد من بلدان القرن العشرين كان عدمَ الاهتمام بالتفاصيل. لعل «مُبسِّطون مُرْعِبون»، مثل هتلر، انتصروا لأن أدوات مثل دستور جمهورية فايمار Weimar Republic - رغم كَوْنه ليس قصيرًا، ببنوده ال 181 وحوالي 10 آلاف كلمة - لم يمنع صراحةً رجالاً من النمسا بشوارب تشبه فرشاة الأسنان، وسجل جنائي وميول نحو الإبادة الجماعية، من أن يعتلوا منصب المستشارية [المستشار الألماني]. ومع ذلك، ربما يكون أفضل تفسير هو التدهور [الفساد] الجوهري في معايير كل من التشريع والحُكْم الذي نراه في كل ديمقراطية تقريبًا، بغضِّ النظر عن تواريخها المختلفة في القرن العشرين[1847].

ويسيل تيار جارف من الإسهاب لأن السياسيين المحترفين يهتمون بالغَزْل أكثر من اهتمامهم بالمضمون، والميديا لا تكفُّ عن العواء من أجل ضرورة عمل «شيء ما» بعد كل حادث مؤسف، وجماعات الضغط تتأكد من أن منشوراتها تحمي المصالح الراسخة التي تُخَدِّمُ عليها، ويستفيد رجال القانون من كل هذه الفوضى المؤسفة[1848].

ينبغي أن تقلقنا العواقب بأكثر مما يحدث، لأنها تمتد إلى أبعد من مجرد قوانين مُمِلَّة نسأم من قراءتها. فأولاً، الميزة يحظى بها مَن هم داخل المؤسسة، فهم وحدهم يستطيعون تحمُّل «الالتزام» الكبير تجاه إدارات لا غنى عنها لعبور بحر الإطناب. ثانيًا، هناك مخاطرة عدم استقرار النظام، التي تنمو مع كل زيادة في التعقيد الكلي. وأيُّ شخص يعتقد أن النظام المالي العالمي قد أصبح أكثر استقرارًا بتشريعات مثل دود - فرانك شخصٌ متفائلٌ. فالعكس هو الصحيح، لأن كل لائحة جديدة تُقَلِّلُ قدرةَ السلطات على التعامل مع مشكلة العَدْوَى [الانتشار الفيروسي] (بمعنى أن السلطات تشتغل على أساس مسؤوليات قصيرة الأجل غير مضمونة)[1849]. وفي الوقت نفسه، تتآكل شرعيةُ السياسة الديمقراطية ذاتها، كما يقول فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama، لأن «مجموعات المصالح... قادرة على شراء السياسيين بإسهامها في الحملات الانتخابية لضغط»، وهي العملية التي وصفها فوكوياما بأنها [repatrimonialization[1850][1851].

المؤسسات السياسية متصلِّبة وغير قابلة للإصلاح على ما يبدو:

المَجْمع الانتخابي electoral college، النظام التمهيدي primary system، القواعد الغامضة لمجلس الشيوخ، إلخ. المحاكم أيضًا تُشارِكُ أكثر من اللازم في صُنْع السياسة العامة والإدارة. ومع ذلك، لا توجد لدى أي أحد خطة متماسكة لإصلاح أي من هذا[1852].

ليس التعقيدُ بضاعةً رخيصة، بل مكلِّف للغاية في حقيقة الأمر. وقد وَجَدَت الدولةُ الإدارية حلاً يسيرًا لمشكلة زيادة حجم «الخَيْرات» العامة دون عمل زيادات متناسبة في الضرائب، فيتم تمويل الاستهلاك الحكومي الجاري بالاقتراض. وفي الوقت نفسه، بينما يتضاعف الدَّيْن الفيدرالي تقريبًا، استخدمت إدارةُ أوباما صلاحياتها التنظيمية لجمع الأموال بطرق جديدة:

مثلاً، أكثر من 100 مليار دولار من خلال «تسويات» التحقيقات في ممارسات القروض العقارية المَصْرفية، و20 مليار دولار من برنامج تعويض تسرُّب النفط في خليج المكسيك [عام 2010] (كما تدخلت أيضًا في «إدارة الإفلاسات» في شركة جنرال موتورز General Motors وكرايسلر Chrysler بالنيابة عن الحلفاء السياسيين)[1853].

ولكن ذرائع الدولة الإدارية تفرض أعباء على القطاع الخاص، الأمر الذي يُقَلِّلُ في النهاية من معدل النمو وخلق الوظائف[1854]. اللامساواة فيما بين الأجيال في المال العام ونمو التنظيم [اللائحي] المتضخِّم وتدهور سيادة القانون وتآكل المؤسسات التعليمية - أدَّى هذا كله مُجتمِعًا معًا إلى «انحطاط كبير» في الأداء الاقتصادي والتماسك الاجتماعي على حدٍّ سواء (كما سنرى)[1855].

وباختصار، تُمَثِّلُ الدولةُ الإدارية تكرارًا أخيرًا للهَرَميَّة السياسية: نظامٌ يتقيأ قواعدَ ويُوَلِّدُ تعقيدًا ويُقوِّضُ الازدهارَ والاستقرار معًا.

وبينما كانت الدولة الإدارية تشقُّ طريقَها وتسير فيه نحو أزمة النظام الهَرَمي النهائية، كان العالَم الشَّبَكي يجتاز مرحلةً انتقالية كبيرة. أطلق عليها خُبَراءُ تكنولوجيا المعلومات «Web 2.0» [«ويب 2.0»][[1856]]، وهو عنوان مؤتمر استضافه ناشرُ الإنترنت الرائد تيم أورايلي Tim O'Reilly في عام 2004.

تمحورت فكرةُ أورايلي حول الحفاظ على صيغة «المصدر المفتوح» في الشبكة العنكبوتية العالَمية World Wide Web في بواكيرها. وقد احتفظت ويكيبيديا Wikipedia - بإدخالاتها الموسوعية المؤلَّفة جَمْعيًا - بهذه الروح. وبذلك يتميز أيضًا أيُّ موقع ويب يعتمد على محتوى يُنْشِئه المُستخدِمُ. وطبقًا لأورايلي، ت مثل [ملخص الموقع الغني] RSS[[1857]] و[واجهة بَرْمَجة التطبيقات] API[[1858]] أثرت في «النشر المتزامن للبيانات، وليس التحكم فيما يحدث عندما يصل إلى الطرف الآخر من الاتصال... [-] وهو انعكاس لمبدأ [العلاقة بين] طرفين[[1859]] the end - to - end principle»[1860].

لذا، تكون برامجُ الحاسب software في حالة «بيتا الدائم» [[1861]]perpetual beta، مفتوحةَ المصدر، بل ومفتوحة ليُعيد مُستخدِمون آخرون هندستَها[1862]. المعيار الذهبي كان [نظام تشغيل] لينكس Linux:

«نظام تشغيل من طراز عالمي» تَشكَّلَ «من إسهامات عدة آلاف من المطوِّرين»، على حدِّ تعبير المُبرْمِج التحرُّري إريك ريموند Eric Raymond، مُؤلِّف مانيفستو المصدر المفتوح، «الكاتدرائية والبازار» The Cathedral and the Bazaar[1863].

في ال«بازار» مجموعة عالمية كبيرة من المُبَرْمِجين المتطوعين يعملون بشكل تعاوني لتحديد الإصابات وإصلاحها، ومن ثم يُحسِّنون على نحو مطرد البرامج[1864]. وقد صاغ ريموند قانون لَيْنس Linus's Law، على اسم لَيْنس تورفَلدس Linus Torvalds المُطوِّر الرائد (ولكنه ليس المالك) لنظام التشغيل لينكس Linux، وينصُّ على:

إذا توفَّرَت قاعدة كافية من المُجرِّبين والمُطوِّرين المتعاونين فستُوصَفُ كلُّ مشكلة تقريبًا بسرعة ويتم إصلاحها». (وبصيغة أبسط: «إذا توفَّرَ العددُ الكافي من العيون فستنتهي كلُّ العِلل البرمجية بإيجاد حلول لها»)[1865].

في كوميونة المُطَوِّر الافتراضية، «المقياس الوحيد المتاح للنجاح التنافسي هو السُمْعة فيما بين أنداد المرء»، فلا توجد مأساةُ العموم[[1866]]، لأنه مع البرامج مفتوحة المصدر «ينمو العشب أطول حين يكثر الرعي»[1867].

توقَّعَ ريموند واثقًا أن الحركة مفتوحة المصدر س«تُحقِّقُ هدفَها الأساسي بشأن البرمجيات في غضون من ثلاثة إلى خمسة أعوام (بحلول الأعوام 2003 - 2005)»[1868]. وقد خاب أمله.

بعد الابتكار والفوضى الإبداعية جاء التسويق والتنظيم. وهذا على أية حال المُتَّبَعُ في الثورات التكنولوجية السابقة[1869]. أما في حالة الإنترنت فقد حدث التسويق؛ ولم يحدث التنظيم إطلاقًا. مات حُلْمُ المصدر المفتوح مع صعود الاحتكارات الأحادية monopolies والاحتكارات الثنائية duopolies التي نجحت في صَدِّ تدخُّل الدولة الإدارية. شركة مايكروسوفت Microsoft وشركة أبل Apple أسَّستا ما يقترب من احتكار ثنائي للبرمجيات، واقتطعت مايكروسوفت نصيبًا كبيرًا من سوق الحَوْسبة الشخصية. ولأن الشركتين تأسَّستا في المرحلة الأولى من ثورة الشبكة، في عاميْ 1975 و1976، فقد استجابتا بشكل مختلف للفرص التي يقدمها الإنترنت.



بِلْ جيتس وستيف جوبز

سعت مايكروسوفت إلى رَبْطِ نظام تشغيلها الويندوز Windows بمتصفِّح الويب الخاص بها إنترنت إكسبلورر Internet Explorer، وقد أدَّت هذه الإستراتيجية إلى تفكُّك الشركة تقريبًا[1870] ورغم تفوقِ نظام تشغيلها، من نواحٍ عديدة، على نظام تشغيل بِلْ جيتس Bill Gates، فَضَّلَ ستيف جوبز رئيس مجلس إدارة أبل Apple's Steve Jobs المنافَسةَ بتنويع الهاردوير [عتاد الحاسوب] الذي تبيعه أبل، فأضاف إلى الكمبيوتر المكتبي الأصلي Mac desktop مُشغِّلَ موسيقى (iPod, 2001)، لابتوب (Macbook, 2006)، هاتفًا ذكيًا (iPhone, 2007)، تابْلِت (iPad, 2010)، وتش (Apple Watch, 2014).

تكمن عبقرية جوبز في الجمع بين تصميم منتجات مُغْرية ونظام برمجيات مغلق ومحتوى رقمي تُصْدِره حصريًا أبل ستور Apple Store وآي تونس ستور iTunes Store.

جاءت المرحلة الثانية من ثورة تكنولوجيا المعلومات بعد عشرين عامًا من موجة الابتكار التي أنتجت إم إس دوس [1871]MS – DOS وماك أوس Mac OS. أهم الشركات الجديدة التي تأسَّسَتْ في أواسط تسعينيات القرن العشرين هي:

أمازون Amazon، إي باي eBay، جوجل Google. الشركة الأولى أسَّسها بائع كتب أونلاين في سياتل Seattle [في واشنطن]. والشركة الثانية - وتُسَمَّى أصلاً «مزاد ويب» Auction Web - كانت سوق مزادات أونلاين في سان خوسيه San Jose

[في كاليفورنيا].

وأما الشركة الثالثة - المُسمَّاة على اسم العدد الناتج عن الرقم 10 وأمامه 100 صفر the number googol - فهي أداة بحث على الإنترنت أُعِدَّتْ في جراج في مِنلو بارك Menlo Park [في كاليفورنيا]. كلٌّ مؤسِّس من هؤلاء الثلاثة كان، بمعنى ما، من الخارج [دخيلاً]:

جيف بيزوس Jeff Bezos، ابنٌ لأُمٍّ في سنِّ المراهقة من تكساس، وتبنَّاه زوج أمه الكوبي؛ أما بيير أوميديار Pierre Omidyar فوُلِدَ في باريس لمُهاجِريْن إيرانييْن؛ وأخيرًا سيرجي برين Sergey Brin، من مواليد موسكو ليهوديين هاجرا من الاتحاد السوفييتي عام 1979. لارى بيج Larry Page، فقط، بدأ بوصفه مطلعًا على علوم الكمبيوتر: كان والداه يُدرِّسان في هذا المجال. وقد انجذب كل هؤلاء الرجال إلى الساحل الغربي للولايات المتحدة، حيث ترسَّخت جامعة ستانفورد وتَرسَّخ وادي السِّليكون بوصفهما محورًا عالميًا للابتكار في تكنولوجيا المعلومات. فهل خَطَّطوا ليصبحوا مليارديرات؟ ربما، لا. لقد جاء نجاح شركاتهم بوصفه مفاجأة. (بيج وبرين أوشكا على بَيْع جوجل لشركة إكسايت Excite مقابل 750 ألف دولار في عام 1999). ولكن بعد النجاة من انهيار الدوت. كوم[1872] the dot.com stock bust في هذا العام، حصلت الشركات الثلاث جميعها على تقييمات تفقأ العين.

الطرح العام الأوَّلي (initial public offering IPO) لشركة جوجل في يوم 19 أغسطس عام 2004 أعطاها قيمةً سوقية أكثر من 23 مليار دولار. وتفسيرُ هذه الزيادة الكبيرة في القيمة بسيطٌ. ففي عام 2000 بدأت جوجل في بَيْع إعلانات مرتبطة بكلمات البحث الرئيسية، على أساس الجمع بين عروض الأسعار و«نسبة النقر» [1873]click – throughs.

وبحلول عام 2011 كان هذا مصدرَ 96% من إيرادات الشركة. ثم مَكَّنَ التدفقُ الهائل لإيرادات الإعلانات شركةَ جوجل من التوسُّع في اتجاهات متعددة، فأطلقت خدمة البريد الإلكتروني (Gmail, 2004)، ونظام تشغيل (Android, 2007) ومتصفِّح ويب (Chrome, 2008)؛ ثم ضمَّتْ سلسلةً من شركات أخرى، بدءًا من كيهول Key التي أصبحت فيما بعد جوجل إرث Google Earth، تلتها أورتشين Urchin التي أصبحت جوجل أنالِتكس Google Analytics، وجراند سِنْترَلGrand Central التي أصبحت جوجل فويس Google Voice. ثم أضيف يوتيوب YouTube في عام 2006، وموتورولا موبِلِتي Motorola Mobility في عام 2012 (رغم أنها بِيعت لاحقًا)، وديب مايند DeepMind في عام 2014. مهمةُ جوجل الأصلية: «تنظيمُ المعلومات حول العالم، وجَعْلها متاحةً للجميع ومفيدةً». وكان شعارها غير الرسمي: «لا تكن شرِّيرًا». وأدق وصف لطريقتها في العمل بعد عام 1999: «احْصُلْ على ثروة من

الإعلان واستثمرها بجرأة».

ويتضح التناقض بين المثال والواقع اتضاحًا أكبر في حالة شركة شبكات التواصل الاجتماعي التي ظهرت في موجة الابتكار الثالثة أواسط العقد الأول من القرن الحادي والعشرين.

ال«سِّتُّ درجات» هي التي فازت؛ وحاز أصحابها على براءة اختراع أصلية في وصف خدمة الشبكات الاجتماعية أونلاين المعتمدة على دعوات بالبريد الإلكتروني وقاعدة بيانات للأعضاء المُتَّصِلين. ولكن ريد هوفمان Reid Hoffman - مبتكر موقعيْ الويب فريندستر Friendster ولينكدِن LinkedIn - ومارك بينكوس Mark Pincus - مُصَمِّم ترايب دوت نت Tribe.net - اشتريا براءة اختراع (مقابل 700 ألف دولار) لضمان عدم احتكار شبكات التواصل الاجتماعي[1874]. لكنهما لم يَحسبا تمامًا حساب مارك زوكربيرج Mark Zuckerberg.

لم تكن مرحلةُ الدراسة الجامعية بهارفارد بعيدةً عن البلاغة المثالية. بيان مهمة أعضاء فيسبوك، المُسَمَّى ب«الكتاب الأحمر الصغير» Little Red Book (إجلالاً للرئيس ماو)[1875]، ينصُّ على:

«لم يُبْتكرْ فيسبوك أصلاً ليكون شركةً. لقد أُنْشِئ لتحقيق مهمة اجتماعية، ألا وهي جَعْلُ العالم أكثر انفتاحًا واتصالاً»[1876].

وفي عام 2004، في مقابلة مع الجريدة الطلابية هارفارد كريمزن Harvard Crimson، بعد خَمْسة أيام فقط من إطلاق فيسبوك، صَرَّحَ زوكربيرج بأنه لم يُنْشِئ الموقعَ بقصد كسب المال: «لن أبيع عنوان البريد الإلكتروني لأي شخص». ثم أعلن في عام 2007 قائلاً: «المئة سنة الماضية حدَّدتها وسائل الإعلام mass media، وفي المئة سنة القادمة لن تُدْفَعَ المعلوماتُ إلى الناس، بل ستكون تشاركيةً بين ملايين الاتصالات التي يحوزها الناس»[1877].

فلماذا هَزَمَ فيسبوك منافسيه الآخرين على تاج شبكات التواصل الاجتماعي؟ أولاً، استفاد زوكربيرج من [تأثير] علامة هارفارد التجارية. فقدَّمَ المُستخدِمون الأوائل أسماءهم وعناوين بريدهم الحقيقية، فما دُمْتَ طالبًا في جامعة هارفارد لا يوجد ما يدفع إلى إنشاء اسم مستعار. ثم من خلال شبكة خريجي جامعة هارفارد، قُدِّمَ زوكربيرج إلى دون جرايم Don Graham مدير شركة واشنطن بوست Washington Post Company، الذي عَرَضَ عليه الاستثمار من خلال الشركة والعمل في مجلس إدارتها[1878].

ثانيًا، تَجَاوَزَ زُوكربيرج مَن اعتقدوا خطأً أن الموقع سيفقد جاذبيتَه إذا فُتِحَ لأشخاص ليسوا في الكلية، ثم دَفَعَ لاحقًا إلى جَعْله متاحًا لغير الناطقين بالإنجليزية من

خلال أداة ترجمة[1879].

ثالثًا، كان زوكربيرج سريعًا في رؤية احتمال عمل إضافات add - ons مثل إلحاق الصور photo - tagging وتنبيه المُستخدِمين حين يحدث الإلحاق، والتصور الأعقد بكثير ل«خُلاصة أخبار الأصدقاء» News Feed المعتمد على مشاركة المعلومات عن أنشطة الأصدقاء[1880].

رابعًا، على عكس موقع ماي سبيس MySpace [للتواصل الاجتماعي]، يتيح فيسبوك لمُستخدِميه إنشاء تطبيقات apps داخل فيسبوك، وهو قرار أثبت رواجًا كبيرًا لألعاب فيسبوك مثل فارم فِل Farmville التي انتشرت[1881]. وثمة تطور آخر في المصدر المفتوح يتمثل في الآتي: السياسة العامة الجديدة أتاحت للمُستخدِمين بَيْع إعلاناتهم المُمَوَّلة[1882].

سَعْيُ زوكربيرج إلى إيرادات الإعلان عَجَّلَ بالتمهيد لأجهزة بيكن[[1883]] Beacon، التي أتاحت للشُّرَكاء الوصول إلى المنصة[1884].

كانت مهمةُ شرل ساندبرج[[1885]] Sheryl Sandberg جَعْلَ الانتقال إلى نموذج إيرادات الإعلان نجاحًا، وذلك عندما أصبحت كبيرةَ مسؤولي تشغيل فيسبوك، فضلاً عن دورها الرئيسي في جوجل بين عاميْ 2 و2008. ويكمن الفرق الحاسم في الآتي: «بينما كان جوجل... يساعد الأشخاص في العثور على الأشياء التي قرَّروا شراءها بالفعل، فسيساعدهم فيسبوك على تقرير ما يريدونه، بتمكين المُعْلِنين من إرسال رسائل تستهدف المُستخدِمين، مُناسِبةً لتلبية تفضيلاتهم التي كشفوا عنها بالفعل عبْر نشاطهم على فيسبوك[1886].

في البداية، حقَّقَ ذلك دخلاً ضعيفًا عند قياسه ب«التكلفة لكل ميل» (التكلفة لكل ألف عرض إعلاني)[1887]. وبمجرد إدراج الإعلانات بسلاسة في «خُلاصات أخبار» News Feeds المُستخدِمين على تطبيق الهاتف المحمول فيسبوك، صعدت الشركة على الطريق نحو أرباح هائلة[1888].

الأمر الخارق الذي جعل زوكربيرج مليارديرًا هو الانفجار غير المتوقع في استخدام الهاتف المحمول، مدفوعًا بآي فون أبل الابتكاري والإدماني.

لم يخترع فيسبوك الشبكاتِ الاجتماعيةَ. فكما رأينا، الشبكاتُ الاجتماعية قديمةٌ قِدَم الإنسان العاقل. كل الذي فعله فيسبوك - بإنشائه خدمة مجانية للمُستخدِم وغير مقيَّدة بالجغرافيا أو اللغة - هو إنشاء أكبر شبكة اجتماعية لم تُعْرَفْ من قبل.

وفي الوقت الذي أكتب فيه، لدى فيسبوك 1.17 بليون مُستخدِم نَشِطٍ يوميًا و1.79 بليون مُستخدِم يقوم بتسجيل الدخول مرة واحدة على الأقل شهريًا. ولا تشمل هذه الأرقام مشاركة الصور على فيسبوك وتطبيق التراسل إنستجرام Instagram.[1889]

في الولايات المتحدة، تصل نسبة مُستخدِمي الإنترنت من البالغين بين أعمار 18 و29 إلى 82%؛ وبين أعمار 30 و49 تصل إلى 79%؛ وبين أعمار 50 و64 تصل النسبة إلى 64%؛ و48% لأعمار 65 سنة فما فوق. إذا كانت هناك سِتُّ درجات انفصال للبشرية ككل، فبالنسبة إلى مُستخدِمي فيسبوك صار متوسط الرقم الآن 3.57.[1890]

ولا يثير الدهشة أن شبكة فيسبوك تُظْهِرُ التجمُّعَ على أساس جغرافي، لأن معظم دائرة الصداقة لدى الناس تنطوي على مكوِّن محلي كبير.[1891]

ولكن فيسبوك ينتصر على المسافات بعدد من الطرق لافت للنظر. مجرد القُرْب من مُستخدِمين آخرين ليس أفضل مُنْبِئ باحتمال انضمام المرء إلى فيسبوك؛ ف«الاهتداء» هو وظيفة موقع المرء في الشبكات الاجتماعية المتعدِّدة الموجودة.[1892]

يتصف المُستخدِمون بالاقتصار على المُمَاثِل homophily: المتشابهون، من حيث الاهتمامات المشتركة وأنماط الشخصية، يتجمَّعون معًا كما هو الحال دائمًا، وربما توجد حلقة تغذية [ارتجاع] تجعل المُستخدِمين المتشابهين مُتَّصِلين أكثر عبْر استخدام فيسبوك.[1893] من الممكن أيضًا تعريف الجماعات المهاجرة إلى الولايات المتحدة بأنها مكوِّنات مميزة للشبكة[1894]؛ ومن اللافت للانتباه وجود تنوع كبير في استخدام فيسبوك بين المجموعات العِرْقية.[1895]

وفي أوربا، رغم القلق المتزايد من عودة القومية nationalism، فإن فيسبوك يُنَمِّي التكاملَ: كل صيف، عندما يسافر أوربيون إلى بلاد أوربية أخرى في أيام العطلة، يرتفع عدد أصدقاء فيسبوك عبر البلاد. فارتفعت نسبةُ الصداقات الجديدة داخل أوربا عبر الدول من أقل من 2% في يناير عام 2009 إلى أعلى من 4% في أغسطس عام 2016.[1896] اللافت للنظر أيضًا هو قدرة شبكة فيسبوك على نشر الأفكار، و«نقل العناصر الثقافية» [ميمات] memes، وحتى العواطف، بشكل مُعْدٍ وعبْر التجمُّعات الشبكية من خلال روابط ضعيفة.[1897]

وكأي شيء يحظى برواج كبير، يجد فيسبوك منتقديه الذَّامِّين فيه. كتب الصحفي جوناثان تِبَر Jonathan Tepper قبل وقت قصير من إلغائه حسابه على فيسبوك،

قائلاً: «فيسبوك يبيع انتباهَ المُستخدِمين للمُعْلِنين من كل أنحاء العالم. ويعرف فيسبوك كل شيء تقريبًا عن حياتهم وعائلاتهم وأصدقائهم... فيسبوك أيضًا منصَّةٌ بُنِيَتْ على العَرْض والتلصُّص، حيث يقوم كلُّ المُستخدِمين بكتابة أنفسهم لإظهار الجانب الأكثر استحسانًا وهم يتجسَّسون بهدوء على أصدقائهم».

وبغضِّ النظر عن زيادة الصداقة - فيما يقول تِبَر - فهو يُقلِّلُ من قيمة الصداقة الواقعية ويَحِلُّ محلَّها[1898].

ولا ريب في أن اقتصادات فيسبوك بعيدةٌ كل البعد عن أيديولوجيته اليوتوبية. اقتصادات فيسبوك شبيهة باقتصاد المُزَارَعة[[1899]] sharecropping economy، الذي يُزَوِّدُ العديدَ من الناس بالأدوات اللازمة للإنتاج، ولكنه يُرَكِّزُ العوائد في أيدي القِلَّة منهم»[1900].

ولْنقل بفجاجة، في فيسبوك «المُستخدِمُ سلعةٌ».

لقد وَعَدَ فيسبوك بخَلْق عالَم متواصل من مُستخدِمي الإنترنت. ولكن بِنْيتَه لا تحقق المساواة إلى حد كبير. فيسبوك لديه 15,724 موظَّف وقرابة ال 2 مليار مُستخدِم، ولكن القِلَّة القليلة فقط هي التي تمتلك فعليًا أسهمًا في فيسبوك. زوكربيرج نفسه يمتلك أكثر من 28% من حصة الشركة بأسهم بي B - Shares.

شركاؤه المؤسِّسون دوستين موسكوفيتس Dustin Moskovitz، وإدواردو سافرين Eduardo Saverin، وكريس هيوز Chris Hughes، يمتلكون معًا أقل من 13%. المستثمران الأولان شون باركر Sean Parker وبيتر ثيل Peter Thiel يمتلكان 6.5% من الإجمالي. مستثمران آخران من الأوائل - شركة إكسيل بارتنرز Accel Partners التابعة لمؤسسة سِليكون فالي فينشر فوند Silicon Valley Venture Fund، وشركة الإنترنت الروسية ديجيتال سكاي تكنولوجي Digital Sky Technologies - تمتلكان على التوالي 10% و5.4%. ثم خمسة كيانات أخرى فقط - ثلاث شركات في وادي السِّليكون ومايكروسوفت وجولدمان ساكس - تملك أكثر من 1%[1901]. وعلى حدِّ تعبير أنطونيو جارسيا مارتينيز Antonio García Martínez:

«كل مَن يدَّعي أن الوادي هو الجدارة هو شخص استفاد من ذلك غاية الاستفادة بوسيلةٍ لا جدارة فيها كالمصادفة والعضوية في جماعة ذات امتياز أو بفعلٍ خفيٍّ من أفعال الخداع»[1902].

وبكلمات أخرى: الشبكة الاجتماعية العالمية، هي نفسها مملوكةٌ لشبكة مقتصرة على أعضاء داخل وادي السِّليكون.

إن عواقب ما بعد المصدر المفتوح post - open - source الاجتماعية تميل نحو الاحتكارات الثنائية (مايكروسوفت وأبل) وما يقترب من الاحتكارات الأحادية (فيسبوك، أمازون، جوجل)، على نحو ينطوي على مفارقة. العالَمُ مُتَّصِلٌ كما لم يحدث من قبل، وهو ما لا يَمَلُّ المُصَفِّقون لهذه الشركات من قَوْله أبدًا. ومع ذلك، العالَمُ غيرُ متساوٍ (من بعض النواحي)، كما لم يحدث على مدى قرنٍ [ماضٍ].

ستةٌ من أغنى ثمانية رجال في العالم هم: بِلْ جيتس (تُقَدَّرُ ثروته الشخصية ب 76 مليار دولار)؛ كارلوس سليم Carlos Slim (50 مليار دولار)؛ وجيف بيزوس (45 مليار دولار)؛ مارك زوكربيرج (45 مليار دولار)؛ لاري إليسن Larry Ellison (44 مليار دولار)؛ مايكل بلومبيرج Michael Bloomberg (40 مليار دولار).

تكوَّنَتْ ثرواتُهم، على التوالي، من البرمجيات والاتصالات والبيع بالتجزئة على الإنترنت، والشبكات الاجتماعية، وبرمجيات المشروعات وبيانات البيزنس[1903].

وليس السبب في ثرائهم أنهم «نجومُ» العالَم في مشروعات تجارية أو صناعية، بل أسَّسَ كلٌّ منهم شيئًا قريبًا من الاحتكار الأحادي. ففي حالة فيسبوك، أكثر من مليار شخص يستخدمون ويندوز مايكروسوفت ويوتيوب وأندرويد، ولا ننسى تطبيق التَّراسُل واتس آب WhatsApp الذي حصل عليه فيسبوك عام 2014. وتستطيع هذه الكيانات شِبْه الاحتكارية توليدَ عوائد هائلة للمساهمين الرئيسيين في المدى المنظور[1904].

ولنَضربْ مثالاً واحدًا: من المتوقع زيادة حصة جوجل وفيسبوك المشتركة من جميع الإعلانات الرقمية في عام 2017 إلى 60%. جوجل لديها 78% من البحث الأمريكي في الإعلانات. وفيسبوك لديه ما يقرب من خُمْسَيْ الإعلانات المعروضة أونلاين[1905].

وتُتَرْجَمُ هذه الهيمنة إلى إيرادات ضخمة. من المتوقع أن يربح فيسبوك 16 مليار دولار من عَرْض الإعلانات أونلاين في عام 2017. البيزنس يُقَيَّمُ اليوم بحوالي 500 مليار دولار، تشمل كمًّا نقديًا مهولاً [كاش بايل] [1906] cash pile، بما يجعل زوكربيرج جاهزًا لشراء أيِّ منافِس محتمَل في مرحلة مبكرة (مثل إنستجرام الذي لديه اليوم 600 مليون مُستخدِم، وواتس آب الذي لديه أكثر من مليار مُستخدِم)[1907]. وذلك بالإضافة إلى فوائد هيمنة الإعلان الأخرى. ففي 25 ألف عملية بحث عشوائية على جوجل، تظهر إعلاناتُ منتجات جوجل في نافذة بارزة أكثر من 90% من الوقت[1908].

تبدو الحالةُ الراهنة مذهلةً عندما يفكر المرء في الوظائف التي تُؤدِّيها هذه الشركات. جوجل هي، في الأساس، مكتبة عالمية هائلة، متى ذهبنا للبحث. أمازون بازارٌ عالمي هائل، حيث يذهب المزيد والمزيد مِنَّا للشراء. فيسبوك نادٍ عالميٌّ هائلٌ. وليست الوظائف الشبكية المتنوعة التي تُؤدِّيها هذه الشركات بجديدة؛ الحاصل فقط أن التكنولوجيا جعلت الشبكاتِ ضخمةً وسريعةً جدًا في آنٍ معًا. لكن الفرق الأكثر إثارة للاهتمام أن المكتبات والنوادي الاجتماعية في الماضي لم تكن تربح المال من الإعلان: كانت المكتبات والنوادي [في الماضي] غير ربحية، وتُموَّلُ من التبرعات أو الاشتراكات أو الضرائب. الواقع الثوري حقًّا أن مكتبتنا العالمية ونادينا العالمي مُزيَّنان بلوحات [إعلانية]، وكلما أخبرناهما عن أنفسنا، أصبح الإعلانُ أكثرَ فعَّالية، فيُرْسِلاننا إلى بازار بيزوس [أمازون] بوتيرة متزايدة. وليس اعتباطًا أن تتكوَّنَ كلمةُ سِرِّ المستثمر من اجتماع الحروف الأولى لكل من فيسبوك Facebook وأمازون Amazon ونيتفليكس Netflix (شركة أفلام أونلاين) وجوجل Google؛ ألا وهي كلمة FANG [التي تعني: ناب، مخلب، شَوْكة].

ويعود الفضل إلى تأثير «ملاءمة الثراء»[1909] fit - get - richer، بما يجعل تكنولوجيا المعلومات العالمية [شبكة] حُرَّة النطاق free - scale: تكنولوجيا تُهيمن عليها مَحَاورٌ فائقةُ الترابط - super connected hubs، قليلةُ العدد، حتى لا تقلّ عائداتُ البيزنس[1910].

تبدو ممارسة فيسبوك، في سَعْيه الذي لا هوادة فيه للهيمنة على السوق، على طرفيْ نقيض من دعايته. فتَرقِّي زوكربيرج من مُطوِّرٍ في غرفة سكن [جامعية] إلى الرئيس التنفيذي زوك Chairman Zuck كان سريعًا بشكل ملحوظ.

قال في عام 2008: «يشبه فيسبوك - في كثير من النواحي - الحكومةَ أكثر مما يشبه شركةً تقليدية. نحن لدينا هذا المجتمع الكبير من الناس، ونضع سياسات واقعية أكثر مما تفعل شركاتُ تكنولوجيا أخرى»[1911]. «الكتاب الأحمر الصغير» يدين بأكثر من مجرد نسبته إلى ماو؛ فنغمتُه نغمةُ طليعةٍ ثورية واعية بنفسها: «السريعُ يَرِثُ الأرضَ»[1912] «العظمة والراحة نادرًا ما يتعايشان». و: «تغيير طريقة تَواصُلِ الناس تُغيِّرُ العالَم دائمًا»[1913].

بعد عام 2008، بدأت المُلْصقات على حوائط المقر تُرَجِّعُ صدى الدعاية التوتاليتارية [الاستبدادية]: «تَحَرَّكْ وكُنْ جريئًا!» PROCEED AND BE BOLD!، «ارْتفِعْ أعلى من رأسك!» GET IN OVER YOUR HEAD!، «ليكُنْ لك تأثير!» MAKE AN IMPACT!»[1914].

ويُقالُ إن زوكربيرج «لا يريد أن يَحْكُمَ فيسبوك فقط، بل يريد أن يَحْكُمَ، بمعنى ما، البنيةَ التحتية للاتصالات المتطوِّرة على ظهر الكوكب»[1915]. بل تنتشر تكهُّنات بأنه ربما يفكر في الترشُّح لرئاسة الولايات المتحدة[1916]. ولكن عقلية مؤسِّس فيسبوك تبدو أكثرَ عَوْلميةً وأقلَّ ديمقراطيةً مما قد يُتَوَقَّعُ من قابضٍ على هذا المنصب. فكما لاحظ أحد الموظفين السابقين، وهو يتذكَّرُ العديدَ من الموظفين وا ارتداء قمصان فيسبوك الزرقاء للعمل: «القمصان البُنّية [[1917]] Brownshirts صارت قمصانًا زرقاء Blueshirts، فكُنَّا جميعًا جزءًا من كتيبةِ عاصفةِ Sturmabteilung الميديا الاجتماعية الجديدة»[1918].

ولا ريب في خطأ هذا التشبيه، لأن زوكربيرج يبدو مُخْلِصًا في رؤيته ل«مجتمع عَوْلمي» مُتَّصِل. في فبراير عام 2017، نَشَرَ زوكربيرج مقالةً يقول فيها إن دورَ شركته تعزيزُ المجتمعات المحلية «ذات المعنى والهدف»، وزيادة «الأمان» (عن طريق فَلْترة المحتوى المُغَذِّي بالكراهية)، وتشجيع تنوُّع الأفكار، ورعاية المشاركة المدنيَّة، على مستوى عالمي. كتب يقول أيضًا: «يستطيع فيسبوك بوصفه أكبر مجتمع عالمي، أن يُقدِّمَ القدوة والنموذج لطريقة اشتغال حَوْكَمة المجتمع على نطاق واسع»[1919].

السؤال الحقيقي هو: إلى أيِّ مدى تكون هذه الرؤيةُ لمجتمع عالمي رؤيةً واقعية؟ وإلى أيِّ مدى تُؤدِّي عواقبُ فيسبوك - وأمثاله - غيرُ المقصودة إلى اتجاه عكسيٍّ تمامًا[1920].

بحلول عام 2010، صار العالَمُ على شفا ثورتين، تقود كلاً منهما تأثيراتُ تكنولوجيا المعلومات إلى حد كبير. الثورة الأولى هي ثورة ارتفاع التوقُّعات في العالم النامي developing world. والثورة الثانية هي ثورة انخفاض التوقُّعات في العالم المتقدِّم developed world. نشأت الثورة الأولى عن انخفاض عدم المساواة في العالم ككل. ونشأت الثورة الثانية عن ارتفاع عدم المساواة داخل عدد من البلاد المهمة، ولا سيما الولايات المتحدة. ومن الخطأ نسبةُ كل التغيير إلى التكنولوجيا، كذلك من الخطأ نسبتُه إلى العَوْلَمة، ذلك أن العمليتين لا يمكن الفصل بينهما بطريقة لها معنى. التحليل الأدق أن النمو السريع لشبكة عالمية فائقة هو الذي قادَ بشكل رئيسي الثورةَ، كما أن هذه الظاهرة - مُرَكَّب التغيير التكنولوجي والتكامل العالمي - هي التي جعلت العالَمَ ككل أكثرَ «تَسَطُّحًا» flat، وفي الوقت نفسه جعلت المجتمعَ الأمريكي (بتعبير تشارلز موري[1921] Charles Murray) «مُفَكَّكًا».

طبقًا لدراسةٍ يُسْتَشْهَدُ بها على نطاق واسع، قام بها أوكسفام [اتحاد المنظمات الخيرية الدولي لمكافحة الفقر] Oxfam، ثروةُ أغنى 1% من الناس أكبرُ من بقية العالَم مُجْتمِعًا. في عام 2015، طبقًا لأوكسفام، ثروةُ 62 شخصًا فقط تُعادِلُ ثروة 3.6 مليار شخص: «النصف السُّفْلي» للبشرية. وهذا النصف السفلي تَلَقَّى - منذ مطلع القرن - 1% فقط من إجمالي الزيادة في الثروة العالمية، في حين ذَهَبَ 50% من هذه الزيادة إلى ال 1% الذين على القمة[1922].

يصل كريدي سويس [مَصْرف سويسري] Crédit Suisse إلى أرقام مماثلة: يُقَدِّرُ البنكُ أن حصة الثروة العالمية في أيدي ال 1% الذين على القمة وصلت إلى 50% في عام 2015. ويملك حوالي 35 مليون مليونير أكثرَ من 45% من كل ثروة العالَم؛ ويملك 123,800 شخص أكثرَ من 50 مليون دولار، ويملك 44,900 شخص أكثرَ من 100 مليون دولار، ويملك 4,500 شخص أكثرَ من 500 مليون دولار[1923]. أقلُّ من نصف كلِّ المليونيرات يعيشون في الولايات المتحدة، حيث الربح التراكمي في الدخل الحقيقي ل 0.01% الذين على القمة، منذ عام 1980، هو 542% (استنادًا إلى حسابات الاقتصاديَيْن إيمانويل سِيز Emmanuel Saez وتوما بيكيتي Thomas Piketty). وبالنسبة إلى كل أمريكي من ال 90% وأقل، انخفض الدخلُ الحقيقي قليلاً في الفترة نفسها[1924].

متوسط دخل الأسرة الأمريكية في عام 1999 كان 57,909 دولارًا. وفي عام 2015 كان 56,516 دولارًا[1925]. ذلكم هو التسلسل الهَرَمي الأخير في العالَم اليوم:

هَرَميَّةُ الثروة والدَّخْل تشكّلَتْ على هيئة مَبْنَى له قاعدة عريضة جدًا وبُرْج طويل ورفيع جدًا.

ومع ذلك، توجد ثلاثة محاذير مهمة. أولاً، استنادًا إلى بيانات المَسْح الأمريكي لتمويل المستهلك US Survey of Consumer Finance، الزياداتُ في حصص ال 1% الذين على القمة وال 0.1% الذين على القمة في الثروة والدخل معًا، ليست كبيرةً تمامًا كما زعم بيكيتي وسِيز[1926]. ثانيًا، عدد الأشخاص في قائمة فوربس[1927] Forbes 400 الموضوعون على هذه القائمة بقوة الثروة الموروثة انخفض بشكل مُطَّرِد في الوقت الحاضر: من 159 شخصًا في عام 1985 إلى 18 شخصًا فقط في عام 2009[1928] دورةُ رأس المال على القمة لم تكن أعلى. ثالثًا، نمو الطبقة الوسطى العالمية - ما يُفَضِّلُ الماركسيون تسميته ب«البرجوازية» - يُعَدُّ تغييرًا اجتماعيًا عميقًا يُضارِعُ عُمْقَ تراكم الثروة لدى ال 1%.

فقد نَمَت الطبقةُ الوسطى الصينية، بين عاميْ 2000 و2015، بما يقرب من 38 مليونًا، وباستعمال المُحدِّد نفسه نَمَت الطبقةُ الوسطى الأمريكية أيضًا بمعدل 13 مليونًا. وفي جميع أنحاء العالم، نَمَت الطبقةُ الوسطى في الحجم بمعدل 178 مليونًا، وهو ما يعني 31% زيادة منذ عام 2000[1929].

وطبقًا لأحد التقديرات، انخفض مُعامِل جيني[1930] Gini coefficient لقياس عدم المساواة العالمية من 69 في عام 2003 إلى 65 في عام 2013، وسينخفض أكثر إلى 61 في عام 2035[1931]. باختصار، الأدلةُ مُقْنِعةٌ بأن توزيع الدخل العالمي صار أقلَّ في عدم مساواته كثيرًا منذ عام 1970، ومن المرجح استمرار الانخفاض[1932]. السائق الأكبر لهذا هو بَرْجَزة embourgeoisement الصين، ولكن هذا ليس سوى حوالي خُمْس القصة العالمية[1933].

التفسير التقليدي أن العَوْلمة قَلَّلَتْ عدمَ المساواة العالمي، بمعنى أن النمو السريع جدًا للصين واقتصادات أخرى ناشئة لم يكن ممكنًا دون زيادة تدفقات المشروعات وتدفقات رأس المال التي حدثت بعد سبعينيات القرن العشرين. وقد ساعدت زيادة الهجرة الدولية أيضًا، في الإطار الزمني نفسه، على تقليل عدم المساواة، بانتقال الناس من اقتصادات أقل إنتاجية إلى اقتصادات أكثر إنتاجية. ولكن من غير المتصور وجود الكثير من المشروعات والاستثمار عبر الحدود والهجرة دون الابتكارات التكنولوجية التي ناقشناها أعلاه، كما أن القفزات التكنولوجية إلى الأمام كانت ستكون أقل، وأبعد عن بعضها، دون المكوِّنات الآسيوية الصُّنْع وسلاسل الإمداد العالمية الرخيصة. والزيادة الأكبر فعلاً في تدفقات المعلومات الدولية هي التي جعلت إعادةَ التوزيع العالمية الأكفأ لرأس

المال والعمل ممكنةً.

النقطة الحاسمة هي حدوث تحسين كبير في الشروط النسبية وفي الشروط الثابتة، على مدى الثلاثين أو الأربعين سنة الماضية، لدى معظم الناس في العالم. وعند تفسير الثورات في العالم النامي، فسيتضمن التفسيرُ تأثيرَ ارتفاع التوقُّعات.

ومع ذلك، تنطوي العَوْلَمة على آثار مختلفة تمامًا بالنسبة إلى الدَّخْل وتوزيع الثروة داخل العديد من البلاد. من المعتاد الاعتقاد بأن ما يُسَمَّى «مخطط الفيل»[1934] elephant chart يُوَضِّحُ هذه النقطة، وهو مخطط ابتكره برانكو ميلانوفيتش Branko Milanovic وكريستوف لاكنر Christoph Lakner، يُصوِّران به الطبقةَ العاملة والطبقةَ الوسطى في الاقتصادات المتطورة بوصفهما خاسرتيْن بسبب العَوْلمة[1935].

وفي حقيقة الأمر، الفيل في الغرفة يترك الغرفة تمامًا إذا عَدَّلَ المرءُ التغييرات في حجم البلد وأَسْقَطَ اليابانَ والاتحادَ السوفييتي السابق والصينَ من البيانات[1936]. ورغم ذلك، ثمة شيء ما سَيِّئٌ بالنسبة إلى الطبقة العاملة والطبقة الوسطى الأمريكية، وربما الطبقة الوسطى في بعض البلاد الأوربية أيضًا[1937]. فلا ريب أن المنافسة الآسيوية دمَّرَتْ عددًا كبيرًا من الوظائف في مجال الصناعة في الولايات المتحدة[1938]. فمَن ترنَّحوا في الولايات المتحدة أثناء الأزمة المالية، وبعدها، أصابهم التشاؤمُ من مستقبلهم بدرجة كبيرة، رغم نجاح برامج الرعاية الاجتماعية - الذي لم يُنوِّه به أحدٌ - في تخفيف آثار «الركود الكبير» على أصحاب الدَّخْل المنخفض. ما يقرب من خُمْسي الأمريكيين، في مَسْحٍ أجراه معهد مَكينزي العالمي McKinsey Global Institute عام 2016، أيَّدوا بقوة إحدى العبارتين الآتيتين: «وَضْعي المالي أسوأُ مما كان عليه قبل خمس سنوات»، و/أو «وَضْعي المالي أسوأُ من وَضْع والديَّ، عندما كانا في مثل عمري». هؤلاء كانوا أكثر تشاؤمًا نحو مستقبلهم ومستقبل أولادهم المالي.

وقد ألقى هؤلاء المتشائمون باللائمة الكبرى على الهجرة والسلع الأجنبية و«العمالة الأجنبية الرخيصة»، لأنها على التوالي «تُدَمِّرُ ثقافةَ مجتمعنا وتماسكه»، «الأمر الذي يُؤدِّي إلى فقدان الوظائف المحلية» و«خَلْق منافسة غير عادلة للأعمال والمشروعات داخل الوطن»[1939].

هذا التشاؤمُ متجذِّرٌ في أبعد من مجرد ركود الدخول الحقيقية. ربما انخفض

الحراكُ الاجتماعي في الولايات المتحدة، أو لم ينخفض[1940].

لكن من الواضح وجود شيء ما خاطئ. ففي كل أرجاء العالم المُتقدِّم، ينخفض معدل الوفيات ويرتفع طول العمر، لكن ليس في أمريكا البيضاء (غير اللاتينية)، ولا سيما فيما بين الأمريكيين البِيض في منتصف العمر الذين لم يمتد تعليمهم أبعد من المدرسة الثانوية. بالنسبة إلى هذه المجموعة، التي تتراوح أعمارها بين 45 عامًا و54 عامًا، ارتفع معدَّلُ الوفيات من حالات التسمم (ومعظمها بسبب إفراطٍ في جرعة المخدرات) إلى أكثر من أربعة أضعاف بين عاميْ 1999 و2013، من 14 إلى 58 كل مئة ألف شخص، في حين ارتفع معدَّلُ الوفيات الناجمة عن أمراض الكبد المزمنة والتليُّف الكبدي بنسبة 50%، وتوقَّفَ الانخفاضُ في معدَّل الوفيات الناجمة عن أمراض القلب. حين استمر معدَّلُ وفياتِ البِيض في الانخفاض حتى معدَّله قبل عام 1999 بانخفاض 1.8% كل سنة، أمْكَنَ تجنُّب ما يقرب من نصف مليون حالة وفاة في الفترة من عام 1999 حتى عام 2013.

شخصٌ واحدٌ من كل ثلاثة بِيض غير لاتينيين، تتراوح أعمارُهم بين 45 عامًا و54 عامًا أبْلَغَ عن ألم مفاصل مُزْمِن، وشخصٌ واحدٌ من كل خمسةٍ أبْلَغَ عن آلام رقبة، وشخصٌ واحدٌ من كل سبعة أبْلَغَ عن ألم عِرْق النِّسا[1941]. ولا يمكن تفسير هذه الاتجاهات التي استمرت خلال عام 2015، بعبارات اقتصادية بسيطة من قبيل: مؤشرات الدخل عند الأمريكيين غير البِيض في أوضاع مماثلة ليست بأفضل حالاً، لكنهم لا يعانون من تلك الزيادات في اعتلال الصحة ومعدَّل الوفيات. التفسير الأفضل المتاح هو أن «الضررَ المتراكم على مدى الحياة، في سوق العمالة، وفي الزواج والإنجاب، وفي الصحة، ناجمٌ عن تدهور تدريجي في فُرَص سوق العمالة»[1942].

ومن المحتمل أن الأمريكيين البِيض في منتصف العمر، الأكثر بؤسًا، هم الذين يتعاطون المخدرات أو يشربون الخمر حتى يذهبوا بأنفسهم إلى القبور مبكرًا. المَخْرج غير الانتحاري للقوى العاملة، التي اختارت فوائدَ عجز الضمان الاجتماعي[[1943]] Social Security Disability، يساعد على تفسير السبب في انخفاض مشاركة القوى العاملة من الذكور، في سنِّ الرُّشد، بشكل حاد في الولايات المتحدة، أكثر من أماكن أخرى[1944]. في ضوء ذلك، يُعَدُّ الاضطرابُ السياسي الذي حدث في الولايات المتحدة عام 2016 ثورةً بسبب انخفاض التوقعات.

لعل الطريقة الصحيحة لفَهْمِ العلاقة بين الشبكات وعدم المساواة - على حدِّ تعبير مؤلِّفي ورقةٍ تفتح آفاقًا جديدة في الموضوع - أن «عدم المساواة في الشبكات الاجتماعية تُعَزِّزه الأسواقُ في حالة المُكِّملات، ولكنه ينخفض في حالة

البدائل»[1945].

عندما وَصَلَ التحرُّرُ الاقتصادي إلى شبكات الطبقة العاملة في بومباي Bombay [في الهند]، كانت الشبكةُ والسوقُ بديلين، بمعنى أن السوق يُنحّي الشبكةَ بعَرْض خياراتٍ جديدة أمام الأفراد المترابطين [المُتَّصِلين] بشكل ضعيف.

فكانت النتيجةُ انخفاضَ عدم المساواة. لكن حين حصل صيَّادو السمك في كيرالا Ke [في الهند] على هواتف محمولة، أكْمَلَت الشبكاتُ والسوقُ أحدَهما الآخر، لأن صيَّادي السمك المُتَّصِلين بشكل أفضل كانوا أقدر على الاستفادة من فُرَص السوق. وفي هذه الحالة، كانت النتيجةُ عدمَ مساواة أكبر[1946].

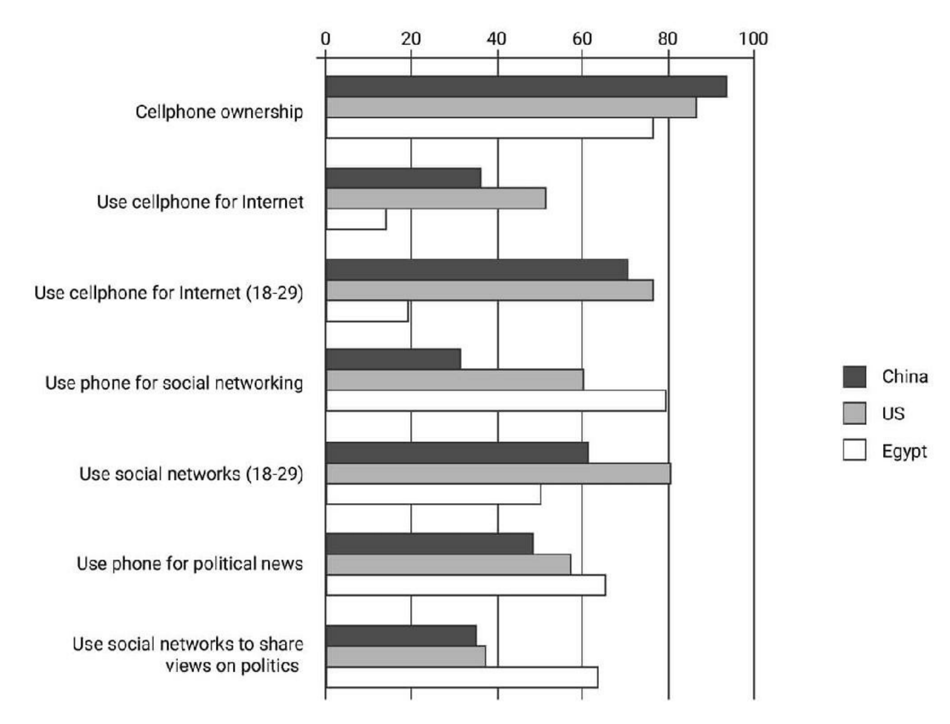
وينطبق هذا الإطار عالميًا أيضًا. العَوْلَمة جلبت السوقَ إلى العُمَّال والفلاحين في الصين، الذين كانوا حتى تلك اللحظة غير مُتَّصِلين بالعالم ومُحاصَرين داخل نظام هَرَميٍّ جامد أنشأه ماو Mao. وهو ما قَلَّل عدمَ المساواة. أما في الولايات المتحدة فأكْمَلَت الشبكاتُ والأسواقُ أحدَهما الآخر، لأن الأمريكيين المُتَّصِلين بشكل أفضل جَنوا معظمَ أرباح العَوْلَمة؛ وهو ما أقرَّه تقريرُ البنك الدولي في عام 2017[1947].

وقد يوجد العديد من الأسباب للتشكيك في الدليل المستنبط من المَسْح الاجتماعي الأمريكي العام US General Social Survey للانكماش الكبير في الشبكات الاجتماعية التقليدية، الذي يُعْزَى بعضُه إلى صعود الشبكات الإلكترونية وأجهزة الموبايل التي تُشجِّعُ استخدامَ هذه الشبكات[1948].

وفي الحقيقة، لا يوجد دليلٌ مُقْنِع على أن زيادة استخدام الإنترنت تُؤدِّي إلى مشاركة اجتماعية محلية أقل؛ فربما العكسُ هو الصحيحُ[1949]. ورغم ذلك، من الصعب إنكارُ تميُّزِ العقدين أو العقود الثلاثة السابقة بزيادة الاستقطابِ الاجتماعي والسياسي. كانت السماتُ البارزة في هذه العملية انكماشًا ملحوظًا في شبكات المناقشة الأساسية لدى الأمريكيين، التي تشمل أفرادًا من غير العائلة أقل مما كان في الماضي[1950]، وانزواء مؤسَّسات التواصل الشَّبَكي التقليدية، كالتي تمركزت حول الكنائس والجمعيَّات التطوعية المحلية[1951].

كما تُبيّنُ حالةُ صيَّاد كيرالا، يكمن المُتغيّرُ الحاسم الذي جَعَلَ التغييراتِ الاجتماعيةَ شديدةَ الانفجار أوائل القرن الحادي والعشرين، في النموِّ الهائلِ للهاتف المحمول. كانت الابتكاراتُ في الهواتف المحمولة مصادفةً سعيدة [هبة سماء] لشركات الاتصالات التقليدية مثل إيه تي آند تي[1952] AT & T وفيرايزن[1953] Verizon (سابقًا بيل أتلانتك Bell Atlantic ونينكس NYNEX) ونظرائها حول العالم[1954].

ورغم وجود تنافس بين مُصنِّعي الهواتف (بفضل المقاييس الكبيرة التي وضعتها جوجل عند إنشائها نظام التشغيل Android بوصفه منافِسًا لنظام تشغيل أبل iOS)، فلم يوجد سوى تنافس محدود بين مُزوِّدي الشبكة، لذلك بقيت الاشتراكاتُ مرتفعةً نسبيًا. وأبقاها الطلبُ العام مرتفعةً. وكما يُبيّنُ الشكلُ 40، ارتفعت معدلاتُ اقتناء الهاتف المحمول عام 2010، في مجتمعات مختلفة اقتصاديًا اختلاف الولايات المتحدة والصين ومصر، ورغم تخلُّف مصر من حيث اعتماد الهاتف الذكي smart phone، فإن استخدام الهواتف للتواصل الشَّبَكي الاجتماعي وتَشارُك الأخبار السياسية كان أكثرَ تقدُّمًا فيها[1955]. مع الهواتف المحمولة، بل أكثر مع الهواتف الذكية، ظلت شبكاتُ التواصل الاجتماعي أونلاين طول الوقت.




الشكل رقم: 40 - استخدام الهواتف المحمولة والشبكات الاجتماعية في الصين والولايات المتحدة ومصر، 2010.

إذا كان فيسبوك قد أشبع، في البداية، حاجةَ الإنسان إلى الثرثرة، فقد أشبع تويتر Twitter - الذي تأسَّسَ في مارس 2006 - حاجتَه النوعية إلى تبادل الأخبار، وغالبًا (وليس دائمًا) أخبار سياسية. بحلول عام 2012، نَشَرَ أكثرُ من مئة مليون مُستخدِم 340 مليون «تويتة» tweets يوميًا.

لكن هل سيقود تويتر الثورةَ؟ لم يعتقد مالكوم جلادويل[1956] Malcolm Gladwell ذلك، وهو يُحلِّلُ فشلَ الثورة الإيرانية «الخضراء» عام 2009. فمن وجهة نظره، ليست الميديا الاجتماعية social media بديلاً عن شبكات النُّشَطاء القديمة من النوعية التي أطاحت بالشيوعية في أوربا الشرقية[1957].

أما في جوجل، فكان لدى إريك شميت[1958] Eric Schmidt وجارِد كُوين[1959] Jared Cohen وجهةُ نظرٍ مختلفة. في مقالة ثاقبة النظر نُشِرَتْ في نوفمبر عام 2010، قالا إن الحكوماتِ س«تُفاجَأ حين تُشَارِكُ أعدادٌ كبيرة من مواطنيها، لا يتسلَّحون بأيِّ شيء سوى الهواتف المحمولة، في تمرُّدات مُصَغَّرة

mini - rebellions تتحدَّى سلطةَ هذه الحكومات»[1960].

«الفعل الحقيقي» فيما أسمياه «حالة التواصل» أو «الحَوْزَة المترابطة»، يوجد في «المكاتب المكتظة في القاهرة»، وكذلك «في شوارع طهران. فمِن هذه الأماكن وغيرها، يحشد النُّشَطاءُ والمهووسون بالتكنولوجيا الناسَ في «احتجاجات خاطفة» [تجمُّع مفاجئ][1961] flash mobs سياسية تهزُّ الحكوماتِ القمعيةَ هَزًّا، ويبنون أدواتٍ جديدةً تفلت من جدران الحماية والرقابة، فينقلون وينشرون عبر تويتر صحافةَ أونلاين جديدة، ويكتبون مشروع قانون حقوق الإنسان في عصر الإنترنت»[1962].

لقد انتصر جوجل على جلادويل؛ وليس هذا بالمستغرب لأن الدليل على تأييد أطروحة شميت - كُوين كان يتراكم على مدى سنوات، بالهواتف المحمولة والميديا الاجتماعية التي تلعب أدوارًا مهمة في الأزمات السياسية في بلاد متنوعة تنوَّع مولدوفا[1963] Moldova والفلبين وإسبانيا، بل المقاطعة الصينية شينجيانج Xinjiang[1964].

الأزمة المالية وفترات الركود التي سبَّبتها، جَعَلَت شرعيةَ الحكومات في جميع أنحاء العالم تتآكل. ومع ذلك، لم يتأثر النظامُ الهَرَميُّ الراسخ في الولايات المتحدة أو حتى في أوربا بهذه القوى الجديدة أولاً. فالأحداث الثورية revolutionary events التي اجتاحت الشرقَ الأوسط وشمالَ أفريقيا، بدءًا بتونس في ديسمبر عام 2010 - وهي الأحداث المُسَمَّاة تسمية مغلوطة «الربيع العربي» Arab Spring - سهَّلَتْها بكل تأكيد أنواعٌ مختلفة من تكنولوجيا المعلومات، حتى لو كانت قناة الجزيرة التلفزيونية، وليس فيسبوك أو تويتر، هي التي نقلت أخبار الثورات إلى غالبية العرب. وكما حدث في أوربا بعد عام 1917، انتشرت الثورةُ كالوباء مستغلةً الشبكات القائمة. قال الرئيس اليمني [علي عبد الله صالح] للمراسلين قبل خَلْعه من السلطة: «هذا فيروس، وليس جزءًا من ميراثنا، ولا من ثقافة الشعب اليمني. إنه فيروس جاء من تونس إلى مصر. وفي بعض المناطق، تكون رائحةُ الحُمَّى كالأنفلونزا. فبمجرد جلوسك مع شخص مصاب ستُصَاب»[1965].

وصارت مُراقَبة هشتاجات تويتر Twitter hashtags وسيلةً لتوقُّع المظاهرات أثناء الأحداث الثورية التي جَرَفَتْ حسني مبارك عن السلطة في مصر[1966].

وبطريقة مشابهة، استخدم الثُّوَّارُ في كييف Kiev الذين أطاحوا بالرئيس الأوكراني فيكتور يانوكوفيتش Viktor Yanukovych عام 2014، الشبكاتِ الاجتماعيةَ لتنظيم

احتجاجاتهم في الميدان ونَشْر انتقاداتهم ليانوكوفيتش وأتباعه المقرَّبين [حاشيته]. ومن حديقة جيزي Gezi Park قُرْب ميدان تقسيم في إسطنبول [تركيا 201، إلى شوارع ساو باولو São Paulo [في البرازيل]، اجتاحت الاحتجاجاتُ العالَمَ. وبغضِّ النظر عن الهدف من غضب المُحْتجِّين، فقد اتَّبَعَتْ أساليبُهم قواعدَ لعبة شميت - كُوين[1967].

سارع الفيلسوفُ الإسباني مانويل كاستيلس[1968] Manuel Castells إلى الاحتفال بالقوة الثورية التي ينطوي عليها «مجتمع الشبكة»، والتي خلقت حركاتٍ شعبيةً كبيرة كان من المستحيل بكل بساطة «أن تحشد المشتبهَ بهم المعتادين»[1969].

كان الاستنتاجُ الذي استخلصه البعضُ أن المزيد والمزيد من الدول السُّلْطوية الفاسدة ستضطر - تحت هذه الضغوط - إلى أن تصبح «حكومات ذكية» smart governments شفَّافة ومُتجاوِبة، فتستغل التكنولوجيا حتى تكون أكفأ وأكثر مسؤوليةً وقابليةً للحساب. ثم أخيرًا، سينتهي المطافُ بكل دولة إلى ما انتهت إليه جمهورية إستونيا[1970] Estonia رائدة الديمقراطية الإلكترونية[1971] e – democracy[1972].

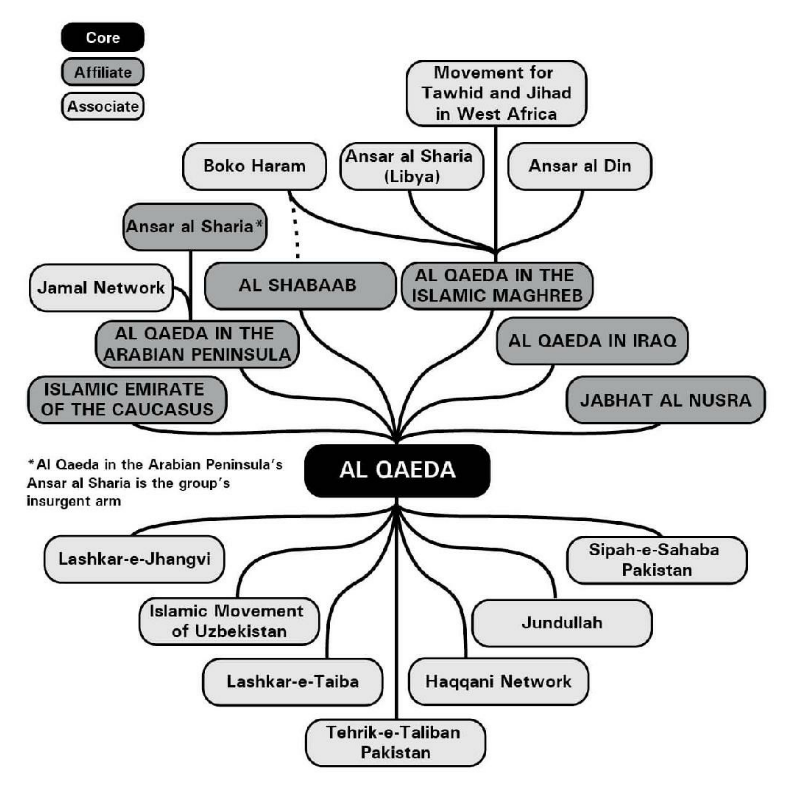
ولكن من السذاجة افتراض أننا كُنَّا نشهد فجر عصر جديد من مُستخدِمي الإنترنت الأحرار المتساوين، فيه تُمَكِّنُ التكنولوجيا الكلَّ من قَوْل الحقيقة للسلطة.

فالإنترنت ينطوي على أصوله [الأولى] في التعقيد الصناعي العسكري، كما رأينا. ومن المحتمل بدرجة كبيرة، دائمًا، أن يكون للأمن القومي الأولويةُ على تمكين المواطنين عند استغلال إمكانات الشبكة الاجتماعية لخدمة الحكومة. هجماتُ 11 ومتاعبُ الحكومة الأمريكية في العراق خلقتا حافزًا واضحًا لإدارة بوش وخليفتها على حد سواء. لقد تعلَّم ستان مَكْريستَل Stan McChrystal في العراق أنه عند مكافحة التمرد يتطلب الأمرُ شبكةً لتهزم شبكةً[1973].

وينطبق الأمر نفسه على مكافحة الإرهاب. لقد تعامل المُحلِّلون في وكالة الاستخبارات مع [تنظيم] القاعدة بوصفه «شبكة الشبكات»، في حوالي سبع مناطق إقليمية أو وطنية[1974].

وكانت هذه الشبكةُ «متكيِّفةً ومعقدةً ومَرِنةً»، وتُصَمِّمُ على إلحاق المزيد من الإرهاب والدمار ب«الأراضي» الأمريكية[1975]. وقد تَولَّدَتْ لدى السياسيين الأمريكيين حوافزُ قوية للثأر من التنظيم بقَطْع رأسه وتفكيكه، لمَنْع هجمات مستقبلية، واستعراض القوة أيضًا. فسَعَتْ وكالةُ الأمن القومي National

Security Agency، ابتداءً من عام 2007، إلى تطبيق مبدأ مَكْريستَل على نطاق عالمي.




الشكل رقم: 41 - شبكة القاعدة من وجهة النظر الأمريكية، 2012.

كان من المتوقع أن تحاول الدولةُ الهَرَميَّة استمالةَ مالكي الشبكات من القطاع الخاص. وقد انكشفت المحاولة. ابتداءً من عام 2007، بدأ قسم عمليات المصدر الخاص Special Source Operations (SSO) بوكالة الأمن القومي NSA في طلب اتصالات الإنترنت [أونلاين] من تسع شركات أمريكية كبرى على الأقل، بوصفه جزءًا من برنامج مراقبة البيانات الكبيرة big - data، الذي يحمل الاسمَ الكودي «بريزِم»[1976] PRISM.

وتولَّتْ أعمالَ الاعتراض وحدةُ تكنولوجيا اعتراض البيانات في إف بي آي [مكتب التحقيقات الفيدرالي] FBI's Data Intercept Technology Unit، مستفيدةً من أن نسبة كبيرة من بنية الإنترنت التحتية المادية موجودة في الولايات المتحدة. وفي ظل قانون حماية أمريكا Protect America Act، والمادة 702 من قانون تعديلات محكمة مراقبة الاستخبارات الأجنبية لعام 2008 Foreign Intelligence Surveillance Court Amendments Act of 2008، كانت هذه الأعمالُ قانونيةً، ولم يكن لدى الشركات من خيار سوى الامتثال. ويُفْتَرَضُ من الناحية الرسمية أن تكون المراقبة للمواطنين الأجانب الذين قد يُشَكِّلون تهديدًا

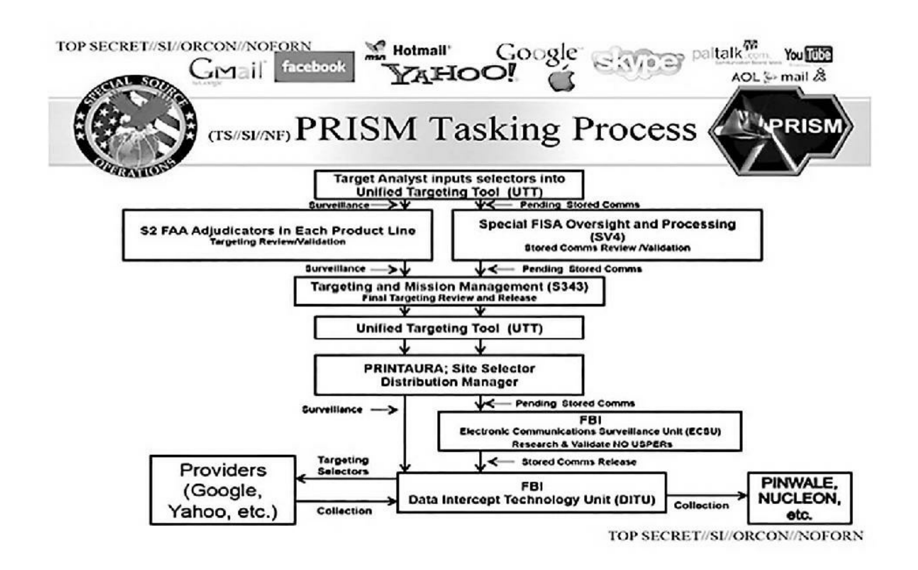
للأمن الأمريكي، بل إن أيَّ مواطن أمريكي على اتصال بشخص من هذا النوع سيكون عُرْضة للوقوع في مصيدة وكالة الأمن القومي، على شرط أن يكون أحدُ الأطراف في تبادل بريد إلكتروني أو مكالمة سكايب Skype call أو نقل ملفات أو تبادل على فيسبوك - على أرض أجنبية. المشاركون في برنامج «بريزم» هم: فيسبوك، يوتيوب، أمريكا أونلاين AOL، سكايب، أبل؛ لكن كمَّ المعلومات الأكبر جُمِعَ من: ياهوو، جوجل، مايكروسوفت. وفي عام 2012، بلغ إجمالي عدد طلبات بيانات مُستخدِم فيسبوك، الواردة من جميع الوكالات الحكومية، ما بين 9 آلاف و10 آلاف طلب، اهتمَّت الطلبات أيضًا بحسابات المُستخدِمين، بما يصل إلى ضِعْف هذا العدد تقريبًا. وبدأ مَسكُلار MUSCULAR - وهو برنامج موازٍ لبرنامج «بريزِم» - في التقاط مباشِر للبيانات غير المشفرة داخل «سُحُب» clouds جوجل وياهو الشخصية. شاركت شركتا الهاتف، إيه تي آند تي AT & T وفيرايزن Verizon، أيضًا، مع وكالة الأمن القومي في المراقبة[1977].

في نظر «دولة الأمن القومي» (وهي شبكةُ بيروقراطيين منطوية على نفسها من ناحية الممارسة)[1978]، كان برنامجُ «بريزِم» استجابةً منطقية للتهديد الشَّبَكي، ولا يختلف في نوعه عن التنصُّت على المكالمات الهاتفية في ستينيات القرن العشرين وسبعينياته، أو التجسُّس الروتيني الذي قامت به وكالةُ الاستخبارات المركزية CIA ضد الحكومات المُعادِية والصديقة على السواء. ومن الغباوة تصوُّرُ عدم افتضاحِ تدخُّلٍ حكومي هائل من هذا النوع في عصر الشبكات، ومن الغباوة أيضًا تصوُّرُ أنه لن يُقابَلَ بدوره باستخدام الأدوات نفسها. في ديسمبر عام 2006، بدأ موقع إلكتروني يُسَمَّى ويكيليكس Wikileaks في نَشْر وثائق سرِّية [مُصَنَّفة] classified أونلاين، تتعلق معظمها بإدارة (أو سوء إدارة، فيما رأى مؤسِّسُ الموقع جوليان أسانج[1979] (Julian Assange الحروب في أفغانستان والعراق. ولأن الهدف الرئيسي من التسريبات الأولى كان إدارةَ بوش، لم تتردَّد الصحف الليبرالية كالجارديان Guardian في الترويج لموقع ويكيليكس بوصفه مصدرًا شرعيًا. فمِن بين «المُخْبِرين» الذين أمدُّوا ويكيليكس بالوثائق العميلةُ الخاصة برادلي مانِنْج Bradley Manning[1980] (المُلَقَّبة لاحقًا ب تشلْسي Chelsea) في الجيش الأمريكي. وفي يونيو عام 2013، حَدَثَ خَرْقٌ أكبر حين بدأ متعاقد تقني في وكالة الأمن القومي NSA، هو إدوارد سنودن[1981] Edward Snowden، بتسريب ذخيرة ضخمة من الوثائق، بما فيها تفاصيل برنامج بريزِم، لصحيفتيْ

جارديان وواشنطن بوست. وقد حاولت مكاتبُ الاتصالات الحكومية بالمملكة المتحدة[1982] (UK Government Communications Headquarters (GCHQ تدميرَ مُحرِّكات الأقراص الصلبة hard drives في مكاتب صحيفة الجارديان، فلم تَزِدْ محاولاتُهم الطينَ إلا بِلَّة.

لقد بدا أن ثمة تسريبات فاقت بكثير تسريبَ دانيل إلزبيرج Daniel Ellsberg لأوراق البنتاجون[1983] Pentagon Papers. شَمَتَ الليبراليون في افتضاح أمر وكالة الأمن القومي، ورفضوا المزاعم بأن الاستخبارات المستندة إلى برنامج بريزِم قد منعت هجمات إرهابية. ولكن الإحراج الحقيقي عانته الشركاتُ الشعبية - مثل ياهو وجوجل ومايكروسوفت، ناهيك عن فيسبوك - التي تعاونت مع «دولة الأمن القومي» المُخيفة، فضلاً عن أن العملية بأكملها جَرَتْ أحداثها واستمرت، رغم انتخاب باراك أوباما، العزيز على قلوب الليبراليين، رئيسًا. ولم تكتفِ وكالةُ الأمن القومي، في ظل رئاسة أوباما، بجَمْع بيانات وَصْفية لمكالمات هاتفية ل 120 مليون مشترك في فيرايزن، بل جمعت عبْر برنامج بريزِم محتوى البريد الإلكتروني والصوتي والدردشات النصية والمرئية لعدد غير معلوم من الأمريكيين أيضًا. وبين أبريل عام 2011 ومارس عام 2012 - وفقًا لبيانات وكالة الأمن القومي الداخلية التي سَرَّبَها سنودِن - وَقَعَ 2,776 خَرْقًا للقواعد التي تحكم مُرَاقَبَةَ المواطنين[1984].

كان كل شيء ملائمًا لمارك زوكربيرج كي يشكو من أنه «مضطربٌ ومُحْبَطٌ للغاية بسبب الأخبار المتكررة عن سلوك الحكومة الأمريكية»، بل صَرَّحَ معتدًّا بنفسه: «عندما يعمل مهندسونا بلا كَلَلٍ لتحسين الأمن، نتخيَّلُ أننا نحميك من المجرمين، وليس من حكومتنا»[1985]. وليس من الممكن أنه لم يكن عارفًا بما كان يجري.




<u>الشكل رقم: 42 - شريحة مُصَنَّفة [سرّية] نشرتها ويكيليكس تصف برنامج المراقبة بريزِم في وكالة الأمن القومي الأمريكية. لاحِظْ بنية المُخَطَّط الهرميَّة.</u>

لم يكن مفيدًا لإدارة أوباما تزامنُ تسريبات سنودن مع افتضاح فشل استخدامها المُخْزِي للتكنولوجيا في برنامج مُصَمَّم لفائدة المواطنين الأمريكيين. وكما كشفت انتخابات عام 2008، ظل السياسيون والناخبون أسرى مفردات ما بعد الحرب [العالمية الثانية] التي تَعهَّدَ بها سياسيون سابقون بتوفير سلع عامة إضافية، بل «توفير وظائف»، دون زيادة كبيرة في نفقات الحكومة من خلال الضرائب. فانخفضت شعبيةُ الرئيس أوباما بشكل أسرع، عندما عجزت الحكومة الفيدرالية عن الوفاء بهذا التعهُّد وانكشف عجزها بشكل أوضح.

وتُلَخِّصُ أوجهُ القصور في الموقع الإلكتروني الحكومي المخصص للرعاية الصحية www.HealthCar المشكلةَ الجوهريةَ من نواحٍ عديدة: في عصر الفانج [1986] FANG يتوقع المستهلكون وظائف أساسية من المواقع الإلكترونية. قيل إن تكلفة إنشاء موقع معطوب أكبر من إنشاء آي فون أصلي بضعف أو أربعة أضعاف. وتحدَّثَ مُقدِّم البرنامج التلفزيوني ذا ديلي شو The Daily Show، جون ستيوارت Jon Stewart، عن مئات الآلاف من المُستخدِمين المُحْبَطين حين تهَكَّمَ على وزيرة الصحة والخدمات البشرية كاثلين سيبليوس Kathleen Sebelius قائلاً:

«سأقوم بتحميل فيلم، وقُمْ أنت بالتسجيل في أوباما كير [قانون الرعاية الصحية الأمريكية]، ثم نرى مَن سينتهي أولاً» [1987].

هذه المصائب وَضَعَتْ شركات التكنولوجيا أمام خيار. هل ينبغي أن تنأى بنفسها عن هَرَميَّة واشنطن [1988]؟ هذا ما انتهجه الرئيس التنفيذي لشركة أبل، تيم كوك Tim Cook، عندما رفض الامتثال لطلب مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI وتنفيذ أمر

قضائي بفَتْحِ آي فون iPhone ينتمي إلى الإرهابييْن سيد رضوان فاروق وتاشفين مالك، اللذين قتلا أربعة عشر شخصًا في سان برناردينو San Bernardino في ديسمبر 2015.[1989]

النَّهْجُ البديل انتهجته شركةُ جوجل التي أكدت التزامها ب«تعزيز حرية التعبير على الإنترنت وحماية الخصوصية»[1990]، على حين تَقَرَّبَ موظَّفوها إلى السلطة التنفيذية أكثر من أي شركة تكنولوجية أخرى. زار موظَّفو شركة جوجل وموظَّفو الكيانات المرتبطة بها البيتَ الأبيض White House 427 مرة أثناء رئاسة أوباما. وقابل المسؤولون التنفيذيون الكبارُ في جوجل الرئيسَ 21 مرة على الأقل. وفي عام 2016 وحده، أنفقت الشركةُ 15.4 مليون دولار على جماعات الضغط[1991].




الشكل رقم: 43 - حكومة كبيرة لديها مشكلة صغيرة: انهيار موقع الرعاية الصحية الحكومي في عام 2013.

ثمة مشكلة أخرى في إستراتيجية وكالة الأمن القومي. من المحتمل أن برنامجها في المراقبة قد ساعد على مَنْع المزيد من هجمات القاعدة. فالأدلة التي وَفَّرها سنودن لا تكفي لاستنتاج أن برنامج بريزِم كان عديمَ الفائدة. ولكن الضرر الذي لحق بسُمْعة الولايات المتحدة - ولا سيما في نظر حلفائها - فاق بكل تأكيد أيةَ فوائد مهما كانت. ففي أعقاب تسريبات سنودن، خضعت الولايات المتحدة لضغوط أجنبية من أجل إنهاء إشراف وزارة التجارة [الأمريكية] على آيكان[1992] ICANN، التي صارت الآن تحت إشراف «مجموعة عالمية من أصحاب المصلحة المُتعدِّدين»[1993].

وعلى أية حال، تستطيع الشبكاتُ التكيُّفَ بأسرع من التسلسلات الهَرَميَّة. وكما توقَّعَ بعض المُحلِّلين، تأقلم الجهاديون مع إستراتيجية مكافحة الإرهاب الهَرَميَّة بتَحَوُّرِهم من شبكة القاعدة المغلقة نسبيًا إلى شيءٍ أفضلُ وَصْفٍ له هو ب« [سورم] swarm[1994]. ما لم يتوقعه أحدٌ في أول اندفاعة ل«الحرب العالمية على الإرهاب» أن أشد المعارضين لرؤية الحداثة الغربية [الجهاديين وأفراد القاعدة] تعلَّموا كيف يستخدمون تكنولوجيات [تقنيات] وادي السِّليكون للدَّفْع بقضيتهم إلى الأمام.

احتفلت إدارةُ أوباما بتصفية أسامة بن لادن في مايو 2011 بوصفه اختراقًا كبيرًا. وفي الواقع، كان ذلك مجردَ تأكيد لأيلولة القاعدة إلى الزوال. في هذا الوقت [بعد التصفية]، فقدت قيادةُ التنظيم روحَ المبادرة بالنسبة إلى توابع التنظيم في

العراق، فتحوَّلَتْ [التوابع] من الهجمات المباشرة على أهداف أمريكية إلى استهداف الشيعة العراقيين، وجعلت تأثيرَها في «توحُّشِها»[1995]. ولا ريب في أن الجيش الأمريكي قد ألحق أضرارًا جسيمة بشبكة الزرقاوي أثناء «اندفاعه القوي». ولكن إدارة أوباما أنْهَتْ وجودَ الجيش الأمريكي في العراق قبل استكمال ذلك العمل. ويُعَدُّ هذا القرارُ أولَ سلسلة التخبُّطات [الأمريكية] الفادحة. ثم دعمت إدارةُ أوباما حكومةَ رئيس الوزراء نوري المالكي[[1996]] التي يهيمن عليها الشيعة، حتى وهي تنفخ في نيران الغضب السني. ثم طرد الرئيسُ بلا تردد مَكْريستَل بسبب تعليقات طائشة أدلى بها مساعدُه، انتهى بها المطاف إلى صفحات مجلة رولينج ستون Rolling Stone. وحين سُئِلَ الرئيسُ أوباما عن مجموعة جديدة تُسَمَّى الدولة الإسلامية في العراق والشام Islamic State of Iraq and al - Sham (ISIS)، وَصَفَها بأنها نسخة إسكواش ناشئين من القاعدة. ثم في النهاية، برَفْضه التدخُّلَ الفعَّال حين انزلقت سوريا إلى حرب أهلية، خَلَقَ أوباما مزيدًا من الفراغ الذي أمكن لتنظيم الدولة الإسلامية أن يتمدد فيه[1997].

اختلف تنظيم الدولة الإسلامية ISIS اختلافًا جوهريًا عن القاعدة في أربعة جوانب. قامت أيديولوجيته على الزَّعْم بأن قائده، أبا بكر البغدادي، قد أعاد تأسيس الخلافة Caliphate في يوم 29 يونيو عام 2014. لغة إعلان البغدادي على الإنترنت تُرَجِّعُ، من بعض النواحي، صدى الدعوة إلى الجهاد التي أطلقها النظام العثماني في مرحلة باكرة من الحرب العالمية الأولى قبل مئة عام. يقول الإعلان: «لا يجوز لمَن يؤمن بالله أن ينام دون أن ينصر قائده بالسيف حتى يصبح الخليفةَ ويُسَمَّى أمير المؤمنين». وكانت هذه دعوةً إلى حَمْل السلاح، موجَّهةً إلى كل المسلمين:

فسارِعوا أيها المسلمون وتَجمَّعوا حول خليفتكم، حتى تعودوا إلى ما كنتم عليه لِعُهُودٍ، ملوك الأرض وفرسان الحرب. تعالوا إلى حيث تُكَرَّمون وتُبجَّلون، إلى العَيْش أسيادًا أعِزَّة. واعلموا أننا نقاتل على دينٍ وَعَدَ اللّهُ بنصره. نحن نقاتل من أجل أمَّةٍ مَنَحَها اللّهُ الشَّرَفَ والتبجيل والقيادة ووعدها ب... التمكين والقوة على الأرض. تعالوا أيها المسلمون إلى شرفكم، إلى نصركم. ووالله، إذا كفرتم بالديمقراطية والعَلْمانية والقومية وبكل نفايات الغرب وأفكاره، وسارعتم إلى دينكم وعقيدتكم، فوالله لتَمْلِكُنَّ الأرضَ، وسيَدِينُ لكم الشرقُ والغربُ. هذا وَعْدُ الله لكم...

وتالله، لا نجد لكم أيَّ عُذْرٍ شرعي لتبرير نكوصكم عن تأييد هذه الدولة... وإذا تخليتم عن الدولة أو شَنَنْتُمْ حرباً عليها فلن تضروها. لن تضرُّوا سوى أنفسكم...

فيا جنود الدولة الإسلامية، أمرنا الله (تعالى) بالجهاد ووعدنا... بالنصر..[1998].

ولكن المختلفَ في عام 2014، عدمُ وجود حلفاء كَفَرَة بوصفهم جزءًا من

إستراتيجية إقليمية محسوبة، لا يطولهم الجهاد.

هدفُ تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام، النهائي، تحقيقُ نهاية الزمان apo: فلم يكن طموحُ التنظيم نصرًا تقليديًا، بل تحقيق نبوءة إسلامية هي أرْمَجِدُّون في دابق[1999] Armageddon at Dabiq.

ثانيًا، طَبَّقَ تنظيمُ الدولة الإسلامية في العراق والشام ما كان يَعِظُ به بحَرْفية شرسة. وعلى حدِّ تعبير جرَيم وود Graeme Wood، شكَّلَتْ أيديولوجيةُ التنظيم ما اعْتُبِرَ «التزامًا صادقًا بإعادة الحضارة إلى بيئة القرن السابع الشرعية، وفي نهاية المطاف تَهْيئة نهاية الزمان». كَتَبَ وود في مارس عام 2015 قائلاً: الواقع «أن الدولةَ الإسلامية إسلاميةٌ. إسلاميةٌ جدًا... فلا أحد جَرَّبَ أقسى من تطبيق الشريعة الصارمة بالعنف. هذا ما كان يبدو عليه الأمر»؛ وعلى وجه التحديد الاسترقاق وبَتْر الأطراف وجَزّ الرؤوس [الذَّبْح]، والرَّجْم والصَّلْب[2000].

ثالثًا، كان تنظيمُ الدولة الإسلامية في العراق والشام شبكةً مفتوحة المصدر open - source - network، ولم يَكْتفِ بنَشْر أيديولوجيته بطريقة مُمَنْهَجة، بل كان يستعرض أيضًا أفظع أشكال العنف التحذيري[2001] exemplary violence عبْر عشرات الآلاف من حسابات تويتر المترابطة فيما بينها، والمرتبطة أيضًا ب فيسبوك ويوتيوب[2002].

ومن بعض النواحي، صارت عملياتُ التنظيم الإعلامية مصدرَ مرونته الكبرى، في مواجهة حملة متواصلة لاغتيال قائده[2003]. وأخيرًا، نُظِّمَ تنظيمُ الدولة الإسلامية بطريقة مختلفة تمامًا عن القاعدة. ففي الشرق الأوسط، طمح إلى أن يكون دولةً إقليمية حقيقية، تمحو حدودَ اتفاقية سايكس - بيكو Sykes - Picot القديمة، قبل قرن من الزمان[2004]. وعلى نطاق أوسع من البلاد ذات الأغلبية المسلمة، من شمال أفريقيا إلى جنوب آسيا، نشأتْ تنظيماتٌ فرعية مُنْتَسِبَة. ففي الغرب، سَعَى التنظيمُ إلى بناء شبكة مجاهدين جديدة أكثر مرونةً، أَغْرَتْ ما يقرب من 15 ألف شخص من الأشد حماسًا للقدوم إلى المَوْصِل والرِّقّة[2005]، بل تشجيع آخرين على شَنِّ هجمات عنيفة عشوائية في المدن الغربية. وتُلَخِّصُ دعوةُ الشيخ أبي محمد العدناني للمسلمين في البلاد الغربية أن يُمْسِكوا بكافرٍ و«يُهَشِّموا رأسه بحَجَرٍ» - تُلَخِّصُ الأسلوبَ البدائي للعملية على الأرض[2006].

ولكن التمثيل البياني لشبكة مؤيِّدي تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام، على الإنترنت [أونلاين]، تكشف عن قدر كبير من التطور في أثير [الإنترنت][2007]. إذ تُعيد مجموعةُ «مُجَاهِدي الميديا» تشكيلَ نفسها دومًا،

باستخدام حسابات متعددة، مثل حشد النحل المندفع أو سِرْب الطيور، لتفادي إغلاق الحسابات[2008].

ومن المدهش نوعًا ما، أن تحليل التَّمَرْكزية البَيْنية للعُقَدِ في شبكة تنظيم الدولة الإسلامية، يكشف الدورَ الرئيسي الذي تلعبه النساءُ في التنظيم[2009].

كان رَدُّ إدارةِ أوباما على تنظيم الدولة الإسلامية محاولةَ قَطْع رأسه deca، كما قَطَعَتْ رأسَ تنظيم القاعدة. ولم يطرأ على ذهن أحد احتمالُ أن الخَصْمَ الذي يواجهونه الآن هو شبكةٌ «بلا رأس» acephalous network أو بلا قيادة، بمعنى أنه ليس أسهل في القتل من الهيدرا hydra مُتعدِّدة الرؤوس في الميثولوجيا اليونانية القديمة[2010].

وفي الوقت نفسه، مضى الرئيسُ بأسلوبه في رَفْض أيديولوجيا تنظيم الدولة الإسلامية، بإلحاح متكرِّر على أنه «لا يتماشى مع الإسلام». ومقتنعًا بأن الاعتراف بحَرْفية قراءةِ مجموعةٍ للقرآن سيُضْفِي شرعيةً على «الإسلاموفوبيا»، أصدر أوباما تعليمات للمسؤولين بألا يشيروا إلى الإسلام إطلاقًا، وأن يُرَكِّزوا على «مكافحة التطرف العنيف». وبتردُّدٍ كبيرٍ، وافق على إصدار الأمر بشَنّ هجمات على معاقل تنظيم الدولة الإسلامية في أعقاب الضجة التي أثيرت بعد الإعدامات السادية لرهائن أمريكيين وبريطانيين في عام 2014[2011].

ونتيجة هذه الأخطاء، وَجَدَ العالَمُ نفسَه في قبضة وباء الإرهاب الإسلامي. فعلى مدى الأعوام الستة الماضية، كان عام 2014 هو الأسوأ من حيث الإرهاب، إذ عانت ثلاث وتسعون دولة من هجمات إرهابية نَتَجَ عنها ما يقرب من 33 ألف قتيل. العام الأسوأ الثاني هو عام 2015، إذ سقط فيه ما يزيد عن 29 ألف قتيل. في ذلك العام، كانت أربعُ مجموعات إسلامية راديكالية مسؤولةً عن ثلاثة أرباع جميع القتلى بسبب الإرهاب، وهي: الدولة الإسلامية، بوكو حرام، طالبان، القاعدة[2012].

وقد نَفَّذَ تنظيمُ الدولة الإسلامية في العراق والشام أكثرَ من مئة هَجْمة في شهر[2013]. ورغم أن البلاد ذات الأغلبية المسلمة تعاني من العنف الجهادي أكثر من غيرها، فقد تَعرَّضَ الغربُ للهجوم على نحو متزايد. شَنَّت التوابعُ الفرعية لتنظيم الدولة الإسلامية في البلاد الغربية أربعًا وستين هَجْمة في عام 2015، بما فيها مجازر باريس Paris (130 قتيل) [فرنسا]، وأورلاندو Orlando (49 قتيل) [بولاية فلوريدا][2014].

وفي أسبوع واحد، وأثناء كتابة هذا الفصل، شُنَّتْ هجماتٌ في أنتوِرْب Antwerp [في بلجيكا] ولندن وباريس. ولولا اليقظة المستمرة لأجهزة الأمن الغربية لكانت

أعداد القتلى أكثر مما في السنوات العشر الماضية. ففي عام 2014/2015، تزايدت الاعتقالاتُ المرتبطة بالإرهاب في المملكة المتحدة أكثر من أي سنة منذ عام 2000.[2015]

وبشكل إجمالي، وُجِدَتْ 135 حالة بريطانية مرتبطة بالإرهاب منذ عام 1998، نجمت عنها 264 إدانة، وقد تضاعف تقريبًا معدل جرائم الإرهاب منذ عام 2010.[2016] ورغم ذلك، لا يمكن لهذا الجهد المكثف أن يأمل في استباق كل جهادي.




<u>الشكل رقم: 44 - ستة وستون موقعًا «من أهم مواقع الجهاد ودعم الجهاد والمجاهدين على تويتر» كما أوصى المُدَوِّنُ الجهادي أحمد عبد الله عام 2013. كثافة شبكة الرسم البياني تقارب 0.2، وهو ما يعني أن حوالي 20% من كل الروابط التي يمكن أن توجد من الناحية النظرية موجودة بالفعل. كان هذا هو نظام تداول مقاطع الفيديو البشعة التي أصدرها تنظيم الدولة في عام 2014.</u>

المشكلة هي أن شبكة تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام تتحدَّى التكتيكات التقليدية في مكافحة الإرهاب. وخلافًا للاعتقاد الشائع، ليس ذلك بسبب اعتماد الشبكة على «الذئاب المنفردة» lone wolves، التي يصعب اكتشافها بطبيعة الحال. فهجمات باريس في نوفمبر عام 2015كانت [2017] عمليةً جيدة التخطيط، شارك فيها حوالي ثمانية عشر شخصًا بالإضافة إلى المُهاجِمين التسعة[2018] وعلى أية حال، لا يصبح أيُّ شخص جهاديًا من تلقاء نفسه، بمجرد تصفُّح الإنترنت.

الجهاد تسبقه دائمًا دعوةٌ؛ وهي عملية ذات طابع متطرف غير عنيف - ولكنها سامَّةٌ - تُحَوِّلُ المُجْرِمَ الصغير إلى مُتعصِّب شرس[2019]. وتتخذ شبكةُ الدعوةِ أشكالاً عديدة مختلفة. في المملكة المتحدة، لعب الدورَ الرئيسي تنظيمٌ عُرِفَ

باسم المهاجرون The Emigrants. ويوجد العديدُ من التنظيمات المرئية بشكل أقل - المراكز الإسلامية وأئمتها الغامضون - التي تنشر السُّمَّ في العقل بكل هِمَّة وحماس[2020]. وتبدو استطلاعاتُ مواقف المسلمين البريطانيين مُطَمْئِنةً للوهلة الأولى. فما يقرب من 90% ممن أَجْرَى عليهم الاستطلاعَ بوليسي إكستشانج Policy Exchange [2021] في عام 2016 أدانوا الإرهاب. وأقل من واحد من كل عشرة اعتبروا الإسلاموفوبيا «مشكلةً كبيرةً»، و7% فقط قالوا إنهم لا يشعرون بمشاعر انتماء قوية إلى المملكة المتحدة. وقال ما يُقَارِبُ نصفَ الذين أُجْرِي عليهم الاستطلاعُ إنهم لا يريدون الاندماج بشكل كامل مع غير المسلمين في كل مظاهر الحياة، وفَضَّلوا قدرًا من الانفصال في «التعليم المدرسي والقوانين».

وحين سُئِلوا عمَّا إذا كانوا سيُؤيِّدون تطبيقَ الشريعة الإسلامية أجاب 43% ب«نعم». وقال خُمْسَا العَيِّنة إنهم يُفضِّلون التعليمَ القائم على الفَصْل بين الجنسين. وأيَّدَت الأغلبيةُ الواضحة ممن شملهم الاستطلاعُ في جنوب البلاد جَعْلَ الحجاب أو النقاب جزءًا من الزيِّ المدرسي للبنات. وعَارَضَ واحدٌ من كل عشرة، من إجمالي العيِّنة، حَظْرَ تَلقِّي الدروس التي «تُرَوِّجُ وجهات نظر متطرفة، أو تُعَدُّ غيرَ متوافقة مع القيم البريطانية الأصيلة». الأكثر إثارةً للقلق من كل هذا، أن ما يقرب من ثلْث العيِّنة (31%) يعتقدون أن الحكومة الأمريكية مسؤولة عن هجمات 11/9. وأكثر الناس يلومون «اليهود» على هجمات 11/9 (7%)، في مقابل مَن قالوا بأنه عمل من أعمال القاعدة (4%)[2022].

لا يوجد أيُّ دارس جادٍّ للإسلام يؤمن بأن مثل هذه المواقف هي نتاج حرمان اجتماعي يمكن تغييره بتوفير وظائف أو توفير رعاية اجتماعية أجود[2023]. ولا يشارك أيُّ شخص في حرب إلكترونية (أونلاين) ضد تنظيم الدولة الإسلامية يتخيل أن الضغط على تويتر لإلغاء حسابات الموالين للتنظيم سيُحقق أكثر من حدودة[2024]. وقد انتقلت الثرثرة الجهادية بالفعل إلى مواقع: Telegram، وJustPaste.it، وVkontake، وشبكة التواصل الاجتماعي الروسية[2025].

وقد صَمَّمَتْ الحكومة البريطانية إستراتيجية لمكافحة الإرهاب - CONTEST - ل«مَنْع» الناس من أن يصبحوا إرهابيين أو داعمين للإرهاب. وفَرَضَ قانونُ الأمن ومكافحة الإرهاب Counter - Terrorism and Security Act لعام 2015 على الشرطة والسجون والسلطات المحلية والمدارس والجامعات أن «تمنع الناسَ من الانجراف إلى الإرهاب». كما تعهَّدت رئيسةُ الوزراء تيريزا ماي [2026] Theresa May

ب«مواجهة الأيديولوجيا المتطرفة وتحدِّيها بشكل منهجي»[2027]. وبسبب ذلك، ندَّدَ بها المجلسُ الإسلامي البريطاني Muslim Council of Britain وحزب التحرير وكيدج CAGE ولجنة حقوق الإنسان الإسلامية، بمساعدةٍ وتحفيزٍ من الرفاق في اتحاد المعلمين القومي[2028].

ولكن الحقيقة هي أن المَنْع لم يكن مُثمِرًا. فالمشكلة هي صعوبة إيقاف شبكة من هذا النوع عن الازدهار، شبكة يمكنها أن تعمل حتى من داخل السجون. أظهرت الأرقامُ التي نشرتها وزارة العدل في فبراير أن عدد المسلمين في السجون (المُدانين بكل أنواع الجرائم) تَضَاعَفَ إلى أكثر من 12,255 بين عاميْ 2004 و2014. واحدٌ من كل سبعة سجناء في إنجلترا وويلز مُسْلِمٌ[2029].

ولن تختفي هذه المشكلة، ومأزق فرنسا يوضح الأسباب. فما لا يقل عن 8% من السكان مسلمون، وهو ما يتوقع مركز بيو للأبحاث Pew Research Center أنه سيكون مصير بريطانيا بحلول عام 2030[2030]. تُقَدِّرُ السلطاتُ الفرنسية أن لديها 11,400 إسلامي راديكالي، وهو عدد أكبر من أن يوضَعَ تحت المراقبة. وطبقًا ل فرهاد خسروخافار Farhad Khosrokhavar، يُشَكِّلُ المسلمون ما يصل إلى 80% - 70 من النزلاء في السجون الواقعة على أطراف المدن الفرنسية، و40% من جميع المسجونين الفرنسيين الذين تتراوح أعمارهم من 18 إلى 24 عامًا[2031].

وطبقًا لبيانات رسمية، صَامَ 27% من نزلاء السجون الفرنسية شهرَ رمضان في 2013[2032]. ارتفاع الهجرة إلى أوربا من شمال أفريقيا والشرق الأوسط وجنوب آسيا - ولا سيما وصول أكثر من مليون طالب لجوء سياسي ومُهاجِر اقتصادي إلى ألمانيا في عام 2015 - يزيد الوضعَ تعقيدًا. ويُفضِّلُ أغلبية الناس من البلدان المَصْدرِ الشريعةَ الإسلامية: على سبيل المثال، 84% من الباكستانيين و91% من العراقيين. ومن بين هؤلاء المُؤيّدين للشريعة، يُؤيِّدُ ثلاثةُ أرباع الباكستانيين وأكثرُ من خُمْسَي العراقيين قَتْلَ المُرْتَدِّ[2033].

ومن الراجح أنه حتى لو دُحِرَ تنظيمُ الدولة الإسلامية في العراق وسوريا، فستظل شبكتُه في الفضاء الإلكتروني، وفي الغرب، على قَيْدِ الحياة: بيئة سامَّة تتكاثر فيها العناصر الثقافية [الميمات] لفكرة الدعوة، وتُحوِّلُ خاسرًا بعد خاسر إلى سَبَبٍ للاستشهاد القاتل.

لا يتصل معظمُ الناس بالإنترنت كي يشاركوا في احتجاجات خاطفة flash mobs أو مشاهدة قَطْع الرؤوس. الناس تتصل بالإنترنت للدردشة، والتسوق، ومشاركة الصور، ومشاركة النِّكات، ومشاهدة مقاطع فيديو قصيرة لأهداف كرة قدم أو قطط لطيفة أو الجنس. وتجعلنا كلُّ هذه المسارات العصبية التي أنتجها التطورُ مُعَرَّضين بشكل لا يُقاوَمُ لمثيرات متتالية تُوَلِّدُها التويتات والنَّكزات من مجموعة أصدقائنا الإلكترونيين. تُلبّي الشبكاتُ احتياجاتِنا المتعلقةَ بالمكوث وحيدًا وأمْداء انتباهنا القصير (140 حرفًا) ونَهَمَنا الذي لا يشبع، على ما يبدو، لأخبار المشاهير الذين جعلهم التلفزيون مشهورين. ذلكم ما يُعْطِي الديمقراطيةَ الحديثة نكهتها المميزة. فما الذي يستطيع أن يُرَكِّزَ انتباهَنا، ولو لفترة وجيزة، على سؤال مُرْهِق عن الطريقة التي نُحْكَمُ بها، أو مَن يَحْكُمنا؟ حين نتحدث عن «الشَّعْبوية» اليوم[2034]، لا نعني شيئًا أكثر من سياسة مسموعة ومفهومة بالنسبة إلى رجل الشارع؛ أو على وجه الدقة إلى رجل وامرأة يستلقيان على أريكتهما، ويتنقل انتباهُهما بشكل متقطع من شاشة التلفاز المسطحة إلى اللابتوب إلى الهاتف الذكي إلى التابْلِت ثم العودة إلى التلفزيون؛ أو رجل وامرأة في العمل يجلسان إلى كمبيوتر على سطح المكتب، ولكنهما يتبادلان رسائل شخصية مثيرة على هاتفهما الذكي، في الغالب.

صار العديد من الناس في البلاد المتقدمة يَتَّصلون بالإنترنت [أونلاين] في كل ساعة من ساعات استيقاظهم. يقول أكثرُ من خُمْسَيْ الأمريكيين إنهم يراجعون بريدَهم الإلكتروني والنصوص وحساباتهم على الميديا الاجتماعية باستمرار[2035].

في أربع سنوات حتى مايو 2016، قفزت نسبةُ انتشار الهواتف الذكية في المملكة المتحدة من 52% إلى 81% من عدد السكان البالغين. تسعة من كل عشر بريطانيين، تتراوح أعمارهم بين 18 عامًا و44 عامًا، يمتلكون هاتفًا ذكيًا. وهم يُراجِعون هذه الأجهزة بشكل قَسْري، سواء في البيت أو العمل أو فيما بينهما. ويستخدم أكثرُ من الثلْثين أجهزتَهم حتى أثناء تناول الطعام مع عائلاتهم. وعندما ينامون فقط يضعون الأجهزةَ جانبًا، لصعوبة اصطحابها معهم إلى النوم. وأكثرُ من نصف أصحاب الهواتف الذكية البريطانيين يُراجِعون هاتفَهم في غضون ثلاثين دقيقة قبل إطفاء الأنوار ليلاً، ورُبْعهم قبل خَمْس دقائق من إطفائها، وواحدٌ من كل عشرة قبل إطفاء الأنوار مباشرةً. النسبةُ نفسُها من الناس يلتقطون هاتفَهم بمجرد الاستيقاظ، والثلْث يُراجِعُ هاتفَه في غضون خَمْس دقائق بعد الاستيقاظ، والنصفُ خلال رُبْع ساعة بعد الاستيقاظ[2036].

وليس الأمريكيون بأقل تعلُّقًا. ففي عام 2009، الأمريكي العادي لديه اتصالٌ على

الهاتف المحمول 165 يومًا في السنة، واتصال بالرسائل النصية 125 يومًا في السنة، واتصال بالبريد الإلكتروني 72 يومًا في السنة، واتصال رسائل فورية 55 يومًا في السنة، ومواقع شبكية اجتماعية 39 يومًا في السنة[2037]. بحلول عام 2012، صار الأمريكيون يُراجِعون هواتفَهم المحمولة 150 مرة في اليوم. وبحلول عام 201، صار الأمريكيون يقضون في المتوسط خَمْسَ ساعات يوميًا على هواتفهم. لن تكتمل نظريةٌ عن تمرُّد شعبي يجتاح أوربا والولايات المتحدة في السنوات بعد عام 2008، إذا فشلت النظريةُ في إدراج هذا التحوُّل المُدْهِش في المجال العام، وهو تحوُّلٌ يجوز وَصْفُه بأنه اجتياح شامل للمجال الخاص.

ولا شك في أن القفزات الكبيرة في تأييد الشَّعْبويين من اليسار واليمين على السواء، تَرْجِعُ جزئيًا إلى ثورة انخفاض التوقُّعات الاقتصادية الموصوفة أعلاه[2038]. ولا شك في أن رَدَّ الفعل الثقافي العنيف ضد التعددية الثقافية multiculturalism جزءٌ لا يتجزأ من الثورة على اقتصادات العولمة[2039]. وكما يقول ريني دَيْرِستا Renee DiResta، يختلف الحشد الرقمي في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين اختلافًا جوهريًا عن الحشد في ثلاثينيات القرن العشرين الذي فَتَنَ إلياس كانيتي[2040] Elias Canetti واستثارَه:

1 - الحشد يريد أن ينمو دائمًا، وهو يستطيع ذلك دائمًا متحرِّرًا من القيود المادية.

- داخل هذا الحشد توجد مساواةٌ؛ ولكن توجد أيضًا مستوياتُ خداع وشَكٍّ ومناورة أعلى.

3 - يُولَعُ الحشدُ بالكثافة؛ والهُويَّات الرقمية يمكن تعبئتها على نحو أوثق.

4 - الحشد يحتاج وِجْهَةً؛ ونقرات التحفيز تجعل الوِجْهات يسيرةً كثيرةً[2041].

مَن يُعَلِّقون آمالَهم على «حكمة» الحشود، فيتخيَّلون بسذاجةٍ سياسةً حميدةً «مصدرُها الحَشْدُ»، يحتاجون إلى إيقاظ عنيف. فكما لاحظ باحثان في الشبكات:

«عند وجود سلطة اجتماعية، تعتمد أفعالُ الناس على بعضهم البعض، الأمر الذي يُمزِّق الفرضيةَ الأساسية خلف حكمة الحشود. عندما تنساق الحشود إلى ترابطها، تدين بنشر المعلومات للجموع الغفيرة، حتى لو كانت غير صحيحة»[2042].

حين نرى انتخابات الرئاسة الأمريكية لعام 2008 من منظور عام 2017 تبدو لنا وكأنها حدثت في ماضٍ بعيد. جون مَكين John McCain، المرشح الجمهوري المهزوم، كان لديه 4,492 متابع على تويتر و625 ألف صديق فيسبوك فقط. وقد اعترف بأنه لم يكن لديه حساب بريد إلكتروني ولم يَستعمل الإنترنت[2043].

لقد ضربته الأزمةُ المالية، ووقف حزبُه مكتوف اليدين أمام لَوْمه عليها، عبْر أولى

الحملات الإلكترونية على الشبكات الاجتماعية. أما باراك أوباما فكان لديه أربعة أضعاف أصدقاء مَكين على فيسبوك، وستة وعشرون ضِعْفًا من المتابعين على تويتر. والذي صَمَّمَ موقعَ أوباما على الإنترنت (www.barackobama.com) هو كريس هيوز Chris Hughes، الشريك المؤسِّس ل فيسبوك، وثبَتَ أنه مُحَرِّك حيوي للرسائل ولجَمْع التبرعات أيضًا. وقد ابتهجت النُّخَبُ الليبرالية على كلا الساحلين لهزيمة مَكين: عجوز مخضرم أبيض لديه سنوات خبرة في واشنطن هَزَمَه شابٌّ رابط الجأش، «مُنَظِّمٌ اجتماعيٌّ»[2044] community organizer، أمريكي من أصول أفريقية، وعضو مجلس الشيوخ لفترة واحدة. قِلَّةٌ فقط لاحظت سمتين مُقْلِقتين في التنافس [الرئاسي]. الأولى، ينشأ الاقتصارُ على المُمَاثِل
homophily
في الشبكات الاجتماعية عن الاستقطاب عندما تصبح السياسةُ موضوعَ المناقشة، فوجهات نظر الأفراد تكون أكثر تطرفًا في «غرفة الصدى»[2045]
echo chamber التي تحتوي على انحيازات مشتركة[2046]. السمة الثانية أن فيسبوك أداةٌ فعَّالة للغاية في التحريك السياسي، وبخاصة عندما يُستخدَمُ لاستهداف شبكات محلية غير رقمية، ولم يظهر هذا بشكل منهجي حتى انتخابات الكونجرس النِّصْفية في عام 2010[2047].

لم تفت هذه الآثار على دومينيك كامينجز Dominic Cummings مهندس النصر في حملة «التصويت بالمغادرة» Vote Leave في استفتاء عام 2016 على عضوية بريطانيا في الاتحاد الأوربي. لقد اهتم كامينجز منذ فترة طويلة - بشكل فريد تقريبًا في الطبقة السياسية البريطانية - بالتاريخ، الذي درسه في أوكسفورد، وبالتعقيد والشبكات أيضًا. وكان عليه - بميزانية محدودة (10 مليون جنيه إسترليني) فقط، وفترة محدودة (عشرة أشهر) - أن يحارب «صُنَّاعَ القرار على قمة التسلسل الهَرَمي المركزي» الذين عارضوا جميعهم تقريبًا «بريكست» [«انسحاب المملكة المتحدة من الاتحاد الأوربي»][2048] Brexit، بل عليه محاربة السياسيين غير المنضبطين في فريقه أيضًا.

تكدَّست الخلافات والمصاعب ضد المغادرة Leave. قال كامينجز إن التصويت بالمغادرة كان من بين مفاتيح انتصاره المحدودة: «ما يقرب من مليار إعلان رقمي استهدافي»، واستطلاع تجريبي، وبيانات أعدَّها فريقٌ علميٌّ من «فيزيائيين بارعين للغاية»، ووَعَدَ بمبلغ 350 مليون جنيه إسترليني لتحسين الخدمات الصحية مع الوعيد بزيادة عدد المهاجرين المسلمين إذا انضمت تركيا - إلماحًا إلى

شعارات كاذبة «أظهرت التجاربُ أنها الأكثر تأثيرًا» في إقناع الناس بالتصويت على المغادرة. بالنسبة إلى كامينجز، لم يكن البريكست نصرًا لليمين الشَّعْبوي بالمرة، لأن حملته جمعت عَمْدًا بين الجناح اليميني وعناصر من اليسار (الوعيد بمزيد من المهاجرين المسلمين لو انضمت تركيا إلى الاتحاد الأوربي، والوعد بمزيد من المال لصالح الخدمة الصحية الوطنية National Health Service لو غادرت بريطانيا الاتحاد). وكما أشار ديفيد جودهارت David Goodhart قبل سنوات، معارضة الهجرة ودعم دولة الرعاية موقفان متكاملان في حقيقة الأمر[2049]. وبالأحرى، فيما يقول كامينجز، البريكست انتصارٌ لـ«نظام صحي وفعَّال» لـ«القانون العام الإنجليزي الذي يسمح بتصحيح الأخطاء سريعًا ودائمًا» - انتصارٌ على «نُظُم غير صحية وغير فعَّالة مثل الاتحاد الأوربي ووزارات الوايتهول الحديثة... المركزية والهَرَميَّة للغاية»، العاجزة - لهذا - عن حل المشكلة بكفاءة[2050].

البريكست، باختصار، انتصارٌ للشبكة - وعلوم الشبكة network science - على هَرَميَّة المؤسسة البريطانية. فإذ بينما كان ديفيد كاميرون David Cameron وجورج أوزبورن George Osborne يقودان حملةً تقليدية، فركَّزوا كلَّ نيرانهم على المخاطر الاقتصادية المترتبة على مغادرة الاتحاد الأوربي، استخدم كامينجز ما أسماه «نظام تجميع مقاصد الناخبين»[[2051]] Voter Intention Collection System (VICS))، وفيسبوك، لتوصيل رسالة فيروسية viral message[[2052]] بأن الأمر يستحق تحمل تكلفة اقتصادية مقابل «استعادة السيطرة». وكما يذكر كامينجز:

«قمنا بعمل العديد من الإصدارات المختلفة للإعلانات، واختبارها، وإسقاط الأقل فعالية، وتقوية الأكثر فعالية، من خلال عملية تنقيح مستمر»[2053]. وقيل إن هذه التقنيات أتاحتها لكامينجز شركةُ تحليل بيانات يملكها الأمريكي روبرت مِرْسر Robert Mercer مدير صندوق استثماري [محفظة وقائية] hedge fund، هي شركة كمبريدج أنالِتيكا[2054] Cambredge Analytica.

كان البريكست بمثابة بروفة لانتخابات الرئاسة الأمريكية عام 2016. فالمؤسسة السياسية في الولايات المتحدة - كمثيلتها في بريطانيا - سلَّمت بأن الطرق القديمة ستكون كافية. ورغم إنفاق مئات الملايين من الدولارات على الدعاية التقليدية، كافحت حملات جيب بوش Jeb Bush وهيلاري كلينتن Hillary Clinton لإتاحة أي اتصال مع قطاعات كبيرة من مؤيِّدي حزبهما. في الأشهر الأولى من عام 2016، كان قطب العقارات الشهير بنيويورك واشتراكي ولاية فِرْمونت Vermont المشاكس مُتَّصِلاً [دونالد ترامب].

ومرة أخرى، الشبكات غير المُهَيْكَلة نسبيًا تحدَّت الهَرَميَّات ذات الطراز القديم: تحدَّت الأحزابَ المؤسَّسية التي قال عنها علماءُ السياسة إنها «تحسم» مثل هذه التنافسات، بل تحدَّت أيضًا السلالات الحاكمة - بوش وكلينتن - التي هيمنت سياسيًا منذ ثمانينيات القرن العشرين. بدأ دونالد ترامب Donald Trump وبِرْني ساندرز Bernie Sanders حملتهما بوصفهما من الخوارج[2055] outsiders، فعبَّرا عن عدائهما لهَرَميَّة واشنطن والأيديولوجيات التفسيرية - عَداء المهاجرين، الحماية، الاشتراكية - التي اعتُبِرَتْ منذ فترة طويلة وراء شحوب الديمقراطية الأمريكية. مع ساندرز الذي وُوجِه بنظام «المفوَّضين الكبار»[2056]
delegates - super المُصَمَّم لزيادة سيطرة النُّخْبة في الحزب الديمقراطي Party Democratic، أُعِدَّ المسرحُ لمواجهة شافية بين هيلاري كلينتن - مُجَسِّدة الهَرَميَّة السياسية المؤسسية - وترامب الذي عاملته المؤسَّسةُ «بطريقة حَرْفية ولكن ليس بجدية» وفق صياغة سلينا زيتو

Salena المُوْحِية[2057]. والسبب في أن عدد الناخبين الضروري قد حمله على محمل الجد، ولم يعامله بطريقة حَرْفية، أن شبكةَ ترامب حُرَّةُ النطاق، فقامت على أساس الجمع بين التنظيم الذاتي والتسويق الفيروسي [بمعنى الانتشاري السريع]، فتفوَّقت على حملة هيلاري كلينتن المُنَظَّمة هَرَميًّا وشديدة التعقيد. لم تكن حملة هيلاري كلينتون تفتقر إلى الشبكات. بل عانت من وجودها المفرط تقريبًا. كانت هناك «شبكة المانحين والأصدقاء والحلفاء والمستشارين» - «شبكة هائلة الحجم لجَمْع التبرعات» - يعود تاريخها إلى أيام مجد زوجها. وُجِدَتْ أيضًا [حملة الصياغة والتجهيز] «تجهيز هيلاري» Ready for Hillary، التي «بَنَت الحماسةَ على مستوى القواعد الشعبية... وزودت كلينتن بشبكة عبر الولايات»[2058].

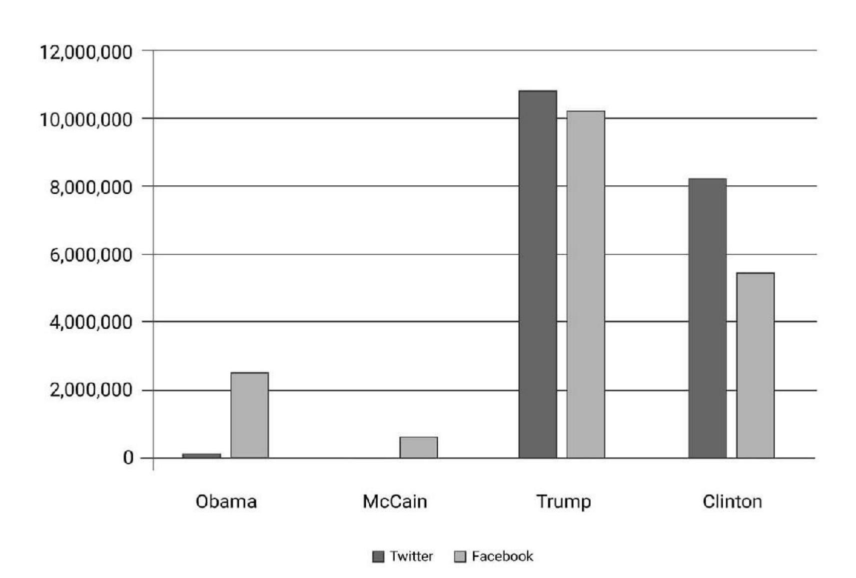
كانت هناك أيضًا «شبكة واسعة من المستشارين المتطوعين والمُشكِّكين المحترفين»، وخُبَراء في السياسة العامة بدرجات علمية من كلية الحقوق بجامعة ييل Yale Law School، هذه الشبكة حرَّكَتْ بقوةٍ النقاطَ ذات القيمة الانتخابية الدنيا[2059]. لكن مدير حملة هيلاري كلينتن، روبي موك Robby Mook، أوقف [حملة] «تجهيز هيلاري»، واستبعد مديري مقرَّاتها المحلية. ومع إرسال النُّشَطاء السياسيين الكبار لسدِّ الثغرات في الولايات المُلَقَّبة ب«العوالي» ubers، تضَخَّمَ تأثير الحملة الإجمالي[2060]. الغائبُ عن كل هذا التعقيد حقيقةٌ بسيطةٌ، ألا وهي أن المرشَّحةَ كانت تتصل بناخبيها الرئيسيين بفعالية

أقل كثيرًا من منافسها الأخطر [ترامب].

الدور الحاسم الذي لعبته الميديا الاجتماعية [على الإنترنت] في انتخابات عام ٢، بدا واضحًا، حتى لو ظل التلفزيون أهمَّ بالنسبة إلى الناخب العادي[2061]. ما يقرب من نصف الأمريكيين استخدموا فيسبوك وغيره من مواقع الميديا الاجتماعية لمتابعة أخبار عن الموضوع، وكان الاستخدام مرتفعًا بوجه خاص من الناخبين تحت سن الخمسين[2062]. وحوالي ثلْث مُستخدِمي الميديا الاجتماعية عَلَّقوا أو ناقشوا أو نشروا [بوستات] حول موضوع السياسة، رغم وجود رأي واسع الانتشار يقول بأن مناقشات الميديا الاجتماعية كانت أقل تحضُّرًا من مثيلاتها في أماكن أخرى[2063]. ومع ذلك، كانت النقطة الحاسمة في المرحلة النهائية من الانتخابات (بعد مؤتمرات الحزب) أن مرشَّحًا واحدًا لديه حضور على الميديا الاجتماعية أكبر من المرشَّح الآخر. ترامب لديه 32% من المتابعين على تويتر أزيد من هيلاري كلينتون، و87% من المؤيِّدين على فيسبوك أزيد منها[2064]. قبل أيام قليلة من الانتخابات، كان لدى ترامب 12 مليون «لايك» على فيسبوك، بفارق 4 مليون عن هيلاري كلينتون[2065].

لقد تفوق ترامب أيضًا على هيلاري كلينتون بقياس الاهتمام على فيسبوك، وقد فعل ذلك في كل ولاية على حدة. (الناس في ولاية مِسيسيبي Mississippi اهتموا بترامب أكثر من هيلاري كلينتون بفارق اثني عشر ضِعْفًا، بل حتى في نيويورك وُجِدَ أنه أكثرُ إثارةً للاهتمام منها بثلاثة أضعاف). الولايات المُتأرجِحة، التي ستحسم، في وسط غرب الولايات المتحدة [الغرب الأوسط الأمريكي] Midwest أشارت جميعُها إلى مقاصدها بوضوح عبر فيسبوك. وأنبأت بياناتُ تويتر بقصة مماثلة. من يوم 11 إلى يوم 31 مايو عام 2016، منشورات [بوستات] posts ترامب على تويتر أُعِيدَ نَشْرُها retweet [ريتويت] 6 آلاف مرة في المتوسط، أما تغريدات [تويتات] tweets هيلاري كلينتن فأُعِيدَ نَشْرُها 1,500 مرة فقط[2066].

نجحت حملة ترامب في استخدام يوتيوب بطريقة فعَّالة أيضًا؛ وخير مثال على ذلك حملة الهجوم الدعائية النهائية الموجَّهة ضد النُّخْبة العالمية: كلينتون، سُورَس، جولدمان ساكس[2067]. وفي المقام الأول، استفادت حملة ترامب، كحملة «التصويت بالمغادرة» البريطانية، استفادةً كاملة من طاقة فيسبوك الدعائية التجريبية، بإجراء عشرات الآلاف من المُتغيِّرات لتحديد أفضلها تأثيرًا في الناخبين المستهدفين[2068].




هنا موضع الشكل رقم: 45 - متابعو الميديا الاجتماعية من المرشحين للرئاسة في انتخابين رئاسيين، 2008 و2016.

وهاكُمُ الحالة الجارية المُفْعَمة بالسخرية: منذ المرحلة الأولى [في الانتخابات] انحاز وادي السِّليكون إلى هيلاري كلينتن. فمَنَحَ موظَّفو جوجل حملةَ هيلاري 1.3 مليون دولار، مقارنةً ب 26 ألف دولار فقط لحملة ترامب. وزَوَّدَ إريك شميت Eric Schmidt بقاعدته التحضيرية حملةَ هيلاري كلينتن ببيانات الدعم[2069].

أما مارك زوكربيرج فواجه ثورةً داخلية حين نَشَرَ ترامبُ بوستَ post دعوته إلى «إنهاء شامل وكلي للمسلمين داخل الولايات المتحدة» على فيسبوك، وزَعَمَ موقعُ جِزمودو Gizmodo الإلكتروني أن فيسبوك يتلاعب بالموضوعات الشائعة للحدِّ من شُهْرة ترامب[2070]. زوكربيرج نفسُه لم يُخْفِ ازدراءَه الشخصي لآراء ترامب[2071].

ولكن الشبكات التي بذل زوكربيرج وشميت جهودًا كبيرة لبنائها كي تُسْتخدَمَ في ترويج أفكار الرجلين معًا وشركائهما في العمل، وَجَداها مثيرةً للاشمئزاز، فضلاً عن أنها أعانت حملةَ ترامب في جَمْع التبرُّعات[2072]. وحتى لو تمكَّنَ جوجل وفيسبوك، بطريقة ما، من حظر [مَنْع] ترامب، فسيُحوِّلان مرورًا أزيد إلى شبكات أخرى، مثل منصات الرسائل المجهولة في مواقع فورشان 4Chan وإيتتشان 8Chan، مسقط رأس حركة «اليمين البديل»[2073] alt - right movement.

مُتصيِّدو الإنترنت trolls من اليمين البديل أمثال مات برينارد Matt Braynard، وتشارلز جونسن Charles Johnson، ومحرِّر شبكة بريتبارت[2074] Breitbart الإخبارية على الإنترنت مَيْلو يانوبولوس Milo Yiannopoulos

المولود في بريطانيا، تفاخروا لاحقًا بأنهم وشبكتَهم دفعوا بدونالد ترامب إلى المنصب من خلال عناصر
«شِيتْبوستنج»[[2075]]
shitposting تتنقل بسهولة مثل: ضفدع كرتوني، وPepe insult cuck (اختصارًا ل cuckold)[2076].

ولا شك في وجود تنسيق وثيق بين حملة ترامب وشبكة اليمين البديل: فريق في بُرْج ترامب Trump Tower استخدم ذادونالد سوبريديت[[2077]] TheDonald subreddit
بوصفه قناةً بين فورشان والويب الرئيسي. من خلال هذه القنوات شُوِّهَتْ سُمْعةُ هيلاري كلينتن فوُصِفَتْ بأنها «المُرَشَّحة الأكثر فسادًا على الإطلاق»، واتُّهِمَ مديرُ حملتها بالتورط في حلقة استغلال جنسي للأطفال - غير موجودة - تتخذ من مطعم بيتزا واشنطن مقرًّا لها[2078].

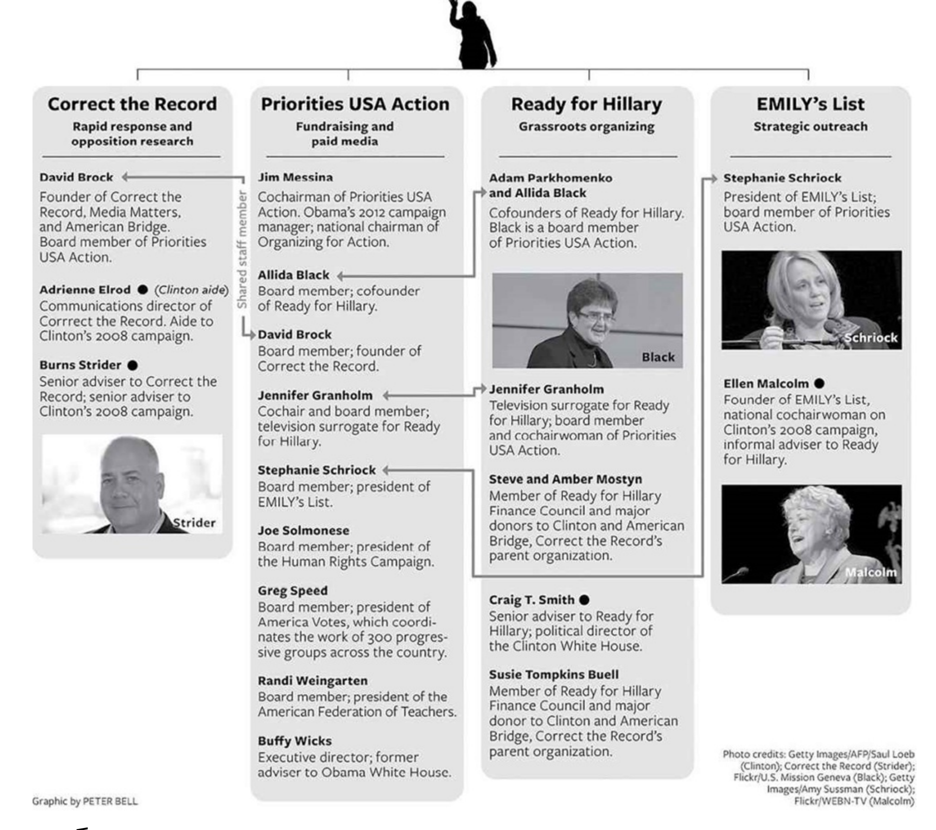
ولا يزال يوجد جدلٌ ساخن حول الدور الكبير الذي لعبته شركة كمبريدج أنالِتيكا Cambridge Analytica في انتصار ترامب[2079]. من المحتمل أن تنميطَها «السيكولوجي» للناخبين الأفراد أقلُّ أهميةً مما عَنَاه ضمنًا رئيسُها التنفيذي ألكسندر نيكس Alexander Nix[2080]. ولكن ما ليس محل خلاف أنَّ تعاونَ حملة ترامب مع اليمين البديل جلب معاداةَ السامية anti - Semitism مرة أخرى إلى السياسة الأمريكية بطريقة لم تشهدها منذ ثلاثينيات القرن العشرين[2081]. ومع ذلك، لم يكن هذا هو السبب في فوز ترامب.

لعل الجانب الأكثر إيلامًا في انتخابات عام 2016 بالنسبة إلى سادة وادي السِّليكون هو الطريقة التي اسْتُخْدِمَتْ بها شبكاتُهم لنشر قصص غير حقيقية:

«الأخبار المزيفة» التي اشتكى منها مرارًا ترامب، حتى وهو ينشر أكاذيب لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى. في سبتمبر، نقل فيسبوك قصةً زائفة عن أن ترامب تلقَّى تأييدًا من البابا[2082]. وفي نوفمبر، أعطى جوجل دون قصد أعلى موضع لزَعْمٍ كاذبٍ بأن ترامب فاز في التصويت الشعبي[2083].

وهذا أيضًا ساعد ترامب. ومن القصص الإخبارية الزائفة، المشهورة، التي ظهرت في الأشهر الثلاثة قبل الانتخابات، قصصُ عَداء ضد ترامب تمت مشاركتها على فيسبوك 8 مليون مرة؛ وقصص عَداء ضد هيلاري كلينتن تمت مشاركتها 30 مليون مرة[2084]. وما يقرب من رُبْع الروابط المنشورة على تويتر في عيِّنة من 140 ألف مُستخدِم في ولاية ميشيجان Michigan، أثناء الأيام العشرة السابقة على يوم

11 نوفمبر، كانت روابط لقصص أخبار زائفة[2085].




الشكل رقم: 46 - حملة هيلاري كلينتون عام 2016: بنية هَرَميَّة فاشلة.

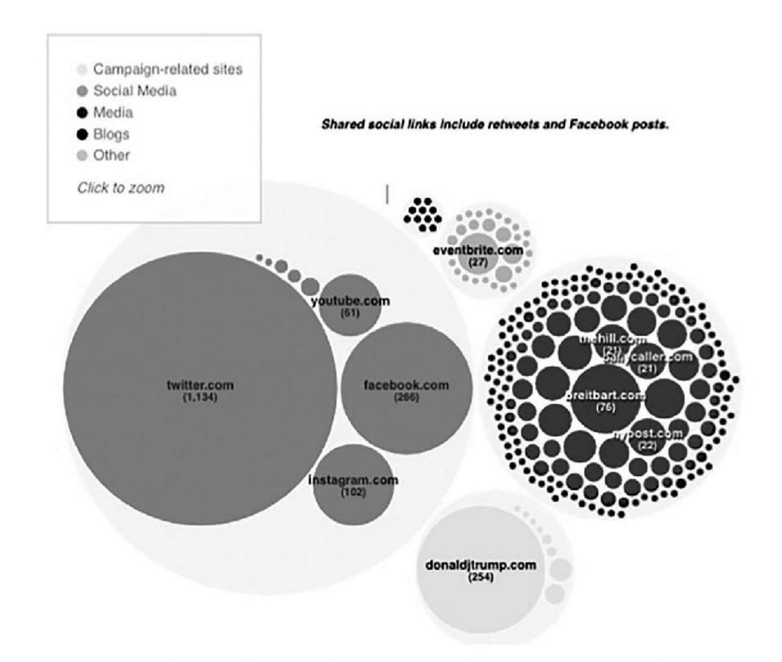
انتخاباتُ عام 2016 أحدُ الانتخابات الأندر في التاريخ الأمريكي؛ أندر من نتيجة استفتاء البريكست أيضًا. لو أن أقل من 39 ألف ناخب في ثلاث ولايات مُتأرجِحة (ميشيجان، بنسلفانيا Pennsylvania، ويسكونسن Wisconsin) أدلوا بأصواتهم لهيلاري كلينتون بدلاً من ترامب لفازت هيلاري في المَجْمع الانتخابي Electoral College وكذلك بالتصويت الشعبي. وسيتجادل المؤرِّخون بلا نهاية حول أي عددٍ لانهائي من المُتغيِّرات هو العدد الحاسم، كما لو أن كل الأشياء الأخرى كانت ستظل متساويةً إذا تغيَّر مُتَغَيِّرٌ واحد فقط.

ورغم ذلك، ثمة حقيقة قهرية، ألا وهي أنه دون استغلال الشبكات الاجتماعية عبر المنصَّات الإلكترونية، لم يكن دونالد ترامب يستطيع أن يكون رئيس الولايات المتحدة. ففي حملةٍ انتخابية، ما قبل الإنترنت، كان ترامب سيناضل دون شك لمنافسة هيلاري كلينتن، لأنه يفتقر إلى موارد تمويل حربِ استنزافٍ قديمة الطراز في الدعاية التلفزيونية. وربما يُقال إن الشبكات الاجتماعية أتاحت له حملةً أكفأ بكثير، وفوضويةً رغم تنظيمه الظاهر لها، ولكن هذا القول يتغاضى عن النقطة الحاسمة. تُبيِّنُ خريطةُ الولايات المتحدة الانتخابية أن ترامب كسب «ترامبلاند» Trur - فالمقاطعات التي صَوَّتَتْ له تصل إلى 85% من أراضي الولايات المتحدة - أما هيلاري كلينتن ففازت بما يمكن أن يُسَمَّى أرخبيل هيلاري Hillary Archipelago.

فقد تركّزَ تأييدها بدرجة كبيرة في المناطق الحَضَرية الكبرى [الميتروبوليتانية] على الساحلين، في حين انتشر تأييد ترامب عبر قلب المدن والبلدات والمجتمعات الريفية. وهذا يشير إلى مفارقة:

هيلاري كلينتون كان ينبغي أن يكون لها أفضلية في انتخابات شَبَكيَّة، ففيها تجد مؤيِّديها الأكثر تركيزًا وكثافةً والأصغر سنًا. وقد وُجِدَتْ مفارقةٌ مماثلةٌ في حالة استفتاء البريكست: تَحَقَّقَ النصرُ لحملة مُناهَضة الاتحاد الأوربي من خلال الناخبين الأكبر سنًا، المتركِّزين غالبًا في «المقاطعات» الويلزية والإنجليزية، وليس في المدن الكبرى. إذا كانت الشبكات الاجتماعية مفتاحًا رئيسيًا إلى السياسة الشَّعْبوية، فلماذا كانت المجموعاتُ ذات الاحتمال الأقل تواجدًا على فيسبوك - كسُكَّان الريف الأكبر سنًا - احتمالَ تصويتها أكبر لشَعْبوي؟[2086] .

هناك تفسير. لا شك في أن الميديا الاجتماعية قد استخدمها كامينجز ونظيره في حملة ترامب، ستيفن بانون Stephen K. Bannon، بكفاءة وفعالية أكبر من خصومهما. ولكن الحملات الشَّعْبوية لم تكن لتنجح إذا لم تكن الميمات التي نشرتها قد انتشرت أبعد في منتديات غير إلكترونية حيث يلتقي الناس العاديون، وحيث الصداقات الحقيقية بدلاً من الزائفة (كالتي على فيسبوك): الحانات والبارات. وهذا بدوره لم يكن ليحدث إذا لم يتردد صدى هذه الميمات.




الشكل رقم: 47 - شبكة الميديا الإلكترونية لدى ترامب، 2016.

في مكتبة بابل Library of Babel التي هي الإنترنت Internet، الكثيرُ مما يقرأه المرء لا يمكنه الوثوق به. وهذا هو السبب في أن أعمق الشبكات الاجتماعية هي الشبكات المحلية والاجتماعية النزعة [بمعنى مخالطة الناس في الحياة الواقعية]. لذا، لم تُحْسَم التنافساتُ السياسية في عام 2016، في مكتبة بابل، وإنما في النُّزُل الناطق بالإنجليزية English - Speaking Hostelry. الإنترنت اقْتَرَحَ؛ والحانات حَسَمَتْ. لكن ما الذي جاءوا به؟

# IX

# القسم التاسع

يُصَوِّرُ فريتس لانج[2087] Fritz Lang في فيلمه السينمائي الكلاسيكي الصامت عام 1927، «ميتروبوليس»[2088] Metropolis، سقوطَ نظام هَرَميّ على أيدي شبكة متمرّدين. ميتروبوليس هي مدينة ناطحاتِ سحابٍ شاهقة كالأبراج. وعلى القمة في أعلى هذه الناطحات، تعيش نُخْبَةٌ ثرية بقيادة الأوتوقراطي [المستبد] جو فريدرسن Joh Fredersen في شقق بنتهاوس[2089] penthouse ضخمة. أما في الأسفل فتكدح طبقةُ عُمَّال [بروليتاريا] proletariat في مصانع تحت الأرض.

فريدرسن القائد المستبد لديه ابنٌ منغمس في الملذات، شَاهَدَ الابنُ ذات يوم حادثةً في أحد المصانع، فانتبه إلى بؤس حياة طبقة العُمَّال وما تعانيه من مخاطر.

فكانت النتيجةُ ثورةً عنيفةً ألحقت بطبقة العُمَّال كارثةً غير مقصودة: فعندما حَطَّمَ العُمَّالُ مولِّداتِ الطاقة تعطَّلَتْ مضخات المياه، وغمرت أماكنَ معيشتهم.

ولعلنا نتذكر بشكل جيد الروبوت الأنثوي، شبيه البطلة ماريا Maria، في فيلم «ميتروبوليس». وقال لانج إن زيارته الأولى إلى نيويورك هي التي ألهمته عمل هذا الفيلم. إذ رأى أن ناطحات السحاب في مانهاتن Manhattan تعبيرٌ معماري كامل عن مجتمع غير متساوٍ [ظالم] بشكل مُزْمِن. معاصرو لانج، ولا سيما قُطْب الميديا اليميني ألفريد هيوجنبرج Alfred Hugenberg، اكتشفوا في [الفيلم] تيمةً شيوعية ضمنية (رغم أن زوجة لانج، التي شاركت في كتابة سيناريو الفيلم، كانت قوميةً ألمانية راديكالية، وانضمَّتْ فيما بعد إلى الحزب النازي Nazi Party). وأما اليوم فعند مشاهدة فيلم «ميتروبوليس»، نجده يتجاوز بوضوح أيديولوجيات أواسط القرن العشرين السياسية. فبتلميحات الفيلم الدينية المتعددة، التي تبلغ ذروتها في الخلاص، يُعَدُّ الفيلم حداثةً ذات طابع ميثولوجي.

السؤالُ الواضح الذي يطرحه الفيلم وثيقُ الصلة بالحاضر الراهن كما كان وثيقًا بزمنه: كيف يمكن لمجتمع متحضِّر ومتقدِّم تكنولوجيًا أن يتجنَّبَ كارثةً حين لا تُحقِّقُ عواقبُ هذا المجتمع المساواةَ؟

ومع ذلك، يوجد سؤال أعمق تطرحه تيمة فيلم لانج الضمنية: مَن يفوز في النهاية، الهَرَميَّة أم الشبكة؟ لا يأتي التهديد الأكبر للنظام الاجتماعي الهَرَمي،

في فيلم ميتروبوليس، من فيضان المياه الذي أغرق أماكن العُمَّال تحت الأرض، بل يأتي من التآمر السرِّي بين العُمَّال. فلا شيء يثير حنق فريدرسن وغضبه أكثر من معرفته بأن ثمة مؤامرة دُبِّرَتْ في سراديب المدينة التحتية دون علمه.

بمصطلحات اليوم، ليس التسلسلُ الهَرَمي مدينةً واحدةً، بل الدولة ذاتها، دولة فائقة مُهَيْكَلةٌ رأسيًا تطوَّرَتْ عن جمهوريات ومَلَكيَّات أوربا الحديثة في بواكيرها.

ومع أن الولايات المتحدة ليست الأمةَ الأكبر عددًا من حيث السكان في العالم، فهي بكل تأكيد الدولة الأقوى في العالم، مهما كانت أهواء نظامها السياسي. وأقرب منافس لها، جمهورية الصين الشعبية People's Republic of China، التي تُعَدُّ نوعًا من الدولة مختلفًا بشكل عميق، فإذ بينما يوجد في الولايات المتحدة حزبان رئيسيان، يوجد في جمهورية الصين الشعبية حزب واحد، وواحد فقط. وتتأسَّسُ حكومةُ الولايات المتحدة على الفصل بين السلطات، ولا سيما استقلال القضاء. أما جمهورية الصين الشعبية فتُخْضِعُ كلَّ المؤسسات الأخرى، بما فيها المحاكم، لأوامر الحزب الشيوعي Communist Party. ومع ذلك، الدولتان كلتاهما جمهوريتان، ذواتا هياكل إدارةٍ رأسية متشابهة تقريبًا، ولا تختلفان تمامًا من حيث تركيزات السلطة في أيدي الحكومة المركزية الوثيقة الصلة بسلطات الولاية والسلطات المحلية. ومن الناحية الاقتصادية، يتقارب النظامان دون شك، فالصين تسعى، أكثر من أي وقت مضى، إلى تبنِّي آليات السوق، بينما يزيد الحُكْمُ الفيدرالي الأمريكي - في السنوات الأخيرة - من السلطة القانونية والتنظيمية للهيئات العامة على المنتجين والمستهلكين زيادةً مُطَّرِدة. والأمر الذي يُزْعِجُ التحرُّريين في اليسار واليمين على السواء، أن الحكومة الأمريكية تمارس سيطرةً ومراقبةً على مواطنيها بطرق أقرب وظيفيًا إلى معاصرتها الصين منها إلى أمريكا زمن الآباء المؤسِّسين[2090] Founding Fathers. في هذه النواحي، تشايمريكا [كايمريكا][2091] Chimerica ليست تشايميرا [كايميرا][2092] chimera.
تبدو هذه الاقتصادات كالأضداد فأحدهما اقتصادُ تصديرٍ والآخر اقتصادُ استيرادٍ، أحدهما اقتصادُ ادِّخارٍ والآخر اقتصادُ استهلاكٍ[2093].

ولكن منذ الأزمة المالية نشأ تقاربٌ معيَّن. فاليوم، فقاعة العقارات[2094] real estate bubble، والرَّفْع [المالي] المفرط[2095] excessive leverage، وبنوك الظل[2096] shadow banks – وتكنولوجيا «وحيد القرن»[2097] unicorns technology - نجدها في الصين China كما نجدها في أمريكا America. في الجيل الأول من

تشايمريكا 1.0 Chimerica، الأضدادُ تتجاذب. وفي الجيل الثاني 2.0 Chimerica
الزوجان الغريبان يصبحان متشابهين على نحو غير عادي، كما يحدث عادةً في الزواج.

إلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية وجمهورية الصين الشعبية، تأتي من حيث هَرَميَّة الدول القومية الجمهوريةُ الفرنسية French Republic والاتحادُ الروسي The Russian Federation ومملكةُ بريطانيا العظمى وأيرلندا الشمالية المتحدة [المملكة المتحدة] United Kingdom
.of Great Britain and Northern Ireland
وهم الأعضاء الخمسة الدائمون في مجلس الأمن بالأمم المتحدة United Nations Security Council، ومن ثمَّ فَهُم فوق كل الأعضاء ال 188 الآخرين في الأمم المتحدة. والأمم المتحدة هي المؤسَّسة التي تتساوى فيها كلُّ الدول، ولكن بعضَها أكثرُ مساواةً من الأخريات. ومن الواضح، مع ذلك، عدم كفاية هذا الوصف لنظام العالَم الراهن. فمن حيث القدرة العسكرية، توجد نُخْبةٌ أخرى من القوى النووية، أكبر قليلاً، تنتمي إليها - بالإضافة إلى «الخمسة الدائمين» P5 - الهندُ وإسرائيل وباكستان وكوريا الشمالية. وتطمح إيران إلى الانضمام إلى هذه النُّخْبة. أما من حيث القوة الاقتصادية، فيختلف التسلسلُ الهَرَميُّ مرة أخرى:

مجموعة الدول السبع Group of Seven (كندا، فرنسا، ألمانيا، إيطاليا، اليابان، المملكة المتحدة، الولايات المتحدة) كانت تُعَدُّ، فيما مضى، الاقتصادات المهيمنة في العالم، ولكنها اليوم تُعَدُّ ناديًا أقلَّ هيمنةً نسبيًا نتيجة صعود ال«بريكس» BRICS (البرازيل B، روسيا R، الهند I، الصين C، جنوب أفريقيا S)، وهي ما يُسَمَّى أكبر «الأسواق الناشئة». وتَشكَّلتْ مجموعةُ العشرين Group of 20 في عام 1999 لجَمْع معظم اقتصادات العالَم الكبيرة معًا، ولكن مع تمثيل زائد للأوربيين (فالاتحاد الأوربي عضو في حد ذاته، بالإضافة إلى الأعضاء الأربعة الأكبر فيه).

ولكن التفكير في العالَم، وفق هذه الحدود فقط، يعني تجاهلَ تحوُّله العميق الذي تَسبَّبَ فيه تكاثرُ الشبكات غير الرسمية على مدى الأربعين سنة الماضية.

فالصورة - التعقيد والترابط الاقتصادي المستند إلى رَسْم بياني شبكي - تُحدِّدُ بدقة التطوُّرَ المعقد نسبيًا لجميع اقتصادات العالم من حيث التقدم التكنولوجي، بالإضافة إلى الاتصال عبْر التجارة والاستثمار العابر للحدود. ويعرض هذا الرسم البياني بكل وضوح معمارًا هَرَميًّا بسبب توزيع الموارد والقدرات الاقتصادية في العالم وَفْقَ قانون القوة[2098] power law
والتفاوت الكبير في الانفتاح الاقتصادي بين الدول. ومع ذلك، سيتضح أيضًا أنها

شبكةٌ معظمُ عُقدِها مُتَّصِلةٌ ببقية العالَم عبْر أكثر من حافَّة أو حافَّتيْن[2099].

السؤال الرئيسي هو: إلى أي مدى تطرح شبكة التعقيد الاقتصادي هذه تهديدًا لنظام الدول القومية العالمي الهَرَمي، مقارنةً بالتهديد الذي طرحته مؤخرًا شبكات التعقيد السياسي على التسلسلات الهَرَميَّة السياسية المحلية المؤسَّسية، وعلى وجه التحديد عام 2011 في الشرق الأوسط، وعام 2014 في أوكرانيا، وعام 2015 في البرازيل، وعام 2016 في بريطانيا وأمريكا؟ ولْنَصُغ السؤال بطريقة أبسط: هل يمكن لعالَم شَبَكي أن يحوز نظامًا؟ يجيب البعضُ كما رأينا بـ«نعم»[2100]. ولكني، على ضوء التجربة التاريخية، أشُكُّ في ذلك غاية الشك.

طبقًا للمأثور، سُئِلَ المهاتما غاندي[2101] Mahatma Gandhi مرةً من أحد الصحفيين عمَّا يظنه بالحضارة الغربية. فأجاب إنه يعتقد أنها مشروع صالح. ومن الممكن قَوْل الإجابة نفسها عن النظام العالمي
world order.
يقول هنري كيسنجر في كتابه الذي يحمل هذا العنوان [«النظام العالمي»]، إن العالم يعيش حالةً محفوفة بالمخاطر، على وشك فوضى دولية. وثمة أربعة تصوُّرات متنافسة للنظام العالمي: تصور أوربي، تصور إسلامي، تصور صيني، تصور أمريكي؛ وكل تصوُّر منها في مرحلة تغيير كامل[2102] metamorphosis مختلفة عن الآخر، إن لم يكن اضمحلالاً وانحلالاً
decay.
ومن ثم، لا توجد شرعية حقيقية لأي من هذه التصورات. ومن خصائص هذا اللانظام العالمي الجديد، الناشئة، تشكيلُ كتل إقليمية، وربما يتصاعد خطرُ الاحتكاك بينها إلى نوع من الصراع واسع النطاق، مقارنة بأصوله وتدميريته الاحتمالية في الحرب العالمية الأولى
First World War. ويتساءل كيسنجر:

«هل يتحرك العالم نحو تكتلات إقليمية تقوم بدور الدول وَفْقَ النظام الويستفاليWestphalian[2103]
system؟
وإذا كان الأمر كذلك، فهل سيأتي التوازن بعدئذٍ، أم سيؤدّي ذلك إلى اختزال عدد اللاعبين الرئيسيين في قِلَّة قليلة تغدو صلابتُها حتميةً وتُعيد مخاطرَ أوائلِ القرن العشرين، عبْر تكتلات مُهَيْكَلة بطريقة غير مَرِنة يُحاوِلُ أحدُها مواجهةَ الآخر بجسارة؟» [2104].
إجابة كيسنجر عن هذا السؤال محمَّلة بنذير الشَّرّ:

[ما يجب أن نخشى منه] ليس حربًا كبيرة بين الدول... التطورُ إلى مجالات نفوذٍ محدَّدٌ بهياكل داخلية [محلية] خاصة وأشكال حُكْم؛ مثلاً النموذج الويستفالي يُناقِضُ التصوّرَ الإسلامي الراديكالي. وعند حوافِّ كل مجالٍ سيقع المجالُ في إغراء اختبار قوته ضد كياناتِ أنظمةٍ أخرى يَعُدُّها غيرَ شرعية... وعندما يحين الوقتُ ستنحطُّ توتراتُ هذه العملية إلى مناورات لإحراز مكانة أو أفضلية على نطاق قاريٍّ أو حتى عالمي. الصراع بين المناطق [أو الأقاليم] أكثر تدميرًا من

الصراع بين الدول [أو القوميات][2105].

هذه نظرية مشابهة لبعض النظريات عن أصول الحرب في عام 1914 [الحرب العالمية الأولى]: شبكة سلطة غير مستقرة ظَهَرَ أن لديها القدرةَ على إحداث «انتقال حَرِجٍ» استجابةً لاضطراب طفيف.

وعلى العكس مِمَّن يزعمون (على أساس قراءة مغلوطة لإحصاءات الصراع) أن العالم يصير أكثرَ سِلْميةً بشكل مُطَّرِد، وأن «الحروب بين الدول... قد عفا عليها الزمن»[2106]، يقول كيسنجر إن كوكبةَ القوى العالمية المعاصرة قابلةٌ للاشتعال بدرجة عالية. أولاً، بينما «يصير النظام الاقتصادي الدولي عَوْلَميًا... تظل بنيةُ العالَم السياسية قائمةً على أساس الدولة القومية»[[2107]].

ثانيًا، نحن نسكت عن تكاثر الأسلحة النووية إلى أبعد من «نادي» الحرب الباردة، ومن ثمَّ «تتضَاعَفُ احتمالات المواجهة النووية». وأخيرًا، نحن لدينا أيضًا عالَمًا جديدًا قوامُه الفضاءُ الإلكتروني الذي شَبَّهه كيسنجر ب«حالة الطبيعة» عند هوبز Ho، حيث يكون «عدمُ التماثل وحالةٌ غريزية من اللانظام العالمي مَبْنيَّة داخليًا في العلاقات بين... القوى»[2108]. هنا، وفي المقابلات [الصحفية] الأخيرة، أوْجَزَ كيسنجر الخطوطَ العريضة لأربعة سيناريوهات عَدَّها المُحفِّزات الأرجح لاشتعال حريق واسع النطاق:

1 - تدهور العلاقات الصينية الأمريكية، فيتعثر البلدان فيما يُسَمَّى «فخ ثيوسيديديس»[[2109]] Thucydides Trap القائل بأن التاريخ يُحدِّد لكل قوة قائمة وكل قوة صاعدة ما تُواجِهُه[2110]؛

2 - انهيار العلاقات بين روسيا والغرب، بسبب عدم تفاهم متبادل، وهذا ممكن من خلال:

3 - انهيار القوة الصلبة الأوربية، وذلك بسبب عجز قادة أوربا الحديثة عن تقبُّل أن الدبلوماسية دون تهديد معقول بالقوة هي مجرد هواء ساخن؛ و/أو

4 - تَصاعُد الصراع في الشرق الأوسط بسبب استعداد إدارة أوباما، من وجهة نظر الدول العربية وإسرائيل، لتسليم الهيمنة في المنطقة لإيران الثورية.

أحدُ هذه التهديدات أو اجتماعها معًا، في ظل غياب إستراتيجية أمريكية متماسكة، أمرٌ يُهَدِّدُ بتحويل مجرد اللانظام إلى صراع واسع النطاق[2111].

لا يمكن تجاهل تحذير كيسنجر أو معاملته باستخفاف. فالعالَمُ اليوم يُشْبِه شبهًا كبيرًا شبكةً عملاقة على شفا انقطاع كارثي cataclysmic outage.

في أسبوع عادي أوائل عام 2017، نَشَرَ رئيسُ الولايات المتحدة تويتةً [تغريدةً]

تقول بأن وكالاته الاستخباراتية سرَّبَتْ، بشكل غير قانوني، معلومات مُصَنَّفة [أيْ سرِّية] إلى صحيفة النيويورك تايمز عن اتصالات حملته الانتخابية مع الحكومة الروسية، وأصرَّ على أن القصة ما هي إلا «أخبار زائفة» fake news. في هذه الأثناء، بعد التدخُّل في انتخابات الرئاسة الأمريكية بواسطة ويكيليكس وجيش إلكتروني من المُتصيِّدين والبوتات trolls and bots (ما قد يُسَمَّى جيش إل إي دي LED Army)[2112]، نشر الكريملين صواريخ كروز جديدة في خَرْقٍ لمعاهدة الحدِّ من الأسلحة النووية متوسطة المدى المُوقَّعة عام 1987 the 1987 Intermediate - Range Nuclear Forces Treaty، وأرْسَلَ سفينةَ التجسُّس فيكتور ليونوف Viktor Leonov لاستطلاع قاعدة غواصات أمريكية في نيو لندن New London، بولاية كونيتيكت [كونِّكْتِكت] Connecticut. وعلى الجانب الآخر من الأطلنطي، انتاب القلقُ السياسيين الفرنسيين والألمان - على حد سواء - من تدخُّلٍ روسيٍّ في انتخاباتهم الوشيكة. ولكن، رغم كل ذلك، كانت القصة الكبيرة في أوربا، ذلكَ الأسبوع، هي تجريسُ نَجْمِ يوتيوب فيليكس كيلبرج المُلَقَّب ب«بيو دي باي» Felix Kjellberg «PewDiePie» البالغ من العمر 27 عامًا، الذي أدَّى تحرُّشُه بمعاداة السامية إلى إلغاء الصفقات التي عقدها مع جوجل Google وديزني Disney[2113].

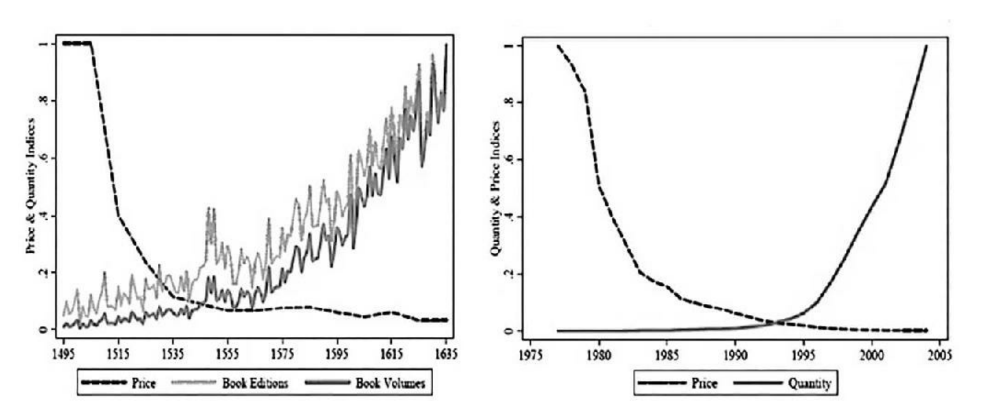
وفي هذه الأثناء أيضًا، نَشَرَتْ ما تُسَمَّى الدولة الإسلامية دليلاً إلكترونيًا للدعاية، تشرح فيه لمؤيِّديها كيفية توظيف حالة جُوع صناعة الأخبار إلى «النقرات» [الكليكات] clicks لإطلاق «صواريخ إعلامية» تُؤيِّدُ تنظيمَ الدولة الإسلامية في العراق والشام. ويكشف تقريرٌ [إعلامي] عن المدارس الواقعة تحت سيطرة تنظيم الدولة الإسلامية في العراق وسوريا عن أن التلاميذ يُطْلَبُ منهم حسابُ عدد مسلمي الشيعة أو «غير المؤمنين» الذين يمكن أن يَقتلَهم مُفجِّرٌ انتحاري. وكما لو كان لمساعدة التلاميذ في العثور على الإجابة، فَجَّرَ إرهابيٌّ من تنظيم الدولة الإسلامية نفسَه داخل ضريح صوفي مزدحم في سيوان [سيهون] Sehwan بباكستان، فقتل ما لا يقل عن 75 شخصًا.

وفي ذلك الأسبوع نفسه، وَرَدَ [إعلاميًا] أن الحكومة الصينية خَفَّفتْ رقابتَها على الميديا الاجتماعية، وذلك لأن نشرات المُدوَّنات blogposts غير المُفَلْترة ستجعل من الأسهل على السلطات مراقبة المعارَضة [والمخالفات]. وفي سيول Seoul [عاصمة كوريا الجنوبية]، قُبِضَ على وارثِ إمبراطورية سامسونج للإلكترونيات Samsung Electronics لشُبْهَة الرِّشوة، وهو أحدثُ ضحيةٍ لفضيحة الفساد التي أطاحت برئيسة كوريا الجنوبية بارك جن هي Park Geun - hye، وصديقتها الغامضة تشوي سون سيل Choi Soon - sil، ابنة مؤسِّس كنيسة الحياة الأبدية Eternal Life. وأخيرًا، في مطار كوالالمبور Kuala

Lumpur الدولي، قامت أنثي برَشِّ غاز الأعصاب VX المُمِيت على وجه كيم جونجنام Kim Jongnam، الأخ غير الشقيق لديكتاتور كوريا الشمالية كيم جونج يون[2114] Kim Jong Un. وعلى قميصها مطبوعٌ حروف «LOL» التي تُمَثِّل أوائل حروف كلمات مَوْقِع دَرْدَشَة على شبكة الإنترنت العالمية[2115].

سيبدو الضحكُ بصوت عالٍ ردَّ فعل خاطئ. فالعَوْلمة في أزمة. والشَّعْبوية تُواصِلُ المسيرةَ. والدول السُّلْطوية تتصاعد. وفي الوقت نفسه، تُواصِلُ التكنولوجيا - لا محالة - تقدُّمَها إلى الأمام، مُهدِّدَةً بجَعْل معظم البشر زائدين عن الحاجة أو مُعمِّرين، أو كليهما. فما الذي نفهمه من كل هذا؟ في محاولة الحصول على إجابات، يلجأ العديد من المُعلِّقين إلى عقد مقارنات تاريخية فجَّة. فعند البعض، دونالد ترامب هو هتلر، ويُوشِكُ على إعلان ديكتاتورية أمريكية[2116]. وعند آخرين، ترامب هو نيكسون، وسيُلاحَقُ قضائيًا في القريب العاجل[2117]. ولكن عام 1933 أو عام 1973 لا يعودان من جديد. التكنولوجيا المركزية سَهَّلَت الحُكْمَ الشمولي [التوتاليتاري]، وجعلته ممكنًا في ثلاثينيات القرن العشرين. ثم بعد أربعين سنة صار من الصعب كثيرًا أن ينتهك رئيسٌ مُنْتَخَبٌ ديمقراطيًا القانونَ، دون عقاب. في سبعينيات القرن العشرين، كانت وسائل الإعلام [الميديا] لا تزال تتألَّفُ من عدد قليل من شبكات التلفزيون والجرائد ووكالات الأنباء. وفي أكثر من نصف العالَم، خضعت هذه الأدوات للسيطرة المركزية. ومن المستحيل فَهْم العالَم اليوم دون فَهْم مدى تغيُّره الكبير نتيجة تكنولوجيا المعلومات الجديدة. لقد صار هذا التغيُّرُ حقيقةً بَدَهِيَّةً. والسؤال الحاسم هو كيف غيَّرت تكنولوجيا المعلومات الجديدة العالَمَ؟ الإجابة هي أن التكنولوجيا قامت بتقوية هائلة [وتمكينٍ] لكل أنواع الشبكات المتصلة بهياكل السلطة الهَرَميَّة التقليدية، ولكن عواقب هذا التغيير ستَحْسِمُها هياكلُ هذه الشبكات وخصائصها الناشئة وتفاعلاتها.

وكما رأينا، التأثير العالمي للإنترنت يجد بعضَ نظائره في التاريخ بأفضل مما يجد تأثيرُ الطباعة في أوربا القرن السادس عشر. الكمبيوتر الشخصي والهاتف الذكي مَكَّنا الشبكات بقدر ما مكَّنتها المنشوراتُ والكتبُ في زمن لوثر. بل إن مسارات إنتاج الكمبيوتر الشخصي وسِعْره في الولايات المتحدة بين عاميْ 1977 و2004 يشبهان بدرجة كبيرة مسارات إنتاج الكتب المطبوعة وسِعْرها في إنجلترا من عام 1490 حتى عام 1630 (انظر الشكل 48)[2118]. في عصر الإصلاح Reformation وما بعده، تم تحسين الاتصال وتعزيزه أضعافًا مضاعفة بارتفاع نسبة عارفي القراءة والكتابة، بحيث تمكَّنَتْ نسبةٌ متزايدة من السكان من الوصول إلى كل أنواع الأدب المطبوع، بدلاً من الاعتماد على الخُطَباء والوُعَّاظ لتَلَقي الأفكار الجديدة.




الشكل رقم: 48 - أسعار وكميات الكتب (1490 - 1630) والكمبيوتر الشخصي (1977 - 2004).

توجد ثلاثُ اختلافات رئيسية بين عصرنا الشَّبَكي والعصر الذي أعقب ظهورَ الطباعة الأوربية. الاختلاف الأول الأوضح، أن ثورتَنا الشبكية أسرعُ بكثير وأكثر امتدادًا على المستوى الجغرافي من موجة الثورات التي أطلقتها المطبعة الألمانية. ففي مسافة زمنية أقل بكثير مما قطعها 84% من البالغين في العالم ليصبحوا عارفين بالقراءة والكتابة، اكتسبت نسبةٌ كبيرة من البشرية التمَكُّنَ من الإنترنت.

في الآونة الأخيرة، عام 1998، حوالي 2% فقط من سكان العالم كانوا أونلاين. واليوم، تبلغ النسبةُ شخصين من كل خَمْسة. سرعةُ التغيير من حيث الكمِّ والمدى أسرعُ بكثير من فترة ما بعد جُوتِنبرج: ما استغرق قرونًا بعد عام 1490 استغرق عقودًا فقط بعد عام 1990. وكما رأينا، بدأ جوجل حياته في جراج في مِنلو بارك Menlo Park [بولاية كاليفورنيا] عام 1998. واليوم، لديه القدرة على معالجة أكثر من 4.2 مليار طلبِ بحثٍ يوميًا. وفي عام 2005، بدأ يوتيوب من غرفة أعلى محل بيتزا في سان ماتيو San Mateo [بولاية كاليفورنيا]. واليوم، يتيح للناس مشاهدة 8.8 مليار فيديو يوميًا. فيسبوك كان حلمًا في جامعة هارفارد منذ ما يزيد قليلاً على عشر سنوات. واليوم، لديه ما يقرب من 2 مليار مُستخدِم يقومون بتسجيل الدخول مرة واحدة على الأقل في الشهر[2119]. أما عدد البريد الإلكتروني الذي يُرْسَلُ يوميًا فيبلغ مئة مرة.

العالَمُ مُتَّصِلٌ، حقًّا، كما لم يحدث من قبل. وقد يكون معدَّلُ نمو الشبكة العالمية بطيئًا، من حيث أعداد مُستخدِمي الإنترنت الجُدُدِ ومالكي الهواتف الذكية الجُدُدِ كل عام، ولكنه لا يُظْهِرُ أيةَ علامة على التوقف. وأما في جوانب أخرى - مثلاً، التحول من النص إلى الصورة والفيديو، ومن لوحة المفاتيح [الكيبورد] إلى الميكروفون - فالعدد يتسارع. الأُمِّية ستكفُّ في النهاية عن أن تكون عائقًا أمام الاتصال.

ولا تقتصر هذه الثورة التكنولوجية على البلاد المتقدمة. فمن حيث الاتصال، ينضمُّ فقراءُ العالم بسرعة. في 20% من الأسر الأفقر في العالم، ما يقرب مِن سبع أسرة مِن كل عشر أُسَر لديهم هواتف محمولة. شركة الاتصالات الهندية بهارتي إيرتل Bharti Airtel لديها قاعدة عملاء كبيرة تُضارِعُ سكانَ الولايات المتحدة. بل يتجاوز عددُ مُستخدِمي الإنترنت في الهند الآنَ عددَ مُستخدِميه في أمريكا. واستغرق الأمرُ ثمانيةَ أعوام كي تمتلك كلُّ الأسر الكينية هواتف محمولة. واستغرق أربعَ سنوات فقط بالنسبة إلى نظام الدفع من خلال خدمة M - Pesa الرائدة في شركة سفاريكوم Safaricom كي يصل العدد إلى 80% من الأُسَر[2120]. وحتى الصومال الفقيرة والفوضوية، ارتفعت نسبةُ تغلغل الهواتف المحمولة فيها من 5% إلى 50% خلال خَمْس سنوات[2121]. من الواضح أن تزويد فقراء العالم بهواتف محمولة أسهل من تزويدهم بماء نظيف؛ ولعلها حجةٌ مُقنِعة لتَرْك توفير المياه النظيفة للقطاع الخاص بدلاً من حكومات ضعيفة وفاسدة[2122].

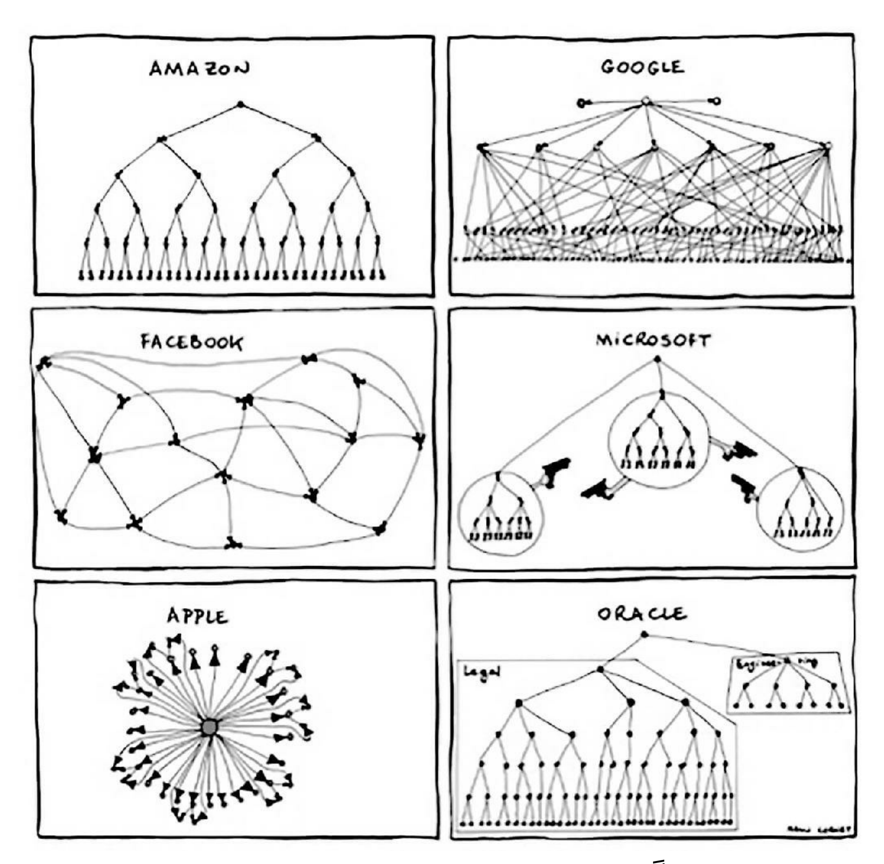
ثانيًا، تختلف عواقب توزيع ثوْرَتِنا، تمامًا، عن عواقب بواكير الثورة الحديثة. فأوربا القرن الخامس عشر لم تكن مكانًا مثاليًا لتطبيق حقوق الملكية الفكرية، التي وُجِدَتْ هذه الأيام فقط، حين تحتكر طائفةٌ التكنولوجياتِ بشكل سرّي. ولم تخلق المطبعةُ ملياردريات: جُوتِنبرج لم يكن جيتس (بحلول عام 1456 أفلس جُوتِنبرج تمامًا). وعلاوة على ذلك، مجموعة فرعية فقط من الوسائط [الميديا]، أمْكَنَها من خلال المطبعة - الجرائد والمجلات - أن تسعى إلى كسب المال من الإعلان، أما المجموعة الأهمُّ فأمْكَنَها من خلال الإنترنت أن تكسب المال. ومع ذلك، توقعت قِلَّةٌ من الناس أن الشبكات العملاقة التي أتاحها الإنترنت لن تُحَقِّقَ المساواةَ، رغم دعايتها القائلة بإضفاء طابع ديمقراطي على المعرفة. فَشِلَ جيلٌ - أصغر الباحثين عن الثروة - أُزِيحَ من الصراع في تعلُّم درسٍ مُفادُه أن الشبكات غير المنظَّمة لا تحدُّ من عدم المساواة، بل الحروب والثورات والتضخُّمات الكبيرة وأشكال أخرى من مُصادَرة المِلْكية هي التي تُقلِّلُ من عدم المساواة[2123].

ولا شك في أن الابتكار خفَّضَ تكاليفَ تكنولوجيا المعلومات. فعلى الصعيد العالمي، انخفضت تكاليفُ الحَوْسَبة والتخزين الرقمي بمعدلات سنوية تبلغ 33% 38 سنويًا بين عاميْ 1992 و 2012[2124]. ومع ذلك، على عكس آمالِ مَن تخيَّلوا بازارًا كبيرًا من التطبيقات الجماعية [المعتمدة على الحشود] - crowd sourced applications، تَطَوَّرَ الإنترنتُ إلى شبكة هائلة حُرَّة النطاق، مُزَوَّدة بمحاور فائقة الاتصال[2125]. وتزايدت احتكاراتُ القِلَّة oligopolies في عالميْ الهاردوير hardware والسوفتوير software، وكذلك في التزويد بالخدمة والشبكات اللاسلكية. العلاقة بين شركة إيه تي آند تي AT & T التي لا يَتعكَّرُ صَفْوها على ما يبدو، وبين شركة أبل Apple بعد تجديدها تمامًا، تُوضِّحُ حقيقةً قديمة:

إذا تُرِكَت الشركاتُ حُرَّةً فستسعى إلى الاحتكار الأحادي monopoly أو الاحتكار الثنائي duopoly أو احتكار القِلَّة oligopoly. بل حتى الشركات الملتزمة بإتاحة شبكة [ويب] ذات «بنية مفتوحة» open architecture web - مثل أمازون وفيسبوك وجوجل - تسعى إلى سُلْطة احتكار أحادي في قطاعاتها: التجارة الإلكترونية والشبكات الاجتماعية والبحث[2126]. الحَوْكمة والتنظيم الضعيفان [الفقيران] يُفسِّران الفروقَ الضخمة في الخدمة الخَلَويَّة [[2127]] cellular service وتكاليف الإنترنت بين البلاد[2128]. كما يُفَسِّران أيضًا السببَ في أن عددًا صغيرًا من البلاد يهيمن على المعلومات وصناعة تكنولوجيا الاتصالات (رغم أنه من اللافت أن الولايات المتحدة تحتل المرتبة السابعة - خلف أيرلندا وكوريا الجنوبية واليابان والمملكة المتحدة - من حيث الأهمية النسبية لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات في اقتصادها ككل)[2129].

تُفسِّرُ هذه الدينامياتُ السببَ في أن مِلْكيةَ الشبكة الإلكترونية العالمية مُرَكَّزةٌ جدًا. بينما كنتُ أعمل على هذا الكتاب، قُدِّرَت القيمةُ السوقية[[2130]] لجوجل (أو بالأحرى الشركة الأم التي أُعِيدَ تسميتها باسم ألفابِت[[2131]] .Alphabet Inc) ب 660 مليار دولار. ويملك حوالي 11% من أسهمها، بقيمة 106 مليار دولار، مؤسِّساها لاري بيج[[2132]] Larry Page وسيرجى برين[[2133]] Sergey Brin. وتقترب قيمة فيسبوك السوقية من 441 مليار دولار؛ ويملك مؤسِّسُها مارك زوكربيرج 28% من أسهمها بقيمة 123 مليار دولار. ورغم ظهورهم بمظهر المؤيِّدين الكبار للمساواة، نجد الشبكاتِ الاجتماعيةَ «غيرَ عادلة وإقصائية بطريقة متأصِّلة».

وبسبب الميل إلى الإلحاق التفضيلي [التمييزي] - المَيْل إلى محاور جيدة الاتصال للحصول على اتصال أفضل - تأتي «حقيقة الشبكة الاجتماعية» النهائية من إنجيل القديس متَّى (انظر المقدمة)[2134]. فالآن، على عكس ما كان في الماضي، يوجد نوعان من الناس في العالم: مَن يملكون الشبكات ويُديرونها، ومَن يستخدمونها فقط. ويُواصِلُ سادةُ الفضاء الإلكتروني التجاريون تملُّقَ ومداهنة سطح عالَم مُستخدِمي الإنترنت بكلمات لا تتجاوز الشفاه، أما من حيث الممارسة فشركات مثل جوجل مُنَظَّمَةٌ هَرَمِيًا، حتى لو كانت «مُخَطَّطات الهيكل التنظيمي»[[2135]] Charts.org مختلفة تمامًا عن مثيلاتها في جنرال موتورز على أيام ألفريد سلون[[2136]] Alfred Sloan.




الشكل رقم: 49 - مُخطَّطات شبكة ساخرة لشبكات التكنولوجيا الأمريكية الرئيسية.

في المجتمعات التقليدية، كان ظهور قوى السوق يُمَزِّقُ غالبًا شبكاتِ الوراثة، ومن ثمَّ يُعَزِّزُ الحِراكَ الاجتماعي ويَحُدُّ من عدم المساواة. حُكْم الجدارة[2137] meritocracy يسود.

أما عندما تكون الشبكات والأسواق متحيِّزة، كما في عصرنا، فسينفجر عدم المساواة على هيئة عوائد من تدفق الشبكة الساحق تدخل في جيوب أهلها الذين يملكونها. والحق إن الأثرياء جدًا من الشباب الذين يمتلكون الشبكات الحديثة يميلون إلى أن تكون لهم آراء سياسية يسارية نوعًا ما.

(وبيتر تيل Peter Thiel استثناء نادر: تحرُّري libertarian مال إلى الشَّعْبويين في عام 2016). ومع ذلك، ستُرَحِّبُ قِلَّةٌ منهم بالنِّسَب الإسكندنافية لضريبة الدخل الشخصي، ناهيك عن ثورة تدعو إلى المساواة. يَتلذَّذُ سادةُ الإنترنت بكَوْنهم أغنياء، تقريبًا بقدر ما تَلذَّذَ ذئابُ ما قبل أزمة وول ستريت Wall Street منذ عقد ماضٍ، رغم أن استهلاكهم أقل وضوحًا من وخزات ضميرهم. من الصعب تخيُّل أحد المَصْرفيين الاستثماريين يتبع نموذج سام ألتمانSam Altman[2138] رئيس شركة واي كومبِناتور Combinator Y،

الذي انطلق في رحلة حجٍّ إلى أمريكا الوسطى كما لو كان يكفر عن نتيجة خابات عام [2139]2016. ولكن سان فرانسيسكو San Francisco التي عاد إليها ألتمان ظلت على حالها: مدينة عدم المساواة مثل ميتروبوليس، ناهيك عن التشوُّهات التي تجعل السكن اللائق باهظ الثمن على نحوٍ شديد السُّخْف. (امتلاك مِلْكية ثابتة يأتي في المرتبة الثانية بعد المِلْكية الفكرية بوصفها مُحدِّدَ عدم المساواة في الثروة، ولكن السكن الأكثر قيمةً لا يكون بالصدفة الأقربَ من التجمعات الجغرافية التي يتوفر فيها آي بي [عنوان بروتوكول الإنترنت] [[2140]]IP الأكثر قيمةً).

وشركات التكنولوجيا الكبيرة التي على استعداد لتقديم الملايين من سائقي التاكسي والشاحنات الذين يعتزمون تغييرها بالسيارات دون سائق، هي شكل من أشكال الدخل الأساسي. العزاء الوحيد هو أن أكبر مالكي الأسهم في شركات فانج FANG [فيسبوك، أمازون، نيتفليكس، جوجل] مستثمرون مؤسَّسيون أمريكيون، وبقدر ما يُديرون مدَّخرات الطبقة الوسطى الأمريكية، منحتهم هذه الطبقةُ - لهذا السبب - حصةً كبيرة في أرباح صناعة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات. ولكن الأهلية [الجدارة] المهمة أن المستثمرين الأجانب يمتلكون 14% على الأقل من القيمة المالية للشركات الأمريكية الكبرى، وفي حالة شركات ذات مبيعات خارجية كبيرة (مثل شركة أبل التي تكسب حوالي ثلْثي عائداتها من الخارج)، فمن المؤكد أن الأهليةَ أكبرُ تقريبًا[2141]. ومع ذلك، لا يوجد دارسٌ جادٌّ للأسواق الرأسمالية سينسب إلى هؤلاء المستثمرين الأجانب ذرةً من التأثير في الحَوْكمة المؤسَّسية للشركات.

ثالثًا، وأخيرًا، كان للطباعة تأثير في تمزيق الحياة الدينية في المسيحية الغربية Western Christendom[[2142]] قبل أن تُمَزّقَ أيَّ شيء آخر. وعلى النقيض من ذلك، بدأ الإنترنت بتمزيق التجارة؛ وفي الآونة الأخيرة فقط، بدأ في تمزيق السياسة ومَزَّق فعليًا دينًا واحدًا فقط، هو الإسلام. فقد كانت الشبكات، كما رأينا، مفتاحًا رئيسيًا لما حَدَثَ في السياسة الأمريكية عام 2016.

فوُجِدَتْ شبكةٌ من الدعم الشعبي بَنَتْها حملةُ ترامب - التي بَنَتْ نفسَها - على منصَّات فيسبوك، وتويتر، وبريتبارت Breitbart. أولئك كانوا الرجالَ والنساءَ «المنسيين» الذين نهضوا يوم 8 نوفمبر لكسر شوكة «المصالح الخاصة العالمية» و«المؤسسة السياسية الفاسدة والفاشلة» التي جَسَّدتها مُنافِسةُ ترامب [هيلاري كلينتن] فيما زُعِمَ. ثمة دور لعبته الشبكةُ الجهادية أيضًا، لأن الهجمات الإرهابية التي نفَّذتها توابعُ تنظيم الدولة الإسلامية، أثناء عام الانتخابات، أضفت مصداقيةً على تعهُّدات ترامب بأن «يُفرِّغَ شبكات دَعْم الإسلام الراديكالي في هذا البلد»، وأن يَحظر هجرةَ المسلمين.

ولأن ترامب رجلٌ ثريٌّ يستطيع، مع ذلك، لعب دور الديماجوجي[[2143]] الواثق من نفسه، فقد جَسَّدَ بنفسه مفارقةَ العصر الرئيسية. ترامب أوليجاركي ثانوي وعلامة تجارية رئيسية في آنٍ معًا. فكما يُقال: «لم يوجد رئيسٌ أمريكي تولَّى المنصب بشبكة عملاقة من الأعمال والاستثمارات والاتصالات المؤسَّسية كالتي كدَّسَها دونالد ترامب»، ذات روابط تجارية معروفة ب 1,500 شخص ومنظمة[2144]. وفي الوقت نفسه، نجحت حملة ترامب - حيث فشل خصومه - في استغلال شبكات وادي السِّليكون، الأمر الذي أفزع الأشخاصَ الذين امتلكوا الشبكات واعتقدوا أنهم أيضًا يسيطرون عليها. وقد كان كَرْبُهم في الأسابيع التالية على الانتخابات ملموسًا. سَعَتْ جوجل في البداية إلى إقناع الإدارة الجديدة، بالتراجع عن أوامرها التنفيذية التي تحدُّ السفرَ والهجرةَ إلى الولايات المتحدة من بلاد بعينها ذات أغلبية مسلمة[2145]. وتَغيَّبَ مارك زوكربيرج عن لقاء مع الرئيس الجديد حَضَرَه كبارُ المديرين التنفيذيين في شركات التكنولوجيا الأخرى. ولعل ما أراحه نوعًا ما أن مظاهرةً نسائيةً ضد ترامب نظَّمَتْ نفسَها أيضًا من خلال فيسبوك[2146].

ومن الصعب تصديق أنه لن يوجد في النهاية نوع من الصدام بين إدارة ترامب وشركات تكنولوجيا المعلومات والاتصال الكبيرة، وبخاصة إذا ألغت الإدارةُ قرارَ سَلَفِها في عام 2015 بأن لجنة الاتصالات الفيدرالية Federal Communications Commission ستُنَظِّمُ الإنترنت بوصفه منفعةً عامة مثل شبكة السكك الحديدية أو التليفون القديمة. يبدو أن هناك صراعَ مصالح واضحٌ بين شركات الاتصالات والكابلات ومنصَّات تردُّدات النطاق الجشعة ومُزوِّدي المحتوى مثل شركة نيتفليكس Netflix - على مسألة «حيادية الشبكة» (القاعدة أن جميع أجزاء البيانات ينبغي أن تُعامَلَ على حد سواء، بغضِّ النظر عن محتواها أو قيمتها)[2147]. إجراء مكافحة الاحتكار ضد شركات فانج FANG ربما يكون خطوةَ ترامب التالية.

ومع ذلك، يوجد تشابه واضح من ناحيتين بين عصرنا والفترة الثورية التي أعقبت ظهور الطباعة. تكنولوجيا المعلومات الحديثة - شأنها شأن المطبعة - حَوَّلت السوقَ - في الآونة الأخيرة، بتسهيل المشاركة (أيْ الإيجارات قصيرة الأجل) في السيارات والشقق - كما حَوَّلت الفضاءَ العام أيضًا. لم يحدث من قبل أن اتصل الكثيرُ جدًا من الأشخاص معًا في شبكة فورية الاستجابة، تنتشر عبرها «الميمات»[[2148]]. بأسرع من الفيروسات الطبيعية[2149]. ولكن الفكرة أنَّ جَعْلَ العالم كله أونلاين، من شأنه أن يخلق يوتوبيا مُستخدِمي الإنترنت - أن الكلَّ متساوون في الفضاء الإلكتروني - يوتوبيا ليست سوى خيال [فانتازيا] دائمًا، كرؤية مارتن لوثر الوهمية عن «كهنوت كل المؤمنين». الحقيقة هي أن الشبكة العالمية صارت آليةً لانتقال كل أنواع الهوس mania والفزع panic، تمامًا كما أدَّى

الجَمْعُ بين الطباعة ومحو الأمية إلى زيادة انتشار الطوائف الألفية [القائلة بالعصر الألفي السعيد] وجنون العِرافة لفترة من الوقت. وحشيةُ تنظيم الدولة الإسلامية تبدو أقلَّ تميزًا عند مقارنتها بأشكال وحشية بعض الحكومات والطوائف في القرنين السادس عشر والسابع عشر[2150]. ارتفاع مستويات العنف السياسي تبدو معقولةً أيضًا في الولايات المتحدة وربما في أجزاء من أوربا[2151]. ثانيًا، كما حدث أثناء عصر الإصلاح وبعده، يشهد عصرُنا تآكلَ السيادة على الأرض [المحلية أو الإقليمية][2152]. في القرنين السادس عشر والسابع عشر، غرقت أوربا في سلسلة حروب دينية لأن القاعدة المنصوص عليها في صلح أوجسبورج Peace of Augsburg(عام 1555) - لكل منطقة دِينُها - احْتُرِمَتْ أساسًا من خلال خَرْقها. وفي القرن الحادي والعشرين، نشهد ظاهرةً مماثلة هي تصاعد التدخُّل في الشؤون الداخلية للدول ذات السيادة.

وبعد كل هذا، وُجِدَتْ شبكةٌ ثالثة شاركت في انتخابات عام 2016 الأمريكية، هي شبكة المخابرات الروسية. أثناء عملي في هذا الكتاب، كان من الواضح أن الحكومة الروسية بذلت قصارى جهدها لتحقيق أقصى قدر ممكن من تدمير سُمْعة هيلاري كلينتن باختراق حواسيبها وحواسيب حملتها، واستخدام موقع ويكيليكس الإلكتروني بوصفه قناةً لتمرير الوثائق المسروقة إلى وسائل الإعلام الأمريكية[2153]. وزيارة موقع ويكيليكس تعني دخول غرفة كأس هذه العملية. وهي هنا «أرشيف إيميل هيلاري كلينتن» Hillary Clinton Email Archive، و«إيميلات بودِستا» The Podesta Emails. ليست كلُّ الوثائق المُسَرَّبة أمريكيةً، بكل تأكيد. لكنك ستبحث عَبثًا عن التسريبات المظنون أنها تُحْرِجُ الحكومةَ الروسية. جوليان أسانج لا يزال يتوارى في سفارة الإكوادور في لندن، ولكن الحقيقة هي أنه يعيش ضيفًا كريمًا على الرئيس فلاديمير بوتين في أرض سايبريا[[2154]] Cyberia الغريبة، في منطقة الشَّفَق التي يسكنها عملاءُ روسيا الإلكترونيون [أونلاين].

القراصنة hackers والمُتصيِّدون rolls الروس يُهَدِّدون الديمقراطيةَ الأمريكية كما هَدَّدَ الآباءُ اليسوعيون الإصلاحَ الإنجليزي English Reformation: تهديد من الداخل بدون رعاية. «نحن عند مفترق طرق»، طبقًا للأميرالاي مايكل روجرز Admiral Michael S. Rogers، رئيس وكالة الأمن القومي NSA والقيادة الإلكترونية للولايات المتحدة[[2155]] [2156] US Cyber Command. صارت الأنشطةُ الإلكترونية على رأس قائمة التهديدات لدى مدير الاستخبارات القومية. وموقع ويكيليكس هو مجرد جزء صغير من التحدِّي. البنتاجون Pentagon وحده يُبْلِغُ بأكثر

من 10 مليون محاولة تدخُّل كل يوم[2157].

وبطبيعة الحال، معظم ما تُسمِّيه الميديا [وسائل الإعلام] «هجمات إلكترونية» cyber - attacks ليس سوى محاولات للتجسُّس. ومن أجل إدراك القوة الكاملة لحرب إلكترونية [سايْبِرانية]، لا بد أن يتخيَّل المرءُ هجومًا يُغلق جزءًا حيويًا في شبكة الطاقة الكهربيةِ الأمريكية. سيناريو كهذا ليس ببعيد. فقد نُفِّذَ شيءٌ مماثل في ديسمبر عام 2015 في نظام الكهرباء الأوكراني، الذي أُصيب بنوع من برمجيات الكمبيوتر الخبيثة[ [2158] ] malware يُسَمَّى الطاقة المظلمة [بلاك إنرجي] [ [2159] ]Black Energy.

وقد أدرك علماء الكمبيوتر إمكانات الحرب الإلكترونية التخريبية منذ أيام الإنترنت الأولى. في البداية، كان القراصنة المراهقون هم الذين يَتسبَّبون في الأذى والتدمير:

مهووسون من أمثال روبرت تابان موريس[ [2160] ] Robert Tappan Morris، الذي كاد أن يُدَمِّرَ شبكةَ الإنترنت في نوفمبر عام 1988 عندما أطلق دودةً برمجية شديدة العَدْوَى[2161]، أو «مافيا بوي»[ [2162] ] Mafia Boy، وهو كندي يبلغ من العمر 15 عامًا أغلق موقعَ ياهو في فبراير عام 2000.

ومن الفيروسات الأولى التي كشفت عن مخترعيها الشبان: بلاستر Blaster، Brair، مِليسّا Melissa، آي لاف يو Ilove you، سلامر Slammer، سوبيج Sobig[2163].
ولا يزال العديد من الهجمات الإلكترونية ينفذها فواعلُ غير تابعين للدولة: مُخَرِّبون سِنِّ المراهقة، أو مجرمون، أو «قراصنة تكنولوجيون» [ [2164] ]hacktivists، أو تنظيمات إرهابية. (هجوم 21 أكتوبر عام 2016، على مُزوِّد خدمة أسماء النطاقات داينمِك نيتورك سيرفيسس إنك. Dynamic Network Services Inc، باستخدام كاميرات ويب صينية الصُّنْع بوصفها «بوتات» bots، هذا الهجوم لا شك في أنه حالة من حالات التخريب[2165]. ولكن التطور الألفت للانتباه في عام 2016 هو صعود سايْبِريا Cyberia.

اضطرت الولايات المتحدة - بوصفها الدولة التي أنشأت الإنترنت - إلى المبادرة بالحرب الإلكترونية، أيضًا. بدأ ذلك في وقت مبكر من إدارة ريجان Reagan الأولى[2166].

فأثناء غزو العراق عام 2003، اخترق جواسيسُ الولايات المتحدة الشبكاتِ العراقيةَ، وأرسلوا رسائل تحثُّ الجنرالات على الاستسلام[2167]. ثم بعد سبع

ت، أطلقت الولاياتُ المتحدة وإسرائيلُ فيروسًا [أو دودةً] ستوكسنت Stuxnet[2168] ضد منشآت التخصيب النووي في إيران[2169]. لم تكن المشكلة مجرد أن دولتين استطاعتا لعب هذه اللعبة. المشكلة هي أنه لا أحد يعرف كم عدد مَن يستطيعون اللعب وبأي عدد من الألعاب الإلكترونية. في السنوات الأخيرة، وَجَدَت الولاياتُ المتحدة نفسَها تحت هجوم إلكتروني من إيران وكوريا الشمالية والصين.

ولكن هذه الهجمات وُجِّهَتْ ضد شركات (وبخاصة سوني بيكتشرز Sony Pictures)، وليس ضد حكومة الولايات المتحدة. الرُّوسُ هم أول مَن شَنّوا حربًا مُباشِرة ضد حكومة الولايات المتحدة، سعيًا منهم إلى تعويض هبوطهم العسكري والاقتصادي النسبي، باستغلال «احتمالات غير متناظرة واسعة» يُقدِّمها الإنترنتُ ل«تقليل قدرة الخَصْم القتالية»[2170]. وقد تعلَّموا فنونَ الهجوم الإلكتروني بالهجمات على إستونيا وجورجيا وأوكرانيا. ولكن الكريملين، في عام 201، شَنَّ هجومًا مستمرًا على النظام السياسي الأمريكي، مستخدمًا بالإضافة إلى ويكيليكس المُدوِّنَ الروماني جوتشيفر تو بوينت زيرو Guccifer 2. [2171]، بوصفهما وكلاء له[2172].

ولْنترك جانبًا مسألة ما إذا كان التدخُّلُ الروسي قد حَسَمَ الانتخابات لصالح ترامب أم لا، في مقابل الأخبار الزائفة التي نوقشت في الفصل السابق؛ يكفي القولُ بأن التدخُّلَ ساعده، ومن المحتمل أن كل الأخبار الزائفة والحقيقية التي دمرت سُمْعة هيلاري كلينتن نُشِرَتْ دون تورُّط روسيا. ولنْترك جانبًا أيضًا الأسئلة والقضايا التي لم تُحَلّ بعد، المتعلقة بعدد أعضاء حملة ترامب المتورطين في العملية الروسية، ومقدار ما كانوا يعرفونه[2173]. النقطة الحاسمة هي أن موسكو لم تُرْدَعْ. ويرى المتخصِّصون في الأمن القومي أن عدمَ الرَّدْع سمةٌ من سمات عديدة في الحرب الإلكترونية المثيرة للحيرة. فمتخصِّصو الأمن القومي الذين اعتادوا على النظريات الأنيقة عن «التدمير المتبادل المؤكَّد» التي تطورت أثناء الحرب الباردة، يجتهدون بشقّ الأنفس من أجل تطوير مذهب [مبدأ] لشكل صراع مختلف تمامًا، يوجد فيه ما لا يُحْصَى عدَدُه من المهاجمين الذين يصعب تحديدُ العديد منهم، وبدرجات متعددة من التدميرية. وقد لاحظ ويليام لين William Lynn - نائب وزير الدفاع - أن «الصاروخ يأتي بعنوان مُرْسِله، أما فيروس الكمبيوتر فلا». ويرى جوزيف ناي Joseph Nye عميد مدرسة كينيدي بهارفارد Harvard's Kennedy School، أن الرَّدع من الممكن إنقاذه، وهذا صحيح فقط، إذا كانت الولايات المتحدة على استعداد لضرب مثال في البدء بالعدوان. الخيارات الثلاثة الأخرى التي يقترحها ناي هي: رَفْع مستوى أمن الإنترنت؛ محاولة «عَرْقلة» المعتدين المحتملين بالمساومة وغيرها من العلاقات (بحيث ترتفع تكلفة هجماتهم الإلكترونية)؛ وَضْع مُحرَّمات عالمية على الإنترنت أقرب إلى

المحرَّمات التي ثبَّطَتْ (في الغالب) استعمالَ الأسلحة البيولوجية والكيماوية[2174].

هذا التحليل ليس مريحًا. فبالنظر إلى العدد الهائل من المُعْتدِين الإلكترونيين يبدو الدفاعُ محكومًا بالتأخُّر عن الهجوم، الأمر الذي يقلب المنطق العسكري التقليدي. فقد أثبت الروس أنهم لا يُبالون بالعَرْقلة ولا بالمحرَّمات، وإن كانت الصينُ أكثرَ قابلية لنهج ناي. بل تبدو الحكومة الروسية مستعدة للدخول في شراكات مع مجرمين مُنظَّمين سعيًا إلى تحقيق أهدافها[2175].

ما مدى تخوُّفنا من سايْبِريا؟ ترى آن ماري سلوتر Anne - Marie Slaughter أن عالَمنا فائقَ الشبكية - مع وضع كل شيء في الحسبان - مكانٌ حميدٌ و«الولايات المتحدة... ستجد تدريجيًا المعنى الذهبي لسلطة الشبكة[2176]». توجد حقًّا كلُّ أنواع التهديدات الشَّبَكية («الإرهاب... المخدرات، الأسلحة، الاتجار بالبشر... تغيُّر المناخ وانخفاض التنوع البيولوجي... حروب المياه وانعدام الأمن الغذائي... الفساد، غسيل الأموال والتهرُّب الضريبي... الأمراض الوبائية»)، لكن إذا استطاع قادة أمريكا أن «يفكروا في ترجمة تحالفاتِ رُقْعةِ الشطرنج إلى محاور اتصال وكفاءة» فقط، فسيكون كلُّ شيء قويمًا. وتقول إن المفتاح الرئيسي هو تحويل التسلسلات الهَرَمِيَّة إلى شبكات، فيتحول الناتو[[2177]] NATO
إلى «محور في شبكة شراكات أمنية، ومركز للتشاور حول قضايا الأمن الدولي»، ثم إصلاح مجلس الأمن الدولي وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي بفَتْحِها أمام «فواعل
أحدث»[2178].

تحتاج مؤسسات النظام العالمي التي أُنْشِئت بعد الحرب العالمية الثانية إلى أن تتحول تمامًا إلى «محاور نظام مُسَطَّح [أفقي]، أسرع وأكثر مرونةً، نظام يعمل على مستوى المواطنين وعلى مستوى الدول معًا»، وأن يُدْمِجَ داخله «فواعلَ شبكات الإنترنت والشركات والمدنيين والجمهور، الأخيار». والمثال الذي تقدِّمه سلوتر هو «اتفاقية العُمَد العالمية للمناخ والطاقة» Global Covenant of Mayors for Climate and Energy التي تربط وتصل بين أكثر من 7.100 مدينة حول العالم[2179]. والمثال الآخر هو شراكة الحكومة المفتوحة Open Government Partnership التي أطلقتها إدارةُ أوباما عام 2011، والتي تشمل الآن سبعين دولةً ملتزمة ب«الشفافية والمشارَكة المدنية وقابلية المحاسبة»[2180]. أما إيان كلاوس Ian Klaus، زميل سلوتر سابقًا في وزارة الخارجية، فيرى القوةَ في شبكةِ مدنٍ عالمية[2181].

هل يمكن أن ينضمَّ «فواعل أخيار» معًا في شبكة جيوسياسية جديدة، تُوجِّه «مهارتَها الشَّبَكية» ضد الفواعل الأشرار؟ يتشكك جوشوا كوبر رامو Joshua Cooper Ramo في هذا. ويتفق مع سلوتر في أن «التهديد الجوهري للمصالح الأمريكية ليس الصينَ أو القاعدة أو إيران؛ بل تطوُّر الشبكة نفسها». ولكنه أقل تفاؤلاً بشأن سهولة محاربة التهديد. الدفاعُ الإلكتروني متخلِّفٌ عشر سنوات عن الهجوم الإلكتروني، ليس أقله بسبب نسخة ثالوث مستحيل جديدة: «أنظمة سريعة أو مفتوحة أو آمنة، بل ميزتان من الثلاث في كل مرة»[2182].

ويمكن تلخيص التهديد الواقع على النظام العالمي في الصيغة الآتية: «شبكات سريعة جدًا X ذكاء صناعي X صناديق سوداء X طبقة جديدة X انضغاط الزمن X موضوعات يومية X أسلحة»[2183]. يُقَدِّمُ رامو في كتابه «الحاسَّة السابعة» The Seventh Sense، تصورًا لإقامة «بوابات» حقيقية وافتراضية أمام الروس ومُجْرِمي الإنترنت ومُخرِّبي الشبكة من المراهقين وغيرهم من الأشرار. ولكن رامو نفسه يقتبس ثلاث قواعد لأمن الكمبيوتر ابتكرها خبيرُ الشفرة بوكالة الأمن القومي روبرت موريس Robert Morris: «القاعدة الأولى: لا تمتلك كمبيوتر. القاعدة الثانية: لا تُشَغِّله. القاعدة الثالثة: لا تستخدمه»[2184]. إذا استمررنا جميعًا في تجاهل هذه الأوامر القطعية الجديدة - ولا سيما قادتنا، ومعظمهم لم يتمكن من إدخال عامليْ تأمين لحسابات بريدهم الإلكتروني - فكيف ستحجب أيةُ بواباتٍ أمثالَ أسانج وجوتشيفر؟

يجري حاليًا سباق التسلُّح الفكري لابتكار قاعدة تأمين إلكتروني تقبل التطبيق. ومن غير المحتمل أن يتوصل إليها أولئك الغارقون في التفكير التقليدي بشأن الأمن القومي. لعل الهدف الحقيقي ليس رَدْعَ الهجمات أو الثأر من المُهاجمين، بل تنظيم جميع الشبكات المختلفة التي يعتمد عليها مجتمعُنا بحيث تكون مَرِنةً [صامدة]؛ أو لعل الأفضل «مكافحة الهشاشة anti - fragile»، وهو مصطلح صاغه نسيم طالب[2185] Taleb Nassim لوَصْفِ نظامٍ ينمو بشكل أقوى حين يتعرض للهجوم[2186].

وأولئك - من أمثال طالب - الذين يعيشون في عالَمِ إدارة المخاطر المالية، شهدوا في عام 2008 مدى الهشاشة التي كانت عليها الشبكة المالية الدولية: فَشَلُ بنكِ استثمارٍ واحدٍ جَعَلَ نظامَ الائتمان العالمي ينهار بأكمله تقريبًا. أما بقيتنا فعَالِقون مع مَصْرفيين وتُجَّار: فكُلُّنا الآن متواصلون كما كُنَّا منذ عقد سالف. وكالشبكة المالية، تقع شبكاتنا الاجتماعية والتجارية وشبكات البنية التحتية تحت هجوم متواصل من الحمقى والأشرار، ولا نملك سوى القليل جدًا مما

يمكننا القيام به لرَدْعِهِم. أفضل ما نستطيع فعله هو تصميم شبكاتنا وبناؤها بحيث يمكنها الصمود أمام ويلات سايْبِريا Cyberia. وذلك يعني مقاومة إغراءِ بناءِ تعقيدٍ، عندما تكون البساطة (كما في حالة التنظيم المالي) هي الخيار الأفضل[2187]. وتعني البساطةُ - في المقام الأول - فَهْمَ هياكل الشبكات التي نبتكرها.

عندما تُزالُ نِصْفُ عُقدِ رَسْمٍ بيانيّ عشوائيٍّ يُصَوِّرُ شبكةً في حجم معظم شبكات عالمنا الحقيقي، فستُدمَّرُ الشبكةُ. ولكن حين نقوم بالإجراء نفسه ضد نموذج حُرّ النطاق من حجمٍ مماثل، «فإن العنصر المُتَّصِلَ العملاق يُقاوِمُ حتى بعد إزالة أكثر من 80% من العُقد، ويكون متوسط المسافة داخله [أيْ بين العُقد] هو عمليًا المتوسط نفسه الذي كان عند البداية»[2188]. وهذه فكرةٌ حيوية مهمة لمَن يُصَمِّمون شبكاتٍ مكافحةً للهشاشة في مواجهةِ هجومٍ متعمَّد ومُوجَّه.

### فانج[2189]، بات[2190]، الاتحاد الأوربي

في مارس عام 2017، هاجمت لجنةُ الشؤون الداخلية بمجلس العموم [برلمان House of Commons Home Affairs Committee المملكة المتحدة]، بقيادة رئيستها إيفيت كوبر[2191] Yvette Cooper، هاجمت شركات جوجل وفيسبوك وتويتر لعدم قيامها بما يكفي للرقابة على الإنترنت نيابةً عنهم. اشتكتْ كوبر من أن فيسبوك فَشِلَ في رَفْع صفحة بعنوان «حَظْر الإسلام» Ban Islam. وكما قالت: «نحتاج منكم أن تفعلوا المزيد، وأن تتحملوا مزيدًا من المسؤولية الاجتماعية لحماية الناس»[2192].

وفي الأسبوع نفسه، كشف وزير العدل الألماني هايكو ماس Heiko Maas عن مشروع قانون سيفرض غراماتٍ تصل إلى 50 مليون يورو على الشبكات الاجتماعية التي تفشل في حذف «كلمات تَحُضُّ على الكراهية» أو تنشر «أخبارًا زائفة». وعلى حدِّ تعبيره: «يُحْذَفُ القليل جدًا من المحتوى غير القانوني، ولكنه لا يُحْذَفُ بالسرعة الكافية»[2193].

يمكن للمرء أن يجادل لصالح الرقابة على المحتوى البغيض وضده. ومن الممكن أن يتعجب من أن الشركات والوكالات الحكومية تنفق المال على الإعلان الإلكتروني عشوائيًا، إلى درجة وَضْع شعاراتها بلا تمييز على مواقع جهادية. ومع ذلك، لا يعني القولُ بأن شركتيْ جوجل وفيسبوك ينبغي أن تمارسا الرقابة تنازلاً عن المسؤولية، بل هو دليل على سذاجة غير عادية. وكما لو أن هاتين الشركتين ليستا قديرتين بما يكفي، فيريد السياسيون الأوربيون - على ما يبدو - منحهما القدرة على الحدِّ من حرية مواطنيهم في التعبير.

هناك ثلاث نقاط جوهرية يجب فَهْمُها بشأن ثورة تكنولوجيا المعلومات.

الأولى هي أنها بكاملها إنجاز أمريكي تقريبًا، وإن يكن بإسهامات من علماء الكمبيوتر الذين توافدوا إلى وادي السِّليكون من كل أنحاء العالم، والمُصنِّعين الآسيويين الذين خفَّضوا تكاليف الهاردوير [عتاد الكمبيوتر المادي] hardware.

ثانيًا، أهم شركات التكنولوجيا الأمريكية هي المهيمنة الآن بشكل غير عادي.

ثالثًا، تُتَرْجَمُ هذه الهيمنةُ، كما رأينا، إلى كميات هائلة من الأموال. وأما بقية العالم في مواجهة هذه الثورة الشَّبَكية الأمريكية، فلديه خياران:

الإذعان والتنظيم أو المَنْع والتنافس. وقد اختار الأوربيون الخيارَ الأول. ستَبْحَثُ دون جدوى عن مُحَرِّكِ بحثٍ أوربيٍّ، وبائع تجزئة أوربي على الإنترنت، وشبكة تواصل اجتماعي أوربية. أكبرُ شركةٍ إنترنت مقرُّها الاتحاد الأوربي هي سبوتيفَي S: شركة خدمات تجارية للموسيقى والفيديو مقرُّها ستكهولم وأُنْشِئت عام 2006 [2194]. لقد توغل فانج FANG في الاتحاد الأوربي؛ وكل ما يمكن أن تفعله المفوضيةُ الأوربية[[2195]] European Commission مضايقةَ عمالقة الولايات المتحدة بتوصيات مكافحة الاحتكار، وفواتير ضريبية بأثر رجعي، وقواعد أكثر صرامة بشأن الخصوصية وحماية البيانات، ناهيك عن حقوق التوظيف[2196].

وقد رَادَ الأوربيون الطريقَ بترسيخ قاعدة أن الشركات الأمريكية لا يمكنها العمل على أراضيهم بشكل مستقل عن القانون الوطني أو الأوربي.

الفرنسي مارك كنوبل Marc Knobel هو الذي رَسَّخَ فكرةَ أن ياهو Yahoo لا يمكنه الإعلان عن تذكارات النازي[[2197]] Nazi memorabilia في مواقعه الخاصة بالمزادات العلنية أونلاين، لا بسبب أن الخادمَ [السيرفر] الذي يدخل عَبْره المُستخدِمون الفرنسيون إلى الموقع موجودٌ في أوربا (في ستكهولم) فقط، بل لأن ياهو لم يكن عاجزًا (كما قيل) عن تمييز المُستخدِمين الفرنسيين من غيرهم، أيضًا[2198]. وأقَرَّ عددٌ من الدول الأوربية - فرنسا، بل بريطانيا وألمانيا أيضًا - قوانين تفرض على مُزوِّدي خدمة الإنترنت Internet Service Providers حَجْبَ محتوى محظور (كالصور الإباحية التي تَستخدم الأطفالَ) حتى لا يراها مواطنوهم. ولكن النُّخَب السياسية الأوربية صارت تعتمد اعتمادًا كبيرًا على الشركات الأمريكية، مثل فيسبوك، للقيام بالرقابة نيابةً عنها، فتتغافل [هذه النُّخَبُ] - على ما يبدو - عن مخاطر أن «معايير المنتديات» على فيسبوك ربما تنتهي إلى أن تكون أكثر تشدُّدًا من القانون الأوربي[2199].

وعلى النقيض من الأوربيين، اختار الصينيون المنافسةَ. وهو ردُّ فعل لم يكن يتوقعه الأمريكيون، الذين افترضوا أن بكين ستحاول بكل بساطة «السيطرةَ على الإنترنت»، وهي محاولة شبَّهَها الرئيسُ بِلْ كلينتن Bill Clinton ب «محاولة دَقِّ مسمار من الجيلي في الحائط»[2200]. كَتَبَ أكاديمي أمريكي في عام 2003 قائلاً:

«الإنترنت شبكةٌ مَسامِّية [يسهل اختراقها]... وإذا كان الناس في الصين يريدون الحصول على معلومات من مواقع في وادي السِّليكون، فإن أقدر الحكومات سيصعب عليها الضغط لإيقافهم»[2201]. وليس هذا صحيحًا تمامًا. فبكل تأكيد توجد رقابةٌ.

منذ عام 2012، عندما أصبح لُوْ وي[2202] Lu Wei مسؤولاً عن المجموعة المركزية الرائدة للشؤون الإلكترونية[2203] Central Leading Group for Cyberspace Affairs زادت الصينُ من كفاءة جدار الحماية العظيم[2204] Great Firewall الذي يمنع الوصول إلى عشرات الآلاف من المواقع الإلكترونية الغربية، فضلاً عن مشروع الدِّرْع الذهبي[2205] Golden Shield الذي يَتولَّى مراقبة الإنترنت، والمدفع العظيم[2206] Great Cannon الذي يمكن استخدامه في الهجوم على مواقع مُعادِية.

المدوَّناتُ المُصَغَّرة microblogs والشبكات الاجتماعية مثل سينا ويبو[2207] Sina Weibo مُراقَبةٌ بإحكام شديد، مع أحكام بالسجن للمُدانين بنَشْرِ معلومات زائفة أو تخريبية على الإنترنت. ولْنضرب مثلاً واحدًا على كيفية عمل السلطات الصينية، في سبتمبر عام 2016 أجبرت الحكومةُ [شركة] نِتْ إيز[2208] NetEase على إغلاق كل منتدياتها على الإنترنت، باستثناء المتعلقة بالعقارات والمنازل[2209]. ورغم تسامح الحكومة مع قدر كبير من النقد المُوجَّه لها على الإنترنت، سرعان ما أغلق المُراقِبون كلَّ الدعوات إلى أي إجراء جماعي غير رسمي[2210].

ومع ذلك، ليست الرقابةُ مفتاحَ الردِّ الصيني على العصر الشبكي. كان جوهرُ الإستراتيجية - بوسائل معقولة وكريهة معًا - الحدَّ من وصول شركات تكنولوجيا المعلومات الأمريكية الكبيرة إلى السوق الصيني وتشجيع أصحاب الأعمال والمشاريع المحليين على بناء ردٍّ صيني على فانج Fang. وبينما قبلت ياهو ومايكروسوفت «الانضباطَ الذاتي» الذي تفرضه الحكومةُ[2211]، انسحبت جوجل من الصين في عام 2010 بعد مشاحنات متكرِّرة مع السلطات الصينية بسبب رقابتها وهجماتها [اعتداءاتها] على حسابات Gmail الخاصة بنُشَطاء حقوق الإنسان.

ومنذ سَجَّل فيسبوك اسمَ النطاق www.facebook.cn في عام 2005، حاول ترسيخَ أقدامه في الصين، ولكنه حُظِرَ في عام 2009، عندما اتُّهِمَتْ شركاتُ الميديا الاجتماعية بإثارة اضطراب في شينجيانج Xinjiang المُسْلِمة أساسًا[2212].

والخلاصة أن الإنترنت في الصين اليوم يُهَيْمِنُ عليه بات BAT [الحروف الأولى للشركات الصينية الآتية]: بايدو[2213] Baidu

(مُحَرّك البحث [الصيني] الذي أسَّسه روبين لي[2214] Robin Li عام 2000)؛ علي بابا[2215] Alibaba (مجموعة قابضة رَدَّ بها جاك ما[2216] Jack Ma على أمازون، تأسَّستْ في عام 1999)؛ تِنْسِنت[2217] Tencent (الذي ابتكره قبل عام، ما هِواتِنج[2218] Huateng Ma، وهو معروف بتطبيق التراسل وي تشات WeChat).

هذه التكتلات أكثر بكثير من مجرد استنساخات لنظائرها الأمريكية؛ فكل منها أظهرت نفسَها بوصفها مُبتكَرة ومبتكِرة؛ وهي كبيرة في حجمها ونطاقها كنظيراتها الأمريكية، بقيمة سوقية تزيد على 473 مليار دولار وعائدات سنوية تُقدَّرُ ب 20 مليار دولار. وي تشات WeChat يستخدمه 86% من مُستخدِمي الإنترنت الصينيين، ويُحَوِّلُ بسرعة فائقة بطاقةَ العمل الآسيوي، لمرة واحدة إلزامية، إلى رموز استجابة سريعة وسهلة [رموز كيو آر] QR codes[2219].

تجاوزت عائداتُ مجموعة علي بابا في الصين عائداتِ أمازون في الولايات المتحدة عام 2015؛ وحِصَّتُها من إجمالي إيرادات البيع بالتجزئة في الصين (التي تتجاوز 6%) هي ضِعْفُ حصة أمازون في الولايات المتحدة[2220].

وغنيٌّ عن القول إن وادي السِّليكون يُكَشِّرُ عن أنيابه لكَوْنه خارج السوق الصيني الضخم. لم يفقد زوكربيرج الأمل بعد، سواء بإجراء مقابلات صحفية بلغة الماندارين[2221] Mandarin السهلة، أو حتى الركض عبر دخان ساحة تيانِنْمِن[2222] Tiananmen Square، ولكن تجربة أ و ب Uber ر
الأخيرة لم تُشَجِّعه. في العام الماضي، بعد تكبُّد خسائر تزيد على مليار دولار في السنة رَفَعَ أوبر العَلَمَ الأبيض [راية الاستسلام]، متقبِّلاً أنه لم يستطع التغلب على شركة ديدي تشوكسِنج[2223] Didi Chuxing الصينية التي تعمل في بيزنس مشارَكة الركوب[2224]. ويرجع ذلك جزئيًا إلى رشاقة تحرُّك ديدي الكبيرة وجيوبها الأعمق، كما يرجع جزئيًا أيضًا إلى التغييرات التنظيمية [الحكومية] التي استهدفت إعاقةَ شركة أوبر في السوق الصيني[2225].

إن إحباطَ الشركات الأمريكية بهذه العوائق وغيرها أمرٌ مفهوم. ولكن من الصعب ألا يتأثر وادي السِّليكون وانتصاراته بالطريقة التي انتهجتها الصين. فالصين لم تكن ذكيةً من الناحية الاقتصادية فقط، بل كانت ذكيةً من الناحية السياسية والإستراتيجية أيضًا. «الأخ الكبير»[2226] Big Brother،

في بكين، لديه الآن البيانات الكبيرة big data التي يحتاجها لإغلاق التبويبات أمام مُستخدِمي الإنترنت الصينيين.

وفي الوقت نفسه، إذا أرادت وكالة الأمن القومي [الأمريكية] NSA جَمْعَ بيانات وصفية metdata من المملكة الوسطى [2227] Middle Kingdom فعليها أن تتغلب على جدار الحماية الصيني العظيم.

لا تزال الحكمة التقليدية في الغرب أن العصر الشَّبَكي غير ملائم، ومُعَادٍ، لحُكْم الحزب الشيوعي الصيني بقدر ما كان غير ملائم ومعاديًا للاتحاد السوفييتي.

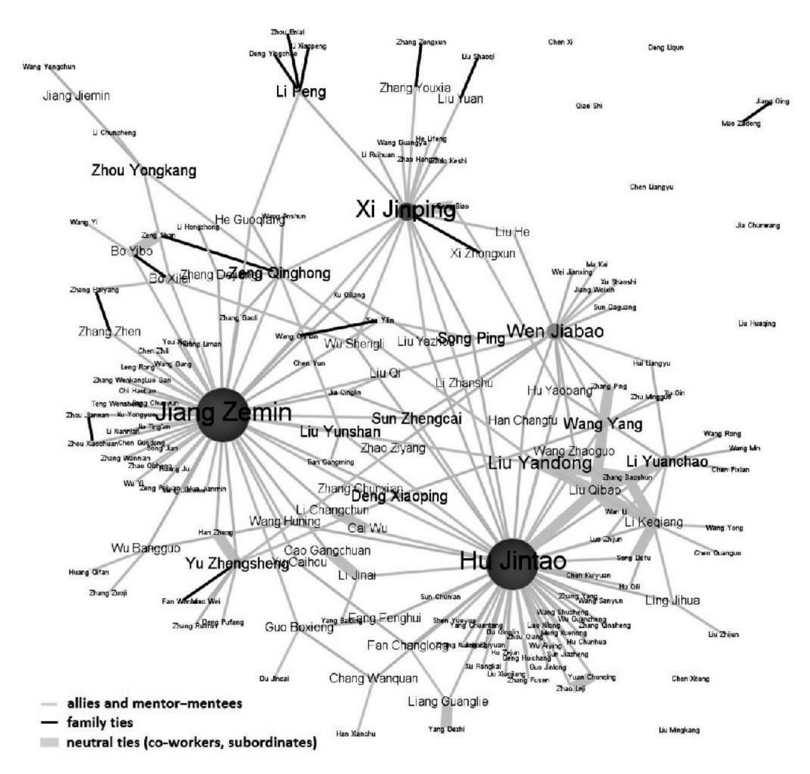
ولكن يوجد مَن يفترضون جدلاً أن الأمر مختلف[2228]. فالحزبُ [الشيوعي الصيني] نفسُه شبكةٌ متطوِّرةٌ، تَتبادل العُقدُ فيها الاتصالَ عبْر حوافِّ حماية ومُناصَرة [رعاية وكَفَالة] ورابطة أقران أو زملاء عمل متعاونين. فمثلاً، من ناحية التَّمَرْكزيَّة البَيْنية، شي جِنْبِنْج Xi Jinping [رئيس جمهورية الصين الشعبية] أقوى من أي زعيم صيني منذ جيانج زيمين Jiang Zemin [الرئيس الصيني الأسبق]، وأقوى بكثير من دِنْج شياو بِنْج Deng Xiaoping [الرئيس الذي قاد الصين نحو اقتصاد السوق] الذي يُقارِنُه به أحيانًا، على سبيل الخطأ، المُعلِّقون الغربيون[2229].

يسمح التحليل الشبكي لدارسي الحكومة الصينية بالابتعاد عن النظريات التبسيطية الخاصة بالفصائل [الزُّمَر] وإدراك براعة الجوانسي [الجوانشي الحديث [2230] modern guanxi. فيُشَدِّدُ تشينج لي [2231] Cheng Li على أهمية روابط الإرشاد والتوجيه في صعود شي Xi إلى السلطة؛ أيْ العلاقات بين كبار شخصيات الحزب ومُساعِدي الرئيس (الميشو [2232] mishu).

أما من يُميِّزون بين «معسكر جيانج - شي Jiang - Xi» النُّخْبوي و«معسكر هو - لي Hu - Li» الشَّعْبوي فيبالغون في التقسيم الصارم إلى فصائل. شي Xi نفسُه تَرقَّى من كَوْنه سكرتيرًا لوزير الدفاع آنذاك جِنْج بياو Geng Biao، إلى مناصب على مستوى المقاطعة والإقليم في هيبي Hebei وفوجيان Fujian وتشيجيانج Zhejiang وشَنغهاي Shanghai، حيث بَنَى شبكةً من المستشارين والناصحين والمُرْشِدين المُخْلصين، تضمنت شخصياتٍ مختلفةً اختلاف «التكنوقراطي الاقتصادي» ليو هي Liu He و«الصقر العسكري المحافظ» ليو يوان Liu Yuan[2233].

وكما تقول فرانسيسكا كِيلَر[[2234]] Franzisca Keller، تُفْهَمُ الصينُ فَهْمًا أفضل من خلال شبكات الإرشاد والتوجيه هذه، أكثر مما تُفْهَمُ بوصفها فصائل. وأما شبكات شي Xi الأخرى

المهمة فتشمل شبكةً مكوَّنة من أفراد قيادة المجموعات الصغيرة التابعين له[2235] والشبكةَ التي تربط الشركات بالبنوك بوَسَاطة سوق السَّنَدات[2236].




الشكل رقم: 50 - شبكة أعضاء اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي الصيني. حجم العُقْدة يتناسب مع عدد الروابط [الاتصالات] (الدرجة)، وحجم الاسم يتناسب مع التمركزيَّة البَيْنية. لاحِظْ أن الروابط بين المُوجِّهين والمتلقين أهم بكثير من الروابط العائلية.

وبعيدًا عن إرادة دَقِّ مسمار جيلي في الجدار، يستفيد النَّهْجُ الصيني في الميديا الاجتماعية بشكل متزايد مما تكشفه المُدوَّنات المُصغَّرة microblogs عن اهتمامات المواطنين وانشغالاتهم. عندما نَقَّبَ باحثون من هونج كونج والسويد والولايات المتحدة في بيانات أكثر من 13 مليار منشور في المُدوَّنات المصغَّرة على موقع سينا ويبو Sina Weibo بين عاميْ 2009 و2013، فُوجِئوا بوجود 382 ألف منشور يُلْمِحُ إلى صراعات اجتماعية، و2.5 مليون منشور ذَكَرَ احتجاجاتٍ شعبيةً كالإضرابات.

والفرضية هي أن السلطات صارت تستخدم الميديا الاجتماعية لمراقبة المعارضة، بقدر ما تستخدمها لضَبْط الفساد. ومما له دلالة [هنا] أن ال 680 موظَّفًا عامًا المُتَّهَمين بالفساد على موقع ويبو Weibo، الذين وُجِّه لهم اتهامٌ رسمي في النهاية، ذُكِروا عشر مرات تقريبًا أكثر ممن لم يُوَجَّه لهم اتهام[2237].

مُعالَجة بيانات أخرى - 1,460 موظفًا عامًا حُقِّقَ معهم بسبب الفساد بين عاميْ 2010 و2015 - قدَّمَتْ مزيدًا من النظرة الثاقبة للشبكات التي تديرها الصين، ومنها شبكة «النمور والذباب» tigers and flies (أيْ: كبار المجرمين وصغار

المجرمين) الذين أصبح سوءُ سلوكهم هدفًا رئيسيًا من أهداف حكومة شي جِنْبِنْج[2238]. لقد مَكَّنَ وجودُ تكنولوجيا المعلومات والكمبيوتر بكين من بناء نظام «ائتمان اجتماعي» social credit، مماثل للائتمان المالي financial credit في الغرب، «يسمح للجدير بالثقة أن يتنقل في كل مكان تحت السماء، أما فاقد الثقة فلن يخطو خطوة واحدة»[2239]. وقد رَسَّخَت الصينُ بالفعل أنظمةَ هوكو hukou (تسجيل الأسر) ودانجان dang'an (السجلات الشخصية)، وبرامج لمكافأة العُمَّال وكوادر الحزب الأكْفَاء. وإدماج هذه [السجلات] مع البيانات التي تستخلصها السلطاتُ من شركات بات BAT سيُوفِّرُ نظامًا للضبط الاجتماعي أبعد من أحلام الدول التوتاليتارية [الشمولية] أواسط القرن العشرين.

وفي الوقت نفسه، يبدو قادةُ الصين أبرعَ في «حِرْفَة الويب» webcraft من نظرائهم الأمريكيين. فبينما يُرَجَّحُ انتهاءُ الشراكة عبر المحيط الهادي[2240] Trans Pacific Partnership
بسبب تراجع الدعم الأمريكي من قبل إدارة ترامب، نجد مبادرات صينية مثل Belt ت ـا ـيـ بـ
و ر و و د Road والبنك الآسيوي للاستثمار في البنية التحتية[2241] Asian Infrastructure Investment Bank
تجذب بشكل مستمر مشاركين جُدُدًا. والاختبار الرائع للنَّهْج الصيني سيكون إلى أي مدى تستطيع الصينُ القفزَ أعلى من الولايات المتحدة في التنمية السريعة لقطاع التكنولوجيا المالية.

منذ الأزمنة القديمة، استغلت الدول قدرتها على احتكار إصدار العُمْلة، سواء خُتِمَت العُمْلة برَسْم المَلِك، أو أوراق نقدية تُصَوِّرُ رؤساء سابقين، أو إدخالات إلكترونية على شاشة. ومع ذلك، فإن العُمْلات الرقمية القائمة على سلسلة ـين] blockchain مثل بيتكوين[2242] Bitcoin أو إيثريوم[2243] Ethereum تُقَدِّمُ العديدَ من المزايا المتفوقة على العُمْلة الورقية كالدولار الأمريكي أو الين الصيني.

بيتكوين بوصفه وسيلةً للدَّفْع - وبخاصة في المُعامَلات عبر الإنترنت - أسرع وأرخص من بطاقة الائتمان أو حوالة مَصْرفية. ولأن بيتكوين مُستودَعُ قيمةٍ، فهو ينطوي على العديد من سمات الذهب الرئيسية، ولا سيما الإمداد المحدود. وبوصفه وحدةَ حساب، فهو غير مستقر، وذلك لأنه أصبح موضوع مُضَارَبة جذَّاب:

الذهب الرقمي. وأسوأ ما فيه أنه يُهْدِرُ بشكل غير عادي مواردَ الكمبيوتر لكَوْنه «يُعَدَّنُ» أو «يُجَزَّأ» ويُوَثَّق[2244]. ومن ناحية أخرى، تكنولوجيا دفتر الحسابات الموزَّع [ويُسَمَّى سلسلة الكُتَل أو بلوك تشين] تحلُّ مشكلةَ الموثوقية والأمن، بحيث

يعمل بيتكوين أيضًا بوصفه تكنولوجيا تراسُل في مأمن من الغش والاحتيال، وأما الإيثريوم فيمكنه أَتْمَتَة إنفاذ العقود، دون الحاجة إلى المراقبة البيروقراطية الباهظة الثمن، التي هي جزء لا يتجزأ ومُكَلِّف من نظام المدفوعات الوطنية والدولية القائم[2245]. وباختصار، «يُوَزِّعُ الائتمانُ وتُضْفَى عليه صفةُ الشخصية وصفةُ الاجتماعية... دون الحاجة إلى مؤسَّسة مركزية للتصديق»[2246]. وبطبيعة الحال، ليست السلطات الصينية مستعدة للتخلي عن نظام مدفوعاتها لصالح بيتكوين، شأنها في هذا شأن عدم تخلِّيها عن نظامها في التاكسي لأوبر. بل تنزعج السلطات الصينية من أن 40% من شبكة بيتكوين العالمية أنتجها «مُنقِّبون» [مُعَدِّنون] صينيون، وأن ما يقرب من ثلاثة أرباع صفقات بيتكوين تمَّتْ في بورصة بيتكوين في الصين Bitcoin China (BTCC)[2247]. ومع ذلك، تُقدِّرُ بكين بوضوح قوةَ البلوك تشين [سلسلة الكُتَل] blockchain بوصفها تكنولوجيا. وهذا هو السبب في أن بنك الصين الشعبي People's Bank of China، وعددًا من حكومات المقاطعات، أوْشَكَا على إطلاق «عُمْلة رسمية مُشَفَّرة» official crypto - currency - قد تُسَمَّى بيتيوان Bityuan - في مقاطعة أو مقاطعتين في المستقبل القريب[2248].

وربما تتفوق سنغافورة على بكين في سباق تقديم أول عُمْلة رسمية مُشَفَّرة، ولكن بكين ستتفوق بكل تأكيد على واشنطن[2249]. إذا نجحت التجارب الصينية فستمثل بدايةَ حقبةٍ جديدة في التاريخ النقدي، وتحدِّيًا خطيرًا لمستقبل الدولار بوصفه العُمْلة الدولية الرئيسية.

يبدو الأمر أحيانًا كما لو أننا مُدانون لمحاولة فَهْم زمننا بأطر مفاهيمية ترجع إلى أكثر من نصف قرن ماضٍ. فمنذ الأزمة المالية، والعديد من الاقتصاديين يُعيدون تدويرَ أفكار جون مينارد كينز John Maynard Keynes، المُتوفَّى عام 1946، بطريقة اختزالية. ويخلط كُتَّابُ السياسة الأمريكية والأوربية بين الشَّعْبويةَ populism والفاشية fascism، كما لو كان عصر الحروب العالمية هو التاريخ الوحيد الذي درسوه.

ويبدو مُحلِّلو العلاقات الدولية متشبِّثِين بمعجمٍ يُؤرِّخُ للمرحلة نفسها تقريبًا: الواقعية أو المثالية، الاحتواء أو الاسترضاء، الرَّدْع أو نزع السلاح. «التلغراف الطويل» Long Telegram الذي كتبه جورج كِنَنْ [[2250]] George Kennan أُرْسِلَ قبل شهرين فقط من وفاة كينز؛ كتاب هيو تريفور روبر[[2251]] «أيام هتلر الأخيرة» Hugh Trevor Roper' Last Days of Hitler نُشِرَ في السنة التالية.

وقد حَدَثَ كلُّ ذلك منذ سبعين سنة. عصرنا الحالي يختلف اختلافًا عميقًا عن أواسط القرن العشرين. دول القيادة والسيطرة القريبة من حدِّ الاكتفاء الذاتي، التي خرجت من الكساد Depression، والحرب العالمية الثانية وأوائل الحرب الباردة التي توجد اليوم - إنْ وُجِدَتْ على أية حال - ليست سوى ظلال باهتة لذواتها السابقة. البيروقراطيات والآلات الحزبية التي تُديرها [هذه الدولُ]، في حُكْم الميتة أو تعاني من اضمحلال وتفسُّخ. والدولة الإدارية administrative state في تجسُّدها الأخير. اليوم، خَلَقَ الجَمْعُ بين الابتكار التكنولوجي والتكامل الاقتصادي الدولي أشكالاً شَبَكيَّة جديدة تمامًا لم يكن ليحلم بها كينز أو كِنَنْ أو تريفور روبر، بدءًا من عالَم الجريمة السُّفْلي حتى «العالَم الفوقي» المُرَوْحَن في دافوس.

قال وينستن تشرشل Winston Churchill إنه «كلما أمكنك النظر إلى الوراء، أمكنك النظر إلى الأمام». ونحن أيضًا لا بد أن ننظر إلى الوراء أبعد، ونسأل أنفسَنا السؤالَ الآتي: هل من المحتمل أن يُكَرِّرَ عصرُنا تجربةَ الفترة التي تلت عام 1500، عندما أطلقت ثورةُ الطباعة موجةً ثورية وراء موجة ثورية؟[2252] هل الشبكات الجديدة تُحَرِّرُنا من أغلال الدولة الإدارية، كما حَرَّرَتِ الشبكاتُ الثورية في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر أسلافَنا من أغلال الهَرَميَّة الروحية [الدينية] والزمنية؟ أم هل ستنجح الهَرَميَّات المؤسَّسية في عصرنا، بأسرع من سابقاتها الإمبراطورية [الإمبريالية]، في ضَمِّ الشبكات وإدراجها في الرذيلة القديمة، رذيلة شَنِّ الحروب؟

اليوتوبيا الليبرتارية [التحرُّرية] libertarian utopia التي يَتبنَّاها مُستخدِمو الإنترنت الأحرارُ المتساوون - وجميعهم مُتَّصِلون ببعضهم البعض ويتشاركون كلَّ البيانات المتاحة بأقصى قدر من الشفافية وبأقل قدر من إعدادات الخصوصية - لها جاذبيةٌ مُحَقَّقة وبخاصة عند الشباب. ومِن الرومانسي تخيُّلُ أن يثور مُستخدِمو الإنترنت هؤلاء - كالعُمَّال في فيلم لانج «ميتروبوليس» - عَفْويًا ضد نُخَب العالَم الفاسدة، ثم يطلقون العنانَ لقوة الذكاء الصناعي كي يُحَرِّرَهم من كَدْح العمل وشقائه، أيضًا. مَن يحاولون التطلع إلى الأمام دون النظر إلى الوراء يسقطون بسهولة في فَخِّ هذا النوع من التفكير بالتمنِّي. منذ أواسط تسعينيات القرن العشرين، وعلماء الكمبيوتر، وغيرهم، يتخيَّلون إمكان وجود «دماغ عالمي» global brain: «كائن كوكبي فائق» ذو تنظيم ذاتي[2253]. في عام 1997، تطلَّع مايكل دِرْتوزوس[2254] Michael Dertouzos إلى عصر «سلام بمساعدة الكمبيوتر»[2255].

وكَتَبَ متحمِّسٌ آخر في عام 2000 قائلاً: «تفتح تكنولوجيات المعلومات الجديدة آفاقًا جديدة لحاصل جَمْع غير صفري». ويبدو أن كاترين هيلز[2256] N. Katherine Hayles
كانت منتشيةً تقريبًا، وهي تقول إن الحكومات التي لن تستجيب بسرعة للامركزية س«تُعاقَبُ... بسرعة»[2257].
وفي عام 2006 قالت: «بوصفنا سُكَّان شبكات مُتَّصِلة عالميًا، نحن منضمُّون في دَوَّامة تعاونية ثورية دينامية مع آلات ذكية ومع أنواع بيولوجية أخرى نتشارك معها الكوكب». هذه الدَّوَّامة التصاعدية المتميزة ستُنتج في النهاية «مجالاً إدراكيًا»[2258] cognisphere جديدً[2259]. ثم بعد ثلاث سنوات، تَصوَّرَ إيان توملِن Ian Tomlin «أشكالاً لا نهائية من الاتحادات بين الناس... تتجاوز... الاختلافات في الدين والثقافة، تنقل تَعاطُفًا وتعاونًا عالميًا حيويًا لبقاء الكوكب»[2260]. ثم يعلن قائلاً: «ستكون غرائزُ البشر الاجتماعية المتعلقة بتلاقي الأفكار وتَشَارُكِها الشيءَ الوحيدَ الذي يحفظ عِرْقنا من تدميره لنفسه، ذات يومٍ»[2261]. ويكتب مؤلِّفٌ آخر قائلاً إن «المعلوماتية» ستكون موجةَ العَوْلمةِ الثالثة[2262]. سيُنْتِجُ «جيلُ الويب الثالث web 3.0 نسخةً معاصرةً من «انفجار كمبري»[2263] «Cambrian explosion»، وسيعمل بوصفه «قوةً مُوجِّهة لذكائنا الجَمْعيِّ»[2264].

وبطبيعة الحال، لدى سادة وادي السِّليكون كلُّ الحوافز لإضفاء طابع رومانسي على المستقبل. يطلع علينا بِلاجي سرينيفاسِن Balaji Srinivasan برؤى مُسْكِرَةٍ

عن جيل ألْفيٍّ يتعاون في «سُحُب» [كلاودز] clouds الكمبيوتر، جيل متحرّر من الجغرافيا، يدفعُ أحدُهم للآخر بعُمْلات رمزية رقمية، جيل متحرِّر من أنظمة الدولة في الدَّفْع. حين تحدَّث مارك زوكربيرج في حفل الخريجين بهارفارد عام 2017، طلب من الخريجين الجُدُد أن يشاركوا في «خَلْق عالَمٍ يكون فيه لدى الجميعِ إحساسٌ بالهدف: يتحمَّلون معًا مشروعات كبيرة ذات مغزى، ويُعيدون تعريفَ المساواة كي يكون لدى كل شخص حريةُ السعي وراء هدف، وبناء مجتمع عبر العالم».

ولكن زوكربيرج يُجَسِّد بنفسه عدمَ مساواة اقتصادات النَّجْم. معظم العلاجات التي يتصورها لعدم المساواة - «دخل أساسي عالمي، رعاية صحية للأطفال بأسعار معقولة، رعاية صحية لا ترتبط بشركة واحدة... تعليم متواصل» - لا يمكن أن تتحقق على الصعيد العالمي، بل غير قابلة للتطبيق إلا بتنفيذ سياسات وطنية من خلال دولة الرعاية الاجتماعية القديمة في القرن العشرين. وعندما يقول إن «نضال عصرنا» هو بين «قوى الحرية والانفتاح والمجتمع العالمي ضد قوى الاستبداد والعُزْلة والقومية»، فهو يبدو ناسيًا كَمْ كانت شركتُه مفيدةً لقوى الاستبداد والعُزْلة والقومية[2265].

لا تعطينا تواريخ علم المستقبل أيَّ سبب يجعلنا نَتوقَّعُ تَحَقُّقَ أي شيء من رؤية وادي السِّليكون اليوتوبية. إذا استمر قانون مور Moore’s Law في العمل، فينبغي أن تكون الكمبيوترات قادرةً على محاكاة الدماغ البشري بحلول عام 2030. لكن لماذا نتوقع ذلك ولدينا نوعية النتائج اليوتوبية المُتخيَّلة في الفقرة السابقة؟

قانون مور كان يعمل في الأوقات الأبكر بعد أن اخترع تشارلز بابيج Charles Babbage «المُحَرِّك التحليلي» [Analytical Engine[2266] قبيل وفاته في عام 1871، وكان يعمل بلا ريب منذ الحرب العالمية الثانية. ولا يمكن القول حاليًا بوجود تَحسُّنٍ أُسِّيٍّ متناسب في إنتاجيتنا ناهيك عن سلوكنا الأخلاقي بوصفنا نوعًا [عاقلاً]. بل توجد حالةٌ قويةٌ مُفادُها أن الابتكارات في الثورات الصناعية الأولى كانت أنْفَعَ للبشر من الثورات التي حدثت مؤخرًا[2267]. وإذا كانت العاقبة الرئيسية للروبوتات المتقدِّمة والذكاء الصناعي هي البطالة واسعة النطاق[2268]، فستنخفض بكل تأكيد الفرصُ أمام أغلبية الجنس البشري[2269] كي تَتوفَّرَ بلا شكوى على أنشطة ترفيهية غير مؤذية، سعيًا من أجل بعض الدخل الأساسي الكافي بالكاد. التوتاليتارية [الشمولية] القائمة على المُسَكِّنات التي تَخيَّلها ألدوس هكسلي Aldous Huxley هي وحدها التي ستجعل مثل هذا التنظيم الاجتماعي قابلاً للتحقق[2270]. والنتيجة الأكثر رجحانًا هي تكرار الاضطرابات العنيفة التي أغرقت، في النهاية، العصرَ الشَّبَكيَّ العظيمَ السابق في فوضى

الثورة الفرنسية[2271].

والأكثر من هذا، لا يمكن تجاهل الشك في أن القوى غير الحميدة - رغم كل الضجة اليوتوبية - قد تعلمت بالفعل كيف تستخدم مجال الإدراك الجديد وتُسيِئ استخدامَه لصالحها. من الناحية العملية، يعتمد الإنترنت في تشغيله على كابلات بحرية وأسلاك ألياف بصرية وروابط أقمار صناعية ومستودعات هائلة مليئة بالخوادم [السيرفرات]. ولا توجد يوتوبيا بشأن مِلْكية تلك البنية التحتية، ولا بشأن الترتيبات الاحتكارية التي تجعل مِلْكية مَنَصَّات الويب الرئيسية مُرْبِحةً إلى هذا الحد [الذي رأيناه]. الشبكاتُ الجديدة الواسعة النطاق صارت ممكنةً، ولكنها - كشبكات الماضي - هَرَمِيَّةٌ في هيكلها، وذاتُ أعداد صغيرة من المحاور فائقة الاتصال مُشَيَّدة كالبُرْج على كتلة هائلة من العُقَد المتناثرة المُتَّصِلة ببعضها. ولم يعد مجردَ احتمالٍ أن تَسْتَخْدِمَ هذه الشبكةَ أوليجاركياتٌ فاسدةٌ أو متعصِّبون دينيون لشَنِّ نوعية جديدة من الحروب في الفضاء الإلكتروني لا يمكن التنبّؤ بها. فهذه الحرب بدأت. وتشيرُ مؤشِّرات المخاطر الجيوسياسية إلى أن حربًا تقليدية أو حتى نووية أمرٌ غير مستبعد[2272]. وليس بالمستبعد أن «الكائن الكوكبي الفائق» الذي ابتكره دكتور سترينجلوف [Dr Strangeloves[2273]] بوَسَاطة الذكاءِ الصناعي، قد يجري مندفعًا مسعورًا، ذات يوم، يقتل الناسَ، ظنًا منه بأن العِرْقَ البشري - وهذا صحيح - أكبرُ تهديد لبقاء الكوكب نفسه على المدى البعيد، فيُبِيد الكثيرَ مِنّا[2274].

قال أفن ويليامس[[2275]] Evan Williams، أحدُ مؤسِّسي تويتر، في مايو عام 2017:

«اعتقدتُ أن الجميع يمكنه التحدُّث وتبادل المعلومات والأفكار بحُرِّية، وأن العالم سيكون هو المكان الأفضل تلقائيًا». «لقد كنتُ مُخطئًا في ذلك»[2276]. يُعَلِّمنا التاريخُ أن الثقة في إدارة الشبكات للعالَم ما هي إلا وَصْفَةٌ لإغراقه في الفَوْضَى [الأناركية] anarchy: ففي أحسن الأحوال ستنتهي السلطة إلى أيدي المُتنوِّرين [الإلوميناتي]؛ بل ستنتهي على الأرجح إلى أيدي اليعاقبة Jacobins. ويميل البعضُ اليوم إلى «التهليل مرَّتين على الأقل للأناركية [الفوضوية][[2277]] anarchism»[2278]. أما مَن عاشوا أثناء حروب تسعينيات القرن الثامن عشر والعقد الأول من القرن التاسع عشر فتعلموا درسًا مهمًا، وهو الدرس الذي علينا تعلُّمه من جديد: إن لم نكن راغبين في عَيْش زَوْبَعة ثورية وراء أخرى، فمن الأفضل فَرْض نظام هَرَميٍّ على العالَم ومَنْحه بعض الشرعية. في مؤتمر فيينا Congress of Vienna[[2279]] وافقت القوى العظمى الخَمْس على إقامة نظام من هذا النوع، وقد

وَقَّرَ الحُكْمُ الخماسي الذي شكّلوه استقرارًا ملحوظًا حتى مطلع القرن التالي.

ثم ها نحن أولاء، بعد أكثر من مئتي عام، نواجه الخيار نفسه. وأما مَن يُفضِّلون عالمًا تُديره الشبكاتُ فلن ينتهي بهم الحال إلى تَحقُّق يوتوبيا أحلامهم عن الاتصال ببعضهم البعض، بل إلى عالَمٍ منقسم بين فانج Fang [الشبكات الأمريكية] وبات BAT [الشبكات الصينية]، عالَمٍ تنتابه كلُّ الأمراض التي ناقشناها أعلاه، فتستغل شبكاتٌ فرعيةٌ [بديلة] خبيثةٌ فُرَصَ الشبكة العالمية World Wide Web في نَشْر ميمات وأكاذيب شبيهة بالفيروس.

البديل هو أن يعترف اتحادٌ خماسي آخر من القوى العظمى بأن مصلحتَه المشتركة مقاومةُ انتشار النزعة الجهادية jihadism والإجرام والتخريب الإلكتروني، ولن نقول شيئًا عن التغير المناخي. في أعقاب هجوم واناكراي Wai الإلكتروني عام 2017، كان يجب على الحكومة الروسية فَهْم أنه لا يمكن لأية دولة أن تأمل في السيطرة على سايْبريا Cyberia لوقت طويل: فالبرمجيات الخبيثة التي طَوَّرَتْها وكالةُ الأمن القومي الأمريكية NSA - بوصفها سلاحًا إلكترونيًا يُسَمَّى إيترنال بلو EternalBlue - سرقته وسَرَّبته مجموعةٌ تُسَمِّي نفسَها «وُسطاء الظل» [شادو بروكِرز] [2280] Shadow Brokers.

وقد أخذ باحث بريطاني على عاتقه إيجاد «مفتاح القتل» [أو الإيقاف الطارئ] kill switch، ولكن بعد إصابة مئات الآلاف من الحواسيب، بما فيها الأجهزة الأمريكية والبريطانية والصينية والفرنسية والروسية. ما الذي يمكن أن يوضح بشكل أفضل من هذا المصلحةَ المشتركة بين القوى العظمى في مكافحة أناركية الإنترنت Internet [2281] anarchy؟

لقد أنشأ مهندسو نظام ما بعد 1945 - بشكل ملائم - أساسًا مؤسَّسيًا لحُكْم خُمَاسيٍّ جديد، يتكون من الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، وهي مؤسسة تحتفظ بكل مقوّمات الشرعية المهمة. وسواء استطاعت هذه القوى العظمى الخَمْس أن تُقدِّمَ قضيةً مشتركة مرة أخرى أم لا، كما فعل أسلافهم في القرن التاسع عشر، فهذا هو السؤال الجيوسياسي الكبير في عصرنا الراهن [2282].

منذ ستة قرون، في [مدينة] سيينا [2283] Siena، [نجد] بُرْج دِلْ مانجيا Torre del Mangia الملحق بقصر بابليكو Palazzo Publico يُلْقِي ظلاً طويلاً على ساحة دِلْ كامبو Piazza del Campo، وهي فضاء مكاني شبيه بالمَرْوحة كان يتحول إلى سوق ومكان للاجتماع وحلبة سباق مرتين في العام. ارتفاع البُرْج [دل مانجيا] يثير الانتباه: فهو يصل بالضبط إلى ارتفاع كاتدرائية مدينة سيينا نفسه، الكائنة على أعلى تلٍّ في المدينة، برمزية واضحة إلى تكافؤ التسلسلات

الهَرَميَّة الزمنية والروحية[2284]. ومنذ قرن، رُمِزَ في فيلم لانج «ميتروبوليس» إلى السلطة الهَرَميَّة بناطحات سحاب مانهاتن التي لا تزال تُلْقِي بظلالها على جنوب سنترال بارك [Central Park[2285] وشرقه معظم أوقات النهار[2286]. عندما بُنِيت الأبراجُ الكبيرة الأولى في نيويورك، بدا أنها فَرَضَتْ بشكل متناسب مكانًا للشركات [والمؤسسات] الهَرَميَّة التي هيمنت على الاقتصاد الأمريكي.

وعلى النقيض من ذلك، تجنَّبَتْ شركاتُ التكنولوجيا المسيطرة اليوم [البناءَ] الرأسيَّ. مقرُّ فيسبوك في مِنلو بارك Menlo Park [إحدى مدن مقاطعة سان ماتيو بولاية كاليفورنيا]، الذي صَمَّمه فرانك جيريFrank Gehry[2287]، هو حَرَمٌ مترامي الأطراف لمكاتب مكشوفة وساحات خضراء؛ وعلى حدِّ تعبير مارك زوكربيرج: «قاعة واحدة تناسب آلاف الناس»، أو (على نحو أدق ربما) رَوْضة هائلة للمهووسين. مبنى شركة أبل الرئيسي الجديد «أبل بارك»
Apple Park في كبيرتينو Cupertino
[إحدى
مدن مقاطعة سانتا كلارا بولاية كاليفورنيا] يشبه سفينةً فضائية دائرية ضخمة من أربعة طوابق فقط (فوق الأرض)، «مركز للإبداع والتعاون» صَمَّمه الراحل ستيف
جوبز
Steve Jobs ونورمان فوستر Norman Foster وجوناثان أيف Jonathan Ive، كما لو أنه لاستضافة شبكة network تشبه الشَّعيرية lattice، كلُّ عُقدة مساوية للأخرى، ذات عدد موحَّد من المحاور، وثمة مطعم واحد فقط[2288].

مقرُّ جوجل الجديد في ماونتن فيو Mountain View [إحدى مدن مقاطعة سانتا كلارا بولاية كاليفورنيا]، يقع وسط مجموعة من «الأشجار والمناظر الطبيعية والمقاهي ومسارات للدراجات»، سيتكوَّنُ من «هياكل كالكتل خفيفة الوزن يمكن نقلها بسهولة»، كما لو أن المقرَّ مُشَيَّد من الليجو [لعبة تركيب] Lego، ويقع في مَحْميَّة طبيعية: مكتب بدون قواعد أساس أو تخطيط لطوابق، يُحاكِي تطوّرَ الشبكة المستمر التي يستضيفها[2289]. أما وادي السِّليكون فيُفضِّلُ الاستلقاءَ أرضًا، ليس خوفًا من الزلازل فقط؛ فعمارته الأفقية تعكس حقيقة أنه المحور الأهم في الشبكة العالمية: ساحة العالَم.

ولكن على جانب الولايات المتحدة الآخر - في الجادَّة الخامسة بمدينة نيويورك New York City's 5th Avenue - يلوح في سـ ـيـ ـتـ ـي الأفق مبنى مكوَّنٌ من ثمانية وخمسين طابقًا [بُرْج ترامب] يمثل تراثًا [تقليدًا]

تنظيميًا مختلفًا تمامًا[2290]. ولا شخص في العالم لديه قولٌ في الاختيار بين الأناركية الشَّبَكيَّة والنظام العالمي سوى صاحب هذا البُرْج المظلم، الغائب.

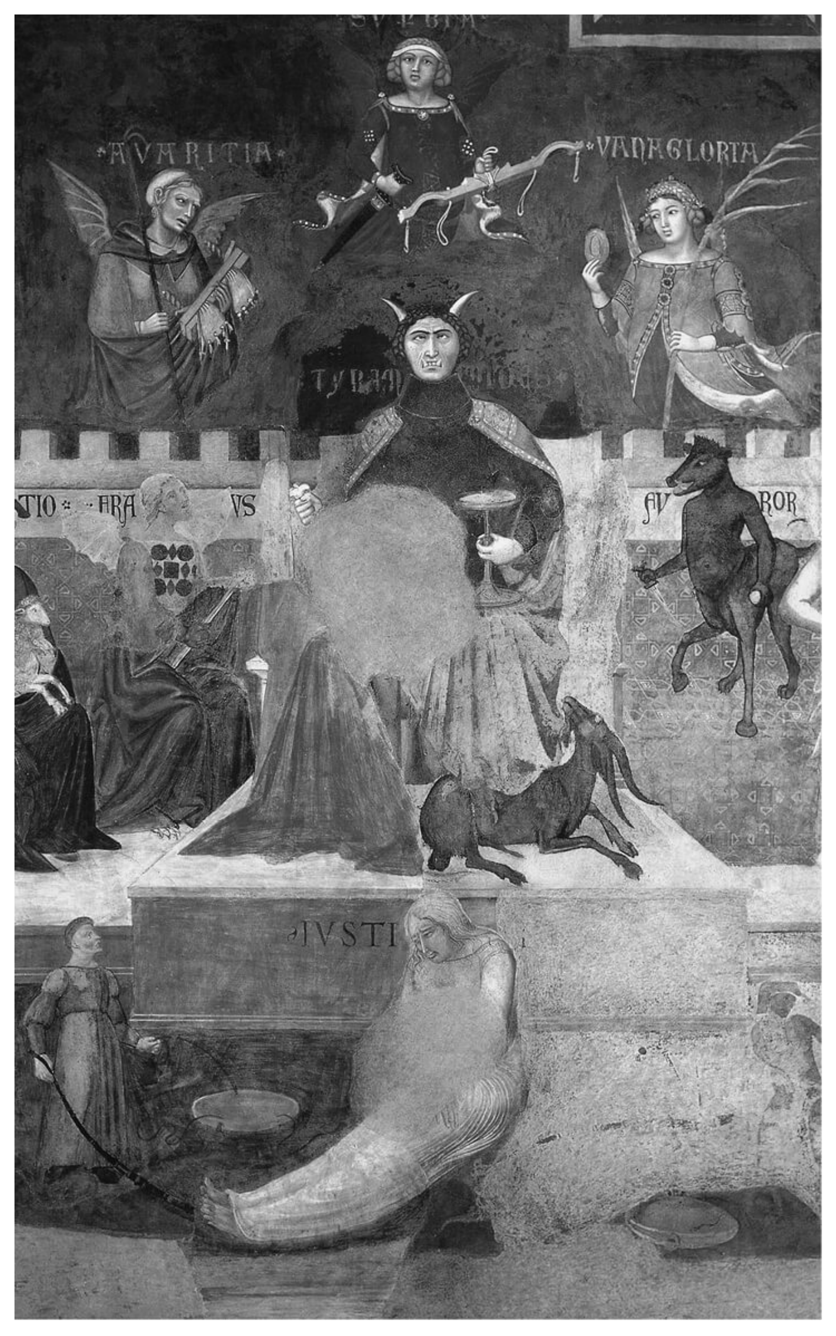
## تعقيب

## الساحة والبرج الأصليان: الشبكات والتسلسلات الهرمية في سيينا القرن الرابع عشر[2291].

كي يتضح السببُ في اختياري لعنوان هذا الكتاب «السَّاحة والبُرْج» The Square and the Tower، لا بد أن يأتي القارئ معي إلى مدينة سيينا Siena. امْشِ عبر ساحة دِل كامبو Piazza del Campo التي تتخذ شكل الصَّدَفة حتى قصر بابليكو Palazzo Pubblico، ستجد نفسَك تمرُّ تحت ظلال بُرْج دِلْ مانجيا Torre del Mangia ذي الأجراس بكل عظمته المُلوكيَّة. ولا مكان آخر في العالم سيُرِيك نَهْجيْن في التنظيم البشري متجاوريْن على هذا النحو الرائع[2292]، وهما نَهْجا التنظيم اللذان عرضتُهما في هذا الكتاب: فمِن حولك، صُمِّم فضاءٌ عامٌّ من أجل كل أنواع التفاعل البشري غير الرسمي تقريبًا؛ ومِن أعلاك بُرْجٌ مهيب قُصِدَ به الرمز إلى السلطة العَلْمانية وإسقاط ظلها على السَّاحة. فكرة هذا الكتاب الرئيسية أن التوترَ بين الشبكات المُوزَّعة والنُّظُم الهَرَميَّة قديمٌ قدم البشرية نفسها.

فالتوتر بينهما قائم بغضّ النظر عن حالة التكنولوجيا، وإن أثَّرت التكنولوجيا في أيهما له اليد العليا. تُجَسِّدُ مدينةُ سيينا هذه الفكرةَ، لأن معمار ساحتها وبُرْجها يسبق تاريخَ ظهور المطبعة في أوربا. بُنِي بُرْج دِلْ مانجيا في القرن الرابع عشر مع قصر بابليكو، الذي تم الانتهاء منه في عام 1312. كما بُنِيَت السَّاحة المرصوفة أيضًا في القرن الرابع عشر[2293].

كثيرٌ من الناس اليوم يُخطئون في التفكير حين يعتقدون أن الإنترنت قد غَيَّرَ العالَم تغييرًا جوهريًا. ليس الإنترنت - كما ذكرتْ معظمُ قرارات المحكمة العليا بالولايات المتحدة مؤخرًا - سوى «ساحة عامة حديثة» modern public square، على حدِّ تعبير القاضي أنتوني كينيدي[2294] Anthony Kennedy. مشكلات عام 2017 ليست جديدة هكذا، كما نودُّ أن نتصور. هل نزوع الرئيس إلى الحُكْم الاستبدادي يُنذِرُ بنهاية الجمهورية؟ هل من المحتمل أن يتصاعد الانقسام الاجتماعي والسياسي إلى صراع أهلي؟ هل من المحتمل أن يقود التحدِّي الذي يطرحه تزايدُ السلطة إلى سلطة جَبْرية، إلى حرب؟ ستبدو مثل هذه الأسئلة مألوفة لدى الرجال الذين شيَّدوا برج دِلْ مانجيا. وإذا ساوَرَك الشكُّ في هذا، ادخُلْ إلى قصر بابليكو، واصعَدْ إلى طابقه الثاني. هناك، على جدران قاعة التسعة Sala dei Nove، ستجد دليلاً مذهلاً على أن الثنائيةَ الضدية بين الشَّبكة والتسلسل الهَرَمي فكرةٌ قديمة.




الشكل رقم: 51 - رؤية لورينزيتي للتسلسل الهَرَمي الخبيث [الشرير]، حيث نُصِّبَ التيراميدُ الشيطانيُّ. وفوق الطاغية يرفرف الجشعُ والغرورُ والخُيَلاء. وتحت قدميه تسقط العدالةُ معصوبةَ العينين مغلوبة على أمرها.

تُعَدُّ اللوحات الجدارية التي رسمها أمبروجيو لورينزيتي Ambrogio Lorenzetti[2295] في قاعة التسعة من بين أعظم إنجازات الفن الإيطالي في القرن الرابع عشر. رأيتُها للمرة الأولى عندما كنتُ طالبَ دراسات عليا مُفْلِسًا أواسط ثمانينيات القرن العشرين. وقد أثّرتْ في نفسي تأثيرًا عميقًا، ورغم

ظروفي العسيرة اشتريتُ نسختين من مستنسخات مَشاهِدِ لورينزيتي. وأظن أنها الصور الأولى التي اشتريتُها في حياتي، وعلَّقتُها شغوفًا بها أثناء تعاقب الدراسة - في أكسفورد وهارفارد وستانفورد - رغم كَوْنها رخيصة ويصعب فَكُّ مغاليقها. وعلى نحو لا يدركه الحسُّ، وتقريبًا بتغلغلها في دخيلة نفسي، أثّرَتْ في تفكيري. بل لعلها السبب أن التمعت سيينا في ذهني حين كنت أحاول إيجاد عنوان لهذا الكتاب.

كان الهدف من اللوحات الجدارية أن تُلْهِمَ المسؤولين التسعة المُنْتَخَبين الذين حَكموا جمهورية سيينا ذلك الوقت. كل منهم يحكم لمدة شهرين فقط، وأثناء هذه الفترة يعيش التسعة في القصر، بعيدًا عن عائلاتهم؛ وبكلمات أخرى منفصلين عن الشبكات العائلية التي هيمنت على دول المدينة city - states الإيطالية في وقت عصر النهضة Renaissance. وفي قاعة مجاورة أكبر، قاعة المجلس Sala del Consiglio، يجتمع المجلس العام السييني (السلطة التشريعية). لكن التسعة - طبقًا لدستور المدينة المكتوب - تنفيذيون، ويتولون القضاءَ (في القضايا الدنيوية [العَلْمانية]. وقد صُمِّمَت اللوحاتُ الجدارية التي رُسِمَتْ بين فبراير عام 1338 ومايو عام 1339، لتذكير التسعة بأنهم على المحكِّ دائمًا حين يتخذون قراراتٍ

تُزَيِّنُ اللوحاتُ الجدارية ثلاثةَ جدران في قاعة التسعة؛ وأما الرابع، الجدار الجنوبي، الذي فيه النافذة الوحيدة في القاعة، فليس مُزيَّنًا[2296]. أَدِرْ ظَهْرَك إلى النافذة فسترى على الجدار الأيسر (الغربي) الجداريةَ المعروفة لدى المعاصرين باسم «الحرب» War. وتُواجِهُك على الجدار الشمالي اللوحةُ المعروفة للعلماء باسم «رمز الحكومة الخيِّرة» Allegory of Good Government، التي قُصِدَ منها بوضوح أن تكون المحورَ، لأنها أفضل اللوحات إضاءة[2297]. وعلى يمينك، على الجدار الشرقي، جداريةٌ تُسَمَّى «السلام» Peace.

تَناقَشَ العلماءُ طويلاً حول مصادر إلهام لورينزيتي. ولسنوات عديدة، كان يُعْتقدُ أن اللوحات الجدارية قُصِدَ منها تجسيد أفكار العدالة في أعمال أرسطو Aristotle (الأخلاق النيقوماخية Nicomachaean Ethics) والقديس توما الأكويني Saint Thomas Aquinas (الخُلاصة اللاهوتية Summa Theologica). الدَّيْن الأوضح كان للكاتب الفلورنسي في القرن الثالث عشر برونيتو لاتيني Brunetto Latini[2298]، مؤلِّف كتاب Li Livres dou trésor (C1260-65) ومختصره Tesoretto. وقد حدَّدتْ أحدثُ التفسيرات [لجداريات لورينزيتي] الأصولَ الفلكية للكثير من الإشارات الرمزية، وكذلك الإيحاءات الخفية لتاريخ توسكانا (وبخاصة التنافس بين مدينتيْ سيينا وبيزا).

الأوصاف الباكرة، كأوصاف لورينزو جِبيرتي Lorenzo Ghiberti[2299] من أوائل القرن الخامس عشر، تشير إلى أن القصدَ الأصلي من اللوحات ببساطة إظهارُ التناقض

بين «ما يحدث أثناء الحرب» و«ما يحدث في وقت السلام [مثلاً] كيف تسافر قوافل التجار... بأقصى درجات الأمان، وكيف يترك التجار بضائعهم في الغابة، وكيف يرجعون إليها». في خطبة أُلْقِيت بعد تسعين عامًا تقريبًا من اكتمال اللوحات الجدارية، وصفها الفرنسيسكاني سِنْت برناردينو[2300] Saint Bernardino بأنها بكل بساطة «السلام والحرب» la pace e la guerra:

عندما أنتقل إلى السلام، أرى نشاطًا تجاريًا؛ أرى الرقصات، أرى المنازل يجري إصلاحها؛ أرى الكروم والحقول التي تُحْرَثُ وتُزْرَعُ، وأرى الناس يذهبون إلى الحمامات العامة على ظهر الخيول، وأرى البنات ذاهبات إلى الزواج، وأرى قطعان الخراف، إلخ. أرى رجلاً يُشْنَقُ من أجل الحفاظ على العدالة المقدسة. ولهذا [السبب] يعيش الجميع في سلام مقدس ووئام. ثم حين أنتقل إلى [اللوحة] الأخرى، لا أرى تجارةً؛ ولا أرى رقصات؛ [أرى] القتل؛ فلا منازل يتم إصلاحها بل مُهَدَّمة ومحروقة؛ والحقول لا تُحْرَثُ؛ وكروم العنب تُقطَعُ؛ ولا يوجد بَذْرٌ للحبوب؛ الحمامات لا يدخلها أحدٌ ولا توجد مسرَّاتٌ، لا أرى أحدًا يخرج. النساء!

الرجال! الرجل يموت والمرأة تُغْتَصَبُ، والقطعان فريسةٌ [للحيوانات المفترسة]؛ الرجال يقتل بعضهم بعضًا غَدْرًا؛ العدالة تسقط على الأرض، موازينُها مُهَشَّمة، وهي مقيَّدة، يداها ورجلاها مقيَّدة. وكل شيء يتم بالخوف. نهاية العالم، في الفصل الثالث عشر، تُقدِّم الحربَ على صورة وحش يخرج من البحر بعشرة قرون وسبعة رؤوس، مثل فَهْد، وبأقدام دُبٍّ. ماذا تعني هذه القرون العشرة إن لم تكن التناقض مع الوصايا العشر Ten Commandments؟ [الوحش] ذو الرؤوس السبعة يظهر كالفهد، بسبب الخطايا السبع المُهْلِكات، ويرمز إلى الغدر والخيانة؛ وأقدام الدُّبّ هي الأقدام المليئة بالثأر والانتقام. ولكنك بالتسامح تُنهِي الحربَ وتقضي عليها[2301].

لا بد من فَهْم مصطلحيْ «السلام» و«الحرب» - كما تشير هذه الفقرة - بصورة عامة، لا بمعنى العلاقات بين الدول عند تولستوي، بل من خلال تناقض أقدم بين الانسجام الأهلي والصراع الأهلي الناشئ ربما عن حكومة استبدادية [طغيانية]. تُلخِّصُ لوحةُ «رمز الحكومة الخيِّرة» تلخيصًا جيدًا تحققًا تصويريًا لمفهوم شِفيتاس[2302] civitas بوصفه شكلاً أساسيًا للجماعة الإنسانية»[2303]. ويُقصَدُ من مشاهد السلام في الحضر والريف على الجدار الشرقي تصوير كل منافع دولة المدينة ذات الحُكْم الرشيد well - governed city - state. أما الجدار المقابل فهو النقيض الذي يُصَوِّرُ كلَّ تكاليف سوء الحُكْم.

زَوَّدَ لورينزيتي الجداريةَ الرمزية الرئيسية بالتعليق الإيضاحي المفيد الآتي: «هذه الفضيلة المقدسة [العدالة]، أينما حَكَمَتْ، تحثُّ على توحيد نفوس كثيرة [من

المواطنين]، فهم يجتمعون معًا لتهيئة «الصالح العام أو الخير المشترك» Common Good، لسَيِّدهم؛ الذي - كي يحكم دولته - لا يُحوِّلُ عينيه عن وجوه الفضائل المتألِّقة الجالسة حوله. من أجل ذلك، تُقدَّمُ إليه عند الانتصار الضرائبُ والتَّقدِماتُ ويخضع له سلطانُ البَلْدات؛ فتأتي بلا حربٍ كلُّ ثمرة مدنِيَّة على النحو الوافي: مفيدة وضرورية وممتعة». على الجانب الأيسر من الجدار، تجلس العدالةُ تُظلِّلها الحكمةُ السماوية، وبجانبها ملاكٌ أحمر وملاكٌ أبيض يمثلان صور العدالة التبادلية والتوزيعية عند أرسطو. أما الذي يلوح في الأفق ضخمًا على الجانب الأيمن فهو بطريرك بلِحْيَةٍ، في قصدٍ واضح إلى تجسيد كومنولث سيينا نفسه (الخير المشترك أو الصالح العام)[2304]. والذي على يمينه (يسار الرائي) هو غصن زيتون مُسْترخٍ في اليد، تشخيص شهواني تقريبًا للسلام، والتشخيصات الأكثر صرامةً للجَلَد ورجاحة العقل[2305]. وعلى جانبه الآخر الشَّهامةُ والاعتدالُ وعدالةٌ (أخرى). وفوق الجميع يرفرف الإيمانُ والإحسان والأمل[2306].

ولكن الأهم من ذلك في الرؤية الحديثة، التشخيصات الكائنة تحت هذا الصَّفّ من الفضائل المدنيَّة. ف«الوئام» Concord يجلس عند أقدام تجسيد العدالة الأكبر، يليه أربعة وعشرون ممثلاً لعموم الناس، مواطنون أثرياء جاء منهم التسعة. ومن اللافت للنظر أن كل واحد منهم يُمْسِكُ حبلاً، يتكون من جديلتين، تُكوِّنان موازين العدالة، يُضَفِّرهما الوئامُ. ويمرُّ هذا الحبلُ من خلالهم إلى تشخيص الخير المشترك أو الصالح العام، فيُمْسِكه بمعصمه الأيمن[2307] ويرى كوِنتن سكينر[[2308]] Quentin Skinner أن هذا يحسم قضيةَ أن المقصودَ من اللوحة احتفالٌ بحُكْم ذاتي جمهوري، وأنها مثال على الزَّعم اللاتيني بأن «خَيْرَ الناس» يقتضي «مقعدًا ينبغي أن يُمْسِكه ممثلو العامّة أنفسُهم»[2309].

ومن الممكن القول أيضًا إن تصويرَ لورينزيتي لحبلٍ يربط النُّخْبة المدنيَّة معًا، ويربطهم بمبادئ العدالة والكومنولث نفسه، حدْسٌ بالتصور الحديث لشبكة اجتماعية وسياسية حقًا[2310].

تُخاطِرُ تفسيراتٌ من هذا القبيل باشتمالها دائمًا على مفارقة تاريخية. فمن الواضح تمامًا أن لورينزيتي يجعل القوةَ العسكرية الضاربة جزءًا لا يتجزأ من الحكومة الصالحة: الفرسان في بُرْجٍ مُصَفَّح فوق المواطنين الأثرياء بل فوق أَسْراهم من الحرب المقيَّدين معًا بحبل آخر. ولكن المُشَاهِدَ الحديث لن يفوته غيابُ الجنود عن تصويرين على الجدار الشرقي للمدينة الآمنة وريفها.

وقد قيل بشكل مقنع إن منظر المدينة على الجدار الشرقي يمثل «رؤيةً حَرْفيّة»

للتصوير التمثيلي للسلام على الجدار الشمالي[2311]. المدينة المقصودة بكل وضوح هي سيينا؛ فنحن نرى الكاتدرائية duomo أعلى الزاوية اليسرى، والبوابة في الوسط قريبًا من بوابة تَلاموني Talamone[2312]. تلك هي مدينة سيينا المثالية، التي تُجَسِّدُ «انسجامًا كونيًا للحياة الجماعية». ومرةً أخرى، يكتب الفنانُ لنا ما يُفتَرَضُ أن نراه:

أَدِرْ عينيكَ كي تُطَالِعها، فأنتِ الحاكمةُ، وأنتِ المُصَوَّرةُ هنا [العدالة]، المُتَوَّجَةُ لِفَضِيلتها، الواجبةُ على كل أحد. انْظُرْ كم عدد الخيرات المستمدة منها، وكم هي حياة المدينة هانئة وآمنة حين تَحْفَظُ العدالةَ التي تَبُزُّ ما عداها. العدالة تحرس مَن يُجِلُّونها وتدافع عنهم، فتُغَذِّيهم وتُطْعِمُهم... تُكافئ مَن يفعلون الخيرَ وتُعاقِبُ الأشرارَ عقابًا مستحقًّا.

قد تؤدِّي نظرة مُتعجِّلة إلى استنتاج خاطئ مُفاده أن الرخاء الاقتصادي هو الفائدة الوحيدة من الحُكْم العادل. فكما لاحظ سِنْت برناردينو، ليست كلُّ النشاطات في المدينة تجاريةً. فنحن نرى أيضًا مُعلِّمًا يُعلِّم تلاميذَه، مثلاً، وأما المجموعة الوسطى في المقدمة فهم الراقصون، ومن الواضح أنهم (على الرغم من المظاهر الأولية) شباب يشاركون في رقصة شعبية - تُعْرَفُ باسم تريبوديوم tripudium - تعبيرًا عن فرحهم بدولة السلام. كما يُصَوِّرُ مشهدُ السلام في الريف الصيدَ أيضًا، بالإضافة إلى التجارة والزراعة. ونطالع في أعلى يسار اللوحة التعليق الآتي: «دون خوف، يتنقل كلُّ رجل بحُرِّية فيَحْرُث ويَبْذُر الحبَّ، ما دام هؤلاء الناس يحفظون سيادةَ السيِّدة [العدالة]، فهي التي تُجَرِّدُ الأشرارَ من كل قوة».

وإلى جانب كل هذا، تقف المدينة التي مزَّقتها الحربُ، مُصوَّرةً على الجدار الغربي في تناقض صارخ. وكما تُهْيمِنُ الصور التمثيلية على الجدار الشمالي، فكذلك على الجدار الغربي لدينا التيراميد Tyrammide، مَسْخ بعين شيطانية له قرون وأنياب، وخنجر في يده اليمنى، يطأ بقدمه ماعزًا. وفوق الطاغية [المستبد] يُحَلِّقُ الجشعُ والكبرياء والخُيَلاء. وإلى اليسار القسوةُ والخيانة والاحتيال؛ وإلى اليمين الغضبُ والانقسام - ينشر نفسَه بمنشار نجارٍ - والحرب[2313]. وأما عند قدم الطاغية فتسقط العدالةُ معصوبةً مغلوبةً على أمرها. ومع أن الكثيرَ من الجزء السفلي من هذه اللوحة تالِفٌ، نستطيع أن نتبيَّن مشاهدَ القتل والاعتداء وتدمير الممتلكات.

ونطالع التعليقَ الآتي: «لأن كل واحد لا يبحث إلا عن خَيْره الشخصي، تخضع العدالةُ في هذه الأرض للطغيان: من أجل ذلك، لا يمرُّ أحدٌ على طول هذا الطريق إلا وهو خائف على حياته... ما دامت توجد السرقاتُ خارج بوابات المدينة وداخلها»[2314].

قصودُ بهذه المدينة غير السعيدة مُنَافِسَةُ مدينة سيينا: مدينة بيزا Piza[2315]. ولكن الأرجح أن المقصودَ بها تجسيدُ كل ما لم تَكُنه مدينةُ سيينا: أيُّ مدينة ترضخ لحُكْم أوتوقراطي [استبدادي]، تُحْرَمُ من السلام والرخاء. ففي الجزء السفلي [التالف] من اللوحة، كانت توجد تجسيداتٌ لأباطرة مستبدين (نيرو [Nero[2316، كاراكلا[ [2317Caracalla، جيتا Gaeta، أنطيوخس Antiochus)[2318].

لقد تَعاطفتْ تُحَفُ لورينزيتي الفنية، في زمنها، تعاطفًا ملحوظًا مع دولة المدينة المستقلة، وعَادَت النظامَ المَلَكيَّ والإمبراطوريَّ. ومن الصعب القول بأن الفنان كان نبيَّ العصر الشَّبَكي الذي سيبزغ بعد قرن ونصف تقريبًا؛ ولكن من المؤكد أنه كان سابقًا لزمنه عندما رَبَطَ رَبْطًا صريحًا الحكومةَ المستندة إلى حُكْم القانون بالرخاء الاقتصادي والتلاحم الاجتماعي. ولا بد من تذكر أن أوربا في ذلك الوقت، بل معظم أوراسيا، هيمنت عليها أشكالٌ متنوعة من الحُكْم الاستبدادي. فقد تَزامَنَ عصرُ مدينة سيينا الذهبي، الممتد من حوالي عام 1260 حتى عام 1348، مع صعود الإمبراطورية المغولية وسقوطها. وكان ذلك هو الوقت الذي سافر فيه تُجَّار مدينة سيينا إلى مدينة تبريز Tabriz [في إيران] لشراء الحرير من آسيا الوسطى، وهو أيضًا الوقت الذي استقبل فيه البابا مبعوثين من إمبراطور أسرة يوان، توغون تيمور[ [2319Toghon Temür[2320].

ثمة إسهام آخر أسهم به لورينزيتي في تزيين قصر بابليكو، ولكنه مفقود منذ فترة طويلة، وهو عبارة عن كرة أرضية دائرية قطرها ستة عشر قدمًا، تُظْهِرُ مدينةَ سيينا في مركز شبكة تجارية تمتد عبر أوراسيا[2321].

المأساة أن هذه الشبكة التجارية، على وجه التحديد، هي التي ستُوَفِّرُ النواقلَ التي نقلت الموت الأسود Black Death. إذ ضرب الطاعون الدَّبْلي مدينة سيينا في عام 1348، بعد أقل من عقد على اكتمال جدارية السلام والحرب، ويُقَالُ إن لورينزيتي كان أحدَ ضحاياه. انتهت أيام مدينة سيينا الذهبية[2322]. ولكن بقيت اللوحاتُ الجدارية في قاعة التسعة ما يقرب من سبعمائة عام، لتُذَكِّرَنا بأن مشكلات الحرب والسلام - والحُكْم الصالح والحُكْم الطالح - ليست مشكلات جديدة.

التكنولوجيات تأتي وتذهب. ويظل العالَمُ عالَمَ السَّاحات squares والأبْراج towers.

ملحق الرسم البياني للشبكات الاجتماعية في فترة نيكسون - فورد استعملتُ في الفصل 45 تحليلَ الشبكة الاجتماعية social network analysis لفَحْص دور هنري كيسنجر Henry Kissinger في إدارتيْ نيكسون وفورد Ford، وبصورة أعمّ العلاقات داخل هاتين الإدارتين، مُستخدِمًا كلَّ المذكرات التي كتبها ونشرها أفرادُ هاتين الإدارتين بوصفها مصادر. ولعل القرَّاء المهتمين بتحليل الشبكة الاجتماعية يريدون معرفةً أزيد عن الرسومات البيانية من رقم 30 حتى 33، التي هي جزء من مشروع بحثي عن الشبكات الاجتماعية يجري تنفيذه حاليًا بالتعاون مع ماني رِنْكن كروز - Manny Rincon Cruz، وجزء من مشروعي المتصل عن حياة هنري كيسنجر.

ترسم معظمُ مشروعات تحليل الشبكة الاجتماعية العلاقاتِ بطريقة ثنائية بسيطة - سواء وُجِدَ اتصالٌ بين فاعليْن أو لم يوجد - في شكل مصفوفة ثنائية. وتقوم معظم المناهج الحَوْسبية في تحليل الشبكة الاجتماعية على أمثال هذه المصفوفات، لأن معظم المعطيات من الأوساط الأكاديمية (كالتي يُنتجها علماءُ الاجتماع وعلماءُ السياسة) كانت من هذا النوع لفترة طويلة، وفي الآونة الأخيرة فقط تنامت منصَّات الميديا الاجتماعية بسرعة، فبدأتْ في توفير المزيد من البيانات الأدق.

وحتى مع ذلك، بُسِّطَت المعطياتُ المعقدة كي تتيح للباحثين استعمالَ النَّهْج الثنائي. وبالنسبة إلى المؤرِّخ، يُعَدُّ هذا أمرًا إشكاليًا، لأننا نهتم اهتمامًا كاملاً بأنواع العلاقات المختلفة بين الأفراد. والأكثر من هذا، أن النَّهْج الثنائي يميل، في المجموعات متوسطة الحجم، إلى الكشف عن اتصال كل فرد بكل فرد آخر تقريبًا، الأمر الذي يقترب من كَوْنه نتيجةً عديمة القيمة. لا يستطيع تحليلُ الشبكة الاجتماعية التمييزَ بسهولة بين الحب والكراهية على الأقل في الحقل السياسي، حيث يصعب التمييز بين الصداقة والعداوة. ومع ذلك، من الممكن تحديد الأهمية النسبية للعلاقات.

ما لا يقل عن نصف الأفراد - إلا قليلاً - مِمَّن قاموا بأدوار مهمة في إدارتيْ نيكسون وفورد كتبوا مذكرات تُغَطِّي فترتهم التي قضوها في الحكومة. ولتحديد مصادرنا، قمنا أولاً بإعداد قائمة لأعضاء مجلس الوزراء بالبيت الأبيض، ثم أضَفْنا عددًا من الأفراد على مستوى وزاري فرعي، ونوَّاب الوزراء في الوزارات الرئيسية، وأيَّ شخص ذا مصادر وكتابات في مكتبة نيكسون التذكارية، وأيَّ عضو في الإدارتين كَتَبَ كتابًا عن سنوات نيكسون وفورد إذا وُجِدَ على نظام مكتبة ستانفورد وأمازون والفهرس العالمي [[2323]] WorldCat.

ومن هذه القائمة الرئيسية استخدمنا، مرة أخرى، ستانفورد وأمازون والفهرس العالمي لتحديد كل كتاباتهم. ثم بدأنا عملية الاستبعاد. المذكرات المعتمَدة هي

المذكرات التي غطت كلَّ فترة تولّي الفرد منصبًا في البيت الأبيض. فمثلاً، استبعدنا كتاب كيسنجر عن إنهاء الحرب الفيتنامية. كما استبعدنا أيضًا الكتبَ التي ليست مذكرات أو ذكريات، والكتب التي كُتِبَتْ أساسًا بوصفها مصادر أولية.

لقد استخدمنا هذه الكتابات لمقاربة مدى تذكُّرِ الفواعل أفرادًا آخرين لعبوا دورًا في سياسة العصر وفي أثناء فترة عملهم في الإدارتين. الظاهرة الأساسية التي كنا نحاول الإمساك بها في تحليلنا هي عدد الأحداث المنفصلة التي تَذكَّرَ فيها كاتبٌ فاعلاً تاريخيًا آخر. واعتمدنا على العمل الدقيق الذي بذله المؤلِّفون والمحرِّرون والناشرون في فَهْرَسة المذكرات، بوصفه وثيقةً. فكان حجرُ البناء لقاعدةِ بياناتنا عددَ الصفحات التي ذُكِرَ فيها فاعلٌ في كلِّ كِتاب مذكرات.

ويوجد بشكل واضح تفاوتٌ كبير في طول المذكرات والمدى الذي تغطيه وعدد الكلمات التي يضعها الناشرون لمتوسط كل صفحة. تَناولَ بعضٌ من كُتَّابنا حياتَهم بأكملها، وتناول آخرون مُدَّتَهم التي قضوها في الحكومة. وكي نسمح بمثل هذا التفاوت، تجنَّبْنا معيارًا مطلقًا لمدى تكرار ظهور فرد في كِتاب مذكرات لأن ما نريد معرفته هو مدى أهمية فاعل محدد في مذكرات الكاتب نسبةً إلى فواعل إدارتيْ نيكسون وفورد في الشبكة الاجتماعية. فأخذنا عددَ الصفحات التي ذُكِرَ فيها شخصٌ وقسَّمناه على إجمالي عدد المرات التي ذَكَرَه فيها كلُّ كُتَّاب مذكرات إدارة نيكسون وفورد. بعض المذكرات زادت على مجلد واحد، وكَتَبَ بعض المؤلِّفين أكثر من كِتاب مذكرات. في كلتا الحالتين، اعتبرناهما نصًا واحدًا، وهكذا بالنسبة إلى كل عضو في كل إدارة منهما جمعنا عددَ مرات وُروده عبر المجلدات أو الكتب. وقد أنتج هذا لنا عددًا في المتوسط (0,1)، استخدمناه في حساب قوة الاتصال بين الكاتب والشخص المذكور.

نطاقُ العُقد في رسوماتنا البيانية قِيسَ إلى عدد المرات التي ذُكِرَ فيها شخصٌ. وبالنسبة إلى رَسْمنا البياني للشبكة الاجتماعية (رقم 33)، فهو يتوافق مع درجة التمركزية الواردة لذلك الشخص، وتُحْسَبُ بإضافة عدد كل الاتصالات الواردة بذلك الشخص. وهذا يمثل في الأساس حِصَّةَ تردُّدٍ عادية لكل مَن ذَكَرَهم كلُّ كُتَّاب إدارة البيت الأبيض. وحَسَبْنا التمركزيةَ البَيْنية باستخدام حوافٍّ مُوجَّهة ومُرجحة بدلاً من مجرد استخدام ثنائية الحافّة المُتَّصِلة أو غير المُتَّصِلة، كما هو الحال في معظم الدراسات.

وقد استخدمنا في تصويراتنا المرئية حزمةَ برامج ثري دي D3، حيث تَتناسب المسافةُ في الرسوم البيانية للذات الثلاثية مع حجم العُقد. وليس لمسافة العُقد وترتيبها في الرسم البياني الاجتماعي (رقم 33) معنى جوهري، وتعتمد على تخطيط مُوجَّه بالقوة في برنامج ثري دي D3. والنُّسَخُ المنشورة في هذا الكتاب هي لقطاتُ شاشةٍ لأداءات دينامية من خادم الويب web server لدينا.

ثمة خلل واحد واضح في نَهْجِنا، ألا وهو أن كلُّ عضو في إدارتيْ البيت الأبيض،

أثناء ولاية نيكسون وولاية فورد، لم يكتب مذكراتٍ. والإغفال الملحوظ - ملحوظ لأن آخرين ذكروه بشكل متكرر نسبيًا - هو جون ميتشل John N. Mitchell[2324] المُدَّعِي العام المخلص لنيكسون. ميتشل هو المُدَّعي العام الوحيد في تاريخ الولايات المتحدة الذي حُكِمَ عليه بالسجن، وهو مصير عاناه عندما رفض الدخول في أية صفقة مع جهات التحقيق في فضيحة ووترجيت.

رفض ميتشل أيضًا أن يكتب مذكرات من منطلق ذلك الشعور نفسه بالولاء. ومع ذلك، التوزيع غير الخطي لمرات الذِّكْرِ - اللافت للنظر - يعني أنه حتى إضافة العديد من المذكرات «المفقودة» لن يُغَيَّرَ سوى القليل في مدى تأثير الشخص من حيث درجة التمركزية أو التمركزية البَيْنية. تبدو شبكةُ نيكسون - فورد الاجتماعية، شأنها شأن عدد من الشبكات الاجتماعية الأخرى التي ناقشناها في هذا الكتاب، محكومةً بقانون السلطة.

وأخيرًا، ينبغي التأكيد على أن الرسومات البيانية الخاصة ب نيكسون - فورد، ليست تمثيلات لتردُّد [تكرار] الاتصالات بين الأفراد أو كثافتها، وهو نوع من القياسات يستعمله السوسيولوجيون والسيكولوجيون لفحص رابطة اجتماعية. فرسوماتنا البيانية تسعى إلى الإمساك بأهمية وجود فرد في مذكرات فرد آخر؛ أو على الأقل الأهمية التي أراد كاتبُ المذكرات أن ينقلها إلى القارئ. ومن الممكن أن يختلف توزيع قيم التردُّد والكثافة اختلافًا كاملاً إذا وُجِدَ شخصٌ لديه أدلةٌ ومصادر تفصيلية كافية لبناء هذه القيم.

# تعريف المؤلف

نِيَل فِرْجسن أكاديمي بريطاني، من مواليد جلاسكو، إسكتلندا، المملكة المتحدة، 18 أبريل 1964. يقيم حاليًا في واشنطن الولايات المتحدة الأمريكية.

1 - مؤرِّخ بريطاني متخصص في التاريخ الدولي، والتاريخ الاقتصادي والمالي، والتاريخ الإمبريالي البريطاني والأمريكي.

2 - أستاذ التاريخ بجامعة هارفارد، وأستاذ زائر بعدد من الجامعات، وزميل في العديد من المعاهد والمراكز البحثية.

3 - تأثر ب: نورمان ستون، تايلور، كينيث كلارك، ميلتن فريدمان، ديفيد لاندس.

4 - من أعماله منفردًا وبالاشتراك مع آخرين:

.The Cash Nexus, 2001

.Colossus and Empire, 2004 War of the World, 2006

.The Ascent of Money, 2008

.Civilization: The West and the Rest, 2011

.Kissinger: 1923 - 1968: The Idealist, Volume I, 2015

5 - حصل على العديد من الجوائز: جائزة بنيامين فرانكلين عام 2010؛ جائزة هايك عام 2012؛ جائزة لودفيج إيرهارد عام 2013؛ جائزة آرثر روس بمجلس العلاقات الخارجية عام 2016.

# تعريف المترجم

حسام فتحي نايل أكاديمي مصري، من مواليد حيّ العمرانية بمحافظة الجيزة، 3 يوليو 1972. تلقَّى تعليمه الثانوي بمدرسة «الأورمان الثانوية النموذجية» بحيّ الدقي، ثم الجامعي بقسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب جامعة القاهرة.

1 - ماجستير ودكتوراه الآداب في النقد الأدبي الحديث [دراسات التفكيك]، كلية الآداب جامعة القاهرة.

2 - مدرِّس النقد الأدبي بالمعهد العالي للنقد الفني، أكاديمية الفنون بالقاهرة.

3 - خبير مجمع اللغة العربية بالقاهرة، لجنة الأدب.

4 - عضو التحرير ب«ألف - مجلة البلاغة المقارنة»، الصادرة عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

5 - من أعماله في التأليف: (دروس التفكيك: الإنسان والعدمية في الأدب المعاصر - دار التنوير بيروت القاهرة تونس، الطبعة المُحَدَّثة 2014).

6 - من أعماله في ترجمة التفكيك: (أيان ألموند، التصوف والتفكيك: درس مقارن بين ابن عربي ودريدا - المركز القومي للترجمة بالقاهرة، طبعة أولى 2011)، و(تيموثي كلارك، المعتمد الأدبي في التفكيك: هيدجر، بلانشو، دريدا - المركز القومي للترجمة بالقاهرة، طبعة أولى 2011)، و(جون إليس، ضد التفكيك - المركز القومي للترجمة بالقاهرة، طبعة أولى 2012)، و(جاك دريدا، بول دي مان، وآخرون: مداخل إلى التفكيك «البلاغة المعاصرة»، تحرير وترجمة - الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، الطبعة المصرية الأولى الكاملة والمنقحة 2013).

7 - من أعماله في ترجمة العلوم الاجتماعية والسياسية: (كارل بوبر، المجتمع المفتوح وأعداؤه / 2 / هيجل وماركس - دار التنوير بيروت القاهرة تونس، طبعة أولى 2015)، و(شارك في تحرير طبعة مزيدة ومنقحة لكتاب جان جاك روسو «العقد الاجتماعي أو مبادئ الحقوق السياسية»، ترجمة عادل زُعيتر، بترجمة مقالين شارحين في أول الكتاب وهوامش شارحة أسفل متن الترجمة - دار التنوير بيروت القاهرة تونس، 2015)، و(صمويل هنتنجتون، النظام السياسي في مجتمعات متغيرة، تصدير فوكوياما - ترجمة كاملة مزوَّدة بإيضاحات، دار التنوير بيروت القاهرة تونس، الطبعة الأولى 2017)، و(سايمون تورمي، نهاية السياسة التمثيلية - المركز القومي للترجمة بالقاهرة، الطبعة الأولى 2019).

8 - من أعماله في ترجمة التأمُّل الفلسفي والنقد الثقافي: (إلين سكاري، جسد متألم: صنع العالم وتفكيكه، المركز القومي للترجمة بالقاهرة، طبعة أولى 2018).

9 - حائز على جائزة الدولة التشجيعية في الدراسات الإنسانية عام 2014 عن ترجمته كتاب (جون إليس: ضد التفكيك)؛ وعلى جائزة الشارقة للإبداع العربي (الإصدار الأول) الدورة السادسة 2002/2003، الجائزة الأولى في مجال القصة عن مجموعته القصصية «مدارات عمياء».

10 - عضو الجمعية المصرية للمأثورات الشعبية.

11 - عضو اتحاد الكُتَّاب المصري.

# الفهرس

Contents

# Notes

[←1]

وَقَعَ الانفصالُ القانوني للمستعمرات الثلاث عشرة الأمريكية عن الإمبراطورية البريطانية في الثاني من يوليو عام 1776 عندما صَوَّتَ الكونجرسُ القارِّيُّ الثاني بموافقته على الاستقلال، وتمَّ إقرارُ صيغة وثيقة إعلان الاستقلال النهائية والتوقيع عليه في الرابع من يوليو عام 1776. ويستنتج معظمُ المؤرِّخين أن التوقيع على وثيقة الإعلان النهائية حَدَثَ بعد شهر تقريبًا من هذا التاريخ - المترجم.

[←2]

.Agethen, *Geheimbund und Utopie*, 72

[←3]

.Markner, Neugebauer-Wölk and Schüttler (eds.), *Korrespondenz des Illuminatenordens*, xxi

[←4]

.Van Dülmen, *Society of the Enlightenment*, 110f. Krueger, *Czech, German and Noble*, 65

[←5]

التلميح إلى منيرفا Minerva، الاسم الروماني لإلاهة الحكمة [المُسمَّاة في الأساطير اليونانية باسم] بالاس أثينا [أو أثينا]. وتتألف شارةُ المُتنوِّر [أو إِلومیناتي] من بومة، رفيقة الإلاهة، تجلس على صفحات كتاب مفتوح - المؤلف.

[←6]

.Markner, Neugebauer-Wölk and Schüttler (eds.), *Korrespondenz des Illuminatenordens*, xiv

[←7]

Over 2,000 according to some sources, e.g. Krueger, *Czech, German and Noble*, 65. In fact, only 1,343 names of Illuminati are known for sure: see the list at https://projekte.uni-erfurt.de/illuminaten/Mitglieder_des_Illuminatenordens and Schüttler, *Mitglieder des Illuminatenordens*.

[<-8]

إنجولشتات: مدينة تابعة لمحافظة بافاريا العُليا في ولاية بافاريا بألمانيا، كانت محل إقامة أميرها دوق بافاريا. آيشتيت: بلدة ألمانية تقع في منطقة إيشتيت..

فرايزِنج: بلدة ألمانية تابعة لمقاطعة بافاريا، تقع شمال مدينة ميونخ. أما ميونخ فهي ثالث أكبر مدن ألمانيا وعاصمة ولاية بافاريا، تقع جنوب ألمانيا على نهر إيسار، على بُعْد 103 كيلو متر من جبال الألب، ويُطلَقُ عليها أحيانًا العاصمة الخفية لألمانيا - المترجم.

[←9]

.Van Dülmen, *Society of the Enlightenment*, 105f

[←10]

.More details of aristocratic membership in Melanson, *Perfectibilists*

[←11]

.Agethen, *Geheimbund und Utopie*, 76

[←12]

.Ibid., 234f

[←13]

Israel, *Democratic Enlightenment*, 748ff. On Bode's important contribution, not least as a record-keeper, see Simons and Meumann, ' "Mein Amt ist geheime gewissens Correspondenz und unsere Brüder zu führen." '

[←14]

دون كارلوس: تراجيديا تاريخية من خمسة أجزاء، كتبها شيلر بين عاميْ 1783 و1787، وأُنْتِجَتْ لأول مرة في هامبورج عام 1787. الشخصية الرئيسية فيها كارلوس أمير أستورياس، وتعود أحداثها التاريخية إلى القرن السادس عشر في عهد فيليب الثاني ملك إسبانيا - المترجم.

[←15]

.Israel, *Democratic Enlightenment*, 751

[←16]

التنوُّريّة: زَعْم المرء أنه وصل إلى حالة من التنوُّر يتعذر بلوغها على جُمْلة البشر. وتُرَادِف، أحيانًا، كلمةَ enlightenment [التنوير] بمعناه الفلسفي بوصفه الحركة التي بدأت في أعقاب «الثورة المجيدة» في إنجلترا عام 1688، ثم تواصلت في فرنسا حتى بدايات الثورة الفرنسية عام 1789 وما بعدها - المترجم.

[←17]

.Ibid., 300f

[←18]

.Ibid., 842; Krueger, *Czech, German and Noble*, 66

[←19]

باڤاريا، أو جمهورية باڤاريا: إحدى الولايات المكوّنة لجمهورية ألمانيا الاتحادية. عاصمتها وكبرى مدنها ميونخ - المترجم.

[←20]

جوتا: بلدة ألمانية تقع في تورينجن أو ولاية تورينجن المستقلة إحدى ولايات ألمانيا - المترجم.

[←21]

بروسيا: اسم يُطْلَقُ في الأصل على المقاطعة الألمانية التي أُطلِق عليها لاحقًا «بروسيا الشرقية». وسُمِّيت المنطقة على اسم السكان الأصليين البروسِّيين من ذوي الأصول البلطيقية. ارتقت مملكة بروسيا، بدءًا من عام 1701، إلى مرتبة قوة أوربية عظمى، فأزاحت مملكةَ النمسا القيصرية عن قيادة الدول الألمانية، وأسَّست عام 1871 الإمبراطورية القيصرية الألمانية التي أصبحت بروسيا العضوَ الاتحادي المسيطر فيها - المترجم.

[←22]

جون روبيسون: (1739 - 1805)، عالِم رياضيات وكيميائي وفيزيائي ومخترع من مملكة بريطانيا العظمى، من أصل إسكتلندي - المترجم.

[←23]

اليعقوبية: مذهب سياسي ثوري شديد التطرف أثناء الثورة الفرنسية. يرجع في الأصل إلى النُّواب المُعادِين للمَلكيّة. كانت التسمية الأولى «جمعيّة أصدقاء الدستور»، ثم تغيَّرت لاحقًا إلى «جمعيّة اليعاقبة أصدقاء الحرية والمساواة». وتعود الصفة «يعقوبي» إلى أنهم استأجروا ديرَ يعقوب في شارع سان أونوريه في باريس مقرًا لاجتماعاتهم، فأطلق عليهم أعداؤهم السياسيون اسمَ اليعاقبة على سبيل السخرية. كما يُعْرَفون أيضًا باسم «نادي اليعاقبة»، وهو النادي السياسي الأكثر تطرفًا أثناء الثورة الفرنسية، الذي استطاع السيطرةَ على مقاليد الحكومة الثورية في فرنسا من منتصف عام 1793 إلى منتصف 1794. حَكَمَ اليعاقبةُ البلادَ بالإرهاب فيما عُرِفَ ب«عهد الإرهاب»، وأبرز زعمائهم روبسبيير. قُضِيَ عليهم بعد إزاحة روبسبيير عن الحُكْم وإعدامه مع 21 من رفاقه - المترجم.

[←24]

إدموند بيرك: (1729 - 1797)، مفكر سياسي أيرلندي. من أشهر أعماله «تأملات حول الثورة الفرنسية» عام 1790. عبَّر فيه عن امتعاضه من وَلَعِ الثوريين المثير للفتنة والاضطراب. ورغم تحذيره من تبعات الثورة الفرنسية فقد كان من المؤيدين للثورة الأمريكية - المترجم.

[←25]

.'See Hofman, 'Opinion, Illusion and the Illusion of Opinion

[←26]

.See e.g. Payson, *Proofs of the Real Existence* .

[←27]

ريتشارد هوفستاتر: (1916 - 1970)، مؤرِّخ أمريكي. انتقل من تبنِّي رؤية يسارية متطرفة للتاريخ إلى رؤية توافقية في خمسينيات القرن العشرين، فأصبح رمزًا للمؤرِّخ التوافقي الليبرالي بعد الحرب - المترجم.

[←28]

.Hofstadter, *Paranoid Style*

[←29]

جمعيّة جون بيرش: مجموعة تصف نفسَها بأنها مُحافِظة ومُناهِضة للشيوعية. وتُوصَفُ أيضًا بأنها تنظيم يميني راديكالي. تأسَّست في ديسمبر 1958 - المترجم.

[←30]

بات روبرتسن: من مواليد عام 1930، قسّ معمداني جنوبي، ترشَّحَ في انتخابات الرئاسة الأمريكية عام 1988. ادَّعَى أن الله يقف بجانبه ضد خصومه، ووصف الطوائف البروتستانتية الأخرى بأنها مُعادية للمسيح، كما وَصَفَ الحركات النِّسْوية الغربية بأنها مُعادِية للأسرة. يمتلك سجلاً واسعًا من التصريحات المسيئة للإسلام - المترجم.

[←31]

.McArthur, ‘ “They’re Out to Get Us” ’, 39

[←32]

ثلاثية المُتنوِّر أو إلوميناتوس: صدرت أجزاء الرواية بين عاميْ 1969 و1971، وتُصَنَّفُ على أنها خيال علمي ساخر متأثر بروح ما بعد الحداثة، لا تخلو من حسّ المغامرة والتشويق وعناصر تتضمن أدوية نفسية وممارسات جنسية وسحر أسود، وكل هذا في سياق نظريات مؤامرة تحوم حول جماعة الإلِوميناتي. عناوين الأجزاء الثلاثة على الترتيب هي: «عين في الهرم»، «التفاحة الذهبية»، «اللفياثان» - المترجم.

[←33]

Massimo Introvigne, ‘*Angels & Demons* from the Book to the Movie FAQ – Do the Illuminati Really Exist?’, http://www.cesnur.org/2005/mi_illuminati_en.htm.

[←34]

./http://illuminati-order.com/; http://illuminati-order.org/newworldorder

[←35]

Robert Howard, 'United States Presidents and The Illuminati/Masonic Power Structure', 28 September 2001: http://www.webcitation.org/5w4mwTZLG.

[←36]

.See e.g. http://theantichristidentity.com/barack-obama-illuminati.htm

[←37]

سيأتي الحديث تفصيليًا عن عائلة روتشيلد والمائدة المستديرة وأدوارهما الداخلية والخارجية في متن الكتاب وفي بعض الهوامش القادمة، وكذلك عن جورج سورس - المترجم.

[←38]

مجموعة بيلدربيرج: تأسَّست عام 1954 بمبادرة عدد من أثرياء العالم وأصحاب السلطة والنفوذ. ويعود الاسم إلى فندق بيلدربيرج بقرية أوستيربيك بهولندا، محل انعقاد أول اجتماع للمجموعة عام 1954. يمثل الأوربيون ثلْثي الأعضاء والبقية من الولايات المتحدة. معظم الأعضاء من أقوى رجالات السياسة والأعمال والبنوك نفوذًا في العالم. تتسم نقاشات المجموعة بالسرِّية الشديدة حول العديد من الموضوعات العالمية والاقتصادية والسياسية والعسكرية. يوجد في هذه المجموعة ما يُسَمَّى «أعضاء النُّواة الصلبة الخفية» - المترجم.

[←39]

اللجنة الثلاثية: مجموعة نقاش غير حكومية وغير حزبية. أسَّسها ديفيد روكفلر عام 1973 لتعزيز التعاون الوثيق بين الولايات المتحدة وأوربا واليابان، وتتخذ من واشنطن وباريس وطوكيو مقرات رئيسية لها. يرى أصحاب نظرية المؤامرة أن هذه اللجنة أحد أهم أدوات الماسونية العالمية والتكتلات المَصْرفية الكبرى لإدارة العالم والسيطرة عليه وفق نتيجة تصبو إلى حكومة عالمية مُفترَضة - المترجم.

[←40]

Wes Penre, ‘The Secret Order of the Illuminati (A Brief History of the Shadow Government)’, 12 .(November 1998 (updated 26 September 2009

[←41]

.’See e.g. Oliver and Wood, ‘Conspiracy Theories

[←42]

.Ibid., 959

[←43]

.Ibid., 956

[←44]

.Ibid

[←45]

أليكس جونز: من مواليد فبراير عام 1974، صحفي ومذيع ومخرج وممثل أمريكي، يقيم في مدينة أوستن بولاية تكساس الأمريكية. يملك أليكس جونز إذاعة InfoWars [حرب المعلومات]، وقناةً على اليوتيوب باسمه. اتَّهمَ جونز حكومةَ الولايات المتحدة بالضلوع في تفجيرات أوكلاهوما سيتي وهجمات 11 سبتمبر عام 2001، إذ يتبنَّى فكرةَ أن هجمات 11 سبتمبر عملٌ داخلي بقيادة عناصر إجرامية في الحكومة الأمريكية وليس من تدبير القاعدة. يُصنَّفُ جونز على أنه من أتباع نظريات المؤامرة. فمنذ بداياته الأولى عمل على فضح النُّخْبة العالمية والجماعات السرِّية التي اغتالت جون كينيدي، ومن ضمنها الحركة الماسونية. في بداية حياته المهنية، تمكَّنَ من تصوير أعضاء «نادي البستان البوهيمي» الذي يضم كبار رجال الدولة في الولايات المتحدة ورجال الأعمال والصناعة والإعلام المخضرمين، وهم يقيمون أحدَ طقوس الديانة البابلية القديمة - المترجم.

[←46]

./See e.g. https://www.infowars.com/george-soros-illuminati-behind-blm

[←47]

.Oliver and Wood, ‘Conspiracy Theories’, 964

[←48]

.Knight, ‘Outrageous Conspiracy Theories’, 166

[←49]

.’Swami et al., ‘Conspiracist Ideation in Britain and Austria

[←50]

.’Livers, ‘The Tower or the Labyrinth

[←51]

.’Landes, ‘The Jews as Contested Ground

[←52]

ميلتون ويليام كوبر: من مواليد كاليفورنيا 1943، أصيب بطلق ناري يوم 5 نوفمبر عام 2001 أدَّى إلى وفاته. مُقدِّم إذاعي أمريكي يؤيد نظرية المؤامرة، ومؤلِّف كتاب «انظر الحصان الشاحب»، الذي يرصد فيه قائمة بالكثير من المؤامرات العالمية، بعضها مبتكر يتعلق بكائنات فضائية. يرى كوبر أن مرض الإيدز وباء صَنَعَه الإنسانُ لاستهداف السود واللاتينيين والمِثليين، وأن علاجه متوفر قبل انتشاره - المترجم.

[←53]

Massimo Introvigne, '*Angels & Demons* from the Book to the Movie FAQ – Do the Illuminati Really Exist?' http://www.cesnur.org/2005/mi_illuminati_en.htm

[←54]

لم أعثر على كلمة واحدة أُتَرْجِمُ بها كلمة truthers فآثرتُ ترجمتَها شرحًا إلى: «الذين يَشكُّون في التفسير العام المقبول لحدثٍ ما، معتقدين جَزْمًا بوجود مؤامرة رسمية لإخفاء التفسير الحقيقي» - المترجم.

[←55]

Markner, Neugebauer-Wölk and Schüttler (eds.), *Korrespondenz des Illuminatenordens*; Wäges and Markner (eds.), *Secret School of Wisdom*.

[←56]

.Roberts, *Mythology of the Secret Socie*

[←57]

Margit Feher, ‘Probe into Deaths of Migrants in Hungary Uncovers “Vast Network” ’, *Wall Street Journal*, 12 October 2016

[←58]

الشبكات الأثيرية كشبكات الهاتف المحمول والأقمار الصناعية وما أشبه. والشبكات تحت الأرض مثل كابلات الإنترنت وما أشبه - المترجم.

[←59]

المنزل الكئيب: رواية كتبها تشارلز ديكنز (1812 - 1870) أعظم الروائيين الإنجليز في العصر الفيكتوري. اكتمل نشر الرواية في سبتمبرِ عام 1853، وتدور أحداثها في ثلاثينيات القرن التاسع عشر تقريبًا. حفَّزت الروايةُ الحركاتِ الساعيةَ إلى إصلاح القانون والقضاء في سبعينيات القرن التاسع عشر - المترجم.

[←60]

Herminia Ibarra and Mark Lee Hunter, 'How Leaders Create and Use Networks', *Harvard Business Review*, January 2007.

[←61]

Athena Vongalis-Macrow, ‘Assess the Value of Your Networks’, *Harvard Business Review*, 29 .June 2012

[←62]

كان العائد 21% عندما تزامل مديرُ المحفظة الاستثمارية والمديرُ التنفيذي في الجامعة نفسها وحصلا على الدرجة نفسها بقدر من التداخل الزمني، مقارنةً ب 13% حين لا يوجد مثلُ هذا الاتصال والترابط - المؤلف.

[←63]

Lauren H. Cohen and Christopher J. Malloy, 'The Power of Alumni Networks', *Harvard Business Review*, October 2010.

[←64]

الأولاد القِدامى: شبكة أو جمعيَّة، وتُسَمَّى أيضًا «نادي الأولاد القِدامى». يشير التعبير إلى الروابط والصلات القديمة بين تلاميذ المدارس الذكور فقط. وقد نشأ المصطلحُ بين النُّخبة البريطانية بهذه الدلالة. وينطبق أيضًا على شبكة خريجي مدرسة واحدة، بغضّ النظر عن جنسهم، التي تُعْرَفُ ب«جمعية الخريجين». كما يشير أيضًا إلى شبكة الروابط والصِّلات الاجتماعية والتجارية بين خريجي مختلف المدارس المرموقة. يُسْتعمَل التعبيرُ للإشارة إلى الحفاظ على النُّخَب الاجتماعية بوجه عام - المترجم.

[←65]

Andrew Ross Sorkin, 'Knowledge is Money, But the Peril is Obvious', *The New York Times*, 26 .November 2012. See Enrich, *Spider Network*

[←66]

See Andrew Haldane, ‘On Tackling the Credit Cycle and Too Big to Fail’, January 2011: .http://www.iiea.com/event/download_powerpoint?urlKey=andrew-haldane-on-fixingfinance

[←67]

ساندرا نافيدي: محامية دولية واستشارية ومتحدِّثة عامة. تُصَنَّفُ كتبُها في قوائم الأكثر مبيعًا. مؤسِّسة ورئيسة تنفيذية لشركة BeyondGlobal للاستشارات الإستراتيجية الدولية - المترجم.

[←68]

.Navidi, *Superhubs*, esp. xxiv, 83f., 84f., 95, 124f

[←69]

.https://www.youtube.com/watch?v=vST61W4bGm8

[←70]

أثناء العمل على هذا الكتاب، كان لدى دونالد ترامب 33.8 مليون مُتابِع على تويتر. وهو نفسه كان يتابع 45 شخصًا أو مؤسَّسة فقط - المؤلف.

[←71]

Assessing Russian Activities and Intentions in Recent US Elections’, 6 January 2016:‘ http://apps.washingtonpost.com/g/page/politics/the-intelligence-community-report-on-russian-activities-in-the-2016-election/2153/.

[←72]

Donald J. Trump, speech on 15 August 2016: https://assets.donaldjtrump.com/Radical_Islam_Speech.pdf; speech at AIPAC, 21 March 2016: http://time.com/4267058/donald-trump-aipac-speech-transcript/.

[←73]

.Ito and Howe, *Whiplash*

[←74]

جوشوا رامو: من مواليد ديسمبر عام 1968، نائب رئيس مجلس الإدارة والرئيس التنفيذي المُشارِك ل«كيسنجر أسوشِيتس» التي أسَّسها كيسنجر نفسه.

مؤلِّف العديد من الكتب، بما فيها كتابان من أفضلها مبيعًا هما: «عصر ما لا يمكن تصوره»، و«الحاسَّة السابعة» - المترجم.

[←75]

.Ramo, *Seventh Sense*, 92

[←76]

.Adrienne Lafrance, ‘The Age of Entanglement’, *The Atlantic*, 8 August 2016

[←77]

باراج خانا: من مواليد يوليو عام 1977، خبير العلاقات الدولية الأمريكية الهندية، والمؤلف الأكثر مبيعًا.
شريك إداري ل FutureMap - المترجم.

[←78]

.Khanna, *Connectography*

[←79]

مانويل كاستِلس: من مواليد عام 1942، بروفيسور وكاتب في الاتصالات، يشغل كرسي الأستاذية للاتصالات والتكنولوجيا والمجتمع في مدرسة أننبرج التابعة لجامعة جنوب كاليفورنيا بالولايات المتحدة، ومدير مشروع إنترنت كتالونيا في جامعة أوبرتا بإسبانيا - المترجم.

[←80]

.Castells, *Rise of the Network Society*, 508

[←81]

.’Friedland, ‘Electronic Democracy’. See also Boeder, ‘Habermas’s Heritage

[←82]

جارد كوين: من مواليد عام 1981، ينتمي إلى أسرة يهودية أمريكية. حصل على ماجستير الفلسفة في العلاقات الدولية من جامعة أكسفورد، ويجيد اللغة العربية بطلاقة. يشغل حاليًا منصب الرئيس التنفيذي لشركة چيجسو Jigsaw (واسمها السابق أفكار جوجل Google Ideas). ضمَّته كوندوليزا رايس لوزارة الخارجية ضمن طاقم تخطيط السياسات كأصغر عضو في تاريخ الحكومة الأمريكية. ركَّزَ كوين على مكافحة الإرهاب والتطرف وشؤون الشرق الأوسط وجنوب آسيا والشباب والتكنولوجيا. وفي عام 2008، أدار خطةً رسمتها وزارةُ الخارجية الأمريكية، سُمِّيَتْ «تحالف الحركات الشبابية»؛ تُركِّزُ الخطةُ على كيفية استخدام المواقع الإلكترونية الاجتماعية مثل «فيسبوك» بوصفها أداةً لتعزيز التنظيمات والنشاطات الشبابية في الأنظمة القمعية. وحسب نيويورك تايمز، يُعَدُّ كُوين أحد المُصَمِّمين الرئيسيين لما عُرِفَ عام 2010 ب«صناعة الدول في القرن الحادي والعشرين» مع ريتشارد بولي وآخرين في وزارة الخارجية الأمريكية. يوصف كُوين بأنه مهندس الديمقراطية الرقمية والثورات المخملية. كوين واحد من مئة مُغَيِّر للعبة game changers - المترجم.

[←83]

إيريك شميت: من مواليد عام 1955، رئيس شركة جوجل، ومدير تنفيذي سابق لها، وعضو سابق في مجلس إدارة شركة أبل - المترجم.

[←84]

.Schmidt and Cohen, *New Digital Age*,7

[←85]

.Grewal, *Network Power*, 294

[←86]

آن ماري سلوتر: من مواليد سبتمبر عام 1958، محامية وأستاذة جامعية أمريكية، أدارت جامعة برنستون وهارفارد - المترجم.

[←87]
Anne-Marie Slaughter, ‘How to Succeed in the Networked World’, *Foreign Affairs*, .(November/December 2016), 76

[←88]

.Slaughter, *Chessboard and the Web*, KL 2893–4

[←89]

.Khanna, *Connectography*, 139

[←90]

توماس هوبز: (1588 - 1689)، عالِم رياضيات وفيلسوف إنجليزي، أحد أكبر فلاسفة القرن السابع عشر في إنجلترا. أسهم في التأسيس لكثير من المفاهيم التي لعبت دورًا كبيرًا على مستوى النظرية السياسية والتطبيق السياسي، وعلى رأسها مفهوم العقد الاجتماعي، ومنها أيضًا مفهوم الحق الطبيعي الذي فسَّر به الكثير من القضايا المطروحة في عصره. وضع كتابُه «اللفياثان» الصادر عام 1651 الأساسَ لمعظم الفلسفة السياسية الغربية من منظور نظرية العقد الاجتماعي - المترجم.

[←91]

.See Kissinger, *World Order*, 347

[←92]

Martin Belam, ‘We’re Living Through the First World Cyberwar—But Just Haven’t Called ItThat’ .*Guardian*, 30 December 2016 ,

[←93]

يوفال نوح هِراري: من مواليد عام 1976، مؤرِّخ إسرائيلي، وأستاذ في قسم التاريخ بالجامعة العبرية في القدس. مؤلِّف كتاب «العاقل: تاريخ مختصر للجنس البشري»، وغيره من الكتب - المترجم.

[←94]

.Harari, *Homo Deus*, 344, 395

[←95]

.Harari, *Sapiens*, KL 6475

[←96]

وادي السِّليكون: صار اسمًا للمنطقة الواقعة جنوب خليج سان فرانسيسكو في كاليفورنيا بالولايات المتحدة، بسبب وجود عدد كبير من مُطوِّري ومُنْتجي شرائح أو رقاقات السِّليكون (الدوائر المتكاملة)، وحاليًا تضم المنطقة جميع أعمال التقنية العالية فصار اسمُها مرادفًا لمصطلح التقنية العالية. وادي السِّليكون هو الأول في مجال التطوير والاختراعات التكنولوجية المتطورة، ويسهم في ثلْث العائدات الاستثمارية في مجال المشاريع الجديدة بالولايات المتحدة الأمريكية - المترجم.

[←97]

See e.g. Vinod Khosla, 'Is Majoring in Liberal Arts a Mistake for Students?' *Medium*, 10 Februar 2016: https://medium.com/@vkhosla/is-majoring-in-liberal-arts-a-mistake-for-students-.fd9d20c8532e

[←98]

جيفري ويست: بريطاني من مواليد عام 1940، أستاذ الفيزياء النظرية، وأحد كبار العلماء الذين يعملون على نموذج علمي للمدن - المترجم.

[←99]

الميكروتوبيا: بنية أنبوبية مِجْهرية موجودة بأعداد في سيتوبلازم الخلايا، وأحيانًا تتجمَّع لتكوين أبنية أعقد - المترجم.

[←100]

الميتوكوندريا: عُضيَّة موجودة بأعداد كبيرة في معظم الخلايا، حيث تحدث العمليات الكيميائية الحيوية اللازمة للتنفس وإنتاج الطاقة. لها غشاء مزدوج. والطبقة الداخلية مطويَّة إلى الداخل لتشكل طبقات أخرى - المترجم.

[←101]

.’West, *Scale*. See also Strogatz, ‘Exploring Complex Networks .

[←102]

الرَّبْداء الرشيقة: أحد أنواع الديدان الأسطوانية الشفافة، يبلغ طولها 1 مم، تعيش في بيئة التربة الرطبة معيشة حرَّة دون تطفّل على غيرها من الكائنات. مدة حياتها من ثلاثة إلى أربعة أسابيع، وعدد جيناتها حوالي 19000 جين تقريبًا - المترجم.

[←103]

.Watts, ‘Networks, Dynamics, and the Small-World Phenomenon’, 515

[←104]

.West, 'Can There be a Quantitative Theory', 211f

[←105]

.Caldarelli and Catanzaro, *Networks*, 23f

[←106]

الهيبوكامبوس أو الحصين: حوافّ متطاولة على أرضية جوانب الدماغ، يُعتقد أنها مركز العاطفة والذاكرة والجهاز العصبي اللاإرادي – المترجم.

[←107]

.Dittrich, *Patient H.M*

[←108]

.Christakis and Fowler, *Connected*, 97

[←109]

.Vera and Schupp, ‘Network Analysis’, 418f

[←110]

.Jackson, ‘Networks in the Understanding of Economic Behaviors’, 8 .

[←111]

.'Liu, King and Bearman, 'Social Influence

[←112]

جوزيف هنريك: من مواليد عام 1968، أستاذ في قسم البيولوجيا التطورية البشرية بجامعة هارفارد - المترجم.

[←113]

.Henrich, *Secret of Our Success*, 5

[←114]

روبن دُنْبار: من مواليد يونيو عام 1947. عالِم أنثروبولوجيا بريطاني وأخصائي علم النفس التطوري ومتخصص في سلوك الرئيسيات. يشغل حاليًا منصب رئيس مجموعة أبحاث علم الأعصاب الاجتماعية والتطورية بقسم علم النفس التجريبي في جامعة أكسفورد - المترجم.

[←115]

.’Dunbar, ‘Coevolution of Neocortical Size

[←116]

نيكولاس كريستاكيس: من مواليد عام 1962. طبيب أمريكي وباحث اجتماعي من أصل يوناني، وبروفيسور في جامعة هارفارد، عُرِفَ بأبحاثه في الشبكات الاجتماعية، والمُحدِّدات الاجتماعية الاقتصادية، والاجتماعية الحيوية، في ما يخص السلوك والصحة وطول العمر - المترجم.

[←117]

جيمس فاولر: من مواليد فبراير عام 1970. عالِم اجتماع أمريكي متخصص في الشبكات الاجتماعية والتعاون والمشاركة والجينات السياسية، أيْ العلم الذي يدرس السلوك السياسي على أساس جيني. حاليًا، أستاذ الوراثة الطبية في كلية الطب، وأستاذ العلوم السياسية في شعبة العلوم الاجتماعية، بجامعة كاليفورنيا - المترجم.

[←118]

.Christakis and Fowler, *Connected*, 239

[←119]

إدوين هاتْشينز: بروفيسور، وسابقًا رئيس قسم العلوم المعرفية بجامعة كاليفورنيا. أحد المُطوِّرين الأساسيين لفكرة «الإدراك المُوزَّع» - المترجم.

[←120]

الإدراك الموزَّع: نظرية تُركِّزُ على جوانب الإدراك الاجتماعية بوصفها إطار عمل يقوم على التنسيق بين الأفراد والعناصر المادية والبيئية. ظهرت في منتصف ثمانينيات القرن العشرين - المترجم.

[←121]

.’Tomasello, ‘Two Key Steps

[←122]

الاستمالة الاجتماعية social grooming: سلوك تقوم فيه الحيوانات الاجتماعية، بما في ذلك البشر، باستمالة الآخر من نفس النوع عبر الرعاية والاهتمام. فهي نشاط اجتماعي كبير يتم من خلاله تعزيزُ الهياكل الاجتماعية والروابط العائلية وبناء الرُّفقة - المترجم.

[←123]

.Massey, ‘Brief History’, 3–6

[←124]

.McNeill and McNeill, *Human Web*, 319–21

[←125]

ويليام مَكنيل: (1917 - 2016)، كاتب ومؤرّخ أمريكي كندي من أصل إسكتلندي. متخصِّص في الحضارة الغربية - المترجم.

[←126]

جون روبرت مَكنيل: من مواليد أكتوبر عام 1954، مؤرِّخ ومؤلف أمريكي بيئي، وأستاذ بجامعة جورجتاون - المترجم.

[←127]

الحركات مفتوحة المصدر: في شبكة الإنترنت، حركاتٌ تدعم استخدام تراخيص مفتوحة المصدر لبعض أو كل البِرامج، وهي جزء من المفهوم الأوسع للتعاون المفتوح. يُسْهِمُ المُبرْمِجون الذين يدعمون فلسفةَ الحركة في مجتمع المصادر المفتوحة بالكتابة الطَوْعيَّة وتبادلَ التعليمات البرمجية لتطوير البرمجيات. ويتيح هذا الأسلوب في تطوير البرامج لأي شخص الحصول على كود مفتوح المصدر وتعديله، ثم تُوَزَّعُ هذه التعديلات مرة أخرى على المُطوِّرين داخل مجتمع المصادر المفتوحة. وفي النهاية، يُكْشَفُ عن هُويَّات جميع الأفراد المشاركين في تعديل الشفرة، فيُوَثَّقُ تحويل الشفرة بمرور الوقت؛ وهو ما يترتب عليه صعوبة إثبات مِلْكية جزء معين من الكود؛ الأمر الذي يعمل على تعزيز إنتاج برامج عالية التقنية، وفي الوقت نفسه تعزيز فكرة العمل التعاوني مع آخرين على مستوى المهارة نفسها - المترجم.

[←128]

.’Jackson, Rodriguez-Barraquer and Tan, ‘Social Capital and Social Quilts

[←129]

المركز الانتشاري: مصطلح يُستعمَل عادةً لوَصَفِ مركز شبكة اجتماعية هَرَمِيَّة محدودة، ولكنه لا يناسب الشبكات الاجتماعية الضخمة والمعقدة - المترجم.

[←130]

.’Banerjee et al., ‘Gossip

[←131]

روبرت برنز: (1759 - 1796)، شاعر إسكتلندا الوطني، مؤلف العديد من القصائد باللغة الإنجليزية ولهجة الأراضي المنخفضة. من ألقابه الشاعر الفلاح وشاعر آيرشير، يُلَقب في إسكتلندا ب«الشاعر». تميَّز بإدخاله الإسكتلندية الدارجة في شعره. من أشهر أشعاره «نشيد الوداع» - المترجم.

[←132]

«الحارس الوحيد»: فيلم مغامرة أمريكي من إنتاج عام 2013، يدور حول قضية «العدالة» - المترجم.

[←133]

«جَوَّال السهول العالية» أو «هاي بلينز دريفتر»: من أفلام الوِسْتِرن الأمريكي، أُنْتِج عام 1973 - المترجم.

[←134]

الأخوان كوين: هما جويل ديفيد كوين وإيثان جيسي كوين، يكتبان أفلامهما ويُخْرِجانها ويُنتجانها سويًا، كما يقومان بمونتاج أفلامهما تحت اسم مستعار هو «رودريك جينز» - المترجم.

[←135]

«الدم البسيط»: فيلم جريمة أمريكي من إنتاج عام 1984. عنوان الفيلم مستمد من رواية داشييل هاميت «الحصاد الأحمر» المنشورة عام 1929. من الإشارات التي يحملها عنوان الفيلم الإشارةُ إلى عقلية الناس المُدمَّرة والخائفة نتيجة الاستغراق لفترة طويلة في سياقات عنيفة - المترجم.

[←136]

.https://www.youtube.com/watch?v=nLykrziXGyg

[←137]

جون دون: (1572 - 1631)، من أبرز الشعراء الإنجليز في القرن السابع عشر، كاهن في الكنيسة الإنجليزية، وُصِفَتْ مواعظه بأنها أفضل مواعظ ذلك القرن - المترجم.

[←138]

.See e.g. *Othello*, II, 3, and III, 4; *All’s Well That Ends Well*, IV, 3

[←139]

كوليردج: (1772 - 1834)، شاعر إنجليزي وناقد ومشتغل بالفلسفة. أعلن مع زميله وردزورث بدءَ الحركة الرومانتيكية في إنجلترا بديوانهما المشترك «الأناشيد الغنائية» - المترجم

[←140]

فريمان: هو إدوارد أوغسطس فريمان (1823 - 1892)، مؤرِّخ إنجليزي مات بمرض الجدري - المترجم.

[←141]

.*Oxford English Dictionary*

[←142]

أنتوني ترولب: (1815 - 1882)، روائي إنجليزي من العصر الفيكتوري - المترجم.

[←143]

فينياس فين: نُشِرَت الرواية مسلسلة بدءًا من عام 1867 حتى عام 1869 في مجلة سانت بول، ثم في كتاب. وفينياس فين هو اسم شخصيتها الرئيسية.

تتناول الرواية موضوع السياسة البرلمانية البريطانية في ستينيات القرن التاسع عشر والإصلاحات الانتخابية - المترجم.

[←144]

./See http://www.nggprojectucd.ie/phine

[←145]

.Massey, ‘Brief History’, 14

[←146]

اقتصادات الحجم والنطاق: بينما تعمل اقتصادات الحجم على تخفيض متوسط التكلفة لكل وحدة بزيادة حجم الإنتاج لنوع واحد من المنتجات، تعمل اقتصادات النطاق على خفض متوسط التكلفة بإنتاج المزيد من أنواع المنتجات - المترجم.

[←147]

Laura Spinney, 'Lethal Weapons and the Evolution of Civilisation', *New Scientist*, 2886 (2012), .46–9

[←148]

.Dubreuil, *Human Evolution*, 178, 186, 202

[←149]

بيتر تورتشين: روسي أمريكي من مواليد عام 1957، متخصص في التطور الثقافي والنمْذجة الرياضية والتحليل الإحصائي لديناميات المجتمعات التاريخية - المترجم.

[←150]

.’Turchin et al., ‘War, Space, and the Evolution of old World Complex Societies

[←151]

الحُكْم المطلق: يشير من ناحيةٍ إلى مَلَكية مطلقة absolute monarchy، يحكم فيها المَلك دون قوانين أو معارَضة منظَّمة قانونيًا، ولا سيما في الفترة من عام 1610 حتى عام 1789 في أوربا. كما يشير، من ناحية ثانية، إلى الاستبداد المستنير enlightened absolutism المتأثر بعصر التنوير في القرن الثامن عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر في أوربا. ويشير، من ناحية ثالثة، إلى الأوتوقراطية autocracy أو الاستبداد السياسي political absolutism، وهي نظرية سياسية تقول بأن شخصًا واحدًا ينبغي أن يقبض على السلطة - المترجم.

[←152]

مكسيم جوركي: (1868 - 1936)، أديب وناشط سياسي ماركسي روسي، مؤسِّس مدرسة الواقعية الاشتراكية التي تُجسِّد النظرةَ الماركسية للأدب - المترجم.

[←153]

ألكسندر الثالث: (1845 - 1894) من أسرة رومانوف، إمبراطور روسيا السابع عشر، حَكَمَ من عام 1881 حتى عام 1894. لم تَخُضْ روسيا في عهده حروبًا كبيرة، فسُمِّي «صانع السلام» - المترجم.

[←154]

.Gorky, *My Universities*, 69

[←155]

.See most recently Acemoglu and Robinson, *Why Nations Fail*

[←156]

آدم سميث: (1723 - 1790)، فيلسوف أخلاقي وعالِم اقتصاد إسكتلندي. مؤسِّس علم الاقتصاد الكلاسيكي، ومن روَّاد الاقتصاد السياسي. اشتهر بكتابيه الكلاسيكيين «نظرية الشعور الأخلاقي» عام 1759، و«بحث في طبيعة ثروة الأمم وأسبابها» عام 1776، المعروف اختصارًا ب«ثروة الأمم» - المترجم.

[←157]

فريدريك فون هايك: (1899 - 1992)، اقتصادي ومنظِّر سياسي نمساوي بريطاني، عُرِفَ بدفاعه عن الليبرالية الكلاسيكية والرأسمالية القائمة على أساس السوق الحر ونقده للفكر الاشتراكي والجماعي خلال ستينيات القرن العشرين - المترجم.

[←158]

ماكس بِوايزت: (1945 - 2011)، منظِّر تنظيمي وأستاذ الإدارة الإستراتيجية في كلية إدارة الأعمال ببرشلونة - المترجم.

[←159]

.Boisot, *Information Space* and *Knowledge Assets*

[←160]

والتر باوِل: من مواليد عام 1951، عالِم اجتماع أمريكي، وأستاذ بجامعة ستانفورد منذ عام 1999، يشتهر بإسهاماته في نظرية التنظيم، ولا سيما المؤسَّسية الجديدة new institutionalism ونظرية الشبكة - المترجم.

[←161]

.Powell, ‘Neither Market nor Hierarchy’, 271f

[←162]

كيرتسو: مجموعة شركات ذات علاقات تجارية متشابكة ومساهمين متشابكين بلا ترتيب هَرَمي. وكل شركة منها لها حصة في الأخرى، وتتمركز حول بنك أساسي. يساعد هذا النظام على عزل كل شركة عن تقلبات السوق ومحاولات الاستحواذ. حافظت كيرتسو على هيمنتها على الاقتصاد الياباني في النصف الثاني من القرن العشرين - المترجم.

[←163]

«ثروة الأمم»، الكتاب الأول، الفصل 10. في الترجمة الحرفية تعني كلمة Keiretsu تجمّعًا بلا قيادة. وهذا هو الاسم الذي يُطْلَقُ على هيكل الشركة التي تترابط فيها معًا عِدَّة تنظيمات، عادةً عن طريق حصص صغيرة تبادلية. وغالبًا ستكون الشركات المعنية شركاء، مثلاً في سلسلة الإمداد supply chain - المؤلف.

[←164]

.’Rhodes, ‘New Governance

[←165]

.Thompson, *Between Hierarchies and Markets*

[←166]

.'Boisot and Lu, 'Competing and Collaborating in Ne

[←167]

كونيجسبرج: عاصمة بروسيا الشرقية أواخر القرون الوسطى في أوربا الشرقية. استمر فيها الحُكْم التابع للإمبراطورية الألمانية حتى الزعيم النازي أدولف هتلر، إلى أن سقطت المدينة عام 1945، فضَمَّها الاتحاد السوفييتي إليه بتسمية جديدة هي كالييننجراد - المترجم.

[←168]

من المخيب للآمال أن تمشية كانط اليومية - التي كان الناس يضبطون ساعاتهم عليها بكل دقة - لم تشمل الجسور السبعة. وطبقًا للشاعر هاينريك هاينه Heinrich Heine، فَضَّلَ كانط المشي ثماني مرات صعودًا وهبوطًا في شارع تصطف على جانبيه الأشجار، عُرِف بعد ذلك باسم «طريق الفيلسوف» - المؤلف.

[←169]

ليونهارت أويلر: (1707 - 1783)، رياضياتي وفيزيائي وعالِم فلك ومنطق ومهندس سويسري. أحد أبرز الرياضياتيين في القرن الثامن عشر وفي تاريخ البشرية لاكتشافاته المؤثرة في التحليل الرياضياتي ونظرية المُخطَّطات، ولإسهاماته الريادية في الطوبولوجيا ونظرية الأعداد التحليلية - المترجم.

[←170]

الأيسومرات: النظائر، في الكيمياء، جزيئات لها الصيغة الكيميائية نفسها، وغالبًا بنوع الروابط نفسه بين الذرّات، لكنها تختلف في ترتيب المجموعات الوظيفية التي تشكل هذه المركّبات. أو بتعبير أبسط: عدة مركبات عضوية لها الصيغة الجزيئية نفسها، وتختلف عن بعضها البعض بخاصّتها الفيزيائية والكيميائية - المترجم.

[←171]

.Caldarelli and Catanzaro, *Networks*, 9

[←172]

أليكسيس دي توكفيل: (1805 - 1859)، مؤرِّخ ومنظِّر سياسي فرنسي، اهتم بالسياسة في بُعْدها التاريخي - المترجم.

[←173]

.’See Heidler et al., ‘Relationship Patterns

[←174]

جاكوب مورينو: (1889 - 1974)، طبيب نفسي روماني أمريكي، مؤسِّس علم النفس الدرامي وأول رائد في العلاج النفسي الجماعي - المترجم.

[←175]

السوسيوجرام: في علم النفس الاجتماعي هو تخطيط أو رسم بياني يمثل العلاقات الاجتماعية بين أعضاء جماعة معينة سواء كانت إيجابية أم سلبية. ويُعَدُّ مورينو رائد هذا المجال - المترجم.

[←176]

.Moreno, *Who Shall Survive?* xiii, lxvi

[←177]

يوجين جارفيلد: (1925 - 2017)، عالِم لغويات ورجل أعمال أمريكي، متخصص في دراسات الحاسوب - المترجم.

[←178]

.’Crane, ‘Social Structure in a Group of Scientists

[←179]

جيمس راوتش: من مواليد عام 1959، أستاذ الاقتصاد بجامعة كاليفورنيا، سان دييجو - المترجم.

[←180]

James E. Rauch, review of Jackson, *Social and Economic Networks*, **in** *Journal of Economic Literature*, 48, 4 (December 2010), 981.

[←181]

.’Leskovec, Huttenlocher, and Kleinberg, ‘Signed Networks in Social Media

[←182]

الهوموفيلي، أو المَيْل إلى المُماثِل أو المُطابِق: من كلمتين يونانيتين قديمتين هما homou التي تعني «معًا» وphilia التي تعني «الصداقة». تشير الهوموفيلي إلى مَيْل الأفراد إلى الاقتران بآخرين مُماثلين لهم، كما يُعبِّر عن ذلك المثلُ السائر «الطيور على أشكالها تقع». اكْتُشِفَ وجود الهوموفيلي من خلال دراسات الشبكة network studies. وتشمل عناصرُ التشابه أو التماثل: العمر والجنس والطبقة والدور التنظيمي، والمعتقدات والقيم والتعليم وغيرها، بما يجعل التواصل وتكوين العلاقة أسهل. وعكس الهوموفيلي homophily هو الهيتروفيلي heterophily أو intermingling التي تعني الاختلاطَ والتمازج. دُرِسَت الهوموفيلي على نطاق واسع في البيولوجيا التطورية - المترجم.

[←183]

إيفرت روجرز: (1931 - 2004)، عالِم اجتماع أمريكي، وأحد أبرز مُنظِّري الاتصالات وتبادل المعلومات. كان أستاذًا فخريًا متميزًا في قسم الاتصالات والصحافة بجامعة نيو مكسيكو - المترجم.

[←184]

ديليب بوميك: أستاذ مساعد في قسم السوسيولوجيا بجامعة فيسك، ناشفيل تينيسي - المترجم.

[←185]

.McPherson et al., ‘Birds of a Feather’, 419

[←186]

Currarini et al., ‘Identifying the Roles of Race-Based Choice and Chance’. See also Moody, ‘Race, School Integration, and Friendship Segregation’.

[←187]

درجة التَّمَرْكزية: تُعَرَّف في نظرية الرسم البياني بأنها عدد الروابط الواقعة عند كل عُقْدة، أو ما تمتلكه كل عُقْدة من روابط. ويمكن تفسير الدرجة من حيث الخطورة المباشِرة للعُقْدة في اصطياد كل ما يتدفق عبر الشبكة (كالفيروس أو معلومات ما). في حالة وجود شبكة موجَّهة (عندما يكون للروابط اتجاه)، نحدِّدُ عادةً مقياسين مختلفين لدرجة التمركزية، هما indegree التي نحسب بها عددَ الروابط الموجَّهة إلى العُقْدة، وoutdegree التي نقيس بها عددَ الروابط التي تُوجِّهها العُقْدةُ إلى أُخريات. عندما تتعلق الروابط ببعض المظاهر الإيجابية كالصداقة أو التعاون، تُفَسَّرُ ال indegree غالبًا بأنها شكل من أشكال الرواج والشعبية، وال outdegree بأنها معاشرة وألفة - المترجم.

[←188]

التَّمَرْكزية البَيْنية: مقياس في نظرية الرسم البياني للتمركزية في رسم بياني قائم على أقصر المسارات. فلكل رأسين أو عُقْدتين في رسم بياني متصل، يوجد على الأقل مسارٌ واحد أقصر بين الرؤوس أو العُقَد بحيث يصل عدد الحوافِّ التي يمر عبرها المسار (في الرسومات البيانية غير المتوازنة) أو مجموع توازنات الحوافّ (في الرسومات البيانية المتوازنة) إلى حده الأدنى. والتمركزية البَيْنية بالنسبة إلى كل رأس أو عُقْدة هي أقصر هذه المسارات التي تمر عبر الرأس أو العُقْدة - المترجم.

[←189]

تمركزية التجاور أو القُرْب: في رسم بياني متصل، قُرْبُ تمركزية عُقْدة يقيس التمركزيةَ في الشبكة، ويتم حسابه بوصفه مجموع الطول المتبادل لأقصر المسارات بين العُقْدة والعُقَد الأخرى في الرسم البياني. ومن ثمَّ، كلما كانت العُقْدةُ تمركزيةً كانت أقرب إلى جميع العُقَد الأخرى - المترجم.

[←190]

لينتن فريمان: (1927 - 2018)، عالِم اجتماع أمريكي، متخصص في علم الاجتماع البنيوي، مشهور بأعماله الرائدة في دراسة الشبكات الاجتماعية. كان أستاذًا فخريًا بجامعة كاليفورنيا - المترجم.

[←191]

.Vera and Schupp, 'Network Analysis', 409

[←192]

آر دنْكان لوس: (1925 - 2012)، عالِم اجتماع ورياضيات أمريكي. شغل في أخريات حياته منصب أستاذ البحث المتميز في العلوم المعرفية بجامعة كاليفورنيا - المترجم.

[←193]

مُعَامِل التجميع: قيمة دالة على درجة تجمُّع العُقَد مع بعضها البعض. أثبتت الدراسات وجود مَيْل عام في الشبكات الواقعية عمومًا والشبكات الافتراضية خصوصًا نحو تشكيل مجموعات صغيرة من العُقَد المترابطة بقوة فيما بينها بعدد كبير نسبيًا من الحوافِّ. وهو مقياس لاحتمال ارتباط اثنين مُقرَّبين في عُقْدة ما.

ويشير مُعامِل التجميع الأعلى إلى اتحاد أكبر - المترجم.

[←194]

كثافة الشبكة: نسبة الروابط المباشرة في إحدى الشبكات المتعلقة بإجمالي العدد المحتمل. أو بصياغة أخرى: العُقْدة في شبكة ما قد تكون شخصًا أو جهاز كمبيوتر أو نصًا تشعُّبيًا، وتُسمَّى الاتصالاتُ أو الروابط بين العُقَد «صلاتٍ» أو «حوافًّا»، وتصف «كثافةُ الشبكة» ذلك الجزءَ من الاتصالات المحتملة في شبكة ذات صلات فعلية - المترجم.

[←195]

ستانلي ميلجرام: (1933 - 1984)، عالِم نفس اجتماعي أمريكي، من أشهر بحوثه الإذعان للسلطة الذي أنجزه خلال ستينيات القرن العشرين أثناء عمله في جامعة ييل، والذي تأثر فيه بأحداث الهولوكوست ومحاكمات أدولف أيخمان. أما بحثه الآخر الذي أعطاه شهرةً، تعزَّزتْ فيما بعد، فهو تجربته المُسمَّاة «العالَم الصغير» التي قادت العلماءَ إلى النظر في ميكانيزمات الشبكات الاجتماعية والبحث في العلاقة الرياضية التي تُفسِّرُ درجةَ الترابط ومبدأ درجات الانفصال السِّت - المترجم.

[←196]

.’Milgram, ‘Small-World Problem

[←197]

.'Watts, *Six Degrees*, 134. See also Schnettler, 'Structured Overview

[←198]

.Barabási, *Linked,* 29

[←199]

فريجايس كارينثي: (1887 - 1938)، مؤلِّف مجري وكاتب مسرحي وشاعر وصحفي. كان أول دُعاة مفهوم أو مبدأ درجات الانفصال السِّت في قصته القصيرة «سلاسل». وهي فكرة مفادها أن كل الكائنات الحية وكل شيء آخر في العالم يبتعد عن غيره بمقدار سِتّ خطوات، بحيث يمكن عمل سلسلة «من صديق لصديق» بحدٍّ أقصى سِتّ خطوات لرَبْط شخصين ببعضهما. صار هذا المبدأ يُستعمَل مرادفًا ل«العالَم الصغير» عند ميلجرام - المترجم.

[←200]

إيثيل دي سولا بوول: (1917 - 1984)، شخصية ثورية في مجال العلوم الاجتماعية، أجرى بحوثًا رائدة في التكنولوجيا وأثرها على المجتمع. صاغ مصطلح التقارب لوصف تأثير مختلف الابتكارات العلمية على المجتمع في المستقبل. كان يعطي توقعات دقيقة ومذهلة بخصوص علاقة التكنولوجيا بالمجتمع - المترجم.

[←201]

مانفريد كوخن: (1928 - 1989)، عالِم رياضيات نمساوي أمريكي، له بحوث رائدة في الشبكات الاجتماعية ونظرية سِتّ درجات انفصال، من أهم أعماله «العالَم الصغير» و«نموّ المعرفة» - المترجم.

[←202]

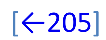
جون جُوَري: كاتب مسرحي أمريكي من مواليد عام 1938 - المترجم.

[←203]

بول إيردوس أو إيردوش: (1913 - 1996)، عالِم رياضيات مجري غريب الأطوار. اشتهر بالعمل على التوافقيات ونظرية المُخطّطات ونظرية الأعداد والتحليل الرياضي ونظرية المجموعات ونظرية الاحتمالات - المترجم.

[←204]

Jennifer Schuessler, ‘How Six Degrees Became a Forever Meme’, *The New York Times*, 19 April .2017



.’Jackson, Rogers and Zenou, ‘Connections in the Modern World

[←206]

.’Davis, Yoo and Baker, ‘The Small World of the American Corporate Elite

[←207]

Lars Backstrom, Paolo Boldi, Marco Rosa, Johan Ugander, and Sebastiano Vigna, 'Four Degrees of Separation', 22 June 2012: https://research.fb.com/publications/four-degrees-of-separation/.

[←208]

Smriti Bhagat, Moira Burke, Carlos Diuk, Ismail Onur Filiz, and Sergey Edunov, ‘Three and a Half Degrees of Separation’, 4 February 2016: https://research.fb.com/three-and-a-half-degrees-of-/separation

[←209]

مونيكا لوينسـكي: أمريكية من مواليد عام 1973، تورَّطَ معها الرئيسُ الأمريكي الأسـبق بِلْ كلينتن في فضيحة جنسـية، عُرِفتْ إعلاميًا ب«فضيحة مونيكا» منتصف تسعينيات القرن العشـرين - المترجم.

[←210]

مارك جرانوفيتر: من مواليد عام 1943، عالِم اجتماع أمريكي وأستاذ بجامعة ستانفورد، اشتهر بعمله في نظرية الشبكات الاجتماعية وعلم الاجتماع الاقتصادي؛ ولا سيما نظريته حول انتشار المعلومات في الشبكات الاجتماعية المعروفة ب«قوة الروابط الضعيفة» - المترجم.

[←211]

قوة الروابط الضعيفة: الروابط الضعيفة كما يُعَرِّفُها جرانوفيتر هي: علاقات اجتماعية تتصف بالاتصال النادر، وغياب القُرْب العاطفي وعدم وجود تَاريخ من الخدمات المتبادلة. فالمعارف ضمن الروابط الضعيفة هم الأشخاص الذين يقعون في شبكتك الواسعة. وصلات الروابط الضعيفة موجودة أكثر بكثير مما نظن.

فيلجأ معظم الناس إلى شبكاتهم الواسعة. ومعظم شبكات الأعمال تقوم على صلات الروابط الضعيفة نسبيًا. ومن هنا تأتي قوتها، ولا سيما حين ترتبط بِمفهوم «الجسر» الذي هو عبارة عن فرد تملأ روابطُه الضعيفة فجوةً بنيوية في الشبكة فيُقدِّم الرابطَ الوحيد بين فردين أو مجموعتين، وهو ما يتضمن أقصر الطرق عندما يتعذر تطبيق الطريق الأطول بسبب مخاطرة عالية - المترجم.

[←212]

.’Granovetter, ‘Strength of Weak Ties

[←213]

.Granovetter, ‘Strength of Weak Ties Revisited’, 202

[←214]

See also Tutic and Wiese, 'Reconstructing Granovetter's Network Theory'. Recent research using Facebook data largely confirms Granovetter's thesis: Laura K. Gee, Jason Jones and Moira Burke, 'Social Networks and Labor Markets: How Strong Ties Relate to Job Finding on Facebook's Social Network', 13 January 2016: https://research.fb.com/publications/social-networks-and-labor-markets-how-strong-ties-relate-to-job-transmission-on-facebooks-social-network/.

[←215]

.'Liu, King, and Bearman, 'Social Influence

[←216]

دُنْكِن واتس: من مواليد عام 1971، باحث أستـرالي المولد، يعمل في مركز أبحاث مايكروسـوفت في الولايات المتحدة - المترجم.

[←217]

ستيفن ستروجاتس: من مواليد عام 1959، عالِم رياضيات أمريكي وأستاذ الرياضيات التطبيقية في جامعة كورنيل. معروف بإسهاماته في دراسة تزامن ديناميكية النُّظم والبيولوجيا الرياضية ونظرية الشبكة المُعَقّدة - المترجم.

[←218]

.’Watts and Strogatz, ‘Collective Dynamics of “Small-World” Networks

[←219]

.Watts, ‘Networks, Dynamics, and the Small-World Phenomenon’, 522

[←220]

الاقتصاد المعياري أو التقليدي يُعَرَّفُ بأنه مبدأ الفرد الذي يسعى إلى تعظيم دور المنفعة، حيث تكون المنفعةُ دالةً على كمية السلع والخدمات التي يستهلكها هذا الفرد. ومن ناحية أخرى، يشير إلى مجموعة المعارف والنظريات والنماذج الاقتصادية كما يتم تدريسها في الجامعات، التي يقبلها الاقتصاديون بشكل عام بوصفها أساسًا للمناقشة، بالمقارنة مع الاقتصاد غير التقليدي الذي يشمل مدارس أو مناهج مختلفة يقبلها مؤيِّدوها - المترجم.

[←221]

رونالد كوَس: (1910 - 2013)، عمل أستاذًا في مدرسة لندن للاقتصاد، ثم شغل مناصب حكومية قبل الحرب العالمية الثانية وأثنائها، ثم عاد إلى التدريس مرة أخرى - المترجم.

[←222]

يجادل كوَس في «مشكلة التكلفة الاجتماعية» (1960، 15) قائلاً بأنه «من أجل تنفيذ مُعامَلة في السوق، من الضروري اكتشاف مَن الذي يرغب المرءُ في التعامل معه، وإعلام الناس بأن المرء يريد التعاملَ وبأية شروط، وإجراء مفاوضات تُؤدّي إلى صفقة، ووَضْع عَقْد وإجراء تفتيش ضروري للتأكد من مراعاة شروط العَقْد، وهكذا». ومُنظَّمات - كالشركات بل الدول حتى - توجد لخَفْض أو إلغاء تكاليف هذه المُعامَلات، مثلاً، بعقود توظيف موحَّدة طويلة الأجل.

الوحدات الأكبر يمكنها عمل ذلك بكفاءة أكبر، ومن ثمَّ «وُفُورات الحجم أو اقتصادات الحجم أو اقتصادات السِّعَة» economies of scale - المؤلف.

[←223]

على الواجهة البحرية: فيلم دراما وجريمة أمريكي، من إخراج إيليا كازان. صدر الفيلم في يوليو عام 1954، وحاز على 12 ترشيح لجائزة الأوسكار، فاز بثمانية منها - المترجم.

[←224]

.Powell, ‘Neither Market nor Hierarchy’, 301, 304

[←225]

.’Calvó-Armengol and Jackson, ‘The Effects of Social Networks on Employment and Inequality

[←226]

.’Smith-Doerr and Powell, ‘Networks and Economic Life

[←227]

Bramoullé et al., ‘Homophily and Long-Run Integration’; Jackson and Rogers, ‘Meeting .’Strangers and Friends of Friends

[←228]

Greif, ‘Reputation and Coalitions in Medieval Trade’ and ‘Contract Enforceability and Economic Institutions.’

[←229]

أفنر جريف: من مواليد عام 1955، إسرائيلي متخصص في التاريخ الاقتصادي - المترجم.

[←230]

رونالد بيرت: من مواليد عام 1949، عالِم اجتماع أمريكي وأستاذ علم الاجتماع والإستراتيجية في جامعة شيكاغو. اشتهر ببحوثه في الشبكات الاجتماعية ورأس المال الاجتماعي، ولا سيما مفهومه عن الثقوب الهيكلية في الشبكات الاجتماعية - المترجم.

[←231]

شبكة الأعمال [البيزنس]: شبكة معقدة من الشركات تعمل معًا لتحقيق أهداف معينة، وهي أكثر بكثير من الأعمال التجارية نفسها - المترجم.

[←232]

رأس المال الاجتماعي في أبسط تعريف له هو: القيمة التي يحصلها فرد أو مجموعة من الشبكة الاجتماعية - المترجم.

[←233]

الثغرة الهيكلية أو الفجوة البنيوية: انقطاع في الشبكة بسبب غياب الروابط الضعيفة، ويرتبط سدُّ الثغرة أو الفجوة بمفهوم الجسر الذي هو عبارة عن رابط ضعيف يملأ الثغرةَ واصلاً بين فردين أو مجموعتين - المترجم.

[←234]

.’Coleman, ‘Social Capital

[←235]

.Burt, *Structural Holes*, KL 46–9

[←236]

.Burt, *Brokerage and Closure*, 7. See also Burt, *Neighbor Networks*

[←237]

.Burt, ‘Structural Holes and Good Ideas’, 349f

[←238]

.Carroll and Teo, 'On the Social Networks of Managers', 433

[←239]

.Harrison and Carroll, ‘Dynamics of Cultural Influence Networks’, 18

[←240]

.Goldberg et al., ‘Fitting In or Standing Out?’ 2f

[←241]

المكتب: مسلسل هزلي بريطاني ألفه ريكي جيرفَيس بالاشتراك، أُذيع عام 2001 في المملكة المتحدة على بي بي سي 2، يتناول الحياة اليومية لموظفي المكاتب في إحدى الشركات بشكل فُكاهي - المترجم.

[←242]

الإيثرنت: نظام لتوصيل عدد من أنظمة الكمبيوتر لتشكيل شبكة محلية أو إقليمية، بإجراءات تَحكُّمٍ في تمرير المعلومات ومَنْع الإرسال المتزامن من قبل نظامين أو أكثر - المترجم.

[←243]

الانتشار الفيروسي: تُستعمَل العبارة في الإشارة إلى محتوى الإنترنت الذي يمكن تمريره عبر البريد الإلكتروني ومواقع الشبكات الاجتماعية؛ فالصورة أو مقطع الفيديو أو الرابط الذي يُعَادُ إرسالُه ويتشاركه مُستخدِمو الإنترنت فينتشر بينهم يوصف بأنه «فيروسي»، وتوصف سرعة انتشاره بأنها «انتقال فيروسي».

ومن أمثلة الموضوعات التي تنتشر انتشارًا فيروسيًا في مجتمعات الإنترنت: المحتوى السياسي القوي، أخبار المشاهير، أخبار الكوارث، مقاطع فيديو منزلية مسلية، الدعابة الجنسية الفجّة - المترجم.

[←244]

.Berger, *Contagious*. See also Sampson, *Virality*

[←245]

الميم، والجمع ميمات: لفظ استحدثه، عَرَضًا، عام 1976 عالِم البيولوجيا ريتشارد داوكنز، ويشير إلى «وحدة معلومات ثقافية» أو «العنصر الثقافي» الذي ينتقل من عقل إلى آخر بطريقة مشابهة لانتقال الجينات من فرد إلى آخر خلال عملية التكاثر، حيث الجينات هي وحدة معلومات وراثية. ثم ظهر لاحقًا علم يُدْعَى علم الميمات memetics أو «علم التطوُّر الثقافي» الذي يُعْنَى بدراسة هذه الفكرة وتطبيقاتها. تنتشر الميمات معًا بوصفها مجموعة أو زُمَر متكاملة تعمل معًا ويشار إليها ب«مَعْقَد الميمات». وتفترض بعض النظريات والأفكار أن الميمات تتطور من خلال عملية اصطفاء طبيعي بطريقة مشابهة لأفكار تشارلز داروين فيما يخص التطور البيولوجي. وفي منتصف ثمانينيات القرن العشرين، ظهر الولع بالميمات فيما يُعْرَفُ ب«الحركة الميماتية الجديدة» على يد دوجلاس هوفشتادر، ومن أبرز سماتها أن معظم ناشطيها من خارج إطار علم الاجتماع وعلم الإنسان، بل من غير الأكاديميين أصلاً. ثم في عام 1993 عاد ريتشارد داوكنز ليستعمل مصطلح الميمات، مرة أخرى، في مقاله «فيروسات العقل» ليشرح ظاهرة المعتقدات الدينية وسمات الديانات المنظَّمة - المترجم.

[←246]

.For a good discussion see Collar, *Religious Networks*, 13f

[←247]

تدفُّق نمط الاتصال عبر خطوتين: يقول بأن الأفكار تتدفق من وسائل الإعلام إلى قادة الرأي الذين يُضْفون عليها تفسيرَهم الخاص ثم يُمرِّرونها إلى الناس.

وذلك في مقابل التدفق عبر خطوة واحدة الذي يؤكد أن معظم الناس يتأثرون مباشرةً بوسائط الإعلام - المترجم.

[←248]

بول لازارسفيلد: (1901 - 1976)، عالِم اجتماع نمساوي أمريكي، جامعة كولومبيا - المترجم.

[←249]

إليهو كاتس: من مواليد عام 1926، عالِم اجتماع ونظريات تواصل، أمريكي إسـرائيلي - المترجم.

[←250]

.Katz and Lazarsfeld, *Personal Influence*

[←251]

.’Hill, ‘Emotions as Infectious Diseases

[←252]

.’Dolton, ‘Identifying Social Network Effects

[←253]

.Christakis and Fowler, *Connected*, 22

[←254]

.Kadushin, *Understanding Social Networks*, 209f

[←255]

.Nahon and Hemsley, *Going Viral*

[←256]

.'Centola and Macy, 'Complex Contagions

[←257]

.Watts, *Six Degrees*, 249

[←258]

الشبكات العشوائية دَرَسَها أولاً عالِما رياضيات غزيريْ الإنتاج، ويُستشهد بهما كثيرًا، هما بول إردوس Paul Eerdös وألفريد رينيه Alfréd Rényi، أحد مشاركيه العديدين في التأليف. يتكون الرسم البياني العشوائي بوضع العُقَد n على مسطح مستو، ثم رَبْط كل زوجين منها معًا بشكل عشوائي عن طريق حوافّ m. ويمكن اختيار العُقَد أكثر من مرة، أو عدم اختيارها أصلاً - المؤلف.

[←259]

روبرت ميرتن: (1910 - 2003)، عالِم اجتماع أمريكي في جامعة كولومبيا. طوَّرَ مفاهيم عديدة مثل «العواقب غير المقصودة» و«المجموعة المرجعية». اشتهر بمصطلح «النبوءة التي تُحقِّقُ نفسَها»، الذي يعني تحديدًا خاطئًا لموقف يستدعي سلوكًا جديدًا، بما يجعل الفكرةَ الخاطئة أصلاً تتحقق» - المترجم.

[←260]

متَّى: الأصحاح 25، الآية 29 - المؤلف.

[←261]

.’Rosen, ‘The Economics of Superstars

[←262]

الإلحاق التمييزي أو التفضيلي: أيُّ نوع من العمليات تُوَزَّعُ فيه كميةٌ ما، على عدد من الأفراد وفقًا لما لديهم بالفعل - المترجم.

[←263]

لازلو باراباسي: من مواليد عام 1967، فيزيائي مجري، أستاذ متميز ومدير مركز جامعة نورث إيسترن لبحوث الشبكة المعقدة، وعضو مشارك في مركز نُظُم السرطان، معهد دانا فاربر للسرطان، جامعة هارفارد - المترجم.

[←264]

ريكا ألبرت: من مواليد عام 1972، عالِمة مجرية، أستاذة الفيزياء وعلم الأحياء في جامعة ولاية بنسلفانيا. اشتهرت بنموذج «باراباسي - ألبرت»، وببحوثها في الشبكات حُرَّة النطاق ونَمْذجة الأنظمة البيولوجية - المترجم.

[←265]

قانون الرَّفْع في الإحصاء هو علاقة داليّة بين كميتين، حيث يتسبَّبُ التغيُّرُ النسبي في كمية في تغيُّر نسبي للكمية الأخرى بشكل متناسب، بغضِّ النظر عن حجم الكميتين الابتدائي. وينطبق هذا على الظواهر الطبيعية والبيولوجية والبشرية - المترجم.

[←266]

الشبكة حُرَّة النطاق: ثمة ادعاء رئيسي في علم الشبكات الحديث يقول بأن شبكات العالَم الحقيقي تكون عادةً «حُرَّة النطاق أو الحجم»، أيْ تتبع قانونَ الرفع. ولكن الأدلة التجريبية لهذا الاعتقاد مستمدة من عدد صغير نسبيًا من شبكات العالم الحقيقي. فالدراسات الإحصائية تثبت وجود 4% فقط من الحالات التي تُقدِّم دليلاً على وجود بنية أو هيكل حُرِّ النطاق. وإذن، الشبكات الاجتماعية هي، في أحسن أحوالها، ضعيفة النطاق، في حين أن عددًا قليلاً من الشبكات التكنولوجية والبيولوجية يمكن أن توصف بأنها حُرَّة النطاق. وتؤدِّي هذه النتائج إلى تقويض عالَمية الشبكات حُرَّة النطاق، كما تكشف عن أن شبكات العالم الحقيقي متنوعة تنوعًا بنيويًا ثريًا على نحو يتطلب أفكارًا وآلياتٍ جديدةً لشرحها - المترجم.

[←267]

التوزيعاتُ التي تتبع قانون الرفع «سمينةُ العَجُز» fat tails، لأن الاحتمال النسبي للدرجة العالية للغاية والمنخفضة للغاية أعلى مما لو كانت الروابط مُشَكَّلة عشوائيًا. من الناحية التقنية، يشير مصطلح «حُرّ النطاق أو الحجم» scale - free إلى حقيقة «أن التكرار النسبي لعُقَد من الدرجة d، مقارنةً بعُقَد من الدرجة d´ هو نفسه التكرار النسبي لعُقَد من الدرجة kd مقارنةً بعُقَد من الدرجة kd´، عند إعادة القياس بوَسَاطة عامل عشوائي k > o». في شبكة حُرَّة النطاق لا توجد عُقْدة نموذجية، ومع ذلك يُبيِّنُ «قياسُ» الاختلاف بين العُقَد الشيءَ نفسَه في كل مكان. وبعبارة أخرى، يتميز العالَم حُرّ النطاق بهندسة فراكتيلية:

البلدةُ هي عائلةٌ كبيرة، والمدينةُ بلدةٌ كبيرة، والمملكةُ مدينةٌ كبيرة - المؤلف.

[←268]

.’Barabási and Albert, ‘Emergence of Scaling in Random Networks

[←269]

.Barabási, *Linked*, 33–4, 66, 68f., 204

[←270]

.Ibid., 221

[←271]

.Ibid., 103, 221

[←272]

.’Dolton, ‘Identifying Social Network Effects

[←273]

.’Strogatz, ‘Exploring Complex Networks

[←274]

.Cassill and Watkins, 'Evolution of Cooperative Hierarchies', 41

[←275]

الدولة التوتاليتارية أو الشمولية: تتبنَّى نظامًا سياسيًا تندمج فيه الدولةُ بالحياة الوطنية كلها، فتسيطر بشكل صارم على جميع الأنشطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية والنقابية، في إطار أُحادية السلطة وأحادية رؤية العالم، مع استعمال التقنيات الحديثة في مجالات التنظيم والاتصال والإدارة. وانطلاقًا من هذا المفهوم، ينبغي على الفرد أن يذوب في الكل، أيْ في الدولة التي تشكل جسمًا كليًا مكونًا من مجموعة الخلايا أيْ من الأفراد. وينطبق مفهوم التوتاليتارية على النظام النازي والفاشي، وأحيانًا على الأنظمة الشيوعية - المترجم.

[←276]

.’Ferguson, ‘Complexity and Collapse

[←277]

الكِبال أو العُصْبَة أو الجمعية السرية: مجموعة صغيرة من الناس متَّحِدة عبر تنظيم وثيق، تُرَوِّجُ عادةً لوجهة نظرها الخاصة أو اهتمامات أيديولوجية معينة، عن طريق المؤامرات غالبًا. ولا يكون أفراد العُصْبة أو التنظيم معروفين لغيرهم. يحمل استعمال هذه الكلمة دلالات سلبية ذات غرض سياسي وتآمري - المترجم.

[←278]

انقلاب القصر: إزالة رأس السلطة باتفاق مجموعة من العاملين معه، وفي الغالب لا تصحبه اضطراباتٌ اجتماعية - المترجم.

[←279]

.’Padgett and McLean, ‘Organizational Invention and Elite Transformation

[←280]

.Padgett and Powell, *Emergence of Organizations and Markets*, KL 517f

[←281]

آل ميديتشي: أحد أشهر عائلات فلورنسا في إيطاليا التي لعبت الدور الأهمّ اجتماعيًا وسياسيًا وثقافيًا بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر. كان أفراد العائلة في الأصل تجار صوف، ثم عملوا في القطاع المَصْرفي فاكتسبوا ثروةً طائلة وسُلْطة واسعة، فكان مَصْرفُ ميديتشي أحدَ أكثر المصارف احترامًا وازدهارًا في أوربا. اكتسبت العائلةُ السلطةَ السياسية في فلورنسا بادئ الأمر ثم على نطاق أوسع في إيطاليا وأوربا. باستثناء فترات قصيرة حَكَمَ آل ميديتشي فلورنسا من عام 1434 حتى عام 1737. كما اشتهر آل ميديتشي برعايتهم للفن والفنانين - المترجم.

[←282]

.’Loreto et al., ‘Dynamics and Expanding Spaces

[←283]

.Barabási, *Linked*, 113–18

[←284]

.Ibid., 135

[←285]

.Castells, ‘Information Technology, Globalization and Social Development’, 6

[←286]

.'Mayer and Sinai, 'Network Effects, Congestion Externalities

[←287]

إيمي زيجارت: من مواليد عام 1967، أكاديمية أمريكية، تعمل مديرةً مُشارِكة لمركز الأمن والتعاون الدولي بجامعة ستانفورد، وأستاذة الاقتصاد السياسي في كلية الدراسات العليا للأعمال بالجامعة نفسها - المترجم.

[←288]

.Amy Zegart, ‘Cyberwar’, TEDxStanford: https://www.youtube.com/watch?v=JSWPoeBLFyQ

[←289]

Michael McFaul and Amy Zegart, ‘America Needs to Play Both the Short and Long Game in Cybersecurity’, *Washington Post*, 19 December 2016.

[←290]

هجوم واناكراي الإلكتروني: هجوم ببرمجية الفِدْية، بدأ في الساعات الأولى يوم 12 مايو عام 2017. ويُسمَّى أيضًا فيروس الفِدْية، لأنه يقوم بتشفير جميع البيانات على الحاسوب مع رسالة تفيد بوجوب دفع فِدْية مقابل الإفراج عن البيانات المشفرة - المترجم.

[←291]

.'See e.g. Heylighen, 'From Human Computation to the Global Brain' and 'Global Superorganism

[←292]

.See e.g. Bostrom, *Superintelligence*

[←293]

Slaughter, ‘How to Succeed in the Networked World’, 84f.; Slaughter, *The Chessboard and the Web,* KL 2642–3, 2738.

[←294]

جراهام أليسن: من مواليد عام 1940، أستاذ علوم سياسية أمريكي بجامعة هارفارد. اهتم منذ سبعينيات القرن العشرين بتحليل سياسة الأمن القومي والدفاع الأمريكية، مع اهتمام خاص بالأسلحة النووية والإرهاب - المترجم.

[←295]

.’Allison, ‘Impact of Globalization

[←296]

.Ramo, *Seventh Sense*, 82, 118, 122

[←297]

.See e.g. Tomlin, *Cloud Coffee House*

[←298]

مجتمع منخفض الثقة: مجتمع تكون فيه الثقة بين الأشخاص منخفضة نسبيًا، حيث لا يتشاركون فيما بينهم أية قيم أخلاقية - المترجم.

[←299]

Fukuyama, *Great Disruption*, 224. See also Fukuyama, *Origins of Political Order*, 13f., and .*Political Order and Political Decay*, 35f

[←300]

دومينيك كامينجز: من مواليد عام 1971، مستشار سياسي وإستراتيجي بريطاني. أدار حملةَ التصويت على مغادرة المملكة المتحدة للاتحاد الأوربي Vote Leave - المترجم.

[←301]

Dominic Cummings, ‘Complexity, “Fog and Moonlight”, Prediction, and Politics II: Controlled Skids and Immune Systems’, blog post, 10 September 2014: https://dominiccummings.wordpress.com/2014/09/10/complexity-fog-and-moonlight-prediction-and-politics-ii-controlled-skids-and-immune-systems/.

[←302]

التمركزية المتجهة ذاتيًا eigenvector centrality: اتصال العُقْدة المَعْنية بعُقَد عالية الاتصال، الأمر الذي يجعلها ذات تمركزية أعلى من حالة اتصالها بعُقَد منخفضة الاتصال - المترجم.

[←303]

On eigenvector centrality, see Cline and Cline, 'Text Messages, Tablets, and Social Networks', .30f

[←304]

ألان بينيت: من مواليد عام 1934، ممثل وكاتب سيناريو وكاتب مسرحي وكاتب يوميات بريطاني - المترجم.

[←305]

.Bennett, *History Boys*

[←306]

البارون جون آدم إيكستات: (1702 - 1776)، مثقف ألماني ومدير جامعة إنجولشتات، أحد أكبر مؤيِّدي حركات الاستنارة في بافاريا، والأب الروحي لآدم فايسهُبت - المترجم.

[←307]

ماكسميليان الثالث، ناخب بافاريا: (1727 - 1777)، تولَّى منصبَ أمير ناخب، وهو منصب في الإمبراطورية الرومانية المقدسة أوجبه المرسومُ الذهبي الذي يقضي بوجود عدد محدود من الأمراء يشكلون المَجْمَعَ الانتخابي الذي أُسْنِدَ له منذ القرن الثالث عشر انتخابُ الإمبراطور الروماني المقدس - المترجم.

[←308]

اليسوعيون أو الرَّهْبنة اليسوعية: إحدى أهم الرهبانيات الفاعلة في الكنيسة الكاثوليكية، تأسَّست على يد القديس إغناطيوس دي لويولا في القرن السادس عشر في أسبانيا أيام البابا بولس السادس، بوصفها جزءًا من الإصلاح المضاد. تُعَدُّ من أقوى تنظيمات الكنيسة الكاثوليكية المؤثرة. اصطدمت أواخر القرن الثامن عشر ببعض السلطات الأوربية، الأمر الذي أدَّى إلى حلِّها عام 1773، وهو القرار الذي أُلْغِي عام 1814 على يد البابا بيوس السابع. يقع مركزها الرئيسي في روما، وتتبع نمط الإدارة اللامركزية - المترجم.

[←309]

Agethen, *Geheimbund und Utopie*, 70f.; Israel, *Democratic Enlightenment*, 828f. Cf. Stauffer, *New England and the Bavarian Illuminati*, 142–228.

[←310]

كلود أدريان هلفتيوس: (1715 - 1771)، فيلسوف وموسوعي فرنسي، له نظرية تقول إن كل الناس وُلِدوا بقدرات متساوية، ولكن ظروف التربية والتعليم تجعلهم متفاوتين. سبَّبَ له كتابُه «عن الروح» مشاكل مع القساوسة المسيحيين الذين اعتبروا كتابَه مُهَرْطِقًا خطرًا - المترجم.

[←311]

بول أونري تيري: (1723 - 1789)، اسمه المستعار بارون دولباخ، فيلسوف وموسوعي فرنسي ألماني. عُرِفَ بكَوْنه أحدَ روَّاد عصر التنوير الفرنسي، كما عُرِفَ بارتياده الصالونات الأدبية وبإلحاده. له عدة كتابات ضد الدين. تأثر ماركس بأفكاره - المترجم.

[←312]

.Wäges and Markner (eds.), *Secret School of Wisdom*, 14

[←313]

.Ibid., 15

[←314]

أسرار إليوسيس اليونانية القديمة: طقوس تُقام كل عام لعبادة ديميتر وبيرسيفوني، وتمثل هذه الأسرارُ أسطورةَ اختطاف بيرسيفوني من والدتها ديميتر على يد ملك العالَم السفلي هاديس، وتتجسَّدُ في ثلاث مراحل هي: الهبوط، البحث، الصعود. ظلت هذه الطقوس والاحتفالات والمعتقدات الدينية من الأمور السرِّية، فكان يُحَافَظُ عليها بطريقة متشددة منذ العصور اليونانية القديمة، ومنها انتقلت إلى روما. يعتقد بعضُ العلماء أن ممارسة هذه الأسرار كانت تتم من خلال تعاطي مواد تُسبِّب الهلوسة - المترجم.

[←315]

الزرادشتية، وتُعْرَفُ أيضًا ب«المجوسية»: ديانة إيرانية قديمة وفلسفة دينية آسيوية. معظم معتنقيها اليوم في الهند وإيران وأفغانستان وأذربيجان، بالإضافة إلى مهاجرين من هذه المناطق إلى الولايات المتحدة وأوربا وأستراليا وكندا وسنغافورة. يُصَنِّفُها بعض العلماء ضمن الديانات التوحيدية لأن أفكار زرادشت، مؤسِّسها، أدّت إلى تصور وجود إله واحد هو «أهورامازدا» الذي يعني «الحكمة المضيئة». من المحتمل أن يكون اليهود قد تعلموا بعض الأفكار الزرادشتية خلال السَّبْي البابلي، وعلى يدهم انتقلت عناصر زرادشتية إلى الديانات الإبراهيمية، فيما يعتقد علماء الأديان بشكل واسع. كتاب الزرادشتية المقدس يُسمَّى «الأفيستا»، وهي كلمة فارسية تعني الأصل أو المتن - المترجم.

[←316]

الألومبرادوس، أو المتنوِّرون الإسبان: جماعة تُمارِسُ شكلاً من التصوف المسيحي في إسبانيا بدءًا من أواخر القرن الخامس عشر، بعض مذاهبها تتبنَّى وجهات نظر هرطقية. قُمِعوا بشدة، فكانوا بعض الضحايا الأوائل لمحاكم التفتيش الإسبانية - المترجم.

[←317]
المَأْنَسَة: حفلة تقام لتوثيق أواصر المودة بين أعضاء جماعة ما - المترجم.

[<-318]

بخصوص مناقشة كاملة للماسونية، انظر الفصل الثاني - المؤلف.

[←319]

.Van Dülmen, *Society of the Enlightenment*, 55f

[←320]

فرانس سافير تسفاك: (1756 - 1843)، عضو مجلس ولاية بافاريا المَلَكي وأول رئيس لمنطقة ولاية بافاريا - المترجم.

[←321]

الصَّفائيون، في هذا السياق، تعني أشخاصًا يُصِرُّون على الالتزام المطلق بالقواعد والأبنية التقليدية الأصلية - المترجم.

[←322]

فرسان الهيكل أو فرسان المعبد، المُلقبون أيضًا ب«جنود المسيح وهيكل سليمان الفقراء»: أحد أقوى التنظيمات العسكرية التي تعتنق الفكر المسيحي الغربي، وأثراها وأكثرها نفوذًا، وأحد أبرز ممثلي الاقتصاد المسيحي. دام نشاطهم قرابة قرنين من الزمان في العصور الوسطى. ذاع صيت التنظيم بعد أن صادقت عليه الكنيسةُ الكاثوليكية حوالي عام 1129. شارك جناحُه العسكري في الحملات الصليبية بوصفه إحدى أمهر الوحدات العسكرية وأخطرها. أما جناح التنظيم المدني فأدار بنيةً تحتية اقتصادية واسعة النطاق في أنحاء العالم المسيحي الغربي، ويُعْزَى إليه الفضلُ في ابتكار طرق مالية صارت اللَّبنات الأولى لنظام المصارف والبنوك الحديث. في عام 1307، قام فيليب الرابع ملك فرنسا باعتقال أعضاء التنظيم في فرنسا ومصادرة ممتلكاتهم وإعدام الكثير منهم. وفي عام 1312، قام البابا كليمنت الخامس، تحت ضغط من الملك فيليب، بحلِّ التنظيم. أدَّى كل هذا إلى تفكيك التنظيم واختفائه المفاجئ، فانتشرت الأقاويل والأساطير حول ماهيته وأساليبه التنظيمية، الأمر الذي جعل اسمه باقيًا حتى اليوم - المترجم.

[←323]

طقس الانضباط الصارم: في القرن الثامن عشر، نشأت هيئةٌ داخل الماسونية أرادت إعادةَ التماسك والتجانس عبر الالتزام بطقس انضباط صارم يُحدِّدُ معاييرَ تَرقِّي الأعضاء داخل التنظيم. لذا، يُعَدُّ «طقس الانضباط الصارم» بمثابة هيئة إصلاحية داخل التنظيم - المترج

[←324]

See Schüttler, 'Zwei freimaurerische Geheimgesellschaften'. This ferment culminated in 1782 at .the *Konvent* of German lodges held in Wilhelmsbad

[←325]

أدولف فرانس فريدريك لودفيج، بارون فون كنيجه: (1752 - 1796)، كاتب ألماني ماسوني وعضو بارز في جمعيَّة المُتنوِّرين - المترجم.

[←326]

.’Hataley, ‘In Search of the Illuminati

[←327]

.Israel, *Democratic Enlightenment*, 836

[←328]

الصليب الوردي، أو روزا كروز، أو الروزيكروشيون: تنظيم سرّي عُلِمَ بوجوده لأول مرة أوائل القرن السابع عشر، يزعم أعضاؤه أنهم يمتلكون حكمةً سِرّية مقتصرة على قِلّة منهم، وأن هذه الحكمة انحدرت إليهم من عهد موغل في القِدَم، وأن مُنْشِئ جمعيَّتهم فارسٌ ألماني زار عددًا من بلدان الشرق، وعلى وجه التحديد سوريا ومصر والمغرب، فاقتبس منها الأساليب السرّية في التنظيم. من أهداف هذا التنظيم الكبرى مساعدة البشرية على التطور الروحي. رمْزُه إكليلٌ من الورد بداخله صليب، يرمز الورد إلى الروح، والصليب إلى المادة - المترجم.

[←329]

.Van Dülmen, *Society of the Enlightenment*, 106ff

[←330]

.Markner, Neugebauer-Wölk and Schüttler (eds.), *Korrespondenz des Illuminatenordens*, xxiii

[←331]

Hataley, ‘In Search of the Illuminati’. See also Markner, Neugebauer-Wölk and Schüttler (eds.), *Korrespondenz des Illuminatenordens*, xix.

[←332]

المجوسي: أحد «الحكماء الثلاثة» الذين حملوا الهدايا إلى المسيح عند ولادته في بيت لحم، وقدَّموا له فروض الاحترام - المترجم.

[←333]

الدوسيتي أو الظاهري: من أتباع الظاهرية المسيحية القائلة بأن المسيح كان غير ذي جسد، وأن موته على الصليب ظاهريٌّ ليس إلا - المترجم.

[←334]

الأريوباجوسيون، وواحدهم الأريوباجوسي: في الأصل، الأريوباجوس تلٌّ كانت تُعْقَدُ عليه جلساتُ المجلس الأعلى في أثينا القديمة فسُمِّيَ ذلك المجلس باسمه نسبةً إليه. والأريوباجوسيُّ عضوُ هذا المجلس - المترجم.

[←335]

Details of the 'New Plan for the Order' of Dec. 1782 are in Agethen, *Geheimbund und Utopie*, 75f. Cf. Wäges and Markner (eds.), *Secret School of Wisdom*, passim, and https://projekte.uni-erfurt.de/illuminaten/Grade_und_Instruktionen_des_Illuminatenordens.

[←336]

.Wäges and Markner (eds.), *Secret School of Wisdom*, 13

[←337]

.Agethen, *Geheimbund und Utopie*, 112f

[←338]
Simons and Meumann, ‘ “Mein Amt ist geheime gewissens Correspondenz und unsere Brüder zu führen.” ’

[←339]

الرُّبوبي: شخص يؤمن بالله من غير اعتقاد في ديانات مُنَزَّلة. والربوبية إيمان بدين طبيعي مبني على العقل لا على الوحي، يؤكد وجوب الأخلاق الحميدة، وينكر تدخُّل الله في نواميس الكون. ظهرت الربوبية في أوربا القرن السابع عشر، ويُعَدُّ مونتسكيو وفولتير وروسُّو من أبرز الداعين لها - المترجم.

[←340]

.Wäges and Markner (eds.), *Secret School of Wisdom*, 31ff

[←341]

.Israel, *Democratic Enlightenment*, 831f

[←342]

يوهان جورج هايرنيك فيدر: (1740 - 1821)، فيلسوف ألماني - المترجم.

[←343]

كريستوف ماينرس: (1747 - 1810)، فيلسوف ومؤرِّخ ألماني - المترجم.

[←344]

فرانس كارل فون إيكارتسهاوزن: (1752 - 1803)، فيلسوف ولاهوتي وكيميائي ألماني - المترجم.

[←345]

.Ibid., 841

[←346]

.Agethen, *Geheimbund und Utopie*, 8

[←347]

.Meumann and Simons, 'Illuminati', col. 881

[←348]

أونوريه جابرييل ريكيتي، المعروف بالكونت دي ميرابو: (1749 - 1791)، ثوري فرنسي وكاتب وصحفي ودبلوماسي وسياسي وخطيب الثورة الفرنسية. كان ميالاً إلى نظام مَلَكي دستوري على غرار نموذج المملكة المتحدة. أدار مفاوضات سرِّية فاشلة مع النظام المَلَكي الفرنسي للتوفيق بينه وبين الثورة - المترجم.

[←349]

.Melanson, *Perfectibilists*, KL 913

[←350]

Simons and Meumann, ‘ “Mein Amt ist geheime gewissens Correspondenz und unsere Brüder zu führen” .’

[←351]

بالاتينات: منطقة ألمانية جنوب غرب ألمانيا تحت الولاية القضائية لبالاتينه - المترجم.

[←352]

معركة لايبزيج أو معركة الأمم: أكبر معركة قبل الحرب العالمية الأولى، دارت رحاها في أيام 16 - 19 أكتوبر عام 1813، على أرض ألمانية، وهُزِمَ فيها نابليون هزيمةً ساحقة - المترجم.

[←353]

م ليوبولد إنجل Leopold Engel بإحياء المُتنوِّرين في مارس عام 1901 إلى جانب تيودور رويس Theodor Reuss، الذي أصبح لاحقًا مساعد السيد الأوكيولتي [النُّخْبوي المستنير] occult البريطاني الشهير أليستر كراولي Aleister Crowley. وأثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها، جاء دور الاقتصادي السويسري المُسَمَّى فيلكس لازاروس بينكوس Felix Lazerus Pinkus وخبّاز يُدْعَى هيرمان جوزيف ميتزجر Hermann Joseph Metzger لإحياء الاسم. وحتى وفاة آن ماري آيشباخ Annemarie Aeschbach كانت تزعم أن قرية ستاين Stein السويسرية في كانتون أَوْتر أبِنزِل Canton of Outer Appenzell هي الموطن الحديث للمُتنِّورين - المؤلف.

[←354]

سرجيو ليون: (1929 - 1989)، مخرج إيطالي اشتهر بإخراجه أفلام سباجيتي وِسْتِرن، أي أفلام الوِسْتِرن ذات الإنتاج والإخراج الإيطالي - المترجم.

[←355]

سباجيتِّي وِسْترن: يشير المصطلح إلى مجموعة أفلام تدور أحداثها في الغرب الأمريكي، ظهرت على الشاشة خلال ستينيات القرن العشرين. مخرجوها إيطاليون بالتعاون مع شريك إسباني في غالب الأمر، وتُصَوَّرُ في إيطاليا أو إسبانيا، بطاقم ممثلين ثانويين، وفريق تقني من الإيطاليين والإسبان، إلى جانب نجوم أمريكيين. كان الهدفُ خَفْضَ كُلْفة التصوير وأجور الممثلين مقارنةً بهوليوود، وتدور موضوعاتها حول الثورة المكسيكية والمناطق الحدودية بين الولايات المتحدة والمكسيك. من أشهر أفلام هذه الفئة ثلاثية «رجل بلا اسم» بطولة كلينت إيستوود - المترجم.

[←356]

.’Cassill and Watkins, ‘Evolution of Cooperative Hierarchie

[←357]

.'Tomasello, 'Two Key Steps

[←358]

.Smail, *Deep History*

[←359]

.McNeill and McNeill, *Human Web*

[←360]

.Dubreuil, *Human Evolution*, 191

[←361]

.’Turchin at al., ‘War, Space, and the Evolution of old World Complex Societies

[←362]

.’Spinney, ‘Lethal Weapons and the Evolution of Civilisation

[←363]

اقتصادات الحجم أو وُفُورات الحجم: انخفاض متوسط التكلفة الكلية في الأجل الطويل كلما ارتفع حجم إنتاج الشركة، وهو مصطلح مرتبط باقتصادات الإنتاج واسع النطاق، حيث تُؤدِّي الزياداتُ المُطَّرِدة في الإنتاج إلى انخفاض متوسط التكاليف على المدى الطويل - المترجم.

[←364]

الهيلوت: فئة الأقنان في إسبرطة القديمة التي تحتل منزلةً وُسْطَى بين العبيد والمواطنين، أو هم عبيد الأرض في المجتمعات الزراعية - المترجم.

[←365]

إرنسـت جيلنر: (1925 - 1995)، فيلسـوف بريطاني وأنثروبولجي اجتماعي - المترجم.

[←366]

كازو إيشيجورو: من مواليد عام 1954. روائي ياباني بريطاني حائز على جائزة نوبل. صدرت روايته «العملاق المدفون» عام 2015، المُصَنَّفة ضمن فئة روايات الفانتازيا - المترجم.

[←367]

.Gellner, *Nations and Nationalism*, 10. See Ishiguro, *Buried Giant*

[←368]

بابل أو البابلية: تعني بالآكادية «بوابة الإله»، دولة بلاد ما بين النهرين القديمة، جنوب بغداد حاليًا. أما مملكة ميتاني ففي شمال الهلال الخصيب في سوريا، تَوثقت علاقتُها بالفراعنة أيام رمسيس الثاني. وهاتوسا أو حتوساس هي عاصمة الحيثيين، تقع في وسط تركيا إلى الشرق من أنقرة - المترجم.

[←369]

.Cline and Cline, ‘Text Messages, Tablets, and Social Networks’, 29

[←370]

الإسكندر الأكبر: (365 ق. م. - 323 ق. م.)، هو الإسكندر الثالث المقدوني أحد ملوك مقدونيا الإغريق وأشهر القادة العسكريين الفاتحين عبر التاريخ - المترجم.

[←371]

.Cline, ‘Six Degrees of Alexander’, 68f

[←372]

.Tainter, ‘Problem Solving’, 12

[←373]

.’Allen and Heldring, ‘Collapse of the World’s Oldest Civilization

[←374]

.Malkin, *Small Greek World*

[←375]

رونالد سايم: (1903 - 1989)، مؤرِّخ نيوزيلندي بريطاني - المترجم.

[←376]

أوغسطس: (63 ق. م. - 14 م.)، رجل دولة روماني وزعيم عسكري. أول إمبراطور يسيطر على روما الإمبراطورية من 27 ق. م. حتى وفاته. أكثر القادة فاعليةً وإثارةً للجدل في تاريخ البشرية - المترجم.

[←377]

.Syme, *Roman Revolution*, 4, 7f

[←378]

طُرُق الحرير: بالجمع في الأصل الإنجليزي، والمقصود دلالات «طريق الحرير» الذي هو، في أصله، عدة مسارات محددة أو مجموعة من الطرق المترابطة، من الصين وأقاصي آسيا إلى أواسط آسيا وشمال أفريقيا ووسط أوربا. سُمِّي بهذا الاسم لأنه بدأ بتصدير الحرير من الصين إلى أرجاء العالَم، ثم سرعان ما انسربت معه بضائع كثيرة. كان لهذا الطريق تأثيرٌ بعيد في ازدهار الحضارات القديمة كالصينية والمصرية والهندية والرومانية - المترجم.

[←379]

بيتر فرانكوبان: من مواليد عام 1971، مؤرِّخ بريطاني ومدير مركز الدراسات البيزنطية بجامعة أكسفورد - المترجم.

[←380]

.Frankopan, *Silk Roads*, KL 118

[←381]

الشيونجنو: اتحاد كونفِدرالي قديم بين شعوب بدوية سكنت سهول شرق آسيا منذ القرن الثالث قبل الميلاد حتى أواخر القرن الأول الميلادي وفقًا للمصادر الصينية، فصاروا قوةً مهيمنة حتى شمال شرق آسيا في المنطقة التي عُرِفَتْ لاحقًا باسم منغوليا. كانت علاقات الشيونجنو مع السلالات الصينية المجاورة معقدة تتناوبها المعاهدات والنزاعات. وهُويَّة أصل الشيونجنو العِرْقي محلُّ عديد من الفرضيات، ومطابقتهم بقبائل «الهون» أو «الهونا» فرضية مثيرة للجدل - المترجم.

[←382]

الهون: مجموعة رُّعاة رُّحَل، ظهروا من وراء نهر الفولجا في روسيا حاليًا، هاجروا إلى حدود أوربا الشرقية عام 370م وقاموا ببناء إمبراطورية هناك، ثم انهارت الإمبراطورية بوفاة مؤسِّسها أتيلا الهوني، فانقرضت هذه القبائل. يربط المؤرِّخون القدامى عادةً بين الهون الذين ظهروا على حدود أوربا حوالي القرن الرابع الميلادي وبين الشيونجنو المهاجرين من منغوليا في القرن الأول الميلادي، ولا يوجد دليل على هذا الرَّبْط - المترجم.

[←383]

مملكة سيثيا: تميزت بوجود شعب بدوي متنقل ينحدر من أصول إيرانية هم السكوثيون الذين تمكنوا من تأسيس إمبراطورية قوية استمرت لقرون عديدة.

وصفهم المؤرِّخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس بأنهم شعب مأجوج، لأنهم كانوا يثيرون إعجابَ جيرانهم وخوفهم لخِفَّة حركتهم ومهارتهم في ركوب الخيل.

تمركزوا في المنطقة التي تُعْرَفُ اليوم بشبه جزيرة القرم - المترجم.

[←384]

’?Christian, ‘Silk Roads or Steppe Roads

[←385]

سلالتا تشين وهان: تشين هي السلالة الإمبراطورية الأولى الحاكمة في الصين، تلتها سلالة هان، وتُعَدُّ هذه الفترات عصرًا ذهبيًا في تاريخ الصين - المترجم.

[←386]

' "Scheidel, 'From the "Great Convergence" to the "First Great Divergence

[←387]

تخفيض قيمة العملة الذهبية بزيادة ما تتضمنه من معدن خسيس - المترجم.

[←388]

القبائل الجرمانية أو التيتونيون: شعوب وقبائل تتحدث باللغات الجرمانية وتنحدر من أصل عِرْقي واحد. استوطنوا المناطق المحاذية للإمبراطورية الرومانية، وكانوا مصدرَ إزعاج دائم لها، حتى صاروا أحد الأسباب الرئيسية في سقوطها - المترجم.

[←389]

شاول الطرسوسي أو بولس الرسول: يُعْرَفُ أيضًا ب«القديس بولس» و«رسول الأمم»، أحدُ قادة الجيل المسيحي الأول، وثاني أهم شخصية في تاريخ المسيحية بعد يسوع نفسه، بشَّرَ بالمسيحية في موطنه آسيا الصغرى، وأوربا. دُفِن خارج أسوار روما - المترجم.

[←390]

.’Stark, ‘Epidemics, Networks, and the Rise of Christianity

[←391]

.Harland, ‘Connections with Elites in the World of the Early Christians’, 391

[←392]

.Collar, *Religious Networks*

[←393]

الانشقاق العظيم: انشقاق كنائس الشرق والغرب عن بعضها البعض، مشكلةً بذلك فرعًا غربيًا لاتينيًا (كاثوليكيًا) وفرعًا شرقيًا بيزنطيًا (أرثوذكسيًا)، نتيجة فترة طويلة من الجِفاء بين المسيحية اللاتينية والمسيحية اليونانية. وله أسباب تتعلق بسلطة البابا الزمنية وأسباب عَقَدية وطقسية - المترجم.

[←394]

نزاع التنصيب: أهم صراع بين الكنيسة والدولة في أوربا القرون الوسطى. ففي القرنين الحادي عشر والثاني عشر تحدَّتْ مجموعةٌ من الباباوات سلطةَ الممالك الأوربية في السيطرة على التعيينات والتنصيبات الخاصة بالمراتب الكنسية - المترجم.

[←395]

الكرسي الرسولي: كيان سياسي قانوني معترف به دوليًا يرأسه «أسقف روما» أو رأس الكنيسة الكاثوليكية، المعروف باسم بابا روما أو الحَبْر الروماني. وتمثل الإدارةُ البابوية الرومانية الحكومةَ المركزية في الكرسي الرسولي، التي هي عبارة عن مجموعة إدارات وهيئات كنسية يرأسها البابا - المترجم.

[←396]

قانون جوستنيان: مجموعة قوانين، أمر الإمبراطورُ البيزنطي جوستنيان الأول بعضَ رجال الدين المسيحي بانتقائها من بين مجموعة قوانين رومانية. يُقال إنها من أكبر الإسهامات الرومانية في مجال الحضارة - المترجم.

[←397]

.Fukuyama, *Origins of Political Order*, 273

[←398]

Ibid., 141–5

[←399]

Ibid., 141–5

[←400]
في عام 391، أمر الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس الأول بتدمير مكتبة الإسكندرية - المترجم.

[←401]

.’Jackson, Rogers and Zenou, ‘Connections in the Modern World

[←402]

.Barnett, (ed.), *Encyclopedia of Social Networks*, vol. I, 124

[←403]

.For more on this subject, see Ferguson, *Civilization*

[←404]

.’Padgett and Ansell, ‘Robust Action and the Rise of the Medici

[←405]

ستروزي: من أغنى العائلات النبيلة القديمة الفلورنسية، بدأت في تجارة الأعمال المَصْرفية قبل انتقالها إلى السياسة وسيطرت على مدينة سيينا، ولم يكن ينافسها سوى عائلة ميديتشي سياسيًا وماليًا التي كانت تسيطر على فلورنسا، وانتهى التنافس بينهما بتبادل الزيجات، الأمر الذي أعطى تفوقًا في النهاية لآل ميديتشي - المترجم.

[←406]

باتسـي: عائلة نبيلة توسـكانية تخلَّت عن ألقابها كي يُنْتخَبَ أفرادُها للمناصب العامة. كانت تجارتُهم الرئيسـية خلال القرن الخامس عشر مَصْرفيةً. ارتبط اسـمُ العائلة ب«مؤامرة باتسـي» لاغتيال جوليانو دي ميديتشـي بالتزامن مع محاولة قتل شـقيقه لورينزو دي ميديتشـي في يوم 26 أبريل عام 1478 - المترجم.

[←407]

.Padgett, ‘Marriage and Elite Structure in Renaissance Florence’, 92f

[←408]

ثورة تشيومبي: ثورة شعبية في فلورنسا، العصور الوسطى المتأخرة، بقيادة عُمّال الصُّوف الإيطاليين المعروفين باسم «تشيومبي» للمطالبة بأصوات لهم في إدارة البلدية - المترجم.

[←409]

.Padgett and McLean, ‘Organizational Invention and Elite Transformation’, 1463, 1467, 1545

[←410]

بطريرك: كلمة ذات أصول يونانية، وترجمتها الحرفية «الأب الرئيس»، تشير إلى مَن يمارس السلطةَ بوصفه الأب، على مستوى العائلة. والنظام المُعتمِد على سلطة الأب يُسمَّى «النظام البطريركي» - المترجم.

[←411]

Ibid., 1545. See also Padgett and Powell, *Emergence of Organizations and Markets*, 810–14, .855–60, 861–7

[←412]

بنيديتو كوتروجلي: (1416 - 1469)، تاجر واقتصادي وعالِم وديبلوماسي، من أنصار النزعة الإنسانية - المترجم.

[←413]

«كتاب فن التجارة»: سرد حيوي لحياة تاجر من حوض البحر المتوسط في بواكير عصر النهضة، كُتِبَ عام 1458. يُمثِّل دفاعًا حارًا عن مشروعية الممارسات التجارية، كما يتضمن الإشارة العلمية الأولى إلى «مَسْك الدفاتر مزدوجة القَيْد». تُرَكِّزُ أقسامُه الأربعة الأولى على: تقنيات المُتَاجَرة والتداول؛ من المحاسبة إلى التأمين؛ ثم أخيرًا حياة التاجر العامة وشؤونه العائلية - المترجم.

[←414]

«فن الصفقة»: كتاب ألَّفه رجل الأعمال دونالد ترامب بالاشتراك مع الصحفي توني شوارتز، ونُشِرَ عام 198. يتكون الكتاب من جزءين هما: مذكرات ونصائح. حصل على المركز الأول في قائمة النيويورك تايمز لأكثر الكتب مبيعًا في ذلك العام. ويقول ترامب إنه كتابه المفضل الثاني بعد الكتاب المقدس. بعد انتخابات الرئاسة الأمريكية عام 2016، أصبح ترامب رئيس الولايات المتحدة الخامس والأربعين - المترجم.

[←415]

.Cotrugli, *Book of the Art of Trade*, 3f

[←416]

.Ibid., 24

[←417]

راجوزا أو دوبروفنيك: جمهورية بحرية تركَّزت في مدينة دوبروفنيك (بالإيطالية واللاتينية: راجوزا) في دالماسيا (اليوم في جنوب كرواتيا الحديثة)، وصلت إلى ذروتها التجارية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر تحت حماية الدولة العثمانية قبل أن يغزوها نابليون بونابرت عام 1808 - المترجم.

[←418]

.Ibid., 24

[←419]

لوكا باتشولي: (1447 - 1517)، عالِم رياضيات إيطالي، يُنْسَبُ إليه الفضل في وضع أصول علم المحاسبة. كانت أعمالُه في الرياضيات - رغم قلتها - القاعدةَ لعلماء الرياضيات في القرن السادس عشر - المترجم.

[←420]

سوربو سيربيكو: بلدة في مقاطعة أفيلينو، جنوب إيطاليا - المترجم.

[←421]

.Ibid., 5

[←422]

.Ibid., 6

[←423]

أفينيون: بلدية في إقليم فوكلوز جنوب شرق فرنسا - المترجم.

[←424]

.Ibid., 57

[←425]

.Ibid., 7

[←426]

Ibid., 7

[←427]

عصر الاستكشاف الأيبيري: الاستكشاف، بوجه عام، بدأ مع أوائل القرن الخامس عشر، واستمر حتى نهاية القرن الثامن عشر، حيث قام الأوربيون باستكشاف واسع النطاق خارج القارة، ويراه البعضُ بدايةَ ال عَوْلمة. افتتحه البرتغاليون والإسبان، ومن هنا صفة «الأيبيري» - المترجم.

[←428]

هنري [هنريك] الملاح: (1394 - 1460)، أمير برتغالي، الابن الثالث لملك البرتغال آنذاك. حصل على اسم «الملاح» بسبب تنظيمه للرحلات التي استكشفت أراضيَ جديدةً. يُعَدُّ الشخصية التي بدأت التوسُّع الاستعماري الأوربي - المترجم.

[←429]

جيل إينس: ملاح ومستكشف برتغالي - المترجم.

[←430]

رأس بوجادور: على الساحل الشمالي الغربي للصحراء الغربية، تحت حكم المملكة المغربية - المترجم.

[←431]

جرف ساجريس: جنوب البرتغال، ويُعَدُّ أقصى جنوب غرب القارة الأوربية. كان بالنسبة إلى الأوربيين يُمثِّل نهاية العالم - المترجم.

[←432]

بارتولوميو دياز: (1450 - 1500)، مستكشف برتغالي، وأول أوربي يُبْحِرُ حول طريق رأس الرجاء الصالح في عام 1488 - المترجم.

[←433]

كوايهوك: رأس صخري على ساحل خليج ألجوا في مقاطعة الكاب الشرقية جنوب أفريقيا - المترجم.

[←434]

كاليكوت: مدينة في ولاية كيرالا، جنوب الهند، على ساحل مالابار - المترجم.

[←435]

كيرالا: ولاية استوائية في الهند، على الساحل الجنوبي لشِبْه القارة الهندية. تطل على المحيط الهندي، وبها قنوات مائية وغابات استوائية - المترجم.

[←436]

الركود الاستوائي doldrums: تعبير مستمد من الاستخدام البحري التاريخي، يشير إلى تلك المناطق في المحيطين الأطلنطي والهادي المتأثرة بمنطقة منخفضة الضغط حول خط الاستواء، حيث تكون الرياح السائدة هادئة، وهو ما لا يساعد على الإبحار الجيد - المترجم.

[←437]

كوشين أو كوتشي: من أهم الموانئ البحرية الهندية بولاية كيرالا، مقاطعة إيرناكولام - المترجم.

[←438]

كيلوا كيسيواني: جزيرة على ساحل أفريقيا الشرقي، تتبع حاليًا جمهورية تنزانيا، ويفصلها عن بقية الأراضي التنزانية مضيقٌ بحري عرضه 3 كم. تردَّدَ العربُ عليها للتجارة منذ العصر الأموي واستوطنوها، الأمر الذي أدّى إلى انتشار اللغة العربية التي تحوَّرتْ لاحقًا إلى اللغة السواحيلية - المترجم.

[←439]

مومباسا: ميناء رئيسي في كينيا يطل على المحيط الهندي، ويقع تقريبًا على خط الاستواء - المترجم

[←440]

كانور: مدينة هندية بولاية كيرالا، تطل على المحيط الهندي – المترجم

[←441]

مَلَقّا: ثالث أصغر أقاليم ماليزيا، في الجهة الجنوبية من شبه جزيرة مالايو، تطل على مضيق يحمل اسمها - المترجم.

[←442]

.Rodrigues and Devezas, *Pioneers of Globalization*

[←443]

جوانجدونج: مقاطعة صينية تقع في جنوب البلاد على ضفاف بحر الصين، أهم سهولها دلتا «تشو» أو «نهر اللؤلؤ» - المترجم.

[←444]

ماركو بولو: (1254 - 1324)، تاجر إيطالي ومُسْتكشِف وكاتب. من أشهر كتبه «عجائب العالم» المعروف ب«رحلات ماركو بولو». يصف فيه للأوربيين الإمبراطوريةَ الصينية، وعديدًا من المدن الآسيوية - المترجم.

[←445]

أول تاجرين وصلا إلى الصين في هذه الفترة هما: جورج ألفاريس Jorge Álvares في عام 1514، والإيطالي رفائيل بِريسـتريلو Rafael Perestrello في عاميْ 1515/ 1516 - المؤلف.

[←446]

فيرناو بيريس أندرادي: (1458 - 1552)، تاجر برتغالي وصيدلي وديبلوماسـي رسـمي، كُلِّف باسـتئناف الاتصال الأوربي مع الصين بعد التوقف منذ زمن ماركو بولو - المترجم.

[←447]

تومي بيريس: (1465؟ - 1524 أو 1540)، صيدلي برتغالي. ترأس أولَ سفارة أوربية إلى الصين خلال عهد أسرة مينج أباطرة الصين - المترجم.

[←448]

لينجدينج: جزيرة في مقاطعة جوانجدونج، جنوب شرق الصين - المترجم.

[←449]

تشنج دي: (1491 - 1521)، إمبراطور الصين الحادي عشر من سلالة مينج. سُمِّي عهده باسم «الفضيلة الحقّة» - المترجم.

[←450]

الكانج: أداة استُخْدِمَتْ في الإذلال العلني والعقاب البدني في الصين، وفي بعض المناطق شرق آسيا وجنوب شرق آسيا حتى أوائل القرن العشرين. تتكون من مستطيل خشبي أو طوق خشبي ثقيل تنفذ منه رأس الأسير أو المُعَاقَب - المترجم.

[←451]

Chang, *Sino-Portuguese Trade*, 62

[←452]

إجناسيو دي لويولا: (1492 - 1556)، أو إغناطيوس بالنطق اللاتيني. أسَّس نظامًا دينيًا عُرِفَ باسم «اليسوعية»، بوصفه جزءًا من الإصلاح المضاد، أخذ على عاتقه التبشير بالمسيحية في العالم الجديد - المترجم.

[←453]

Wills (ed.), *China and Maritime Europe*, 336

[←454]

الرُّبْعيَّات ومفردها الرُّبْعيّة: هي ذات الرُبْعيَّة: أداة تُستخدَمُ في الفلك والمِلاحة لقياس الارتفاع، وتتألَّف من قوس مُقَسَّم إلى تسعين درجة - المترجم.

[←455]

أبراو [أبراهام] زاكوتو: (1452 - 1515)، عالِم رياضيات وفلك ومؤرِّخ يهودي إسباني. عقب طرد اليهود من إسبانيا لجأ زاكوتو إلى البرتغال حيث عُيِّن مؤرِّخًا وفلكيًا في البلاط الملكي. لعبت مؤلفاته دورًا كبيرًا في عصر الاستكشاف. ثم اضطر إلى مغادرة البرتغال إثر تحوُّلات قَسْرية حوالي عام 1497، واستقر في الإمبراطورية العثمانية حيث مات. وصِفَةُ السفارديم أو السفاردي ترتبط في الأساس باليهود الذين تعود أصولهم الأولى إلى أيبيريا (إسبانيا والبرتغال)، ثم طُرِدوا منها لتحوَّلات قسْرية وتفرَّقوا في شمال أفريقيا وآسيا الصغرى والشام، وكثير منهم كانوا من رعايا الإمبراطورية العثمانية في المناطق الخاضعة لها - المترجم.

[←456]

الكارافيل البرتغالي: سفينة شراعية ذات قدرة عالية على المناورة، طوَّرها البرتغاليون في القرن الخامس عشر للقيام برحلاتهم الاستكشافية على مدى القرنين الخامس عشر والسادس عشر - المترجم.

[←457]

خريطة كانتينو: أقدم خريطة تُصَوِّرُ الاكتشافات الجغرافية البرتغالية في الشرق والغرب، وهي أقرب خريطة بحرية تُصَوِّر الأماكنَ وفقًا لخطوط العرض المُرَصَّدة فلكيًا - المترجم.

[←458]

يونجلي: (1360 - 1424)، إمبراطور الصين الثالث في أسرة مينج، تولَّى الحُكْمَ من عام 1402 حتى عام 1424 - المترجم.

[←459]

.Wade, 'Melaka in Ming Dynasty Texts', 34

[←460]

تشنج هي: (1371 - 1433)، ويُسمَّى بالعربية حجّي محمود شمس، بحار صيني مسلم، من أسرة مسلمة تُدْعَى «ما»، في مقاطعة يونان جنوب غرب الصين.

قام بسبع رحلات بحرية استغرقت 28 عامًا، زار فيها البلادَ الواقعة على ساحل المحيط الهندي وجنوب آسيا وأفريقيا، كما وصل إلى منطقة الخليج والبحر الأحمر ومكة المكرمة، حاملاً معه بضائع كثيرة من المنسوجات الحريرية والمجوهرات والعقاقير الطبية الصينية - المترجم.

[←461]

.’Sen, ‘Formation of Chinese Maritime Networks

[←462]

الفرنكيون أو الفرنجة أو الفرنسيس: مجموعة من الشعوب الجرمانية، وَرَدَ ذكرهم لأول مرة في المصادر الرومانية في القرن الثالث. شكَّلوا ما عُرِفَ باسم «تحالف القبائل الجرمانية»، واستوطنوا المناطق الشمالية من بلاد الغال (حاليًا فرنسا وأجزاء من غرب ألمانيا)، مكوِّنين فيها إمارةً شِبْه مستقلة. واسم «فرنسا» الحديثة مأخوذ من هذه القبائل. تشير الكلمة في السياقات العربية الحديثة إلى كل ما هو أوربي عمومًا - المترجم.

[←463]

المدينة المُحرَّمة أو المدينة القرمزية المحرَّمة أو القصر الإمبراطوري: من المعالم التاريخية الكبرى في مدينة بكين، ويقع القصر الإمبراطوري في قلب بكين. مقر الأباطرة من أسرتيْ «مينج» ثم «تشينج» - المترجم.

[←464]

الوِفادة: نظام صيني في العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع الأجانب يفرض عليهم الإعراب عن تعظيم الإمبراطور وإجلاله بتقديم الهدايا الثمينة ودفع ضرائب مقابل أنشطتهم التجارية - المترجم.

[←465]

.Wade, ‘Melaka in Ming Dynasty Texts’, 51

[←466]

ماكاو: إحدى منطقتين إداريتين خاصّتين (والثانية هونج كونج) تابعتين لجمهورية الصين الشعبية. مساحتها أقل من 30 كم، وتقع على سواحل الصين الجنوبية. ظلت ماكاو مستعمرةً برتغالية حتى يوم 20 ديسمبر 1999. تتميز ماكاو حاليًا بوجود العديد من الكازينوهات وانتشار القمار المُرخَّص قانونًا - المترجم.

[←467]

ليونيل دي سوزا: في عام 1554، استطاع التفاوض مع السلطات المحلية في جوانجتشو وعَقْد اتفاقية تسمح بالتصديق الصيني الرسمي على الأنشطة التجارية البرتغالية مقابل دفع ضرائب. فتحت هذه الاتفاقيةُ الطريقَ أمامه لتحويل ماكاو إلى ما يشبه مخزن بضائع برتغالية خلال ثلاث سنوات. وفي عام 1558، صار ليونيل دي سوزا في رُتْبة تُعادِلُ «حاكم ماكاو». يُعَدُّ فاتحَ حقبةٍ جديدة من العلاقات البرتغالية الصينية بعد الحَظْر الصيني لأنشطة البرتغاليين منذ عام 1522.

وتدريجيًا، تحولت ماكاو إلى مستعمرة برتغالية - المترجم.

[←468]

Wills (ed.), *China and Maritime Europe*, 39

[←469]

معاهدة توردسيلاس: توردسيلاس مكان اللقاء بين ولي عهد البرتغال وتاج قشتالة (إسبانيا)، وهي حاليًا في مقاطعة بلد الوليد إسبانيا؛ بمقتضى المعاهدة قُسِّمت الأراضي المستكشفة حديثًا خارج أوربا على خط الطول 370 فرسخ غرب جزيرة الرأس الأخضر خارج الشاطئ الغربي لأفريقيا، بحيث تنتمي الأراضي المتجهة شرقًا إلى البرتغال، والأراضي المتجهة غربًا إلى إسبانيا. أما الجزء الآخر من العالَم فسيُقَسَّمُ بينهما بمقتضى معاهدة سرقسطة (ساراجوسا) التي وُقِّعَتْ يوم 22 أبريل عام 152. النسخ الأصلية للمعاهدات محفوظة في الأرشيف الإسباني العام في إندياس، وفي المحفوظات الوطنية البرتغالية في توري تومبو - المترجم.

[←470]

بمعنى أن البرتغاليين اكتفوا بتحصين مراكز تجارية لهم على السواحل في الأراضي المستكشفة - المترجم.

[←471]

فرانسيسكو بيزارو، النطق الإسباني فرانثيسكو بيثارو: (1478 - 1541)، مُستكشِف إسباني، غزا إمبراطورية الإنكا، وأسَّس مدينة ليما عاصمة بيرو الحالية - المترجم.

[←472]

أتاوالبا: آخر ملوك الإنكا، هزمه بيزارو ثم أعدمه مخالفًا اتفاقًا بينهما بعد حصوله على الفدية، غدرًا وخيانةً. حُكِمَ عليه بالموت خنقًا وأُحْرِقَتْ جثته - المترجم.

[←473]

الإنكا: أكبر الإمبراطوريات وأقدمها في العصر قبل الكولومبي. بَنَتْها شعوبُ الهنود الحمر في أمريكا الجنوبية. تشمل أرض الإنكا بوليفيا وبيرو والإكوادور وجزءًا من شيلي والأرجنتين. عاصمتها «كوزكو»، مدينةٌ مترفة مليئة بالمعابد والقصور على جبال الأنديز، أطلق الهنود الحمر عليها اسم «مدينة الشمس المقدسة» - المترجم.

[←474]

معركة كاخاماركا: كمين خداعي غير متوقَّع، حاصر فيه بيزارو - بقوته صغيرة العدد المسلحة بالبنادق - إمبراطور الإنكا بحشده الكبير غير المسلح تقريبًا، فقتل بيزارو وقوته الصغيرة الآلافَ من أعوان أتاوالبا ومستشاريه وقادته غير المسلحين في الساحة الكبرى غدرًا وخداعًا. وبالقبض على أتاوالبا ثم إعدامه بدأت المرحلة الافتتاحية لغزو حضارة الإنكا ما قبل الكولومبية في بيرو - المترجم.

[←475]

الأرْكُوِبيسَّه أو القربينة: سلاح ناري مُبَكِّر يُعبَّأ من الفوهة، اسْتُخْدِمَ بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر، يتميز عن سابقه اليدوي بأن له فتيل. أول سلاح ناري يمكن حمله ويعطي بعضَ الدقة في التسديد ومداه المؤثر 50 مترًا - المترجم.

[←476]

الباتشاكاماك: موقع أثري جنوب شرق ليما، بيرو، في وادي نهر لورين. تمت تسوية الموقع لأول مرة حوالي عام 200 بعد الميلاد، وسُمِّي على اسم الإله «خالق الأرض»: باتشا كاماك. كان مزدهرًا حتى غزو الإسبان لبيرو - المترجم.

[←477]

كوزكو أو كوسكو: مدينة في جنوب شرق بيرو، بالقرب من وادي أوروبامبا بجبال الأنديز. عاصمة إمبراطورية الإنكا المعروفة بعبادة الشمس. وهي البقعة الأكثر احتواءً على الأشعة فوق البنفسجية في كوكب الأرض - المترجم.

[←478]

ماتشو بيتشو: اسم مدينة يعني باللغة الإنكية القديمة «قمة الجبل القديمة»، أو القلعة الضائعة. تقع في كوزكو بين جبلين من سلسلة جبال الأنديز، وعلى كلا جانبيها هاوية سحيقة - المترجم.

[←479]

.Smith, 'Networks, Territories, and the Cartography of Ancient States', 839f., 845

[←480]
.Garcia-Zamor, ‘Administrative Practices’, 152–64. See also Heady, *Public Administration*, 163f

[←481]

.Fukuyama, *Political Order and Political Decay*, 249–51

[←482]

مانكو إنكا: (1516 - 1544)، مؤسِّس نيو إنكا المستقلة، باتفاق وتبعية للإسبان، وهو أحد أبناء واينا كاباك والأخ الأصغر ل واسكار، حاول التمرد على الإسبان لاحقًا - المترجم.

[←483]

فيليبي جوامان دي أيالا: (11535 - 1616)، أحد نبلاء كيتشوا، عُرِفَ بتأريخه وإدانته لمعاملة الإسبان السيئة لسكان الأنديز. وكتابه عبارة عن مخطوطة بخط اليد، كَتبها دي أيالا لملك إسبانيا فيليب الثالث، بغرض إعطاء وصف تاريخي لجبال الأنديز منذ عصر الإنسان الأول حتى عصر الإنكا والغزو الإسباني، كما يُعَدُّ الكتاب أيضًا دعوةً إلى ضرورة الانتباه إلى المشاكل العميقة التي تُسبِّبها الحكومةُ الإسبانية في المنطقة - المترجم.

[←484]

.Burbank and Cooper, *Empires in World History*, 163–6

[←485]

كاسكاسكيا: إحدى قبائل الهنود الحمر الاثنتي عشرة التي شكلت اتحاد إلينوي في أمريكا الشمالية، وكان وطنهم القديم في منطقة البحيرات الكبرى. أول اتصال لهم بالأوربيين كان بالقرب من جرين باي الحالية في ولاية ويسكونسون، الولايات المتحدة - المترجم.

[←486]

.’Morrissey, ‘Archives of Connectio

[←487]

.Barnett (ed.), *Encyclopedia of Social Networks*, vol. II, 703f

[←488]

.’Katarzyna et al., ‘Genome-Wide Patterns of Population Structure

[←489]

كاستا: مصطلح لوصف الأفراد ذوي الأعراق المختلطة في أمريكا الإسبانية، الناتجين عن تزاوج الأوربيين البِيض الإسبان بالهنود الأمريكيين والأفارقة. وقد انطوت التصنيفات العنصرية على عواقب قانونية واجتماعية، حيث كانت المكانة العِرْقية مبدأً مُنَظِّمًا في الحُكْم الاستعماري الإسباني، فخلقت النُّخْبة الإسبانية الاستعمارية نظامًا هَرَميًا معقدًا لتصنيف العِرْق في إسبانيا الجديدة التي امتدت من أسفل ألاسكا حتى برزخ بنما، بالإضافة إلى البحر الكاريبي - المترجم.

[←490]

إسبانيا الجديدة: تشمل الأراضي التابعة لحُكْم التاج الإسباني أو ما أُطْلِقَ عليه المستعمرات الجديدة في جنوب أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى وشمال أمريكا الجنوبية - المترجم.

[←491]

الاسترداد، أو حروب الاسترداد والاستعادة كما تسميها المصادر الإسبانية: استرداد الإسبان لأراضيهم من المستوطنين المسلمين، أو سقوط الأندلس كما تسميها المصادر العربية. ظهر مفهوم الاسترداد أو الاستعادة المسيحية لأول مرة مع نهاية القرن التاسع الميلادي، وانتهى بتوسيع الممالك المسيحية وتسليم مفاتيح غرناطة عام 1492 - المترجم.

[←492]

.’Zuñiga, Jean-Paul, ‘Visible Signs of Belonging

[←493]

الإصلاح: حركة بدأت في القرن السادس عشر هدفها إصلاح الكنيسة الكاثوليكية بعد انتشار أفكار باطلة وتصرفات غير لائقة داخل جسم الكنيسة، أبرزها بيع صكوك الغفران، وشراء المناصب الدينية بدءًا من أدناها وانتهاءً بكرسي البابا. في عام 1517، أعلن مارتن لوثر أطروحتَه في انتقاد الكنيسة الكاثوليكية التي شملت: صكوك الغفران، المَطْهر، الدينونة، شراكة مريم في الخلاص، شفاعة القديسين، معظم الأسرار الكَنَسِيّة، سلطة البابا. نشأ عن حركة الإصلاح مذهبٌ مسيحي جديد هو البروتستانتية التي تعني «الاحتجاج». وانحدرت أهم الجماعات البروتستانتية الإصلاحية من اللوثرية والكالفينية والمشيخية والمعمدانية والأنجليكانية. دفعت هذه الحركةُ الكنيسةَ الكاثوليكيةَ لاحقًا إلى إعطاء الفرصة أمام حركات إصلاحية داخلية برعايتها تفاديًا لحدوث انشقاق جديد، وردًّا على البروتستانتية، وهو ما عُرِفَ بالإصلاح المضاد - المترجم.

[←494]

يوهان جُوتِنبرج: (1394 - 1468)، حدَّاد وصائغ وفنّي طباعة وناشر ألماني. قام بابتكار ما يُعْرَفُ بالطباعة الميكانيكية المتحرِّكة، الأمر الذي غَيَّرَ بنيةَ المجتمع على مستوى التداول غير المقيَّد للمعلومات - بما فيها الأفكار الثوريةَ التي تجاوزت الحدودَ وهدَّدت السلطات السياسية والدينية - وكَسَرَ احتكارَ النُّخْبة المتعلمة ودَعَمَ الطبقةَ الوسطى الناشئة. وقبل قرون من هذا، ابتكر الصينيون الطباعةَ ولكن اختراعهم لم يبلغ أوربا - المترجم.

[←495]

ماينتس: عاصمة وأكبر مدن ولاية راينلاند بالاتينات بألمانيا. تشتهر بأنها المدينة التي طبع فيها جوتِنْبرج أولَ كتاب في تاريخ أوربا - المترجم.

[←496]

أبو عبد الله محمد الثاني عشر، المُلقَّب ب«الغالب بالله»: (1460 - 1533)، آخر ملوك الأندلس، حَكَمَ مملكةَ غرناطة في الأندلس فترتين. انتصر في أحد المعارك على الإسبان، ثم لحقته هزائم متتالية، قام على إثرها بتسليم مفاتيح غرناطة لملك إسبانيا فرديناند وزوجته إيزابيلا يوم 2 يناير عام 1492. بعد التسليم، انتقل إلى مدينة فاس، وعاش هناك حياةً لم يعرف أحدٌ عنها شيئًا حتى مات، مُتَّهمًا بالعار والخيانة والتفريط - المترجم.

[←497]

’Dittmar, ‘Information Technology and Economic Change

[←498]

مارتن لوثر: (1483 - 1546)، راهب ألماني وقسيس وأستاذ لاهوت، ومُفتتِح عصر الإصلاح في أوربا بعد اعتراضه على صكوك الغفران. نشر في عام 1517 رسالتَه الشهيرة المؤلَّفة من خمس وتسعين نقطة تتعلق أغلبها بلاهوت التحرير وسلطة البابا. طلب منه البابا ليون العاشر، والإمبراطورية الرومانية المقدسة مُمَثلةً في الإمبراطور شارل الخامس، في عام 1520، التراجعَ عن نقاطه الخمس والتسعين، ولكن لوثر رفض، الأمر الذي أدَّى إلى نَفْيه وحرمانه الكَنَسي وإدانته بالهَرْطَقة - المترجم.

[←499]

يان هوس: (1369 - 1415)، مفكر ديني وفيلسوف ومصلح تشيكي. اتَّهَمَ الكنيسةَ بالخروج عن مبادئ الدين، والقساوسةَ والمطارنةَ بانحرافهم عن واجبهم الحقيقي واهتمامهم بمصالحهم الشخصية واستغلالهم المادي للناس البسطاء. التفَّ حوله الكثيرُ من الناس، فقامت الكنيسة الكاثوليكية بتكفيره واتهامه بالزندقة، نُفِّذَ فيه الحُكْمُ حرقًا بالنيران على الخازوق يوم 6 يوليو عام 1415 - المترجم.

[←500]

Naughton, *From Gutenberg to Zuckerberg*, 15–21

[←501]

فيتنبرج: مدينة في ولاية سكسونيا أنهالت، ألمانيا - المترجم.

[←502]

بازل: ثالث مدن سويسرا بعد زيورخ وجنيف، على حدود ثلاث دول على النهر الراين شمال غرب البلاد.
لايبزيج: ثاني أكبر مدن ولاية سكسونيا شرق ألمانيا.

نورمبرج: ثاني أكبر مدن ولاية بافاريا في ألمانيا - المترجم.

[←503]

مرسوم وورمز: أصدره الإمبراطور شارل الخامس يوم 25 مايو عام 1521، يحظر فيه على أي شخص تفضيلَ أقوال مارتن لوثر إما بالأقوال أو الأفعال. وتقع مدينة «وورمز» جنوب غرب ألمانيا - المترجم.

[←504]

الكتاب المقدس اللوثري: ترجمته الألمانية للكتاب المقدس من العِبْرية واليونانية القديمة - المترجم.

[←505]

.Pettegree, *Brand Luther*, 334

[←506]

البروتستانتية: أحد أشكال مذاهب الإيمان في الدين المسيحي. وتعود أصولها إلى الحركة الإصلاحية التي افتتحها مارتن لوثر أوائل القرن السادس عشر. وهي اليوم أحد الانقسامات الرئيسية في العالم المسيحي جنبًا إلى جنب الكاثوليكية والأرثوذكسية الشرقية. ومع أن الأنجليكانية ترجع إلى اللاهوت اللوثري فأحيانًا تُعَدُّ الكنيسة الأنجليكانية مستقلةً عن الكنيسة البروتستانتية - المترجم.

[←507]

’Dittmar and Seabold, ‘Media, Markets, and Radical Ideas

[←508]

Elizabeth Eisenstein, quoted in Gleick, *The Information*, 399

[←509]

اتحاد شمالكالدي: تحالف دفاعي تَشَكَّلَ من الأمراء اللوثريين داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة، واتخذ اسمه من مدينة تأسيسه شمالكالدن في تورنجن بألمانيا، يوم 27 فبراير عام 1531. الغرض منه الدفاع عن أراضي الأمراء البروتستانت في حالة تعرُّضها لهجوم من الإمبراطور الروماني تشارلز الخامس - المترجم.

[←510]

تشارلز الخامس، أو كارلوس الخامس: (1500 - 1558)، إمبراطور روماني من آل هابْسبورج. حَكَمَ إمبراطوريةً مترامية الأطراف ومُوزَّعة على ثلاث قارات، حتى قيل إن الشمس لا تغيب عنها - المترجم.

[←511]

صُلْح أوجسبورج: معاهدة وُقِّعَتْ بين الإمبراطور فرديناند الأول، الذي حلَّ محلَّ أخيه تشارلز الخامس، وقوات اتحاد شمالكالدي بمدينة أوجسبورج في بافاريا بألمانيا. أنهت المعاهدةُ الصراعَ الديني بين البروتستانتية والكاثوليكية، وأقرَّت انفصالاً شرعيًا دائمًا للمسيحية داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة بين كاثوليكية وبروتستانتية، وأكدت استقلال الأمراء بأراضيهم ومذهبهم الديني - المترجم.

[←512]

الترجمة الأفضل إلى الإنجليزية هي: to each ruler, the religion he chooses [لكل حاكم الحق في اختيار دينه]. سمحت المعاهدةُ للأمراء على اختلافهم في الإمبراطورية الرومانية المقدسة أن يختاروا إما اللوثرية أو الكاثوليكية داخل إقطاعياتهم التي يحكمونها. نقطة الضعف الرئيسية في الاتفاق أنه استبعد صراحةً تيارات أخرى في البروتستاتية مثل الكالفينية Calvinism - المؤلف.

[←513]

حرب الثلاثين عامًا: (1618 - 1648)، سلسلة صراعات دامية مَزَّقتْ أوربا، بدأت معاركُها أولاً في أوربا الوسطى، ثم اشتركت فيها تباعًا معظمُ القوى الأوربية في ذاك العصر. ولم تتورط فيها إنجلترا ولا روسيا - المترجم.

[←514]
وهو ما يُعْرَفُ باسـم الإصلاح المضاد الذي قادته الكنيسـة الكاثوليكية الغربية - المترجم.

[←515]

ماري الأولى أو ماري تيوْدَر أو ماري الدموية: (1516 - 1558)، ملكة إنجلترا التي واجهت الأفكار البروتستانتية بكل عنف، وأخمدت العديدَ من التمردات التي استهدفتها شخصيًا بإجراءات عنيفة أدَّت إلى إعدام الآلاف - المترجم.

[←516]

جون فوكس: (1516 - 1587)، مؤرّخ ورجل دين إنجليزي، اشتهر بتسجيله لتاريخ شهداء المسيحية، ولا سيما معاناة الإنجليز البروتستانت. وقد استند المصلحون الإنجليز إلى كتاب فوكس المنشور عام 1563 في تشكيلهم رأيًا عامًا إنجليزيًا مُعاديًا للكاثوليكية - المترجم.

[←517]

.Ahnert and Ahnert, ‘Protestant Letter Networks in the Reign of Mary I’, 6

[←518]

ملحوظة: هذا هو مقياس مدى أداء عُقْدة لوظيفتها في الربط بين أقسام مختلفة في الشبكة، بمعنى أنها تعمل بوصفها محورًا - المؤلف.

[←519]

.Ibid., 27f

[←520]

هنري الثامن: (1491 - 1547)، ملك إنجلترا منذ يوم 21 أبريل عام 1509 حتى وفاته. ثاني ملوك أسرة تيوْدَر خلفًا لوالده هنري السابع. اتصف بشخصية كاريزمية، وعَارَضَ سلطةَ البابا مستقلاً بالقرار الديني والسياسي داخل إنجلترا، فتزوج رسميًا سِتَّ مرات، وقاد حركةَ الإصلاح الإنجليزي. كانت قضية طلاقه تجسيدًا لرغبته في الانفصال الديني والسياسي عن الكنيسة الكاثوليكية في إيطاليا. أجرى تغييرات واسعة في الممارسات الدينية التقليدية، من أكثرها دلالةً استعمال اللغة الإنجليزية في الطقوس الدينية بدلاً من اللاتينية - المترجم.

[←521]

سليم العابِس: تاسع سلاطين الدولة العثمانية، يُلَقّبُ عند الأتراك ب«سليم الغازي أو القاطع» نظرًا لشجاعته وتصميمه في ساحة المعركة. ويُلَقَّبُ عند الإنجليز ب«العابس» نظرًا لتجهُّم وجهه الدائم. ويُلَقِّبه الفرنسيون ب«سليم الرهيب» - المترجم.

[←522]

تيوْدَر: عائلةٌ ملكية حَكَمَتْ إنجلترا بين عاميْ 1485 و1603، ذات أصول ويلزية تخلَّلَها خمسةُ ملوك، أولهم المؤسِّسُ الملك هنري السابع وآخرهم الملكة إليزابيث الأولى. سجل المحفوظات الرسمي لملوك آل تيودر متوفر على شبكة الإنترنت - المترجم.

[←523]

توماس كرومويل: (1485 - 1540)، محامي إنجليزي ورجل دولة، شغل منصب رئيس الوزراء في عهد هنري الثامن، ولعب دورًا مهمًا في حركة الإصلاح الإنجليزية. أُعْدِمَ يوم 28 يوليو عام 1540 - المترجم.

[←524]

’Ahnert and Ahnert ‘Metadata, Surveillance, and the Tudor State

[←525]

فاسيلي الثالث: (1479 - 1533)، أمير موسكو المُعظَّم، وقيصر عموم روسيا منذ نوفمبر عام 1505 حتى وفاته - المترجم.

[←526]

دُويت الثاني: (1496 - 1540)، إمبراطور أثيوبيا الخامس والعشرون، خاضَ عدَّةَ معارك ضد سَلْطنة العادل الصومالية التي كانت تتلقَّى دَعْمًا من الإمبراطورية العثمانية، الأمر الذي دفع الإمبراطور الأثيوبي إلى طلب الدعم من البرتغاليين - المترجم.

[←527]

إمارة العادل المُسْلِمة: مملكة في القرن الأفريقي، ازدهرت منذ حوالي عام 1415 حتى عام 1577. حافظت على علاقات تجارية وسياسية قوية مع الإمبراطورية العثمانية - المترجم.

[←528]

جُنْغجونغ مَلِكُ جوسون: (1488 - 1544)، مملكة جوسون هي كوريا حاليًا، وحصل جُنْغجونغ على العرش بانقلاب عنيف على أخيه غير الشقيق أطاح به - المترجم.

[←529]

الشوجون: لقبٌ يُطْلَقُ على الحاكم العسكري في اليابان منذ عام 1192 حتى عام 1868 - المترجم.

[←530]

ريوكيو: سلسلة جزر في المحيط الهادي جنوب شرق الجزيرة اليابانية كيوشو - المترجم.

[←531]

القديس بطرس، أو سمعان بطرس: أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر، يحتل مكانةً بارزةً في أناجيل العهد الجديد وفي سفر أعمال الرسل، شقيق أندراوس أحد التلاميذ الاثني عشر أيضًا. يُعَدُّ في التقاليد الكَنَسِيَّة أولَ باباوات الكنيسة الكاثوليكية. أسَّسَ كنيسةَ أنطاكية وظلَّ بها سبع سنوات قبل أن يذهب إلى روما ويؤسِّسُ كنيستها التي ظلَّ بها رُبْع قرن. قُتِلَ مصلوبًا خلال اضطهاد المسيحيين أيام الإمبراطور نيرون عام 67م. جثمانه مدفون في كاتدرائية القديس بطرس - المترجم.

[←532]

.For a new and comprehensive account, see Eire, *Reformations*

[←533]

الكالفينيون: أتباع جون كالفن (1509 - 1564) الذي انفرد عن لوثر بالقول بالقَدَريّة وسيادة الله بشكل مطلق دون اعتبار لمسؤولية الإنسان عن أفعاله - المترجم.

[←534]

الزوينجليون: أتباع زوينجلي هولدريتش (1484 - 1532) الذي شجع على القيام بإصلاحات أكثر تطرفًا من إصلاحات لوثر. أثرت تعاليمه في إنجلترا وفرنسا وإسكتلندا، ويُعَرَفُ أتباعُه في إنجلترا باسم «البيوريتانيين»، وفي فرنسا باسم «الهوغونيين» - المترجم.

[←535]

الآريوسية: مذهب مسيحي لم يعد له وجود في الوقت الراهن، يُنْسَبُ إلى آريوس (250م - 336م) أحد كهنة الإسكندرية الذي حصر صفات الألوهة المطلقة في أقنوم الأب فقط. كان من النتائج غير المقصودة لحركة آريوس تسييس اللاهوت وتدخل الأباطرة في شؤون الكنيسة - المترجم.

[←536]

القائلون بتجديد العِماد أو الأنابابتستيون: حركةٌ مسيحية إصلاحية ظهرت في القرن السادس عشر في ألمانيا وهولندا وسويسرا بالتزامن مع بداية الإصلاح البروتستانتي. تدعو إلى عدم تعميد الأطفال لأنهم عاجزون عن الالتزام الديني أو الإيمان بحُرِّية، ووجوب تجديد تعميد البالغين الذين عُمِّدوا أثناء طفولتهم.

تختلف الحركة عن اللوثرية والكالفينية بنَبْذها للسلطة الكَنَسيَّة، فكانت المساواةُ واللاهَرَميَّةُ صفتين أساسيتين في الجماعات المنتمية إلى هذه الحركة - المترجم.

[←537]

جان بوكيلسون أو جون لايدن: (1509 - 1536)، قائد قُدَّاس التعميد في لايدن، هولندا. في عام 1533، انتقل إلى مونستر شمال ويستفاليا بألمانيا - إلى جانب رفيقه جان ماتيس - وصار مُلْهِمًا ومؤثرًا وقائدًا لانتفاضة مونستر. أعلن نفسَه ملكًا على مونستر عام 1534. قُمِعَتْ انتفاضتُه بعد حصار المدينة المحصنة، وقُبِضَ عليه وعُذِّب ثم أُعْدِمَ - المترجم.

[←538]

المجيء الثاني للمسيح: عودة متوقعة ليسوع المسيح بالاستناد إلى نبوءات في علم الأخرويات المسيحي والإسلامي على السواء - المترجم.

[←539]

الكومنولث الإنجليزي أو كومنولث إنجلترا: أسَّسَه أوليفر كرومويل عام 1653 وترأسه. وما لبث أن هزم المَلَكيين في الحرب الأهلية الدائرة بين أنصار الملك وأنصار البرلمان - المترجم.

[←540]

يُشَار بشكل متكرر إلى صلح ويستفاليا على أنه لحظة أُعِيدَ فيها فَرْضُ الأبنية الهَرَمِيَّة على أوربا بعد اضطراب حرب الثلاثين عامًا. وهو يتألف من ثلاث معاهدات متميزة، واحدة بين الجمهورية الهولندية وإسبانيا، وواحدة بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة وفرنسا وحلفائها، وواحدة بين الإمبراطورية المقدسة والسويد وحلفائها. ومع أن أكثر من مئة وفد شارك في المفاوضات في المدن المجاورة لمونستر الكاثوليكية وأوسنابروك اللوثرية Lutheran Osnabrück إلى حد ما، فيُقَالُ عادةً إن صلح ويستفاليا دشَّنَ إطارًا قائمًا على سيادية دول متعايشة معًا، ولكنها متنافسة، وتوافقت على عدم التدخل في شؤون بعضها البعض الداخلية (أيْ الشؤون الدينية). كان هذا المبدأ قد تأسَّسَ بالفعل في صلح أوجسبورج قبل قرن تقريبًا، ولكنه تم التأكيد عليه ثانيةً في ويستفاليا - المؤلف.

[←541]

.Adamson, *Noble Revolt*

[←542]

الحرب الأهلية الإنجليزية: سلسلة صراعات مسلحة وسياسية بين البرلمانيين والمَلَكيين، امتدت الأولى منها بين عامي 1642 و1646، وامتدت الثانية بين عامي 1648 و1649، والثالثة بين عامي 1649 و1651. وأثناءها أُعْدِم الملك تشارلز الأول وكرومويل - المترجم.

[←543]

المجاعة الكبرى، أو مجاعة البطاطس الكبرى: في أربعينيات القرن التاسع عشر أصابت آفةٌ زراعية محاصيلَ البطاطس في كل أوربا، ولكن أيرلندا تضرَّرتْ بشكل أكبر، بسبب اعتماد أكثر من ثلْث السكان على البطاطس لفقرهم، فتفاقمت فيها الخسائر البشرية. غيَّرت هذه المجاعةُ المشهدَ السكاني والسياسي والثقافي في أيرلندا إلى الأبد، وأصبحت نقطة تاريخية فاصلة في حياة البلد - المترجم.

[←544]

كهنوت جميع المؤمنين: يعتقد البروتستانت أنه من خلال المسيح قد تمَّ منحهم إمكانَ الوصول المباشر إلى الله دون الوسائط الموجودة في الكاثوليكية - المترجم.

[←545]

جيمس الثاني: (1633 - 1701)، آخر ملوك الرومان الكاثوليك، حَكَمَ إنجلترا وإسكتلندا وأيرلندا في الفترة من عام 1685 حتى الإطاحة به في الثورة المجيدة عام 1688، وهي الثورة التي أقرت مبدأ ألا يحكم الملك إلا بموافقة البرلمان - المترجم.

[←546]

الإصلاح المضاد: يُعْرَفُ أيضًا ب«الإصلاح الكاثوليكي» أو «الإحياء الكاثوليكي». حركة دينية استهدفت إصلاح الكنيسة الكاثوليكية وفي الوقت نفسه مُناهَضة الإصلاح البروتستانتي. تضمنت الحركةُ إعادةَ تشكيل الهيكل الكنسي وتأسيس معاهد دينية لتدريب الكَهَنة، وإصلاح الحياة الدينية من خلال إعادة النُّظُم الدينية إلى أصولها الروحية الأولى، بالتركيز على الحياة التعبُّدية والعلاقة الخاصة بالمسيح، الأمر الذي أدَّى إلى ظهور الصوفيين الإسبان والمدرسة الفرنسية الروحانية - المترجم.

[←547]

الكالفينية: مذهب مسيحي بروتستانتي يرجع تأسيسه إلى المصلح الفرنسي جون كالفن الذي ألَّفَ بين عاميْ 1536 و1559 كتابَه «مبادئ الإيمان المسيحي».

يعتقد كالفن - مثل لوثر - بأن الخلاص يحدث بالإيمان فقط وليس بالأعمال، ولكنه انفرد عن لوثر بالقول بالقَدَريّة المطلقة ونفي مسؤولية الإنسان عن أفعاله.

تَفرَّعَ عن الكالفينية المذهبُ البيوريتاني أو الطّهوري. سعت البروتستانتية بكل ما تفرع عنها من مذاهب، ومنها الكالفينية على وجه التحديد، إلى بناء مفهوم موضوعي يرى الإنسانَ «زاهدًا نشيطًا» لديه دوافع إيمانية روحانية وربَّانية للعمل والكفاح والثراء دون تعارض حتمي مع روحانية الإيمان. فالنجاح الدنيوي المادي مرغوب أيضًا بوصفه طريق الخلاص الأخروي وعلامة على النجاح في تحقيقه - المترجم.

[←548]

.Owen, *Clash of Ideas in World Politics*, 34f

[←549]

العَلْمَنة: عملية تاريخية يفقد فيها الدينُ أهميتَه الاجتماعية والثقافية. وتشير أطروحةُ العَلْمَنة إلى أنه مع تقدُّم المجتمعات، في إطار التحديث، يفقد الدينُ سلطتَه في جميع جوانب الحياة، وإن كانت بعض اتجاهات العَلْمَنة المعتدلة تشير إلى بقاء الدين في أُطُرٍ فردية فقط - المترجم.

[←550]

.Owen, *Clash of Ideas in World Politics*, 34f

[←551]

.’Cantoni, Dittmat and Yuchtman, ‘Reformation and Reallocation

[←552]

.’Dittmar, ‘Welfare Impact of a New Good

[←553]

.’Dittmar, ‘Ideas, Technology and Economic Change

[←554]

.’Dittmar, ‘Welfare Impact of a New Good

[←555]

سلالة ستيوارت: ترجع أسرة ستيوارت في أصولها إلى أحد المغامرين البريتانيين (نسبةً إلى مقاطعة بريتاني في فرنسا) هو آلان فيتزفالد، الذي جاء إلى بريطانيا مع طلائع جيش ويليام الأول الفاتح النورمندي. حَكَمَت الأسرةُ في إسكتلندا ثم بريطانيا في الأعوام من 1371 حتى 1714 - المترجم.

[←556]

بادوفا: مدينة إيطالية في إقليم فينيتو شمال البلاد، بها جامعة بادوفا التي تأسَّستْ عام 1222، والتي تُعَدُّ من بين أقدم الجامعات في العالم، وثاني أقدمها في إيطاليا - المترجم.

[←557]

فيتنبرج: مدينة ألمانية في ولاية سكسونيا - أنهالت، على نهر إلبي. كانت مقرَّ ناخب ولاية سكسونيا. ويرتبط العديد من أماكنها بمارتن لوثر وفجر الإصلاح البروتستانتي - المترجم.

[←558]

يينا: مدينة في ولاية تورِنجن بألمانيا. وفيها واحدة من أقدم الجامعات الألمانية هي «جامعة يينا» التي تأسَّستْ عام 1558 - المترجم.

[←559]

لايدن: مدينة هولندية في الجنوب على ضفاف نهر الراين. وبها جامعة لايدن أقدم جامعات هولندا - المترجم.

[←560]

كوبنهاجن: تأسَّست في القرن العاشر بوصفها قرية لصيادي السمك، ثم أخذت تزداد أهميتها بسبب مينائها حتى أصبحت عاصمة مملكة الدنمارك منذ منتصف القرن الخامس عشر تقريبًا - المترجم.

[←561]

.' ”Taylor et al., ‘Geohistorical Study of “the Rise of Modern Science

[←562]

إسماعيل بوليوو: (1605 - 1694)، عالِم فلك ورياضيات، اهتمَّ أيضًا بالتاريخ واللاهوت والدراسات الكلاسيكية وفقه اللغة. كان عضوًا نَشِطًا في «جمهورية الآداب»، وهي جماعة فكرية تتبادلُ الأفكارَ - المترجم.

[←563]

.Hatch, ‘Between Erudition and Science’, 51, 55

[←564]

هنري أولدنبورج: (1619 تقريبًا - 1677)، ديبلوماسي وفيلسوف طبيعي ولاهوتي ألماني. حَازَ شبكةَ مراسلات واسعة في أوربا القرن السابع عشر. وعند تأسيس الجمعية المَلَكيّة تولّى مسؤولية المراسلات الأجنبية - المترجم.

[←565]

الجمعيّة المَلَكيّة: هي «جمعية لندن المَلَكيّة لتطوير المعرفة الطبيعية»، تأسَّستْ عام 1660 بوصفها هيئة تعمل على نشر العِلْم - المترجم.

[←566]

.Ibid., 55

[←567]

إيرازموس: (1466 - 1536)، فيلسوف هولندي، من روّاد الحركة الإنسانية في أوربا. حاول التقريب بين مبادئ الكاثوليكية والحركات الإصلاحية الجديدة - المترجم.

[←568]

.Edelstein et al., ‘Historical Research in a Digital Age’, 411–13

[←569]

أنتوني فان ليفينهوك: (1632 - 1723)، عالِم هولندي من العصر الذهبي للعلوم والتكنولوجيا الهولندية، يُعْرَفُ ب«أبو الأحياء الدقيقة»، وأحد أوائل علماء الميكروسكوبولوجي والميكروبيولوجي. اشتهر بعمله الرائد في الفحص المجهري وإسهاماته في إنشاء علم الأحياء المجهرية بوصفه مجالاً علميًا - المترجم.

[←570]

’?Lux and Cook, ‘Closed Circles or Open Networks

[←571]

From the 1661 Royal Charter: http://royalsociety.org/uploadedFiles/Royal_Society_Content/about-us/history/Charter1_English.pdf

[←572]

.Rusnock, ‘Correspondence Networks’, 164

[←573]

الأكاديمية الفرنسية للعلوم: جمعيّة عِلْمية تأسَّسَتْ عام 1666، في عهد لويس الرابع عشر باقتراح من جان باتيست كولبير، بهدف تشجيع روح البحث العلمي الفرنسي وحمايته - المترجم.

[←574]

.Lux and Cook, ‘Closed Circles or Open Networks?’ 196f

[←575]

.’Carneiro et al., ‘Enlightenment Science in Portugal

[←576]

يوهان بيرنولي: (1667 - 1748)، عالِم رياضيات سويسري - المترجم.

[←577]

تأسَّسَتْ في عام 1724 - المترجم.

[←578]

فريديريك العظيم: (1712 - 1786)، هو فريدريك الثاني من سلالة هوهنتسولرن، اشتهر بدهائه في الحملات العسكرية. وكان من دُعاة الحُكْم المطلق المستنير، قام بتحديث البيروقراطية البروسيَّة والخدمة المدنية وعزَّزَ التسامحَ الديني في أرجاء مملكته. عُرِفَ برعايته للفنون والفلاسفة والعلماء. يقال إنه لعب دورًا كبيرًا في شبكات الماسونية - المترجم.

[←579]

.Lamikiz, *Trade and Trust*, 152

[←580]

See Gestrich and Beerbühl (eds.), *Cosmopolitan Networks*, and Caracausi and Jeggle (eds.), *Commercial Networks*.

[←581]

ماديرا: مجموعة جُزُر في المحيط الأطلنطي شمال غرب أفريقيا تتبع البرتغال - المترجم.

[←582]

.Hancock, ‘Trouble with Networks’, 486–8

[←583]

.Ibid., 489

[←584]

شركة الهند الشرقية: تأسَّسَتْ يوم 31 ديسمبر عام 1600 بمرسوم من ملكة إنجلترا إليزابيث الأولى، ومنحتها سلطات احتكارية على تجارة الهند وجميع مستعمراتها في جنوب شرق آسيا. تاجرت الشركةُ أساسًا في القطن والحرير والشاي والأفيون، أطلق العامةُ عليها «شركة جون»، وأطلق عليها أهل الهند «شركة بهادور». ولكن الشركة تحولت من مشروع تجاري إلى مؤسسة تحكم جميع الولايات الهندية ومستعمرات التاج البريطاني في المنطقة بدَعْم سياسي وعسكري من بريطانيا - المترجم.

[←585]

.’Erikson and Bearman, ‘Malfeasance and the Foundations for Global Trade

[←586]

جوانزو أو جوانجتشو: تُعْرَفُ أيضًا باسم «كانتون»، مدينة في جنوب الصين تقع على ضفة نهر اللؤلؤ شمال غرب هونج كونج، وشمال ماكاو. محطة رئيسية في طريق الحرير البحري، وميناء، ومركز نقل حتى اليوم - المترجم.

[←587]

.Erikson, *Between Monopoly and Free Trade,* figure 5

[←588]

.Erikson and Bearman, 'Malfeasance and the Foundations for Global Trade', 219

[←589]

.Erikson, *Between Monopoly and Free Trade,* 19

[←590]

باتيكالَوا: إحدى مدن سريلانكا على الساحل الشرقي - المترجم.

[←591]

.Ibid., 26

[←592]

.Erikson and Bearman, ‘Malfeasance and the Foundations for Global Trade’, 226f

[←593]

روبرت كلايف: (1725 - 1774)، ضابط بريطاني، كان له الفضل في إقامة السيادة العسكرية والسياسية لشركة الهند الشرقية وتأمين الثروات المكتسبة لصالح التاج البريطاني - المترجم.

[←594]

منطقة تاريخية وثقافية في إسكتلندا - المترجم.

[←595]

.Rothschild, *Inner Life of Empires*

[←596]

دانييل ديفو: (1660 - 1731)، تاجر إنجليزي وكاتب وصحفي، مِن بين مؤسّسِي الرواية الإنجليزية - المترجم.

[←597]

مجلس العموم البريطاني: يشغل الغرفةَ السُّفْلى من برلمان المملكة المتحدة، وأما الغرفة العليا فيشغلها مجلسُ اللوردات - المترجم.

[←598]

ثقب كالكوتا الأسود: سجن صغير أو زنزانة في كالكوتا، احتجزَ فيها البنغاليون أسرى حرب بريطانيين لمدة ثلاثة أيام بدءًا من يوم 20 يونيو عام 1756 - المترجم.

[←599]

Ibid. See also http://www.fas.harvard.edu/~histecon/innerlife/index.html

[←600]

الماركنتيلية: مذهب سياسي اقتصادي ساد في أوربا منذ بداية القرن السادس عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر، عِمادُه الاحتكارات التجارية الخارجية - المترجم.

[←601]

إدنبرة: عاصمة إسكتلندا، على الشاطئ الشرقي بالقرب من بحر الشمال - المترجم.

[←602]

الثورة الأمريكية: وقعت أحداثها بين عاميْ 1765 و1783. أدَّت في النهاية إلى استقلال ثلاث عشرة مستعمرة أمريكية عن بريطانيا العظمى، لتصبح الولايات المتحدة الأمريكية - المترجم.

[←603]

ألكسندر هاملتون: (1755 أو 1757 - 1804)، رجل دولة أمريكي وأحد الآباء المؤسِّسين للولايات المتحدة الأمريكية - المترجم.

[←604]

آرون بور: (1756 - 1836)، سياسي أمريكي، وثالث نائب لرئيس الولايات المتحدة، تولّى المنصبَ خلال ولاية توماس جيفرسون الأولى - المترجم.

[←605]

بيتي: صيغة التصغير الشائعة لاسم إليزابيث - المترجم.

[←606]

.http://www.fas.harvard.edu/~histecon/innerlife/geography.html

[←607]

.Edelstein et al., ‘Historical Research in a Digital Age’, 405

[←608]

.Comsa et al., ‘French Enlightenment Network’, 498

[←609]

.Ibid., 502

[←610]

.Ibid., 507

[←611]

.Ibid., 511

[←612]

جمهورية الآداب: جماعة فكرية نشأت أواخر القرن السابع عشر، ضَمَّت العلماءَ والأدباءَ عبر الحدود الوطنية، وتألّفت في معظمها من الرجال بسبب القيود المجتمعية على النساء. كانت الرسائل المكتوبة بخط اليد أمرًا ضروريًا للتواصل من مسافات بعيدة، بين أعضائها - المترجم.

[←613]

.Ibid., 513

[←614]

Goodman, 'Enlightenment Salons'. See also Goodman, *Republic of Letters* and (for a somewhat different view) Lilti, *World of the Salons*.

[←615]

حُثالة جِرَب ستربيت الأدبية بباريس: يشير Grub Street إلى شارع في لندن، حوالي القرن الثامن عشر، عاش فيه عددٌ كبير من كُتَّاب الأدب المتعثِّرين الذين يشقون طريقهم بصعوبة شديدة في الحياة الأدبية والثقافية. ثم صار اسم الشارع مصطلحًا يشير إلى كل الكُتَّاب من هذه النوعية في أماكن أخرى من أوربا؛ ومنهم كُتَّاب باريس الصعاليك أو المتعثِّرين أو مَن يُطْلَقُ عليهم «البروليتاريا الأدبية» الذين يعيشون حياةً اجتماعية وأخلاقية مُتردِّية. أميز صفاتهم عدمُ القدرة على الهروب من سيكولوجية الفشل. وفي النظام الفرنسي القديم [قبل الثورة]، كانوا مستبعدين عمومًا من المؤسسات المرموقة. وَلَّدَ هذا الوضعُ فيهم كراهيةً نَشِطَة للتسلسل الهَرَمي في النظام الفرنسي القديم، فمالوا في أعمالهم الأدبية والصحفية عمومًا إلى ما يُسَمَّى كتابات التشهير [اللايْبِل] libelles وتناول قضايا شائكة بأسلوب متطرف. تُوصَفُ أعمالُهم أيضًا بأنها literary underground التي يمكن ترجمتها أيضًا إلى «حُثالة أدبية» أو «ديدان أدبية». كانوا محلَّ سخرية فولتير الذي حذَّرَ الشبابَ من الانقياد إلى نمطهم في الكتابة. توجد هذه النوعيةُ من الكُتَّاب في كل بقاع العالَم، ومنها مصر، ولا يظهرون بقوة إلا في لحظات الاضطراب الاجتماعي والسياسي المفاجئة - المترجم.

[←616]

.Comsa et al., ‘French Enlightenment Network’, 530

[←617]

من المحتمل أن يشير التعبير إلى هيئة مستقلة من المحامين المقبولين بوصفهم ممارسي مهنة المحاماة أمام المحاكم الإسكتلندية - المترجم.

[←618]

مجمع بورز المَلَكي: جمعية تمثيلية تحمي الامتيازات والمصالح في البلدات التجارية الرئيسـية في إسـكتلندا منذ منتصف القرن السـادس عشـر وَفْقَ اتفاقية بهذا الشـأن - المترجم.

[←619]

نيوتاون إدنبرة: منطقة مركزية في إدنبرة، بُنيتْ على مراحل بين عاميْ 1767 و1850 - المترجم.

[←620]

.Danskin, ' "Hotbed of Genius" ', 11

[←621]

الديفو: هو الاسم الذي أُطْلِقَ في فرنسا على أنصار السياسة الكاثوليكية الذين يُعارِضون البروتستانتيةَ، والمتحالفين مع مَلَكيَّة هابْسبورج في الخارج - المترجم.

[←622]

اعترض شيوخ الكنيسة الإسكتلندية [الكيرك] على هذه الخطوط غير الكالفينية: «الشقاء مصيره؛ ولم يكن ليُلام! ثمة قَدَرٌ في هذا العالم الغريب. وأيُّ قَدَرٍ هو غير مستحق: فَلْيُخْبِرُنا اللاهوتيون لماذا» - المؤلف.

[←623]

صندوق باندورا: في الميثولوجيا الإغريقية صندوق حملته باندورا، وبداخله كل شرور البشرية. فُتِحَ الصندوقُ فانطلقت منه كل الشرور، فسارعت باندورا إلى إغلاقه، ولم يبق بداخله سوى فقدان الأمل الذي لم يُصِبْ البشرَ - المترجم.

[←624]

الآخرون هم: هيو بلير Hugh Blair، جيلبرت إليوت Gilbert Elliot (لورد مينتو Lord Minto)، آدم فِرْجُسـن Adam Ferguson، هنري هوم Henry Home (لورد كاميس Lord Kames)، جون هوم John Home، آلان رامسـي Allan Ramsay، توماس ريد Thomas Reid، ويليام روبرتسـون William Robertson - المؤلف.

[←625]

بنيامين فرانكلين: (1706 - 1790)، من أهم وأبرز مؤسّسِـي الولايات المتحدة. شخصية رئيسية في التنوير وتاريخ الفيزياء، مخترع ورجل دولة وديبلوماسـي. في أعوامه الأولى في بوسطن عمل مع والده في متجر لصناعة الشموع، ولم تتح له الدراسة بانتظام، ثم عمل في مطبعة أخيه، وحينئذ بدأ يُعَلِّمُ نفسَه بنفسه - المترجم.

[←626]

الجونتو: نادٍ أقامه بنيامين فرانكلين في فيلادلفيا، بهدف مناقشة مسائل الأخلاق والسياسة والفلسفة الطبيعية، كما كان فرصةً لتبادل المعرفة في الشؤون التجارية - المترجم.

[←627]

.’Arcenas and Winterer, ‘Correspondence Network of Benjamin Franklin

[←628]

?Winterer, ‘Where is America in the Republic of Letters

[←629]

.Starr, *Creation of the Media*

[←630]

بول ريفير: (1735 - 1818)، صائغ فضة وحفَّار معادن أمريكي وأحد رواد الصناعة، وأحد الوطنيين في الثورة الأمريكية. اشتهر برحلته الليلية ليُنَبِّه ميليشيا المستوطنين، في أبريل عام 1775، من قدوم القوات البريطانية قبل معركتيْ ليكسينجتن وكونكورد، وهي الرحلة التي عبَّر عنها هنري وادسورث لونجفيلو في قصيدته الشهيرة «بول ريفير» عام 1861. ساعد ريفير في تنظيم جهاز استخبارات وإنذار لمراقبة الجيش البريطاني، وخَدَمَ لاحقًا بوصفه ضابطًا في ميليشيا ماساتشوستس، ولكنه تَسبَّبَ في وضع كارثي أثناء الحرب الثورية الأمريكية، فأُنْهِيَتْ خدمتُه العسكرية. بعد الحرب عاد إلى تجارته في صناعة الفضة، واستغل الأرباحَ في تمويل مشاريعه في صَبِّ الحديد وصناعة المدافع والمسامير النحاسية. وفي عام 1800، كان أول أمريكي ينجح في لفِّ النحاس إلى صفائح تُسْتَخْدَمُ في صناعة السفن البحرية - المترجم.

[←631]

.Fischer, *Paul Revere's Ride*, KL 102–4

[←632]

.Ibid., KL 128–33

[←633]

.Gladwell, *Tipping Point*, 32, 35

[←634]

.Ibid., 56f

[←635]

رولوديكس: جهاز يُسْتَخْدَمُ لتخزين بيانات الاتصال الجارية - المترجم.

[←636]

.Ibid., 59f

[←637]

مذبحة بوسطن: حدثت يوم 5 مارس عام 1770، عندما أطلق جنودٌ بريطانيون النارَ على بعض الأمريكيين فقتلوا خمسة منهم. كانت هذه الحادثة من الأحداث المهمة التي أدَّت إلى اندلاع الثورة الأمريكية ضد بريطانيا - المترجم.

[←638]

.Wood, *American Revolution*, KL 568–9

[←639]

المؤتمر القارّي أو مؤتمر فيلادلفيا: تجمُّع التقى فيه ممثلون عن ثلاث عشرة مستعمرة، وهم الذين أصبحوا، لاحقًا، أعضاء إدارة الولايات المتحدة الأمريكية خلال حرب الاستقلال - المترجم.

[←640]

قرارات سوفولك: إعلان أصدره يوم 9 سبتمبر عام 1774 قادةُ مقاطعة سوفولك وماساتشوستس، التي تُعَدُّ بوسطن مدينتَها الرئيسية. رفض الإعلانُ قانونَ حكومة ولاية ماساتشوستس، وحَسَمَ قرارًا بشأن مقاطعة البضائع المستوردة من بريطانيا ما لم يتم إلغاء القوانين الجائرة - المترجم.

[←641]

القوانين غير المحتملة أو القَسْرية أو الجائرة: وصفٌ أطلقه الوطنيون الأمريكيون على سلسلة القوانين التي أصدرها البرلمانُ البريطاني عام 1774 بعد حفلة شاي بوسطن، بغرض معاقبة ولاية ماساتشوستس على عصيانهم ورَمْيهم كمية كبيرة من شحنة الشاي في مياه ميناء بوسطن. وبموجب تلك القوانين، صُودِرَ حقُّ ولاية ماساتشوستس في الحُكْم الذاتي، فاشتعل غضب مستوطني المستعمرات الثلاث عشرة؛ الأمر الذي أدَّى لاحقًا إلى اندلاع الثورة الأمريكية عام 1775 - المترجم.

[←642]

قانون الكيبيك: يُعْرَفُ أيضًا بقانون أمريكا الشمالية البريطانية لعام 1774، أصدره برلمان بريطانيا العظمى، وحدَّد فيه إجراءات الحُكْم في مقاطعة كيبيك بطريقة أشعلت غضب المستوطنين الأمريكيين - المترجم.

[←643]

.Middlekauff, *Glorious Cause*, KL 4437–45. See also Borneman, *American Spring*, KL 439–51

[←644]

.Borneman, *American Spring*, KL 81–96

[←645]

.Ibid., KL 1707–14

[←646]

.Ibid., KL 1930–39

[←647]

.Middlekauff, *Glorious Cause*, KL 4800–4824

[←648]

.Ibid., KL 4825–31

[←649]

.Borneman, *American Spring*, KL 2096–2138

[←650]

.Ibid., KL 2175–81

[←651]

.’Han, ‘Other Ride of Paul Revere

[←652]

بَرَهمية: طبقة متفوقة اجتماعيًا وثقافيًا، ولا سيما أفراد الطبقات العُلْيا في نيو إنجلاند - المترجم.

[←653]

ويج، أو الويجيون: فصيل سياسي ثم حزب سياسي في برلمانات إنجلترا وإسكتلندا وبريطانيا العظمى وأيرلندا والمملكة المتحدة. وبين عاميْ 1680 و1850 تنافس الويجيون Whigs على السلطة مع المحافظين (التوريين) Tories. يُؤيِّدُ الويجيون المَلَكيّةَ الدستورية ويعارضون المَلَكيّة المطلقة. ولعبوا دورًا محوريًا في «الثورة المجيدة» عام 1688، فكانوا أعداء ملوك آل ستيوارت وأدعيائهم ممن ناصَروا الكاثوليكيةَ الرومانية. سيطر الويجيون سيطرةً كاملة على الحكومة عام 1715، وظلوا مهيمنين حتى جاء الملك جورج الثالث إلى العرش عام 1760 وسمح بعودة المحافظين (التوريين). بحلول عام 1784، صار الويجيون حزبًا سياسيًا Whig Party في منافسة مع Tory Party - المترجم.

[←654]

جرين دراجون تافِرن: منزل عام يُسْتَخْدَمُ مكانًا للاجتماعات ونُزُلاً أيضًا وحانةً، يقع في يونيون ستريت Union Street في بوسطن. اشتراه في عام 1766 ماسونيو محفل القديس أندرو، واستخدموا الطابق الأول لاجتماعاتهم. أما البدروم أو القبو أو الطابق الأرضي فاستخدمته العديد من الجماعات السرِّية مقرًا لاجتماعاتها حتى صار المؤرِّخون يطلقون عليه «مقر الثورة»، إذ كان يجتمع فيه جماعة «أبناء الحرية» و«لجنة مراسلات بوسطن» و«تكتل بوسطن» Boston Caucus. تم التخطيط في هذا المنزل لحفلة شاي بوسطن Boston Tea Party التي صارت أساسًا فيما بعد لما يُسَمَّى «حزب الشاي» Tea Party. ومن هذا المنزل أُرْسِلَ بول ريفير (الماسوني) بالأخبار التحذيرية إلى ليكسينجتن وكونكورد في رحلته الشهيرة. وفي هذا المنزل أيضًا، حَدَثَ التوافقُ على الدستور الاتحادي. هُدِمَ المبنى تمامًا في عام 1854. ويقع المبنى الجديد الذي يحمل الاسم نفسه في 11 شارع مارشال في نورث إند، بوسطن - المترجم.

[←655]

المخلصون التسعة: تسعةُ رجالِ أعمالٍ من الطبقة الوسطى في بوسطن، اجتمعوا سرًا من أجل التخطيط لاحتجاجات ضد قانون الطوابع Stamp Act الصادر عام 1765. تمكنوا من حشد العامّة ودَفْعهم إلى التظاهر وتزويدهم بالإمدادات كالطعام والشراب أثناء الاحتجاج. ومنهم خرجت جماعةُ «أبناء الحرية» التي قامت لاحقًا بتأسيس «شجرة الحرية» بوصفها مكانًا مركزيا لتجمُّع الوطنيين في بوسطن - المترجم.

[←656]

أبناء الحرية: تنظيم سرّي أُنْشِئ لحماية حقوق المستوطنين ومحاربة الضرائب التي تفرضها الحكومة البريطانية. لعب دورًا رئيسيًا في محاربة قانون الطوابع عام 1765. حُلَّ التنظيمُ رسميًا بعد إلغاء القانون، ولكن أُطْلِقَ الاسمُ على مجموعات انفصالية محلية في السنوات السابقة على الثورة الأمريكية - المترجم.

[←657]

نورث إند كُوْكَس: تنظيم سياسي غير رسمي، كان له تأثير كبير في بوسطن في الأعوام السابقة على الثورة وما بعدها. وكان هذا أول استعمال لكلمة caucus التي تعني اجتماعًا لأفراد تجمعهم ميول سياسية للاتفاق على موقف مشترك - المترجم.

[←658]

لجنة مراسلات بوسطن: لجان المراسلة عمومًا، ومنها لجنة بوسطن، كانت عبارة عن «حكومات ظل» شَكَّلَها القادةُ الوطنيون في المستعمرات الثلاث عشرة عشية الثورة الأمريكية. تولَّتْ فيما بينها الردَّ على بريطانيا العظمى، وكانت تقوم بالتشاور وتبادل خطط الاحتجاج والثورة فيما بينها - المترجم.

[→659]

جوزيف وارِن: (1741 - 1775)، طبيب أمريكي، لعب دورًا رياديًا في التنظيمات الوطنية الأمريكية السرِّية في بوسطَن، عشية الثورة الأمريكية، وهو الذي جنَّد بول ريفير ووليام دوز للقيام برحلتهما الشهيرة للتحذير من قدوم القوات البريطانية. شارك وارِن في معركتيْ ليكسينجتن وكونكورد اللتين كانتا افتتاحيةَ الحرب الثورية الأمريكية - المترجم.

[←660]

جاسبي أو قضية جاسبي: حَدَثٌ مهم أَرْهَصَ بالثورة الأمريكية، حين قام مجموعة أمريكيين بإشعال النيران في سفينة بريطانية وإغراقها بالقرب من جاسبي بوينت في وارويك، رود أيلاند - المترجم.

[←661]

حفلة شاي بوسطن: مظاهرة عنيفة نظَّمها المستعمرون الأمريكيون في عام 1773 قبل اندلاع الثورة الأمريكية، إذ اعتلى المتظاهرون سطح السفن في ميناء بوسطن وألقوا بشحنة الشاي في الماء احتجاجًا على فَرْض البرلمان البريطاني، الذي لم يكن فيه للمستعمرين تمثيل، ضريبة على الشاي - المترجم.

[←662]

.York, 'Freemasons', 315

[←663]

Morse, *Freemasonry and the American Revolution*, 23, 37, 41, 46, 50, 52, 62, 64f

[←664]

[←665]

.York, ‘Freemasons’, 318

[←666]

إعلان استقلال الولايات المتحدة: بيان اعتمده المؤتمرُ القارِّي الثاني الذي انعقد في دار ولاية بنسلفانيا، التي تُعْرَفُ الآن ب«قاعة الاستقلال»، يوم 4 يوليو عام 1776، وجاء فيه أن المستعمرات الثلاث عشرة هي ولايات مستقلة ذات سيادة، ولم تعد تحت الحُكْم البريطاني، وأنها في حرب مع بريطانيا العظمى. ثم بدأت هذه الولايات في اتخاذ خطوة جماعية أولى نحو تشكيل الولايات المتحدة الأمريكية - المترجم.

[←667]

هؤلاء الثمانية هم: بنيامين فرانكلين من محفل تون تافرِن Tun Tavern Lodge في فيلادلفيا. جون هانكوك John Hancock من محفل سانت أندرو St Andrew’s Lodge في بوسطن. جوزيف هيوز Joseph Hewes الذي سُجِّلَ بوصفه زائرًا ماسونيًا لمحفل يونانيميتي Unanimity Lodge No. 7، إدنتون Edenton، نورث كارولينا North Carolina، في ديسمبر عام 1776. وليام هوبر William Hooper من محفل هانوفر Hanover lodge، ميسونبورو Masonborough، نورث كارولينا. روبرت تريت باين Robert Treat Payne، حضر المحفل الكبير Grand Lodge في روكسبوري Roxbury، ماساتشوستس، في يونيو عام 1759. ريتشارد ستوكتون Richard Stockton أستاذ محفل سانت جون Master of St John’s Lodge، برينستون Princeton، ماساتشوستس في عام 1765. جورج والتون George Walton، محفل سليمان Solomon’s Lodge No. 1، سافانا Savannah، جورجيا Georgia. ويليام ويبل William Whipple، محفل سانت جون، بورتسموث Portsmoth، نيوهامبشير New Hampshire - المؤلف.

[←668]

.Ibid., 325

[←669]

[←670]

لم تَمْضِ هذه المَرْويّة دون اعتراض عليها. فمثلاً، أندرو مايكل رامسي Andrew Michael Ramsay، وهو إسكتلندي آخر، تَتبَّعَ أصولَ البنّائين الأحرار حتى فلسطين زمن الحروب الصليبية - المؤلف.

[←671]

حيرام أبي أو حورام أبي أو حيرام أبيف: معماري فينيقي من صور أرسله أحيرام ملك صور إلى النبي سليمان الحكيم للإشراف على بناء هيكله. اشتهرت الشخصية في التقاليد الماسونية باسم حيرام أبيف المعماري الذي يموت وهو يدافع عن سرِّ العمارة في إشارة إلى إخلاصه. ولكن بحثًا حديثًا من داخل الماسونية نفسها يذكر أن حيرام أبيف هو الفرعون المصري سقنن رع وليس الشخص المُرْسَل من قِبَل مَلِك مدينة صور - المترجم.

[←672]

.York, ‘Freemasons’, 320

[←673]

.Ibid., 320

[←674]

Ibid., 328

[←675]

الرُّبوبية: اعتقاد في وجود كائن أسمى، وعلى وجه التحديد خالق لا يتدخل في الكون. اسْتُعْمِلَ هذا المصطلح أساسًا لحركة فكرية، في القرنين السابع عشر والثامن عشر، قبلت وجودَ خالقٍ بالاستناد إلى العقل وحده، ولكنها رفضت الإيمان بألوهية خارقة تتفاعل مع البشر - المترجم.

[←676]

.Hackett, *That Religion*, 198f

[←677]

.York, 'Freemasons', 323

[←678]

.Hodapp, *Solomon’s Builders*, 66f

[←679]

I am grateful to Joe Wäges for providing me with the relevant pages of the minute book for 30 November and 16 December 1773. The earlier meeting was adjourned ‘on account of the few Brethren present (NB; Consignees of Tea took up the Brethren’s Time)’. A contemporaneous drawing of the Green Dragon bears an inscription that reads: ‘Where we met to Plan the Consignment of a few Shiploads of Tea. Dec. 16, 1773.’ It is signed ‘John Johnson, 4 Water .’Street, Boston

[←680]

في هذا الزمن كان أساتذة البَنَّائين الأحرار هم: النبي سليمان الحكيم، وملك صور، وحيرام أبيف، وذلك وفقًا لمَرْويّة جيمس أندِرسون عن تاريخ البَنَّائين الأحرار القديم - المترجم.

[←681]

.York, ‘Freemasons’, 326

[←682]

.Hackett, *That Religion*, 198f

[←683]

.Bullock, *Revolutionary Brotherhood*, 106f

[←684]

قاعة فانويل، أو فانويل هول: تقع قُرْب واجهة بوسطن البحرية، ألقى فيها صمويل آدمز وآخرون خطبًا لتأييد الاستقلال عن بريطانيا العظمى. تُعَدُّ القاعة محلاً مشهورًا فيما يُسَمَّى «مسار الحرية»، ويُشَارُ إليها أحيانًا بوصفها «مهد الحرية». هي الآن جزء من سلسلة مواقع مدينة بوسطن التاريخية - المترجم.

[←685]

.Ibid., 112f

[←686]

.Ibid., 152f

[←687]

جورج واشنطن: (1732 - 1799)، أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية، وقائد عام القوات المسلحة للجيش القارِّي أثناء الحرب الأمريكية الثورية، وأحد الآباء المؤسِّسين للولايات المتحدة - المترجم.

[←688]

Ibid., 156

[←689]

.Ibid., 301

[←690]

روبرت ليفينجستن: (1746 - 1813)، أحد الآباء المؤسِّسين للولايات المتحدة، وعضو لجنة الخمسة التي صاغت إعلان الاستقلال مع توماس جيفرسون وبنيامين فرانكلين وجون آدامز وروجر شيرمان. عُرِف باسم «المستشار» بعد شغله المنصب لمدة رُبْع قرن - المترجم.

[←691] Alexander Immekus, ‘Freemasonry’, http://www.mountvernon.org/digital-encyclopedia/article/freemasonry/.

[←692]

خَتْم الولايات المتحدة العظيم: خَتْمٌ يُستخدَم لإضفاء الشرعية على وثائق معين صادرة عن حكومة الولايات المتحدة الفيدرالية. اسْتُخدِمَ لأول مرة عام 1782. وطُبِعَ على ظهر عُمْلة الدولار الورقية بدءًا من عام 1935 - المترجم.

[←693]

.Patterson and Dougall, *Eagle and Shield*

[←694]

الأوراق الفيدرالية: مجموعة مقالات نَشَرَها في صحيفتين أمريكيتين ألكسندر هاملتون وجيمس ماديسون وجون جاي في الفترة بين أكتوبر عام 1787 وأغسطس عام 1788، ثم جُمِعَتْ في كتابٍ بعد إضافة ثماني مقالات إليها فصار مجموعها 93 مقالاً، طُبِعَ عام 1788 - المترجم.

[←695]

.Hamilton, *Complete Works*, KL 84174–8

[←696]

.Ibid., KL 35483–7

[←697]

Ibid., Book I, chapter 12

[←698]

.Ibid., Book II, chapter 5

[←699]

ستندال: (1783 - 1842)، اسمه ماري هنري بيل: من علامات الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر، قرن الثورة الصناعية والثقافية معًا، أبرز أعماله روايتا «الأحمر والأسود» و«دير بارم». اتسمت أعماله بسخرية بارعة ونفاذٍ نادرٍ إلى أعماق النفس البشرية ونزوع واضح إلى النقد الاجتماعي. من روافده الثرية اهتمامه بالموسيقى وعلاقته الثرية بالثقافة الإيطالية. نشأ عن زيارته الشهيرة إلى مدينة فلورنسا ما يُعْرَفُ ب«متلازمة ستندال» Stendhal Syndrome أو «متلازمة فلورنسا»، التي أجاد التعبيرَ عن أعراضها في كتابه «نابولي وفلورنسا: رحلة من ميلانو إلى ريجيو» - المترجم.

[←700]

آل بوربون: عائلة مَلَكيّة أوربية، فرع من سلالة الكابيتيون. وحَّدَ ملوكُ آل بوربون فرنسا مع مملكة نافارا الصغيرة في عام 1555 حتى سقطت مَلَكيّتُهم أثناء الثورة الفرنسية، ثم استعادوها لمدة قصيرة بدءًا من عام 1814 (بعد سقوط الإمبراطورية الفرنسية بقيادة نابليون من عام 1804 إلى 1814) حتى أُطيح بهم في ثورة يوليو عام 1830، ثم حَكَمَ فرعُ أورليان من آل بوربون 18 عامًا من عام 1830 حتى بدء اجتياح الثورات جميع أنحاء أوربا عام 1848 - المترجم.

[←701]

نابليون بونابرت: (1769 - 1821)، قائد عسكري تَرقَّى في المناصب حتى أصبح قنصلاً عامًا لفرنسا ثم إمبراطور فرنسا من عام 1804 حتى عام 1814، وبذلك تُمثِّل سيرةُ حياته تحقيقًا لنظام الجدارة والاستحقاق. يُسَمَّى هذا العقد الأول من القرن التاسع عشر ب«الحروب النابوليونية» التي حقق فيها نابليون لفرنسا مركزًا رئيسيًا على مستوى أوربا بسبب انتصاراته العسكرية المتتابعة. بدأ تدهوره العسكري إثر هزيمته في «معركة الأمم» أكتوبر عام 1813، ثم معركة «واترلو» يونيو عام 1815 التي استسلم فيها للبريطانيين ونفوه إلى جزيرة القديسة هيلانة - المترجم.

[←702]

تُعَدُّ شخصية جوليان سوريل مثالًا نموذجيًا لضحية التراتبات الاجتماعية الصارمة التي تعرضها روايةُ «الأحمر والأسود». ينتمي سوريل إلى الفئة الدنيا في المجتمع، وكان نابليون بطله المثالي حتى هزيمة جيشه النهائية عام 1815. لم يجد سوريل سبيلاً للترقّي الاجتماعي سوى الاندراج في سِلْك الرَّهْبنة، وخلال دراسته وتهيئته ليصبح قسًا، عُرِضَ عليه أن يكون معلمًا لأبناء عُمْدة إحدى البلدات السيد دي رينال. رأى جوليان في هذا فرصته للدخول إلى أوساط الطبقة العليا، وعمل دون تردد على إغواء زوجة العُمْدة حتى صارا عشيقين. وبعد انتشار الأقاويل عن علاقتهما تمَّ إبعاد سوريل. ثم عَرَّفته أحداثٌ بالماركيز دومول الذي عمل عنده سكرتيرًا خاصًا، ولم يتردد في اغتنام الفرصة الجديدة حين أظهرت ماتيلدا ابنة الماركيز إعجابَها به. وما إن شعر سوريل بأن حلمه بدأ يتحقق حتى وصلت رسالةٌ من عشيقته الأولى مدام دي رينال تُخْبِرُ الماركيزَ بأن سوريل ما هو إلا دون جوان وضيع وانتهازي يسعى إلى الترقِّي والثروة، الأمر الذي أثار غضب سوريل ودفعه إلى إطلاق الرصاص على مدام دي رينال في مكان عام، ورغم نجاة السيدة حُكِمَ عليه بالإعدام - المترجم.

[←703]

.Stendhal, *The Red and the Black*, KL 4034, 7742–3, 8343–5

[←704]

نابليون الثالث: (1808 - 1873)، هو شارل لويس نابليون بونابرت. بعد صدور قانون فرنسي يقضي بنفي أسرة بونابرت من فرنسا عام 1816، قضى شارل لويس نابليون شبابَه في إيطاليا وألمانيا وسويسرا، وارتبط بمجموعات ثورية من أمثال الكوربوناري في إيطاليا. سُجِن إثر محاولته الإطاحة بحكومة لويس فيليب المَلَكيّة (من آل بوربون) في ستراسبورج (شرق فرنسا) عام 1836 ومحاولته في بولونيا (في إيطاليا) عام 1840. فرَّ من سجنه إلى إنجلترا عام 1846. وعندما أدَّت ثورة 1848 إلى ظهور الجمهورية الفرنسية الثانية عاد إلى فرنسا، وانتُخِبَ رئيسًا من عام 1848 حتى عام 1852، ثم إمبراطورًا تحت اسم نابليون الثالث من عام 1852 حتى عام 1870. بعد لجوء الخديوي إسماعيل إليه بسبب نزاعٍ مع شركة حفر قناة السويس، أصدر نابليون الثالث حُكْمًا جائرًا على مصر يقضي بدفع 3,5 مليون جنيه مصري لشركة حفر قناة السويس. عمل في بداية حُكْمه الإمبراطوري على تحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في فرنسا ونجح في عملية التحديث.

ساورته الرغبة في القيام بمغامرات عسكرية خارج حدود فرنسا في إيطاليا والمكسيك، ولكنه اصطدم بدهاء بيسمارك السياسي والعسكري والمتفوق في تكنولوجيا الأسلحة. أُسِرَ نابليون بعد هزيمته في معركة سيدان وسُجِنَ في ألمانيا. ثم بعد فترة أُفْرِجَ عنه، وعاد إلى إنجلترا حيث مات - المترجم.

[←705]

شيللر: (1759 - 1805)، شاعر ومسرحي كلاسيكي وفيلسوف ومؤرِّخ ألماني. يُعَدُّ مع جوته من مؤسِّسي الحركة الكلاسيكية في الأدب الألماني، التقى به شيللر في فايمار بعد دعوة الدوق له بالمجيء إليها - المترجم.

[←706]

مؤتمر فيينا: انعقد بحضور سفراء الدول الأوربية في فيينا في الفترة من سبتمبر عام 1814 حتى يونيو عام 1815، بهدف تسوية العديد من القضايا الناشئة عن حروب الثورة الفرنسية والحروب النابليونية وتَفكُّك الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وهو ما أسفر عن إعادة رَسْم الخريطة السياسية للقارة. وُقِّعَتْ وثيقةُ المؤتمر الختامية قبل تسعة أيام من هزيمة نابليون النهائية في «معركة واترلو» يوم 18 يونيو عام 1815. يُعَدُّ هذا المؤتمرُ المحاولةَ الأولى في التاريخ الأوربي لاجتماع القوى من أجل التوصُّل إلى معاهدة بدلاً من الاعتماد على تبادل الرسائل بين العواصم المختلفة. أدَّت التسوية في مؤتمر فيينا إلى تشكيل إطار للسياسة الدولية الأوربية استمر حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914 - المترجم.

[←707]

عهد الإرهاب: فترة امتدت من يوم 5 سبتمبر عام 1793 حتى يوم 28 يوليو 1794 في فرنسا أثناء الثورة، بسبب الصراع بين الفصائل السياسية المتناحرة من الجيرونديين واليعقوبيين. اتسمَّ عهدُ الإرهاب بأحكام الإعدام الجماعية لمَن وُصِفوا بأنهم «أعداء الثورة»، وراح ضحيتها الآلاف - المترجم.

[←708]

لويس السادس عشر: (1754 - 1793)، آخر ملوك فرنسا ونافارا، قدَّمَ معونةً للثورة الأمريكية عام 1776، فأرسل فرقةً فرنسية بقيادة لافاييت لمساعدة الثوار الفرنسيين. في عام 1793، حاول الفرار مع زوجته إلى خارج فرنسا، ولكن أُلْقي القبض عليهما وتمَّ إعدامهما بالمقصلة في باريس تنفيذًا لاقتراح روبسبيير - المترجم.

[←709]

يوم مذبحة بارثولوميو، أو مذبحة سان بارتيليمي: حدثت في فرنسا عام 1572، ذُبِحَ فيها البروتستانتيون الفرنسيون على يد السلطات الكاثوليكية بأوامر من الملك تشارلز التاسع ووالدته كاترين دي ميديتشي، خوفًا من سطوة البروتستانتية وانتشارها - المترجم.

[←710]

الباستيل: أُنْشِئ في فرنسا بين عاميْ 1370 و1383 بوصفه حصنًا للدفاع عن باريس وسجنًا للمعارضين السياسيين والدينيين والمحرّضين ضد الدولة. وبمرور السنين أصبح رمزًا للطغيان والظلم وانطلقت منه شرارة الثورة الفرنسية الأولى يوم 14 يوليو عام 1789 - المترجم.

[←711]

.’Tackett, ‘La grande peur .

[←712]

.Lefebvre, *Great Fear*, 207ff

[←713]

شامب دو مارس أو ساحة دو مارس: ساحةٌ عامّة خضراء تقع في الحي السابع بباريس بين بُرْج إيفل والمدرسة العسكرية. صُمِّمَتْ في عام 1751 بغرض التدريبات العسكرية. في يوم 17 يوليو عام 1791، كانت السَّاحةُ مسرحًا لأحداث راح ضحيتها 50 شخصًا في مظاهرة ضد الملك لويس السادس عشر، عندما أمر الماركيز لافاييت جنودَه بفتح النار على المتظاهرين - المترجم.

[←714]

اللامُتَسَرْوِلون أو سان كيلوت: تعبيرٌ يشير إلى زيٍّ يُمَيِّزُ الفئات الدنيا الفقيرة في فرنسا أواخر القرن الثامن عشر، وهم الذين صار الكثيرُ منهم مشاركين شديدي التطرف في الثورة الفرنسية، ولاحقًا شَكَّلوا الجزءَ الأكبر من الجيش الفرنسي أثناء الحروب الثورية الفرنسية بقيادة نابليون - المترجم.

[←715]

فونديه: إقليم فرنسي، حدثت فيه حربٌ أهلية بين الجيش المَلَكي الإقليمي والجيش الثوري الوطني، واستمر الوضع هكذا بشكل متقطع حتى ظهور نابليون بونابرت على مسرح الأحداث - المترجم.

[←716]

سان دومانج: مستعمرة فرنسية في جزيرة هيسبانيولا في الكاريبي منذ عام 1659 حتى عام 1804. انسحبت القوات الفرنسية منها أواخر عام 1803، وأعلنت المستعمرةُ استقلالَها تحت اسم هاييتي - المترجم.

[←717]

لجنة السلامة العامة: أُنْشِئتْ في مارس عام 1793 وسيطر عليها اليعاقبةُ، ثم أُعِيدَتْ هيكلتُها في يوليو عام 1793. اعْتُبِرت اللجنةُ حكومةَ الأمر الواقع التنفيذية في فرنسا خلال عهد الإرهاب الذي مَثّلَ إحدى مراحل الثورة الفرنسية - المترجم.

[←718]

.See in general Andress (ed.), *Oxford Handbook of the French Revolution*

[←719]

Directory:
مجلس خُماسي لحُكْم فرنسا حلّ محلّ لجنة السلامة العامة بدءًا من عام 1795. ثم أطاح به نابليون بونابرت في انقلاب 18 برومبير، وأنشأ بدلاً منه القنصليةَ الفرنسية - المترجم.

[←720]

بمعنى الجهالة وانعدام الذِّكْر - المترجم.

[←721]

كورسيكا: جزيرة فرنسية في البحر الأبيض المتوسط، تقع غرب إيطاليا وجنوب شرق فرنسا - المترجم.

[←722]

.Roberts, *Napoleon*, KL 1586–91, 2060–65

[←723]

.Ibid., KL 9658–84

[←724]

.Ibid., KL 9645–8

[←725]

.Ibid., KL 9651–7

[←726]

.Ibid., KL 9505–10

[←727]

.Ibid., KL 10215–19

[←728]

.Ibid., KL 9658–84

[←729]

.Ibid., KL 6981–7, 7015–21, 9239–48

[←730]

وذلك عندما رأى كارل فون كلاوزِفيتز Carl von Clausewitz لأول مرةٍ سلوكَ حامل الراية في معركة فالمي Battle of Valmy عام 1792، ووجد أن 64 ألف رجل في جانبٍ يقاتلون 30 ألفًا على الجانب الآخر، في معركة استمرت يومًا واحدًا. وبحلول عام 1813، عندما شارك كلاوزِفيتر بوصفه قائدًا عامًا في معركة لايبزيج Battle of Leipzig، كان 365 ألف رجل يقاتلون 195 ألفًا في معركة استمرت ثلاثة أيام - المؤلف.

[←731]

.'Shy, 'Jomini

[←732]

.Clausewitz, *On War*, Book 8, ch. 6B

[←733]

ليوبولد فون رانكه: (1795 - 1886)، مؤرِّخ ألماني ينتهج الفلسفةَ الوضعية الحديثة. وَضَعَ العديدَ من المعايير للكتابات التاريخية اللاحقة - المترجم.

[←734]

.’Ranke, ‘Great Powers

[←735]

.Kissinger, *World Restored*, KL 102–19

[←736]

Ibid., KL 702–8. For a thorough discussion of Castlereagh's suicide, see Bew, *Castlereagh*, ch. 21

[←737]

.Kissinger, *World Restored*, KL 1606–8

[←738]

ألكسندر الأول: (1777 - 1825)، قيصر روسيا الذي سمح باستيراد الكتب من أوربا وإنشاء المطابع الخاصة في إطار عملية تحديث شاملة لجهازه الإداري.

[←739]

.Ibid., KL 5377–8, 5389

[←740]

.Ibid., KL 5396–9

[←741]

.Ibid., KL 6398–6400

[←742]

أوتو فون بيسمارك: (1815 - 1898)، رجل دولة وسياسي بروسِّي ألماني، شغل منصب رئيس وزراء مملكة بروسيا بين عاميْ 1862 و1890، وأشرف على توحيد الولايات الألمانية وتأسيس الإمبراطورية الألمانية أو ما يُسمَّى «الرايخ الألماني الثاني»، وأصبح أولَ مستشار في عام 1871. عُرِفَ بلقب «المستشار الحديدي»، إذ استعمل بكل مهارة إستراتيجية توازن القوى للحفاظ على ما حققته القيصرية الألمانية من مكاسب في أوربا. عمل على إحلال السلام للحيلولة دون إثارة حرب تتمكَّنُ فيها فرنسا، بعد إيجاد حلفاء لها، من استعادة مقاطعتي الألزاس واللورين، فسعى إلى عزل فرنسا عن بقية الدول الأوربية، وبخاصة عن النمسا وروسيا حتى لا يضطر لاحقًا إلى خوض حرب على جبهتين مع روسيا ومع فرنسا. قام فيلهلم الثاني قيصر الإمبراطورية الألمانية، أو غليوم الثاني وفق المصادر العربية، بعزله عام 1890 - المترجم.

[←743]

معاهدة إعادة التأمين السري: اتفاقية سِرّية بين ألمانيا وروسيا، كانت جزءًا من شبكة تحالفات بيسمارك المعقدة والمبتكرة لحفظ السلام في أوربا والحفاظ على هيمنة ألمانيا الاقتصادية والديبلوماسية والسياسية. نَصَّتْ على أن يظل كل طرف منهما على الحياد إذا انخرط الطرف الآخر في حرب مع قوة عظمى ثالثة – المترجم.

[←744]

Ibid., 179

[←745]

Ibid., 80, 82

[←746]

Schroeder, *Transformation*, vii .

[←747]

.’Slantchev, ‘Territory and Commitment .

[←748]

.Clark, *Hegemony in International Society*

[←749]

التحالف الرُّباعي: معاهدة وَقَّعتها في باريس يوم 20 نوفمبر عام 1818 القوى العظمى، وهي: بريطانيا العظمى، والنمسا، وبروسيا، وروسيا. جدَّدوا فيها استعمالَ الأساليب التفاوضية في العلاقات الدولية الأوربية. تَشكَّلَ هذا التحالفُ لأول مرة في عام 1813 لمواجهة فرنسا أثناء حُكْم نابليون بونابرت - المترجم.

[←750]

.Holsti, ‘Governance Without Government’, 156

[←751]

جون رَسِل: (1792 - 1878)، سياسي بريطاني، تولَّى رئاسة الوزارة مرتين. يُعَدُّ من كبار الأحرار وأول المدافعين عن الإصلاح البرلماني في بريطانيا. ساعد على إبقاء بريطانيا على الحياد في الحرب الأهلية الأمريكية - المترجم.

[←752]

.Clark, *Hegemony in International Society*, 94–6

[←753]

.Holsti, ‘Governance Without Government’, 152ff

[←754]

.Ibid., 155f

[←755]

.Ibid., 157

[←756]

.Ibid., 164. See also Levy, *War in the Modern Great Power System*, table 4.1

[←757]

حرب السنوات السبع: جرت معاركها بين عاميْ 1756 و1763، شاركت فيها بريطانيا وبروسيا ودولة هانوفر ضد فرنسا والنمسا وروسيا والسويد وسكسونيا.

ثم دخلت إسبانيا والبرتغال في الحرب عندما هوجم أحدُ جيوش المقاطعات الهولندية المتحدة في الهند. امتد نطاق المعارك من أوربا حتى أمريكا والهند. وهناك سببان رئيسيان للحرب هما: المنافسة الاستعمارية بين بريطانيا وفرنسا في أمريكا؛ النضال في سبيل السيطرة والنفوذ في ألمانيا التي لم تكن دولة موحَّدة آنذاك.

انتهت الحرب بعقد معاهدة باريس عام 1763 التي ثبَّتتْ مركزَ بروسيا الجديد بوصفها دولة عظمى، وجعلت بريطانيا الدولةَ الاستعمارية الكبرى في العالم على حساب فرنسا - المترجم.

[←758]

واترلو: معركة فاصلة يوم 18 يونيو عام 1815 في قرية واترلو قرب بروكسل عاصمة بلجيكا، وهي آخر معارك الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت الذي هُزِمَ فيها هزيمةً غير متوقعة، الأمر الذي جعل الإنجليز يصفونه فيما بعد بالإمبراطور سيِّئ الحظ - المترجم.

[←759]

المارن: معركة المارن الأولى بين القوات الألمانية من ناحية، والقوات الفرنسية والبريطانية من ناحية أخرى، على نهر المارن بين يوميْ 6 و12 سبتمبر عام 1914، في الحرب العالمية الأولى، انتهت بانتصار القوات الفرنسية والبريطانية - المترجم.

[←760]

حرب القرم: تُسَمَّى أيضًا «الحرب الشرقية»، اندلعت بين الإمبراطورية الروسية والدولة العثمانية بسبب أطماع روسيا الإقليمية في شِبْه جزيرة القرم التي كانت مسرح المعارك والمواجهات. وفي عام 1854، انضمت مصر وتونس وبريطانيا وفرنسا إلى جانب الدولة العثمانية، انتهت الحرب يوم 30 مارس 1856 بهزيمة الروس وتوقيع اتفاقية باريس - المترجم.

[←761]

.Hinsley, *Power and the Pursuit of Peace*, 214n

[←762]

كونفدرالية الراين أو اتحاد دول الراين: تأسَّسَ الاتحادُ عام 1806 بعد انتصار نابليون بونابرت في معركة أوسترليتز على النمسا وروسيا، بهدف تأمين الجبهة الشرقية الفرنسية، تكوَّن الاتحادُ في البداية من 16 ولاية ألمانية، ثم انضمَّ إليه أخريات - المترجم.

[←763]

ليوبولد: (1790 - 1865)، أول ملوك بلجيكا، حَكَمَ بين عاميْ 1831 و1865. أسَّس لمملكته الحديثة نظامًا برلمانيًا جديدًا، وكان شخصية رئيسية في الدبلوماسية الأوربية. تصدَّى لهجمات ملك هولندا الذي رفض استقلال بلجيكا، بمساعدة من إنجلترا وفرنسا - المترجم.

[←764]

Leopold to Victoria, 15 December 1843, in Benson and Esher (eds.), *Letters of Queen Victoria*, .vol. I, 511

[←765]

الملكة فيكتوريا: (1819 - 1901)، ملكة بريطانيا العظمى منذ يوم 20 يونيو عام 1837 حتى وفاتها. تنتمي فيكتوريا إلى الأسرة الهانوفرية ذات الأصول الجرمانية. سُمِّيت الملكة فيكتوريا بـ«أم أوربا» لأن ذريتها تنتسب إلى معظم الأسر المَلَكيّة والأميرية في أوربا. ويشترك معها في هذا كريستيان التاسع ملك الدنمارك الذي نال لقب «صِهْر أوربا» بعد أن تزوجت ابنته الكبرى من إدوارد ابن الملكة فيكتوريا - المترجم.

[←766]

.*The Times*, 16 March 1863

[←767]

تزوَّجَ ليوبولد الأول إحدى بنات لويس فيليب Louis Philippe، وتزوَّج ليوبولد الثاني ماري هينريت Marie Henriette أرشيدوقة النمسا، وتزوَّجت أخته شارلوت Charlotte الأرشيدوق سيِّئ الحظ ماكسميليان Maximilian إمبراطور المكسيك لفترة وجيزة - المؤلف.

[←768]

.Nicholas, diary, 18 June 1893, in Maylunas and Mironenko, *Lifelong Passion* .

[←769]

.See Corti, *Alexander of Battenberg*

[←770]

Herbert von Bismarck, memorandum, 25 July 1888, in Dugdale (ed.) *German Diplomatic Documents*, vol. I, 365.

[←771]

.Nicholas, diary, 12 April 1894, in Maylunas and Mironenko, *Lifelong Passion*

[←772]

.See Bernstein (ed.), *Willy–Nicky Correspondence*

[←773]

بلانتاجِنِت: أسرة مَلَكيّة نشأت في إنجو في فرنسا، ويَستعمل المؤرِّخون الحديثون هذا الاسم للإشارة إلى أربع أسر مَلَكيّة هي: الأسرة الأنجوية التي حملت لقب كونت أنجو؛ الأسرة بعد خسارة أنجو؛ فرع الأسرة المُسمَّى أسرة لانكستر؛ فرع الأسرة المُسمَّى أسرة يورك. ارتقت عائلة البلانتاجِنِت عرشَ إنجلترا، منذ عام 1154 بصعود هنري الثاني إلى العرش، حتى عام 1485 عندما تُوفي ريتشارد الثالث. شهدت إنجلترا عدة تحولات في ظل حُكْم البلانتاجِنِت، انتهت إلى تحديد سلطة الملك بالاستناد إلى نظام عدالة متطوِّر. في أثناء ذلك، تشكلت لإنجلترا هُويَّة وطنية متميزة خلال صراعها مع الفرنسيين والإسكتلنديين والويلزيين والأيرلنديين، وأصبحت اللغة الإنجليزية هي اللغة الأساسية. ثم في القرن الخامس عشر تحدَّى النُّبلاء الإنجليز الملك هنري السادس علنًا. وتنافس فرعان من عائلة بلانتاجِنِت هما أسرة لانكستر ويورك - فيما يُعْرَفُ باسم «حرب الوردتين» - على خلافة العرش الإنجليزي، وبلغت المعاركُ ذروتَها في عام 1485. أصبح هنري السابع - من أسرة لانكستر - ملكَ إنجلترا الذي تزوج من إليزابيث يورك مُنْهيًا بذلك حرب الوردتين، ومُفْتتحًا حُكْم أسرة تيودر. عمل آلُ تيودر على تركيز السلطة الملكية متجنِّبين بذلك أخطاء ملوك أسرة بلانتاجِنِت السابقين. سمح الاستقرار الذي حققوه بقيام عصر النهضة الإنجليزية وظهور بريطانيا الحديثة - المترجم.

[←774]

أوين تيودر: (1400 - 1461)، أحد أفراد الحاشية الويلزية، تزوَّج كاترين أرملة هنري الخامس، وهو جدّ هنري السابع مؤسِّس سلالة تيودر. شارك والد أوين وأعمامه في تمرُّد ضد الحكم الإنجليزي ممهدًا الطريق أمام أسرة لانكستر التي خرج منها هنري السابع مؤسِّس أسرة تيودر - المترجم.

[←775]

جورج الأول: (1666 هانوفر ألمانيا - 1727 أوسنابروك ألمانيا)، وَسَّعَ نطاقَ مُلْكِه في ألمانيا عبر سلسلة من الحروب الأوربية، وحصل على لقب ناخب هانوفر عام 1707. ثم اعتلى العرشَ البريطاني ليُعَدَّ أولَ ملك من عائلة هانوفر الألمانية. تقلَّصت السلطاتُ المَلَكيّة في عهده، وانتقلت بريطانيا إلى نظام وزاري حديث يقوده رئيسُ وزراء - المترجم.

[←776]

Royal Archives, Windsor, Geo. V., AA. 11, 2, Victoria to George [future George V], 26 June .
.1894

[←777]

.Dairnvaell, *Histoire édifiante et curieuse*,8

[←778]

.For details see Ferguson, *World's Banker*,166f., 207, 294, 404, 409, 411, 530

[←779]

ماير أمشيل روتشفيلد: (1744 - 1812)، الأب المؤسّس لعائلة روتشيلد، مَصْرفي ألماني يهودي. تُوفِّي والدُه وهو في سن الحادية عشر بعد أن دَرَّبَه على كل ما يتعلق بالصِّرافة. بدأ حياته كاتبًا في مَصْرف أوبنهايمر، ثم ترقّى حتى أصبح شريكًا جزئيًا في المَصْرف، ولكنه اهتم بإحياء المؤسَّسة الصغيرة التي تركها أبوه، متخذًا من الدِّرْع الأحمر الذي كان يعلقه أبوه على الباب لقبًا للعائلة هو «روتشيلد» التي تعني بالألمانية «الدِّرْع الأحمر». ترك وراءه خمسةً من الأبناء دَرَّبَهم بنفسه تدريبًا جيدًا كي يكونوا من جهابذة المال والذهب - المترجم.

[←780]

ناثان روتشيلد: (1777 - 1836)، رابع أبناء ماير روتشيلد. قيل إنه علم بهزيمة نابليون في معركة واترلو قبل الحكومة الإنجليزية، فاستغل المعلومةَ في تحقيق احتكار سوق البورصة - المترجم.

[←781]

.Anon., *Hebrew Talisman*, 28ff

[←782]

مستوطنة اليهود في بالي الروسية: منطقة في بالي بالإقليم الغربي للإمبراطورية الروسية، سُمِحَ لليهود بأن يقيموا فيها، وحُظِرَ عليهم أيةُ إقامة دائمة أو مؤقتة في أيٍّ من مدن بالي الأخرى. ظل الوضع هكذا منذ عام 1791 حتى عام 1917 - المترجم.

[←783]

.'Iliowzi, *'In the Pale* .

[←784]

هاينريك هاينه: (1797 - 1856)، شاعر ألماني ينتمي إلى الرومانسية - المترجم.

[←785]

.Prawer, *Heine’s Jewish Comedy*, 331–5 .

[←786]

Rothschild Archive London (henceforth RAL), T20/34, XI/109/48/2/ 42, Nathan, Paris, to his brothers, 4 September, probably 1844.

[←787]

.RAL, XI/109/2/2/149, Salomon, Paris, to Nathan, London, 21 October 1815

[←788]

.RAL, XI/109/2/2/153, Salomon and James, Paris, to Nathan, London, 25 October 1815 .

[←789]

.RAL, T63 138/2, Salomon and James, Paris, to Nathan, London, 22 October 1817

[←790]

RAL, T29/181; XI/109/0/7/21, Carl, Frankfurt, to Salomon, 23 August 1814; RAL, T63/28/1, .XI/109/8, Carl, Berlin, to his brothers, 4 November 1817

[←791]

.RAL, T5/29, Braun, (James's clerk in) Paris, to James, London, 13 September 1813

[←792]

.Rothschild, *Shadow of a Great Man*, 135–7

[←793]

.Cathcart, *News from Waterloo*

[←794]

.Gille, *Maison Rothschild*, vol. I, 187f

[←795]

.Chateaubriand, *Correspondance générale*, vol. III, 663f

[←796]

.Quennell (ed.), *Private Letters of Princess Lieven*,237

[←797]

.Davis, *English Rothschilds*, 132f

[←798]

.RAL, T27/280, XI/109/7, James, Paris, to Salomon and Nathan, 18 June 1817

[←799]

مؤتمر إيكس: عُقِدَ عام 1818 بشأن سحب القوات من فرنسا بعد هزيمة نابليون. وفيه طلب الممثل الفرنسي انضمام فرنسا إلى القوى الأربع الكبار في ذلك الوقت، فوافقوا مُشكِّلين بذلك اتحادًا خماسيًا من القوى العظمى الخَمْس - المترجم.

[←800]

.Kynaston, *City*, vol. I, 54f

[←801]

.Corti, *Rise*, 242

[←802]

.Serre, *Correspondance du comte de Serre*, vol. IV, 249

[←803]

.Aspinall (ed.), *Letters of King George IV*, vol. III, 175

[←804]

.Corti, *Rise*, 424f., 427f

[←805]

.Liedtke, *N. M. Rothschild & Sons* .

[←806]

.Fournier-Verneuil, *Paris: Tableau moral et philosophique*, 51–2, 64f

[←807]

.Anon., *Annual Register*, *1828*, 52

[←808]

.Quoted in Glanz, ‘Rothschild Legend in America’, 20

[←809]

.Kynaston, *City*, vol. I, p. 90f

[←810]

.Cowles, *The Rothschilds,* 71

[←811]

التحالف المقدس: عقب مؤتمر فيينا (سبتمبر 1814 - يونيو 1815)، قَدَّمَ قيصر روسيا فكرةَ إنشاء تحالف مقدس بين الدول الكبرى يقوم على العدل والمحبة اللذين نادى بهما المسيح، بحيث تكون المسيحية هي القاعدة الأساسية في حل المشكلات والصراعات الدولية، وكأن الملوكَ الموقِّعين على التحالف مكلَّفون من الله بالدفاع عن السلام والنظام. كانت هذه، في الحقيقة، فكرة كاسِلْريه الخاصة بالاتحاد الخماسي المكوّن من القوى العظمى الخَمْس، بعد هزيمة نابليون النهائية في معركة واترلو - المترجم.

[←812]

.Capefigue, *Grandes opérations*, vol. III, 103

[←813]

.Pückler-Muskau, *Briefe*, 441

[←814]

.Rubens, *Anglo-Jewish Portraits*, p. 299

[←815]

.*The Times*, 15 January 1821

[←816]

الكونفدرالية الألمانية: اتحاد من 39 ولاية ناطقة بالألمانية في وسط أوربا تَشَكَّلَ عقب مؤتمر فيينا عام 1815، لملء الفراغ الذي تركته الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ولكنه بلا سلطة تنفيذية أو مركزية - المترجم.

[←817]

.Schwemer, *Geschichte*, vol. II, 149ff

[←818]

.Balla, *Romance*, pp. 191ff

[←819]

.Schwemer, *Geschichte*, vol. II, pp. 149ff

[←820]

.RAL, XI/82/9/1/100, Amschel, Frankfurt, to James, Paris, 30 April 1817

[←821]

لورد بايرون: (1788 - 1824)، شاعر بريطاني من رواد الشعر الرومانسي - المترجم.

[←822]

.Byron, *Don Juan*, Canto XII, verses 4–10

[←823]

.Reeves, *Rothschilds*, 101

[←824]

.Gille, *Maison Rothschild*, vol. I, 487

[←825]

.Buxton (ed.), *Memoirs*, 354

[←826]

.RAL, I/218/I, Nathan to J. A. Matti, Frankfurt, 29 December 1802 .

[←827]

.RAL, I/218/36, Nathan to Sichel & Hildesheimer, Frankfurt, 17 October 1802

[←828]

جيمس وات: (1736 - 1819)، مهندس إسكتلندي، أدخل تعديلات على المحرِّك البخاري، وصاحب العديد من براءات الاختراع - المترجم.

[←829]

جمعية لونار: ضَمَّتْ رجالَ صناعة وفلاسفة طبيعة ومفكرين، كانوا يجتمعون بانتظام بين عامي 1765 و1813 - المترجم.

[←830]

.Moon, *Social Networks in the History of Innovation and Invention*, KL 492–4

[←831]

.Pearson and Richardson, 'Business Networking in the Industrial Revolution', 659f

[←832]

.Lamoreaux et al., ‘Beyond Markets and Hierarchies’, 16

[←833]

أوليفر إيفانس: (1755 - 1819)، مخترع أمريكي وصانع طواحين ومُصَمِّم آلات بخارية - المترجم.

[←834]

.Moon, *Social Networks in the History of Innovation*, KL 498–504

[←835]

The idea comes from the economic historian Anton Howes: http://antonhowes.tumblr.com/post/143173119024/how-innovation-accelerated-in-britain-1651–1851.

[←836]

.Moon, *Social Networks in the History of Innovation*, KL 2128–37

[←837]

For a network study of 1848 that focuses on petition-signers in the city of Esslingen in Württemberg, see Lipp and Krempel, 'Petitions and the Social Context of Political Mobilization', .169

[←838]

الميثاقيون أو الميثاقية Chartism: حركة عمالية إنجليزية نشطت في القرن التاسع عشر على أساس المبادئ التي اشتمل عليها «ميثاق الشعب» People’s Charter الذي وضعه الزعيم الراديكالي اللُّندني وليم لوفيت Lovett عام 1838. من أبرز هذه المبادئ الاقتراع السرّي وإلغاء شروط المِلْكية المفروضة على المُرشَّحين لعضوية البرلمان، وجَعْل ولاية البرلمان عامًا واحدًا - المترجم.

[←839]

البريطونيون: عِرْقية قديمة تواجَدَتْ في جزيرة بريطانيا، فكانوا أولَ مَن سكنها. يعود تواجدهم إلى العصر الحديدي البريطاني ما بين عاميْ 1200 و500 ق م، قبل الاحتلال الروماني لبريطانيا، وقبل وصول القبائل الأنجلوسكسونية. يرى باحثون أن أصولهم تعود إلى بريتاني وأن لهم علاقة ب«البكتيين» في شرق إسكتلندا وشمالها، وكانوا يتكلمون اللغات السِّلْتية الداخلية، أما بقية العِرْقيات فيُسمّون «ويلزيون» - المترجم.

[←840]

.Colley, *Britons*

[←841]

بارنابي رودج: رواية تاريخية كتبها الروائي البريطاني تشارلز ديكنز، ونشرها عام 1841، تدور أغلب أحداثها أثناء أعمال شغب جوردون عام 1780 - المترجم.

[←842]

.Davis, *Inhuman Bondage*, 235

[←843]

.Drescher, ‘Public Opinion and Parliament’, 64 .

[←844]

.Davis, *Inhuman Bondage*, 245

[←845]

See the seminal work of Williams, *Capitalism and Slavery*, which is now outdated. A more compelling recent account is Ryden, ‘Does Decline Make Sense?’

[←846]

.Williams, *Capitalism and Slavery*, 150

[←847]

.Loewe (ed.), *Montefiore Diaries*, vol. I, 97ff

[←848]

.Buxton (ed.), *Memoirs*, 353ff

[←849]

.'Dimock, 'Queen Victoria, Africa and Slavery

[←850]

البلوتوقراطية: تعني في الأصل حُكْمَ الأثرياء أو أن تكون الطبقةُ الحاكمة مميزةً بالثراء. ويُستعمَل المصطلحُ بوجه عام للإشارة إلى دلالتين: دلالة تاريخية تتعلق بالدول التي كانت خاضعة لسيطرة سياسية من قِبل أوليجاركية ثرية؛ وأما الدلالة الثانية فمعاصرة تتعلق بالعملية السياسية الخاضعة لتأثير المال بشكل كبير - المترجم.

[←851]

The eleven were: Austria–Hungary, Belgium, France, Germany, Italy, Netherlands, Portugal, Spain, Russia, the United Kingdom and the United States. Author's calculations, based on data .in the *Statesman's Yearbook*

[←852]

ذوو السُّتْرات الحمراء: منذ منتصف القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر، كان زيُّ الجنود البريطانيين يشتمل على معطف أحمر - المترجم.

[←853]

الخدمة المدنية الهندية: عُرِفَتْ أيضًا باسم «الخدمة المدنية الإمبراطورية»، وهي الخدمة المدنية العليا للإمبراطورية البريطانية في الهند البريطانية من عام 1858 حتى عام 1947 - المترجم.

[←854]

.See in general Ferguson, *Empire* .

[←855]

فرديناند لاسال: (1825 - 1864)، أحد مؤسِّسي مذهب الاشتراكية الألمانية. نادت حركته بالتضامن مع النظام الإقطاعي الحاكم، وفي الوقت نفسه تحرير العمّال - المترجم.

[←856]

جون بوشان: (1875 - 1940)، روائي ومؤرِّخ إسكتلندي، حاكم كندا العام الخامس عشر. نُشِرَتْ روايته «تسع وثلاثون خطوة» مسلسلةً لأول مرة في مجلة بلاكوود في أغسطس وسبتمبر عام 1915 قبل نشرها في كتاب في أكتوبر من العام نفسه، وهي أولى خمس روايات تضم شخصية ريتشارد هاناي. اقتُبِسَت الروايةُ في عدد من الأفلام السينمائية - المترجم.

[←857]

روديارد كبلينج: (1865 - 1936)، كاتب وشاعر وقاص بريطاني، من أهم أعماله «كتاب الأدغال» عام 1894، و«كيم» عام 1901 - المترجم.

[←858]

.See in general Lownie, *John Buchan*

[←859]

إدموند إيرونسايد Edmund Ironside، الجندي الذي قيل إنه الأساس الحقيقي الذي قامت عليه شخصية ريتشارد هاناي الروائية، «أعرب عن مشاعر كراهية خاصة نحو الأيرلنديين واليهود واللاتين و«الأعراق الأدنى»، أيْ معظم الجنس البشري» - المؤلف.

[←860]

جيمس بوزويل: (1740 - 1795)، كاتب سيرة ومهندس إسكتلندي، اشتهر بسيرة الحياة التي كتبها عن صديقه الإنجليزي صمويل جونسون - المترجم.

[←861]

اتحاد أكسفورد: جمعية نِقاش في مدينة أكسفورد، يُخْتَارُ أعضاؤها من جامعة أكسفورد بشكل أساسي. تأسَّست الجمعيّة عام 1823، وأتاحت فرصةً للعديد من السياسيين الناشئين لتطوير مهاراتهم في المناقشة والحصول على السمعة والاتصالات - المترجم.

[←862]

حرب البوير: تشير لفظة «البوير» إلى مستوطني جنوب أفريقيا البِيض ممن يتحدثون اللغة الأفريكانية، ومعظمهم من أصول هولندية، بالإضافة إلى أقليات أوربية فرنسية وألمانية وغيرها. وما يقصده المؤلف يُعْرَفُ باسم «حرب البوير الثانية» التي اندلعت يوم 11 أكتوبر عام 1899 حتى 31 مايو عام 1902، بين الإمبراطورية البريطانية وجمهوريتيْ البوير (الترانسفال والأورانج)، وانتهت بانتصار الإنجليز. وهي أكبر الحروب التي خاضتها بريطانيا نفقةً في الفترة بين الحروب النابليونية والحرب العالمية الأولى. يُطْلِقُ عليها «الأفريكان» حرب الاستقلال الثانية. أما حرب البوير الأولى فاندلعت عام 1880 وانتهت عام 1881 بهزيمة الإنجليز - المترجم.

[←863]

.’Cannadine, ‘John Buchan

[←864]

المائدة المستديرة: تأسَّست منظمة «المائدة المستديرة عام 1909، بوصفها رابطة تُرَوِّج لاتحاد أوثق بين بريطانيا ومستعمراتها المتمتعة بالحُكْم الذاتي. تطورت من «روضة» اللورد ميلنر بإلهام منه، وأما الذي أعطاها الإطارَ التنظيمي فهو ليونيل كورتيس Lionel Curtis، وصار فيليب كير Philip Kerr، المدير السابق لجنوب أفريقيا، سكرتيرَها. في العام التالي، أصدرت مجلةً رُبْع سنوية تحمل اسمَها، وتتمحور موضوعاتها حول سياسة الإمبراطورية البريطانية والاتحاد الإمبراطوري البريطاني. ثم في عاميْ 1910 و1911، قام ليونيل كورتيس بجولة واسعة لضمِّ عناصر محلية إلى المنظمة، الأمر الذي أسفر عن تشكيل مجموعات في كندا وجنوب أفريقيا وأستراليا ونيوزيلندا، أما مجموعة نيوفندلاند فأُنْشِئت عام 19. ثم مع دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى وبداية الترويج لـ«عُصْبة الأمم» عدَّلت منظمةُ «المائدة المستديرة» مفهومَها عن الإمبراطورية إلى «كومنولث الأمم». وخلال فترة ما بين الحربين العالميتين، استمرت مجموعاتُ المائدة المستديرة في الدعوة إلى سياسة تعاون بين دويلات الإمبراطورية البريطانية والولايات المتحدة - المترجم.

[←865]

حلقة كويجلي الدراسية عن تطور الحضارات كانت جِدَّ رائجة في كلية الخدمة الخارجية School of Foreign Service في جامعة جورجتاون Georgetown، حيث كان يُدرِّس من عام 1941 حتى عام 1972. (كان من بين طلابه الشابُّ بِلْ كلينتن Bill Clinton). وليس من الواضح تمامًا السبب في أن كويجلي صار مهووسًا بشبكة ميلنر. ومع ذلك، خَلْفيَّتُه البوسطن أيرلندية Boston - Irish غَرَسَتْ فيه دون شك كراهيةً داخليةً للإمبريالية البريطانية - المؤلف.

[←866]

.Quigley, *Anglo-American Establishment*,3

[←867]

.Ibid.,49

[←868]

غارة جيمسون: في فترة ما بين حربيْ البوير الأولى والثانية، وعلى وجه التحديد في عام 1895 حاول المسؤولون الاستعماريون في مستوطنات جنوب أفريقيا إثارةَ القلاقل داخل جمهورية الترانسفال، مستغلِّين العمالةَ البريطانية في مناجم الذهب، فخططوا لانتفاضة واسعة النطاق بالتزامن مع إغارة عسكرية بقيادة ليندر ستار جيمسون. لم تتم الانتفاضة، وفشلت الغارة، وألقت سلطاتُ الترانسفال القبضَ على جيمسون - المترجم.

[←869]

لويد جورج: (1863 - 1945)، أحد زعماء حزب الأحرار البريطاني. تحوَّلَ مع اندلاع الحرب العالمية الأولى من رفضه للعنف إلى مؤيِّد قوي للحرب ضد ألمانيا. شغل منصبَ وزير العتاد الحربي منذ عام 1915. وتولّى وزارة الحربية عام 1916، ورئيس مجلس وزراء ائتلافي. نجح أثناء مؤتمر السلام بباريس عام 1919 في التوصل إلى حل وسط بين مثالية الرئيس الأمريكي ويلسون وشروط السلام المتعنِّتة لدى رئيس الوزراء الفرنسي. استقال من المناصب الرسمية عام 1922. زار هتلر عام 1936 وعاد مُثنيًا عليه، إلا أنه سرعان ما تحول إلى ناقد لاذع لمحاولات استرضاء هتلر - المترجم.

[←870]

المعهد المَلَكي للشؤون الدولية: تأسَّسَ عقب مؤتمر السلام بباريس عام 1919. منظمة غير حكومية، محايدة، تقوم بتحليل الأحداث الدولية الجارية ومراقبتها وتقديم حقائق عنها لكل المهتمين. من أهم أنشطته برنامج خاص بالشرق الأوسط. وبدأت تغلبُ عليه تسمية «شاثام هاوس» بعد حصوله على المبنى الشهير بهذا الاسم مقرًا له منذ عام 1923 - المترجم.

[←871]

.Ibid.,4f

[←872]

فريدريك لوجارد: (1858 - 1945)، ضابط بريطاني ومسؤول استعماري. شغل منصب حاكم هونج كونج في الفترة من عام 1907 حتى عام 1912، وآخر حاكم لمحمية جنوب نيجيريا (1912 - 1914)، وأول مندوب سامٍ (1900 - 1906) لمحمية شمال نيجيريا وآخر حاكم لها (1912 - 1914)، وأول حاكم عام لنيجيريا (1914 - 1919) - المترجم.

[←873]

.Cannadine, *Ornamentalism*, 124

[←874]

.Ferguson, *Empire*, 230

[←875]

وسام القديس مايكل والقديس جورج الأكثر تميزًا: وسام في منظومة الشرف البريطاني، أنشأه الملك جورج الرابع ملك بريطانيا عام 1818، يُمْنَحُ لمَن يؤدون خدمات جليلة غير عسكرية للإمبراطورية البريطانية خارج أراضي الوطن - المترجم.

[←876]

اللورد كورزون: (1859 - 1925)، سياسي بريطاني، شغل منصب الحاكم العام للهند البريطانية في الفترة من عام 1899 حتى عام 1905، ووزير خارجية بريطانيا من عام 1919 حتى عام 1924 - المترجم.

[←877]

.’Ansell, ‘Symbolic Networks

[←878]

مالايا البريطانية: يطلق هذا الاسم على مجموعة ولايات في شِبْه جزيرة المالايو وجزيرة سنغافورة خضعت للسيطرة البريطانية والحُكْم البريطاني غير المباشر بين القرنين الثامن عشر والعشرين - المترجم.

[←879]

كوتابيركا أو الطبرخي: مادة اللاتكس المتخثّرة في بعض الأشجار الاستوائية، وتُستخدَم في العَزْل الكهربائي، ولاحقًا في طب الأسنان - المترجم.

[←880]

نيوفندلاند: مقاطعة على الساحل الأطلنطي الكندي شمال شرق أمريكا الشمالية - المترجم.

[←881]

.Standage, *Victorian Internet*, 97

[←882]

.Gooch (ed.), *Diaries*, 26 July 1866, 143f

[←883]

.Ibid., 147

[←884]

.Spar, *Ruling the Waves*

[←885]

أنتوني ترولب: (1815 - 1882)، روائي بريطاني من العصر الفيكتوري - المترجم.

[←886]

.Jackson, *Thief at the End of the World*, 170. See also Dean, *Brazil and the Struggle for Rubber*

[←887]

.Klaus, *Forging Capitalism*

[←888]

.’Lester, ‘Imperial Circuits and Networks

[←889]

.’Vera and Schupp, ‘Bridges over the Atlantic

[←890]

الإنتاج واسع النطاق يعني انخفاض متوسط التكلفة الكلية على المدى الطويل - المترجم.

[←891]

شركات المساهمة: شركة يُقسَّمُ فيها رأسُ المال إلى أسهم قابلة للتداول. ذات كيان قانوني مستقل عن حَمَلَة أسهمها، أيْ لها شخصية اعتبارية مستقلة عن أصحاب حقوق المِلْكية. وتنقسم الشركات المساهمة إلى شركات مساهمة عامة وشركات مساهمة خاصة. ولا يُسْأَلُ الشريكُ في الشركة المساهمة إلا عن قدر حصته في رأس المال - المترجم.

[←892]

.’Ingram and Lifschitz, ‘Kinship in the Shadow of the Corporation

[←893]

أندرو كارْنِجي: (1835 - 1919)، رجل صناعة أمريكي ومُنشِئ مؤسَّسة كارْنِجي. من مواليد إسكتلندا، هاجر مع عائلته إلى بنسلفانيا بالولايات المتحدة وهو في سن الحادية عشر من عمره. عمل في البداية خادمًا في أحد المصانع الصغيرة، ثم انتقل إلى العمل في شركة سكك حديدية، واقترح على أصحابها تصنيع قاطرات بها أَسِرَّة نوم. في عام 1862، أسَّس شركة لبناء الجسور ثم انطلق في مجال صناعة الفولاذ وضاعف شركاته وأعماله. خلال الأزمة الاقتصادية عام 1892، عرفت شركات كارْنِجي - على عكس مثيلاتها - ازدهارًا، مستفيدةً من بعض التشريعات التي سَهَّلَتْ أعمالها. وعندما اندمجت شركات الحديد والصلب في عام 1901 ترأس كارْنِجي هذه الإمبراطورية الصناعية الضخمة، لكنه سرعان ما لبث أن اعتزل النشاط الصناعي، واتجه إلى النشاط الثقافي والأعمال الخيرية، فأنشأ في عام 1905 مؤسسة كارْنِجي الخيرية الثقافية برأس مال عشرة ملايين دولار، وغيرها من المؤسسات ومراكز الأبحاث - المترجم.

[←894]

.'Carnegie, 'Wealth

[←895]

.’See Flandreau and Jobst, ‘Ties That Divide

[←896]

كارتل: مصطلح لاتيني مشتق من كلمة Charta اللاتينية التي تعني «ميثاق». والكارتل اتفاقٌ مكتوب غالبًا بين عدد من المشاريع في فرع معين من فروع الإنتاج، مع الإبقاء على شخصية كل مشروع الاعتبارية من الناحية القانونية والاقتصادية، بحيث لا تندمج المشروعات أو الشركات مع بعضها كما هو الحال في اتفاقيات الترست Trust التي تتنازل فيها المشاريع عن استقلاليتها. ويختلف الكارتل عن الشركة القابضة Holding Company التي تقوم على أساس المساهمة الفعلية في رؤوس أموال الشركات التابعة. هناك أنواع من الكارتل، أهمها: كارتل تحديد الأسعار، كارتل تحديد الإنتاج، كارتل تقسيم الأسواق. والكارتل في عمومه اتحاد احتكاري - المترجم.

[←897]

رويترز: وكالة أنباء بريطانية عالمية أسَّسها عام 1851 رجلُ الأعمال الألماني الأصل جوليوس رويتر - المترجم.

[←898]

هافاس: وكالة إعلامية أسَّسها عام 1835 شارل لويس، وبدأت نشاطها في المغرب عام 1904، ثم تحولت فيما بعد إلى وكالة الأنباء الفرنسية عام 1944 - المترجم.

[←899]

مكتب تلغرافات وولف: أسَّسه برنار وولف رجل الأعمال اليهودي في برلين عام 1849 - المترجم.

[←900]

.’Tworek, ‘Magic Connections

[←901]

,'Taylor, Hoyler and Evans, ‘Geohistorical Study

[←902]

.’Heidler et al., ‘Relationship Patterns

[←903]

أثبتت مجموعةُ يعقوب وفيلهيلم جريم Jacob and Wilhelm Grimm عام 1812 من الحكايات الألمانية التقليدية للأطفال - حكايات الأطفال والبيت الخرافية Kinder - und Hausmärchen - أنها من أنجح المنشورات في القرن التاسع عشر. كان الأخوان عالِميْ فولكلور جادّيْن، درسا في جامعة ماربورج Marburg تحت إشراف الفقيه والمؤرِّخ القانوني الألماني البارز كارل فون سافيني Karl von Savigny. فكانا نموذجيْن لجيلهما في الجَمْع بين الرومانسية والليبرالية والقومية. بل انْتُخِبَ يعقوب للجمعية الوطنية National Assembly في وقت ثورات عام 1848 - المؤلف.

[←904]

.’Brudner and White, ‘Class, Property and Structural Endogmany

[←905]

ليفونيا: إحدى مقاطعات البلطيق في الإمبراطورية الروسية، مقسَّمة الآن بين جمهوريتيْ لاتفيا وإستونيا - المترجم.

[←906]

.Plakans and Wetherell, ‘Kinship Domain in an East European Peasant Community’, 371

[←907]

تيودور فونتانه: (1819 - 1898)، روائي وشاعر ألماني ينتمي إلى واقعية القرن التاسع عشر - المترجم.

[←908]

براندِنبورج: إمارة ألمانية انتهت بتفكُّك الإمبراطورية الرومانية المقدسة عام 1806، وصارت مقاطعةً بروسِّيَّة في عام 1815 - المترجم.

[←909]

.Fontane, *Stechlin*, 77

[←910]

.’See Lipp, ‘Kinship Networks

[←911]

ماكس فيبر: (1864 - 1920)، عالِم اجتماع ألماني، أحد مؤسِّسي علم الاجتماع الحديث، من أهم أعماله «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» - المترجم.

[←912]

التيوتوني: إشارة إلى أيديولوجية عِرْقية شاعت في أوائل القرن العشرين تَعتبر الجرمانَ متفوقين عرقيًا. ومن المحتمل التورية الخفية إلى منظمة فرسان تيوتون الجرمانية التي تأسَّست عام 1190 في عكا لحماية المسيحيين أثناء رحلاتهم إلى الأراضي المقدسة في فلسطين، وشاركت في الحروب الصليبية، والتي صارت بدءًا من عام 1929 منظمة دينية بحتة تمنح الفروسيةَ الشَّرَفية مقابل الأعمال الخيرية والإسهام الحميد في المجتمع - المترجم.

[←913]

مملكة تشينج: تُعْرَفُ أيضًا باسم إمبراطورية تشينج العظيمة، آخر ممالك الصين التي حكمت من عام 1644 حتى عام 1912، مع محاولة استعادة قصيرة وفاشلة للحُكْم عام 1917. سبقتها في الحُكْم أسرةُ مينج، وتلتها جمهوريةُ الصين - المترجم.

[←914]

.’Campbell and Lee, ‘Kin Networks

[←915]

.’ ”Keller, ‘ “Yes, Emperor

[←916]

.Kuhn, *Soulstealers*, 220

[←917]

هويّوان: (334 - 416)، معلِّم بوذي صيني، أسَّس معبد دونجلين على جبل لوشان في مقاطعة جيانجشي. وإليه تَنْسِبُ جمعيةُ اللوتس البيضاء نفسَها، التي بدأ أتباعُها في قيادة حركة تمرد عام 1794 تمكَّنت حكومةُ تشينج من سَحْقه عام 1804، بعد مقتل حوالي مئة ألف متمرد - المترجم.

[←918]

يوان: سلالة إمبراطورية أنشأها كوبلاي خان Kublai Khan زعيم قبيلة بورجيجن المنغولية. كانت أول سلالة أجنبية تحكم جميع أنحاء الصين، واستمرت حتى عام 1368 - المترجم.

[←919]

مينج: سُلالة إمبراطورية من عام 1368 حتى عام 1644، وتعود في نسبها البعيد إلى سلالة أباطرة الصين القدامى هان. حلَّتْ محلَّ سلالة يوان المنغولية وتلتها سلالة تشينج. حكمت أسرةُ مينج الإمبراطورية مناطقَ شاسعة امتدت إلى كوريا الشمالية ومنغوليا وأقاليم تركستان. تمتعت الصين في عهدها باستقرار دَامَ لأكثر من 300 سنة، يحميه جيشٌ كبير شمل مليون جندي وأكبر أسطول بحري من نوعه في العالم - المترجم.

[←920]

.Ter Haar, *White Lotus Teachings*, esp. 239f

[←921]

.Kuhn, *Soulstealers*, 228f

[←922]

تشيان لونج: (1711 - 1799)، رابع إمبراطور من أسرة تشينج. تقلَّدَ الحُكْمَ رسميًا يوم 11 أكتوبر عام 1735 حتى فبراير عام 1796، إذ تنحَّى عن الحُكْم لابنه الإمبراطور يونج تشينج، ولكنه ظل محتفظًا بالسلطة المطلقة حتى وفاته - المترجم.

[←923]

.Duara, *Culture, Power and the State*

[←924]

تمرُّد التايبينج: حرب أهلية واسعة النطاق في جنوب الصين، امتدت من عام 1850 حتى عام 1864. قاد التمردَ هونج شيوكوان المُهَرْطِقُ المسيحي المتحوِّل عن دينه، الذي ادَّعى أنه شقيق يسوع المسيح الأصغر، وزَعَمَ نزول وحي السماء عليه. أنشأ هونج مملكةَ تايبينج السماوية، وحاول مع أتباعه إجراء إصلاحات اجتماعية انطلاقًا من إيمانهم ب«المِلْكية المشتركة» وإحلال نمط من أنماط المسيحية محل الديانات الصينية. وفي النهاية، تمكَّنت قوات تشينج من سَحْق المتمردين بمساعدات فرنسية وبريطانية. وفي القرن العشرين، اعتبر الحزبُ القومي الصيني تمردَ التايبينج مصدرَ إلهام. ومَجَّدَ الزعيمُ الصيني ماو تسي تونج عملَ متمرِّدي التايبينج، ووَصَفَهم بأنهم أبطال ثوريون أوائل حاولوا مناهَضة فساد نظام الإقطاع - المترجم.

[←925]

حرب الحِلْف الثلاثي: تُعْرَفُ أيضًا باسم الحرب العظمى أو حرب الباراجواي. نشبت بين باراجواي ودول الحِلْف الثلاثي، الأرجنتين والبرازيل والأوروجواي، بدءًا من عام 1864 حتى عام 1870. وانتهت بهزيمة باراجواي على أيدي الحلف الثلاثي هزيمة نكراء، ولكن الصراع تحول إلى مقاومة تشبه حرب شوارع. يذكر ستيفن بينكر أن الحرب أزهقت أكثر من 60% من سكان باراجواي، الأمر الذي يجعلها الحرب الأكثر تدميرًا في العصر الحديث - المترجم.

[←926]

إشارات الهجرة والنزوح، سواء الصينية أو الأوربية، كانت إلى الولايات المتحدة - المترجم.

[←927]

الهاكا، أو شعب الهاكا: تعني حرفيًا «الأُسَر الضيوف» أو «الناس الضيوف»، وهم جماعة فرعية من الهان استقرت عبر سلسلة من الهجرات في جنوب الصين. كانوا مصدرًا للكثير من الاضطرابات والحركات الثورية في الصين - المترجم.

[←928]

الهان: إثنية الهان أو شعب الهان، إحدى القوميات التي يتكون منها الشعب الصيني وتمثل 92% منه. توجد في الصين 56 قومية، منها: هان، مان، منغوليا، هوي، التبت، تشوانج، مياو، يي - المترجم.

[←929]

يانج شيوكنج: (1821 - 1856)، مُنظِّم وقائد في تمرد التايبينج - المترجم.

[←930]

شيان فينج: (1831 - 1861)، الإمبراطور التاسع من أسرة تشينج، شهد عهدُه تمردَ التايبينج وتمرد النيان وحرب الأفيون الثانية - المترجم.

[←931]

الإمبراطورة الأرملة سيشي أو الإمبراطورة الأم تسي شي: (1835 - 1908)، أخذت الوصاية على الحاكم الفعلي لسلالة تشينج، وحكمت الصينَ لأكثر من 47 عامًا، بدءًا من عام 1861 حتى وفاتها عام 1. سجنت الإمبراطور جوانج شي الذي تميز بالعقلية الإصلاحية بسبب إدخاله «إصلاح المئة يوم» عام 1898 - المترجم.

[←932]

اللورد إلجن: (1811 - 1863)، هو جيمس بروس، مدير استعماري بريطاني وديبلوماسي. شغل منصب حاكم جاميكا، ثم الحاكم العام لمقاطعة كندا، ثم نائب الملك في الهند. في عام 1857، عُيِّنَ مندوبًا ساميًا في الصين والشرق الأقصى للمساعدة على فتح الصين واليابان أمام التجارة الغربية. في عام 18، وأثناء حرب الأفيون الثانية في الصين، أمر بتدمير القصر الصيفي القديم في بكين. وفي وقت لاحق، أجبر أسرةَ تشينج على الإذعان لمعاهدة غير متكافئة فأضاف شِبْه جزيرة كولون إلى مستعمرة التاج البريطاني في هونج كونج - المترجم.

[←933]

.Platt, *Autumn in the Heavenly Kingdom*, 43

[←934]

جمعية تبشيرية أمريكية تديرها الكنيسة الأسقفية الميثودية، شاركت في إرسال العُمَّال إلى بلاد مثل الصين في أواخر حُكْم أسرة تشينج - المترجم.

[←935]

.Taylor, *Five Years in China*. See also Cooke, *China*, 106–8

[←936]

تحطيم الأيقونات: تدمير متعمَّد للأيقونات الدينية وغيرها من الرموز والآثار لدوافع دينية وسياسية. ويُطْلَقُ على معتنقيها «الثائرون ضد العقائد التقليدية». وفي المسيحية، حَرَّضَ على تحطيم المعتقدات التقليدية الأشخاصُ الذين يتبنون التفسيرَ الحرفي للوصايا العشر التي تُحَرِّمُ صُنْعَ «الصور المحفورة» وعبادتها - المترجم.

[←937]

يونجشينج: (1678 - 1735)، الإمبراطور الخامس من أسرة تشينج. أنشأ حكومةً فعَّالة بأقل التكاليف، واستخدم القوةَ العسكرية للحفاظ على مكانة العائلة الإمبراطورية. عُرِفَ عهدُه بالاستبداد والقوة والفعَّالية. قام بإصلاحات واسعة في الإدارة المالية، واتخذ إجراءات صارمة ضد الفساد. شهد عهده تشكيل المجلس الكبير، وهو مؤسسة كان لها تأثير هائل في مستقبل أسرة تشينج - المترجم.

[←938]

فريدريك تاونسند وُرد: (1831 - 1862)، بحار أمريكي، وجندي اشتهر بخدمته العسكرية في الصين الإمبراطورية أثناء تمرد التايبينج - المترجم.

[←939]

الجيش المنتصر دائمًا: جيش إمبراطوري صيني أسَّسه الأمريكي فريدريك تاونسند وُرد بمساعدة فيلق ضباط أمريكي أوربي، وتكوَّنَ من جنود صينيين مدرَّبين على التقنيات والتكتيكات والإستراتيجية العسكرية الأوربية. صار هذا الجيشُ، الذي كافح تمردَ التايبينج، نموذجًا للعسكرية الصينية في أوقات لاحقة. يرى بعض المُحلِّلين أنه أقرب إلى الميليشيات منه إلى جيش - المترجم.

[←940]

تشارلز جوردن: (1833 - 1885)، ضابط بريطاني برتبة لواء. شارك في حرب القرم، ثم أُلحِقَ بهيئة دولية لترسيم الحدود بين الإمبراطورية الروسية والإمبراطورية العثمانية. وفي عام 1860، شارك في حرب الأفيون الثانية ومكافحة تمرد التايبينج. وافقت الحكومة البريطانية على قيادته للعمليات العسكرية بعد وفاة الأمريكي فريدريك تاونسند وُرد. وبعد تحقيق النصر، فكَّكَ جوردن قواته العسكرية. منحه الإمبراطورُ الصيني أعلى رتبة عسكرية صينية، ولُقِّبَ ب«جوردن الصيني» - المترجم.

[←941]

الولايات الكونفدرالية: حكومة قامت يوم 8 فبراير عام 1861 شكَّلتها سِتٌّ ولايات في الجنوب الأمريكي وأعلنت انفصالها عن الولايات المتحدة. رفضت الولاياتُ المتحدة الشمالية هذا الانفصالَ وأعلنت عدم دستوريته، وعلى الفور بدأت الحربُ الأهلية الأمريكية. ومع أن فرنسا وبريطانيا اعترفتا بالصفة العسكرية للولايات الكونفدرالية الانفصالية فلم تعترف أيةُ دولة أجنبية بكونها دولة مستقلة - المترجم.

[←942]

هذا الاعتراف له قوة قانونية في القانون الدولي، وهو إعطاء صفة عسكرية للطرف المُنْشَق دون مَنْحه اعترافًا بكَوْنه دولة مستقلة - المترجم.

[←943]

حرب الأفيون الثانية: اشتعلت بين فرنسا وبريطانيا من جهة وإمبراطورية تشينج الصينية من جهة أخرى. وانتهت بانتصار فرنسا وبريطانيا على الصين وإجبارها على توقيع اتفاقيات مُهِينة. دوافع حرب الأفيون الثانية هي نفسُها دوافع حرب الأفيون الأولى التي اندلعت فيما بين عاميْ 1839 و1842 بين المملكة المتحدة والصين بسبب تضارب المصالح التجارية ورغبة بريطانيا في تقويض قوة الصين. انتهت الحرب الأولى بانتصار بريطانيا وإجبار الصين على توقيع اتفاقيات مُهينة - المترجم.

[←944]

اللورد بالمرستن: (1784 - 1865)، سياسي بريطاني بدأ حياته مصمم أزياء، ثم تمكَّنَ لاحقًا من تولّي منصب وزير خارجية بريطانيا ثلاث مرات، ومنصب رئيس الوزراء مرتين. كان له دور كبير في توسيع دائرة بريطانيا الديبلوماسية الخارجية. اشتهر بميوله الاستعمارية - المترجم.

[←945]

منشوريا: تسمية تاريخية تشمل منطقةً جغرافية واسعة في شمال شرق آسيا. وبالاستناد إلى تعريف امتدادها تقع منشوريا داخل حدود الصين، أو أحيانًا تنقسم بين الصين وروسيا. ويُشَارُ إلى المنطقة عمومًا بأنها شمال شرق الصين. والمنطقة هي موطن قومية المانشو التي سُمِّيت منشوريا نسبةً إليها - المترجم.

[←946]
.McKeown, ‘Chinese Emigration’, table 1, 156

[←947]

دينيس كيرني: (1847 - 1907)، أيرلندي الأصل، وزعيم عمَّال كاليفورنيا وناشط سياسي في أواخر القرن التاسع عشر. عُرِفَ بآرائه العنصرية ضد المهاجرين الصينيين. اعتاد على إنهاء كل خطاباته الطويلة بعبارة واحدة هي: «ومهما يكن، يجب أن يرحل الصينيون». أسَّسَ في عام 1877 حزبَ عُمَّال كاليفورنيا على خلفية الكساد القومي في الفترة من عام 1873 حتى عام 1878. تَمكَّنَ الحزب بعد فوزه بعضوية البرلمان من سنِّ تشريعات تحرم الصينيين من حق التصويت - المترجم.

[←948]

مكافحة الكوولي: الكوولي اسم يُطْلَقُ على العمالة الرخيصة غير الماهرة، ويشمل أيضًا عُمَّالَ النقلِ والشحن والتفريغ في الموانی. استغل بعضُ الأمريكيين وجودَ المهاجرين الصينيين بوصفهم عمالةً رخيصة، الأمر الذي هدَّدَ مصادرِ دَخْل العمَّال البِيض. في يوم 19 فبراير عام 1862، أصدر الكونجرس الأمريكي السابع والثلاثون قانونًا يحظر على الأمريكيين توفير عمَّال صينيين، كما سعى القانون إلى حماية العُمَّال البِيض بفرض ضريبة شهرية على أي عامل صيني يمارس أي نشاط في الموانی وعلى السفن الأمريكية - المترجم.

[←949]

.United States Congress, *Report of the Joint Special Committee*, iv–viii

[←950]

الجمعية التكافلية الخيرية الصينية Chinese Consolidated Benevolent Association: تُعْرَفُ أيضًا باسم Six Companies of Chinese. منظمة اجتماعية خيرية لمساعدة الأمريكيين الصينيين - المترجم.

[←951]

.Gibson, *Chinese in America*, 281–373

[←952]

الديماجوجي: زعيم سياسي يسعى إلى الحصول على الدعم الشعبي من خلال الاستجابة للرغبات والأحكام الشعبية بدلاً من استعمال الحجة العقلانية - المترجم.

[←953]

.Bryce, ‘Kearneyism’, vol. II, pp. 385–406

[←954]

قانون الصَّفْحة: أول قانون هجرة فيدرالي مُقيِّد في الولايات المتحدة، صدر يوم 3 مارس عام 1875، يحظر دخول النساء الصينيات إلى أراضي الولايات المتحدة؛ وهو الحظر الذي سيستمر بشكل أشمل مع صدور قانون استبعاد الصين عام 1882 الذي يحظر هجرة الصينيين إناثًا وذكورًا إلى الولايات المتحدة - المترجم.

[←955]

قانون فوران الصادر عام 1885: إجراء تشريعي يمنع استيراد الأجانب والغرباء بتعاقد أو اتفاق لإنجاز أعمال في الولايات المتحدة - المترجم.

[←956]

.See Lee, *At America's Gates*, ch. 1

[←957]

.’Moretti, ‘Social Networks and Migrations

[←958]

.Lee, *At America's Gates*, 25

[←959]

الحي الصيني: في الأصل جيب عِرْقي من الصينيين أو شعب الهان يقع خارج البر الرئيسي للصين، مثلاً هونج كونج، ماكاو، تايوان. ثم مع نزوح الصينيين الجماعي نشأ حيٌّ صيني في المناطق الحضرية في جميع أنحاء العالم، ومن الأمثلة المبكرة على هذا خارج آسيا الحيُّ الصيني في سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة والحي الصيني في ملبورن بأستراليا - المترجم.

[←960]

قاعدة الذهب: معيار نقدي تَتحدَّدُ بموجبه الوحدةُ الأساسية للعملة بكمية محددة من الذهب، مع تحويل الأموال الأخرى بلا قيود إلى ذهب، وحرية تصدير واستيراد الذهب لتسوية الالتزامات الدولية - المترجم.

[←961]

ويليام جيننجز براين: (1860 - 1925)، خطيب وسياسي أمريكي، بَرَزَ بوصفه شخصيةً مؤثِّرة في الحزب الديمقراطي بدءًا من عام 1896، وترشَّح ثلاث مرات عن الحزب لرئاسة الولايات المتحدة ولم يفز في أيٍّ منها. أُطْلِقَ عليه لقب «العاميّ العظيم» بسبب إيمانه بحكمة الناس العاديين. شغل منصبَ وزير الخارجية في رئاسة ويلسون - المترجم.

[←962]

نظام المَعْدنين: قاعدة تقضي باتخاذ كل من الذهب والفضة أساسًا للنظام النقدي في دولة ما - المترجم.

[←963]

سراييفو: تَعَاقَبَتْ على حُكْمِها الإمبراطوريتان النمساوية والعثمانية. كانت هي المدينة الأوربية الكبرى الوحيدة التي تضمّ المسجدَ والكنيسةَ الكاثوليكية والكنيسةَ الأرثوذكسية والكنيسَ اليهودي. كانت معقل العثمانية في القرن الخامس عشر وأُطْلِقَ عليها اسم «مدراس» - المترجم.

[←964]

سايجون: اسمها الحالي «هو تشي منه»، مدينة كبرى في فيتنام، كانت عاصمة المستعمرة الفرنسية كوشينشينا. سقطت في أيدي الشيوعيين عام 1976 - المترجم.

[←965]

جورج جوشين: (1831 - 1907)، رجل دولة ورجل أعمال بريطاني، انتمى في البداية إلى الحزب الليبرالي، ثم إلى الحزب الاتحادي الليبرالي الذي تأسَّسَ في عام 1886 في بريطانيا، قبل انضمامه إلى حزب المحافظين بحلول موعد الانتخابات العامة في عام 1895 - المترجم.

[←966]

مجلس الإيرادات الداخلية: يرأسه أمينه المالي، مع أربعة أعضاء آخرين مُعيَّنين، أحدهم مسؤول حكومي. يعمل المجلس بشكل مستقل عن إدارة الإيرادات الداخلية - المترجم.

[←967]

هيربرت إسكويث: (1852 - 1928)، سياسي بريطاني وزعيم حزب الليبراليين. تولَّى رئاسةَ الوزراء، وفي عهده اندلعت الحرب العالمية الأولى. اضطر إلى الاستقالة عام 1916 بسبب ضغوط من الرأي العام الذي أبدى ارتيابًا في كفاءته، فخلفه في رئاسة الوزراء لويد جورج - المترجم.

[←968]

.Oxford and Asquith, *Memories and Reflections*, 213f

[←969]

سيسيل رودس: (1853 - 1902)، رئيس وزراء مستعمرة الكاب بجنوب أفريقيا، لُقِّبَ ب«ملك الألماس»، أنشأ شركةَ دي بيرز التي سيطرت على 90% من تجارة الألماس، وهي تسيطر حاليًا على 60% منه. كان له دور كبير في غارة جيمسون التي انتهت بفشل عسكري ذريع استقالَ على إثره - المترجم.

[←970]

.Quigley, *Anglo-American Establishment*, 3

[←971]

رودس أخبر روتشيلد بأن ممتلكاته ينبغي أن تُسْتَغَلَّ في تأسيس جمعية نُخْبوية تتفانى من أجل تقدُّم مصالح الإمبراطورية البريطانية. ويكتب روتشيلد قائلاً: «عند النظر، تشير المسألةُ إلى تبنِّي دستور اليسوعيين إذا أمكن، وإدراج الإمبراطورية الإنجليزية في الدين الكاثوليكي الروماني». النتيجة النهائية كانت مِنح رودس أكسفورد الدراسية Oxford Rhodes Scholarships - المؤلف.

[←972]

.Ferguson, *World's Banker*, ch. 27

[←973]

ترانسفال: مقاطعة سابقة تقع في شمال شرق جنوب أفريقيا، سكنها الأفارقة ذوو البشرة السمراء حوالي عام 1800، ثم احتلها فلاحو البوير القادمين من البلاد الأوربية، وعلى الأخص هولندا، وحوَّلوها إلى دولة مستقلة، وأطلقوا عليها الجمهورية الأفريكانية الجنوبية عام 1856. احتلتها بريطانيا العظمى عام 1877، وأدَّى اكتشاف الذهب والماس في عام 1886 إلى قدوم مستوطنين بريطانيين جُدُدٍ فتوترت العلاقاتُ بين البوير وبريطانيا. في عام 1910، أصبحت ترانسفال جزءًا من جنوب أفريقيا. ولم يعد هناك وجود حالي للمقاطعة بهذا الاسم - المترجم.

[←974]

.Quigley, *Anglo-American Establishment*, ch. 4

[←975]

.’May, ‘Milner’s Kindergarten

[←976]

المكتب الاستعماري: إدارة حكومية تابعة لبريطانيا العظمى، ولاحقًا المملكة المتحدة، أُنْشِئ في البداية للتعامل مع شؤون بريطانيا الاستعمارية في أمريكا الشمالية، ثم أشرف على العدد المتزايد من المستعمرات البريطانية حول العالم، يرأسه وزير الدولة للمستعمرات المعروف باسم وزير الاستعمار. استمر المكتب الاستعماري الأول من عام 1768 حتى عام 1782، واستمر المكتب الاستعماري الثاني من عام 1854 حتى عام 1966 - المترجم.

[←977]

.Ibid

[←978]

.Nimocks, *Milner's Young Men*, 44

[←979]

.Ibid., 18

[←980]

علم الاتحاد: ويُعْرَفُ أيضًا باسم «جاك الاتحاد»، تحتفظ به رسميًا أو بشكل شِبْه رسمي بعضُ ممالك الكومنولث. ويُعْرَفُ في كندا بعلم الاتحاد المَلَكي. يعود التصميم الحالي للعلم إلى عام 1801 - المترجم.

[←981]

.Ibid., 19

[←982]

الدومينيون أو الدول المستقلة البيضاء المرتبطة بالتاج البريطاني: نظام أوجدته بريطانيا لمستعمراتها التي تحتفظ باستقلالها الذاتي مع ارتباطها بالتاج البريطاني. بدأت المملكةُ المتحدة العملَ به منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر - المترجم.

[←983]

.Ibid., 20

[←984]

.Magubane, *Making of a Racist State*, 300f

[←985]

.Louw, *Rise, Fall, and Legacy of Apartheid*, 15

[986→]

نُذّكِّرُ مرةً أخرى بأن «الأفريكان» - بخلاف الأفارقة - هم المنحدرون من المستعمرين الهولنديين في القرن السابع عشر، بالإضافة إلى أقليات أوربية أخرى في جنوب أفريقيا - المترجم.

[←987]

.Quigley, *Anglo-American Establishment*, ch. 4

[←988]

مستعمرة نهر الأورانج: هي في الأصل جمهورية بوير مستقلة ذات سيادة، قامت في جنوب أفريقيا تحت اسم دولة أورانج الحُرَّة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولاحقًا مستعمرة بريطانية، وحاليًا إحدى محافظات اتحاد جنوب أفريقيا تحت اسم «الولاية الحرة» - المترجم.

[←989]

.Louw, *Rise, Fall, and Legacy of Apartheid*, 10

[←990]

.Darwin, *Empire Project*, 217–54

[←991]

لويس بوثا: (1862 - 1919)، سياسي من جنوب أفريقيا، شغل منصب رئيس الوزراء من عام 1910 حتى عام 1919 - المترجم.

[←992]

جان سموتس: (1870 - 1950)، ابن عائلة هولندية غنية من المستعمرين البِيض في جنوب أفريقيا، كيب تاون. درس القانونَ في إنجلترا، وشغل منصبَ رئيس وزراء جنوب أفريقيا مرتين بدءًا من عام 1919 - المترجم.

[←993]

.Marks and Trapido, ‘Lord Milner and the South African State’, 73

[←994]

.Ibid., 69–71

[←995]

.Louw, *Rise, Fall, and Legacy of Apartheid*, 12

[←996]

اللورد سيلبورن: (1859 - 1942)، اسمه قبل الترفيع ويليام بالمر، سياسي بريطاني ومدير استعماري - المترجم.

[←997]

.Nimocks, *Milner’s Young Men*, viii–ix

[←998]

رُسُل كمبريدج: جمعية نِقاش فكري في جامعة كمبريدج، تأسَّستْ عام 1820. ويعود أصلُ التسمية إلى عدد مؤسِّسيها الأوائل الاثني عشر طالبًا، وهو نفس عدد تلاميذ المسيح. معظم الأعضاء طلبة جامعيون، كما يوجد أعضاء من طلبة الدراسات العليا، وأعضاء من هيئة التدريس. اجتذبت الجمعيةُ معظمَ أعضائها من كليات: المسيح، القديس جون، يسوع، الثالوث، الملك - المترجم.

[←999]

.Levy, *Moore*, 65–122

[←1000]

.Allen, *Cambridge Apostles*, 86

[←1001]

نويل أنان: (1916 - 2000)، ضابط مخابرات عسكرية بريطاني، ومؤلف وأكاديمي. شغل أثناء مسيرته المهنية عمادة بعض الكليات، كما شغل منصب نائب رئيس جامعة لندن، وعضو في مجلس اللوردات. وهنا، يشير نيل فِرْجسن إلى مقالة أنان الأكثر شهرةً بعنوان «الأرستقراطية الفكرية» التي تحدث فيها عن الشبكة القوية التي وحَّدَت المثقفين البريطانيين في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين - المترجم.

[←1002]

.Levy, *Moore*, 22–5

[←1003]

.Skidelsky, *Keynes*, vol. I, 118

[←1004]

.Ibid., 240

[←1005]

.Lubenow, *Cambridge Apostles*, 69; Allen, *Cambridge Apostles*, 21

[←1006]

.Allen, *Cambridge Apostles*, 1

[←1007]

.Lubenow, *Cambridge Apostles*, 148. See table 3.1

[←1008]

الخدمة المدنية الهندية: جزء مما كان يُعْرَفُ في القرن التاسع عشر ب«الخدمة المدنية الإمبراطورية»، التي اقتصرت على النُّخْبة البريطانية العليا أثناء الحُكْم البريطاني في الهند منذ عام 1858 حتى عام 1947 - المترجم.

[←1009]

.Ibid., 176

[←1010]

الحُكْم الذاتي الأيرلندي: حركة قامت بتنظيم حملات تدعو إلى الحكم الذاتي الأيرلندي داخل مملكة بريطانيا العظمى وأيرلندا المتحدة. ورفض مجلس اللوردات مشروعَ القانون في عام 1893 - المترجم.

[←1011]

.Ibid., 190f

[←1012]

.Allen, *Cambridge Apostles*, 20

[←1013]

جورج إدوارد مور: (1873 - 1958)، فيلسوف بريطاني، أثر في كثير من الفلاسفة البريطانيين المعاصرين، ودافع عن نظريات الفطرة السليمة. كان مدرسًا للفلسفة في جامعة كمبردج، ومحرِّر مجلة العقل لمدة ثلاثين عامًا - المترجم.

[←1014]

.Levy, *Moore*, 7

[←1015]

.Ibid., 296

[←1016]

ليتون ستريتشي: (1880 - 1932)، كاتب وناقد إنجليزي. عضو مؤسِّس ل«مجموعة بلومزبري»، ومؤلِّف كتاب «الفيكتوريون المرموقون». اشتهر بتأسيسه شكلاً جديدًا في كتابة السير الذاتية يجمع بين البصيرة السيكولوجية والتعاطف وخفة الدم والذكاء. كَتَبَ سيرةً ذاتية بعنوان «الملكة فيكتوريا» عام 1921، حصل بها على إحدى الجوائز في إنجلترا - المترجم.

[←1017]

ليونارد وولف: (1880 - 1969)، منظِّر سياسي ومؤلف وناشر وموظف مدني. زوج الأديبة فيرجينيا وولف - المترجم.

[←1018]

جون مينارد كينز: (1883 - 1946)، اقتصادي وكاتب بريطاني ذو شهرة عالمية. عمله الأشهر على الإطلاق هو «النظرية العامة للعمل والربح والمال». استُغِلَّتْ نظرياته بعد الحرب العالمية الثانية في تأسيس دولة الرعاية. وظلت الأفكارُ الكينزية ممتدةً حتى ثمانينيات القرن العشرين في إنجلترا والولايات المتحدة. تعرَّضَتْ أفكارُه للتطوير في فرنسا فيما يُعْرَفُ ب«ما بعد الكينزية» - المترجم.

[←1019]

.Skidelsky, *Keynes*, vol. I, 115

[←1020]

السَّدومية [اللواط]: ممارسة الشذوذ الجنسي بطريق الشَّرَج أو مع الحيوان [البهيمة]. ويقتصر المصطلح المستمد من قصة «سدوم وعمورية» في الكتاب المقدس على الجنس الشَّرَجي عادةً. وفي إنجلترا، صدر قانون اللواط عام 1533 - The Buggery Act 1533 - عن برلمان إنجلترا في عهد الملك هنري الثامن، وهو أول قانون لواط مدني في تاريخ البلاد بعد أن كان يُتَعامَلُ مع هذه الجرائم عبر المحاكم الكَنَسِيَّة. يُعَرِّفُ القانونُ اللواطَ أو السَّدوميّة بأنها «فِعْل جنسي غير طبيعي ضد إرادة الله والإنسان»، وبقي سارِيًا حتى حلَّ محلَّه قانونُ «جرائم ضد الفرد عام 1828»، وظل الإعدامُ عقوبةَ اللواط في إنجلترا حتى عام 1861. لكن آخر تنفيذ لحُكْم الإعدام بتهمة اللواط كان في قضية الشابين جيمس برات وجون سميث من مواطني لندن اللذين أُعْدِما شنقًا يوم 27 نوفمبر 1835 أمام سجن نيوجيت، ولم يشملهما العفو المَلَكي رغم التماسات زوجتيهما - المترجم.

[←1021]

.Ibid., 127f., 235

[←1022]

.Hale (ed.), *Friends and Apostles*

[←1023]

.Skidelsky, *Keynes*, I, 116

[←1024]

.Ibid., 134f

[←1025]

نهاية هاوارد: من تأليف الروائي البريطاني إدوارد مورجان فورسـتر. تُعالِجُ الرواية المواثيقَ الاجتماعية وقواعد السـلوك والعلاقات في إنجلترا مطلع القرن العشـرين. في عام 1998 احتلت الروايةُ المنزلةَ الثامنة والثلاثين في قائمة أفضل مئة رواية في القرن العشـرين - المترجم.

[←1026]

قصر الوايتهول: المقر الرئيسي لإقامة ملوك إنجلترا في لندن. ثم أُطْلِق الاسم على الشارع الذي توجد فيه معظمُ المؤسسات الحكومية لحكومة المملكة المتحدة، بجوار المقر - المترجم.

[←1027]

.Ibid., vol. I, 181

[←1028]

.Ibid., vol. I, 142f

[←1029]

.Forster, *What I Believe*

[←1030]

الجمعية الفابية: جمعية إنجليزية تأسَّستْ عام 1884، سعى أعضاؤها إلى نشر مبادئ الاشتراكية بالوسائل السِّلْمية، بدلاً من الإطاحة الثورية العنيفة بالأنظمة القائمة. وهي نسخة بريطانية منقحة للاشتراكية تتجنَّبُ الرّطانةَ الماركسية عن البروليتاريا وصراع الطبقات واستئصال الرأسماليين وإقامة دولة البروليتاريا. من أبرز أعلامها المفكرُ الاشتراكي الاجتماعي والإنساني سيدني ويب وزوجته، والكاتب المسرحي برنارد شو. اسم الجمعية مأخوذ من اسم الجنرال الروماني «فابيوس» الذي تصدَّى ل«هانيبال» عبر عمليات خداع إستراتيجي. في عام 1920، تعاونت الجمعيةُ الفابية مع حزب العمال البريطاني واستطاعا الفوزَ بالانتخابات ضد تشرشل عام 1945، وبدأت إجراءات تحقيق «دولة الرعاية» التي تغلَّبت على سوءات الرأسمالية مع الاحتفاظ بها - المترجم.

[←1031]

.Skidelsky, *Keynes*, vol. I, 239f

[←1032]

.McGuinness, *Wittgenstein*, 95f., 118, 146–50

[←1033]

عيد القديس جورج: يوم 23 أبريل من كل عام، وهو التاريخ المقبول تقليديًا لوفاة القديس في اضطهاد دقليديانوس عام 303م. وأما بالنسبة إلى الكنائس الأرثوذكسية التي تستعمل التقويم اليولياني فيكون هذا اليوم 6 مايو بالتقويم الميلادي - المترجم.

[←1034]

الإشارة إلى استخدام الألمان لغاز الكلور السام في معركة إبريس الثانية في بلجيكا، للمرة الأولى، في الجبهة الغربية، في خرق صريح لاتفاقيتيْ لاهاي 1899 و1907. بعدها تُبُودِلَ استخدامُ الغاز من قبل الأطراف المتحاربة حتى صار استخدامه من أكثر الأفعال رعبًا في الحرب العالمية الأولى - المترجم.

[←1035]

.Hale (ed.), *Friends and Apostles*, 284

[←1036]

.Skidelsky, *Keynes*, vol. I, 319

[←1037]

.Lubenow, *Cambridge Apostles*, 194

[←1038]

.Skidelsky, *Keynes*, vol. I, 324

[←1039]

مجموعة بلومزبري: تشـكَّلَتْ أثناء الحرب العالمية الأولى من مجموعة كتَّابٍ وفلاسـفة وأدباء وفنانين بريطانيين، بمَن فيهم فرجينيا وولف وكينز وفورسـتر وليتون سـتريتشـي. نفى أعضاؤها كَوْنَهم جمعية بأي معنى رسـمي، بل يجمعهم معًا إيمانٌ راسـخ بأهمية الفنون. أثرت أعمالهم ونظرتهم تأثيرًا عميقًا في الأدب والجماليات والنقد والاقتصاد، وفي المواقف الحديثة نحو الحركة النِّسْوية والدعوة إلى السلام والمواقف الجنسـية - المترجم.

[←1040]

.Ibid., 243f., 247

[←1041]

.’Dolton, ‘Identifying Social Network Effects

[←1042]

.Ibid

[←1043]

.Forster, *Howard’s End*, 214

[←1044]

.For more detail see Offer, *First World War*

[←1045]

.For a compelling recent account, see Clark, *Sleepwalkers*

[←1046]

تسوية مؤقتة أو موديوس فيفاندي: عبارة لاتينية تعني التعايش السِّلْمي المؤقت أو التوصُّل إلى طريقة توافقية، بمعنى تسوية الخلافات بين أطراف النزاع من أجل استمرار الحياة، ولكنها تنطوي ضمنًا على تأكيد الاختلاف وبقائه إلى حين إيجاد تسوية نهائية - المترجم.

[←1047]

الإيرل: لقب من أصل أنجلوسكسوني يحصل عليه الرجل إنْ كان من طبقة النبلاء، فيُقال «إيرل كذا» نسبةً إلى المكان أو نسبةً إلى اسم العائلة - المترجم.

[←1048]

نورمان إنجِل: (1872 - 1967)، أديب وسياسي بريطاني، التحق بحزب العمال عام 1920، ومَثَّله في البرلمان البريطاني. حصل على جائزة نوبل للسلام عام 1933 عن كتابه المُناهِض للحرب المشهور في الولايات المتحدة باسم «الوهم الكبير» والمنشور لأول مرة عام 1909 - المترجم.

[←1049]

.'Schroeder, 'Economic Integration and the European International System

[←1050]

.Kissinger, *World Order*, 78

[←1051]

.Ibid., 233

[←1052]

.Ibid., 80, 82

[←1053]

Thompson, 'Streetcar Named Sarajevo', 47

[←1054]

تيبور أنتال: أستاذ الرياضيات، جامعة إدنبرة، إسكتلندا - المترجم.

[←1055]

سيدني ريدنر: فيزيائي كندي من مواليد عام 1951، شغل سابقًا رئاسة قسم الفيزياء بجامعة بوسطن. له أعمال بالمشاركة مع زميله في جامعة بوسطن بول كرابيفسكي، تُرَكِّزُ بحوثُهما على الميكانيكا الإحصائية غير المتوازنة وهيكل الشبكات - المترجم.

[←1056]

Antal, Krapivsky and Redner, ‘Social Balance on Networks’, 13

[←1057]

.’Gartzke and Lupu, ‘Trading on Preconceptions

[←1058]

.Vasquez and Rundlett, ‘Alliances as a Necessary Condition of Multiparty Wars’, 15

[←1059]

.Maoz, *Networks of Nations,* 38f

[←1060]

وريث العرش النمساوي من آل هابْسبورج، الأرشيدوق فرانز فرديناند، اغتاله هو وزوجته الشابُّ الصربي جافريلو برينسيب (19 عامًا) المنتمي إلى تنظيم «القبضة السوداء» الذي استهدف إنشاءَ قومية سلافية ومُحارَبة الاحتلال النمساوي المجري، وكان التنظيم على صلة بكبار رجال الدولة في صربيا آنذاك، وهو ما أسفرت عنه التحقيقات لاحقًا. وقعت عملية الاغتيال في سراييفو العاصمة البوسنية في شارع أبيل يوم 28 يونيو 1914 - المترجم.

[←1061]

.Lebow, ‘Contingency, Catalysts and Non-Linear Change’, 106f

[←1062]

’?Trachtenberg, ‘New Light on 1914

[←1063]

وهو لم يكن في لامعقوليته أو تعسُّفه أكثر من المطالبة التي فرضتها الولايات المتحدة على نظام الحُكْم الأفغاني بعد هجمات 11/ 9 - المؤلف.

[←1064]

.Schroeder, ‘Necessary Conditions’, 183., 191f

[←1065]

’?Lichnowsky to Foreign Office, 29 July 1914, quoted in Trachtenberg, ‘New Light on 1914

[←1066]

’?Grey to Goschen, 31 July 1914, quoted in Trachtenberg, ‘New Light on 1914

[←1067]

.Karl Kraus, *Die Fackel*, vol. 22 (1920), 23

[←1068]

الرِّداء الأخضر: ثانية روايات بوشان التي بطلها ريتشارد هاناي، نشرتها لأول مرة دارُ نشر هودر وستوكتون في لندن عام 1916، وتدور أحداثها أثناء الحرب العالمية الأولى، على حين تدور أحداث رواية «تسع وثلاثون خطوة» في الفترة السابقة مباشرة على اندلاع الحرب - المترجم.

[←1069]

.Buchan, *Greenmantle*, KL 118–37

[←1070]

الطاعون الدَّبْلي: أو الدُّمّلي أو النَّزْفي، أو العقدي، مرضٌ حيواني المنشأ ينتشر أساسًا بين القوارض الصغيرة والبراغيث التي تحملها. ويُقْصَدُ به الإصابةُ بدخول الطفيليات المُسبِّبة للمرض من خلال الجلد وانتقالها عبر الأوعية اللمفية، كما في الالتهابات التي تُسبِّبها البراغيث. وهو واحد من ثلاثة التهابات يُسبِّبها طاعونُ يرسينيا المعروف سابقًا باسم طاعون الباستوريلا. يُعْتَقَدُ أن الطاعونَ الدَّبْلي - مع طاعون إنتان الدم والطاعون الرئوي - هو السببُ وراء الموت الأسود الذي اجتاح أوربا في القرن الرابع عشر وسَبَّبَ وفاةَ ملايين السكان. وهو ما ترتَّب عليه ارتفاعُ قيمة الأجور بسبب نقص الأيدي العاملة من جرَّاء الموت الأسود، ويرى بعض المؤرِّخين أن ذلك كان بمثابة نقطة تحوُّلٍ جوهرية في الاقتصاد الأوربي. يُسْتَعْمَلُ المصطلحُ ليطلق على الطاعون عمومًا مهما كان نوعه - المترجم.

[←1071]

على غير المعتاد، كانت هذه السلالة النوعية من الأنفلونزا الأكثر فتكًا بالأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين حوالي العشرين والأربعين. ما يُقدَّر ب 675,000 أمريكي لقوا حَتْفهم بسبب الأنفلونزا أثناء الوباء، عشرة أضعاف مَن ماتوا في الحرب العالمية الأولى. ومن بين الجنود الأمريكيين الذين ماتوا في أوربا، كان نصفُهم ضحايا الأنفلونزا. ولا شك في أن التعبئة العامة للشباب التي أعقبت دخول الولايات المتحدة الحرب أسهمتْ في انتشار المرض السريع، الذي هاجم الرئتين وتَسبَّبَ في إغراق الضحايا في دمائهم. وقعت الحالات الأمريكية الأولى في معسكر الجيش في كانساس Kansas أوائل عام 1918. وبحلول شهر يونيو، وصلت موجةٌ من الوباء إلى الهند وأستراليا ونيوزيلندة. ثم بعد شهرين، ضَرَبَتْ موجةٌ ثانيةٌ ولايتيْ بوسطن وماساتشوستس، وبريست Brest في فرنسا، وفريتاون Freetown في سيراليون Sierra Leone بالتزامن - المؤلف.

[←1072]

البلاشفة الرُّوس: تعني الكلمةُ «الأكثريةَ»، وهي التي وَصَفَ بها أنصارُ لينين أنفسَهم في حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي أثناء مؤتمره الثاني عام 1903، وهو الجناح الذي يميل إلى التغيير الثوري، في مقابل «المناشفة» التي تعني «الأقلية» القائلين بالتغيير السِّلْمي. كَوَّنَ البلاشفةُ «الجيشَ الأحمر» الذي دخل في حروب أهلية مع الجيش الأبيض المدعوم من بريطانيا وفرنسا، وانتهت بانتصار البلاشفة الذين قادوا المرحلةَ الثانية من الثورة الروسية في أكتوبر عام 1917، تحت إمْرة فلاديمير لينين وقائد الجيش الأحمر ليون تروتسكي. يُطْلَقُ على المرحلة الثانية اسم «الثورة البُلْشفية» التي جاءت نتيجة تطوير لينين لأفكار ماركس. هذا التطوير يسميه نيل فِرْجسن «السلالة المتحوِّلة» - المترجم.

[←1073]

الفاشية: شكل من النزعة القومية المتطرفة يتميز بالسلطة الديكتاتورية والقهر القسْري للمعارضة والسيطرة القوية على المجتمع والاقتصاد. برزت أولى الحركات الفاشية في إيطاليا أثناء الحرب العالمية الأولى قبل انتقالها إلى بلدان أوربية أخرى، إذ أتاحت الحربُ المجالَ لتطبيقِ الفاشية عمليًا من خلال التعبئة العامة الجماعية للمجتمع ككل فيما يُعْرَفُ ب«المُواطَنة العسكرية» military citizenship، وهو ما نجم عنه صعودُ قوة الدولة القادرة على حشد الملايين من الناس للعمل في خطوط القتال الأمامية وتوفير الإنتاج الاقتصادي وأشكال الدعم اللوجستي، بالإضافة إلى امتلاك سلطة تدخُّلٍ غير مسبوقة في حياة المواطنين.

يعتقد الفاشيون أن الديمقراطية الليبرالية قد عفا عليها الزمن، ويرون أن التعبئة الكاملة للمجتمع في ظل دولة شمولية أحادية أمرًا ضروريًا لإعداد المجتمع للصراع المسلح والتغلب على الصعوبات الاقتصادية، تحت إمْرة زعيم قوي وحكومة عسكرية غالبًا تتألف من أعضاء الحزب الفاشي الحاكم، لتشكيل الوحدة الوطنية والحفاظ على مجتمع منظَّم ومستقر. ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وَصَفَتْ بعضُ الأحزاب نفسَها صراحةً بأنها فاشية. وأحيانًا، يُستعمل تعبيرُ «الفاشية الجديدة» لوَصْفِ أحزاب اليمين المتطرف ذات الأيديولوجيات المشابهة - المترجم.

[←1074]

الكاريزمية: كلمة يونانية في الأصل تشير إلى الهِبة الإلهية والنِّعمة التي تجعل المرءَ مفضَّلاً لجاذبيته وتأثيره. اسْتُعمِلتْ الكلمةُ في فجر المسيحية للإشارة إلى قدرات الروح القدس. ماكس فيبر هو أول مَن أعطى المصطلحَ دلالاتِه السياسيةَ الحاليةَ، عندما استعمله للإشارة إلى القدرة التي يتمتع بها شخصٌ للتأثير في آخرين، بحيث يكون في مركز قوة بالنسبة لهم، وبحيث يمنحه الواقعون تحت تأثيره حقوقًا تسلُّطية. قسَّمَ فيبر السلطةَ إلى ثلاثة أنواع هي: أ - سلطة تقليدية تستمد شرعيتها من الأعراف والعادات والتقاليد المستقرة. ب - سلطة قانونية عقلانية تستمد شرعيتها من إيمان المحكومين بدستورية وقانونية مجموعة قواعد وإجراءات مُلْزِمة للجميع، وعلى أساسها تُمَارَسُ سلطةُ الحُكْم. ج - سلطة كاريزمية تستمد شرعيتها من إيمان المحكومين بقدراتها - المترجم.

[←1075]

معاهدة 1839: تُسَمَّى معاهدة لندن الأولى، جاءت نتيجة المفاوضات في مؤتمر لندن في الفترة من عام 1838 حتى عام 1839، ووُقِّعَتْ يوم 19 أبريل عام 1839 بين القوى الأوربية والمملكة المتحدة وهولندا ومملكة بلجيكا. بموجب المعاهدة، اعترفت القوى الأوربية باستقلال بلجيكا وحيادها، وتنصُّ المادةُ السابعة على أن تظل بلجيكا محايدة على الدوام في حالة الحرب - المترجم.

[←1076]

تستدعي كلمةُ Entente - بالإضافة إلى إشارتها إلى قوات الحلفاء - مجموعةَ اتفاقيات بين بريطانيا العظمى وفرنسا عُرِفَت باسم الوفاق الودِّي يوم 8 أبريل عام 1904 الذي سَوَّى عددًا من النزاعات الاستعمارية الناشبة بينهما، وعُدَّ نهايةً لصراعات متقطعة بين الدولتين استمرت زمنًا طويلاً، كما أنهى حالةَ التسوية المؤقتة بين الدولتين منذ نهاية الحروب النابليونية عام 1815. انضمَّتْ روسيا إليهما عام 1907 فيما يُعْرَفُ ب«الحِلْف الثلاثي» الذي كان اتحادًا عسكريًا ثلاثيًا من خلال معاهدة سان بطرسبرج. ومهندسُ عملية الإصلاح الإستراتيجي بين فرنسا وإنجلترا وزيرُ الخارجية الفرنسي تيوفيل ديلكاسي. أزعج هذا الاتفاقُ ألمانيا التي اعتمدت سياستُها على العَدَاء بين بريطانيا وفرنسا - المترجم.

[←1077]

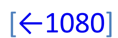
.Chi et al., ‘Spatial Diffusion of War’, 64f

[←1078]

.See in general Hopkirk, *Like Hidden Fire*

[←1079]

.’Al-Rawi, ‘Buchan the Orientalist



.’Keller, ‘How to Spot a Successful Revolution in Advance

[←1081]

ويليام الثاني أو فيلهيلم الثاني: (1859 - 1941)، أكبر أحفاد الملكة فيكتوريا ملكة المملكة المتحدة، وآخر إمبراطور ألماني تَولَّى من عام 1888 حتى تنازله عن العرش في نوفمبر عام 1918. بعد تولِّيه العرشَ الألماني، أقالَ بيسمارك من منصب المستشار عام 1890. وأدار سياسةَ ألمانيا الخارجية دون استشارة وزرائه، وبطريقة أدَّتْ إلى اشتعال الحرب العالمية الأولى - المترجم.

[←1082]

.McMeekin, *Berlin–Baghdad Express*, 15–16f

[←1083]

كارل هاينريك بيكر: (1876 - 1933)، مستشرق ألماني وسياسي، دَرَسَ في جامعات لوزان وهايدلبرج وبرلين. سافر إلى إسبانيا والسودان واليونان وتركيا قبل حصوله على الدكتوراه عام 1899 - المترجم.

[←1084]

.Habermas, ‘Debates in Islam’, 234–5

[←1085]

يشير الدبلوماسيون الأوربيون المعاصرون، غالبًا، إلى الحكومة العثمانية باسم «الباب العالي» Sublime Porte. وهي ترجمة فرنسية للتعبير التركي Bâbıâli، («High Gate», or «Gate of Eminent»)، اسم بوابة في إسطنبول تُؤدِّي إلى مباني الأقسام الرئيسية للحكومة، بما فيها وزارة الخارجية - المؤلف.

[←1086]

المسألة الشرقية: تعبير يشير إلى وجود العثمانيين المسلمين في أوربا، وضرورة طردهم منها واستعادة القسطنطينية التي سقطت في أيدي العثمانيين عام 1453، وما لَحِقَ المصالحَ الأوربية من تهديد في هذه المنطقة بسبب الوجود العثماني فيها. يدل المصطلح على العَزْم الأوربي لتصفية رجل أوربا المريض (السلطان العثماني) في البلقان، وبخاصة بعد النجاح في طرد المسلمين من شِبْه جزيرة أيبريا بسقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس - المترجم.

[←1087]

البوسفور: أو مضيق إسطنبول، يصل بين البحر الأسود وبحر مَرْمَرة، ويُكوِّن مع مضيق الدردنيل الحدودَ الجنوبية بين قارتيْ آسيا وأوربا - المترجم.

[←1088]

.Berghahn, *Germany and the Approach of War*, 138ff

[←1089]

.McMurray, *Distant Ties*, KL 1808–21

[←1090]

ماكس فون أوبنهايم: (1860 - 1946)، رحالة وعالِم آثار وديبلوماسـي ألماني - المترجم.

[←1091]

.Landau, *Pan-Islam*, 94–8

[←1092]

.Geiss, *July 1914*, doc. 135

[←1093]

هيلموت فون مولتكه الأصغر: (1848 - 1916)، قائد عسكري ألماني، تَولّى رئاسةَ الأركان من عام 1906 حتى عام 1914، وهو ابن أخ هيلموت فون مولتكه الأكبر الذي قاد الجيشَ البروسّيَّ إلى النصر في معركة سيدان عام 1870 ضد الفرنسيين في الحرب الفرنسية البروسّية. لم يلتزم مولتكه الأصغر، مع بداية اشتعال الحرب العالمية الأولى يوم 28 يوليو 1914، بتطبيق خطة شليفن المعتمدة منذ عام 1905 التي توضِّح البرنامج الدقيق لغزو روسيا وفرنسا في آنٍ معًا عند إعلان ألمانيا الحرب. وحين هُزِمَ الألمان من الفرنسيين في معركة المارن الأولى استقال مولتكه من رئاسة الأركان. وقال النقاد العسكريون إن مولتكه الأصغر لم يأخذ من عَمِّه سوى اسمه فقط - المترجم.

[←1094]

Motadel, *Islam and Nazi Germany’s War*, 19f

[←1095]

McMurray, *Distant Ties*, KL 1826–38

[←1096]

هانس فرايهِر فون فانجنهايم: (1859 - 1915)، ديبلوماسي ألماني، تُوفِّي إثر سكتة دماغية شُخِّصَتْ على أنها نتيجة ميول عصبية مفرطة. كان له دور كبير في تأمين دخول الإمبراطورية العثمانية إلى الحرب بجانب ألمانيا، فأشرف على تنفيذ الخطة الهادفة إلى إقناع السلطان العثماني بإعلان الجهاد ضد قوات التحالف.

وخلال فترة الإبادة الجماعية للأرمن، أُثيرت اتهاماتٌ بالتواطؤ الألماني، وبخاصة عدم تدخُّل فانجنهايم الذي انتقد موقفه بحدة السفيرُ الأمريكي في الدولة العثمانية - المترجم.

[←1097]

الجنرال ليمان فون زاندرس: (1855 - 1929)، عسكري ألماني خَدَمَ بوصفه مستشارًا وقائدًا عسكريًا للدولة العثمانية - المترجم.

[←1098]

الأتراك الشبان: حركة قومية تركية تَشكَّلتْ أوائل القرن العشرين من المنفيين العثمانيين والطلاب والموظفين المدنيين وضبّاط الجيش، استهدفت إحلالَ حكومة دستورية محلَّ النظامِ المَلَكي الإمبراطوري المطلق، فتمرَّدَ أعضاؤها على السلطان عبد الحميد الثاني عام 1908 فيما عُرِفَ ب«ثورة تركيا الفتاة»، الأمر الذي أدَّى إلى تأسيس حقبة دستورية ثانية وظهور تعدُّد الأحزاب لأولَ مرة في تاريخ البلاد. وبعد عام 1908، بدأت جمعيةُ الاتحاد والترقِّي - المظلة السياسية لحركة الأتراك الشبان - سلسلةَ إصلاحات سياسية وتحديث عسكري في جميع أنحاء البلاد. ثم بدءًا من عام 1911، حدث انقسامٌ داخل الأتراك الشبان، وانتهى الصراع بينهما عام 1913 عندما استولى القادة الكبار - الباشوات الثلاثة بقيادة طلعت - على الحُكْم ومارسوا سيطرةً مطلقة على الإمبراطورية من عام 1913 حتى عام 1918، الأمر الذي جعل الحُكْم العثماني في هذا التوقيت أقرب إلى ألمانيا - المترجم.

[←1099]

أنور باشا: (1881 - 1922)، قائد عسكري عثماني، وأحد قادة حركة تركيا الفتاة. عُيِّنَ رئيس أركان الفيلق الثالث بولاية مناستر، وهناك انضمَّ إلى جمعية الاتحاد والترقِّي وجذب إليه الجنرال محمود شوكت. شارك في ثورة 1908 ضد السلطان عبد الحميد الثاني، كما شارك في حرب طرابلس ضد الإيطاليين، ثم عاد إلى إسطنبول ليصبح وزير الحربية. هزمه الرُّوسُ على جبهة القوقاز أثناء الحرب العالمية الأولى، وتَوَجَّه إلى إسطنبول لقيادة القوات في معركة جاليبولي. قُتِلَ في بخارى أثناء الحروب ضد الدولة البُلْشفية في وسط آسيا عام 1922. وهو أحد الباشوات الثلاثة الذين حكموا الدولةَ العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى - المترجم.

[←1100]

طلعت باشا: (1874 - 1921)، أسَّسَ جمعيةَ الحرية العثمانية، وأحد مؤسِّسي جمعية الاتحاد والترقِّي، وأحد أهم صانعي السياسة في الدولة العثمانية في الفترة من عام 1908 حتى عام 1918. لعب دورًا مهمًا في دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى وترحيل الأرمن وإبادتهم الجماعية. بعد الهزيمة في الحرب، فرَّ هاربًا مع جمال باشا وقُتِلَ في برلين على يد ناشط أرمني. وجمال باشا هذا، ثالث الباشوات الثلاثة، لعب دورًا قويًا في القمع العنيف للجمعيات السرّية في دمشق وبيروت، فأعدم الكثيرَ من الوطنيين القائلين بالقومية العربية في عاميْ 1915 و1916 - المترجم.

[←1101]

.Ibid., KL 1850–56

[←1102]

.Rogan, *Fall of the Ottomans*, 40f

[←1103]

.Rogan, ‘Rival Jihads’, 3f

[←1104]

McMeekin, *Berlin–Baghdad Express*, 87

[←1105]

.Ibid., 376, n.8

[←1106]

محمد رشاد الخامس: (1844 - 1918)، السلطان الخامس والثلاثون للدولة العثمانية، تولّى الحُكْمَ بعد خلع أخيه عبد الحميد الثاني عام 1909. في عهده، أحكمت حكومةُ الاتحاد والترقّي قبضتَها على السلطة بقيادة الباشوات الثلاثة - المترجم.

[←1107]

.Ibid., 124

[←1108]

The Ottoman Sultan's Fetva: Declaration of Holy War', 15 November 1914 in Charles F. Horne' (ed.), *Source Records of the Great War,* vol. III (New York: National Alumni, 1923): .http://www.firstworldwar.com/source/ottoman_fetva.htm

[←1109]

.Motadel, *Islam and Nazi Germany’s War*, 19

[←1110]

.McMeekin, *Berlin–Baghdad Express*, 125

[←1111]

.Schwanitz, 'Bellicose Birth', 186–7

[←1112]

صالح الشريف التونسي: (1869 - 1920)، عالِمٌ تونسي، تَلقَّى تعليمَه في جامع الزيتونة، قَاوَمَ الغزوَ الفرنسي لتونس. تعاون مع مكتب استخبارات الشرق الألماني أثناء الحرب العالمية الأولى. ونشط في ميدان مقاومة الاستعمار بالتعاون مع الأمير شكيب أرسلان. له مناظرات دينية في الحجاز مع أحد أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومناظرة أخرى مع الشيخ محمد رشيد رضا، كما ناظر غيرهما من علماء الدين المتشدِّدين - المترجم.

[←1113]

عبد العزيز جاويش: (1876 - 1929)، شيخ مصري، وأحد روّاد الإصلاح والعمل الوطني وأحد مناصري الخلافة العثمانية، تعلَّمَ في الأزهر وتخرَّج في دار العلوم. هاجر إلى تركيا، وبعد سقوط الدولة العثمانية عاد إلى القاهرة. أسَّسَ جمعيةَ المواساة الإسلامية. كانت له اتصالات بمكتب استخبارات الشرق الألماني - المترجم.

[←1114]

.Motadel, *Islam and Nazi Germany's War*, 21–5

[←1115]

أوبنهايم هو الذي اكتشف وحَفَرَ موقعًا أثريًا غنيًا في تلِّ حلف شمال شرق سوريا، موقع دولة المدينة الآرامية القديمة في جوزانا Guzana أو جوزان Guzan [في الألف الأول قبل الميلاد] - المؤلف.

[←1116]

.McMeekin, *Berlin–Baghdad Express*, 135. See also Morgenthau, *Secrets of the Bosphorus*, 110

[←1117]

.Landau, *Pan-Islam*, 98; Zürcher, *Jihad and Islam in World War I*, 83

[←1118]

.'McKale, 'British Anxiety .

[←1119]

فيلهيلم فاسموس: (1880 - 1931)، ديبلوماسي ألماني وعميل مخابرات ألماني. وفقًا للتقارير البريطانية، حاول إثارةَ المتاعب للبريطانيين في الخليج الفارسي أثناء الحرب العالمية الأولى، بوصفه عضوًا في بعثة نيدرماير - المترجم.

[←1120]

.’Al-Rawi, ‘John Buchan’s British-Designed Jihad

[←1121]

إدجار بروبستر: (1879 - 1942)، ديبلوماسي ألماني ومستشرق، درس في جامعة لايبزيج - المترجم.

[←1122]

.’McKale, ‘British Anxiety

[←1123]

أوسكار ريتر فون نيدرماير: (1885 - 1948)، جنرال ألماني وبروفيسور ارتبط بجامعتيْ ميونيخ وبرلين، وعميل مخابرات من طراز رفيع، يُشَارُ إليه أحيانًا باسم «لورانس الألماني». ذهب إلى بلاد فارس وأفغانستان أثناء الحرب العالمية الأولى لتحريض الأمير حبيب الله خان على مهاجمة الهند البريطانية - المترجم.

[←1124]

فيرنر أوتو فون هنتيج: (1886 - 1984)، ضابط في الجيش الألماني ومغامر ودبلوماسي. كلَّفه القيصر، وهو برتبة ملازم، برحلة استكشافية إلى آسيا الوسطى، في إطار ما يُسمَّى «اللعبة الكبرى» التي تعود جذورها إلى الخصومات الفيكتورية بين روسيا والهند البريطانية. في عام 1909، انضم إلى الخدمة الدبلوماسية الألمانية وشارك مع نيدرماير في محاولة تجنيد الأفغان والهجوم على الهند البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى. ورغم انتقاده النظام النازي فقد خدم فيرنر في الرايخ الثالث، ولعب دورًا أساسيًا في نقل آلاف اليهود من ألمانيا إلى فلسطين خلال ثلاثينيات القرن العشرين. وفي عام 1935، تعرَّض لعدة محاولات اغتيال - المترجم.

[←1125]

.Motadel, *Islam and Nazi Germany's War*, 21–5

[←1126]

.' "Gussone, 'Die Moschee im Wünsdorfer "Halbmondlager

[←1127]

.Fogarty, 'Islam in the French Army', 25f

[←1128]

.Trumpener, *Germany and the Ottoman Empire*, 117f

[←1129]

.McMeekin, *Berlin–Baghdad Express*, 283

[←1130]

Zürcher, 'Introduction', 24. See also Aksakal, ' "Holy War Made in Germany?" ' and 'Ottoman Proclamation of Jihad.'

[←1131]

جاليبولي: بعد تكبُّد القوات الروسية خسائر فادحة أمام الألمان على الجبهة الشرقية، طلب الروس المساعدة من بريطانيا وفرنسا من أجل تخفيف الضغط الألماني، فبدأ التخطيطُ لشَنّ حملة عسكرية بريطانية وفرنسية مشتركة بهدف احتلال العاصمة العثمانية إسطنبول. بدأت معارك الحملة في شِبْه جزيرة جاليبولي على مضيق الدردنيل عام 1915. وباءت بالفشل بسبب التكتيكات العسكرية الناجحة التي اتبعها القائد العسكري العثماني مصطفى كمال (المعروف لاحقًا باسم كمال أتاتورك)، وعلى إثر النصر لمع نجمُه بين العثمانيين - المترجم.

[←1132]

رجل أوربا المريض: عبارة تصف الإمبراطورية العثمانية بدءًا من أواخر القرن السابع عشر حين فشلت في حصار فيينا وفتحها عام 1683، فأمست في القرنين الأخيرين من عمرها تُعْرَفُ باسم «رجل أوربا المريض»، إذ وصلت إلى درجة من الضعف تمنعها من مزيد من الفتوحات التي اعتادتها في قرونها الأربعة الأولى، بل تمنعها من الدفاع عن ممتلكاتها في الأطراف العربية ضد الطامحين من الحُكّام المحليين، أو الطامعين الأوربيين مثل فرنسا في الجزائر وتونس، وبريطانيا في مصر والخليج. ولكن تنافس الدول الأوربية نفسها في وراثة رجل أوربا المريض هو الذي أَخَّرَ موته الطبيعي، بالإضافة إلى صعود السلطان عبد الحميد الثاني إلى عرش الإمبراطورية بدءًا من عام 1876 حتى عام 1909، ولجوئه إلى مساعدة ألمانيا في تحديث جيشه وإجراء عمليات إصلاح جزئي في الإدارة الإمبراطورية - المترجم.

[←1133]

اتحاد المنتفق: اتحاد عربي كبير في جنوب ووسط العراق بين قبائل معظمها شيعي - المترجم.

[←1134]

.Rutledge, *Enemy on the Euphrates*, 33–7

[←1135]

ليو فروبينيوس: (1873 - 1938)، إثنولوجي ألماني وأركيولوجي وشخصية بارزة في الإثنوجرافيا الألمانية. صَاحَبَ الجيشَ الألماني أوقاتًا في الحرب العالمية الأولى لأغراض علمية - المترجم.

[←1136]

.McKale, ‘Germany and the Arab Question’, 249f., n.13

[←1137]

ألويس موزيل: (1868 - 1944)، أحد مستشرقي الإمبراطورية النمساوية المجرية، أستاذ جامعي وأحد مشاهير الرحالة الأوربيين الذين قاموا بزيارة شِبْه الجزيرة العربية أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، اكتشف في عام 1898 قصور بني أمية الصحراوية. عاش في بلاد الشام وشمال شرق شِبْه الجزيرة العربية، مُتَسَمِّيًا باسم الشيخ موسى الرويلي. صنَّف دراساته تحت عناوين مثل: شمال نجد وشمال الحجاز وأخلاق الرّولة وعاداتهم ومرتفعات وتضاريس بلاد الشام - المترجم.

[←1138]

.Ibid., 238f

[←1139]

.’Al-Rawi, ‘John Buchan’s British-Designed Jihad

[←1140]

.Schwanitz, ‘Bellicose Birth’, 195f

[←1141]

عباادان أو عبدان: مدينة في خوزستان جنوب غرب إيران على ضفاف نهر شط العرب - المترجم.

[←1142]

آرل: بلدية في إقليم بوش دو رون جنوب فرنسا - المترجم.

[←1143]

.Fogarty, ‘Islam in the French Army’, 31–3

[←1144]

.Ahmad, ‘Great War and Afghanistan’s Neutrality’, 203–12

[←1145]

.Rogan, ‘Rival Jihads’, 6–7

[←1146]

جيرترود بِلْ: (1868 - 1926)، باحثة ومستكشفة وعالِمة آثار بريطانية، عملت مستشارة للمندوب السامي في العراق بيرسي كوكس خلال عقد العشرينيات من القرن العشرين، ولعبت دورًا بالغ الأهمية في ترتيب أوضاع العراق بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، إذ كانت أهم مساعدة للمندوب السامي البريطاني في هندسة مستقبل العراق. حين وفاتها شارك الملك فيصل الأول في تشييع جنازتها ودُفِنَتْ في مقبرة الإنجليز في باب المعظَّم وسط بغداد - المترجم.

[←1147]

رونالد ستورز: (1881 - 1955)، مسؤول في الخارجية البريطانية والمكتب الاستعماري. شغل منصب السكرتير الشرقي في القاهرة، والحاكم العسكري للقدس وحاكم قبرص وحاكم روديسيا الشمالية - المترجم.

[←1148]

مكتب الهند: إدارة حكومية بريطانية تأسَّستْ في لندن عام 1858 للإشراف على إدارة مقاطعات الهند البريطانية من خلال نائب الملك البريطاني ومسؤولين آخرين. في عام 1947 أُغْلِقَ مكتب الهند، وانتقلت اختصاصاته ذات الطابع الجديد إلى مكتب علاقات الكومنولث Commonwealth Relations Office المُسَمَّى سابقًا Dominions Office - المترجم.

[←1149]

.Darwin, *Empire Project*, 295–7

[←1150]

سير توماس ويليام هولدرنس: (1849 - 1924)، أول عضو سابق في الخدمة المدنية الهندية يُعَيَّنُ في منصب وكيل وزارة الخارجية الدائم في مكتب الهند - المترجم.

[←1151]

.McKale, *War by Revolution*, 171

[←1152]

نصح خبراءُ بريطانيا من المستشرقين بضرورة التركيز على الشريف حسين في مكة واستقطابه إلى جانبها بوصفه حليفًا عند اندلاع الحرب. وفي هذه الحالة، مهما كانت نتائج الدعوة إلى الجهاد، فقد ضمنت بريطانيا أن مجرد شَقِّ الصفِّ سيكون كفيلاً بتحاشي أي استقطاب ديني في الصراع المرتقب، وهذا ما أخذت به الحكومة البريطانية ولم تُضِعْ وقتًا - المترجم.

[←1153]

.'McKale, 'British Anxiety

[←1154]

.Rutledge, *Enemy on the Euphrates*, 33–7

[←1155]

.Cleveland and Bunton, *History of the Modern Middle East*, 132f

[←1156]

جمعية العَهْد: جمعية سرِّية أسَّسها الضابطُ عزيز المصري ورفاقه من العسكريين العرب أمثال رشيد عالي الكيلاني ونوري السعيد وجميل المدفعي، للعمل على مناهضة الأتراك والمطالبة باستقلال العرب عن الإمبراطورية العثمانية وعن القوى الأجنبية على حد سواء. وذلك بعد فشل حركتهم في جمعية «القحطانية الفتاة» السرِّية التي طالبوا من خلالها بإصلاح سياسي دستوري على مستوى الإمبراطورية العثمانية ولامركزية الإدارة الإمبراطورية، أيْ الحكم الذاتي للأقاليم العربية. ولما اصطدموا حينئذٍ بالتعصب للعنصرية الطورانية الغالب على جمعية تركيا الفتاة ونواتها الصلبة لجنة الاتحاد والترقي، فكَّكوا جمعيتَهم «القحطانية الفتاة»، وأسَّسوا جمعية «العهد». اعتقلت السلطاتُ العثمانية عزيز المصري قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى بأشهر قليلة وحكمت عليه بالإعدام بتهمة العمالة لإيطاليا، وقبل التنفيذ تسرَّبَ الخبرُ فاشتعلت مظاهرات في المدن العربية ضد الإمبراطورية العثمانية استغلتها بريطانيا للتودُّد إلى العرب فضغطت على السلطات العثمانية من أجل إلغاء العقوبة وأُفْرِجَ عن عزيز المصري - المترجم

[←1157]

الاسم الصحيح هو جمعية «العربية الفتاة»: جمعيَّة سياسية قومية عربية سرِّية، لها اتصالات قوية بجمعية العهد. أنشأها مجموعة من الطلاب العرب في باريس عام 1911 ردًّا على جمعية الاتحاد والترقي التركية التي صارت تدعو إلى سياسة التتريك. أثَّرت «جمعية العربية الفتاة» في الفكر القومي العربي ومهَّدت للمؤتمر العربي في باريس عام 1913، وأسهمت في التمهيد للثورة العربية الكبرى التي انطلقت في الحجاز عام 1916، ولا سيما بعد أن أصبح جمال باشا حاكمًا على سوريا وبلاد الشام منذ عام 1915 وإطلاقه أحكامًا بالإعدام على أعضائها في سوريا. مؤسِّسوها السبعة الأوائل هم: عوني عبد الهادي ورفيق التميمي ومحمد عزة دروزة من فلسطين، محمد البعلبكي ومحمد رستم حيدر من لبنان، جميل مردم بك من سوريا، توفيق السويدي من العراق - المترجم.

[←1158]

بروتوكول دمشق: أرسل الشريفُ حسين ابنَه الملك فيصل بن الحسين إلى دمشق عام 1914 للاتصال بزعماء الحركة القومية العربية ليعرض عليهم الموقف واتصالاته بالإنجليز، واتفقت كلمتهم على قبول عروض الإنجليز وعلى زعامة الشريف حسين للثورة، وأعطى زعماءُ جمعيتيْ «العربية الفتاة» و«العهد» خريطةً تُعيِّنُ حدودَ الدولة العربية كي يسعى الشريف حسين على أساسها إلى نَيْلِ الاستقلال، كما وضعوا مخططًا بالمطالب التي يريدونه أن يتفاوض على أساسها مع الإنجليز، وعُرِفَتْ هذه الحدود والمطالب ب«بروتوكول دمشق» - المترجم.

[←1159]

.Rogan, *Fall of the Ottomans*, 280f

[←1160]

معركة جاليبولي سبقت الإشارة إليها، أما معركة «كوت العمارة» فهي قرية على نهر دجلة احتلتها القوات البريطانية بعد احتلال البصرة يوم 23 نوفمبر عام 1914، ثم حاولت التقدم إلى جنوب بغداد، فتصدَّتْ لها القوات التركية بمساعدة العشائر حتى اضطرتها إلى التراجع احتماءً بكوت العمارة، وفُرِضَ الحصارُ على الكوت مدة 15 شهرًا حتى اضطرت القوات البريطانية إلى الاستسلام يوم 1 مايو 1916 - المترجم.

[←1161]

.’McKale, ‘British Anxiety

[←1162]

جيلبرت كليتن:1875 - 1929، ضابط مخابرات عسكرية بريطاني ومدير استعماري. عمل في العديد من بلدان الشرق الأوسط أوائل القرن العشرين وأشرف في مصر، أثناء الحرب العالمية الأولى، بوصفه ضابط مخابرات، على بدء إشعال الثورة العربية بقيادة الشريف حسين. وساعد في فلسطين وبلاد ما بين النهرين، بوصفه مديرًا استعماريًا، على التفاوض بشأن حدود الدول التي ستصبح فيما بعد إسرائيل والأردن وسوريا والمملكة العربية السعودية والعراق - المترجم.

[←1163]

.McKale, ‘Germany and the Arab Question’, 246; Rogan, ‘Rival Jihads’, 14–16

[←1164]

وافق مكماهون على الحدود التي اقترحها حسين مع الاستثناءات الآتية: يُسْتَبْعَدُ من حُكْمه قيليقية Cilicia (حاليًا في جنوب شرق تركيا) وتلك «الأجزاء من سوريا الواقعة غرب مناطق دمشق وحمص وحماة وحلب» التي أعلنت فرنسا عن نفوذها فيها، وتأييد المطالب البريطانية في ولايات بغداد والبصرة في بلاد ما بين النهرين. وقد اندمجت الخطط الأنجلوفرنسية في سوريا وبلاد ما بين النهرين في اتفاقية مايو 1916 الشهيرة بين السير مارك سايكس Sir Mark Sykes وفرانسوا جورج بيكو François Georges - Picot [اتفاقية سايكس بيكو]، التي قدَّمت تصوُّرًا كاملاً لتقسيم الإمبراطورية العثمانية فيما بعد الحرب - المؤلف.

[←1165]

.Rogan, *The Arabs*, 150f

[←1166]

.Ibid., 151f

[←1167]

توماس إدوارد لُورَنس: (1888 - 1935)، الشهير ب«لورنس العرب». ضابط بريطاني أنجز مهمته ببراعة خلال الثورة العربية عام 1916. قال عنه تشرشل: لن يظهر له مثيل مهما كانت الحاجة ماسة إليه. لقي مصرعه بسبب سقوطه من على دراجته البخارية يوم 19 مايو 1935 - المترجم.

[←1168]

.’McKale, ‘British Anxiety

[←1169]

.McKale, ‘Germany and the Arab Question’, 244

[←1170]

انتفاضة عيد الفصح: تمرُّد مسلّح في أيرلندا أثناء عيد الفصح عام 1916، أرسلت ألمانيا شحنة أسلحة إلى المتمردين، ولكن التمرد فشل بسبب السيطرة البريطانية العنيفة وفَرْض الأحكام العُرْفية وإعدام 15 قائدًا من أصل 16 - المترجم.

[←1171]

تُقَدَّرُ الأموال بخمسين مليون مارك ذهبي (12 مليون دولار) وُجِّهت إلى لينين ومساعديه، الكثيرُ منها غُسِلَتْ عبر عمليات استيراد تجارية روسية أدارتها سيدةٌ تُدْعَى إفجينيا سومينسون Evgeniya Sumenson. ولو عَادَلْنا هذا المبلغ على أساس ارتفاع أجور العمالة غير الماهرة، فهو يساوي حوالي 800 مليون دولار اليوم - المؤلف.

[←1172]

McMeekin, *Russian Revolution*, 127–36

[←1173]

في المؤتمر الثاني للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي المنعقد عام 1903 الذي حدث فيه الانشقاق التاريخي إلى بلاشفة (أكثرية) تتبنَّى التغيير الثوري العنيف، ومناشفة (أقلية) تتبنَّى التغيير السِّلْمي، انضمَّ تروتسكي أولاً إلى المناشفة، ثم انفصل عنهم، واتخذ موقفًا مستقلاً عن كلا الجناحين معًا، إذ وضع ما يُعْرَفُ ب«الثورة الدائمة»، ثم عاد ليشارك مع لينين في ثورة أكتوبر 1917 - المترجم.

[←1174]

أيام يوليو: تشير إلى الأحداث التي وقعت في بتروجراد في روسيا، حين شارك الجنود وعمال المصانع في مظاهرات مسلحة ضد الحكومة الروسية المؤقتة، التي ألقت باللوم على البلاشفة بسبب العنف الجاري في الشوارع، وفي حملة قمع عنيفة اعتقلت الحكومةُ المؤقتة العديدَ من قادة البلاشفة. وبينما تمكَّن لينين من الفرار أُلْقي القبض على تروتسكي - المترجم.

[←1175]

كتيبة الموت النسائية: وحدات قتالية نسائية شكَّلتها الحكومةُ المؤقتة بعد ثورة فبراير في محاولة منها لإلهام جموع الجنود المُجْهَدين من الحرب لمواصلة القتال في الحرب العالمية الأولى. وخلال عام 1، أُنْشِئ خمسة عشر تشكيلاً، منها كتيبةُ الموت الروسية الأولى وهي وحدة منفصلة تُسَمَّى كتيبة بتروجراد النسائية الأولى، وكتيبة الموت الثانية في موسكو - المترجم.

[←1176]

قصر الشتاء: يقع في سان بطرسبرج في روسيا، وهو المقر الرئيسي لإقامة قياصرة روسيا منذ عام 1732 حتى سقوط الحكم القيصري - المترجم.

[←1177]

.Ibid., 206f

[←1178]

سيرجي آيزنشتاين: (1898 - 1948)، منتج أفلام ومخرج روسي، لا تزال أعماله الفنية في الأيام الأولى لصناعة السينما تؤثِّر في مُخْرِجي القرن الحادي والعشرين. عُرِضَ فيلمُه «عشرة أيام هزَّت العالَم» في الذكرى العاشرة لثورة أكتوبر الروسية، ثم أُعِيد تحريرُ الفيلم وإصداره دوليًا بعد رواج كتاب جون ريد عن الثورة الروسية - المترجم.

[←1179]

وفي الواقع نشب اقتتالٌ أخطر بكثير في موسكو، بما في ذلك الاقتتال التلاحمي الشرس داخل الكريملين - المؤلف.

[←1180]

جاليسيا: معركة كبيرة على الجبهة الشرقية في الحرب العالمية الأولى، دارتْ بين القوات الروسية والإمبراطورية النمساوية المجرية، في المنطقة المعروفة ب«أوكرانيا» حاليًا - المترجم.

[←1181]

.Ibid., 155f

[←1182]

.Ibid., 163

[←1183]

.Ibid., 174

[←1184]

.Ibid., 195f

[←1185]

السوفييت: كلمة روسية تعني «المجلس»، أُطْلِقَتْ على «مجلس وزراء القيصر» في الإمبراطورية الروسية، ثم مع أواخر الإمبراطورية صارت تطلق على المجموعات الثورية الروسية، وتأسَّسَ أولُ مجلس إبان الثورة العمالية عام 1905. ثم بعد سقوط القيصر، تشكلت المجالس في كافة أنحاء روسيا عام 1917 فضمَّت عمالاً وفلاحين وعسكريين. وفي الاتحاد السوفييتي السابق أُطْلِقَتْ الكلمة على مجالس المحليات والأقاليم. أما السوفييت الأعلى فهو برلمان الاتحاد السوفييتي ذو النظام التشريعي الثنائي (نظام المجلسين) - المترجم.

[←1186]

كرونشتات أو كرونستدت: إحدى مدن روسيا، وتقع على جزيرة كوتلين في الخليج الفنلندي بحر البلطيق - المترجم.

[←1187]

في انتخابات الجمعية التأسيسية Constituent Assembly يوم 12 نوفمبر عام 1917، فاز الثوّار الاشتراكيون Socialist Revolutionaries ب40% من مجموع المُصوِّتين البالغ 41 مليونًا، في مقابل 24% للبلاشفة. الفلاحون اعتبروا الثوَّارَ الاشتراكيين حزبهم [الحزب الاشتراكي الثوري] - المؤلف.

[←1188]

غاز الخردل: استخدمه الجيشُ الألماني لأول مرة في الحرب العالمية الأولى ضد البريطانيين والكنديين بالقرب من إبريس ببلجيكا عام 1917، وضد الجيش الثاني الفرنسي. ولما استولى البريطانيون عليه من الألمان استخدموه بعد تطويره في سبتمبر عام 1918 أثناء كسر خط هيندينبيرج، شبكة الدفاع الواسعة التي شيَّدها الألمانُ شمال شرق فرنسا. والخردل مركب كيميائي عضوي في صورة سائل يصدر بخارًا خطرًا يسبب حروقًا وتقرُّحًا في الجلد، ويسبب القيء والإسهال، ويلحق أضرارًا بالأعين والأغشية المخاطية والرئتين. أخطرُ تأثيراته طويلة الأجل السرطانُ بسبب تلف الحمض النووي، كما أنه يُغيّرُ نظامَ الخلايا الوراثية - المترجم.

[←1189]

الإشارة هنا إلى ثورة نوفمبر 1918/1919 في ألمانيا التي أنهت القيصريةَ الألمانية فتحوَّلت ألمانيا من نظام مَلكي فيدرالي دستوري إلى جمهوريةِ برلمانية ديمقراطية. بدأت شرارة الثورة يوم 24 أكتوبر عام 1918 عندما أعلن البحارةُ الألمان عصيانَ الأوامر العسكرية الصادرة من القيادة البحرية الألمانية في ميناء فيلهيلمسهافن. وسرعان ما اجتاحت الاضطراباتُ جميعَ أنحاء الإمبراطورية الألمانية في غضون بضعة أيام، وأدَّت في النهاية إلى إعلان الجمهورية يوم 9 نوفمبر عام 1918، فتنحَّى القيصر فيلهيلم الثاني عن العرش وهرب من البلاد. وخوفًا من اشتعال حرب أهلية لم يُجَرِّد الحزبُ الديمقراطي الاجتماعي الألماني النُّخْبةَ الألمانية القديمة من سلطاتها وامتيازاتها فأدمجها في النظام الديمقراطي الاشتراكي الجديد. ومع ذلك، اندلعت أعمال شغب واسعة عُرِفَتْ باسم «انتفاضة سبارتاكوس الشيوعية»، ولكن الجيش والميليشيات القومية استطاعا قَمْعَ انتفاضات اليسار حتى هدأت البلاد تمامًا بحلول أواخر عام 1919 - المترجم.

[←1190]

.Figes, *People's Tragedy*, 703

[←1191]

ماكسيمليان روبسبيير: (1758 - 1794)، مُحامٍ وزعيم سياسي فرنسي. أحد أهم الشخصيات المؤثرة في الثورة الفرنسية، وأحد الوجوه الرئيسية في عهد الإرهاب. انتُخِبَ نائبًا لرئيس مجلس الطبقات في عام 1789 عشية اندلاع الثورة الفرنسية، ثم التحق بالجمعية التأسيسية الوطنية. وفي عام 179، انتُخِبَ رئيسًا لنادي اليعاقبة. في عام 1792، ألحَّ على مطلب إعدام الملك لويس السادس عشر وعائلته، وتمَّ التنفيذ عام 1793. وسرعان ما انتُخِبَ عضوًا في «الهيئة التنفيذية العليا» و«لجنة السلامة العامة». أصبح مسيطرًا على الحكومة الفرنسية في لحظةٍ عانَتْ فيها البلاد من إضرابات سياسية واجتماعية. وبهدف استعادة النظام وتقليل خطر الغزو الخارجي، بدأ روبسبيير في القضاء على مَن اعتبرهم «أعداء الثورة»، فأَعْدَمَ معظمَ زعماء الثورة الفرنسية، وآخرين بالآلاف. ثم انتُخِبَ رئيسًا للمؤتمر الوطني. تَخوَّفَ عددٌ من كبارِ أعضاء المؤتمر الوطني على سلامتهم فدبَّروا مؤامرة ضد روبسبيير وأعوانه حتى اقتادوه مع مئة من أتباعه إلى المقصلة، وهو ما أنهى عهدَ الإرهاب - المترجم.

[←1192]

.McMeekin, *Russian Revolution*, 260ff

[←1193]

الإعدام التحذيري exemplary execution: المقصود به تنفيذ عمليات إعدام بهدف تحذير الآخرين من ملاقاة المصير نفسه إنْ لم يمتثلوا، وهو أعنف أنواع التحذير - المترجم.

[←1194]

الكولاك: هم الفلاحون من ذوي الدخل المرتفع مالكو الأراضي الزراعية الأكبر مساحةً، ويليهم «السيريدنياك» وهم الفلاحون من ذوي الدخل المتوسط، ويليهم «بيدنياك» وهم الفلاحون الفقراء، ويرقد في القاع مَن يُسَمّون «باتراك» الذين لا يملكون أية أراضٍ زراعية ويعملون بالأجرة في أراضي الغير - المترجم.

[←1195]

.Figes, *People's Tragedy*, 630

[←1196]

.Volkogonov, *Lenin*, 69f

[←1197]

فاني كابْلِن: (1890 - 1918)، هي فانيا يفيموفا كابْلِن، وتُعْرَفُ أيضًا باسم دورا كابْلِن. ثورية اشتراكية روسية أطلقت الرصاصَ على لينين يوم 30 أغسطس عام 1918، مما أدَّى إلى إصابته بجروح خطيرة. قُبِضَ عليها مرتديةً ثيابًا سوداء، وكانت لامباليةً بشكل غير عادي. ثم بعد أربعة أيام، أُعْدِمَتْ رميًا بالرصاص في فناء الكريملين دون أن تعلم إن كانت نجحت في اغتيال لينين أم لا - المترجم.

[←1198]

الشيكا: تأسَّستْ هذه اللجنة يوم 5 ديسمبر عام 1917، وهي عبارة عن مجموعة تنظيمات من الشرطة السرِّية برئاسة البولندي المتحوِّل إلى الشيوعية فيليكس دزيرجينسكي، ثم بحلول أواخر عام 1918 ظهرت لجانُ شيكا عديدة في مختلف المدن الروسية - المترجم.

[←1199]

فيليكس دَزِرجينسكي: (1877 - 1926)، لعب دورًا مهمًا في الثورة الروسية وترأس الشيكا منذ تأسيسها حتى عام 1922 - المترجم.

[←1200]

.Figes, *People's Tragedy*, 631

[←1201]

.Leggett, *Cheka*, 108

[←1202]

الدوما: مجلس ذو وظائف استشارية أو تشريعية. أول دوما أنشأه القيصرُ نيكولاس الثاني هو دوما الدولة عام 1905. ورفضه في غضون 75 يومًا. ثم أُعيد انتخاب الدوما الثاني في غضون ثلاثة أشهر. وتم حلُّه عام 1917 أثناء الثورة الروسية - المترجم.

[←1203]

.Ferguson, *War of the World*, 206

[←1204]

.Service, *Twentieth-Century Russia*, 108

[←1205]

الجولاج أو معتقل سيبيريا: معسكرات اعتقال سوفييتية للعمل الإلزامي والسُّخْرة، تعرَّضَ المعتقلون فيها لأعنف أشكال القمع والتنكيل. يرجع تاريخها إلى عام 1918 بعد قيام الثورة البُلْشفية التي فجَّرَها لينين بمعاونة تروتسكي. صار الجولاج من معالم عصر ستالين الدموي. الكلمةُ اختصارٌ بالأحرف الأولى من كلمات «المديرية العامة للمعسكرات والمعتقلات» باللغة الروسية - المترجم.

[←1206]

أباراتشيك: تشير الكلمة إلى موظف سياسي بيروقراطي في الحزب الشيوعي بدوام كامل، وحتى هذا التاريخ كان يُعَدُّ الأباراتشيك من نوعية كبار الموظفين - المترجم.

[←1207]

نومِنكلاتورا: فئة من الموظفين داخل الاتحاد السوفييتي يشغلون مناصب إدارية رئيسية في مختلف مجالات النشاط، سواء في الجهاز الإداري الحكومي أو في مجالات الصناعة والزراعة والتعليم وغيرها، باعتماد من الحزب الشيوعي - المترجم.

[←1208]

.Kotkin, *Stalin*, vol. I, 433

[←1209]

محاكمة شاختي: أول محاكمة سوفييتية مهمة منذ قضية الحزب الاشتراكي الثوري عام 1922. ففي عام 1928 اعْتُقِلَتْ مجموعةُ مهندسين من بلدة شاختي شمال القوقاز بتهمة التآمر مع مالكي مناجم فحم سابقين يعيشون في الخارج لتخريب الاقتصاد السوفييتي. شكَّلَتْ محاكماتُ شاختي بدايةَ سلسلةٍ طويلة من الاتهامات ضد الأعداء الطبقيين داخل الاتحاد السوفييتي، وكانت بمثابة السمة المميزة للتطهير العظيم في ثلاثينيات القرن العشرين - المترجم.

[←1210]

محاكمة الحزب الصناعي: المُتَّهمون فيها مجموعة من العلماء والاقتصاديين والمهندسين السوفييت البارزين. اتُّهِموا بتشكيل «اتحاد منظمات المهندسين المُناهِضين للسوفييت» أو «الحزب الصناعي»، وحاولوا تدمير الصناعة وشبكة النقل داخل الاتحاد السوفييتي. وفي تطوُّرٍ ذي صلة بالقضية قُبِضَ على عدد من الأعضاء البارزين في أكاديمية العلوم الروسية - المترجم.

[←1211]

محاكمة مِترو فيكرز: أزمة دولية عجَّلت باعتقال سِتِّ رعايا بريطانيين كانوا موظفين في متروبوليتان فيكرز، وحاكمتهم السلطاتُ السوفيتية علانيةً بتهمة تدمير الاقتصاد والتجسُّس. حظيت المحاكمة بتغطية صحفية دولية، وولَّدَت انتقادات عامة واسعة النطاق بشأن انتهاكات مزعومة للعملية القانونية. أسفرت المحاكمة عن إدانة المتهمين وترحيلهم نهائيًا بعد ضغوط ديبلوماسية مكثفة - المترجم.

[←1212]

.Ferguson, *War of the World*, 152

[←1213]

مفوضية الشعب للشؤون الداخلية: مؤسسة سوفييتية جمعت بين أنشطتيْ الشرطة النظامية والشرطة السِرّية، وعملت على التنفيذ المباشِر للإرادة السياسية السوفييتية بما في ذلك القمع السياسي خلال عهد ستالين. كما أدارت المفوضيةُ نظامَ الجولاج الذي يشمل معسكرات الاعتقال والعمل القسْري، فضلاً عن قيامها بأنشطة تجسُّس وخطف واغتيال خارج حدود البلاد، والتأثير في سياسات داخلية لدول أخرى وإرساء مبادئ الستالينية في الحركات الشيوعية داخل تلك الدول - المترجم.

[←1214]

اختصار ل«مفوضية الشعب للشؤون الداخلية»Narodnyi Kommissariat Vnutrennikh Del. وقد أُعِيدَ تسميةُ الشيكا باسم GPU في عام 1922، ثم إلى OGPU عام 1923. وفي عام 1934، صارت تُسَمَّى اختصاراً NKVD - المؤلف.

[←1215]

.Applebaum, *Gulag*

[←1216]

.Service, *Twentieth-Century Russia*, 117f

[←1217]

البلاشفة القدماء: لقب يُطْلَقُ على أعضاء الحزب البُلْشفي الذين تمتعوا بعضويته قبل ثورة 1917، إذ كان لينين يَعْتبر انتماءَ المرء إلى «حرس الحزب القديم» شرفًا لا يضاهيه شرفٌ. ولكن ستالين أطاح بالكثير من أولئك البلاشفة القدامى فتعرَّضوا في عهده للمحاكمة والترحيل إلى معسكرات العمل القسْري (الجولاج)، والإعدام بتهمة الخيانة العظمى على يد «المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية» NKVD إبان سنوات التطهير الأعظم، وقضى بعضُهم الآخرُ نَحْبَه في ظروف غامضة، أما أفضلهم حظًا فأُبْعِدَ عن الحكومة المركزية وعن البلاد بتعيينهم سفراء بالخارج - المترجم.

[←1218]

سيرجي كيروف: (1886 - 1934)، صديق شخصي لجوزيف ستالين، وزعيم بُلْشفي بارز، ومسؤول فرع الحزب في لينينجراد. أُطْلِقَ عليه الرصاصُ يوم 1 ديسمبر عام 1934 في مكتبه. هناك اعتقاد شائع بأن ستالين وعناصر من «المفوضية الشعبية» وراء اغتياله، ولكن لم تثبت أدلةٌ على هذا. اتَّخَذَ ستالين من اغتياله ذريعةً لتصعيد القمع وعمليات التطهير داخل الحزب التي وصلت ذروتها أواخر الثلاثينيات المعروفة باسم سنوات التطهير الأعظم - المترجم.

[←1219]

.Ferguson, *War of the World*, 210

[←1220]

وهو عام وصول هتلر إلى السلطة في ألمانيا - المترجم.

[←1221]

جِنيريخ ياجودا: (1891 - 1938)، سياسي وثوري شيوعي، شارك في ثورة أكتوبر عام 1917، تقلَّدَ منصبَ مفوَّض الشعب للشؤون الداخلية في الفترة من عام 1934 حتى عام 1936، ثم عددًا آخر من المناصب. في عام 1937، أُقِيلَ ياجودا من جميع مناصبه الحكومية والحزبية، بتعليمات من ستالين لتقصيره في عمله، وتمَّ التحقيق معه فاعترف بأنه شارك في عملية اغتيال كيروف وبأنه قاد تحالفًا تروتسكيًا يمينيًا بهدف إسقاط السلطة السوفييتية وإحياء الرأسمالية. وفي عام 1938، أُعْدِمَ ياجودا رمْيًا بالرصاص - المترجم.

[←1222]

نيكولاي يزهوف: (1895 - 1940)، رئيس الشرطة السرِّية التابعة لستالين، عُرِفَتْ فترتُه ب«عصر يزهوف» حيث تولَّى عملية «التطهير الأعظم». عُزِلَ من كل مناصبه بعد أن علم ستالين بتنفيذه عمليات تصفية خارج نطاق التعليمات. خضع يزهوف للتحقيقات بتهمة الخيانة العظمى والجاسوسية والإرهاب، واعترف بأنه نفَّذَ عمليات إعدام لحسابه الشخصي. صدر عليه الحُكْم بالإعدام رمْيًا بالرصاص - المترجم.

[←1223]

لافرينتي بيريا 1899 - 1953، سياسي سوفييتي، تولّى العديد من المناصب الحكومية والحزبية كرئاسة البرلمان ثم المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية.

لعب أدوارًا مهمة خلال الحرب العالمية الثانية. ثم أشرف على صُنْع القنبلة الذرية السوفيتية. صار بيريا، بعد وفاة ستالين في مارس عام 1953، أحد أفراد «الترويكا» الحاكمة مع مالينكوف ومولوتوف اللذين دبَّرا انقلابًا ضده فحُوكِم بتهمة الخيانة، وأُعْدِمَ في 23 ديسمبر عام 1953 - المترجم.

[←1224]

.Ibid., 211–14

[←1225]

.Kotkin, *Stalin*, vol. II

[←1226]

الكساد العظيم أو الكبير: أزمة اقتصادية بدأت مع انهيار سوق الأسهم الأمريكية يوم 29 أكتوبر عام 192، المُسمَّى «الثلاثاء الأسود». كانت لها آثارها المدمِّرة على معظم الدول تقريبًا، فانخفضت التجارة العالمية إلى ما بين النصف والثلْثين، كما انخفض متوسط الدخل الفردي وعائدات الضرائب. وتأثرت الصناعات الثقيلة، وتوقفت أعمال البناء تقريبًا، كما تأثر المزارعون بهبوط أسعار المحاصيل إلى الثلْثين تقريبًا. استمرت آثار الأزمة على امتداد عقد الثلاثينيات من القرن العشرين. كان من تداعيات الكساد العظيم اضطراباتٌ سياسية دفعت المواطنين اليائسين إلى تأييد أشكال من الديماجوجية وتأويلات ماركسية متطرفة - المترجم.

[←1227]

الإشارة هنا إلى الإستراتيجية التي اتَّبعها موسوليني، الذي استغل مزاج الشعب الإيطالي وحالته النفسية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، فقام أولاً بتحويل الفاشية إلى حركة سياسية منظمة بعد اجتماع ميلانو 1919، ثم بعد دخوله البرلمان في عام 1921 نجحت الفاشية في تشكيل فرق مسلحة لإرهاب الفوضويين والاشتراكيين والشيوعيين، وهي الفرق التي تَفرَّعَ عنها لاحقًا تنظيم «القمصان السود». وبعد فشل الحكومة القائمة في ضبط الشارع، لجأ الملك إلى موسوليني لتشكيل حكومة جديدة، فأصبح أصغر رئيس وزراء يوم 31 أكتوبر عام 1922. ومنذ هذه اللحظة بدأ موسوليني عملية تركيز السلطة حوله - المترجم.

[←1228]

Calculated from the data in Laqueur, *Fascism* table 15, and Larsen, et al., *Who Were the Fascists?* table 1.

[←1229]

.Herf, *Jewish Enemy*, KL 463–9

[←1230]

الطيف الاجتماعي: يُقْصَدُ به التركيبة الاجتماعية من أعلاها إلى أدناها مرورًا بما بينهما - المترجم.

[←1231]

القضاء: وجمعها أقْضية، أحد التقسيمات الإدارية في ألمانيا، ويأتي في المرتبة الثالثة بعد الولاية والمنطقة الإدارية وقبل البلدية - المترجم.

[←1232]

.The definitive work is Falter, *Hitlers Wähler*

[←1233]

.’O’Loughlin, Flint and Anselin, ‘Geography of the Nazi Vote

[←1234]

.Ferguson, *War of the World*, 239

[←1235]

كتيبة العاصفة: جناح شِبْه عسكري للحزب النازي. لعبتْ دورًا رئيسيًا في صعود هتلر إلى قمة السلطة. كانت تُكِنُّ عداءً شرسًا لليهود والشيوعيين والرأسماليين وتُمارس العنفَ ضدهم. سُمِّيَ أفرادُ الكتيبةِ باسم «أصحاب القمصان البنية» نسبةً إلى لون زِيِّهِم العسكري. أنهى هتلر دورَهم عام 19 فيما عُرِفَ ب«ليلة السكاكين الطويلة» أو «عملية الطائر الطنَّان» أو ما يُعْرَفُ بالألمانية «روم بوتش»، وهي عملَية تطهير نَفَّذَ فيها النظامُ النازي سلسلةً من الإعدامات السياسية، وكان معظم القتلى من أصحاب القمصان البُنِّية - المترجم.

[←1236]

.Burleigh, *Third Reich*, 116

[←1237]

شوتزشتافل أو وحدات إس إس: تنظيم تابع للحزب النازي الألماني، أُنْشِئ عام 1925، وكُلِّفَ بحماية هتلر. وفي عام 1926، وُضِعَ التنظيمُ تحت إمْرة الجناح العسكري للحزب النازي المعروف بقسم «الهجوم»، ثم في عام 1939 أصبحت وحداتُ إس إس شِبْهَ عسكرية مستقلة تضطلع بمهام بوليسية. حُظِرَ التنظيمُ في عام 1945، واعتُبِرَ إجراميًا للدور الذي قام به في الهولوكوست - المترجم.

[←1238]

.Ibid., 194

[←1239]

العبادة البُنّية: الإشارة إلى كتيبة العاصفة الجناح شِبْه العسكري للحزب النازي، وسُمّي أفرادها بـ«أصحاب القمصان البنية» بسبب لون زيّهم العسكري - المترجم.

[←1240]

النُّورْديّة nordicism: أيديولوجية عِرْقية تنظر إلى أهل الشمال بوصفهم مجموعة متفوقة عِرْقيًا. شاعت هذه الأيديولوجية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في شمال غرب أوربا ووسطها وشمالها، وتم اعتناقها في ألمانيا بوصفها تيوتونية teutonism - المترجم.

[←1241]

Ibid., 259

[←1242]

إيريك فوجلين: (1901 - 1985)، فيلسوف سياسي أمريكي من مواليد ألمانيا، أستاذ مساعد العلوم السياسية في جامعة فيينا. هرب إلى الولايات المتحدة بعد دخول القوات النازية إلى فيينا - المترجم.

[←1243]

.Ibid., 5

[←1244]

.’Satyanath, Voigtländer and Voth, ‘Bowling for Fascism

[←1245] .Herf, *Jewish Enemy*, KL 347–65

[←1246]

.’Voigtländer and Voth, ‘Persecution Perpetuated

[←1247]

.Miller Lane and Rupp (eds.), *Nazi Ideology before 1933*, KL 168–77

[←1248]

.Ibid., KL 165–216

[←1249]

.Herf, *The Jewish Enemy*, KL 81–9. See also Cohn, *Warrant for Genocide*

[←1250]

.Friedländer, *Nazi Germany and the Jews*, 77f

[←1251]

See in general Mosse, 'Die Juden in Wirtschaft und Gesellschaft', and *Jews in the German Economy*.

[←1252]

.Windolf, 'German-Jewish Economic Elite', 137, 157

[←1253]

.Valentin, *Antisemitism*, 198f

[←1254]

.Windolf, ‘German-Jewish Economic Elite’, 158f. See also 152, 155

[←1255]

.Meiring, *Christlich-jüdische Mischehe*, table 1

[←1256]

.Jones, *In the Blood*, 158ff

[←1257]

Ruppin, *Soziologie der Juden*, vol. I, 211f.; Hanauer, 'Jüdische-christliche Mischehe', table 2; .Della Pergola, *Jewish and Mixed Marriages*, 122–7

[←1258]

آرثر روبين: (1876 - 1943)، عالِم اقتصاد واجتماع ألماني يهودي التحق بالمنظمة الصهيونية عام 1905، وطُلِبَ منه الذهاب إلى فلسطين لبحث حالة الاستيطان هناك. بعد هذه الرحلة، كرَّس كلَّ جهوده لتطوير المستوطنات اليهودية - المترجم.

[←1259]

.Ruppin, *Soziologie der Juden*, vol. I, 211f

[←1260]

.Burleigh and Wippermann, *Racial State*, 110 .

[←1261]

.Burgdörfer, ‘Juden in Deutschland’, 177

[←1262]

.’Raab, ‘More than just a Metaphor

[←1263]

.Friedländer, *Nazi Germany and the Jews*, 19

[←1264]

.Ibid., 24

[←1265]

.Ibid., 234

[←1266]

.Ibid., 25–6

[←1267]

هيرمان جورينج: (1893 - 1946)، قائد عسكري نازي ومؤسّس الجهاز السرّي (الجستابو)، وقائد قوات الطيران خلال الحرب العالمية الثانية. بعد هزيمة ألمانيا، أُدين في محاكمات نورنبيرج بالإعدام. انتحر قبل تنفيذ الحُكْم - المترجم.

[←1268]

.Ibid., 259–60; Barkai, *From Boycott to Annihilation*, 75

[←1269]

.Barkai, *From Boycott to Annihilation*, 152f

[←1270]

الجستابو، أو البوليس السرِّي الألماني، أو شرطة الدولة السرِّية: تأسَّسَ يوم 26 أبريل عام 1933 في بروسيا، تكوَّنَ من ضباط الشرطة المحترفين، ومهمته حماية الدولة وتشكيل قوة ضاربة لمن يتربص بأعمال تخريبية أو تجسُّسية أو خيانة. تحرَّكَ حُرًّا بمعزل عن أي مساءلة قانونية. وتولَّى أفراده عمليات اغتيال عديدة - المترجم.

[←1271]

.Ibid., 153

[←1272]

.Baynes (ed.) *Speeches of Adolf Hitler*, vol. I, 737–41

[←1273]

.Kopper, ‘Rothschild family’, 321ff

[←1274]

بُنِي الفندقُ في النمسا بين عاميْ 1871 و1873. ثم اتخذه النازي مقرًا رئيسيًا للجستابو، ودُمِّر خلال الحرب العالمية الثانية - المترجم.

[←1275]

.Nicholas, *Rape*, 39

[←1276]

.'Heimann-Jelinek, ' "Aryanisation" of Rothschild Assets

[←1277]

.Details are in Nicholas, *Rape* .

[←1278]

.Ferguson, *Kissinger*, vol. I, 72, 80

[←1279]

.’Düring, ‘Dynamics of Helping Behaviour

[←1280]

.Fallada, *Alone in Berlin*

[←1281]

دوف كوبر: (1890 - 1954)، سياسي بريطاني من حزب المحافظين، عُيِّنَ وزيرًا للإعلام في حكومة تشرشل - المترجم.

[←1282]

.Cooper, *Diaries*, 274

[←1283]

الماركيز لوثيان هو فيليب كير، الحائز الحادي عشر على لقب الماركيز لوثيان. من أبرز المدافعين في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين عن سياسة استرضاء ألمانيا، مؤكدًا قسوةَ معاهدة فرساي - المترجم.

[←1284]

ميتفورد هو اسم عائلة الأختين نانسي فريمان وجيسيكا لوسي، عائلة أرستقراطية في بريطانيا، ثلاثينيات القرن العشرين، اشتهرت بانتماءات فاشية ونازية وشيوعية - المترجم.

[←1285]

.See in general Bloch, *Ribbentrop*

[←1286]

Lord Lothian, 'Germany and France: The British Task, II: Basis of Ten Years' Peace', *The Times*, 1 February 1935.

[←1287]

كي جي بي، Komitet Gosudarstvennoy Bezopasnosti، أو لجنة أمن الدولة Committee for State Security: هو جهاز المخابرات السوفييتية.

من أهم أدواره نشر شبكة عملاء هائلة في بريطانيا والولايات المتحدة، وتمكُّنه من الحصول على سرِّ القنبلة الذرية من قلب مشروع مانهاتن، وتسريب التكنولوجيا المتقدمة من الدول الغربية إلى الاتحاد السوفييتي أولاً بأول بفضل شبكة عملائه في الأجهزة الحكومية والأمنية أيضًا. ونتيجة لنجاحات الجهاز في الولايات المتحدة، انتشر فيها ما يُسَمَّى «الذُّعر الأحمر»، وهو ما دعا السيناتور جوزيف مكارثي إلى قيادة حملات تُشَكِّكُ في نوايا كل متعاطِف مع الشيوعية، فيما يشبه حملات تفتيش لم يعتدها المواطنون الأمريكيون. وفي بريطانيا، تمكَّن الجهاز من تجنيد عملاء داخل الاستخبارات البريطانية نفسها من ذوي الرُّتب العالية. وبالإضافة إلى أدوار ال كي جي بي الخارجية، تولَّى في داخل الاتحاد السوفييتي مَنْعَ كل الأفكار السياسية المعارضة لفكر الحزب الشيوعي، فيما يُعْرَفُ ب«مكافحة الأيديولوجيات الهدَّامة». بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، انقسم ال كي جي بي إلى «جهاز الأمن الفيدرالي» و«جهاز الاستخبارات الخارجية» في الاتحاد الروسي - المترجم.

[←1288]

أعيدت تسمية ال NKVD فتحولت إلى NKGB في فبراير عام 1941، ثم عادت مرة أخرى إلى التسمية السابقة NKVD في يوليو عام 1941، ثم عادت إلى اسم NKGB عام 1943. وبعد الحرب، سُمِّيت الوكالة على التوالي باسم MGB (1946)، وMVD (1953)، وأخيرًا KGB (1954). ولتجنُّب الالتباس، سأشير إليها على طول هذا القسم بال KGB - المؤلف.

[←1289]

مركز موسكو: تسمية أطلقها الروائي جون لو كاريه على مقر الاستخبارات السوفييتية الرئيسي في موسكو، وبخاصة الإدارات المَعْنية بالتجسُّس الخارجي (زَرْع العملاء) ومكافحة التجسُّس - المترجم.

[←1290]

كلمة homintern مزيج من كلمتيْ comintern التي أسَّسها لينين عام 1919 ومعناها الرابطة الدولية للأحزاب الشيوعية وحُلَّتْ عام 1943، وكلمة homosexual التي تعني مِثْليَّ الجنس (شاذّ) - المترجم.

[←1291]

أنتوني بلونت: (1907 - 1983)، مؤرِّخ فني بريطاني وأستاذ تاريخ الفن في جامعة لندن. اعترف في عام 1968 بعد حصوله على حصانة من الملاحقة القضائية بأنه كان جاسوسًا سوفييتيًا - المترجم.

[←1292]

جاي بورجيس: (1911 - 1963)، ينتمي إلى عائلة ثرية من الطبقة الوسطى، تلقَّى تعليمه في كلية ترينيتي والكلية البحرية المَلَكية وغيرهما في جامعة كمبريدج. عمل منتجًا في وكالة بي بي سي، ولفترة قصيرة من الوقت ضابط مخابرات بدوام كامل قسم الاستخبارات الأجنبية MI6، قبل انضمامه إلى وزارة الخارجية. جنَّدته المخابرات السوفييتية عام 1935. وتَسبَّب في تعطيل وإحباط عميق على مستويات عديدة في وزارة الخارجية البريطانية وفي العلاقات الأنجلوأمريكية. تُوفِّي في الاتحاد السوفييتي عام 1963 - المترجم.

[←1293]

.Lownie, *Burgess*, 29

[←1294]

موريس دوب: (1900 - 1976)، عالِم اقتصاد بريطاني في كمبريدج وزميل كلية ترينيتي. يُذْكَرُ بوصفه من أبرز خبراء الاقتصاد الماركسيين في القرن العشرين - المترجم.

[←1295]

جون كورنفورد: (1915 - 1936)، شاعر إنجليزي وشيوعي، من أحفاد تشارلز داروين - المترجم.

[←1296]

جيمس كلوجمان: (1912 - 1977)، كاتب شيوعي بريطاني بارز والمؤرِّخ الرسمي للحزب الشيوعي البريطاني - المترجم.

[←1297]

مايكل ستريت: (1916 - 2004)، ناشر وروائي وراعٍ للفنون - المترجم.

[←1298]

أليسـتر واتسـن: (1908 - 1982)، عالِم رياضيات بريطاني، عضو حلقة تجسُّس كمبريدج - المترجم.

[←1299]

Deacon, *Cambridge Apostles*, 103

[←1300]

.Lownie, *Burgess*, 34f

[←1301]

.Andrew and Gordievsky, *KGB*, 206, 209

[←1302]

أرنولد الألماني: يهودي تشيكي تألق في مسيرته الأكاديمية، تمكَّنَ الألماني من ترسيخ أقدامه في لندن دون إثارة شكوك حوله لأنه كان ابن عم مؤسِّس سلسلة سينما أوديون Odeon - المؤلف.

[←1303]

.Ibid., 193ff

[←1304]

.Andrew, *Defence of the Realm*, 169ff

[←1305]

.Lownie, *Burgess*, 54

[←1306]

.Deacon, *Cambridge Apostles*, 107f

[←1307]

.Ibid., 115, 134

[←1308]

.Andrew and Gordievsky, *KGB*, 216

[←1309]

.Ibid., 221

[←1310]

.Macintyre, *Spy Among Friends*, 44ff

[←1311]

.Andrew and Gordievsky, *KGB*, 213

[←1312]

.Ibid., 184

[←1313]

.Ibid., 213

[←1314]

.Lownie, *Burgess*, 55

[←1315]

.Ibid., 136

[←1316]

الجبهة الثانية للحلفاء: في نوفمبر عام 1943، اجتمع ستالين وتشرشل وزفلت في طهران لمناقشة الإستراتيجية العسكرية وأوربا ما بعد الحرب. وفي هذا الاجتماع، طَالَبَ ستالين الحلفاءَ بفتح جبهة ثانية في أوربا - المترجم.

[←1317]

Ibid., 96

[←1318]

اتفاق ريبنتروف - موتولوف أو الاتفاق الألماني السوفييتي: معاهدة عدم اعتداء بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي وُقِّعَتْ في موسكو يوم 23 أغسطس عام 1939، وتقضي بالتزام ألمانيا النازية والاتحاد السوفييتي بالحياد في حالة تعرُّض أحد الطرفين للهجوم من طرف ثالث. تضمنت المعاهدة بروتوكولاً سرِّيًا يُقسّم شمالَ أوربا وشرقها إلى مناطق نفوذ سوفييتية وألمانية ترقُّبًا لإعادة الترتيب السياسي والحدودي لهذه الدول. نُقِضَتْ المعاهدةُ يوم 2 يوليو عام 1941 حين أقدمت ألمانيا على غزو الاتحاد السوفييتي - المترجم.

[←1319]

إدارة تنفيذ العمليات الخاصة: تنظيم استخباراتي بريطاني يتبع القوات المسلحة تشكَّلَ يوم 22 يوليو عام 1940، بدمج ثلاث منظمات سرّية قائمة، هدفها الأول التجسُّس والتخريب والاستطلاع في أوربا المحتلة، ثم لاحقًا في جنوب شرق آسيا المحتلة، ضد قوى المحور، ولمساعدة حركات المقاومة المحلية. أُخْفيَتْ تحرُّكات أفرادها وراء لافتات مدنية عديدة - المترجم.

[←1320]

المكتب الخامس MI5: مخابرات حربية بريطانية، وظيفته الأساسية حماية الأمن الداخلي، ولكنه قد يضطلع بأدوار خارجية تساعده على إنجاح مهامه الداخلية. وهو بوجه عام جزء من آلة الاستخبارات البريطانية، بجانب كل من المكتب السادس MI6 وإدارة الاتصالات الحكومية وإدارة مخابرات الدفاع. وتخضع جميعها لإدارة لجنة المخابرات المشتركة - المترجم.

[←1321]

.Andrew, *Defence of the Realm*, 270; Andrew and Gordievsky, *KGB*, 300

[←1322]

المكتب 14: أحد مكاتب المخابرات العسكرية البريطانية بوزارة الحرب أثناء الحرب العالمية الثانية، مسؤول عن كل ما يتعلق بألمانيا - المترجم.

[←1323]

.Andrew, *Defence of the Realm*, 270

[←1324]

.Lownie, *Burgess*, 130; Andrew, *Defence of the Realm*, 272

[←1325]

أوفرلورد: الاسم الكودي لغزو شمال غرب أوربا في الحرب العالمية الثانية من قبل قوات الحلفاء، أما ال «دي - داي» فهو يوم الهبوط - المترجم.

[←1326]

.Andrew, *Defence of the Realm*, 280, 289

[←1327]

.Andrew and Gordievsky, *KGB*, 296f

[←1328]

.Lownie, *Burgess*, 131, 147

[←1329]

.Ibid., 132, 160; Andrew, *Defence of the Realm*, 272, 280

[←1330]

.Andrew, *Defence of the Realm*, 219, 261

[←1331]

.Ibid., 268 .

[←1332]

.Ibid., 341; Andrew and Gordievsky, *KGB*, 297

[←1333]

.Andrew, *Defence of the Realm*, 281, 333

[←1334]

.Macintyre, *Spy Among Friends*, 144

[←1335]

إيجور جوزينكو: (1919 - 1982)، موظف تشفير بالسفارة السوفييتية في كندا، ومقرها العاصمة أوتاوا، انشق يوم 5 سبتمبر عام 1945 ومعه 109 وثيقة خاصة بأنشطة التجسُّس السوفييتي في الغرب؛ الأمر الذي اضطر رئيس الوزراء الكندي حينئذٍ إلى استدعاء لجنة مَلَكيّة للتحقيق في التجسُّس في كندا - المترجم.

[←1336]

آلان نون ماي: (1911 - 2003)، فيزيائي بريطاني، زَوَّدَ الاتحادَ السوفييتي أثناء الحرب العالمية الثانية بأسرار البحوث الذرية البريطانية والأمريكية - المترجم.

[←1337]

.Andrew, *Defence of the Realm*, 339ff

[←1338]

جين آرشر: (1898 - 1982)، عُرِفَتْ أولاً باسم جين سيسمور، ثم جين آرشر بعد زواجها عام 1939. أول ضابطة في خدمة المخابرات السرِّيّة البريطانية عام 1929. مسؤولة عن التحقيقات في كل ما يتعلق بالاستخبارات السوفييتية. وحين انضمت إلى المكتب السادس قام كيم فيلبي - رئيسها حينئذٍ - بتقليل نشاطها التحقيقي حتى لا يتعرض للانكشاف - المترجم.

[←1339]

.Ibid., 343

[←1340]

ألجير هيس: (1904 - 1996)، مُحاضِر ومؤلِّف أمريكي، تدرَّجَ في مناصب أمنية وحكومية ودولية مهمة. اتُّهِمَ بالتجسُّس لصالح الاتحاد السوفييتي عام 1948، وتمت إدانته - المترجم.

[←1341]

.Ibid., 422

[←1342]

.Andrew and Gordievsky, *KGB*, 399f

[←1343]

.Andrew, *Defence of the Realm*, 422f

[←1344]

فينونا: برنامج لمكافحة التجسُّس وفك شفرة الرسائل السوفييتية، أطلقته خدمةُ مخابرات الإشارة التابعة لجيش الولايات المتحدة من يوم 1 فبراير عام 1943، واستمر حتى يوم 1 أكتوبر عام 1980. وبعد انتهاء عمله عام 1980 ظل المشروع سرًّا حتى عام 1995 - المترجم.

[←1345]

.Ibid., 420–24

[←1346]

.Ibid., 424

[←1347]

إف بي آي، أو مكتب التحقيقات الفيدرالي: وكالة حكومية تابعة لوزارة العدل الأمريكية، مهمتها الاستخبارات الداخلية وتطبيق القانون في الدولة، ولها سلطة قضائية على أكثر من 200 جريمة فيدرالية. تأسَّست الوكالةُ عام 1908 تحت اسم «مكتب التحقيقات»، ثم تغيَّرَ اسمُها إلى الاسم الحالي عام 1935 - المترجم.

[←1348]

سي آي إيه، أو وكالة المخابرات المركزية الأمريكية: تأسَّستْ عام 1947، وهي الوكالة المستقلة الوحيدة التي تقدِّم تقاريرها إلى مدير الاستخبارات القومية.

وظيفتُها جمع المعلومات عن الحكومات الأجنبية والشركات والأفراد، ثم تحليلها في ضوء معلومات أخرى واردة من مكاتب استخبارات أخرى داخل الولايات المتحدة. وبطلب من رئيس الولايات المتحدة، تنفِّذُ الوكالةُ أو تُشْرِفُ على أنشطة سرِّية وبعض العمليات التكتيكية، فيُمكنها مثلاً ممارسة نفوذ سياسي أجنبي من خلال أقسامها التكتيكية مثل «شعبة الأنشطة الخاصة». وحاليًا، تقوم الوكالة بأدوار هجومية متزايدة، بما فيها عمليات سرِّية شِبْه عسكرية. ثم تحوَّلَ مؤخرًا أحدُ أكبر أقسام الوكالة (مركز العمليات المعلوماتية) من التركيز على مكافحة الإرهاب إلى العمليات الإلكترونية الهجومية. وهذا التحول له أهميته في ضوء ما سيطرحه نيل فِرْجسن في القسم التاسع من الكتاب الحالي - المترجم.

[←1349]

.Ibid., 431

[←1350]

Ibid., 432–5, rebuts Peter Wright's claims that there was a cover-up only explicable in terms of higher-level Soviet penetration of British intelligence.

[←1351]

.Ibid., 436

[←1352]

.Macintyre, *Spy Among Friends*, 291

[←1353]

.Andrew and Gordievsky, *KGB*, 6

[←1354] .Andrew, *Defence of the Realm*, 429

[←1355]

Andrew and Gordievsky, *KGB*, 429, 436, 439ff., 707

[←1356]

إشعياء برلين: (1909 - 1997)، منظِّر اجتماعي سياسي روسي بريطاني، وفيلسوف ومؤرِّخ أفكار وباحث ليبرالي، وأستاذ النظرية السياسية والاجتماعية في جامعة أكسفورد. عمل خلال الحرب في الخدمة الديبلوماسية البريطانية. ونال جائزة القدس عام 1979 لكتاباته عن الحرية الفردية - المترجم.

[←1357]

آنا أخماتوفا: (1889 - 1966)، اسم مستعار ل آنا أندرييفنا جورينكو، من أبرز شاعرات روسيا، ومن أشهر المؤثرين في الشعر الروسي. تُرْجِمَتْ أعمالُها إلى العديد من اللغات - المترجم.

[←1358]

نيكولاي جوميليف: (1886 - 1921)، شاعر وناقد أدبي وضابط عسكري روسي، أعدمته الشيكا عام 1921 - المترجم.

[←1359]

McSmith, *Fear and the Muse Kept Watch*, KL 5069–70

[←1360]

ماياكوفسكي: (1893 - 1930)، كاتب وشاعر روسي، والده من أصول تترية وأمه من أصول أوكرانية. تَعرَّفَ في موسكو على الفكر الماركسي وشارك في نشاطات حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي. من أشهر قصائده «غيمة في سروال». انتحر يوم 14 أبريل عام 1930 بعد فشله في حياته العاطفية وعدم تحقيق الثورة لطموحاته وأحلامه - المترجم.

[←1361]

.Ibid., KL 5109–19

[←1362]

.Ibid., KL 5138

[←1363]

ليف جوميليف: (1912 - 1992)، مؤرِّخ سوفييتي وإثنولوجي وأنثروبولوجي، أحد المؤرِّخين الروس الأكثر تأثيرًا في القرن العشرين. أُعْدِمَ والدُه وهو في سن السابعة. اعتقلته المفوضيةُ الشعبية للشؤون الداخلية عام 1935، ثم أُعيد اعتقاله مرة أخرى وحُكِمَ عليه بالسجن لمدة خمس سنوات عام 1938. بعد خروجه من السجن انضمَّ إلى الجيش الأحمر وشارك في معركة برلين. أُعيد اعتقاله مرة أخرى عام 1949 وحُكِمَ عليه بعشر سنوات في معسكرات الاعتقال - المترجم.

[←1364]

نيكولاي بونين: (1888 - 1953)، باحث وكاتب فني روسي، قام بتحرير العديد من المجلات - المترجم.

[←1365]

بوريس باسترناك: (1890 - 1960)، كاتب وشاعر روسي، اشتهر في الغرب بروايته المؤثِّرة عن الاتحاد السوفييتي «الدكتور زيفاجو». مُنِحَ على إثرها جائزة نوبل للآداب عام 1958، ولكنه رفضها. حُوِّلَتْ روايتُه إلى فيلم سينمائي عام 1965 من إخراج ديفيد لين وبطولة عمر الشريف وجولي كريستي. حصد الفيلم خمس جوائز أوسكار - المترجم.

[←1366]

.Ibid., KL 5139–55

[←1367]

Ibid., KL 5158–60

[←1368]

أندريه جدانوف: (1896 - 1948)، سياسي ومفكر ومُنظِّر ثقافي بارز، من أشهر مفكري الحزب الشيوعي في الحقبة الستالينية. طرح مبدأه المشهور، مبدأ جدانوف، الذي ينص على تسخير كل الإمكانات الفنية والإبداعية لمواجهة الثقافة البرجوازية. اعتُبِرَتْ أفكاره تيارًا عُرِفَ باسم «الجدانوفية». زال أثره بعد وفاة ستالين. وتُوفِّي عام 1948 فيما يُعْرَفُ ب«مؤامرة الأطباء اليهود» الذين تعمّدوا إهمال صحة قياديي الحزب الشيوعي - المترجم.

[←1369]

.Ibid., KL 5185–97

[←1370]

.Berlin, *Enlightening*, KL 2139–42

[←1371]

Berlin, *Letters*, 599f

[←1372]

أوسيب ماندلستام: (1891 - 1938)، كاتب وشاعر روسي، اعتقلته حكومة ستالين أثناء التطهير الكبير في ثلاثينيات القرن العشرين - المترجم.

[←1373]

كريستينا روسيتي: (1830 - 1894)، شاعرة إنجليزية كتبتْ مجموعةً متنوعة من القصائد الرومانسية والعاطفية - المترجم.

[←1374]

For Berlin's detailed recollection of the encounter, written thirty-five years after the fact, see Berlin, *Personal Impressions*, KL 4628–4998.

[←1375]

.’Hausheer, ‘It Didn’t Happen

[←1376]

.Ignatieff, *Berlin*, KL 3252–79

[←1377]

She can be heard reading 'Cinque' in this recording from her visit to Oxford in June 1965, a year before her death: https://podcasts.ox.ac.uk/anna-akhmatova-reading-her-poems-about-isaiah-berlin-oxford-1965

[←1378]

.Dalos, *Guest from the Future*, 7, 86

[←1379]

.Akhmatova, *Word that Causes Death's Defeat*, 152

[←1380]

McSmith, *Fear and the Muse Kept Watch*, KL 5271. Preposterously, Churchill wanted Berlin's .help as a translator to help him obtain ice for some caviar he had acquired

[←1381]

.Dalos, *Guest from the Future*, 67

[←1382]

.Ignatieff, *Berlin*, KL 3252–79

[←1383]

.Dalos, *Guest from the Future*, 67f

[←1384]

.McSmith, *Fear and the Muse Kept Watch*, KL 5354–68

[←1385]

.Ibid., KL 5352

[←1386]

.Berlin, *Enlightening*, KL 2056–74. See also Dalos, *Guest from the Future*, 59–61

[←1387]

.Berlin, *Enlightening*, KL 1047–56, 1059–69

[←1388]

الحرب الوطنية العظمى: تعبير مستعمل في روسيا وجمهوريات الاتحاد السوفييتي السابقة بوصفه المقابل لتعبير «الحرب العالمية الثانية» - المترجم.

[←1389]

ليو Leo عمٌّ برلين، مواطن سوفييتي، اعْتُقِلَ أيضًا عام 1952، قُبِضَ عليه ضمن مجموعة واتُّهِمَ بالانتماء إلى حلقة جاسوسية بريطانية. وتحت وطأة التعذيب، اعترف بأنه كان فعلاً جاسوسًا بريطانيًا. وبعد قضائه عامًا في السجن، أُطْلِقَ سراحه بعد وفاة ستالين، ولكنه بدأ يعاني من أزمة قلبية بعد ذلك بوقت قصير حين مَرَّ بأحد جلاديه في الشارع - المؤلف.

[←1390]

.Ignatieff, *Berlin*, KL 3284–3350; McSmith, *Fear and the Muse Kept Watch*, KL 5399–5414

[←1391]

.Berlin, *Enlightening*, KL 10773–4, 10783–10806, 10818–64, 10865–71

[←1392]

.Ibid., KL 16680–82; Dalos, *Guest from the Future*, 124–7, 133

[←1393]

.Dalos, *Guest from the Future*, 64f

[←1394]

ألفريد سلون: (1875 - 1966)، رجل أعمال أمريكي في صناعة السيارات، خَدَمَ لفترة طويلة بوصفه رئيس مجلس إدارة شركة جنرال موتورز ومديرها التنفيذي - المترجم.

[←1395]

إم فورم أو النموذج متعدد الأقسام multi - divisional form: بنية تنظيمية تنقسم من خلالها الشركةُ إلى وحدات شِبْه مستقلة يتم توجيهها والتحكُّم فيها وفق أهداف المركز العامة. ولكن تُتْرَكُ معظمُ القرارات للأقسام المستقلة بحيث تكون كلُّ شركة فرعية مسؤولةً عن إنتاجها وتعظيم أرباحها - المترجم.

[←1396]

الإشارة إلى مؤتمر فيينا سبتمبر عام 1814 حتى يونيو عام 1815، وما نشأ على إثره من تحالف مقدس أدَّى إلى حُكْم خماسي للعالم بقيادة الدول المنتصرة على نابليون في معركة واترلو [سبق ذكر التفاصيل في هوامش سابقة] - المترجم.

[←1397]

هُواة الأثير أو هواة الراديو أو لاسلكي الهواة: تَخاطُبٌ بين الهواة باستخدام أجهزة الراديو اللاسلكية، وهي هواية منتشرة على مستوى العالم يبلغ عدد ممارسيها خمسةُ ملايين شخص ما بين مُمارِس ومُستمِع. ولها جمعيات واتحادات تُنظِّمها، ولها قوانينها وموجاتها الخاصة المختلفة عن موجات الإذاعات العامة - المترجم.

[←1398]

.’MacDougall, ‘Long Lines

[←1399]

.See in general Wu, *Master Switch*

[←1400]

MacDougall, ‘Long Lines’, 299, 308f., 318

[←1401]

.Wu, *Master Switch*, 8

[←1402]

.Ibid., 9

[←1403]

.Ibid., 113

[←1404]

روي أولمستيد: (1886 - 1966)، أحد أشهر المُهرّبين في منطقة شمال غرب المحيط الهادي أثناء الحظر الأمريكي. كان ملازمًا سابقًا في إدارة شرطة سياتل، وبدأ التهريب وهو في الخدمة الشُرَطية. حين افتُضِحَ أمرُه فُصِلَ. فتفرغ لعملياته في تهريب الكحول. ومن خلال التنصُّت على مكالماته التليفونية تُوصِّلَ إلى أدلة لاعتقاله ومقاضاته رغم الاستئناف في المحكمة العليا التي حكمت بشرعية التنصت في هذه الحالة - المترجم.

[←1405]

بيرل هاربور، أو العملية «زد» كما يسميها اليابانيون: غارة جوية مباغتة نفذتها البحرية الإمبراطورية اليابانية يوم 9 ديسمبر عام 1941 على الأسطول الأمريكي القابع في المحيط الهادي في قاعدته البحرية في ميناء بيرل هاربور بجزر هاواي. غيَّرَ هذا الحدثُ مجرى التاريخ وأجبر الولايات المتحدة التي كانت تتبنَّى سياسة الانعزال على دخول الحرب العالمية الثانية التي انتهت بثأر عنيف - المترجم.

[←1406]

مارتن لوثر كينج الابن: (1929 - 1968)، زعيم أمريكي من أصول أفريقية وناشط سياسي إنساني كَافَحَ سِلْميًا من أجل إنهاء التمييز العنصري. حصل على جائزة نوبل للسلام. تم اغتياله يوم 4 أبريل عام 1968 - المترجم.

[←1407]

Christopher Wolf, ‘The History of Electronic Surveillance, from Abraham Lincoln’s Wiretaps to .Operation Shamrock’, Public Radio International, 7 November 2013

[←1408]

.Starr, *Creation of the Media*, 348

[←1409]

.Ibid., 363f

[←1410]

البانوبتيكون: ابتكره المنظِّر الشمولي [التوتاليتاري] جيرمي بنتام Jeremy Bentham أواخر القرن الثامن عشر، وهو عبارة عن سجن أو مأوى يمكن فيه لحارس واحد ملاحظة جميع السجناء دون أن يكونوا قادرين على معرفة ما إذا كانوا مراقبين أم لا - المؤلف.

[←1411]

ماريو بوزو: (1920 - 1999)، كاتب وروائي أمريكي، اشتهر بروايته عن المافيا «العَرَّاب» أو «الأب الروحي»، التي اقتبسها وأخرجها للسينما المخرجُ فرانسيس فورد كوبولا - المترجم.

[←1412]

بعد مشاهدة الفيلم قال سامي جرافينو الملقَّب ب«الثور» Sammy «the Bull» Gravano: «تركتُ الفيلمَ مذهولاً... أقصد أني سرحت خارج المسرح. لعله خيال فني، ولكنه بالنسبة لي كان حياتَنا. إنه أمر لا يُصدَّقُ. أتذكر الحديث إلى العديد من الشباب، الذين تفاعلوا بالأسلوب نفسه بالضبط» - المؤلف.

[←1413]

.Gambetta, *Sicilian Mafia*

[←1414]

كامورا: تنظيم إجرامي نشأ في نابولي مطلع القرن التاسع عشر، يُعْتَقَدُ أن نشأته أقدم من هذا التاريخ. تنبع جذورُه من أفقر المناطق الشعبية في نابولي.

وللنساء مواقع مهمة في بنيته التنظيمية بسبب تعدد الاعتقالات والاغتيالات - المترجم.

[←1415]

نِدْرانجيتا: تنظيم إجرامي إيطالي يتركز في كالابريا، تمكَّنَ من أن يصبح تنظيم الجريمة الأقوى في إيطاليا أواخر تسعينيات القرن العشرين وأوائل القرن الحالي، رغم كَوْنه غير مشهور خارج إيطاليا مثل تنظيم «كوزا نوسترا» [المافيا الصقلية]، ورغم كَوْنه ذا أصول ريفية مقارنةً بتنظيميْ «كامورا» في نابولي و«ساكرا كورونا يونيتا» في بوليا. يتعاون تنظيمُ نِدْرانجيتا في كثير من الأحيان مع تنظيم «كوزا نوسترا» في صقلية - المترجم.

[←1416]

ساكرا كورونا يونيتا، أو التاج الموحَّد المقدس: منظمة إجرامية على غرار المافيا، تنشط في بوليا جنوب إيطاليا، وعلى وجه التحديد في مناطق برينديزي وليتشي وتارانتو - المترجم.

[←1417]

.Jonathan Steinberg, ‘Capos and Cardinals’, *London Review of Books*, 17 August 1989

[←1418]

.Duggan, *Fascism and the Mafia*

[←1419]

Scotten, ‘Problem of the Mafia’. I am indebted to my student Frank Tamberino for this .’reference. See Tamberino, ‘Criminal Renaissance

[←1420]

Lewis, 'The Honored Society', *New Yorker*, 8 February 1964, 42–105, and the longer *Honoured Society*. Also illuminating, the same author's *Naples '44*.

[←1421]

قانون ريكو: قانون فيدرالي لمكافحة الجريمة المنظمة في الولايات المتحدة الأمريكية، ويسمح بعقوبات مدنية على أنشطة الابتزاز التي تتم بوصفها جزءًا من مشروع إجرامي مستمر - المترجم.

[←1422]

.McAdam, *Political Process and the Development of Black Insurgency*, 90

[←1423]

Ibid., 129

[←1424]

.Jackson et al., ‘Failure of an Incipient Social Movement’, 36

[←1425]

See Kurtz, *Not-God*; White and Kurtz, ‘Twelve Defining Moments’; Makela et al., (eds.), .’*Alcoholics Anonymous*; Kelly and Yeterian, ‘Mutual-Help Groups

[←1426]

يوجد اليوم ما يقرب من 115,000 مجموعة مدمن كحول مجهولين مسجلين بأكثر من 2 مليون عضو في أكثر من 150 دولة - المؤلف.

[←1427]

.Kurtz, *Not-God*, 64

[←1428]

إدجار هوفر: (1895 - 1972)، رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي، منذ عام 1924 حتى وفاته. استغل منصبه في جمع ملفات سرِّية تخص القادة السياسيين داخل الولايات المتحدة، وهو ما جعله يتمتع بنفوذ واسع - المترجم.

[←1429]

.White and Kurtz, ‘Twelve Defining Moments’, 44f

[←1430]

البيرفيتين أو الميثامفيتامين: عقار ذو تأثير عقلي يزيد من اليقظة والانتباه والطاقة بالنسبة إلى المراهقين، لكن الجرعات الأعلى تُسبِّب هوسًا مصحوبًا بالنشوة ومشاعر الثقة بالنفس وزيادة الرغبة الجنسية. يؤدِّي إدمانه إلى متلازمة ما بعد الانسحاب، بما فيها تلف القلب والأوعية الدموية فضلاً عن الأضرار النفسية - المترجم.

[←1431]

الإيودوكال: عقار ينتمي إلى فئة الجدول الثاني في بعض البلاد وإلى فئة الجدول الأول في بلاد أخرى، يعمل مباشرةً على الجهاز العصبي - المترجم.

[←1432]

.Ohler, *Blitzed*

[←1433]

ألدوس هكسلي: (1894 - 1963)، كاتب إنجليزي، له تأثير واضح على جوروج أورويل. وروايته «عالم جديد شجاع» كتبها عام 1931، ونُشِرَتْ في العام التالي مباشرةً. تنتمي إلى فئة ديستوبيا الخيال العلمي وتتناول الحياةَ في المستقبل، حيث يسيطر العلم على البشر وتختفي المشاعر، ويقوم النظام بالسيطرة على الناس من خلال المخدرات، والسيطرة على التكاثر من خلال إنتاج أطفال محدَّدي الوظائف والرغبات في مجتمع سعيد ولكنه عديم الحرية - المترجم.

[←1434]

جورج أورويل: (1903 - 1950)، هو إريك آرثر بلير، صحفي وروائي بريطاني، حذَّرَ من غياب العدالة الاجتماعية وعَارَضَ الحُكْمَ الشمولي. تدور أحداث روايته «1984» في إير ستريب وان (بريطانيا العظمى سابقًا)، وهي مقاطعة في دولة عظمى تُدْعَى أوشينيا، في عالم لا تهدأ فيه الحرب والرقابة الحكومية والتلاعب بالجماهير. ويُجَسِّدُ «الأخ الكبير» في الرواية طغيانَ النظام وقمة التلاعب بالمشاعر والفكر عبر اللغة. أما الشخصية التي تحلم بإضرام ثورة على نظام الأخ الكبير فهي وينستن سميث - المترجم.

[←1435]

إيرستريب وان: إشارة في رواية أورويل «1984» إلى بريطانيا العظمى. وهي عبارة استعملها الأمريكيون أثناء الحرب العالمية الثانية للإشارة إلى بريطانيا، وتعني: حاملة طائرات غير قابلة للغرق - المترجم.

[←1436]

جون يوساربن: شخصية خيالية، بطل رواية جوزيف هيلر الساخرة «كاتش 22» 22 - Catch - المترجم.

[←1437]

إيفان دينيسوفيتش: بطل رواية سولجنيتسين «يوم واحد في حياة إيفان دينيسوفيتش»، نُشِرَتْ الروايةُ عام 1962، وتتناول تفاصيل يومٍ في حياة معتقل أيام حُكْم ستالين - المترجم.

[←1438]

أليك ليماس: بطل رواية جاسوسية بعنوان The Spay Who Came in from the Cold من تأليف الكاتب البريطاني جون لو كاريه، تتناول أساليب التجسُّس التي لا تتوافق مع قيم الديمقراطية - المترجم.

[←1439]

ريتشارد بُرْتن: (1925 - 1984)، ممثل بريطاني ويلزي. رُشِّحَ لأوسكار سبع مرات ولم يفز. ومع أواخر الستينيات كان نجمَ شباك، وأعلى أجر ممثل. زوجته الثانية إليزابيث تايلور. تُوفِّي بسبب أعطال في الكبد ناتجة عن إدمانه الكحوليات – المترجم.

[←1440]

Jackson and Nei, 'Networks of Military Alliances', 15279. See also Levina and Hillmann, 'Wars of the World', Lupu and Traag, 'Trading Communities', and Maoz, 'Network Polarization'.

[←1441]

.'Dorussen and Ward, 'Trade Networks

[←1442]

.Haim, ‘Alliance Networks and Trade’, 28

[←1443]

اتفاقية روما أو معاهدة روما: شكَّلتْ في عام 1957 نواةَ التكتل الاقتصادي الأوربي، وبموجبها تأسَّست المجموعةُ

الأوربية الاقتصادية الأولى CEE التي التزمت بإنشاء سوق أوربية مشتركة وخلق تكتل اقتصادي وسياسي اندماجي بين الدول الأوربية قبل أن تتحول إلى ما يُعْرَفُ حاليًا بالاتحاد الأوربي - المترجم.

[←1444]

.'Johnson and Jordan, 'Web of War

[←1445]

تأثير الدومينو: تفاعل تسلسلي يحدث عندما يُسبّبُ تغييرٌ صغير تغييرًا مماثلاً بجواره، وهكذا دواليك في تسلسل خطي. يُستعمَلُ المصطلحُ في السياسة والمال بشكل مجازي - المترجم.

[←1446]

’?Keller, ‘(Why) Do Revolutions Spread

[←1447]

تحالف فيت مينه: تحالف بين المجموعات الشيوعية والقومية في فيتنام، تَشكَّلَ عام 1941 بهدف السعي إلى استقلال فيتنام عن فرنسا ومعارضة الاحتلال الياباني أثناء الحرب العالمية الثانية. وقعت معركة «دين بيان فو» بين مارس ومايو عام 1954، وانتهت بهزيمة القوات الفرنسية هزيمةً شاملة أثَّرَتْ على المفاوضات الجارية في جينيف بين عدة دول حول مستقبل الهند الصينية - المترجم.

[←1448]

الجنرال: تدور أحداث الرواية أثناء الحرب العالمية الأولى من خلال الجنرال البريطاني هربرت كورزون الذي أدار معارك وشارك في مذابح بلا معنى، ثم انتهت مسيرته في آخر الأمر إلى عجوز طاعن في السن على كرسي متحرك - المترجم.

[←1449]

.Forester, *The General*, 222

[←1450]

.Samuels, *Command or Control*; Gudmundsson, *Stormtroop Tactics*

[←1451]

حملة بورما: سلسلة من المعارك في مستعمرة بورما البريطانية، التي كانت مسرح عمليات الحرب العالمية الثانية جنوب شرق آسيا بين القوات البريطانية والصين، بِدَعْمٍ من الولايات المتحدة الأمريكية، ضد القوات اليابانية والتايلاندية والجيش الوطني الهندي. تولَّى اليابانيون تدريب ما يُعْرَفُ بجيش استقلال بورما الذي بدأ الهجمات الأولى ضد القوات البريطانية - المترجم.

[←1452]

الجنرال بيلمب: شخصية كارتونية بريطانية قدَّمها رسامُ الكاريكاتير ديفيد لو David Low لأول مرة عام 1934، يُمَثّلُ بها رجلَ الحرب البريطاني النمطي القوي ولكنه فقير الخيال - المترجم.

[←1453]

والتر ووكر: (1912 - 2001)، قائد عسكري بريطاني في الهند البريطانية، نجح بشكل بارز في خمسينيات القرن العشرين خلال فترة طوارئ المالايا، وبرز بوصفه مدير عمليات عسكرية في بورنيو من عام 1962 حتى عام 1965. تولّى بعد رجوعه إلى إنجلترا مناصب عسكرية في وسط وشمال أوربا. وفي وقت لاحق، أثار جدلاً من خلال إنشائه منظمة «الإغاثة المدنية» الطوعية التي جذبت مئة ألف عضو - المترجم.

[←1454]

معركة السوم: في الحرب العالمية الأولى بين القوات الألمانية وقوات الحلفاء على ضفتيْ نهر السوم في فرنسا في الفترة من 1 يوليو حتى 18 نوفمبر عام 1916. بدأت المعركة بهجوم شَنَّته القوات البريطانية والفرنسية ضد القوات الألمانية المحتلة، ولم يحقق الهجوم البريطاني الفرنسي أهدافه رغم التوغُّل في الأراضي الفرنسية المحتلة لمسافة 6 أميال. انتهت المعركةُ بخسائر فادحة لكلا الطرفين. وتُعَدُّ من المعارك الأكثر دمويةً - المترجم.

[←1455]

إبرس: الإشارة هنا إلى معركتيْ إبرس الأولى (19 أكتوبر - 22 نوفمبر 1914) وإبرس الثانية (22 أبريل - 1 مايو 1915). وهي سلسلة اشتباكات خلال الحرب العالمية الأولى بالقرب من مدينة إبرس البلجيكية بين القوات الألمانية وقوات الحلفاء المكوّنة من القوات البلجيكية والفرنسية والبريطانية وقوة استكشافية كندية.

شهدت هذه الاشتباكاتُ أولَ استخدام ألماني للغاز السامّ - المترجم.

[←1456]

أكاديمية ساندهيرست العسكرية المَلَكيّة: كلية عسكرية بريطانية تأسَّست عام 1802، وهي مركز تدريب أساسي لضبّاط الجيش البريطاني. مدة الدراسة فيها 44 أسبوعًا - المترجم.

[←1457]

الجوركا: أفواج عسكرية تم تشكيلها في الهند البريطانية - المترجم.

[←1458]

فقير إيبي: (1897 - 1960)، هو الحاج ميرزالي خان، عاش في قرية إيبي شمال وزيرستان، منطقة جبلية شمال غرب باكستان بالقرب من الحدود الأفغانية. وفيها بدأ حملةَ حربِ عصاباتٍ ضد الإمبراطورية البريطانية - المترجم.

[←1459]

وسام الخدمة المتميزة: وسام عسكري بريطاني يُمْنَحُ لضباط الجيش والبحرية - المترجم.

[←1460]

.Marston, ‘Lost and Found in the Jungle’, KL 2065

[←1461]

تشـكَّلتْ وحدةُ مكافحة التمرد ردًّا على التمرد الشـيوعي في جزر المالايا - المترجم.

[←1462]

داياك: قبائل الداياك أو شعب الداياك هم السكان الأصليون في جزيرة بورنيو بين إندونسيا وماليزيا. ولا يزالون يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم منذ 3000 عام. يَلقون دعمًا من الاتحاد الأوربي، حاليًا، بطريقة تعمل على زيادة التوتر مع الغالبية المسلمة - المترجم.

[←1463]

مالايا: مستعمرة سابقة في جنوب شرق آسيا تتكوَّن من جنوب شِبْه جزيرة المالايو وبعض الجزر المجاورة بما فيها سنغافورة. احتلها الهولنديون والبرتغاليون والبريطانيون. وهي تشكل الآن جزءًا من اتحاد ماليزيا المعروف باسم غرب ماليزيا - المترجم.

[←1464]

.Pocock, *Fighting General*, KL 1537–77

[←1465]

.Mumford, *Counter-Insurgency Myth*, 37f

[←1466]

.Beckett and Pimlott, *Counter-Insurgency*, 20

[←1467]

.Strachan, ‘British Counter-Insurgency from Malaya to Iraq’, 10

[←1468]

.Pocock, *Fighting General*, KL 2113–33

[←1469]

.Ibid., KL 2204–9

[←1470]

بورنيو: جزيرة ضمن مجموعة جزر الملايو - المترجم.

[←1471]

أحمد سوكارنو: (1901 - 1970)، أول رئيس لإندونيسيا بعد الاستقلال منذ يوم 17 أغسطس 1945. وكي يتغلب سوكارنو على محاولات زَرْع الفوضى وإعادة الاحتلال بعد إعلان استقلال إندونيسيا عن الاحتلال الهولندي، تبنَّى نظامًا أوتوقراطيًا سُمِّي ب«الديمقراطية المُوجَّهة» Guided Democracy في عام 1959، بدلاً من الديمقراطية البرلمانية. نحَّاه عن الحُكْم سوهارتو، أحدُ جنرالاته، بعد تفكيك الحزب الشيوعي الإندونيسي عام 1967 - المترجم.

[←1472]

طوارئ مالايا: تعبير أطلقته الحكومة الاستعمارية على حرب العصابات التي جرت في فترة ما قبل استقلال اتحاد مالايا وما بعده من عام 1948 حتى عام 1960، والطرفان المتحاربان هما قوات الاتحاد المسلحة تساندها بريطانيا ضد جيش التحرير الوطني الذراع العسكري للحزب الشيوعي في مالايا. أما التعبير الذي يستعمله جيش التحرير الوطني فهو «حرب التحرير الوطنية المُعادية لبريطانيا». تعود جذور التواجد البريطاني الاستعماري إلى استغلال القصدير والمطاط في المنطقة وفرض النفوذ - المترجم.

[←1473]

.Walker, 'How Borneo was Won', 11

[←1474]

.Ibid

[←1475]

.Tuck, ‘Borneo 1963–66’, 98f

[←1476]

.Walker, ‘How Borneo War Won’, 19 .

[←1477]

.Ibid., 9f

[←1478]

.Ibid., 10

[←1479]

.Ibid., 14 .

[←1480]

.Cross, *'Face Like a Chicken's Backside'*, 142f

[←1481]

.Ibid., 157

[←1482]

.Rosentall, ' "Confrontation": Countering Indonesian Insurgency', 102

[←1483]

.Beckett and Pimlott, *Counter-Insurgency*, 110

[←1484]

.Walker, 'How Borneo Was Won', 12

[←1485]

.Ibid., 9

[←1486]

الفيت كونج: الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام المعروفة باسم الفيت كونج، نشطت بين عاميْ 1954 و1976. وسببُ ظهورها انقسامُ فيتنام إلى جنوب وشمال جَرَّاء اتفاقيات جنيف عام 1954 وإعلان نظام نجو دين ديم تكوين جمهورية فيتنام الجنوبية بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية. فبدأت حربُ عصابات طاحنة في عام 1957 بقيادة رجال الفيت كونج ضد نظام ديم. وفي عام 1959، قررت حكومة فيتنام الشمالية مساعدة الفيت كونج. فتدخَّلت الولايات المتحدة بدءًا من عام 1961 عسكريًا. أشار إليهم المؤلف بغرض إظهار نجاح البريطانيين في مالايا مقابل إخفاق الأمريكيين مع الفيت كونج في فيتنام الجنوبية - المترجم.

[←1487]

.Ibid., 17

[←1488]

الجيش الجمهوري الأيرلندي: منظمة شِبْه عسكرية تأسَّستْ في عام 1919، بوصفها وريثةً لمنظمة قومية فدائية تأسَّست عام 1913 تُسَمَّى «المتطوعون الأيرلنديون». يسعى الجيش الجمهوري الأيرلندي إلى تحرير أيرلندا الشمالية من الحُكْم البريطاني وإعادة توحيدها مع الجمهورية الأيرلندية. ومنذ لحظة التأسيس، مرَّت المنظمة بمراحل عديدة دموية غالبًا في مواجهة بريطانيا من أجل الاستقلال، وصولاً إلى اتفاقية «بلفاست» في تسعينيات القرن العشرين. أما المرحلة المشار إليها في السياق الحالي فهي نهاية ستينيات القرن العشرين حين اندلعت أحداث عنف في أيرلندا الشمالية على إثر مطالبة الكاثوليك - وهم الأقلية - بالانفصال عن بريطانيا والحصول على حقوقهم المدنية والسياسية والوحدة مع جمهورية أيرلندا، فهاجمهم البروتستانت الأيرلنديون الموالون للحكم البريطاني.

وتدخَّلَ الجيش الجمهوري الأيرلندي في الصراع فحدثت مواجهات عنيفة مع الجيش البريطاني، بالإضافة إلى عمليات تفجير لأهداف مدنية في لندن نفسها.

وامتدت العمليات حتى منتصف السبعينيات - المترجم.

[←1489]

التزامن: المقصود هنا تزامن القول والعمل - المترجم.

[←1490]

هارولد ويلسن: (1916 - 1995)، سياسي بريطاني من حزب العمال، تولّى رئاسة الوزراء مرتين، انتهج أسلوبًا اشتراكيًا معتدلاً، ومع ذلك رأى مؤرّخو حزب العمال أن سنوات منصبه هي فرص ضائعة لإصلاحات كبرى، على حين يرى آخرون أنه تمكَّنَ من إدارة قضايا سياسية صعبة بمهارة تكتيكية عالية - المترجم.

[←1491]

الإشـارة هنا إلى أعضاء حلقة الخمسـة: جواسـيس كمبريدج - المترجم.

[←1492]

إينوك باوِل: (1912 - 1998)، سياسي إنجليزي وأديب كلاسيكي وعالِم لغوي وشاعر وأستاذ لغة يونانية قديمة. خَدَمَ في أحد مكاتب الاستخبارات البريطانية.

وشغل منصب عضو المحافظين في البرلمان. اكتسب شهرةً واسعة في عام 1968 عندما ألقى خطابًا مثيرًا للجدل حول الهجرة - المترجم.

[←1493]

إيان سميث: (1919 - 2007)، سياسي بريطاني، تولَّى منصب رئيس وزراء روديسيا من عام 1964 حتى عام 1979. تقع روديسيا في جنوب أفريقيا، ونشأت على أنقاض المستعمرة البريطانية السابقة «روديسيا الجنوبية». في الفترة التي تولَّى فيها إيان سميث - من الأقلية البيضاء - تشكيلَ الحكومة، اندلعت حربُ عصابات وحشية مع اتحاد شعب زيمبابوي الإفريقي بقيادة روبرت موجابي وحركة زابو بقيادة جوشوا نكومو، فاضطر رئيس الوزراء إيان سميث إلى إقرار ديمقراطية ثنائية العِرْق، ولكن فشلت الحكومة المؤقتة في وقف إراقة الدماء. في أبريل عام 1980، أُعْلِنَ استقلالُ روديسيا باعتراف بريطانيا والأمم المتحدة تحت اسم جمهورية زيمبابوي - المترجم.

[←1494]

.General Sir Walter Walker’, *Daily Telegraph*, 13 August 2001‘

[←1495]

برنامج إذاعي كوميدي بريطاني من إنتاج إذاعة BBC - المترجم.

[←1496]

مسلسل تلفزيوني كتبه ديفيد نوبس، يتناول حياة عائلة من الطبقة الوسطى في الضواحي، من خلال شخصية ريجينالد بيرن الملقَّب ب«ريجي»، يعمل مديرًا عامًا في شركة «حلويات الشمس المشرقة»، ونظرًا إلى عدم جدوى وظيفته يندفع إلى ممارسة سلوكيات غريبة - المترجم.

[←1497]

بانك روك: نوع من الموسيقى متفرّع من الرُّوك، متذمِّر ومُعارِض ويرتبط بالفوضوية، ظهر بدءًا من عام 1976 في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة قبل أن ينتشر في أرجاء العالم – المترجم.

[←1498]

الكلبية: مذهب يوناني قديم، يرى مؤسِّسه في القرن الرابع قبل الميلاد أن الشخص الحكيم هو الذي يحتقر كل الرغبات المألوفة في الحياة لأنه لن يستطيع مهما فعل إشباعها؛ فلا يتقيد بأية التزامات تجاه المجتمع أو الدولة أو الأسرة لأن هذه الالتزامات تُولِّد رغباتٍ لا يمكن إشباعها. وفي القرن التاسع عشر، تغيّر مفهوم الكلبية ليعني «سلبية شديدة» وارتيابًا عامًا في نزاهة دوافع الآخرين. وفي الأحاديث اليومية العادية لدى الغربيين يُوصَفُ الشخص الذي يسخر من الفكرة القائلة بوجود الخير في الطبيعة البشرية بأنه كلبي - المترجم.

[←1499]

وايتهول: شارع في مدينة وِسْتِمنِسْتر وسط لندن. مركز حكومة المملكة المتحدة حيث توجد فيه معظم مؤسَّسات الحكم ومقر رئاسة الوزراء. وفيه قصر «وايتهول» الذي كان مقرًا لإقامة ملوك إنجلترا قديمًا - المترجم.

[←1500]

.O'Hara, *From Dreams to Disillusionment*

[←1501]

الزراعة الجماعية: إنتاج زراعي جماعي، نفَّذته الحكومة السوفييتية بدءًا من أواخر عشرينيات القرن العشرين وفق سياسة دَمْج قَسْري لأسر الفلاحين الفردية في مزارع جماعية تُسَمَّى كولخوز kolkhozes يُشَارُ إليها بوصفها مثالاً على الزراعة الجماعية الإجبارية، في مقابل الكيبوتس الإسرائيلي الذي يُشَارُ إليه بوصفه مثالاً على الزراعة الجماعية الطَّوْعية - المترجم.

[←1502]

برازيليا: العاصمة الثالثة للبرازيل، بُنيت عام 1960، نفّذها المعماري البرازيلي أوسكار نيماير والمُصَمِّم لوسيو كوستا - المترجم.

[←1503]

يوجاما أو الأسرة في اللغة السواحيلية: مفهوم أساسي في سياسات التنمية الاجتماعية والاقتصادية في تنزانيا بعد استقلالها عن بريطانيا عام 1961 - المترجم.

[←1504]

.Scott, *Seeing Like a State*, 348

[←1505]

.Bar-Yam, ‘Complexity Rising’, 26

[←1506]

يانير باريام: من مواليد عام 1959، فيزيائي أمريكي، والمدير المؤسِّس لمعهد نيو إنجلاند للنُّظُم المعقدة - المترجم.

[←1507]

.See Bar-Yam, *Dynamics of Complex Systems*, 804–9

[←1508]

فريدريك هايك: (1899 - 1992)، اقتصادي ومنظِّر سياسي نمساوي بريطاني، وأكثر أعضاء المدرسة النمساوية في الاقتصاد تأثيرًا. عُرِفَ بدفاعه عن الليبرالية الكلاسيكية والرأسمالية القائمة على السوق الحر، ونقده للفكر الاشتراكي والجماعي أواسط خمسينيات القرن العشرين. حصل على نوبل في الاقتصاد مناصفةً عام 1974 - المترجم.

[←1509]

.Quoted in Thompson et al. (eds.), *Markets, Hierarchies and Networks*, 297

[←1510]

.Barabási, *Linked*, 201

[←1511]

.Lamoreaux et al., ‘Beyond Markets and Hierarchies’, 43f

[←1512]

.Ibid., 48f

[←1513]

.Chanda, *Bound Together*, 248

[←1514]

ثيودور ليفيت: (1925 - 2006)، اقتصادي أمريكي وأستاذ في كلية التجارة بجامعة هارفارد، ورئيس تحرير مجلة هارفارد بيزنس ريفيو. في عام 1983، اقترح تعريفًا لهدف الشركة هو خلق العميل والإبقاء عليه بدلاً من مجرد كسب المال - المترجم.

[←1515]

.(Theodore Levitt, 'The Globalization of Markets', *Harvard Business Review* (May 1983

[←1516]

والتر باوِل: من مواليد عام 1951. عالِم اجتماع أمريكي معاصر، أستاذ التعليم والسوسيولوجيا والسلوكَ التنظيمي وعلوم الإدارة والهندسة والاتصالات بجامعة ستانفورد وكلية ستانفورد للدراسات العليا منذ عام 1999. اشتهر بإسهاماته في النظرية التنظيمية، ولا سيما النظرية المؤسَّسية الجديدة ونظرية الشبكة - المترجم.

[←1517]

Powell, ‘Neither Market nor Hierarchy’, quoted in Thompson et al. (eds.), *Markets, Hierarchies and Networks*, 270.

[←1518]

.Ibid., 271f

[←1519]

.Ibid., 273f .

[←1520]

أوجستو بينوشيه: (1915 - 2006)، رئيس شيلي الثلاثون منذ عام 1974 حتى عام 1990، ديكتاتور عسكري - المترجم.

[←1521]

.Rhodes, ‘New Governance’, 665

[←1522]

.Thompson, *Between Hierarchies and Markets*, 133

[←1523]

.Ferguson, *Kissinger*, xiv

[←1524]

عميل مكافحة التجسُّس: شخص تكون كل مهمته معرفة ما يفعله العدو ويخطط للقيام به، وفي الوقت نفسه مَنْع وصول الجواسيس إلى المعلومات.

ويحوز هذا العميل أعلى التصاريح الأمنية للتعامل مع جهات متعددة استخباراتية ومدنية داخل البلاد. من مهماته بالإضافة إلى الكشف والتحديد والمكافحة، استغلالُ أو تحييدُ الخَصْم - المترجم.

[←1525]

.Ibid., 310

[←1526]

الأمر الواقع: شيء حَدَثَ بالفعل أو حُسِمَ قبل أن يسمع المتأثرون به شيئًا عنه، فلا يترك لهم خيارًا سوى التكيُّف معه - المترجم.

[←1527]

.Ibid., 502

[←1528]

.Ibid., 728

[←1529]

.Ibid., 806

[←1530]

.Ibid., 807

[←1531]

.Ibid., 841

[←1532]

رئيس موظفي البيت الأبيض أو كبير الموظفين فيه: هو الموظف الأعلى رُتبةً في البيت الأبيض، ويترأس المكتب التنفيذي لرئيس الولايات المتحدة، وأحد كبار مساعدي الرئيس. أُنْشئ المنصب عام 1 تحت اسم «مساعد الرئيس» ثم تغيَّرَ إلى الاسم الحالي عام 1961. وهو يعمل، بوجه عام، من خلف الكواليس لحل المشاكل والتوسط في النزاعات، ومعالجة مختلف القضايا قبل تقديمها لرئيس البلاد. من أخطر مهامه الإدارية التحكم في المعلومات الواردة إلى البيت الأبيض، ومن أخطر مهامه الاستشارية إسداء المشورة والنصح لرئيس البلاد بشأن قضايا داخلية وخارجية، وفي المسائل الإدارية. وهو ما يعني في النهاية تركيز الوصول إلى الرئيس في قناة واحدة. يناظِرُ هذا المنصبَ في مصر ما يُسَمَّى ب«رئيس ديوان الجمهورية» - المترجم.

[←1533]

.Ibid., 849

[←1534]

بيلتواي واشنطن: تعبير أمريكي يُستعمَل للإشارة إلى الأمور المهمة، أو التي تبدو مهمة، في نظر مسؤولي الحكومة الأمريكية في واشنطن. وفي الأصل البيلتواي طريق سريع يحيط بالعاصمة واشنطن - المترجم.

[←1535]

باجواش: تأسَّسَتْ منظمة مؤتمر باجواش للعلوم والشؤون الدولية عام 1957 في باجواش بكندا، بعد نشر بيان رَسل - أينشتاين عام 1955. وهي منظمة دولية تحاول جَمْعَ العلماء والشخصيات العامة للعمل على تقليل مخاطر النزاعات المسلحة وإيجاد حلول لتهديدات الأمن العالمي - المترجم.

[←1536]

Principles, Structure and Activities of Pugwash for the Eleventh Quinquennium, 2007–2012':' https://en.wikipedia.org/wiki/Pugwash_Conferences_on_Science_and_World_Affairs

[←1537]

.Evangelista, *Unarmed Forces,* 32f

[←1538]

.Ibid., 33

[←1539]

فيكتور فايسكوبف: (1908 - 2002)، عالِم فيزياء نمساوي المولد أمريكي الجنسية. بَرَعَ في الفيزياء النظرية، وقاد القسمَ النظري في مشروع مانهاتن - المترجم.

[←1540]

.Staar, *Foreign Policies*, 86

[←1541]

فلاديمير كفوستوف: (1905 - 1972)، مؤرِّخ روسي - المترجم.

[←1542]

إيجور تام: (1895 - 1971)، فيزيائي روسـي حصل على جائزة نوبل بالمشـاركة عام 1958 - المترجم.

[←1543]

هومو سوفييتيكس: إشارة ساخرة ونقدية إلى الشخص السوفييتي العادي الملتزم. أشاع هذا المصطلحَ الكاتبُ والسوسيولوجي ألكسندر زينوفييف في كتاب يحمل هذا العنوان - المترجم.

[←1544]

.Ferguson, *Kissinger*, 505

[←1545]

الستار الحديدي: يشير إلى سياسة العزلة التي انتهجها الاتحاد السوفييتي السابق بعد الحرب العالمية الثانية مباشرةِ بإقامة الحواجز التجارية والرقابة الصارمة، التي عزلت البلاد - ودول أوربا الشرقية السائرة في فَلَكِه - عن بقية العالم. أول مَن استعمل التعبيرَ ونستون تشرشل. ومرَّتْ هذه العزلة بمراحل من القوة والفتور حتى تراخت تمامًا مع أواسط ثمانينيات القرن العشرين عند تطبيق نظام البروسترويكا (الإصلاح الاقتصادي) والجلاسنوست (الانفتاح) أثناء رئاسة جورباتشوف - المترجم.

[←1546]

الحرس الأحمر: حركة اجتماعية شِبْه عسكرية طموحة، حشدها ماو تسي تونج عاميْ 1966 و1967، تمخَّضت عن منظمة شبابية ثورية مسلحة بدعم من ماو شخصيًا، واستغلها في الدعاية وتدمير رموز الماضي ما قبل الشيوعي. حُلَّتْ رسميًا مع نهاية عام 1968 - المترجم.

[←1547]

الإشارة إلى استعراضات شباب الحزب النازي في المناسبات السنوية المؤيدة لهتلر - المترجم.

[←1548]

خروتشوف: (1894 - 1971)، زعيم شيوعي ورجل دولة سوفييتي، حَكَمَ الاتحادَ السوفييتي في الفترة من عام 1953 حتى عام 1964. تَميَّزَ حُكْمُه بمعاداة الستالينية وبإرساء الدعائم الأولى لسياسة الانفراج الدولي والتعايش السلمي - المترجم.

[←1549]

.Ibid., 736

[←1550]

تفكَّكَتْ تشيكوسلوفاكيا سِلْميًا يوم 1 يناير عام 1993 إلى جمهورية التشيك وجمهورية سلوفاكيا - المترجم.

[←1551]

ربيع براغ: مرحلة في تاريخ الجمهورية الاشتراكية التشيكوسلوفاكية، حاول خلالها الحزبُ الشيوعي التشيكوسلوفاكي انتهاجَ سياسة إصلاحية أقرب إلى الديمقراطية عُرِفَتْ باسم «الاشتراكية ذات الوجه الإنساني»، بدأت في يناير عام 1968، وعلى إثرها حَدَثَ اجتياحٌ عسكري للبلاد من قبل حلف وارسو بقيادة الاتحاد السوفييتي - المترجم.

[←1552]

.Ibid., 740

[←1553]

.Ibid., 746f

[←1554]

.See Appendix

[←1555]

فضيحة ووترجيت: أثناء معركة تجديد رئاسة نيكسون في عام 1972، قرَّرَ نيكسون التجسُّسَ على مكاتب الحزب الديمقراطي المنافِس في مبنى ووترجيت. وفي يوم 17 يونيو عام 1972 أُلْقي القبض على خمسة أشخاص بمقر الحزب الديمقراطي وهم ينصبون أجهزة تسجيل مُموَّهة. كان البيت الأبيض قد سجَّلَ فعليًا 64 مكالمة، فتفجرت أزمةٌ سياسية كبيرة وتوجَّهَتْ أصابع الاتهام إلى نيكسون فاستقال وحُوكِمَ - المترجم.

[←1556]

على سبيل المثال، في «القياس الكمِّي لكيسنجر» Quantifying Kissinger - الأطروحة التي يجري العمل عليها في جامعة سيتي بنيويورك - تحاول ميكي كوفمان Micki Kaufman تقديم تحليل شبكي لمراسلات كيسنجر في أرشيف الأمن القومي National Security Archive's Kissinger Correspondence، وهي مجموعة تتألف من أكثر من 18 ألف وثيقة. تُبَيّن ميكي، من بين أشياء أخرى، أن شبكة كيسنجر اتَّسَعَتْ بعد تعيينه وزيرًا للخارجية، بل إن شبكاته الشخصية أيضًا - بوصفها متميزة عن القنوات البيروقراطية المؤسَّسية - سهَّلَتْ إدارتَه لأحداث جيوسياسية رئيسية في ذلك الوقت مثل الحرب العربية الإسرائيلية عام 1973، والحرب الفيتنامية، والانفتاح على الصين، والإجراء العسكري في كمبوديا، والجهود الديبلوماسية لحلِّ حرب الغابة الروديسية Rhodesian Bush War - المؤلف.

[←1557]

تشو إنلاي: (1898 - 1976)، أول رئيس وزراء لجمهورية الصين الشعبية، بدءًا من أكتوبر عام 1949 حتى وفاته في يناير عام 1976. عمل في ظل حكم ماو تسي تونج، وقام بدور فعال في تعزيز سيطرة الحزب الشيوعي وتشكيل السياسة الخارجية وتنمية الصين اقتصاديًا - المترجم.

[←1558]

.Superstar Statecraft: How Henry Does It’, *Time*, 1 April 1974‘ .

[←1559]

بسبب إدانته في فضيحة ووترجيت - المترجم.

[←1560]

.Ibid

[←1561]

التفاعل المتسلسل: سلسلة تفاعلات يتسبَّبُ فيها سلوكٌ تفاعلي أو ثانوي مُحْدِثًا استجابات إضافية. في التفاعل أو رد الفعل المتسلسل، تؤدِّي ردودُ الفعل الإيجابية إلى تكبير تسلسل الأحداث تلقائيًا. وما يعادِلُ هذا الوضعَ، بشكل مجازي، «كرةُ الثلج» التي تتضخم بفعل طاقة الجاذبية المُخَزَّنة فيها حتى تصل في النهاية إلى ما يُسَمَّى «تأثير كرة الثلج» - المترجم.

[←1562]

.Ibid

[←1563]

بمعنى تخفيف التوتر في العلاقة بين الدول، وظهر ذلك واضحًا في العلاقة مع الاتحاد السوفييتي، ومع الصين، وفيما بين مصر وإسرائيل - المترجم.

[←1564]

.Sargent, *Superpower Transformed*, 158

[←1565]

أزمة الطاقة المُشار إليها هي الأزمة الناتجة عن حَظْر النفط عام 1973، الذي فرضته الدول العربية المُصَدِّرة للبترول على كل البلاد التي ساعدت إسرائيل أثناء حرب أكتوبر، وبصفة خاصة الولايات المتحدة الأمريكية وهولندا. كان لهذا الحظر تداعياتٌ خطيرة على الولايات المتحدة وأوربا الغربية وأستراليا. ومنذ هذه اللحظة، بدأت الولايات المتحدة في تقليل اعتمادها على الغير عبر إستراتيجيات عديدة - المترجم.

[←1566]

.Ibid., 159

[←1567]

.Ibid., 176

[←1568]

Notably Cooper, *Economics of Interdependence*, and Keohane and Nye, *Power and Interdependence*.

[←1569]

في إطار الخطة الأصلية للجنة الثلاثية، تتألّف اللجنةُ التنفيذية من أربعة وثلاثين مندوبًا: أربعة عشر من المجموعة الاقتصادية الأوربية EEC، تسعة من اليابان، تسعة من الولايات المتحدة، اثنان من كندا. وهو ما يُعَدُّ نكرانًا للذات من جانب الأمريكيين، لأن اقتصاد الولايات المتحدة كان لا يزال أكبر من اقتصاد دول المجموعة الاقتصادية الأوربية في ذلك الوقت - المؤلف.

[←1570]

بيت روكفلر: يُعْرَفُ المنزلُ أيضًا باسم «كايكويت» kykuit، ويتكون من أربعين غرفة، في قرية بوكانتيكو هيلز، وهي قرية صغيرة في بلدة «ماونت بليزانت» بولاية نيويورك. كان البيتُ موطنًا لأربعة أجيال من عائلة جون روكفلر الذي أسَّس شركة «ستاندرد أويل» العاملة في النفط، فصار من كبار الرأسماليين الأمريكيين. يُعَدُّ البيتُ الآن مَعْلَمًا تاريخيًا وطنيًا - المترجم.

[←1571]

.Interdependence Day’, *The New York Times*, 4 July 1976‘

[←1572]

جيمي كارتر: من مواليد عام 1924، سياسي أمريكي وعضو بالحزب الديمقراطي. الرئيس التاسع والثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية في الفترة من عام 1977 حتى عام 1981. أنشأ وزارةً مستقلة للطاقة. وَقَّعَ على اتفاقية كامب ديفيد ومعاهدة قناة بنما - المترجم.

[←1573]

زبجنيو برجينسكي: (1928 - 2017)، أستاذ السياسة الخارجية الأمريكية في كلية بول نيتز للدراسات الدولية المتقدمة بجامعة جون هوبكنز بولاية واشنطن، ومستشار مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية. عمل مستشارًا للأمن القومي لدى الرئيس الأمريكي جيمي كارتر في الفترة من عام 1977 حتى عام 1981 - المترجم.

[←1574]

.Brzezinski, *Between Two Ages*

[←1575]

دانيل إلزبيرج: من مواليد عام 1931 بشيكاغو. ناشط ومحلل عسكري وعالِم اقتصاد وكاتب أمريكي. أثناء فترة عمله في مؤسسة «راند» قام بتسريب دراسة فائقة السرِّية أجرتها وزارة الدفاع الأمريكية حول عملية صناعة القرار الأمريكي في حرب فيتنام، عُرِفَتْ باسم «أوراق البنتاجون» - إلى صحيفة نيويورك تايمز وغيرها من الصحف. على إثرها أُدين بموجب قانون التجسُّس مع توجيه تُهْمَتيْ السرقة والتآمر يوم 3 يناير عام 1973، ثم سقطت جميع التهم يوم 11 مايو من العام نفسه لسوء التصرف الحكومي وجَمْع الأدلة بطريقة مخالفة للقانون. اعترض على الغزو الأمريكي للعراق وتظاهر ضده. نال إلزبيرج جائزة رايت ليفيلهوود عام 2006. واشتهر بصياغته ل«مفارقة إلزبيرج» التي تُعَدُّ من الأمثلة المهمة في «نظرية القرار». يدعم إلزبيرج موقع ويكيليكس وتشلْسي مانِنْج وإدوارد سنودن - المترجم.

[←1576]

الساميزدات: طريقة في الكتابة والنشر مارسها المنشقون في الاتحاد السوفييتي ودول الكتلة الشرقية تحديًا للرقابة على الكتابات المُعارِضة، فكان الكاتبُ يطبع ما يريد بنفسه ويُمرِّره من قارئ إلى آخر، ومَن يُقبَض عليه يتعرض لعقوباتٍ قاسية. يلخص فلاديمير بوكوفسكي فكرة الساميزدات بقوله: «أُبْدِعها بنفسي وأحرِّرها وأطبعها وأوزِّعها وأُسْجَنُ بسببها» - المترجم.

[←1577]

أرخبيل الجولاج: تدور الرواية حول القمع في الاتحاد السوفييتي من عام 1918 حتى عام 1956، وتستند إلى الرسائل المكتوبة والشفوي لحوالي 257 سجينًا، بالإضافة إلى خبرة الكاتب الشخصية - المترجم.

[←1578]

.Bearman and Everett, ‘Structure of Social Protest’, 190f

[←1579]

تجمُّعات نورمبيرج: حدثت سنويًا في مقر الحزب النازي في نورمبيرج، مُورِسَتْ فيها أنشطةُ الدعاية للحزب النازي. وزادت بشكل كبير بعد صعود هتلر إلى السلطة في عام 1933 - المترجم.

[←1580]

.Henry A. Kissinger, ‘The Need to Belong’, *The New York Times*, 17 March 1968

[←1581]

./http://www.pbs.org/newshour/bb/white_house-july-dec11-nixontapes_11-25

[←1582]

كيسنجر أسوشِيتس: شركة استشارات جيوسياسية دولية، مقرُّها نيويورك. أسَّسَها وأدارها هنري كيسنجر عام 1982. تساعد الشركةُ عملاءَها على تحديد الشركاء الإستراتيجيين وفُرَص الاستثمار وتقديم المشورة لهم بشأن العلاقات الحكومية - المترجم.

[←1583]

بول بِران: (1926 - 2011)، مخترع ومهندس شبكات أمريكي من أصل بولندي - المترجم.

[←1584]

أنشأ مؤسسةَ «راند»، في الأصل، قائدُ سلاح طيران الجيش الأمريكي في أكتوبر عام 1945، للبحث في أسلحة المستقبل، ثم فُصِلَتْ مؤسسة راند («للبحث والتطوير») عن شركة دوجلاس للطائرات Douglas Aircraft بعد ثلاث سنوات بوصفها كيانًا غير ربحي تُمَوِّلُه الحكومةُ والقطاع الخاصُ بشكل مشترك.

وبوصفه مديرًا إستراتيجيًا في راند، كَتَبَ هيرمان كان Hermann Kahn كتابَه الكلاسيكي «عن الحرب الثيرمونووية» On Thermonuclear War (1960) - المؤلف.

[←1585]

وهما كلمتان تعنيان بالدرجة الأولى تنظيمًا شبكيًا - المترجم.

[←1586]

أربانِت: من أوائل شبكات نقل البيانات باستخدام تقنية تبديل الرُّزَم. ربطت الشبكةُ بين عدد من الجامعات البحثية في الولايات المتحدة لأغراض علمية وأكاديمية. وهي النواة الأولى لشبكة الإنترنت، وأول شبكة بيانات تَستخدم حزمةَ بروتوكولات الإنترنت. خضعت في البداية لإشراف وزارة الدفاع الأمريكية لأغراض عسكرية. شارك مع بول بِران في اختراعها وإنشائها ليونارد كلينروك ولُورَنس روبرتس والباحث البريطاني دونالد ديفيس – المترجم.

[←1587]

.Barabási, *Linked*, 147

[←1588]

مِلْفين كُنواي: مُبَرْمِج وعالِم حاسوب، عُرِفَتْ عبارته الواردة هنا ب«قانون كونواي» - المترجم.

[←1589]

’?Conway, ‘How Do Committees Invent

[←1590]

.Ibid

[←1591]

.Caldarelli and Catanzaro, *Networks*, 37

[←1592]

جوردون مور Gordon E. More أحدُ المؤسِّسين المشاركين لشركة إنتل Intel، لاحظ في عام 1 أن عدد الترانزستورات transistors لكل بوصة مربعة على شريحة الدوائر المتكاملة يتضاعف كل عام. وتَوَقَّعَ أن يستمر هذا المعدل، لكنه عَدَّلَ توقُّعَه في عام 1975، فأشار إلى أنه سيتضاعف كل عامين بعد عام 1980.

ولا مجال هنا لمزيد من التفاصيل عن التطورات في قوة الحَوْسبة التي رافقت تطور الإنترنت؛ يكفي القول بأن «قانون مور» لا يزال مستمرًا منذ ذلك الوقت تقريبًا - المؤلف.

[←1593]

رُزْمة بيانات: وحدة بيانات تُوضَعُ في حزمة واحدة وتنتقل عبر مسار شبكة معين. تُستخدَم حِزَمُ البيانات في عمليات إرسال بروتوكول الإنترنت آي بي IP للبيانات عبر الويب، وفي أنواع الشبكات الأخرى - المترجم.

[←1594]

.Naughton, *From Gutenberg to Zuckerberg*, 45f

[←1595]

ال IP: لكل كمبيوتر متصل بالإنترنت عنوان فريد هو IP خاص به، يأخذ شكلَ متوالية محددة من الأرقام - المترجم.

[←1596]

.Caldarelli and Catanzaro, *Networks*, 38

[←1597]

نظرًا إلى صعوبة تذكُّرِ عناوين آي بي الرقمية التي نزورها يوميًا على الشبكة، تم تحويل سلاسل الأرقام إلى كلمات، وهي عملية تتولاها خوادم أسماء النطاق، فحين تزور أحدَ مواقع الويب فكل ما تحتاجه هو معرفة عنوانه URL الخاص به، وتتذكر أجهزة الكمبيوتر الأرقام بسهولة فتُحَوِّل ال URL إلى IP يمكن للكمبيوتر فَهْمُه. ومن ثمَّ، تقوم خوادم أسماء النطاق بوظيفة خدمة الدليل كدليل الهاتف الكلاسيكي - المترجم.

[←1598]

قانون كونواي هو: «الهياكلُ التنظيمية organizations التي تُصمِّم النُّظُمَ systems مُقَيَّدَةٌ بإنتاج تصاميم هي عبارة عن نُسَخ لأبنية الاتصال في هذه الهياكل التنظيمية» - المترجم.

[←1599]

.Newman, *Networks*, 19f

[←1600]

تبديل الرُّزَم: طريقة لنقل البيانات المُرْسَلَة عبر شبكة رقمية على شكل رُزَم بيانات، فتُوجَّه المعلوماتُ إلى وِجْهتها حتى تستخدمها التطبيقاتُ البرمجية. وهي الطريقة التي بدأها بول بِران في مطلع الستينيات مناقضًا المفاهيم السائدة حينذاك وأهمها التخصيص السابق لعرض النطاق - المترجم.

[←1601]

.Brinton and Chiang, *Power of Networks*, 245

[←1602]

.Ibid., 297

[←1603]

شبكة الويب العالمية أو اختصارًا «الويب»: نظام معلومات على الإنترنت يتيح ربط المستندات بمستندات أخرى عن طريق روابط النص التشعُّبي hypertext links، الأمر الذي يتيح للمُستخدِم البحثَ عن المعلومات بالانتقال من مستند إلى آخر. أُنْشِئت خلال النصف الثاني من ثمانينيات القرن العشرين - المترجم.

[←1604]

.’On the forerunners to the World Wide Web, see Hall, ‘Ever Evolving Web

[←1605]

تيم بِرْنرز لي: من مواليد عام 1955. مهندس وعالِم حاسوب بريطاني، وأستاذ علوم الحاسوب في جامعة أكسفورد. اشتهر باختراعه «الويب» - المترجم.

[←1606]

.Castells, *Rise of the Network Society*, 63f. See also Newman, *Networks*, 5

[←1607]

.Caldarelli and Catanzaro, *Networks*, 39f., 43f

[←1608]

وادي السِّليكون: هو المنطقة الجنوبية من خليج سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا، الولايات المتحدة الأمريكية. اشتهر بهذا الاسم لوجود عدد كبير من مُنْتِجِي ومُطَوِّري شرائح السِّليكون (الدائرة المتكاملة) المستعملة في التكنولوجيا المتقدِّمة. يضم حاليًا جميع أعمال التقنية العالية فأصبح اسمه مرادفًا للتقنية العالية - المترجم.

[←1609]

قانون آداب الاتصالات: أول محاولة جديرة بالذكر من كونجرس الولايات المتحدة الأمريكية لتنظيم المواد الإباحية على الإنترنت. نُفِّذَ في أول قضية عام 1997.

ويعالِجُ القانون في صيغته النهائية نقطتين: الأولى، تنظيم الفاحشة حين تكون متاحة للأطفال، والفُحْشَ في الفضاء الإلكتروني؛ والنقطة الثانية تتعلق بأن مُشَغِّلي خدمات الإنترنت ليسوا ناشرين، ومن ثمَّ ليسوا مسؤولين عن كلمات أو أفعال الأطراف الأخرى التي تَستخدِمُ خدماتهم - المترجم.

[←1610]

جريتفول ديد: فرقة روك أمريكية، تأسَّستْ عام 1965 في بالو ألتو بكاليفورنيا. تتميز الفرقة بالانتقائية فتدمج بين عناصر من موسيقى الروك والبلوز والإنجيل وموسيقى الجاز وغيرها - المترجم.

[←1611]

جون بيري بارلو: (1927 - 2018)، شاعر وكاتب مقالات ومُدوِّن وناشط إنترنت أمريكي. عضو في الحزب الجمهوري - المترجم.

[←1612]

.Garton Ash, *Free Speech*, KL 494–496

[←1613]

.https://w2.eff.org/Censorship/Internet_censorship_bills/barlow_0296.declaration

[←1614]

.Goldsmith and Wu, *Who Controls the Internet?*, 21

[←1615]

مجموعة مهندسيْ شبكة الإنترنت: جمعية دولية تضم المُصمِّمين والمُشغِّلين والمُصنِّعين والباحثين العاملين في مجال تطوير بنية شبكة الإنترنت وتحسين أدائها. بدأت الجمعية نشاطها بدعم من الحكومة الفيدرالية للولايات المتحدة الأمريكية عام 1986. ولكنها بدءًا من عام 1993، اتجهت إلى العمل بوصفها هيئة لتطوير المعايير تحت إشراف مجتمع الإنترنت، وهي منظمة دولية غير ربحية تشرف على سياسات الإنترنت - المترجم.

[←1616]

.Ibid., 24

[←1617]

.Ibid., 15

[←1618]

إيانا أو هيئة تعيين أرقام الإنترنت (سجل نطاق المستوى الأعلى): منظمة مسؤولة عن تنسيق بعض العناصر الأساسية التي تحافظ على سلاسة الإنترنت. ولأن شبكة الإنترنت ليس لها تنسيق مركزي، كانت إيانا هي المسؤولة عن الإشراف على تخصيص عناوين بروتوكولات الإنترنت ونظام أسماء النطاقات، إلخ. - المترجم.

[←1619]

خوادم أسماء منطقة الجذر: مسؤولة بشكل مباشر عن الاستجابة لطلبات التسجيل في منطقة الجذر وتلبية طلبات أخرى عن طريق عرض قائمة بخوادم الأسماء الرسمية لنطاق المستوى الأعلى الملائم، وهذا النوع من الخوادم جزء من بنية الإنترنت التحتية - المترجم.

[←1620]

نظام أسماء النطاقات (DNS (Domain Name System: نظام يُخزِّن معلومات تتعلق بأسماء نطاقات الإنترنت في قاعدة بيانات لامركزية على الإنترنت.

يُشكِّل حجرَ الزاوية في عمل الإنترنت لأنه يربط المعلومات بأسماء النطاقات وترجمتها حتى تصل إلى الحواسيب والخوادم عبر بنية الإنترنت التحتية - المترجم.

[←1621]

وكالة أنظمة معلومات الدفاع: تُعْرَفُ باسم وكالة اتصالات الدفاع، تتألف من عسكريين ومدنيين فيدراليين ومتعاقدين، مهمتها توفير تكنولوجيا المعلومات والاتصالات للرئيس ونائبه ووزير الدفاع وكل الأجهزة المَعْنية بالدفاع عن الولايات المتحدة - المترجم.

[←1622]

.Ibid., ch. 3

[←1623]

العمّ سام: رمز ولقب شعبي يُطْلَقُ على الولايات المتحدة الأمريكية. ويعود الاسم إلى القرن التاسع عشر، وعلى وجه التحديد، حرب عام 1812، عندما كان الجزار الأمريكي صمويل ويلسن يُزوِّد القوات الأمريكية ببراميل مليئة بلحم البقر ومطبوع عليها حرفي U. S.؛ أيْ الولايات المتحدة في إشارة إلى أنها مِلْك الدولة، ولكن الجنود أطلقوا عليه اسم العم سام، على أساس أن حرف U اختصار ل Uncle والحرف S اختصار ل Sam – المترجم.

[←1624]

فيكتور جلوشكوف: (1923 - 1982)، عالِم رياضيات سوفييتي، والأب المؤسِّس لتكنولوجيا المعلومات في الاتحاد السوفييتي، له تأثير كبير في العديد من مجالات علوم الكمبيوتر النظرية بما فيها نظرية البَرْمَجة والذكاء الاصطناعي - المترجم.

[←1625]

.Benjamin Peters, ‘The Soviet InterNyet’, *Aeon*, 17 October 2016

[←1626]

بول ساميولْسُن: (1915 - 2009)، اقتصادي أمريكي، مَارَسَ التدريسَ في الجامعات والمعاهد الأمريكية، وعمل مستشارًا للعديد من الهيئات الحكومية الأمريكية - المترجم.

[←1627]

National Security Agency, ‘Dealing with the Future: The Limits of Forecasting’, 100: .http://www.nsa.gov/public_info/_files/cryptologic_quarterly/limits_forecasting.pdf

[←1628]

.Osa, *Solidarity and Contention*,117f

[←1629]

.Ibid.,165 .

[←1630]

فويتشخ ياروزلسكي: (1923 - 2014)، جنرال وسياسي بولندي، وآخر رئيس شيوعي في البلاد - المترجم.

[←1631]

إيريك هونيكر: (1912 - 1994)، سياسي ألماني قادَ جمهوريةَ ألمانيا الديمقراطية (ألمانيا الشرقية) بصفته أمين عام حزب الوحدة الاشتراكية منذ عام 1971، كما تولَّى رئاسة الدولة منذ عام 1976 بعد تخلِّي فيلي شتوف عن المنصب، وظل رئيسًا حتى سقوط جدار برلين عام 1989 - المترجم.

[←1632]

Malcolm Gladwell, ‘Small Change: Why the Revolution Will Not Be Tweeted’, *New Yorker*, 4 .
.October 2010

[←1633]

احتجاجات يونيو 1989 في بكين المعروفة ب«حادثة الرابع من يونيو»، أو مظاهرات ساحة تيانِنْمِن: سلسلة مظاهرات وطنية في الصين بدأت يوم 15 أبريل، وظلت تتصاعد حتى وصلت ذروتها في يوم 4 يونيو، حين احتل طلبة الجامعة الصينيين ساحة تيانِنْمِن مطالبين بالديمقراطية والإصلاح. فأُعْلِنت الأحكامُ العُرْفية واتخذت السلطاتُ قرارَ إخلاء السَّاحة بالقوة - المترجم.

[←1634]

.Grdesic, ‘Television and Protest in East Germany’s Revolution’, 94

[←1635]

كلاوس شُواب: من مواليد عام 1938 بألمانيا. حائز على الدكتوراه في الاقتصاد والهندسة والإدارة العامة. اقتصادي ورجل أعمال يعيش في سويسرا، وتعمل معه زوجته هيلدا في مشاريعه. أسَّسَ عام 1971 المنتدى الاقتصادي العالمي الذي تطور لاحقًا حتى صار شراكةً دولية لرجال الأعمال والسياسة والفكر. وفي عام 1989، أسَّس شُواب مع زوجته «مؤسسة شُواب للمشروعات الاجتماعية» ومقرها جنيف بسويسرا. وفي عام 2004، أسَّسَ «منتدى قادة العالم من الشباب» بهدف جمع أكثر من ألف شاب تحت سن الأربعين ممن يعملون في مختلف المجالات لتشجيعهم على التعاون من أجل تغيير العالم - المترجم.

[←1636]

.Navidi, *Superhubs*, 95

[←1637]

خيمة المورمن أو القبة المعلقة: تقع في ساحة تمبل بمدينة سولت ليك بولاية يوتا Utah غرب الولايات المتحدة الأمريكية. بُنيت الخيمةُ بين عاميْ 1864 و1867 بوصفها مقرًا لاجتماعات «كنيسة قديسي الأيام الأخيرة ليسوع المسيح،» وهي اجتماعات نصف سنوية. وبدءًا من عام 200، نُقِلَت الاجتماعاتُ إلى مقر آخر بسبب زيادة عدد الحاضرين. كانت الخيمةُ موطنَ جوقة المعبد ذات الشهرة العالمية في ساحة تمبل. وكانت مقرًّا سابقًا لأوركسترا يوتا السيمفونية حتى بناء قاعة أبرافانيل. أُغْلِقَت الخيمةُ في عام 2005 لتجديدها حتى تكون أكثر قدرة على مقاومة الزلازل، ثم أعيد افتتاحها عام 2007 بتكريس من الكنيسة - المترجم.

[←1638]

البستان البوهيمي: أرضُ مُخَيَّم في مونتي ريو بولاية كاليفورنيا، تابعة لـ«النادي البوهيمي». في منتصف شهر يوليو من كل عام، يستضيف البستانُ البوهيمي معسكرًا يضم أهمَّ رجال العالَم وأعظمهم سلطةً. يُشاعُ أن بعض الطقوس تُقامُ في المعسكر مثل عبادة صخرة كبيرة تشبه طائر البومة، وقتل طفل صغير طعنًا أو حرقًا، وجلوس الرجال عُراةً. يوجد مقطع فيديو سَرَّبه الصحفيُّ أليكس جونز بعد أن صوَّرَ الطقوس مستخفيًا - المترجم.

[←1639]

مهرجان الرجل المحترق: مهرجان سنوي يُعْقَدُ في صحراء الصخرة السوداء المنعزلة في منطقة بليك روك [البحيرة الجافة] شمال ولاية نيفادا بالولايات المتحدة الأمريكية. يستمر المهرجان لمدة أسبوع، وتتخذ منطقةُ المهرجان شكلاً نصف دائري. جاءت التسمية من ممارسة طقس حَرْق تمثال رجل خشبي مساء يوم السبت. يرجع أصل هذا الطقس إلى عام 1986 عندما قام رجلان بوهيميان من سان فرانسيسكو، هما لاري هارفي وجيري جيمس، بحرق دُمْية خشبية على شاطئ بيكر بيتش، فاجتذب هذا التقليدُ العديدَ من الناس. ثم بحلول عام 1990 نقل المشاركون في هذا الطقس المهرجانَ إلى صحراء ولاية نيفادا - المترجم.

[←1640]

لوس أنجلوس: أكبر مدن ولاية كاليفورنيا، وتقع غرب الولاية على ساحل المحيط الهادي. اسم المدينة مأخوذ من اللغة الإسبانية، ويعني «الملائكة»، كما أنه اختصارٌ لاسمها الإسباني الذي يعني: «قرية السيدة العذراء ملكة ملائكة نهر بورسيونكولا». تزدهر فيها صناعة الطائرات، وصناعة السينما في حي هوليوود. في عام 1992، عاشت المدينة صدامات دموية عنيفة على خلفية قضية رودني كينج السائق الأسود الذي اعتدى عليه أربعة رجال بِيض من شرطة لوس أنجلوس - المترجم.

[←1641]

كوجو: منطقة تاريخية بولاية نيويورك، ولعل المقصود بالإشارة «نادي شاطئ كوجو» الذي يُعَدُّ أحد أغلى أماكن قضاء الأجازات السنوية في العالم بأسره - المترجم.

[←1642]

توماس مان: (1875 - 1955)، روائي ألماني، حصل على جائزة نوبل في الآداب عام 1929 - المترجم.

[←1643]

.Nick Paumgarten, ‘Magic Mountain: What Happens at Davos?’ *New Yorker*, 5 March 2012

[←1644]

./https://www.weforum.org/agenda/2013/12/nelson-mandelas-address-to-davos-1992

[←1645]

نِلسُن مانديلا: (1918 - 2013)، سياسي وثوري جنوب أفريقي مُناهِض لسياسة الفصل العنصري والسياسات الاستعمارية في جنوب أفريقيا. شغل منصبَ رئيس جنوب أفريقيا بين عاميْ 1994 و1999. قبل هذا، مكث مانديلا في السجن سبعة وعشرين عامًا إثر إدانته بالتخريب والتآمر لقلب نظام الحُكْم عام 1962، فحكمت عليه محكمةُ ريفونيا بالسجن مدى الحياة. يُصَنَّفُ مانديلا بوصفه قوميًا أفريقيًا وديمقراطيًا اشتراكيًا، ويتعرض للانتقاد لتعاطفه مع الإرهاب والشيوعية.

حصل على جائزة نوبل للسلام عام 1993، وعلى ميدالية الرئاسة الأمريكية للحرية، وعلى وسام لينين من الاتحاد السوفييتي. وكلمته في دافوس ألقاها في يناير عام 1992 - المترجم.

[←1646]

ميثاق الحرية: بيان بالمبادئ الأساسية ل«تحالف مؤتمر جنوب أفريقيا» الذي تألَّفَ من «المؤتمر القومي الأفريقي» و«مؤتمر الديمقراطيين الجنوب أفريقيين» و«مؤتمر الشعب المُلوَّن». تميَّزَ الميثاقُ بعبارته الافتتاحية: «سيحكم الشعب» - المترجم.

[←1647]

.Paul Nursey-Bray, ‘The Solid Mandela’, *Australian Left Review* (June 1992), 12–16

[←1648]

رُمْح الأمة: تنظيم أسَّسه مانديلا مع آخرين عام 1961، عقب رفض الحكومة القيام بإصلاحات دستورية، وعقب مذبحة شاربفيل في إقليم الترانسفال.

تأسَّسَ التنظيمُ بوصفه جناحًا عسكريًا لحركة المؤتمر الوطني الأفريقي. تميزت هجماته بأسلوب حرب العصابات. واتُّهِمَ في ظل الحرب الباردة باشتغاله لحساب السوفييت فصنَّفته الولايات المتحدة وبريطانيا والدول الغربية عمومًا بأنه منظمة إرهابية محظورة. ادَّعَى الموسادُ أنه تَولَّى تدريب مانديلا على السلاح والتخريب عام 1962 - المترجم.

[←1649]

.Barnard and Popescu, ‘Nelson Mandela’, 241f

[←1650]

جزيرة روبن: تقع في خليج الجدول، كيب تاون جنوب أفريقيا - المترجم.

[←1651]

.Sampson, *Mandela*, 427

[←1652]

.Ibid., 429

[←1653]

Jake Bright, 'Why the Left-Leaning Nelson Mandela was such a Champion of Free Markets', 6 December 2013: http://qz.com/155310/nelson-mandela-was-also-a-huge-champion-of-free-markets/

[←1654]

الفاوستية هنا إشارة إلى أن الصفقة تحالف مع الشيطان - المترجم.

[←1655]

Ronnie Kasrils, 'How the ANC's Faustian Pact Sold Out South Africa's Poorest', *Guardian*, 24 June 2013: https://www.theguardian.com/commentisfree/2013/jun/24/anc-faustian-pact-mandela-fatal-error.

[←1656]

Anthony Monteiro, ‘Mandela and the Origins of the Current South African Crisis’, 24 February 2015: https://africanamericanfutures.com/2015/02/24/mandela-and-the-origins-of-the-current-south-african-crisis/. See also Monteiro, ‘Nelson Mandela: The Contradictions of His Life and Legacies’, *Black Agenda Report*, 12 November 2013: http://www.blackagendareport.com/content/nelson-mandela-contradictions-his-life-and-legacies.

[←1657]

تابو مبِكي: من مواليد عام 1942 بجنوب أفريقيا. رئيس جمهورية جنوب أفريقيا الحادي عشر منذ عام 1999 حتى عام 2008، خلفًا لنِلسُن مانديلا. طالبه حزبُه بالاستقالة إثر تدخُّله في عمل القضاء أثناء محاكمة نائبه الأسبق جاكوب زوما بتهم فساد - المترجم.

[←1658]

هيلين سُزمان: (1917 - 2009)، ناشطة ومناهضة سياسية للفصل العنصري في جنوب أفريقيا، لعبت دورًا في تحسين أوضاع أعضاء حزب المؤتمر الوطني في السجون، بمَن فيهم نِلْسُن مانديلا رغم تحفظها على سياساته الثورية - المترجم.

[←1659]

.Sampson, *Mandela*, 428. See also Gumede, *Thabo Mbeki*, 81–4

[←1660]

Ken Hanly, ‘Mandela and Neo-Liberalism in South Africa’, 18 December 2013: http://www.digitaljournal.com/news/politics/op-ed-mandela-and-neo-liberalism-in-south-african/article/364193. See also Danny Schechter, ‘Blurring Mandela and Neo-Liberalism’, 14 December 2013: http://www.truthdig.com/report/print/blurring_mandela_and_neoliberalism_20131214. Cf. Schechter, *Madiba A to Z*, KL 1619–61.

[←1661]

نَيومي كلاين: من مواليد عام 1970. كاتبة وصحفية سياسية ومؤلفة أفلام تسجيلية كندية، تتميز بمناهضتها للسياسات النيوليبرالية، وتكتب في الجارديان بصورة غير منتظمة، وفي جرائد أخرى - المترجم.

[←1662]

.Klein, *Shock Doctrine*, 216f .

[←1663]

.Landsberg, *Quiet Diplomacy of Liberation,* 107–10

[←1664]

البلوتوقراطية: أحد أشكال الحُكْم تكون فيه الطبقةُ الحاكمة متميزةً بالثراء. وللمصطلح استعمالان هما: الأول ذو دلالة تاريخية عند الإشارة إلى الدول القديمة التي حكمتها أوليجاركيات ثرية مثل بعض المدن في اليونان القديمة، وجمهوريات التجار الإيطالية مثل جنوة وفلورنسا والبندقية. وأما الاستعمال الثاني فله دلالة سياسية معاصرة، حيث يحمل معنى ازدرائيًا وانتقاصيًا عند الإشارة إلى العملية السياسية الخاضعة لتأثير المال بشكل كبير وغير متكافئ - المترجم.

[←1665]

تيتو مبويني: من مواليد عام 1959، أول أسود يشغل منصب الحاكم الثامن لبنك الاحتياط الجنوب أفريقي. حَلَفَ اليمينَ وزيرًا للمالية في أكتوبر عام 2018 – المترجم.

[←1666]

Andrew Ross Sorkin, 'How Mandela Shifted Views on Freedom of Markets', *The New York Times*, 9 December 2013. See also Barnard and Popescu, 'Nelson Mandela', 247.

[←1667]

.Sampson, *Mandela*, 428f

[←1668]

مذهب الصَّدْمة أو صعود رأسمالية الكوارث: تعبيرٌ يُطْلَقُ على السياسات الاقتصادية النيوليبرالية كالخَصْخَصَة وتحرير التجارة وخَفْض الإنفاق الاجتماعي التي أطلقتها مدرسةُ شيكاغو في الاقتصاد ومنظِّرُها مِلْتن فريدمان الأستاذ بقسم العلوم الاقتصادية بجامعة شيكاغو. تقوم نظرية فريدمان على استغلال الأزمات التي تمر بها المجتمعات - سواء كانت انقلابًا أم هجومًا إرهابيًا أم انهيارًا للسوق أم حربًا أم تسونامي - من أجل إحداث تغيير نيوليبرالي بفرض سياسات اقتصادية لم يكن يقبلها المجتمع لو كان في حالته العادية. بدأ تأثير نظرية فريدمان في السياسات الاقتصادية مع نهاية السبعينيات في المملكة المتحدة والولايات المتحدة، ثم امتدَّ إلى الدول الشيوعية. وفي عام 2009، أصدرت الكندية نَيومي كلاين كتابًا بعنوان The Shock Doctrine، تفَنّدُ فيه نظريةَ مِلْتن فريدمان وتكشف الآثارَ المدمِّرة للعلاج بالصدمة على الشعوب. ظهر مصطلح «العلاج بالصدمة» في سياق أبحاثٍ في الطب النفسي بدَعْمٍ من وكالة الاستخبارات الأمريكية في خمسينيات القرن العشرين - المترجم.

[←1669]

آلية سعر الصَّرْف الأوربي: نظام وضعته المجموعة الاقتصادية الأوربية في عام 1979، بوصفه جزءًا من النظام النقدي الأوربي EMS، للحدِّ من تقلبات أسعار الصَّرْف وتحقيق الاستقرار النقدي في أوربا، في إطار التحضير لاتحاد اقتصادي ونقدي وعملة موحَّدة هي اليورو، وهو ما حَدَثَ يوم 1 يناير 1999 - المترجم.

[←1670]

’?This section draws on Ferguson and Schlefer, ‘Who Broke the Bank of England

[←1671]

.’Stevenson, ‘First World War and European Integration

[←1672]

السياسة الزراعية المشتركة: تتكفل في الاتحاد الأوربي بتوفير نظام دَعْم زراعي وغيره من البرامج. قُدِّمَتْ لأول مرة عام 1962، وخضعت لعدة تغييرات بعد انتقادات عديدة بسبب تكلفتها وآثارها البيئية والإنسانية - المترجم.

[←1673]

سندات الشركات: سند صادر عن شركة لجمع التمويل لأسباب متنوعة مثل العمليات الجارية أو عمليات الاندماج والاستحواذ أو لتوسيع المشروعات، وينطبق المصطلح عادةً على أدوات الدَّيْن طويل الأجل - المترجم.

[←1674]

For more details, see Ferguson, 'Siegmund Warburg, the City of London and the Financial Roots of European Integration.'

[←1675]

اليوروبوند: سندات اليورو هي سندات دولية صدرت لأول مرة عام 1963 - المترجم.

[←1676]

.For an introduction, see Kerr, *History of the Eurobond Market*

[←1677]

.Milward, *European Rescue of the Nation-State*

[←1678]

.’Schenk, ‘Sterling, International Monetary Reform and Britain’s Applications

[←1679]

زيجموند فاربورج: (1902 - 1982)، مَصْرفي إنجليزي ألماني وأحدُ أفراد عائلة فاربورج الشـهيرة، لعب دورًا مهمًا في تطوير الأعمال المَصْرفية التجارية - المترجم.

[←1680]

.Ferguson, *High Financier*, 229

[←1681]

سَتُنْشَرُ رسوماتٌ جرافيكية ل«شبكة الآباء المؤسِّسين» في مجلد قادم بعنوان «آباء اليورو المؤسِّسون: أفراد وأفكار في تاريخ الاتحاد النقدي الأوربي» The Founding Fathers of the Euro: Individuals and Ideas in the History European Monetary Union, تحرير: كينيث دايسن Kenneth Dyson وإيفو مايس Ivo Maes - المؤلف.

[←1682]

مدرسة التكنولوجيا المتعدِّدة: تخضع لإشراف صارم من وزارة الدفاع الفرنسية، وتقبل طلبتَها من تلاميذ الأقسام التحضيرية في المدارس الفرنسية العليا، بعد اجتيازهم اختبارات قبول دقيقة - المترجم.

[←1683]

المدرسة الوطنية للإدارة: من أعرق المدارس العليا الفرنسية، ومن أكثرها نخبويةً. تقوم بانتخاب كبار المسؤولين الفرنسيين وتدريبهم، ولا بد أن يكون المُرشَّحين للدراسة فيها من خريجي أفضل المدارس العليا في البلاد - المترجم.

[←1684]

كور دي مين: هيئة فنية كبرى في الدولة الفرنسية تضم مهندسي الدولة في مجالات مختلفة، وترتبط بالوزارة الفرنسية المسؤولة عن الاقتصاد والصناعة والعمالة. تستهدف الهيئةُ اجتذابَ الطلبة الفرنسيين اللامعين في الفيزياء والرياضيات لتدريبهم على الوظائف التنفيذية في الدولة - المترجم.

[←1685]

لوسييكل: نادٍ اجتماعي للنُّخْبة الفرنسية، يجتمع أعضاؤه مرةً كل شهر لتناول العشاء في نادي السيارات الفرنسي في ساحة الكونكورد بباريس. أسَّسه عام 1944 الصحفي والماسوني الفرنسي جورج بيرارد كولين - المترجم.

[←1686]

بونتوفلاج: مصطلح يشير إلى ممارسة يقوم بها الموظفون الحكوميون رفيعو المستوى للحصول على عمل في مؤسسة خاصة. وهم عادةً ممن تدرَّبوا في مدرسة البوليتكنيك أو المدرسة الوطنية للإدارة. وفي السياقات الأمريكية، تُعْرَفُ هذه الممارسةُ ب«الباب الدوَّار». وغالبًا ما ينظر الجمهورُ إليها بشكل سلبي - المترجم.

[←1687]

.’Granville, Cruz and Prevezer, ‘Elites, Thickets and Institutions

[←1688]

معاهدة ماستريخت: هي الاتفاقية المؤسِّسة للاتحاد الأوربي، تمَّ الاتفاق عليها في مدينة ماستريخت الهولندية عام 1991، ووُقِّعَتْ يوم 7 فبراير عام 1992.

أدخلت المعاهدةُ عدةَ تغييرات على قوانين المجموعة الأوربية القائمة منذ نهاية الخمسينيات التي كانت تُشكِّلُ نواةَ الاتحاد الأوربي، وحسب البند 47 من المعاهدة فإن الاتحاد الأوربي يُكَمِّلُ المجموعةَ الأوربية ولا يلغيها. شَكَّلَت المعاهدةُ أيضًا أساسَ الدستور الأوربي الذي اتُّفِقَ عليه لاحقًا عام 2004 - المترجم.

[←1689]

ألان جون بيرسفال تايلور: (1906 - 1990)، أحد المؤرِّخين البريطانيين المتخصصين في سرد الديبلوماسية البريطانية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

اشتهر بمحاضراته التلفزيونية التي جمع فيها بين الصرامة الأكاديمية والجاذبية الشعبية - المترجم.

[←1690]

المؤسسة: تدل الكلمة على فعل التأسيس بمعنى خلق شيء وإيجاده وعلى نتيجة الفعل معًا. وتُطْلَقُ على كل نظام سياسي اجتماعي اقتصادي قائم في مكان ما بكل إيجابياته وسلبياته. ويدخل في نطاقها: نظام الدولة وأهل الحُكْم، وطريقة الوصول إلى الحُكْم سواء كانت مشروعة أم غير مشروعة، وسلطات الحُكْم وضوابط هذه السلطات، والأحزاب القائمة إنْ وُجِدَتْ، ووسائل إجراء اللعبة السياسية سواء كانت مقبولة أم مرفوضة. تتميز المؤسسة باستقلاليتها عن العناصر الداخلة في تكوينها، بمعنى أنها تضيف إليها شيئًا جديدًا لم يكن موجودًا فيها من قبل. فتُعَبِّر المؤسسةُ عن إراداتٍ عِدَّةٍ متجسّدة في إرادة واحدة وسلطةِ قرارٍ واحد، وتختلف في هذا عن مفهوم العقد أو التعاقد. تنقسم «المؤسسة» إلى مجموعتين: مؤسسات مادية ملموسة، ومؤسسات معنوية مجردة كأنساق المعايير والقيم التي تنظِّمُ حياةَ جماعةٍ ما. توجد عِدَّةُ نظريات مختلفة لـ«المؤسسة» وفق المدارس والاتجاهات الفكرية - المترجم.

[←1691]

أوكسبريدج: تُستَعْمَلُ الكلمة للإشارة إلى جامعتيْ أكسفورد وكمبريدج معًا في مقابل الجامعات البريطانية الأخرى، من أجل تأكيد المكانة الاجتماعية والفكرية الأعلى التي تتمتع بها النُّخْبة التي تلقت التعليم في أي منهما - المترجم.

[←1692]

لينكولنشاير: وتنطق أيضًا «لِنكُنْشِر». تقع في شرق إنجلترا، ويغلب عليها الطابع الزراعي - المترجم.

[←1693]

الإستونيون القدماء: مجموعة عِرْقية فنلندية تتحدث اللغة الإستونية، استوطنوا منطقة إستونيا بعد تراجع بحيرة الجليد البلطيقية لأول مرة منذ عشرة آلاف سنة. تقع جمهورية إستونيا الحالية في منطقة بحر البلطيق شمال أوربا - المترجم.

[←1694]

.Ferguson, *High Financier*, 230

[←1695]

في خطاب حول «مبادئ التاتشرية» The Principles of Thatcherism، أُلْقي في سيول Seoul يوم 3 سبتمبر عام 1992، عبَّرَتْ تاتشر عن رأيها بإيجاز قائلةً: «إذا كنتَ بالتحكُّم المصطنع في أسعار الصَّرْف بين الدول تحاول تحجيمَ السوق، فسرعان ما ستكتشف أن السوق يحجمك، وبقوة» - المؤلف.

[←1696]

سياسة الاقتصاد الكلي: يتم تنفيذها عادةً من خلال مجموعتين من الأدوات، مالية ونقدية، لتحقيق استقرار الاقتصاد - المترجم.

[←1697]

سبِكْتيتَر أو المُشاهِد: مجلة بريطانية أسبوعية عن السياسة والثقافة والشؤون الجارية - المترجم.

[←1698]

.Lamont, *In Office*, 124

[←1699]

.Major, *Autobiography*, 271f

[←1700]

الفصل الاجتماعي: بروتوكول في نهاية معاهدة ماستريخت يضع أهدافًا سياسية اجتماعية لتحسين ظروف المعيشة والعمل، ورَفَضَ جون ميجور التوقيعَ عليه - المترجم.

[←1701]

.Ibid., 275f

[←1702]

.Ibid., 284

[←1703]

.Ibid., 288 .

[←1704]

.Soros, *George Soros on Globalization*, 131

[←1705]

معدل الخصم: هو المعدل المستخدم لقياس القيمة الحالية للتدفقات النقدية المستقبلية. ومن المفترض أن يعكس معدلُ الخصم معدلَ العائد المنتظر أو المتوقع الحصول عليه مقابل الاستثمار في نشاط ما. ويُقَدَّرُ معدلُ الخصم عادة بقياس تكلفة الفرصة البديلة للتدفقات النقدية المُتخلَّى عنها في الوقت الحالي مقابل الحصول على تدفقات نقدية مستقبلية - المترجم.

[←1706]

.Eichengreen and Wyplosz, 'Unstable EMS', 85

[←1707]

.Lamont, *In Office*, 201

[←1708]

.Major, *Autobiography*, 313. See also 'Nearer to No', *Economist,* 29 August 1992

[←1709]

.Major, *Autobiography*, 313–15, 325

[←1710]

.Lamont, *In Office*, 212f., 227

[←1711]

.Ivan Fallon, ‘John Major’s Days of Pain: The Sterling Fiasco’, *Sunday Times*, 20 September 1992

[←1712]

.Sterling Knocked by EMU Worries’, *The Times,* 10 June 1992‘

[←1713]

.Major, *Autobiography*, 316, 325

[←1714]

.Stephens, *Politics and the Pound*, 219 .

[←1715]

.Lamont, *In Office*, 216

[←1716]

.Ibid., 227f

[←1717]

أحد تسعة شوارع في لندن تلتقي عند بنك إنجلترا - المترجم.

[←1718]

Peter Kellner, David Smith and John Cassidy, ‘The Day the Pound Died’, *Sunday Times*, 6 .December 1992

[←1719]

.Lamont, *In Office*, 228

[←1720]
Matthew Lynn and David Smith, ‘Round One to Lamont – Norman Lamont’, *Sunday Times,* 30 .August 1992

[←1721]

.Lamont, *In Office*, 229

[←1722]

باث: إحدى أهم المدن السياحية البريطانية، وتقع في جنوب غرب إنجلترا. تشتهر بحماماتها الاستجمامية والعلاجية. وفيها الموقع الأثري ستونهنج المُدْرَج ضمن قائمة التراث العالمي بمنظمة اليونسكو - المترجم.

[←1723]

.Schlesinger's Schadenfreude – Diary', *The Times,* 18 September 1992'

[←1724]

Peter Kellner, David Smith and John Cassidy, ‘The Day the Pound Died’, *Sunday Times*, 6 .December 1992

[←1725]

.Lamont, *In Office*, 236

[←1726]

.Ibid., 238

[←1727]

Colin Narbrough and Wolfgang Munchau, ‘Another Innocent Gaffe from the Bundesbank’, *The Times*, 10 September 1992; David Smith, ‘Lamont’s Troubles in Triplicate’, *Sunday Times,* 13 September 1992.

[←1728]

Philip Webster, 'Bundesbank Chief Raises Spectre of Devaluation', *The Times,* 16 September 1992; Christopher Huhne, 'Inside Story: The Breaking of the Pound', *Independent on Sunday*, 20 September 1992. Cf. Major, *Autobiography*, 329.

[←1729]

.Lamont, *In Office*, 244f

[←1730]

Peter Kellner, David Smith and John Cassidy, ‘The Day the Pound Died’, *Sunday Times*, 6 December 1992; Robert Chote and Nicholas Timmins, ‘Pound Faces Toughest Test after EC Bows to Markets: German Interest Rate to Fall as Lira is Devalued in ERM Rescue’, *Independent,* .13 September 1992

[←1731]

.Eichengreen and Wyplosz, ‘Unstable EMS’, 107

[←1732]

.Forever Falling?' *Economist,* 29 August 1992'

[←1733]

.Christopher Huhne, ‘Schlesinger: A Banker’s Guilt’, *Independent,* 1 October 1992

[←1734]

اشتكى ميجور بمرارة من أن البنك الاتحادي الألماني حارب المُضارِبين ضد الفرنك «بطريقة لم تحدث في حالة الجنيه الإسترليني». فبالإضافة إلى تسهيل التدخُّل الهائل، «اشتركت فرنسا وألمانيا في التصريح بأن تغييرات سعر الصَّرْف لم تكن مُبرَّرة»، وهو ما طلبت المملكةُ المتحدة إيضاحَه ولكنها لم تتلقَّ ردًا. وكما أشارت الإيكونومِست Economist بشكل صحيح، لم يكن الفرنك - بأي مقياس مالي ذي صلة - عُرْضَةً للانخفاض مثل الجنيه. بل كان أقلَّ من الجنيه الذي كانت قيمته مرتفعة - المؤلف.

[←1735]

صندوق الكوانتم: مجموعة استثمارية لإدارة الأصول أسَّسها سورس مع آخرين عام 1973، وهي المجموعة الاستثمارية المسؤولة عن خفض قيمة الجنيه الإسترليني في اليوم الذي انهار فيه بنك إنجلترا، المشهور بيوم «الأربعاء الأسود» - المترجم.

[←1736]

المراهنة المالية: مراهنة على ارتفاع سعر أداة مالية في وقت لاحق مقارنةً بسعرها الحالي - المترجم.

[←1737]

.Soros, ‘Theory of Reflexivity’, 7

[←1738]

Soros, *Soros on Soros*, 12

[←1739]

.Mallaby, *More Money Than God*, 435

[←1740]

.A Ghastly Game of Dominoes', *Economist,* 19 September 1992'

[←1741]

.Mallaby, *More Money Than God*, 156f

[←1742]

بخصوص العُمْلة قصيرة الأجل [البيع المكشوف]، أنت تقترض هذه العملةَ من خلال وسيط، ثم تبيعها بسعرها الجاري، فتستدين المالَ من أجل بَيْعه. وإذا هبط سعرُ الصَّرْف في وقت لاحق، فستشتري القدرَ نفسَه من العُمْلة بالسعر الجديد المنخفض وتُعيده إلى الوسيط. الفرق بين السعر الأعلى الذي استدنت به من أجل بَيْع العملة والسعر الأقل الذي دفعته لشرائها هو رِبْحُك. أما إذا ارتفعت قيمة العُمْلة فستضطر إلى دَفْع القدر الذي اقترضته بالسعر الجديد الأعلى لإعادته إلى الوسيط، ومن ثم تخسر المال - المؤلف.

[←1743]

.Abdelal, ‘Politics of Monetary Leadership’, 250

[←1744]

Duncan Balsbaugh, 'The Pound, My Part in Its Downfall and Is It Time to Fight the Central Banks Again?' *IFR Review of the Year 2015*: http://www.ifre.com/the-pound-my-part-in-its-downfall-and-is-it-time-to-fight-the-central-banks-again/21223291.fullarticle. For other accounts with somewhat different figures, see Kaufman, *Soros*, 239; Mallaby, *More Money Than God*, 435. See .also Drobny, *Inside the House of Money*, 274f

[←1745]

.Soros, *Soros on Soros*, 22. See also Soros and Schmitz, *Tragedy of the European Union*, 59f

[←1746]

.Kaufman, *Soros*, 239. Emphasis added

[←1747]

البَيْع المكشوف، أو البَيْع الفارغ: بَيْع ورقة مالية قبل تملُّكها بهدف شرائها لاحقًا بقيمة أقل، وعندئذٍ يكون الربح هو الفرق بين سعر البَيْع المكشوف وسعر الشراء بعد خصم الفائدة التي يدفعها المستثمر نظير اقتراض الورقة المالية في الفترة ما بين البَيْع والشراء. تُستخدَمُ سياسةُ البَيْع المكشوف إذا توقَّعَ المستثمرُ هبوطَ سعر ورقة مالية كسهم تجاري أو سند في المستقبل القريب، وهي سياسة معاكسة لسياسة الشراء بغرض الربح من ارتفاع الأسعار في المستقبل القريب الذي يُسَمَّى long selling - المترجم.

[←1748]

.Lamont, *In Office*, 249

[←1749]

Anatole Kaletsky, ‘How Mr Soros Made a Billion by Betting against the Pound’, *The Times*, 26 .October 1992

[←1750]

.Ibid

[←1751]

.Mallaby, *More Money Than God*, 160–66

[←1752]

.Eichengreen and Wyplosz, ‘Unstable EMS’, 60

[←1753]

بيت وِنْدسور: الاسم الأصلي «زاكس - كوبورج - جوتا»، سلالة من أصل جرماني تحكم في بريطانيا. ذلك أن ملكة بريطانيا فيكتوريا تزوجت من أحد أقربائها، الأمير ألبرت من بيت زاكس - كوبورج - جوتا، الذي حكمت أسرته دوقية سكسونيا في ألمانيا، وأسفر زواجهما عن تسعة أبناء حملوا لقب زاكس - كوبورج - جوتا. وأول مَن حمل هذا اللقب في بريطانيا الملك إدوارد السابع الذي اعتلى العرش عام 1901. ثم تغيَّر الاسم الأصلي إلى لقب «وِنْدسور» في عام 1917، بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى التي صارت فيها بريطانيا في مواجهة مباشرة مع ألمانيا. ونظرًا لما شكَّلته الدلالات الجرمانية من حرج مع تنامي الشعور القومي البريطاني ضد الألمان، صدر مرسوم خاص وقَّعَه الملك جورج الخامس اتخذت بمقتضاه العائلة لقب «وِنْدسور»، وهو اسم أحد القصور التي أقامت فيها العائلة - المترجم.

[←1754]

.’Engdahl, ‘Secret Financial Network

[←1755]

Flavia Cymbalista with Desmond MacRae, ‘George Soros: How He Knows What He Knows, Part .2: Combining Theory and Instinct’, *Stocks, Futures and Options*, 9 March 2004

[←1756]

.James Blitz, 'How Central Banks Ran into the Hedge', *Financial Times*, 30 September 1992

[←1757]

السوق الفوري أو السوق النقدي: هو سوق مالي لتداول الأدوات أو السلع المالية بطريقة التسليم الفوري - المترجم

[←1758]

التشغيل الأمامي frontrunning: بمعنى تَعامُل صُنَّاع السوق مع المعلومات التي يقدمها وسطاؤهم ومُحَلِّلو الاستثمار قبل تزويد عملائهم بها - المترجم.

[←1759]

.’Balsbaugh, ‘The Pound, My Part in Its Downfall

[←1760]

Thomas Jaffe and Dyan Machan, 'How the Market Overwhelmed the Central Banks', *Forbes*, 9 November 1992. See also Mallaby, *More Money Than God*, 435.

[←1761]

لم تصبح مراهنةُ سُورَس معرفةً عامة حتى يوم 24 أكتوبر، عندما نشرت صحيفة ديلي ميل Daily Mail مقالةً بعنوان «حققتُ مليارًا بانهيار الجنيه» I Made a Billion as the Pound Crashed. ومع القصة التي نشرتها الجريدة صورةُ سُورَس مبتسمًا ومُمْسِكًا بكأسٍ في يده. الصخب الذي أعقب ذلك على عتبة مقر إقامة سُورَس في لندن دفعه إلى سرد روايته للأحداث لأناتولي كالِتسكي Anatole Kaletsky - المؤلف.

[←1762]

سعر الفائدة الآجل: عقد آجِلٌ يتضمن أداةً [مالية] أساسية تدفع الفائدةَ. ويسمح سعر الفائدة الآجل للمشتري والبائع بإغلاق سعر الأصل حامل الفائدة بتاريخ مستقبلي - المترجم.

[←1763]

.’Kaletsky, ‘How Mr Soros Made a Billion

[←1764]

.Soros, *Soros on Soros*, 82

[←1765]

.Lamont, *In Office*, 259

[←1766]

.Slater, *Soros*, 180 .

[←1767]

.Ibid., 181

[←1768]

Roxburgh, *Strained to Breaking Point*, 163; Matthew Tempest, ‘Treasury Papers Reveal Cost of .Black Wednesday’, *Guardian*, 9 February 2005

[←1769]

.Johnson, ‘UK and the Exchange Rate Mechanism’, 97f

[←1770]

.Major, *Autobiography*, 312, Lamont, *In Office*, 285

[←1771]

.’Kaletsky, ‘How Mr Soros Made a Billion

[←1772]

.Half-Maastricht', *Economist,* 26 September 1992'

[←1773]

.’Borges, ‘Library of Babel

[←1774]

On the powerful developmental effects of the international air transport network, Campante and Yanagizawa-Drott, ‘Long-Range Growth’. On the tendency of the American system to .’produce delays even in normal conditions, see Mayer and Sinai, ‘Network Effects

[←1775]

.Calderelli and Catanzaro, *Networks* 40f

[←1776]

محمد عطا: (1968 - 11 سبتمبر 2001)، مصري. مُخطِّط هجمات 11 سبتمبر، وأكبر المنفِّذين سنًا (33)، مسؤول عن ارتطام طائرة الرحلة رقم 11 بالبرج الشمالي لمركز التجارة العالمي - المترجم.

[←1777]

نواف الحازمي: (1976 - 11 سبتمبر 2001)، سعودي. مسؤول عن ارتطام طائرة الرحلة 77 بمبنى البنتاجون - المترجم.

[←1778]

مروان الشحي: (1978 - 11 سبتمبر 2001)، من دولة الإمارات العربية المتحدة. أصغر الطيارين الأربعة في هجمات 11 سبتمبر، مسؤول عن ارتطام طائرة الرحلة رقم 175 بالبرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي - المترجم.

[←1779]

.Thomas A. Stewart, ‘Six Degrees of Mohamed Atta’, *Business 2.0*, December 2001

[←1780]

.Krebs, 'Mapping Networks of Terrorist Cells', 46–50

[←1781]

.Ibid., 51

[←1782]

إيبول دِنْجَر: هيئة سرّية للتخطيط العسكري بإمْرة قيادة العمليات الخاصة الأمريكية ووكالة استخبارات الدفاع، أُنْشِئتْ في أكتوبر عام 1999 بتوجيه من رئيس هيئة الأركان المشتركة هيو شيلتن، بغرض تفعيل عمليات جمع المعلومات عن الإرهاب الدولي. وخلص تحقيقٌ أجرته لجنةُ الاستخبارات بمجلس الشيوخ الأمريكي إلى أن إيبول دِنْجَرْ لم تستطع تحديد محمد عطا ولا أيٍّ من العناصر المشتركة في تنفيذ هجمات 11/9 قبل التنفيذ - المترجم.

[←1783]

مشكلة كيفن بيكُن: لعبة اخترعها أربعة طلاب من كلية أولبرايت عُرِفَتْ باسم «سِتّ درجات كيفن بيكُن» على اسم الممثل الشهير كيفن بيكُن، وأصدر مبتكروها كتابًا يحمل العنوان نفسه بتقديم الممثل كيفن بيكُن (مفهوم سِتّ درجات انفصال وتاريخه مشروحٌ سابقًا) - المترجم.

[←1784]

Jeff Jonas and Jim Harper, ‘Effective Counterterrorism and the Limited Role of Predictive Data Mining’, *Policy Analysis*, 11 December 2006.

[←1785]

Patrick Radden Keefe, ‘Can Network Theory Thwart Terrorists?’ *The New York Times*, 12 March .2006

[←1786]

Valdis Krebs, ‘Connecting the Dots: Tracking Two Identified Terrorists’, Orgnet, 2002–8: . .http://www.orgnet.com/prevent.html

[←1787]

.'Oliver, 'Covert Networks

[←1788]

.’Marion and Uhl-Bien, ‘Complexity Theory and Al-Qaeda

[←1789]

.Eilstrup-Sangiovanni and Jones, ‘Assessing the Dangers of Illicit Networks’, 34

[←1790]

.Minor, ‘Attacking the Nodes’, 6 .

[←1791]

Morselli, Giguère and Petit, ‘The Efficiency/Security Trade-off’. See also Kahler, Miles, ‘Networked Politics.’ See also Kenney, ‘Turning to the “Dark Side” ’ and Kahler, ‘Collective .’Action and Clandestine Networks

[←1792]

.Sageman, *Understanding Terror Networks*, 96f. See also 135–71

[←1793]

.Berman, *Radical, Religious, and Violent*, 18 .

[←1794]

.Ibid., 17 .

[←1795]

في يوم الهجمات نفسه، قال رامسفيلد إن «ردَّ الولايات المتحدة سيدرس مجموعةً واسعة من الخيارات والإمكانات. وقال الوزير إن ميوله كانت ضَرْبَ صدام حسين في الوقت نفسه، وليس أسامة بن لادن فقط» - المؤلف.

[←1796]

.John Arquilla, ‘It Takes a Network’, *Los Angeles Times*, 25 August 2002 .

[←1797]

National Consortium for the Study of Terrorism and Responses to Terrorism (START), ‘Jihadist .(Plots in the United States, Jan. 1993–Feb. 2016: Interim Findings’ (January 2017

[←1798]

.Nagl, *Learning to Eat Soup with a Knife*

[←1799]

.Army, *U.S. Army/Marine Corps Counterinsurgency Field Manual* .

[←1800]

.Army, *Insurgencies and Countering Insurgencies*, section 4, paragraphs 6 and 7

[←1801]

كثافة الشبكة: تُسَمَّى الأشياء المتصلة في الشبكة عُقْدَة، والعُقْدَة قد تكون شخصًا أو جهاز كمبيوتر أو نصًا تشعُّبيًا. أما «كثافة الشبكة» فتصف حصَّة الاتصالات الاحتمالية في الشبكة التي هي اتصالات فعلية (مصطلحات الشبكة الأخرى مشروحة في هوامش سابقة) - المترجم.

[←1802]

.Ibid., section 4, paragraphs 20 and 21

[←1803]

.Army, *U.S. Army/Marine Corps Counterinsurgency Field Manual*, Appendix B

[←1804]

.Kilcullen, *Counterinsurgency*, 37

[←1805]

.Ibid., 183

[←1806]

.Ibid., 200

[←1807]

.Ibid., 4f., 10, 40, 197

[←1808]

إستراتيجية أناكوندا: يرجع أصل التسمية إلى خطة أناكوندا التي طبَّقها جيشُ الاتحاد الأمريكي لقمع الكونفدرالية في بداية الحرب الأهلية الأمريكية - المترجم.

[←1809]

David Petraeus, ‘The Big Ideas Emerging in the Wake of the Arab Spring’, Belfer Center, Harvard Kennedy School of Government (2017).

[←1810]

ستان «ستانلي» مَكْريستَل: من مواليد عام 1954، جنرال متقاعد في جيش الولايات المتحدة الأمريكية، لعب الدورَ الرئيسي في قتل أبي مصعب الزرقاوي زعيم تنظيم القاعدة في العراق - المترجم.

[←1811]

McChrystal, *My Share of the Task*, 148. Details of how McChrystal and his team hunted down .and killed Zarqawi, destroying his network in the process, are in chapters 11–15

[←1812]

.Simpson, *War from the Ground Up*, 106

[←1813]

نظام الدَّفْع: أيُّ نظام يُستخدَم لتسوية المعامَلات المالية من خلال تحويل القيمة النقدية، ويشمل المؤسسات والأدوات والأشخاص والقواعد والإجراءات والمعايير والتقنيات التي تجعل مثل هذا التبادل ممكنًا - المترجم.

[←1814]

.'Neely, 'The Federal Reserve Responds

[←1815]

.Ibid., 40

[←1816]

.'Crawford, 'U.S. Costs of Wars

[←1817]

.Watts, *Six Degrees*, 23

[←1818]

.Caldarelli and Catanzaro, *Networks*, 36f., 42, 95

[←1819]

.’United States Government Accountability Office, ‘Financial Crisis Losses

[←1820]

المشتقات المالية: أدوات مالية تستمد قيمتها من أداء أصل حقيقي أو مالي أو من أداء أحد المؤشرات السوقية. ويشمل الأصلُ الحقيقي السلعَ الدولية كالذهب والنفط والمعادن والقمح والأرز، إلخ. أما الأصول المالية فتشمل الأوراقَ المالية كالأسهم والسندات. وتساعد المشتقات المالية على نقل المخاطر المالية بين الأطراف المتعاقدة عبر الأسواق المالية المنظمة أو الموازية - المترجم.

[←1821]

.See Ferguson, *Ascent of Money* .

[←1822]

.Financial Crisis Inquiry Commission, *Financial Crisis Inquiry Report*, KL 8518–21

[←1823]
http://www.federalreserve.gov/monetarypolicy/fomchistorical2008.htm: FOMC meeting .transcript, 16 September 2015, 20

[←1824]

صندوق سوق المال: صندوق مشترك مفتوح العضوية يَستثمر في سندات الدَّيْن قصيرة الأجل مثل سندات الخزانة الأمريكية والورقة التجارية، ويُعْتَبَرُ آمنًا مثل الودائع البنكية التي توفِّر عوائد أعلى - المترجم.

[←1825]

.Ibid., 51

[←1826]

.Ibid., 28–29 October 2008, 118 .

[←1827]

.Ibid., 15–16 December 2008, 12

[←1828]

Andrew Haldane, 'On Tackling the Credit Cycle and Too Big to Fail', Bank of England .presentation, January 2011, slide 13

[←1829]

.Ramo, *Seventh Sense*, 136f. See also 42–4

[←1830]

Jackson, Rogers and Zenou, ‘Economic Consequences of Network Structure’. See also Elliott, Golub and Jackson, ‘Financial Networks and Contagion’.

[←1831]

Louise Story and Eric Dash, 'Bankers Reaped Lavish Bonuses During Bailouts', *The New York Times*, 30 July 2009.

[←1832]

.Davis et al., ‘Small World’, 303

[←1833]

فيرنون جوردن: من مواليد عام 1935، معروف بأنه شخصية مؤثرة في الحياة السياسية الأمريكية، ويستعرض المؤلِّف سيرة حياته المهنية - المترجم.

[←1834]

.Ibid., 320

[←1835]

Michelle Leder, ‘Vernon Jordan Gets a Big Payday from Lazard’, *The New York Times*, 15 March .2010

[←1836]

تيموثي جايتنر: من مواليد عام 1961، مَصْرَفي وسياسي وعالِم اقتصاد من الولايات المتحدة. يشغل حاليًا منصب رئيس شركة واربورج بينكوس، وهي شركة مساهمة خاصة، أما سيرة حياته قبل ذلك فيستعرضها المؤلف - المترجم.

[←1837]

ميفلاور: اسم السفينة التي أقلَّتْ الروَّادَ الإنجليز الأوائل إلى أمريكا عام 1620، والتي بُنيَتْ عام 1610. كانت ذات ثلاث أشرعة وطابقين، غادرت من إنجلترا في أغسطس عام 1620، ومعها سفينة أخرى اسمها «سبيدول»، وبعد وصولها إلى ماساتشوستس غادرت أمريكا يوم 15 أبريل 1621 عائدةً إلى إنجلترا. ولا يعرف المؤرِّخون ما الذي حَدَثَ للسفينة على وجه اليقين بعد عودتها إلى إنجلترا. أما السفينة المحفوظة الآن في بليموث بولاية ماساتشوستس فهي ميفلاور 2 التي بُنِيَتْ على شكل السفينة الأصلية - المترجم.

[←1838]

نادي نيويورك الاقتصادي: منظمة أمريكية غير ربحية وذات عضوية، وغير حزبية، تهتم بمناقشة القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية - المترجم.

[←1839]

مجلس العلاقات الخارجية: منظمة في شكل خلية تفكير أمريكية مستقلة. يستهدف تحليل سياسة الولايات المتحدة الأمريكية الخارجية والوضع السياسي العالمي، تأسَّسَ عام 1921، مقرُّه الرئيسي في نيويورك وله مكتب في واشنطن. أعضاؤه من طبقة رجال الأعمال والسياسة والاقتصاد - المترجم.

[←1840]

Acemoglu et al., 'Value of Connections in Turbulent Times'. According to the authors' estimates, 'Over the next ten trading days, financial firms with a connection to Geithner experienced a cumulative abnormal return of about 12 percent (relative to other financial sector firms).'

[←1841]

الدولة الإدارية: مفهوم مستعمل في نقد الديمقراطية الإجرائية الحديثة في الدول الغربية. ويكتسب المصطلح سياقًا ازدرائيًا بوصفه مظهرًا من مظاهر التراجع الغربي، حيث يحل المرسوم الإداري محلَّ القانون، ويحل استبداد السلطة التنفيذية محلَّ الفيدرالية، وتحل الدولة غير المحدودة محلَّ الحكومة المحدودة.

وفي هذه الحالة، يعمل النظام باسم الأهداف المجردة كالمساواة أو الحقوق، ويستعمل زَعْمَه بالتفوق الأخلاقي وقوة الضرائب وإعادة توزيع الثروة من أجل البقاء في السلطة - المترجم.

[←1842]

.DeMuth, ‘Can the Administrative State Be Tamed?’ 125

[←1843]

Patrick McLaughlin and Oliver Sherouse, ‘The Accumulation of Regulatory Restrictions Across Presidential Administrations’, Mercatus Center, 3 August 2015.

[←1844]

Patrick McLaughlin and Oliver Sherouse, 'The Dodd–Frank Wall Street Reform and Consumer Protection Act May be the Biggest Law Ever', Mercatus Center, 20 July 2015.

[←1845]

.’McLaughlin and Greene, ‘Dodd–Frank’s Regulatory Surge

[←1846]

مَجْنا كارتا أو الوثيقة العظمى: وثيقة إنجليزية عن الحريات في إنجلترا، صدرت لأول مرة عام 1215 - المترجم.

[←1847]

قبل قرن من الزمان، طبقًا لأندرو هَلدين، أصدر بنك إنجلترا خطابًا واحدًا في السنة. وفي عام 2016 وحدها، أدلى بثمانين حديثًا، وأصدر اثنتين وستين ورقة عمل، وما يقرب من مئتي وثيقة تشاور، وما دون المئة مُدَوَّنَة بقليل، وأكثر من مئة تحقيق إحصائي؛ وهو ما يبلغ مجموعه أكثر من 600 منشور وحوالي 9 آلاف صفحة - المؤلف.

[←1848]

.Howard, *Life Without Lawyers*

[←1849]

[←1850]

نظام في التسلسل الهَرَمي الاجتماعي يستخدم فيه المسؤولون السياسيون وأتباعُهم مواردَ الدولة من أجل ضمان ولاء عموم السكان، على نحو يجعل الذين لديهم علاقات هم الذين يملكون وحدهم السلطة الحقيقية. وتمتد هذه العلاقات من مستويات عالية جدًا في هياكل الدولة إلى الأفراد في القرى الصغيرة. ويترتب على ذلك تآكل المؤسسات السياسية وسيادة القانون - المترجم.

[←1851]

.Fukuyama, *Political Order and Political Decay*, 208

[←1852]

Ibid., 35f. See, however, Howard, *Rule of Nobody*, and White, Cass and Kosar, *Unleashing Opportunity*.

[←1853]

.DeMuth, ‘Can the Administrative State Be Tamed?’ 151

[←1854]

See e.g. McLaughlin and Sherouse, *Impact of Federal Regulation*; Patrick A. McLaughlin, ‘Regulations Contribute to Poverty’, Testimony to the House Committee on the Judiciary, .Subcommittee on Regulatory Reform, Commercial and Antitrust Law, 24 February 2016

[←1855]

.Ferguson, *Great Degeneration*

[←1856]

ويب 2.0: مصطلح يشير إلى مجموعة التقنيات الجديدة والتطبيقات الشبكية التي أدَّتْ إلى تغيير سلوك الشبكة العالمية: الإنترنت. وسُمِعَت الكلمةُ لأول مرة في دورة نقاش بين شركة أورايلي ميديا الإعلامية ومجموعة ميديا لايف الدولية لتكنولوجيا المعلومات في مؤتمر تطوير ويب المنعقد في سان فرانسيسكو - المترجم.

[←1857]

ملخَّص الموقع الغني: وسيلة لتمكين البرمجيات والنُّظُم المختلفة من استخدام المحتوى الذي تنشره غيرُها من النُّظُم والتطبيقات لتمكين المُستخدِمين من متابعة آخر أخبار المواقع دون الحاجة إلى زيارة كل موقع على حدة - المترجم.

[←1858]

واجهة بَرْمَجة التطبيقات: الهدف الرئيسي منها توفير قائمة من الوظائف المستقلة تمامًا عن الآلية التي نُفِّذَتْ بها، لتتيح للآخرين التواصل معها من خلال أي آلية أخرى - المترجم.

[←1859]

مبدأ الطرفين أو مبدأ العلاقة بين الطرفين: هو، في شبكات الكمبيوتر، هيكل بنيوي مُستعمَل في تصميم الشبكة وتطبيقاتها، بحيث تتواجد الميزات المرتبطة بالتطبيقات العاملة في الشبكة عند الطرفيات وليس في العُقَد التي تُشَكِّلُ بنيةَ الشبكة كالمُوجِّهات والبوابات. ويقوم هذا المبدأ على افتراض أساسي هو عدم إضافة الميزات إلى كل عُقَد الشبكة لتجنُّب استهلاك مواردها، وإضافة الميزات إلى الطَّرَفِيّات فقط - المترجم.

[←1860]

.Naughton, *From Gutenberg to Zuckerberg*, 224

[←1861]

بيتا الدائم: يعني الحفاظ على البرمجيات أو النظام في مرحلة التطوير التجريبي لفترة ممتدة أو غير محددة من الزمن. ويستخدمه المُطوِّرون عندما يستمرون في إصدار مَيْزات جديدة لم تُجرَّب بشكل كامل - المترجم.

[←1862]

.Ibid., 227

[←1863]

.Raymond, *The Cathedral and the Bazaar*, 21

[←1864]

.Ibid., 57f

[←1865]

.Ibid., 30

[←1866]

الإشارة إلى مقال عالم البيئة [الإيكولوجي] جاريت هاردِن Garrett Hardin المنشور عام 1968 بعنوان «مأساة العموم» The Tragedy of Commons الذي قدَّم حجةً على السيطرة السكانية العالمية مُستشهِدًا بمثال قرية الفلاحين الذين يتمتعون بالوصول غير المقيَّد إلى الأرض المشاع، ثم سرعان ما يجعلونَها بورًا مليئة بالنفايات عبر الإفراط في الرعي. نشأت الفكرةُ في الأصل مع الاقتصادي الفيكتوري ويليام فورستر لويد William Forster Lloyed - المؤلف.

[←1867]

.Ibid., 125

[←1868]

.Ibid., 194

[←1869]

.Spar, *Ruling the Waves*, 369f

[←1870]

في يوم 3 أبريل عام 2000، حَكَمَ القاضي توماس بِنفيلد جاكسن Thomas Penfield Jackson بأن مايكروسوفت قد ارتكبت جريمة الاحتكار الأحادي ومحاولة الاحتكار والرَّبْط، في خرقٍ واضح لقانون شيرمان لمكافحة الاحتكار. وفي يوم 7 يونيو عام 2000، أمرت المحكمة بحلِّ الشركة. ولكن محكمة الاستئناف رفضت أحكام القاضي جاكسن، وتوصَّلت الشركةُ إلى تسوية مع وزارة العدل - المؤلف.

[←1871]

إم إس دوس: نظام تشغيل أصدرته شركة مايكروسوفت، في ثماني إصدارات ثم توقفت عن تطويره عام 2000، وأحلَّتْ محلَّه إصدارات مختلفة من نظام التشغيل ويندوز - المترجم.

[←1872]

انهيار الدوت كوم أو انفجار فقاعة الدوت كوم: تُعْرَفُ أيضًا ب«الفقاعة التقنية». هي فقاعة اقتصادية تعرَّضَتْ لها الشركاتُ المستندة إلى الإنترنت، حيث فشلت العديد من شركات التسوُّق عبر الإنترنت. بدأت من عام 1995 واستمرت حتى أول الألفية الجديدة - المترجم.

[←1873]

نسبة النقر: نسبة المُستخدِمين الذين ينقرون على رابط معين إلى العدد الإجمالي من المُستخدِمين الذين يَرِدون إلى الصفحة أو البريد الإلكتروني أو الإعلان - المترجم.

[←1874]

.Kirkpatrick, *Facebook Effect*, 74

[←1875]

الكتاب الأحمر الصغير: كتيبٌ طُبِعَ بكل لغات العالم، يتضمن مقتطفات من أقوال الرئيس ماو تسي تونج، وَصَلَ عددُ نُسَخِهِ المليار تقريبًا. يُعَدُّ من أهم الكتب التي رسَّختْ الفكر الماوي بوصفه التطور الثالث للماركسية اللينينية - المترجم.

[←1876]

http://benbarry.com/project/facebooks-little-red-book. On the author of the Little Red Book, see http://www.typeroom.eu/article/ben-barry-used-be-called-facebook-s-minister-propaganda.

[←1877]

.Kirkpatrick, *Facebook Effect*, 247

[←1878]

.Ibid., 109

[←1879]

.Ibid., 185, 274–7

[←1880]

.Ibid., 154–7, 180ff., 188

[←1881]

.Naughton, *From Gutenberg to Zuckerberg*, 106

[←1882]

.Kirkpatrick, *Facebook Effect*, 222–6

[←1883]

بيكن: جهاز لاسلكي صغير يستخدم تقنية البلوتوث لإرسال حزمة بيانات صغيرة. يُعَدُّ أحد تقنيات «إنترنت الأشياء»، ويُقْصَدُّ بإنترنت الأشياء جيل الإنترنت الجديد الذي يتيح التفاهم بين الأجهزة المترابطة مع بعضها - المترجم.

[←1884]

.Ibid., 251

[←1885]

شرِل ساندبرج: أمريكية من مواليد عام 1969. أول امرأة تنضم إلى مجلس إدارة فيسبوك عام 2012. شغَلت في أغسطس عام 2013 كبيرة مسؤولي تشغيل فيسبوك, وقُدِّرتْ ثروتها في عام شغلها المنصب بحوالي مليار دولار أمريكي. قبل ذلك كانت مسؤولة المبيعات والعمليات عبر الإنترنت في جوجل - المترجم.

[←1886]

.Ibid., 259

[←1887]

.García Martínez, *Chaos Monkeys*, 275–80, 298f

[←1888]

.Ibid., 482–6

[←1889]

.Alex Eule, 'Facebook Now Has 1.2 Billion Daily Users. Really', *Barron's*, 2 November 2016

[←1890]

Smriti Bhagat, Moira Burke, Carlos Diuk, Ismail Onur Filiz, and Sergey Edunov, ‘Three and a Half Degrees of Separation’, 4 February 2016: https://research.fb.com/three-and-a-half-degrees-of-separation/.

[←1891]

Lars Backstrom, Paolo Boldi, Marco Rosa, Johan Ugander, and Sebastiano Vigna, ‘Four Degrees of Separation’, 22 June 2012: https://research.fb.com/publications/four-degrees-of-separation/

[←1892]

.’Ugander et al., ‘Structural Diversity in Social Contagion

[←1893]

Lillian Weng and Thomas Lenton, 'Topic-Based Clusters in Egocentric Networks on Facebook', 2 June 2014: https://research.fb.com/publications/topic-based-clusters-in-egocentric-networks-on-facebook/. See also Youyou et al., 'Birds of a Feather.'

[←1894]

Amaç Herdağdelen, Bogdan State, Lada Adamic and Winter Mason, 'The Social Ties of Immigrant Communities in the United States', 22 May 2016: https://research.fb.com/publications/the-social-ties-of-immigrant-communities-in-the-united-states/.

[←1895]

Jonathan Chang, Itamar Rosenn, Lars Backstrom and Cameron Marlow, ‘Ethnicity on Social Networks’, *Association for the Advancement of Artificial Intelligence* (2010).

[←1896]

Ismail Onur Filiz and Lada Adamic, ‘Facebook Friendships in Europe’, 8 November 2016: https://research.fb.com/facebook-friendships-in-europe/.

[←1897]

Eytan Bakshy, Itamar Rosenn, Cameron Marlow and Lada Adamic, 'The Role of Social Networks in Information Diffusion', 16 April 2012: https://research.fb.com/publications/the-role-of-social-networks-in-information-diffusion/; Lada A. Adamic, Thomas M. Lenton, Eytan Adar and Pauline C. Ng, 'Information Evolution in Social Networks', 22 May 2016: https://research.fb.com/wp-content/uploads/2016/11/information_evolution_in_social_networks.pdf; Adam D. I. Kramer, 'The Spread of Emotion via Facebook', 16 May 2012: https://research.fb.com/publications/the-/spread-of-emotion-via-facebook

[←1898]

Jonathan Tepper, ‘Friendships in the Age of Social Media’, 14 January 2017: originally published on http://jonathan-tepper.com/blog/.

[←1899]

المُزَارَعة: في الأصل مُعامَلَةٌ على الأرض ببعض ما يخرج منها، بمعنى إعطاء الأرض لمَن يزرعها مقابل نصيب من خراجها كالنصف أو الثلث أو بحسب الاتفاق.

وتنطوي المزارعة بهذا المعنى على التعاون والتشارك بين مالك الأرض ومُزارِعها - المترجم.

[←1900]

.Naughton, *From Gutenberg to Zuckerberg*, 194f

[←1901]

./Data from http://whoownsfacebook.com

[←1902]

.García Martínez, *Chaos Monkeys*, 229

[←1903]

.Who Are the 8 Richest People? All Men, Mostly Americans’, *NBC News*, 16 January 2017‘

[←1904]

Wu, *Master Switch*, 318

[←1905]

Shannon Bond, 'Google and Facebook Build Digital Ad Duopoly', *Financial Times*, 15 March .2017

[←1906]

كاش بايل: كمٌّ كبير من المال تملكه شركةٌ، وتستخدمه في شراء شركات أخرى أو أصول - المترجم.

[←1907]

Farhad Manjoo, ‘Why Facebook Keeps Beating Every Rival: It’s the Network, of Course’, *The New York Times*, 19 April 2017.

[←1908]

.Robert Thomson, ‘Digital Giants are Trampling on Truth’, *The Times*, 10 April 2017

[←1909]

بمعنى أن العُقْدَة ذات الملاءمة الأعلى تحصل على روابط بمعدل أعلى من العُقَد الأقل ملاءمة - المترجم.

[←1910]

.Ramo, *Seventh Sense*, 240ff

[←1911]

.Kirkpatrick, *Facebook Effect*, 254

[←1912]

«السريعُ the quick يَرِثُ الأرضَ» بدلاً من عبارة السيد المسيح «الوديعُ the meek يَرِثُ الأرضَ» - المترجم.

[←1913]

.http://benbarry.com/project/facebooks-little-red-book

[←1914]

.García Martínez, *Chaos Monkeys*, 355

[←1915]

.Kirkpatrick, *Facebook Effect*, 319

[←1916]

.Nick Bilton, 'Will Mark Zuckerberg be Our Next President?' *Vanity Fair*, 13 January 2017

[←1917]

القمصان البُنّية: تشير إلى «كتيبة العاصفة» Sturmabteilung، الجناح شِبْه العسكري للحزب النازي الذي لعب دورًا رئيسيًا في صعود أدولف هتلر إلى السلطة، والذي روَّجَ للعداء الشرس تجاه اليهود والشيوعيين والرأسماليين, وقد سُمِّيَ أفرادُ الكتيبة باسم «أصحاب القمصان البنية» نسبةً إلى لون زيّهم العسكري. أنهى هتلر دورَهم عام 1934 فيما عُرِفَ ب«ليلة السكاكين الطويلة» أو «عملية الطائر الطَنَّان» أو ما يُعْرَفُ بالألمانية «روم بوتش»، وهي عملية تطهير نَفَّذَ فيها النظامُ النازي سلسلةً من الإعدامات السياسية، وكان معظم القتلى من أصحاب القمصان البُنّية - المترجم.

[←1918]

.García Martínez, *Chaos Monkeys*, 263f

[←1919]
Mark Zuckerberg, ‘Building Global Community’, 16 February 2017: https://www.facebook.com/notes/mark-zuckerberg/building-global-community/10154544292806634.

[←1920]

.For a sceptical view, see Morozov, *Net Delusion*

[←1921]

تشارلز موري: من مواليد عام 1943، عالِم سياسة أمريكي ومؤلِّف وكاتب عمود صحفي - المترجم.

[←1922]

.'Oxfam, 'An Economy for the 1%

[←1923]

.(Crédit Suisse Research Institute, *Global Wealth Databook 2015* (October 2015

[←1924]

.Piketty and Saez, 'Income Inequality', with figures updated to 2015

[←1925]

U.S. Census Bureau, Current Population Survey, Annual Social and Economic Supplements: . https://www.census.gov/data/tables/time-series/demo/income-poverty/historical-income-households.html

[←1926]

.’Bricker et al., ‘Measuring Income and Wealth

[←1927]

فوربس: شركة نشر ووسائل إعلام أمريكية، وأبرز منشوراتها مجلة فوربس الشهرية التي تهتم بإحصاء الثروات ومراقبة نمو المؤسسات المالية حول العالم - المترجم.

[←1928]

Agustino Fontevecchia, ‘There Are More Self-Made Billionaires in the Forbes 400 Than Ever .Before’, *Forbes*, 3 October 2014

[←1929]

Credit Suisse Research Institute, *Global Wealth Databook 2015* (October 2015). ‘Middle class’ is defined here as having wealth between $50,000 and $500,000. For a different definition, based on income, which arrives at a rather larger global middle class numbering 3.2 billion, see .’Kharas, ‘Unprecedented Expansion

[←1930]

مُعامِل جيني: من المقاييس الأهم والأكثر انتشارًا لقياس عدالة توزيع الدخل القومي، ويتميز بأنه يعطي قياسًا رقميًا لعدالة التوزيع - المترجم.

[←1931]

.’Hellebrandt and Mauro, ‘Future of Worldwide Income Distribution

[←1932]

.’Sala-i-Martin and Pinkovskiy, ‘Parametric Estimations

[←1933]

.’Milanovic and Lakner, ‘Global Income Distribution

[←1934]

مُخطَّط الفيل: سُمِّي بهذا الاسم لأنه يتخذ شكل الفيل، ابتكره لاكنر وميلانوفيتش في كتابهما: «عدم المساواة العالمية: نحو نَهْج جديد لعصر العَوْلَمة» - المترجم.

[←1935]

يُعيّنُ المخطَّطُ متوسطَ نصيب الفرد من دخل الأسرة لكل نسبة مئوية من توزيع الدخل العالمي، ويزعم إيضاح أن المجموعات بين ال 10% و70% نسبة مئوية، مع المجموعات في النسبة المئوية الأخيرة، حققت أوضاعًا أفضل بكثير بين عاميْ 1998 و2008 من المجموعات بين 70% وال 100%. ويُشْبِه الخطُّ فيلاً، بظَهْر مُنْحنٍ ورقبة منخفضة وزلومة منتصبة - المؤلف.

[←1936]

.’Corlett, ‘Examining an Elephant

[←1937]

Rakesh Kochhar, 'Middle Class Fortunes in Western Europe', Pew Research Center, 24 April .2017

[←1938] .’Autor et al., ‘Untangling Trade and Technology

[←1939]

.Dobbs et al., *Poorer Than Their Parents*

[←1940]

’?Chetty et al., ‘Is the United States Still a Land of Opportunity

[←1941]

.’Case and Deaton, ‘Rising Morbidity

[←1942]

.’Case and Deaton, ‘Mortality and Morbidity

[←1943]

عجز الضمان الاجتماعي: تدفع التأمينات الاجتماعية فوائد العجز للفرد ولأفراد معينين من أسرته، إذا عمل لفترة طويلة ولديه حالة طبية منعته من العمل، أو من المتوقع أن تمنعه من العمل - المترجم.

[←1944]

.Nicholas Eberstadt, ‘Our Miserable 21st Century’, *Commentary*, 28 February 2017

[←1945]

.Gagnon and Goyal, ‘Networks, Markets, and Inequality’, 23

[←1946]

.Ibid., 3

[←1947]

.World Bank Group, *Digital Dividends*, 3

[←1948]

.’Paik and Sanchargin, ‘Social Isolation

[←1949]

Keith Hampton, Lauren Sessions, Eun Ja Her, and Lee Rainie, 'Social Isolation and New Technology', *Pew Internet & American Life Project* (November 2009), 1–89: http://www.pewinternet.org/2009/11/04/social-isolation-and-new-technology/.

[←1950]

.Ibid., 70 .

[←1951]

.See in general Murray, *Coming Apart*

[←1952]

إيه تي آند تي: شركة اتصالات أمريكية تأسَّست عام 1983، تعمل في مجال الاتصالات، تقوم بتوفير الخدمات الرقمية التي تحتاجها أجهزة التلفاز والهاتف والإنترنت - المترجم.

[←1953]

فيرايزن: أكبر شبكة اتصالات متنقلة في الولايات المتحدة الأمريكية، تأسَّسَتْ عام 2000 - المترجم.

[←1954]

.Wu, *Master Switch*, 250

[←1955]

.Pew Research Center, ‘Global Publics Embrace Social Networking’, 15 December 2010

[←1956]

مالكوم جلادويل: من مواليد عام 1963، صحفي كندي إنجليزي، ومؤلِّف أربعة كُتُبٍ تَصدَّرَتْ جميعُها قائمةَ نيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعًا - المترجم.

[←1957]

Malcolm Gladwell, 'Small Change: Why the Revolution Will Not Be Tweeted', *New Yorker*, 4 October 2010.

[1958→]

إريك شميت: من مواليد عام 1955، رئيس شركة جوجل ومديرها التنفيذي السابق، وعضو سابق في مجلس إدارة شركة أبل– المترجم.

[←1959]

جارِد كُوين: من مواليد عام 1981، ينتمي إلى أسرة يهودية أمريكية. حصل على ماجستير الفلسفة في العلاقات الدولية من جامعة أكسفورد، ويجيد اللغة العربية بطلاقة. يشغل حاليًا منصب الرئيس التنفيذي لشركة چيجسو Jigsaw (واسمها السابق أفكار جوجل Google Ideas). ضمَّته كوندوليزا رايس لوزارة الخارجية ضمن طاقم تخطيط السياسات كأصغر عضو في تاريخ الحكومة الأمريكية (24 عامًا حينئذٍ). ركَّزَ كوين على مكافحة الإرهاب والتطرف وشؤون الشرق الأوسط وجنوب آسيا والشباب والتكنولوجيا. في عام 2008 أدار كوين خطةً رسمتها وزارةُ الخارجية الأمريكية، سُمِّيَتْ «تحالف الحركات الشبابية»، تُركِّزُ الخطةُ على كيفية استخدام المواقع الإلكترونية الاجتماعية مثل «فيسبوك» بوصفها أداةً لتعزيز التنظيمات والنشاطات الشبابية في الأنظمة القمعية. وحسب نيويورك تايمز، يُعَدُّ كُوين أحدَ المُصَمِّمين الرئيسيين لما عُرِفَ عام 2010 ب«صناعة الدول في القرن الحادي والعشرين» مع ريتشارد بولي وآخرين في وزارة الخارجية الأمريكية.

يوصف كُوين بأنه مهندس الديمقراطية الرقمية والثورات المخملية. كُوين واحد من مئة مُغَيِّر للعبة game changers - المترجم.

[←1960]

.’Schmidt and Cohen, ‘Digital Disruption

[←1961]

احتجاج خاطف أو تجمُّع مفاجئ: مجموعة من الناس تتجمَّع بشكل مفاجئ في مكان ويقومون بأفعال غير اعتيادية لفترة وجيزة ثم يتفرقون، يغلب على أفعالهم الترفيه والتسلية أو نشاط فني. اكتسب هذا النوع من التجمعات مؤخرًا أهدافًا احتجاجية - المترجم.

[←1962]

.Ibid

[←1963]

مولدوفا: دولة أوربية ذات نظام جمهوري، تقع شرق أوربا بين أوكرانيا ورومانيا - المترجم.

[←1964]

Ibid. See also Shirky, 'Political Power of Social Media', 1. On the limits of digital social networks as agents of political change, see Shirky, *Here Comes Everybody* and Tufekci, *Twitter and Tear* *.Gas*

[←1965]

.'Hill, 'Emotions as Infectious Diseases

[←1966]

.Hal Hodson, ‘I Predict a Riot’, *New Scientist*, 2931, 21 August 2013, 22

[←1967]

Debora MacKenzie, ‘Brazil Uprising Points to Rise of Leaderless Networks’, *New Scientist*, 2923, 26 June 2013. See in general Barbera and Jackson, ‘Model of Protests’.

[←1968]

مانويل كاستيلس: من مواليد عام 1942، عالِم اجتماع إسباني ينشغل بالبحث في مجتمع المعلومات والعَوْلَمة - المترجم.

[←1969]

.Ramo, *Seventh Sense*, 105

[←1970]

إستونيا: دولة ذات نظام جمهوري، تقع في منطقة بحر البلطيق شمال أوربا - المترجم.

[←1971]

الديمقراطية الإلكترونية: ظهر المصطلح في منتصف تسعينيات القرن العشرين، ويُقْصَدُ به استعمال تكنولوجيا المعلومات والاتصال، وأبرزها الإنترنت، في تحسين العمل الديمقراطي في بلد ما - المترجم.

[←1972]

Sten Tamkivi, ‘Lessons from the World’s Most Tech-Savvy Government’, *Atlantic*, 24 January .2014

[←1973]

.For the relevance of this insight to other conflicts, see Staniland, *Networks of Rebellion*

[←1974]

.Simcox, *Al-Qaeda’s Global Footprint*

[←1975]

.Zimmerman, *Al-Qaeda Network*

[←1976]

بريزِم: برنامج تجسُّس رقمي مصنَّف بأنه سرِّي للغاية شغَّلته وكالةُ الأمن القومي الأمريكية منذ عام 200َ. يتيح البرنامجُ مراقبة الاتصالات الحية والمعلومات المخَّزنة على شبكة الإنترنت، ويستهدف داخل الولايات المتحدة وخارجها. تمكَّنَتْ وكالةُ الأمن القومي الأمريكية (بمعاونة أجهزة أمنية أخرى) من الدخول المباشر إلى الخوادم الخاصة لمُزَوِّدي الخدمة: مايكروسوفت، ياهو، جوجل، أبل، فيسبوك، يوتيوب، سكايب، وغيرها - المترجم.

[←1977]

.Wu, *Master Switch*, 250

[←1978]

.Glennon, ‘National Security’, 12

[←1979]

جوليان أسانج: أسترالي من مواليد عام 1971، مبرمج كمبيوتر، ومحرِّر موقع ويكليكس. اشتهر منذ عام 2010 عندما نشر الوثائق التي أمدته بها تشلْسي مانِنْج عن ممارسات الجيش الأمريكي في العراق وأفغانستان التي تشمل القتل الجماعي وسجلات حرب أفغانستان وسجلات حرب العراق. أسانج هارب من مذكرة اعتقال بريطانية، وأصدرت السويد مذكرة توقيف دولية ضده. حصل على حق اللجوء من الإكوادور، وبقي في سفارتها في لندن منذ 2012. حصل على الجنسية الإكوادورية في عام 2017 - المترجم.

[←1980]

برادلي مانِنْج أو تشـلْسـي مانِنْج: أمريكية من مواليد عام 1987، عملت محلِّلة اسـتخبارات في القوات البرية الأمريكية بعد التحاقها بوحدة عسـكرية أمريكية بالقرب من بغداد عام 2009. ثم أُدينت بعدة جرائم وفقًا لقانون التجسُّس الأمريكي، بالإضافة إلى جرائم أخرى، بعد تسـريبها أكبر كمّ من الوثائق السرِّية في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية. كُشِفَتْ من خلال اعتراض أحد معارفها لحسابها الشخصي فأبلغ عنها المخابرات الأمريكية. خَفَّفَ الرئيسُ الأمريكي أوباما الأحكام الصادرة ضدها إلى سبع سـنوات فقط من تاريخ اعتقالها في مايو 2010. والآن هي مُفْرَج عنها - المترجم.

[←1981]

إدوارد سنودن: أمريكي من مواليد عام 1983، محترف كمبيوتر وموظف سابق في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ومتعاقد تقني مع وكالة الأمن القومي. سَرَّبَ وثائقَ مُصَنَّفة من وكالة الأمن القومي لجرائد أمريكية وألمانية شهيرة في يونيو 2013. نُظِرَ إليه بوصفه بطلاً وبوصفه منشقًّا خائنًا. أدَّتْ تسريباته إلى إثارة جدل واسع حول المراقبة الجماعية والتوازن بين الأمن القومي وخصوصية المعلومات - المترجم.

[←1982]

مكاتب الاتصالات الحكومية بالمملكة المتحدة: وكالة استخبارات ووكالة أمنية بريطانية تأسَّسَتْ عام 1919 - المترجم.

[897] أوراق البنتاجون: هو الاسم المُعْطَى لدراسة وزارة الدفاع الأمريكية عن التدخُّل السياسي والعسكري في فيتنام من عام 1945 إلى عام 1967. سبق الحديث تفصيلاً عن إلزبيرج - المترجم.

[←1983]

[←1984]

Barton Gellman, 'NSA Broke Privacy Rules Thousands of Times per Year, Audit Finds', *Washington Post*, 15 August 2013.

[←1985]

.https://www.facebook.com/zuck/posts/10101301165605491

[←1986]

فانج: هي الحروف الأولى من كلمات (فيسبوك، أمازون، نيتفليكس، جوجل)؛ وتعني الحروف الإنجليزية الأربعة مجتمعةً: ناب، شوكة، مخلب - المترجم.

[←1987]

Lloyd Grove, ‘Kathleen Sebelius’s Daily Show Disaster: Jon Stewart Slams Obamacare Rules’, .*Daily Beast*, 8 October 2013

[←1988]

هَرَميَّة واشنطن: الإشارة إلى نظام الحُكْم الأمريكي المتسلسل هَرَميًّا - المترجم.

[1989→]

هجوم سان برناردينو بولاية كاليفورنيا: قام سيد رضوان فاروق (28 عامًا) وتاشفين مالك (امرأة 27 عامًا) بإطلاق نار عشوائي على مركز خدمات لذوي الإعاقة العقلية، أدَّى إلى مقتل 14 شخصًا وإصابة 24 شخصًا. والدافع غير معروف - المترجم.

[←1990]

.’Schmidt and Cohen, ‘Digital Disruption

[←1991]

Cecilia Kang, ‘Google, in Post-Obama Era, Aggressively Woos Republicans’, *The New York Times*, 27 January 2017

[←1992]

آيكان: شركة الإنترنت للأرقام والأسماء الممنوحة، أو آيكان، ومقرها كاليفورنيا. تختص بتوزيع وإدارة عناوين آي بي وأسماء المجال وتخصيص أسماء المواقع العليا في جميع أنحاء العالم، كما تقوم بإدارة الموارد الرئيسية للبنية التحتية للشبكة - المترجم.

[←1993]

Gautham Nagesh, ‘ICANN 101: Who Will Oversee the Internet?’ *Wall Street Journal*, 17 March 2014.

[←1994]

’Enders and Su, ‘Rational Terrorists .

[←1995]

Scott Atran and Nafees Hamid, ‘Paris: The War ISIS Wants, *New York Review of Books*, 16 . November 2015

[←1996]

نوري المالكي: عراقي من مواليد عام 1950. معارض عراقي شيعي في زمن رئاسة صدام حسين، وبعد فراره من حُكْم بالإعدام أصبح في الخارج أحدَ كبار قادة حزب الدعوة الإسلامية الشيعي. بعد اجتياح العراق تعاون المالكي مع الولايات المتحدة الأمريكية. تولَّى رئاسة الوزراء العراقية بين عاميْ 2006 و2014، وخلفه في المنصب حيدر العبَّادي من 2014 حتى 2018 - المترجم.

[←1997]

David Ignatius, 'How ISIS Spread in the Middle East: And How to Stop It', *Atlantic*, 29 October 2015.

[←1998]

.Karl Vick, ‘ISIS Militants Declare Islamist “Caliphate” ’, *Time*, 29 June 2014 .

[←1999]

أرمجدون في دابق: تقع مدينة دابق في شمال سوريا على بُعْد أربعين كيلومترًا شمال شرق حلب. وفي التصور الإسلامي لنهاية الزمان، يُعْتَقَدُ أن «دابق» أحدُ موقعين محتملين لمعركة مَلْحمية بين الغزاة المسيحيين والمسلمين المدافعين ستنتهي بانتصار المسلمين وبداية نهاية الزمان. يَعتقد تنظيمُ الدولة الإسلامية أن دابق هي مكان المعركة الملحمية الحاسمة مع قوى مسيحية من الغرب - المترجم.

[←2000]

.Graeme Wood, ‘What ISIS Really Wants’, *Atlantic*, March 2015

[←2001]

العنف التحذيري: استعراضُ عنفٍ حقيقي بغرض التخويف وبثِّ الرعب - المترجم.

[←2002]

Berger and Morgan, ‘ISIS Twitter Census’. See also Joseph Rago, ‘How Algorithms Can Help Beat .Islamic State’, *Wall Street Journal*, 11 March 2017

[←2003]

Craig Whiteside, 'Lighting the Path: The Story of the Islamic State's Media Enterprise', *War on the Rocks*, 12 December 2016.

[←2004]

’Wood, ‘What ISIS Really Wants

[←2005]

UN Security Council, 'In Presidential Statement, Security Council Calls for Redoubling Efforts to . Target Root Causes of Terrorism as Threat Expands, Intensifies', 19 November 2014: www.un.org/press/en/2014/sc11656.doc.htm. See also Spencer Ackerman, 'Foreign Jihadists Flocking to Syria on "Unprecedented Scale" – UN', *Guardian,* 30 October 2014

[←2006]

.’Wood, ‘What ISIS Really Wants .

[←2007]

.Bodine-Baron et al., *Examining ISIS Support*

[←2008]

Fisher, ‘Swarmcast’. See also Ali Fisher, ‘ISIS Strategy and the Twitter Jihadiscape’, CPD Blog, 24 April 2017: http://uscpublicdiplomacy.org/blog/isis-strategy-and-twitter-jihadiscape

[←2009]

.John Bohannon, ‘Women Critical for Online Terrorist Networks’, *Science*, 10 June 2016

[←2010]

.'MacGill, 'Acephalous Groups

[←2011]

Even Obama's critics struggled to offer a coherent response to ISIS. For a conventional military/political counter-terrorism strategy, with no mention on cyberspace, see Habeck et al., *Global Strategy for Combating Al-Qaeda*.

[←2012]

Institute for Economics and Peace, *Global Terrorism Index 2016: Measuring and Understanding the Impact of Terrorism,* 4

[←2013]

.(START, *Patterns of Islamic State-Related Terrorism, 2002–2015* (August 2016 .

[←2014]

.Institute for Economics and Peace, *Global Terrorism Index 2016,* 43

[←2015]

.Byrne, *Black Flag Down*, 18–20

[←2016]

.Stuart, *Islamist Terrorism*

[←2017]

هجمات باريس 2015: سلسلة هجمات إرهابية منسَّقة، شملت عمليات إطلاق نار جماعي وتفجيرات انتحارية واحتجاز رهائن، مساء يوم 13 نوفمبر في باريس، وعلى وجه التحديد في مسرح باتاكلان وشوارع بيشا وأليبار ودي شارون. أعلن تنظيم الدولة الإسلامية أن هذه الهجمات رَدٌّ على التدخُّل العسكري الفرنسي في سوريا. وأعلن فرانسوا هولاند أن الهجمات خُطِّطَ لها في سوريا ونُظِّمَتْ في بلجيكا وجرى تنفيذها على الأراضي الفرنسية بتواطؤ فرنسي - المترجم.

[←2018]

Rukmini Callimachi, Alissa J. Rubin and Laure Fourquet, ‘A View of ISIS’s Evolution in New Details of Paris Attacks’, *The New York Times*, 19 March 2016.

[←2019]

.Ali, *Challenge of Dawa*. See also Sookhdeo, *Dawa*

[←2020]

.Stuart, *Islamist Terrorism: Key Findings*, 2, 9, 11, 18 .

[←2021]

بوليسي إكستشانج: مؤسَّسة فكرية بريطانية، مؤثِّرة في اليمين، مقرُّها لندن، أُنْشِئت عام 2002. وتَلْقَى البحوثُ والدراسات والنقاشات التي تُنتِجُها اعتبارًا لدى الحكومة البريطانية - المترجم.

[←2022]

.Frampton et al., *Unsettled Belonging*

[←2023]

Scott Atran and Nafees Hamid, ‘Paris: The War ISIS Wants, *New York Review of Books*, 16 .November 2015

[←2024]

.’Berger and Morgan, ‘ISIS Twitter Census

[←2025]

John Bohannon, ‘How to Attack the Islamic State Online’, *Science*, 17 June 2016. See also Berger and Perez, ‘The Islamic State’s Diminishing Returns on Twitter’, and Wood, *Way of the Strangers*, 287.

[←2026]

تيريزا ماي: من مواليد عام 1956. سياسية من حزب المحافظين البريطاني. رئيسة وزراء المملكة المتحدة منذ 13 يوليو 2016، خلفًا لديفيد كاميرون. ثاني امرأة تتولّى رئاسة الوزراء في تاريخ بريطانيا بعد مارجرِت تاتشر، وثالث سياسي بريطاني يتولى المنصب دون انتخابات رسمية. صاحبة أطول مدة خدمة بوصفها وزيرة للداخلية في حكومة ديفيد كاميرون، منذ عام 1892 - المترجم.

[←2027]

.http://www.bbc.com/news/uk-34568574

[←2028]

.’Sutton, ‘Myths and Misunderstandings

[←2029]
http://www.telegraph.co.uk/news/uknews/terrorism-in-the-uk/11546683/Islamist-extremists-in-prison-revolving-door-as-numbers-soar.html.

[←2030]

.Pew Research Center, *Future Global Muslim Population*

[←2031]

Laurence and Vaisse, *Integrating Islam*, 40f. See also Khosrokhavar, *L'Islam dans les prisons*. See also Scott Atran and Nafees Hamid, 'Paris: The War ISIS Wants', *New York Review of Books*, 16 .November 2015

[←2032]

.Antoine Krempf, ‘60% des détenus français sont musulmans?’ Replay Radio, 26 January 2015

[←2033]

.Pew Research Center, *World’s Muslims*

[←2034]

For a defence of populism, see Roger Kimball, ‘Populism, X: The Imperative of Freedom’, *New* .(*Criterion* (June 2017

[←2035]

.Deena Shanker, ‘Social Media are Driving Americans Insane’, *Bloomberg*, 23 February 2017

[←2036]

.Deloitte, *No Place Like Phone*

[←2037]

.’Hampton et al., ‘Social Isolation and New Technology

[←2038]

.’Funke et al., ‘Going to Extremes

[←2039]

Inglehart and Norris, ‘Trump, Brexit, and the Rise of Populism’. See also Daniel Drezner, ‘I Attended Three Conferences on Populism in Ten Days’, *Washington Post*, 19 June 2017.

[←2040]

إلياس كانيتي: (1905 - 1994)، روائي وكاتب مسرحي وباحث ألماني. كان يهتم بالسياسة والفلسفة وعلم الاجتماع والعلوم. حصل على جائزة نوبل للآداب عام 1981 - المترجم.

[←2041]

Renee DiResta, ‘Crowds and Technology’, RibbonFarm,15 September 2016: ./http://www.ribbonfarm.com/2016/09/15/crowds-and-technology

[←2042]

.Brinton and Chiang, *Power of Networks*, 207

[←2043]

Mobilising Voters through Social Media in the U.S., Taiwan and Hong Kong', Bauhinia, 15' .
.August 2016

[←2044]

مُنَظِّمٌ اجتماعي: شخص يمارس عملية تنظيم الأفراد المتقاربين في منظمة تعمل من أجل مصلحتهم الشخصية المشتركة، بهدف توليد قوة اجتماعية تستطيع التأثير على صانعي القرار الرئيسيين بمرور الوقت في عدد من القضايا - المترجم.

[←2045]

غرفة الصدى: وَصْفٌ مجازي للحالة التي تُضَخَّمُ فيها المعتقداتُ والآراءُ وتُعَزَّزُ من خلال التواصل والتكرار داخل نظام مغلق، الأمر الذي يزيد من حِدّة الاستقطاب السياسي والاجتماعي والتطرف. وينشأ عن تأثير هذا الصدى والتجانس الحاصل على الإنترنت في وسائل التواصل الاجتماعي ما يُسَمَّى «القبلية الثقافية» cultural tribalism - المترجم.

[←2046]

.Pentland, *Social Physics*, 50f

[←2047]

.’Bond et al., ‘61-Million-Person Experiment

[←2048]

بريكست أو انسحاب المملكة المتحدة من الاتحاد الأوربي: هو هدف العديد من الأشخاص وجماعات الضغط والأحزاب السياسية منذ انضمام المملكة المتحدة للسوق الأوربية المشتركة عام 1973 الذي نتج عنه الاتحاد الأوربي. وفي استفتاء عام 2016 صوَّتَ 52% على مغادرة المملكة المتحدة للاتحاد الأوربي - المترجم.

[←2049]

.Goodhart, *Road to Somewhere*

[←2050]
.Dominic Cummings, ‘How the Brexit Referendum Was Won’, *Spectator*, 9 January 2017

[←2051]

فيكس أو نظام تجميع مقاصد الناخبين»: عبارة عن قاعدة بيانات على الإنترنت استخدمها الناشطون في حملة بريكست لتحديد الأماكن المستهدفة. وكان الفيكس هو الأول من نوعه الذي يتضمن نموذجًا ديموغرافيًا تفاعليًا يستند إلى الشارع الجغرافي ويُوَجِّه الناشطين إلى الشوارع التي تدعم مغادرة الاتحاد الأوربي.

كان عاملاً مهمًا في نجاح التصويت بالمغادرة - المترجم.

[←2052]

الرسالة الفيروسية: المقصود رسالة تنتشر بين مُستخدِمي الإنترنت انتشارًا سريعًا كالفيروس - المترجم.

[←2053]

Dominic Cummings, ‘On the Referendum #20: The Campaign, Physics and Data Science’, 29 October 2016: https://dominiccummings.wordpress.com/2016/10/29/on-the-referendum-20-the-campaign-physics-and-data-science-vote-leaves-voter-intention-collection-system-vics-/now-available-for-all

[←2054]

Carole Cadwalladr, ‘Revealed: How U.S. Billionaire Helped to Back Brexit’, *Guardian*, 25 February 2017. Simon Kuper, ‘Targeting Specific Voters is More Effective and Cheaper than .Speaking to the Public on TV’, *Financial Times*, 14 June 2017

[←2055]

الخوارج: بمعنى الدخلاء على النظام السياسي القائم بأعرافه وتقاليده المتبعة - المترجم.

[←2056]

المفوَّضون الكبار أو المندوبون الكبار في الحزب الديمقراطي هم غير المُنْتخَبين الذين لهم حق دعم أي مرشح رئاسي في مؤتمر الحزب - المترجم.

[←2057]

.Salena Zito, 'Taking Trump Seriously, Not Literally', *Atlantic*, 23 September 2016

[←2058]

.Allen and Parnes, *Shattered*, KL 256–7, 566–9, 599–601, 804–6

[←2059]

.Ibid., KL 2902–4

[←2060]

.Ibid., KL 3261–73, 3281–5, 3291–3301



.’Allcott and Gentzkow, ‘Social Media and Fake News

[←2062]

Shannon Greenwood, Andrew Perrin and Maeve Duggan, 'Social Media Update 2016', Pew Research Center, 11 November 2016. See Mostafa M. El-Bermawy, 'Your Filter Bubble is Destroying Democracy', *Wired*, 18 November 2016.

[←2063]

Maeve Duggan and Aaron Smith, 'The Political Environment on Social Media', Pew Research Center, 25 October 2016.

[←2064]

Mobilising Voters through Social Media in the U.S., Taiwan and Hong Kong', Bauhinia, 15 August .2016

[←2065]

Erin Pettigrew, 'How Facebook Saw Trump Coming When No One Else Did', *Medium*, 9 November 2016.

[←2066]

Pew Research Center, ‘Election Campaign 2016: Campaigns as a Direct Source of News’, 18 .
.July 2016, 15

[←2067]

.https://www.youtube.com/watch?v=vST61W4bGm8

[←2068]

./https://www.wired.com/2016/11/facebook-won-trump-election-not-just-fake-news

[←2069]

Cecilia Kang, ‘Google, in post-Obama Era, Aggressively Woos Republicans’, *The New York Times*, .27 January 2017

[←2070]

Facebook Employees Pushed to Remove Trump's Posts as Hate Speech', *Wall Street Journal*, 21'
.October 2016

[←2071]

Farhad Manjoo, ‘Algorithms with Agendas and the Sway of Facebook’, *The New York Times*, 11 May 2016.

[←2072]

Issie Lapowsky, ‘Here’s How Facebook Actually Won Trump the Presidency’, *Wired*, 15 .November 2016

[←2073]

حركة اليمين البديل: تجمُّعٌ غير مترابط نوعًا ما، وغير محدد نوعًا ما، من الأمريكيين البِيض القائلين بالقومية، والقائلين بالانفصالية، والمُعادين للسامية، والقائلين بالنازية الجديدة، والقائلِين بالفاشية الجديدة، والقائلين بالكونفدرالية الجديدة، والقائلين بإنكار المحرقة/الهولوكوست، ومُنَظِّري المؤامرة، وغيرهم من مجموعات الكراهية اليمينية. وُصِفَتْ معتقداتُ اليمين البديل بأنها انعزالية وتتبنى سياسة الحماية ومُعادية للسامية وتتداخل مع النازية الجديدة، ومُعادية للأجانب والإسلام، ومُناهِضة للنِّسْوية - المترجم.

[←2074]

شبكة بريتبارت: موقع إلكتروني إخباري أمريكي، تأسَّسَ عام 2007. ينتمي إلى حركة اليمين البديل. ينشر العديدَ من نظريات المؤامرة والقصص المضلِّلة عَمْدًا - المترجم.

[←2075]

شيتبوستنج: إغراق منتدى على الإنترنت أو شبكة تواصل اجتماعي إلكترونية بمحتويات عدائية وساخرة، وفي بعض الحالات استهداف تعطيل المناقشات أو جَعْل الموقع غير صالح للزوَّار العاديين - المترجم.

[←2076]

Elizabeth Chan, 'Donald Trump, Pepe the Frog, and White Supremacists: An Explainer', Hillary .for America, 12 September 2016

[←2077]

ذادونالد سوبريديت: موقع يخلق فيه المشاركون مناقشات وميمات تدعم الرئيس الأمريكي دونالد ترامب. أُنْشِئ في يونيو عام 2015 بعد إعلان حملة ترامب الرئاسية. اتهمته وسائل الإعلام بأنه يستضيف نظريات المؤامرة ومعاداة السامية - المترجم.

[←2078]

.Ben Schreckinger, 'World War Meme', *Politico*, March/April 2017

[←2079]

Hannes Grassegger And Mikael Krogerus, ‘The Data That Turned the World Upside Down’, .
.Motherboard, 28 January 2017

[←2080]

Nicholas Confessore and Danny Hakim, ‘Bold Promises Fade to Doubts for a Trump-Linked Data .Firm’, *The New York Times*, 6 March 2017

[←2081]

Issie Lapowsky, ‘The 2016 Election Exposes the Very, Very Dark Side of Tech’, *Wired*, 7 .November 2016

[←2082]

.Zeynep Tufekci, ‘Mark Zuckerberg is in Denial’, *The New York Times*, 15 November 2016

[←2083]

Richard Waters, 'Google Admits Giving Top Spot to Inaccurate Claim on Trump Votes', *Financial Times*, 15 November 2016.



.’Allcott and Gentzkow, ‘Social Media and Fake News

[←2085]
.David Blood, ‘Fake News is Shared as Widely as the Real Thing’, *Financial Times*, 27 March 2017



’?Boxell et al., ‘Is the Internet Causing Political Polarization

[←2087]

فريتس لانج: (1890 - 1976)، مخرج وكاتب سيناريو وممثل ومنتج نمساوي أمريكي. ينتمي إلى المدرسة التعبيرية الألمانية في السينما. لقَّبَه معهدُ الفيلم البريطاني بلقب «سيد الظلام» - المترجم.

[←2088]
الفيلم الصامت «ميتروبوليس»: أشهر أفلام فريتس لانج في مرحلته التعبيرية، وأكثر الأفلام الصامتة تكلفةً في زمنه. أصدره لانج قبيل هجرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية. يُعَدُّ الفيلمَ الأيقونةَ الذي ألهم لاحقًا تأسيسَ النوع السينمائي المعروف ب«فيلم نوار» أو «الفيلم الأسود» film noir. يُصَنَّف فيلم ميتروبوليس حاليًا ضمن فئة أفلام الديستوبيا - المترجم.

[←2089]

شقة بنتهاوس: تكون عادةً في الطابق الأعلى أو الطوابق العلوية من مبنى مكوَّن من شُقق، وأهمُّ ما يميزها إلى جانب ارتفاعها الشاهق كالبُرْج ميزاتُ الترف.

نشأت فكرة الشقق البنتهاوس في عشرينيات القرن العشرين المعروف ب«عقد العشرينيات الصاخب»، وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، عندما وَلَّدَ النموُّ الاقتصادي والثراء الناتج عنه طفرةً في الإنشاءات المعمارية في مدينة نيويورك. ارتفاع شقق البنتهاوس الشاهق يعطيها صفةَ الإطلالة من أعلى كما لو من بُرْج مُرَاقبة – المترجم.

[←2090]
الآباء المؤسِّسون للولايات المتحدة هم أشخاص من المستعمرات البريطانية الثلاث عشرة في أمريكا الشمالية قادوا الثورة الأمريكية ضد الإمبراطورية البريطانية وأسَّسوا الولايات المتحدة. كما يشير التعبير بصورة أضيق إلى مَن وقَّعوا على إعلان الاستقلال الأمريكي أو مَن حضروا الاجتماع الدستوري - المترجم.

[←2091]

تشايمريكا كايمريكا chimerica: مصطلح صاغه نَيال فِرْجُسن وموريتز شولاريك لوصف علاقة التكافل بين الصين والولايات المتحدة (أمريكا)، مع إشارة عَرَضية إلى كائن خرافي يُسَمَّى «تشايمرا» كايميرا chimera. ويشير المصطلح إلى التكافل الاقتصادي مع احتوائه على عناصر سياسية - المترجم

[←2092]

تشايمرا أو كايميرا أو الخَيْمَر: كائن حيٌّ يمتلك تجمُّعين أو أكثر من الخلايا المتميزة جينيًا نشأت في لاقحات مختلفة مرتبطة بالتكاثر الجنسي. ويحتفظ كل تجمُّع من الخلايا بصفته الخاصة. ويكون الحيوانُ الناتج خليطاً من الأنسجة - المترجم.

[←2093]

The original essay on this theme was Niall Ferguson and Moritz Schularick, ‘Chimerical? Think Again’, *Wall Street Journal*, 5 February 2007. We revisited it in ‘ “Chimerica” and the Rule of Central Bankers’, ibid., 27 August 2015. The idea inspired Lucy Kirkwood’s 2013 play of the .same name

[←2094]

فقاعة العقارات: فقاعة اقتصادية تحدث بشكل دوري في سوق العقارات المحلية والعالمية بسبب زيادة سريعة في سعر سوق العقارات يعقبها انخفاضٌ. وتُعَدُّ أخطر من فقاعات سوق الأوراق المالية - المترجم.

[←2095]
الرَّفْع المالي المفرط أو الرافعة المالية: يُشار إليها أحيانًا في المملكة المتحدة وأستراليا ب«الاستثمار». والرافعة المالية هي أيُّ تقنية تتضمن استخدامَ الأموال المقترَضة في شراء أحد الأصول مع توقُّع أن يتجاوز الدخلُ من الأصل بعد الضرائب وتقدير قيمة سعر الأصل القيمةَ المقترَضة. وما يحدث في الواقع أن تكاليف الاقتراض تتجاوز الدخل من الأصل، مما يعني المخاطرة - المترجم.

[←2096]
بنوك الظل أو نظام الظل المَصْرفي: مجموعة وُسطاء ماليين يُسَهِّلون الائتمانَ (الإقراض والاقتراض) عبر النظام المالي العالمي، ولا يخضعون للإشراف التنظيمي كالبنوك الرسمية - المترجم.

[←2097]

تكنولوجيا وحيد القرن: شركة ناشئة خاصة تبلغ قيمتها أكثر من مليار دولار. مصطلح صاغه عام 2013 الرأسمالي المغامر آيلين لي للإشارة إلى النُّدْرة الإحصائية لهذه المشاريع، وهي نُدْرة يمثلها الكائن الأسطوري وحيد القرن. أما الشركة التي يزيد رأسمالها عن 10 مليار دولار فتشير إليها كلمة ديكاكورن decacorn، وأما التي تُقَدَّرُ قيمتها بأكثر من 100 مليار دولار فتُسَمَّى هِكتوكورن hectocorn - المترجم.

[←2098]
قانون القوة في الإحصاء هو علاقة وظيفية بين كمّيتين، بحيث يؤدِّي التغيُّر النسبي في كمية واحدة إلى تغيُّر نسبي في الأخرى - المترجم.

[←2099]

So far as I am aware, this has never been done. Relevant data can be found at http://globe.cid.harvard.edu/.

[←2100]

See for example Barnett (ed.), *Encyclopedia of Social Networks*, vol. I, 297. The optimistic case is .laid out by Slaughter, *The Chessboard and the Web*

[←2101]

المهاتما غاندي: (1869 - 1948)، سياسي هندي وزعيم روحي أثناء حركة استقلال الهند عن بريطانيا. رائد الساتياجراها، أيْ المقاومة اللاعنفية، التي ألهمت الكثيرَ من حركات الحقوق المدنية والحرية في جميع أنحاء العالم. استعمل العصيانَ المدني اللاعنفي حين كان محاميًا مغتربًا في جنوب أفريقيا - المترجم.

[←2102]

تشير الكلمة إلى تغيير كامل في الشكل والهيكل والجوهر - المترجم.

[←2103] النظام الويستفالي: هو مبدأ القانون الدولي القائل بأن لكل دولة سيادة على أراضيها وشؤونها الداخلية. وتعود أصول هذا النظام إلى سلسلة معاهدات «سلام ويستفاليا» التي وُقِّعَتْ بعد مفاوضات طويلة بين شهري مايو وأكتوبر عام 1648 في ويستفاليا، فأنهت الحروبَ الدينية الأوربية التي تَسبَّبت في موت الملايين – المترجم.

[←2104]

.Kissinger, *World Order*, 93f

[←2105]

.Ibid., 371 .

[←2106]

Steven Pinker and Andrew Mack, ‘The World is Not Falling Apart’, *Slate*, 22 December 2014. For a critique of Pinker’s book, *Better Angels*, see Cirillo and Taleb, ‘Statistical Properties’. See for a reply Steven Pinker, ‘Fooled by Belligerence: Comments on Nassim Taleb’s “The Long Peace is a Statistical Illusion” ’: http://stevenpinker.com/files/comments_on_taleb_by_s_pinker.pdf.

[←2107]
وكان هذا التوتر باديًا للعيان في الأزمة المالية عام 2008، عندما كانت البنوك الدولية «منتعشة عالميًا ولكنها ميتة محليًا» (كما لاحظ ببراعة محافظ بنك إنجلترا مِرْفين كِنج Mervyn King) - المؤلف.

[←2108]

.Kissinger, *World Order*, 340, 347, 368

[←2109]

الإشارة إلى مناقشة ثيوسيديديس ل تاريخ الحرب البيلوبوني History of the Peloponnesian War، التي تتناول حربًا في القرن الخامس قبل الميلاد بين الإمبراطورية الأثينية وإسبرطة بوصفها حتميةً بمعنى ما، بسبب «تنامي قوة أثينا وجرس الإنذار الذي دقته عند لاكديمون Lacedaemon [مؤسِّس إسبرطة وفقًا للأساطير اليونانية، والمقصود إسبرطة]» - المؤلف.

[←2110]

.See Allison, *Destined for War*

[←2111]

Jeffrey Goldberg, ‘World Chaos and World Order: Conversations with Henry Kissinger’, *Atlantic*, .10 November 2016

[←2112]

ترول وبوت: الترول متصيِّدٌ إلكتروني يتدخل بهدف زَرْع الخلاف في المناقشة أو تحويل وِجْهتها الأصلية بنشر عناصر وهمية أو وجهات نظر مثيرة بهدف تعطيل جماعة المتناقشين على الإنترنت. أما البوت أو روبوت الإنترنت فهو تطبيق بَرْمجي يعيد نشر العناصر الموجودة في أماكن أخرى، ولذا مهامه بسيطة ومتكرِّرة، ولكن فائدته تكمن في المعدل الأسرع من معدل الشخص بمفرده - المترجم.

[←2113]

قبل وقت قصير من هذه الأزمة، كان لدى قناة بيو دي باي على اليوتيوب أكثر من 50 مليون مشترك. ورغم أنه من مواليد السويد فإن بيو دي باي يعيش في برايتن Brighton [جنوب شرق بريطانيا] مع صديقته الإيطالية، ويشير إلى متابعيه بكلمة «بروس» Bros، التي استعارها من موسيقي الراب الأفريقية الأمريكية.

وينبغي عدم الخلط بينه وبين مَيْلو يانوبولوس Milo Yiannopoulos، مع أن كليهما صَبَغَ شعرَه باللون الأشقر - المؤلف.

[←2114]
كيم جونج يون: من مواليد عام 1983، زعيم كوريا الشمالية منذ عام 2011 خلفًا لوالده - المترجم.

[←2115]

Niall Ferguson, ‘The Lying, Hating Hi-Tech Webs of Zuck and Trump are the New Superpowers’, *Sunday Times*, 19 February 2017.

[←2116]

.See e.g. Snyder, *On Tyranny*

[←2117]

See e.g. (published on the same day) Jennifer Senior, ‘ “Richard Nixon”, Portrait of a Thin-Skinned, Media-Hating President’, *The New York Times*, 29 March 2017; Jennifer Rubin, ‘End the Nunes Charade, and Follow the Russian Money’, *Washington Post*, 29 March 2017.

[←2118]

.’Dittmar, ‘Information Technology and Economic Change

[←2119]

.McKinsey Global Institute, *Playing to Win*, 11

[←2120]

.World Bank, *Digital Dividends*, 95

[←2121]

.Ibid., 207 .

[←2122]

.Ibid., xiii, 6

[←2123]

.Schiedel, *Great Leveler*

[←2124]

.World Bank, *Digital Dividends*, 217

[←2125]

.Alexis C. Madrigal, ‘The Weird Thing About Today’s Internet’, *Atlantic*, 17 May 2017

[←2126]

.Thiel, *Zero to One*

[←2127] الخدمة الخَلَويَّة: شبكةُ اتصالٍ يكون آخرُ رابطٍ فيها لاسلكيًا. وتُوَزَّعُ الشبكةُ على مساحات أرضية تُسَمَّى الخلايا يخدم كلٌّ منها جهازَ إرسال واستقبال ثابت، واحد، على الأقل. ويوجد عادةً ثلاثةُ مواقع للخلايا أو محطات إرسال واستقبال قاعدية، وتُوفِّرُ هذه المحطاتُ الأساسية تغطيةَ الشبكة التي يمكن استخدامها لإرسال الصوت والبيانات وأنواع المحتوى الأخرى. تتميز بأن اجتماع الخلايا يُوفِّر تغطيةً على مساحات جغرافية واسعة - المترجم.

[←2128]

In the developing world, mobile-phone service costs vary from nearly $50 a month in Brazil to single digits in Sri Lanka. The price of Internet for a megabit per second is around 300 times higher in landlocked Chad than in Kenya: World Bank, *Digital Dividends*, 8, 71, 218.

[←2129]

.Ibid., 13

[←2130]
القيمة السُّوقية market capitalization: هي القيمة السوقية لأسهم الشركة القائمة والمتداولة علنًا، وتساوي سعر السهم مضروبًا في عدد الأسهم القائمة - المترجم.

[←2131]
ألفابِت: شركة أمريكية قابضة لشركة جوجل ومجموعة الشركات التابعة لها، أسَّسها عام 2015 لاري بيج وسيرجي برين، ويرأسها لاري بيج - المترجم.

[←2132]
لاري بيج: من مواليد عام 1973، رجل أعمال أمريكي، أسَّسَ مع سيرجي برين شركة جوجل، وحاليًا شركة ألفابِت التي يرأسها - المترجم.

[←2133]
سيرجي برين: من مواليد عام 1973، عالم حاسوب أمريكي روسي الأصل. أسَّسَ مع لاري بيج شركة جوجل، وحاليًا شركة ألفابِت - المترجم.

[←2134]

Charles Kadushin, 'Social Networks and Inequality: How Facebook Contributes to Economic (and Other) Inequality', *Psychology Today*, 7 March 2012: https://www.psychologytoday.com/blog/understanding-social-networks/201203/social-networks-and-inequality.

[←2135]
مُخططّ الهيكل التنظيمي أو organizational chart: رَسْمٌ بياني للتنظيم في الاقتصاد والإدارة يُبيِّنُ أقسامَ الشركة أو المؤسسة والعلاقات الوظيفية بين مختلف الأقسام وتوزيع المسؤوليات - المترجم.

[←2136]
ألفريد سلون: (1875 - 1966)، رجل أعمال أمريكي في صناعة السيارات، خَدَمَ فترةً طويلة بوصفه رئيس مجلس إدارة شركة جنرال موتورز ومديرها التنفيذي - المترجم.

[←2137]
حُكْم الجدارة أو الميريتوقراطية، أو حُكْم الأخيار أو مجتمع الجدارة: نظام إداري وسياسي تُسْنَدُ فيه التكليفات والمسؤوليات على أساس «الاستحقاق» القائم على الذكاء والتعليم عبر اختبارات وأساليب تقييم متنوعة - المترجم.

[←2138] سام ألتمان: من مواليد عام 1985، رائد أعمال أمريكي ومستثمر ومُبرمِج ومُدَوِّن - المترجم

[←2139]

Sam Altman, 'I'm a Silicon Valley Liberal, and I Traveled across the Country to Interview 100 Trump Supporters – Here's What I Learned', *Business Insider*, 23 February 2017: http://www.businessinsider.com/sam-altman-interview-trump-supporters-2017-2.

[←2140]

آي بي أو عنوان بروتوكول الإنترنت: هو المُعَرِّف الرقمي لأي جهاز مرتبط بشبكة معلوماتية تعمل بحزمة بروتوكولات الإنترنت، سواء كانت شبكة محلية أم شبكة الشبكات الإنترنت. ويقابل عنوان آي بي مثلاً في شبكات الهاتف رقم الهاتف - المترجم.

[←2141]

As American as Apple Inc.: Corporate Ownership and the Fight for Tax Reform', Penn Wharton' Public Policy Initiative, Issue Brief 4, 1: https://publicpolicy.wharton.upenn.edu/issue-brief/v4n1.php.

[←2142]
يشير المصطلح إلى «العالَم المسيحي السياسي» بوصفه هيمنة ثقافية غير رسمية تمتعت بها المسيحية في الغرب - المترجم.

[←2143]

الديماجوجي أو الغوغائي: زعيم سياسي في دولة ديمقراطية يخاطب المشاعر والمخاوف والتحيزات الفكرية لدى عموم الناس من أجل الحصول على السلطة والترويج لأفكار سياسية أو دوافع سياسية محددة. يُستعمَلُ هذا الأسلوب غالبًا في فترات الانتخابات مصحوبًا بوعود كاذبة أو غير عملية لكسب التأييد - المترجم

[←2144]
.Sandra Navidi, ‘How Trumpocracy Corrupts Democracy’, Project Syndicate, 21 February 2017

[←2145]

Cecilia Kang, 'Google, in post-Obama Era, Aggressively Woos Republicans', *The New York Times*, 27 January 2017; Jack Nicas and Tim Higgins, 'Silicon Valley Faces Balancing Act between White House Criticism and Engagement', *Wall Street Journal*, 31 January 2017.

[←2146]

Issie Lapowsky, ‘The Women’s March Defines Protest in the Facebook Age’, *Wired*, 21 January .
.2017; Nick Bilton, ‘Will Mark Zuckerberg be Our Next President?’ *Vanity Fair*, 13 January 2017

[←2147]

.World Bank, *Digital Dividends*, 221–7

[←2148]

مثلاً، في سبتمبر عام 2009، نُسِخَ برنامج أوباما كير من قبل مئات الآلاف من مُستخدِمي فيسبوك، وقَدَّمَ بعضُهم (حوالي واحد من كل عشرة) تغييراتٍ طفيفةً في الصياغة: «ينبغي ألا يموت أحدٌ لأنهم لا يستطيعون توفير رعاية صحية، وينبغي ألا يُكْسَرَ أحدٌ بسبب مرضه. إذا وَافَقْتَ فبرجاء نشر هذا بوصفه حالتك لبقية اليوم» - المؤلف.

[←2149]

Lada A. Adamic, Thomas M. Lenton, Eytan Adar and Pauline C. Ng, 'Information Evolution in Social Networks', 22–25 February 2016: https://research.fb.com/wp-content/uploads/2016/11/information_evolution_in_social_networks.pdf.

[←2150]

James Stavridis, ‘The Ghosts of Religious Wars Past are Rattling in Iraq’, *Foreign Policy*, 17 June .2014

[←2151]

.Turchin, *Ages of Discord*

[←2152]

.Maier, *Leviathan 2.0*

[←2153]

Mark Galeotti, ‘The “Trump Dossier,” or How Russia Helped America Break Itself’, *Tablet*, 13 .June 2017

[←2154]
الكلمة مزيج من سيبيريا الروسية والفضاء السايبراني (الإلكتروني) - المترجم.

[←2155]
القيادة الإلكترونية للولايات المتحدة: تابعة لوزارة الدفاع الأمريكية، مهمتها توحيد اتجاه العمليات الإلكترونية. تتعاون مع شبكات الأمن الوطني، ويديرها في الوقت نفسه مديرُ وكالة الأمن القومي منذ إنشائها. كانت مهمتها في البداية دفاعية، ولكنها تُعَدُّ حاليًا قوة هجومية. ارتفعت إلى مستوى قيادة مُحارِبة كاملة ومستقلة في مايو 2018 - المترجم.

[←2156]

Fareed Zakaria, ‘America Must Defend Itself against the Real National Security Menace’, *Washington Post*, 9 March 2017.

[←2157]

.Nye, ‘Deterrence and Dissuasion’, 47

[←2158]

البرمجيات الخبيثة malware: اختصار لكلمتين هما malicious software. والبرمجية الخبيثة يتم تضمينها عمْدًا في الحاسوب لعَرْقلة تشغيله أو جَمْع معلومات أو الوصول إلى أنظمة التشغيل. تُستخدَم البرمجيات الخبيثة، عادةً، ضد الحكومات، أو تَستخدِمُها الحكوماتُ لسرقة المعلومات التجارية أو الشخصية أو المالية. كما تُستخدَم ضد الأفراد لجَمْع معلومات مثل أرقام الهُوِيَّة الشخصية وبطاقات الائتمان وكلمات السرّ. ومنها برامج خبيثة مُعْدِية كالفيروسات والديدان - المترجم.

[←2159]
الطاقة المظلمة أو بلاك إنرجي: برمجية خبيثة زُرِعتْ في أنظمة المعلومات لثلاث شركات توزيع طاقة في أوكرانيا، فتعطلت إمدادات الكهرباء مؤقتًا. وهو ما يُعَدُّ أول هجوم إلكتروني ناجح على شبكة كهرباء - المترجم.

[←2160]

روبرت تابان موريس: من مواليد عام 1965، رائد أعمال وعالم حاسوب أمريكي. اشتهر بصُنْع «دودة موريس»، وحُوكِم بسبب إطلاقها على شبكة الإنترنت، فكان أولَ شخص يُدان بموجب «قانون الاحتيال وإساءة استخدام الحاسوب». انضمّ في وقت لاحق إلى أعضاء هيئة التدريس في قسم الهندسة الكهربائية وعلوم الحاسوب بمعهد ماساتشوستس للتقنية وحصل على التثبيت الوظيفي عام 2006. عمل في وكالة الأمن القومي، وأسهم في تصميم نظاميْ مولتكس ويونكس - المترجم.

[←2161]

.Ramo, *Seventh Sense*, 217f

[←2162]
مافيا بوي: اسمه الحقيقي مايكل كالس، من مواليد عام 1986. أطلق سلسلةَ هجماتِ حرمان من الخدمة في فبراير عام 2000، وهو طالب في المرحلة الثانوية - المترجم.

[←2163]

.Caldarelli and Catanzaro, *Networks*, 95–8, 104f

[←2164]
القرصان التكنولوجي: يقوم باختراقٍ ونشاطٍ في آنٍ معًا، إذ يَستخدم التكنولوجيا في الترويج لأجندة سياسية أو تغيير اجتماعي - المترجم.

[←2165]

Drew Fitzgerald and Robert McMillan, ‘Cyberattack Knocks Out Access to Websites’, *Wall Street Journal*, 21 October 2016; William Turton, ‘Everything We Know about the Cyberattack That Crippled America’s Internet’, Gizmodo, 24 October 2016.

[←2166]

Fred Kaplan, ' "WarGames" and Cybersecurity's Debt to a Hollywood Hack', *The New York Times*, 19 February 2016.

[←2167]

.'Nye, 'Deterrence and Dissuasion

[←2168]

ستوكسنت: دودة حاسوب تصيب نظام الويندوز. ويتفق العديد من الخبراء على أن «ستوكسنت» مُصَمَّمٌ لضرب هدف صناعي محدَّد، بالهجوم على برنامج «سيماتيك وين سي سي» أو ما يُسَمَّى ب«نظام سكادا» SCADA (التحكُّم الإشرافي وجَمْع المعطيات)، وهو البرنامج الذي صمَّمته شركة سيمنز الألمانية لاستخدامات متعددة، منها إدارة المفاعلات النووية. يقوم ستوكسنت، بعد الاختراق، بالتفتيش عن علامة فارقة تتعلق بأنظمة صَمَّمتها شركةُ سيمنز الألمانية، وعند العثور عليها يقوم بتفعيل نفسه ويبدأ في تخريب المنشأة المستهدفة بالعبث في أنظمة التحكم عن طريق إعادة برمجة «وحدات التحكم المنطقي القابلة للبرمجة» PLC وإخفاء التغييرات التي تم تنفيذها. عُثِرَ على ستوكسنت في المنشآت الإيرانية. وتوجد في هذا السياق نظريتان حول المهمة التي قام بها ستوكسنت: الأولى نظرية لانجنر الذي يعتقد أن الهدف هو مفاعل بوشهر النووي بغرض التجسُّس ونقل المعلومات إلى حاسوب مركزي في ماليزيا. والثانية نظرية ريجر الذي يرى أن الهدف هو مفاعل نطنز لتخصيب اليورانيوم، ومهمةُ ستوكسنت وفق هذه النظرية تخريبيةٌ - المترجم.

[←2169]

Ken Dilanian, William M. Arkin and Cynthia Mcfadden, ‘U.S. Govt. Hackers Ready to Hit Back If .Russia Tries to Disrupt Election’, NBC, 4 November 2016

[←2170]

Nathan Hodge, James Marson and Paul Sonne, ‘Behind Russia’s Cyber Strategy’, *Wall Street Journal*, 16 December 2017.

[←2171]

جوتشيفر تو بوينت زيرو: هو الذي اخترق شبكة الكمبيوتر التابعة للحزب الديمقراطي الأمريكي. وَرَدَ اسمُه في لوائح الاتهام في فبراير 2018 بوصفه الشخصيةَ التي شَغَّلتْها الاستخباراتُ العسكرية الروسية - المترجم.

[←2172]

For the most recent WikiLeaks release, see Zeynep Tufekci, 'The Truth about the WikiLeaks .C.I.A. Cache', *The New York Times*, 9 March 2017

[←2173]

[←2174]

Bonnie Berkowitz, Denise Lu and Julie Vitkovskaya, ‘Here’s What We Know So Far about Team Trump’s Ties to Russian Interests’, *Washington Post*, 31 March 2017.

[←2175]

.Nye, ‘Deterrence and Dissuasion’, 44–52, 63–7

[←2176]

Anne-Marie Slaughter, 'How to Succeed in the Networked World', *Foreign Affairs*, .(November/December 2016), 80

[←2177] الناتو: حلف شمال الأطلسي، ويُعْرَفُ اختصارًا ب«الناتو». تأسَّسَ في عام 1949 استنادًا إلى معاهدة شمال الأطلسي المُوقَّعة في واشنطن يوم 4 أبريل من العام نفسه. يتكون من 29 بلدًا عضوًا مستقلاً من جميع أنحاء أمريكا الشمالية وأوربا. وهو منظومة دفاع مشترك ردًّا على أي هجوم من أطراف خارجية - المترجم.

[←2178] .Slaughter, 'How to Succeed', 84f.; Slaughter, *The Chessboard and the Web*, KL 2738

[←2179]

.Slaughter, ‘How to Succeed’, 86

[←2180]

.Slaughter, *The Chessboard and the Web*, KL 2680–84

[←2181]

.Ian Klaus, 'For Cities of the Future, Three Paths to Power', *Atlantic*, 19 March 2017 .

[←2182]

.Ramo, *Seventh Sense*, 182

[←2183]

.Ibid., 233 .

[←2184]

.Ibid., 153. See also Clarke and Eddy, *Warnings*, 283–301 .

[←2185]

نسيم طالب: لبناني أمريكي من مواليد عام 1960، تلقى تعليمه في جامعتيْ باريس وماساتشوستس. دكتوراه العلوم الإدارية، وأكاديمي متعدد المعارف، له إسهام ابتكاري في «المشتقات المالية المعقدة»، وصاحب «نظرية البجعة السوداء» التي يحاول فيها التعامل مع الصدفة والعشوائية واللامعلوم والأحداث النادرة غير المتوقعة بطريقة تُمَكِّننا من العيش في إطارها. وبعد مروره بمجالات معرفية متعددة، يعمل نسيم طالب الآن أستاذًا جامعيًا في هندسة المخاطرة بمعهد البوليتكنيك جامعة نيويورك - المترجم.

[←2186]

.Taleb, *Antifragile*

[←2187]

.Arbesman, *Overcomplicated*

[←2188]

.Caldarelli and Catanzaro, *Networks*, 97

[←2189]
نُذَكِّرُ مرةً أخرى بأن كلمة «فانجFANG » تمثل الحروفَ الأولى من أربع كلمات هي: فيسـبوك F وأمازون A ونيتفليكس Nوجوجل.G وهي الشـركات الأمريكية العاملة في مجال تكنولوجيا المعلومات والإنترنت. وتعني هذه الحروفُ الأولى مجتمعةً معًا: «ناب» و«شـوكة» و«مخلب» - المترجم.

[←2190]

كلمة «بات» BAT تمثل الحروفَ الأولى من كلمات: بايدوBaidu وعلي باباAlibaba وتينسِنتTencent وهي الشركات الصينية العاملة في مجال تكنولوجيا المعلومات والإنترنت التي تُنَاظِرُ في وظائفها الشركات الأمريكية المذكورة في الهامش السابق. وتعني هذه الحروف الأولى مجتمعةً معًا: «خفاش»، «نَبّوت»، «هرواة»، بالإضافة إلى احتوائها على معنى «الضَّرْب» - المترجم.

[2191←]
إيفيت كوبر: بريطانية من مواليد عام 1969، سياسية من حزب العمال البريطاني، وعضوة برلمان المملكة المتحدة، شغلت العديد من الوظائف الحكومية - المترجم.

[←2192]

.Daniel Martin, ‘Shaming of Web Giants’, *Daily Mail*, 15 March 2017

[←2193]

Guy Chazan, ‘Germany Cracks Down on Social Media over Fake News’, *Financial Times*, 14 .March 2017

[←2194]

.(GP Bullhound, *European Unicorns: Survival of the Fittest* (2016

[←2195]

المفوضية الأوربية: ذراع تنفيذي للاتحاد الأوربي، ولها دور تكميلي في المهام التشريعية والتنفيذية، ومسؤولة عن اقتراح القوانين والتشريعات وتطبيق القرارات والمعاهدات الصادرة عن الاتحاد الأوربي، بالإضافة إلى الإدارة اليومية لشؤون الاتحاد. يُعَيِّنُ المجلسُ الأوربي رئيسَ المفوضية بموافقة البرلمان الأوربي.

وتنص المادة 211 من معاهدة روما على ثلاث مهامٍّ رئيسية تقوم بها المفوضية، هي: الإشراف على المعاهدات وتنفيذها في جميع دول الاتحاد الأوربي من الناحية القانونية؛ دور قانوني؛ دور تنفيذي - المترجم.

[←2196]

Adam Satariano and Aoife White, ‘Silicon Valley’s Miserable Euro Trip is Just Getting Started’, *Bloomberg Business Week*, 20 October 2016; Mark Scott, ‘The Stakes are Rising in Google’s Antitrust Fight with Europe’, *The New York Times*, 30 October 2016; Philip Stephens, ‘Europe Rewrites the Rules for Silicon Valley’, *Financial Times*, 3 November 2016.

[←2197]

تذكارات النازي: مواد وعناصر ذات أصل نازي، جمعتها متاحف أو أفراد. ويأتي معظمها ممن خدموا في ظل النازي. تشمل هذه العناصر ميداليات ونياشين، والشعارات النازية، وغيرها من بقايا زمن هتلر - المترجم.

[←2198]

.Goldsmith and Wu, *Who Controls the Internet?*, 5ff

[←2199]

For a different view, see Hafner-Burton and Montgomery, ‘Globalization and the Social Power Politics’.

[←2200]

Bethany Allen-Ebrahimian, ‘The Man Who Nailed Jello to the Wall’, *Foreign Policy*, 29 June .2016

[←2201]

.Spar, *Ruling the Waves*, 381

[←2202]

لو وي: من مواليد عام 1960، سياسي صيني. شغل منصب نائب رئيس قسم الدعاية في الحزب الشيوعي الصيني، ورئيس المكتب العام لـ«المجموعة المركزية الرائدة للشؤون الإلكترونية». صنَّفته مجلة التايم عام 2015 ضمن أكثر مئة شخصية نفوذًا في العالم - المترجم.

[←2203]

المجموعة المركزية الرائدة للشؤون الإلكترونية: أصدرت اللجنةُ المركزية للحزب الشيوعي في الصين قرارًا بإنشائها في نوفمبر عام 2013. ومهمتها إدارة القضايا المتعلقة بالإنترنت. تحولت في مارس عام 2018 إلى لجنة تُسَمَّى لجنة الأمن الإلكتروني والمعلوماتي المركزي - المترجم.

[←2204]

جدار الحماية العظيم: مجموعة إجراءات قانونية وتقنية تفرضها جمهورية الصين الشعبية لتنظيم الوصول إلى شبكة الإنترنت محليًا، وهو جزء من عملية رقابة الإنترنت في الصين الهادفة إلى حجب عدد من مواقع الإنترنت الأجنبية، ومراقبة حركة البيانات من الإنترنت وإليه. وإلى جانب دور جدار الحماية في الرقابة، لعب دورًا في تنشيط حركة التجارة الداخلية عبر الإنترنت من خلال رعاية الشركات المحلية - المترجم.

[←2205]
الدرع الذهبي: مشروع متفرع من جدار الحماية العظيم لمراقبة الإنترنت. تُديره وزارة الأمن العام الصينية، بدأ تشغيله في نوفمبر عام 2003 - المترجم.

[←2206]

المدفع العظيم: نظام هجومي منفصل، ذو تصميم وقدرات مختلفة. تستخدمه الصين لإطلاق هجمات الحرمان من الخدمة، ولديه القدرة على مراقبة حركة مرور الويب، وتوزيع البرمجيات الخبيثة في الهجمات التي يَشُنُّها، بطريقة مماثلة لنظام كوانتم إنسِرْتQuantum Insert الذي تستخدمه وكالة الأمن القومي الأمريكية - المترجم.

[←2207]

سينا ويبو: موقع إلكتروني صيني، تأسَّسَ عام 2009، هجين من فيسبوك وتويتر - المترجم.

[←2208]
نِتْ إيز: شركة صينية، من أكبر مُزَوِّدَات خدمة الإنترنت في الصين، وتُدير موقع ويب - المترجم.

[←2209]

.Guobin Yang, ‘China’s Divided Netizens’, Berggruen Insights, 6, 21 October 2017 .

[←2210]

.’King et al., ‘Randomized Experiment

[←2211]

.Goldsmith and Wu, *Who Controls the Internet?*, 96

[←2212]

Emily Parker, ‘Mark Zuckerberg’s Long March into China’, *Bloomberg*, 18 October 2016; Alyssa Abkowitz, Deepa Seetharaman and Eva Dou, ‘Facebook Is Trying Everything to Re-Enter China—and It’s Not Working’, *Wall Street Journal*, 30 January 2017.

[←2213]

بايدو: مُحَرِّك بحث صيني انطلق يوم 18 يناير عام 2000. مُصَنَّف رقم واحد في الصين والرابع عالميًا من حيث عدد الزيارات. شعار بايدو هو: «بايدو يعرف الصينيين أفضل، أو أفضل من غيره». يُعَدُّ بايدو الردَّ الصيني على جوجل - المترجم.

[←2214]

روبين لي: من مواليد عام 1968، رائد أعمال إنترنت صيني، درس إدارة المعلومات في جامعة بكين، وعلوم الكمبيوتر في جامعة نيويورك. أسَّسَ مع إريك شو محرِّك البحث بايدو. عُيِّنَ في أغسطس 201 رئيسًا مشاركًا لفريق عمل استشاري مستقل يعمل على ثورة البيانات من أجل تنمية مستدامة في الأمم المتحدة - المترجم.

[←2215]
مجموعة علي بابا: شركة قابضة صينية في حوزة القطاع الخاص الصيني، تكسب معظم إيراداتها من النشاط التجاري عبر الإنترنت الذي يشمل مُحرِّك بحث للتسوق وخدمات الحَوْسبة وخدمات الدفع عبر الإنترنت وتجارة الجملة والتجزئة، بالإضافة إلى سوق عام يهدف إلى تسهيل التجارة بين الشركات والأفراد والتجار على الصعيدين الدولي والصيني. أُنْشِئت مجموعةُ علي بابا عام 1999، وتُعَدُّ الردَّ الصيني على أمازون - المترجم.

[←2216]
جاك ما: من مواليد عام 1964، رجل أعمال صيني، ورئيس تنفيذي سابقًا لمجموعة علي بابا. أول رجل أعمال صيني آسيوي يظهر على غلاف مجلة فوربس الأمريكية - المترجم.

[←2217]
تِنْسِنت: شركة صينية متعددة الجنسيات تأسَّستْ عام 1998، متخصصة في الخدمات والمنتجات المرتبطة بالإنترنت والترفيه والذكاء الاصطناعي والتكنولوجيا ووسائل التواصل الاجتماعي في الصين - المترجم.

[←2218]

ما هِواتِنج: من مواليد عام 1971، يُعْرَفُ أيضًا باسم بوني ما Pony Ma، رجل أعمال صيني، مؤسِّس ورئيس تنفيذي لشركة تِنْسِنت، أكبر شركات الاستثمار والتكنولوجيا والإنترنت في آسيا، مُصَنَّف ضمن كبار رجال الأعمال في العالم - المترجم.

[←2219]
رمز الاستجابة السريع كيو آر: اسم العلامة التجارية لنظام مصفوفة الرموز الشريطية ثنائي الأبعاد (الباركود) – المترجم.

[←2220]

Mary Meeker, ‘Internet Trends 2016—Code Conference’, Kleiner Perkins Caufield Byers, 1 June .2016, 170f

[←2221]
الماندارين: اسم يطلق على مجموعة اللغات التي يتحدث بها الصينيون في المناطق الشمالية الغربية والجنوبية الغربية في جمهورية الصين الشعبية - المترجم.

[←2222]
ساحة تيانِنْمِن: من أشـهر السـاحات في بكين العاصمة الصينية. شـهدت مظاهرات طلابية عارمة عام 19، ولكن الأكبر منها مظاهرات عام 1989 التي امتد أثرها إلى سـاحات صينية أخرى التي قمعها النظام الصيني بشـدة - المترجم.

[←2223]

ديدي تشوكسِنج: شركة صينية مقرُّها بكين، تُقدِّم خدمات ركوب سيارات الأجرة والسيارات الخاصة ومشاركة الركوب الجماعي ومشاركة الدراجات وتقديم الطعام للمُستخدِمين في الصين عبر تطبيق الهاتف الذكي. تأسَّست ديدي تشوكسِنج بدعم من شركتي الإنترنت الرئيسيتين في الصين، تِنْسِنت وعلي بابا.

وفي عام 2017، طوَّرت ديدي إصدارًا إنجليزيًا لتطبيقاتها وخدماتها وأطلقته في المكسيك وأستراليا واليابان - المترجم.

[←2224]

.Kirby et al., ‘Uber in China’, 12

[←2225]

William Kirby, ‘The Real Reason Uber is Giving Up in China’, *Harvard Business Review*, 2 August .2016

[←2226]
الأخ الكبير: إشارة إلى شخصية «الأخ الكبير» في رواية جورج أورويل «1984»، سبق الحديث عنها في هامش سابق - المترجم.

[←2227]
المملكة الوسطى: ترجمة تقليدية لكلمة Zhōngguó التي تشير إلى الصين - المترجم.

[←2228]

See e.g. Eric X. Li, 'Party of the Century: How China is Reorganizing for the Future', *Foreign Affairs*, 10 January 2017, and Bell, *China Model*.

[←2229]

.Keller, ‘Networks of Power’, 32; Keller, ‘Moving Beyond Factions’, 22

[←2230]

الجوانسي أو الجوانشي: تُعَبِّرُ الكلمةُ في الثقافة الصينية عن رؤية في العقيدة الكونفوشية، ترى الفردَ جزءًا من المجتمع ومجموعةً من العلاقات الأسرية والهَرَمية والودية، مع التأكيد على الالتزامات الضمنية المتبادلة والمعاملة بالمثل والثقة التي هي أساس شبكات الجوانشي. وهو المفهوم نفسه الساري في المجتمع الصيني الحديث في علاقته بالعصر التكنولوجي الراهن، وكذلك في الحزب الشيوعي الصيني. لذا، آثرتُ التعريبَ بدلاً من ترجمة الكلمة إلى «علاقات حديثة» - المترجم.

[→2231]
تشينج لي: من مواليد عام 1956، أكاديمي صيني متخصِّص في سياسة النُّخْبة الصينية والمجتمع الصيني المعاصر، ويُعَدُّ سلطةً مرجعية بارزة في السياسة الصينية، وبخاصة ديناميات القيادة وتغييرات القادة الصينيين على مرِّ الأجيال - المترجم.

[←2232]
ميشو: تشير الكلمة في سياق الحزب الشيوعي الصيني إلى الأمناء وحاملي الأسرار الذين لا يُقصِّرون في إبداء نصائحهم في الوقت نفسه - المترجم.

[←2233]

.Li, *Chinese Politics*, 332, 347f

[←2234] فرانسيسكا كيلر: من مواليد عام 1981، سياسية ألمانية وعضوة في البرلمان الأوربي - المترجم.

[←2235]

Jessica Batke and Matthias Stepan, ‘Party, State and Individual Leaders: The Who’s Who of .(China’s Leading Small Groups’, Mercator Institute for China Studies (2017

[←2236]

.’Lin and Milhaupt, ‘Bonded to the State .

[←2237]

Chinese Censors' Looser Social Media Grip "May Help Flag Threats" ', *South China Morning*'
.*Post*, 13 February 2017

[←2238]

.Visualizing China’s Anti-Corruption Campaign’, ChinaFile, 21 January 2016‘ .

[←2239]

Big Data, Meet Big Brother: China Invents the Digital Totalitarian State', *Economist*, 17'
.December 2016

[←2240]

الشراكة عبر المحيط الهادي: اتفاق شراكة اقتصادي إستراتيجي متعدِّد الأطراف، يهدف إلى زيادة تحرير اقتصادات منطقة آسيا والمحيط الهادي. وحين تمكنت الدول المُشارِكة من إنهاء مفاوضاتها والتوصل إلى اتفاق شامل في أكتوبر 2015، أعلن ترامب بمجرد تولّيه رئاسة الولايات المتحدة أن بلاده تعتزم الانسحاب من معاهدة الشراكة الاقتصادية العابرة للمحيط الهادي - المترجم.

[←2241] البنك الآسيوي للاستثمار في البنية التحتية: أسَّسته الصين عام 2014 برأس مال 50 مليون دولار أمريكي، ويضم أكثر من 35 دولة مُساهِمة، ليس من بينها الولايات المتحدة الأمريكية التي تخشى أن يُنافِسَ البنكَ الدولي وصندوق النقد الدولي - المترجم.

[←2242]

بيتكوين: عملة إلكترونية تُتَدَاول عبر الإنترنت فقط، دون وجود فيزيائي لها، وتعمل دون مستودع مركزي ودون هيئة تنظيمية مركزية تقف خلفها، وتتم المعاملات بشبكة «الند للند» بين المستخدمين دون وسيط، باستخدام التشفير، فهي عملة مُشَفَّرة، بمعنى أنها تعتمد على مبادئ التشفير في جميع مراحلها. ويتم التحقق من هذه المُعامَلات عن طريق عُقد الشبكة وتسجيلها في دفتر حسابات موَّزع وعام يُسَمَّى «سلسلة الكُتَل». حَدَثَ أولُ تداول لها يوم 3 يناير عام 2009 - المترجم.

[←2243]
إيثريوم: منصة عامة مفتوحة المصدر تعتمد على «سلسلة الكُتَل»، وتقوم بدور «العَقد الذكي» الذي يُسَهِّل إبرام التعاقدات على الإنترنت. بدأ إصدار المنصة وتشغيلها يوم 30 يوليو عام 2015 - المترجم.

[←2244]

.Nick Szabo, ‘Money, Blockchains and Social Scalability’, Unenumerated, 9 February 2017

[←2245]

.Ibid

[←2246]

Haldane, 'A Little More Conversation'. See also Bettina Warburg, How the Blockchain will .Radically Transform the Economy', TED talk, November 2016

[←2247]

BTCC:
أول بورصة بيتكوين في الصين، مقرُّها هونج كونج، تأسَّسَتْ في يونيو عام 2011، معظم عملائها من السوق المحلية. ولديها ما يقرب من 150 موظف في عام 2018 - المترجم.

[←2248]

David McGlauflin, ‘How China’s Plan to Launch Its Own Currency Might Affect Bitcoin’, Cryptocoins News, 25 January 2016; ‘China is Developing Its Own Digital Currency’, Bloomberg News, 23 February 2017. Details of the PBOC plan at http://www.cnfinance.cn/magzi/2016-09/01-24313.html and http://www.cnfinance.cn/magzi/2016-09/01-24314.html.

[←2249]

Deloitte and Monetary Authority of Singapore, 'The Future is Here: Project Ubin: SGD on .'Distributed Ledger' (2017). See in general Bordo and Levin, 'Central Bank Digital Currency

[←2250]

جورج كِنَنْ: (1904 - 2005)، سياسي أمريكي في «قسم الشؤون الخارجية للولايات المتحدة»، ومخطِّط السياسات الخارجية في أواخر أربعينيات القرن العشرين وخمسينياته، ومهندس الحرب الباردة بدعوته إلى احتواء الاتحاد السوفييتي التي نشرها في مجلة الشؤون الخارجية - واشتهرت باسم «مقال المجهول» The X Article أو التلغراف الطويل - تحت عنوان «مصادر التحكم في الاتحاد السوفييتي» - المترجم.

[←2251]

هيو تريفور روبر: (1914 - 2003)، مؤرِّخ بريطاني لبواكير بريطانيا الحديثة وألمانيا النازية. نَشَرَ في عام 1947 كتابَ «أيام هتلر الأخيرة» الذي يُعَدُّ ثمرة مهمته بوصفه ضابط مخابرات بريطانية عام 1945 - المترجم.

[←2252]

.For a suggestive comparison with the Renaissance, see Goldin and Kutarna, *Age of Discovery*

[←2253]

Heylighen and Bollen, ‘World-Wide Web as a Super-Brain’. See also Heylighen, ‘Global Superorganism’.

[←2254]
مايكل دِرْتوزوس: (1936 - 2001)، أكاديمي يوناني، أحد رواد مجالات التكنولوجيا المتنوعة، كان أستاذًا في قسم الهندسة الكهربية وعلوم الكمبيوتر في معهد ماساتشوستس - المترجم.

[←2255]

.Dertouzos, *What Will Be* .

[←2256]

كاترين هيلز: من مواليد عام 1943، ناقدة أدبية أمريكية - المترجم.

[←2257]

.Wright, *Nonzero*, 198

[←2258]

cognisphere:
تعبير يَصِفُ الطرقَ التي من خلالها يتعايش البشر والآلات عبر أنظمةِ تَدَفُّقِ بياناتٍ مُعقدةٍ - المترجم.

[←2259]

.Hayles, ‘Unfinished Work’, 164

[←2260]

.Tomlin, *Cloud Coffee House*, 55

[←2261]

.Ibid., 223

[←2262]

.Spier, *Big History and the Future of Humanity*, 138–83

[←2263]

انفجار كمبري: زمن جيولوجي قديم يعود إلى 542 مليون سنة، ظهرت فيه بشكل مفاجئ مُسْتَحَاثّاتُ أسلاف الحيوانات المألوفة ضمن السجل الأحفوري الأرضي، وهو ما يمثل الحدث التطوري الأهم في تاريخ الحياة على سطح الأرض - المترجم.

[←2264]

.Naughton, *From Gutenberg to Zuckerberg*, 207, 236

[←2265]

.Mark Zuckerberg, ‘Commencement Address at Harvard’, *Harvard Gazette*, May 25, 2017

[←2266] المحرِّك التحليلي: حاسوب ميكانيكي صَمَّمه عالِم الرياضيات الإنجليزي تشارلز بابيج - المترجم.

[←2267]

Gordon, *Rise and Fall of American Growth*. For an optimistic view, see Schwab, *Fourth Industrial Revolution*.

[←2268]

.’Acemoglu and Restrepo, ‘Robots and Jobs

[←2269]

.World Bank, *Digital Dividends*, 23, 131

[←2270]

.’Caplan, ‘Totalitarian Threat

[←2271]

For a historically based prediction of an upsurge in violence in the United States, see Turchin, *Ages of Discord*.

[←2272]

.’Caldara and Iacoviello, ‘Measuring Geopolitical Risk

[←2273] دكتور سترينجلوف، أو كيف تعلَّمتُ ألا أقلق وأحبُّ القنبلة: فيلم سينمائي صدر عام 1964، يستند إلى رواية بيتر جورج «الإنذار الأحمر». يدور الفيلم حول نشوب حرب نووية عَرَضية، يفقد فيها الإنسانُ السيطرةَ على زمام الأمور وعلى التكنولوجيا التي تهيمن على البشر. يُعَدُّ الفيلمُ مثالاً على عبث الحرب النووية وجنون الحمقى الذين يديرونها. يتميز أسلوب المعالجة في الفيلم بالسخرية بما جعله يحقق نجاحًا شعبيًا كبيرًا - المترجم.

[←2274]

.Bostrom, *Superintelligence*. See also Clarke and Eddy, *Warnings*, esp. 199–216

[←2275]
أفن ويليامس: من مواليد عام 1972، رجل ريادة أعمال أمريكي. صافي الثروة: 1.7 مليار دولار في عام 2018 - المترجم.

[←2276]

David Streitfeld, ‘ ‘The Internet Is Broken’: @ev Is Trying to Salvage It’, *New York Times*, 20 May .2017

[←2277]
الأناركية أو اللاسلطوية أو الفوضوية: بغضّ النظر عن تنوُّع الترجمات العربية للمصطلح، الأناركية هي فلسفة سياسية تدعو إلى إقامة مجتمعات ذاتية الحُكْم من خلال مؤسَّسات تطوعية وتعاونية دون تسلسل هَرَمي؛ بمعنى الدعوة إلى مجتمع بلا دولة وبلا مؤسسات الدولة الهَرَميَّة. وداخل الأناركية أو اللاسلطوية توجد مذاهب عديدة، ولكن القاسم المشترك بينها تلك الفلسفة - المترجم.

[←2278]

.Scott, *Two Cheers*

[←2279]

مؤتمر فيينا: انعقد في الفترة من سبتمبر عام 1814 حتى يونيو عام 1815 من أجل تسوية العديد من القضايا الناشئة عن حروب الثورة الفرنسية والحروب النابليونية وتفكُّك الإمبراطورية الرومانية المقدسة (سبق ذكره تفصيلاً في هامش سابق) - المترجم.

[←2280]

شادو بروكِرز أو وُسطاء الظل: مجموعة قَرْصنة ظهرت لأول مرة في صيف عام 2010. نشرت العديدَ من التسريبات التي تحتوي على أدوات قَرْصنة من وكالة الأمن القومي الأمريكية، بما فيها عملية «مآثر يوم الصفر» التي تستهدف جدران الحماية الإلكترونية في بلاد عديدة. ونسبت مجموعةُ شادو بروكرز التسريبات إلى إيكوَشن جروب (مجموعة التوازن) Equation Group التي يقال إنها على اتصال بوحدة عمليات إلكترونية ذات طبيعة خاصة في وكالة الأمن القومي الأمريكي - المترجم.

[←2281] أناركية الإنترنت أو الأناركية الإلكترونية أو إنترنت أناركي: ممارسةُ فلسفةِ الأناركية السياسية عبر الإنترنت من خلال ما يُعْرَفُ بـ«كريبتو أناركيزم» أو «الأناركية المُشَفَّرة»، حيث يَستخدم الأناركيون المُشَفَّرون برنامجًا تشفيريًا للتهرُّب من الاضطهاد والمضايقة أثناء إرسال المعلومات وتلقيها عبر شبكات الكمبيوتر لحماية خصوصيتهم وحريتهم السياسية والاقتصادية. وبسبب برنامج التشفير يصعب التتبع - المترجم.

[←2282]

Niall Ferguson, 'Donald Trump's New World Order', *The American Interest* (March/April 2017), .37–47

[←2283]

سيينا: مدينة في وسط إيطاليا، قريبة من فلورنسا عاصمة إقليم توسكانا. تشتهر سيينا بساحتها «دِلْ كامبو» وبُرْجها «دِلْ مانجيا» المُطل على الساحة.

والمدينة قريبة أيضًا من مدينة بيزا التي فيها بُرْج بيزا المائل - المترجم.

[←2284]

.Steinhof, ‘Urban Images’, 20

[←2285]
سنترال بارك: حديقة كبيرة في مانهاتن بولاية نيويورك، تبلغ مساحتها 3,4 كم - المترجم.

[←2286] https://www.nytimes.com/interactive/2016/12/21/upshot/Mapping-the-Shadows-of-New-York-City.html?_r=1.

[←2287]
فرانك جيري: من مواليد عام 1929. مهندس معماري كندي أمريكي يهودي. أحد أهم المعماريين المعاصرين. أكثرُ تصاميمه شهرةً قاعةُ احتفالات والت ديزني في لوس أنجلوس، ومتحف جوجنهايم بإسبانيا. صار عدد من مبانيه بما فيها منزله الخاص عوامل جذب عالمية - المترجم.

[←2288]

Steven Levy, Inside Apple's Insanely Great (Or Just Insane) New Mothership', *Wired*, 16 May .2017

[←2289]

Facebook: http://mashable.com/2015/03/31/facebook-new-headquarters-photos/#0dtktL9aMgqH; Apple: http://www.fosterandpartners.com/news/archive/2017/02/apple-park-opens-to-employees-in-april/; Google: https://googleblog.blogspot.com/2015/02/rethinking-office-space.html.

[←2290]
الطابِق العلوي عُلِّمَ برقم «68»، لأن الرجل الذي يحمل المبنى اسمَه يُبْقِي على كَوْنه مبنى من 68 طابقًا. ومع ذلك، فالطوابق من السادس إلى الطابق الثالث عشر في برج ترامب Trump Tower لا توجد ببساطة - المؤلف.

[←2291]
سيينا القرن الرابع عشر: يستعمل فِرْجُسن هنا التعبير الآتي «Trecento Siena»، وتشير الكلمة إلى القرن الرابع عشر في التاريخ الثقافي الإيطالي - المترجم.

[←2292]
نَهْجا التنظيم البشري المتجاوران هما: الأفقي المُسَطَّح الشَّبَكي الذي ترمز إليه السَّاحة، والرأسي المرتفع الهَرَمي الذي يرمز إليه البُرْج - المترجم.

[←2293]

Joseph Polzer, ‘Ambrogio Lorenzetti’s “War and Peace” Murals Revisited: Contributions to the Meaning of the “Good Government Allegory” ’, *Artibus et Historiae*, 23, 45 (2002), 64. For background, see Timothy Hyman, *Sienese Painting: The Art of a City-Republic (1278–1477)* (New .(York: Thames & Hudson, 2003

[←2294]

Charles Duan, ' "Internet" or "internet"? The Supreme Court Weighs In', *Motherboard*, 22 June .2017

[←2295]
أمبروجيو لورينزيتي: (1290 - 1348)، رسام إيطالي ينتمي إلى مدرسة سيينا في الرسم - المترجم.

[←2296]

.Polzer, ‘Ambrogio Lorenzetti’s “War and Peace” Murals’, 69

[←2297]

.Ibid., 70 .

[←2298]
برونيتو لاتيني: (1220 - 1294)، كاتب وفيلسوف ومستشار لجمهورية فلورنسا في القرن الثالث عشر. ويُعَدُّ المنظِّر السياسي لفلورنسا، إذ يشرح في أعماله فلسفةً سياسية عَلْمانية تهتم بالخطاب وبلاغته في العمل السياسي - المترجم.

[←2299]
لورينزو جِبيرتي: (1378 - 1455)، فنان إيطالي من بدايات عصر النهضة، اشتهر بأعماله في النحت وتصنيع المعادن - المترجم.

[←2300]

سِنْت برناردينو: (1380 - 1444)، كاهن إيطالي ومُبشِّر فرنسيسكاني. اشتهر بمواعظه الشعبية ضد السحر والقمار ووأد الأطفال واللِّواط (الشذوذ الجنسي) واليهود والرِّبَا. قدَّسته الكنيسة الكاثوليكية باسم «رسول إيطاليا» لجهوده في إحياء العقيدة الكاثوليكية في إيطاليا خلال القرن الخامس عشر - المترجم.

[←2301]

Nirit Ben-Aryeh Debby, 'War and Peace: The Description of Ambrogio Lorenzetti's Frescoes in Saint Bernardino's 1425 Siena Sermons', *Renaissance Studies*, 15, 3 (September 2001), 272–86.

[←2302]

شِفيتاس civitas: مصطلح لاتيني شاع في روما القديمة، ويشير إلى جسم اجتماعي من المواطنين يجمعهم معًا القانونُ الذي يمنحهم مسؤوليات من جهة وحقوق المواطنة من جهة أخرى. وهو ما يجعل من اجتماعهم معًا مجتمعًا مدنيًا يقوم على أساس العقد أو الاتفاق الذي يمثله القانون. ومن هنا، يأتي تصور «دولة مدينة قانونية Legal city - state » - المترجم.

[←2303]

Jack M. Greenstein, 'The Vision of Peace: Meaning and Representation in Ambrogio Lorenzetti's *Salla della Pace* Cityscapes', *Art History*, 11, 4 (December 1988), 504.

[←2304]

The black and white colours of his robe are those of the *Balzana*, Siena's standard; the she-wolf and her suckling twins at his feet allude to Siena's supposedly ancient Roman origin; the inscription on his shield is taken from Siena's official seal: Polzer, 'Ambrogio Lorenzetti's "War .and Peace" Murals', 71

[←2305]

.Ibid., 86

[←2306]

Quentin Skinner, 'Ambrogio Lorenzetti's Buon Governo Frescoes: Two Old Questions, Two New .Answers', *Journal of the Warburg and Courtauld Institutes*, 62 (1999), 1–28

[←2307]

Polzer, 'Ambrogio Lorenzetti's "War and Peace" Murals', 71. See also C. Jean Campbell, 'The City's New Clothes: Ambrogio Lorenzetti and the Poetics of Peace', *Art Bulletin*, 83, 2 (June .2001), 240–58

[←2308]

كوِنتن سكينر: من مواليد عام 1940، مؤرِّخ بريطاني، وأستاذ التاريخ في كمبريدج، من الشخصيات المهمة في تاريخ الفكر السياسي. وحاليًا، مدير مشارك لمركز دراسة تاريخ الفكر السياسي في جامعة كوين ماري، لندن - المترجم.

[←2309]

.Skinner, 'Ambrogio Lorenzetti's Buon Governo Frescoes', 14

[←2310]

.Polzer, ‘Ambrogio Lorenzetti’s “War and Peace” Murals’, 82

[←2311]

.Greenstein, 'The Vision of Peace', 498

[←2312]

.Ibid., 494; Polzer, ‘Ambrogio Lorenzetti’s “War and Peace” Murals’, 70

[←2313]

.’Skinner, ‘Ambrogio Lorenzetti’s Buon Governo Frescoes

[←2314]

Diana Norman, ‘Pisa, Siena, and the Maremma: A Neglected Aspect of Ambrogio Lorenzetti’s .Paintings in the Sala dei Nove’, *Renaissance Studies*, 11, 4 (December 1997), 314

[←2315]

.Norman, ‘Pisa, Siena, and the Maremma’, 320

[←2316]

نيرو، أو نيرون: (37 - 68)، خامس وآخر أباطرة الرومان من العائلة اليوليوكلودية. حَكَمَ الإمبراطورية الرومانية من عام 54 حتى عام 68. تفشَّتْ في عهده الانقلابات والاغتيالات والإعدامات السياسية - المترجم.

[←2317]
كاراكلا: (188 - 217)، إمبراطور روماني حَكَمَ من عام 211 حتى عام 217. قتل أخيه وكلَّ مَن له صلة به كي ينفرد بحكم الإمبراطورية. استولت عليه فكرةُ تقليد الإسكندر المقدوني فغزا الإسكندرية وقتل ما يزيد على عشرين ألف من أهلها بسبب قصيدة هجاء قيلت فيه. اغتاله قائدُ حرسه كي يستولي على الحكم - المترجم.

[←2318]

.Greenstein, 'The Vision of Peace', 503f

[←2319]
توغون تيمور: (1320 - 1370)، إمبراطور منغوليا من أسرة يوان التي أسقطَتْ حُكْمَها أسرةُ مينج في الصين - المترجم.

[←2320]

Roxann Prazniak, ‘Siena on the Silk Roads: Ambrogio Lorenzetti and the Mongol Global Century, .1250–1350’ , *Journal of World History*, 21, 2 (June 2010), 177–217

[←2321]

.Ibid., 180, 185, 188f

[←2322]

.Debby, 'War and Peace', 283

[←2323]

الفهرس العالمي WorldCat: مشروع فهرس موحّد تابع لمركز المكتبة الرقمية على الإنترنت، أُطْلِقَ يوم 21 يناير 1998 - المترجم.

[←2324]
جون ميتشل: (1913 - 1988)، ضابط ومحامي أمريكي وعضو في الحزب الجمهوري. تولَّى منصب نائب عام الولايات المتحدة من عام 1969 حتى عام 1972 في إدارة ريتشارد نيكسون. أحد أقرب أصدقاء نيكسون الشخصيين. حُكِمَ عليه بالسجن عام 1977 بسبب عدة جرائم ارتكبها في فضيحة ووترجيت - المترجم.